# دَولة النِّساء

## معجم ثقافي، اجتماعي، لغوي عن المرأة

تأليف

عبد الرحمن البرقوقي

منشئ مجلة البيان ورئيس قلم المراجعة بمجلس النواب سابقاً

بعناية

بسّام عبد الوهّاب الجابي




دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

# دَولة النِّساء

معجم ثقافي ، اجتماعي ، لغـوي

عــن المـرأة



بسم الله الرحمن الرحيم

# كلمة الناشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لله رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ، وَأَفْضَلُ ٱلصَّلاةِ وَأَفْضَلُ ٱلتَّسْلِيمِ عَلىٰ سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وَعَلىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعينَ . وبعد ،

فَيَقُولُ مُصْطَفىٰ صادِق الرّافِعِيُّ : إِنَّ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ مَا يُحَبُّ إِلىٰ أَنْ يَلْتَحِقَ بِٱلإِيمانِ ، . . . وَمِنَ ٱلْمَرْأَةِ مَا يُكْرَهُ إِلىٰ أَنْ يَلْتَحِقَ بِٱلْكُفْرِ ! . اهـ . « السحاب الأحمر » صفحة ٢٩ .

وَيَقُولُ : يا هَذِهِ ؟ لا أَدْرِي ما تَقولِينَ ، وَلَكِنّ ٱلحَقيقَةَ ٱلّتي أَعْرِفُها أَنَّ نَفَسَ ٱلْمَرْأَةِ إِذا ٱتَّسَخَ كانَ كلامُها فِي حاجَةٍ إِلىٰ أَنْ يُغْسَلَ بِٱلْماءِ وَٱلصَّابُونِ . . . وَهَيْهات .

❊ ❊ ❊

يَقُولُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلبَرْقُوقِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ، مُؤَلِّفُ هَذا ٱلْكِتابِ ، عن نَفَسِه : وأَنا رَجُلٌ أَزْهَرِيُّ النَّشْأَةِ ، أَلِفْتُ ٱلبَحْثَ والتَّقَرِّي والاسْتِقْصاء ، ولا أُفَوِّتُ عَلىٰ نَفْسي شَيْئاً لا أَعْرِفُ وِرْدَهُ من صَدْرِهِ ، ومن أَيْنَ جاءَ وَأَيَّان ذَهَب . اهـ . من مقدمة « شرح ديوان حسان بن ثابت » .

أَنْشَأَ عبد الرحمن البَرْقُوقي مجلة « البيان » ، كانَ يُحَرِّرُها هو ومُحَمَّد أفندي السِّباعي ، وكانَ لمصْطَفىٰ صادق الرَّافِعي مُهِمَّةُ الإشْرافِ الفَنِّي المُباشَرِ عَلَيْها ؛ حَيْثُ كان بَيْنَهُما مصاهَرَةٌ ، فمصطفىٰ صادق الرافعي زَوْجُ أُخْتِ

عبد الرَّحْمن البَرْقُوقي .

وما وَرَدَ في مقدمة « دَوْلةِ النساء » يُغْنِي عن الإفاضَةِ في تَرْجَمَةِ البَرْقُوقي .

**مؤلَّفاته :**

ـ « شرح ديوان المتنبي » في أَرْبعة أجزاء . وقد صَرَّحَ محمد سعيد العريان بِنِسْبَةِ مُقَدَّمَتِه إلىٰ مصطفىٰ صادق الرَّافِعي ، وتغاضىٰ عن يَدِهِ في الشَّرْحِ والمُفْرَدات والفَوَائدِ والتخريجات . . وما يَزالُ مَعْرُوفاً لِعَبْدِ الرَّحْمَن البَرْقُوقي .

ـ « حضارة العرب [ الإسلام ] في الأندلس » ، نُشِرَتْ مَجْموعةُ مَقالاتٍ في مجلة « البيان » .

ـ « شرح ديوان حسان بن ثابت » القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرىٰ ، المطبعة الرَّحْمانية ، ١٣٤٧هـ = ١٩٢٩م . كذلك نَسَبَهُ البَعْضُ لمصطفىٰ صادق الرّافِعي .

ـ « شرح التلخيص في علوم البلاغة » .

ـ « أَسْهَلُ المَسالِك في فقه الإمام مالك » .

ـ « الفِرْدَوْس أَوْ سِياحَةُ في الآخرة » .

ـ « الذَّخائِرُ والعَبْقَرِيَّات » في جُزْئَيْن ، قال المَازِنِيُّ : وهو مخْتَاراتٌ مِمَّا اسْتَجَادَ من أَدَبِ العَرَب .

ـ « دولة النساء معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة » وهو الكتاب الذي بين يديك .

ـ « الإسلام خواطر وسوانح » لهنري دي كاستري ، ترجمة أحمد فتحي

زغلول باشا ، قام بطبعه وتصحيحه عبد الرحمن البرقوقي ، القاهرة ، المكتبة التجارية ، مطبعة السعادة ، بدون تاريخ ، ١٥٤ صفحة .

ـ « سر تقدم الإنكليز السكسونيين » لإدمون ديمولان ، ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا ، ضبطه وشكله وشرح بَعْضَ عباراته عبد الرحمن البَرْقوقي ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرىٰ لصاحبها مصطفىٰ محمد ، المطبعة الرحمانية ، بدون تاريخ ، ٤٩٢ صفحة .

ـ « رسالة الغفران » لأبي العلاء أحمد بن عبد الله المَعَرّي ، قدم له العلّامة محمد محمود بن التلاميد التركزِيّ الشِّنْقِيطيّ ، وكتب كلمةً عن « رسالة الغفران » عبد الرحمن البرقوقي ، وصحَّحَهُ إبراهيمَ اليازِجِيّ ، القاهرة ، طبع علىٰ نفقة أمين هِنْدِيّة في مطبعة هندية ، ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م ، ٢١٣ صفحة .

**« دولة النساء معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة »** :

يقول محمد عاطف البَرْقوقي نَجْلُ مُؤَلِّف الكِتاب : والكتابُ كما يَتَّضِحُ من ٱسْمِهِ ، مؤلَّفٌ يَحْوِي بين دُفَّتَيْه كلَّ ما قِيلَ عن المرأة من أَقْوالِ البُلَغاءِ ، والمُسْتَجَادُ من نَظْمِ الشُّعَراءِ و وما نَطَقَ به الفلاسِفَةُ والحُكَماء ، وما وَرَدَ في القُرْآنِ الكريمِ ، أَوْ سُمِعَ من أحاديثِ الرَّسُولِ العَظِيم .

لَمْ يُكْتَبْ لـ « مُعْجَم النِّساء » الانتشارُ ، وذلك لأنَّ مُؤَلِّفَهُ طَبَعَهُ علىٰ حسابِهِ ، وَتُوفِّي قَبْلَ أَنْ يُتِمَّ طباعَتَهُ ، فها هو وَلَدُهُ محمد عاطف يقول عن وفاة والِـدِهِ : وكـانـت إرادَةُ اللهِ ، ولا رادَّ لقضـائِـه ، إذ تـوفـي فجـأة يـوم ٢ يـونيـو/ حَـزِيـران سنـة ١٩٤٤م وفـي يَـدِه الصَّفَحـاتُ الأُولـىٰ المَطْبـوعَـةُ مـن الكِتابِ . اهـ .

هذا ٱلْكِتابُ ثَمرةُ حُبِّ الاطِّلاعِ ، وَنِتاجُ ٱلْقِراءَةِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلدَّائِمَةِ ، وَخلاصَةُ التَّوَفُّرِ عَلىٰ ٱلدَّرْسِ وَٱلْبَحْثِ ؛ فَقَدْ جَمَعَ ٱلْخَبَرَ ٱلظَّرِيفَ ، وَٱلْكَلِمَةَ الجامِعَةَ ٱللَّطِيفَةَ ، وَالشِّعْرَ الرّائِقَ ، وَٱلقَوْلَ المُسْتَمْلَحَ ، وما شابَهَ ذَلِكَ مما يُسْتَمْلَحُ ويُسْتَظْرَفُ .

وَقَدْ سَبَقَ لي أَنْ طَبَعْتُ كِتابَ « نَشْوة السَّكْران في صَهْباءِ تَذكارِ ٱلْغِزْلان » وهو كتابُ يَنْدَرِجُ في سِلْكِ عَقْدٍ يَضُمُّ ٱلْكُتُبَ ٱلَّتِي أُلِّفَتْ في ٱلْعِشْقِ وَٱلْغرَامِ وَٱلْحُبِّ وَٱلْهُيامِ ، وَكُلُّها لها علاقَةٌ بِالنِّساءِ ؛ مِثْلُ : « طَوْقُ ٱلْحَمَامَةِ في الأُلْفَةِ وَالأُلَّاف » لأبي مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ بن سَعِيد بْنِ حَزْمٍ ٱلظَّاهِرِيِّ (٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م ) ، وَ« مَصارِعُ العُشَّاقِ » لأبي مُحَمَّدٍ جَعْفَر بْنِ أَحْمَدَ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلسَّرَّاج ٱلْقَارِي البَغْدَادِيّ (٤١٧ ـ ٥٠٠هـ = ١٠٢٧ ـ ١١٠٦م ) ، وَ« رَوْضَةُ ٱلْقُلُوبِ وَنُزْهَةُ ٱلْمُحِبِّ وَٱلْمَحْبُوبِ » لِجَلالِ ٱلدِّينِ أبي ٱلنَّجِيبِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ نَصْرِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ العَدَوِيِّ الشَّيْزَرِيّ ( . . . ـ نحو ٥٩٠هـ = . . . ـ نحو ١٠٩٤م ) ، وَ« ذَمُّ ٱلْهَوَىٰ » لأبي الفَرَج عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْن عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ ، ٱبْنِ ٱلْجَوْزِيِّ ٱلْقُرَشِيِّ ٱلبَغْدَادِيِّ (٥٠٨ ـ ٥٩٧هـ = ١١١٤ ـ ١٠٢١م ) ، وَ« مَنَازِلُ الأَحْبابِ وَمَنازِهُ الأَلْبابِ » لِشِهاب ٱلدِّينِ أَبِي ٱلثَّنَاءِ مَحْمُودِ بْنِ سَلْمَانَ بْنِ فَهْدِ بْنِ مَحْمُودِ ٱلْحَنْبَلِيِّ ٱلْحَلَبِيِّ ثُمَّ ٱلدِّمَشْقِيِّ (٦٤٤ ـ ٧٢٥هـ = ١٢٤٧ ـ ١٣٢٥م ) ، وَ« ٱلْوَاضِحُ ٱلْمُبِينُ فِي مَنْ ماتَ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ » لِعلاءِ ٱلدِّينِ أبي عَبْدِ ٱللهِ مُغَلْطاي بن قَلِيج بْنِ عَبْدِ الله البَكْجَرِيِّ المِصْرِيِّ الحُكْرِيِّ الحَنَفِيّ (٦٨٩ ـ ٧٦٢هـ = ١٢٩٠ ـ ١٣٦١م ) ، و« ديوانُ ٱلصَّبَابَةِ » لشهاب الدين أبي العَبَّاسِ أَحْمَدَ بن يَحْيَىٰ بنِ أَبي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَغْرِبِيِّ مَوْلِداً ، ٱلدِّمَشْقِيِّ مَنْشأً ، نَزِيلِ ٱلْقاهِرَةِ ، ٱلشَّهِيرِ بِٱبْنِ أَبي حَجَلَةَ (٧٢٥ ـ

٧٧٦هـ = ١٣٢٥ ـ ١٣٧٥م ) ، و« رَوْضَةُ ٱلْعُشَّاقِ » وَٱلْمُلَقَّبُ : « نُزْهَةُ النَّاظِرِ وَسَلْوَةُ القَلْبِ وَٱلْخَاطِرِ » لأَبي سَعِيدٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْشَّهيرِ بِٱلْعِرَاقِيِّ ، وَ« أَسْوَاقُ ٱلْعُشَّاقِ مِنْ مَصَارِعِ ٱلْعُشَّاقِ » لِبُرْهانِ ٱلدِّينِ أَبي ٱلْحَسَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُمَرَ بْنِ حَسَنٍ ٱلرُّباطِ ٱلشَّهيرِ بِٱلْبِقَاعِيِّ (٨٠٩ ـ ٨٨٥هـ = ١٤٠٦ ـ ١٤٨٠م ) ، وَ« تَزْيِينُ ٱلأَسْواقِ بِتَفْصِيلِ أَشْواقِ ٱلْعُشَّاقِ » لِدَاوُدَ بْنِ عُمَرَ الأَنْطَاكِيِّ ( . . . ـ ١٠٠٨هـ = . . . ـ ١٦٠٠م ) ؛ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الكُتُبِ .

وَامْتَازَ كِتابُ « نَشْوَةِ ٱلسَّكْرَانِ » أَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ فُنُونِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْعِشْقِ وَٱلْجَمَالِ وَوَصْفِ ٱلنِّسَاءِ وَبَيْنَ فُنُونِ الأَعَاجِمِ فِي ذَلِكَ .

وَكَانَ أَهَمُّ مَا وَرَدَ فِيهِ قَصِيدَةَ « مِرْآةِ ٱلْجَمَالِ » لِميرِ غُلام عَلِي آزاد بن السَّيِّد نُوح ٱلْحُسَيْنِيِّ ٱلْواسِطِيِّ ٱلبَلِكرامِيِّ ، ٱلْمُلَقَّبِ بِحَسّانِ ٱلْهِنْدِ (١١١٦ ـ ١١٩٤هـ = ١٧٠٤ ـ ١٧٨٠م ) ، ٱلَّتي وَصَفَ فِيها أَعْضاءَ ٱلْعَشِيقَةِ مِنَ ٱلرَّأْسِ إِلىٰ ٱلْقَدَمِ ، جَعَلَ لِكُلِّ عُضْوٍ بَيْتَيْن ؛ وَلَو كانَ ٱلْبَرْقُوقِيُّ سابِقاً لِصِدِّيق حَسَن خان فِي ٱلزَّمَنِ لأَغْنَاهُ كِتابُ « دَوْلَةِ ٱلنِّسَاءِ » عَنِ ٱلنَّقْلِ عَنْ حَسّانِ ٱلْهِنْدِ ، وَكَانَ سُرَّ بِمَا أَوْرَدَهُ ٱلْبَرْقُوقِيُّ ، حَيْثُ جَمَعَ ٱلْكَثِيرَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلْقِنَّوْجِيِّ فِي « نَشْوَةِ ٱلسَّكْرانِ » .

**هذه الطبعة :**

ٱعْتَمَدْت في إخراج هذه الطبعة علىٰ الطبعة الوحيدة للكتاب ، وَالَّتي طُبِعَتْ لدىٰ مطبعة الاعتماد بمصر ، وكان ناشرها هو مكتبة النهضة المصرية ، عام ١٩٤٥م .

لقد أثبتُّ كل ما في هذه الطبعة من مقدّمات ، وضَبَطْتُ نصَّ الكتاب ، وكذلك أشعاره ، وحاولت إلىٰ حَدٍّ ما الإشارةَ إلىٰ مَخَارِجِها ، كُلُّ ذَلِكَ في

سبيل تيسير تناول الكتاب والاستفادة منه ، لغوياً وأدبياً وطرافةً ومتعةً .

* * *

وَكما مَرَّ سَابِقاً ، فَالْمُؤَلِّف تُوفِّي قبل إتمامِ طِباعَةِ كتابِهِ ، وتابع وَرَثَتُهُ الطباعَةَ مِنَ المسوَّدَاتِ التي تَرَكَها المُؤَلِّف ، فكان في بَعْضِهَا نَقْصٌ ، فحاوَلْتُ إتمامها ، كما في الخَبَرِ ، رقم : ١٤١٩ ، حيثُ قال فقط : قال ٱبْنُ الدُّمَيْنَة .

وكما في الخبر رقم : ١٤٢٠ ، حيث أوْرَدَ الخَبَر مبتوراً ناقصاً ، وشَرَحَ غريبَ الذي لم يُورِدْهُ . وَهَكَذَا .

كَما أَنَّ هُنَاكَ أَشْياءَ يَظُنُّ القارىءُ لها أَنَّها أَوْهَامٌ تَطَرَّقَتْ إلى المُؤَلِّفِ ، مِثْل أَنْ يَقُولَ : تَقَدَّم شَرْحُ ٱلْبَيْتِ [رقم : ٤٤٤] ، وَهُوَ لَمْ يَرِدْ بَعْدُ ؛ فَهَذِهِ أَشْيَاء سَبَبُهَا أَنَّ ٱلْمُؤَلِّفَ تُوفِّيَ وَالكِتَابُ لَمْ يَأْخُذْ صُورَتَهُ ٱلنِّهَائِيَّةَ ؛ وَعَلى كُلِّ حَالٍ فَٱلَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَى إِتْمَامِ طَبْعِ ٱلْكِتَابِ لَهُمُ ٱلْفَضْلُ وَالمِنَّةُ .

وَكَذَلِكَ أَشَرْت إلى نِسْبَةِ ٱلأَشْعَارِ ، إِنْ تَعَدَّدَتْ نِسْبَتُها .

وقد قُمْتُ بتخريج الآيات ، وبالدلالة على مخارج الأحاديث والأخبار ، وبُحورِ الأشعار ، خدمة للقارىء والباحث .

وَكُلّ مَا بَيْنَ مَعْقُوفَيْن [ ] فَهُوَ من زِيادَتِي .

وفي الختام ، أسأل الله تعالىٰ إثابتي علىٰ حسب نيتي ، من توفير المتعة البريئة ، والطرفة الظريفة ، والمواساة اللطيفة ، والعبرة الخفيفة .

ولا أنسى أن أسألَ اللهَ المغفرةَ والرحمة لي ولوَالدي ولِمَنْ له حقٌّ عليَّ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق ١٩/ ٩/ ٢٠٠٣ بسّام عبد الوهّاب الجابي

# هذا الكتاب

أَعْتبرُ هذا الكتابَ يَتيماً ، كالابنِ ٱلذي يَظْهَرُ في الحياة بعد وفاةِ أَبيهِ ، وَكَمْ في التاريخ من عُظماءِ الرِّجالِ مِمَّنْ لَمْ يروا آباءَهُم إطْلاقاً ، وكأنَّ هذا اليُتْمَ المُبَكِّرَ يُحَفِّزُ النَّاسَ على العِنايَةِ بِمِثْلِ هَؤُلاءِ الأَبْناءِ ، وَهَذا الْكِتابُ العَظِيمُ قَدْ فَقَدَ عنايَةَ مُؤَلِّفِه بَعْد إتْمام تَأْلِيفِه ، وَقَبْلَ إتْمامِ طَبْعِه وَظُهُورِه ، ولا غَرْوَ فَقَدْ أَخَذَ مِنْ مَجْهودِ المُؤَلِّفِ وَعُصارَةِ أَفْكارِه وخُلاصَةِ تجارِبِه وَنِتاجِ اطِّلاعِه في سِنِّهِ النَاضِجَةِ بعد إحالَتِه على المعاشِ ما جَعَلَ المَوْتَ يَخْتَطِفُهُ وهو في أَتَمِّ صِحَّتِهِ رَغْمَ تَقَدُّمِ سِنِّه ، واختارَهُ المَوْتُ وهو في أَوْجِ قُوَّتِهِ ، وَلَكِنَّهُ المجْهودُ الَّذي أَفرَغَهُ في تَأْليفِ هذا الكِتابِ هُوَ الَّذِي أَنْهَكَ قُواهُ . وكانَتْ إرادَةُ اللهِ ولا رَادّ لِقَضائِه إذْ تُوفّي فَجْأَةً يوم ٢ يونيو/ حزيران سنة ١٩٤٤م وفي يَدِهِ الصَّفحاتُ الأُولى المطبوعَة من الكتاب .

وهذه الحالُ حَفَزَتْنا للعناية بِإخْراجِ هذا الكِتابِ إلى حَياةِ الأَدبِ ، ولَيْس لَنا فَضْلٌ في ذلك يُذْكَرُ ، فقد قَضَىٰ اللهُ ولَطَفَ ، إذ لم يَتَوَفَّ المؤلِّفَ إلا بَعْدَ إتْمامِ التَّأْليفِ ؛ فما كانَ مِنَّا إلا مُراجَعَةُ المَطْبُوع على الأُصولِ ، والعِنَايَةُ في ذَلِكَ أَيَّما عنايَةٍ حتى نَقُومَ بِبَعْضِ الواجِبِ من الوَفاءِ لِلمُؤَلِّفِ وَلِلْقُرَّاءِ وللبلادِ العربية وَلِلْمَلِيكِ المُفَدَّىٰ فاروق الأول ملك مصر حَفِظَهُ اللهُ وَأَدامَهُ .

والكِتابُ كما يَتَّضِحُ من ٱسْمِهِ ، مُؤَلَّفٌ يَحْوي بين دُفَّتَيْه كُلَّ ما قِيلَ عن المَرْأَةِ من أقوالِ البُلغاءِ ، والمَسْتَجادِ مِنْ نَظْمِ الشُّعراء ، وما نَطَقَ به الفلاسِفَةُ والحُكماء، وما وَرَدَ في القرآنِ الكريم ، أَوْ سُمِعَ من أحاديثِ الرَّسُولِ العَظِيم .

وَقَدْ جَمَعَ فأَوْعَىٰ ، وَلَمْ يَتْرُكْ شارِدَةً ولا وارِدَةً إِلَّا أَحْصاها ، وَجَعَلَها في المَوْضِعِ اللائقِ بها ، وتجد فِيهِ وصْفَ المرأةِ من حَيْثُ مركَزُها وجمالُها وملاحَتُها ، وخُلُقُها وفِتْنَتُها ، بل وَقُبْحُها ودَمامَتُها ، وما جاءَ في خُلُقِهِنَّ من وصْفِ الكَيْدِ والمَكْرِ ، والزَّهْوِ والبُخْلِ ، والحَياءِ والخَفَرِ ، وأحكام الزواج والطلاق ، والغيرة والتَّدَيُّثِ ، وما إلىٰ ذلك من النَّواحي المُخْتَلِفَةِ لِدِراسَةِ المَرْأةِ ، فلا غَرْوَ أن جاءَ بَعْدَ ترتيب أبوابِهِ ، وشَرْحِ الغامِضِ من كلامِهِ ، والمُبْهَمِ من عباراتِه ؛ آيَةً في البلاغَةِ ، ومَرْجِعاً للأُدباءِ والمُتَأَدِّبين ، وَسَلْوَةَ العاشِقَيْن ، والمُسْتَشارَ الأمينَ للرَّاغِبينَ في الزَّواج ، بَلْ مَرْجِعاً لِكُلِّ قارِىءٍ وقارِئَة ، وَإِذا كانَ النَّاسُ رِجالًا ونساءً ، وَبَنِينَ وَبناتٍ ، وَما الحياةُ إِلا تَعاوُنٌ بين الجِنْسَيْنِ ، فلا غَرْوَ إذا كانَ هَذا الكِتابُ لِلْجَمِيعِ ، يَقْرَؤُهُ الرَّجُلُ لِيَعْرِفَ شَرِيكَةَ حَياتِهِ ، وتَقْرَأَهُ المَرْأةُ لِتَعْرِفَ آراءَ شَرِيكِها فِيها ، وَإِذا كانَتِ الحياةُ نَتِيجةَ تَفاهُمٍ ، كانَتْ حياةً سَعِيدَةً لِلْجَمِيعِ .

وَإِنَّني أُقدِّمُ وافِرَ الشُّكْرِ لِحضراتِ الأَساتذة محمود سيد أحمد الشريف مدرِّس أوَّل اللغة العربية بالمدرسة التوفيقية شُكْراً جزيلًا ، والأستاذ عبد الله أبو حامد مدرس اللغة العربية ، والأستاذ إسماعيل محمد حسنين مدرسي اللغة العربية بالمدارس الثَّانَوِيّة على ما قامُوا به من مراجَعَةِ أُصولِهِ ، وضَبْطِ ما لا بُدَّ من ضَبْطِهِ ، وقد كان الأَوَّلُ في كثيرٍ من الأَحْوال يضْطَرُّ إلى الرجوع إلى المراجِعِ الأَصْلِية التي أشار إِلَيْها المؤلِّفُ ، فكانَ مَجْهودُهُ مشْكُوراً ، وهكذا تَمَّ إخراجُ هذا الكتابِ العَظِيمِ إلىٰ الحياةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعينَ .

وَبَعْدُ ؛ فيا أيُّها الوالد العزيز ! ويا أَيُّها المؤلِّفُ النابِغَة القدير ! طِبْ نَفْساً ، وَنَمْ في رَمْسِكَ هادِئاً ، فقد تَمَّ ما أَرَدْتَ مِنْ إِخْراجِ هذا الكِتابِ ، وكَمْ

كانَتْ نَفْسُكَ عاليةً ، وآمالُكَ واسِعَةً ، ولَكِنَّها إرادَةُ اللهِ ، ولا رادَّ لِقضائِهِ ، وَإِنَّ ما أَخْرَجْتَهُ من مُؤَلَّفاتٍ قَيِّمَةٍ لَهِيَ من مفاخِرِنا ، بل مِنْ مفاخِرِ أُسْرَةِ البَرْقُوقي بأَجْمَعِها ، بل من مفاخر مِصْرَ بِأَجْمَعِها ، يُعْجَبُ بها بلادُ العُروبَةِ كُلُّها ، وَلْيُنْزِلْكَ اللهُ منازِلَ المُتَّقِينَ الأَبْرار ، جزاءً ما أَدَّيْتَ للأَدَبِ والعِرْفانِ من خَدَماتٍ .

**محمد عاطف البَرْقوقي**

نَجْلُ المؤلف

وناظر المدرسة التَّوْفِيقِيّة

القاهرة في يونية/ حزيران سنة ١٩٤٥م

# حياةُ المُؤَلِّفِ

# المرحوم الأستاذ عبد الرحمن البَرْقُوقي

**١٢٩٣ ـ ١٣٦٣هـ = ١٨٧٥ ـ ١٩٤٤م**

**نسبه :**

هو عَبْدُ الرَّحمن بنُ عَبْد الرحمن بن سيد أحمد بن سالم البَرْقُوقي .

وكان سالِم البَرْقُوقي ـ رأسُ الأُسْرَةِ البَرْقُوقِيَّةِ ـ معاصِراً لِوالي مِصْرَ مُؤَسِّسِ الأُسْرَةِ العَلَويِّةِ المَلَكِيَّة المغفورِ له مُحمَّد عَلي باشا ، وَكانَتْ جُرْأَتُهُ وشجاعَتُهُ ، مَضْرِبَ الأَمْثالِ حَتَّى أَنَّ الوَالي العَظِيم أُعْجِبَ بِه أَيَّما إِعْجابٍ .

وقد جاءَ ذِكْرُ البَرْقُوقي في كِتابِ الجَبَرْتي جزء ثالث بِصَدَدِ الْكلام عَنْ رَجُلٍ مِنَ الأُسْرَةِ ٱسْمُهُ محمد البَرْقُوقي مِنْ أَنَّهُ كان عالِماً ، وَٱكْتَسَبَ شُهْرَتَهُ بِٱنْتِمائِهِ لِتِلْكَ الأُسْرَةِ .

وَٱخْتَلَفَ المُؤَرِّخُونَ في أَصْلِ البَرْقُوقي ، فَقالوا : إِنَّهُم مِنْ أَصْلٍ تُرْكِيٍّ ، أَوْ مِنْ أَصْلٍ عَرَبيٍّ ؛ وَلَمْ يُرَجِّحوا ناحِيةً على أُخْرَىٰ ، وَعلى كُلٍّ فَهِيَ أُسْرَةٌ مشْهورَةٌ ، نابِهَةُ الذِّكْرِ ، سامِيَةُ المَنْزِلَةِ ، بِبَلْدَةِ مُنْيَة جَناح من أعمال مَرْكز دُسُوق بمدِيريَّة الغَربيَّة ؛ أَنْجَبَتِ الفطاحلَ مَنَ القُضاةِ والمُسْتَشارِين ، وَالأفذاذَ مِن الأطبَّاءِ والمُهَنْدِسين ، والعَباقِرَةَ مِنَ المُحامِين والمُرَبِّين .

وقَدْ أَنْجَبَ الأستاذُ عَبْد الرحمن أَنْجالًا ، هم الأساتذة : بَهِيُّ الدين وعاطِف وعَبْدُ المنعم وكَرِيمَتَيْن .

**حياتُهُ :**

دَرجَ المؤلِّف في كَنَفِ أَبوَيْن عظِيمَيْن ؛ تَلُوحُ عليه مخايِلُ الذَّكاءِ ، وَيَبدُو وله وعْدُ السَّحابة بالرَّوَىٰ : فَٱنْتَظَمَ في عِقْدِ طَلَبَةِ الأَزْهَرِ الشَّرِيفِ مُتَعَطِّشاً لِلْعِلْمِ وَالأَدَبِ ، مُرْتَقِباً أَنْ يَبُلَّ أُوامَهُ ، فَنَهَلَ من يَنابيعِ العالِمِ الثَّبْتِ الشَّيْخ [مُحَمَّدِ محمود بْنِ أحمد بنِ محمد التُّرْكُزِيِّ] الشِّنْقِيطِيِّ [٠٠٠ ـ ١٣٢٢ هـ = ٠٠٠ ـ ١٩٠٤م المَشهُورِ بِٱبْنِ التَّلامِيذِ] ، والعالم الحجة الشَّيْخ [ سَيّد بن علي ] المَرْصِفِي [ . . . ـ ١٣١٧هـ = . . . ـ ١٩٠٠م ] ، وكانَ الأُستاذُ الإِمامُ الشَّيْخُ محمد عَبْدُه [١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م] من الأَئِمَّةِ الَّذِينَ أَثَّرُوا في مَناحِي تَفْكِيرِهِ ، ونَزَعاتِهِ الحُرَّةِ المُتَوَثِّبَةِ ، وَاتِّجاهاتِهِ الطَّامِحَةِ الطَّلِيقَةِ في مَيْدانِ الأَدَبِ والبيانِ .

وَجَدَ فِيه الأَستاذُ الإِمامُ تِلْمِيذاً نابِهاً ، لامِعَ الذِّهْنِ ، مُتَوَهِّجَ التَّفْكِيرِ ، وَأَلْفَىٰ فِيهِ تُرْبَةً خَصْبَةً لِبَذْرِ مَبادِئِه العالِيَةِ ، وَغَرْسِ مُيُولِه الفَيَّاضَةِ بِالخَيْرِ ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَأَدْناهُ إلى مَجْلِسِهِ ، وَسَكَبَ عليه من عِلْمِهِ الفَيَّاحِ أَلْواناً زاهِيَةً ، وَأَضْفَى عَلَيْهِ من أَدَبِهِ اللَّمَّاحِ ضُرُوباً مُشْرِقَةً ، وعَكَفَ يُشَجِّعُهُ وَيَرْسُمُ له المُثُلَ العُلْيا حَتَّى زَكا في نَفْسِ الأُستاذ البَرْقُوقِيّ ذَلِكَ النَّبْتُ وَأَيْنَعَ ، وَنَما في قَلْبِهِ ذَلِكَ الغَرْسُ وَتَرَعْرَعَ ، وَتَفَتَّحَ ذِهْنُهُ عَنْ أَكْمامِ الزَّهْرِ ، وَأَنْتَجَتْ قَرِيحَتُهُ أَبْهَىٰ الثَّمَرِ ، فَٱمْتَصَّ النَّاسُ رَحِيقَ زَهْرِهِ ، وطَعِمَ النَّاسُ خُلاصَةَ ثَمَرِهِ ، وَٱنْكَبَّ ٱلنَّاسُ على نَمِيرِهِ الصّافي يَنْهَلُونَ وَيَعُلُّونَ ، فقد كانَ لَذَّةً للشَّارِبينَ .

**مجلة البَيانِ :**

آثَرَ الأُستاذُ البَرْقُوقيُّ أَنْ يَخُوضَ لُجَّةَ الحياةِ مُزَوَّداً بتعاليم الإمامِ العالِيَةِ ، فَصَحَّ عَزْمُهُ على إصدارِ « مجلة البيان » وكانَ العَدَدُ الأَوَّلُ مُصَدَّراً بكلمةٍ من

الأُستاذِ الإمام إلىٰ تِلْميذِهِ عَبْدِ الرحمن البَرْقُوقي ، وتُعْتَبَرُ البيانُ بِدُونِ شَطَطٍ ولا مُغالاة فَتْحاً جَدِيداً في عالَمِ الصَّحافَةِ ، وَالَّتي كانَتْ مثابَةً لِعُشَّاقِ الأدَب السّامي ، ومَدْرَسةً حَدِيثةً لِلْحانِينَ على الفَنِّ الرَّفِيع ، اسْتَقْبَلتِ الحياةَ رَانِيَةً إلى الأُفُق البَعِيدِ بِعَيْنٍ فِيها الأَمَلُ الدَّافِقُ ، مُسْتَمِدَّةً القُوَّةَ مِنَ اللهِ ومِنْ مُنْشِئِها الَّذِي تَعهَّدَهَا لَدِنَةَ العُودِ ، لَيِّنَةَ الأَعْضاءِ ، وما عَتَمَتْ أَنْ أَصْبَحَت تَزْخَرُ بِفَيْضِ الثَّقافاتِ المُخْتَلِفَةِ ، وتَمُوجُ بِعَبْقَرِيَّاتِ التَّفْكِيرِ المُتَبايِنَةِ ، وَتَتَلاطَمُ بما أَنْتَجَتْهُ عُقولُ أُدباء الغَرْب وَعُصارَةُ أفْكارِ أُدباءِ الشَّرْقِ ، وَأَصْبَحَتْ مَيْداناً رَحِيباً فيه فُسْحةٌ للْكاتِبينَ وَالمُتَأَدِّبين . فلا بِدْعَ أَنِ ٱجْتَذَبَتْ إِلَيْها رجالاتِ الأَدَبِ وَقادَةَ التَّفْكِيرِ في مِصْرَ الَّذينَ تَصْبُو نُفوسُهُم إلىٰ جَوٍّ حُرٍّ خالِصٍ من العُقْمِ والإِسْفافِ ، وَالذين يَترقَّبُونَ في لَهْفَةٍ مُوَجِّهاً الوِجْهَةَ الصَّحِيحَة ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهم إلىٰ التَّفْكِيرِ السَّلِيم ، وَالَّذِينَ يَتطَلَّعُون إلى بِيئَةٍ نَقِيَّةٍ مِنَ الشَّوائِب يَنْطَلِقونَ فِيها شادِينَ صادِحِينَ ، يَسْتَلْهِمُونَ مِنْ عالَمِها الْكِتابَةَ الحَيَّةَ النَّاصِعَةَ ، وَيَسْتَوْحُونَ من وَادِيها الأَدَبَ الصَّافي الجميل .

اسْتَقْبَلتْ مجلَّة البَيانِ الحياةَ سنة ١٩١١م لتَمْلأَ تِلْكَ الثَّغْرَةَ الشَّاغِرَةَ التي عَزَّ على مُنْشِئِها أَنْ يَراها ، فكانَتْ نَواةً صالِحةً لِنَهْضَةٍ فِكْرِيَّةٍ شامِلَةٍ ، وَأساساً مُبارَكاً لِذلِكَ الصَّرْحِ الشَّامِخِ الَّذِي سَمَقَ بُنْيانُهُ في دُنْيا المجلات .

وَأَبَتْ تِلْكَ المُجَلَّةُ الَّتِي ٱسْتَوَتْ على سُوقِها ، وَٱعْتَدَلَتْ على عَرْشِها ، تُؤَدِّي رسالَتِها في غَيْرِ نَقْصٍ ، وَتُزْجي لِلنَّاطِقِينَ بالضَّادِ أَزاهِيرَ مِنْ مُتَعِ العَقْل في غَيْر وَنىً ولا تَقْصيرٍ ، وَتُتْحِفُ العربيَّةَ بِأَكاليلَ مِنْ مَجْدِ الفِكْرِ ، وَتَعْقِدُ على هامَةِ الأَدَبِ أَلْوِيَةً مِنَ البَحْثِ المُسْتَفِيضِ .

وَٱسْتَمَرَّ بها الحالُ وَأَنْهارُها تَفِيضُ بِأَمْواجِها ، وَالنَّاسُ مِنْ جوانبها

يَرْتَشِفونَ رُضابَها ، والأَيّام تتَصَرَّمُ من حَوْلها حتى سنة ١٩٢٣م .

وَلَعَلَّ الدَّهَشَ يَسْتَوْلي عَلَيْكَ ـ سَيِّدي القارِىء ـ بَلْ وَلَعَلَّكَ تَجْزَعُ إِشْفاقاً علىٰ تَوارِي المجلَّةِ القَوِيَّةِ النافِعَةِ وٱحْتِجاب ذَلك السِّراجِ الوهَّاج الَّذِي طالما أَلْقَىٰ الضِّياءَ في طَرِيقِ الظَّامِئينَ إلىٰ الأَدَبِ الرَّفيع ! وَلَكِنْ مَاذا أَقولُ ؟ ماذا أَقولُ في بَحْرٍ يَصْفُقُ آذِيه وَتَصْخَبُ أَمْواجُهُ ثُم يُوسم بالانْحِسار ؟!

إنَّ الفَقِيدَ ـ تَغَمَّدَهُ ٱللهُ بِرَحْمَتِه كَفاءَ صَنِيعِه ـ بَذَلَ عَلَيْها مِنْ ذاتِ نَفْسِه وَيَدِهِ أَكْثَرَ ما يَمْلِكُ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْها لَحِزاً شَحِيحاً ، بَلْ كانَ سَمْحاً جَواداً ، حَتَّى نَضَبَ المَعِينُ أَوْ كادَ ، فَأَمْسَكَ كارِهاً ، وَقَبَضَ يَدَهُ بِرغْمِه ، وَمَنَحَها إِجازَةً راجِياً أَلَّا تكونَ طويلَةَ الأَمَدِ ، وَأَعْطاها ٱسْتِجْماماً مُؤَمِّلاً أَلّا يَكُونَ إِلىٰ الأَبَدِ .

**الفقيد بالبرلمان :**

تَتَبَّعَ المَغْفُورُ لَهُ الخالِدُ الذِّكْرِ سَعْد زغلول باشا بالإعْجابِ والتقدير نشاطَ الفَقِيدِ ، وَعَمَلَه الَّذِي لا يَخْبُو أَوارُهُ ، ولا يَنْطَفِىءُ لَهِيبُهُ ، وَمَجْهودَهُ الذي يَشِبُّ ضِرامُهُ فلا تَهْبِطُ وَقْدَتُهُ ، ولا يَبْرُدُ سَعِيرُهُ ، وَوَطَنِيَّتَهُ الخالِصَةَ النَّقِيَّةَ الخالِيَةَ مِنَ الأَغْرَاضِ الَّتِي لم تُغْرِها وَلَمْ تُحَوِّلْها عَنْ طَرِيقِها شَتَّىٰ العُرُوض والإغْراءات ؛ فأَكْبَرَهُ في نَفْسِهِ ، وَأَحَلَّهُ مِنْ قَلْبِه مَكاناً عَلِيّاً ، وَرَأَىٰ بثاقِبِ فِكْرِه وَنَفاذِ بَصِيرَتِهِ أَنَّ الأُسْتاذَ البَرْقُوقيَّ خَيْرُ هَدِيَّةٍ تُسْدِي إلى ٱلْعَرَبِيَّةِ في البَرْلمان [ المجلس النيابي ] أَجَلَّ خِدْمَةٍ وَأَكْرَمَها ؛ فَعَيَّنَهُ بِمَجْلِسِ الشيوخ سنة ١٩٢٤م ، ثُمَّ نُقِلَ إلىٰ مَجْلِسِ النُّوَّابِ رَئِيساً لِقَلَم المُراجَعَةِ سنة ١٩٣١م ، فَاضْطَلَعَ بِالعِبْءِ في المَجْلِسِين علىٰ خَيْرِ ما يَكُونُ ، وَنَهَضَ بِالحِمْلِ عَلىٰ أَعْظَمِ ما يَنْهَضُ بِهِ رَجُلٌ ، وَما ٱنْفَكَّ يُوالِي عَمَلَهُ في ناحِيَةِ المُراجَعَةِ اللُّغَوِيَّةِ لِمَضابطِ البَرْلمان في دِقَّةٍ وَإِخْلاصٍ ، وَيُعالِجُ ما أُسْنِدَ إِلَيْهِ في مُثابَرَةٍ وَجِدٍّ حَتَّىٰ أُحِيلَ إلى المعاشِ سَنَة ١٩٤٠م .

**أخلاقُهُ :**

الخُلُق الرَّضِيُّ ، وَالنَّفْسُ الصَّافِيَةُ ، وَالشِّيَمُ العالِيَةُ ، وَالمَناقِبُ السَّامِيَةُ ؛ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ مُمَثَّلًا في الفَقِيدِ الأُسْتاذِ عبد الرحمن البَرْقُوقي .

ولعلَّكَ تَلْمَسُ جانِباً مِنْ تِلْكَ الفَضائِلِ السَّمْحَةِ التي تَتَضَوَّأُ صَفْحَتُها عِنْدَما تَعْرِفُ أَنَّهُ كانَ دائِناً لِشَخْصٍ بِمَبْلَغٍ كَبيرٍ مِنَ المالِ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ المَدِين ٱسْتَغَلَّ تلك المُرُوءَةَ النادِرَةَ فماطَلَ وَماطَلَ حَتَّىٰ نَفَدَ صَبْرُ الفَقِيدِ ، وَأُرْغِمَ كارِهاً على شَكاتِهِ أَمامَ القَضاءِ ، فَحُكِمَ علىٰ الرَّجُلِ في غَيْبَتِهِ ـ وَبَيْنَما كانَ الفَقِيدُ سائِراً إِذْ عَثَر فَجأَةً على المَدِينِ ، فكانَ في ذَلِكَ فُرْصَةٌ مُواتِيَةٌ لإِرْسالِهِ إِلىٰ القَضاءِ حَيْثُ يَلْقَىٰ جزاءَ شُرودِهِ وَمُماطَلَتِه ، وَلَكِنَّ الخيرَ الَّذِي ٱسْتَوْلَىٰ على الفَقِيدِ ، وَمَلَكَ عَلَيْهِ أَقْطارَ نَفْسِهِ ، أَوْحَىٰ إِلَيْهِ أَنْ يَقُولَ لِلرَّجُلِ : « أَنا شَكَوْتُكَ ، وَحُكِمَ عَلَيْكَ ، وَالبَحْثُ جارٍ عَنْكَ ، فَٱهْرُبْ ، وَإِنِّي مُسامِحُكَ ؛ لأَنِّي لا أَرْضَىٰ أَنْ يُزَجَّ بِكَ في غَيَاباتِ السِّجْنِ بِسَبَبِي » ثُمَّ ذَهَبَ تَوّاً إِلىٰ دَارِ القَضاءِ ، وَأَعْلَنَ أَنَّهُ تَسَلَّمَ المَبْلَغَ مِنَ الرَّجُلِ المَدِينِ .

وَحدَثَ مَرَّةً أَنْ جاءَ بِرَجُلٍ فَقِيرٍ يَكادُ مِنَ الطَّوَىٰ يَقْتَاتُ بِالنَّسَماتِ ، وَأَغْدَقَ عَلَيْهِ مِن نِعَمِهِ ، وَأَبْعَدَ عَنْه مَسْغَبَتَهُ ، وَأَزَاحَ عَنْ صَدْرِهِ كابوسَ مَتْرَبَتِه ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ إلى الصَّعِيدِ لِيَكُونَ نائِباً عَنْهُ في بَيْعِ « مجلة البَيان » لِقاءَ أَجْرٍ ليس باليَسِيرِ ، وَلَكِنْ ما كادَ الرَّجُلُ يَرَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ المالَ حَتَّىٰ دَبَّتْ في نَفْسِهِ عَقارِبُ السُّوءِ ، وَتَحرَّكَتْ نَزَواتُ الشَّيْطانِ ، فَتَنَكَّرَ لِرَبِّ نِعْمَتِهِ ، وَٱرْتَدَّ ذَلِكَ البُغاثُ إِلىٰ نَسْرٍ لا يَرْعَىٰ الصَّنِيعَ ولا يُقَدِّرُ الإِحْسانَ ، فَأَخَذَ يُوَزِّعُ المَجَلَّةَ أَشْهُراً مُتَطاوِلَةً وَيَأْخُذُ الثَّمَنَ بِدُونَ أَنْ يُرْسِلَ مِنْه أَيَّ شَيْءٍ لِمُقِيمِ أَوَدِهِ وَمُقِيلِ عَثْرَتِهِ ، فَأَرْسَلَ لَهُ الأُستاذُ البَرْقُوقِيّ خِطاباً يَسِيلُ رِقَّةً وَيَقْطُرُ ظَرْفاً وَيَفِيضُ رَجاءً لِيَبْعَثَ بِثَمَنِ المجلاتِ .

وَلَكِنَّ تِلْكَ النَّفْسَ الماكِرَةَ الَّتِي طُبِعَتْ على الشَّرِّ فاضَتْ بِمَكْنُونِها ، فَكَتَبَتْ رَدّاً قاسِياً مَلِيئاً بالمُهاتَرَةِ والحُمْقِ حافِلًا بأَقْذَعِ السِّبابِ وَأَوْجَعِ الشَّتائِم ، فَلَمْ يَرَ الفَقيدُ مَناصاً مِنْ رَفْعِ أَمْرِهِ إلى القَضاءِ لِيُرْغِمَهُ على رَدِّ المبالِغِ العَظِيمَةِ التي جَمَعَها ، وَلِيُعاقِبَهُ على تِلْكَ الرِّسَالَةِ الْمفْعَمَةِ بالإِسْفافِ .

وَعِنْدَما عَرَفَ الرَّجُلُ ما آلَ إِلَيْهِ أَمْرُه جاءَ خائِفاً يَتَرَقَّبُ إلى المَرْحوم الأستاذِ المَنْفَلُوطِي ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ أَنْ يَكُونَ شَفِيعاً لَهُ عِنْدَ ٱلْفَقِيدِ ، وَمَا أَنْ ذَهَبَ ٱلْمَنْفَلُوطِيُّ وَأَرادَ أَنْ يَبْدأَ الرَّجاءَ تَحَرَّكَتْ شَمائِلُ النُّبْلِ في رَأْسِ الفَقِيدِ ، وَغَفَرَ لِلمُسِيءِ إساءَتَهُ بِدُونِ أَنْ يُتْعِبَ الرَّاجِي في إلْحاحٍ أَوْ رَجاءٍ .

أَرَأَيْتَ تِلك النَّفْسَ الكَرِيمَةَ كَيْفَ تَصِلُ إلى القُنَّةِ في السَّماحَةِ وَالصَّفاءِ ؟ .

أَرَأَيْتَ تِلْكَ الشَّخْصِيَّةَ غَيْرَ المُتناهِيَةِ في العَطْفِ الَّتِي تَتَسَنَّمُ الذِّرْوَةَ في التَّسامُحِ وَالإِخاءِ ؟

وَلَكِنَّها نَفْسُ البَرْقوقِيِّ الذي لم يَعْرِفْ في حياتِهِ رَذِيلَةً من الرَّذائِلِ ، لَمْ يعرفِ الدَّسَّ ولا الخُبْثَ وَلا المَلَقَ ولا الرِّياءَ ، وَإِنَّما تَفَجَّرَتْ يَنابِيعُ الفَضائِلِ في قَلْبِهِ ، فَفَاضَ عَنْهُ الْكَرَمُ وَالجُودُ وَحُبُّ الخَيْرِ للنَّاسِ ، فَكَمْ أُسْرَةٍ بائِسَةٍ أَضْناها الزَّمَنُ وَحَطَّمَتْها السُّنُونَ مَدَّ إِلَيْها يَداً رَفِيقَةً خَفِيَّةَ ، فَباعَدَ بَيْنَها وَبَيْنَ العَوَزِ وَالحِرْمانِ ؟!

وَكَمْ طِفْلٍ حَرَمَهُ القَدَرُ اليَدَ الحانِيَةَ ، فكانَ لَهُ نِعْمَ المُعين ؟!

وَكَمْ رَجُلٍ تَنَكَّرَتْ لَهُ الأَيَّامُ ، وتَجَهَّمَتْ لَهُ الدُّنْيا ، فَوَجَدَ عِنْدَ الفَقِيدِ ما يُمْسِكُ رَمَقَهُ وَيُعِينُهُ على تَقَلُّباتِ الدُّهورِ ؟!

إنّ كَرَمَهُ وَعَطْفَهُ ، وَحَدْبَهُ وَحَنانَهُ لأكبَرُ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ أَوْ أَنْ يُحاوِلَ أَنْ يَكْتُبَ عَنْه إِنْسانٌ !!

هَذَا إِلىٰ أَنَّهُ حادَّ الذِّهْنِ ، حاضِرَ البَدِيهَةِ ، مُتَفَطِّناً إِلىٰ الدَّقائِقِ التي لا يَتَفَطَّنُ إِلَيْها كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، مُرْهَفَ الحِسِّ ، تَامَّ الذَّوْقِ ، صَادِقَ العاطِفَةِ ، شَهِيَّ الحَدِيثِ ، خَفِيفَ الرُّوحِ ، شَدِيدَ التَّواضُعِ ، يَمِيلُ إِلى المَرَحِ ، وَلِذَلِكَ كانَتْ مجالِسُه تَفِيضُ أُنساً وَبَهْجَةً ، وتَشِيعُ فِيها الغِبْطَةُ وَالسُّرُورُ .

**مؤلَّفاتُه :**

نَشَأَ الأُستاذُ البَرْقُوقيُّ مَطْبُوعاً على الأَدَبِ ، نَزَّاعاً إِلىٰ العَمَلِ المُنْتِجِ المُفِيد ، فلم تَصْرِفْهُ زَحْمَةُ الحياةِ وَمَشاغِلُ الدُّنْيا عَنِ النِّتاجِ الفِكْرِيِّ المُهَذَّبِ الأَنيقِ ، وَالتَّوالِيفِ البارِعَةِ القَيِّمَةِ الَّتِي تُسْلِكُهُ في غَيْرِ تَزَيُّدٍ ولا سَرَفٍ في عِدادِ الرَّعِيلِ الأَوَّلِ من المُؤَلِّفينَ ، وتَنْظِمُهُ في غَيْرِ عُجْبٍ ولا مَخِيلَةٍ في عِقْدِ الأُلَىٰ الَّذِينَ أَتْحَفُوا العَرَبِيَّةَ بِكَثِيرٍ مِنْ أُمَّهاتِ الكُتُبِ .

وَكانَ شَغَفُهُ بِحُبِّ الاطِّلاعِ نَمُوذَجاً حَيّاً لِلْعَمَلِ المُثْمِرِ ، وَعُكُوفُهُ عَلَى القِراءَةِ الكَثِيرَةِ طِرازاً فَذّاً في الصَّبْرِ وَاللُّغُوبِ ، . وَتَوَفُّرُهُ على الدَّرْسِ وَالبَحْثِ عُنْواناً صَرِيحاً لِفُحولِ الأُدَباءِ .

تَجِدُهُ قارِئاً في كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِ النَّهارِ وَقِسْطٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْرِ يَسِيرٍ . لا يَكِلُّ ولا يَمَلُّ ، وَلا تَفْتُرُ عَزْمَتُه ولا تَضْمَحِلُّ ، بَلْ كُلَّما أَمْعَنَ في القِراءَةِ ٱزْدادَ تَوَثُّباً وَنَشاطاً ، وَتَأَلَّقَ ذِهْنُهُ صَفاءً وَنَقاءً ، تَزورُهُ صَباحاً وَتَغْشَىٰ مَجْلِسَهُ مَساءً فلا تَجِدُ إِلَّا جَمْهَرَةً مِنَ الْكُتُبِ تُحِيطُ بِهِ ، وَبَحْراً صَاخِباً مِنَ المُؤَلَّفاتِ تَغْمُرُهُ ، وَإِلَّا عَيْناً يَقْظَىٰ لا تكادُ تَرْتَفِعُ عَنْ أَسْطُرٍ مِنْ كِتابٍ ، حَتَّىٰ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ أُحِيلَ إِلىٰ المَعاشِ ٱسْتَمَرَّ في دُؤوبِهِ ، وَرَأَىٰ الفُرْصَةَ مُواتِيَةً وَالظَّرْفَ سانِحاً لإِرضاءِ هِوَايَتِه كامِلَةً وَإِشْباعِ مُيولِهِ في القِراءَةِ وَمُواصلَةِ التَّأْلِيفِ .

فَهَلْ مِنَ البِدَعِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَراهُ وافِرَ النِّتاجِ ، تارِكاً لنا ذلك التُّراث الأدبي

الخالد من تآليفِه ؟ .

وَهَلْ مِنَ الغَرابَةِ أَنْ نَجِدَ لَهُ تِلْكَ الثَّرْوَةَ العِلْمِيَّةَ الصَّالِحةَ مِنْ فَنِّه العَظِيمِ ؟

إِنَّهُ خَلَّفَ وَراءَهُ مَجْداً أَدبيّاً عِلْمِيّاً يُسَجِّلُ لَهُ أَنْصَعَ الصَّفحاتِ في سِفْرِ الخالِدِينَ !

أَقَرَأْتَ لَهُ « شَرْحَ ديوان المُتَنَبِّي » في أَرْبَعَةِ أجزاء ، ذلك الشَّرْحُ الذي طالما تَغَنَّى به المُتَأَدِّبون ، وَشَدا بِهِ المَغْنِيُّونَ بِبُلْبُلِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الصَّدَّاحِ ؟

وَهَلْ أَسْعَفَتْكَ الأَيَّامُ فقَرَأْتَ لَهُ « حضارَة العَرَبِ في الأَنْدَلُس » ، أَوْ « شرح ديوان حسان بن ثابت » ، أَوْ « شرح التلخيص في علوم البلاغة » ، أو « أسهل المسالك في فقه الإمام مالك » ، أو « الفردوس أو سياحة في الآخرة » الذي يُعْتَبَرُ بِحَقٍّ فَرِيداً في نَوْعِهِ ، عَظِيماً في بابِهِ ، يَتَرَسَّمُ خُطا المَعَرِّي في « رسالة الغُفْرانِ » ودانْتِي في « الكوميديا المُقَدَّسة » وَإِنْ كانا يَصِفانِ الجَحيم ، وهُوَ يَجُولُ في الفِرْدَوْسِ المُقِيمِ ؟

وَهَلْ قَرَأْتَ لَهُ « الذَّخائِر والعَبْقَرِيّات » في جُزْأَيْن ، ذَلِكَ المُؤَلَّفُ الَّذِي جاءَ كالدُّرَّةِ الفَرِيدَةِ ، تَفْصِلُ بَيْنَ ذَهَبِ القِلادَةِ وَالَّذِي تَرىٰ فِيهِ الطِّمَّ وَالرِّمَّ مِمّا يَنْقَعُ غُلَّتَكَ وَيَغْمُرُكَ في سِبْطٍ مِنَ البَحْثِ عَظِيمٍ .

هَلْ قَرَأْتَ لَهُ كُلَّ هَذِهِ الكُتُبِ ؟ وَهَلْ تَعْتَرِفُ إِذاً بِأَنَّها ثَرْوَةٌ أَدبِيَّةٌ لا تُقَوَّمُ بِمالٍ ؟ وَهَلْ تُؤْمِنُ بِأَنَّها تُراثٌ خالِدٌ يُبْقي لِصاحِبه حُسْنَ الأُحْدُوثَةِ وَجَمِيلَ الذِّكْرِ ، وَيَنْفَعُهُ في رَمْسِهِ ، وَيُضاعِفُ لَهُ عِنْدَ رَبِّه جَزِيلَ الأَجْرِ ؟

فَإِذا ضَمَمْتَ إِلىٰ كُلِّ هَذِهِ اللآلئ في سِمْطِها دُرَّتَهُ الجديدَةَ « دَوْلَةَ النِّساءِ » تَبَدَّىٰ لَكَ العِقْدُ كامِلًا ، وَبرَزَ لَكَ السِّلْكُ شَامِلًا ، عِنْدَ ذَلِكَ تَقْنَعُ بِهَذِهِ الجَواهِرِ ، وَتَسْكُنْ إِلىٰ هَذِهِ المَفاخِرِ .

**وفاتُهُ :**

وما كادَ المُؤَلِّفُ يَنْتَهِي مِنْ عَمَلِهِ الضَّخْمِ في إِتْمامِ « دَوْلة النِّساءِ » وما كادَ يَبْدَأُ في الإشْرافِ على طَبْعِ الصَّفْحاتِ الأُولَىٰ مِنْه ، وإذا بالفَلَكِ يَدُورُ دَوْرَتَهُ ، وَتَبْدَأُ نَوامِيسُ الحَياةِ وَالمَوْتِ تَلْعَبُ دَوْرَها ، وَإِذا بِالْقُوَّةِ المُوَجِّهَةِ لِهَذِهِ المَوْسُوعَةِ الأَدَبِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ تَتَوارَىٰ فَجأَةً ، وَالحَرَكَةِ الدَّائِبَةِ التي تَنْفُثُ رُوحَ النَّشاطِ في هذا السِّفْر الخُلُقي الدِّينيّ لِتَمُدَّ دَفْعَةً واحِدَةً ، فَيَدْلُفُ إِلَيْهِ المَوْتُ ، وَيَتَخَطَّفُهُ أَعْظَمَ ما يَكونُ صِحَّةً وَأَشَدَّ مَا يكونُ نَشاطاً ، وَذٰلِكَ في مساءِ اليَوْمِ الأَوَّل من شَهْر يونيه/ حَزِيران سنة ١٩٤٤م .

فكانَ فَقْدُهُ فَجِيعَةً للأَدَبِ ، وكارِثَةً للنَّاطِقِينَ بالضَّادِ ، حَتَّىٰ رَثاهُ رِجالُ الفِكْرِ وَعَزُّوا فِيه دَوْلَةَ البَيانِ في كُبْرَياتِ الصُّحُفِ وَالمَجلاتِ .

وَقَدْ وَاصَلَ أَبْناؤُه ـ وهم غَرْسُه ونَبْتُهُ ـ رِعايَةَ هذا الكِتابِ ، وَرَأَوْا في ذَلِكَ تَأْدِيَةً لِبَعْضِ الدَّيْنِ عَلَيْهِم نَحْوَ أَبِيهِمْ وبَعْضِ الوَاجِبِ عَلَيْهِم نَحْو لُغَةِ القرآنِ الْكَرِيمِ، حَتَّىٰ أَخْرَجُوهُ إِلىٰ عَالَمِ الوُجودِ، يُعْلِنُ لِلنَّاسِ ، بِجانِبِ أُخْوَةٍ لَهُ من قَبْلُ، ما كانَ يُرِيكَ الفقيدُ للعَرَبِيَّةِ من إظهارِ دُرَرِها وَإِذاعَةِ نَفائِسِها وَإِبْرازِ مَجْدِها ، وَتَحْقِيقِ الأَغْراضِ السَّامِيَةِ وَالمُثُلِ العُلْيَا التي كان يَتَوَخَّاها الفَقِيدُ وَيُلاقي في سَبِيلِها مِنْ تَعَبٍ وَعَناءٍ خِدْمةً للبلادِ وَلِلْعُروبَةِ وَلِجلالة مولانا المَلِك الفاروق .

وَبَعْدُ ؛ فَلْيَرْحَمِ اللهُ ذَلِكَ الفَقِيد الَّذِي يُعَدُّ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْ أَرْكانِ النَّهْضَةِ الحدِيثَةِ في الأَدَبِ وَالبيانِ ، وَلْيُنْزِلْهُ مَنَازِلَ صِدْقٍ مَعَ المُتَّقِينَ الأبرار ، جَزاءً ما أَدَّىٰ من خِدْماتٍ صادِقَاتٍ لِلْعِلْمِ وَالعِرْفانِ .

**إسماعيل محمد حَسَنين**

زوج كريمة المُؤَلِّف

# كَلِمَة الأُستاذ إِبراهيم عبد القادر المازِني
# عن عبد الرحمن البَرْقُوقي

### نشرت في « البلاغ » الغراء بتاريخ ٤ يونية/ حزيران سنة ١٩٤٤م

رَحِمَ اللهُ البَرْقوقيَّ ! قَضَىٰ نَحْبَهُ في جِيلٍ أَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّهُ لا يَعْرِفُهُ مَعْرِفَتَه ، وكانَ في زَمانِه مِنْ أَعْيَانِ البَيانِ وأَقْطابِهِ وَأَعْلامِه ، بَلْ يُمَثِّلُ عَهْداً مِنْ عُهودِ الأَدَبِ ، وَلَكِنَّ التَّيَّارَ نَحَّاهُ عَنْ مَجْراهُ ، فَقَعَدَ على الشَّطِّ ، يَنْظُرُ وَيتَأَمَّلُ ، وَيَعْجَبُ وَيَدْهَشُ ، وَيَهُزُّ رَأْسَهُ ـ يَمْنَةً ويَسْرَةً على عادَتِهِ ـ هَزَّةَ مَنْ يَفْهَمُ وَيَعْذُرُ ـ لأَنَّهُ مُدْرِكٌ ـ وَلا يَسْتَنْكِرُ أَوْ يَتَسَخَّطُ ، وفي يَدِه قَلَمُهُ ، وَأمامَهُ مِحْبَرَتُهُ ، وفي حِجْرِهِ صَحِيْفَتُهُ ، فَما هَراقَ الزَّمَنُ مِدادَهُ ، وَلا كَسَرَ قَلَمَهُ ، وَلا بَعْثَرَ أَوْ أَطارَ كَرارِيسَهُ حِينَ دَفَعَهُ إلى الشَّطِّ ، أَوْ حِينَ وَنِيَ هُوَ وَكَلَّ عَنْ مُسايَرَاتِهِ ، فَمالَ عَنْ طَرِيقِهِ ، وَآثَرَ أَنْ يُلْقِي العَصَىٰ وَيَقْعُدَ مُطْمَئِنّاً .

وَكَانَ زَمِيلُنَا السِّباعِي[1] رَحِمَه اللهُ يَمْزَحُ فَيُسَمِّيه « الشَّيْخ شَرَف » ، وَلَكِنَّه مَزْحٌ مُبَطَّنٌ بِجِدٍّ ، وَكانَ الشَّيْخ البَرْقُوقي يُوْمَئِذٍ قَدْ أَعَدَّ العُدَّةَ لإِصْدارِ مَجَلَّتِهِ المشْهُورَةِ « البيانِ » ، وَاتَّخَذَ مِنَ السِّباعِي عَوْناً لَهُ ، وقالَ لَهُ في جُمْلَةِ ما قَالَ : « أُوصِيكَ بِالحِرْصِ عَلَى شَرَفِ الدِّيباجَةِ » فَضَحِكَ السِّباعِيُّ ضِحْكَتَهُ القَوِيَّةَ ذات التَّرْجِيعِ ، وَقالَ : « أَهْلًا بِالشَّيْخ شَرَف » وصار بَعْدَ ذَلِكَ يُعَرِّفُنا بِهِ بهذا الاسْمِ ، وَالبَرْقُوقي لا يَغْضَبُ ولا يَزِيدُ علىٰ الابْتِسام وَهَزِّ الرَّأْسِ ، فَقَدْ كانَتْ

---

(١) هو محمد بن محمد السِّبَاعي ( ١٢٩٨ ـ ١٣٥٠ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣١ م ) .

فِيهِ فِطْنَةٌ إلىٰ الفُكاهَةِ ، وَحُسْنُ فَهْمٍ لها يَحولُ دُونَ الغَضَبِ أَو الاسْتِياءِ .

وَ« شَرَفُ الدِّيباجَةِ » هُوَ ما كانَ المَرْحوم البَرْقُوقي يَتَوخَّاهُ فيما يَكْتُبُ ، وَقَدْ أَنْشَأَ مجلَّةَ البيان لِخِدْمَةِ الأَدَبِ كما يَفْهَمُهُ هُوَ ، وَلَعَلَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَحُلَّ بها مَحَلَّ المَرْحُومِ الشيخ إِبراهِيم اليازِجي ، فَقَدْ كانَتْ لَهُ مَجَلَّةٌ بهذا الاسْمِ . وَكانَ البَرْقُوقي واسِعَ الاطِّلاعِ على الأَدَبِ العَرَبيّ ، حَسَنَ الفَهْمِ لَهُ ، وقَدْ دَرَسَهُ على الشَّيْخ المَرْصِفي في الأَزْهَرِ ، وَٱسْتَفادَ مِنْ دُروسِ الشَّيْخِ محمد عَبْدُه وَعِنَايَتِهِ بـ« دلائل الإعجاز » ، و« أَسرار البلاغة » لِلجُرْجاني ، وَتَوسَّعَ هُوَ بَعْدَ ذلك في التَّحْصِيلِ وَالدَّرْسِ ، وَلَكِنَّ الأَدَبَ الغَرْبيَّ كانَ يُخايِلُهُ ، فَيَوَدُّ لَوْ تَيَسَّرَ لَهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ ، وَلا يَجِدُ إِلا ما نُقِلَ مِنْهُ إلى اللُّغَةِ العربيَّةِ ، ومَا أَقَلَّ ذَلِكَ ، وكانَ يَعْرِفُ لِلْمَذْهَبِ الجَدِيدِ في الأَدَبِ العَرَبيِّ بمِصْرَ حَقَّهُ وَفَضْلَهُ ، وَيُكْبِرُهُ وَلا يُغْمِطُهُ ، وَكانَ رَجُلًا أُوتِيَ حُسْنَ الفَهْمِ ، وَصِحَّةَ الإِدْراكِ ، وَسَعَةَ الصَّدْرِ الَّتِي تَدْفَعُ إِلىٰ سُرْعَةِ الإِقْرارِ لِكُلِّ ذِي فَضْلٍ بِفَضْلِهِ ، في غَيْرِ تَرَدُّدٍ أَو تَحَفُّظٍ ، وَلِهَذا بَرِيءَ مِنَ المُكَابَرَةِ وَالتَّعَصُّبِ .

وَكانَتْ بَيْنَهُ وَبيْنَ المَرْحوم مُصْطفى صادق الرَّافِعِي صِلَةُ نَسَبٍ أو قَرابَةٍ ـ لا أدري ـ وَكانَ يَعُدُّهُ أَكْتَبَ الكُتَّابِ وَأَفْصَحَ الفُصَحاءِ وَأَبْلَغَ البُلَغاء ، وَأَخْرَجَ الرّافِعِيُّ كتابَهُ « حَديث القَمَرِ » فَرَأَيْتُ فِيهِ غُموضاً كَثِيراً في مَواضِعَ عِدَّةٍ ، فَقُلْتُ لِلْبَرْقُوقي يَوْماً : « هذا صاحِبُكَ مَاذا تَفْهَمُ مِنْ كِتابِهِ ؟ » فَنَقَلَ هذا إِلىٰ الرَّافِعِي ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلىٰ الرَّافِعِي في ذَلِكَ اتِّقاءً لِلغَلَطِ في النَّقْلِ أو المُبالَغَةِ فيما قُلْتُ فيهِ .

وَٱتَّفَقَ أَنْ قَدِمَ الرَّافِعِيُّ ، فَٱجْتَمَعْنا بِهِ عِنْدَ البَرْقُوقي ـ الأُسْتاذ العَقّاد ، والمرحوم السِّباعي وأنا ، ـ وكانَ الرَّافِعِيُّ حَرِيصاً على نَفي الغُمُوضِ ، وَكُنَّا

نَحْنُ حَرِيصِينَ على إِنْصافِهِ ، فتناوَلَ نُسْخَةً مِنْ كِتابِهِ « حديث القَمَر » وَٱنْطَلَقَ يقرأ وَيُفَسِّرُ ، على غَيْرِ جَدْوَىٰ في الأَكْثَرِ ، وماذا يُمْكِنُ أَنْ يَفْهَمَ إِنْسانٌ من مِثْلِ قَوْلِهِ : « التُّرابُ الأَبَدِيُّ الذي يَتَساقَطُ بِهِ اللَّيْلُ ؟ » وطالَتِ الجِلْسَةُ ، وكادَ يَنْتَصِفُ اللَّيْلُ ، وَأَذْكُرُ أَنِّي قُلْتُ لِلْبَرْقُوقي قَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ ذَاكَ السَّامِرُ : « ما رَأْيُكَ ؟ » فَهَزَّ رأسَهُ ، وَقالَ : « وَاللهِ غامِضٌ ! » وَأَذْكُرُ أَنَّ بَعْضَنا ـ لا أَدْرِي أَيَّنا ـ سَأَلَهُ : « وَهَلْ يَكُونُ الغُمُوضُ بَياناً وَفَصَاحةً ؟ » فَهَزَّ رأسَهُ ثَانِيَةً ، وَقالَ بلا تَلَعْثُمٍ : « أَبداً » وَما سُقْتُ هذا الحَدِيثَ لأَغُضَّ مِنْ قَدْرِ الرَّافِعِي ، فَإِنِّي أُعْلِي بِهِ عَيْناً مِنْ أَنْ يَخْطُرَ لي ذَلِكَ ، وَإِنَّما سُقْتُهُ لأَقُولَ أَنَّ البَرْقوقِيَّ كانَ رَحِيبَ النَّفْسِ لا يَتَعَصَّبُ ولا يُكابِرُ ولا يَأْبىٰ الاقْتِناعَ .

وَمِنْ تَلَهُّفِهِ على الاطِّلاعِ على أَدَبِ الغَرْبِ وَكَلَ إلى السِّباعِي تَرْجَمَةَ ما يَخْتارُ من آياتِهِ لمجلة البَيانِ ، فَنَقَل إلى العَرَبِيَّةِ كثيراً من هذه البَراعاتِ ، وَكانَ وهُوَ يَكْتُبُ « حضَارة الإِسْلام في الأَنْدلس » يَسْأَلُني أَحْياناً عَمَّا قَرَأْتُ في نُشُوءِ الحضاراتِ بِاللُّغَةِ الإنكليزيّة ، فَأُفْضِي إِلَيْهِ بِخُلاصَةِ ما ٱتَّفَقَ لي قِراءَتُهُ ، فَيُحْسِنُ الإِصْغاءَ ، وَيُدَوِّنُ ما يَراهُ جَدِيراً بِالتَّدْوِينِ ، وَيُحاوِلُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِذَلِكَ فيما يَكْتُبُ عَنْ حضارَةِ الإِسْلامِ .

كانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ « بيانه » خَلَفاً لِبَيان اليازِجِي ، وَلَكِنَّهُ أرادَ شَيْئاً وَأَرادَ اللهُ خلافَهُ ، فَصارَتْ مَجَلَّةُ البيان صَحِيفَةً لأَهْلِ المَذْهَبِ الجَدِيدِ في الأدب ـ العَقّادِ ، وَشُكْري ، والسِّباعي ، وهَيْكل ، وكاتِبِ هَذِه السُّطورِ وغَيْرِهِم ـ وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ التَّحوُّلُ بِرَغْمِهِ ، أَوْ عَلىٰ غَيْرِ هَواهُ ، وَلا كانَ بادِي الزَّهادَةِ فِيهِ أَوْ قَلِيلَ الرِّضَى عَنْهُ ، فما كانَ لَهُ هُوَ مَذْهَبٌ خَاصٌّ في الأَدَبِ يَدْعُو إِلَيْهِ ، وَلا كانَ لَهُ هَمٌّ إِلا جُودَةُ العِبارَةِ وَجَزالَةُ الأُسْلوبِ ، وَمِنْ حُسْنِ الاتِّفاقِ أَنَّ دُعاةَ المَذْهَبِ

الجَدِيدِ يُعْنَوْنَ بِأَحْكام الأَداءِ وَدِقَّتِهِ ووَفائِهِ كَعِنايَتِهِم بالإِخلاصِ وَصِدْقِ السَّرِيرَةِ وصِحَّةِ النَّظَرِ واْسْتِقامَةِ الفِكْرِ والتَّنَزُّهِ عن التَّقالِيدِ وَالمُحاكاةِ .

وَهَكَذا صارَ لِلْبَرْقُوقي فَضْلٌ يُذْكَرُ فَيُشْكَرُ في الأَدَبِ العَصْرِيِّ وَالمَذْهَبِ الجَدِيدَ الَّذِي جاءَ بِهِ دُعاتُهُ . وقَدْ ضَيَّعَ الرَّجُلُ ما لَهُ في هَذا السَّبِيلِ ، حَتَّىٰ كادَ يَنْزِفُ . وكانَ غَيْرَ حَكِيمٍ في أَمْرِ المالِ ، وَكانَ يَضَعُ كُتُبَهُ الخاصَّةَ في مَكْتَبةِ « البيان » ، وَيَنْسَىٰ فَيَبِيعُ مِنْ كُتُبِهِ ، وَبَيْنَها طائِفَةٌ نادِرَةٌ ، ثُمَّ يَفْطَنُ إِلى ما كانَ مِنْهُ ، فَيَضْرِبُ كَفّاً بِكَفٍّ وَيَتَحَسَّرُ ، وَكانَ رُبَّما ٱسْتَرَدَّ بَعْضَ ما باعَ مِنْ هَذِهِ ، وَلَكِنْ بِأَضْعافِ ما قَبَضَ مِنْ ثَمَنِها .

وَكانَ ذا مَرَحٍ وَلَهْوٍ ، وَلِمَجْلِسِهِ إِيناسٌ ، وَلِحَدِيثِهِ إِمْتاعٌ ، وَكانَ إِلىٰ هَذا ذا جَلَدٍ عَظِيمٍ ، مَصْدَرُهُ صِحَّةُ إِدْراكِهِ لِقِيمَةِ ما يَعْرِضُ للإِنْسانِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، فَكانَ إِذَا أَصابَ خَيْراً ، لا يَخْرُجُ عَنْ طَوْرِهِ ، وَلا يُرَىٰ أَثَرُ ذَلِكَ إِلّا في لَمْعَةِ العَيْنِ وَإِشْرَاقِ الوَجْهِ وَٱفْتِرارِ الثَّغْرِ ، وَإِذَا نَزَلَ بِهِ مَكْرُوهٌ لَمْ يَزِدْ على هَزِّ الرَّأْسِ ، وَتِلْكَ كانَتْ عادَةً لَهُ .

وَلَيْسَتْ مَجلَّةُ البَيانِ كُلَّ ما لَهُ مِنْ آثارٍ ، فَقَدْ شَرَحَ دِيوان المُتَنَبِّي ، ودِيوان حسّان ، وأَخْرَج مُجلَّداً ضخماً سَمّاهُ « الذخائر والعَبْقَريات » ، وهو مختاراتٌ مِمّا ٱسْتَجاد من أَدَبِ العَرَبِ ، وَهُوَ جُزْءٌ أَوَّلُ كانَتْ نِيَّتُه أَنْ يُتْبِعَهُ أَجْزاءً أُخْرىٰ ، وَلَكِنَّ أَجَلَهُ جاءَ فَجأَةً على ما يُقالُ ، فَقَدْ كانَ قَوِيَّ البَدَنِ صَحِيحَهُ ، ولَكِنَّ المَنايا لا تَحْتاجُ إِلىٰ ٱسْتِئْذانٍ أَوْ تَمْهِيدٍ ، أَوْ تَسْوِيغٍ لِمُوافاتِها . وما أَحْسَبُهُ عَبأَ بِذَلِكِ شَيْئاً ، فَإِنَّ عَهْدِي بِهِ أَنَّهُ كانَ يَتَلَقَّىٰ كُلَّ شَيْءٍ بِالتَّسْلِيمِ ، وَيُؤْثِرُ ذَلِكَ على عَناءِ المُجاهَدَةِ وَالمُقاوَمَةِ ، لأَنَّهُ كانَ بِطَبْعِهِ مُسالِماً غَيْرَ مُحارِبٍ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كانَ طَوِيلَ الصَّبْرِ .

وَمِنَ العَسِيرِ أَنْ تُعَيِّنَ لِلبَرْقُوقي مكاناً بَيْنَ رِجالِ الأَدَبِ ، وَتَقولَ : هُنا مَحَلُّهُ دُونَ غَيْرِهِ بِلا مِراءٍ ، فَقَدْ كانَ بِفَضْلِ تَرْبِيَتِهِ وَتَحْصِيلِهِ مِنْ أَهْلِ الرَّجْعَةِ إِلى القَدِيم ، وكانَ بأُسْلُوبِهِ مُتَكَلِّفاً ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ غَلَبَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ صارَ طِباعاً فِيه ، غَيْرَ أَنَّهُ كانَ يُحِبُّ الجديدَ وَيُكْبِرُهُ وَيُحاوِلُ أَنْ يَقِيسَ عَلَيْهِ ، وَلا يُقْعِدُهُ عَنْ ذٰلِكَ إِلا أَنَّ الأَداةَ لا تُؤاتِيهِ أَوْ تُسْعِفُهُ ، وكانَ نَصِيراً للأَدَبِ الحديثِ وَإِنْ كانَتْ مُناصَرَتُهُ لَهُ تَجْرِي مَعَ ما فُطِرَ عَلَيْهِ مِنْ إِيثارِ المُسالَمَةِ وَالدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَإِدْراكِهِ أَنَّ الدُّنْيا يَطِيبُ فيها الجديدُ كما يَطِيبُ فيها القَدِيمُ المَأْلُوفُ ، وَيَتَّسِعُ لَهُما مَعاً وَلا تَضِيقُ بِهِما . وَلَعَلَّهُ لَوْ كانَ دَرَسَ لُغَةً أُورُبِيَّة لاخْتَلَفَ مَذْهَبُهُ ، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ، فَبَقِي على النَّهْجِ الَّذِي شَبَّ عَلَيْهِ ، فَظَلَّتْ لَهُ قُدْرَةٌ على مُعالَجةِ القَدِيم دون أَنْ يَسْتَفِيد قُدْرَةً علىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ . وَقَدْ كُنَّا نَذْكُرُهُ قَبْلَ وفاتِهِ بأَيَّامٍ ، فقالَ الأُستاذُ سلامَةُ مُوسَىٰ : إِنَّ مَجلَّةَ البيانِ كانَ يَنْبَغي أَنْ تَبْقَىٰ ، فَإِنَّها تُمَثِّلُ أُسْلوباً خاصّاً . وهَذا صَحِيحٌ إِذَا اعْتَبَرْنا أَنَّ صاحِبَها كانَ لَهُ أُسْلوبُهُ الَّذِي يَنْفَرِدُ بِهِ ولا يُقَلِّدُ فِيهِ كاتِباً قَدِيماً بِعَيْنِهِ ، وَإِنَّما يَدْخُلُ في بابِ التَّقْلِيدِ ، لأَنَّهُ يَجْرِي فِيهِ على النَّهْجِ القَدِيم في الاسْتعارةِ وَالمجازِ وَقَوالِبِ التَّعْبيرِ المَوْرُوثَةِ علىٰ العُمُومِ مِنَ العَصْرِ الَّذِي صارَ فِيه تَأْلِيفُ الْكلامِ صِناعَةً ؛ ولٰكِنَّهُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ إِذا اعْتَبَرْنا أَنَّ البيانَ كان مَسْرَحاً لأَقْلامٍ ، وَلَمْ يَكُنْ كَبيانِ اليازَجِي لا يَكادُ غَيْرُهُ يَخُطُّ فِيهِ حَرْفا إِلَّا في النُّدَرِ القَلِيلَةِ .

وقَدْ أَسِفْتُ لأَنَّ نَعْيَهُ لَمْ يَبْلُغْني إِلا في المَساءِ ، فَلَمْ يَتَسَنَّ لَهُ أَنْ أَقْضِي حَقَّهُ عليَّ ، وَأَشْتَرِكَ في تَشْيِيعِهِ ، وَإِنْ كانَ مِنْ رَأْيي أَنَّ الاحْتِفالَ بِالتَّشْيِيع عَبَثٌ وباطِلٌ ، وَأَنَّهُ يَنْبَغي أَنْ نَكُونَ أَفْهَمَ لِلْمَوْتِ مِنْ أَنْ نتَكَلَّفَ هذا المجال وَأَصَحَّ إِدْراكاً لِمَعْناهُ مِنْ أَنْ نُقِيمَ الدُّنْيا وَنُقْعِدُها حِينَ يُدْرِكُ بَعْضُنا قَبْلَنا .

وَنَحْنُ نُسَمِّيه المَوْتَ ، وَلَكِنِّي لا أَظُنُّ « الحياةَ » تَعْرِفُهُ بهذا الاسْمِ ، وَهَلْ هُوَ في حَقِيقَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ تَحَوُّلٍ تَقْتَضِيهِ سُنَّتُها مِنْ مادَّةٍ في صُورَةٍ ما إلى مادَّةٍ أَوْ مَوَادَّ في صُوَرٍ أُخْرَىٰ ، وَتَبْقَىٰ بِذَلِكَ وَبَعْدَ ذَلِكَ الحياةُ مُسْتَمِرَّةً فيما تَيَسَّرَ لها مِنْ صُوَرٍ وفْقَ قانُونِها الأَبَدِيِّ ؟ وَلَكِنّا أُوتِينَا الشُّعورَ بِالذَّاتِ وَآلَةَ الفِكْرِ ، فَصارَتْ مُصِيبَةُ الفَرْدِ كَبيرَةً ، وَإِنْ جَنَتْ جُمْلَةُ الإِنْسانِيَّةِ مِنْ هَذِهِ المُصِيبَةِ خَيْراً جَزِيلًا . وَلَوْ حُرِمْنا الشُّعورَ بِالذَّاتِ أَوْ العَقْلَ دُونَ الشُّعورِ بِالذَّاتِ لكانَ أَهْوَنَ . وَٱللهُ أَعْلَمُ .

# المَرْحومُ الأستاذ عبد الرحمن البَرْقُوقي

عَرَفْتُ في الأَزْهَرِ من أَرْبَعِينَ سَنةٍ خَلَتْ ، شابّاً مِنْ أَبْناءِ النِّعْمَةِ ، حَسَنَ البَزَّةِ ، جَمِيلَ المَظْهَرِ ، رَضِيّ الأَخْلاقِ ، يَسْمُو علىٰ أَقْرانِهِ بِتَواضُعِهِ الجَمِّ ، وَأَدَبِهِ العالي . ذَلِكَ هو المَرْحومُ الأُسْتاذ عَبْد الرحمن البَرْقُوقي .

كانَ الأُسْتاذُ الإِمامُ المَغْفورُ لَهُ محمد عَبْدُه يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ ، لِمَا عَرَفَهُ عَنْهُ مِنْ مَيْلِهِ للأَدَبِ ، وَنُزُوعِهِ عن القَدِيمِ الضَّارِّ إِلىٰ الحَدِيثِ النَّافِعِ ، مِنَ العُلومِ وَالفُنونِ التي أَدْخَلَها في الأَزْهَرِ ، كالأَدَبِ ، وَاللُّغَةِ ، وَالرّياضَةِ ، وَتَقْوِيمِ البُلْدانِ ، وَالخَطِّ .

وكان يَجْمَعُنا بِهِ دَرْسُ الأَدَبِ عند المرحوم الشيخ سَيِّد المَرْصِفي ، مع زُمْرَةٍ من أَقْرانِهِ الَّذِين كَوَّنَهُمُ الإمامُ المَدْرَسَة الحديثَةَ التي أَدَّتْ رِسالَتَها علىٰ أَكْمَل وَجْهٍ وَأَحْسَنِهِ ، وَكَثِيراً ما قَصَدَ الإِمامَ الشّنْقِيطِيَّ الكَبِيرَ فَقَرَأَ عَلَيْهِ ، واتَّصَلَ بالمَغْفُورِ له الزَّعيم سعد زَغْلول باشا مُسْتَرْشِداً وَمُسْتَفِيداً .

رَأَىٰ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ كُتُبَ البلاغَةِ التي تُدَرَّسُ حِينَذاك في الأَزْهَرِ لا تُوصِلُ إِلىٰ الغايَةِ المَقْصودَةِ من دِراسَتِها ، وَكانَ قَدْ سَمِعَ من الأُسْتاذ الإِمامِ في دَرْسِهِ لكتابي « دلائل الإعجاز » ، و« أسرار البلاغة » للأستاذ عبد القاهر الجُرْجاني ، غَيْر ما يَسْمَعُهُ في الأَزْهَرِ من كُتُبِ السَّعْدِ والسَّيِّد والبَنَّاني ، تَعْلِيقاً على مَتْنِ « التلخيص » للخَطيب القَزْوِيني ، فتناولَ هذا المَتْنَ بالشَّرْحِ المُبَسَّطِ لِعبارَتِه ، مُلْقِياً خَلْفَ ظَهْرِهِ ما أَتْخَمَهُ بِهِ شُرَّاحُهُ وَمُحَشُّوهُ ، فجاءَ بَاكُورَةً حَسَنَةً وَنَتِيجةً مُفِيدةً لما دَرَسَهُ ، وأَلَّفَ بَعْدَهُ كُتُباً كَثِيرةً نافِعةً .

سَئِمَ الأَزْهَرَ بَعْدَ وفاةِ الأُستاذ الإمامِ ، فَٱشْتَغَلَ بالصَّحافة الأَدبِيَّةِ . وَأَصْدَرَ مجلة « البيان » ، فَأَقْبَلَ عَلَيْها أَساتِذَةُ الجِيلِ وَكَتَبُوا فيها ، وَدامَتْ زَمَناً طَوِيلاً حَتَّىٰ اختارَهُ الزَّعيمُ سَعْد باشا مُوَظَّفاً بِمَجْلِسِ النوَّاب ، فَبَقِيَ حَتَّىٰ لَقِيَ رَبَّهُ ، بَعْدَ أداءِ رسالَتِه المُثْلَىٰ ، راضِياً مَرْضِيّاً . رَحِمَهُ اللهُ جَزاءً ما قَدَّمَتْ يَداهُ .

**محمود حسن زَناتي**

أمين الخزانة الزَّكِيَّة سابقاً

# محتويات الكتاب



# البابُ الأول

# مَركَزُ المَرْأةِ

**النِّساءُ شَقائِقُ الرِّجالِ :**

١ ـ في الحَديثِ الشَّريفِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا رَأَتِ المَرْأَةُ الماءَ فَلْتَغْتَسِلْ » ، فقالَتْ أمُّ سَلَمَةَ[1] : يا رَسُولَ اللهِ ! وَهَلْ لِلْمَرْأَةِ ماءٌ ؟ قالَ : « فَأَنَّىٰ يُشْبِهُهُنَّ الوَلَدُ[2] ؟ إِنَّما هُنَّ شَقائِقُ » [الترمذي ، رقم : ١١٣ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٣٦ ؛ مسند أحمد ، رقم : ٢٥٦٦٣] .

« فَأَنَّى » : ٱسْتفهامٌ ، أي : فَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ ؟ أَوْ فَكَيْفَ يُشْبِهُهُنَّ الوَلَدُ إنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ ذا ! وقولُهُ صَلواتُ اللهِ عَلَيْهِ : « إِنَّما هُنَّ شَقائِقُ » يَعْني : إِنَّ الرَّجُلَ وَالمَرْأَةَ كَعَصاً ٱرْفضَّتْ شِقَتَيْنِ ، أَوْ تقولُ : إِنَّ النِّساءَ نظائِرُ الرِّجالِ وَأَمْثالُهم في الأَخْلاقِ وَالطِّباعِ ، كَأَنَّهُنَّ شُقِقْنَ مِنْهُمْ ، وَلأَنَّ حَوّاءَ خُلِقتْ مِنْ آدمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

* * *

٢ ـ ومن أمثالهم : إِنَّ النِّساءَ شَقائِقُ الأَقْوامِ . [« مجمع الأمثال » ، رقم : ١٠٨]

شقائق الأقوام ، أي : شَقائِقُ الرِّجالِ ، قال عُلماء اللُّغةِ : القَوْمُ : الرِّجالُ

---

(١) هي أُمُّ المؤمِنين ، زَوجُ سَيِّدِنا رَسول الله ﷺ .

(٢) وَمِنْ قَوْلِهِم : كُلُّ فَحْلٍ يَمْني وَكلُّ أُنْثىٰ تَقْذِي ، يقالُ : قَذَتِ الأُنْثىٰ تَقْذِي : إِذَا أَرادَتِ الفَحْلَ فَأَلْقَتْ مِنْ مائِها . [« لسان العرب » ، مادة : قذي] .

خَاصَّةً . قالَ تعالى : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [٤٩ سورة الحجرات/ الآية : ١١] فَلَوْ كانَتِ النِّساءُ مِنَ القَوْمِ لَمْ يَقُلْ : وَلا نِساءٌ مِنْ نِسَاءٍ .

وقال زُهَيْرُ ابنُ أَبي سُلْمَىٰ [من الوافر] :

وَمَـا أَدْرِي وَسَـوْفَ إِخَـالُ أَدْرِي      أَقَـوْمٌ آلُ حِصْـنٍ أَمْ نِسَـاءُ

قالَ ابنُ الأَثِيرِ [في « النهاية في غريب الحديث » مادة : قوم] : القومُ في الأَصْلِ مَصْدَرُ قَامَ ، ثُمَّ غُلِبَ علىٰ الرِّجالِ دُونَ النِّساءِ ، وَسُمُّوا بِذَلِكَ لأَنَّهُمْ قَوَّامُونَ عَلىٰ النِّساءِ بالأُمورِ الَّتِي لَيْسَ لِلنِّساءِ أَنْ يَقُمْنَ بِها .

قالَ الجَوْهَرِيُّ : وَرُبَّما دَخَلَ النِّسَاءُ في القَوْمِ عَلىٰ سَبِيلِ التَّبَعِ ، لأَنَّ قَوْمَ كُلِّ نَبِيٍّ رِجالٌ وَنِساءٌ [« لسان العرب » ، مادة : قوم] .

* * *

٣ ـ وَقالَتْ إِحْدىٰ البَناتِ اللاتي عَنَّسَهُنَ أَبُوهُنَّ فَأَخَذْنَ يُفَكِّرْنَ في أَمْرِهِنَّ(١) [من الطويل] :

أَيُعْـذَلُ لَاهِيـنَا وَيُلْحَـىٰ عَلَـىٰ الصِّبَا      وَمَـا نَحْـنُ وَالفِتْيَـانُ إِلَّا شَقَـائِقُ(٢)

* * *

(١) اُنْظُرْ خَبَرَها وَخَبَرَ أَخواتِها في بابِ حَنِينِ النِّساءِ إلى الرِّجالِ [ رقم : ١٥١٩ ] .

(٢) يُلْحَىٰ : يُعْذَلُ ويُلامُ ، والصِّبا : المَيْلُ إلى الهَوىٰ ، والمرادُ : مَيْلُ الفَتَياتِ إِلىٰ الفِتْيانِ ، تقولُ : كما أَنَّ الفِتْيانَ لا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الفَتَياتِ يَتَزَوَّجُوهُنَّ ، فالفَتَياتُ لا بُدَّ لَهُنَّ مِنَ الفِتْيانِ يَتَزَوَّجْنَهُمْ ، إِذْ أَنَّ طبيعةَ الفَتاةِ كَطَبيعَةِ الفَتَىٰ ، وَمَا الفِتْيانُ والفَتَياتُ إلا مِنْ جُرْثومَةٍ واحِدَةٍ ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُلامَ على ٱلصِّبَا وَالمَيْلِ إِلى الرِّجالِ .

**المَرْأَةُ سَكَنُ الرَّجُلِ :**

٤ ـ قالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٣٠ سورة الروم/ الآية : ٢١] .

قولُه سُبحانه : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أَيْ : مِنْ شَكْلِ أَنْفسِكُمْ وَجِنْسِها لا مِنْ جِنْسٍ آخَرَ ؛ وَذَلِكَ لِما بَيْنَ الاثْنَيْنِ يَكُونانِ مِنْ جِنْسٍ واحِدٍ مِنَ الإِلْفِ وَالسُّكُونِ ، وَما بَيْنَ الجِنْسَيْنِ المُخْتَلِفَيْنِ مِنَ التَّنافُرِ ؛ وَقالَ بَعْضُ المُفَسِّرينَ : قولُه : ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي : لأَنَّ حَوّاءَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ وَالنِّساءُ بَعْدَها خُلِقْنَ مِنْ أَصْلابِ الرِّجالِ ؛ أَمّا قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فإِنَّه يُقالُ : سَكَنَ إِلَيْه : إِذا مَالَ إِلَيْهِ ، كَقَوْلِهِمْ : ٱطْمَأَنَّ إِلَيْهِ ، وَقَدْ سَمَّىٰ العَرَبُ المَرْأَةَ سَكَناً ، وَفي الحديث : « ٱللَّهُمَّ أَنزِلْ عَلَيْنا في أَرْضِنا سَكَنَها » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٣٢٨٣] أي : غِياثَ أَهْلِهَا الَّذي تَسْكُنُ أَنْفُسُهُم إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنُّ ؛ ثُمَّ قالَ تَعالَىٰ : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أَيْ : جَعَلَ بَيْنَ النِّساءِ والرِّجالِ التَّوادَّ وَالتَّراحُمَ ، بِعِصْمَةِ الزَّوَاجِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمْ سابِقَةُ مَعْرِفَةٍ وَلا سَبَبٌ يُوجِبُ التَّعاطُفَ مِنْ قَرابَةٍ أَوْ رَحِمٍ ؛ وَقِيلَ : إِنَّ المَوَدَّةَ وَالرَّحْمَةَ مِنْ قِبَلِ ٱللهِ وَأَنَّ الفِرْكَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْطانِ[١] ؛ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : المَوَدَّةُ كِنايَةٌ عَنِ الجِماعِ ، وَالرَّحْمَةُ عَنِ الوَلَدِ ؛ وَقالَ رَجُلٌ لِسَيِّدِنا رَسُولِ ٱللهِ : يا رَسُولَ ٱللهِ ! الرَّجُلُ يَتَزَوَّجُ المَرْأَةَ

---

(١) الفِرْكُ ، بفَتْح الفاء وكَسْرِها : بُغْضُ الرَّجُلِ لامْرأَتِهِ ، أَوْ بُغْضُ ٱمْرأَتِهِ لَهُ . يُقالُ : فَرَكَ الرَّجُلُ ٱمْرَأَتَهُ فَرْكاً وَفِرْكاً ، أَيْ : أَبْغَضَها ، وَكَذَلِكَ يُقالُ لِلْمَرْأَةِ : فَرَكَتْهُ تَفْرَكُهُ فِرْكاً ، أَيْ : أَبْغَضَتْهُ ، قَالَ اللُّغَوِيُّون : وَلَمْ يُسْمَعْ هذا الحَرْفُ في غَيْرِ الزَّوْجَيْن ، أَي : إِنَّهُ لا تُسْتَعْمَلُ مادَّةُ فَرَكَ إِلَّا في بُغْضِ الزَّوْجَيْنِ .

لا يَعْرِفُها وَلا تَعْرِفُهُ ، ثُمَّ لا يَكُونُ إِلَّا لَيْلَةٌ حَتَّىٰ لا يَكُونُ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْها ، وَإِلَيْها مِنْهُ ! فَقالَ رَسولُ اللهِ : « تِلْكَ أُلْفَةُ ٱللهِ » ، ثُمَّ تلا قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ .

وَبَعْدُ ؛ فَهَلْ سَمِعْتَ أَوْ تَتَوَقَّعُ أَنْ تَسْمَعَ مِثْلَ هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ جَمالاً وَرَوْعَةً وَلُطْفاً في العِبارَةِ عَمّا يَكُونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مِنَ التَّعاطُفِ وَذَلِكَ الرِّباطِ المُقَدَّسِ الَّذِي لا يُحِسُّهُ وَيَتَذَوَّقُهُ وَيَراحُ لَهُ إِلَّا الرَّجُلُ السَّعِيدُ يَرْزُقُهُ اللهُ زَوْجاً صالِحَةً تَكُونُ لَهُ رَوْحاً وَرَيْحاناً وَجَنَّةَ نَعِيمٍ !

* * *

٥ ـ وقالَ سُبْحانَهُ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ١٨٩] .

وقال عَزَّ مِنْ قائِلٍ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٨٧] .

يَقولُ سُبْحانَهُ : كُلُّ فَرِيقٍ مِنْكُمْ يَسْكُنُ إِلىٰ صاحِبِه وَيُلابِسُهُ ، كما قالَ : وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها ، وَالعَرَبُ تُسَمِّي المَرْأَةَ لِباساً وَإِزاراً ، قالَ النّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ [من المتقارب] :

إِذَا مَا ٱلضَّجِيعُ ثَنَىٰ عِطْفَهَا تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

وَيُقالُ : لَبِستُ فلانَةَ عُمْرِي ، أي : كانت مَعِي شَبَابِي كُلَّهُ ؛ وَلَبِسْتُ ٱمْرأَةً ، أي : تَمَتَّعْتُ بِها زَماناً ؛ وَلَبِسْتُ قَوْماً ، أي : تَمَلَّيْتُ بِهِمْ دَهْراً ؛ قالَ النّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ في طُولِ عُمُرِهِ [من المتقارب] :

لَبِسْتُ أُنَاساً فَأَفْنَيْتُهُمْ وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أُنَاسٍ أُنَاساً

ثَـلاثَـةُ أَهْلِيـنَ أَفْنَيْتُهُـمْ وَكـانَ ٱلإِلٰـهُ هُـوَ المُسْتَـآسـا

المُسْتَآسُ : المُسْتَعَاضُ . يُقالُ : ٱسْتآسَنِي فَأُسْتُه ، أي : طَلَب إليَّ العِوَضَ ، وَٱسْتآسَهُ : ٱسْتَعاضَهُ ، والأَوْسُ : العِوَضُ .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ يَرْثِي آخَرَ [من الطويل] :

فلَـوْ كَـانَ شَيْخـاً قَـدْ لَبِسْنـا شَبَـابَـهُ وَلَكِنَّـهُ لَـمْ يَعُـدْ أَنْ طَـرَّ شَـارِبُـهْ

لَبِسْنا شَبَابَهُ : تَمَتَّعْنا بِشَبابِهِ ؛ وَجَوابُ « لو » مَحْذُوفٌ ، أَيْ : لَمْ نَجْزَعْ عَلَيْهِ ؛ وَطَرَّ شَارِبُه ، بِفَتْحِ الطَّاءِ أَفْصَحُ مِنْ ضَمِّها : طَلَعَ وَنَبَتَ .

* * *

٦ ـ وَقَال جَلَّ شَأْنُه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾[٣ سورة آل عمران/ الآية : ١٤] .

جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ النِّساءَ رَأْسَ الشَّهَواتِ بِتَقْدِيمِه إِيَّاهُنَّ عَلَىٰ ما ذَكَرَ مِنْها ، وَذَلِكَ لِتَقَدُّمِهِنَّ مِنْ قُلوبِ الرِّجالِ عَلىٰ جَمِيعِهِنَّ ، وَأَطْلَقَ الشَّهَواتِ عَلىٰ المُشْتَهيَاتِ مُبالَغَةً .

* * *

[ أَقْوَالٌ فِي ٱلْمَرْأَةِ ] :

٧ ـ وجاءَ في الإِنْجيل : « أَمَا قَرأْتُم [أي في سفر التكوين من التوراة ٢٥ : ٢٤] أَنَّ ٱلَّذي خَلَق مِنَ ٱلْبَدْءِ خَلَقَهُمَا ذَكَراً وَأُنْثَىٰ ! مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِـقُ بِـامْـرَأَتِـه ، وَيَكُـونُ الاثْنـانِ وَاحِـداً ، فَـٱلَّـذي جَمَعَـهُ اللهُ لا يُفَـرِّقُـه الإِنْسانُ » . [إنجيل متى ١٩ : ٥ ، إنجيل مرقص ١٠ : ٧] .

وَجاءَ فِي التَّوْرَاةِ : « وَقالَ ٱلرَّبُّ الإِلٰهُ : لَيْسَ جَيِّداً أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ ، فَلْنَصْنَعْ لَهُ مُعِيناً نَظِيرَهُ » . [التكوين ٢ : ١٩] .

وَقَالُوا :

ٱلمَرْأَةُ أَبْهَجُ شَيْءٍ في ٱلْحَياةِ . **كونفوشيوس**

ٱلْمَرْأَةُ تاجُ الخَلِيقَةِ . **هردر** Herder

خُلِقَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِتُشْعِرَنَا مَعْنَىٰ ٱلْحَياةِ ، فَهِيَ مِثالُ الرِّقَّةِ وَالْكَمالِ . **فولتير** Voltaire

إِذا كانَتِ المَرْأَةُ هِيَ ٱلَّتِي حَرَمَتْنَا النَّعِيمَ في الْجَنَةِ ، فَهِيَ وَحْدَهَا ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُعِيدَهُ إِلَيْنَا . **روتير**

أَعْظَمُ مَخْلُوقٍ هُوَ المَرْأَةُ إِذَا عَرَفَتْ قَدْرَ نَفْسِها . **غلادستون** Gladstone

قَلْبُ ٱلْمَرْأَةِ أَعْظَمُ مَصْدَرٍ لِلْحَنَانِ وَالْعَطْفِ إِذَا أَحَبَّتِ الرَّجُلَ ، وَأَكْبَرُ مَكْمَنٍ لِلضَّغِينَةِ وَالحِقْدِ إِذَا كَرِهَتْهُ . **لوثر** Luther

إِنَّ النِّسَاءَ حُورٌ هَرَبْنَ مِنْ رَضْوانَ ، وَهَجَرْنَ الفَرَادِيسَ لِتَلْطِيفِ شَقَاءِ بَنِي الإِنْسَانِ . **الإسكندر ديماس** Alexandre Dumas

البُيوتُ بِدُونِ النِّساءِ الصَّالِحاتِ قُبُورٌ . **بلزاك** Bolzac

كُلَّمَا حاوَلْتُ أَنْ أَتَخَيَّلَ السَّعَادَةَ تَمَثَّلَتْ أَمَامِي في صُورَةِ ٱمْرَأَةٍ حائزَةٍ لِجَمالِ المَرْأَةِ وَعَقْلِ الرَّجُلِ . **قاسِم أَمِين**

الرَّجُلُ نَثْرُ ٱلْخَالِقِ وَٱلْمَرْأَةُ شِعْرُهُ . **نابليون** Napoleon

ٱبْحَثْ عَنْ قَلْبِ أَيِّ ٱمْرَأَةٍ تَجِدُ أُمًّا . **ميشيليه** Michelet

إِلْهَامُ ٱلْمَرْأَةِ في الأَعَمِّ الأَغْلَبِ أَصَحُّ مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ . **غوستاف لوبون** Gustave Le Bon

لِكَيْ يُحِبَكَّ النِّساءُ يَجِبُ أَنْ تَدَعَهُنَّ يَعْتَقِدْنَ أَنَّكَ لا تَفْهَمُهُنَّ ، فَإِنَّهُنَّ لا يَتَصَوَّرْنَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَفْهَمُهُنَّ وَيُحِبُّهُنَّ مَعاً . **شامفور** Chamfort

لا يُوْجَدُ وَحْشٌ مُفْترسٌ في ٱلْغَابَةِ وَلا ثُعْبَانٌ غادِرٌ فَتَّاكٌ في الأَحْرَاشِ أَقْسَىٰ في طَبيعَتِه مِنَ الإِنْسانِ في مُعامَلَتِه لِلْمَرْأَةِ ، يَخُونُها وَهُوَ عَاشِقٌ ، وَيُهْمِلُهَا وَهِيَ زَوْجٌ ، وَيَنْسَاها وَهِيَ أُمٌّ ! **ماري كوري** Marie curie

أَيَّةُ فَضِيلَةٍ تُنْتَظَرُ مِنْ رَجُلٍ يَأْخُذُ عَلَىٰ عَاتِقِهِ أَنْ يَعْبَثَ بِعَوَاطِفِ ٱمْرَأَةٍ وَيَحْتَقِرَهَا لأَنَّها صارَتْ مَا أَرَادَ ، وَيَشْنَأَهَا وَيَزْدَرِيهَا لِحُبِّها إِيَّاهُ ، وَيَتْرُكَهَا بَعْدَ أَنْ شَاطَرَهَا المَلَذَّاتِ الَّتِي تَرَكَتْ في أَحْشائِها حَسْرَةً وَمَرَارَة وَأَلَماً ! **دي سانكور**

هُوَ رُوحُ ٱلإِنْسانِ ٱلَّذي يَجْعَلُهُ يَقُولُ : سَأَكُونُ عَظِيماً ، وَلَكِنْ هُوَ عَطْفُ المَرْأَةِ الَّذي يَجْعَلُهُ غَالِباً عَظِيماً . **بيكونسفيلد**

لِيَحْذَرِ ٱلرِّجالُ مِنْ أَنْ يَكُونُوا سَبَبَ بُكَاءِ النِّسَاءِ ، لأَنَّ اللهَ يَعُدُّ دُمُوعَهُنَّ . **التلمود**

❊ ❊ ❊

**اَلمَرْأَةُ في اللُّغَة :**

٨ ـ اَلمَرْءُ : ٱلرَّجُلُ ، وَالأُنْثَىٰ : مَرْأَةٌ ، وَلِلْعَرَبِ في المَرْأَةِ ثَلاثُ لُغاتٍ ، يُقالُ : هي ٱمْرَأَتُهُ ، وَهِيَ مَرْأَتُهُ ، وَهِي مَرْتُهُ ، وَالمُرَيْئَةُ : تَصْغِيرُ المَرْأَةِ ، وَتَقُولُ : إِنَّ فُلاناً تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً ، تُرِيدُ : ٱمْرَأَةً كامِلَةً ، كَما يُقالُ : فُلانَ رَجُلٌ ، أَيْ : كامِلٌ في ٱلرِّجَالِ ، وَٱلنِّسْوَةُ وَالنُّسْوَةُ وَالنِّسْوَانُ ! جَمْعُ المَرْأَةِ عَلىٰ غَيْرِ قِياسٍ ، كما يُقالُ : ذَلِكَ وَأُولَئِكَ[1] ، وَالنِّسَاءُ جَمْعُ نِسْوَةٍ ، إِذَا كَثُرْنَ ،

(١) أَي : إِنَّ « أُولَئِكَ » جَمْعُ « ذَلِكَ » على غَيْرِ قِياسٍ .

وَالإِضَافَةُ إِلىٰ نِساءٍ : نِسْوِيٌّ ، فَرُدَّ إِلىٰ وَاحِدِهِ ـ وَهُوَ نِسْوَةٌ ـ وَتَصْغِيرُ نِسْوَةٍ : نُسَيَّةٌ ، وَيُقالُ : نُسَيَّاتٌ ، وَهُوَ تَصْغِيرُ الجَمْعِ ، هَذَا ، وَكَما يُقالُ لِلرَّجُلِ : مَرْءٌ ، وللأُنْثَىٰ : ٱمْرَأَةٌ ؛ يُقالُ لِلرَّجُلِ : إِنسانٌ ، وَلِلْمَرْأَةِ : إِنْسانٌ ، وَإِنْسانَةٌ ، وَإِنْ كانَتْ إِنْسَانَةٌ عامِّيَّةً . وَقَدْ وَرَدَتْ في أَشْعارِ العَرَبِ قَليلاً ، قَالَ أَعْرَابيٌّ [من البسيط] :

إِنْسَانَةُ ٱلْحَيِّ أَمْ أُدْمَانَةُ ٱلسَّمُرِ بِالنَّهْيِ رَقَّصَها لَحْنٌ مِنَ ٱلْوَتَرِ (١)

أَمَّا في شِعْرِ المُحْدَثِينَ ، فَقَدْ قالَ الثَّعالِبيُّ [راجع « القاموس المحيط » ، مادة : أنس ؛] [من مجزوء الرجز] :

لَقَدْ كَسَتْنِي فِي الهَوَىٰ مَلابِسَ ٱلصَّبِّ ٱلغَزِلْ
إِنْسَانَةٌ فَتَّانَةٌ بَدْرُ ٱلدُّجَىٰ مِنْهَا خَجِلْ
إِذا زَنَتْ عَيْنِي بِهَا فَبِالدُّمُوعِ تَغْتَسِلْ

وَحَكَىٰ الصَّفَدِيُّ في « شَرْحِ لامِيَّةِ العَجَمِ » أَنَّ ٱبْنَ المُسْتَكْفِي ٱجْتَمَعَ بِٱلْمُتَنَبِّي في مِصْرَ ، وَرَوَىٰ عَنْهُ قَوْلَهُ [من السريع] :

لاعَبْتُ بِٱلْخَاتَمِ إِنْسَانَةً كَمِثْلِ بَدْرٍ في ٱلدُّجَى النَّاجِمِ
وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَخْذِي لَهُ مِنَ البَنَانِ المُتْرَفِ النَّاعِمِ

---

(١) الأُدْمانَةُ : الظَّبْيَةُ يَعْلوها جُدَدٌ فيها غُبْرَةٌ ، وَتَسْكُنُ الجِبالَ ، وَهِيَ على أَلْوانِ الجِبَالِ . يُقالُ : ظَبْيَةٌ أَدْماءُ وأُدْمانَة ؛ وَالسَّمُرُ : شَجَرٌ صِغارُ الوَرَقِ قِصارُ الشَّوْكِ ؛ وَالنَّهي : الغَدِيرُ وَكُلُّ مَوْضِعٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ الماءُ ؛ وَاللَّحْنُ في الأَصْلِ : الغِنَاءُ وتَرْجِيعُ الصَّوتِ ؛ وَالوَتَرُ : أَحَدُ أَوْتارِ القَوْسِ وَالمِزْهرِ ؛ وَقالَ عُلماءُ البَيانِ : إِنَّ مِثْلَ هَذا البَيْتِ مِنْ قَبيلِ تجاهُلِ العارِفِ لِلتَّدَلُّه في الحُبِّ وَالدَّهَشِ ، وَبَعْدَهُ : [من البسيط]

يَا مَا أُمَيلِحَ غُزْلاناً شَدَنَّ لنا مِنْ هَؤليَّاء بَيْنَ الضَّالِ والسَّمَرِ
بِاللهِ يَا ظَبَيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لنا لَيْلايَ مِنْكُنَّ أَمْ لَيْلَىٰ مِنَ البَشَرِ

وَقَدْ نَسَبُوا هَذِهِ الأَبْياتَ لِبَدَوِيٍّ يُسَمَّىٰ : كاهِنٌ الثَّقَفِي ، وَيُنْسَبُ بَعْضُها لِغَيْرِه .

أَلْقَتْهُ في فِيها فَقُلْتُ ٱنْظُروا قَدْ أَخْفَتِ الخاتَمَ في الخاتَمِ

وَقالَ ٱبْنُ سُكَّرَةَ الهاشِمِيُّ مِنْ شُعَراءِ « يَتيمَةِ الدَّهْرِ » [من المنسرح] :

أَرْبَعَةٌ مَا ٱجْتَمَعْنَ في أَحَدِ في وَجْهِ إِنْسانَةٍ كَلِفْتُ بِهَا
فَالْخَدُّ وَرْدٌ وَالصُّدْغُ غالِيَةٌ وَالرِّيقُ خَمْرٌ وَالثَّغْرُ مِنْ بَرَدِ
لِكُلِّ جُزْءٍ مِنْ حُسْنِها بِدَعٌ تُودِعُ قَلْبِي وَدائِعَ ٱلْكَمَدِ

* * *

**ترتيب أسْنانِ النِّساءِ :**

٩ ـ قالَ ٱبْنُ الأَعْرابِيِّ : ٱلأُنْثىٰ تُسانُّ الذَّكَرَ حَتَّىٰ الكُعوب والشُّبُول ، فَالشُّبُولُ لِلذَّكرِ(١) ، وَالْكُعُوبُ لِلأُنْثىٰ . . . أَقولُ : وَعَلَىٰ هَذا يَكُونُ تَرْتِيبُ أَسْنَانِ المَرْأَةِ هَكَذا : هي طِفْلَةٌ ، ما دامَتْ صَغِيرَةً ، ثُمَّ وَلِيدَةٌ : إِذا تَحَرَّكَتْ ، وَرُبَّما سُمِّيَتْ غُلامَةٌ ، كما يُسَمَّىٰ الوَلَدُ غُلاماً مِنْ لَدُنْ فِطامِهِ إِلىٰ سَبْعِ سِنِينَ ، قَالَ أَوْسُ بْنُ غَلْفاءَ الهُجَيْمِيُّ يَصِفُ فَرَساً [من الوافر] :

أَعانَ عَلَىٰ مِراسِ ٱلْحَرْبِ زَغْفٌ مُضاعَفَةٌ لَها حَلَقٌ تُؤامُ
وَمُطَّرِدُ ٱلْكُعُوبِ وَمَشْرَفِيٌّ مِنَ الأُولَىٰ مَضارِبُه حُسَامُ
ومِرْكَضَةٌ صَريحِيٌّ أَبُوهَا تُهانُ لَهَا الغُلامَةُ وَالغُلامُ

زَغْفٌ : دِرْعٌ مُحْكَمَةٌ ؛ وتُؤامُ ، جمع تَوْأَم ، أي : مُزْدَوِج ؛ ومُطَّرِدُ الكعُوب ، يعني : الرِّمْحُ ؛ ومَشْرَفِيّ ، يَعْنِي : السَّيْفُ ؛ ومِركَضَةٌ ، أَيْ : أَنَّ هَذِهِ الفَرَسَ رَكّاضَةٌ تَرْكُضُ الأَرْضَ بِقَوائِمِها إذا عَدَتْ وَأَحْضَرَتْ ـ أَسْرَعَتْ ـ

---

(١) جاءَ في « اللِّسانِ » [ مادة : شبل ] شَبَلَ الغُلامُ يَشْبُلُ شُبُولًا : رَبا وَشَبَّ ، ولا يَكُونُ إِلّا في نَعْمةٍ ، أي : رَفِهٍ ، وَهُوَ شابِلٌ .

وَتُرْوَىٰ : « ومُرْكِضَةٌ » ، يُقَالُ : أَرْكَضَتِ الفَرَسُ فَهِيَ مُرْكِضَةٌ ومُرْكِضٌ : إِذا ٱضْطَرَبَ جَنِينُها في بَطْنِها ؛ وَالرِّوايَةُ الأُولَى أَنْسَبُ .

وَقالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ : إنَّ الغُلَامَ ـ وَمِثْلُه الغُلامَةُ ـ يُطْلَقَانِ حتى بَعْدَ البُلُوغ ؛ ثم كاعِبٌ وَكَعَابٌ ، وَهِيَ الَّتِي كَعَبَ ثَدْيُها ، وَذَلِكَ حِينَ يَبْدُو ثَدْيُها لِلنُّهودِ ، وَمِنْ طِبَاعِ الْكاعِبِ الصِّدْقُ في كُلِّ ما تُسْأَلُ عَنْهُ ، وقِلَّةُ الْكِتمانِ لِمَا عَلِمَتْهُ ، وَقِلَّةُ السِّتْرِ وَالحَياءِ ؛ ثُمَّ إِذَا هِيَ نَهَدَتْ فَهِيَ ناهِدٌ ، وَتُسَمَّىٰ : المُفَلِّكُ ، يُقَالُ : نَهَدَ الثَّدْيُ وَفَلَّكَ : إِذا ٱسْتَدارَ وَلَمْ يَتكامَلْ بَعْدُ شَبابُها ، فَتَسْتَتِرُ بَعْضَ الاسْتِتارِ ، وَتُظْهِرُ بَعْضَ مَحاسِنِها ، وَتُحِبُّ أَنْ يُتَأَمَّلَ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْها ، وَيُقالُ لِهَذِهِ : نَاشِىءٌ وَناشِئَةٌ ، كَما يُقالُ لِلْغُلام بَعْدَ الاحْتِلامِ : ناشِىءٌ ، وَهُمُ النَّشَأُ وَالنَّشْأُ ، قال نُصَيْبُ وَيُنْسَبُ لأَبِي نُواسٍ ، [من الوافر] :

وَلَـــولا أَنْ يُقَـــالَ صَبَـــا نُصَيْـــبٌ      لَقُلْـــتُ : بِنَفْسِـــي ٱلنَّشَـــأُ الصِّغَـــارُ

ثُمَّ هِي مُعْصِرٌ ، وَيُقال : مُعْصِرَةٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ [من الرجز] :

مُعْصِـــرَةٌ أَوْ قَـــدْ دَنَـــا إِعْصَـــارُهَـــا      يَنْحَـــلُّ مِـــنْ غُلْمَتِهـــا إِزَارُهـــا

وَهِيَ الَّتي ٱمْتَلأَتْ شَباباً وَٱسْتَكْمَلَ خَلْقُها وَعَظُمَ ثَدْياهَا ، وَقِيلَ : هِي الَّتِي قَد رَاهَقَتِ العِشْرِينَ ؛ وَمِنْ طَبائِعِ المُعْصِرِ أَنْ يَحْدُثَ عِنْدَها دَلالٌ وَأَدَبٌ ، وَتَحْلُوَ أَلْفاظُهَا ، وَيَعْذُبَ كَلامُها ، وَتَشْتَدَّ غُلْمَتُها ؛ وَيُقالُ لِلْمُعْصِرِ : مُخَبَّأَةٌ ، لأَنَّ الشَّأْنَ فِيها أَنْ تَسْتَتِرَ ، وَالعَرَبُ تَقُولُ : خُبَأَةٌ خَيْرٌ مِنْ يَفْعَةِ سَوْءٍ ، وَمَعْنَاهُ : بِنْتٌ تَلْزَمُ البَيْتَ تَخْبَأُ نَفْسَها فِيهِ خَيْرٌ مِنْ غُلامِ سَوْءٍ لا خَيْرَ فِيهِ ؛ أَمَّا قَوْلُهُمْ : ٱمْرَأَةٌ طُلَعَةٌ خُبَأَةٌ ، فَمَعْناهُ : الَّتي تَطَّلِعُ ثُمَّ تَخْبَأُ رَأْسَها ، وَهُوَ مَعْنَىٰ لا يَحْمَدُهُ العَرَبُ وَغَيْرُ العَرَبِ . ثُمَّ هِيَ عَانِسٌ ، إِذا جاوَزَتْ حَدَّ الإِعْصارِ ، وَتهيَّأَ ثَدْياهَا للانْكِسارِ ؛ وَعُنِّسَتْ : حُبِسَتْ عن الزَّوْجِ . وَعِبارَةُ أَبي عُبَيْدٍ : هِي الَّتِي تَعْجِزُ

في بَيْتِ أَبَوَيْها لا تَتَزَوَّجُ . . . وَقَدْ يَكُونُ العانِسُ لِلرَّجُلِ ، وَأَنْشَدُوا [من البسيط] :

مِنَّا الَّذِي هُو مَا إِنْ طَرَّ شَارِبُهُ وَالْعَانِسُونَ وَمِنَّا المُرْدُ وَالشِّيْبُ[1]

قَالُوا : وَمِنْ طَبِيعَةِ العَانِسِ أَنْ تُحَسِّنَ مِشْيَتَهَا وَمَنْطِقَهَا ، وَتُبْدِيَ مَحَاسِنَها بِغُنْجٍ وَدَلَالٍ ، وَأَحَبُّ الأَشْياءِ إِلَيْها مُفَاكَهَةُ الرِّجالِ وَمَداعَبَتُهُمْ ، وَهِيَ في هَذِهِ الحالَةِ قَوِيَّةُ الشَّهْوَةِ مُسْتَحْكَمَتُها ؛ ثُمَّ هِيَ مُسْلِفٌ وَنَصَفٌ وَعَوَانٌ ، وَهِيَ الَّتِي قَدْ بَلَغَتْ خَمْساً وَأَرْبَعِينَ سَنَةً وَنَحْوها ، وَهَذِهِ قَدْ تَناهَىٰ شَبَابُها وَأَخَذَ مَاءُ وَجْهِها في النَّقْصِ ، وَلَحْمُها في الاسْتِرْخاءِ ، وَهِيَ الَّتِي قالُوا فِيها [من البسيط] :

لا تَنْكِحَنَّ عَجُوزاً إِنْ أُتِيتَ بِهَا وَٱخْلَعْ ثِيَابَكَ مِنْها مُمْعِناً هَرَباً
وَإِنْ أَتَوْكَ وَقَالُوا إِنَّها نَصَفٌ فَإِنَّ أَمْثَلَ نِصْفَيْها الَّذِي ذَهَبا

وَمِنْ شِنْشِنَةِ المُسْلِفِ هَذِهِ أَنْ تُلاطِفَ الرِّجالَ وَتَحْرِصَ أَشَدَّ الحِرْصِ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ هي شَهْرَبَةٌ وشَهْبَرَةٌ وَشَهْلَةٌ كَهْلَةٌ : إِذَا كانَتْ مُسِنَّةً وَفِيها قُوَّةٌ ، ثُمَّ هِيَ حَيْزَبُونٌ : إِذَا كانَتْ عالِيَةَ السِّنِّ ناقِصَةَ القُوَّةِ ، ثُمَّ هِيَ لَطْلَطٌ : إِذَا قَوَّسَتْ وَٱنْحَنَتْ وَسَقَطَتْ أَسْنَانُها .

* * *

**كناياتهم عن المرأة :**

١٠ ـ العرب تَكْنِي عن المَرْأَةِ بِالجارَةِ ، وَالطَّلَّةِ ، وَالحَرْثِ ، وَالفِراشِ ، وَالسَّرْحَةِ ، وَالعَتَبَةِ ، والقارُورَة ، وَالنَّعْجَةِ ـ البَقَرَةِ الوَحْشِيَّة ـ والشَّاةِ ـ أي :

---

(١) ما إِنْ طَرَّ شارِبُه ، أي : ما طَرَّ شارِبُهُ ، فـ « إِنْ » زائِدَةٌ ، وَ« ما » نافية ، وَطَرَّ شارِبُهُ : طَلَعَ وَنَبَتَ ، من باب نَصَرَ وضَرَبَ ؛ والمُرْدُ ، جَمْعُ أَمْرَدٍ ، والشِّيبُ ، جَمْع أَشْيَب . وفي هذا البَيْتِ عُيُوبٌ ، منها . أَنَّ ذِكْرَ المُرْدِ لا يَحْسُنُ ، لأَنَّ الَّذي لم يَنْبُتْ شارِبُهُ أَمْرَدٌ . ٱنْظر « المُغْنِي » لابن هشام مادة « ما » .

الظَّبْيَةِ ـ والقَلُوصِ ـ الفَتِيَّةِ مِنَ الإِبِلِ ـ وَالقَوْصَرَة .

١١ ـ فأمَّا الْجَارَةُ ، فيقولُ الأَعْشَى [من الطويل] :

* أَيَا جَارَتَا بِينِي فَإِنَّك طَالِقَهْ[١] *

وَقالَ في « اللسان » [مادة : جور] : وَالمَرْأَةُ جَارَةُ زَوْجها ، لأَنَّهُ مُؤْتَمَرٌ عَلَيْها ، وَأُمِرْنَا أَنْ نُحْسِنَ إِلَيْها ، وَأَنْ لا نَعْتَدِيَ عَلَيْها ، لأَنَّها تَمَسَّكَتْ بِعَقْدِ حُرْمَةِ الصِّهْر ، وَصارَ زَوْجُها جَارَها ، لأَنَّهُ يُجيرُها وَيَمْنَعُها وَلا يَعْتَدِي عَلَيْها .

١٢ ـ وَأمَّا الطَّلَّةِ ، فَهِي أَصِيلَةٌ عِنْدَ بَعْضِهِمْ ، وَكِنايَةٌ عِنْدَ آخَرِينَ ، وَالطَّلَّةُ أَيْضاً : الزَّوْجَةُ كما سَيَأْتِي [ راجع رقم : ٣١ ] ، قالَ الشَّاعِرُ [من الطويل] :

وَإِنِّي لَمُحْتَاجٌ إِلىٰ مَوْتِ طَلَّتِي ... وَلَكِنْ قَرِينُ السُّوءِ بَاقٍ مُعَمَّرُ

فَيَالَيْتَها صَارَتْ إِلىٰ القَبْرِ عَاجِلًا ... وَعَذَّبَها فِيهِ نَكِيرٌ وَمُنْكَرُ

وَقالَ عَمْرُو بنُ حَسَّانَ [من الوافر] :

أَفِي نَابَيْنَ نَالَهُما إِسَافٌ ... تَأَوَّهُ طَلَّتِي مَا إِنْ تَنَامُ

النَّابُ : الشَّارِفُ من النُّوقِ ، وَإِسافُ : ٱسْمُ رَجُلٍ .

١٣ ـ وأمَّا الحَرْثُ ، فَفي القُرْآنِ الْكَرِيمِ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [٢ سورة

---

(١) يُروىٰ أَنَّ الأَعْشَى كانَ مُتَزَوِّجاً بامرأةٍ مِنْ عَنَزَةَ ، فَأَتاهُ أَخْتانُهُ وقالوا لَهُ : وَاللهِ لا نَرْفَعُ عَنْكَ العَصا حَتَّى تُطَلِّقَ ٱمْرَأَتَكَ ، فَإِنَّكَ قَدْ أَضْرَرْتَ بِها ؛ فقال [من الطويل] :

أَيَا جَارَتَا بِينِي فَإِنَّكِ طَالِقَهْ ... كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَهْ

فَقَالوا : وَاللهِ لا نَرْفَعُها عَنْكَ حَتَّى تُثَنِّي ؛ فَقَالَ :

بِينِي فَإِنَّ البَيْنَ خَيْرٌ مِنَ العَصَا ... وَأَنْ لا تَزَالُ فَوْقَ رَأْسِ بَارِقَهْ

فَقالُوا : حَتَّى تُثَلِّثَ ؛ فَقَالَ :

وَبِينِي حَصَانَ الفَرْجِ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ ... وَمَوْمُوقَةً قَدْ كُنْتِ فِينَا وَوامِقَهْ

البقرة/ الآية : ٢٢٣] قال في « اللسان » [ مادة : حرث ] : وَالمَرْأَةُ حَرْثُ الرَّجُلِ ، أي : يَكونُ وَلَدُهُ مِنْها كَأَنَّهُ يَحْرُثُ لِيَزْرَعَ ، وَأَنْشَدَ المُبَرِّدُ [من الوافر] :

إِذَا أَكَلَ ٱلْجَرَادُ حُرُوثَ قَوْمٍ فَحَرْثِي هَمُّهُ أَكْلُ ٱلْجَرادِ

يعني بِحَرْثِهِ : ٱمرأتَهُ .

١٤ ـ وأَمَّا الفِراشُ ، فَقَد قال تَعالىٰ في وَصْفِ نِساءِ ٱلْجَنَّةِ : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [٥٦ سورة الواقعة/ الآية : ٣٤] يعني : نِساءُ أَهْلِ الجَنَّة ذَوات الفُرُشِ ؛ ومَرْفوعَةٌ ، أَيْ : رُفِعْنَ بِالجَمالِ عَنْ نِساءِ أَهْلِ الدُّنْيا ، وَكُلُّ فاضِلٍ رَفِيعٌ ، أَلا تَراهُ يَقُولُ عَلىٰ إِثْرِها : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ [٥٦ سورة الواقعة/ الآيتان : ٣٥ و٣٦] وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قالَ لِرَجُلٍ أرادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ : ٱسْتَوْثِرْ فِراشَكَ ، أَيْ : تَخَيَّرَ السَّمِينَةَ مِنَ النِّساءِ ، وَيُقالُ : فُلانٌ كَرِيمُ المَفارِشِ : إِذا تَزَوَّجَ كَرائِمَ النِّساءِ .

١٥ ـ وَأَمّا السَّرْحَةُ ـ وَهِي : الشَّجَرَةُ ـ فَقَدْ قَالَ ٱلإِمَامُ ٱلأَزْهَرِيُّ [« لسان العرب » ، مادة : سرح] : ٱلْعَرَبُ تَكْنِي عَنِ ٱلْمَرْأَةِ بِٱلسَّرْحَةِ ٱلنَّابِتَةِ عَلَىٰ ٱلْمَاءِ . وَمِنْهُ قَوْلُ إِسحاقَ بْنِ إِبراهِيمَ المَوْصِلِيِّ [من البسيط] :

يا سَرْحَةَ المَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوارِدُهُ أَمَا إِلَيْكِ طَرِيقٌ غَيْرُ مَسْدُودِ

لِحَائِمٍ حَامَ حَتَّىٰ لا حَرَاكَ بِهِ مُحَلأٍّ عَنْ طَرِيقِ الوِرْدِ مَرْدُودِ(١)

كَنَى بِالسَّرْحَةِ النَّابِتَةِ على الماءِ عَنِ المَرْأَةِ ، لأَنَّها حِينَئِذٍ أَحْسَنُ ما تَكُونُ .

وَقالَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ [من الطويل] :

---

(١) حَلأَ الإِبلَ وَالماشِيَةَ عَنِ الماءِ تَحْلِيئاً وَتَحْلِئَةً : طَرَدَها ، أَوْ حَبَسَها عَنِ الوُرُودِ وَمَنَعَها أَنْ تَرِدَهُ ، وَالحائِمُ : العَطْشانُ يَحُومُ حَوْلَ الماءِ .

أَبَـىٰ ٱللهُ إِلَّا أَنَّ سَـرْحَـةَ مَـالِـكٍ     عَلَـىٰ كُـلِّ أَفْنَـانِ العِضَـاةِ تَـرُوقُ(١)

كَنَى عَنِ ٱمْرَأَةِ مالِكٍ بِسَرْحَةِ مَالِكٍ أَحْسَنَ كِنايَةٍ ، وَعَبَّرَ عَنْ تَفَوُّقِها في الحُسْنِ على سائِرِ الغَوَانِي أَحْسَنَ عِبارَةٍ ، وَالعِضَاةُ : أَعْظَمُ الشَّجَرِ ، وَقِيلَ : ٱسْمٌ يَقَعُ على ما عَظُمَ مِنْ شَجَرِ الشَّوْكِ وَطَالَ وَٱشْتَدَّ شَوْكُهُ ، والواحِدُ : عِضَاهَةٌ .

١٦ ـ وَأَمَّا العَتَبَةُ ، فقد رَوَوْا أَنَّ إِبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ زَارَ ٱبْنَهُ إِسْماعِيلَ وَهُوَ في مَكَّةَ ، فوافَقَ حُضُورُهُ غَيْبَتَهُ عَنْ مَنْزِلِهِ ، فَقَدِمَتْ عَلَيْهِ ٱمْرَأَتُهُ ، وَأَخْبَرَتْهُ بِسُوءِ حالِهِ ، وَلَمْ تَعْرِضْ عَلَيْهِ القِرَىٰ ، فَقَالَ لَها : قُولي لابْنِي : إِنَّ أَباكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُغَيِّرَ عَتَبَتَكَ ؛ فَلَمَّا رَجَعَ إِسْمَاعِيلُ وَقَصَّتْ عَلَيْهِ المَرْأَةُ القِصَّةَ طَلَّقَها في السَّاعَةِ ٱمْتِثالًا لِأَمْرِ أَبِيهِ ، لأَنَّ قَوْلَهُ : غَيِّرْ عَتَبَتَكَ ، كِنَايَةٌ عَنْ طَلَاقِهَا .

١٧ ـ وَأَمَّا القَارُورَةُ ، ففي الحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قالَ لأَنْجَشَةَ وَهُوَ يَحْدُو بالنِّساءِ : « رِفْقًا أَنْجَشَةُ بالقوارِيرِ » [راجع البخاري ، رقم : ٥٦٨٣ ؛ مسلم ، رقم : ٤٢٨٧ ـ ٤٢٩٠] أَرادَ بالقَوارِير النِّسَاءَ .

١٨ ـ وَأَمَّا النَّعْجَةُ والشَّاةُ ؛ والنَّعْجَةُ في الأصل : البَقَرَةُ الوَحْشِيَّة ، قالَ أَبو عُبَيْدٍ [« لسان العرب » ، مادة : نعج] : ولا تُقالُ لِغَيْرِ البَقَرِ مِنَ الوَحْشِ ، قال عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبِيعَةَ [من الخفيف] :

---

(١) تَرُوقُ ، أَي : تَزِيدُ عَلَيْها بِحُسْنِها وَبَهَائِها ، مِنْ قَوْلِهِمْ : رَاقَ فلانٌ عَلىٰ فُلان : إِذَا زَادَ عَلَيْهِ فَضْلًا ، وَحُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ هَذَا قَدْ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ، وَكانَ عُمَرُ قَدْ تَقَدَّمَ إِلىٰ الشُّعَراءِ أَنْ لا يُشَبِّبَ أَحَدٌ بِٱمْرَأَةٍ إِلا جَلَدَهُ ، فَقالَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ قَصِيدَتَهُ القافِيَةَ الَّتي مِنْها هذا البَيْتُ « انظر « الأغاني » طبعة دار الكتب ، ج٤ ، ص٣٥٦ » .

قُلْتُ إِذْ أَقْبَلَتْ وَزُهْرٌ تَهَادَىٰ كَنِعَاجِ المَلا تَعَسَّفْنَ رَمْلا[١]

وَقالَ ذُو الرُّمَّةِ يَصِفُ رَمْلَةً ، واحدة الرَّمْلِ [من الطويل] :

إِذَا ما عَلاها رَاكِبُ الضِّيفِ لَمْ يَزَلْ يَرَىٰ نَعْجَةً في مَرْتَعٍ فَيُثِيرُهَا
مُوَلَّعَةً خَنْسَاءَ لَيْسَتْ بِنَعْجَةٍ يُدَمِّنُ أَجْوَافَ المِيَاهِ وَقِيرُهَا

يقولُ : هِيَ نَعْجَةٌ وَحْشِيَّةٌ لا إِنْسِيَّةٌ تُدَمِّنُ أولادُها أَجْوافَ المِياهِ ؛ وَالضِّيفُ : جانِبُ الجَبَلِ أو الوَادِي ؛ ومُوَلَّعَةٌ : مخطوطَةَ القَوائِمِ ؛ والخَنْسَاءُ : قَصِيرَةُ الأَنْفِ عَرِيضَةُ الأَرْنَبَةِ ، والبَقَرُ كُلُها خُنْسٌ ؛ ويُدَمِّنُ : يُغَيِّرُ ، مِنْ دَمَّنَتِ الماشِيَةُ المَكانَ : بَعَرَتْ فِيهِ وبالَتْ ؛ وَالوَقِيرُ : صِغارُ الغَنَمِ وَأَوْلادُها .

أَقولُ : أمّا النَّعْجَةُ ففي قِصَّةِ داودَ في القُرْآنِ الكريم : ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [٣٨ سورة ص/الآية : ٢٣] فَجَعَلَ النَّعْجَةَ كِنايَةً عن المَرْأَةِ .

١٩ ـ وَأَمَّا الشَّاةُ ، وَمُرَادُهُم الظَّبْيَةُ أَوِ البَقَرَةُ الوَحْشِيَّةُ ؛ فَقَدْ قالَ الأَعْشَىٰ [من الكامل] :

قَدْ كُنْتُ رَائِدَهَا ، وَشَاةِ مُحاذِرٍ حَذِرٍ يُقِلُّ بِعَيْنِهِ إِغْفَالَهَا
فَظَلَلْتُ أَرْعاها وَظَلَّ يَحُوطُها حَتَّىٰ دَنَوْتُ إِذِ الظَّلامُ بَدَا لَهَا
فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شاتِهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها وَطِحالَهَا[٢]

---

(١) الزُّهْرُ ، جَمْعُ زَهْراء ، وهِيَ : البَيْضاءُ المُشْرِقَةُ ؛ وَتهادَىٰ ، أَي : يَمْشِينَ مَشْياً رُوَيْداً بِسُكونٍ ؛ شَبَّهَ النِّساءَ بِبَقَرِ الوَحْشِ في سُكُونِ المَشْيِ في الرَّمْلِ ؛ وَتَعسَّفْنَ : رَكِبْنَ ، وَإِذَا مَشَتِ البَقَرُ في الرَّمْلِ كانَ أَسْكَنُ لِمَشْيِها لِصُعوبَةِ المَشْيِ فِيه .

(٢) قَدْ كُنْتُ رائِدَها ، فالضميرُ يَعودُ إِلى ما في البَيْتِ قَبْلَهُ ، ثُمَّ قالَ : وَرُبَّ شَاةِ رَجُلٍ مُحاذِرٍ يَقِلُّ=

وَقَالَ عَنْتَرَةُ في مُعَلَّقَتِهِ [من الكامل] :

يَا شَاةَ مَا قَنَصٍ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ ... حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ[١]

فَبَعَثْتُ جارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا ٱذْهَبِي ... فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِيَ وَٱعْلَمِي

قَالَتْ : رَأَيْتُ مِنَ الأَعَادِي غِرَّةً ... وَالشَّاةُ مُمْكِنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمِ[٢]

٢٠ ـ وَأَمَّا القَلُوصُ ـ وَالقَلُوصُ في الأَصْلِ : النَّاقَةُ الشَّابَّةُ ـ فقد كَتَبَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ ـ وَٱسْمُهُ بُقَيْلَةُ الأَكْبَرُ الأَشْجَعِيُّ ، وَكُنْيَتُهُ أَبُو المِنْهالِ ـ إِلىٰ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ مِنْ مَغْزًى لَهُ في شَأْنِ رَجُلٍ كانَ يُخالِفُ الغُزاةَ إلى المُغِيبَاتِ[٣] ، وَهَذَا الرَّجُلُ يُسَمَّىٰ جَعْدَةَ بْنَ عَبْدِ اللهِ السُّلَمِيَّ ، وَكَانَ وَالِياً عَلىٰ مَدِينَتِهِمْ ، قالُوا : وَكانَ يُخْرِجُ الجَوارِيَ إلى سَلْعٍ ـ جَبَلٍ ـ عِنْدَ خُرُوجِ أَزْواجِهِنَّ إِلىٰ الغَزْوِ ، فيُعَقِّلُهُنَّ كَأَنَّه زَوْجُهُنَّ ، فَكَتَبَ أَبُو المِنْهالِ إِلىٰ عُمَرَ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ

---

= إِغفالُ عَيْنِه ، فَظَلَلْتُ أُراقِبُ الشَّاةَ ـ أَي : ٱمْرأتَهُ الجميلَةَ ـ وَظَلَّ هُو يَحْفَظُها حَتَّىٰ قَرُبْتُ مِنْها حِينَ قَرُبَ الظَّلامُ وَدَخَلَ اللَّيْلُ ، فَرَمَيْتُ شاتَهُ حِينَ غَفْلَةِ عَيْنِه عَنْ شاتِهِ الَّتِي كانَ يَحْفَظُها ـ وَفِيه نَوْعُ تَهَكُّمٍ ـ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِها ـ أَي : وَسَطَهُ ـ وَأَصَبْتُ طِحالَها . شَبَّهَ حالَةَ ظَفَرِهِ بِمُرادِهِ على حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ الرَّقِيبِ وَإِصابَةِ أَحْشاءِ المَرْأَةِ بِالحُبِّ بِحالِ مَنْ ظَفِرَ بِرَمْيِ الشَّاةِ بِالسَّهْمِ علىٰ غَفْلَةٍ من الرَّاعِي ، وقَدْ عابُوا عَلَيْه قَوْلَهُ : وَطِحالَها ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أُدباءَ الشُّعَراءِ إِنَّما يَذْكُرُونَ الفُؤادَ وَالقَلْبَ وَالكَبِدَ عِنْدَ ذِكْرِ الهَوَىٰ وَغَلَبَةِ الشَّوْقِ لِمَا يَجِدُونَهُ في هَذِهِ الأَعْضاءِ مِنْ حَرارَةِ الوَجْدِ ، وَلَمْ يَجِدُوا لِلطِّحالِ في هَذِهِ الحالِ حَرارَةَ عِشْقٍ أَوْ نارَ حُزْنٍ ، فَلَمْ يَذْكُرُوهُ .

(١) ما : زائدةٌ ، يقولُ : يا هؤلاء ٱشْهَدُوا شاةَ قَنَصٍ لمَنْ حَلَّتْ لَهُ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْ حُسْنِها وَجَمالِها ، فَإِنَّها حازَتْ أَتَمَّ الجمالِ ، وَالمَعْنَىٰ : هي حَسْناءُ جَميلَةٌ مَقْنَعٌ لِمَنْ كَلِفَ بها وَشَغَفَ بِحُبِّها ، وَلَكِنَّها حَرُمَتْ عَلَيَّ ، وَلَيْتَها لم تُحْرَمْ ، أَي : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَتَزَوَّجْها ، وَقِيل : أَرادَ بِذَلِكَ أَنَّهَا حَرُمَتْ عَلَيْهِ باشْتِباكِ الحَرْبِ بين قَبِيلَتَيْهِما .

(٢) يقولُ : فقالَتْ جارِيَتِي : صادَفْتُ الأَعادِي غافِلِينَ عَنْها ، وَرَمْيُ الشَّاةِ مُمْكِنٌ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَرْتَمِيها ، يُرِيدُ : أَنَّ زِيارَتَها مُمْكِنَةٌ لِطالِبِها لِغَفْلَةِ الرُّقَباءِ عَنْها .

(٣) المُغِيبَةُ : التي غابَ عَنْها زَوْجُها .

[من الوافر] :

أَلا أَبْلِغْ أَبَا حَفْصٍ رَسُولًا ... فِدًى لَكَ مِنْ أَخِي ثِقَةٍ إِزَارِي

قَلائِصَنَا هَدَاكَ ٱللهُ إِنَّا ... شُغِلْنَا عَنْكُمْ زَمَنَ الحِصَارِ

فَمَا قُلُصٌ وُجِدْنَ مُعَقَّلاتٍ ... قَفَا سَلْعٍ بِمُخْتَلَفِ التِّجَارِ

يُعَقِّلُهُنَّ جَعْدَةُ مِنْ سُلَيْمٍ ... وَبِئْسَ مُعَقِّلُ الذَّوْدِ الْخِيَارِ

أراد بالقلائِصِ النِّساءَ ، وَنَصَبَ قلائصَنا عَلَى ٱلمَفْعُولِ بإضْمَارِ فِعْلٍ ، أَيْ : تَدارَكْ قلائِصَنَا ؛ وَكَنَىٰ بالإزارِ في البَيْتِ الأَوَّلِ عَنِ المَرْأَةِ أَوِ النَّفْسِ ، يَقولُ : نَفْسِي وَأَهْلِي فِدًىٰ لَكَ ، وقولُهُ : فما قُلُصٌ وُجِدْنَ مُعَقَّلاتٍ ، يعني : نِساءٌ مُعَقَّلاتٌ لأَزْواجِهِنَّ كما تُعَقَّلُ النُّوقُ عِنْدَ الضِّرابِ ؛ وَسَلْع : جَبَلٌ ؛ وَقَفاهُ : وراءُهُ وَخَلْفُهُ ؛ وَمُخْتَلَفُ التِّجارِ ، أَي : في حَيْثُ يَخْتَلِفُ التُّجَّارُ ؛ وقولُهُ : يُعَقِّلُهُنَّ جَعْدَةُ ، أَرادَ أَنَّهُ يَتعرَّضُ لَهُنَّ ، فَكَنَىٰ بِالعَقْلِ عَنِ الجِماعِ ، أَيْ : إِنّ أَزْوَاجَهُنَّ يَعْقِلُونَهُنَّ وَهُوَ يُعَقِّلُهُنَّ أَيْضاً ، كَأَنَّ البَدْءَ للأَزْواجِ ، والإِعادَةَ لَهُ ؛ وَالذَّوْدُ : القَطِيعُ من الإِبِلِ ، وَالمُرادُ النِّساءُ .

فلما وَقَفَ عُمَرُ علىٰ الأَبْياتِ عَزَلَهُ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ الأَمْرِ ، فَٱعْتَرَفَ ، فَجَلَدَهُ مِئَةَ مَعْقُولًا ـ مَشْدُوداً بِالعقالِ ـ وَأَطْرَدَهُ إِلىٰ الشَّام ، ثُمَّ سُئِلَ فِيهِ أَنْ يَدْخُلَ لِيُجَمِّعَ ـ أَيْ : يُصَلِّي صلاةَ الجُمُعَةِ ـ فَكانَ إِذَا رَآهُ عُمَرُ تَوَعَّدَهُ ، فَقَالَ [من الوافر] :

أَكُلَّ الدَّهْرِ جَعْدَةُ مُسْتَحِقٌّ ... أَبَا حَفْصٍ لِشَتْمٍ أَوْ وَعِيدِ

فَمَا أَنَا بِالْبَرِيءِ بَراهُ عُذْرٌ ... وَلا بِالخَالِعِ الرَّسَنِ الشَّرُودِ

[راجع القصة في « الإصابة » ترجمة : جعدة السُّلَمِيّ ١/٥٢٩ ، وكذلك « لسان العرب » مادة : عقل]

٢١ ـ وَأمَّا القَوْصَرَةُ أَو القَوْصَرَّةُ ـ وَهِيَ في الأَصْلِ : وِعاءٌ مِنْ قَصَبٍ ـ بُوصٍ ـ يُرْفَعُ فِيهِ التَّمْرُ من البَوَارِي ـ جمع بارِيّة : الحَصِيرِ المَنْسُوجِ ـ فقد قال الرَّاجِزُ ، وَيُنْسَبُ إلى عَلِيٍّ ٱبْنِ أَبي طالِبٍ ، وَإِنِّي أَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ أَبَا عُذْرِ هَذا الرَّجَزِ [من الرجز] :

أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ قَوْصَرَهْ ... يَأْكُلُ مِنْها كُلَّ يَوْمٍ مَرَّهْ

أراد بالقَوْصَرَّةِ المَرْأَةَ ، وَبالأَكْلِ النِّكاحَ ، وَبَعْدَ هَذا البَيْتِ :

أَفْلَحَ مَنْ كَانَ له مِزَخَّهْ ... يَزُخُّها ثُمَّ يَنَامُ ٱلْفَخَّهْ

[وراجع القصة في « البداية والنهاية » لابن كثير ، الجزء الثامن ، السنة الأربعون] .

والمِزَخَّةُ أَيْضاً : زَوْجَةُ الرَّجُلِ لأَنَّهُ يَزُخُّهَا ، أَيْ : يُجامِعُها ؛ وَالفَخّةُ : نَوْمَةُ الغَداةِ أَوْ نَوْمَةُ التَّعَبِ . وَبَعْدَ هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ :

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ دَوْخَلَّهْ ... يَأْكُلُ مِنْها كُلَّ يَوْمٍ مَلَّهْ[1]

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ هِرْشَفَّهْ ... وَنَشْفَةٌ يَمْلأُ مِنْها كَفَّهْ[2]

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ كِرْديدَهْ ... يَأْكُلُ مِنْها وَهَوْ ثانٍ جِيدَهْ[3]

وأَمَّا البَيْتُ ، فَقَدْ قالَ الرَّاجِز :

---

(١) ٱلدَّوْخَلَّةُ : سَفِيفَةٌ ـ نَسِيجٌ ـ من خُوصٍ يُوضَعُ فِيها التَّمْرُ وَالرُّطَبُ ، أَشْبَهُ بِالزِّنْبِيلِ ، وَٱلمَلَّةُ : المَرَّةُ .

(٢) الهِرْشَفَّةُ : خِرْقَةٌ يُنَشَّفُ بِها ماءُ المَطَرِ مِنَ الأَرْضِ ، ثُمَّ تُعْصَرُ في الجُفِّ ـ ضَرْبٌ مِنَ الأَوْعِيَةِ ـ وَيَكُونُ ذلك مِنْ قِلَّةِ الماءِ ؛ أَمَّا النَّشْفَةُ ، فهي : الحِجارَةُ السُّودُ كَأَنَّها مُحْتَرِقَةٌ تُدَلِّكُ بها الأَقْدامُ وَيُحَكُّ بها الوَسَخُ عَنِ الرِّجْلِ وَاليَدِ . [كذا فَسَّرَ البرقوقي النَّشْفَة ، ولعل الصواب وهو المناسب أن يقول كما جاء في « القاموس » : خِرْقَةٌ يُنَشَّفُ بها ماءُ المَطَرِ ، وَتُعْصَرُ في الأَوْعِيَة] .

(٣) الكِرْدِيدَة : القِطْعَةُ العَظِيمَةُ من التَّمْرِ ؛ وهو ثانٍ جِيدَهُ ، يريد : وَهُوَ في راحَةٍ وَدَعَةٍ .

* أَكِبْــرٌ غيَّــرَنــي أَمْ بَيْــتُ *

يريد ٱمْرَأتَهُ .

٢٢ ـ وأمَّا الدُّمْيَةُ ـ وهي في الأَصْلِ : الصُّورَةُ المنَقَّشَةُ يُتَنَمَّقُ في صَنْعَتِها وَيُبالَغُ في تَحْسِينِها ـ وَيُكْنَىٰ بها عَنِ المَرْأَةِ . فَقَدْ قالَ الشَّاعِرُ سُلْمِيُّ بنُ رَبِيعَةَ ـ شَاعِرٌ جاهِلِيٌّ ـ وهذه الأبيات في « حَماسَةِ أبي تَمَّامٍ » [من مخلّع البسيط] :

إنَّ شِــــواءً وَنَشْــــوَةً ... وَخَبَــبَ البَــازِلِ الأَمُــونِ(١)

يُجْشِمُهــا المَــرْءُ فــي الهَــوَىٰ ... مَسَــافَــةَ الغَــائِــطِ البَطِيــنِ(٢)

وَالبِيْــضُ يَــرفُلْــنَ كَــالــدُّمَــىٰ ... في الرِّيَــطِ وَالمُذْهَــبِ المَصُــونِ(٣)

وَالكُثْــرَ وَالخَفْــضَ آمِنــاً ... وَشِــرَعَ المِــزْهَــرِ الحَنُــونِ(٤)

مِــنْ لَــذَّةِ العَيْــشِ وَالفَتَــىٰ ... لِلــدَّهْــرِ وَالــدَّهْــرُ ذُو فُنُــونِ(٥)

---

(١) الشِّواءُ : اللَّحْمُ المَشْويّ ؛ والنَّشْوَةُ : السُّكْرُ ؛ وَالخَبَبُ : السُّرْعَةُ ، وهو ضَرْبٌ من الجَرْيِ ؛ وَيُقالُ للنَاقَةِ وَالبَعِيرِ إذِ ٱسْتَكْمَلَ السَّنَةَ الثامِنَةَ وَطَعَنَ في التَّاسِعَةِ وَفَطرَ نابُهُ ، أي : ٱنْشَقَّ : بازِلٌ ؛ وَناقَةٌ أَمُونُ : وثيقة الخَلْقِ ، قَدْ أَمِنَتِ العِثارَ وَالإعْياءَ ، أي : لَيْسَتْ ضَعِيفَةً .

(٢) « يُجْشِمُها المَرْءُ » صِفَةٌ لِبازِلٍ ، أَي : يُكَلِّفُها صاحِبُها قَطْعَ المسافَةِ البَعِيدَةِ فيما يَهْواهُ ؛ والغائِطُ : المُطْمَئِنُّ من الأَرْضِ ؛ والبَطِينُ : الواسِعُ الغامِضُ .

(٣) البِيضُ : النِّساءُ ؛ وَالرِّيَط ، جمع رِيطَة ، وَهِي : المُلاءَةُ ؛ والمُذْهَبِ : ما حُبِكَ نَسْجُهُ من الثياب بخيوطٍ من الذَّهَبِ ؛ وَيَرْفُلْنَ : يَتَبَخْتَرْنَ .

(٤) الكُثْرُ ، يعني به كَثْرَةَ المالِ ؛ وَالخَفْضُ : الدَّعَةُ ؛ وَآمِناً : نَصْبٌ على الحالِ ؛ والشِّرَعُ ، جَمْعُ شِرْعَةٍ ، وهي : الوَتَرُ .

(٥) « من لذة العيش » خَبَرُ « إنَّ » في البَيْتِ الأَوَّلِ ؛ يَقولُ هَذا الشَّاعِرُ : إنْ أَكْلَ الشِّواءِ وشُرْبَ الخَمْرِ وَإعْمالَ النَّاقَةِ في مآرِبِ الإِنْسانِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِما ذَكَرَ ، لَذَّةٌ يُصِيبُها المَرْءُ في الحياةِ ؛ وَقَوْلُهُ : « والفتىٰ لِلدَّهْرِ وَالدَّهْرُ ذُو فُنُونِ » يَقولُ : إنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا يَلَذُّ الإنسانَ في هَذِهِ الحياةِ ما دَامَ الإِنْسانُ مُسْتَهْدَفاً فِيها للدَّهْرِ ذي الغِيَرِ وَالأفانِينِ ؛ فَالواوُ في قوله : « والفَتَىٰ » واوُ الحال .

٢٣ ـ هَذا وَقَدْ كَنَىٰ ٱبْنُ العَمِيدِ وَالصَّاحِبُ ٱبْنُ عَبَّادٍ وَأَبُو إِسْحاقَ الصَّابي وَطَبَقَتُهُمْ ، عن البِنْتِ بالكَرِيمَةِ ، وعن الصَّغِيرَةِ بالرَّيْحانَةِ ـ وَالرَّيْحانَةُ أَيْضاً : كِنايَةُ الزَّوْجَةِ ـ ، وَعَنِ الأُمِّ بالبَرَّةِ والْحُرَّةِ ، وَعَنِ الأُخْتِ بالشَّقِيقَةِ ، وَعَنِ الزَّوْجَةِ بِكَبِيرَةِ البَيْتِ ، وَعَنِ الحَرِيمِ بمَنْ وَراءَ السِّتْرِ ، وَعِنِ الزِّفَافِ بتأْلِيفِ الشَّمْلِ ؛ وَهَذا بابٌ واسِعٌ ، وَلِلأُدَباءِ فِيهِ افْتِنانٌ .

٢٤ ـ وِمِنْ طَرِيفِ ذلك أَنَّهُ لما أَهْدَىٰ خُمَارَوَيْه بنُ أَحْمَدَ بنِ طُولونَ ٱبْنَتَهُ قَطْرَ النَّدَىٰ إلىٰ المُعْتَضِدِ العَبَّاسِيِّ كَتَبَ إِلَيْهِ يُذَكِّرُهُ حُرْمَةَ سَلَفِها بِسَلَفِه ، وَيَصِفُ ما يَرِدُ عَلَيْها مِنْ أُبَّهَةِ الخِلافَةِ وَرَوْعَةِ السُّلْطانِ وَوَحْشَةِ الغُرْبَةِ ، وَيَسْأَلُهُ إِينَاسَها وَتَقْرِيبَهَا ؛ أَجَابَهُ المُعْتَضِدُ بِكِتابٍ كَتَبَهُ أبو الحسين ٱبن ثَوَابَه يَقُولُ في فَصْلٍ مِنْهُ : وَأَمّا الوَدِيعَةُ ـ أَعَزَّكَ اللهُ ـ فَهِيَ بِمَنْزِلَةِ ما ٱنْتَقَلَ مِنْ يَمِينِكَ إِلىٰ شِمالِكَ ، عَنَايَةً بِها وَحِياطَةً عَلَيْها ، وَرِعايَةً لِمَوَدَّتِكَ فِيها . فَلَمَّا عَرَضَهُ علىٰ الوزيرِ عُبَيْدِ اللهِ بنِ سُلَيْمانَ ٱرْتَضاهُ ، وَقالَ لَهُ : كِنايَتُكَ عَنْها بِالوَدِيعَةِ نِصْفُ البلاغَةِ ، وَوَقَّعَ لَهُ بِالزِّيَادَةِ في جِراياتِهِ وَإِقْطاعاتِهِ[١] .

٢٥ ـ وَمِثْلُهُ ما كَتَبَه أَبُو إِسْحاقَ ٱلصَّابِي عَنْ عِزِّ الدَّوْلَةِ ٱبْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ ، وقَدْ أَهْدَىٰ ٱبْنَتَهُ إلى عُمْدَةِ الدَّوْلَةِ الحَمْدَانيِّ ، قال : وَقَدْ تَوَجَّهَ فُلانٌ ، وَهُوَ الأَمِينُ علىٰ ما يَلْحَظُهُ ، الوَفِيُّ بما يَحْفَظُهُ ، نَحْوَكَ يا سَيِّدِي وَمَوْلاي أَدامَ ٱللهُ عِزَّكَ ، بِالوَدِيعَةِ ، وَإِنَّما نُقِلَتْ مِنْ وَطَنٍ ، إلىٰ سَكَنٍ ، وَمِنْ مَغْرِسٍ ، إِلى مَغْرِسٍ[٢] ،

---

(١) انْتَقَدَ الوَزِيرُ أَبُو القاسِمُ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ سُلَيْمانَ بن وَهْبٍ هذا الكِتابَ بَعْدَ ذَلك ـ وكان منافِساً لابن ثَوابَه ـ فقالَ : ما أَقْبَحَ هَذَا ! تَفَاءَلَ لامْرَأَةٍ زُفَّتْ إِلىٰ صاحِبِها بالوَدِيعَةِ ، والوَدِيعَةُ مُسْتَرَدَّةٌ ؛ وقوله : « من يَمِينِكَ إلى شِمالِك » أَقْبَحُ ، لأَنَّهُ جَعَلَ أَباهَا اليَمينَ وَأَميرَ المُؤْمِنينَ الشِّمالَ .

(٢) مَغْرِس : مَوْضِعُ الغَرْسِ ، وَمَغْرِس الثانية تُرْوَىٰ : مُعْرَسٍ ، والمُعْرَسُ : مكانُ العُرْسِ .

وَمِن مَأْوَىٰ مَرِيءٍ وَٱنْعِطافٍ ، إِلىٰ مَثْوىٰ كَرامَةٍ وَإِلْطَافٍ ، وَهِي بَضْعَةٌ مِنِّي[(١)] حَصَلَتْ لَدَيْكَ ، وَثَمَرَةٌ مِنْ جَنَىٰ قَلْبي ٱنْفَصَلَتْ إِلَيْكَ ، وَمَا بَانَ عَنِّي مَنْ وَصَلْتُ حَبْلَهُ بِحَبْلِكَ ، وَتَخَيَّرْتُ لَهُ بارِعَ فَضْلِكَ ، وَبَوَّأْتُهُ المَنْزِلَ الرَّحْبَ مِنْ جَمِيلِ خَلائِقِكَ ، وَأَسْكَنْتُهُ الفَسِيحَ مِنْ كَرِيمِ شِيَمِكَ وَطَرائِفِكَ .

٢٦ ـ وَبَعْدُ ؛ فَلِهَذِهِ المُناسَبَةِ نَقولُ : إِنَّ إِطْلاقَنا اليَوْمَ عَلىٰ العَذارَىٰ : آنِسات ، وَعَلَىٰ الثَّيِّباتِ : سَيِّدات ؛ لا بأْسَ بِهِ ، فَقَدْ جاءَ في اللُّغَةِ : جارِيَةٌ آنِسةٌ : طَيِّبَةُ النَّفْسِ ، تُحِبُّ قُرْبَكَ وَحَدِيثَكَ ، وَمَعْنَىٰ جارِيَةٌ : صَبِيَّةٌ وَفَتَاةٌ ، وَجَمْعُ الآنِسَةِ : آنِساتٌ وَأَوانِسُ ؛ وَأَمْرُ السَّيِّدَةِ أَوْضَحُ مِنْ أَنْ يُوَضَّحَ ؛ وَكَذَلِكَ العَقِيلَةُ ، وَالجَمْعُ عَقائِلُ ، وَالعَقِيلَةُ : المَرْأَةُ الْكَرِيمَةُ المُخَدَّرَةُ .

❊ ❊ ❊

## أَسْمَاءُ الزَّوْجَةِ :

٢٧ ـ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ القالي في كِتَابِهِ « الأَمالي » [١/ ١٩] : حَلِيلَةُ الرَّجُلِ : ٱمْرَأَتُهُ ، وَحَلِيلَتُهُ أَيْضاً : جارَتُهُ الَّتِي تُحالُّهُ وَتَنْزِلُ مَعَهُ ، قَالَ الشَّاعِرُ ، وَهُوَ أَوْسُ بنُ حَجَرَ [من الوافر] :

وَلَسْتُ بأَطْلَسَ الثَّوْبَيْنِ يُصْبِي حَلِيلَتَهُ إِذَا هَجَعَ النِّيَامُ

قوله [« سمط اللآلي » ١/ ٩٠] : « بِأَطْلَسَ الثَّوْبَيْنِ » يَعْني : إِنَّ الطُّلْسَةَ تَلْتَبِسُ بِالظَّلامِ فَتَخْفَىٰ ـ وَلَوْ كانَ أَبْيَضَ الثِّيابِ لَنَمَّتْ عَلَيْهِ ، وَالطُّلْسَةُ : كُدْرَةٌ في غَبَرَةٍ ، وَالذِّئْبُ أَطْلَسُ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ أَرادَ بِالطُّلْسَةِ هُنا دَنَسَ الثِّيابِ الَّذي هُوَ

---

(١) بَضْعة ، تُقْرَأُ بِفَتْح الباء كَهَبْرة ، وبِكَسْرِها كَفِلْذَة وقِطْعَة وخِرْقَة ، فِبالفَتْح يُذْهَبُ بها إلى الشِّبَهِ ، وبالكَسْر ، أي : إنَّها جُزْءٌ مِنِّي ؛ وفي الحَديثِ : « فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي » [ البخاري ، رقم : ٣١١٠ ؛ مسلم ، رقم : ٢٤٤٩ ] تُقْرَأُ بالفَتْحِ وبالْكَسْرِ .

كِنايَةٌ عَنِ ٱقْتِرافِ الفَوَاحِشِ ؛ وَيَقُولونَ في ضِدِّ هَذا : طاهِرُ الثَّوْبِ ، كما قال ٱمْرُؤُ القَيْسِ [من الطويل] :

ثِيَـابُ بَنِـي عَـوْفٍ طَهَـارَىٰ نَقِيَّـةٌ  وَأَوْجُهُهُـمْ يَـوْمَ الْكَـرِيهَـةِ غُـرّانْ

٢٨ ـ قَالَ أَبُو عَلِيٍّ [١٩/١] : وَعِرْسُ الرَّجُلِ : ٱمْرَأَتُهُ أَيْضاً ، قال ٱمْرُؤُ القَيْسِ [من الطويل] :

كَذَبْتِ لَقَدْ أُصْبِي عَلَىٰ المَرْءِ عِرْسَهُ  وَأَمْنَعُ عِرْسِي أَنْ يُزَنَّ بِهَا الْخَالي

يُزَنَّ : يُتَّهمُ .

وَالرَّجُلُ أَيْضاً عِرْسُها .

٢٩ ـ قَالَ : وَهِي ـ أَيْ : ٱمْرَأَةُ الرَّجُلِ ـ : حَنَّتُهُ ، قَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ ـ وَنُورِدُ البَيْتَ وَصِلَتَهُ [« سمط اللآلي » ٩١/١ ، من الطويل] :

تَقُولُ ٱبْنَةُ الضَّمْرِيِّ : مَالَكَ شَاحِباً  وَقَدْ تَنْبَرِي لِلْعَيْنِ فِيكَ المَحاسِنُ
جَفَـوْتَ فَمـا تَهْـوَىٰ حَـدِيثَـكَ أَيِّـمٌ  وَلا تَجْتَـدِيـكَ الآنِسَـاتُ الحَـوَاضِـنُ
فَقُلْتُ لَها : بَلْ أَنْتِ حَنَّةُ حَوْقَلٍ  جَـرَىٰ بِـالْفِـرَىٰ بَيْنـي وَبَيْنَـكِ طـابِـنُ
فَصَـدَّقْتِـهِ فـي كُـلِّ حَـقٍّ وَبَـاطِـلٍ  أَتـاكَ بِـهِ نَـمُّ الأَحـادِيـثِ خَـائِـنُ

ٱبْنَةُ الضَّمْرِيِّ : صاحِبَتُهُ عَزَّةُ الضَّمْرِيَّةُ ؛ وَتَنْبَرِي ، أَيْ : تَعْتَرِضُ ؛ وتَجْتَدِيكَ ، أَيْ : تَطْلُبُ ما عِنْدَكَ ؛ وَالحَوَاضِنُ : اللَّاتِي يُرَبِّينَ الأَطْفالَ ؛ وَالحَوْقَلُ : المُسِنُّ ، وَقَدْ حَوْقَل ، أَيْ : أَسَنَّ وَكَبِرَ ؛ وَالحَوْقَلُ : الَّذِي أَدْبَرَ عَنِ النِّسَاءِ ؛ وَالفِرَىٰ : جَمْعُ فِرْيَةٍ ؛ وَطابِنٌ ، أَيْ : رَفِيقٌ داهٍ خَبٌّ عالِمٌ بِهِ فَطِنٌ .

٣٠ ـ وقالَ الشَّاعِرُ ـ هُوَ قَتَادَةُ اليَشْكُرِيُّ ـ وَهُوَ ٱبْنُ مُغْرَبٍ ، وَكانَ يُهاجي

زِياداً الأَعْجَمَ ، وَكانَ قَدْ تَزَوَّجَ أَرْنَبَ الحَنَفِيَّةَ ، فَلَمْ تَلِدْ لَهُ وَنَشِزَتْ عَلَيْهِ ، فَطَلَّقَهَا ، وَقَالَ ، وَنُورِدُ البَيْتَ وَصِلَتَهُ [من المنسرح] :

تَجَهَّزِي لِلطَّلاقِ وَٱصْطَبِرِي ذَاكِ دَواءُ الجَوَامِحِ الشُّمُسِ
مَا أَنْتِ بِٱلْحَنَّةِ الوَدُودِ وَلا عِنْدَكِ خَيْرٌ يُرْجَىٰ لِمُلْتَمِسِ
لَلَيْلَتِي حِينَ بِنْتِ طَالِقَةً أَلَذُّ عِنْدِي مِنْ لَيْلَةِ العُرُسِ
بِتُّ لَدَيْهَا بِشَرِّ مَنْزِلَةٍ لا أَنَا فِي نَعْمَةٍ وَلا فَرَسِي
هَذَا عَلَى ٱلْخَسْفِ لا قَضِيمَ لَهُ[١] وَبِتُّ مَا إِنْ يَسُوغُ لِي نَفَسِي

ولَمَّا أَلْحقَها بِأَهْلِهَا وَبَلَغَهَا قَوْلُهُ ، شَدَّتْ عَلَيْهَا ثِيابَها وَأَتَتْ بابَ يَزِيدَ بنِ المُهَلَّبِ ، فَٱسْتَأْذَنَتْ عَلَيْه ، فَدَخَلَتْ وَقَتادَةُ عِنْدَهُ ، وَأَنْشَدَتْ أَبْياتاً ، مِنْها [من الطويل] :

فَما جِيفَةُ الخِنْزِيرِ عِنْدَ ٱبْنِ مُغْرِبٍ قَتَادَةَ إِلَّا رِيحُ مِسْكٍ وَغَالِيَهْ

٣١ ـ قالَ الْقَالِي [« الأمالي » ١/١٩] : وَهِيَ ـ أَي : ٱمْرَأَةُ الرَّجُلِ ـ : طَلَّتُهُ أَيْضاً ، وَٱلطَّلَّةُ في الأَصْلِ : النَّعْمَةُ ـ الرَّفاهِيَةُ ـ وَالخَمْرُ السَّلِسَةُ ، قالَ الشَّاعِرُ ، هُوَ العُجَيْرُ السَّلُولِيُّ ، من شُعَراءِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ ، وَكانَ الضَّحَّاكُ أَخُوهُ أَنْكَحَ ٱبْنَتَهُ[٢] قُطَيَّةَ رَجُلًا مِنْ باهِلَةَ[٣] عَلَىٰ أَلْفِ دِينارٍ ، وَذَلِكَ ٱخْتِيارُ أُمِّ الْجَارِيَةِ ـ الفَتَاةِ ـ وَرَغْبَتُها في المالِ ، فَأَتاهُ أَخُوهُ العُجَيْرُ في نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ يُكَلِّمُونَهُ في

---

(١) القَضِيمُ : ما تَقْضِمُهُ الدَّابَّةُ وَتَأْكُلُهُ ، كالشَّعِيرِ .

(٢) ٱبْنَته ، أي : ٱبْنة العُجَيْرِ « انظر هذه القصة في « الأغاني » ج١١ ، وهناك ما يخالِفُ ما هُنَا » .

(٣) [وَباهِلَةٌ : قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ يَمَانِيَّةٌ م كَهْلانَ ، ٱلنِّسْبَةُ إِلَيْهَا حِطَّةٌ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ ، يَضْرِبُونَ ٱلأَمْثَالَ بِلُؤْمِهِمْ] .

فَسْخ ذَلِكَ النِّكاحِ ، فَأَبَىٰ ، فَغَلَبَهُ العُجَيْرُ عَلَىٰ الْجارِيَةِ ، فَٱرْتَدَفَها ، ثُمَّ سَارَ بِهَا ، وَقَالَ في ذَلِكَ مِنْ أَبْياتٍ [من الطويل] :

وَإِنَّ ٱمْرَأً في النَّاسِ كُنْتُ ٱبْنَ أُمِّهِ تَبَدَّلَ مِنِّي طَلَّةً لَغَبِينُ
دَعَتْكَ إِلىٰ هَجْرِي فَطَاوَعْتَ أَمْرَهَا فَنفْسَكَ لا نَفْسِي بِذَاكَ تُهِينُ

وَقالَ الآخَرُ [من المتقارب] :

أَلَا بَكَّرَتْ طَلَّتِي تَعْذُلُ وَأَسْماءُ في قَوْلِها أَعْذَلُ
تُرِيدُ أُسَيْماءُ جَمْعَ التِّلا دِ وَالضَّيْفُ يَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ

أُسَيْمَاءُ ، تَصْغير أَسْمَاء ؛ وَقَوْلُهُ : أَعْذَلُ ، يريد : أَوْلَىٰ بِٱلْعَذْلِ .

[ راجع رقم : ١٢ ] .

٣٢ ـ قَالَ القَالِي [« الأمالي » ١/ ٢٠] : وَرَبَضُهُ وَرُبْضُهُ ـ أَيْ : إِنَّ مِنْ أَسْماءِ الزَّوْجَةِ الرَّبَضَ والرُّبْضَ ـ وَهُما في الأَصْلِ : كُلُّ مَا أَوَيْتَ إِلَيْهِ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ [من البسيط] :

جَاءَ الشِّتَاءُ وَلَمَّا أَتَّخِذْ رَبَضاً يَا وَيْحَ كَفِّيَ مِنْ حَفْرِ القَرَامِيصِ

القُرْمُوصُ : حُفْرَةٌ يَحْتَفِرُها الصَّائِدُ إِلىٰ صَدْرِهِ ، فَيَدْخُلُ فِيها إِذا ٱشْتَدَّ عَلَيْهِ البَرْدُ .

وَجاءَ في « اللِّسان » : وَالرَّبْضُ وَالرُّبْضُ وَالرَّبَضُ : الزَّوْجَةُ الَّتي تَقومُ بِشَأْنِهِ ؛ وَقِيلَ : هُوَ كُلُّ مَنِ ٱسْتَرَحْتَ إِلَيْهِ كَالأُمِّ وَالبِنْتِ وَالأُخْتِ ، وَيُقَالُ : مَا رَبِضَ ٱمْرَأً مِثْلُ أُخْتٍ .

٣٣ ـ قالَ القَالِي [« الأمالي » ١/ ٢٠] : وَقَعِيدَةُ الرَّجُلِ أَيْضاً : ٱمْرَأَتُهُ ، قَالَ الأَسْعَرُ الجُعْفِيُّ ـ شاعِرٌ جاهِلِيٌّ ـ [من الكامل] :

لَكِـــنْ قَعِيـــدَةَ بَيْتِنَـــا مَجْفُـــوَّةٌ بَـادٍ جَنَـاجِـنُ صَـدْرِهَـا وَلَهَـا غِنَـىٰ

الجَنَاجِنُ : عِظامُ الصَّدْرِ ، وَقَوْلُهُ : مَجْفُوَّةٌ ، يقولُ : إِنَّ قَعِيدَةَ بَيْتِنَا هَزِيلَةٌ ، بَادٍ جَنَاجِنُ صَدْرِهَا عَلَىٰ غِنَاهَا .

٣٤ ـ قالَ القالِي [« الأمالي » ١/ ٢٠] : وَزَوْجُهُ أَيْضاً ؛ قالَ الأَصْمَعِيُّ : وَلا تكادُ العَرَبُ تَقُولُ : زَوْجَتُهُ ؛ وَقالَ يَعْقُوبُ ـ ٱبْنُ السِّكِّيتِ ـ يُقالُ : زَوْجَتُهُ ، وَهِيَ قَلِيلَةٌ ؛ قَالَ الفَرَزْدَقُ [من الطويل] :

وَإِنَّ الَّـذِي يَسْعَـىٰ لِيُفْسِـدَ زَوْجَتِـي كَسَـاعٍ إِلَـىٰ أُسْـدِ الشَّـرَىٰ يَسْتَبِيلُهَـا
وَمِـنْ دُونِ أَبْـوالِ الأُسُـودِ بَسـالَـةٌ وَبَسْطَةُ أَيْدٍ يَمْنَعُ الضَّيْمَ طُولُهَا[1]

---

(١) قال أبو عبيد البَكْري ٱلأَوْلَبِيُّ في « اللآلي في شرح أمالي القالي » :
صلة البيت ، وَخَبَرُهُ كَانَتِ ٱلنَّوَارُ بِنْتُ أَعْيَنَ بْنِ ضُبَيْعَة بِنْتَ عمِّ ٱلفَرَزْدَق ، فَخَطَبَهَا رَجُلٌ مِنْ بني دَارِم ، فَرَضِيَتْهُ . فَأَرْسَلَتْ إلى الفَرَزْدَقِ أَنْ زَوِّجْنِي من هذا ٱلرَّجُلِ ؛ وَكَانَ وَلِيَّها . فَقَالَ : لا أَفْعَلُ أَوْ تُشْهِدِي لِي أَنَّكِ قَدْ رَضِيتِ بِمَنْ زَوَّجْتُكِ مِنْهُ ؛ فَفَعَلَتْ ، فَلَمَّا تَوَثَّقَ مِنها قَالَ : أَرْسِلِي إِلَىٰ ٱلْقَوْمِ فَلْيَأْتُوا ؛ فَلَمَّا غصَّ مَسْجِدُ بَنِي مُجَاشِعٍ بِبَنِي دَارِم ، جاءَ الفَرَزْدَقُ ، فَحَمَدَ ٱللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ ٱلنَّوَارَ وَلَّتْني أَمْرَهَا ، وَأُشهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُها نَفْسِي ؛ فَذَئِرَتْ مِن ذَلِكَ [أَيْ : أَنِفَتْ وَنفَرَتْ وغَضِبَتْ] ، وَأَعْيَاها أُمَرَاءُ ٱلْبَصْرَةِ أَنْ يُطَلِّقُوها مِنَ ٱلْفَرَزْدَقِ ، وَأَعْيَاهَا الشُّهُودُ أَنْ يَشْهَدُوا لَها ٱتِّقاءَ مِنَ ٱلْفَرَزْدَقِ ، وَأَرَادَتِ الشُّخُوصَ إِلى ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ فَلَمْ يُقْدِمْ أَحَدٌ عَلَى حَمْلِهَا ، وَكَانَتِ ٱمْرَأَةً صَالِحَةً ، فَأَقَامَتْ مَعَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ وَلا تَزَالُ تَشْمَئِزُّ مِنْهُ وَتَقُولُ : وَيْحَكَ ! إِنَّمَا تَزَوَّجْتَ على خُدْعَةٍ ؛ ثُمَّ لا تَزَالُ تَحْلِفُ بِيَمِينٍ مُوَثَّقَةٍ وَتَحْنِثُ فَتَجَنَّبَتْ فِراشَهُ ؛ فَتزَوَّجَ عَلَيْها دُهَيْمَةَ بِنْتَ غني النَمَرِيِّ . ثُمَّ إِنَّ قَوْماً مِنْ بَنِي عَدِيٍّ يُقَالُ : لَهُمْ بَنُو ٱلنُسَيْرِ ، تَحَمَّلُوا النَّوَارَ إِلَىٰ مَكَّةَ تُرِيدُ ٱبْنَ الزُّبَيْرِ .
فَقَالَ الفَرَزْدَقُ [من الطويل] :

وَقَدْ سَخِطَتْ مِنِّي ٱلنَّوارُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ بِـهِ قَبْلَهَـا ٱلأَزْوَاجُ خَـابَ رَحِيلُهَـا
أَطَـاعَـتْ بَنِـي أُمِّ ٱلنُسَيْـرِ فَـأَصْبَحَـتْ عَلَـىٰ شَـارِفٍ وَرْقَـاءَ صَعْـبٍ ذَلُـولُهَـا
وَإِنَّ ٱمْـرَأً يَمْشِـي يُخَبِّـبُ زَوْجَتِـي كَسَـاعٍ إِلَـىٰ أُسْـدِ ٱلشَّـرَىٰ يَسْتَبِيلُهَـا
وَمِـنْ دُونَ أَبْـوالِ ٱلأُسُـودِ بَسَـالَـةٌ وَبَسْطَـةُ أَيْـدٍ يَمْنَـعُ ٱلضَّيْـمَ طُـولُهَـا =

يَسْتَبِيلُها : يَأْخُذُ بَوْلَهَا في يَدِهِ .

٣٥ ـ قَالَ القالِي [« الأمالي » ١/ ٢٠] : وَهِيَ بَعْلُهُ أَيْضاً وَبَعْلَتُهُ ، وَأَنْشَدَ الفَرَّاءُ [من الرجز] :

شَـرُّ قَـرِيـنٍ لِلْكَبِيـرِ بَعْلَتُـهْ تُـولِـغُ كَلْبـاً سُـؤْرَهُ أَوْ تَكْفِتُـهْ

يَعْني : إِنَّ ٱمْرَأَتَهُ قَدْ تَقَذَّرَتْهُ حِينَ كَبِرَ ، فَإِذَا شَرِبَ لَبَناً وَبَقِيَ سُؤْرُهُ ـ وَالسُّؤْرُ : بَقِيَّةُ الشَّرابِ في الإِنَاءِ ـ تُولِغُهُ كَلْباً أَوْ تَكْفِتُهُ ، أَيْ : تَقْلِبُهُ على الأَرْضِ .

أَقُولُ : وَالتَّبَعُّلُ في الأَصْلِ : حُسْنُ التَّحَبُّبِ وَالتَّزَيُّنِ ، وَقال الفَارِسِيُّ : بَعْلُ الشَّيْءِ : رَبُّهُ وَمالِكُه ، وَأَصْلُ الْبَعْلِ الَّذِي هُوَ الزَّوْجُ ، مُشْتَقٌّ مِنْه ، فَأَمَّا قَوْلُهُمْ في المَرْأَةِ بَعْلَتُهُ ، فَلِمَكانِ الاقْتِرانِ ، وَرُبَّمَا مَلَكَتْهُ بِهَوَاها لَهُ .

٣٦ ـ قَالَ القَالِيُّ [« الأمالي » ١/ ٢٠] : وَبَيْتُهُ أَيْضاً ، أي : إِنَّهُ يُقالُ لِزَوْجَةِ الرَّجُلِ : بَيْتُه ، كما تَقَدَّمَ آنِفاً ، قَالَ الرَّاجِزُ [من الرجز] :

أَقُـولُ إِذْ حَـوْقَلْـتُ أَوْ دَنَـوْتُ وَبَعْـدَ حَيْقَـالِ الـرِّجَـالِ المَـوْتُ
مَـالِـي إِذَا أَنْـزِعُهَـا صَـأَيْـتُ أَكِبَـرٌ غَيَّـرَنِـي أَمْ بَيْـتُ

---

= وَإِنَّ أَمِيـرَ ٱلْمُـؤْمِنِيـنَ لَعَـالِـمٌ بِنَـا وبِمَـا وَصَّـىٰ ٱلْعِبَـادَ رَسُـولُهَـا
وَخَبَرُهُمَا لَوِ ٱسْتُقْصِيَ لَطالَ . اهـ . نقلًا عن « سمط اللآلي » ١/ ٩٥ و٩٦

والخبر في « ديوان الفرزدق » رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي ، طبعة بوشر ، باريس ١٨٧٠ م ، صفحة ٢ ، وأول « ديوان الفرزدق » ، رواية الأصمعي ، طبعة مصر ، والكلمة في ٢٨ بيتاً ، وانظر « الأغاني » طبعة الساسي ٨/ ١٨٠ و١٩/ ٨ و١٠ و« العقد الفريد » ٤/ ١٧٦ ؛ و« وفيات الأعيان » ٢/ ٢٠١ ؛ و« تهذيب الألفاظ » ٣٥٦ ؛ و« الاقتضاب » ٣٩٨ ؛ و« شرح المقامات » للشَّرِيشِي ، ١/ ١٠٩ ؛ و« الشعر والشعراء » لابن قتيبة ٢٩٥ .
اهـ . عن عبد العزيز المَيْمني . بسام .

حَوْقَلَ الشَّيْخُ : ٱعْتَمَدَ بِيَدَيْهِ عَلىٰ خَصْرَيْهِ ، يَصِفُ هذا الرَّاجِزُ جَذْبَهُ لِلدَّلْوِ ؛ وَصَأَيْتُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ صَأَىٰ ٱلْفَرْخُ : إِذَا سَمِعْتَ لَهُ صَوْتاً ضَعِيفاً ، وَإِنَّما يُرِيدُ أَنِينَهُ مِنْ ثِقَلِ الدَّلْوِ ؛ وَقَوْلُهُ : أَمْ بَيْتُ ، أي : لأَنَّ العَزَبَ أَقْوىٰ وَأَشَدُّ [« سمط اللآلي » ١/ ٩٧] .

٣٧ ـ قَالَ القَالِيُّ [« الأمالي » ١/ ٢٠] : وَشَهْلَتُه أَيْضاً ، أَيْ : إِنَّهُ يُقالُ لِزَوْجَةِ الرَّجُلِ : شَهْلَتُهُ ؛ قَالَ أَبُو حَيَّةَ النُّمَيْرِيُّ يَصِفُ صَائِداً وَثَوْراً [من الطويل] :

وَغـادَاهُ مِـنْ جِـلَّانَ ذِئْـبُ مَجاعَـةٍ شَقِـيٌّ بِـهِ ضَـارُورَةٌ وَفُقُـورُ
لَـهُ شَهْلَـةٌ شَـابَـتْ وَمَـا مَـسَّ جَيْبَهَـا وَلا راحَتَيْهَـا الشَّثْنَتَيْـنِ عَبِيـرُ

ذِئْبُ مَجاعَةٍ ، يَعْنِي الصَّائِدَ ؛ وَضارُورَةٌ وَضَرُورَةٌ وَاحِدٌ ؛ وَفُقُورُ ، جَمْعُ فَقْرٍ ؛ وَالجَيْبُ : جَيْبُ القَمِيصِ ، وَلَعَلَّ المُرادَ نَحْرُها ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ ناصِحُ ٱلْجَيْبِ ، يَعْنُونَ بِذَلِكَ قَلْبَهُ وَصَدْرَهُ ، أَيْ : إِنَّهُ أَمِينٌ ؛ وَالشَّثْنُ : الغَلِيظُ .

قَالَ القَالِيُّ : والشَّهْلَةُ أَيْضاً : العَجوُزُ .

* * *

٣٨ ـ وَبَعْدُ ؛ فَقَدْ فاتَ القَالِيَّ كَثِيرٌ مِنْ أَسْماءِ الزَّوْجَةِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَرِينَةُ الرَّجُلِ مَثَلًا ، قَالَ صَاحِبُ « اللِّسَانِ » : وَقَرِينَةُ الرَّجُلِ : ٱمْرَأَتُهُ ، لِمُقَارَنَتِهِ إِيّاهَا ؛ وَلَعَلَّ القَالِيَّ لَمْ يَقْصِدْ إِلىٰ الحَصْرِ ، وَكَذَلِكَ لَمْ نَقْصِدْ .

* * *

# البَابُ الثاني
# المَلاحَةُ وَالْجَمَالُ

## وَعَبْقَرِيّاتُهُمْ في جَمَالِ المَرْأَةِ إجْمالاً وَتَفْصِيلًا
## وَحَضُّهُمْ إِيَّاها عَلىٰ التَّجَمُّلِ وَالنَّظَافَةِ وَالزِّينَةِ

**الجَمالُ إِجْمالاً :**

٣٩ ـ في ٱلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « لا يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » ، فَقَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَناً وَنَعْلُهُ حَسَناً ! وَفي رِوَايَةٍ : فَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أَمِنَ ٱلْكِبْرِ أَنْ أَلْبَسَ الحُلَّةَ الْحَسَنَةَ ؟ فَقَالَ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ ٱللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ ٱلْجَمَالَ ، وَيُحِبُّ أَنْ يُرَىٰ أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ ، ٱلْكِبْرُ : أَنْ تَسْفَهَ ٱلْحَقَّ وَتَغْمِطَ النَّاسَ » [رواه مسلم ، رقم : ٩١ ؛ وابن ماجه ، رقم : ٤١٧٣] .

٤٠ ـ وَفِي الأَثَرِ : « ثلاثٌ يُجَلِّينَ البَصَرَ : النَّظَرُ إِلىٰ الخُضْرَةِ ، وَإِلىٰ المَاءِ [ٱلْجَارِي] ، وَإِلىٰ الوَجْهِ الْحَسَنِ » [نسبه في « الجامع الصغير » إلىٰ الحاكم في « تاريخ نيسابور » ، عن علي ابن أبي طالب وعن ابن عمر ؛ وإلى أبي نُعيم في كتابه : « الطب النبوي » عن عائشة ؛ وإلى الخرائطي في كتابه « اعتلال القلوب » عن أبي سعيد الخدري . وقال عنه : ضعيف] .

٤١ ـ وَفِيهِ : « النَّظَرُ إِلىٰ الوَجْهِ الحَسَنِ يُورِثُ الفَرَحَ ، وَالنَّظَرُ إِلىٰ الوَجْهِ القَبِيحِ يُورِثُ الْكَلَحَ »[1] [راجع « كشف الخفاء » ، رقم : ٢٨١٠] .

---

(١) الكَلَحُ : تَقَبُّضُ الوَجْهِ مِنَ العُبُوسِ .

٤٢ ـ وَفِيهِ : « النَّظَرُ إِلىٰ الْجَارِيَةِ ـ الفَتَاةِ ـ ٱلْحَسْناءِ يَزِيدُ في الْبَصَرِ » [راجع « كشف الخفاء » ، رقم : ٢٨١٠] .

٤٣ ـ وَفِيهِ : « اُطْلُبُوا الخَيْرَ مِنْ حِسانِ الوُجُوهِ »[1] [راجع « كشف الخفاء » ، رقم : ٣٩٤] .

٤٤ ـ وَمِنْ كلامِهِمْ : مَنْ كانَ في صُورَةٍ حَسَنَةٍ ، وَمَنْصِبٍ لا يَشِينُهُ ، وَوُسِّعَ عَلَيْهِ في الرِّزْقِ ، [ ثُمَّ تَوَاضَعَ ؛ ] كانَ مِنْ خالِصَةِ اللهِ [راجع « حلية الأولياء » ٣/ ١٩٠ ؛ و« المعجم الكبير » للطبراني ، عن عبد الله بن مسعود] .

٤٥ ـ وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْها : يَؤُمُّ ٱلْقَوْمَ ـ أَيْ : في الصَّلاةِ ـ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِن كَانُوا في الْقِرَاءَةِ سَواءً فَأَصْبَحُهُمْ وَجْهاً .

٤٦ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْجَمَالُ مَرْحُومٌ .

٤٧ ـ وَقَالَ آخَرُ : شَفِيعُ الحُسْنِ مَقْبُولٌ .

٤٨ ـ وَقَالَ الحَكَمُ بْنُ قَنْبَرٍ المَازِنِيُّ [من البسيط] :

وَيْلِي عَلىٰ مَنْ أَطَارَ النَّوْمَ فَٱمْتَنَعَا ... وَزَادَ قَلْبِي إِلَىٰ أَوْجَاعِهِ وَجَعَا
كَأَنَّمَا ٱلشَّمْسُ في أَعْطافِهِ لَمَعَتْ ... حُسْناً أَوِ الْبَدْرُ مِنْ أَزْرَارِهِ طَلَعَا
مُسْتَقْبَلٌ بِالَّذِي يَهْوَىٰ وَإِنْ كَثُرَتْ ... مِنْهُ الإِسَاءَةُ ، مَعْذُورٌ بِمَا صَنَعَا
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِساءَتَهُ ... مِنَ الْقُلُوبِ ، وَجِيهاً حَيْثُمَا شَفَعا

٤٩ ـ وَقَالَ أَيْضاً ، أَي : الحَكَمُ بْنُ قَنْبَرٍ [من المديد] :

لَيْسَ فِيهَا مَا يُقَالُ لَهُ ... كَمَلَتْ لَوْ أَنَّ ذَا كَمَلَا

---

(١) وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَىٰ « اُطْلُبُوا الخَيْرَ مِنْ حِسانِ الوُجُوهِ » : اُطْلُبُوها مِنَ الوُجُوهِ الَّتِي يَحْسُنُ بِالمَرْءِ أَنْ يَطْلُبَهَا مِنْها .

كُـلُّ جُـزْءٍ مِـنْ مَحـاسِنِهَـا ـ صَـائِـرٌ مِـنْ حُسْنِهـا مَثَـلَا
لَـوْ تَمَنَّـتْ فِـي مَتَـاعَتِهَـا لَـمْ تُـرِدْ مِـنْ نَفْسِهَـا بَـدَلَا

مَتَاعَتُها : ظَرْفُها ، والماتِعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : البالِغُ في الجُودَةِ الغَايَةَ .

٥٠ ـ وَقَال الأَعْشَىٰ [من المتقارب] :

فَـأَفْضَيْـتُ مِنْهـا إِلَـىٰ جَنَّـةٍ تَـدَلَّـتْ عَلَـيَّ بِـأَثْمَـارِهـا

٥١ ـ وَقَالَ أَبُو نُواسٍ [من مجزوء الوافر] :

يَـزِيـدُكَ وَجهُـهُ حُسْنـاً إِذَا مَـا زِدْتَـهُ نَظَـرَا

٥٢ ـ وكانَتِ الفُرْسُ تَتَيَمَّنُ بِٱلْوَجْهِ ٱلْحَسَنِ ، وَتَقُولُ : إِنَّ ٱلْحُسْنَ أَوَّلُ السَّعَادَةِ لِلْمَرْءِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بِلَطِيفِ حِكْمَته وَشَرِيفِ إِبْدَاعِهِ وَصَنْعَتِهِ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئاً عَبَثاً ، وَلَمْ يَجْعَلِ الصُّورَةَ مُصْطَفاةً مُخْتَارَةَ الصِّفاتِ ، سَلِيمةً مِنَ الآفاتِ إِلَّا عَنْ فَضْلِ ٱحْتِفاءٍ مِنْهُ تَعالَىٰ بِها . . . قَالُوا : وَقَلَّمَا تُوجَدُ الأَخْلاقُ الجمِيلَةُ إِلَّا تابِعَةً لِلْخَلْقِ الْجَمِيلِ .

٥٣ ـ وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : مَا بَعَثَ ٱللهُ نَبِيًّا إِلَّا حَسَنَ ٱلْوَجْهِ حَسَنَ ٱلصَّوْتِ ، وَكانَ نَبِيُّكُمْ ﷺ أَحْسَنَهُم وَجْهاً وَأَحْسَنَهُمْ صَوْتاً . [ قال العراقي في « تخريج الإحياء » : أخرجه الترمذي في « الشمائل » عن قتادة ، . . . الخ] .

٥٤ ـ وَقَالَ البِيرُونِي : إِنَّ ٱلْحُسْنَ وَالْجَمالَ مَحْبُوبانِ بِالطَّبْعِ ، مَرْغُوبٌ فِيهِما ، حَتَّىٰ إِنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ كَانَ يَسْتَوْفِدُ حِسانَ الوُجُوهِ وَالأَسْماءِ[1] ، وَكانَ يَنْقُلُ الأَسْماءَ المُسْتَكْرَهَةَ في ٱلنَّاسِ وَالبِقَاعِ إِلىٰ الأَسْماءِ المُسْتَحْسَنَةِ . . .

(١) يَسْتَوْفِدُ ، أَيْ : يُوفِدُهُمْ إِلىٰ المُلوكِ وَأَشْباهِ المُلُوكِ .

٥٥ ـ وَمِنْ كلامِهِمْ : « ٱلْحُسْنُ أحْمَرُ » ، أَي : إِنَّ ٱلْحُسْنَ شاقٌّ ، قَالَ ٱبْنُ الأَعْرابِيِّ : يُرِيدُونَ إِنْ تَكَلَّفْتَ ٱلْحُسْنَ وَٱلْجَمَالَ[١] فَٱصْبِرْ فِيهِ عَلَىٰ الأَذَىٰ وَٱلْمَشَقَّةِ ، يُقالُ ذَلِكَ لِلرَّجُلِ يَمِيلُ إِلَىٰ هَواهُ[٢] وَيَخْتَصُّ بِمَنْ يُحِبُّ ، كَما يُقالُ : الهَوَىٰ غَالِبٌ ، وَكَما يُقالُ : إِنَّ الهَوَىٰ يَمِيلُ بِٱسْتِ الرَّاكِبِ : إِذَا آثَرَ مَنْ يَهْوَاهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ . أقولُ : وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ : إِنَّ الحُسْنَ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّ مَنْ يُولَعُ بِهِ وَيَصْبُو إِلَيْهِ يُلَاقِي فِي سَبِيلِهِ مَا يُلاقِيهِ مَنْ يُمارِسُ ٱلْحَرْبَ مِنَ الدِّماءِ ، أَيْ : مَنْ طَلَبَ ٱلْحُسْنَ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَىٰ الصَّبْرِ عَلىٰ الشَّدائِدِ وَالمَشَاقِّ .

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ أَنَّ مَعْنَىٰ قَوْلِهِمْ : ٱلْحُسْنُ أَحمَرُ ، هُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ [بَشَّارُ بنُ بُرْدٍ] إِذْ يَقُولُ [من الطويل] :

هِجَانٌ عَلَيْهَا حُمْرَةٌ فِي بَيَاضِهَا ... يَرُوقُ بِهَا ٱلْعَيْنَيْنِ وَالْحُسْنُ أَحْمَرُ[٣]

وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لا يَكُونُ إِلَّا إِذَا مَازَجَ بَيَاضَ البَشَرَةِ حُمْرَةٌ [من الخفيف] :

وَجَرَىٰ مِنْ دَمِ ٱلطَّبِيعَةِ فِيهِ ... لَوْنُ وَرْدٍ كَسَا ٱلْبَيَاضَ ٱحْمِرَارَا

وَلأَنَّ ٱلْحُمْرَةَ إِنَّمَا تَعْتَرِي البَيَاضَ مِنْ رِقَّةِ اللَّوْنِ وَصِحَّةِ الدَّمِ .

قَالَ البَكْرِيُّ [« سمط اللآلي » ١/٤٦٣] : العَرَبُ تُسَمِّي النِّساءَ الحِسَانَ ٱلْحُمْرَ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ جَرِيرٍ وَقَدْ سُئِلَ عَنِ الأَخْطَلِ : هُوَ أَوْصَفُنَا لِلْخَمْرِ وَالْحُمْرِ ، يَعْنِي : حِسَانَ النِّساءِ .

---

(١) تَكَلَّفْتَ ، أَيْ : أَوْلَعْتَ وَأَحْبَبْتَ .

(٢) هَوَاه ، أَيْ : مَهويه وَمَنْ يَهْوَاهُ .

(٣) الهِجانُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : خِيارُهُ وَخالِصُهُ ، وَالضَّمِيرُ في « يَرُوقُ » لِبياضِهَا ، وَالضَّمِيرُ في « بها » للْحُمْرَةِ .

قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ [راجع « سمط اللآلي » ١/ ٤٦٤] : وَمَنْ شَبَّهَ ٱلْمَرأَةَ بِالنَّارِ ، فَإِنَّمَا أَشَارَ إِلىٰ هَذَا المَعْنَىٰ ، قَالَ : وَقَوْلُهُمْ في المَثَلِ : ٱلْحُسْنُ أَحْمَرُ هُوَ مِنْ هَذَا ٱلْبَابِ ؛ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من مجزوء الكامل] :

وَإِذَا خَرَجْتِ تَقَنَّعِي بِٱلْحُسْنِ إِنَّ ٱلْحُسْنَ أَحْمَرْ

وَسَنُورِدُ في عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في الأَلْوانِ [ الأرقام : ٤٨٩ ـ ٥٢٧ ] كَثِيراً مِنْ عَبْقَرِيّاتِهِمْ في البَيَاضِ وَالسُّمْرَةِ وَالصُّفْرةِ وَالسَّوَادِ .

* * *

٥٦ ـ وَحَدَّثَ الشَّعْبِيُّ ، قَالَ : دَخَلْتُ المَسْجِدَ باكِراً ، فَإِذَا أَنَا بِمُصْعَبِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ ، فَسَلَّمْتُ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ لأَنْصرِفَ ، فَقَالَ لي : ٱدْنُ ! فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّىٰ وَضَعْتُ يَدِي عَلىٰ مِرْفَقَتِهِ ـ ٱلْمُتَّكَأُ يُتَّكَأُ عَلَيْهِ بِٱلْمِرْفَقِ ـ فَقَالَ : إِذَا أَنَا قُمْتُ فَٱتْبعْنِي ؛ وَجَلَسَ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَهَضَ ، فَتَوَجَّهَ نَحْوَ دارِ مُوسَىٰ بْنِ طَلْحَةَ ، فَتَبِعْتُهُ ، فلَمَّا أَمْعَنَ في الدَّارِ ٱلْتَفَتَ إِليَّ ، وَقَالَ : ٱدْخُلْ ؛ فَدَخَلْتُ مَعَهُ ، فَإِذَا حَجَلَةٌ[١] ، وَإِنَّها لأَوَّلُ حَجَلَةٍ رَأَيْتُها لأَمِيرٍ[٢] ، فَقُمْتُ ، وَدَخَلَ الحَجَلَةَ ، فَسَمِعْتُ حَرَكَةً ، فَكَرِهْتُ ٱلْجُلُوسَ ، وَلَمْ يَأْمُرْنِي بِالانْصِرافِ ، فَإِذَا جَارِيَةٌ قَدْ خَرَجَتْ ، فقالَتْ : يا شَعْبِيُّ ! إِنَّ الأَمِيرَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْلِسَ ؛ فَجَلَسْتُ عَلىٰ وِسادَةٍ ، وَرُفِعَ سَجْفُ الحَجَلَةِ ، فَإِذَا أَنَا بِمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَرُفِعَ السَّجْفُ الآخَرُ[٣] فَإِذَا أَنَا بِعائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةٍ ، فَلَمْ أَرَ زَوْجاً قَطُّ أَجْمَلَ مِنْهُمَا : مُصْعَبُ

---

(١) الحَجَلَةُ : مِثْلُ القُبَّةِ .

(٢) ولَّاهُ أَخُوه عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ العراقَيْنِ ، فَتَوَلَّاهُما حَتَّىٰ سارَ إِلَيْه عَبْدُ المَلِكِ بن مَرْوانَ ، وَوَجَّهُ أَخاهُ مُحَمَّدَ بنَ مَرْوان ، فَلَقِيَهُ مِصْعَبُ ، فَقاتَلَهُ حَتَّىٰ قُتِلَ ؛ أي : مُصْعَب .

(٣) السَّجْفُ ، بِكَسْرِ السِّين وَبِفَتْحِها : السِّتْرانُ بَيْنَهُما فُرْجَةٌ ، أو الشِّقُّ مِنَ السِّتْرَيْنِ المَقْرُونَيْنِ علىٰ الباب .

وَعائِشَةُ ؛ فَقَالَ مُصْعَبُ : يا شَعْبِيُّ ! هَلْ تَعْرِفُ هَذِهِ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، أَصْلَحَ ٱللهُ الأَمِيرَ ؛ قَالَ : وَمَنْ هِيَ ؟ قلت : سَيِّدَةُ نِساءِ المُسْلِمِينَ عائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ ، قال : لا ! وَلَكِنْ هَذِهِ لَيْلَىٰ الَّتِي يَقُولُ فِيها الشَّاعِرُ ـ هو كُثَيِّرُ عَزَّةَ [من الطويل] :

وَما زِلْتُ مِنْ لَيْلَىٰ لَدُنْ طَرَّ شَارِبي ... إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ أُخْفِي حُبَّها وَأُداجِنُ[(١)]

وَأَحْمِـلُ فـي لَيْلَـىٰ لِقَـوْمٍ ضَغِينَـةً ... وَتُحْمَـلُ فـي لَيْلَـىٰ عَلـيَّ الضَّغَـائِـنُ

ثُمَّ قَالَ : إِذَا شِئْتَ فَقُمْ ؛ فَخَرَجْتُ ، فَلَمَّا كانَ العَشِيُّ رُحْتُ إِلىٰ المَسْجِدِ ، فَإِذَا مُصْعَبٌ بِمَكانِهِ ، فَقَالَ لِي : ٱدْنُ ؛ فَدَنَوْتُ ، فَقَالَ لي : هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ ذَلِكَ الإِنسانِ قَطُّ !؟ قُلْتُ : لَا وَاللهِ ؛ قَالَ : أَفَتَدْرِي لِمَ أَدْخَلْنَاكَ ؟ قُلْتُ : لَا ! قَالَ : لِتُحَدِّثَ بِمَا رَأَيْتَ ؛ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلىٰ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ أَبي فَرْوَةَ ، فَقَالَ : أَعْطِهِ عَشَرَةَ آلاف دِرْهَمٍ وَثَلاثِينَ ثَوْباً ؛ فَما ٱنْصَرَفَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَاٱنْصَرَفْتُ ! بِعَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ ، وَبِمِثْلِ كارَةِ القَصَّارِ[(٢)] ثِياباً ، وَبِنَظْرَةٍ مِنْ عائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةٍ !

٥٧ ـ وَكَانَ أَشْعَبُ فِي مَنْ يَأْلَفُ مُصْعَبَ بْنَ الزُّبَيْرِ ، فَغَضِبَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ يَوْماً عَلىٰ مُصْعَبٍ ، وَكانَتْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَشَكا ذَلِكَ لأَشْعَبَ ، فَقَالَ أَشْعَبُ : مَالِي إِنْ رَضِيَتْ أَصْلَحَ ٱللهُ الأَمِيرَ ؟ قَالَ : حُكْمُكَ ؛ قَالَ : عَشَرَةُ آلافِ دِرْهَمٍ ؛ قَالَ : ذَلِكَ لَكَ ؛ فَٱنْطَلَقَ أَشْعَبُ حَتَّىٰ أَتاهَا ، فَقَالَ لَها : جُعِلْتُ فِداءَكِ ! قَدْ عَلِمْتِ حُبِّي لَكِ وَمَيْلِي إِلَيْكِ قَدِيماً وَحَدِيثاً عَلىٰ غَيْرِ مَنَالٍ أَنَلْتِنِيهِ ، وَلا فَائِدَةٍ أَفَدْتِنِيهَا ، وَهَذِهِ حَاجَةٌ قَدْ عَرَضَتْ تَرْتَهِنِينَ بِها شُكْرِي ، وَتَقْضِينَ بِهَا

(١) طَرَّ شارِبُ الغُلامِ : طَلَعَ وَنَبَتَ ، وَأُداجِنُ : أُداهِنُ وَأُخاتِلُ .
(٢) القَصَّارُ : مُحَوِّرُ الثِّيابِ وَمُبَيِّضُها ؛ وَكارَةُ القَصَّارِ : ما يَجْمَعُ وَيَشُدُّ مِنْ ثِيابِهِ ، وَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ لأَنَّهُ يُكَوِّرُ ثِيابَهُ في ثَوْبٍ واحِدٍ ، وَيَحْمِلُها ، فَيَكُونُ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ .

حَقِّي بِغَيْرِ مَرْزِئَةٍ[١] ؛ قَالَتْ : وَمَا هِيَ ؟ قال : قَدْ جَعَلَ لي الأَمِيرُ إِنْ رَضِيتِ عَنْهُ عَشَرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ ؛ قالَتْ : وَيْحَكَ ! لا يُمْكِنُنِي ذَلِكَ ؛ قَالَ : بِأَبِي أَنْتِ وَأُمِّي ! ٱرْضَيْ عَنْهُ حَتَّى يُعْطِيَنِي العَشَرَةَ الآلافَ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ عُودِي إِلىٰ مَا عَوَّدَكِ اللهُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكِ ؛ فَضَحِكَتْ مِنْ كَلَامِهِ وَرَضِيَت[٢] .

٥٨ ـ وَقالَ جَمِيلُ بُثَيْنَةَ : مَا رَأَيْتُ مُصْعَباً يَخْتَالُ بِالبِلاطِ[٣] إِلَّا غِرْتُ عَلَى بُثَيْنَةَ ، وَبَيْنَهُما ثَلاثَةُ أَيَّامٍ . . أَي : إِنَّ مُصْعَباً كانَ جَمِيلًا ، كَما كانَتْ زَوْجَتُهُ جَمِيلَةً . .

٥٩ ـ هَذَا ، وَهَذِهِ عائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ هِيَ عائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ ٱللهِ أَحَدِ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِٱلْجَنَّةِ ، وَأُمُّها أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللهُ عَنِ ٱلْجَمِيعِ ، وَخَالَتُها أُمُّ المُؤْمِنِينَ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا ، وَكانَتْ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، وَكانَتْ شَبِيهَةً بِخَالَتِها عِلْماً وَأَدَباً ، وَكانَتْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْها ، وَمِنْ ثَمَّ زَوَجَتْها مِنِ ٱبْنِ أَخِيهَا : عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، فَوَلَدَتْ لَهُ عِمْرانَ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ وَأَبا بَكْرٍ وَطَلْحَةَ وَنَفِيسَةَ ، فَكَانَ عَبْدُ اللهِ أَبا عُذْرَتِها[٤] ، وَكانَ ٱبْنُهَا طَلْحَةُ أَجْوَدَ قُرَيْشٍ في عَهْدِهِ ، كَجَدِّهِ ، وَلَمَّا هَلَكَ زَوْجُهَا عَبْدُ ٱللهِ تَزَوَّجَهَا مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ ، فَقُتِلَ عَنْهَا ، ثُمَّ تَزَوَّجَها عُمَرُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ٱبْنُ مَعْمَرٍ فَبَنَىٰ بها بالحِيرَةِ ، وَمُهِّدَتْ لَهُ يَوْم عُرسِه فُرُشٌ لمْ يُرَ مِثْلُهَا ، فَٱنْصَرَفَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ عَنْ سَبْعِ مَرَّاتٍ . . . فَلَقِيَتْهُ مَوْلاةٌ لَهَا حِينَ أَصْبَحَ ،

---

(١) أَيْ : مِنْ غَيْرِ أَنْ تُرْزَأَ في مَالِها ، أَيْ : يُؤخَذُ مِنه شَيْءٌ ؛ يُرِيدُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَخسَرَ شَيْئاً .

(٢) [نُسِبَ هذ الخبر إلى عبد الله ابن أبي عَتِيقٍ ، راجع « الكامل » صفحة ٧٨٢] .

(٣) البِلاطُ : مَوضِعٌ بِالمَدِينَةِ مُبَلَّطٌ بالحجارَةِ بَيْنَ مَسْجِدِ سَيِّدِنا رَسُولِ الله وَبَيْنَ سُوقِ المَدِينَةِ .

(٤) العُذْرَةُ : البَكارَةُ ، يرادُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَزَوَّجها .

فَقَالَتْ : يَا أَبَا حَفْصٍ ! كَمُلْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ فِي هَذَا ! فَلَمَّا ماتَ ناحَتْ عَلَيْهِ وَهِيَ قائِمَةٌ ، وَلَمْ تَنُحْ عَلىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ قَائِمَةً ـ وَكانَتْ العَرَبُ إِذَا نَاحَتِ المَرْأَةُ قَائِمَةً عَلىٰ زَوْجِهَا عُلِمَ أَنَّهَا لا تُرِيدُ أَنْ تَتَزَوَّجَ بَعْدَهُ ـ فَقِيلَ لَهَا : يَا عَائِشَةُ ! مَا صَنَعْتِ هَذَا بِأَحَدٍ مِنْ أَزْوَاجِكِ ! قَالَتْ : إِنَّهُ كانَتْ فِيهِ خِلالٌ ثَلاثٌ لَمْ تَكُنْ فِي أَحَدٍ مِنْهُمْ : كَانَ سَيِّدَ بَنِي تَيْمٍ ، وَكانَ أَقْرَبَ القَوْمِ بي قَرَابَةً ، وَأَرَدْتُ أَنْ لا أَتَزَوَّجَ بَعْدَهُ .

* * *

٦٠ ـ وَرأَىٰ رَجُلٌ شُرَيْحاً القَاضِي يَجُولُ فِي بَعْضِ الطُّرُقِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا غَدَا بِكَ ؟ فَقَالَ : عَسِيتُ أَنْ أَنْظُرَ إِلىٰ صُورَةٍ حَسَنَةٍ .

* * *

٦١ ـ وَقالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ [من المديد] :

نَمْ فَقَدْ وَكَّلْتَ بِي الأَرَقَا ... لا هَنَا بَعْدُ مَنْ عَشِقَا
إِنَّمَا أَبْقَيْتَ مِنْ جَسَدِي ... شَبَحاً غَيْرَ الَّذِي خُلِقَا
مَا لِمَنْ تَمَّتْ مَحَاسِنُهُ ... أَنْ يُعَادِي طَرْفَ مَنْ رَمَقَا
لَكَ أَنْ تُبْدِي لَنَا حَسَناً ... وَلَنَا أَنْ نُعْمِلَ ٱلْحَدَقَا

٦٢ ـ وَقَالَ غَيْرُهُ [من البسيط] :

إِنِّي ٱمْرُؤٌ مُولَعٌ بِٱلْحُسْنِ أَتْبَعُهُ ... لاحَظَّ لِي فِيهِ إِلَّا لَذَّةُ ٱلنَّظَرِ

* * *

٦٣ ـ وَكانَتْ عائِشَةُ بْنْتُ طَلْحَةَ لا تَسْتُرُ وَجْهَهَا ، فَعَاتَبَها مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي ذَلِكَ ! فَقَالَتْ : إِنَّ اللهَ وَسَمَنِي بِمَيْسَمِ جَمالٍ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَراهُ النَّاسُ

وَيَعْرِفُوا فَضْلِي عَلَيْهِمْ ، فَما كُنْتُ لأَسْتُرَهُ ، وَلَوْ عَلِمْتُ فِيَّ وَصْمَةً أَسْتَتِرُ لَهَا لاسْتَتَرْتُ لَهَا !

وَكانَ مُصْعَبُ إِذَا عَزَمَ عَلَيْها في الاسْتِتَارِ ٱسْتَتَرَتْ ، وَإِذا سَكَتَ عَنْها أَسْفَرَتْ وَبَرَزَتْ لِلنَّاسِ .

❊ ❊ ❊

٦٤ ـ وَكانَ مِنْ عادَةِ نِساءِ العَرَبِ أَنَّ ٱلْجَمِيلَةَ مِنْهُنَّ كانَتْ تُسْفِرُ وَلا تَضَعُ قِناعاً ، قَالَ عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبِيعَةَ [من الطويل] :

وَلَمَّا تَفَاوَضْنَا ٱلْحَدِيثَ وَأَسْفَرَتْ وُجُوهٌ زَهَاهَا ٱلْحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعَا(١)

تَبَالَهْنَ بِٱلْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفْنَنِي وَقُلْنَ ٱمْرُؤٌ بَاغٍ أَكَلَّ وَأَوْضَعَا(٢)

وَقَرَّبْنَ أَسْبَابَ ٱلْهَوَىٰ لِمُتَيَّمٍ يَقِيسُ ذِراعاً كُلَّمَا قِسْنَ إِصْبَعَا(٣)

٦٥ ـ أَمَّا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ، فَقَدْ كانَ إِذَا رَأَىٰ ٱمْرَأَةً مُنْتَقِبَةً ـ وَاضِعَةً نَقاباً ـ قَالَ لَها : أَسْفِرِي نِقَابَكِ ؛ فَإِنْ رَآها حَسَنَةً أَمَرَها أَنْ تَنْتَقِبَ ، وَإِنْ رَآها قَبِيحَةً مَنَعَها مِنَ النِّقَابِ .

❊ ❊ ❊

(١) الضَّمِيرُ في « زَهَاها » إِمَّا رَاجِعٌ إِلىٰ ٱمْرَأَةٍ قَدْ ذَكَرَها ، أَوْ إِلىٰ الوُجُوهِ ؛ يَقُولُ : لَمَّا تَنَازَعْنا الحَدِيثَ وَٱنْدَفَعْنا فِيهِ وَأَسْفَرَتْ وُجوهٌ ـ أَيْ : أَشْرَقَتْ وَظَهَرَتْ ـ ٱسْتَخَفَّها الحُسْنُ وَمَنَعَها مِنْ أَنْ تَضَعَ قِناعَها إِعْجاباً بِحُسْنِها وَجَمالِها وَإِدْلالاً بِهِما .

(٢) « تَبَالَهْنَ » : تَغافَلْنَ وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ لَمْ يَعْرِفْنَنِي ؛ وَ« أَكَلَّ » من الكَلالِ ، وهو : الإِعْيَاءُ ؛ وَ« أَوْضَعَ » : أَسْرَعَ ؛ يَقولُ : وَقُلْنَ : هُوَ باغٍ ، أي : مُتَعَدٍّ ، أَسْرَعَ حَتَّىٰ أَتْعَبَ راحِلَتَهُ .

(٣) يَقولُ : إِنَّهُنَّ فَعَلْنَ ما يُوجِبُ الطَّمَعَ في وَصْلِهِنَّ حَتَّىٰ قَرَّبْنَ أَسْبابَ الهَوَىٰ لِمَنِ ٱسْتَعْبَدَهُ الحُبُّ ، فَصارَ يَقْدِرُ فِيهِ ذِراعاً إِذَا قَدِرْنَ إِصْبَعاً ، أَيْ : إِنَّ هَوَاهُ يَزِيدُ على هَواهُنَّ .

### المُتَمَنِّيَةُ وَنَصْرُ بْنُ حَجَّاجٍ[١] :

٦٦ ـ بَيْنا عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يَعُسُّ ذَاتَ لَيْلَةٍ[٢] في بَعْضِ سِكَكِ المَدِينَةِ إِذْ سَمِعَ نَشِيدَ شِعْرٍ مِنْ دَارٍ ، فَوَقَفَ يُصْغِي ، فَإِذَا ٱمْرَأَةٌ تَقُولُ [من البسيط] :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلىٰ خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا ... أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

إِلىٰ فَتًى ماجِدِ ٱلأَعْرَاقِ مُقْتَبَلٍ ... سَهْلِ ٱلْمُحَيَّا كَرِيمٍ غَيْرِ مِلْجَاجِ[٣]

نَمَتْهُ أَعْرَاقُ صِدْقٍ حِينَ تَنْسُبُهُ ... أَخِي حِفاظٍ عَنِ ٱلْمَكْرُوبِ فَرَّاجِ

٦٧ ـ وهذا نَصْرُ بنُ حَجَّاجِ بْنِ عِلاطٍ البَهْزِيُّ ، كانَ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ ، وَٱسْمُ هَذِهِ المَرْأَةِ كَما قَالَ فَرِيقٌ مِنَ النَّسَّابِينَ : الذَّلْفاءُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ الفُرَيْعَةُ بْنُ هَمَّامٍ أُمُّ ٱلْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ الثَّقفِيِّ ، وَكانَتْ عَشِقَتْ نَصْراً وَهِيَ تَحْتَ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ[٤] ، وَيُقَالُ : لَمَّا أَنْشَدَتْ هَذِهِ الأَبْياتَ قَالَتْ لَهَا ٱمْرَأَةٌ مَعَهَا : مَنْ نَصْرُ بنُ حَجَّاجٍ ؟ قَالَتْ : رَجُلٌ وَدِدْتُ أَنَّهُ مَعِي في لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي ٱلْخَرِيفِ فِي أَطْوَلِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الشِّتاءِ وَلَيْسَ مَعَنا أَحَدٌ ؛ فَلَمَّا سَمِعَهَا عُمَرُ

---

(١) [راجع خبرها في « مجمع الأمثال » للميداني ، رقم : ٢١٨٧ ، مَثَل : أَصَبُّ من المُتَمَنِّيَة ؛ وراجع ترجمة نصر بن حجاج في « الإصابة » ، رقم الترجمة : ٨٨٤٥] .

(٢) قَالُوا : أَوَّلُ مَنْ عَسَّ بِاللَّيْلِ في الإِسْلامِ هَوَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ .

(٣) يُقَالُ : فُلانٌ مُقْتَبَلُ الشَّبابِ ، أَيْ : مُسْتَقْبل الشَّباب : إِذَا لَمْ يُرَ عَلَيْهِ أَثَرُ كِبَرٍ ؛ وَ« ملجاج » : لَجوجٌ ، من لَجَّ في الأمْرِ : تَمادَىٰ عَلَيْهِ وَأَبَىٰ أَنْ يَنْصَرِفَ عَنْهُ ، تَقُولُ : إِنَّهُ لَيْسَ لَجوجاً عَنِيداً .

(٤) قَالَ هَؤُلاءِ مُحتَجِّينَ في ذَلِكَ أَنَّ الحَجَّاجَ حَضَرَ مَجْلِس عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يَوْماً ، وَعُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يُحَدِّثُهُ ، وَيَقُولُ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ كَذَا وَسَمِعْتُ أَبا بَكْرٍ يَقُولُ كَذَا ـ يَعْنِي أَخاهُ عَبْد اللهِ بن الزُّبَيْرِ ـ فَقَالَ لَهُ الحَجَّاجُ : عِنْدَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ تُكْنِي أَخاكَ المُنَافِقَ لا أُمَّ لَكَ ! فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ : يَا ٱبْنَ المُتَمَنِّيَةِ ! أَلِيَ تَقولُ : لا أُمَّ لَكَ ، وَأَنا ٱبْنُ إِحْدَىٰ عَجائِزِ الجَنَّةِ : صَفِيَّةَ وَخَدِيجَةَ وَأَسْماءَ وَعَائِشَةَ ؟!

قَالَ : مَنْ هَذِهِ المُتَمَنِّيَةُ ؟ فَلَزِمَهَا هَذَا ٱلاسْمُ وَشَاعَ حَتَىٰ ضَرَبَ بِهِ المَثَلَ نِسَاءُ المَدِينَةِ ، وَقُلْنَ : أَصَبُّ مِنَ ٱلْمُتَمَنِّيَةِ . . . ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ دَعَا بِهَا ، وَضَرَبَهَا بِالدِّرَّةِ ضَرَبَاتٍ ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهَا ، فَلَمْ يُخْبَرْ عَنْهَا إِلَّا بِخَيْرٍ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَرْسَلَ إِلَىٰ نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ ، فَأَحْضَرَهُ ، فَلَمَّا رَآهُ بَهَرَه جَمَالُهُ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ تَتَمَنَّاكَ الغَانِيَاتُ فِي خُدُورِهِنَّ لا أُمَّ لَكَ ! أَمَا وَاللهِ لأُزِيلَنَّ عَنْكَ ٱلْجَمَالَ ؛ ثُمَّ دَعَا بِحَجَّامٍ ، فَحَلَقَ جُمَّتَهُ[1] ، ثُمَّ تَأَمَّلَهُ ، فَقَالَ : أَنْتَ مَحْلُوقاً أَحْسَنُ ! فَقَالَ نَصْرُ : وَأَيُّ ذَنْبٍ لِي فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : صَدَقْتَ ، الذَّنْبُ لِي إِذَا تَرَكْتُكَ فِي دَارِ ٱلْهِجْرَةِ ؛ ثُمَّ أَرْكَبَهُ جَمَلًا ، وَسَيَّرَهُ إِلَىٰ البَصْرَةِ ، وَكَتَبَ بِهِ إِلَىٰ مُجَاشِعِ بْنِ مَسْعُودٍ ٱلسُّلَمِيِّ : بِأَنِّي قَدْ سَيَّرْتُ ٱلْمُتَمَنَّىٰ نَصْرَ بْنَ حَجَّاجٍ إِلىٰ البَصْرَةِ .

٦٨ ـ وَكَمَا قَالُوا بِالمَدِينَةِ : أَصَبُّ مِنَ ٱلْمُتَمَنِّيَةِ ، قَالُوا بِٱلْبَصْرَةِ : أَدْنَفُ مِنَ ٱلْمُتَمَنَّى ، وَذَلِكَ أَنَّ نَصْرَ بْنَ حَجَّاجٍ لَمَّا وَرَدَ البَصْرَةَ أَخَذَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ عَنْهُ ، وَيَقُولُونَ : أَيْنَ المُتَمَنَّىٰ الَّذِي سَيَّرَهُ عُمَرُ ؟ ثُمَّ إِنَّ نَصْراً لَمَّا نَزَلَ البَصْرَةَ أَنْزَلَهُ مُجَاشِعُ بْنُ مَسْعُودٍ مَنْزِلَهُ ، لِقَرَابَتِهِ ، وَأَخْدَمَهُ ٱمْرَأَتَهُ شُمَيْلَةَ ـ وَقِيلَ : ٱسْمُهَا ٱلْخَضْرَاءُ ـ وَكَانَتْ أَجْمَلَ ٱمْرَأَةٍ بِٱلْبَصْرَةِ ، فَعَلِقَتْهُ وَعَلِقَهَا ، وَخَفِيَ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا بِالآخَرِ ، لِمُلازَمَةِ مُجَاشِعٍ لِضَيْفِهِ ، وَكَانَ مُجَاشِعٌ أُمِّياً ، وَنَصْرٌ

---

(١) فِي رِوَايَةٍ : فَحَلَقَ شَعْرَتَهُ ـ أَيْ : جَمِيع شَعْرِهِ ـ ، كَمَا هُوَ المُرَادُ بِحَلْقِ جُمَّتِهِ ؛ فَصَارَ كَأَنَّهُ أَصْلَعُ ، وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أَصْلَعَ لم يَبْقَ مِنْ شَعْرِهِ إِلَّا حِفافٌ ـ وَهُوَ شَعْرٌ حَوْلَ صَلْعَتِهِ ـ فَيُرْوَىٰ أَنَّ نَصْراً لَمَّا حَلَقَ عُمَرُ رَأْسَهُ ، قَالَ [من الطويل] :

لَضَنَّ ٱبْنُ خَطَّابٍ عَلَيَّ بِجُمَّةٍ ... إِذا رُجِّلَتْ تَهْتَزُّ هَزَّ السَّلاسِلِ
فَصَلَّعَ رَأْساً لَمْ يُصَلِّعْهُ رَبُّهُ ... يَرِفُّ رَفِيفاً بَعْدَ أَسْوَدَ جَائِلِ
لَقَدْ حَسَدَ الفُرْعَانَ أَصْلَعُ لَمْ يَكُنْ ... إِذَا مَا مَشَىٰ بِٱلْفَرْعِ بِالتَّخَايُلِ

الفُرْعَان ، وَاحِدُهُ الأَفْرَعُ ، وَهُوَ : التَّامُ الشَّعْرِ ، وَضِدُّهُ الأَصْلَعُ ، وَاحِدُ الصُّلْعَانِ .

[راجع « الكامل » ٧٠٦ ؛ « المقتضب » ٣/٢١٧ ـ ٢٢٧] .

وشُمَيْلَةُ كاتِبَيْن ، فَعِيلَ صَبْرُ نَصْرٍ ، فَكَتَبَ عَلىٰ الأَرْضِ بِحَضْرَةِ مُجاشِعٍ : إِنِّي أَحْبَبْتُكِ حُبًّا لَوْ كانَ فَوْقَكِ لأَظَلَّكِ ، أوْ تَحْتَكِ لأَقَلَّكِ ؛ فَوَقَّعَتْ تَحْتَهُ غَيْرَ مُحْتَشِمَةٍ : وَأَنا وَاللهِ كَذَلِكَ ؛ فَكَبَّ مُجاشِعٌ عَلَىٰ الْكِتابَةِ إِناءً ، ثُمَّ أَدْخَلَ كاتِباً فَقَرَأَهُ ، فَأَخْرَجَ نَصْراً وَطَلَّقَها ، وَقِيلَ : إِنَّهُ قَالَ لِنَصْرٍ : يَا ٱبْنَ عَمٍّ ! مَا سَيَّرَكَ عُمَرُ مِنْ خَيْرٍ ! قُمْ فَإِنَّ وَرَاءَكَ أَوْسَعُ لَكَ . فَنَهَضَ مُسْتَحْيِياً ، وَعَدَلَ إِلَى مَنْزِلِ بَعْضِ السُّلَمِيِّينَ ، وَضَنِيَ مِنْ حُبِّ شُمَيْلَةَ وَدَنِفَ حَتَّىٰ صَارَ رَحْمَةً ، وَٱنْتَشَرَ خَبَرُهُ ، فَضَرَبَ نِساءُ البَصْرَةِ بِهِ المَثَلَ : فَقُلْنَ : « أَدْنَفُ مِنَ ٱلْمُتَمَنَّىٰ » ثُمَّ إِنَّ مُجاشِعاً وَقَفَ عَلَىٰ خَبَرِ عِلَّةِ نَصْرٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَائِداً ، فَلَحِقَتْهُ رِقَّةٌ لِمَا رَأَىٰ بِهِ مِنَ الدَّنَفِ ، فَرَجَعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ ، وَقَالَ لِشُمَيْلَةَ : عَزَمْتُ عَلَيْكِ لَمَّا أَخَذْتِ خُبْزاً فَلَبَكْتِهِ بِسَمْنٍ ، ثُمَّ بادَرْتِ بِهِ إِلىٰ نَصْرٍ ؛ فَبَادَرَتْ بِهِ إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَكُنْ بِهِ نُهُوضٌ ، فَضَمَّتْهُ إِلَىٰ صَدْرِهَا ، وَجَعَلَتْ تُلْقِمُهُ بِيَدِهَا ، فعادَتْ قُواهُ وَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بِهِ قَلْبَةٌ[1] ، فَقَالَ بَعْضُ عُوَّادِهِ : قَاتَلَ اللهُ الأَعْشَىٰ حَيْثُ يَقُولُ [من السريع] :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَىٰ نَحْرِهَا ... عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

فَلَمَّا فارَقَتْهُ عَادَهُ النُّكْسُ . وَلَمْ يَزَلْ يَتَرَدَّدُ في عِلَّتِهِ حَتَّىٰ مَاتَ مِنْها .

* * *

٦٩ ـ وَمَرَّ رَجُلٌ في أَرْضِ بَني عقِيلٍ ، قَالَ : فَرَأَيْتُ فَتاةً جَمِيلَةً تَدَافَعُ في مَشْيِها تَدافُعَ الفَارِسِ المُخْتَالِ ، تَنْظُرُ عَنْ عَيْنَيْنِ نَجلاوَيْنِ بِأَهْدابٍ كَقَوَادِمِ النُّسُورِ[2] ، لَمْ أَرَ أَكْمَلَ جَمالًا مِنْها ، فَوَقَفْتُ لأُكَلِّمَها ، فَقالَتْ لي عَجُوزٌ بِفِنَاءِ مَنْزِلِها : مَالَكَ وَلِهَذا الغَزالِ النَّجْدِيِّ الَّذِي لا حَظَّ لَكَ فِيهِ سِوَىٰ قَوْلِ القَائِلِ [من الطويل] :

(١) يُقَالُ : مَا بِٱلْعَلِيلِ قَلَبَةٌ ، أَيْ : ما بِهِ شَيْءٌ ، لا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا في النَّفْيِ .

(٢) القَوَادِمُ : مَقَادِيمُ الرِّيشِ ، في كُلِّ جَناحٍ عَشْرٌ .

وَمَالَـكَ مِنْهَـا غَيْـرُ أَنَّـكَ نَـاكِـحٌ بِعَيْنَيْـكَ عَيْنَيْهـا فَهَـلْ ذَاكَ نَـافِـعُ

فَقالَتْ لَها الْفَتَاةُ : دَعِيهِ يَا أُمَّاهُ يَكُنْ كَما قَالَ ذُو الرُّمَّةِ [من الطويل] :

وَإِنْ يَكُـنْ إِلَّا مُعَـرَّجُ سـاعَـةٍ قَلِيـلًا فَـإِنِّـي نَـافِـعٌ لـي قَلِيلُهـا[١]

* * *

٧٠ ـ وَقَالَ أَبُو الغُصْنِ الأَعْرَابِيُّ : خَرَجْتُ حاجًّا ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِقُبَاءَ تَدَاعَىٰ أَهْلُهُ[٢] ، وَقَالُوا : ٱلصَّقِيل ٱلصَّقِيل[٣] ؛ فَنَظَرْتُ ، وَإِذَا جَارِيَةٌ ـ فَتَاةٌ ـ كَأَنَّ وَجهَهَا سَيْفٌ صَقِيلٌ ، فَلَمَّا رَمَيْنَاهَا بِٱلْحَدَقِ ، أَلْقَتِ البُرْقُعَ عَلَىٰ وَجْهِهَا ، فَكَأَنَّمَا غَمامَةٌ غَطَّتْ شَمْساً ، فَقُلْنَا : إِنَّا سَفْرٌ[٤] ، وَفِينَا أَجْرٌ ، فَأَمْتِعِينا بِوَجْهِكِ ؛ فَٱنْصاعَتْ وَأَنَا أَعْرِفُ الضَّحِكَ في وَجْهِهَا ، وَهِيَ تَقُولُ [من الطويل] :

وَكُنْتَ مَتَىٰ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِـكَ يَـوْمـاً أَتْعَبَتْـكَ ٱلْمَنَـاظِـرُ[٥]
رَأَيْـتَ الَّـذِي لا كُلُّـهُ أَنْـتَ قَـادِرٌ عَلَيْهِ وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ[٦]

* * *

(١) التَّعْرِيجُ : الإِقامَةُ عَلَىٰ الشَّيْءِ وحَبْسُ المُطِيِّ عَلىٰ المَنْزِلِ .
(٢) تَدَاعَىٰ أَهْلُهُ ، أَي : دَعا بَعْضُهُمْ بَعْضاً حَتَّىٰ يَجْتَمِعُوا .
(٣) الصَّقِيل ، أَي : المَجْلُوّ ، وَيُقالُ لِلسَّيْفِ الصَّقِيلُ لِجَلائِهِ ، وَهُمْ يُشَبِّهُونَ الجَمِيلَ بِالسَّيْفِ المَجْلُوِّ .
(٤) سَفْرٌ : مُسافِرُونَ .
(٥) مِنْ أَبْياتِ حَماسَةِ أَبي تَمّام ؛ وَالرَّائِدُ : الَّذِي يَتَقَدَّمُ القافِلَةَ لِيَتَأَمَّلَ حالَ الماءِ وَالْكَلأِ لَهُمْ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ : الرَّائِدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ ، لأَنَّهُ إِنْ كَذَبَهُمْ هَلَكَ مَعَهُمْ ، وَجَعَلَ العَيْنَ رَائِداً لِلْقَلْبِ ، لأَنَّ القَلْبَ يَشْتَهِي ما تَسْتَحْسِنُهُ العَيْنُ وَيَكْرَهُ مَا تَسْتَكْرِهُهُ ، قَالَ [من الطويل] :
أَلا إِنَّمَـا العَيْنَـانِ لِلْقَلْـبِ رَائِـدٌ فَمَـا تَـأْلَـفُ العَيْنَـانِ فَـٱلْقَلْـبُ آلِـفُ
(٦) هَذَا تَفْصِيلٌ لِمَا أَجْمَلَهُ في قَوْلِهِ : « أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ » يَقُولُ : رَأَيْتَ أَشْياءَ كَثِيرَةً حَسَنَةً لا تَصْبِرُ عَنْهَا وَلا تَقْدِرُ عَلَيْها .

٧١ ـ وَكانَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمانَ يُسَمَّى الدِّيبَاجُ[١] لِجَمالِهِ ، وَقَالَتْ لَهُ ٱمْرَأَةٌ يَوْماً : أَنْتَ تَفْخَرُ بِٱلْجَمالِ ، وَإِنَّما ذلك فَخْرُ النِّسَاءِ ، وَفَخْرُ الرِّجالِ بِالإِجْمالِ[٢] ؛ فَقَالَ لَهَا : وَإِذَا جَمَعَ الرَّجُلُ بَيْنَ الجَمالِ وَالإِجْمالِ فَقَدْ حَازَ مَرْتَبَةَ الْكَمالِ .

❊ ❊ ❊

٧٢ ـ وَنَازَعَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ زَوْجَها إِلىٰ أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، فَسَقَطَ خِمارُهَا عَنْ وَجْهِهَا ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : سُبْحَانَ ٱللهِ ! مَا أَجْمَلَكِ ! وَاللهِ لَكَأَنَّما خَرَجْتِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ! فَلَمَّا سَمِعَ زَوْجُهَا ذَلِكَ هَاجَ في نَفْسِهِ مِنْهَا هَائِجٌ ، فَقَامَ فَرَضَّاهَا وَأَخَذَ بِيَدِهَا وَرَجَعَ إِلىٰ مَا أَرَادَتْ مِنْهُ .

❊ ❊ ❊

٧٣ ـ وَخَرَجَ أَبُو حَازِمٍ ـ وَهُوَ سَلَمَةُ بْنُ دِينارٍ ، مِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ ـ يَرْمي ٱلْجِمارَ وَمَعَهُ قَوْمٌ نَاسِكُونَ وَهُوَ يُحَدِّثُهُمْ ، فَبَيْنَاهُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَظَرُوا إِلىٰ ٱمْرَأَةٍ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ تَتَلَفَّتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً وَقَدْ شَغَلَتِ النَّاسَ وَبُهِتُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْها ، وَخَاضَ بَعْضُهُمْ في بَعْضٍ ، فَقَالَ لَها أَبو حَازِمٍ : يَا هَذِهِ ! ٱتَّقِي ٱللهَ ! فَإِنَّكِ في مَشْعَرٍ مِنْ مَشَاعِرِ اللهِ ، وَقَدْ فَتَنْتِ النَّاسَ ، فَٱضْرِبي عَلىٰ جَيْبِكِ بِخِمارِكِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقولُ : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] ، فَأَقْبَلَتْ تَضْحَكُ مِنْ كلامِهِ ، وَقَالَتْ : يَا هَذَا ! إِنِّي مِمَّنْ قَالَ فِيهِنَّ الشَّاعِرُ ـ هُو ٱلْعَرْجِيُّ ـ [من الطويل] :

---

(١) الدِّيبَاجُ : الثَّوْبُ الَّذِي سَداهُ وَلُحْمَتُهُ مِنْ حَرِيرٍ ، أَوْ الثَّوْبُ المُتَّخَذُ مِنَ الإِبْرِيسَمِ ـ ٱلْحَرِيرِ ـ ؛ وَدِيبَاجَةُ ٱلْوَجْهِ وَدِيباجُهُ : حُسْنُ بَشَرَتِهِ .

(٢) الإِجْمالُ : الإِحْسانُ في كُلِّ شَيْءٍ وَفِعلُ مَا هُوَ جَمِيلٌ .

مِنَ اللَّاءِ لَمْ يحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً     وَلَكِـنْ لِيَقْتُلْـنَ البَـرِيءَ المُغَفَّـلا[١]

فَأَقْبَلَ أَبُو حَازِمٍ عَلىٰ أَصْحابِهِ ، وَقَالَ : يا هَؤُلاءِ ، تَعالَوْا نَدْعُ ٱللهَ أَنْ لا يُعَذِّبَ هَذِهِ الصُّورَةَ ٱلْحَسَنَةَ بالنَّارِ ؛ فَجَعَلَ يَدْعُو وَأَصْحابُهُ يُؤَمِّنُونَ . . وَبَلَغَ ذَلِكَ سَعِيدَ بْنَ المُسَيِّبِ سَيِّدَ التَّابِعِينَ وَأَحَدَ الفُقَهاءِ السَّبْعَةِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : أَمَا وَاللهِ لَوْ كَانَ مِنْ بَعْضِ بُغَضَاءِ العِرَاقِ[٢] لَقَالَ لَها : ٱغْرُبِي قَبَّحَكِ اللهُ ! وَلَكِنَّهُ ظَرْفُ عُبَّادِ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ .

* * *

٧٤ ـ وَقالَتِ السَّيِّدَةُ سُكَيْنَةُ بِنْتُ الحُسَيْنِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُما يَوْماً لِعائِشَةَ بْنِت طَلْحَةَ : أَنا أَجْمَلُ مِنْكِ ! فَقالَتْ عائِشَةُ : بَلْ أَنَا أَجْمَلُ مِنْكِ ! وَٱخْتَصَما إِلَىٰ عُمَرَ ٱبنِ أَبي رَبِيعَةَ . فَقَالَ : لأَقْضِيَنْ بَيْنَكُما ، أَمَّا أَنْتِ يا سُكَينةُ فَأَمْلَحُ ، وَأَمَّا أَنْتِ يا عائِشَة فَأَجْمَلُ ؛ فَقالَتْ سُكَيْنَةُ : قَضَيْتَ لي وَاللهِ عَلَيْها .

٧٥ ـ وَيُوَضِّحُ هَذَا قَوْلُهُمْ : ٱلْجَمِيلَةُ هِيَ الَّتِي تَأْخُذُ بِبَصَرِكَ جُمْلَةً عَلَىٰ البُعْدِ ، فَإِذا دَنَتْ لَمْ تَكُنْ كَذَلِكَ ، وَالمَلِيحَةُ هِيَ الَّتِي تَأْخُذُ بِقَلْبِكَ عَلىٰ القُرْبِ ، أَوِ الَّتِي كُلَّمَا كَرَّرْتَ فِيهَا بَصَرَكَ زَادَتْكَ حُسْناً .

٧٦ ـ وَمِـنْ كـلامِهِـمْ : الحَـلاوَةُ فِـي العَيْنَيْـنِ ، وَٱلْجَمـالُ فـي الأَنْـفِ ، وَالمَلاحَةُ في الفَمِ .

٧٧ ـ وَقالَتِ ٱمْرَأَةُ خالِدِ بنِ صَفْوَانَ لَهُ يَوْماً : مَا أَجْمَلَكَ ! قَالَ : مَا تَقُولِينَ ذَاكَ وَمَالي عَمُودُ ٱلْجمالِ ، وَلا عَلَيَّ رِداؤُهُ وَلا بُرْنُسُهُ ؛ قَالَتْ : مَا عَمُودُ

---

(١) الحِسْبَةُ : الأَجْرُ وَالثَّوابُ ، وَالمرادُ بِالمُغَفَّلِ : الَّذِي لَمْ يُجَرِّبِ الأُمورَ وَلا يَعْرِفُ الشَّرَّ .

(٢) يُرِيدُ بِهِم المُتَزَمِّتِينَ المُتَغالِينَ في الوَرَعِ .

ٱلْجمالِ وَمَا رِدَاؤُهُ وَمَا بُرْنُسُهُ ؟ قَالَ : أَمَّا عَمُودُ ٱلْجمالِ فَطُولُ القَوَامِ وَفِيَّ قِصَرٌ ، وَأَمَّا رِداؤُهُ فَالبَياضُ وَلَسْتُ بِأَبْيَضَ ، وَأَمَّا بُرْنُسُهُ فَسَوادُ الشَّعْرِ وَأَنَا أَصْلَعُ ، وَلَكِنْ لَوْ قُلْتِ : مَا أَحلاكَ وَما أَمْلَحَكَ ، كانَ أَوْلَىٰ .

❊ ❊ ❊

٧٨ ـ وَقَدْ كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَىٰ أَنَّ العَيْنَ حَقٌّ ، وَأَنَّ ٱلْجَمِيلَ قَدْ تَعِينُهُ عَيْنُ عَدُوٍّ أَوْ حَسُودٍ فَتُؤَثِّرُ فِيهِ فَيَمْرَضُ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، فَقَدْ كانَ الشَّاعِرُ المُلَقَّبُ بِالمُقَنَّعِ الكِنْدِيِّ ـ شاعِرٌ مُقِلٌّ مِنْ شُعَراءِ الدَّوْلَةِ الأُمَوِيَّةِ ـ كانَ هَذَا المُقَنَّعُ الْكِنْدِيُّ مِنْ أَجْمَلِ النَّاسِ ، كَانَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهاً ، وَأَمَدَّهُمْ قَامَةً ، وَأَكْمَلَهُمْ خَلْقاً ؛ فَكانَ لِذَلِكَ يَتَقَنَّعُ ، لأَنَّهُ كانَ متَىٰ سَفَرَ لُقِعَ ، أَيْ : أُصِيبَ بِعَيْنٍ .

❊ ❊ ❊

### أَبُو دَهْبَلٍ وَصاحِبَتُهُ :

٧٩ ـ وَكانَ أَبُو دَهْبَلٍ الجُمَحِيُّ الشَّاعِرُ[1] جَميلًا وَضِيئاً ، وكانَ لَهُ جُمَّةٌ ـ قُصَّةٌ ـ يُرْسِلُها فتَضْرِب مَنْكِبَيْهِ ، وَكانَ عَفِيفاً ، فَخَرَجَ إِلَىٰ الشَّامِ ، فَنَزَلَ

---

(١) هُوَ وَهْبُ بْنُ زَمْعَةَ . . . بْنِ جُمَحٍ ، قَالَ الشِّعْرَ في آخِرِ خِلافَةِ عَلِّي ٱبْنِ أَبي طالِبٍ ، وَمَدَحَ مُعاوِيَةَ وَعَبْدَ ٱللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ ، وَقَدْ وَلَّاهُ ٱبْنُ الزُّبَيْرِ بَعْضَ أَعْمَالِ اليَمَنِ ، وَهُوَ الْقَائِلُ مِنْ أَبْياتٍ [من الطويل] :

أَلَيْسَ عَظِيماً أَنْ تَكُونَ بِبَلْدَةٍ ... كِلَانَا بِهَا ثَاوٍ وَلا نَتَكَلَّمُ

وَالْقَائِلُ مِنْ أَبْياتٍ [من الطويل] :

تَطَاوَلَ هَذَا ٱللَّيْلُ مَا يَتَبَلَّجُ ... وَأَعْيَتْ غَوَاشِي عَبْرَتِي مَا تَفَرَّجُ
وَبِتُّ كَئِيباً مَا أَنَامُ كَأَنَّمَا ... خِلالَ ضُلُوعِي جَمْرَةٌ تَتَوَهَّجُ
فَطَوْراً أُمَنِّي النفسَ مِنْ عَمْرَةَ المُنَى ... وطَوْراً إذَا مَالَجَّ بِيَ ٱلْحُزْنُ أَنْشِجُ
لقد قَطَعَ الوَاشُونَ مَا كَانَ بَيْنَنَا ... وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوصَلَ الحَبْلُ أَحْوَجُ

أَنْشِجُ ، النَّشِيجُ : صَوْتٌ مَعَهُ تَوَجُّعٌ وَبُكَاءٌ .

جَيْرُونَ ، فَجَاءَتْهُ عَجُوزٌ ، فَقَالَتْ : إِنَّ ٱبْنَةً لي وَرَدَهَا كِتَابٌ مِنْ حَمِيمٍ لَهَا ، وَلَيْسَ عِنْدَها أَحَدٌ يَقْرَؤُهُ ، فَتَدْخُلُ إِلَيْها في هَذَا القَصْرِ فَتَقْرَؤُهُ ، فَتَحْتَسِبُ الأَجْرَ فِيها ؛ فَفَعَلَ ، فَدَخَلَ ، فَأُغْلِقَ ٱلْبَابُ دُونَهُ ، وَإِذَا ٱمْرَأَةٌ في ٱلْقَصْرِ رَأَتْهُ فَأَعْجَبَها ، فَدَعَتْهُ إِلَى نَفْسِها ، فَأَبَىٰ ، فَأَمَرَتْ حَشَمَهَا فَسَجَنُوه في مَنْزِلٍ مِنَ الدَّارِ ، وَمُنِعَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ حَتَّى كادَ يَهْلِكُ ، ثُمَّ أَمَرَتْ بِهِ فَأُخْرِجَ ، وَدَعَتْهُ إِلَىٰ نَفْسِها فَأَبَىٰ ، وَقَالَ : أَمَّا ٱلْحَرَامُ فَلَا ، وَلَكِنْ إِنْ أَرَدْتِ أَنْ أَتَزَوَّجَكِ فَعَلْتُ ؛ فَقَالَتْ : نَعَم ؛ وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهِ حَتَّىٰ رَدَّتْ رُوحَهُ ، فَتَزَوَّجَتْهُ ، وَمَنَعَتْهُ مِنَ ٱلْخُرُوجِ حَتَّىٰ طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَها ذَاتَ يَوْمٍ : قَدْ أَثِمْتُ في وَلَدِي وَأَهْلِي ، فَأْذَنِي لي في أَنْ أُطالِعَهُمْ وَأَرجِعَ إِلَيْكِ ؛ فَقَالَتْ : لا أَسْتَطِيعُ فِراقَكَ ؛ فَعَاهَدَها أَلَّا يَغِيبَ عَنْها أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، وَأَعْطَتْهُ مالًا كَثِيراً وَغَيْرَ ذَلِكَ ، فَخَرَجَ حَتَّىٰ قَدِمَ عَلَىٰ أَهْلِهِ بِمَكَّةَ ، فَوَجَدَهُمْ قَدْ نُعِيَ لَهُمْ وَٱقْتَسَمَ وَلَدُهُ مالَهُ وَزَوَّجُوا بَنَاتِهِ ، وَوَجَدَ زَوْجَتَهُ لَمْ تَأْخُذْ مِنْ مَالِهِ شَيْئاً ، وَبَكَتْ عَلَيْهِ حَتَّى عَمِشَتْ ، فَقَالَ لِبَنِيهِ : أَمَّا أَنْتُمْ فَحَظُّكُمْ مَا أَخَذْتُمْ مِنْ مالي ؛ وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ : هَذَا المَالُ لَكِ ، فَٱصْنَعِي بِهِ مَا شِئْتِ ؛ وَأَقَامَ عِنْدَهَا حَتَّىٰ قَرُبَتِ المُدَّةُ ، ثُمَّ مَضَىٰ إِلَىٰ الشَّامِ ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ الثَّانِيَةَ قَدْ مَاتَتْ حُزْناً عَلَيْهِ وَأَسَفاً لِفِراقِهِ ، فَقَالَ فِيها [من الخفيف] :

صَاحِ حَيَّا الإِلٰهُ حَيًّا وَدُوراً ... عِنْدَ أَصْلِ ٱلْقَنَاةِ مِنْ جَيْرُونِ[1]
عَنْ يَسَارِي إِذَا دَخَلْتُ إِلَىٰ الدَّا ... رِ وَإِنْ كُنْتُ خَارِجاً فَيَمِينِي
فَبِتِلْكَ ٱغْتَرَبْتُ بِالشَّامِ حَتَّىٰ ... ظَنَّ أَهْلِي مُرَجَّمَاتِ ٱلظُّنُونِ

---

(١) جَيْرُونَ ، قيل : هي دِمَشْقُ ، وَقِيلَ : حِصْنٌ بِدِمَشْقَ . [ جيرون : المحلة التي شرقي المسجد الأموي في دمشق ] .

وَهْـيَ زَهْـرَاءُ مِثْـلُ لُـؤْلُـؤَةِ ٱلْـ ـغَوَّاصِ مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونِ
وَإِذَا مَـا نَسَبْتَهَـا لَـمْ تَجِـدْهَـا فِـي سَنَـاءٍ مِـنَ ٱلْمَكَـارِمِ دُونِ
تَجْعَـلُ المِسْـكَ وَاليَلَنْجُـوجَ وَالنَّـدَّ صِـلاَءً لَهَـا عَلَـىٰ الكَـانُـونِ
ثُـمَّ خَـاصَـرْتُهَـا إِلَـىٰ القُبَّـةِ الخَضْـ ـرَاءِ تَمْشِي فِـي مَرْمَـرٍ مَسْنُـونِ[1]
قُبَّـةٌ مِـنْ مَـرَاجِـلٍ ضَـرَبَتْهَـا قَبْـلَ بَـرْدِ الشِّتَـاءِ فِـي قَيْطُـونِ[2]
ثُـمَّ فَـارَقْتُهَـا عَلَـىٰ خَيْـرِ مَـا كَـا نَ قَـرِيـنٌ مُفَـارِقٌ لِقَـرِيـنِ
فَبَكَـتْ خَشْيَـةَ ٱلتَّفَـرُّقِ لِلْبَـ ـيْنِ بُكَـاءَ ٱلْحَزِيْنِ إِثْـرَ ٱلْحَزِيـنِ
فَسَلِـي عَـنْ تَـذَكُّـرِي وَٱطْمَئِنِّـي بِـإِيَـابِـي وَإِنْ هُـمُ عَـذَلُـونِـي[3]

* * *

٨٠ ـ وَقَالَ أَبُو نُواسٍ [من المديد] :

حَلِيَـتْ وَٱلْحُسْـنَ تَـأْخُـذُهُ تَنْتَقِـي مِنْـهُ وَتَنْتَخِـبُ
فَـٱكْتَسَـتْ مِنْـهُ طَـرَائِفَـهُ وَٱسْتَـزَادَتْ فَضْـلَ مَـا تَهَـبُ

طَرَائِفُهُ ، جَمْعُ طَرِيفَةٍ ، أَيْ : غَرائِبُهُ وَأَحاسِنُهُ .

٨١ ـ وَقَالَ المُتَنَبِّي [من الطويل] :

حَبِيـبٌ كَـأَنَّ ٱلْحُسْـنَ كَـانَ يُحِبُّـهُ فَآثَرَهُ أَوْ جَارَ فِي ٱلْحُسْنِ قَاسِمُهْ

يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الحَبِيبَ قَدِ ٱسْتَبَدَّ بِٱلْحُسْنِ وَٱسْتَأْثَرَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِغَيْرِهِ فِيهِ

(١) المَسْنُونُ : المَصْبُوبُ عَلَىٰ ٱسْتِواءٍ .
(٢) المَرَاجِلُ : ثِيابٌ مِنْ ثِيابِ اليَمَنِ ؛ وَالقَيْطُونِ : البَيْتُ في جَوْفِ البَيْتِ .
(٣) نَقَلْنَا هَذِهِ القِصَّةَ عَنِ « النَّوادِرِ » لأبي عَلِيٍّ القَالِي ، [صفحة : ١٨٧] ، وَقَالَ بَعْدَ ذَلِكَ : وَيُرْوَىٰ هَذَا الشِّعْرُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانِ بْن ثَابِتٍ ، وَبِهِ كانَ سَبَبُ أَمْرِ يَزِيدِ بنِ مُعاوِيَةَ الأَخْطَلَ بِهِجاءِ الأَنْصارِ ، أي : لأَنَّ هَذِهِ الأَبْيَاتَ قِيلَتْ في عاتِكَةَ بِنْتِ مُعاوِيَةَ بْنِ سُفْيانَ عَلَىٰ رَأْيٍ . انظر أخبار أبي دَهْبَلٍ وَخَبَرَ هَذِهِ الأَبْياتِ في « الأغاني » .

حَظٌّ ، فَكَأَنَّ ٱلْحُسْنَ أَحَبَّهُ فَٱسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ ، أَوْ كَأَنَّ الَّذِي قَسَمَ ٱلْحُسْنَ بَيْنَ النَّاسِ جَارَ وَلَمْ يَعْدِلْ ، فَأَعْطَاهُ جَمِيعَ ٱلْحُسْنِ وَلَمْ يُبْقِ لِأَحَدٍ مِنْهُ نَصِيباً ، وَقَبْلَ البَيْتِ [من الطويل] :

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكِ العُيُونُ بِنَظْرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعْيِي المَطِيِّ وَرازِمُهْ

يَقُولُ : إِنَّ الإِبِلَ الرّازِحَةَ الَّتِي كَلَّتْ وَأَعْيَتْ وَعَجَزَتْ عَنِ ٱلْمَشْيِ إِعْياءً إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْكِ عَادَتْ إِلَيْها قُوَّتُهَا ، وَرُدَّتْ أَرْوَاحُهَا ، وَصَلَحَتْ حَالُهَا مَعَ أَنَّهَا لا تَعْقِلُ ، فَمَا الظَنُّ بِنَا نَحْنُ رُكَّابَهَا وَحَيَاتُنَا بِرُؤْيَتِكِ ! .

٨٢ ـ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ [السريع] :

قَدْ خَلَعَ ٱلْحُسْنُ عَلَىٰ وجْهِهِ سِرْبَالَ مَحْمُودٍ وَمَحْسُودِ

٨٣ ـ وَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من المديد] :

رَشَأٌ لَوْلَا مَلَاحَتُهُ خَلَتِ الدُّنْيَا مِنَ ٱلْفِتَنِ

٨٤ ـ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ جَبَلَةَ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلْعَكَوَّكِ [من الوافر] :

أَغَرُّ تَوَالَدُ ٱلشَّهَوَاتُ مِنْهُ فَمَا تَعْدُوهُ أَهْوَاءُ ٱلْقُلُوبِ
وَمَا ٱكْتَحَلَتْ بِهِ عَيْنٌ فَتَبْقَىٰ مُسَلَّمَةُ ٱلضَّمِيرِ مِنَ الذُّنُوبِ

٨٥ ـ وَقَالَ ٱبْنُ الرُّومِيِّ [من المنسرح] :

لا شَيْءَ إِلَّا وَفِيهِ أَحْسَنُهُ فَٱلْعَيْنُ مِنْهُ إِلَيْهِ تَنْتَقِلُ
فَوَائِدُ ٱلْعَيْنِ مِنْهُ طَارِفَةٌ كَأَنَّمَا أُخْرَيَاتُهَا ٱلأُوَلُ

طارِفَةٌ ، يُرِيدُ : مُتَجَدِّدَةٌ .

٨٦ ـ وَقَالَ أَبُو فِراسٍ [بَلْ أَبُو نُوَاسٍ ، من الكامل] :

فَإِذَا بَدَا ٱقْتَادَتْ مَحَاسِنُهُ قَسْراً إِلَيْهِ أَعِنَّةَ ٱلْحَدَقِ

٨٧ ـ وَقَالَ بَشَّارُ [من مجزوء الكامل] :

وَمُكَلَّــــلاتٍ بِــــٱلْعُيُــــو نِ طَــرَقْنَنِــي وَرَجَعْــنَ مُلْسَــا

يَقُولُ بَشَّارُ : إِنَّهُنَّ لِحُسْنِهِنَّ تَعْلُو الأَبْصَارُ إِلَىٰ وُجُوهِهِنَّ وَأَعالِيهِنَّ حَتَّىٰ كَأَنَّ لَهُنَّ إِكْليلاً[1] مِنَ العُيُونِ ؛ وَرَجَعْنَ مُلْسَا ، أَيْ : لَمْ يَعْلَقْ بِهِنَّ أَذَى وَلا رِيبَةٌ .

وَيَنْظُرُ إِلىٰ هَذَا قَوْلُ المُتَنَبِّي [ وسيرد برقم : ٤٤٧ ] [من الوافر] :

وَخَصْــرٌ تَثْبُــتُ ٱلأَبْصَــارُ فِيــهِ كَــأَنَّ عَلَيْــهِ مِــنْ حَــدَقٍ نِطَــاقَــا

وَقَبْلَ بَيْتِ المُتَنَبِّي [من الوافر] :

وَبَيْــنَ ٱلْفَــرْعِ وَٱلْقَــدَمَيْــنِ نُــورٌ يَقُــودُ بِــلا أَزِمَّتِهــا ٱلنِّيَــاقَــا
وَطَـرْفٌ إِنْ سَقَـىٰ ٱلْعُشَّـاقَ كَـأْسـاً بِهــا نَقْــصٌ سَقَــانِيهــا دِهَــاقَــا

دِهاقاً : مَلأَىٰ .

٨٨ ـ وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ أُذَيْنَةَ ، وَهُوَ الفَقِيهُ المُحَدِّثُ الثِّقَةُ ، رَوَىٰ عَنْهُ الإِمَامُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الأَئِمَّةِ ، وَكَانَ إِلىٰ ذَلِكَ شاعِراً غَزِلًا [وَيَنْسِبُهُ بَعْضُهُمْ إلى مَجْنُونِ لَيْلَىٰ قَيْسِ بنِ المُلَوَّحِ ، من الكامل] :

إِنَّ ٱلَّتِــي زَعَمْــتَ فُــؤَادَكَ مَلَّهَــا خُلِقَتْ هَوَاكَ كَما خُلِقْتَ هَوًىٰ لَها
بَيْضَــاءُ بــاكَــرَهَــا ٱلنَّعِيــمُ فَصَــاغَهَــا بِلَبَــاقَــةٍ فَــأَدَقَّهَــا وَأَجَلَّهَــا
وَإِذَا وَجَــدْتُ لَهَــا وَسَــاوِسَ سَلْــوَةٍ شَفَــعَ الضَّمِيــرُ إِلَــىٰ ٱلْفُــؤادِ فَسَلَّهــا

يَقُولُ في البَيْتِ الأَوَّلِ : إِنَّ الَّتِي ظَنَّتْ أَنَّكَ مَلَلْتَها قَدْ وَهِمَتْ في ذَلِكَ وَأَنَّ الوَاقِعَ أَنَّها خُلِقَتْ هَوَاكَ ، أَيْ : إِنَّنِي أُحِبُّهَا ؛ كَما خُلِقْتُ هَوَاهَا ، أَيْ : كما

---

(١) الإِكْلِيلُ : التَّاجُ ؛ وَالإِكْلِيلُ أَيْضاً : شِبْهُ عِصابَةٍ مُزَيَّنَةٍ بِالْجَوَاهِرِ .

أنَّها تُحِبُّنِي ؛ وَٱلْهَوَىٰ : المهْوِي ؛ أَيْ : المَحْبُوبُ ؛ وَيَقُولُ في البَيْتِ الثَّانِي : إِنَّهَا حَسْنَاءُ نَشَأَتْ في النَّعْمَةِ وَالرَّفَهِ فصَاغَها النَّعِيمُ بِلَبَاقَةٍ ؛ أَيْ : حِذْقٍ ، فَأَدَقَّ مِنْها مَا تَجْمُلُ دِقَّتُهُ ، مِثْلُ : الأَنْفِ وَالخَصْرِ ، وَأَجَلَّ مِنْها ما يَجْمُلُ عِظَمُهُ ، مِثْلُ : الرِّدْفِ وَالسَّاقَيْنِ ؛ فَجاءَتْ كامِلَةً ؛ وَيَقُولُ في البَيْتِ الثَّالِثِ : إِنِّي لا أَسْلُوها أَبَداً ، وَإِنْ خَطَرَتِ السَّلْوَةُ عَنْهَا بِقَلْبِي زَالَ ذَلِكَ سَرِيعاً ؛ وَسَلَّها : ٱنْتَزَعَها .

وَهَذَا كَمَا قَالَ كُثَيِّرُ [من الطويل] :

أُرِيدُ لأَنْسَىٰ ذِكْرَها فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَىٰ بِكُلِّ سَبِيلِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ الأَحْوَصِ [من الطويل] :

إِذَا رُمْتُ عَنْها سَلْوَةً قَالَ شافِعٌ مِنَ الحُبِّ : مِيعَادُ ٱلسُّلُوِّ المَقَابِرُ

وَعُرْوَةُ بْنُ أُذَيْنَةَ هَذَا هُوَ الَّذِي قالَتْ لَهُ سُكَيْنَةُ بِنْتُ ٱلْحُسَيْنِ : أَنْتَ الَّذِي يُقالُ فِيهِ : ٱلرَّجُلُ ٱلصَّالِحُ ، وَأَنْتَ تَقُولُ [من البسيط] :

إِذَا وَجَدْتُ أُوَارَ ٱلْحُبِّ في كَبِدِي أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِقَاءِ ٱلْقَوْمِ أَبْتَرِدُ
هَذَا بَرَدْتُ بِبَرْدِ ٱلْمَاءِ ظاهِرَهُ فَمَنْ لِنَارٍ عَلَىٰ ٱلأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ

فَقَالَ : نَعَمْ ؛ فَٱلْتَفَتَتْ إِلىٰ جوارٍ كُنَّ حَوْلَهَا وَقَالَتْ : هُنَّ حَرَائِرُ إِنْ كَانَ خَرَجَ هَذَا مِنْ قَلْبٍ سَلِيمٍ . . .

وَهُوَ ٱلْقَائِلُ أَيْضاً [وَيُقَالُ : إِنَّهُ لِعُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، من البسيط] :

قَالَتْ : وَأَبْثَثْتُها وَجْدِي فَبُحْتُ بِهِ قَدْ كُنْتَ عِنْدِي تُحِبُّ ٱلسِّتْرَ فَٱسْتَتِرِ
أَلَسْتَ تُبْصِرُ مَنْ حَوْلِي فَقُلْتُ لها غَطَّىٰ هَوَاكِ وَمَا أُلْقِي عَلَىٰ بَصَرِي

٨٩ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من الخفيف] :

أَيُّهَا السَّاقِيَانِ صُبَّا شَرَابِي وَٱسْقِيَانِي مِنْ رِيقِ بَيْضَاءَ رُودِ[١]
إِنَّ دَائِي ٱلظَّمَا وَإِنَّ دَوَائِي شَرْبَةٌ مِنْ رُضَابِ ثَغْرٍ بَرُودِ
وَلَهَا مَبْسِمٌ كَغُرِّ الأَقَاحِي وَحَدِيثٌ كَٱلْوَشْيِ وَشْيِ ٱلْبُرُودِ[٢]
نَزَلَتْ فِي ٱلسَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ القَلْـ ـبِ وَنَالَتْ زِيَادَةَ ٱلْمُسْتَزِيدِ
ثُمَّ قَالَتْ نَلْقَاكَ بَعْدَ لَيَالٍ وَٱللَّيَالِي يُبْلِينَ كُلَّ جَدِيدِ
عِنْدَهَا ٱلصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعِنْدِي زَفَرَاتٌ يَأْكُلْنَ قَلْبَ ٱلْحَدِيدِ

❊ ❊ ❊

٩٠ ـ وَمِمَّا يَصِحُّ إِيرَادُهُ هُنَا أَبْيَاتٌ فِي ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّوْعَةِ لأُسَيْدِ بْنِ عَنْقَاءَ الفَزَارِيِّ ، فِي عُمَيْلَةَ الفَزَارِيِّ ، وَهُما جَاهِلِيَّانِ ، وَعُمَيْلَةُ مِنْ سَادَاتِ فَزَارَةَ ، وَنَسُوقُ حَدِيثَهُمَا .

كَانَ أُسَيْدٌ مِنْ أَكْثَرِ أَهْلِ زَمَانِهِ وَأَشَدِّهِمْ عَارِضَةً وَلِسَاناً ، فَطَالَ عُمْرُهُ ، وَنَكَبَهُ دَهْرُهُ ، وَٱخْتَلَّتْ حَالَتُهُ ، فَخَرَجَ عَشِيَّةً يَتَبَقَّلُ لأَهْلِهِ ، فَمَرَّ بِهِ عُمَيْلَةُ الفَزَارِيُّ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : يَا عَمُّ ! مَا أَصَارَكَ إِلَىٰ مَا أَرَىٰ مِنْ حَالِكَ ؟ فَقَالَ : بُخْلُ مِثْلِكَ بِمَالِهِ ، وَصَوْنِي وَجْهِي عَنْ مُسَاءَلَةِ النَّاسِ ؛ فَقَالَ : وَاللهِ ، لَئِنْ بَقِيتُ إِلَىٰ غَدٍ لأُغَيِّرَنَّ مَا أَرَىٰ مِنْ حَالِكَ ؛ فَرَجَعَ ٱبْنُ عَنْقَاءَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا قَالَ لَهُ عُمَيْلَةُ ، فَقَالَتْ لَهُ : لَقَدْ غَرَّكَ كَلامُ غُلامٍ جُنْحَ لَيْلٍ ! فَكَأَنَّمَا أَلْقَمَتْ فَاهُ حَجَراً ، فَبَاتَ مُتَمَلْمِلاً بَيْنَ رَجَاءٍ وَيَأْسٍ ، فَلَمَّا كَانَ ٱلسَّحَرُ سَمِعَ رُغَاءَ الإِبِلِ ، وَثُغَاءَ ٱلشَّاءِ ، وَصَهِيلَ ٱلْخَيْلِ ، وَلَجَبَ الأَمْوَالِ ؛ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : هَذَا عُمَيْلَةُ سَاقَ إِلَيْكَ مَالَهُ ؛ فَٱسْتَخْرَجَ ابنَ عَنْقَاءَ ، ثُمَّ قَسَمَ مَالَهُ شَطْرَيْنِ

---

(١) رُودُ ، أَصْلُها رُؤْد بِٱلْهَمْزِ : الشَّابَةُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلسَّرِيعَةُ ٱلشَّبَابِ مَعَ حُسْنِ غِذَاءٍ ، تَشْبِيهاً لَهَا بِٱلْغُصْنِ ٱلرُّؤْدِ . وَهُوَ ٱلَّذِي نَبَتَ مِنَ سَنَتِهِ أَرْطَبَ مَا يَكُونُ وَأَلْيَنَهُ .

(٢) المَبْسِمُ : الثَّغْرُ ؛ وَالأَقَاحِي ، جَمْعُ أُقْحُوانَة : نَبَاتٌ ، أَوْرَاقُ زَهْرِهِ مُفَلَّجَةٌ صَغِيرَةٌ .

وَسَاهَمَهُ عَلَيْهِ ، فَأَنْشَأَ ٱبْنُ عَنْقَاءَ يَقُولُ [من الطويل] :

رَآنِي عَلَىٰ مَا بِي عُمَيْلَةُ فَٱشْتَكَىٰ ... إِلَىٰ مَالِهِ حَالِي أَسَرَّ كَمَا جَهَرْ (١)

دَعَانِي فَآسَانِي وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلُمْ ... عَلَىٰ حِينَ لا بَدْوٌ يُرَجَّىٰ وَلا حَضَرْ (٢)

فَقُلْتُ لَهُ خَيْراً وَأَثْنَيْتُ فِعْلَهُ ... وَأَوْفَاكَ مَا أَسْدَيْتَ مَنْ ذَمَّ أَوْ شَكَرْ (٣)

وَلَمَّا رَأَىٰ ٱلْمَجْدَ ٱسْتُعِيرَتْ ثِيَابُهُ ... تَرَدَّىٰ رِدَاءً سَابِغَ الذَّيْلِ وَٱتَّزَرْ (٤)

غُلامٌ رَمَاهُ ٱللهُ بِٱلْخَيْرِ يَافِعاً ... لَهُ سِيْمِيَاءُ لا تَشُقُّ عَلَىٰ ٱلْبَصَرْ (٥)

كَأَنَّ ٱلثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فَوْقَ نَحْرِهِ ... وَفِي أَنْفِهِ ٱلشِّعْرَىٰ وَفِي خَدِّهِ ٱلْقَمَرْ (٦)

إِذَا قِيلَتِ ٱلْعَوْرَاءُ أَغْضَىٰ كَأَنَّهُ ... ذَلِيلٌ بِلَا ذُلٍّ وَلَوْ شَاءَ لانْتَصَرْ (٧)

* * *

---

(١) عَلَىٰ ما بِي : عَلَىٰ ٱلَّذِي بِي مِنَ ٱلْفَاقَةِ وَالعَوَزِ ؛ وَقَوْلُهُ : « فَٱشْتَكَىٰ إِلَىٰ مَالِهِ حالِي » مِنْ بَارِعِ التَّمْثِيلِ ، جَعَلَ رُجُوعَهُ إِلَىٰ مالِهِ في إِصْلاحِ حالِهِ شِكَايَةً مِنْهُ إِلَيْهِ ؛ وَقَوْلُ : « أَسَرَّ كَمَا جَهَر » ، يُرِيدُ : لَمْ يُنَافِقْ ، يَعْنِي : إِنَّهُ أَسَرَّ الاهْتِمامَ بِأَمْرِيْ كَمَا أَظْهَرَهُ .

(٢) فَآسَانِي ، أَيْ : جَعَلَنِي أُسْوَةً لَهُ بِأَنْ أَعْطَانِي مِنْ مالِهِ ؛ وَقَوْلُهُ : « وَلَوْ ضَنَّ لَمْ أَلُمْ » أَيْ : لَمْ أَلُمْهُ لِضِيقِ الزَّمَانِ الَّذِي لا يُرْجَىٰ فِيهِ بَدَوِيٌّ وَلا حَضَرِيٌّ .

(٣) وَأَثْنَيْتُ فِعْلَهُ ، أَيْ : أَثْنَيْتُ عَلَىٰ فِعْلِهِ ، أَوْ تَقُولَ : إِنَّهُ ضَمَّنَ « أَثْنَيْتُ » مَعْنَىٰ : « مَدَحْتُ » ، ثُمَّ قَالَ : وَمَنْ ذَمَّ إِسَاءَتَكَ وَشَكَرَ إِحْسَانَكَ فَقَدْ وَفَّاكَ حَقَّ مَا أَسْدَيْتَ إِلَيْهِ .

(٤) ٱسْتُعِيرَتْ ثِيابُهُ : كِنايَةٌ عَنْ ذَهَابِهِ ، يَقُولُ : لَمَّا رَأَىٰ ٱلْمَجْدَ قَدْ ذَهَبَ لَبِسَ هُوَ ثِيَاباً مِنَ المَجْدِ وَاسِعَةً .

(٥) ٱلْيَافِعُ : الشَّابُّ ؛ وَالسِّيمِيَاءُ يُرَادُ بِهَا هُنَا : ٱلْحُسْنُ وَٱلْبَهْجَةُ ؛ وَلا تَشُقُّ عَلَىٰ ٱلْبَصَرِ ، يُرِيدُ أَنَّهُ يَسُرُّ ٱلنَّاظِرَ إِلَيْهِ لِبِشْرِهِ وَطَلاقَتِهِ وَنَجَابَتِهِ ؛ وَقَوْلُهُ : رَمَاهُ ٱللهُ بِٱلْخَيْرِ يَافِعاً ، يُرْوَىٰ : رَمَاهُ ٱللهُ بِٱلْحُسْنِ يَافِعاً ؛ قَالَ الرِّيَاشِيُّ : لا يَرْوِيهِ : رَمَاهُ ٱللهُ بِٱلْحُسْنِ ، إِلَّا أَعْمَىٰ ٱلْبَصِيرَةِ ، لأَنَّ ٱلْحُسْنَ مَوْلُودٌ .

(٦) الشِّعْرَىٰ : ٱسْمٌ لِكَوْكَبٍ مِنْ كَوْكَبَيْنِ ، يُقالُ لِكُلٍّ مِنْهُمَا الشِّعْرَىٰ ، وَهُمَا : العَبُورُ وَٱلْغُمَيْصَاءُ ، أُخْتَا سُهَيْلٍ ؛ يصف ابن عنقاء الممدوح بالجمال والملاحة ، وهذا البيت هو شاهدنا .

(٧) العَوْرَاءُ : الْكَلِمَةُ القَبِيحَةُ ، يَقُولُ : إِذا سَمِعَ الْكَلِمَةَ القَبِيحَةَ سَكَتَ وَعَفَا كَرَماً لا عَجْزاً ، وَلَوْ شَاءَ لانْتَقَمَ مِنْ قَائِلِهِمَا ، لأَنَّهُ عَلَىٰ الانْتِقامِ جِدُّ قَدِيرٍ .

٩١ ـ وَقَالَ إِسْماعِيلُ صَبْرِي بَاشا ، وَهِيَ أَبياتٌ قَالَهَا رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ لِتُتَرْجَمَ إِلَىٰ ٱللُّغَةِ الفِرَنْسِيَّةِ ، وَهُوَ في هَذِهِ الأَبْيَاتِ يَرْغَبُ إِلَىٰ ٱلْحَسْنَاءِ أَنْ تُسَوِّي بَيْنَ مُحِبِّيهَا في التَّمَتُّعِ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ جَمالِهَا [من الرمل] :

يَا لِوَاءَ ٱلْحُسْنِ أَحْزَابُ ٱلْهَوَىٰ ... أَيْقَظُوا ٱلْفِتْنَةَ فِي ظِلِّ ٱللِّوَاءْ[1]

فَرَّقَتْهُمْ فِي ٱلْهَوَى ثَارَاتُهُمْ ... فَٱجْمَعِي ٱلأَمْرَ وَصُونِي الأَبْرِيَاءْ

إِنَّ هَذَا ٱلْحُسْنَ كَٱلْمَاءِ ٱلَّذِي ... فِيهِ لِلأَنْفُسِ رِيٌّ وَشِفَاءْ

لا تذُودِي بَعْضَنَا عَنْ وِرْدِهِ ... دُونَ بَعْضٍ وَٱعْدِلِي بَيْنَ ٱلظِّمَاءْ

أَنْتِ يَمُّ ٱلْحُسْنِ فِيهِ ٱزْدَحَمَتْ ... سُفُنُ الآمالِ يُزْجِيها ٱلرَّجَاءْ[2]

يَقْذِفُ ٱلشَّوْقُ بِهَا فِي مَائِجٍ ... بَيْنَ لُجَّيْنِ عَنَاءٍ وَشَقَاءْ

شَدَّةٌ تَمْضِي وَتَأْتِي شِدَّةٌ ... تَقْتَفِيهَا شَدَّةٌ هَلْ مِنْ رَجَاءْ

سَاعِفِي آمَالَ أَنْضَاءِ ٱلْهَوَىٰ ... بِقَبُولٍ مِنْ سَجَايَاكِ رَخَاءْ[3]

وَتَجَلَّيْ وَٱجْعَلِي قَوْمَ ٱلْهَوَىٰ ... تَحْتَ عَرْشِ ٱلشَّمْسِ فِي ٱلْحُكْمِ سَوَاءْ[4]

أَقْبِلِي نَسْتَقْبِلِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ... ضَمِنَتْهُ مِنْ مُعَدَّاتِ ٱلْهَنَاءْ

وَٱسْفِرِي ، تِلْكَ حُلًى مَا خُلِقَتْ ... لِتُوَارَىٰ بِلِثَامٍ أَوْ خِبَاءْ[5]

---

(١) شَبَّهَهَا في حُسْنِها المَرْمُوقِ وَأَتْبَاعِ ٱلْمُحِبِّينَ إِيَّاهَا بِاللِّوَاءِ الَّذِي يَرمُقُهُ ٱلْجَيْشُ وَيَتْبَعُهُ .

(٢) ٱلْيَمُّ : البَحْرُ ؛ وَيُزْجِيها : يَدْفَعُهَا وَيَسُوقُهَا .

(٣) أَنْضَاءُ ٱلْهَوَىٰ ، أَيْ : مَنْ أَضْنَاهُمُ ٱلْحُبُّ وَأَسْقَمَهُمْ وَأَنْحَلَ جُسُومَهُمْ ، جَمْعُ نِضْوٍ ؛ وَالقَبُولُ : رِيحُ الصَّبَا ، وهِيَ مِنْ أَلْطَفِ الرِّياحِ ؛ وَالرَّخَاءُ : الرِّيحُ اللَّيِّنَةُ ؛ شَبَّهَ بِهَا شَمائِلَ حَبِيبَتِهِ وَسَجَايَاهَا في رِقَّتِهَا وَلُطْفِهَا .

(٤) تَجَلَّيْ ، أَيْ : أَسْفِرِي وَأَظْهِرِي . وَيُشِيرُ بِتَشْبِيهِ حَبِيبَتِهِ بِالشَّمْسِ في هَذَا البَيْتِ إِلى أَنَّهُ يَنْبَغي لَها أَنْ تَشْبَهَ الشَّمْسَ أَيْضاً في شُمُولِ ضَوْئِهَا .

(٥) ٱسْفِرِي ، أي : ٱرْفَعِي لِثامَكِ ؛ والحُلىٰ ، جَمْعُ حُلْيَةٍ .

وَٱخْطِرِي بَيْنَ ٱلنَّدَامَىٰ يَحْلِفُوا أَنَّ رَوْضاً رَاحَ فِي ٱلنَّادِي وَجَاءْ[(١)]

وَٱنْطِقِي يَنْثُرْ إِذَا حَدَّثْتِنَا نَاثِرُ ٱلدُّرِّ عَلَيْنَا مَا نَشَاءْ

وَٱبْسِمِي ، مَنْ كَانَ هَذَا ثَغْرُهُ يَمْلأُ ٱلدُّنْيَا ٱبْتِسَاماً وَٱزْدِهَاءْ[(٢)]

لا تَخَافِي شَطَطاً مِنْ أَنْفُسٍ تَعْثُرُ ٱلصَّبْوَةُ فِيهَا بِٱلْحَيَاءْ[(٣)]

رَاضَتِ ٱلنَّخْوَةُ مِنْ أَخْلاَقِنَا وَٱرْتَضَىٰ آدَابَنَا صِدْقُ ٱلْوَلاَءْ[(٤)]

فَلَوِ ٱمْتَدَّتْ أَمَانِينَا إِلَىٰ مَلَكٍ مَا كَدَّرَتْ ذَاكَ ٱلصَّفَاءْ[(٥)]

أَنْتِ رُوحَانِيَّةٌ ، لا تَدَّعِي أَنَّ هَذَا ٱلْحُسْنَ مِنْ طِينٍ وَمَاءْ[(٦)]

وَٱنْزِعِي عَنْ جِسْمِكِ ٱلثَّوْبَ يَبِنْ لِلْمَلاَ تَكْوِينُ سُكَّانِ ٱلسَّمَاءْ

وَأَرِي ٱلدُّنْيَا جَنَاحَيْ مَلَكٍ خَلْفَ تِمْثَالٍ مَصُوغٍ مِنْ ضِيَاءْ

٩٢ ـ وَقَالَ أَبُو الشِّيصِ [من المنسرح] :

تَخْشَعُ شَمْسُ ٱلنَّهَارِ طَالِعَةً حِينَ تَرَاهُ ، وَيَخْشَعُ ٱلْقَمَرُ

تَعْرِفُهُ أَنَّهُ يَفُوقُهُمَا بِٱلْحُسْنِ فِي عَيْنِ مَن لَهُ بَصَرُ

٩٣ ـ وَقَالَ ٱبنُ لَنْكَكُ [من مجزوء الكامل] :

---

(١) النَّدَامَىٰ ، جَمْعُ نَدِيم .
(٢) الازْدِهَاءُ : الاخْتِيالُ .
(٣) الشَّطَطُ : مُجاوَزَةُ الحَدِّ . يقولُ : لا تَخافي الجُمُوحَ مِنْ نُفُوسِ الجُلَسَاءِ وَخُرُوجَهَا عَنِ الأَدَبِ في التَّمَتُّعِ بِجَمالِكِ ، فَإِنَّها نُفُوسٌ مُهَذَّبَةٌ يَحُولُ الحَيَاءُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ما لا يَنْبَغِي . وَلا يَخْفَىٰ ما في قَوْلِهِ : « تَعْثُرُ ٱلصَّبْوَةُ . . . » الخ مِنْ خَيالٍ حَسَنٍ ، إِذْ قَدْ تَخَيَّلَ أَنَّ الصَّبْوَةَ قَدْ جَمَحَتْ بِنُفُوسِ ٱلْمُحِبِّينَ بِطَلَبِ ما لا يَنْبَغِي حَتَّىٰ عَثَرَتِ بِٱلْحَياءِ فَوَقَفَتْ مَكانَهَا .
(٤) رَاضَتْ ، أَيْ : سَهَّلَتْ وَذَلَّلَتْ ؛ وَالنَّخْوَةُ : المُرُوءَةُ ؛ وَالوَلاءُ : ٱلْمَحَبَّةُ .
(٥) يَقُولُ : إِنَّ أَمَانِينَا في التَّمَتُّعِ بِٱلْحُسْنِ أَمانِيٌّ مُهَذَّبَةٌ ، فَلَوْ تَمَنَّيْنَا مَلَكاً مِنَ المَلائِكَةِ ما أَخْرَجْنَاهُ بِهَذِهِ الأَمانيّ الطَّاهِرَةِ عَنْ طَبِيعَتِهِ الصَّافِيَةِ .
(٦) يَصِفُها في هَذَا البَيْتِ بِأَنَّهَا مِنَ المَلائِكَةِ لا مِنَ الإِنْسِ .

ٱلْبَـــدْرُ وَٱلشَّمْـــسُ ٱلْمُنِـ ـيـرَةُ وَٱلـدُّمَـىٰ وَٱلْكَـوْكَـبُ
أَضْحَـتْ ضَـرائِـرَ وَجْهِـهِ مِـنْ حَيْـثُ يَطْلُـعُ تَغْـرُبُ
وَكَـأَنَّ جَمْـرَ جَـوَانِحِـي فِـي خَـدِّهِ يَتَلَهَّـبُ
وَكَـأَنَّ غُصْـنَ قَـوَامِـهِ مِـنْ مَـاءِ دَمْعِـي يَشْـرَبُ
وَصَـوَالِـجٍ فِـي صُـدْغِـهِ بِسَـوَادِ قَلْبِـي تَلْعَـبُ(1)

٩٤ ـ وَقَالَ أَبُو هِلالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ [من المتقارب] :

وَوَجْـهٍ تَشَـرَّبَ مَـاءَ ٱلنَّعِيـمْ فَلَـو عُصِـرَ ٱلْحُسْـنُ مِنْـهُ ٱنْعَصَـرْ
يَمُـرُّ فَـأَمْنَحُـهُ نَـاظِـرِي فَيَنْثُـرُ وَرْداً عَلَيْـهِ ٱلْخَفَـرْ
تَمَتَّعَـتِ ٱلْعَيْـنُ فِـي حُسْنِـهِ فَمَـا حَفَلَـتْ بِطُلُـوعِ ٱلْقَمَـرْ

٩٥ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من السريع] :

يَـا مُفْـرَداً بِـٱلْحُسْـنِ وَٱلشَّكْـلِ مَـنْ دَلَّ عَيْنَيْـهِ عَلَـىٰ قَتْلِـي
ٱلْبَـدْرُ مِـنْ شَمْـسِ ٱلضُّحَـىٰ نُـورُهُ وَٱلشَّمْـسُ مِـن نُـورِكَ تَسْتَمْلِـي

٩٦ ـ وَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من المنسرح] :

كَـأَنَّمَـا ٱلْـوَجْـهُ إِذْ بَـدَا قَمَـرٌ مُـرَكَّـبُ فَـوْقَ قَـامَـةِ ٱلْغُصُـنِ
يَـا ذَا ٱلَّـذِي أَصْبَـحَ ٱلْعِبَـادُ بِـهِ فِـي فِتْنَـةٍ مِـنْ عَظَـائِـمِ ٱلْفِتَـنِ
أَقْبِـلْ بِـوَجْـهِ ٱلْهَـوَىٰ إِلَـيَّ فَقَـدْ أَطَلْـتِ بِـٱلصَّـدِّ مُعْـرِضـاً حَـزَنِـي(2)

٩٧ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الخفيف] :

---

(١) الصَّوالِجُ ، جَمْعُ صَوْلَجان : عَصَا يُعْطَفُ طَرَفُهَا ، يُضْرَبُ بِهَا الْكُرَةُ عَلَىٰ الدَّوابِ ؛ شَبَّهَ بِهَا هُنَا السَّوَالِفَ ، وَهِيَ : خُصَلٌ مِنَ ٱلشَّعْرِ مُرْسَلَةٌ بَيْنَ ٱلْعَيْنِ وَالأُذُنِ ، وَهِيَ مُلْتَوِيَةٌ مِثْلَ الصَّوْلَجانِ .
(٢) حَزَنِي ، مَعْمُولُ قَوْلِ : أَطَلْتَ .

وَإِذَا ٱلـدُّرُّ زَانَ حُسْـنَ وُجُـوهٍ كَـانَ لِلـدُّرِّ حُسْـنُ وَجْهِـكَ زَيْنَـا
وَتَـزِيـدِيـنَ طَيِّـبَ ٱلطِّيـبِ طِيبـاً إِنْ تَمَسِّيـهِ ، أَيْـنَ مِثْلُـكِ أَيْنَـا

٩٨ ـ وَقَال عُمَرُ ٱبنُ أَبِي رَبِيعَةَ [من الرمل] :

وَفَتَـاةٍ إِنْ يَغِـبْ بَـدرُ ٱلـدُّجَـىٰ فَلَنَـا فِـي وَجْهِهَـا عَنْـهُ خَلَـفْ
أَجْمَـعَ ٱلنَّـاسُ عَلَـىٰ تَفضِيلِهَـا وَهَـوَاهُـمْ فـي سِـوَاهَـا مُخْتَـلِـفْ

٩٩ ـ وَقَالَ ٱلْخُبْزَأَرُزِّيُّ [من المتقارب] :

رَأَيْـتُ الهِـلالَ وَوَجْـهَ ٱلْحَبِيـبِ فَكَـانَـا هِـلاَلَيْـنِ عِنْـدَ ٱلنَّظَـرْ
فَلَـمْ أَدْرِ مِـنْ حَيْـرَتِـي فِيهِمَـا هِـلالَ ٱلـدُّجَـىٰ مِنْ هِـلالِ ٱلْبَشَـرْ
فَلَـوْلا ٱلتَّـوَرُّدُ فـي ٱلْـوَجْنَتَيْـنِ وَمَـا رَاعَنِـي مِـنْ سَـوادِ ٱلشَّعَـرْ
لَكُنْـتُ أَظُـنُّ ٱلْهِـلالَ ٱلْحَبِيـبْ وَكُنْـتُ أَظُـنُّ ٱلْحَبِيـبَ ٱلْقَمَـرْ

١٠٠ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [وَهُوَ أَبُو نُوَاسٍ ، من السَّرِيع] :

تَمَّـتْ وَتَـمَّ ٱلْحُسْـنُ فِـي وَجْهِهَـا فَكُـلُّ شَـيْءٍ مَـا سِـوَاهَـا مُحَـالْ
لِلنَّـاسِ فـي ٱلشَّهْـرِ هِـلالٌ وَلِـي فـي وَجْهِهَـا كُـلَّ صَبـاحٍ هِـلالْ

* * *

وَصْفُهُمُ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْجَمِيلَةَ :

١٠١ ـ أَهْدَىٰ ٱلْمُنْذِرُ ٱلأَكْبَرُ مَلِكُ ٱلْحِيرَةِ إِلَىٰ كِسرَىٰ أَنُوشِرْوَانَ جَارِيَةً ـ فَتَاةً ـ كَانَ قَدْ أَصابَها إِذْ أَغَارَ عَلَىٰ ٱلْحَارِثِ ٱلأَكْبَرِ ٱبْنِ أَبِي شَمِرٍ ٱلْغَسَّانِيِّ ، فَكَتَبَ إِلَىٰ أَنُوشِرْوَانَ يَصِفُهَا :

إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَىٰ المَلِكِ جَارِيَةً مُعْتَدِلَةَ ٱلْخَلْقِ ، نَقِيَّةَ ٱللَّوْنِ وَٱلثَّغْرِ ،

بَيْضَـاءَ ، قَمَـرَاءَ ، وَطْفَـاءَ[١] ، كَحْـلاءَ ، دَعْجَـاءَ[٢] ، حَـوْرَاءَ ، عَيْنَـاءَ ، قَنْوَاءَ[٣] ، شَمَّاءَ[٤] ، بَرْجَاءَ[٥] ، زَجَّاءَ[٦] ، أَسِيلَةَ ٱلْخَدِّ ، شَهِيَّةَ ٱلْخَدِّ ، شَهِيَّةَ ٱلْمَقَبَّلِ ، جَثْلَةَ[٧] ٱلشَّعَرِ ، عَظِيمَةَ ٱلْهَامَةِ ، بَعِيدَةَ مَهْوَىٰ ٱلْقُرْطِ ، عَيْطَاءَ[٨] ، عَرِيضَةَ ٱلصَّدْرِ ، كاعِبَ ٱلثَّدْيِ ، ضَخْمَةَ مُشَاشِ ٱلْمَنْكِبِ وَٱلْعَضُدِ[٩] ، حَسَنَةَ ٱلْمِعْصَمِ ، لَطِيفَةَ ٱلْكَفِّ ، سَبْطَةَ ٱلْبَنَانِ ، ضَامِرَةَ ٱلْبَطْنِ ، خَمِيصَةَ ٱلْخصرِ ، غَرْثَىٰ[١٠] ٱلْوِشَاحِ ، رَدَاحَ ٱلأَقْبَالِ[١١] ، رَابِيَةَ ٱلْكَفَلِ ، لَفَّاءَ[١٢] ٱلْفَخِذَيْنِ ، رَيَّا ٱلرَّوَادِفِ ، ضَخْمَةَ ٱلْمَأْكِمَتَيْنِ[١٣] ، مُفْعَمَةَ[١٤] ٱلسَّاقِ ، مُشْبَعَةَ[١٥] ٱلْخَلْخَالِ ، لَطِيفَـةَ ٱلْكَعْـبِ وَٱلْقَـدَمِ ، قَطُـوفَ[١٦] ٱلْمَشْـيِ ، مِكْسَـالَ[١٧] ٱلضُّحَـىٰ ،

---

(١) ٱلْوَطْفاءُ : ٱلْغَزِيرَةُ ٱلأَهْدَابِ وَشَعْرِ ٱلْحَاجِبَيْنِ .
(٢) ٱلدَّعَجُ : شِدَّةُ سَوَادِ ٱلْعَيْنِ وَشِدَّةُ بَيَاضِ بَيَاضِهَا .
(٣) القَنْواءُ، وَصْفٌ مِنَ القَنَا، وَهُوَ: ٱرْتِفاعٌ في أَعْلىٰ الأَنْفِ وَٱحْدِيدَابٌ في وَسَطِهِ وَسُبُوغٌ في طَرَفِهِ .
(٤) الشَّمَمَ في الأَنْفِ : ٱرْتِفاعُ القَصَبَةِ وَحُسْنُها .
(٥) ٱلْبَرْجاءُ : ٱلْجَمِيلَةُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلْوَجْه .
(٦) ٱلزَّجَّاءُ : رَقِيقَةَ ٱلْحَاجِبَيْنِ في طُولٍ .
(٧) ٱلْجَثْلَةُ : كَثِيفَةُ ٱلشَّعْرِ سَوْداؤُهُ .
(٨) بَعِيدَةُ مَهْوىٰ ٱلْقُرْطِ : كِنايَةٌ عَنْ طُولِ عُنُقِها ؛ وَٱلْعَيْطَاءُ : ٱلطَّوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ .
(٩) ٱلْمُشَاشُ : رَأْسُ ٱلْعَظْمِ ٱللَّيِّنِ .
(١٠) غَرْثَىٰ ٱلْوِشَاحِ : دَقِيقَةُ ٱلْخَصْرِ .
(١١) ٱلرَّدَاحُ : ٱلْعَجْزاءُ ، ٱلثَّقِيلَةُ الأَوْرَاكِ ، ٱلتَّامَّةُ ٱلْخَلْقِ ؛ وَالأَقْبالُ : مَا ٱسْتَقْبَلَكَ مِنْ مُشْرِفٍ ، وَٱلْوَاحِدُ قَبَلٌ .
(١٢) لَفَّاءُ : ضَخْمَةُ ٱلْفَخِذَيْنِ ، مُكْتَنِزَةٌ .
(١٣) المَأْكَمَتَانِ : ٱللَّحْمَتَانِ ٱللَّتانِ عَلىٰ رُؤُوسِ ٱلْوِرْكَيْنِ ، ٱلْوَاحِدُ مَأْكَمَةٌ .
(١٤) مُفْعَمَةُ السَّاقِ : مُمْتَلِئَتُها .
(١٥) مُشْبَعَةُ ٱلْخَلْخالِ، كِنايَةٌ عَنِ السِّمَنِ، وَفي «اللسان»: ٱمْرَأَةٌ شَبْعىٰ ٱلْخَلْخالِ: مَلأَىٰ سِمَناً.
(١٦) ٱلْقُطُوفُ ، وَصْفٌ مِنَ القِطافِ ، وَهُوَ : تَقَارُبُ ٱلْخَطْوِ .
(١٧) المِكْسَالُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي لا تكادُ تَبْرَحُ مَجْلِسَها ، وَهُوَ مَدْحٌ لَها مِثْل : نَؤُومُ الضُّحىٰ ، يَعْنُونَ أَنَّها مَخْدُومَةٌ .

بَضَّةَ[١] ٱلْمُتَجَرَّدِ ، سَمُوعاً لِلسَّيِّدِ ، لَيْسَتْ بِخَنْسَاءَ[٢] وَلا سَفْعَاءَ[٣] ، رَقِيقَةَ ٱلأَنْفِ ، عَزِيزَةَ ٱلنَّفْسِ ، لَمْ تُغذَّ في بُؤْسٍ ، حَيِيَّةً رَزِينَةً ، حَلِيمةً رَكِينَةً ، كَرِيمَةَ ٱلْخَالِ ، تَقْتَصِرُ عَلَىٰ نَسَبِ أَبِيهَا دُونَ فَصِيلَتِهَا وَتَسْتَغْنِي بِفَصِيلَتِهَا دُونَ جِمَاعِ قَبِيلَتِهَا ، قَدْ أَحْكَمَتْهَا ٱلأُمُورُ في ٱلأَدَبِ ، فَرَأْيُهَا رَأْيُ أَهْلِ ٱلشَّرَفِ ، وَعَمَلُهَا عَمَلُ أَهْلِ ٱلْحَاجَةِ ؛ صَنَاعَ ٱلْكَفَّيْنِ ، قَطِيعَ[٤] ٱللِّسَانِ ، رَهْوَةَ[٥] ٱلصَّوْتِ سَاكِنَتَهُ ، تَزِينُ ٱلْوَلِيَّ ، وَتَشِينُ ٱلْعَدُوَّ ، إِنْ أَرَدْتَهَا ٱشْتَهَتْ ، وَإِنْ تَرَكْتَهَا ٱنْتَهَتْ ، تُحَمْلِقُ[٦] عَيْنَاهَا ، وَتَحْمَرُّ وَجْنَتَاهَا ، وَتُذَبْذِبُ شَفَتَاهَا ، وَتُبَادِرُكَ ٱلْوَثْبَةَ إِذَا قُمْتَ ، وَلا تَجْلِسُ إِلّا بِأَمْرِكَ إِذَا جَلَسْتَ .

❊ ❊ ❊

### صِفَةٌ أُخْرَىٰ لِفَتاةٍ جَمِيلَةٍ :

١٠٢ ـ وَكانَ عَمْرُو بْنُ حُجْرٍ مَلِكُ كِنْدَةَ ـ وَهُوَ جَدُّ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ ـ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ ٱبْنَةَ عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمٍ ٱلشَّيْبَانِيِّ ٱلَّذِي قِيلَ فِيهِ : « لا حُرَّ بِوَادِي

---

(١) البَضَّةُ : النَّاعِمَةُ ، يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ بَضَّةُ ٱلْمُتَجَرَّدِ ، بِٱلْفَتْحِ ، أَيْ : بَضَّةٌ عِنْدَ ٱلتَّجَرُّدِ ، فَٱلْمُتَجَرَّدُ عَلَىٰ هَذَا مَصْدَرٌ . وَمَنْ قَالَ : بَضَّةُ ٱلْمُتَجَرِّدِ ، بِٱلْكَسْرِ ؛ أَرَادَ ٱلْجِسْمَ .

(٢) ٱلْخَنْسَاءُ ، مِنَ ٱلْخَنَسِ ، وَهُوَ : تَأَخُّرُ الأَنْفِ إِلىٰ ٱلرَّأْسِ وَٱرْتِفَاعُهُ عَنِ الشَّفَةِ ، وَلَيْسَ بِطَوِيلٍ وَلَا مُشْرِفٍ ، وَقِيلَ : هُوَ قَرِيبٌ مِنَ الفَطَسِ ، وَهُوَ : لُصُوقُ ٱلْقَصَبَةِ بِٱلوَجْنَةِ وَضَخْمُ الأَرْنَبَةِ .

(٣) ٱلسَّفْعَاءُ ، مِنَ السَّفْعِ ، وَهُوَ : السَّوَادُ ، وَفي ٱلْحَدِيثِ : « أَنَا وَسَفْعاءُ ٱلْخَدَّيْنِ ، ٱلْحَانِيَةُ عَلىٰ وَلَدِها يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَهَاتَيْنِ » [ أبو داود ، رقم : ٥١٤٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٣٤٨٦ ] وضم أصابعه . أَرَادَ بِٱلسَّفْعاءِ ٱلْخَدَّيْنِ أَنَّها بَذَلَتْ نَفْسَهَا وَتَرَكَتِ الزِّينَةَ وَالرَّفَةَ حَتّىٰ شَحَبَ لَوْنُها وَٱسْوَدَّ ، إِقَامَةً عَلىٰ وَلَدِها بَعْدَ وَفَاةِ زَوْجِها .

(٤) ٱمْرَأَةٌ قَطِيعُ ٱلْكَلَامِ ـ بِغَيْرِ هاءٍ ـ : إِذا لَمْ تَكُنْ سَلِيطَةً .

(٥) رَهْوَةُ ٱلصَّوْتِ : رَقِيقَةٌ سَهْلَةٌ .

(٦) ٱلْمُحَمْلِقُ مِنَ الأَعْيَنُ : مَا حَوْلَ مُقْلَتَيْها بَيَاضٌ لَمْ يُخالِطْهُ سَوَادٌ .

عَوْفٍ[١] » لإِفْرَاطِ عِزِّهِ ، وَكانَتْ ذَاتَ جَمالٍ وَكَمالٍ ، فَوَجَّهَ إِلَيْهَا ٱمْرَأَةً يُقالُ لَهَا عِصَامُ[٢] لِتَنْظُرَ إِلَيْهَا ، وَتَمْتَحِنَ مَا بَلَغَهُ عَنْهَا ، فَدَخَلَتْ عَلَىٰ أُمِّهَا أُمَامَةَ بِنْتِ ٱلْحَارِثِ ، فَأَعْلَمَتْهَا مَا قَدِمَتْ لَهُ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ ٱبْنَتِهَا ، فَقَالَتْ : أَيْ بُنَيَّةُ ! هَذِهِ خَالَتُكِ أَتَتْ إِلَيْكِ لِتَنْظُرَ إِلَى بَعْضِ شَأْنِكِ ، فَلا تَسْتُرِي عَنْهَا شَيْئاً أَرادَتِ ٱلنَّظَرَ إِلَيْهِ ، مِنْ وَجْهٍ وَخَلْقٍ ، وَنَاطِقِيهَا فِيمَا ٱسْتَنْطَقَتْكِ فِيهِ ؛ فَدَخَلَتْ عِصامُ عَلَيْهَا ، فَنَظَرَتْ إِلَىٰ مَا لَمْ تَرَ عَيْنُهَا مِثْلَهُ قَطُّ ، بَهْجَةً وَحُسْناً وَجمالًا ، وَإِذَا هِيَ أَكْمَلُ ٱلنَّاسِ عَقْلًا ، وَأَفْصَحُهُمْ لِسَاناً ، فَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهَا وَهِيَ تَقُولُ : « تَرَكَ الخِدَاعَ مَنْ كَشَفَ ٱلْقِنَاعَ » فَذَهَبَتْ مَثَلًا ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَىٰ ٱلْحَارِثِ ، فَقَالَ لَهَا : « مَا وَرَاءَكِ يَا عِصَامُ ؟ » فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا ، قَالَتْ : « صَرَّحَ ٱلمَخْضُ عَنْ ٱلزُّبْدِ » فَذَهَبَتْ مَثَلًا ، قَالَ : أَخْبِرِينِي . قَالَتْ : أُخْبِرُكَ صِدْقاً وَحَقًّا :

رَأَيْتُ جَبْهَةً كَٱلْمِرْآةِ ٱلصَّقِيلَةِ ـ ٱلْمَجْلُوَّةِ ـ ، يَزِيْنُهَا شَعَرٌ حَالِكٌ كَأَذْنَابِ ٱلْخُيُولِ ٱلْمَضْفُورَةِ ، إِنْ أَرْسَلَتْهُ خِلْتَهُ السَّلاسِلَ ، وَإِنْ مَشَطَتْهُ قُلْتَ عَنَاقِيدُ كَرْمٍ

---

(١) قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : مِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ في الرَّجُلِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَنِيعِ ٱلَّذِي يَعِزُّ بِهِ ٱلذَّلِيلُ وَيَذِلُّ بِهِ ٱلْعَزِيزُ قَوْلُهُمْ : « لا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ » أَيْ : كُلُّ مَنْ صَارَ فِي نَاحِيَتِهِ خَضَعَ لَهُ ، وَكانَ ٱلْمُفَضَّلُ يَقُولُ : إِنَّ ٱلمَثَلَ لِلْمُنْذِرِ بْنِ ماءِ السَّماءِ ، قَالَهُ في عَوْفِ بْنِ مُحَلِّمِ بْنِ ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْمُنْذِرَ كانَ يَطْلُبُ زُهَيْرَ بْنَ أُمَيَّةَ الشَّيْبَانِيِّ بِذَحْلٍ ـ ثَأْرٍ ـ ، فَمَنَعَهُ عَوْفٌ ، وَأَبَىٰ أَنْ يُسَلِّمَهُ ، فَعِنْدَهَا قَالَ ٱلْمُنْذِرُ : « لا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ » أَي : أَنَّهُ يَقْهَرُ مَنْ حَلَّ بِوَادِيهِ ، فَكُلُّ مَنْ فِيهِ كَٱلْعَبْدِ لَهُ لِطَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ .

(٢) وَهَذِهِ عِصَامُ غَيْرُ عِصَامِ بْنِ شَهْبَرِ ٱلْجَرْمِيِّ حاجِبِ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ ٱلَّذِي يَقُولُ [ النابغَةُ الذُّبْيَانِي فِيهِ ، من الرجز ] :

نَفْسُ عِصامٍ سَوَّدَتْ عِصامَا وَصَيَّرَتْهُ مَلِكاً هُمَامَا
وَعَلَّمَتْهُ ٱلكَرَّ وَالإِقْدامَا

وَمِنْ هَذا قَالوا في ٱلْمَثَلِ : « كُنْ عِصامِيّاً وَلا تَكُنْ عِظَامِيّاً » يُرِيدُونَ قَوْلَهُ هَذَا ، وَكَانَتْ عِصَامُ هَذِهِ مِنْ كِنْدَةَ ، وَكَانَتْ ذَاتُ عَقْلٍ وَلِسَانٍ وَأَدَبٍ وَبَيَانٍ .

جَلاهَا وَابِلٌ(١) ؛ وَمَعَ ذَلِكَ حَاجِبانِ كَأَنَّمَا خُطَّا بِقَلَمٍ ، أَوْ سُوِّدَا بِحُمَمٍ(٢) ، قد تَقَوَّسَا عَلَىٰ عَيْنِ ٱلظَّبْيَةِ ٱلْعَبْهَرَةِ ، ٱلَّتِي لَمْ يَرُعْهَا قَانِصٌ وَلَمْ يُذْعِرْهَا قَسْوَرَةٌ(٣) ، بَيْنَهُمَا أَنْفٌ كَحَدِّ ٱلسَّيْفِ ٱلْمَصْقُولِ ، لَمْ يَخْنَسْ بِهِ قِصَرٌ وَلَمْ يَمْضِ بِهِ طُولٌ(٤) ، حَفَّتْ بِهِ وَجْنَتَانِ كَٱلأُرْجُوَانِ(٥) ، في بَيَاضٍ مَحْضٍ كَٱلْجُمَانِ(٦) ، شُقَّ فِيهِ فَمٌ كَٱلْخَاتَمِ ، لَذِيذُ ٱلْمُبْتَسَمِ ، فِيهِ ثَنَايَا غُرٌّ ، ذَوَاتُ أُشُرٍ(٧) ، وَأَسْنَانٍ تَبْدُو كَالدُّرِّ ، وَرِيقٌ كَٱلْخَمْرِ ، لَهُ نَشْرُ ٱلرَّوْضِ بِٱلسَّحَرِ(٨) ، يَتَقَلَّبُ فِيهِ لِسَانٌ ذُو فَصَاحَةٍ وَبَيَانٍ ، يَبِينُ بِهِ عَقْلٌ وَافِرٌ ، وَجَوَابٌ حَاضِرٌ ، تَلْتَقِي دُونَهُ شَفَتَانِ حَمْراوَانِ كَٱلْوَرْدِ ، يَجْلُبَانِ(٩) رِيقاً كَالشَّهْدِ ، تَحْتَ ذَاكَ عُنُقٌ كَإِبْرِيقِ ٱلْفِضَّةِ ، رُكِّبَ في صَدْرٍ كَصَدْرِ تِمْثَالِ دُمْيَةٍ ، يَتَّصِلُ بِهِ عَضُدَانِ مُمْتَلِئانِ لَحْماً ، مُكْتَنِزَانِ شَحْماً ، وَذِرَاعَانِ لَيْسَ فِيهِمَا عَظْمٌ يُجَسَّ ، وَلا عِرْقٌ يُحَسَّ(١٠) ، رُكِّبَتْ فِيهِمَا كَفَّانِ لَيِّنٌ قَصَبُهُمَا ، رَقِيقٌ عَصَبُهُمَا(١١) ، وَقَدْ تَرَبَّعَ في صَدْرِها حُقَّان كَأَنَّهُمَا رُمَّانَتَانِ

---

(١) ٱلْكَرْمُ : ٱلْعِنَبُ ؛ وَٱلْوَابِلُ : ٱلْمَطَرُ ٱلشَّدِيدُ .

(٢) ٱلْحُمَمُ ؛ جَمْعُ حُمَّةٍ ، وَهُوَ : ٱلفَحْمُ وَكُلُّ ما ٱحْتَرَقَ بِالنَّارِ ؛ تُرِيدُ أَنَّ حاجِبَيْها سَوْداوَانِ .

(٣) ٱلْعَبْهَرَةُ ، ٱلْمُرادُ ٱلحَسَنَةُ ٱلْجَمِيلَةُ ، وَمِنْهُ : فَتَاةٌ عَبْهَرَةٌ : جَمَعتِ ٱلْحُسْنَ وَٱلْخَلْقَ وَٱمْتِلاءَ ٱلْجِسْمِ ؛ وَٱلْقَسْوَرَةُ : ٱلأَسَدُ .

(٤) ٱلْخَنَسُ في الأَنْفِ : تَأَخُّرُهُ في الرَّأْسِ وَٱرْتِفَاعُهُ عنِ ٱلشَّفَةِ أَوْ قِصَرُ الأَنْفِ وَلُزُوقُهُ بِٱلْوَجْهِ ، وَأَصْلُهُ في ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ ، وَهُوَ مِنَ ٱلْعُيُوبِ ؛ تَصِفُها بِأَنَّ أَنْفَها لا هُوَ بِٱلْقَصِيرِ وَلا بِالطَّوِيلِ .

(٥) الأُرْجُوَان : شَجَرٌ لَهُ نَوْرٌ أَحْمَرُ ، وَكُلُّ لَوْنٍ يُشْبِهُهُ فَهُوَ أُرْجُوانٌ ؛ تَصِفُ وَجْنَتَيْهَا بِٱلحُمْرَةِ ، وَذَلِكَ دَلِيلُ الشَّبَابِ وَٱلْعَافِيَةِ وَنَقاءِ الدَّمِ .

(٦) ٱلْجُمَانُ : ٱللُّؤْلُؤُ .

(٧) أَشَرُ الأَسْنَانِ وَأُشُرُها : التَّحْزِيزُ الَّذي يَكُونُ فِيهَا خِلْقَةً وَمُسْتَعْمَلاً .

(٨) ٱلنَّشْرُ : الرَّائِحَةُ .

(٩) [ وَفِي رِوَايَةٍ : تَحْلِبَانِ ] .

(١٠) [ في رِوَايَةٍ : لَيْسَ فِيهَا عَظْمٌ يُمَسُّ ، وَلا عِرْقٌ يُجَسُّ ] .

(١١) القَصَبُ : عِظَامُ اليَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ؛ وَٱلْعَصَبُ : أَطْنابٌ مُنْتَشِرَةٌ في ٱلْجِسْمِ كُلِّهِ ، وَبِهَا تَكُونُ ٱلْحَرَكَةُ وَٱلْحِسُّ .

يَخْرُقَانِ عَلَيْها ثِيابَهَا ، مِنْ تَحْتِ ذَلِكَ بَطْنٌ طُوِيَ كَطَيِّ ٱلْقَبَاطِيِّ[١] ٱلْمُدْمَجَةِ ، كُسِيَ عُكَناً[٢] كَٱلْقَرَاطِيسِ ٱلْمُدْمَجَةِ[٣] ، تُحِيطُ تِلْكَ العُكَنَ سُرَّةٌ كَمُدْهُنِ ٱلْعَاجِ ٱلْمَجْلُوِّ ، خَلْفَ ذَلِكَ ظَهْرٌ كَٱلْجَدْوَلِ ، يَنْتَهِي إِلَىٰ خَصْرٍ لَوْلا رَحْمَةُ ٱللهِ لَانْخزَلَ[٤] ، تَحْتَهُ كَفَلٌ يُقْعِدُهَا إِذَا نَهَضَتْ وَيُنْهِضُهَا إِذَا قَعَدَتْ ، كَأَنَّه دِعْصُ رَمْلٍ لَبَّدَهُ سُقُوطُ ٱلطَّلِّ[٥] ، تَحْمِلُهُ فَخِذانِ لَفَّاوَانِ كَأَنَّهُمَا نَضِيدُ ٱلْجُمَانِ[٦] ، تَحْمِلُهُمَا سَاقَانِ خَدَلَّجَتَانِ كالبَرْدِيِّ[٧] ، يَحْمِلُ ذَلِكَ قَدَمَانِ كَحَذْوِ ٱللِّسَانِ[٨] ، تَبَارَكَ ٱللهُ مَعَ صِغَرِهِمَا كَيْفَ تُطِيقانِ حَمْلَ مَا فَوْقَهُمَا ، فَأَمَّا مَا سِوَىٰ ذَلِك فَقَدْ تَرَكْتُ أَنْ أَصِفَهُ غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا وَصَفَهُ وَاصِفٌ بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ . . . فَأَرْسَلَ إِلَىٰ أَبِيهَا يَخْطُبُهَا ، فَلَمَّا كَانَ بِنَاؤُهَا ـ زِفَافُهَا ـ خَلَتْ بِهَا أُمُّهَا ، فَقَالَتْ[٩] : أَيْ بُنَيَّةُ ! إِنَّ الوَصِيَّةَ لَوْ تُرِكَتْ لِفَضْلِ أَدَبٍ ، تُرِكَتْ لِذَلِك مِنْكِ ، وَلَكِنَّهَا تَذْكِرَةٌ لِلْغافِلِ ، وَمَعُونَةٌ لِلْعَاقِلِ ، وَلَوْ أَنَّ ٱمْرَأَةً ٱسْتَغْنَتْ عَنِ ٱلزَّوْجِ بِغِنَىٰ أَبَوَيْهَا ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِمَا إِلَيْهَا كُنْتِ أَغْنَىٰ ٱلنَّاسِ عَنْهُ ، وَلَكِنَّ النِّسَاءَ لِلرِّجَالِ خُلِقْنَ وَلَهُنَّ خُلِقَ ٱلرِّجَالُ .

---

(١) القَباطِيُّ : ثِيابٌ مِنْ كَتَّانٍ تُعْمَلُ بِمِصْرَ ، نِسْبَةٌ إِلىٰ القِبْطِ .

(٢) العُكَنُ ، جَمْعُ عُكْنَةٍ : ما ٱنْطَوىٰ وَتَثَنَّىٰ مِنْ لَحمِ البَطْنِ مِنَ السِّمَنِ .

(٣) القَرَاطِيسُ ، جَمْعُ قِرْطاسٍ : الصَّحائِفُ ، وَلَكِنَّها تُرِيدُ بِذَلِكَ الوَرَقَ المَأْخُوذَ مِنَ البَرْدِي المِصْري .

(٤) ٱلْجَدْوَلُ : النَّهْرُ الصَّغِيرُ ؛ تَصِفُ خَصْرَهَا بِالنَّحَافَةِ ، وَهُوَ مَعْنىٰ مَحْمودٌ ؛ وَٱنْخزَلَ : ٱنْقَطَعَ .

(٥) تَصِفُ عَجِيزَتَها بِالضَّخَامَةِ .

(٦) نَضِيدُ : مُنَضَّدٌ ؛ وَٱلْجُمانُ : ٱللُّؤْلُؤُ .

(٧) خَدَلَّجَتَانِ : مُمْتَلِئَتَانِ سَمِينَتَانِ ؛ والبَرْدِيُّ : نَباتٌ كَٱلْقَصَبِ ، كَانَ قُدَماءُ المِصْرِيِّينَ يَتخِذُونَهُ لِلْكِتَابَةِ .

(٨) تُرِيدُ تَشْبِيهَ ٱلْقَدَمِ بِٱللِّسانِ في الصِّغَرِ .

(٩) كانَ مِنْ حَقِّ هَذِهِ ٱلْوَصِيَّةِ أَنْ تُوضَعَ في بَابِ حُقُوقِ الزَّوْجِ عَلىٰ زَوْجَتِهِ ، وَلَكِنا آثَرْنا وَضْعَهَا هُنَا لاتِّصالِ هَذِهِ القِصَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ بَعْضِها بِبَعْضٍ .

أَيْ بُنَيَّةُ ! إِنَّكِ فَارَقْتِ بَيْتَكِ ٱلَّذي مِنْهُ خَرَجْتِ ، وَعُشَّكِ ٱلَّذي فِيهِ دَرَجْتِ ، إِلَىٰ رَجُلٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ ، وَقَرِينٍ لَمْ تَأْلَفِيهِ ، فَكُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْداً ، وَٱحْفَظِي لَهُ خِصالًا عَشْراً تَكُنْ لَكِ ذُخْراً : أَمَّا ٱلأُولَىٰ وَٱلثَّانِيَةُ فَٱلْخُشُوعُ لَهُ بِٱلْقَنَاعَةِ ، وَحُسْنِ ٱلطَّاعَةِ ؛ وَأَمَّا ٱلثَّالِثَةُ وَٱلرَّابِعَةُ فَٱلتَّفَقُّدِ لِمَوْضِعِ عَيْنِهِ وَأَنْفِهِ ، فَلا تَقَعُ عَيْنُهُ مِنْكِ عَلَىٰ قَبِيحٍ ، وَلا يَشَمُّ مِنْكِ إِلَّا أَطْيَبَ ٱلرِّيْحِ ؛ وَأَمَّا ٱلْخَامِسَةُ وَٱلسَّادِسَةُ فَٱلتَّفَقُّدُ لِوَقْتِ مَنَامِهِ وَطَعَامِهِ ، فَإِنَّ تَوَاتُرَ ٱلْجُوعِ مَلْهَبَةٌ ، وَتَنْغِيصَ ٱلنَّوْمِ مَغْضَبَةٌ ؛ وَأَمَّا ٱلسَّابِعَةُ وَٱلثَّامِنَةُ فَٱلاحْتِفَاظُ بِمالِهِ ، وَالإِرْعَاءُ عَلَىٰ حَشَمِهِ وَعِيَالِهِ ، ومِلَاكُ الأَمْرِ في ٱلْمَالِ حُسْنُ ٱلتَّقْدِيرِ ، وَفِي العِيَالِ حُسْنُ ٱلتَّدْبِيرِ ؛ وَأَمَّا ٱلتَّاسِعَةُ وَٱلْعَاشِرَةُ فَلا تَعْصِينَ لَهُ أَمْراً ، وَلا تُفْشِنَّ لَهُ سِرّاً ، فَإِنَّكِ إِنْ خَالَفْتِ أَمْرَهُ ، أَوْغَرْتِ صَدْرَهُ ، وَإِنْ أَفْشَيْتِ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِي غَدْرَهُ ؛ ثُمَّ إِيَّاكِ وَٱلْفَرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ تَرِحاً ، وَٱلتَّرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ فَرِحاً ، فَإِنَّ ٱلْخَصْلَةَ الأُولَىٰ مِنَ ٱلتَّقْصِيرِ وَالثَّانِيَةَ مِنَ التَّكْدِيرِ ، وَكُونِي أَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ إِعْظَاماً ، يَكُنْ أَشَدَّ مَا يَكُونُ لَكِ إِكْرَاماً ، وَأَشَدَّ مَا تَكُونِينَ لَهُ مُوافَقَةً ، يَكُنْ أَطْوَلَ مَا يَكُونُ لَكِ مُرَافَقَةً .

وَٱعْلَمِي أَنَّكِ لا تَصِلِينَ إِلَىٰ مَا تُحِبِّينَ حَتَّىٰ تُؤْثِرِي رِضَاهُ عَلَىٰ رِضَاكِ ، وَهَوَاهُ عَلَىٰ هَوَاكِ ، فِيمَا أَحْبَبْتِ أَوْ كَرِهْتِ وَٱللهُ يَخِيرُ[1] لَكِ .

❋ ❋ ❋

## أَوْصَافٌ شَتَّىٰ لِلْجَمِيلاتِ :

١٠٣ ـ كانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ زَمَنَ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ وَبَعْدَهُ طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُخَنَّثِينَ يَدْخُلُونَ عَلَىٰ النِّسَاءِ فَلا يُحْجَبُونَ ، وَكَانَ مِنْهُمْ زَمَنَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ رَجُلٌ يُسَمَّىٰ

(١) يُقَالُ : خَارَ ٱللهُ لَكَ في الأَمْرِ : جَعَلَ لَكَ فِيهِ خَيْراً .

« هِيْتَ » أَوْ « هِنْبَ » ، فَدَخَلَ يَوْماً دَارَ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ ٱلرَّسُولِ وَرَسُولُ ٱللهِ عِنْدَهَا ، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ أَخِي أُمِّ سَلَمَةَ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ ٱلْمُغِيرَةَ ٱلْمَخْزُومِيِّ[١] ، فَقَالَ : إِنْ فَتَحَ ٱللهُ عَلَيْكُمُ ٱلطَّائِفَ غَداً فَعَلَيْكَ بِبَادِيَةِ بِنْتِ غَيْلانَ ٱبْنِ سَلَمَةَ بْنِ مُعَتِّبٍ ، فَإِنَّهَا مُبَتَّلَةٌ هَيْفَاءُ[٢] ، شَمُوعٌ نَجلاءُ[٣] ، إِنْ قَامَتْ تَثَنَّتْ ، وَإِنْ قَعَدَتْ تَبَنَّتْ[٤] ، وَإِنْ تَكَلَّمَتْ تَغَنَّتْ ، تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ ، وَتُدْبِرُ بِثَمانٍ[٥] ، مَعَ ثَغْرٍ كَالأُقْحُوَانِ ، وَثَدْيٍ كَالرُّمَّانِ ، أَعْلاهَا قَضِيبٌ ، وَأَسْفَلُهَا كَثِيبٌ ، وَبَيْنَ رِجْلَيْهَا كَٱلقَعْبِ ٱلْمَكْفُوءِ[٦] ، فَهِيَ كَمَا قَالَ قَيْسُ بْنُ ٱلْخَطِيمِ [من المنسرح] :

تَغْتَرِقُ ٱلطَّرْفَ وَهْيَ لاهِيَةٌ ... كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَهَا نُزُفُ[٧]

بَيْنَ شُكُولِ ٱلنِّسَاءِ خِلْقَتُهَا ... قَصْدٌ فَلا جَبْلَةٌ وَلا قَضَفُ[٨]

---

(١) كانَ هِيتُ هَذَا مَوْلَىٰ لِعَبْدِ اللهِ ٱبْنِ أَبِي أُمَيَّةَ ، فَلِذَلِكَ حَضَّهُ عَلَىٰ تَزَوُّجِ بادِيَةَ هَذِهِ .

(٢) ٱلْمُبَتَّلَةُ مِنَ النِّسَاءِ : ٱلْحَسَنَةُ ٱلْخَلْقِ ، لا يَقْصُرُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ ، لا تَكُونُ حَسَنَةَ العَيْنِ سَمْجَةَ الأَنْفِ ، وَلا حَسَنَةَ الأَنْفِ سَمْجَةَ ٱلْعَيْنِ ، وَلَكِنْ تَكُونُ تَامَّةً ؛ وَٱلْهَيْفَاءُ : ٱلضَّامِرَةُ ٱلْبَطْنِ ، ٱلرَّقِيقَةُ ٱلْخَصْرِ .

(٣) الشَّمُوعُ : ٱللَّعُوبُ ٱلضَّحُوكُ ؛ وَٱلنَّجلاءُ : ٱلْمُتَّسِعَةُ ٱلْعَيْنِ ؛ وَإِنْ قَعَدَتْ تَبَنَّتْ ، قِيلَ : مَعْنَىٰ تَبَنَّتْ : صَارَتْ كَٱلْبُنْيَانِ ، وَقِيلَ : ٱلتَّبَنِّي : تَبَاعُدُ مَا بيْنَ الفَخِذَيْنِ .

(٤) الشَّمُوعُ : ٱللَّعُوبُ ٱلضَّحُوكُ ؛ وَٱلنَّجلاءُ : ٱلْمُتَّسِعَةُ ٱلْعَيْنِ ؛ وَإِنْ قَعَدَتْ تَبَنَّتْ ، قِيلَ : مَعْنَىٰ تَبَنَّتْ : صَارَتْ كَٱلْبُنْيَانِ ، وَقِيلَ : ٱلتَّبَنِّي : تَبَاعُدُ مَا بيْنَ الفَخِذَيْنِ .

(٥) قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَيْ تُقْبِلُ بِأَرْبَعِ عُكَنٍ ـ طَيَّاتِ ٱلْبَطْنِ ـ وَلِكُلِّ عُكْنَةٍ طَرَفَانِ ، فَتَصِيرُ ثمانِيَةً تُدْبِرُ بِهِنَّ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : وَهَذَا مَعْنَىٰ غَيْرُ مَفْهُومٍ ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئاً آخَرَ .

(٦) القَعْبُ : القَدَحُ ٱلْكَبِيرُ ؛ وَٱلْمَكْفُوءُ : ٱلْمَقْلُوبُ ؛ يَصِفُ فَرْجَهَا بِٱلضَّخَامَةِ .

(٧) تَغْتَرِقُ العَيْنَ : تَسْتَغْرِقُ عُيُونَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَتْ إِلَىٰ مَحَاسِنِهَا ؛ وَهِي لاهِيَةٌ ، أَيْ : غَافِلَةٌ لَيْسَتْ مُحْتَفِلَةً بِذَلِكَ ؛ وَشَفَّ وَجْهَهَا : أَرَقَّهُ ؛ وَنُزُفُ ، بِضَمِّ الزَّاي إِتْبَاعاً لِلنُّونِ لِلْوَزْنِ ، وَالأَصْلُ سُكونُهَا ، وَهُوَ ٱلاسْمُ مِنْ نَزَفَهُ ٱلدَّمُ : إِذَا خَرَجَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ حَتَّىٰ يَضْعُفَ ، يُرِيدُ أَنَّهَا رَقِيقَةُ ٱلْمَحَاسِنِ كَأَنَّ دَمَهَا مَنْزُوفٌ .

(٨) بَيْنَ شُكُولِ النِّساءِ ، أَيْ : بَيْنَ أَمْثَالِهَا مِنَ ٱلنِّسَاءِ ؛ وَخِلْقَتُهَا قَصْدٌ : مُعْتَدِلَةٌ ؛ فَلا جَبْلَةٌ ، =

[تَنَـامُ عَــنْ كِبْــرِ شَــأْنِهَــا فَــإِذَا قَــامَــتْ رُوَيْـداً تَكَـادُ تَنْقَصِـفُ][١]

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ حِينَ سَمِعَ كَلامَهُ ـ : « لَقَدْ غَلْغَلْتَ ٱلنَّظَرَ يَا عَدُوَّ ٱللهِ ! مَا كُنْتُ أَحْسَبُكَ إِلَّا مِنْ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ[٢] » . . . وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ يَضْحَكُ مِنْ كلامِهِ ظَنّاً مِنْهُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ أَنَّ بِعَقْلِهِ نَقْصاً ، فَلَمَّا سَمِعَ مِنْهُ مَا سَمِعَ قَالَ لِنِسائِهِ : « لا يَدْخُلُ هِيتٌ عَلَيْكُنَّ » [راجع البخاري ، رقم : ٤٣٢٤ ؛ مسلم ، رقم : ٢١٨٠] ، وَأَمَرَ أَنْ يُجْلَىٰ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ إِلَىٰ ٱلْحِمَىٰ ـ جَبَلٌ بِٱلْمَدِينَةِ عَلَىٰ ثَلاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ ٱلْعَقِيقِ ـ فَبَقِيَ مَنْفِيّاً حَتَّىٰ قُبِضَ رَسُولُ ٱللهِ ، فَلَمَّا وُلِّيَ أَبُو بَكْرٍ كُلِّمَ فِيهِ ، فَأَبَىٰ أَنْ يَرُدَّهُ ، فَلَمَّا وَلِّيَ عُمَرُ كُلِّمَ فيه ، فَأَبَىٰ أَنْ يَرُدَّه ، وَقَالَ : إِنْ رَأَيْتُهُ بِٱلْمَدِينَةِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ ؛ فَلَمَّا وُلِّيَ عُثْمانُ كُلِّمَ فِيهِ ، فَأَبَىٰ أَنْ يَرُدَّهُ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ كَبِرَ وَضَعُفَ وَٱحْتَاجَ ؛ فَأَذِنَ لَهُ أَنْ يَدْخُلَ كُلَّ جُمْعَةٍ ، فَيَسْأَلَ وَيَرْجِعَ إِلَىٰ مَكانِهِ . . . وَلَمَّا فُتِحَتِ ٱلطَّائِفُ تَزَوَّجَ بَادِيَةَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، فَوَلَدَتْ لَهُ بُرَيْهَةَ .

* * *

١٠٤ ـ وَحَكَىٰ أَبُو ٱلْفَرَجِ الأَصْبَهانِيُّ : أَنَّ مُصْعَبَ بْنَ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا عَزَمَ عَلَىٰ زَوَاجِ عائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ ، جاءَ هُوَ وَعَبْدُ ٱللهِ بنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقِ وَسَعِيدُ بْنُ ٱلْعَاصِ إِلَىٰ عَزَّةَ ٱلْمَيْلاءِ ، وَكانَتْ عَزَّةُ هٰذِهِ يَأْلَفُها ٱلأَشْرَافُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْمُرُوءَاتِ ، وَكَانَتْ مِنْ أَظْرَفِ ٱلنَّاسِ وَأَعْلَمِهِمْ بِأُمُورِ ٱلنِّسَاءِ ،

---

= أَيْ : هِيَ غَيْرُ غَلِيظَةٍ ؛ وَلا قَضَفُ ، أَيْ : غَيْرُ نَحِيفَةٍ .

(١) [في رواية : تكاد تَنْغَرِفُ ؛ وكلاهما بمعنى واحد] .

(٢) هُوَ ٱلْمَعْتُوهُ ؛ وَالإِرْبَةُ : ٱلدَّهَاءُ وَٱلْبَصَرُ بِالأُمُورِ ، وَهُوَ مِنَ ٱلْعَقْلِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٣١] .

فَقَالُوا لَهَا : إِنَّا خَطَبْنَا فَٱنْظُرِي لَنَا ؛ فَقَالَتْ لِمُصْعَبَ : يَا ٱبْنَ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ ، وَمَنْ خَطَبْتَ ؟ قَالَ : عَائِشَةَ بِنْتَ طَلْحَةَ ؛ قَالَتْ : فَأَنْتَ يَا ٱبْنَ أَبِي أُحَيْحَةَ ؟ قَالَ : عَائِشَةَ بِنْتَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ؛ قَالَتْ : فَأَنْتَ يَا ٱبْنَ ٱلصِّدِّيقِ ؟ قَالَ : أُمَّ ٱلْهَيْثَمِ بِنْتَ زَكَرِيَّا بْنِ طَلْحَةَ ؛ فَقَالَتْ : يَا جَارِيَةُ ! هَاتِي مِنْقَلَيَّ ؛ تَعْنِي خُفَّيْهَا ، فَلَبِسَتْهُمَا ، وَخَرَجَتْ وَمَعَهَا خَادِمٌ لَهَا ، فَبَدَأَتْ بِعَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ ، فَقَالَتْ : فَدَيْتُكِ ! كُنَّا فِي مَأْدُبَةٍ ، أَوْ مَأْتَمٍ ، لِقُرَيْشٍ ، فَتَذَاكَرُوا جَمَالَ النِّسَاءِ وَخَلْقَهُنَّ ، فَذَكَرُوكِ ، فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ أَصِفُكِ فَدَيْتُكِ ، فَأَلْقِي ثِيَابَكِ ؛ فَفَعَلَتْ ، فَأَقْبَلَتْ وَأَدْبَرَتْ ، فَٱرْتَجَّ كُلُّ شَيْءٍ مِنْها ، فَقَالَتْ لَهَا عَزَّة : خُذِي ثَوْبَكِ ؛ فَقَالَتْ عَائِشَةُ : قَدْ قَضَيْتِ حَاجَتَكِ وَبَقِيَتْ حاجَتِي ؛ فَقَالَتْ عَزَّة : وَمَا هِيَ فَدَيْتُكِ ؟ قَالَتْ : تُغَنِّينِي صَوْتاً ؛ فَٱنْدَفَعَتْ تُغَنِّي لَحْنَهَا فِي شِعْرٍ لِجَمِيلِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مَعْمَرٍ ٱلْعُذْرِيِّ [من الطويل] :

خَلِيلَيَّ عُوجَا بِٱلْمَحَلَّةِ مِنْ جُمْلِ ... وَأَتْرَابِهَا بَيْنَ الأُصَيْفِرِ فَالْحَبْلِ
نَقِفْ بِمَغَانٍ قَدْ عَفَا رَسْمَهَا ٱلْبِلَىٰ ... تَعَاقَبُهَا ٱلأَيَّامُ بِٱلرِّيحِ وَٱلْوَبْلِ
فَلَوْ دَرَجَ ٱلنَّمْلُ ٱلصِّغَارُ بِجِلْدِهَا ... لأَنْدَبَ أَعْلَى جِلْدِها مَدْرَجُ ٱلنَّمْلِ[1]
وَأَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ جِيداً وَمُقْلَةً ... تُشَبَّهُ فِي ٱلنُّسْوانِ بِٱلشَّادِنِ ٱلطِّفْلِ

فَقَبَّلَتْ عَائِشَةُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهَا ، وَدَعَتْ لَهَا بِعَشَرَةِ أَثْوَابٍ وَطَرَائِفَ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْفِضَّةِ ، فَدَفَعَتْهُ إِلَىٰ مَوْلاتِها ؛ وَأَتَتِ ٱلنِّسْوَةَ عَلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ تَقُولُ ذَلِكَ لَهُنَّ ، ثُمَّ أَتَتِ ٱلْقَوْمَ فِي ٱلسَّقِيفَةِ ، فَقَالُوا : مَا صَنَعْتِ ؟ فَقَالَتْ : يَا ٱبْنَ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ ! أَمَّا عَائِشَةُ فَلا وَٱللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَهَا مُقْبِلَةً وَلا مُدْبِرَةً ! مَخْطُوطَةَ ٱلْمَتْنَيْنِ ، عَظِيمَةَ ٱلْعَجِيزَةِ ، مُمْتَلِئَةَ التَّرَائِبِ ، نَقِيَّةَ ٱلثَّغْرِ وَصَفْحَةِ ٱلْوَجْهِ ، فَرْعَاءَ ٱلشَّعْرِ ، مُمْتَلِئَةَ

---

(١) لأَنْدَبَ : لَجَرَحَ .

ٱلصَّدْرِ ، خَمِيصَةَ ٱلْبَطْنِ ، ذاتَ عُكَنٍ ، ضَخْمَةَ ٱلسُّرَّةِ ، مُسَرْوَلَةَ ٱلسَّاقِ ، يَرْتَجُّ مَا بَيْنَ أَعْلاهَا إِلَىٰ قَدَمَيْها ، وَفِيهَا عَيْبانِ : أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيُوَارِيهِ ٱلْخِمَارُ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيُوارِيهِ ٱلْخُفُّ ! عِظَمُ ٱلأُذُنِ وَٱلْقَدَمِ ؛ وَكانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ كَذَلِكَ . ثُمَّ قَالَتْ عَزَّةُ : وَأَمَّا أَنْتَ يَا ٱبْنَ أُحَيْحَةَ ! فَإِنِّي وَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ خَلْقِ عَائِشَةَ بِنْتِ عُثْمانَ لِامْرَأَةٍ قَطُّ ! لَيْسَ فِيهَا عَيْبٌ ، وَٱللهِ لَكَأَنَّمَا أُفْرِغَتْ إِفْراغاً ، وَلَكِنْ في وَجْهِهَا رَدَّةٌ[1] وَإِنِ ٱسْتَشَرْتَنِي أَشَرْتُ عَلَيْكَ ؛ قَالَ : هَاتِ ! قَالَتْ : عَلَيْكَ بِوَجْهٍ تَسْتَأْنِسُ بِهِ ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا ٱبْنَ ٱلصِّدِّيقِ ! فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ أُمِّ ٱلْهَيْثَمِ ، كَأَنَّهَا خُوطُ بَانَةٍ تَنْثَنِي ، أَوْ كَأَنَّها خَشْفٌ[2] يَتَثَنَّىٰ عَلىٰ رَمْلٍ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ تَعْقِدَ أَطْرَافَهَا لَفَعَلْتَ ، وَلَكِنَّهَا شَخْتَةُ[3] ٱلصَّدْرِ ، وَأَنْتَ عَرِيضُ ٱلصَّدْرِ ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كانَ قَبِيحاً ، لَا وَاللهِ حَتَّىٰ يَمْلأَ كُلُّ شَيْءٍ مِثْلَهُ ؛ قَالَ : فَوَصَلَهَا ٱلرِّجالُ وَالنِّسَاءُ وَتَزَوَّجُوهُنَّ .

* * *

١٠٥ ـ وَجَاءَ في أَمَالي ٱلْقَالِيِّ [١/١٥٢] عَنْ أَبِي عَمْرِو ٱبْنِ ٱلْعَلاءِ : كَانَ لِرَجُلٍ مِنْ مَقَاوِلِ حِمْيَرِ ٱبْنَانِ[4] ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا عَمْرُو وَلِلآخَرِ رَبِيعَةُ ، وَكانَا قَدْ بَرَعَا في الأَدَبِ وَٱلْعِلْمِ ، فَلَمَّا بَلَغَ ٱلشَّيْخُ أَقْصَىٰ عُمُرِهِ وَأَشْفَىٰ عَلَىٰ ٱلْفَنَاءِ ، دَعَاهُمَا لِيَبْلُوَ عُقُولَهُمَا ، وَيَعْرِفَ مَبْلَغَ عِلْمِهِمَا ، فَلَمَّا حَضَرَا قَالَ لِعَمْرٍو وَكَانَ

---

(١) تُرِيدُ أَنَّ وَجْهَهَا يَنْقُصُ في ٱلْحُسْنِ عَنْ بَدَنِهَا ، وَقِيلَ : الرَّدَّةُ : تَقَاعُسٌ في ٱلذَّقْنِ .

(٢) ٱلْخَشْفُ : وَلَدُ ٱلظَّبْيَةِ .

(٣) شَخْتَةُ ٱلصَّدْرِ : دَقِيقَتُهُ .

(٤) المَقَاوِلُ ، جَمْعُ مِقْوَلٍ ، وَالمِقْوَلُ وَالقَيْلُ : المَلِكُ مِنْ مُلُوكِ حِمْيَرَ ، يَقُولُ مَا يَشَاءُ ؛ وَقِيلَ : المَقَاوِلُ هُمُ ٱلذِينَ دُونَ المَلِكِ الأَعْظَمِ [ ، فهو في حِمْيَرَ كالوزير في الإسلام ، ومثله بَهْمَن عند الفُرْس ] .

الأَكْبَرُ : أَخْبِرْنِي يَا عَمْرُو ! أَيُّ ٱلنِّسَاءِ أَحَبُّ إِلَيْكَ[١] ؟

قَالَ : ٱلْهِرْكَوْلَةُ اللَّفَّاءُ[٢] ، ٱلْمَمْكُورَةُ ٱلْجَيْدَاءُ[٣] ، ٱلَّتِي يَشْفِي ٱلسَّقِيمَ كَلامُهَا ، وَيُبْرِي ٱلْوَصِبَ إِلْمَامُهَا[٤] ، ٱلَّتِي إِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهَا شَكَرَتْ ، وَإِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهَا صَبَرَتْ ، وَإِنْ ٱسْتَعْتَبْتَهَا أَعْتَبَتْ[٥] ، ٱلْفَاتِرَةُ ٱلطَّرْفِ ، ٱلطَّفْلَةُ[٦] ٱلْكَفِّ ، ٱلْعَمِيمَةُ ٱلرِّدْفِ .

قَالَ : مَا تَقُولُ يا رَبِيعَةُ ؟

قَالَ : نَعَتَ فَأَحْسَنَ ، وَغَيْرُها أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهَا .

قَالَ : وَمَنْ هِيَ ؟

قَالَ : ٱلْفَتَّانَةُ ٱلْعَيْنَيْنِ ، ٱلأَسِيلَةُ ٱلْخَدَّيْنِ ، ٱلْكَاعِبُ ٱلثَّدْيَيْنِ ، ٱلرَّدَاحُ[٧] ٱلْوَرْكَيْنِ ، ٱلشَّاكِرَةُ لِلْقَلِيلِ ، ٱلْمُسَاعِدَةُ لِلْحَلِيلِ[٨] ، ٱلرَّخِيمَةُ[٩] ٱلْكلامِ ، ٱلْجَمَّاءُ ٱلْعِظَامِ[١٠] ، ٱلْكَرِيمَةُ الأَخْوَالِ وَٱلأَعْمَامِ ، ٱلْعَذْبَةُ ٱللِّثَامِ[١١] .

---

(١) لَقَدِ ٱجْتَزَأْنَا مِنْ أَسْئِلَةِ هَذَا المقْوَلِ لأبْنَائِهِ بما يَتَعَلَّقُ بِالنِّسَاءِ ، وَإِلَّا فَلَهُ أَسْئِلَةٌ أُخْرَىٰ لا دَاعِي لإِيرَادِهَا هُنَا .

(٢) الهِرْكَوْلَةُ : ٱلْحَسَنَةُ ٱلْجِسْمِ وَالخَلْقِ وَالمِشْيَةِ ؛ وَٱللَّفَّاءُ : ٱلْمُلْتَفَّةُ ٱللَّحْمِ .

(٣) المَمْكُورَةُ : ٱلْمَطْوِيَّةُ ٱلْخَلْقِ ؛ وَٱلْجَيْدَاءُ : ذَاتُ ٱلْجِيدِ ـ العُنُقِ ـ ٱلطَّوِيلِ الحَسَنِ .

(٤) يُبْرِي : يُبْرِىءُ ؛ وَالوَصِبُ : ٱلْمَرِيضُ ؛ وَإِلْمَامُهَا : قُرْبُهَا .

(٥) ٱسْتَعْتَبْتَهَا : طَلَبْتَ مِنْهَا العُتْبَى ؛ فَأَعْتَبَتْ ، أَيْ : أَرْضَتْكَ .

(٦) ٱلطَّفْلَةُ ٱلْكَفِّ ، أَي : ٱلرَّخْصَتُهُ ٱلنَّاعِمَتُهُ .

(٧) ٱلرَّدَاحُ : ٱلثَّقِيلَةُ العَجِيزَةِ ٱلضَّخْمَةُ ٱلوَرْكَيْنِ .

(٨) ٱلْحَلِيلُ : ٱلزَّوْجُ .

(٩) ٱلرَّخِيمَةُ : ٱللَّيِّنَةُ ٱلْكَلامِ ٱلنَّاعِمَتُهُ .

(١٠) ٱلْجَمَّاءُ ٱلْعِظَامِ : ٱلَّتِي لا يُوجَدُ لِعِظَامِهَا حَجْمٌ ، بِمَنْزِلَةِ الجَمَّاءِ مِنَ ٱلْبَقَرِ .

(١١) ٱلعَذْبَةُ ٱللِّثَامِ : فَإِنَّهُ أَرَادَ مَوْضِعَ ٱللِّثَامِ ، فَحَذَفَ ٱلْمُضَافَ وَأَقَامَ ٱلْمُضَافَ إِلَيْهِ مَقَامَهُ .

قَالَ : فَأَيُّ ٱلنِّسَاءِ أَبْغَضُ يَا عَمْرُو ؟

قَالَ : ٱلقَتَّاتَةُ[١] ٱلْكَذُوبُ ، ٱلظَّاهِرَةُ ٱلْعُيُوبُ ، ٱلطَّوَّافَةُ ٱلْهَبُوبُ[٢] ، ٱلْعَابِسَةُ ٱلْقَطُوبُ ، ٱلسَّبَّابَةُ ٱلْوَثُوبُ ؛ ٱلَّتِي إِنْ ٱئْتَمَنَهَا زَوْجُهَا خَانَتْهُ ، وَإِنْ لانَ لَهَا أَهَانَتْهُ ، وَإِنْ أَرْضَاهَا أَغْضَبَتْهُ ، وَإِنْ أَطَاعَهَا عَصَتْه .

قَالَ : مَا تَقُولُ يَا رَبِيعَةُ ؟

قَالَ : بِئْسَ وَاللهِ ٱلْمَرْأَةُ ذَكَرَ ! وَغَيْرُهَا أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهَا .

قَالَ : وَأَيُّهُنَّ ٱلَّتِي هِيَ أَبْغَضُ إِلَيْكَ مِنْ هَذِهِ ؟

قَالَ : ٱلسَّلِيطَةُ ٱللِّسَانِ ، ٱلْمُؤْذِيَةُ لِلْجِيرَانِ ، ٱلنَّاطِقَةُ بِٱلْبُهْتَانِ ؛ ٱلَّتِي وَجْهُهَا عَابِسٌ ، وَزَوْجُهَا مِنْ خَيْرِهَا آيِسٌ ؛ ٱلَّتِي إِنْ عَاتَبَهَا زَوْجُها وَتَرَتْهُ ، وَإِنْ نَاطَقَهَا ٱنْتَهَرَتْهُ .

قَالَ رَبِيعَةُ : وَغَيْرُهَا أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْهَا .

قَالَ : وَمَنْ هِيَ ؟

قَالَ : ٱلَّتِي شَقِيَ صَاحِبُهَا ، وَخَزِيَ خَاطِبُهَا ، وَٱفْتَضَحَ أَقَارِبُهَا .

قَالَ : وَمَنْ صَاحِبُهَا ؟

قَالَ : مِثْلُهَا فِي خِصَالِهَا كُلِّهَا ، لا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلا يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا .

قَالَ : فَصِفْهُ لِي .

قَالَ : ٱلْكَفُورُ غَيْرُ ٱلشَّكُورِ ، ٱللَّئِيْمُ ٱلْفَجُورُ ؛ ٱلْعَبُوسُ ٱلْكَالِحُ ، ٱلْحَرُونُ

---

(١) ٱلْقَتَّاتَةُ : ٱلنَّمَّامَةُ .

(٢) ٱلْهَبُوبُ : ٱلْكَثِيرَةُ ٱلانْتِبَاهِ .

ٱلْجَامِحُ ؛ ٱلرَّاضِي بِالْهَوَانِ ، ٱلْمُخْتَالُ ٱلْمَنَّانُ ؛ ٱلضَّعِيفُ ٱلْجَنَانِ ، ٱلْجَعْدُ ٱلْبَنَانِ ؛ ٱلقَؤُولُ غَيْرُ العَقُولِ ، ٱلمَلُولُ غَيْرُ الوَصُولِ ؛ ٱلَّذِي لا يَتَّزِعُ[1] عَنِ ٱلْمَحَارِمِ ، وَلا يَرْتَدِعُ عَنِ ٱلْمَظَالِمِ .

* * *

١٠٦ ـ وَوَصَفَ أَعْرَابِيٌّ ٱمْرَأَةً ، فَقَالَ : كادَ ٱلْغَزَالُ يَكُونُهَا لَوْلا مَا تَمَّ مِنْهَا وَنَقَصَ منه .

* * *

١٠٧ ـ وَقَالَ آخَرُ : خَلَوْتُ بِهَا وَٱلْقَمَرُ يُرِينِيهَا ، فَلَمَّا غَابَ أَرَتْنِيهِ[2] .

* * *

١٠٨ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلأَكَاسِرَةِ : يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَرْأَةِ أَرْبَعَةٌ سُودٌ ، وَأَرْبَعَةٌ بِيضٌ ، وَأَرْبَعَةٌ حُمْرٌ ، وَأَرْبَعَةٌ كِبَارٌ ، وَأَرْبَعَةٌ صِغارٌ ، وَأَربَعَةٌ واسِعَةٌ ، وَأَرْبَعَةٌ ضَيِّقَةٌ ؛ فَأَمَّا الأَرْبَعَةُ السُّودُ : فَشَعْرُ ٱلرّأْسِ وَٱلْحاجِبَيْنِ وَأَشْفَارِ العَيْنَيْنِ ، وَٱلْحَدَقَتَانِ ؛ وَأَمَّا الأَرْبَعَةُ ٱلْبِيضُ : فَاللَّوْنُ ، وَبَيَاضُ ٱلْعَيْنَيْنِ ، وَٱلثَّغْرِ ، وَٱلظُّفْرِ إِلَّا أَنْ يُصْبَغَ ؛ وَأَمَّا الأَرْبَعَةُ ٱلْحُمْرُ : فَٱلْوَجْنَتَانِ ، وَٱلشَّفَتَانِ ، وَٱللِّسَان ، وَاللِّثَةِ ؛ وَأَمَّا ٱلأَرْبَعَةُ ٱلْكِبَارُ : فَٱلثَّدْيَانِ ، وَٱلْفَرْجُ ، وَٱلْعَجِيزَةُ ، وَٱلرُّكْبَتَانِ ؛ وَأَمَّا الأَرْبَعَةُ ٱلصِّغَارُ : فَٱلأُذُنَانِ ، وَٱلْفَمُ ، وَٱلْيَدَانِ ، وَٱلرِّجْلَانِ ؛ وَأَمَّا ٱلأَرْبَعَةُ ٱلوَاسِعَةُ : فَٱلْجَبِينُ ، وَٱلْعَيْنَانِ ، وَأُصُولُ ٱلثَّدْيَيْنِ ، وَٱلسُّرَّةُ ؛ وَأَمَّا ٱلأَرْبَعَةُ ٱلضَّيِّقَةُ : فَٱلمُنْخُرانِ ، وَٱلأُذُنانِ ، وَٱلْخَصْرُ ، وَٱلْفَرْجُ .

* * *

(١) لَا يَتَّزِعُ : لا يَكُفُّ ، يُقالُ : وَزَعَهُ يَزَعُهُ فَاتَّزَعَ .
(٢) فَلَمَّا غَابَ أَرَتْنِيهِ : يُرِيدُ أَنَّ ٱلْقَمَرَ ٱلْحَقِيقِيَّ لَمَّا غَابَ أَرَتْنِي مِنْهَا قَمَراً .

## ٱلْحُسْنُ في ٱللُّغَةِ :

١٠٩ ـ قَالَ ٱلثَّعالِبِيُّ في « فِقْهِ ٱللُّغَةِ » : إِذَا كَانَ بِٱلْمَرْأَةِ مِسْحَةٌ مِنْ جَمالٍ فَهِيَ وَضِيئَةٌ وَجميلَةٌ ، فَإِذَا أَشْبَهَ بَعْضُهَا بَعْضاً في ٱلْحُسْنِ فَهِيَ حُسَّانَةٌ ، فَإِذَا ٱسْتَغْنَتْ بِجَمَالِهَا عَنِ ٱلزِّيْنَةِ فَهِيَ غَانِيَةٌ ، فَإِذَا كانَتْ لا تُبالِي أَنْ لا تَلْبَسَ ثَوْباً حَسَناً وَلا تَتَقَلَّدَ قِلادَةً فَاخِرَةً فَهِيَ مِعْطَالٌ ، فَإِذَا كَانَ حُسْنُها ثَابِتاً كَأَنَّهُ قَدْ وُسِمَ فَهِيَ وَسِيمَةٌ ، فَإِذَا قُسِمَ لَهَا حَظٌّ وَافِرٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ فَهِيَ قَسِيمَةٌ ، فَإِذَا كَانَ ٱلنَّظَرُ إِلَيْهَا يَسُرُّ ٱلرُّوعَ ـ ٱلْقَلْبَ ـ فَهِيَ رَائِعَةٌ ، فَإِذَا غَلَبَتِ ٱلنِّسَاءَ بِحُسْنِهَا فَهِيَ بَاهِرَةٌ . .

وَقَالَ في فَصْلٍ آخَرَ :

ٱلصَّبَاحَةُ في ٱلْوَجْهِ ، ٱلْوَضاءَةُ في ٱلْبَشَرَةِ ، ٱلْجَمالُ في ٱلأَنْفِ ، ٱلْحَلاوَةُ في ٱلْعَيْنَيْنِ ، ٱلْمَلاحَةُ فِي ٱلْفَمِ ، ٱلظَّرْفُ في ٱللِّسَانِ ، ٱلرَّشَاقَةُ في ٱلْقَدِّ ، ٱللَّبَاقَةُ في ٱلشَّمَائِلِ ، كَمالُ ٱلْحُسْنِ في الشَّعَرِ .

* * *

## حَضُّهُمُ ٱلْمَرأَةَ عَلَىٰ ٱلنَّظَافَةِ وَٱلتَّجَمُّلِ وَٱلزِّينَةِ وَعَبْقَرِيَّاتُهُمْ فِي وَصْفِ جَمالِ ٱلْمَرْأَةِ تَفْصِيلًا :

١١٠ ـ جُبِلَتِ ٱلْمَرْأَةُ عَلَىٰ حُبِّ ٱلتَّجَمُّلِ وَٱلْوَلُوعِ بِٱلزِّينَةِ وَٱلإِغْرَامِ بِٱلافْتِنَانِ في ذَلِكَ ، وَلَهَا ٱلْعُذْرُ كُلُّهُ في هَذَا ٱلْوَلُوعِ وَذَلِكَ ٱلإِغْرَامِ ! أَلَيْستِ ٱلزِّيْنَةُ مِنْ تَمامِ جَمالِهَا ! أَوَلَيْسَ جَمَالُ ٱلْمَرْأَةِ وَتَجَمُّلُهَا مَدْرَجَةَ مَيْلِ ٱلرَّجُلِ وَٱفْتِنَانِهِ بِهَا ! وَقِوامُ ٱلزِّيْنَةِ ٱلنَّظَافَةُ ، وَلْتَحْذَرِ ٱلْمَرْأَةُ كُلَّ ٱلْحَذَرِ أَنْ يَقَعَ بَصَرُ ٱلرَّجُلِ مِنْهَا ـ أَعْنِي : زَوْجَهَا ـ عَلَىٰ شَيْءٍ يَشْمَئِزُّ مِنْهُ وَيَنْفِرُ ، مِنْ وَسَخٍ أَوْ شَعَثٍ أَوْ رَائِحَةٍ مُسْتَكْرَهَةٍ ، أَوْ شَيْءٍ مِنْ هَذَا ٱلْقَبِيلِ .

يَجِبُ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ أَنْ تَتجَمَّلَ لِبَعْلِهَا ، وَتَزِيدَ فِي تَحْسِين نَفْسِهَا ، مَا وَجَدَتْ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَذَلِكَ بِتَنْظِيفِ ٱلْبَدَنِ ، وَمَا يُحِيطُ بِٱلْبَدَنِ[١] ، أَمَّا ٱلْبَدَنُ فَبِتَنْظِيفِ ٱلْبَشَرَةِ بِٱلْمَاءِ بِإِدْمَانِ ٱلْمَضْمَضَةِ ، وَٱلاسْتِنْشَاقِ ، وَٱلاسْتِنْثَارِ ، وَغَسْلِ ٱلْيَدَيْنِ إِلَىٰ ٱلْمِرْفَقَيْنِ وَغَسْلِ ٱلرِّجْلَيْنِ ، وَمَسْحِ ٱلرَّأْسِ ، أَيْ : ٱلْعِنَايَةِ بِنَظَافَةِ ٱلشَّعَرِ ، وَهَذا مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي ٱلإِسْلامِ بِٱلْوُضُوءِ ، وَبِٱلاغْتِسالِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَبَّرُ عَنْهُ بِٱلْغُسْلِ مِنَ ٱلْجَنابَةِ ، وَبِٱلإِكْثَارِ مِنْ دُخُولِ ٱلْحَمَّامِ ، وَبِٱلعِنَايَةِ بِٱلأَسْنَانِ بِتَسْوِيكِهَا ، وَتَخْلِيلِهَا ، وَبِتَنْقِيَةِ الْعَيْنِ وَتَكْحِيلِهَا ، وَبِتَقْلِيمِ ٱلأَظْفَارِ وَتَسْوِيَتِهَا ، وَبِتَنْظِيفِ ٱلْمَغَابِنِ[٢] وَإِزَالَةِ مَا بِهَا ، وَبِحَلْقِ ٱلْعَانَةِ أَوْ ٱنْتِيَارِها[٣] ، وَبِٱلْخِفَاضِ ، وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَا تَعُوزُهُ ٱلنَّظَافَةُ مِنْ سَائِرِ أَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ .

* * *

## ٱلسِّوَاكُ وَعَبْقَرِيَّاتُهُمْ فِيهِ وَفِي ٱلثُّغُورِ وَالأَفْوَاهِ :

١١١ ـ السِّوَاكُ ـ أَوِ ٱلْمِسْوَاكُ ـ وَلا سِيَّما سِوَاكُ الأَرَاكِ[٤] ، كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَ ٱلْعَرَبِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ؛ وَقَدْ وَرَدَ الْحَضُّ عَلَىٰ ٱسْتِعْمالِهِ فِي الأَحَادِيثِ ٱلشَّرِيفَةِ ، وَٱتَّفَقَ ٱلْقُدَماءُ مِنَ الأَطِبَّاءِ عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ الأَشْيَاءِ ، فَهُو يَجْلُو ـ يَصْقِلُ ـ ٱلأَسْنَانَ ، وَيُقَوِّيهَا ، وَهُوَ يَشُدُّ ٱلْعُمُورَ[٥] ، وَيَمْنَعُ ٱلْحَفَرَ[٦] ،

---

(١) تَرَىٰ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلزِّينَةِ وَمَا يُحِيطُ بِٱلْبَدَنِ فِي آخِرِ هَذَا ٱلْبَابِ [ الأرقام : ٥٥٦ ـ ٦٣٣ ] .

(٢) سَيَمُرُّ عَلَيْكَ قَرِيباً تَعْرِيفُ ٱلمَغَابِنِ [ رقم : ٤٦٤ ] .

(٣) ٱنْتِيَارِهَا : إِزَالَتُها بِٱلنَّوْرَةِ كَمَا تَرَىٰ فِي مَوْضِعِهَا مِنْ هَذَا ٱلْبَابِ [ الأرقام : ٤٥٤ ـ ٤٦٩ ] .

(٤) الأَرَاكُ : شَجَرٌ مَعْرُوفٌ يُسْتَاكُ بِفُرُوعِهِ وَعُرُوقِهِ ، وَتَرَىٰ ٱلْمَسَاوِيكَ تُبَاعُ فِي الأَعَمِّ الأَغْلَبِ أَمَامَ ٱلْمَسَاجِدِ وَالأَضْرِحَةِ المَشْهُورَةِ ، مِثْلُ : ضَرِيحُ ٱلْحُسَيْنِ وَٱلسَّيِّدَةِ زَيْنَبَ وَٱلسَّيِّدِ ٱلْبَدَوِي وَالدُّسُوقِي رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ .

(٥) العُمُورُ ، جَمْعُ عَمْرٍ ، وَهُوَ : ٱللَّحْمُ ٱلنَّازِلُ بَيْنَ الأَسْنَانِ .

(٦) ٱلحَفَرُ : صُفْرَةٌ تَعْلُو ٱلأَسْنَانَ ، وَقَالَ أَحَدُ أَئِمَّةِ ٱللُّغَةِ : ٱلْحَفَرُ : أَنْ يَحْفُرَ ٱلْقَلَحُ ـ وَسَخٌ يَرْكَبُ=

وَيُطَيِّبُ ٱلنَّكْهَةَ ـ رَائِحَةَ ٱلْفَمِ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « ٱلسِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ » [النسائي ، رقم : ٥ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٣٦٨٣ و٢٣٨١١ ؛ الدارمي ، رقم : ٦٨٤ ؛ وكذلك ابن ماجه ، رقم : ٢٨٩ ؛ « مسند أحمد » ؛ رقم : ٢١٧٦] .

١١٢ ـ وَوَرَدَ أَيْضاً فيه : « لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتي لأَمَرْتُهُمْ بِٱلسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ » [البخاري ، رقم : ٨٨٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٥٢ ؛ الترمذي ، رقم : ٢٢ ؛ النسائي ، رقم : ٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٤٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٨٧] .

١١٣ ـ وَفِيهِ : « مَالي أَرَاكُمْ تَدْخُلُونَ عَلَيَّ قُلْحاً ! ٱسْتَاكُوا » [« مسند أحمد » ، رقم : ١٨٣٨] .

١١٤ ـ وَفِيهِ : « أَوْصَاني جِبْرِيلُ بِٱلسِّوَاكِ حَتَّىٰ خَشِيتُ عَلَىٰ عُمُورِي » .

ٱلْعُمُورُ جَمْعُ عَمْرٍ ، وَهُوَ : لَحْمٌ مِنَ ٱللِّثَةِ نَازِلٌ بَيْنَ كُلِّ سِنَّيْنِ .

١١٥ ـ وَكَانَ أَصْحَابُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ وَالسِّوَاكُ عَلَىٰ آذَانِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ أَكْثَرُ ٱسْتِعْمالاً لِلسِّوَاكِ مِنْ نِسَائِهِ رِضْوَانُ ٱللهِ عَلَيْهِنَّ ، وَيُسْتَحَبُّ ٱلسِّوَاكُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ، وَعِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ ؛ وَعِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلنَّكْهَةِ بِٱلنَّوْمِ أَوْ أَكْلِ مَا تُكْرَهُ رَائِحَتُهُ . وَيَقُومُ مَقَامَ السِّوَاكِ غَيْرُهُ مِنْ كُلِّ مَا يُنَظِّفُ الأَسْنَانَ وَيُطَيِّبُ ٱلنَّكْهَةَ .

١١٦ ـ وَقَدْ أَشَادَ الشُّعَرَاءُ بِٱلسِّوَاكِ وَتَشَبَّبُوا بِٱلثُّغُورِ وَالأَفْوَاهِ ٱلَّتِي تَسْتَاكُ ، فَمِنْ طَرِيفِ ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من السريع] :

بِـــاللهِ إِنْ جُـــزْتَ بِـــوَادِي ٱلأَرَاكْ وَقَبَّلَــتْ أَغْصَـــانُـــهُ ٱلْلُّـــدْنُ فَـــاكْ
فَـٱبْعَـثْ إِلَـىٰ المَمْلُـوكِ مِـنْ بَعْضِهَـا فَـــإِنَّنِـــي وَاللهِ مَـــالـــي سِـــوَاكْ

---

= الأَسْنَان مِنْ طُولِ تَرْكِ ٱلسِّوَاكِ ـ أُصُولَ ٱلأَسْنَانِ بَيْنَ ٱللِّثَةِ وَأَصْلَ ٱلسِّنِّ مِنْ ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ يُلِحُّ عَلَىٰ ٱلْعَظْمِ حَتَّىٰ يَتَقَشَّرَ ٱلْعَظْمُ إِنْ لَمْ يُدْرَكْ سَرِيعاً .

١١٧ ـ وَقَوْلُ الآخَرِ [من الطويل] :

أَقُولُ لِمِسْوَاكِ ٱلْحَبِيبِ لكَ ٱلْهَنَا بِلَثْمِ فَمٍ مَا نَالَهُ ثَغْرُ عَاشِقِ
فَقَالَ وَفي أَحْشَائِهِ حُرَقُ ٱلْجَوَىٰ مَقَالَةَ صَبٍّ لِلدِّيَارِ مُفَارِقِ
تَذَكَّرْتُ أَوْطانِي فَقَلْبِي كَمَا تَرَىٰ أُعَلِّلُهُ بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ(١)

١١٨ ـ وَأَهْدَىٰ ٱلشَّاعِرُ أَبُو ٱلْفَتْحِ كُشَاجِمُ إِلَىٰ بَعْضِ ٱلْقِيَانِ مِسْوَاكاً ، وَكَتَبَ إِلَيْها [من الرمل] :

قَدْ بَعَثْنَاهُ لِكَيْ تَجْلُو بِهِ وَاضِحاً كَٱللُّؤْلُؤِ ٱلرَّطْبِ أَغَرْ(٢)
طَابَ مِنْهُ ٱلْعَرْفُ حَتَّىٰ خِلْتُهُ كَانَ مِنْ رِيقِكِ يُسْقَىٰ في ٱلسَّحَرْ
وَأَمَا وَاللهِ لَوْ يَعْلَمُ مَا حَظُّهُ مِنْكَ لأَثْنَىٰ وَشَكَرْ
لَيْتَنِي ٱلْمُهْدَىٰ فَيُرْوِي عَطَشِي بَرْدُ أَنْيَابِكِ في كُلِّ سَحَرْ(٣)

١١٩ ـ وَقَالَ آخَرُ [وَهُوَ دِيكُ الجِنِّ] وَهُوَ طَرِيفٌ بَدِيعٌ [من الكامل] :

بِأَبِي فَمٌ شَهِدَ ٱلْمُحِبُّ لَهُ قَبْلَ المَذَاقِ بِأَنَّهُ عَذْبُ
كَشَهَادَةٍ للهِ خَالِصَةٍ قَبْلَ العِيَانِ بِأَنَّهُ رَبُّ

١٢٠ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الكامل] :

---

(١) العُذَيْبُ : مَاءٌ لِبَنِي تَمِيمٍ قُرْبَ ٱلْكُوفَةِ ؛ وَبَارِقُ : مِنْ دِيَارَاتِ العَرَبِ هُنَاكَ ، وَالعُذَيْبُ أَيْضاً تَصْغِيرُ عَذْبٍ ، أَيْ : حُلْوٌ ؛ وَبَارِقٌ مِنْ صِفَاتِ الثُّغُورِ ، يُقَالُ : فُلانٌ بَرَّاقُ ٱلثَّنَايَا ، إِذَا أُرِيدَ وَصْفُ ثَنَايَاهُ بِٱلْحُسْنِ وَالصَّفَاءِ ، وَأَنَّها تَلْمَعُ إِذَا تَبَسَّمَ كَٱلْبَرْقِ ، وَهُمْ يَصِفُونَ رِيقَ ٱلْحَبِيبِ بِٱلْعُذُوبَةِ ، وَٱلْمَعْنَىٰ وَاضِحٌ ، وَفِيهِ لَوْنٌ مِنَ ٱلتَّضْمِينِ ، وَأَصْلُهُ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي [من الطويل] :
تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيْبِ وَبَارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَىٰ ٱلسَّوَابِقِ
(٢) تَجْلُو : تَصْقُلُ ؛ وَاضِحاً كَاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ ، يُرِيدُ : ثَغْرَهَا ، وَاللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ كِنَايَةٌ عَمَّا فِيهِ مِنَ ٱلرَّوْنَقِ وَالبَهَاءِ ، وَلَيْسَ ٱلْمُرَادُ بِٱلرُّطُوبَةِ ٱلْمَعْنَىٰ ٱلَّذِي هُوَ نَقِيضُ اليُبُوسَةِ .
(٣) يَتَمَنَّىٰ لَوْ أَنَّهُ كَانَ ٱلْمِسْوَاكَ .

نَقَـلَ الأَرَاكُ بِـأَنَّ رِيقَـةَ ثَغْـرِهِ ... مِـنْ قَهْـوَةٍ مُـزِجَـتْ بمـاءِ الْكَـوْثَـرِ
قَـدْ صَـحَّ مَـا نَقَـلَ الأَرَاكُ لأَنَّـهُ ... قَدْ جاءَ يَرْوِي عَنْ صِحَاحِ ٱلْجَوْهَرِي

١٢١ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَةِ [من الطويل] :

وَتَجْلُـو بِفَـرْعٍ مِـنْ أَرَاكٍ كَـأَنَّـهُ ... مِنَ ٱلْعَنْبَرِ ٱلْهِنْدِيِّ وَٱلْمِسْكِ يُصْبَحُ(١)
ذُرَا أُقْحُـوانٍ وَاجَـهَ ٱللَّيْـلَ وَٱرْتَقَـىٰ ... إِلَيْـهِ ٱلنَّـدَىٰ مِـنْ رَامَـةَ ٱلْمُتَـرَوِّحُ(٢)
هِجَـانَ ٱلثَّنَـايَـا مُغْـرَبـاً لَـوْ تَبَسَّمَـتْ ... لأَخْرَسَ عَنْهُ كَادَ بِٱلْقَوْلِ يُفْصِحُ(٣)

١٢٢ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ٱلرِّيقِ [من البسيط] :

يَـا أَطْيَـبَ ٱلنَّـاسِ رِيقـاً غَيْـرَ مُخْتَبَرٍ ... إِلَّا شَهَـادَةُ أَطْـرافِ ٱلْمَسَـاوِيـكِ
قَـدْ زُرْتِنَـا زَوْرَةً فِـي ٱلنَّـوْمِ وَاحِـدَةً ... ثَنِّي وَلا تَجْعَلِيهَا بَيْضَـةَ ٱلـدِّيـكِ(٤)

---

(١) تَجْلُو : تَصْقُلُ ، مِنْ جَلا السَّيْفَ وَالمِرْآةَ جِلاءاً وَجَلْواً : صَقَلَهُ ؛ وَيُصْبِحُ ، مِنْ صَبَحَهُ يَصْبَحُهُ فِيهِمَا : سَقَاهُ الصَّبُوحَ ، وَهُوَ مَا يُشْرَبُ بِٱلْغَدَاةِ ، ضِدُّ الغَبُوقِ ؛ جَعَلَ رِيقَهَا ٱلْمُشَبَّهَ بِٱلْعَنْبَرِ وَٱلْمِسْكِ صَبُوحاً لِفَرْعِ الأَرَاكَةِ ٱلَّتِي تَسْتَاكُ بِهِ .

(٢) ذُرَا ، بِالضَّمِ ، جَمْعُ ذُرْوَةٍ ، وَهِيَ : أَعَالِي كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَأُقْحُوَانُ ، بِضَمِّ ٱلْهَمْزَةِ : نَبْتٌ تُشَبَّهُ بِهِ الأَسْنَانُ فِي صِغَرِهَا وَحُسْنِ تَنْسِيقِها ، وَهُوَ ٱلْمُسَمَّىٰ « بِٱلْبَابُونِج » [ والكاميليا ] ؛ وَالواوُ فِي « وَٱرْتَقَىٰ » لِلْحَالِ ؛ وَرَامَةُ : ٱسْمُ مَوْضِعٍ فِي آخِرِ بِلادِ بَنِي تَمِيمٍ ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبَصْرَةِ ٱثْنَتَا عَشَرَةَ مَرْحَلَةٍ ؛ وَٱلْمُتَرَوِّحُ : نَعْتٌ لِلنَّدَىٰ ، مِنْ تَرَوَّحَ ٱلْقَوْمُ : سَارُوا وَقْتَ الرَّوَاحِ ؛ يَقُولُ : تَجْلُو بِمِسْوَاكِهَا أَسْنَاناً تُشْبِهُ أَعَالِي أُقْحُوانٍ وَاجَهَ اللَّيْلَ وَقَدْ سَارَ إِلَيْهِ النَّدَىٰ مِنْ رَامَةَ وَقْتَ ٱلْعَشِيِّ حَتَّىٰ إِذَا مَا تَوَسَّطَهُ قَطَرَ عَلَيْهِ ، يُرِيدُ بِذَلِكَ غَضَارَةَ أَسْنَانِهَا وَحُسْنَ نَضَارَتِهَا .

(٣) هِجَانُ ٱلثَّنَايَا : أَبْيَضُهَا ؛ وَٱلْهِجَانُ : ٱلأَبْيَضُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَمُغْرَباً ـ بِصِيغَةِ ٱسْمِ ٱلْمَفْعُولِ ـ أَيْ : أَبْيَضَ صَافِياً ، مِنَ ٱلْغُرْبَةِ ، وَهُوَ : ٱلْبَيَاضُ ٱلصِّرْفُ .

(٤) زَعَمُوا أَنَّ الدِّيكَ يَبِيضُ بَيْضَةً وَاحِدَةً فِي عُمُرِهِ ثُمَّ لا يَعُودُ ، يُضْرَبُ مَثَلًا لِمَنْ يَصْنَعُ ٱلصَّنِيعَةَ ثُمَّ لا يَعُودُ لَهَا ، وَهِيَ بَيْضَةُ ٱلْعُقْرِ ٱلَّتِي عَنَاهَا أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ [من المنسرح] :
بَـاحَ لِسَـانِـي بِمُضْمَـرِ السِّـرِّ ... وَذَاكَ أَنِّـي أَقُـولُ بِـالـدَّهْـرِ
وَلَيْـسَ بَعْـدَ ٱلْمَمَـاتِ مُنْقَلَـبٌ ... وَإِنَّمَـا ٱلْمَـوْتُ بَيْضَـةُ ٱلْعُقْـرِ =

يَـا رَحْمَـةَ ٱللهِ حُلِّـي فـي مَنَـازِلِنَـا حَسْبِي بِرَائِحَةِ ٱلْفِرْدَوْسِ مِنْ فِيكِ[١]

١٢٣ ـ وَيَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

تُعَنِّـتُ بِـٱلْمِسْـوَاكِ أَبْيَـضَ صَـافِيـاً تكَـادُ عَـذَارَىٰ ٱلـدُّرِّ مِنْـهُ تَحَـدَّرُ[٢]

وَمَـا ذُقْتُـهُ إِلَّا بِشَيْـمِ ٱبْتِسَـامِهَـا وَكَـمْ مَخْبَرٍ يُبْـدِيـهِ لِلْعَيْـنِ مَنْظَـرُ[٣]

بَـدَا لِـي وَمِيـضٌ شَـاهِـدٌ أَنَّ صَـوْبَـهُ غَرِيضٌ وَمَا عِنْدِي سِوَىٰ ذَاكَ مُخْبِرُ[٤]

وَمَـا تَعْتَـرِيهَـا آفَـةٌ بَشَـرِيَّـةٌ مِـنَ ٱلنَّـوْمِ إِلَّا أَنَّهَـا تَتَخَتَّـرُ[٥]

وَغَيْرُ عَجِيبٍ طِيبُ أَنْفَاسِ رَوْضَةٍ مُنَـوِّرَةٍ بَـاتَـتْ تُـرَاحُ وَتُمْطَـرُ[٦]

كَـذَلِـكَ أَنْفَـاسُ ٱلـرِّيَـاضِ بِسُحْـرَةٍ تَطِيـبُ وَأَنْفَـاسُ ٱلْـوَرَىٰ تَتَغَيَّـرُ

١٢٤ ـ وَقَالَ [من البسيط] :

هِـيَ ٱلْفَتَـاةُ إِذَا ٱعْتَلَّـتْ مَفَـاصِلُهـا بِـٱلنَّـوْمِ وَٱعْتَلَّـتِ ٱلأَفْـوَاهُ بِـالسَّحَـرِ

طَـابَـتْ هُنَـاكَ لِحِيـنٍ لا يَطِيـبُ لَـهُ إِلَّا ٱلرِّيَاضُ كَأَنْ لَيْسَتْ مِنَ ٱلْبَشَرِ

١٢٥ ـ وَقَدْ تَبِعَ ٱلتِّهَامِيُّ ٱبْنَ ٱلرُّومِيِّ في قَوْلِهِ [من الطويل] :

وَغَيْـرُ عَجِيـبٍ طِيـبُ أَنْفَـاسِ رَوْضَـةٍ

---

= وَهَذَا شِعْرُ مُلْحِدٍ زِنْدِيقٍ ، وَقِيلَ : إِنَّ بَيْضَةَ ٱلدِّيكِ ٱلْعُقْرِ هِي ٱلَّتِي تُجَرَّبُ بِهَا ٱلْمَرْأَةُ أَثَيِّبٌ هِي أَمْ بِكْرٌ ، وَإِنَّما يُفْعَلُ بِهَا ذَلِكَ مَرَّةً في العُمُرِ .

(١) كانَ ٱسْمُ ٱلْمَرْأَةِ رَحْمَةَ .

(٢) تَعَنَّتَ مِنَ العَنَتِ [: ٱلإِثْم] ؛ وَالعَذَارَىٰ : ٱلأَبْكَارُ ، لِأَنَّهَا لَمْ تُثْقَبُ ؛ وَتَحَدَّرُ بِحَذْفِ إِحْدَىٰ التَّاءَيْنِ ، أَيْ : تَتَحَدَّرُ .

(٣) الشَّيْمُ : شَيْمُ البَرْقِ ، وَتُشَبَّهُ ٱلابْتِسَامَةُ بِتَأَلُّقِ البَرْقِ وَلَمَعَانِهِ .

(٤) الغَرِيضُ : في ٱلأَصْلِ : الطَّرِي ، وَيُقَالُ لِمَاءِ المَطَرِ غَرِيضٌ ، يَعْنُونَ ذَلِكَ : إِنَّ رِيقَهَا غَرِيضٌ .

(٥) تَتَخَتَّرُ ، فَٱلتَّخَتُّرُ : ٱلتَّفَتُّرُ وَٱلاسْتِرْخَاءُ .

(٦) تُراحُ : تُصِيبُها ٱلرِّيحُ .

فَقَالَ [من البسيط] :

يَحْكِي جَنَىٰ ٱلأُقْحُوَانِ ٱلغَضِّ مَبْسِمُهَا    في ٱللَّوْنِ وَٱلرِّيحِ وَٱلتَّفْلِيجِ وَٱلأُشُرِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ أُقْحُوَاناً ثَغْرُ مَبْسِمِهَا    مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيباً سَاعَةَ ٱلسَّحَرِ

١٢٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من السريع] :

يَا رُبَّ رِيقٍ بَاتَ بَدْرُ ٱلدُّجَىٰ    يَمُجُّهُ بَيْنَ ثَنَايَاكَا
يُرْوِي وَلا يَنْهَاكَ عَنْ شُرْبِهِ    وَٱلْمَاءُ يُرْوِيكَ وَيَنْهَاكَا

١٢٧ ـ وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللهِ بِنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طاهِرٍ [من الكامل] :

وَإِذَا سَأَلْتُكَ رَشْفَ رِيقِكَ قُلْتَ لِي    أَخْشَىٰ عَقُوبَةَ مَالِكِ الأَمْلَاكِ
مَاذَا عَلَيْكَ جُعِلْتُ قَبْلَكَ في ٱلثَّرَىٰ    مِنْ أَنْ أَكُونَ خَلِيفَةَ ٱلْمِسْوَاكِ
أَيَجُوزُ عِنْدَكَ أَنْ يَكُونَ مُتَيَّمٌ    صَبٌّ بِحُبِّكَ دُونَ عُودِ أَرَاكِ

١٢٨ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ [من الكامل] :

تُعْطِيكَ مَنْطِقَهَا فَتَعْلَمُ أَنَّهُ    بِجَنَىٰ عُذُوبَتِهِ يَمُرُّ بِثَغْرِهَا

١٢٩ ـ وَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ [من الطويل] :

وَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا وَٱللِّوَىٰ مَوْعِدٌ لَنَا    تَعَجَّبَ رَائِي ٱلدُّرِّ حُسْناً وَلاقِطُهْ
فَمِنْ لُؤْلُؤٍ تَجْلُوهُ عِنْدَ ٱبْتِسَامِهَا    وَمِنْ لُؤْلُؤٍ عِنْدَ ٱلْحَدِيثِ تُسَاقِطُهْ

١٣٠ ـ وَقَالَ ، أَيْ : ٱلْبُحْتُرِيُّ [من السريع] :

بَاتَ نَدِيماً لِي حَتَّى ٱلصَّبَاحْ    أَغْيَدُ مَجْدُولُ مَكَانِ ٱلْوِشَاحْ
أَمْزُجُ كَأْسِي بِجَنَىٰ رِيقِهِ    وَإِنَّمَا أَمْزُجُ رَاحاً بِرَاحْ
كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ    مُنَضَّدٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحْ[1]

---

(١) المُنَضَّدُ : ٱلْمُنَظَّمُ ؛ وَالبَرَدُ : حَبُّ الغَمَامِ ؛ وَالأَقَاح ، جَمْعُ أُقْحُوَانَةٍ : وَرْدٌ لَهُ نُوارٌ أَبْيَضُ =

تَحْسَبُـــهُ نَشْـــوَانَ إِمَّـــارَنَـــا ... لِلْفَتْـرِ مِـنْ أَجْفَـانِـهِ وَهُـوَ صَـاحْ
أَغْضَبْـتُ عَـنْ بَعْـضِ ٱلَّـذِي يُتَّقَـىٰ ... مِـنْ حَـرَجٍ فـي حُبِّـهِ أَوْ جُنَـاحْ

١٣١ ـ وَقَالَ فِي بَيَاضِ ٱلثَّغْرِ [من البسيط] :

وَيَـرْجِـعُ ٱللَّيْـلُ مُبْيَضًّـا إِذَا ضَحِكَـتْ ... عَنْ أَبْيَضَ خَضْلِ ٱلسِّمْطَيْنِ وَضَّاحِ

فَجَعَلَهُ يَجْلُو ٱلظَّلَام لِبَيَاضِهِ ، وَذَكَرَ كَثْرَةَ ٱلرِّيْقِ ، فَقَالَ : خَضِلٍ ، لأَنَّ قِلَّةَ ٱلرِّيقِ تُورِثُ تَغَيُّرَ ٱلفَمِ ، وَذَكَرَ حُسْنَ تَنْضِيدِ ٱلثَّغْرِ فَجَعَلَهُ سِمْطَيْنِ .

١٣٢ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من المديد] :

يَـا نَـدِيمَـيَّ ٱشْـرَبَـا وَٱسْقِيَـانَـا ... قَـدْ بَـدَا ٱلصُّبْـحُ لَنَـا وَٱسْتَبَـانَـا
وَٱقْتُـــلا هَمَّنَـــا بِصَـــرْفِ عُقَـــارٍ ... وَٱتْـرُكَـا ٱلـدَّهْـرَ فَمَـا شَـاءَ كَـانَـا
إِنَّ لِلْمَكْـــرُوهِ لَـــذْعَـــةَ شَـــرٍّ ... فَـإِذَا دَامَ عَلَـىٰ ٱلْمَـرْءِ هَـانَـا
وَٱمْـزُجَـا كَـأْسَنَـا بِـرِيقَـةِ أَلْمَـىٰ ... طَـابَ لِلْعَطْشَـانِ وِرْداً وَحَـانَـا[1]
مِـنْ فَـمٍ قَـدْ غُـرِسَ ٱلـدُّرُّ فِيـهِ ... نَـاصِـحِ ٱلـرِّيـقِ إِذَا ٱلـرِّيـقُ خَـانَـا[2]

١٣٣ ـ وَقَالَ الشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ [من البسيط] :

بِتْنَا ضَجِيعَيْنِ فِي ثَوْبَيْ هَوًىٰ وَتُقًىٰ ... يَلُفُّنَـا ٱلشَّـوْقُ مِـنْ فَـرْعٍ إِلَـىٰ قَـدَمِ
وَبَاتَ بَارِقُ ذَاكَ ٱلثَّغْرِ يُوضِحُ لي ... مَـوَاقِـعَ ٱللَّثْـمِ فـي دَاجٍ مِـنَ ٱلظُّلَـمِ

١٣٤ ـ وَمِنْ قَدِيمِ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَجَيِّدِهِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ [من الكامل] :

تَجْلُـو بِقَـادِمَتَـيْ حَمَـامَـةِ أَيْكَـةٍ ... بَـرَداً أُسِـفَّ لِثَـاتُـهُ بِـٱلإِثْمِـدِ

---

= « البابونج [والكاميليا] » .

(١) أَلْمَىٰ : سَيَمُرُّ بِكَ قَرِيباً مَعْنَىٰ ٱللَّمَىٰ [ راجع رقم : ١٥٤ و١٥٧ ] .

(٢) نَاصِحُ ٱلرِّيقِ : خَالِصُهُ، لا يَشُوبُهُ شَيْءٌ يُغَيِّرُهُ في ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ ٱلرِّيقُ فِيهِ وَهُوَ عَقِبُ ٱلنَّوْمِ.

كَـٱلأُقْحُـوانِ غَـدَاةَ غِـبِّ سَمَـائِـهِ    جَفَّـتْ أَعَـالِيـهِ وَأَسْفَلُـهُ نَـدِ

شَبَّهُ شَفَتَيْهَا بِقَادِمَتَيْ ٱلْحَمَامَةِ ، وَهُمَا ٱلرِّيشَتَانِ ٱللَّتَانِ فِي مُقَدِّمَتَيْ جَنَاحَيْهَا ، لِرِقَّتِهِمَا وَشِدَّةِ سُمْرَتِهِمَا ، فَجَعَلَهُمَا يَجْلُوَانِ أَسْنَانَهَا ، أَيْ يُظْهِرَانِ بَيَاضَهَا بِمَا فِيهَا مِنَ ٱلسُّمْرَةِ ، وَكَانَ نِسَاءُ ٱلْعَرَبِ يَجرَحْنَ لِثَاتِهِنَّ وَيَجْعَلْنَ ٱلإِثْمِدَ عَلَيْهَا ، فَيَبْقَىٰ سَوَادُهُ فِيها ، فَقَوْلُهُ : أُسِفَّ ، أَيْ : ذُرَّ ٱلإِثْمِدُ عَلَىٰ لِثَاتِهَا ، وتقول : أَسْفَفْتُ الوَشْمَ ، وَهُوَ أَنْ يُغْرَزَ ٱلْجِلْدُ بِإِبْرَةٍ ، ثُمَّ تُحْشَىٰ ٱلمَغَارِزُ كُحْلًا ؛ وَقَوْلُهُ : ٱلبَيْتَ ؛ شَبَّهُ ٱلثَّغْرَ بِالأُقْحُوانِ وَقَدْ مُطِرَ لَيْلًا ، فَجَلاهُ ٱلْمَطَرُ ، وَصَفَّىٰ لَوْنَهُ ، ثُمَّ جَفَّ ٱلمَاءُ مِنْ أَعْلاهُ ، فَاشْتَدَّ بَيَاضُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ وَبَقِيَ أَسْفَلُهُ مُتَرَوِّياً بِٱلنَّدَىٰ .

١٣٥ ـ وَقَالَ ٱلشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ [ من السريع ] :

يـا عَـذْبَـةَ ٱلمَبْسِـمِ ! بُلِّـي ٱلْجَـوَىٰ    بِنَهْلَـــةٍ مِـــنْ رِيقِـــكِ ٱلْبَـــارِدِ
أَرَىٰ غَــدِيــراً سَيِّحــاً مَــاؤُهُ    فَهَــلْ لِـذَاكَ ٱلْمَــاءِ مِــنْ وَارِدِ
مَـنْ لِـي بِـذَاكَ ٱلْعَسَـلِ ٱلـذَّائِـبِ ٱلْـ    ـجَـارِي خِـلَالَ ٱلْبَـرَدِ ٱلْجَـامِـدِ

١٣٦ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ ـ قِيلَ : عَبِيدُ بْنُ ٱلأَبْرَصِ ، وَقِيلَ : أَوْسُ بْنُ حَجَرَ ـ [من البسيط] :

كَـأَنَّ رِيقَتَهَـا بَعْـدَ ٱلْكَـرَىٰ ٱغْتَبَقَـتْ    مِنْ ماءِ أَدْكَنَ في ٱلْحَانُوتِ نَضَّاحِ
أَوْ مِــنْ مُعَتَّقَــةٍ وَرْهَــاءَ نَشْــوَتُهــا    أَوْ مِــنْ أَنَــابِيــبَ رُمَّــانٍ وَتُفَّــاحِ

ٱلرِّيقُ : مَاءُ ٱلْفَمِ ، وَيُؤَنَّثُ فِي ٱلشِّعْرِ ، فَيُقَالُ : رِيقَتُها ؛ وَٱغْتَبَقَتْ ، مِنَ ٱلاغْتِبَاقِ ، وَهُوَ شُرْبُ ٱلعَشِيِّ ؛ وَالأَدْكَنُ : مَا تَعْلُوهُ ٱلدُّكْنَةُ ، وَهِيَ لَوْنٌ بَيْنَ ٱلْحُرَّةِ وَالسَّوَادِ ، أَرَادَ بِهِ ٱلزِّقَ ؛ وَٱلْحَانُوتُ : حَانُوتِ ٱلْخَمَّارِ ؛ وَٱلْوَرْهَاءُ فِي الأَصْلِ : ٱلرِّيحُ ٱلَّتِي فِي هُبُوبِهَا خُرْقٌ وَعَجْرَفَةٌ ؛ وَٱلنَّشْوَةُ ـ بِكَسْرِ ٱلنُّونِ

وَفَتْحِهَا ـ : ٱلرَّائِحَةُ ٱلطَّيِّبَةُ ، يُرِيدُ أَنَّ رَائِحَتَها تَهُبُّ فَتَنْتَشِرُ مِثْلَ هُبُوبِ تِلْكَ ٱلرِّيحِ وَٱنْتِشَارِهَا ، يَصِفُ بِذَلِك كُلِّهِ طِيبَ رِيقَتِهَا .

١٣٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ وَكِيعٍ [من السريع] :

رِيـقٌ إِذَا مَـا ٱزْدَدْتُ مِـنْ شُـرْبِـهِ ... رِيًّـا ثَنَـانِـي ٱلـرِّيُّ ظَمْـآنَـا

كَـٱلْخَمْـرِ أَرْوَىٰ مَـا يَكُـونُ ٱلْفَتَـىٰ ... مِـنْ شُـرْبِهَـا أَعْطَـشُ مَـا كَـانَـا

١٣٨ ـ وَقَالَ ٱبنُ مَيَّادَةَ [من الطويل] :

كَـأَنَّ عَلَـىٰ أَنْيَـابِهَـا ٱلْمِسْـكَ شَـابَـهُ ... بُعَيْدَ ٱلْكَرَىٰ مِنْ آخِرِ ٱللَّيْلِ عَابِقُ[1]

وَمَـا ذُقْتُـهُ إِلَّا بِعَيْنِـي تَفَـرُّسـاً ... كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَىٰ ٱلسَّحَابَةِ بَارِقُ[2]

يَضُـمُّ إِلَـيَّ ٱللَّيْـلُ أَطْفَـالَ حُبِّهَـا ... كَمَا ضَمَّ أَزْرَارَ ٱلْقَمِيصِ ٱلْبَنَائِقُ[3]

١٣٩ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْفَتْحِ كُشَاجِمُ [من السريع] :

ٱلْبَـدْرُ لَا يُغْنِيـكَ عَنْهَـا إِذَا ... غَـابَـتْ وَتُغْنِيـكَ عَـنِ ٱلْبَـدْرِ

فِـي فَمِهَـا مِسْـكٌ وَمَشْمُـولَـةٌ ... صِـرْفٌ وَمَنْظُـومٌ مِـنَ ٱلـدُّرِّ

فَٱلمِسْكُ لِلنَّكْهَةِ ، وَٱلْخَمْرُ لِلرِّيقَـ ... ـةِ ، وَٱللُّـؤْلُـؤُ لِلثَّغْـرِ

١٤٠ ـ وَقَالَ أَيْضاً ـ كُشَاجِمُ [من الطويل] :

عَرَضْنَ ! فَعَرَّضْنَ ٱلْقُلُوبَ مِنَ ٱلْجَوَىٰ ... لأَسْرَعَ فِي كَيِّ ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلْجَمْرِ

---

(١) شَابَهُ : خَالَطَهُ ؛ وَعَابِقُ ، فَاعِلُ شَابَ مِنْ شَابَهُ ، وَكَأَنَّهُ صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ ، وَٱلتَّقْدِيرُ : شَابَ ٱلْمِسْكَ طِيبٌ عَابِقٌ ، أي : مُلازمٌ لأَنْيَابِهَا لا يُفَارِقُهُ ، مِنْ عَبَقَ بِهِ ٱلشَّيْءُ : إِذَا لَزِقَ بِهِ ، قَالَ طَرَفَةُ [ من الرمل ] :

ثُـمَّ رَاحُـوا عَبَـقُ ٱلْمِسْـكِ بِهِـمْ

(٢) شِيمَ ٱلْبَرْقُ : نُظِرَ إِلَىٰ سَحَابَتِهِ أَيْنَ تُمْطِرُ .

(٣) أَرَادَ بِالأَطْفَالِ ٱلأَحْزَانَ ٱلْمُتَوَلِّدَةَ عَنِ ٱلْحُبِّ ؛ وَٱلْمُرَادُ بِٱلْبَنَائِقِ هُنَا العُرَىٰ ٱلَّتِي تُدْخَلُ فِيها الأَزْرَارُ ، وَهَذَا ٱلْبَيْتُ يُرْوَىٰ لِقَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ ، وَلَعَلَّهُ هُنَا تَضْمِينٌ .

كَـأَنَّ ٱلشِّفَـاهَ ٱللُّعْسَ فِيهَـا خَـوَاتِـمٌ ... مِنَ ٱلْمِسْكِ ، مَخْتُومٌ بِهِنَّ عَلَىٰ دُرِّ

١٤١ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من الطويل] :

وَيَبْسِمْـنَ عَـنْ دُرٍّ تَقَلَّـدْنَ مِثْلَـهُ ... كَأَنَّ ٱلتَّرَاقِي وُشِّحَتْ بِٱلْمَبَاسِمِ[1]

١٤٢ ـ وَقَالَ أَبُو صَعْتَرِ ٱلْبُولَانِيُّ ، وَهِيَ مِنْ أَبْيَاتِ « حَمَاسَةِ أَبِي تَمَّامٍ » [من الطويل] :

فَمَـا نُطْفَةٌ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تَقَاذَفَتْ ... بِـهِ جَنْبَتَـا ٱلْجُـودِيِّ وَٱللَّيْـلُ دَامِـسُ

فَلَمَّـا أَقَـرَّتْـهُ ٱللِّصَـابُ تَنَفَّسَـتْ ... شَمَـالٌ لِأَعْلَـى مَـائِـهِ فَهْـوَ قَـارِسُ

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ ... وَلَكِنَّنِـي فِيمَـا تَـرَىٰ ٱلْعَيْـنُ فَـارِسُ

ٱلنُّطْفَةُ : ٱلْمَاءُ ٱلْقَلِيلُ ٱلصَّافِي يَبْقَىٰ فِي نَحْوِ ٱلْقِرْبَةِ وَٱلدَّلْوِ ؛ وَأَرَادَ بِحَبِّ ٱلْمُزْنِ : ٱلْبَرَدُ ؛ وَالْمُزْنُ : ٱلسَّحابُ فِيهِ ٱلْمَطَرُ ؛ وَٱلْجُودِيُّ : ٱسْمُ جَبَلٍ ؛ وَجَنْبَتَا ٱلْجُودِيِّ : ٱلْكَنَفُ وَٱلنَّاحِيَةُ ؛ وَالْدَّامِسُ : ٱلْمُظْلِمُ ؛ وَٱللِّصَابُ ، جَمْعُ لِصْبٍ ، وَهِيَ : شُقُوقٌ فِي ٱلْجَبَلِ ؛ وَٱلْقَارِسُ : ٱلْبَارِدُ ؛ أَي : هَبَّتْ شَمالٌ عَلَيْهِ فَبَرَدَ ؛ وَفَارِسُ : مُتَفَرِّسُ ؛ يَقُولُ : لَيسَ مَاءُ ٱلْمُزْنِ سَالَتْ بِهِ نَاحِيَةُ جَبَلِ ٱلْجُودِيِّ فِي اللَّيْلِ ٱلْمُظْلِمِ ، فَلَمَّا قَرَّ هَذَا ٱلمَاءُ فِي ٱلشُّقُوقِ هَبَّتْ رِيحُ ٱلشَّمالِ عَلَيْهِ فَبَرَدَ ، بِأَعْذَبَ مِنْ رُضابِ فَمِ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَلا أَقُولُ هَذَا عَنْ ذَواقٍ وَٱخْتِبَارٍ ، وَلَكِنْ عَنْ صِدْقِ فَراسَةٍ .

١٤٣ ـ وَأَصْلُ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ لِامْرِىءِ ٱلْقَيْسِ حَيْثُ يَقُولُ [من المتقارب] :

وَثَغْـرٍ أَغَـرَّ شَتِيـتِ ٱللِّثَـاتِ ... لَـذِيـذِ ٱلْمُقَبَّـلِ وَٱلْمُبْتَسَـمْ

---

(١) التَّرَاقِي ، جَمْعُ تَرْقُوَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْعِظَامُ ٱلَّتِي فَوْقَ ٱلصَّدْرِ ؛ يَقُولُ : إِنَّ ثُغُورَهُنَّ فِي ٱلصَّفَاءِ وَحُسْنِ ٱلنَّظْمِ مِثْلُ ٱلدُّرِّ ٱلَّذِي تَقَلَّدْنَهُ ، فَكَأَنَّ تَرَاقِيَهُنَّ حُلِّيَتْ بِثُغُورِهِنَّ .

وَمَـا ذُقْتُـهُ غَيْـرَ ظَـنٍّ بِـهِ وَبِـالظَّـنِّ يَقْضِـي عَلَيْـكَ ٱلْحَكَـمْ

١٤٤ ـ وَقَالَ ٱلْخُبْزأَرُزِّيُّ ، فَأَحْسَنَ [من الطويل] :

وَمِـنْ طَـاعَتِـي إِيَّـاهُ أَمْطَـرَ نَـاظِـرِي لَهُ حِينَ يُبْدِي فِي ثَنَايَاهُ لِي بَرْقَا
كَأَنَّ دُمُوعِي تُبْصِرُ ٱلْوَصْلَ هَارِباً فَمِنْ أَجْلِ ذَا تَجْرِي لِتُدْرِكَهُ سَبْقَا

١٤٥ ـ وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي [من المنسرح] :

تَبُـلُّ خَـدَّيَّ كُلَّمَـا ٱبْتَسَمَـتْ مِـنْ مَطَـرٍ بَـرْقُـهُ ثَنَـايَـاهَـا

يَقُولُ : إِنَّ دُموعِي كَالْمَطَرِ تَبُلُّ خَدَّيَّ ، أَيْ : كُلَّمَا ٱبْتَسَمَتْ بَكَيْتُ ، فَكَأَنَّ دَمْعِي مَطَرٌ بَرْقَهُ بَرِيقُ ثَنَايَاهَا ، إِذْ كَانَ بُكَائِي فِي حَالِ ٱبْتِسَامِهَا .

١٤٦ ـ وَمَا قَالُوهُ فِي وَصْفِ ٱلثُّغُورِ وَٱلأَفْوَاهِ كَثِيرٌ يُجَاوِزُ ٱلإِحْصَاءَ ، وَٱلأَصْلُ فِيهِ قَوْلُ ٱمْرِءِ ٱلْقَيْسِ [من المتقارب] :

كَـأَنَّ ٱلْمُـدَامَ وَصَـوْبَ ٱلْغَمَـامْ وَرِيـحَ ٱلْخُـزَامَـىٰ وَنَشْـرَ ٱلْقُطُـرْ
يُعَـلُّ بِـهِ بَـرْدُ أَنْيَـابِهَـا إِذَا غَـرَّدَ ٱلطَّـائِـرُ ٱلْمُسْتَحِـرْ

شَبَّهَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَاءَ فِيهَا فِي طِيبِهِ عِنْدَ ٱلسَّحَرِ بِٱلْمُدَامِ : ٱلْخَمْرِ ؛ وَصَوْبِ ٱلْغَمَامِ ٱلَّذِي يُمْزَجُ بِهِ ٱلْخَمْرُ ، وَرِيحِ ٱلْخُزَامَىٰ ، وَهُوَ نَبْتٌ مِنَ أَطْيَبِ ٱلأَزْهَارِ ؛ وَنَشْرِ ٱلْقُطْرِ ، أَي : رَائِحَةِ العُودِ ٱلَّذِي يُتَبَخَّرُ بِهِ ؛ وَٱلطَّائِرُ المُسْتَحِرُ : ٱلْمُصَوِّتُ وَقْتَ ٱلسَّحَرِ .

* * *

١٤٧ ـ هَذَا ، وَإِلَيْكَ طُرَفاً مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِٱلثُّغُورِ وَٱلأَفْوَاهِ فِي ٱللُّغَةِ ، قَالُوا : إِذَا كَانَ بَيْنَ الأَسْنَانِ كُلِّهَا تَفْرِيقٌ كَبِيرٌ فَٱلثَّغْرُ شَتِيتٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَكْرُوهٍ ، فَإِذَا كَانَ ٱلتَّفْرِيقُ بَيْنَ ٱلثَّنَايَا خَاصَّةً ـ وَهِيَ أَسْنَانُ مُقَدَّمِ ٱلْفَمِ ـ فَٱلثَّغْرُ أَفْلَجُ ، وَٱلرَّجُلُ

أَفْلَجُ الأَسْنَانِ ، وَٱلْفَلَجُ مِنَ ٱلأَوْصَافِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ، وَجَاءَ فِي وَصْفِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ ( أَنَّهُ كَانَ أَفْلَجَ أَبْلَجَ ٱلثَّنِيَّتَيْنِ ، إِذَا تَكَلَّمَ رُؤِيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَايَاهُ ، صَلَوَاتُ ٱللهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ عَلَيْهِ ) .

١٤٨ ـ وَالأُشُرُ في الأَسْنَانِ ـ بِضَمِّ ٱلْهَمْزَةِ وَضَمِّ ٱلشِّيْنِ وَفَتْحِهَا ـ حِدَّةٌ فِي أَطْرَافِهَا وَتَحْزِيزٌ فِيهَا ، يَكُونُ خِلْقَةً وَمُسْتَعْمَلًا ، وَهُوَ مِمَّا يُسْتَحْسَنُ ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ مَعَ ٱلصِّغَرِ وَحَدَاثَةِ ٱلسِّنِّ .

١٤٩ ـ وَٱلشَّنَبُ هُوَ : ٱلْمَاءُ ٱلْجَارِي عَلَىٰ ٱلأَسْنَانِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ بَرْدُهَا وَعُذُوبَةُ مَذَاقِهَا ، وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : سَأَلْتُ رُؤْبَةَ عَنِ ٱلشَّنَبِ ؟ فَأَخَذَ حَبَّةَ رُمَّانٍ وَأَوْمَأَ إِلىٰ بَصِيصِهَا وَبَرِيقِهَا ، وَقَالَ : هَذَا ٱلشَّنَبُ .

١٥٠ ـ وَمِثْلُ ٱلشَّنَبِ ٱلرُّضَابُ ، وَمِثْلُهُمَا ٱلظَّلْمُ ، قَالَ بَعْضُهُمْ [من الهزج] :

وَهِنْدٌ تَيَّمَتْ قَلْبِي غَدَاةَ ٱلنَّحْرِ إِذْ تَرْمِي
بِوَجْهٍ مُشْرِقٍ صَافٍ وَثَغْرٍ بَارِدِ ٱلظُّلْمِ

١٥١ ـ وَقَالَ ٱلْحُصَيْنُ بْنُ الحُمَامِ [من الطويل] :

إِذَا مَا ٱجْتَلَىٰ ٱلرَّانِي إِلَيْهَا بِطَرْفِهِ غُرُوبَ ثَنَايَاهَا أَنَارَ وَأَظْلَمَا

ٱلْغُرُوبُ : حَدُّ الأَسْنَانِ ، وَاحِدُهَا غَرْبٌ ؛ وَالرّانِي : ٱلْمُدِيمُ ٱلنَظَرِ ؛ وَقَوْلُهُ : أَنَارَ وَأَظْلَمَا ، أَيْ : أَصَابَ ضَوْءاً وَظَلْماً ؛ وَٱلظَّلْمُ : مَاءُ ٱلأَسْنَانِ .

١٥٢ ـ وَٱلثَّغْرُ يُوصَفُ بِٱلنُّورِ وَٱللَّمَعَانِ ، وَيُشَبَّهُ بِٱلبَرْقِ وَٱلْمَهَا ، وَٱلْمَهَا في الأَصْلِ : ٱلبِلَّوْرُ ٱلَّذِي يَبِصُّ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ ، وَقِيلَ : ٱلدُرَّةُ ؛ قَالَ الأَعْشَىٰ [من الوافر] :

وَتَبْسِمُ عَنْ مَهاً شَبِمٍ غَرِيٍّ إِذَا تُعْطِي ٱلْمُقَبِّلَ يَسْتَزِيدُ

شَبِمٌ : بَارِدٌ ؛ وَغَرِيٌّ : حَسَنٌ ؛ وَوَجْهٌ غَرِيٌّ : حَسَنٌ .

١٥٣ ـ وَٱللِّثَاتُ جَمْعُ لِثَةٍ ، وَهِيَ : ٱللَّحْمُ ٱلْمُغَشِّي لأُصُولِ ٱلأَسْنَانِ ، وَيُسَمَّىٰ ما نَزَلَ مِنْهُ بَيْنَ الأَسْنَانِ عَلَىٰ هَيْئَةِ ٱلشُّرُفُ : ٱلْعُمُورَ ، وَاحِدُهَا عَمْرُ ، وَيُسَمَّىٰ أَيْضاً القُيُودُ(١) ، قَالَ [من الطويل] :

لَمُرْتَجَّةُ ٱلأَرْدَافِ هِيفٌ خُصُورُهَا عِذَابٌ ثَنَايَاهَا لِطَافٌ قُيُودُهَا

١٥٤ ـ وَيُسْتَحْسَنُ مِنَ ٱلشِّفَاهِ ٱلشَّفَةُ ٱللَّمْيَاءُ ، وَٱللَّمىٰ ـ مَقْصُوراً ـ سُمْرَةٌ يَسِيرَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ تَكُونُ في ٱلشِّفَاه وَٱللِّثَاتِ ، وَقَدْ تُكْسَرُ ٱللاَّمُ مِنْهُ وَتُضَمُّ ، قَالَ جَمِيلٌ [من الوافر] :

تَبَسَّمُ عَنْ ثَنَايَا وَاضِحَاتٍ عِذَابِ ٱلطَّعْمِ زَيَّنَهَا لَمَاهَا

١٥٥ ـ وَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ [من الرجز] :

لَمَّا تَعَرَّىٰ أُفُقُ ٱلضِّيَاءِ مِثْلَ ٱبْتِسَامِ ٱلشَّفَةِ ٱللَّمْيَاءِ

١٥٦ ـ وَقَدْ يَكُونُ ٱللَّمىٰ في غَيْرِ ٱلشِّفَاهِ وَٱللِّثَاتِ ، يُقَالُ : شَجَرَةٌ لَمْيَاءُ : إِذَا ٱسْوَدَّ ظِلُّهَا لِكَثَافَةِ أَغْصَانِهَا .

١٥٧ ـ وَيُسْتَحْسَنُ مِنَ ٱلشِّفَاهِ أَيْضاً ٱلشَّفَةُ ٱلْحَوَّاءُ ، وٱللَّعْسَاءُ ، وَٱلْحُوَّةُ : سُمْرَةٌ يَسِيرَةٌ ، وَهِيَ نَحْوٌ مِنَ ٱللَّمىٰ ، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ مِنَ ٱللَّمىٰ ، قَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من البسيط] :

لَمْيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وَفِي ٱللِّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنَبُ

١٥٨ ـ وَٱللَّعَسُ : سَوَادٌ يَعْلُو شَفَةَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْبَيْضَاءِ ، وَقِيلَ : هُوَ سوادٌ فِي

---

(١) ٱلْقُيُودُ في الأَصْلِ : سِمَةٌ حَمْرَاءُ تَكُونُ في عُنُقِ ٱلْبَعِيرِ عَلَىٰ صُورَةِ ٱلْقَيْدِ ، فَشَبَّهُوا بِهَا ٱللِّثَاتَ وَمَا نَزَلَ مِنْهَا بَيْنَ الأَسْنَانِ .

حُمْرَةٍ ، قَالَ أَبُو ٱلْفَتْحِ كُشَاجِمُ [من الطويل] :

عَرَضْنَ فَعَرَّضْنَ ٱلْقُلُوبَ مِنَ ٱلْهَوَىٰ لأَسْرَعَ مِنْ كَيِّ ٱلْقُلُوبِ عَلَىٰ ٱلْجَمْرِ

كَأَنَّ ٱلشِّفَاهَ ٱللُّعْسَ مِنْهَا خَوَاتِمٌ مِنَ ٱلتِّبْرِ مَخْتُومٌ بِهِنَّ عَلَىٰ ٱلدُّرِّ

١٥٩ ـ وَمِنَ ٱلشِّفَاهِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلشَّفَةُ ٱلظَّمْياءُ ، وَٱلظَّمَا مَقْصُوراً : سُمْرَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ رِقَّةٍ وَضُمُورٍ ، وَرِقَّةُ ٱلشِّفَاهِ مِما يُسْتَحْسَنُ ، وَضِدُّهُ ٱلدَّلَمُ ـ بِالتَّحْرِيكِ ـ وَٱلْمَرْأَةُ دَلْمَاءُ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ عِنْدَ قَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ [من الطويل] :

وَإِنْ نَبَّهَتْهُنَّ ٱلْوَلائِدُ بَعْدَمَا تَعالَىٰ نَهارُ ٱلصَّيْفِ أَوْ كَادَ يَنْصُفُ(١)

دَعَوْنَ بِقُضْبَانِ ٱلأَرَاكِ ٱلَّتِي جَنَىٰ لَهَا ٱلرَّكْبُ مِنْ نُعْمَانَ أَيَّامَ عَرَّفُوا(٢)

فَمِحْنَ بِهِ عَذْباً رُضَاباً غُرُوبُهُ رِقَاقٌ وَأَعْلَىٰ حَيْثُ رُكِّبْنَ أَعْجَفُ(٣)

قَالَ : قَوْلُهُ : وَأَعْلَىٰ حَيْثُ رُكِّبْنَ ، أَرَادَ بِهِ ٱللِّثَةَ ، يُخْبِرُ أَنَّهَا قَلِيلَةُ ٱللَّحْمِ ، وَٱلْعَرَبُ تَمْدَحُ بِقِلَّتِهِ وَتَذُمُّ بِكَثْرَتِهِ ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَ العَجَفَ .

١٦٠ ـ قَالَ : وَيُسْتَحَبُّ فِي ٱلشَّفَةِ ٱلْحُمُوشَةُ ، وَهِيَ الرِّقَّةُ ، فَإِنْ غَلُظَتْ ، قِيلَ : شَفَةٌ بَثْعَاءُ ، وَٱلرَّجُلُ أَبْثَعُ ، وَيُقَالُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : ٱمْرَأَةٌ شَفَهِيَّةٌ ، أَيْ : كَبِيرَةُ ٱلشَّفَةِ ، وَرَجُلٌ شَفَهِيٌّ . وَقِيلَ لابْنِ سِيرِينَ : إِنَّ فُلاناً ٱشْتَرَىٰ جارِيَةً غَلِيظَةَ ٱلشَّفَتَيْنِ ، فَقَالَ : لَوِ ٱشْتَرَاهَا غَلِيظَةَ ٱلشُّفْرَيْنِ كَانَ خَيْراً لَهُ . الشُّفْرَانِ : حَرْفَا هَنِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَالشَفِيرَةُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلَّتِي تَجِدُ شَهْوَتَهَا فِي شُفْرِهَا فَيَجِيءُ مَاؤُهَا سَرِيعاً ، وَقِيلَ : هِيَ ٱلَّتِي تَقْنَعُ مِنَ ٱلنِّكَاحِ بِأَيْسَرِهِ ، وَهِي نَقِيضُ ٱلقَعِيرَةِ .

* * *

---

(١) أَنْصَفَ ٱلنَّهارُ وَٱنْتَصَفَ وَاحِدٌ .

(٢) عَرَّفُوا : أَتَوا عَرَفَاتٍ حِينَ حَجُّوا بِهَذِهِ ٱلقُضْبَانِ ، وَهِيَ ٱلْمَسَاوِيكُ .

(٣) مِحْنَ بِهِ ، يُرِيدُ : سُقِينَ بِهِ ، وَٱلْمَائِحُ : ٱلَّذِي يَنْزِلُ إِلَىٰ ٱلْبِئْرِ فَيَغْرِفُ ٱلماءَ إِذَا قَلَّ مَاؤُهَا .

**ذَمُّهُم ٱلبَخَرَ :**

١٦١ ـ وَلِمَكَانِ حَضِّهِمْ عَلَىٰ نَظَافَةِ ٱلْفَمِ وَٱللُّجُوءِ إِلَىٰ مِثْلِ ٱلْمِسْوَاكِ ذَمُّوا ٱلبَخَرَ وَٱلْقَلَحَ أَقْبَحَ ٱلذَّمِّ وَنَعَوْهُمَا عَلَىٰ مَنْ نُكِبُوا بِهَا .

١٦٢ ـ قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ أَوْ غَيْرُهُ [من الطويل] :

وَإِنَّ ٱمْـرَأً يَقْـوَىٰ عَلَـىٰ لَثْـمِ ثَغْـرِهِ   عَلَىٰ ٱلضَّغْطِ وَٱلتَّعْذِيبِ فِي قَبْرِهِ يَقْوَىٰ

١٦٣ ـ وَقَالَ جَرِيرٌ [من المتقارب] :

كَـأَنَّ مَقَـالِـعَ أَضْـرَاسِهِـمْ   إِذَا ضَحِكُـوا جِيَـفُ ٱلْخُنْفُـسِ

١٦٤ ـ وَشَكَا أَبْخَرُ ضِرْسَهُ ، فَفَتَحَ فَاهُ لِلطَّبِيبِ ، فَشَمَّ مِنْهُ رَائِحَةً كَرِيهَةً ، فَقَالَ لَهُ : مُرْ كَنَّاساً يَكْنُسُهُ ، فَهٰذَا كَنِيفٌ !

١٦٥ ـ وَسَارَرَ أَبُو ٱلأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيُّ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ـ وَكَانَ أَبُو الأَسْوَدِ أَبْخَرَ ـ فَسَتَرَ سُلَيْمَانُ أَنْفَهُ بِكُمِّهِ ، فَمَشَىٰ أَبُو الأَسْوَدِ وَهُوَ يَقُولُ : لا يَصْلُحُ لِلْخِلافَةِ مَنْ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ مُنَاجَاةِ ٱلشُّيُوخِ ٱلْبُخْرِ . . .

١٦٦ ـ وَٱشْتَرَىٰ رَجُلٌ أَبْخَرُ جَارِيَةً ، فَسَأَلَهُ صَدِيقٌ لَهُ عَنْ خَبَرِهَا ؟ فَقَالَ : مَا زَالَتْ تَمُصُّ ٱلْبَاجَةُ لِسَانِي ، فَقَالَ : إِنْ صَدَقَتْ فَإِنَّهَا بِنْتُ وَرْدَانِ[1] !

١٦٧ ـ وَيُقَالُ لِكُلِّ أَبْخَرٍ : أَبُو ذِبَّانَ ، وَكَانَ عَبْدُ ٱلمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ يُسَمَّىٰ أَبَا ٱلذُّبَابِ ! لأَنَّ ٱلذُّبَابَ كَانَ يَمُوتُ إِذَا قَرُبَ مِنْ فِيهِ ، لِشِدَّةِ بَخَرِهِ ، وَيُحْكَىٰ أَنَّهُ عَضَّ يَوْماً تُفَّاحَةً ، وَرَمَىٰ بِهَا إِلَىٰ بَعْضِ نِسَائِهِ ، فَدَعَتْ بِسِكِّينٍ ، فَقَطَعَتْ مَوْضِعَ عَضَّتِهِ ، فَقَالَ لَهَا : مَا تَصْنَعِيْنَ ؟ قَالَتْ : أُمِيطُ عَنْهَا ٱلأَذَىٰ ؛ فَطَلَّقَهَا مِنْ وَقْتِهِ .

---

(١) بَنَاتُ وَرْدَانٍ : صِنْفٌ مِنَ ٱلْخَنَافِسِ ، وَٱلْخَنَافِسُ كَافَّةً تَمُوتُ إِذَا شَمَّتْ رَائِحَةَ ٱلطِّيبِ ، وَإِذَا دُفِنَتْ فِي ٱلرَّوْثِ وَالقَاذُورَاتِ عَاشَتْ ، وَإِذَا دُفِنَتْ فِي ٱلْوَرْدِ مَاتَتْ .

١٦٨ ـ وَٱلذُّبابُ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في القَذَرِ وَفِي ٱسْتِطَابَةِ ٱلنَّتْنِ ، فَإِذَا عَجَزَ ٱلذُّبابُ عَنْ شَمِّ شَيْءٍ فَهُوَ ٱلَّذِي لا يَكُونُ أَنْتَنُ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ٱبْنُ عَبْدَلَ حِينَ رَمَىٰ بَعْضَهُمْ بِٱلْبَخَرِ [من الوافر] :

وَمَـا يَـدْنُـو إِلَـىٰ فِيـهِ ذُبَـابٌ  وَلَـوْ طُلِيَـتْ مَشَـافِـرُهُ بِقَنْـدِ
يَـرَيْـنَ حَـلاوَةً وَيَخَفْـنَ مَـوْتَـا  ذُعَـافـاً إِنْ هَمَمْـنَ لَـهُ بِـوِرْدِ

مَشَافِرُهُ : أَرادَ بِهَا شَفَتَيْهِ ؛ وَالقَنْدُ : عَسَلُ قَصَبِ ٱلسُّكَّرِ إِذَا جَمَدَ ؛ وَذُعَافاً ، يُرْوَىٰ : وَشِيكاً .

١٦٩ ـ وَسَارَّ سَعيدَ بْنَ حُمَيْدٍ رَجُلٌ بِهِ بَخَرٌ ، فَقَالَ سَعِيدُ : مِثْلُكَ لا يُسَارُّ ، وَإِنَّما يُكاتَبُ .

١٧٠ ـ وَقَالَ شَقِيقُ بْنُ ٱلسُّلَيْكِ وَقَدْ خَطَبَ ٱمْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ فَرَدَّتْهُ [من المتقارب] :

وَنُبِّئْتُهَـا أَحْـرَمَـتْ قَـوْمَهَـا  لِتَنْكِـحَ فـي مَعْشَـرٍ آخَـرِينَـا
فَـإِمَّـا نَكَحْـتِ فَـلا بِـٱلـرِّفَـاءِ  إِذَا مَـا نَكَحْـتِ وَلا بِـٱلْبَنِينَـا
وَزُوِّجْـتِ أَشْمَـطَ فـي غُـرْبَـةٍ  تُجَـنُّ ٱلْحَلِيلَـةُ مِنْـهُ جُنُـونَـا
خَلِيـلَ إِمـاءٍ يُـرَاوِحْنَـهُ  وَلِلْمُحْصَنَـاتِ ضُـرُوبـاً مُهِينـاً
إِذَا مَـا نُقِلَـتْ إِلَـىٰ دَارِهِ  تَظَـلُّ ٱلْحِمَـامُ عَلَيْـهِ رُكُـونَـا
يَشُمُّـكِ أَخْبَـثَ أَضْـرَاسِـهِ  إِذَا مَـا دَنَـوْتِ لِتَسْتَنْشِقِينَـا
كَـأَنَّ ٱلْمَسَـاوِيـكَ فـي شِـدْقِـهِ  إِذَا هُـنَّ أُكْـرِهْـنَ يَقْلَعْـنَ طِينَـا

١٧١ ـ وَقَالُوا في عِلَّةِ ٱلْفَمِ وَٱلْبَخَرِ : مَنْ كَثُرَ رِيقُهُ ، وَسَالَ لُعَابُهُ ، لا يَعْرِضُ لَهُ ٱلْخُلُوفُ : تَغَيُّرُ رِيحِ ٱلْفَمِ لِتَأَخُّرِ ٱلطَّعَامِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ كَانَتِ ٱلْكِلابُ

أَطْيَبَ أَفْوَاهاً ، وَيَعْرِضُ ٱلْخُلُوفُ بِإِدَامَةِ ٱنْطِبَاقِ ٱلْفَمِ ، وَأَطْيَبُ ٱلنَّاسِ أَفْوَاهاً ٱلزَّنْجُ ، وَٱلأَسَدُ وَٱلصَّقْرُ مَوْصُوفَانِ بِٱلْبَخَرِ .

* * *

وَصْفُهُمُ ٱلْحَدِيثَ :

١٧٢ ـ وَلِمُنَاسَبَةِ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلثُّغُورِ وَالأَفْوَاهِ نُورِدُ هُنَا صَدْراً مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْحَدِيثِ :

١٧٣ ـ قَالَ بَعْضُهُمْ [وهو بشار بن برد ، من الوافر] :

مُنَعَّمَــةٌ يَحَــارُ ٱلطَّــرْفُ فِيهَــا ... كَــأَنَّ حَــدِيثَهَــا سُكْــرُ ٱلشَّبَــابِ
مِــنَ ٱلْمُتَصَــدِّيَــاتِ لِغَيْــرِ سُــوءٍ ... تَسِيــلُ إِذَا مَشَــتْ سَيْــلَ ٱلْحُبَــابِ

كَأَنَّ حَدِيثَها . . . الخ ، يُرِيدُ أَنَّها تُصْبِي بِحَدِيثِهَا ، فَيَحْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنَ ٱلتَّصَابِي وَٱلْجَذَلِ مِثْلُ سُكْرِ ٱلشَّبَابِ ، لأَنَّ ٱلشَّبَابَ فِي بُلَهْنِيَةٍ ؛ وَٱلْحُبَابُ ـ بِضَمِّ ٱلْحَاءِ ـ : ٱلْحَيَّة ، وَبِفَتْحِ ٱلْحَاءِ : حَبابُ ٱلْماءِ ؛ وَكِلاهُمَا جَائِزٌ ، فَقَدْ قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

سَمَــوْتُ إِلَيْهَــا بَعْــدَ مَــا نَــامَ أَهْلُهَــا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَىٰ حَالِ

فَقَدْ شَبَّهَ مَشْيَهُ بِحَبَابِ ٱلْمَاءِ ، وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [بل عمر ابن أبي ربيعة ، من الطويل] :

فَلَمَّا فَقَدْتُ ٱلصَوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ ... مَصَــابِيــحُ شُبَّــتْ بِــٱلْعَشِــيِّ وَأَنْــوَرُ
وَخُفِّضَ عَنِّي ٱلصَوْتُ أَقْبَلْتُ مُشْيَةَ ٱلْـ ... ـحُبَــابِ وَرُكْنِــي خِيفَــةَ ٱلْقَــوْمِ أَزْوَرُ

فَٱلْحُبَابُ هُنَا بِٱلضَّمِّ : ٱلْحَيَّةُ ، وَتَرَىٰ شَرْحَ ٱلْبَيْتَيْنِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ [ رقم : ٦٩٥ ] .

١٧٤ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ [وهو الراعي النُّمَيْري ، من الكامل] :

وَحَدِيثُهَا كَٱلْقَطْرِ يَسْمَعُهُ ... رَاعِي سِنِينَ تَتَابَعَتْ جَدْبَا[١]
فَأَصَاخَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ حَياً ... وَيَقُولُ مِنْ فَرَحٍ : هَيَا رَبَّا[٢]

١٧٥ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ ـ وَكَانَ قَدْ وَعَدَتْهُ هَوًى لَهُ أَنْ تَزُورَهُ ، فَأَخْلَفَتْهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا [من مجزوء الكامل] :

يَا لَيْلَتِي تَزْدَادُ نُكْرَا ... مِن حُبِّ مَنْ أَحْبَبْتُ بِكْرَا
وَكَأَنَّ رَفْضَ حَدِيثِهَا[٣] ... قِطَعُ ٱلرِّيَاضِ كُسِينَ زَهْرَا
وَتَخَالُ مَا جَمَعَتْ عَلَيْـ ... ـهِ ثِيَابَهَا ذَهَباً وَعِطْرَا
وَكَأَنَّهَا بَرْدُ ٱلشَّرَا ... بِ صَفَا وَوَافَقَ مِنْكَ فِطْرَا

١٧٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الكامل] :

وَحَدِيثُهَا ٱلسِّحْرُ ٱلْحَلالُ لَوْ أَنَّهُ ... لَمْ يَجْنِ قَتْلَ ٱلْمُسْلِمِ ٱلْمُتَحَرِّزِ[٤]
إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلْ وَإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ ... وَدَّ ٱلْمُحَدَّثُ أَنَّهَا لَمْ تُوْجِزِ
شَرَكُ ٱلْعُقُولِ وَنُهْزَةٌ مَا مِثْلُهَا ... لِلْمُطْمَئِنِّ وَعُقْلَةُ ٱلْمُسْتَوْفِزِ[٥]

وَقَوْلُهُ : شَرَكُ ٱلعُقُولِ ٱلَّتي فِيهِ يَقُولُ أَبِي تَمَّامٍ [من الطويل] :

---

(١) تَتَابَعَتْ ، يُرْوَىٰ تَتَايَعَتْ ، وَهِيَ رِوَايَةٌ جَيِّدَةٌ ، لأَنَّ ٱلتَّتَايُعَ أَخَصُّ بِٱلشَّرِّ .
(٢) حَيَا : مَطَرٌ .
(٣) رَفْضُ ٱلشَّيْءِ : مَا تَفَرَّقَ مِنْهُ .
(٤) ٱلْمُتَحَرِّزُ : ٱلْمُتَحَفِّظُ .
(٥) الشَّرَكُ : الفَخُّ ؛ وَنُهْزَةٌ : فُرْصَةٌ ، وَتُرْوَىٰ : نُزْهَةٌ ؛ وَعُقْلَةٌ : عِقَالٌ ؛ وَٱلْمُسْتَوْفِزُ : ٱلْمُسْتَعْجِلُ ؛ يَقُولُ : إِنَّ حَدِيثَ هَٰذِهِ ٱلْمَرْأَةِ فُرْصَةٌ جَمِيلَةٌ لِلْمُطْمَئِنِّ أَوْ نُزْهَةٌ لَهُ ، وَهِيَ عِقَالٌ لِمَنْ يَضْطَرُّ لِلانْصِرَافِ فَلا يَنْصَرِفُ عَنْهَا .

لَهَا مَنْظَرٌ قَيْدُ النَّوَاظِرِ لَمْ يَزَلْ ... يَرُوحُ وَيَغْدُو فِي خَفارَتِه ٱلْحُبُّ[(١)]

١٧٧ ـ وَإِلَيْكَ قِطْعَةٌ لِبَشَّارَ فِيهَا وَصْفٌ لِلْحَدِيثِ وَلِغَيْرِهِ [من الخفيف] :

أَيُّهَا ٱلسَّاقِيَانِ صُبَّا شَرَابِي ... وَٱسْقِيَانِي مِنْ رِيقِ بَيْضَاءَ رُودِ[(٢)]

إِنَّ رَائِي ٱلصَّدِي وَإِنَّ شِفَائِي ... شَرْبَةٌ مِن رُضَابِ ثَغْرٍ بَرُودِ

عِنْدَهَا ٱلصَّبْرُ عَنْ لِقَائِي وَعِنْدِي ... زَفَرَاتٌ يَأْكُلْنَ قَلْبَ ٱلْجَلِيدِ

وَلَهَا مَبْسِمٌ كَغُرِّ الأَقَاحِي ... وَحدِيثٌ كَٱلوَشْيِ وَشْيُ ٱلبُرُودِ

نَزَلَتْ فِي ٱلسَّوَادِ مِنْ حَبَّةِ ٱلْقَلْـ ... ـبِ وَنَالَتْ زِيَادَةَ ٱلْمُسْتَزِيدِ

١٧٨ ـ وَإِلَيْكَ أَبْيَاتُ أَبِي حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيِّ [من الطويل] :

خَبَّرَكِ ٱلْوَاشُونَ أَنْ لَنْ أُحِبَّكُمْ ... بَلَىٰ وَسُتُورِ ٱللهِ ذَاتِ ٱلْمَحَارِمِ[(٣)]

أَصُدُّ وَمَا الصَّدُّ ٱلَّذِي تَعْلَمِينَهُ ... شِفَاءٌ لَنَا ٱجْتِرَاعَ ٱلْعَلَاقِمِ[(٤)]

حَيَاءً وَبُقْيَاً أَنْ يَشِيعَ نَمِيمَةٌ ... بِنَاءَ بِكُمْ أُفٍّ لأَهْلِ ٱلنَّمَائِمِ

وَإِنَّ دَماً لَوْ تَعْلَمِينَ جَنَيْتِهِ ... عَلَىٰ ٱلْحَيِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمِ[(٥)]

أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُكِ أَرْقَلَتْ ... إِلَيْهِ ٱلْقَنَا بِٱلرَّاعِفَاتِ ٱللَّهَاذِمِ[(٦)]

---

(١) قَيْدُ ٱلنَّواظِرِ ، أَيْ : هُوَ لِلنَّوَاظِرِ ـ العُيُون ـ كَٱلْقَيْدِ ، فَلا تَنْحَرِفُ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ لِرَوْعَتِهِ ؛ وَخفارَتُهُ : حِمايَتُهُ .

(٢) رُودُ ، أَصْلُها رُؤْدُ ، فَسَهُلَ ، يُقالُ : فَتَاةٌ رُؤْدٌ وَرَأْدَةٌ وَرُؤْدَةٌ وَرُؤُودَةٌ ، وَهِيَ : ٱلشَّابَّةُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلسَّرِيعَةُ ٱلشَّبَابِ مَعَ حُسْنِ غِذَاءٍ ، تَشْبِيهاً بِٱلْغُصْنِ ٱلَّذِي نَبَتَ مِنْ سَنَتِهِ أَرْطَبَ مَا يَكُونُ رَخْصاً نَاعِماً لَيِّناً .

(٣) سُتُورُ ٱللهِ : مَا حَرَّمَهُ ٱللهُ عَلَيْنَا ، وَهِيَ حُدُودُهُ .

(٤) ٱجْتِرَاعُ ، مَصْدَرُ ٱجْتَرَعَ ٱلْمَاءَ : ٱبْتَلَعَهُ ؛ وَٱلْعَلاقِمُ ، وَاحِدُهَا ٱلعَلْقَمُ ، جَمْعُ ٱلْعَلْقَمَةِ ، وَهِيَ : ٱلْقِطْعَةُ مِنَ ٱلْحَنْظَلِ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُرٍّ ، شَبَّهَ حَرارَةَ ٱلصَّدِّ بِهَا .

(٥) لَوْ تَعْلَمِينَ : ٱعْتِرَاضٌ بَيْنَ ٱسْمِ « إِنَّ » وَخَبَرِهَا ، وَ« لَوْ » لِلتَّمَنِّي .

(٦) أَرْقَلَتْ ، مِنَ ٱلإِرْقَالِ ، وَهُوَ فِي الأَصْلِ : سُرْعَةُ سَيْرِ الإِبِلِ ، ٱسْتَعَارَهُ لِلرِّمَاحِ ؛ =

وَلَكِـنْ لَعَمْـرُ إِلَيْـهِ عَـاطِـلَ مُسْلِمـاً كَغُرِّ ٱلثَّنَايَا وَاضِحَاتِ ٱلمَلاغِمِ[1]
إِذَا هُـنَّ سَـاقَطْـنَ ٱلْحَـدِيـثَ كَـأَنَّـهُ سِقَاطُ حَصَىٰ ٱلمَرْجَانِ مِنْ سِلْكِ نَاظِمِ
رَمَيْـنَ فَـأَقْصَـدْنَ ٱلْقُلُـوبَ فَلَـمْ نَجِـدْ دَمـاً مَـائِـراً إِلَّا جَـوًا فـي ٱلْمَيَـازِمِ[2]

وَهَذَا ٱلْبَيْتُ ٱلأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ جَمِيلٍ [ من الطويل ] :

نَـوافِـذَ لَـمْ تُعْلَـمْ لَهُـنَّ خُـرُوقُ

وَمِصْرَاعُ جَمِيلٍ هَذَا مِنْ أَبْيَاتٍ لا دَاعِيَ لإِيرَادِهَا .

١٧٩ ـ وَقَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةِ مِنْ أَبْيَاتٍ مِنْ غَزَلِهِ وَمُخْتَارِهِ [من الطويل] :

مِـنَ ٱلْخَفِـرَاتِ ٱلْبِيـضِ وَدَّ جَلِيُّهَـا إِذَا مَا ٱنْقَضَتْ أُحْدُوثَةٌ لَوْ يُعِيدُهَا

يَقُولُ فِي هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ [من الطويل] :

وَكُنْتُ إِذَا مَا زُرْتُ سُعْدَىٰ بِأَرْضِهَا أَرَىٰ ٱلأَرْضَ تُطْوَىٰ لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا
تُحَلِّـلُ أَحْقَـادِي إِذَا مَـا لَقِيتُهَـا وَتَبْقَـىٰ بِـلا ذَنْـبٍ عَلَـيَّ حُقُـودُهَـا
وَكَيْـفَ يَـوَدُّ ٱلْقَلْـبُ مَـنْ لَا يَـوَدُّهُ بَلَىٰ قَدْ تُرِيدُ ٱلنَّفْسُ مَنْ لا يُرِيدُهَا

وَهَذَا ٱلْبَيْتُ الأَخِيرُ يُرْوَىٰ مَعَ بَيْتٍ آخَرَ لِغَيْرِ كُثَيِّرٍ ، وَهُمَا [من الطويل] :

---

= وَالرَّاعِفَاتُ : الأَسِنَّة ، مِنْ رَعَفَ : سَالَ دَمُهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَسِيلُ دَماً مِنَ ٱلطِّعَانِ ؛ وَٱللَّهَاذِمُ : القَوَاطِعُ ، ٱلْوَاحِدُ لَهْذَمٌ ، كَجَعْفَرٍ . يُوصَفُ بِهِ ٱلسِّنَانُ وَٱلسَّيْفُ وَٱلنَّابُ .

(١) ٱلْكَافُ فِي قَوْلِ : « كَغُرِّ ٱلثَّنَايَا » فاعِلَةٌ بِقَوْلِهِ : طَلَّ ؛ وَدَمٌ مَطْلُولٌ : إِذَا مَضَىٰ هَدْراً ؛ وَٱلمَلاغِمُ : ٱلعَوَارِضُ ، وَهِيَ مَا يَبْدُو مِنَ ٱلْفَمِ عِنْدَ ٱلضَّحِكِ ، وَقَالَ الأَصْمَعِيُّ : مَلاغِمُ ٱلْمَرْأَةِ : مَا حَوْلَ فَمِهَا ؛ وَقَالَ غَيْرُهُ : هِيَ ٱلْفَمُ وَالأَنْفُ وَالأَشْدَاقُ ، لأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ تَلْغُمُهَا بِٱلطِّيبِ وَٱلزَّعْفَرَانِ .

(٢) أَقْصَدْنَ ٱلْقُلُوبَ : أَصَبْنَهَا ، مِنْ قَوْلِهِمْ : أَقْصَدْتُ ٱلرَّجُلَ : إِذَا طَعَنْتَهُ أَوْ رَمَيْتَهُ فَلَمْ تُخْطِئْ مَقَاتِلَهُ ؛ وَدَماً مَائِراً ، أَي : شَائِلاً ، مِنْ قَوْلِهِمْ : مارَ ٱلدَّمُ يَمُورُ مَوْراً : سَالَ ؛ وَٱلْحَيَازِمُ هي ٱلْحَيَازِيمُ ، فَحَذَفَ ٱلْيَاءَ ، ٱلْوَاحِدُ حَيْزُومٌ ، وَهُوَ : ضِلْعُ ٱلْقَلْبِ وَمَا ٱكْتَنَفَ ٱلْحُلْقُومَ مِنْ جَوَانِبِ ٱلصَّدْرِ .

جُنِنَّـا عَلَـىٰ لَيْلَـى وَجُنَّـتْ بِغَيْـرِنَـا   وَأَضْـرَ بِنـا مَجْنُـونَـةٌ لا نُـرِيـدُهَـا
وَكَيْـفَ يَـوَدُّ ٱلْقَلْـبُ مَـنْ لَا يَـوَدُّهُ   بَلَىٰ قَدْ تُرِيدُ ٱلنَّفْسُ مَن لا يُرِيدُهَا

وَفي مَعْنَىٰ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ يَقُولُ ٱلأَعْشَىٰ [من البسيط] :

عُلِّقْتُهَـا عَـرَضـاً وَعُلِّقَـتْ رَجُـلًا   غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَىٰ غَيْرَها ٱلرَّجُلُ

عُلِّقْتُها وَعُلِّقَ بِها ، كِلاهُمَا بِٱلْبِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهْ : إِذَا أَحَبَّهَا ؛ وَعَرَضاً : ٱعْتَرَضَتْ لَهُ فَرَآها بَغْتَةً ، فَأَحَبَّهَا .

١٨٠ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من مجزوء الكامل] :

وَلَقَــدْ سَئِمْــتُ مَــآرِبِــي   فَكَــأَنَّ طَيِّبَهَــا خَبِيــثْ
إِلَّا ٱلْحَــدِيــثَ فَــإِنَّــهُ   مِثْــلُ ٱسْمِــهِ أَبــداً حَــدِيــثْ

١٨١ ـ وَقَالَ ٱلْقُطَامِيُّ [من البسيط] :

فَهُـنَّ يَنْبِـذْنَ مِـنْ قَـوْلٍ يُصِبْـنَ بِـهِ   مَوَاقِعَ ٱلْمَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ ٱلصَّادِي

١٨٢ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

وَلَمَّـا تَـلاقَيْنَـا جَـرَتْ مِـنْ عُيُـونِنَـا   دُمُـوعٌ كَفَفْنَـا غَـرْبَهَـا بِـالأَصَـابِـعِ
وَنِلْنَـا سُقَـاطـاً مِـنْ حَـدِيـثٍ كَـأَنَّـهُ   جَنَىٰ ٱلنَّحْلِ مَمْزُوجا بِمَاءِ ٱلْوَقَائِعِ

الوَقَائِعُ ، جَمْعُ وَقِيعةٍ : نُقْرَةٌ في حَجَرٍ في سَهلٍ أَوْ جَبَلٍ تُمْسِكُ ٱلْمَاءَ .

١٨٣ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ [من المنسرح] :

أَذْكُـرُ مِـنْ جَـارَتِـي وَمَجْلِسِهَـا   طَـرَائِفـاً مِـنْ حَـدِيثِهَـا ٱلْحَسَـنِ
وَمِـنْ حَـدِيـثٍ يَـزِيـدُنِـي مِقَـةً   مَـا لِحَـدِيـثِ ٱلْمَـوْمُـوقِ مِـنْ ثَمَـنِ

يَزِيدُني مِقَةً ، أَرَادَ : يَزِيدُنِي مِقَةً ـ مَحَبَّةً ـ لَهَا ؛ وطَرَائِفُ ٱلْحَدِيثِ :

ٱلْمُخْتَارُ مِنْهُ ، وَهُوَ مَا يَتَعَاطَاهُ ٱلْمُحِبُّونَ وَيَتَفَاوَضُهُ ذَوُو ٱلصَّبَابَةِ ٱلْمُتَيَّمُونَ ، مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَٱلتَّلْوِيحِ وَالإِيمَاءِ دُونَ ٱلتَّصْرِيحِ ، وَذَلِكَ أَحْلَىٰ وَأَخَفُّ وَأَغْزَلُ وَأَنْسَبُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُصَارَحَةً وَجَهْراً ، وَكَذَلِكَ أَطْرَافُ ٱلأَحَادِيثِ ، كَما قَالَ ٱلْقَائِلُ [كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ ، من الطويل] :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنَىٰ كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَمَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلمَطِيِّ الأَبَاطِحُ

١٨٤ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ ٱلْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ ... رَخِيمُ ٱلْحَوَاشِي لا هُرَاءٌ وَلا نَزْرُ

ٱلْبَشَرُ : ٱلْجِلْدُ ؛ وَلَا هُرَاءَ ، فَٱلْهُرَاءُ : ٱلْمَنْطِقُ ٱلْكَثِيرُ أَوْ ٱلمنْطِقُ ٱلْفَاسِدُ ٱلَّذِي لا نِظَامَ لَهُ ، ـ لِيَعْتَبِرْ كَثِيرٌ مِنَ ٱلسَّيِّدَاتِ ٱلْكَثِيرَاتِ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَارِغِ ؛ وَٱلنَّزْرُ : قَالَ صَاحِبُ « ٱللِّسَان » [مادة : نزر] : يَعْنِي : إِنَّ كلامَهَا مُخْتَصَرُ الأَطْرَافِ ، وَهَذَا ضِدُّ ٱلْهَذْرِ وَالإِكْثَارِ ، وَذَاهِبٌ فِي ٱلتَّخْفِيفِ وَٱلاخْتِصَارِ ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : وَقَدْ قَالَ : وَلا نَزْرَ ، فَلَسْنَا نَدْفَعُ أَنَّ ٱلْخفَرَ ـ شِدَّةَ ٱلْحَيَاءِ ـ يَقِلُّ مَعَهُ ٱلْكَلَامُ وَتُحْذَفُ مِنْهُ أَحْنَاءُ المَقَالِ ، لأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ لا يَكُونُ مَا يَجْرِي مِنْهُ ، وَإِنْ خَفَّ وَنَزَرَ ، أَقَلَّ مِنَ ٱلْجُمَلِ ٱلَّتِي هِيَ قَوَاعِدُ ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي يَشُوقُ مَوْقِعُهُ ، وَيَرُوقُ مَسْمَعُهُ . أَقُولُ : وَهَذَا كَلامٌ نَفِيسٌ مِنْ صَاحِبِ « اللِّسَانِ » لا نَشِينُهُ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّفْسِيرِ .

* * *

## عَبْقَرِيَّاتٌ شَتَّىٰ في ٱلْحَدِيثِ كافَّةً :

١٨٥ ـ سُئِلَ مُعَاوِيَةُ عَنْ ٱلْبَاقِي مِنْ لَذَّتِه ، فَقَالَ : مُحَادَثَةُ الإِخْوَانِ في

ٱللَّيَالِي ٱلْقُمْرِ[١] عَلَىٰ ٱلْكُثْبَانِ ٱلْعُفْرِ[٢] .

١٨٦ ـ وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ : قَدْ أَكَلْنَا ٱلطَّيِّبَ ، وَلَبِسْنَا ٱللَّيِّنَ ، وَرَكِبْنَا ٱلْفَارِهَ[٣] ، وَٱمْتَطَيْنَا ٱلْعَذْرَاءَ ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْ لَذَّتِي إِلَّا صَدِيقٌ أَطْرَحُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مُؤْنَةَ ٱلتَّحَفُّظِ .

١٨٧ ـ وَقَالَ ٱلْمُهَلَّبُ ٱبْنُ أَبِي صُفْرَةَ : ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ .

١٨٨ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ : تَذَاكَرْنَا ٱلْكَلَامَ فِي مَجْلِسِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ التَّنُوخِيِّ وَحُسْنَهُ ، وَٱلصَّمْتَ وَنُبْلَهُ ، فَقَالَ : إِنَّمَا يُمْدَحُ ٱلسُّكُوتُ بِٱلْكَلامِ وَلا يُمْدَحُ ٱلْكَلامُ بِٱلسُّكُوتِ ، وَمَا أَنْبَأَ عَنْ شَيْءٍ فَهُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ .

١٨٩ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ : قَالَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ : مَا أَحْسَنَ حَدِيثَكَ !

فَقَالَ : إِنَّمَا حَسَّنَهُ حُسْنُ إِصْغَائِكَ !

١٩٠ ـ وَتَحَدَّثَ جَمَاعَةٌ عِنْدَ الأَوْزَاعِيِّ وَمَعَهُمْ أَعْرَابِيٌّ لا يَتَكَلَّمُ ، فَقَالُوا لَهُ : أَلا تُحَدِّثُنَا ! فَقَالَ : إِنَّ ٱلْحَظَّ لِلْمَرْءِ فِي أُذُنِهِ وَإِنَّ ٱلْحَظَّ فِي لِسانِهِ لِغَيْرِهِ ؛ فَقَالُوا : لَقَدْ أَحْسَنْتَ .

١٩١ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلصَّمْتُ مَنَامُ ٱلْعَقْلِ ، وَٱلنُّطْقُ يَقَظَتُهُ ، وَلا مَنَامَ إِلَّا بِيَقَظَةٍ ، وَلا يَقْظَةَ إِلَّا بِمَنَامٍ .

## ٱلتَّقْبِيلُ :

١٩٢ ـ وَمِمَّا يَصِحُّ إِيرَادُهُ فِي هَذَا ٱلْمَوْضِعِ عَبْقَرِيَّاتُهُمْ فِي ٱلتَّقْبِيلِ ، قَالَ ٱبْنُ

---

(١) ٱلْقُمْرُ ، جَمْعُ قَمْرَاءَ ، وَهِيَ : ٱلْمُنِيرَةُ بِنُورِ ٱلْقَمَرِ .
(٢) ٱلْعُفْرُ ، جَمْعُ أَعْفَرَ ، وَهُوَ : ٱلرَّمْلُ الأَحْمَرُ .
(٣) [ٱلْفَارِهُ مِنَ النَّاسِ : المَلِيحُ الحَسَنُ ، وَمِنَ الدَّوَابِّ : ٱلْجَيِّدُ السَّيْرِ] .

ٱلرُّومِيِّ ، وَهُوَ عِنْدِي مِنْ أَبْدَعِ مَا قَالُوا في هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ [من الطويل] :

أُعَانِقُهَا وٱلنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهَا وَهَلْ بَعْدَ ٱلْعِنَاقِ تَدَانِ
وَأَلْثِمُ فَاهَا كَيْ تَمُوتَ حَرارَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَىٰ مِنَ ٱلْهَيَمَانِ(١)
وَلَمْ يَكُ مِقْدَارُ ٱلَّذِي بِي مِنَ ٱلْجَوَىٰ لِيَشْفِيَهُ مَا تَرْشُفُ ٱلشَّفَتَانِ
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَىٰ أَنْ يُرَىٰ ٱلرُّوحَانِ يَمْتَزِجَانِ

١٩٣ ـ وَقَالَ عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبِيعَةَ ، وَقِيلَ : جَمِيلُ بُثَيْنَةَ [من الكامل] :

مَا زِلْتُ أَبْغِي ٱلْحَيَّ أَتْبَعُ ظِلَّهُمْ حَتَّىٰ دُفِعْتُ إِلَىٰ رَبِيبَةِ هَوْدَجِ
قَالَتْ : وَعَيْشِ أَخِي وَنِعْمَةِ وَالِدِي لأُنَبِّهَنَّ ٱلْحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجِ(٢)
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِينِهَا فَتَبَسَّمَتْ فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَحْرَجِ(٣)
فَتَنَاوَلَتْ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّهُ بِمُخَضَّبِ الأَطْرَافِ غَيْرَ مُشَنَّجِ(٤)
فَلَثِمْتُ فَاهَا آخِذاً بِقُرونِهَا شُرْبَ ٱلنَّزِيفِ بِبَرْدِ ماءِ ٱلْحَشْرَجِ(٥)

١٩٤ ـ وَقَالَتْ أُمُّ ٱلْبَنِينِ ـ أُخْتُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ وَزَوْجُ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ـ لِعَزَّةَ صَاحِبَةِ كُثَيِّرٍ : أَخْبِرِينِي عَنْ قَوْلِ كُثَيِّرٍ [من الطويل] :

---

(١) ٱلْهَيَمَانِ : شِدَّةُ ٱلْعَطَشِ ؛ وَلثِم يَلْثَمُ ، كَفَرِحَ يَفْرَحُ ، وَلَثَمَ يَلْثِمُ كَضَرَبَ يَضْرِبُ : قَبَّلَ .

(٢) وَعَيْشِ أَخِي . . . تُرْوَىٰ : قَالَتْ : وَعَيْشِ أَبي وَحُرْمَةِ إِخْوَتِي ؛ وَتُرْوَىٰ ؛ قَالَتْ : وَعَيْشِ أَبِي وَأَكْبَرِ إِخْوَتِي .

(٣) لَمْ تَحْرَجِ : لَمْ تَضِقْ وَلَمْ تَكُنْ جَادَّةً هِيَ فِي حَلْفِهَا فَلا تَأْثَمُ إِذَا لَمْ تَبَرَّ بِهَا ؛ وَتَجُوزُ رِوَايَتُهُ : لم تَحْرُجِ ، أَيْ : لَمْ تُوقِعْهَا فِي ٱلْحَرَجِ وَالإِثْمِ .

(٤) غَيْرَ مُشَنَّجٍ : غَيْرَ مُتَقَبِّضٍ ، وَٱلتَّشَنُّجُ : تَقَبُّضُ الأَصَابِعِ ، وَكَذَا ٱلْجِلْدُ وَغَيْرُهُ .

(٥) نَصَبَ « شُرْبَ » عَلَىٰ ٱلْمَصْدَرِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ ، لأَنَّ فِي ٱللَّثْمِ مَعْنَىٰ ٱمْتِصَاصِ ٱلرِّيقِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : شَرِبْتُ رِيقَهَا شُرْبَ ٱلنَّزِيفِ مِنْ مَاءِ ٱلحَشْرَجِ ٱلْبَارِدِ ؛ وَٱلنَّزِيفُ كَٱلْمَنْزُوفِ ؛ مَنْ عَطِشَ حَتَّىٰ يَبِسَتْ عُرُوقُهُ وَجَفَّ لِسَانُهُ ، أَوْ هُوَ ٱلْمَحْمُومُ ٱلَّذِي مُنِعَ ٱلماءَ ؛ وَٱلْحَشْرَجُ : ٱلنُّقْرَةُ فِي ٱلْجَبَلِ يَجْتَمِعُ فِيهَا ٱلْمَاءُ فَيَصْفُو ، أَوْ هُوَ كُوزٌ صَغِيرٌ لَطِيفٌ ؛ وَالْقُرُونُ : ٱلضَّفَائِرُ .

قَضَىٰ كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّىٰ غَرِيمَهُ ... وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

أَخْبرِينِي مَا ذَلِكَ ٱلدَّيْنُ ؟ قَالَتْ : وَعَدْتُهُ قُبْلَةً فَحَرِجْتُ مِنْهَا[1] ؛ قَالَتْ أُمُّ ٱلْبَنِينِ : أَنْجِزِيهَا وَعَلَيَّ إِثْمُهَا . . .

١٩٥ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من البسيط] :

قَبَّلْتُهَا وَدُمُوعِي مَزْجُ أَعْيُنِهَا ... وَقَبَّلَتْنِي عَلَىٰ خَوْفٍ فَماً لِفَمِ

فَذُقْتُ مَاءَ حَيَاةٍ مِنْ مُقَبَّلِهَا ... لَوْ صَابَ تُرْباً لأَحْيَا سَالِفَ الأُمَمِ

يَقُولُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : إِنَّ رِيقَهَا عَذْبٌ طَيِّبٌ ، فَهُوَ مَاءُ ٱلْحَيَاةِ ، إِذَا ذَاقَهُ ٱلْعَاشِقُ حَيِيَ بِهِ ، حَتَّىٰ لَوْ وَقَعَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ لأَحْيَا ٱلْمَوْتَىٰ مِنَ الأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ ؛ وَأَوَّلُ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ لِلأَعْشَىٰ إِذْ يَقُولُ [من السريع] :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتاً إِلَىٰ نَحْرِهَا ... عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَىٰ قَابِرِ

١٩٦ ـ وَقَالَ ٱلْقَاضِي عَبْدُ ٱلوَهَّابِ [ بْنُ عَلِيٍّ ] ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَة ٤٢٢هـ بِمِصْرَ ، ٱنْظُرِ « ٱلذَّخِيرَةَ » لِابْنِ بَسَّامٍ [من الطويل] :

وَنَائِمَةٍ قَبَّلْتُهَا فَتَنَبَّهَتْ ... وَقَالَتْ : تَعَالَوْا فَٱطْلُبُوا ٱللِّصَّ بِٱلْحَدِّ

فَقُلْتُ لَهَا : إِنِّي ـ فَدَيْتُكِ ـ غَاصِبٌ ... ومَا حَكَمُوا فِي غَاصِبٍ بِسِوَى ٱلرَّدِّ

خُذِيهَا وَكُفِّي عَنْ أَثِيمٍ ظُلامَةً ... وَإِنْ أَنْتِ لَمْ تَرْضَيْ فَأَلْفاً عَلَىٰ ٱلْعَدِّ

فَقَالَتْ : قِصَاصٌ يَشْهَدُ ٱلعَقْلُ أَنَّهُ ... عَلىٰ كَبِدِ ٱلْجَانِي أَلَذُّ مِنَ ٱلشَّهْدِ

فَبَاتَتْ يَمِينِي وَهِيَ هَمْيَانُ خَصْرُهَا ... وَبَاتَتْ يَسَارِي وَهِيَ وَاسِطَةُ ٱلْعِقْدِ

فَقَالَتْ : أَلَمْ تُخْبرْ بِأَنَّكَ زَاهِدٌ ... فَقُلْتُ : بَلَىٰ مَا زِلْتُ أَزْهَدُ فِي ٱلزُّهْدِ

١٩٧ ـ وَقِيلَ لِابْنَةِ ٱلْخُسِّ : مَا أَلَذُّ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ : قُبْلَةُ فَتَاةٍ لِفَتًى ،

---

(١) تَأَثَّمَتْ وَضَاقَتْ .

وَعَيْشِكَ مَا ذُقْتُهَا .

١٩٨ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ [هُوَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ ، من الطويل] :

وَمَا نِلْتُ مِنْها مَحْرَماً غَيْرَ أَنَّنِي أُقَبِّلُ بَسَّاماً مِنَ ٱلثَّغْرِ أَفْلَجَا
وَأَلْثِمُ فَاهَا تَارَةً بَعْدَ تَارَةٍ وَأَتْرُكُ حَاجَاتِ ٱلنُّفُوسِ تَحَرُّجَا

١٩٩ ـ وَقَالَ بَعْضُ خُلَفَاءِ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ لِبَخْتِيَشُوعَ : مَا أَخَفُّ ٱلنَّقْلِ[1] عَلَىٰ ٱلنَّبِيذِ ؟ فَقَالَ لَهُ : نَقْلُ أَبِي نُواسٍ ؛ فَقَالَ : مَا هُوَ ؟ فَأَنْشَدَهُ [من المنسرح] :

مَالِي فِي ٱلنَّاسِ كُلِّهِمْ مَثَلُ مَائِيَ خَمْرٌ وَنَقْلِيَ ٱلْقُبَلُ

٢٠٠ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلظُّرَفَاءِ [من البسيط] :

غَضِبْتِ مِنْ قُبْلَةٍ بالْكُرْهِ جُدْتِ بِهَا فَهَاكِ قَدْ جِئْتِ فَٱقْتَصِّيهِ أَضْعَافَا
لَمْ يَأْمُرِ ٱللهُ إِلَّا بِٱلْقِصَاصِ فَلا تَسْتَجْورِي مَا رَآهُ ٱللهُ إِنْصَافَا . .[2]

٢٠١ ـ وَقَالُوا ، وَهُوَ مِنْ طُرَفِ ٱلشُّعَرَاءِ [من الطويل] :

سَلِ ٱلْمُفْتِيَ ٱلْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَنَظْرَةِ مُشْتَاقِ ٱلْفُؤَادِ جُنَاحُ
فَقَالَ : مَعَاذَ اللهِ أَنْ يُذْهِبَ ٱلتُّقَىٰ تَلاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ

٢٠٢ ـ وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من الوافر] :

تَلاصَقْنَا وَلَيْسَ بِنَا فُسُوقُ وَلَمْ يُرِدِ الحَرَامَ بِنَا ٱللُّصُوقُ
وَلَكِنَّ ٱلتَّبَاعُدَ طَالَ حَتَّىٰ تَوَقَّدَ فِي ٱلضُّلُوعِ لَهُ حَرِيقُ
فَلَمَّا أَنْ أُتِيحَ لَنَا ٱلتَّلاقِي تَعَانَقْنَا كَمَا ٱعْتَنَقَ ٱلصَّدِيقُ

---

(١) النَّقْلُ بِفَتْحِ ٱلنُّونِ : مَا يُتَنَقَّلُ بِهِ عَلَىٰ ٱلشَّرَابِ ، مِنْ فُسْتُقٍ وَتُفَّاحٍ وَنَحْوِهِمَا .
(٢) تَسْتَجْورِي مِنَ ٱلْجَوْرِ ، ٱلظُّلْم .

وَهَلْ حَرَجاً تَراهُ أَوْ حَراجاً مَشُوقٌ ضَمَّهُ كَلِفٌ مَشُوقُ

* * *

٢٠٣ ـ وَكَانَ لِهَارُونَ ٱلرَّشِيدِ جَارِيَةٌ غُلَامِيَّةٌ ـ يَعْنِي وَصِيفَةٌ عَلَىٰ قَدِّ ٱلْغُلامِ ـ وَكَانَ ٱلْمَأْمُونُ يَمِيلُ إِلَيْهَا وَهُوَ إِذْ ذَاكَ أَمْرَدُ ، فَوَقَفَتْ يَوْماً تَصُبُّ عَلَىٰ يَدِ ٱلرَّشِيدِ مِنْ إِبْرِيقٍ مَعَهَا ، وَٱلْمَأْمُونُ جَالِسٌ خَلْفَ ٱلرَّشِيدِ ، فَأَشَارَ ٱلمَأْمُونُ إِلَيْهَا كَأَنَّهُ يُقَبِّلُهَا ، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ بِعَيْنَيْهَا ، وَأَبْطَأَتْ فِي ٱلصَّبِّ عَلَىٰ مِقْدَارِ نَظَرِهَا إِلَىٰ ٱلْمَأْمُونِ وَإِشَارَتِهَا إِلَيْه ، فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ : مَا هَذَا ؟ ضَعِي ٱلإِبْرِيقَ مِنْ يَدِكِ ؛ فَفَعَلَتْ ، فَقَالَ : وَٱللهِ لَئِنْ لَمْ تَصْدُقِينِي لأَقْتُلَنَّكِ ؛ فَقَالَتْ : يَا سَيِّدِي ! أَشَارَ إِلَيَّ عَبْدُ ٱللهِ ـ ٱلْمَأْمُونُ ـ كَأَنَّهُ يُقَبِّلُنِي ، فَأَنْكَرْتُ ذَلِكَ ؛ فَٱلْتَفَتَ إِلَىٰ ٱلمَأْمُونِ وَنَظَرَ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ مَيْتٌ ، لِمَا دَخَلَهُ مِنَ ٱلْجَزَعِ وَٱلْخَجَلِ ، فَرَحِمَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْه ، وَقَالَ : يَا عَبْدَ ٱللهِ ! أَتُحِبُّهَا ؟ قال : نَعَمْ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ قَالَ : هِيَ لَكَ ؛ قُمْ فَٱدْخُلْ فِي تِلْكَ ٱلْقُبَّةِ ؛ فَفَعَلَ[١] ، ثُمَّ قَالَ : هَلْ قُلْتَ فِي هَذَا ٱلأَمْرِ شِعْراً ؟ قَالَ : نَعَمْ يَا سَيِّدِي ؛ ثُمَّ أَنْشَدَ [من المجتثّ] :

ظَبْيٌ كَتَبْتُ بِطَرْفِي مِنَ ٱلضَّمِيرِ إِلَيْهِ
قَبَّلْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ فَٱعْتَلَّ مِنْ شَفَتَيْهِ
وَرَدَّ أَخْبَثَ رَدٍ بِٱلْكَسْرِ مِنْ حَاجِبَيْهِ
فَمَا بَرِحْتُ مَكَانِي حَتَّىٰ قَدِرْتُ عَلَيْهِ

٢٠٤ ـ وَلأَحَدِ شُعَرَاءِ عَصْرِنَا[٢] فِي ٱلْقُبْلَةِ [من الرمل] :

---

(١) يُلاحَظُ أَنَّ هَذِهِ ٱلْجَارِيَةَ مُلْكُ يَمِينٍ ، فَلَمَّا وَهَبَهَا ٱلرَّشِيدُ إِلَىٰ ٱبْنِهِ ٱلمَأْمُونِ صَارَتْ حِلًّا لَهُ كَأَنَّهَا زَوْجَتُهُ .

(٢) هُوَ عَبَّاس مَحْمُود ٱلْعَقَّاد .

هِيَ كَأْسٌ مِنْ كُؤُوسِ ٱلْخَالِدِينْ — لَمْ يَشُبْهَا المَزْجُ مِنْ مَاءٍ وَطِينْ
كُلَّمَا أَفْرَغْتَهَا مُنْتَشِياً — مُلِئَتْ مِنْ كَوْثَرِ ٱلْخُلْدِ ٱلْمَعِينْ
وَإِذَا أَمْتَعَكَ ٱلرِّيُّ بِهَا — بَدَأَ ٱلشَّوْقُ إِلَيْهَا وَٱلْحَنِينْ
قَدْ شَرِبْنَاهَا مَعاً فِي لَيْلِنَا — فَرَوِيْنَا وَٱفْتَرَقْنَا ظَامِئِينْ

وَفِي هَٰذِهِ الأَبْيَاتِ شَمَّةٌ مِنْ أَبْيَاتٍ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ ٱلَّتِي أَوْرَدْنَاهَا آنِفاً ، وَهُوَ التَّوْلِيدُ ، وَإِنَّمَا ٱلْكَلامُ مِنَ ٱلْكَلَامِ .

٢٠٥ ـ وَلِلشَّاعِرِ ٱلفِرَنْسِي في ٱلْقُبْلَةِ ، تَرْجَمَةُ مُصْطَفَىٰ ٱلْمَنْفَلُوطِيِّ :

ٱلْقُبْلَةُ هِيَ ٱلْمِيثَاقُ ٱلَّذِي يُعْطَىٰ عَنْ قُرْبٍ ، وَٱلْوَعْدُ ٱلصَّادِقُ ٱلَّذِي لا رِيبَةَ فِيهِ ، وَٱلاعْتِرَافُ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلْوَاقِعَةِ ، وَالنُّقْطَةُ ٱلمَرْمُوقَةُ تَحْتَ بَاءِ ٱلْحبِّ ، وَٱلسِّرُّ ٱلْعَمِيقُ ٱلَّذِي يَصِلُ إِلَىٰ ٱلْقَلْبِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْفَمِ ، وَٱللَّحْظَةُ ٱلأَبَدِيَّةُ ٱلَّتِي يَقْصُرُ زَمَنُهَا وَتَدُومُ حَلاوَتُهَا ، وَٱتِّفَاقُ ٱلْخَاطِرَيْنِ عَلَىٰ مَعْنًى وَاحِدٍ ، وَٱلطَّرِيقُ ٱلمُخْتَصَرُ لِاسْتِنْشَاقِ رَائِحَةِ ٱلْقَلْبِ ، وَتَذَوُّقُ طَعْمِ ٱلنَّفْسِ عَلَىٰ ٱلشِّفَاهِ ، لَهَا دَوِيُّ ٱلنَّحْلِ في صَوْتِهَا وَمَذَاقُ ٱلعَسَلِ في حَلاوَتِهَا وَعَبِيرُ ٱلأَزْهَارِ في رَائِحَتِهَا .

٢٠٦ ـ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِٱلتَّقْبِيلِ **ٱلْعِنَاقُ** . . .

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلصَّابِىءُ [من الطويل] :

أَقُولُ ـ وَقَدْ جَرَّدْتُهَا مِنْ ثِيَابِهَا — وَعَانَقْتُهَا كَٱلْبَدْرِ في لَيْلَةِ التِّمِّ
لَئِنْ آلَمَتْ صَدْرِي بِشِدَّةِ ضَمِّهَا — لَقَدْ جَبَرتْ قَلْبِي وَإِنْ أَوْهَنَتْ عَظْمِي

٢٠٧ ـ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ ٱلجَهْمِ [من الطويل] :

سَقَىٰ ٱللهُ لَيْلًا ضَمَّنَا بَعْدَ فُرْقَةٍ — وَأَدْنَىٰ فُؤَاداً مِنْ فُؤَادٍ مُعَذَّبِ
فَبِتْنَا جَمِيعاً لَوْ تُرَاقُ زُجَاجَةٌ — مِنَ ٱلْخَمْرِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ

٢٠٨ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من السريع] :

مَـا أَقْصَـرَ ٱللَّيْـلَ عَلَـىٰ ٱلـرَّاقِـدِ     وَأَهْـوَنَ ٱلسُّقْـمَ عَلَـىٰ ٱلْعَـائِـدِ
يَفْـدِيـكَ مَـا أَبْقَيْـتَ مِـنْ مُهْجَتِـي     لَسْـتُ لِمَـا أَوْلَيْـتَ بِـٱلْجَـاحِـدِ
كَـأَنَّنِـي عَـانَقْـتُ رَيْحَـانَـةً     تَنَفَّسَـتْ فِـي لَيْلِهَـا ٱلْبَـارِدِ
فَلَـوْ تَـرَانَـا فِـي قَمِيـصِ ٱلـدُّجَـىٰ     حَسِبْتَنَـا مِـنْ جَسَـدٍ وَاحِـدِ

٢٠٩ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من مجزوء الكامل] :

يَـا لَيْلَـةً قُـرِنَـتْ لَنَـا     فِيهَـا ٱلْمَـآرِبُ بِـٱلنَّجَـاحْ
بِتْنَـا بِـرَغْـمِ وُشَـاتِنَـا     مُتَعَـانِقَيْـنِ إِلَـىٰ ٱلصَّبَـاحْ
مُتَمَـازِجَيْـنِ كَـأَنَّنَـا     رُوحَـانِ مِـنْ مَـاءٍ وَرَاحْ
ظَـنَّ ٱلْـوُشَـاةُ لِفَـرْطِ ضَمِّـ     ـي أَنَّنِـي بَعْـضُ ٱلْـوِشَـاحْ

٢١٠ ـ وَقَالَ الخُبْزَأَرُزِّيُّ [من الكامل] :

طَـوَّقْتُـهُ طَـوْقَ ٱلْعِنَـاقِ بِسَـاعِـدِي     وَجَعَلْـتُ كَفِّـي لِلِّثَـامِ وِشَـاحَـا
هَـذَا هُـوَ ٱلْفَـوْزُ ٱلْعَظِيـمُ فَخَلِّنَـا     مُتَعَـانِقَيْـنِ فَمَـا نُـرِيـدُ بَـرَاحَـا

٢١١ ـ وَقَالَ بَكْرُ بْنُ خَارِجَةَ [من البسيط] :

رَأَيْتُ شَخْصَكَ فِي نَوْمِي يُعَانِقُنِي     كَمَـا تُعَـانِـقُ لامُ ٱلْكَـاتِـبِ ٱلأَلِفَـا

قَالَ أَبُو هِلالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ : هَذَا مِنَ ٱلْمَقْلُوبِ ، لأَنَّ الأَلِفَ تُعَانِقُ ٱللَّامَ ، قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يُحْتَجَّ لَهُ بِأَنْ يُقَالَ: الأَلِفُ لا تُعَانِقُ ٱللَّامَ إِلَّا وَٱللَّامُ مُعَانِقَةٌ لَهَا.

❊ ❊ ❊

## ٱلضَّحِكُ :

٢١٢ ـ وَمِمَّا يَمُتُّ إِلَىٰ الأَفْوَاهِ وَٱلثُّغُورِ بِسَبَبٍ وَاصِلٍ وَصْفُهُمُ ٱلضَّحِكَ ،

وَأَوَّلُ مَرَاتِبِهِ ٱلتَّبَسُّمُ ، ثُمَّ ٱلإِهْلَاسُ ، وَهُوَ إِخْفَاؤُهُ ، قَالَ [من الرجز] :

تَضْحَــكُ مِنِّــي ضَحِكــاً إِهْــلاســاً

أَرَادَ : ذَا إِهْلاسٍ ، وَإِنْ شِئْتَ جَعَلْتَهُ بَدَلًا مِنْ ضِحْكاً .

ثُمَّ الافْتِرارُ ، وَهُوَ ٱلضَّحِكُ ٱلْحَسَنُ ، يُقَالُ : ٱفْتَرَّ ٱلْمَرْءُ وَٱفْتَرَّتِ ٱلآنِسَةُ : إِذَا ضَحِكَا ضِحْكاً حَسَناً ، وَٱفْتَرَّ فُلانٌ ضَاحِكاً : إِذَا أَبْدَى أَسْنَانَهُ ، وَفِي صِفَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ : وَيَفْتَرُّ عَنْ مِثْلِ حَبِّ ٱلغَمامِ ، أَيْ : يَبْتَسِمُ في غَيْرِ قَهْقَهةٍ ؛ وَحَبُّ ٱلْغَمامِ : ٱلْبَرَدُ ، شُبِّهَ بَيَاضُ أَسْنَانِهِ بِهِ ؛ ثُمَّ ٱلْقَهْقَهَةُ وَٱلْقَرْقَرَةُ وَٱلْكَرْكَرَةُ ، ثُمَّ ٱلاسْتِغْرَابُ ، يُقَالُ : ٱسْتَغْرَبَ في ٱلضَّحِكِ وَٱسْتُغْرِبَ : أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَأَغْرَبَ في ضَحِكِهِ : ٱشْتَدَّ ضَحِكُهُ وَلَجَّ فِيهِ ، كَأَنَّهُ مِنَ ٱلْغَرْبِ ، وَهُوَ ٱلْبُعْدُ .

وَقَالَ ٱلْفُقَهَاءُ : إِذَا ٱسْتَغْرَبَ ٱلرَّجُلُ ضَحِكاً في ٱلصَّلاةِ أَعَادَ ٱلصَّلاةَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ إِعادَةَ ٱلْوُضُوءِ . . . ؛ ثُمَّ ٱلطَّخْطَخَةُ ، ثُمَّ ٱلإِهْزَاقُ وَالزَّهْزَقَةُ ، وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلضَّحِكُ بِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ . . .

وَٱلْمحْمُودُ مِنَ ٱلضَّحِكِ هُوَ ٱلتَّبَسُّمُ ٱلَّذِي يَنْكَشِفُ فِيهِ ٱلسِّنُّ وَلا يُسْمَعُ لَهُ صَوْتٌ .

وَكَانَ ضَحِكُ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ تَبَسُّماً ، وكَانَ ضَحِكُ أَصْحابِهِ عِنْدَهُ ٱلتَّبَسُّمُ .

٢١٣ ـ وَقَدْ نَهَوْا عَنْ كَثْرَةِ ٱلضَّحِكِ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلنَّظَّامِ ، أَحَدُ مَشْيَخَةِ ٱلْمُعْتَزِلَةِ : ثَلاثَةٌ تُخَرِّبُ ٱلْعَقْلَ : طُولُ ٱلنَّظَرِ في ٱلْمِرْآةِ ، وَكَثْرَةُ الضَّحِكِ ، وَالنَّظَرُ إِلىٰ ٱلنُّجُومِ .

٢١٤ ـ وَقَالَ ٱبْنُ سُكَّرَةَ ٱلْهَاشِمِيُّ [من المنسرح] :

يَـا ضَـاحِكـاً يَسْتَهِـلُّ مَضْحَكُـهُ     عَـنْ بَـرَدٍ وَاضِـحٍ وَعَـنْ شَنَـبِ
أَعْطَيْتَنِـي قُبْلَـةً رَشَفْـتُ بِهَـا الشَّـ     ـهْـدَ مَشُـوبـاً بِعَبْـرَةِ ٱلْعِنَـبِ
كَـأَنَّنِـي إِذْ لَثَمْـتُ فَـاكَ بِهَـا     لَثَمْـتُ تُفَّـاحَـةً مِـنَ ٱلـذَّهَـبِ

وَبَعْدُ ؛ فَٱلْقَوْلُ عَلَىٰ ٱلضَّحِكِ وَأَلْوَانِهِ وَفَلْسَفَتِهِ يَطُولُ ، وَلَهُ مَوْضِعٌ هُوَ بِهِ أَلْيَقُ .

**تَقْلِيمُ ٱلأَظْفَارِ وَوَصْفُ ٱلأَنَامِلِ :**

٢١٥ ـ أَمَّا تَقْلِيمُ ٱلأَظْفارِ ، أَيْ : قَصُّهَا ، فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ ، لِشَنَاعَةِ صُورَتِهَا إِذَا طَالَتْ ، وَلِمَا يَجْتَمِعُ فِيهَا مِنَ ٱلْوَسَخِ ، وَرُبَّمَا أَجْنَبَ ٱلرَّجُلُ ، أَوْ ٱلْمَرْأَةُ فلا يَصِلُهُ ٱلماءُ فَلا يَزَالُ جُنُباً .

٢١٦ ـ وَكَانَ ٱلْمُصْطَفىٰ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ يَأْمُرُ ٱلْعَرَبَ بِٱلتَّقْلِيمِ ، وَيُنْكِرُ عَلَيْهِمْ مَا يَرَىٰ تَحْتَ أَظَافِرِهِمْ مِنَ ٱلوَسَخِ ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « قُصُّوا أَظَافِيرَكُمْ ، وَٱدْفِنُوا قُلَامَاتِكُمْ ، وَنَقُّوا بَرَاجِمَكُمْ ، وَنَظِّفُوا لِثَاتِكُمْ مِنَ ٱلطَّعَامِ ، وَٱسْتَاكُوا ، وَلا تَدْخُلُوا عَلَيَّ قُلْحاً بُخْراً »[1] .

٢١٧ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ أَيْضاً أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ صَلَّىٰ فَأَوْهَمَ فِي صَلاتِهِ ـ أَيْ : أَسْقَطَ مِنْ صَلاتِهِ شَيْئاً وَهْماً وَسَهْواً ـ فَقِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! كَأَنَّكَ قَدْ أَوْهَمْتَ ! قَالَ : « وَكَيْفَ لا أُوهِمُ وَرُفْغُ أَحَدِكُمْ بَيْنَ ظُفْرِهِ وَأُنْمُلَتِهِ ! » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٨٨٥٨] .

---

(١) وَٱدْفِنُوا قُلاماتِكُمْ ، أَيْ : غَيِّبُوا مَا قَطَعْتُمُوهُ مِنَ الأَظْفَارِ فِي الأَرْضِ ؛ وَنَقُّوا بَراجِمَكُمْ ، أَي : بَالِغُوا فِي تَنْظِيفِ ٱلْبَراجِمِ ، وَهِيَ ٱلعِقَدُ ٱلَّتِي في ظُهورِ الأَصابِعِ يَجْتَمِعُ فِيهَا ٱلْوَسَخُ ؛ وَٱلْقَلَحُ : صُفْرَةٌ فِي الأَسْنَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ [ رقم : ١٦١ ] ؛ وَٱلْبَخَرُ : نَتَنُ ٱلفَمِ .

ٱلرُّفْغُ : مَا بَيْنَ الأُنْثَيَيْنِ ، وَكُلُّ مَا ثَنَيْتَ عَلَيْهِ فَخِذَكَ مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْتَمِعَ فِيهِ ٱلوَسَخُ وَٱلْعَرَقُ .

وَٱلْمَعْنَىٰ : إِنَّ أَحَدَكُمْ يَحُكُّ ذَلِكَ ٱلْمَوْضِعَ مِنْ جَسَدِهِ فَيَعْلَقُ دَرَنُهُ وَوَسَخُهُ بِأَصابِعِهِ ، فَيَبْقَىٰ بَيْنَ ٱلظُّفْرِ وَٱلأُنْمُلَةِ ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ مِنْ هَذَا طُولَ ٱلأَظْفَارِ وَتَرْكَ قَصِّهَا حَتَّىٰ تَطُولَ .

٢١٨ ـ فَلْيَعْتَبِرْ بِهَذَا نِسَاؤُنا وَفَتَيَاتُنَا وَرِجَالُنَا وَفتيَاتُنَا ٱلَّذِينَ شَاعَتْ فِيهِمُ ٱلْيَوْمَ بِدْعَةُ تَرْكِ الأَظْفَارِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي وَلا ٱلْمُنَجِّمُ أَيَّ هَدَفٍ يَتَرَامَوْنَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ! هَلْ يُرِيدُ نُساؤُنَا ذَواتُ ٱلأَظَافِرِ ٱلطَّوِيلَةِ أَنْ يُحَقِّقْنَ بِذَلِكَ ظَنَّ ٱلرِّجَالِ بِهِنَّ ، وَهُوَ أَنَّهُنَّ كَالسَّنَانِيرِ مَخْبَراً ، فَأَبَيْنَ إِلَّا أَنْ يَكُنَّ كَالسَّنَانِيرِ مَنْظَراً ! نَعَمْ ، وَإِنَّ تَرْكَ ٱلأَظَافِرِ إِنْ هُوَ إِلَّا ٱعْتِرَافٌ مِنْهُنَّ بِأَنَّ تَشْبِيهَهُنَّ بِالسَّنَانِيرِ قَدْ أَصَابَ ٱلْمَحَزَّ وَطَبَّقَ المِفْصَلَ ، فَٱلسِّنَّوْرُ مَهْمَا أَكْرَمْتَهُ وَحَنَوْتَ عَلَيْهِ وَأَغْدَقْتَ مِنْ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ يأْبَىٰ إِلَّا أَنْ يَخُونَكَ إِذَا مَا وَاتَتْهُ ٱلْفُرْصَةُ ، وَهَكَذَا ٱلنِّسَاءُ ، وَلا سِيَّمَا نِسَاءُ ٱلْيَوْمِ ذَوَاتُ ٱلْمَخَالِبِ السِّنَّوْرِيَّة . . أَيَّتُهَا الآنِسَاتُ وَالسَّيِّدَاتُ ٱللَّائِي يَتْرُكْنَ أَظَافِيرَهُنَّ طَوِيلاتٍ لِتَسْمَحْنَ لِي في أَنْ أُصارِحَكُنَّ بِأَنَّكُنْ بِهَذِهِ ٱلْبِدْعَةِ سَخِيفَاتٌ فَاسِدَاتُ ٱلذَّوْقِ . . . وَقَدْ ظَلَمْتُنَّ بِذَلِكَ أَنْفُسَكُنَّ .

٢١٩ ـ وَمِمَّا ٱسْتَحْسَنُوهُ تَطْرِيفُ ٱلأَنَامِلِ بِٱلْحُمْرَةِ وَٱلسَّوَادِ[1] ، وَقَدْ حَضُّوا عَلَىٰ ذَلِكَ كما حَضُّوا عَلَىٰ ٱلْخِضَابِ بِنَحْوِ ٱلْحِنَّاءِ ، وَقَدْ وَرَدَ في ٱلْحَدِيثِ ٱلْحَضُّ عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ رَأَىٰ ٱمْرَأَةً لا تَخْتَضِبُ وَقَدْ جَاوَزَتِ ٱلسَّبْعِينَ ، فَقَالَ : « لا تَدَعْ إِحْدَاكُنَّ يَدَهَا كَأَنَّهَا يَدُ رَجُلٍ » فَمَا زَالَتْ تَخْتَضِبُ

(١) يُقَالُ : طَرَّفَتِ ٱلْفَتَاةُ بَنَانَهَا : إِذَا خَضَّبَتْ أَطْرَافَ أَصَابِعِهَا بِمِثْلِ ٱلْحِنَّاءِ كَمَا يَفْعَلُ نِسَاؤُنَا ٱلْيَوْمَ بِالمَانِيكِيرِ [طِلاء الأظافر] .

حَتَّىٰ ماتَتْ . [« الجامع لأحكام القرآن » ، تفسير الآية : ١١٩ من سورة النساء] .

٢٢٠ ـ وَرُوِيَ أَيْضاً أَنَّ ٱمْرَأَةً أَتَتِ ٱلنَّبِيَّ ﷺ تُبايِعُهُ وَلَمْ تكُنْ مُخْتَضِبَةً ، فَلَمْ يُبَايِعْهَا حَتَّىٰ ٱخْتَضَبَتْ [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٨٨٨٢] .

٢٢١ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَأَيْتُ قَيْنَةً خَضَبَتْ يَدَهَا بِٱلْحُمْرَةِ ، وَنَقَشَتْ فِيهِ بِٱلسَّوَادِ هَذَا ٱلْبَيْتَ [ من الخفيف ] :

لَيسَ حُسْنُ ٱلْخِضَابِ زَيَّنَ كَفِّي ... حُسْنُ كَفِّي مُزَيِّنٌ لِلْخِضَابِ

٢٢٢ ـ وَقَدْ وَصَفَ ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْخِضَابَ وَتَطْرِيفَ ٱلأَنَامِلِ وَتَغَزَّلُوا ، وَمِنْ قَدِيمِ ذَلِكَ قَوْلُ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كَأَنَّهُ ... أَسَارِيعُ ظَبْيٍ أَوْ مَسَاوِيكُ إِسْحِلِ

تَعْطُو : تَتَنَاوَلُ ؛ وَرَخْصٍ : لَيِّنٍ ناعِمٍ ؛ وَٱلشَّثْنُ : ٱلْغَلِيظُ ٱلْجَافِي ؛ يَقُولُ : إِنَّ أَنَامِلَهَا لَيسَتْ كَذَلِكَ ؛ وَٱلأَسَارِيعُ جَمْعُ أُسْرُوعٍ : دُودٌ بِيضُ ٱلأَجْسَادِ ، حُمْرُ ٱلرُّؤُوسِ ، شَدِيدُ ٱلْغَضَاضَةِ وَٱلنُّعُومَةِ ، فَشَبَّهَهَا بِهَا لِبَيَاضِهَا وَنُعومَتِهَا ، وَقَدْ يَكُونُ أَشارَ إِلَىٰ أَنَّ هَذِهِ ٱلأَنَامِلَ قَدْ طُرِّفَتْ بِٱلْحُمْرَةِ كَأَنَّهَا رُؤُوسُ تِلْكَ ٱلأَسَارِيعِ ؛ وَظَبْيٌ : مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ ، وَهَذِهِ ٱلأَسَارِيعُ هِيَ بَنَاتُ ٱلنَّقَا ٱلَّتِي قَالَ فِيهَا ذُو ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ بَنَانَ ٱلعَذَارَىٰ [من الطويل] :

خَرَاعِيبُ أَمْلُودٌ كَأَنَّ بَنَانَهَا ... بَنَاتُ ٱلنَّقَا تَخْفَىٰ مِراراً وَتَظْهَرُ[1]

---

(١) ٱلْخُرْعُوبُ : كُلُّ لَيِّنٍ يَتَثَنَّىٰ مِنْ قَضِيبٍ وَنَحْوِهِ ، وَٱلْخُرْعُوبَةُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ : ٱلشَّابَّةُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلْجَسِيمَةُ فِي قَوَامٍ كأَنَّهَا خُرْعُوبَةٌ مِنْ خَرَاعِيبِ ٱلأَغْصَانِ مِنْ نَبَاتِ سَنَتِهَا ، أَيْ : ٱلْحَدِيثُ ٱلنَّبَاتِ ٱلَّذِي لَمْ يَشْتَدَّ ؛ وَالأُمْلُودُ : ٱلنَّاعِمُ ؛ وَقَبْلَ هَذَا ٱلْبَيْتِ [من الطويل] :

تُذَكِّرُنِي مَيَامِنُ ٱلظَّبْيِ عَيْنَهُ ... مِرَاراً وَفَاهَا الأُقْحُوانُ ٱلْمُنَوِّرُ

وَفِي ٱلْمِرْطِ مِنْ مَيٍّ تُوَالِي صَرِيمَةٍ ... وَفِي ٱلطَّوْقِ ظَبْيٌ وَاضِحُ ٱلْجِيدِ أَحْوَرُ =

وَٱلإِسْحِلُ : شَجَرٌ يُشْبِهُ ٱلأَثْلَ تُتَّخَذُ مِنْهُ ٱلْمَسَاوِيكُ ، فَشَبَّهَ ٱلْبَنَانَ بِمَساوِيكِه لِلَطَافَتِهَا وَٱسْتِوَائِهَا ، وَفِي هَذِهِ ٱلْمَسَاوِيكِ يَقُولُ ذُو ٱلرُّمَّةِ وَذَكَرَ ٱلْبَنَانَ [من الطويل] :

جَرَىٰ ٱلإِسْحِلُ ٱلأَحْوَىٰ بِرَخْصٍ مُخَضَّبٍ   عَلَىٰ ٱلغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا فَهْيَ نُصَّعُ

وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ : تَشْبِيهُ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ الأَنَامِلَ ٱلْمَخْضُوبَةَ بِالأَسَارِيعِ مِنْ أَبْدَعِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ، إِذْ هِيَ كَأَحْسَنِ ٱلبَنَانِ لِيناً وَبَيَاضاً وَطُولاً وَٱسْتِوَاءً ، غَيْرَ أَنَّ نَفْسَ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلْمُوَلَّدِ إِذَا سَمِعَتْ قَوْلَ أَبِي نُوَاسٍ فِي ذِكْرِ ٱلْكَأْسِ [من الطويل] :

تُعَاطِيكَهَا كَفٌّ كَأَنَّ بَنَانَهَا   إِذَا ٱعْتَرَضَتْهَا ٱلْعَيْنُ صَفُّ مَدَارِي[(١)]

أَوْ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

سَقَىٰ ٱللهُ قَصْراً بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي   بِأَعْلاهُ قَصْرِيُّ ٱلدَّلَالِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ   يَوَاقِيتَ حُمْراً فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

أَوْ قَوْلَ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ [من الطويل] :

أَشَارَتْ بِأَطْرَافٍ رِطَابٍ كَأَنَّهَا   أَنَابِيبُ دُرٍّ قُمِّعَتْ بِعَقِيقِ
وَقَالَتْ : كَلأَكَ ٱللهُ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ   مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي مَكَانُ شَقِيقِ

كانَ ذَلِكَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْبَنَانِ بِٱلدُّودِ فِي بَيْتِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ ، وَإِنْ

---

= وَفِي ٱلْعَاجِ مِنْهَا وَٱلدَّمَالِيجِ وَٱلْبُرَىٰ   قَناً مَالِىءٌ لِلْعَيْنِ رَيَّانُ عَبْهَرُ

وَفَاهَا ، أَيْ : وَيُذَكِّرُنِي ٱلأُقْحُوَانُ فَاهَا ؛ وَتَوَالِي ضَرِيمَةٍ ، أَيْ : مَآخِيرُهَا ؛ وَالضَّرِيمُ : ٱلْفُرَادَىٰ مِنَ ٱلرَّمْلِ ؛ وَٱلْقَنَا هُنَا : ٱلأَوْصَالُ ٱلتَّوَامُّ لِمَا عَلَيْهَا مِنَ ٱللَّحْمِ ؛ وَعَبْهَرُ : يَمْلأُ عَيْنَ ٱلنَّاظِرِ إِلَيْهِ لِحُسْنِهِ ، فَلا يَدَعُ فِي ٱلطَّرْفِ فَضْلًا إِلَّا ٱسْتَغْرَقَهُ لأَنَّهُ لا يَرَىٰ عَابًا .

(١) ٱلْمَدَارِي ، جَمْعُ مِدْرَىٰ : شَيْءٌ يُعْمَلُ مِنْ حَدِيدٍ أَوْ خَشَبٍ عَلَىٰ شَكْلِ سِنٍّ مِنْ أَسْنَانِ ٱلْمُشْطِ وَأَطْوَلَ مِنْهُ ، يُسَرَّحُ بِهِ ٱلشَّعْرُ ٱلْمُتَلَبِّدُ ، وَيَسْتَعْمِلُهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُشْطٌ ، أَوْ هُوَ ٱلْمُشْطُ .

كَانَ تَشْبِيهُهُ أَشَدَّ إِصَابَةً .

٢٢٣ ـ وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ [الذُّبْيَانِيُّ ، من الطويل] :

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ عَلَىٰ أَغْصَانِهِ لَمْ يَعْقِدِ

العَنَمُ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلشَّجَرِ لَهُ نُورٌ أَحْمَرُ ، وَقَالَ ٱبْنُ بَرِّيٍّ : ٱلْعَنَمُ : ثَمَرُ ٱلْعَوْسَجِ ، يَكُونُ أَحْمَرَ ، ثُمَّ يَسْوَدُّ إِذَا نَضِجَ وَعَقَدَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : لَمْ يَعْقِدْ ، يُرِيدُ : لَمْ يُدْرِكْ بَعْدُ .

٢٢٤ ـ وَقَالَ ٱلشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ [من البسيط] :

وَأَلْمَسَتْنِي وَقَدْ جَدَّ ٱلْوَدَاعُ بِنَا كَفًّا تُشِيرُ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلْعَنَمِ

٢٢٥ ـ وَمِنْ بَدِيعِ مَا قِيلَ فِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ قَوْلُ عُكَّاشَةَ ٱلْعَمِّيِّ فِي قَيْنَةٍ[1] [من الكامل] :

قُمْ فَٱسْقِنِي مِنْ قَهْوَةٍ أَكْوَابَا تَدَعُ ٱلصَّحِيحَ بِعَقْلِهِ مُرْتَابَا
مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ كَأَنَّ بَنَانَهَا مِنْ فِضَّةٍ قَدْ طُرِّفَتْ عُنَّابَا
وَكَأَنَّ يُمْنَاهَا إِذَا نَطَقَتْ بِهِ تُلْقِي عَلَى يَدِهَا الشِّمَالِ حِسَابَا

٢٢٦ ـ وَلابْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي ٱلتَّطَارِيفِ ٱلسُّودِ [من الطويل] :

وَكَفٍّ كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ بَنَانَهَا إِلَىٰ ٱللَّيْلِ تَجْلُوهُ فَقَمَّعَهَا ٱللَّيْلُ[2]

---

(١) هُوَ عُكَّاشَةُ بْنُ عَبْدِ ٱلصَّمَدِ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ مِنْ بَنِي ٱلعَمِّ ، وَهُوَ شَاعِرٌ مُقِلٌّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْهَاشِمِيَّةِ .

(٢) يُقَالُ : قَمَّعَتِ ٱلْمَرْأَةُ بَنَانَهَا بِٱلْحِنَّاءِ وَنَحْوِهِ : إِذَا خَضَّبَتْ بِهِ أَطْرَافَهَا فَصَارَ لَهَا كَٱلْقَمْعِ ، وَهُوَ مَا ٱلْتَزَقَ بِأَسْفَلِ ٱلتَّمْرِ وَنَحْوِهِ ، وَأَنْشَدُوا [من الخفيف] :

لَطَمَتْ وَرْدَ خَدِّهَا بِبَنَانٍ مِنْ لُجَيْنٍ قُمِّعْنَ بِٱلْعِقْيَانِ

شَبَّهَ حُمْرَةَ ٱلْحِنَّاءِ عَلَىٰ ٱلْبَنَانِ بِحُمْرَةِ ٱلْعِقْيَانِ ، وَهُوَ ٱلذَّهَبُ ؛ وَيُرْوَىٰ بَدَلَ «فَقَمَّعَهَا» : فَقَبَّلَهَا .

٢٢٧ ـ وَلِبَعْضِهِمْ [من الوافر] :

وَحَوْرَاءِ ٱللَّوَاحِظِ بَيْنَ قَلْبِي وَبَيْنَ جُفُونِهَا حَرْبُ ٱلْبَسُوسِ
تَرَىٰ مَاءَ ٱلنَّعِيمِ يَجُولُ فِيهَا كَمِثْلِ ٱلْخَمْرِ فِي صَافِي ٱلْكُؤُوسِ
كَأَنَّ بَنَانَهَا أَقْلامُ عَاجٍ مُرَصَّعَةُ ٱلرُّؤُوسِ بِآبَنُوسِ

٢٢٨ ـ وَلأَحَدِ ٱلأَنْدَلُسِيِّينَ [من الكامل] :

خَضَبَتْ أَنَامِلَهَا ٱلسَّوَادَ وَقَلَّمَا أَبْصَرْتَ أَقْلاماً بِغَيْرِ مِدَادِ

٢٢٩ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من المديد] :

أَثْمَرَتْ أَغْصَانُ رَاحَتِهَا لِجَنَاةِ ٱلْحُسْنِ عُنَّابَا

٢٣٠ ـ وَقَالَ دِعْبِلٌ يَهْجُو [من المنسرح] :

كَأَنَّمَا كَفُّهَا إِذَا ٱخْتَضَبَتْ مِخْلَبُ بَازٍ قَدْ ضُرِّجَتْ بِدَمِ

٢٣١ ـ نَعُودُ إِلَىٰ ٱلتَّطْرِيفِ وَٱلْخِضَابِ ، قَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من السريع] :

يَا قَمَراً أَبْصَرْتُ فِي مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجْواً بَيْنَ أَتْرَابِ
يَبْكِي فَيُذْرِي ٱلدُّرَّ مِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطِمُ ٱلْوَرْدَ بِعُنَّابِ
أَبْرَزَهُ ٱلْمَأْتَمُ وَلَّىٰ كَارِهاً بِرَغْمِ دَايَاتٍ وَحُجَّابِ
لا تَبْكِ مَيْتاً حَلَّ فِي رَمْسِهِ وَٱبْكِ قَتِيلًا لَكَ بِٱلْبَابِ

٢٣٢ ـ وَقَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ [من البسيط] :

وَدَّعْتُهَا لِفِرَاقٍ فَٱشْتَكَتْ كَبِدِي وَشَبَّكَتْ يَدَهَا مِنْ لَوْعَةٍ بِيَدِي
وَحَاذَرَتْ أَعْيُنَ ٱلْوَاشِينَ وَٱنْصَرَفَتْ تَعَضُّ مِنْ غَيْظِهَا ٱلْعُنَّابَ بِٱلْبَرَدِ
فَكَانَ أَوَّلُ عَهْدِ ٱلْعَيْنِ يَوْمَ نَأَتْ بِٱلدَّمْعِ آخِرَ عَهْدِ ٱلْقَلْبِ بِٱلْجَلَدِ

٢٣٣ ـ وَقَالَ ٱلنَّاشِيءُ [من الطويل] :

لَنَا قَيْنَةٌ تَرْنُو بِنَاظِرَتَيْنِ    بِمَا في قُلُوبِ ٱلنَّاسِ عَالِمَتَيْنِ
تَخَالُ تَطَارِيفَ ٱلْخِضَابِ بِكَفِّهَا    فُصُوصَ عَقِيقٍ فَوْقَ قُضْبِ لُجَيْنِ

٢٣٤ ـ وَٱلْبَيْتُ ٱلْمَشْهُورُ لِلْوَأْواءِ ٱلدِّمَشْقِيِّ مِنْ شُعُرَاءِ « اليَتِيمَةِ » [من البسيط] :

وَأَسْبَلَتْ لُؤْلُؤاً مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ    وَرْداً وَعَضَّتْ عَلَىٰ ٱلْعُنَّابِ بِٱلْبَرَدِ

مِنْ أَجْمَعِ بَيْتٍ قِيلَ ، وَقَبْلُهُ :

قَالَتْ ـ وَقَدْ فَتَكَتْ فِينَا لَوَاحِظُهَا :    مَا إِنْ أَرَىٰ لِقَتِيلِ ٱلْحُبِّ مِنْ قَوَدِ
فَأَسْبَلَتْ . . . . . . . . . البيت

وَيُرْوَىٰ : فَأَمْطَرَت . . . . . . . .

إِنْسِيَّةٌ لَوْ بَدَتْ لِلشَّمْسِ مَا طَلَعَتْ    مِنْ بَعْدِ رُؤْيَتِهَا يَوْماً عَلَىٰ أَحَدِ

* * *

## ٱلْكُحْلُ وَوَصْفُهُمُ ٱلْعُيُونَ :

٢٣٥ ـ وَأَمَّا ٱلْكُحْلُ وَٱلْعِنَايَةُ بِٱلْعَيْنِ فَقَدْ رَوَوْا أَنَّ ٱمْرَأَةً دَخَلَتْ عَلَىٰ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا ، فَسَأَلَهَا سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ عَنْهَا ؟ فَقَالَتْ : هِي فُلانَةٌ زَوْجَةُ فُلانٍ ؛ فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَرْأَةُ مَرْهاءَ » .

ٱلْمَرْهَاءُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي لا تَكْتَحِلُ ؛ وَٱلْمَرَهُ : مَرَضٌ فِي ٱلْعَيْنِ لِتَرْكِ ٱلْكُحْلِ .

٢٣٦ ـ وَقَدْ وَرَدَ ٱلْحَضُّ عَلَىٰ ٱلتَّكَحُّلِ بِٱلإِثْمِدِ[1] في غَيْرِ مَا حَدِيثٍ ، وَقَالَ

(١) الإِثْمِدُ : حَجَرٌ يُكْتَحَلُ بِهِ ، وَهُوَ أَسْوَدُ إِلَىٰ ٱلْحُمْرَةِ ، يَعْرِفُهُ عُلَمَاءُ ٱلْكِيمِيَاءِ بِٱسْمِ « أَنتِيمُوان » =

فِيهِ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : «إِنَّهُ خَيْرُ أَكْحالِكُمْ، يَجْلُو ٱلْبَصَرَ، وَيُنْبِتُ ٱلشَّعْرَ».

٢٣٧ ـ وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرٍ لِابْنَتِهِ حِينَ إِهْدَائِهَا عَلَىٰ زَوْجِهَا : عَلَيْكِ بِٱلزِّينَةِ ، وَٱعْلَمِي أَنَّ أَزْيَنَ ٱلزِّيْنَةِ ٱلْكُحْلُ ، وَأَطْيَبَ ٱلطِّيبِ ٱلْمَاءُ .

❊ ❊ ❊

٢٣٨ ـ وَمِنْ أَوْصَافِ ٱلْعُيُونِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ : « ٱلْكَحَلُ » ، وَهُوَ : ٱسْوِدَادُ ٱلْحَدَقَةِ مِنْ غَيْرِ كُحْلٍ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا قَدْ كَحَلَتْ ، وَ [ من البسيط ] :

لَيسَ ٱلتَّكَحُّلُ فـي ٱلْعَيْنَيـنِ كَـٱلْكَحَـلِ [١]

٢٣٩ ـ وَ« ٱلْحَوَرُ » وَهُوَ شِدَّةُ ٱسْوِدَادِ ٱلْعَيْنِ مَعَ شِدَّةِ ٱبْيِضَاضِ بَيَاضِهَا ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ : ٱلْحَوَرُ : أَنْ تَسْوَدَّ ٱلْعَيْنُ كُلُّهَا مِثْلَ أَعْيُنِ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ ، وَلَيْسَ فِي بَنِي آدَمَ حَوَرٌ ، وَإِنَّمَا قِيلَ لِلنِّسَاءِ : حُورُ ٱلْعِينِ لِأَنَّهُنَّ شُبِّهْنَ بِٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ .

٢٤٠ ـ وَ« ٱلدَّعَجُ » وَهُوَ شِدَّةُ سَوَادِ ٱلْعَيْنِ مَعَ سَعَةِ ٱلْمُقْلَةِ .

٢٤١ ـ وَ« ٱلنَّجَلُ » وَهُوَ سَعَةُ ٱلْعَيْنِ مَعَ حُسْنِهَا ، يُقَالُ : عَيْنٌ نَجْلَاءُ .

٢٤٢ ـ وَ« ٱلْوَطَفُ » وَهُوَ طُولُ أَشْفَارِ ٱلْعَيْنِ ، وَجَاءَ فِي صِفَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ : أَنَّهُ كَانَ فِي أَشْفَارِهِ وَطَفٌ ، يَعْنِي : إِنَّهُ كَانَ فِي هُدْبِ عَيْنَيْهِ طُولٌ .

٢٤٣ ـ وَمِنْ أَوْصَافِ ٱلْعَيْنِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ : ٱلْفُتُورُ ، وَهُوَ ٱنْكِسَارُ ٱلنَّظَرِ وَذُبُولُهُ فِي أَصْلِ ٱلْخِلْقَةِ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ وَصْفِهِمُ ٱلْعَيْنَ بِٱلْمَرَضِ وَٱلسَّقَمِ ، قَالَ جَرِيرٌ [من البسيط] :

---

= Antimoine ، مَعْدِنُهُ بِأَصْبَهَانَ ، وَلَيْسَ فِي مَذَاهِبِ ٱلْعَرَبِ مَا يَجْلُو ٱلْعَيْنَ وَيَذْهَبُ بِأَقْذَائِهَا مِثْلُهُ .

(١) لِلْمُتَنَبِّي .

إِنَّ ٱلْعُيُونَ ٱلَّتِي في طَرْفِهَا مَرَضٌ ... قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا[(١)]
يَصْرَعْنَ ذَا ٱللُّبِّ حَتَّىٰ لا حِرَاكَ بِهِ ... وَهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ ٱللهِ أَرْكَانَا

وَقَالَ مَرْوانُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ [من الكامل] :

إِنَّ ٱلْغَوَانِيَ طَالَمَا قَتَّلْنَنَا ... بِعُيُونِهِنَّ وَلا يَدِينَ قَتِيلًا
مِنْ كُلِّ آنِسَةٍ كَأَنَّ حِجَالَهَا ... ضُمِّنَّ أَحْوَرَ فِي ٱلْكِنَاسِ كَحِيلًا
أَرْدَيْنَ عُرْوَةَ وَٱلْمُرَقِّشَ قَبْلَهُ ... كُلٌّ أُصِيبَ وَمَا أَطَاقَ ذُهُولًا
وَلَقَدْ تَرَكْنَ أَبَا ذُؤَيْبٍ هَائِماً ... وَلَقَدْ تَبَلْنَ كُثَيِّراً وَجَمِيلًا
وَتَرَكْنَ لِابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ مَنْطِقاً ... فِيهِنَّ أَصْبَحَ سَائِراً مَحْمُولًا
إِلَّا أَكُنْ مِمَّنْ قَتَلْنَ فَإِنَّنِي ... مِمَّنْ تَرَكْنَ فُؤَادَهُ مَخْبُولا

لا يَدِينَ : وَلا يُعْطِينَ دِيَةَ مَنْ قَتَلْنَهُ ، يُقَالُ : وَدَيْتُ ٱلْقَتِيلَ أَدِيه وَدْياً : أَعْطَيْتُ دِيَتَهُ ؛ وَٱلْحِجَالُ جَمْعُ حَجَلَةٍ ، وَهِيَ : بَيْتٌ كَٱلْقُبَّةِ يُسْتَرُ بِٱلثِّيَابِ ، وَتُجْمَعُ عَلَىٰ حَجَلٍ أَيْضاً ، قَالَ [من الطويل] :

وَبِٱلْحَجَلِ ٱلْمَقْصُورِ خَلْفَ ظُهُورِنَا ... نَوَاشِيءُ كَٱلْغِزْلَانِ نُجْلٌ عُيُونُهَا

وَيُقَالُ : ضَمَّنْتُ ٱلشَّيْءَ ٱلشَّيْءَ : أَوْدَعْتَهُ إِيَّاهُ كَما تُودِعُ ٱلْوِعَاءَ المتاعَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ أُحْرِزَ فِيهِ شَيْءٌ فَقَدْ ضُمِّنَهُ ؛ وَأَحورَ : يَعْنِي ظَبْياً ، وَٱلْحَوَرُ فِي ٱلْعَيْنِ : شِدَّةُ سَوادِ سَوَادِهَا وَشِدَّةُ بَيَاضِ بَيَاضِهَا ، أَوْ تَقُولُ : هُوَ نَقَاءُ ٱلْبَيَاضِ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَّضِحُ ٱلسَّوَادُ ؛ وَٱلْكِنَاسُ : حَيْثُ تَكْنِسُ ٱلْبَقَرَةُ ٱلْوَحْشِيَّةُ وَٱلظَّبْيَةُ ، وَهُوَ أَنْ تَتَّخِذَ فِي ٱلشَّجَرَةِ ٱلْعَادِيَّةِ ( ٱلْقَدِيمَةِ ) كَٱلْبَيْتِ تَأْوِي إِلَيْهِ وَتَبْعَرُ فِيهِ ، فَيُقَالُ : إِنَّ رَائِحَتَهُ أَطْيَبُ رَائِحَةٍ لِطِيبِ مَا تَرْعَىٰ ؛ وَأَرْدَيْنَ : أَهْلَكْنَ ؛

(١) ٱنْظُرْ « وَصْفُهُنَّ بِأَنَّهُنَّ يَغْلِبْنَ ٱلرِّجَالَ » [ ٱنظر رقم : ٨٠٥ وما بعده ] .

وَٱلرَّدَىٰ : ٱلْهَلاكُ ؛ وَعُرْوَةُ هُوَ عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ وَصَاحِبَتُهُ عَفْرَاءُ ؛ وَٱلْمُرَقِّشُ هُوَ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلأَكْبَرُ [ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ ] ، وَصَاحِبَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمِّه ؛ وَٱلْمُرَقِّشُ الأَصْغَرُ [ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَان ] هُوَ ٱبْنُ أَخِي الأَكْبَرِ ، وَصَاحِبَتُهُ فَاطِمَةُ بِنْتُ ٱلمَلِكِ ٱلْمُنْذِرِ ؛ وَٱلذُّهُولُ : ٱلانْصِرَافُ ، يُقَالُ : ذَهَلَ عَنْ كَذَا : إِذَا ٱنْصَرَفَ عَنْهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ؛ وَأَبُو ذُؤَيْبٍ ٱلْهُذَلِيُّ [ خُوَيْلِدُ بنُ خَالِدٍ ] مَاتَ عِشْقاً بِصَاحِبَتِه أُمِّ عَمْرٍو ؛ وَقَوْلُهُ : وَلَقَدْ تَبَلْنَ كُثَيِّراً ، فَأَصْلُ ٱلتَّبَلِ : ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْحِقْدُ وَٱلتِّرَةُ ـ ٱلثَّأْرُ ـ يُطْلَبُ بِهَا ، وَتَبَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ فُؤَادَ ٱلرَّجُلِ كَأَنَّمَا أَصَابَتْهُ بِتَبَلٍ ، وَٱلْمُرَادُ هُنَا : أَنْ يُسْقِمَ ٱلْهَوَىٰ ٱلإِنْسَانَ وَيُفْسِدَهُ ؛ وَكُثَيِّرُ عَزَّةَ ؛ وَجَمِيلُ هُوَ صَاحِبُ بُثَيْنَةَ ؛ وَٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ هُوَ عُمَرُ ٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَصَّافُ رَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ ؛ وَمَخْبُولًا : مُصَاباً بِٱلْخَبَلِ ، وَهُوَ : لَوْنٌ مِنَ ٱلْجُنُونِ .

٢٤٤ ـ وَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من الطويل] :

ضَعِيفَةُ كَرِّ ٱلطَّرْفِ تَحْسِبُ أَنَّهَا قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِٱلإِفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ

٢٤٥ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ، وَيُقَالُ : إِنَّها لِلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللهِ ٱلْفَاطِمِيِّ أَوَّلِ ٱلْخُلَفَاءِ ٱلْفَاطِمِيِّينَ(١) بِمِصْرَ . . . [من مجزوء الكامل] :

للهِ مَا صَنَعَتْ بِنَا تِلْكَ ٱلْمَحَاجِرُ فِي ٱلْمَعَاجِرْ(٢)

---

(١) وَكَانَ ٱلْمُعِزُّ هَذَا أَدِيباً شَاعِراً ، وَهُوَ ٱلْقَائِلُ [من الخفيف] :

أَطْلَعَ ٱلْحُسْنُ مِنْ جَبِينِكِ شَمْسَاً فَوْقَ وَرْدٍ فِي وَجْنَتَيْكِ أَظَلَّا
وَكَأَنَّ ٱلْجَمَالَ خَافَ عَلَىٰ ٱلْوَرْ دِ جَفَافاً فَمَدَّ بِٱلشَّعْرِ ظِلَّا

(٢) ٱلْمُرَادُ بِٱلْمَحَاجِرِ هنَا : ٱلْعُيُونُ ، جَمْعُ مَحْجِرٍ ، وَهُوَ أَيْضاً : مَا دَارَ بِٱلْعَيْنِ وَبَدَا مِنَ ٱلْبُرْقُعِ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعَيْنِ ، وَهُوَ أَيْضاً : مَا دَارَ بِٱلْعَيْنِ مِنَ ٱلْعَظْمِ ٱلَّذِي فِي أَسْفَلِ ٱلْجَفْنِ ؛ وَٱلْمَعَاجِرُ جَمْعُ مِعْجَرٍ ، وَهُوَ ثَوْبٌ تَلُفُّهُ ٱلْمَرْأَةُ عَلَىٰ ٱسْتِدَارَةِ رَأْسِهَا ، ثمَّ تُجَلْبَبُ فَوْقَهُ بِجِلْبَابِهَا ـ خِمَارِهَا ـ وَمِنْهُ أُخِذَ ٱلاعْتِجَارُ ، وَهُوَ لَيُّ ٱلثَّوْبِ عَلَىٰ ٱلرَّأْسِ مِنْ غَيْرِ إِدَارَةٍ تَحْتَ ٱلْحَنَكِ ، وَٱلْمَعَاجِرُ أَيْضًا : العَمَائِمُ .

أَمْضَىٰ وَأَنْفَذُ فِي ٱلْقُلُو ... بِ مِنَ ٱلْخَنَاجِرِ فِي ٱلْحَنَاجِرْ
وَلَقَدْ تَعِبْتُ بِبَيْنِكُمْ ... تَعَبَ ٱلْمُهَاجِرِ فِي ٱلْهَوَاجِرْ

٢٤٦ ـ وَقَالَ آخَرُ :

يَا مَنْ تَكَحَّلَ طَرْفُهَا ... بِٱلسِّحْرِ لَا بِٱلإِثْمِدِ
نَفْسِي كَمَا عَذَّبْتِهَا ... وَقَتَلْتِهَا بِالإِثْمِ ، دِي

قَوْلُهُ : « دي » فِعْلُ أَمْرٍ لِلْمُؤَنَّثِ مِن « وَدَىٰ » ، بِمَعْنَىٰ : دَفَعَ ٱلدِّيَةَ ، بِسَبَبِ ٱلإِثْمِ ٱلَّذِي وَقَعَ مِنْهَا ؛ يَقُولُ : ٱدْفَعِي دِيَةَ نَفْسٍ كَمَا قَتَلْتِهَا .

٢٤٧ ـ وَقَالَ ٱلنَّاجِمُ [سَعْدُ بْنُ الحسن ، من مجزوء الكامل] :

كَادَ ٱلْغَزَالُ يَكُونُهَا ... لَكِنَّمَا هُوَ دُونَهَا
وَٱلنَّرْجِسُ ٱلْغَضُّ ٱلْجَنْـ ... ـيُ أَغَضُّ مِنْهُ جُفُونُهَا
مَنْ كَانَ يَعْرِفُ فَضْلَهَا ... فَعَنِ ٱلْقِيَاسِ يَصُونُهَا

٢٤٨ ـ وَقَالَ أَبُو فِرَاسٍ ٱلْحَمْدَانِيُّ [من الطويل] :

وَبِيضٍ بِأَلْحَاظِ ٱلْعُيُونِ كَأَنَّمَا ... هَزَزْنَ سُيُوفاً أَوْ سَلَلْنَ خَنَاجِرَا
تَصَدَّيْنَ لِي يَوْماً بِمُنْعَرَجِ ٱللِّوَىٰ ... فَغَادَرْنَ قَلْبِي بِٱلتَّصَبُّرِ غَادِرَا
سَفَرْنَ بُدُوراً وَٱنْتَقَبْنَ أَهِلَّةً ... وَمِسْنَ غُصُوناً وَٱلْتَفَتْنَ جَآذِرَا
وَأَطْلَعْنَ فِي ٱلأَجْيَادِ لِلدُّرِّ أَنْجُمَا ... جَعَلْنَ لِحَبَّاتِ ٱلْقُلُوبِ ضَرَائِراً

٢٤٩ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلتِّهَامِيُّ [من الكامل] :

وَأَرَىٰ ٱلْعُيُونَ وَلا كَأَعْيُنِ عَامِرٍ ... قَدراً مَعَ ٱلْقَدَرِ ٱلْمُتَاحِ مُتَاحَا[1]
مُتَوَارِثِي مَرَضِ ٱلْجُفُونِ وَإِنَّمَا ... مَرَضُ ٱلْجُفُونِ بِأَنْ يَكُنَّ صِحَاحَا

---

(١) عَامِرُ : ٱسْمُ قَبِيلَةٍ مَشْهُورَةٍ بِجَمَالِ عُيُونِهَا ؛ وَٱلْمُتَاحُ : المُقَدَّرُ .

أَبْــرَزْنَ مِــنْ تِلْــكَ ٱلْعُيُــونِ أَسِنَّــةً وَهَــزَزْنَ مِــنْ تِلْـكَ ٱلْقُـدُودِ رِمَـاحَـا
يَــا حَبَّــذَا ذَاكَ ٱلسِّــلاحُ وَحَبَّــذَا وَقْــتٌ يَكُـونُ ٱلْحُسْـنُ فِيـهِ سِـلاحَـا

٢٥٠ ـ وَجاءَ في ذَيْلِ « الأَمَالِي » لِلْقَالِي [ صفحة : ٢٠ ]: وَأَنْشَدَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَىٰ بْنِ جَمِيلٍ [من الطويل] :

غَزَتْنِي بِجَيْشٍ مِنْ مَحَاسِنِ وَجْهِهَا فَعَبَّـا لَهَـا طَـرْفِـي لِيَـدْفَـعَ عَـنْ قَلْبِـي
فَلَمَّـا ٱلْتَقَـىٰ ٱلْجَمْعَـانِ أَقْبَـلَ طَـرْفُهَـا يُرِيدُ ٱغْتِصَابَ ٱلْقَلْبِ قَسْراً عَلَىٰ ٱلْحَرْبِ
وَلَمَّـا تَجَـارَحْنَـا بِـأَسْيَـافِ لَحْظِنَـا جَعَلْتُ فُؤَادِي فِي يَدَيْهَا عَلَىٰ ٱلْعَضْبِ[1]
وَنَـادَيْـتُ مِـنْ وَقْـعِ ٱلأَسِنَّـةِ وَٱلْقَنَـا عَلَىٰ كَبِدِي يَا صَاحِ مَالِي وَلِلْحُبِّ
فَصِرْتُ صَرِيعاً لِلْهَوَىٰ وَسْطَ عَسْكَرٍ قَتِيـلَ عُيُـونِ ٱلْغَـانِيَـاتِ بِـلَا ذَنْـبِ

٢٥١ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ [من الخفيف] :

إِنَّ للهِ فِــي ٱلْعِبَــادِ مَنَــايَــا سَلَّطَتْهَــا عَلَــىٰ ٱلْقُلُــوبِ ٱلْعُيُــونُ

٢٥٢ ـ وقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الكامل] :

ٱلــرَّامِيَــاتُ لَنَــا وَهُــنَّ نَــوَافِــرٌ وَٱلْخَـاتِـلَاتُ لَنَـا وَهُـنَّ غَـوَافِـلُ[2]
كَـافَـأْنَـا عَـنْ شِبْهِهِـنَّ مِـنَ ٱلْمَهَـا فَلَهُـنَّ فِـي غَيْـرِ ٱلتُّـرَابِ حَبَـائِـلُ[3]

---

(١) ٱلْعَضْبُ : ٱلسَّيْفُ ٱلْقَاطِعُ .

(٢) يَقُولُ : إِنَّهُنَّ يَرْمِينَنَا بِسِهَامِ لِحَاظِهِنَّ وَهُنَّ عَنَّا نَافِرَاتٌ غَيْرُ مُقْبِلاتٍ عَلَيْنَا ، وَكَذَلِكَ يَخْتِلْنَنَا ـ يَصْدُدْنَنَا ـ بِحُسْنِهِنَّ غَيْرُ عَالِمَاتٍ بِذَلِكَ .

(٣) المَهَا : بَقَرُ ٱلْوَحْشِ ، تُشَبَّهُ ٱلْحِسَانُ بِهَا لِحُسْنِ عُيُونِهَا ؛ وَٱلحَبَائِلُ ، جَمْعُ حِبَالَةٍ : ٱلشَرَكُ يُنْصَبُ لِلصَّيْدِ ؛ يَقُولُ : هُنَّ يَشْبَهْنَ بَقَرَ ٱلْوَحْشِ في سَوَادِ حَدَقِهِنَّ وَسَعَةِ عُيُونِهِنَّ ، وَنَحْنُ نَصِيدُ بَقَرَ ٱلْوَحْشِ ، فَجَازَيْنَنَا عَنْهُنَّ وَأَخَذْنَ بِثَأْرِهِنَّ في صَيْدِنَا شِبْهَهُنَّ فَصِدْنَنَا بِحَبَائِلَ نَصَبْنَهَا في غَيْرِ ٱلتُّرَابِ ، يَعْنِي : بِأَعْيُنِهِنَّ .

مَـنْ طَـاعِنِـي ثُغْـرِ ٱلـرِّجَـالِ جَـآذِرٌ ... وَمِنَ ٱلرِّمَاحِ دَمالِجٌ وَخَلاخِلُ[(١)]
وَلِـذَا ٱسْـمُ أَغْطِيَـةِ ٱلْعُيُـونِ جُفُـونُهَـا ... مِنْ أَنَّهَا عَمَلَ ٱلسُّيُوفِ عَوامِلُ[(٢)]

٢٥٣ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من مجزوء الرمل] :

يَـــا عَليـــلًا جَعَـــلَ ٱلْعِـ ... ـلَّـــةَ مِفْتَـــاحـــاً لِسُقْمِــــي
لَيْـــسَ فــــي ٱلأَرْضِ عَلِيـــلٌ ... غَيْـــرُ جَفْنَيْـــكَ وَجِسْمِــــي

٢٥٤ ـ وَأَخَذَهُ مُحَمَّدُ ٱبْنُ هَانىءٍ ٱلأَنْدُلُسِيُّ فَقَالَ [من الكامل] :

ٱلْمُـــدْنَفَـــانِ مِـــنْ ٱلْبَـــرِيَّـــةِ كُلِّهَـــا ... جِسْمِـــي وَطَـــرْفٌ بَـــابِلِـــيٌّ أَحْـــوَرُ

بَابِلِيٌّ : سَاحِرٌ .

٢٤٥ ـ وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ[(٣)] [من الكامل] :

فِيهِـــنَّ صَفْـــرَاءُ ٱلْمَعَـــاصِـــمِ طَفْلَـــةٌ ... بَيْضَـــاءُ مِثْـــلُ غَـــرِيضَـــةِ ٱلتُّفَّـــاحِ
رَيَّشْـــنَ حِيـــنَ أَرَدْنَ أَنْ يَـــرْمِينَنِـــيْ ... نَبْـــلًا بِـــلا رِيـــشٍ وَلا بِقَـــدَاحِ
وَنَظَـرْنَ مِـنْ خَلَـلِ ٱلسُّتُـورِ بِـأَعْيُـنٍ ... مَـرْضَـىٰ يُخَـالِطُهَـا ٱلسَّقَـامُ صِحَـاحِ

صَفْرَاءُ ٱلْمَعَاصِمِ ، فَٱلْمَعَاصِمُ مَوَاضِعُ ٱلسِّوَارِ ، وَقَدْ وَضَعَ ٱلْمَعَاصِمَ مَوْضِعَ ٱلْمِعْصَمَيْنِ ، وَصَفْرَاءُ ٱلْمَعَاصِمِ : يُرِيدُ صُفْرَةَ ٱلزَّعْفَرَانِ ، وَكَانَ نِسَاءُ ٱلْعَرَبِ

---

(١) ٱلثُّغْرُ ، جَمْعُ ثَغْرَةُ ، وَهِيَ : ثَغْرَةُ ٱلنَّحْرِ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلتَّرْقُوَتَيْنِ ؛ وَٱلْجَآذِرُ ، جَمْعُ جُؤْذُرٍ ، وَهُوَ : وَلَدُ ٱلْبَقَرِ ٱلْوَحْشِيَّةِ ، وَٱلْمُرَادُ بِٱلْجَآذِرِ ٱلنِّسَاءُ ؛ وَٱلدَّمَالِجُ ، جَمْعُ دُمْلُجٍ : حَلْيٌ يُلْبَسُ فِي العَضُدِ ؛ وَٱلْخَلاخِلُ ، جَمْعُ خَلْخَلٍ ، لُغَةٌ فِي خِلْخَالٍ ؛ يَقُولُ : إِنَّ هَؤُلاءِ ٱلنِّسْوَةَ ٱلشَّبِيهَاتِ بِٱلْجَآذِرِ يَفْعَلْنُ بِجَمَالِ عُيُونِهِنَّ مَا يَفْعَلُ ٱلطَّاعِنُ بِٱلرُّمْحِ ، أَي : يَقْتُلْنَ بِسِحْرِ عُيُونِهِنَّ ، وَحَلِيُهُنَّ تَفْعَلُ كَذَلِكَ فِعْلَ ٱلرِّمَاحِ .

(٢) يَقُولُ : إِنَّمَا سُمِّيَتْ أَغْطِيَةُ ٱلْعُيُونِ جُفُوناً لأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ أَحْدَاقاً تَعْمَلُ مَا تَعْمَلُهُ ٱلسُّيُوفُ ، فَسُمِّيَتْ أَغْطِيَتُهَا بِٱسْمِ غِطَاءِ ٱلسَّيْفِ ، وَهُوَ ٱلْجَفْنُ .

(٣) شَاعِرٌ أَدْرَكَ ٱلدَّوْلَةَ ٱلْعَبَّاسِيَّةَ ، وَمَيَّادَةُ أُمُّهُ ، وَٱسْمُ أَبِيهِ أَبْرَدُ .

يَتَضَمَّخْنَ بِهِ ؛ وطَفْلَةٌ ، بِفَتْحِ ٱلطَّاءِ : ناعِمَةٌ ؛ وَ« مِثْلُ غَرِيضَةِ ٱلتُّفَّاحِ » يُرِيدُ : طَرَاوَةَ لَحْمِهَا ؛ وٱلْغَرِيضُ : ٱلطَّرِيُّ ؛ وَرِيَّشْنَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : رَيَّشَ ٱلسَّهْمَ : أَلْزَقَ بِهِ ٱلرِّيشَ لِيَخِفَّ فِي مَرِّهِ ؛ وَٱلنَّبْلُ : ٱلسِّهَامُ ، لا وَاحِدَ لَهُ ؛ وٱلْقِدَاحُ : ٱلسِّهَامُ قَبْلَ أَنْ تُرَاشَ ، ٱلْوَاحِدُ قِدْحٌ ؛ يُرِيدُ أَنَّ نَظَرَاتِهِنّ تُصِبْنَ إِصَابَةَ ٱلسِّهَامِ ٱلْمُرَيَّشَةِ ؛ وَخَلَلُ ٱلسُّتُورِ : ٱلْمَوَاضِعُ ٱلْمُنْفَرِجَةُ مِنْهَا .

* * *

٢٥٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ دُرَيْدٍ [من الكامل] :

لَيْسَ ٱلسَّلِيمُ سَلِيمَ أَفْعَىٰ حَرَّةٍ ... لَكِنْ سَلِيمَ ٱلْمُقْلَةِ ٱلنَّجْلَاءِ

نَظَرَتْ وَلا وَسَنٌ يُخَالِطُ عَيْنَهَا ... نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ بِسَوْرَةِ ٱلإِغْفَاءِ

ٱلسَّلِيمُ : ٱللَّدِيغُ ـ مَنْ تَلْدَغُهُ ٱلْحَيَّةُ ـ سَلِيماً عَلَىٰ ٱلتَّفَاؤُلِ لَهُ بِالسَّلامَةِ ؛ وَٱلْحَرَّةُ : أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سُودٍ نَخِرَاتٍ كَأَنَّهَا أُحْرِقَتْ بِٱلنَّارِ .

٢٥٧ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من الطويل] :

وَتَجْرَحُ أَحْشَائِي بِعَيْنٍ مَرِيضَةٍ ... كَمَا لانَ مَتْنُ ٱلسَّيْفِ وَٱلسَّيْفُ قَاطِعُ

عَلِيمٌ بِمَا تَحْتَ ٱلصُّدُورِ مِنَ ٱلْهَوَىٰ ... سَرِيعٌ بِكَرِّ ٱللَّحْظِ وَٱلْقَلْبُ جَازِعُ

٢٥٨ ـ وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ ٱلرِّقَاعِ [من الكامل] :

لَوْلَا ٱلْحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِي قَدْ عَسَا ... فِيهِ ٱلْمَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ ٱلْقَاسِمِ(١)

وَكَأَنَّهَا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ أَعَارَهَا ... عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَآذِرِ جَاسِمِ(٢)

---

(١) عَسَا فِيهِ ٱلْمَشِيبُ : ٱشْتَدَّ بَيَاضُهُ ، مِنْ عَسَا ٱلنَّبَاتُ : ٱشْتَدَّ وَغَلُظَ .

(٢) ٱلْجَآذِرُ ، جَمْعُ جُؤْذُرٍ : وَلَدُ ٱلْبَقَرَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ ؛ وَجَاسِمٌ : قَرْيَةٌ بِٱلشَّامِ .

وَسْنَـانُ أَقْصَـدَهُ ٱلنُّعَـاسُ فَـرَنَّقَـتْ ... فِـي عَيْنِـهِ سِنَـةٌ وَلَيْـسَ بِنَـائِـمِ[1]
يَصْطَـادُ يَقْظَـانَ ٱلـرِّجَـالِ حَـدِيثُهَـا ... وَتَطِيـرُ بَهْجَتُهَـا بِـرُوحِ ٱلْحَـالِـمِ

٢٥٩ ـ وَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ [من الطويل] :

غَـدَاةَ تَثَنَّـتْ لِلْـوَدَاعِ وَسَلَّمَـتْ ... بِعَيْنَيْنِ مَـوْصُـولٌ بِجَفْنَيْهِمَـا ٱلسِّحْرُ
تَـوَهَّمْتُهَـا أَلْـوَىٰ بِـأَجْفَـانِهَـا ٱلْكَرَىٰ ... كَرَىٰ ٱلنَّوْمِ أَوْ مَالَتْ بِأَعْطَافِهَا ٱلْخُمْرُ

٢٦٠ ـ وَقَالَ [من الهزج] :

وَفِـي ٱلْقَهْـوَةِ أَشْكَـالٌ ... مِـنَ ٱلسَّـاقِـي وَأَلْـوَانُ[2]
حَبَـابٌ مِثْـلُ مَـا يَضْحَـ ... ـكُ عَنْـهُ وَهُـوَ جَـذْلَانُ
وَسُكْـرٌ مِثْـلُ مَـا أَسْكَـ ... ـرَ طَـرْفٌ مِنْـه وَسْنَـانُ
وَطَعْـمُ ٱلـرِّيـقِ إِذْ جَـا ... دَ بِـهِ وَٱلصَّـبُّ هَيْمَـانُ
لَنَـا مِـنْ كَفِّـهِ رَاحٌ ... وَمِـنْ رَيَّـاهُ رَيْحَـانُ

٢٦١ ـ وَفِي سِحْرِ ٱلْعُيُونِ يَقُولُ بَشَّارٌ [من الخفيف] :

أَنَـا وَاللهِ أَشْتَهِـي سِحْـرَ عَيْنَيْـ ... ـكِ وَأَخْشَـىٰ مَصَـارِعَ ٱلْعُشَّـاقِ

٢٦٢ ـ وَيَقُولُ [من الطويل] :

وَمُرْتَجَّةِ ٱلأَرْدَافِ مَهْضُومَةِ ٱلْحَشَا ... تَمُـورُ بِسِحْـرٍ عَيْنُهَـا وَتَـدُورُ
إِذَا نَظَـرَتْ صَبَّـتْ عَلَيْـكَ صَبَـابَـةً ... وَكَـادَتْ قُلُـوبُ ٱلْعَـالَمِيـنَ تَطِيـرُ

٢٦٣ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

---

(١) أَقْصَدَهُ ، فَالإِقْصادُ : أَنْ يُصِيبَهُ ٱلسَّهْمُ فَيَمُوتَ ، وَهُوَ هُنَا ٱسْتِعَارَةٌ ، أَيْ : أَقْصَدَهُ ٱلنُّعَاسُ فَنَامَ ؛ وَرَنَّقَتْ : دَارَتْ وَمَاجَتْ وَخَالَطَتْ ؛ وَٱلسِّنَةُ : بَقِيَّةُ آخِرِ ٱلنُّعَاسِ .
(٢) ٱلْقَهْوَةُ : ٱلْخَمْرُ .

وَعَيْنَانِ قَالَ ٱللهُ كُونَا فَكَانَتَا فَعُولَيْنِ بِٱلأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ ٱلْخَمْرُ

يُرْوَىٰ أَنَّ ذَا ٱلرُّمَّةِ سَمِعَ إِنْسَاناً يُنْشِدُ هَذَا ٱلْبَيْتَ : فَعُولان . . .

فَقَالَ : فَعُولانِ ! كَأَنَّهُ تَوَرَّعَ أَنْ يَقُولَ : فَعُولَيْنِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ بِأَمْرِ ٱللهِ تَعَالَىٰ .

٢٦٤ ـ وَمِنْ أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي ٱلنَّظَرِ قَوْلُ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ [من الكامل] :

نَظَرَتْ فَأَقْصَدَتِ ٱلْفُؤَادَ بِسَهْمِهَا ثُمَّ ٱنْثَنَتْ عَنْهُ فَكَادَ يَهِيمُ

وَيْلايَ إِنْ نَظَرَتْ وَإِنْ هِيَ أَعْرَضَتْ وَقْعُ ٱلسِّهَامِ وَنَزْعُهُنَّ أَلِيمُ

٢٦٥ ـ وَقَوْلُ الآخَرِ [من الكامل] :

يَنْظُرْنَ مِنْ خَلَلِ ٱلسُّجُوفِ كَأَنَّمَا يُمْطِرْنَ أَحْشَاءَ ٱلْكَرِيمِ نِبَالاَ[١]

٢٦٦ ـ وَقَوْلُ عِنَانَ صَاحِبَةِ أَبِي نُوَاسٍ [من المنسرح] :

لَوْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إِلَىٰ حَجَرٍ وَلَّدَ فِيهِ فُتُورُهَا سَقَمَا

٢٦٧ ـ هَذَا وَلْيُلاحَظْ أَنَّ ٱلذُّبُولَ وَٱلْفُتُورَ فِي ٱلْعُيُونِ هُوَ ٱلَّذِي تَرَامَوْا إِلَيْهِ وَقَصَدُوهُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْعُيُونِ بِٱلنَّرْجِسِ ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ ٱبْنَ ٱلْمُعْتَزِّ نَبَّهَ عَلَىٰ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ [من الكامل] :

وَسْنَانُ قَدْ طَرَقَ ٱلنُّعَاسُ جُفُونَهُ فَحَكَىٰ بِمُقْلَتِهِ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ

٢٦٨ ـ أَمَّا مَا ذَكَرَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ أَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ إِنَّمَا وَقَعَ بِنَرْجِسٍ فِي أَعْلاهُ دَائِرَةٌ كَحْلاءُ يَحُفُّ بِهَا وَرَقٌ أَبْيَضُ عَلَىٰ شَكْلِ ٱلْعَيْنِ فَغَيْرُ صَحِيحٍ ، لأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَثْبُتْ ، وَلَوْ ثَبَتَ لَكَانَ لا يُشَبِّهُهَا بِهِ إِلَّا مَنْ عَلِمَ وُجُودَهُ . وَٱلتَّشْبِيهُ وَاقِعٌ مِمَّنْ

---

(١) ٱلسُّجُوفُ ، جَمْعُ سَجْفٍ : السِّتْرُ .

عَلِمَ وُجُودَ ذَلِكَ وَمِمَّنْ لَمْ يَعْلَمْ . وَقَدْ سَبَقَ إِلَىٰ وَهْمِ بَعْضِ أُدَبَاءِ الأَنْدَلُسِ أَنَّ ٱلنَّرْجِسَ ٱلَّذِي تُشَبَّهُ بِهِ ٱلْعُيُونُ هُوَ نَوَّارٌ أَصْفَرُ ، نُسَمِّيهِ نَحْنُ ٱلْبَهَارَ ، وَيُسَمُّونَهُ هُمْ نَرْجِساً ، وَمِنْ ثَمَّ أَنْكَرُوا هَذَا ٱلتَّشْبِيهَ وَنعوْهُ عَلَيْنَا .

قَالَ ٱلشَّرِيشِيُّ[1] : وَقَدْ تَمَادَىٰ إِنْكَارُ أُدَبَاءِ وَقْتِنَا تَشْبِيهَ ٱلْعَيْنِ بِهَذَا ٱلنَّوَارِ الأَصْفَرِ ٱلْمَعْرُوفِ عِنْدَنَا بِٱلنَّرْجِسِ ، فَأَكْثَرُهُمْ يُنْكِرُ أَنْ يَقَع بِهِ تَشْبِيهٌ لأَجْلِ صُفْرَتِهِ ، وَإِنْ ذَكَرْتَهُ لأَحَدٍ قَالَ : وَأَيُّ صُفْرَةٍ فِي ٱلْعَيْنِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِصَاحِبِهَا عِلَّةُ ٱلْيَرْقَانِ[2] ؛ وَيَسْتَهْجِنُ مَوْضِعَ ٱلتَّشْبِيهِ جِدّاً ، وَقَدْ سَأَلْتُ عَنْهُ بَعْضَ أَشْيَاخِي فِي صِغَرِي وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْهِ كِتَابَ « ٱلْجُمَلِ » ، وَكَانَ أَدِيباً شَاعِراً ، فَأَنْكَرَ وُقُوعَ ٱلتَّشْبِيهِ بِهَذَا ٱلنَّوْرِ ٱلأَصْفَرِ ، وَقَالَ لِي : ٱلنَّرْجِسُ عِنْدَهُمْ بِٱلْمَشْرِقِ نَوْرٌ يُشْبِهُ نَوَّارَ ٱلْفُولِ ، وَأَكْثَرُ مَنْ لَقِيتُهُ يَسْتَبْعِدُ ٱلتَّشْبِيهَ بِهَذَا ٱلنَّوْرِ الأَصْفَرِ لأَجْلِ لَوْنِهِ ، وَذَلِكَ لِقِلَّةِ تَحْصِيلِهِمْ مَعْرِفَةَ كَلامِ ٱلْعَرَبِ وَتَشْبِيهَاتِهَا ، وَٱلْعَرَبُ تُوقِعُ تَشْبِيهَاتِهَا عَلَىٰ ٱلصُّورَةِ دُونَ ٱلْمَعْنَىٰ ، وَعَلَىٰ ٱلمَعْنَىٰ دُونَ ٱلصُّورَةِ ، وَعَلَيْهِمَا جَمِيعاً ، وَهُوَ أَكْمَلُ وُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهِ ، وَتَشْبِيهُ ٱلْعُيُونِ بِٱلسُّيُوفِ وَٱلسِّهَامِ إِنَّمَا ٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْمَضَاءُ وَٱلْقَطْعُ ، وَلا يُلْتَفَتُ فِي ذَلِكَ إِلَىٰ ٱللَّوْنِ ، وَكَذَلِكَ تَشْبِيهُ ٱلْعُيُونِ بِٱلنَّرْجِسِ ٱلأَصْفر إِذَا قَصَدَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْفُتُورِ وَاقِعٌ مُتَمَكِّنٌ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . وَٱلنَّرْجِسُ ٱلَّذِي يُشَبِّهُ بِهِ أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ ٱلْعُيُونَ هُوَ نَبَاتٌ لَهُ قَضْبَانٌ خُضْرٌ فِي رُؤُوسِهَا أَقْمَاعٌ يَخْرُجُ مِنْهَا نَوْرٌ ، عَلَىٰ ٱلأَقْمَاعِ وَرَقٌ أَبْيَضُ فِي وَسَطِ البَيَاضِ دَائِرَةٌ قَائِمَةٌ مِنْ وَرَقٍ

---

(١) هُوَ الإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ ٱلْقَيْسِيُّ الشَّرِيشِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ شَارِحُ « مَقَامَاتِ ٱلْحَرِيرِي » ، وَقَدْ أَطَالَ فِي كَلِمَتِهِ هَذِهِ ، وَأَتَىٰ بِكَلامٍ نَفِيسٍ جِدّاً فِي هَذَا ٱلْمَوْضُوعِ ، وَتَرَىٰ ذَلِكَ فِي شَرْحِهِ لِلْمَقَامَةِ ٱلْحُلْوَانِيَّةِ .

(٢) ٱلْيَرَقَانُ : مَرَضٌ مَعْرُوف [ وَهُوَ ٱلْتِهَابُ ٱلْكَبِدِ ٱلإِنْتَانِيُّ ، وَلَهُ عِدَّةُ أَنْوَاعٍ ، كُلُّهَا ] تُسَبِّبُ ٱصْفِرَارَ ٱلْجِلْدِ [ وَٱلْعُيُونِ وَالأَظَافِرِ وَ . . . الخ ] .

صَغِيرٍ ، هَذِهِ ٱلصِّفَةُ ٱلَّتِي تَقَعُ فِي أَشْعَارِهِمْ إِذَا ذَكَرُوا ٱلنَّرْجِسَ ، وَبِذَلِكَ وَصَفَهُ كِسْرَىٰ أَنُوشِرْوَانَ ، فَقَالَ : ٱلنَّرْجِسُ : يَاقُوتٌ أَصْفَرُ بَيْنَ دُرٍّ أَبْيَضَ عَلَىٰ زُمُرُّدٍ أَخْضَرَ . . . إِلَىٰ أَنْ قَالَ ٱلشَّرِيشِيُّ : وَٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ ٱلْمَغْرِبِ نَرْجِساً يُسَمِّيهِ أَهْلُ ٱلْمَشْرِقِ بَهَاراً ، وَبِلَوْنِ ٱلنَّرْجِسِ يُشَبِّهُ أَهْلُ الأَنْدَلُسِ المَرِيضَ ، قَالَ : فَثَبَتَ أَنَّ نَرْجِسَهُمْ بَهَارُنَا وأَنَّ بَهَارَهُمْ نَرْجِسُنَا .

* * *

٢٦٩ ـ وَقَدْ عَدَّ بَعْضُهُمْ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْعُيُونِ ٱلقَبَلُ ، وَهُوَ مَيْلُ ٱلْحَدَقَةِ فِي ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلأَنْفِ ، وَهُوَ خِلافُ الْحَوَلِ ، قَالَ بَعْضُ أَئِمَّةِ ٱللُّغَةِ : ٱلأَقْبَلُ ٱلَّذِي أَقْبَلَتْ حَدَقَتَاهُ عَلَىٰ أَنْفِهِ ، وَٱلأَحْوَلُ : ٱلَّذِي حَوِلَتْ عَيْنَاهُ جَمِيعاً .

٢٧٠ ـ وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ [من الرمل] :

أَشْتَهِي فِي ٱلطِّفْلَةِ ٱلقَبَلَا ... لَا كَثِيراً يُشْبِهُ ٱلْحَوَلَا

قَالَ بَعْضُ الأُدَبَاءِ : لا أَعْلَمُ لِهَذَا ٱلاسْتِحْسَانِ وَجْهاً ، وَهُوَ إِلَىٰ ٱلْمَعَايِبِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَىٰ ٱلْمَحَاسِنِ .

٢٧١ ـ وَمِثْلُ ٱلْقَبَلِ ٱلشُّطُورُ ، يُقَالُ : شَطَرَ بَصَرَهُ يَشْطِرُ شُطُوراً وَشَطْراً : صَارَ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَىٰ غَيْرِكَ ، وَهُوَ قَرِيبٌ من صِفَةِ الأَحْوَلِ ٱلَّذِي يَقُولُ مُتَبَجِّحاً بِحَوَلِهِ [من الطويل] :

حَمَدْتُ إِلٰهِي مُذْ بُلِيتُ بِحُبِّهِ ... عَلَىٰ حَوَلٍ أَغْنَىٰ عَنِ ٱلنَّظَرِ ٱلشَّزْرِ
نَظَرْتُ إِلَيْهِ ، وَٱلرَّقِيبُ يَخَالُنِي ... نَظَرْتُ إِلَيْهِ ، فَٱسْتَرَحْتُ مِنَ ٱلْعُذْرِ

ٱلضَّمِيرُ فِي « إِلَيْهِ » ٱلثَّانِيَةِ يَرْجِعُ إِلَىٰ ٱلرَّقِيبِ .

٢٧٢ ـ وَكُلُّ أُولَئِكَ مِنْ مَعَايِبِ ٱلْعُيُونِ ، وَمِنْ مَعَايِبِهَا : ٱلْحَوَصُ ، وَهُوَ ضِيقُ ٱلْعَيْنَيْنِ ؛ وَٱلْخَوَصُ ، وَهُوَ غُؤُرُهُمَا مَعَ ٱلضِّيقِ ؛ وَٱلشَّتَرُ ، وَهُوَ ٱنْقِلابُ

الْجَفْنِ ؛ وَٱلْعَمَشُ ، وَهُوَ أَنْ لَا تَزَالُ ٱلْعَيْنُ تَسِيلُ ٱلدَّمْعَ ، وَلا يَكادُ الأَعْمَشُ يُبْصِرُ بِهَا ، وَمِثْلُهُ الأَرْمَصُ ؛ وَٱلْغَطَشُ : ٱلضَّعْفُ فِي ٱلْبَصَرِ ، وَيُقَالُ : هُوَ ٱلَّذِي لا يَفْتَحُ عَيْنَيْهِ في ٱلشَّمْسِ ؛ وَٱلْجَهَرُ ، قَالَ ٱللِّحْيَانِيُّ : كُلُّ ضَعِيفِ ٱلْبَصَرِ فِي ٱلشَّمْسِ أَجهَرُ ، وَقَالَ غَيْرُهُ : ٱلأَجْهَرُ بِٱلنَّهَارِ ، وَالأَعْشَىٰ بِٱللَّيْلِ ؛ وَالْخَزَرُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلإِنْسَانُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ بِمُؤَخّرِ عَيْنَيْهِ ؛ وَٱلْغَضَنُ ، وَهُوَ أَنْ يَكْسِرَ عَيْنَهُ خِلْقَةً أَوْ عَدَاوَةً أَوْ كِبْراً ؛ وٱلشَّوَسُ ، وَهُوَ أَنْ يَنْظُرَ بِإِحْدَىٰ عَيْنَيْهِ وَيُمِيلَ وَجْهَهُ في شِقِّ ٱلْعَيْنِ ٱلَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَنْظُرَ بِهَا ، يَكُونُ ذَلكَ خِلْقَةً وَيَكُونُ مِنَ ٱلْكِبْرِ وَٱلتِّيهِ وَٱلْغَضَبِ ، وَيُقَالُ : ٱلشَّوَسُ : رَفْعُ ٱلرَّأْسِ تَكَبُّراً ؛ وَٱلْخَفَشُ ، وَهُوَ ضَعْفُ ٱلْبَصرِ مَعَ ضِيقِ ٱلْعَيْنِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ فَسَادٌ فِي ٱلْعَيْنِ يَضِيقُ لَهُ ٱلْجَفْنُ مِنْ غَيْرِ وَجَعٍ وَلَا قَرْحٍ ؛ وَالإِطْرَاقُ ، وَهُو ٱسْتِرْخَاءُ ٱلْجُفُونِ ؛ وَأَطْرَقَ : أَرْخَىٰ عَيْنَيْهِ يَنْظُرُ إِلَىٰ الأَرْضِ ؛ وَٱلْجُحُوظُ ، وَهُوَ خُرُوجُ مُقْلَةِ ٱلْعَيْنِ وَنُتُوءُهَا مِنَ ٱلْحِجَاجِ ، ويقال : رَجُلٌ جاحِظُ ٱلْعَيْنَيْن : إِذَا كَانَتْ حَدَقَتَاهُ خَارِجَتَيْنِ ؛ وَٱلْبَخَقُ ، وَهُوَ أَنْ يَذْهَبَ ٱلْبَصَرُ وَٱلْعَينُ مُنْفَتِحَةٌ ؛ وَالْكَمَهُ ، وَهُوَ أَنْ يُولَدَ الإِنْسَانُ أَعْمَى ؛ وَٱلْبَخَصُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ فَوقَ ٱلْعَيْنَيْنِ أَوْ تَحْتَهُمَا لَحْمٌ نَاتِىءٌ .

٢٧٣ ـ وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِهَذَا ٱلْبَابِ وَصْفُهُمُ ٱلْعُيُونَ تُصَابُ بِٱلرَّمَدِ ، قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا لابْنِ ٱلرُّومِيِّ ؛ وَقِيلَ لِلنَّاجِمِ [من المنسرح] :

قَالُوا : ٱشْتَكَتْ عَيْنُهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ :     مِنْ كَثْرَةِ ٱلْفَتْكِ نَالَهَا ٱلوَصَبُ[1]

حُمْـرَتُهَـا مِـنْ دِمَـاءِ مَـنْ قَتَلَـتْ     وَٱلدَّمُ فِي ٱلنَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ[2]

---

(١) ٱلْفَتْكُ ، يُرْوَىٰ : ٱلْقَتْلُ ، وَٱلْفَتْكُ أَحْسَنُ ؛ وَٱلْوَصَبُ : ٱلْمَرَضُ وَٱلْوَجَعُ ٱلدَّائِمُ ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَىٰ ٱلتَّعَبِ .

(٢) النَّصْلُ : نَصْلُ ٱلسَّهْمِ وَٱلسَّيْفِ وَٱلرُّمْحِ ، وَقَدْ يُسَمَّىٰ ٱلسَّيْفُ نَصْلاً .

٢٧٤ ـ وَفِي مَعْنَىٰ ٱلْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من الكامل] :

قَالُوا : ٱلْحَبِيبُ شَكَا جُعِلَتْ فِدَاءَهُ    رَمَداً أَضَرَّ بِعَيْنِهِ كَٱلْعَنْدَمِ[1]
فَأَجَبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ    فِي مُهْجَتِي حَتَّىٰ تَلَطَّخ بِٱلدَّمِ

* * *

٢٧٥ ـ وَكَذَلِكَ وَصْفُهُمُ ٱلدُّمُوعَ وَٱلْبُكَاءَ ـ دُمُوعَ ٱلْمُحِبِّينَ ، أَوْ ٱلْمَحْبُوبِينَ ـ: قَالَ ٱلصُّولِيُّ [من المنسرح] :

لَوْ كُنْتَ يَوْمَ ٱلْوَدَاعِ حَاضِرَنَا    وَهُنَّ يَشْكِينَ عِلَّةَ ٱلْوَجْدِ
لَمْ تَرَ إِلَّا ٱلدُّمُوعَ جَارِيَةً    تَسْقُطُ مِنْ مُقْلَةٍ عَلَىٰ خَدِّ
كَأَنَّ تِلْكَ ٱلدُّمُوعَ قَطْرُ نَدَىٰ    يَقْطُرُ مِنْ نَرْجِسٍ عَلَىٰ وَرْدِ

٢٧٦ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

تَقُولُ غَدَاةَ ٱلْبَيْنِ عِنْدَ وَدَاعِهَا    إِلَىٰ ٱلْكَبِدِ ٱلْحَرَّىٰ : فَسِرْ ، وَلَكَ ٱلصَّبْرُ
وَقَدْ سَبَقَتْهَا عَبْرَةٌ فَدُمُوعُهَا    عَلَىٰ خَدِّهَا بِيضٌ وَفِي نَحْرِهَا حُمْرُ

قَوْلُهُ : « وَفِي نَحْرِهَا حُمْرُ » مَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلدُّمُوعَ إِذَا ٱنْحَدَرَتْ إِلَىٰ نَحْرِهَا ٱحْمَرَّتْ مِنَ ٱلطِّيبِ كَٱلزَّعْفَرَانِ .

٢٧٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الرجز] :

لَمَّا دَنَا ٱلْبَيْنُ وَزَاحَ ٱلدَّلُّ    وَدَّعْتُهَا وَدَمْعُهَا مُنْهَلُّ
وَخَدُّهَا مِنْ قَطْرِهِ مُنْهَلُّ    كَأَنَّهُ وَرْدٌ عَلَيْهِ طَلُّ

٢٧٨ ـ وَقَالَ آخَرُ [من المتقارب] :

---

(١) العَنْدَمُ : صَبْغٌ أَحْمَرُ يُخْتَضَبُ بِهِ .

كَـأَنَّ ٱلـدُّمُـوعَ عَلَـىٰ خَـدِّهَـا     بَقِيَّـةُ طَـلٍّ عَلَـىٰ جُلَّنَـارْ

ٱلْجُلَّنَارِ : زَهْرُ ٱلرُّمَّانِ .

٢٧٩ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من البسيط] :

مَاءُ ٱلصَّبَابَةِ ، نَارُ ٱلشَّوْقِ تَحْدِرُهُ     فَهَـلْ سَمِعْتُـمْ بِمَـاءٍ فَـاضَ مِـنْ نَـارِ

٢٨٠ ـ وَيَنْظُرُ إِلَىٰ قَوْلِ بَشَّارٍ قَوْلُ أَبِي هِلالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ [من البسيط] :

لَهِيبُ قَلْبِي أَفَاضَ ٱلدَّمْعَ مِنْ بَصَرِي     وَٱلْعُـودُ يَقْطُـرُ مَـاءً وَهُـوَ يَحْتَـرِقُ

٢٨١ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

لَعَـلَّ ٱنْحِـدَارَ ٱلـدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَـةً     مِنَ ٱلْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي شَجِيَّ ٱلْبَلابِلِ

٢٨٢ ـ وَقَالُوا : إِنَّ أَبْلَغَ مَا قِيلَ فِي ٱمْتِلاءِ ٱلْعَيْنِ مِنَ ٱلدَّمْعِ قَوْلُ أَبِي حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيِّ [ وَيُنْسَبُ أَيْضاً لِمَجْنُونِ لَيْلَى ، من الطويل ] :

نَظَـرْتُ كَـأَنِّـي مِـنْ وَرَاءِ زُجَـاجَـةٍ     إِلَىٰ ٱلدَّارِ مِنْ فَرْطِ ٱلصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
فَعَيْنَـايَ طَـوْراً تَغْـرَقَـانِ مِـنَ ٱلْبُكَـا     فَأَعْشَىٰ وطَوْراً تَحْسِرَانِ فَأُبْصِرُ[1]
وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَهْمِي مِنَ ٱلْعَيْنِ دَمْعُهَا     وَلَكِنَّـهُ نَفْـسٌ تَـذُوبُ فَتَقْطُـرُ

٢٨٣ ـ وَتَبِعَهُ ٱبْنُ دُرَيْدٍ فَقَالَ [من الكامل] :

لا تَحْسَبَـنْ دَمْعِـي تَحَـدَّرَ إِنَّمَـا     نَفْسِـي جَـرَتْ فِـي دَمْعِـيَ ٱلْمُتَحَـدِّرُ

٢٨٤ ـ وَقَالَ [من الكامل] :

قَلْـبٌ تَقَطَّـعَ فَـٱسْتَحَـالَ نَجِيعَـا     فَجَرَىٰ فَصَارَ مَعَ ٱلدُّمُوعِ دُمُوعَا[2]

---

(١) تَحْسِرَانِ مِنْ قَوْلِهِمْ : حَسَرَ ٱلْبَحْرَ : إِذَا نَضَبَ ٱلْمَاءُ عَنْ سَاحِلِهِ .
(٢) النَّجِيعُ : الدَّمُ ؛ وَٱسْتَحَالَ : تَحَوَّلَ .

رُدَّتْ إِلَـىٰ أَحْشَـائِـهِ زَفَـرَاتُـهُ ... فَفَضَضْـنَ مِنْـهُ جَـوانِحـاً وَضُلُـوعَـا
عَجَبـاً لِنَـارٍ ضُـرِّمَـتْ فِـي صَـدْرِهِ ... فَـٱسْتَنْبَطَـتْ مِـنْ جَفْنِـهِ يَنْبُـوعَـا
لَهَـبٌ يَكُـونُ إِذَا تَلَبَّـسَ بِـٱلْحَشَـا ... قَيْظـاً وَيَظْهَـرُ فِـي ٱلْجُفُـونِ رَبِيعَـا

قَوْلُهُ : « عَجَباً لِنَارٍ . . . » ٱلبَيْتُ ، نَبَّهَهُ عَلَىٰ هَذَا ٱلمَعْنَى أَبُو تَمامٍ بِقَوْلِهِ [من الرجز] :

يَـا سَهْـمُ لِلْبَـرْقِ ٱلَّـذِي ٱسْتَطَـارَا ... ثَـابَ عَلَـىٰ رَغْـمِ ٱلـدُّجَـىٰ نَهَـارَا[١]
آضَ لَنَـا مَـاءً وَكَـانَ نَـارَا ... أَرْضَـىٰ ٱلثَّـرَىٰ وَأَسْخَـطَ ٱلْغُبَـارَا

٢٨٥ ـ وَمِنْ مَحَاسِنِ مَا قِيلَ فِي ٱلدُّمُوعِ قَوْلُ ٱلسَّرِيِّ ٱلرَّفَّاءِ [من الطويل] :

بِنَفْسِـيَ مَـنْ رَدَّ ٱلتَّحِيَّـةَ ضَـاحِكـاً ... فَجَدَّدَ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ فِي ٱلْوَصْلِ مَطْمَعِي
إِذَا مَـا بَـدَا أَبْـدَى ٱلْغَـرامُ سَرَائِـرِي ... وَأَظْهَـرَ لِلْعُـذَّالِ مَـا بَيْـنَ أَضْلُعِـي
وَحَـالَـتْ دُمُـوعُ ٱلْعَيْـنِ بَيْنِـي وَبَيْنَـهُ ... كَـأَنَّ دُمُـوعَ ٱلْعَيْـنِ تَعْشِقُـهُ مَعِـي

٢٨٦ ـ وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ [من السريع] :

ٱبْـكِ فَمَـا أَكْثَـرَ نَفْـعَ ٱلْبُكَـا ... وَٱلْحُـبُّ إِشْفَـاقٌ وَتَعْلِيـلُ
ٱفْـزَعْ إِلَيْـهِ فِـي ٱزْدِحَـامِ ٱلْجَـوَىٰ ... فَفِيـهِ مِسْـلاةٌ وَتَسْهِيـلُ
وَهْـوَ إِذَا أَنْـتَ تَـأَمَّلْتَـهُ ... حُـزْنٌ عَلَـىٰ ٱلْخَـدَّيْـنِ مَحْلُـولُ[٢]

٢٨٧ ـ وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ الأَحْنَفِ [من الكامل] :

نَـزَفَ ٱلْبُكَـاءُ دُمُـوعَ عَيْنِـكَ فَـٱسْتَعِرْ ... عَيْنـاً لِغَيْـرِكَ دَمْعُهَـا مِـدْرَارُ

---

(١) يَا سَهْمُ ، هُوَ : سَهْمُ بْنُ أَوْسٍ أَخُو حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ ـ أَبِي تَمَّامٍ ـ وَسَهْمُ كَانَ يَنْشُدُ أَشْعَارَ أَبِي تمّام لِأَنَّ أَبَا تَمَّام كَانَ تَمْتاماً .
(٢) حُزْنٌ مَحْلُولٌ : يُرِيدُ أَنَّهُ حُزْنٌ ذَائِبٌ .

مَـنْ ذا يُعِيـرُكَ عَيْنَـهُ تَبْكِـي بِهَـا أَرَأَيْـتَ عَيْنـاً لِلْبُكَـاءِ تُعَـارُ

٢٨٨ ـ وَلِلْمَجْنُونِ [من الطويل] :

ذُدِ ٱلدَّمْعَ حَتَّىٰ يَظْعَنَ ٱلْحَيُّ إِنَّمَا دُمُوعُكَ إِنْ فَاضَتْ عَلَيْكَ دَلِيلُ
كَأَنَّ دُمُوعَ ٱلْعَيْنِ يَوْمَ تَحمَّلُوا جُمَانٌ عَلَىٰ جَيْبِ ٱلْقَمِيصِ يَسِيلُ

٢٨٩ ـ وَمِمّا يَتَّصِلُ بِهَذَا ٱلْبَابِ وَصْفُهُمُ ٱلْحَوَاجِبَ :

قَالَ ٱلزَّاهِي [من الطويل] :

وَأَغْيَدَ مَجْدُولِ ٱلْقَوَامِ جَبِينُهُ سَنَا ٱلقَمَرِ ٱلْبَدْرِيِّ في ٱلْغُصْنِ ٱلرَّطْبِ
تَنَكَّبَ قَوْسَ ٱلْحَاجِبَيْنِ فَسَهْمُهُ لَوَاحِظُهُ ٱلْمَرْضَىٰ وَبُرْجَاسُهُ قَلْبِي

ٱلْبُرْجَاسُ ـ كَمَا قَالَ صَاحِبُ « ٱللِّسَانِ » ـ غَرَضٌ في ٱلْهَوَاءِ يُرْمَىٰ بِهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ شِبْهُ ٱلأَمَارَةِ تُنْصَبُ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ ، وَلَعَلَّ مُرَادَ ٱلشَّاعِرِ هُنَا أَنْ يَقُولَ : وَهَدَفُهُ قَلْبِي .

٢٩٠ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ أَبِي ٱلشِّيصِ [من الطويل] :

حَذِرْتُ ٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ رُمِيتُ مِنَ ٱلْهَوَىٰ بِأَصْرَدِ سَهْمٍ مِنْ قِسِيِّ ٱلْحَوَاجِبِ

بِأَصْرَدِ سَهْمٍ ، أَيْ : بِأَنْفَذِ وَأَشَدِّ إِصَابَةً .

٢٩١ ـ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْكُوفيُّ [من الطويل] :

ومُسْتَلِبٍ عَيْنَ ٱلْغَزَالِ وَقَدْ تُرَىٰ بِجَبْهَتِهِ عَيْنُ ٱلْغَزَالَةِ مَاثِلا
تَنَاوَلَ قَوْسَ ٱلْحَاجِبَيْنِ مُفَوِّقاً بِأَسْهُمِ أَلْحَاظٍ تَشُكُّ ٱلْمَقَاتِلا

٢٩٢ ـ وَقَالَ آخرُ [من الطويل] :

غَزَانِي ٱلْهَوَىٰ فِي جَيْشِهِ وَجُنُودِهِ وَعَبَّىٰ عَلَيَّ ٱلْخَيلَ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
بِمَيْمَنَةٍ أَعْلامُهَا أَعْيُنُ ٱلْمَهَا وَمَيْسَرَةٍ تَقْضِي بِزُجِّ ٱلْحَوَاجِبِ

٢٩٣ ـ وَمِنْ مَحَاسِنِ ٱلْحَاجِبِ : ٱلزَّجَجُ ، وَهُوَ دِقَّة ٱلحاجِبَيْنِ وَٱمْتِدَادُهُمَا حَتَّىٰ كَأَنَّهُمَا خُطَّا بِقَلَمٍ ؛ وَٱلتَّزْجِيجُ : حَذْفُ زَوائِدِ ٱلشَّعَرِ ، وَزَجَّجَتِ ٱلْمَرْأَةُ حَاجِبَيْهَا بِٱلمِزَجِّ : دَقَّقَتْهُ وَطَوَّلَتْهُ ، وَقِيل : أَطَالَتْهُ بِٱلإِثْمِدِ .

٢٩٤ ـ وَقَالَ ٱلرَّاعِي [من الوافر] :

إِذَا مَا ٱلْغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْماً وَزَجَّجْنَ ٱلْحَوَاجِبَ وَٱلْعُيُونَا[1]
أَنَخْنَ جِمَالَهُنَّ بِذَاتِ غِسْلٍ سَرَاةَ ٱلْيَوْمِ يَمْهَدْنَ ٱلْكُدُونَا

قَوْلُهُ : « وَٱلْعُيُونَا » أَرَدْنَ : وَكَحَّلْنَ ٱلْعُيُونَا ؛ وَذَاتُ غِسْلٍ : مَوْضِعٌ ؛ وَيَمْهَدْنَ : يُوَطِّئْنَ ؛ وَٱلْكُدُون ، جَمْع كِدْنٍ ، وَهُوَ : مَا تُوَطِّىءُ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ مَرْكَبَهَا مِنْ كِسَاءٍ وَنَحْوِهِ .

٢٩٥ـ وَفِي صِفَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ : أَزَجَّ ٱلْحَوَاجِبِ؛ وَمِنْ مَحَاسِنِ ٱلْحَاجِبِ : ٱلْبَلَجُ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْحَاجِبَيْنِ فُرْجَةٌ ، وَٱلعَرَبُ تَسْتَحِبُّ ذَلِكَ وَتَكْرَهُ القَرَنَ ، وَهُوَ ٱتِّصَالُ ٱلْحَاجِبَيْنِ ، وَفِي صِفَةِ سَيِّدِنَا رَسُولُ ٱللهِ : سَوَابِغَ في غَيْرِ قَرَنٍ ، أَيْ: إِنَّ حَوَاجِبَهُ دَقَّتْ في حَالِ سُبُوغِهَا؛ وَمِنْ مَعَايِبِ ٱلْحَاجِبِ: ٱلزَّبَبُ، وَهُوَ كَثْرَةُ شَعْرِهِمَا ، وَقِيلَ : ٱلزَّبَبُ : كَثْرَةُ ٱلشَّعْرِ فِي ٱلْحَاجِبَيْنِ وَالأُذُنَيْنِ ؛ وَفِي ٱلمَثَلِ : « كُلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ » قَالُوا : لَا يَكَادُ يَكُونُ ٱلأَزَبُّ إِلَّا نَفُوراً ، لِأَنَّهُ يَنْبُتُ عَلَىٰ حَاجِبَيْهِ شُعَيْرَاتٌ ، فَإِذَا ضَرَبَتْهُ ٱلرِّيحُ نَفَرَ . وَأَنْشَدُوا [من المتقارب] :

وَخَوْفِي بِٱلظَّنِّ أَنْ لا ٱئْتِلا فَ أَوْ يَتَنَاسَىٰ ٱلأَزَبُّ ٱلنَّفُورَا

٢٩٦ ـ هَذَا ، وَفِي غَرَائِبِ ٱلْبِدَعِ في أَيَّامِنَا هَذِهِ أَنَّ كَثِيراً مِنْ نِسائِنَا يَعْمَدْنَ

(١) هَذِهِ هِيَ ٱلرِّوَايَةُ ٱلمَشْهُورَةُ ، وَلَكنَّ ٱلعَلَّامَةَ ٱلمِصْرِيَّ ٱبْنَ بَرِّي رَوَىٰ ٱلبَيْتَ هَكَذَا [من الوافر]:
وَهِـزَّةِ نِسْوَةٍ مِنْ حَيِّ صِدْقٍ يُزَجِّجْنَ ٱلْحَوَاجِبَ وَٱلْعُيُونَا

إِلَىٰ حَوَاجِبِهِنَّ فَيَحْلِقْنَهَا وَيَسْتَبْدِلْنَ بِهَا حَوَاجِبَ مُصْطَنَعَةً مُزَوَّرَةً ، كَأَنَّهُنَّ بِذَلِكَ يُؤْثِرْنَ صُنْعَ الإِنسانِ وَصِبْغَتَهُ ٱلَّتِي هِيَ أَقْبَحُ عَلَىٰ صُنْعِ ٱللهِ وَصِبْغَتِهِ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ! ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [ ٢ سورة البقرة/ الآية : ١٣٨ ] .

## ٱلشَّعَرُ وَجَمَالُهُ :

٢٩٧ ـ أَسْلَفْنَا في أَوّلِ هَذَا ٱلْبَابِ [ الأرقام : ١١٠ وما بعدها ] ـ بَابِ حَضِّهِمْ عَلَىٰ ٱلنَّظَافَةِ وَٱلتَّجمُّلِ وَٱلزِّينَةِ ـ أَنَّ مِمَّا يَجْمُلُ بِٱلْمَرْأَةِ أَنْ تُعْنَىٰ بِهِ وَبِتَنْظِيفِهِ شَعَرَهَا ، فَإِنَّ شَعَرَ ٱلمَرْأَةِ لَهُ مَكانَتُهُ في جَمَالِهَا ، وَقَدْ قَالُوا فِي وَصَايَاهُمْ : « إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمْ ٱلْمَرْأَةَ فَلْيَسْأَلْ عَنْ شَعَرِهَا ، فَإِنَّ ٱلشَّعَرَ أَحَدُ ٱلْوَجْهَيْنِ » .

٢٩٨ ـ وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ : ٱلشَعَرُ ٱلأَسْوَدُ بُرْنُسُ ٱلْجَمَالِ .

٢٩٩ ـ وَمِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ فِي ٱلشَعَرِ قَوْلُ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ [من المنسرح] :

وَفَاحِمٍ وَارِدُ يُقَبِّلُ مَمْـ ... ـشَاهُ إِذَا ٱخْتَالَ مُرْسَلاً غُدُرَهْ[1]
أَقْبَلَ كَٱللَّيْلِ مِنْ مَفَارِقِهِ ... مُنْحَدِراً لَا نَذُمُّ مُنْحَدَرَهْ[2]
حَتَّى تَنَاهَىٰ إِلَىٰ مَوَاطِئِهِ ... يَلْثَمُ مِنْ كُلِّ مَوْطِىءٍ عَفَرَهْ[3]
كَأَنَّهُ عَاشِقٌ دَنَا شَغَفَاً ... حَتَّىٰ قَضَىٰ مِنْ حَبِيبِهِ وَطَرَهْ

وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ: حَتَّىٰ تَنَاهَىٰ إِلَىٰ مَوَاطِئِهِ . . . ٱلْبَيْتَ، فَقَالَ [من الطويل] :

ظِبَاءٌ أَعَارَتْهَا ٱلْمَهَا حُسْنَ مَشْيِهَا ... كَمَا قَدْ أَعَارَتْهَا ٱلْعُيُونَ ٱلْجَآذِرُ
فَمِنْ حُسْنِ ذَاكَ ٱلْمَشْيِ جَاءَتْ فَقَبَّلَتْ ... مَوَاطِىءَ مِنْ أَقْدَامِهِنَّ ٱلْغَدَائِرُ

---

(١) فَاحِمٌ ، يُرِيدُ شَعْراً أَسْوَدَ ؛ وَٱلْوَارِدُ مِنَ ٱلشَّعَرِ : ٱلَّذِي يَرِدُ ٱلْكِفْلَ وَمَا تَحْتَهُ ؛ وَغُدُرُهُ : ضَفَائِرُهُ .

(٢) لا نَذُمُّ مُنْحَدَرَهُ ، أَي : ٱنْحِدَارَهُ .

(٣) عَفَرُهُ : تُرَابُهُ .

٣٠٠ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من المنسرح] :

دَعَتْ خَلاخِيلُهَا ذَوائِبَهَا فَجِئْنَ مِنْ فَرْقِهَا إِلَىٰ ٱلْقَدَمِ

* * *

٣٠١ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من الطويل] :

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهٍ بِشَعْرِهَا شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا بِغَيْرِ رَقِيبِ[1]
فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ بِٱلشَّعْرِ وَٱلدُّجَىٰ وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَخَدِّ حَبِيبِ

وَكَأَنَّ ٱلْمُتَنَبِّي نَظَرَ إِلَىٰ مَعْنَىٰ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي قَوْلِهِ [من الكامل] :

كَشَفَتْ ثَلاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرَتْ لَيَالِيَ أَرْبَعَا
وَٱسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ ٱلسَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرَتْنِي ٱلْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعَا

أَرَادَ ٱلْمُتَنَبِّي بِٱلْقَمَرَيْنِ : ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، فَجَعَلَ وَجْهَهَا شَمْساً فِي ٱلْحُسْنِ وَٱلضِّيَاءِ قَابَلَ مِنْ بَدْرِ ٱلسَّمَاءِ قَمَراً ، وَيَجُوزُ أَنْ يُشَبِّهَ وَجْهَهَا بِٱلقَمَرِ ، فَهُمَا قَمَرانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

٣٠٢ ـ قَالَ بَعْضُهُمْ [من الكامل] :

وَإِذَا ٱلْغَزَالَةُ فِي ٱلسَّمَاءِ تَرَفَّعَتْ وَبَدَا ٱلنَّهَارُ لِوَقْتِهِ يَتَرَحَّلُ
أَبْدَتْ لِوَجْهِ ٱلشَّمْسِ وَجهاً مِثْلَهُ يَلْقَىٰ ٱلسَّمَاءَ بِمِثْلِ مَا تَسْتَقْبِلُ

٣٠٣ ـ وَقَالَ صَرِيعُ ٱلْغَوَانِي مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ [من الطويل] :

فَبِتُّ أُسِرُّ ٱلْبَدْرَ طَوْراً حَدِيثَهَا وَطَوْراً أُنَاجِي ٱلْبَدْرَ أَحْسِبُهَا ٱلْبَدْرَا
إِلَىٰ أَنْ رَأَيْتُ ٱللَّيْلَ مُنْكَشِفَ ٱلدُّجَىٰ يُوَدِّعُ فِي ظَلْمَائِهِ ٱلأَنْجُمَ ٱلزُّهْرَا

---

(١) شَبِيهَةُ خَدَّيْهَا ، مَعْمُولُ سَقَتْنِي ، أَيْ : سَقَتْنِي خَمْراً حَمْرَاءَ شَبِيهَةَ خَدَّيْهَا .

٣٠٤ ـ وَقَالَ بَكْرُ بْنُ ٱلنَّطَّاحِ [من الكامل] :

بَيْضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامٍ فَرْعَهَا وَتَغِيبُ فِيهِ وَهُوَ وَحْفٌ أَسْحَمُ
فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ سَاطِعٌ وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمُ

قَوْلُهُ : « تَسْحَبُ مِنْ قِيَامٍ » يُرِيدُ : مِنْ بَعْدِ قِيَامِهَا ، وَذَلِكَ هُوَ ٱلْغَايَةُ فِي ٱلطُّولِ وَالسُّبُوغِ ؛ وَوَحْفٌ : كَثِيرٌ حُسْنٍ ؛ وَأَسْحَمُ : أَسْوَدُ .

٣٠٥ ـ وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ [من الطويل] :

أَجِدُّكِ مَا تَدْرِينَ أَنْ رُبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكِ تُنْشَرُ
نَصَبْتُ لَهَا حَتَّىٰ تَجَلَّتْ بِغُرَّةٍ كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

قَوْلُهُ : كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ ، مِنْ بَارِعِ ٱلاسْتِطْرَادِ إِلَىٰ ٱلْمَدِيحِ .

٣٠٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ دُرَيْدٍ ٱلأَزْدِيُّ [من الكامل] :

غَرَّاءُ لَوْ جَلَّتِ ٱلْخُدُودُ شُعَاعَهَا لِلشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا لَمْ تُشْرِقِ
غُصْنٌ عَلَىٰ دِعْصٍ تَأَلَّقَ فَوْقَهُ قَمَرٌ تَأَلَّقَ تَحْتَ لَيْلٍ مُطْبِقِ[١]
لَوْ قِيلَ لِلْحُسْنِ ٱحْتَكِمْ لَمْ يَعْدُهَا أَوْ قِيلَ خَاطِبْ غَيْرَهَا لَمْ يَنْطِقِ
فَكَأَنَّنَا مِنْ فَرْعِهَا فِي مَغْرِبٍ وَكَأَنَّنَا مِنْ وَجْهِهَا فِي مَشْرِقِ

٣٠٧ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من الطويل] :

وَمَنْ كُلَّمَا جَرَّدْتُهَا مِنْ ثِيَابِهَا كَسَاهَا ثِيَاباً غَيْرَهَا ٱلشَّعَرُ ٱلْوَحْفُ[٢]

٣٠٨ ـ وَقَدْ سَبَقَ جَمِيعَ ٱلشُّعَرَاءِ في هَذَا ٱلْبَابِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ فِي مُعَلَّقَتِهِ حَيْثُ يَقُولُ [من الطويل] :

---

(١) ٱلدِّعْصُ : كَثِيبُ ٱلرَّمْلِ ٱلْمُجْتَمِعِ .
(٢) ٱلْوَحْفُ : ٱلشَّعْرُ ٱلْكَثِيرُ ٱلأَسْوَدُ ٱلْحَسَنُ .

وَفَـرْعٍ يُغَشِّي ٱلْمَتْـنَ أَسْـوَدَ فَـاحِـمٍ أَثِيـثٍ كَقِنْـوِ ٱلنَّخْلَـةِ ٱلْمُتَعَثْكِـلِ[١]
غَـدَائِـرُهُ مُسْتَشْـزِرَاتٌ إِلَـىٰ ٱلْعُـلَا تَضِلُّ ٱلْعِقَاصُ فِي مُثَنًّىٰ وَمُرْسَلِ[٢]

٣٠٩ ـ وَمِنْ طَرِيفِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلشَّعَرِ مَا أَوْرَدَهُ ٱبْنُ بَسَّامٍ فِي « ٱلذَّخِيرَةِ » قَالَ : وَمِنْ نَوَادِرِ الآفَاقِ ، ٱلْحُلْوَةِ ٱلْمَسَاقِ ، ٱلْغَرِيبَةِ ٱلاتِّفَاقِ ، خَبَرُ ٱلنَّحْلِيِّ مَعَ ٱلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ مَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ يَوْماً بَعْضُ نِسَائِهِ فِي غِلالَةٍ لا يَكَادُ يَفْرُقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جِسْمِهَا ، وَذَوائِبَ تَخْفِي آيَاتِ ٱلشَّمْسِ فِي مُدْلَهِمِّهَا ، فَسَكَبَ عَلَيْهَا مَاءَ وَرْدٍ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَٱمْتَزَجَ ٱلْجَمِيعُ لِيناً وَٱسْتِرْسالًا ، وَتَشَابَهَ طِيباً وَجَمالًا ، وَأَدْرَكَتِ ٱلْمُعْتَمِدَ أُرْيَحِيَّةُ ٱلطَّرَبِ ، وَمَالَتْ بِعِطْفَيْهِ رَاحُ الأَدَبِ ، فَقَالَ [من الكامل] :

وَهَـوِيـتُ سَـالِبَـةَ ٱلنُّفُـوسِ عَـزِيـزَةً تَخْتَـالُ بَيْـنَ أَسِنَّـةٍ وَبَـوَاتِـرِ

قَوْلُهُ : « عَزِيزَةً » حَالٌ مِنْ « سَالِبَةٍ » ، وَيُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَىٰ ٱلْمَثَلِ : « مَنْ عَزَّ بَزَّ » أَيْ : مَنْ غَلَبَ سَلَبَ .

٣١٠ ـ ثُمَّ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ٱلْمَقَالُ ، وَٱشْتَغَلَ عَنْ تِلْكَ ٱلْحَالِ ، فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْخُدَّامِ ٱلْقَائِمِينَ عَلَىٰ رَأْسِهِ : سِرْ إِلَىٰ ٱلنَّحْلِيِّ وَخُذْهُ بِإِجَازَةِ هَذَا ٱلْبَيْتِ ،

---

(١) يُغَشِّي ٱلْمَتْنَ ، أَي : يَكْسُو ٱلظَّهْرَ لِطُولِهِ وَجُثُولَتِهِ ، وَيُرْوَىٰ بَدَلَ يُغَشِّي : يُزَيِّنُ ؛ وَأَثِيثٌ : مُلْتَفٌّ كَثِيرٌ ؛ وَٱلْفَاحِمُ : ٱلشَّدِيدُ ٱلسَّوَادِ ؛ وَالقِنْوُ ، وَاحِدُ ٱلأَقْنَاءِ وَٱلْقَنَوَاتِ ، وَهِيَ ٱلْعَثَاكِيلُ ، جَمْعُ عُثْكُولٍ : ٱلْعِذْقُ ، وَهُوَ فِي ٱلنَّخْلِ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعُنْقُودِ فِي ٱلْكَرْمِ ـ شَجَرِ ٱلْعِنَبِ ـ يَقُولُ : تُبْدِي عَنْ شَعْرٍ طَوِيلٍ يُغَطِّي ظَهْرَهَا أَوْ يُزَيِّنُهُ إِذَا أَرْسَلَتْهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ شَبَّهَ ذَوَائِبَهَا بِقِنْوِ نَخْلَةٍ مُتَعَثْكِلَةٍ ، أَي : خَرَجَتْ عَثَاكِيلُهَا ، وَٱلذَّوَائِبُ تُشَبَّهُ بِٱلْعَنَاقِيدِ فِي تَجَعُّدِهَا وَٱلْتِفَافِهَا وَكَثْرَتِهَا .

(٢) ٱلْغَـدَائِـرُ ، جَمْـعُ ٱلْغَـدِيـرَةِ ، وَهِـيَ : ٱلْخَصْلَـةُ مِـنَ ٱلشَّعْـرِ ؛ وَٱلاسْتِشْـزَارُ : ٱلارْتِفَـاعُ ؛ وَٱلْعَقِيصَةُ : ٱلْخَصْلَةُ ٱلْمَجْمُوعَةُ مِنَ ٱلشَّعْرِ ، يَقُولُ : ذَوَائِبُهَا وَغَدَائِرُهَا مُرْتَفِعَاتٌ إِلَىٰ فَوْقٍ ، يُرَادُ بِذَلِكَ شَدُّهَا عَلَىٰ ٱلرَّأْسِ بِخُيُوطٍ ، ثُمَّ قَالَ : تَغِيبُ عَقَائِصُهَا فِي شَعْرٍ بَعْضُهُ مُثَنًّىٰ وَبَعْضُهُ مُرْسَلٌ ؛ أَرَادَ وُفُورَ شَعْرِهَا .

وَلا تُفَارِقْهُ حَتَّىٰ يَفْرَغَ مِنْه ، فَأَضَافَ ٱلتَّحْلِيُّ إِلَيْهِ ، لأَوَّلِ وُقُوعِ ٱلرَّقْعَةِ بَيْنَ يَدَيْه ، هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ [من الكامل] :

رَاقَتْ مَحَاسِنُهَا وَرَقَّ أَدِيمُهَا ... فَتَكَادُ تُبْصِرُ بَاطِناً مِنْ ظَاهِرِ
يَنْدَى بِمَاءِ ٱلْوَرْدِ مُسْبِلُ شَعْرِهَا ... كَٱلطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحَيْ طَائِرِ

فَلَمَّا قَرَأَهُ ٱلْمُعْتَمِدُ ٱسْتَحْسَنَهُ ، فَقَالَ : أَوَ كُنْتَ مَعَنَا ؟ فَقَالَ ٱلتَّحْلِيُّ مَا مَعْنَاهُ : يَا قَاتِلَ ٱلْمَحْلِ ، أَوَ مَا تَلَوْتَ : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [١٦سورة النحل/ الآية : ٦٨] .

* * *

### ٱلشَّعْرُ وَٱللُّغَةُ :

٣١١ ـ يُقَالُ : شَعْرٌ جُفَالٌ : إِذَا كَانَ مُجْتَمِعاً كَثِيراً ، قَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱمْرَأَةً [من الوافر] :

تُرِيكَ بَيَاضَ لَبَّتِهَا وَوَجْهاً ... كَقَرْنِ ٱلشَّمْسِ أَفْتَقَ ثُمَّ زَالَا(١)
وَأَسْوَدَ كَٱلأَسَاوِدِ مُسْبَكِرًّا ... عَلَىٰ ٱلمَتْنَيْنِ مُنْسَدِلًا جُفَالَا(٢)

٣١٢ ـ وَيُقَالُ : شَعَرٌ وَحْفٌ ـ بِسُكُونِ ٱلْحَاءِ وَفَتْحِهَا ـ إِذَا غَزُرَ وَٱسْوَدَّ وَحَسُنَ وَٱتَّصَلَ ؛ وَسَبْطٌ : إِذَا كَانَ مُسْتَرْسِلًا ؛ وَرَجْلٌ : إِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلسُّبُوطَةِ وَٱلْجُعُودَةِ ، أَيْ : كَانَ غَيْرَ جَعْدٍ وَلا سَبْطٍ ؛ وَٱلْجَعْدُ : نَقِيضُ ٱلسَّبْطِ ، أَوِ ٱلشَّعَرُ ٱلْقَصِيرُ ؛ وَشَعَرٌ قَطَطٌ : إِذَا كَانَ شَدِيدَ الجُعُودَةِ ؛ وَشَعْرٌ مُفَلْفَلٌ : إِذَا كَانَ

---

(١) فتقَ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ : أَصَابَ فَتْقاً مِنَ ٱلسَّحابِ فَبَدَا مِنْهُ .
(٢) وَأَسْوَدَ ، أَي : شَعْراً أَسْوَدَ ؛ وَالأَسَاوِدُ ، جَمْعُ أَسْوَدٍ ، وَهُوَ ٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْحَيَّاتِ وَفِيهِ سَوَادٌ ؛ وَمُسْبَكِرّاً : مُسْتَرْسِلًا ؛ وَالمَتْنَانِ : جَنَبَتَا ٱلظَّهْرِ ، أَوْ مُكْتَنِفَا ٱلصُّلْبِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ مِنْ عَصَبٍ وَلَحْمٍ ؛ وَمُنْسَدِلًا : وَقَعَ عَلَىٰ ٱلظَّهْرِ .

نِهَايَةً فِي ٱلْجُعُودَةِ ، كَشُعُورِ ٱلزَّنْجِ ؛ وَمُغْدَوْدِنٌ : إِذَا كَانَ طَوِيلًا نَاعِماً ؛ وَأَثِيثٌ : إِذَا كَانَ كَثِيراً مُلْتَفّاً ؛ ووَارِدٌ : إِذَا كَانَ طوِيلًا مُسْتَرْسِلًا يَصِلُ إِلَىٰ ٱلْكِفْلِ .

٣١٣ ـ هَذَا ، وَقَدْ قَالَ الأَصْمَعِيُّ : مَنْ لَمْ يَخِفَّ شَعْرُهُ قَبْلَ ٱلثَّلاثِينَ لَمْ يَصْلَعْ أَبداً ، وَمَنْ لَمْ يَحْمِلِ ٱللَّحْمَ قَبْلَ ٱلثَّلاثِينَ لَمْ يَحْمِلْهُ أَبداً .

* * *

٣١٤ ـ وَبَعْدُ ، فَهاهُوَ ذَا قَدْ بَانَ أَنَّ أَحْسَنَ ٱلشَعْرِ وَأَجْمَلَهُ مَا كَانَ أَسْوَدَ طَوِيلًا مُرْسَلًا ، وَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ خَفِيَ هَذَا عَلَىٰ ذَوْقِ نِسَاءِ ٱلْيَوْم ! أُولَئِكَ ٱللائِي عَمَدْنَ إِلَىٰ تِلْكَ ٱلبِدْعَةِ ٱلَّتِي ٱبْتَدَعَها بَعْضُ حَلَّاقِي بَارِيسَ ! وَهِيَ قَصُّ شُعُورِهِنَّ ، كَأَنَّهُنَّ يُحاوِلْنَ بِذَلِكَ ٱلتَّشَبُّهَ بِٱلذُّكْرَانِ ، وَيُبْدِينَ سَخَطَهُنَّ عَلَىٰ أُنوثَتِهِنَّ ، وَمِنْ ثَمَّ أَخَذْنَ يَتَرَجَّلْنَ شَيْئاً فَشَيْئاً ، وَقَدْ نَعَىٰ ٱلْعُقَلاءُ قَدِيماً عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ تَشَبُّهَهُنَّ بِٱلرِّجَالِ وَكِفْرَهُنَّ بِأُنُوثَتِهِنَّ ! وَفي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ بِٱلنِّسَاءِ وَٱلْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلرِّجَالِ [راجع البخاري ، رقم : ٥٨٨٦] . وَلَيْتَ الأَمْرَ وَقَفَ عِنْدَ هَذَا ٱلْحَدِّ ! وَإِنَّمَا تَجاوَزَهُ إِلَىٰ صَبْغِ شُعُورِهِنَّ ذَلِكَ ٱلصَّبْغَ الأَصْفَرَ ٱلَّذِي يَشُقُّ مَنْظَرُهُ عَلَىٰ الأَحْدَاقِ ، وَيَنْبُو بِهِ الأَذْوَاقُ ، وَيأْنَفُ مِنْهُ ٱلْجَمَالُ وَٱلْكَمَالُ ، أَيْنَ أَنْتُنَّ مِنَ ٱلسَّوَادِ ٱلَّذِي هُوَ أَجْمَلُ أَلْوَانِ ٱلشَّعْرِ ؟! وَأَيْنَ أَنْتُنَّ مِنَ ٱلشَّعْرِ ٱلطَّوِيلِ ٱلْمُنْسَدِلِ عَلَىٰ ٱلظَّهْرِ ، ذِي ٱلْغَدَائِرِ وَٱلضَّفَائِرِ ٱلَّذِي ٱفْتَتَنَ بِهِ ذَوُو ٱلصَّبَابَةِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَالأُدَباءِ وَٱلْغَزِلِيِّينَ ؟! وَغَيْرِ ٱلشُّعَراءِ مِنْ سَائِرِ ٱلرِّجَالِ ٱلَّذِينَ هُمُ ٱلْحَكَمُ ٱلتُّرْضَىٰ حُكُومَتُهُ في جَمالِكُنَّ .

سَيِّدَاتِي آنِسَاتِي ! أَنْشُدُكُنَّ ٱلْجَمَالَ إِلَّا مَا أَقلَعْتُنَّ عَنِ ٱلتَّقْلِيدِ ، وَإِذَا كَانَ

ٱلتَّقْلِيدُ مَا مِنْهُ بُدٌّ في رَأْيِكُنَّ فَلْيَكُنْ عَنْ بَصِيرَةٍ وَرَوِيَّةٍ وَطُولِ أَنَاةٍ وَمُوَازَنَةٍ ، وَإِنِّي أَظُنُّكُنَّ قَدْ فَطِنْتُنَّ إِلَىٰ أَنَّكُنَّ كَثِيراً مَا أَسْرَعْتُنَّ إِلَىٰ تَقْلِيدِ غَيْرِكُنَّ في بِدْعَةٍ مَا ثُمَّ لا تَلْبَثْنَ أَنْ تُقْلِعْنَ عَنْهَا بَعْدَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكُنَّ أَنَّهَا غَيْرُ خَلِيقَةٍ بِٱلاتِّبَاعِ . وَصَدَقَ مَنْ قَالَ : في ٱلْعَجَلَةِ ٱلنَّدَامَةُ وَفي ٱلتَّأَنِّي ٱلسَّلامَةُ .

* * *

**ٱلْجَبْهَةُ وَٱلْجَبِينُ وَمَا يَتَّصِلُ بِهِمَا مِنَ ٱلطُّرَرِ وَٱلسَّوَالِفِ :**

٣١٥ ـ ٱلْجَبْهَةُ عَلَى ٱلتَّقْرِيبِ : مَوْضِعُ ٱلسُّجُودِ مِنَ الإِنْسَانِ ، وَٱلْجَبِينَانِ يَكْتَنِفَانِهَا مِنْ جَانِبَيْهَا ، قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ في « أَدَبِ ٱلْكُتَّابِ » [ صفحة : ٣٦ ] : لا يَكَادُ ٱلنَّاسُ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ ٱلْجَبْهَةِ وَٱلْجَبِينِ ، فَٱلْجَبْهَةُ مَسْجِدُ ٱلرَّجُلِ ـ مَوْضِعُ سُجُودِهِ ـ ٱلَّذِي يُصِيبُهُ نَدَبُ ٱلسُّجُودِ[1] وَٱلْجَبِينَانِ يَكْتَنِفَانِهَا ، مِنْ كُلِّ جَانِبٍ جَبِينٌ ؛ وَقَالَ ٱبْنُ سِيدَه : ٱلْجَبِينَانِ : حَرْفَانِ مُكْتَنِفَا ٱلْجَبْهَةِ مِنْ جَانِبَيْهَا فِيمَا بَيْنَ ٱلْحَاجِبَيْنِ مُصْعِداً إِلَىٰ قُصَاصِ ٱلشَّعَرِ . [ « لسان العرب » ، مادة : جبن ] .

وَيُسْتَحَبُّ مِنَ ٱلْجَبْهَةِ ٱسْتِرْسَالُهَا وَرِقَّةُ بَشَرَتِهَا وَعَدَمُ تَغَضُّنِهَا ، وَيُقَالُ لِمَنْ كَانَ بِهَذِهِ ٱلصِّفَةِ : صَلْتُ ٱلْجَبِينِ ، وَطَلْقُ ٱلْجَبِينِ ، وَوَاضِحُ ٱلْجَبِينِ ، وَلَيْسَ وَضَحُ ٱلْجَبِينِ كِنَايَةً عَنِ ٱلْبَيَاضِ إِذْ قَدَ يُقَالُ ذَلِكَ لِمَنْ كَانَ أَسْمَرَ ، وَضِدُّ صَلْتِ ٱلْجَبِينِ وَٱلْوَاضِحِ وَٱلطَّلْقِ : ٱلأَغْضَنُ وَٱلْمَرْأَةُ غَضْنَاءُ ، وَوَاحِدُ ٱلْغُضُونِ غَضْنٌ وَغَضَنٌ ، وَتُسَمَّىٰ ٱلْغُضُونُ ٱلأَسَارِيرَ ، وَاحِدُهَا سَرَرٌ ، فَإِنَّ ٱلأَسَارِيرَ جَمْعُ أَسْرَارٍ ، وَالأَسْرَارُ جَمْعُ سَرَرٍ ، فَالأَسَارِيرُ جَمْعُ ٱلْجَمْعِ ، وَمِثْلُ ٱلسِّرَرِ سِرَارُ ، وَجَمْعُهُ عَلَىٰ هَذَا أَسِرَّةٌ ، قَالَ أَبُو كَبِيرٍ ٱلْهُذَلِيُّ [من الرجز] :

---

(١) نَدَبُ ٱلسُّجُودِ : أَثَرُهُ ، جَمْعُ نَدَبَةٍ ، وَهي في الأَصْلِ أَثَرُ ٱلْجُرْحِ إِذَا لَمْ يَرْتَفِعْ عَنِ ٱلْجِلْدِ .

وَإِذَا نَظَـرْتَ إِلَـىٰ أَسِـرَّةِ وَجْهِـهِ بَـرَقَـتْ كَبَـرْقِ ٱلْعَـارِضِ ٱلْمُتَهَلِّـلِ[١]

وَيُسْتَحَبُّ فِي ٱلْجَبْهَةِ أَيْضاً ٱتِّسَاعُهَا مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ .

٣١٦ ـ وَكَانَتْ عُلَيَّةُ بِنْتُ ٱلْمَهْدِي أُخْتُ هَارُونِ ٱلرَّشِيدِ ـ كَمَا رَوَىٰ صَاحِبُ « الأَغَانِي » ـ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ وَأَظْرَفِهِمْ ، تَقُولُ ٱلشِّعْرَ ٱلجَيِّدَ[٢] وَتَصُوغُ فِيهِ ٱلأَلْحَانَ ٱلْحَسَنَة ، وَكَانَ بِهَا عَيْبٌ : كَانَ فِي جَبِينِهَا فَضْلُ سَعَةٍ حَتّىٰ تَسْمُجَ[٣] ، فَٱتَّخَذَتِ ٱلْعَصَائِبَ ٱلْمُكَلَّلَةَ بِٱلْجَوْهَرِ لِتَسْتُرَ بِهَا جَبِينَهَا ، فَأَحْدَثَتْ وَاللهِ شَيْئاً مَا رَأَيْتُ فِيمَا ٱبْتَدَعَهُ ٱلنِّسَاءُ وَأَحْدَثْنَهُ أَحْسَنَ مِنْهُ .

* * *

**ٱلطُّرَّةُ :**

٣١٧ ـ قَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من البسيط] :

غَـرَّاءُ فَـرْعَـاءُ مَصْقُـولٌ عَـوَارِضُهَـا تَمْشِي ٱلْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي ٱلْوَجِيُّ ٱلْوَحِلُ

غَـرّاء : بَيْضَـاءُ ٱلْـوَجْـهِ ، وَعَـنِ ٱلأَصْمَعِيِّ ، قَـالَ : قُلْـتُ لأَعْـرَابِيَّـةٍ : مَا ٱلْغَرَّاءُ ؟ قَالَتْ : ٱلَّتِي بَيْنَ عَيْنَيْهَا بَلَجٌ ، وَفِي جَبْهَتِهَا ٱتِّسَاعٌ يَتَبَاعَدُ مَعَهُ قُصَّتُهَا عَنْ حَاجِبَيْهَا ، فَيَكُونُ بَيْنَهُمَا نَفْنَفٌ[٤] ؛ وَفَرْعاءُ : طَوِيلَةُ ٱلشَّعَرِ ؛ وَعَوارِضُهَا :

---

(١) ٱلْعَارِضُ : ٱلسَّحَابَةُ تَرَاهَا فِي نَاحِيَةٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ؛ وَٱلْمُتَهَلِّلُ : ٱلْمُتَلأْلِيءُ بِٱلْبَرْقِ .

(٢) وَمِنْ شِعْرِهَا [ من الرمل ] :

بُنِـيَ ٱلْحُـبُّ عَلَـىٰ ٱلْجَـوْرِ فَلَـوْ أَنْصَـفَ ٱلْمَعْشُـوقُ فِيـهِ لَسَمُـجْ
لَيْـسَ يُسْتَحْسَـنُ فـي حُكْـمِ ٱلْهَـوَىٰ عَـاشِـقٌ يُحْسِـنُ تَـأْلِيـفَ ٱلْحُجَـجْ
لا تَعِيبَـــنْ مِـــنْ مُحِـــبٍّ ذِلَّـــةً ذِلَّـــةُ ٱلْعَـــاشِـــقِ مِفْتَـــاحُ ٱلْفَـــرَجْ
وَقَلِيـلُ ٱلْحُـبِّ صِـرْفـاً خَـالِصـاً لَـكَ خَيْـرٌ مِـنْ كَثِيـرٍ قَـدْ مُـزِجْ

(٣) عِبَارَةُ « ٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ » : وَكَانَ فِي جَبْهَتِهَا سَعَةٌ تُشِينُ وَجْهَهَا .

(٤) القُصَّةُ تَتَّخِذُهَا ٱلْمَرْأَةُ فِي مُقَدَّمِ رَأْسِهَا تَقُصُّ نَاجِبَتَيْهَا عَدَا جَبِينَهَا ؛ وٱلنَّفْنَفُ : ٱلْفُرْجَةُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ .

ثَنَايَاهَا أَوْهَىٰ مَا يَبْدُو عِنْدَ ٱلضَّحِكِ ؛ وَمَصْقُولَةٌ : مَجْلُوَّةٌ ؛ وَالوَجِيُّ : ٱلَّذِي أَصَابَهُ ٱلْحَفَا ، وَٱلْحَفَا : أَنْ تَرِقَّ ٱلْقَدَمانِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْمَشْيِ ؛ وَالوَحِلُ : ٱلَّذِي ٱرْتَطَمَ فِي ٱلطِّينِ ٱلرَّقِيقِ ؛ وَهَذِهِ ٱلْقُصَّةَ ٱلَّتِي وَصَفَتِ ٱلأَعْرَابِيَّةُ هِيَ ٱلطُّرَّةُ ، وَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ لأَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ مِنْ جُمْلَةِ ٱلشَّعَرِ ، تَشْبِيهاً لَهَا بِطُرَّةِ ٱلثَّوْبِ ، وَهِيَ حاشِيَتُهُ ٱلَّتِي لا هُدْبَ لَهَا . . . وَمِنْ كَلامِ ٱلْحَرِيرِي فِي إِحْدَىٰ مَقاماتِهِ : لا وَٱلَّذِي زَيَّنَ ٱلْجِباهَ بِٱلطُّرَرِ ، وَٱلْعُيُونَ بِٱلْحَوَرِ .

٣١٨ ـ وَهُمْ يُشَبِّهُونَ أَطْرَافَ ٱلشَّعَرِ ٱلْمَصْفُونِ بِرُؤُوسِ ٱلسِّينَاتِ إِذَا كُتِبَتْ ، كَمَا يُشَبِّهُونَ ٱلسِّينَاتِ بِهَا ، قَالَ ٱلتِّهامِيُّ [ من البسيط ] :

وَفِي كِتَابِكَ ـ فَٱعْذِرْ مَنْ تَهِيمَ بِهِ ... مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ مَا فِي أَجْمَلِ ٱلصُّوَرِ
ٱلطِّرْسُ كَٱلْخَدِّ وَٱلنُّونَاتُ دَائِرَةٌ ... مِثْلُ ٱلْحَوَاجِبِ وَٱلسِّينَاتُ كَٱلطُّرَرِ

**ٱلسَّوالِفُ :**

٣١٩ ـ ٱلسَّوَالِفُ كِنَايَةٌ عَنْ خُصَلٍ مِنَ ٱلشَّعَرِ تُرسَلُ عَلَى ٱلْخَدّ ، وَاحِدُهَا سَالِفٌ وَسالِفَةٌ ، وَفَاعِلٌ إِذَا كَانَ ٱسْماً وَلَمْ يَكُنْ صِفَةً يُجْمَعُ عَلَىٰ فَواعِلَ ، وَالسَّالِفَةُ فِي ٱلأَصْلِ : صَفْحَةُ ٱلْعُنُقِ ، فَسُمِّيَتْ خُصْلَةُ ٱلشَّعْرِ ٱلمَذْكُورَةِ سَالِفَةً لِاتِّصَالِهَا شَيْئاً مِنَ ٱلاتِّصَالِ بِٱلسَّالِفَةِ ، إِذِ ٱلسَّالِفَةُ هِيَ مَوْضِعُ إِرْسَالِهَا ، وَقَدْ تُسَمَّىٰ أَيْضاً أَصْدَاغاً ، إِذِ ٱلصُّدْغُ هُوَ مُبْتَدَأُ إِرْسالِهَا ، قَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ فِي « ٱلصِّحَاحِ » : ٱلصُّدْغُ ، خُصْلَةٌ مِنَ ٱلشَّعْرِ تُرْسَلُ بَيْنَ ٱلْعَيْنِ وَٱلأُذُنِ ؛ قَالَ بَعْضُهُمْ [هُوَ أَبُو فِرَاسٍ الحَمْدَانِيُّ ، من البسيط] :

سَكِرْتُ مِنْ لَحْظِهِ لا مِنْ مُدَامَتِهِ ... وَمَالَ بِٱلنَّوْمِ عَنْ عَيْنِي تَمَايُلُهُ
وَمَا ٱلسُّلافُ دَهَتْنِي بَلْ سَوَالِفُهُ ... وَمَا ٱلشُّمُولُ ٱزْدَهَتْنِي بَلْ شَمَائِلُهُ[1]

(١) ٱلسُّلافُ : ٱلخَمر ، وَكَذَلِكَ ٱلشُّمُولُ .

أَلْـوَىٰ بِصَبْـرِيَ أَصْـدَاغٌ لُـوِيـنَ لَـهُ ... وَغُلَّ صَدْرِي بِمَا تَحْوِي غَلائِلُهُ[1]

٣٢٠ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

أَرَىٰ سَهْمَ لَحْظٍ حَوْلَ عَقْرَبِ سَالِفٍ ... وَكَيْفَ نَجَاتِي بَيْنَ سَهْمٍ وَعَقْرَبِ

وَأَلْحَظُ مَا طَلَّتْهُ بِٱللَّحْظِ مِنْ دَمِي ... عَلَىٰ وَجْنَتَيْهَا وَٱلْبَنَانِ ٱلْمُخَضَّبِ

٣٢١ ـ وَقَالَ آخَرُ وَذَكَرَ ٱلأَصْدَاغَ [من الهزج] :

ظِبَـاءٌ كَـٱلـدَّنَـانِيـرِ ... كِنَـاسٌ فِـي ٱلْمَقَـاصِيـرِ

وَقَـدْ عَقْـرَبْـنَ أَصْـدَاغـاً ... كَـأَذْنَـابِ ٱلـزَّرَازِيـرِ

٣٢٢ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الرمل] :

وَبِنَفْـسِ مَـنْ إِذَا لَمَسْتُـهُ ... نَثَـرَ الـوَرْدُ عَلَيْـهِ وَرَقَـهْ

وَإِذَا مَسَّـتْ يَـدِي أَصْـدَاغَـهُ ... أَفْلَتَـتْ مِنْهَـا فَعَـادَتْ حَلَقَـهْ[2]

---

(١) غُلَّ ، مِنَ ٱلْغَلِيلِ ، وَهُوَ هُنَا : حَرَارَةُ ٱلْحُبِّ ؛ وَٱلْغَلائِلُ ، جَمْعُ غِلالَةٍ ، وَهِيَ : ٱلشِّعَارُ يُلْبَسُ تَحْتَ ٱلثَّوْبِ ؛ وَأَلْوَىٰ بِصَبْرِي : ذَهَبَ بِهِ .

(٢) قَوْلُهُ : « فَعَادَتْ حَلَقَةً » قَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ : إِنَّ ٱلْوَجْهَ تَسْكِينُ ٱللَّامِ فِي مِثْلَيْ : حَلْقَةُ ٱلْحَدِيدِ وَحَلْقَةُ ٱلنَّاسِ ، أَمَّا حَلَقَةٌ بِفَتْحِ ٱللَّامِ ، فَهِيَ جَمْعُ حَالِقٍ ؛ وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو ٱبْنِ ٱلْعَلاءِ : حَلَقَةٌ فِي ٱلْوَاحِدِ بِتَحْرِيكِ ٱللَّامِ ، وَٱلْجَمْعُ حَلَقٌ وَحَلَقَاتٌ ؛ وَقَالَ ثَعْلَبٌ : كُلُّهُمْ يُجِيزُهُ عَلَىٰ ضَعْفِهِ ، وَأَنْشَدَ [ من الطويل ] :

مَهْـلًا بَنِـي رُومَـانَ بَعْـضَ وَعِيـدِكُـمْ ... وَإِيَّـاكُـمُ وَٱلْهُلْـبَ مِنِّـي عَضَـارِطَـا

أَرِطُّـوا فَقَـدْ أَقْلَقْتُـمُ حَلَقَـاتِكُـمْ ... عَسَـىٰ أَنْ تَفُـوزُوا أَنْ تَكُـونُـوا رَطَـائِطَـا

يَقُولُ : قَدِ ٱضْطَرَبَ أَمْرُكُمْ مِنْ بَابِ ٱلْجَدِّ وَٱلْعَقْلِ ، فَتَحَامَقُوا عَسَىٰ أَنْ تَفُوزُوا بِجَهْلِكُمْ وَحُمْقِكُمْ ، وَفِي ٱلْمَثَلِ : « أَرِطِّي فَإِنَّ خَيْرَكِ فِي ٱلرَّطِيطِ » يُضْرَبُ لِلأَحْمَقِ ٱلَّذِي لا يُرْزَقُ إِلَّا بِٱلْحُمْقِ ، فَإِنْ ذَهَبَ يَتَعَاقَلُ حُرِمَ ؛ وَٱلْهُلْبُ جَمْعُ أَهْلَبَ ، وَهُوَ ٱلْكَثِيرُ شَعَرِ ٱلأُنْثَيَيْنِ ؛ وَٱلْعُضْرُطُ : ٱلْعِجَانُ ، أَوْ ٱلْخَطُّ ٱلَّذِي مِنَ ٱلذَّكَرِ إِلَىٰ ٱلدُّبُرِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ ٱلأَهْلَبَ ٱلْعُضْرُطَ لا يُطَاقُ ؛ وَأَرِطُّوا : أَحْمِقُوا ؛ وَرَطَائِطاً : حَمْقَىٰ ؛ وَقَوْلُهُ : أَقْلَقْتُمْ حَلَقَاتِكُمْ ، أَيْ : أَفْسَدْتُمْ عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ .

=

٣٢٣ ـ وَهَذَا الآخِرُ قَدْ أَخَذَ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ مِنْ حَدِيثٍ يُرْوَىٰ عَنِ ٱلْمُغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ، قَالَ : حَجَجْتُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلامٌ وَعَلَيَّ جُمَّةٌ ، فَجِئْنَا لِلسَّلَامِ عَلَىٰ عُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَجَعَلَ يَمُدُّ ٱلْخُصْلَةَ مِنْ شَعَرِي ثُمَّ يُرْسِلُهَا ، فَتَرْجِعُ إِلَّا مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : وَاشَبَابَاهُ . . .

٣٢٤ ـ وَمِمَّا وُصِفَ بِهِ ٱلصُّدْغُ ـ وَٱلْمُرَادُ بِهِ كَمَا أَسْلَفْنَا ٱلشَّعَرُ ٱلْمُتَدَلِّي عَلَىٰ ٱلصُّدْغَيْنِ ، وَهُمَا مَا بَيْنَ ٱلْعَيْنِ وَٱلأُذُنِ ـ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَبْدِ اللهِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ [من الكامل] :

رِيمٌ ، يَتِيهُ بِحُسْنِ صُورَتِهِ ... عَبَثَ ٱلْفُتُورُ بِلَحْظِ مُقْلَتِهِ[1]
فَكَأَنَّ عَقْرَبَ صُدْغِهِ وَقَفَتْ ... لَمَّا دَنَتْ مِنْ نَارِ وَجْنَتِهِ

٣٢٥ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الخفيف] :

أَبَداً نَحْنُ فِي خِلَافٍ ، فَمِنِّي ... فَرْطُ حُبٍّ وَمِنْكَ لِي فَرْطُ بُغْضِ
فَبِصُدْغَيْكَ فَوْقَ خَطِّ عِذارٍ ... ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضِ[2]

٣٢٦ ـ وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ [من الوافر] :

وَعَهْدِي بِٱلْعَقَارِبِ حِينَ تَشْتُو ... تُخَفِّفُ لَدْغَهَا وَتُقِلُّ ضُرَّا

---

= وَقَدْ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ حَلقَةً في حَلْقَةِ ٱلْقَوْمِ ، قَالَ [من الرجز] :

يَا أَيُّهَا ٱلْجَالِسُ وَسْطَ ٱلْحَلَقَهْ ... أَفِي زِناً قُطِعَتْ أَمْ فِي سَرِقَهْ

وَفي ٱلْمَثَلِ : « هُمْ كَٱلْحَلَقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لا يُدْرَىٰ أَيُّهَا طَرَفُهَا » يُضْرَبُ مَثَلًا لِلْقَوْمِ إِذَا كَانُوا مُجْتَمِعِينَ مُؤْتَلِفِينَ ، كَلِمَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَاحِدَةٌ ، لا يَطْمَعُ عَدُوُّهُمْ فِيهِمْ وَلا يَنَالُ مِنْهُمْ .

(١) ٱلرِّيمُ : ٱلظَّبْيُ ٱلْخَالِصُ ٱلْبَيَاضِ ، شَبَّهَ صَاحِبَهُ بِهِ .

(٢) ٱلْعِذَارُ في ٱلأَصْلِ : مَا سَالَ مِنَ ٱللِّجَامِ عَلَىٰ خَدِّ ٱلْفَرَسِ ، وَٱلْمُرَادُ هُنَا : ٱلْخُصْلَةُ مِنَ ٱلشَّعَرِ ٱلَّتِي تُحَاذِي ٱلأُذُنَ في ٱلْفِتْيَانِ .

فَمَـا بَـالُ ٱلشِّتَـاءِ أَتَـىٰ وَهَـذَا ... عَقَـارِبُ صُـدْغِـهِ يَـزْدَدْنَ شَـرَّا

٣٢٧ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْفَتْحِ كُشَاجِمُ [من الكامل] :

ومَنَعْـنَ وَرْدَ خُـدودِهِـنَّ فَلَـمْ نُطِـقْ ... قَطْفـاً لَهَـا لِعَقَـارِبِ ٱلأَصْـدَاغِ

٣٢٨ ـ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ الأَنْدَلُسِيُّ أَبُو ٱلصَّلْتِ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ [من الكامل] :

دَبَّ ٱلْعِـذَارُ بِخَـدِّهِ ثُـمَّ ٱنْثَنَـىٰ ... عَن لَثْمِ مَبْسِمِهِ ٱلبَرُودِ ٱلأَشْنَبِ(١)

لا غَـرْوَ أَنْ خَشِـيَ ٱلـرَّدَىٰ في لَثْمِـهِ ... فَـٱلـرِّيـقُ سُـمٌّ قَـاتِـلٌ لِلْعَقْـرَبِ(٢)

* * *

**ٱلْخُدُودُ وَٱلوَجْنَاتُ :**

٣٢٩ ـ ٱلْخَدَّانِ مِنَ ٱلْوَجْهِ : جَانِبَاهُ ، وَهُمَا مِنْ لَدُنْ مَحْجِرِ ٱلْعَيْنِ إِلَىٰ ٱللَّحْيِ ، أَوْ مَا جَاوَزَ مُؤْخِرَ ٱلْعَيْنِ إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ ٱلشِّدْقِ مِنْ جَانِبَيِّ الوَجْهِ ، وَٱلْوَجْنَتَانِ : مَا نَتَأَ مِنْ لَحمِ ٱلْخَدَّيْنِ ، وَيُقَالُ : وَجْنَةٌ وَوِجْنَةٌ وَوُجْنَةٌ وَوَجَنَةٌ وَأُجْنَةٌ وَإِجْنَةٌ وَأَجْنَةٌ . . .

٣٣٠ ـ وَٱلشُّعَرَاءُ يُشَبِّهُونَ حُمْرَةَ ٱلْخَدِّ بِحُمْرَةِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلْوَرْدِ وَحُمْرَةِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْجَمْرِ وَٱلدَّمِ ، وَنَحْنُ نُورِدُ عَلَيْكَ بَعْضَ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في ٱلْخُدُودِ وَٱلْوَجْنَاتِ .

٣٣١ ـ قَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من المنسرح] :

يـا وَجْنَتَيْـهِ ٱللَّتَيْـنِ مِـنْ بَهَـجٍ ... فِـي صُدُغَيْـهِ ٱللَّـذَيْـنِ مِنْ دَعَـجٍ(٣)

---

(١) ٱلشَّنَبُ : مَاءٌ وَرِقَّةٌ تَجْرِي عَلَىٰ ٱلثَّغْرِ مَعَ بَرْدٍ وَعُذُوبَةٍ فِي ٱلْفَمِ .

(٢) لا غَرْوَ : لا عَجَبَ ، لَمَّا شَبَّهَ عِذَارَهُ ـ ٱلشَّعْرَ ٱلْمُتَدَلِّيَ عَلَىٰ صُدْغِهِ ـ بِٱلْعَقْرَبِ فِي ٱلالْتِوَاءِ وَٱلانْعِطَافِ ؛ عَلَّلَ عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلتَّخَيُّلِ ٱلْبَدِيعِ عَدَمَ دُنُوِّ عِذَارِهِ مِنْ فَمِهِ وَبُعْدِهِ عَنْهُ بِأَنَّهُ يَخْشَىٰ ٱلْهَلاكَ مِنْ رِيقِهِ لِمَا زَعَمُوهُ أَنَّ ٱلرِّيقَ قَاتِلٌ لِلْعَقْرَبِ .

(٣) ٱلدَّعَجُ هُنَا : ٱلسَّوَادُ ، أَي : سَوَادُ صُدْغَيْهِ ، وَهُمَا ـ أَي : ٱلصُّدْغَانِ ـ ٱلْخُصَلُ مِنَ ٱلشَّعْرِ =

مَـا حُمْـرَةُ فِيكُمَـا : أَمِـنْ خَجَـلٍ أَمْ صِبْغَـةُ ٱللهِ ، أَمْ دَمُ ٱلْمُهَـجِ ؟

٣٣٢ ـ وَقَالَ أَيْضاً [من الخفيف] :

وغَـزَالٍ تَـرَىٰ عَلَـىٰ وَجْنَتَيْـهِ قَطْرَ سَهْمَيْهِ مِنْ دِماءِ ٱلْقُلُوبِ[١]

لَهْـفَ نَفْسِي لِتِلْـكَ مِـنْ وَجَنَاتٍ وَرْدُهَـا وَرْدُ شَـارِقٍ مَهْضُـوبِ[٢]

أُنْهِلَـتْ صِبْـغَ نَفْسِهَـا ثُـمَّ عُلَّـتْ مِـنْ دِمَـاءِ ٱلْقَتْلَـىٰ بِغَيْـرِ ذُنُـوبِ

جَـرَحَتْـهُ ٱلْعُيُـونُ فَـٱقْتَـصَّ مِنْهَـا بِجَوًى فِي ٱلْقُلُوبِ دَامِي ٱلنُّدُوبِ[٣]

٣٣٣ ـ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ٱبْنُ دُرَيْدٍ : أَنْشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَاقُوتَ لِنَفْسِهِ [من المنسرح] :

يَصْفَـرُّ لَـوْنِـي إِذَا تَـأَمَّلَـهُ طَـرْفِـي وَيَحْمَـرُّ خَـدُّهُ خَجَـلَا

حَتَّـىٰ كَـأَنَّ ٱلَّـذِي بِـوَجْنَتِـهِ مِـنْ دَمِ قَلْبِـي إِلَيْـهِ قَـدْ نُقِـلَا

٣٣٤ ـ وَقَالَ ٱلْوَأْوَاءُ ٱلدِّمَشْقِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ « ٱلْيَتِيمَةِ » [من السريع] :

لا تَظْلِمُـوا ٱلنَّـاسَ وَلا تَطْلُبُـوا بِثَـارِي ٱلْيَـوْمَ أَذَىٰ مُسْلِـمِ

وَيَـا لِقَـوْمِـي دُونَكُـمُ شَـادِنـاً مُعتَـدِلَ ٱلْقَـامَـةِ وَٱلْمَبْسَـمِ

فَـإِنْ أَبَـىٰ إِلَّا جُحُـودَ ٱلْهَـوَىٰ وَٱكْتَتَـمَ ٱلأَمْـرَ وَلَـمْ يُعْلَـمِ

قُـولُـوا لَـهُ يَكْشِـفُ عَـنْ خَـدِّهِ فَـإِنَّ فِيـهِ نُقَطـاً مِـنْ دَمِـي

٣٣٥ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْقَاسِمِ عَبْدُ ٱلْغَفَّارِ ٱلْمِصْرِيُّ أَحَدُ شُعَرَاءِ « ٱلْيَتِيمَةِ » [من

---

= ٱلْمُرْسَلَةِ بَيْنَ ٱلْعَيْنِ وَٱلأُذُنِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ .

(١) قَطْرُ سَهْمَيْهِ ، فَسَهْمَاهُ هُنَا : كِنَايَةٌ عَنْ عَيْنَيْهِ ، فَعَيْنَاهُ تَقْطُرُ دَماً تَسَرَّبَ إِلَيْهِمَا مِنْ دِمَاءِ قُلُوبِ مُحِبِّيهِ .

(٢) مَهْضُوبٌ : مَمْطُورٌ ، يَعْنِي : وَرْدُ ٱلشُّرُوقِ ٱلَّذِي بَلَّلَهُ ٱلْمَطَرُ .

(٣) ٱلنُّدُوبُ : ٱلْجُرُوحُ أَوْ أَثَرُهَا .

مجزوء الكامل] :

وَرْدُ ٱلْخُدُودِ أَرَقُّ مِنْ وَرْدِ ٱلرِّيَاضِ وَأَنْعَمُ
هَذَا تَنَشَّقُهُ ٱلأُنُوفُ وَذَا يُقَبِّلُهُ ٱلْفَمُ
فَإِذَا عَدَلْتَ فَأَفْضَلُ ٱلْوَرْدَيْنِ وَرْدٌ يُلَثَّمُ

٣٣٦ ـ وَقَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ [من مجزوء الكامل] :

بِأَبِي ٱلثَّلاثُ ٱلآنِسَاتُ ٱلرَّائِقَاتُ ٱلغَانِيَاتْ
أَقْبَلْنَ ، وَٱلأَصْدَاغُ فِي وَجَنَاتِهِنَّ مُعَقْرَبَاتْ[1]
أَلْفَاظُهُنَّ مُؤَنَّثَاتٌ وَٱلْجُفُونُ مُذَكَّرَاتْ
حَتَّىٰ إِذَا عَايَنْتَهُنَّ وَلِلأُمُورِ مُسَبِّبَاتْ
جَمَّشْتَهُنَّ وَقُلْتَ طِيبُ عِنَاقِكُنَّ هُوَ ٱلْحَيَاةْ
فَخَجِلْنَ حَتَّىٰ خِلْتَ أَنَّ خُدُودَهُنَّ مُعَصْفَرَاتْ[2]

٣٣٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الرمل] :

تَشْرَعُ ٱلأَلْحَاظُ فِي وَجْنَتِهَا فَتُلاقِي ٱلرِّيَّ مِنْ مَشْرَبِهَا
فَهْيَ حَسْبُ ٱلْعَيْنِ مِنْ نُزْهَتِهَا وَهْيَ حَسْبُ ٱلأُذْنِ مِنْ مَطْرَبِهَا

٣٣٨ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من الكامل] :

نُجُلُ ٱلْعُيُونِ سَوَاحِرُ ٱللَّحَظَاتِ هَيَّجْنَ مِنْكَ سَوَاكِنَ ٱلْحَرَكَاتِ
أَقْبَلْنَ يَرْمِينَ ٱلْجِمَارَ تَنَسُّكاً فَجَعَلْنَ قَلْبَكَ مَوْضِعَ ٱلْجَمَرَاتِ
فَكَأَنَّهُنَّ غُصُونُ بَانٍ نَاعِمٍ يَحْمِلْنَ تُفَّاحاً عَلَىٰ ٱلْوَجَنَاتِ

---

(١) ٱلأَصْدَاغُ هُنَا : ٱلشَّعَرُ ٱلْمُرْخِيُّ بَيْنَ ٱلأُذُنِ وَٱلْعَيْنِ ، وَهِيَ : ٱلسَّوَالِفُ ؛ وَمُعَقْرَبَاتٌ : مَلْوِيَّةٌ كَٱلْعَقْرَبِ .

(٢) مُعَصْفَرَاتٌ : مَصْبُوغَةٌ بِٱلْعُصْفُرِ ، وَهُوَ صِبْغٌ أَصْفَرُ ٱللَّوْنِ .

٣٣٩ ـ وَقَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ ٱلأَنْدَلُسِ [من المنسرح] :

مَالِي بِجَوْرِ ٱلْحَبِيبِ مِنْ قِبَلِ ... هَلْ حَاكِمٌ عَادِلٌ فَيَحْكُمَ لِي

حُمْرَةُ خَدَّيْهِ مِنْ دَمِي صُبِغَتْ ... وَيَدَّعِي أَنَّهَا مِنَ ٱلْخَجَلِ

٣٤٠ ـ وَقَالَ تَمِيمُ ٱبْنُ ٱلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللهِ ٱلْفَاطِمِيّ [من البسيط] :

نَاوَلْتُهَا شِبْهَ خَدَّيْهَا مُعَتَّقَةً ... صِرْفاً كَأَنَّ سَنَاهَا ضَوْءُ مِقْيَاسِ

فَقَبَّلْتُهَا وَقَالَتْ وَهِي ضَاحِكَةٌ ... فَكَيْفَ تَهْدِي خُدُودَ ٱلنَّاسِ لِلنَّاسِ

قُلْتُ: ٱشْرَبِي فَهِيَ مِنْ دَمْعِي وَحُمْرَتُهَا ... دَمِي وَطَابِخُهَا فِي ٱلْكَاسِ أَنْفَاسِي

قَالَتْ فَإِنْ كُنْتَ مِنْ حُبِّي بَكَيْتَ دَماً ... فَأَسْقِنِيهَا عَلَىٰ ٱلْعَيْنَيْنِ وَٱلرَّاسِ

يَا لَيْلَةً بَاتَ فِيهِ ٱلْبَدْرُ مُعْتَنِقِي ... وَبَاتَتِ ٱلشَّمْسُ فِيهَا بَعْضَ خُلَّاسِ

وَبِتُّ مُسْتَغْنِياً بِٱلثَّغْرِ عَنْ قَدَحٍ ... وَبِٱلْخُدُودِ عَنِ ٱلتُّفَّاحِ وَالآسِ

* * *

## ٱلنُّحُورُ وَٱلصُّدُورُ :

٣٤١ ـ ٱلنَّحْرُ : مَوْضِعُ ٱلْقِلَادَةِ مِنَ ٱلصَّدْرِ ؛ وَمِثْلُهُ : ٱللَّبَّةُ ، وَٱللَّبَبُ ، وَٱلْجَمْعُ : لَبَّاتٌ ، وَلِبَابٌ ؛ وَمِثْلُهَا : ٱلتَّرِيبَةُ ، وَٱلْجَمْعُ تَرَائِبُ ، قَالَ عَزَّ وَجلَّ : ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [٨٦ سورة الطارق/ الآيتان: ٦و٧].

٣٤٢ ـ وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَٱلسَّجَنْجَلِ

ٱلْمُهَفْهَفَةُ : ٱللَّطِيفَةُ ٱلْخَصْرِ ٱلضَّامِرَةُ ٱلْبَطْنِ ؛ وَٱلْمُفَاضَةُ : ٱلْعَظِيمَةُ ٱلْبَطْنِ ٱلْمُسْتَرْخِيَةُ ٱللَّحْمِ ؛ وَٱلصَّقْلُ : إِزَالَةُ ٱلصَّدَأِ وَٱلدَّنَسِ وَنَحْوِهِمَا ؛ وَٱلسَّجَنْجَلُ : ٱلْمِرْآةُ.

يَقُولُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ : هِيَ ٱمْرَأَةٌ دَقِيقَةُ ٱلْخَصْرِ ، ضَامِرَةُ ٱلْبَطْنِ ، غَيْرُ عَظِيمَةِ ٱلْبَطْنِ وَلا مُسْتَرْخِيَتُهُ ، وَصَدْرُهَا صَافٍ مُتَلأْلِئٌ تَلأْلُؤَ ٱلْمِرْآةِ .

٣٤٣ ـ فَكُلٌّ مِنَ ٱلنَّحْرِ وَاللَّبَّةِ وَٱلتَّرِيبَةِ : مَوْضِعُ ٱلْقِلادَةِ مِنَ ٱلصَّدْرِ .

٣٤٤ ـ وَقَالَ ٱلْحماسِيُّ ، وَهُوَ زِيادُ بْنُ مُنْقِذٍ [من البسيط] :

سُـــودٌ ذَوَائِبُهَـــا بِيــضٌ تَــرَائِبُهَــا ... دُرْمٌ مَــرَافِقُهَــا فــي خَلْقِهَــا عَمَــمُ

سُودٌ ذَوَائِبُهَا : يَقُولُ : إِنَّ شَعْرَهَا أَسْوَدُ ، لأَنَّهَا شَابَّةٌ ؛ أَمَّا قَوْلُهُ : دُرْمٌ مَرَافِقُهَا ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : مِرْفَقٌ أَدْرَمُ : إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَجْمٌ لاِكْتِنَازِهِ بِٱللَّحْمِ ، أَيْ : إِنَّ مَرَافِقَهَا مُمْتَلِئَةٌ لَحماً ؛ وَفي خَلْقِهَا عَمَمُ ، أَي : طُولٌ أَوْ تَمَامٌ وَكَمالٌ .

٣٤٥ ـ وَقَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من السريع] :

عَهْدِي بِهَا فِي ٱلْحَيِّ قَدْ سُرْبِلَتْ ... هَيْفَــاءَ مِثْــلَ ٱلْمُهْــرَةِ ٱلضَّــامِــرِ
قَــدْ حَجَــمَ ٱلثَّـدْيُ عَلَـىٰ صَـدْرِهَـا ... فِــي مُشْــرِقٍ ذِي بَهْجَــةٍ نَــاصِــرِ
يَشْفِــي غَلِيــلَ ٱلصَّــدْرِ لاهٍ بِهَــا ... حَــوْرَاءَ تُصْبِــي نَظَــرَ ٱلنَّــاظِــرِ
لَيْسَـــتْ بِسَـــوَاءَ وَلا عِنْفِـــصٍ ... تُسَــارِقُ ٱلطَّــرْفَ إِلَــىٰ الــدَّاعِــرِ
عَبْهَـــرَةُ ٱلْخَلْـــقِ لُبَـــاخِيَّـــةٌ ... تَــزِينُــهُ بِــٱلْخُلُــقِ ٱلطَّــاهِــرِ
لَــوْ أَسْنَـدَتْ مَيْتـاً إِلـىٰ نَحْـرِهَـا ... عَــاشَ وَلَــمْ يُنْقَــلْ إِلَــىٰ قَــابِــرِ
حَتَّــى يَقُــولَ ٱلنَّــاسُ مِمّــا رَأَوْا ... يَــا عَجَبــاً لِلْمَيْــتِ ٱلنَّــاشِــرِ

حَجَمَ ٱلثَّدْيُ يَحْجُمُ حُجُوماً : بَدَا وَنَهَدَ ؛ وَالعِنْفِصُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلدَّاعِرُ ، ٱلْفَاجِرَةُ الفاسِقَةُ ؛ وَعَبْهَرَةُ ٱلْخَلْقِ : حَسَنَةُ ٱلْخَلْقِ ؛ وَلُبَاخِيَّةٌ : كَثِيرَةُ ٱللَّحْمِ ضَخْمَةُ بَاطِنِ ٱلْفَخْذَيْنِ ؛ وَٱلنَّاشِرُ : مِنْ نَشَرَ ٱلمَيِّتَ : حَيِيَ ؛ يُقَالُ : نَشَرَ ٱللهُ ٱلْمَيْتَ يَنْشُرُهُ نَشْراً وَنُشُوراً ، وَأَنْشَرَهُ : أَحْيَاهُ ، فَنَشَرَ ٱلمَيْتَ ، لا غَيْرَ .

٣٤٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من المتقارب] :

وَذَاتِ دَلالٍ سَبَتْ مُهْجَتِي بِمُسْتَشْرِفَيْنِ عَلَىٰ مَرْمَرِ
كَأَنَّ ٱلْعُقُودَ عَلَىٰ نَحْرِهَا نُجومٌ نَظَرْنَ إِلَىٰ ٱلْمُشْتَرِي

٣٤٧ ـ وَقَبْلَهُ قَالَ ٱلْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ ٱلْمَخْزُومِيُّ [من السريع] :

كَأَنَّمَا ٱلْحَلْيُ عَلَىٰ نَحْرِهَا نُجُومُ فَجْرٍ سَاطِعٍ أَبْلَجِ

٣٤٨ ـ وَقَالَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ أبي طَالِبٍ ، وَكَانَ هَذَا ٱلْعَبَّاسِيُّ مِنْ شُعَراءِ بَنِي هَاشِمٍ وَهُوَ يُعَدُّ في طَبَقَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْمَهْدِيِّ :

أَتَاحَ لَكَ ٱلْهَوَىٰ بِيضٌ حِسَانٌ سَبَيْنَكَ بِٱلْعُيُونِ وَبِٱلشُّعُورِ[1]
نَظَرْتَ إِلَىٰ ٱلنُّحُورِ فَكِدْتَ تَقْضِي وَأَوْلَىٰ لَوْ نَظَرْتَ إِلَىٰ ٱلْخُصُورِ[2]

٣٤٩ ـ وَهُمْ يَصِفُونَ ٱلنُّحُورَ أَحْيَاناً بِٱلصُّفْرَةِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِصُفْرَةِ ٱلطِّيبِ ـ الخَلُوقِ وَالزَّعْفَرَانِ وَنَحْوِهِمَا ـ وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ لِصُفْرَةِ ٱلْحُلِيِّ ٱلْمُذْهَبِ ، قَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من الطويل] :

وَصَفْراءَ مِثْلَ ٱلزَّعْفَرانِ شَرِبْتُهَا عَلَىٰ صَوْتِ صَفْرَاءِ ٱلتَّرَائِبِ رُودِ[3]
حَسَدْتُ عَلَيْهَا كُلَّ شَيْءٍ يَمَسُّهَا وَمَا كُنْتُ لَوْلا حُبُّهَا بِحَسُودِ

٣٥٠ ـ وَقَبْلَهُ قَالَ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ مَطِيرٍ [من الطويل] :

وَصُفْرٍ تَرَاقِيهَا وَحُمْرٍ أَكُفُّهَا وَسُودٍ نَوَاصِيهَا وَبِيضٍ خُدُودُها

---

(١) سَبَيْنَكَ ، سَبَاهُ : فتنَهُ وَأَسَرَهُ بِحُبِّهِ .
(٢) تَقْضِي : تَمُوتُ .
(٣) عَلَىٰ صَوْتِ صَفْرَاءِ ٱلتَّرَائِبِ ، يُرْوَىٰ : عَلَىٰ نَحْرِ صَفْرَاءِ ٱلتَّرَائِبِ ؛ وَٱلرُّودُ [أَصْلُهَا : ٱلرُّؤْدُ ، وَهِيَ : ٱلتُّؤَدَةُ وَٱلتَّمَهُّلُ] .

وَهَذَا ٱلْبَيْتُ مِنْ أَبْيَاتٍ غَزَلِيَّةٍ جَمِيلَةٍ ، يَقُولُ فِيهَا [من الطويل] :

لَقَدْ كُنْتُ جَلْداً قَبْلَ أَنْ تُوقِدَ ٱلنَّوَىٰ ... عَلَىٰ كَبِدِي نَاراً بَطِيئاً خُمُودُهَا

وَلَوْ تُرِكَتْ نَارُ ٱلْهَوَىٰ لَتَضَرَّمَتْ ... وَلَكِنَّ شَوْقاً كُلَّ يَوْمٍ يَزِيدُهَا(١)

وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تَمُوتَ صَبَابَتِي ... إِذَا قَدُمَتْ أَيَّامُهَا وَعُهُودُهَا

فَقَدْ جَعَلَتْ فِي حَبَّةِ ٱلْقَلْبِ وَٱلحَشَا ... عِهادُ ٱلْهَوَىٰ تُولِي بِشَوْقٍ يُعِيدُهَا(٢)

لَمُرْتَجَّةِ ٱلأَطْرَافِ هِيفٍ خُصُورُهَا ... عِذابٍ ثَنَايَاهَا عِجَافٍ قُيُودُهَا(٣)

وصُفْرٍ تَرَاقِيهَا . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . ٱلْبَيْتُ

مُخَصَّرَةِ ٱلأَوْسَاطِ زَانَت عُقُودُهَا ... بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْهَا عقُودُهَا

يُمَنِّينَنَا حَتَّىٰ تَرِفَّ قُلُوبُنَا ... رَفِيفَ ٱلْخُزامَىٰ بَاتَ طَلٌّ يَجُودُهَا(٤)

* * *

---

(١) لَتَضَرَّمَتْ ، يُرْوَىٰ : لَتَصَرَّمَتْ ؛ قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ فِي شَرْحِهِ لِـ« الأَمَالِي » [صفحة : ٤٢٥] : فَمَنْ رَوَاهُ بِالضَّادِ ٱلْمُعْجَمَةِ فَمَعْنَاهُ : لَوْ تُرِكَتْ لَمْ تَزَلْ مُتَضَرِّمَةً مُتَّصِلَةَ ٱلْوُقُودِ ، فَكَيْفَ بِزِيَادَتِهَا ضِراماً كُلَّ يَوْمٍ ؛ وَمَنْ رَوَاهُ بِصَادٍ مُهْمَلَةٍ فَمَعْنَاهُ : لَوْ تُرِكَتْ لَخَمَدَتْ وَهَمَدَتْ ، وَلَكِنَّهَا تُذْكَىٰ كُلَّ يَوْمٍ ؛ وَهُمَا مَذْهَبَانِ لِلشُّعَراءِ ، وَٱلأَوَّلُ أَبْلَغُ .

(٢) تُولِي بِشَوْقٍ يُعِيدُهَا ، تُرْوَىٰ : يُولَىٰ بِشَوْقٍ بَعِيدُهَا ، أَيْ يُولَىٰ بَعِيدُهَا بِشَوْقٍ ، وَٱلْعِهَادُ جَمْعُ عَهْدٍ ، وَهُوَ : ٱلْمَطَرُ ٱلأَوَّلُ .

(٣) قُيُودُهَا ، أَي : قُيُودُ ٱلثَّنَايا ، وَهِي ٱللِّثَاتُ وَٱلْعُمُورُ .

(٤) قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ : قَالَ ٱبْنُ ٱلأَعْرَابِي : تَرِفُّ قُلُوبُنَا ، أَي : تَبْرُقُ ، قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ : وَلَيْسَ لِلْبَرِيقِ هُنَا مَعْنَىٰ ، وَبَرِيقُ ٱلْقَلْبِ شَيْءٌ غَيْرُ مَعْرُوفٍ وَلا مَحْسُوسٍ وَلا مَرْئِيٍّ ، وَإِنَّمَا تَرِفُّ هُنَا : تَتَحَرَّكُ ثِقَةً بِنَيْلِ ٱلْمُنَىٰ مِنْهُنَّ حَرَكَةَ ٱخْتِلاجٍ لا حَرَكَةَ خَفَقَانٍ ، لأَنَّ ٱلْخَفَقَانَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ ٱلذُّعْرِ ، وَشَبَّهَ ٱلشَّاعِرُ تِلْكَ ٱلْحَرَكَةَ بِحَرَكَةِ ٱلْخُزامَىٰ ـ نَبْتٌ زَهْرُهُ مِنْ أَطْيَبِ ٱلأَزْهَارِ ـ إِذَا ثَقُلَتْ بِٱلطَّلِّ ، وَهِيَ حَرَكَةٌ ضَعِيفَةٌ ، أَصَابَهُ بِٱلْجُودِ ، وَهُوَ ٱلْمَطَرُ ٱلْغَزِيرُ ؛ وَٱلطَّلُّ : ٱلْمَطَرُ ٱلضَّعِيفُ أَوِ ٱلنَّدَىٰ ، وَٱلْجُودُ فِي ٱلأَصْلِ : ٱلْمَطَرُ ٱلْغَزِيرُ ، وَلَكِنَّ ٱلْمُرادَ هُنَا : بَاتَ ٱلْمَطَرُ يُصِيبُهَا .

## ٱلأُنوفُ :

٣٥١ ـ هُمْ يَصِفُونَ ٱلأنْفَ بِٱلشَّمَمِ ، قَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ : ٱلشَّمَمُ : ٱرْتِفَاعٌ في قَصَبَةِ ٱلأَنْفِ مَعَ ٱسْتِوَاءِ أَعْلاهُ وَإِشْرَافِ ٱلأَرْنَبَةِ قَلِيلًا ، فَإِنْ كَانَ فِيهَا ٱحْدِيدَابٌ فَهُو ٱلْقَنَا ؛ وَٱلشَّمَمُ فِي صِفَاتِ ٱلْجَمَالِ وَعُنْوَانُ ٱلسُّؤْدُدِ ؛ وَفي ٱلرِّجَالِ ، قَالَ حَسَّانُ ابْنُ ثَابِتٍ [من الكامل] :

بِيضُ ٱلْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ ٱلأُنُوفِ مِنَ ٱلطِّرَازِ الأَوَّلِ

٣٥٢ ـ وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ مِنْ قَصِيدَتِهِ « بَانَتْ سُعَادُ » [من البسيط] :

شُمُّ ٱلْعَرَانِينَ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ في ٱلْهَيْجَا سَرَابِيلُ[١]

ٱلْعَرَانِينُ : ٱلأُنُوفُ ؛ وَشُمُّ ٱلعَرَانِينِ : كِنَايَةٌ عَنِ ٱلرِّفْعَةِ وَٱلْعُلُوِّ وَشَرَفِ ٱلنَّفْسِ .

٣٥٣ ـ وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ مِنْ أَبْيَاتٍ مَشْهُورَةٍ في عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلْمَعْرُوفِ بِزَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ ، وَقَدْ عَزَاهَا أَبُو تَمَّامٍ في «حَمَاسَتِهِ» لِلْمزينِ ٱللَّيْثِيِّ[٢] [من البسيط] :

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهَا عَبِقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ[٣]

---

(١) أَبطالٌ : شُجْعَانٌ ؛ وَقَوْلُهُ : لَبُوسُهُمْ . . . الخ يَقُولُ : إِنَّهُمْ يَلْبسُونَ في ٱلْهَيْجَا ، أَيْ : ٱلْحَرْبُ ، ٱلدُّرُوعَ ٱلْمَنِيعَةَ ٱلْمُتْقَنَةَ ٱلصُّنْعِ ، لِأَنَّهُ جَعَلَهَا مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ ٱلَّذِي أَلانَ ٱللهُ لَهُ ٱلْحَدِيدَ وَعَلَّمَهُ صَنْعَةَ ٱلدُّرُوعِ ، يَصِفُ ٱلْمُهَاجِرِينَ بِأَنَّهُمْ ذَوُو رِفْعَةٍ وَعُلُوِّ مِقْدَارٍ وَأَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ في غَايَةٍ مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَمَنْعَةٍ مِنَ ٱلسِّلاحِ .

(٢) [ كَذَا الأَصْلُ ، وَلَعَلَّ ٱلصَّوابَ : الحَزِين الديلي ٱلْكِنَانِيّ ، وهو عَمْرو بن عُبَيْد بْنِ وُهَيْب ، ٱلْمُتَوَفَّىٰ في ٱلرُّبْعِ الأَخِيرِ من القَرْنِ الأَوَّلِ الهجري . وَرَاجِعْ « لِسَانَ العَرَبِ » مادَّة : جنة ] .

(٣) ٱلْخَيْزُرَانُ هُنَا : ٱلْمِخْصَرَةُ ٱلَّتِي يُمْسِكُهَا ٱلْمُلُوكُ بِأَيْدِيهِمْ يُشِيرُونَ بِهَا وَيَتَعَبَّثُونَ ؛ وَٱلأَرْوَعُ : =

٣٥٤ ـ وَمِنْ أَوْصَافِ ٱلأَنْفِ ٱلذَّلَفُ ـ بِٱلذَّالِ ٱلْمُعْجَمَةِ ـ قَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ : هُوَ صِغَرُ ٱلأَنْفِ وَٱسْتِوَاءُ ٱلأَرْنَبَةِ ، وَهُوَ مِمّا يُسْتَحْسَنُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ ، قَالَ أَبُو ٱلنَّجْمِ [من الكامل] :

لِلَّثْمِ عِنْدِي بَهْجَةٌ وَمَزِيَّةٌ ... وَأُحِبُّ بَعْضَ مَلاحَةِ ٱلذَّلْفاءِ

٣٥٥ ـ وَمِنْهُ سُمِّيَتِ ٱمْرَأَةٌ ، قَالَ ٱلشَّاعِرُ [من المديد] :

إِنَّمَا ٱلذَّلْفَاءُ يَاقُوتَةٌ ... أُخْرِجَتْ مِنْ كِيسِ دِهْقَانِ

٣٥٦ ـ وَمِنْ صِفَاتِ ٱلأَنْفِ ٱلمَعِيبَةِ : ٱلْخَنَسُ ، وَهُوَ قِصَرُ ٱلأَنْفِ وَٱرْتِفَاعٌ يَسِيرٌ في ٱلأَرْنَبَةِ ، كَأُنُوفِ ٱلظِّبَاءِ وَٱلْبَقَرِ .

٣٥٧ ـ وَحَكَىٰ ٱلأَصْمَعِيُّ ، قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ ٱلرَّشِيدِ يَوْماً إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ بِجارِيَةٍ يُرِيدُ بَيْعَهَا ، فَتَأَمَّلَهَا ٱلرَّشِيدُ ، ثُمَّ قَالَ : خُذْ جارِيَتَكَ ، فَلَوْلا خَنَسٌ بِأَنْفِهَا ، وَكَلَفٌ بِوَجْهِهَا[1] لاشْتَرَيْتُهَا ؛ فَٱنْطَلَقَ ٱلرَّجُلُ بِهَا ، فَلَمَّا بَلَغَتِ ٱلْبَابَ طَلَبَتِ ٱلرُّجُوعَ ، فَأَمَرَ ٱلرَّشِيدُ بِرَدِّهَا ، فَأَنْشَدَتْهُ [من السريع] :

مَا سَلِمَ ٱلظَّبْيُ عَلَىٰ حُسْنِهِ ... كَلَّا وَلا ٱلْبَدْرُ ٱلَّذِي يُوصَفُ

ٱلظَّبْيُ فِيهِ خَنَسٌ بَيِّنٌ ... وَٱلْبَدْرُ فِيهِ كَلَفٌ يُعْرَفُ

فَأَعْجَبَتْهُ بَلاغَتُهَا وَٱشْتَرَاهَا ، فَكَانَتْ أَحْظَىٰ جَوَارِيهِ عِنْدَهُ .

٣٥٨ ـ وَمِنْ مَعَايِبِ ٱلأَنْفِ : ٱلْقَعَمُ ، وَهُوَ ٱعْوِجَاجٌ في ٱلأَنْفِ ؛ وَمِنْهَا ٱلفَطَسُ ، وَهُوَ ٱنْخِفَاضُ قَصَبَةِ ٱلأَنْفِ وَٱنْفِرَاشُهَا ؛ وَمِنْهَا ٱلْكَزَمُ ، وَهُوَ قِصَرٌ في

---

= ٱلرَّجُلُ ٱلْكَرِيمُ ذُو ٱلْجِسْمِ وَٱلْجَهَارَةِ وَٱلْفَضْلِ وَٱلسُّؤْدُدِ ، وَهُوَ أَيْضاً ٱلْجَمِيلُ ٱلَّذِي يَرُوعُكَ حُسْنُهُ وَيُعْجِبُكَ إِذَا رَأَيْتَهُ .

(١) ٱلْكَلَفُ : شَيْءٌ يَعْلُو ٱلْوَجْهَ كَالسُّمْسُمِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّىٰ : « ٱلنَّمَشُ » .

ٱلأَنْفِ قَبِيحٌ وَٱتِّسَاعُ خُرْقَيْهِ كَأُنُوفِ ٱلسُّودَانِ .

٣٥٩ ـ وَمِنْ مَعَايِبِ ٱلأَنْفِ ضَخَامَتُهُ وَكِبَرُهُ .

قَالَ صَاحِبُ « ٱلأَغَانِي » : كَانَتْ رَمْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ خَلَفٍ جَمِيلَةً حَسَنَةَ ٱلْجِسْمِ ، وَكَانَ أَنْفُهَا عَظِيماً ، فَكانَ ذَلِكَ يَعِيبُها ، وَتَزَوَّجَهَا عُمَرُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ ٱبْنِ مَعْمَرِ ، وَكانَتْ عِنْدَهُ عائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةٍ ـ تَزَوَّجهَا بَعْدَ قَتْلِ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ ـ فَقَالَ يَوْماً لِعَائِشَةَ : فَعَلْتُ يَوْمَ أَبِي فُدَيْكٍ[1] كَذَا ؛ وَفَعَلْتُ يوم سِجِسْتَانَ كَذَا ، وَأَقْبَلَ يُعَدِّدُ أَيَّامَ حُرُوبِهِ ، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ أَشْجَعُ ٱلنَّاسِ ، وَأَعْرِفُ لَكَ يَوْماً كُنْتِ أَشْجَعَ مِنْكَ فِي جَمِيعِ ٱلأَيَّامِ ٱلَّتِي ذَكَرْتَ ؛ قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَتَ : يَومَ ٱجْتَلَبْتَ رَمْلَةَ وَأَقْدَمْتَ عَلَىٰ أَنْفِهَا . . . [ راجع رقم : ٤٨٧ ] .

**ٱلأَعْنَاقُ :**

٣٦٠ ـ ٱلعُنُقُ يُقَالُ لَهُ : ٱلجِيدُ ، وَٱلتَّلِيلُ ، قَالَ لَبِيدُ [ من الرمل ] :

تَتَّقِينِـــي بِتَلِيـــلِ ذِي خُصَـــلْ

أَيْ : بِعُنُقٍ ذِي خُصَلٍ مِنَ ٱلشَّعَرِ ، وَجَمْعُ ٱلتَّلِيلِ : أَتِلَّةٌ ، وَتُلُلٌ ، وَتَلاَتِلُ .

٣٦١ ـ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْهَادِي ، قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ ٱلنُّكْرِيُّ [من الوافر] :

جَمُـومُ ٱلشَّـدِّ شَـائِلَـةُ ٱلـذُّنَـابَىٰ وَهَـادِيهَـا كَـأَنْ جِـذْعٌ سَحُـوقُ[2]

وَجَمْعُ ٱلْهَادِي : هَوَادِي ، وَسُمِّيَ ٱلْعُنُقُ هَادِياً لِتَقَدُّمِهِ عَلَىٰ ٱلْبَدَنِ ، وَلأَنَّهَا

---

(١) أَبُو فُدَيْكٍ : أَحَدُ ٱلْخَوَارِجِ .

(٢) فَرَسٌ جَمُومٌ : إِذَا ذَهَبَ مِنْهُ إِحْضَارٌ ـ جَرْيٌ ـ جَاءَهُ إِحْضَارٌ ؛ وَٱلشَّدُّ : الجَرْيُ ؛ وَشَائِلَةُ الذُّنَابَىٰ ، أَيْ : إِنَّهَا تَرْفَعُ ذَنَبَهَا في ٱلْعَدْوِ ـ ٱلْجَرْيِ ـ ؛ وَٱلْجِذْعُ : سَاقُ ٱلنَّخْلَةِ ؛ وَنَخْلَةٌ سَحُوقٌ : طَوِيلَةٌ .

تَهْدِي ٱلْجَسَدَ .

٣٦٢ ـ وَيُقَالُ لِلْعُنُقِ : ٱلْكَرْدُ ، قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [من الطويل] :

وَكُنَّا إِذَا ٱلْقَيْسِيُّ نَبَّ عَتُودُهُ ضَرَبْنَاهُ بَيْنَ ٱلأُنْثَيَيْنِ عَلَىٰ ٱلْكَرْدِ

العَتودُ : مَا ٱشْتَدَّ وَقَوِيَ مِنْ ذُكُورِ أَوْلادِ ٱلْمُعِزِّ ، وَنَبِيبُهُ : صَوْتُهُ عِنْدَ ٱلْهِيَاجِ ، وَأَرَادَ بِٱلأُنْثَيَيْنِ ههُنَا : ٱلأُذُنَيْنِ ؛ وَٱلْكَرْدُ هُنَا : أَصْلُ ٱلْعُنُقِ أَوْ مَجثَمُ ٱلرَّأْسِ عَلَىٰ ٱلْعُنُقِ ، قَالُوا : إِنَّهُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ .

٣٦٣ ـ هَذَا ، وَقَدْ قَالُوا : إِنَّ ٱلْجِيدَ لَمْ تَسْتَعْمِلْهُ ٱلْعَرَبُ إِلَّا فِي ٱلْمَدْحِ ، فَلا يَقُولُونَ : جِيدٌ قَبِيحٌ ، وَلا جَعَلْتُ ٱلغُلَّ ـ ٱلْقَيْدَ ـ في جِيدِهِ ، أَمَّا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [١١١ سورة المسد/الآية : ٥] ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٣ سورة آل عمران/الآية : ٢١] وَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ [ من الوافر ] :

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

٣٦٤ ـ وَمِنْ أَوْصَافِ ٱلأَعْنَاقِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ : ٱلتَّلَعُ ، وَهُوَ إِشْرَافُ ٱلْعُنُقِ وَٱنْتِصَابُهَا ، وَعُنُقٌ تَلِيعٌ ، وَأَتْلَعُ ، أَيْ : طَوِيلٌ ، وَٱمْرَأَةٌ تَلْعَاءُ ؛ قَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من الخفيف] :

يَوْمَ تُبْدِي لَنَا قُتَيْلَةُ عَنْ جِيدٍ تَلِيعٍ تَزِينُهُ ٱلأَطْوَاقُ

٣٦٥ ـ وَمِنْ مَحَاسِنِ ٱلْعُنُقِ أَيْضاً : ٱلسَّطَعُ ، وَهُوَ طُولُ ٱلْعُنُقِ ، وَفِي حَدِيثِ أُمِّ مَعْبَدٍ في وَصْفِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ : وَكَانَ في عُنُقِهِ سَطَعٌ ، أَيْ : طُولٌ وَٱنْتِصَابٌ .

٣٦٦ ـ وَمِنَ ٱلْمَحَاسِنِ : ٱلْجَيَدُ ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ ٱلسَّطَعِ ، يُقَالُ : رَجُلٌ

أَجْيَدُ وَٱمْرَأَةٌ جَيْدَاءُ ، قَالَ قَيْسُ بْنُ ٱلْخَطِيمِ [من المنسرح] :

حَوْرَاءُ جَيْدَاءُ يُسْتَضَاءُ بِهَا   كَأَنَّهَا عُودُ بَانَةٍ قَصِفُ[1]

٣٦٧ ـ وَقَالَ أَيْضاً قَيْسُ بْنُ ٱلْخَطِيمِ [من الطويل] :

وَجِيدٍ كَجِيدِ ٱلرِّيمِ صَافٍ يَزِينُهُ   وَتَوَقُّدُ يَاقُوتٍ وَفَصْلُ زَبَرْجَدِ
كَأَنَّ ٱلثُّرَيَّا فَوْقَ ثُغْرَةِ نَحْرِهَا   تَوَقَّدُ فِي ٱلظَّلْمَاءِ أَيَّ تَوَقُّدِ

٣٦٨ ـ وَقَالَ دِعْبِلٌ [من الوافر] :

أَتَاحَ لَكَ ٱلْهَوَىٰ بِيضٌ حِسَانٌ   سَلَبْنَكَ بِٱلْعُيُونِ وَبِٱلنُّحُورِ
نَظَرْتَ إِلَىٰ ٱلنُّحُورِ فَكِدْتَ تَقْضِي   فَأَوْلَىٰ لَوْ نَظَرْتَ إِلَىٰ ٱلْخُصُورِ

٣٦٩ ـ وَقَالَ ٱلشَّمَرْدَلُ بْنُ شُرَيْكِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ، أَحَدُ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ يَرْبُوعٍ ، شَاعِرٌ إِسْلامِيٌّ كَانَ مُعَاصِراً لِجَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ [من البسيط] :

يُشَبَّهُونَ مُلُوكاً فِي تَجِلَّتِهِمْ   وَطُولِ أَنْضِيَةِ ٱلأَعْنَاقِ وَالأُمَمِ
إِذَا غَدَا ٱلْمِسْكُ يَجْرِي فِي مَفَارِقِهِمْ   رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَىٰ مِنَ ٱلْكَرَمِ

ٱلتَّجِلَّةُ : ٱلْجَلالَةُ وَٱلْعَظَمَةُ ؛ وَالأَنْضِيَةُ ، جَمْعُ نِضْيٍ ، وَهُوَ هُنَا : مَا بَيْنَ ٱلرَّأْسِ وَٱلْكَاهِلِ مِنَ ٱلْعُنُقِ ، وَٱلأُمَمُ جَمْعُ أُمَّةٍ ، وَهِيَ : ٱلْقَامَةُ ، يُقَالُ : فُلانٌ حَسَنُ ٱلأُمَّةِ ، أَيْ : ٱلْقَامَةِ ؛ وَمَعْنَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْمَمْدُوحَ شَدِيدُ ٱلْحَيَاءِ وَٱلْحِلْمِ لِرِقَّةِ شَمَائِلِهِ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلْحَيَاءَ مِنَ إِمَاتَتِهِ نَفْسَ هَذَا ٱلْمَمْدُوحِ وَإِزَالَتِهِ ٱلأَشَرَ عَنْهُ قَدْ غَادَرَهُ سَقِيماً ، وَهَذَا كَقَوْلِ ٱلآخَرِ [من الطويل] :

تَخَالُهُمْ لِلْحِلْمِ صُمّاً عَنِ ٱلْخَنَا   وَخُرْساً عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ عِنْدَ ٱلتَّهَاتُرِ

---

(١) قَصِفُ ( بِكَسْرِ ٱلصَّادِ ) مِنْ قَصِفَ ٱلْعُودُ كَطَرِبَ فَهُوَ قَصِفٌ : إِذَا كَانَ خَوَّاراً ضَعِيفاً لا شِدَّةَ فِيهِ .

وَمَـرْضَـىٰ إِذَا لاقَـوْا حَيَـاءً وَعِفَّـةً ... وَعِنْدَ ٱلْحُرُوبِ كَٱللُّيُوثِ ٱلْخَوَادِرِ

وَقَالَ ٱلتَّبْرِيزِيُّ : يَصِفُهُمْ بِٱلْحَيَاءِ وَٱلْوَقَارِ عِنْدَ ٱسْتِعْمَالِ ٱلطِّيبِ وَالعُودِ في مَجَالِسِ الأُنْسِ ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ : « إِذَا غَدَا ٱلْمِسْكُ » وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِهِ ، لأَنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ رَسْمُ ٱلاصْطِبَاحِ وَعادَةُ ٱلْمُلُوكِ في ٱلشُّرْبِ عِنْدَ ٱلاجْتِمَاعِ .

٣٧٠ ـ وَطُولُ ٱلْعُنُقِ مِمَّا يُسْتَحْسَنُ ، مَا لَمْ يُفْرِطْ ، فَإِذَا أَفْرَطَ آضَ ذَمّاً ، وَكَانَ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ أَحَدُ شُيُوخِ ٱلْمُعْتَزِلَةِ يُعابُ بِطُولِ عُنُقِهِ ، وَقَدْ هَجَاهُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ بِذَلِكَ إِذْ يَقُولُ [من البسيط] :

مَـالِـي أُشَـايِـعُ غَـزَّالًا لَـهُ عُنُـقٌ ... كَنِقْنِـقِ ٱلـدَّوِّ إِنْ وَلَّـىٰ وَإِنْ مَثَـلَا(١)
عُنْـقَ ٱلـزَّرافَـةِ مَـا بَـالِـي وَبَـالُكُـمُ ... تُكَفِّـرُونَ رِجَـالًا كَفَّـرُوا رَجُـلَا(٢)

٣٧١ ـ وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

تَصُـدُّ وَتُبْـدِي عَـنْ أَسِيـلٍ وَتَتَّقِـي ... بِنَـاظِـرَةٍ مِـنْ وَحْـشِ وَجْـرَةَ مُطْفِـلِ
وَجِيدٍ كَجِيدِ ٱلرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ ... إِذَا هِـيَ نَصَّتْـهُ وَلَا بِمُعَطَّـلِ

وَجْرَة : مَوْضِعٌ ؛ وَمُطْفِلٌ : لَهَا أَطْفَالٌ ؛ وَٱلرِّيمُ : ٱلظَّبْيُ ٱلأَبْيَضُ ٱلْخَالِصُ ٱلْبَيَاضِ ؛ وَٱلْفَاحِشُ : مَا جَاوَزَ ٱلْمِقْدَارَ ٱلْمَحْمُودَ ؛ وَنَصَّتْهُ : رَفَعَتْهُ ؛ وَمِنْهُ سُمِّيَ مَا تُجْلَىٰ عَلَيْهِ ٱلْعَرُوسُ « مِنَصَّةٌ » يَقُولُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ : إِنَّ هَذِهِ ٱلْحَبِيبَةَ تُعْرِضُ عَنَّا فَتُظْهِرُ في إِعْرَاضِهَا خَدًّا أَسِيلًا ـ طَوِيلًا سَهْلًا لَيِّناً غَيْرَ مُرْتَفِعِ ٱلْوَجْنَةِ ـ

---

(١) عُرِفَ وَاصِلُ بْنُ عَطاءٍ بِٱلْغَزَّالِ لِكَثْرَةِ جُلُوسِهِ في سُوقِ ٱلْغَزَّالِينَ إِلَىٰ أَبِي عَبْدِ ٱللهِ مَوْلَىٰ قطن ٱلْهِلالِي ؛ وَٱلنِّقْنِقُ : ٱلظَّلِيمُ ، وَهُوَ ذَكَرُ ٱلنَّعَامِ ؛ وَٱلدَّوُّ : ٱلفَلاةُ .

(٢) تُكَفِّرُونَ : تَنْسِبُونَهُ إِلَىٰ ٱلْكُفْرِ ، وَكَانَ بَشَّارٌ يَدِينُ بِٱلرَّجْعَةِ ـ أَيْ : ٱلإِيمَانُ بِٱلرُّجُوعِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا ـ فَأَخَذَ وَاصِلٌ يُكْثِرُ مِنَ ٱلإِنْكَارِ عَلَىٰ بَشَّارٍ وَٱلتَّشْنِيعِ عَلَيْهِ ، فَبَلَغَ بَشاراً ذَلِكَ ، فَقَالَ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَغَيْرَهُمَا يَهْجُو وَاصِلًا ؛ وَعُنْقَ ٱلزَّرَافَةِ بِٱلنَّصْبِ عَلَىٰ ٱلنِّدَاءِ .

وَتَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا عَيْناً نَاظِرَةً مِثْلَ عُيُونِ ظِباءٍ وَجْرَةَ تِلْكَ ٱلَّتِي لَهَا أَطْفَالٌ ، وَإِنَّمَا خَصَّهُنَّ بِذَلِكَ لِنَظَرِهِنَّ إِلَىٰ أَوْلادِهِنَّ بِٱلْحُنُوِّ وَٱلْعَطْفِ وَٱلشَّفَقَةِ ، وَهِي أَحْسَنُ عُيُوناً فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ مِنْهُنَّ فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِنَّ ، ثُمَّ قَالَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَهِيَ لِذَلِكَ تُبْدِي عَنْ عُنُقٍ كَعُنُقِ ٱلظَّبْيِ غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ قَدْرِهِ ٱلْمَحْمُودِ إِذَا مَا رَفَعَتْ عُنُقَهَا ، وَهُوَ غَيْرُ مُعَطَّلٍ عَنِ ٱلْحُلِيِّ ، شَبَّهَ عُنُقَهَا بِعُنُقِ ٱلظَّبْيَةِ فِي حَالِ رَفْعِهَا عُنُقَهَا ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ لا يُشْبِهُ عُنُقَ ٱلظَّبْيَةِ فِي ٱلتَّعَطُّلِ عَنِ ٱلْحُلِيِّ .

٣٧٢ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

لَهَا جِيدُ أُمِّ ٱلْخَشْفِ رِيعَتْ فَأَتْلَعَتْ ... وَوَجْهٌ كَمِثْلِ ٱلصُّبْحِ رَيَّانُ مُشْرِقُ

وَعَيْنٌ كَعَيْنِ ٱلرِّيمِ فِيهَا مَلَاحَةٌ ... هِيَ ٱلسِّحْرُ أَوْ أَدْنَىٰ ٱلْتِبَاساً وَأَعْلَقُ

٣٧٣ ـ وَقَالَ العَرْجِيُّ [من السريع] :

تُرِيكَ وَجْهاً فَوْقَ جِيدٍ لَهَا ... مِثْلِ رُخَامِ ٱلْمَرْمَرِ ٱلْمُدْمَجِ

كَأَنَّمَا ٱلْحَلْيُ عَلَىٰ نَحْرِهَا ... نُجُومُ فَجْرٍ سَاطِعٍ أَبْلَجِ

٣٧٤ ـ وَقَالَ جَمِيلُ بُثَيْنَةَ يُخَاطِبُ ظَبْيَةً [وَيُنْسَبُ لِمَجْنُونِ لَيْلَىٰ ، مِنَ ٱلطَّوِيلِ] :

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا ... سِوَىٰ أَنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ دَقِيقُ

٣٧٥ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الرمل] :

وَهْيَ هَيْفَاءُ هَضِيمٌ كَشْحُهَا ... ضَخْمَةٌ حَيْثُ تَشُدُّ المُؤْتَزَرْ[(١)]

صَلْتَةُ ٱلْخَدِّ طَوِيلٌ جِيدُهَا ... ضَخْمَةُ ٱلثَّدْيِ وَلَمَّا يَنْكَسِرْ[(٢)]

---

(١) هَيْفَاءُ : رَقِيقَةُ ٱلْخَصْرِ ضَامِرَةُ ٱلْبَطْنِ ؛ وَٱلْهَضْمُ : خَمَصُ ٱلْبُطُونِ وَلُطْفُ ٱلْكَشْحِ ـ ٱلْكَشْحُ : ٱلْخَصْرُ ـ ؛ وَٱلْمُؤْتَزَرُ : مَوْضِعُ ٱلإِزَارِ ، وَهُوَ ٱلرِّدْفُ وَٱلْعَجِيزَةُ ، يَصِفُهَا بِأَنَّها ضَخْمَةُ ٱلرِّدْفِ كَبِيرَتُهُ .

(٢) صَلْتَةُ ٱلْخَدِّ : خَدُّهَا أَمْلَسُ وَاضِحٌ .

٣٧٦ ـ وَمِنْ مَعَايِبِ ٱلْعُنُقِ : ٱلْوَقَصُ ، وَهُوَ : قِصَرُ ٱلْعُنُقِ ، يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ وَقْصَاءُ ، وَرَجُلٌ أَوْقَصٌ .

٣٧٧ ـ وَمِنَ ٱلْمَعَايِبِ : ٱلْهَنَعُ ، وَهُوَ : تَطَامُنٌ وَٱلْتِوَاءٌ في ٱلْعُنُقِ ، يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ هَنْعَاءُ ، وَرَجُلٌ أَهْنَعُ .

٣٧٨ ـ وَمِنْهَا : ٱلصَّعَرُ ، وَهُوَ مَيْلٌ فِي ٱلعُنُقِ وَٱنْقِلابٌ فِي ٱلْوَجْهِ إِلَىٰ أَحَدِ ٱلشِّقَّيْنِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلانٌ صَعَّرَ خَدَّهُ ، إِذَا أَمَالَهُ مِن ٱلْكِبْرِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [٣١ سورة لقمان/ الآية : ١٨] أَيْ : لا تُعْرِضْ عَنِ ٱلنَّاسِ تكَبُّراً .

٣٧٩ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ [من الطويل] :

وَكُنَّا إِذَا ٱلجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ... أَقَمْنَا لَهُ مِنْ دَرْئِهِ فَتَقَوَّمَا

ٱلدَّرْءُ : ٱلعوَجُ ، يُقَالُ : أَقَمْتُ دَرْءَ فُلانٍ ، أَيْ : ٱعْوِجَاجَهُ ، يَقُولُ ٱلْمُتَلَمِّسُ : إِذَا أَمَالَ مُتَكَبِّرٌ خَدَّهُ أَذْلَلْنَاهُ حَتَّىٰ يَتَقَوَّمَ مَيْلُهُ .

وَأَصْلُ ٱلصَّعَرِ : مَرَضٌ يُصِيبُ ٱلإِبِلَ فَيَلْوِي عُنُقَهَا .

٣٨٠ ـ وَمِنْ مَعَايِبِ ٱلعُنُقِ : ٱلْغَلَبُ ، وَهُوَ : غِلَظُ ٱلْعُنُقِ مَعَ قِصَرٍ فِيهَا ، يُقَالُ : رَجُلٌ أَغْلَبُ وَٱمْرَأَةٌ غَلْبَاءُ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ هَذَا ٱلْحَرْفُ فِي غَيْرِ ٱلْحَيَوَانِ ، كَقَوْلِهِمْ : حَدِيقَةٌ غَلْبَاءُ ، أَيْ : عَظِيمَةٌ مُتكَاثِفَةٌ مُلْتَفَّةٌ ، وَهُمْ يَصِفُونَ أَبَداً ٱلسَّادَةَ بِغِلَظِ ٱلرَّقَبَةِ وَطُولِهَا ، قَالُوا : وَمَنْ كَانَ أَغْلَبَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَلْتَفِتَ إِلَّا بِعُنُقِهِ كُلِّهَا .

* * *

**ٱلْمَعَاصِمُ وَٱلأَعْضَادُ :**

٣٨١ ـ ٱلْعَضُدُ : ٱلسَّاعِدُ وَهُوَ مَا بَيْنَ ٱلْمِرْفَقِ إِلَىٰ ٱلْكَتِفِ .

٣٨٢ ـ وَٱلْمِعْصَمُ : مَوْضِعُ ٱلسِّوَارِ مِنَ ٱلْيَدِ ، قَالَ [من الكامل] :

ٱلْيَـوْمَ عِنْـدَكَ دَلُّهَـا وَحَـدِيثُهَـا وَغَـداً لِغَيْـرِكَ كَفُّهَـا وَٱلْمِعْصَـمُ

٣٨٣ ـ وَقَدْ يُطْلَقُ ٱلْمِعْصَمُ وَيُرَادُ بِهِ ٱلذِّرَاعُ نَفْسُهَا ، قَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من مجزوء الكامل] :

فَـأَرَتْـكَ كَفًّـا فِـي ٱلْخِضَـا بِ وَمِعْصَمـاً مِثْـلَ ٱلْجِبَـارَهْ

ٱلْجِبَارَةُ وَاحِدَةُ ٱلْجَبَائِرِ ، وَهِيَ : ٱلأَسْوِرَةُ مِنَ ٱلذَّهَبِ وٱلفِضَّةِ .

٣٨٤ ـ وَيُقَالُ : مِعْصَمٌ خَدْلٌ ، أَي : مُمْتَلِىءٌ رَيَّانُ ، كَمَا يُقَالُ : سَاقٌ خَدْلَةٌ ، أَيْ : مُمْتَلِئَةٌ .

٣٨٥ ـ وَيُقَالُ : مِعْصَمٌ غَيْلٌ ، أَيْ : رَيَّانٌ مُمْتَلِىءٌ ، وَكَذَلِكَ : سَاعِدٌ غَيْلٌ ، وَغُلامٌ غَيْلٌ ، أَيْ : عَظِيمٌ سَمِينٌ ، وَٱمْرَأَةٌ غَيْلَةٌ : عَظِيمةٌ سَمِينَةٌ .

٣٨٦ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْمِخَشِّ ٱلأَعْرَابِيُّ : كَانَتْ لِيَ ٱبْنَةٌ تَجْلِسُ مَعِي عَلَىٰ ٱلْمَائِدَةِ ، فَتُبْرِزُ كَفًّا كَأَنَّهَا طَلْعَةٌ[1] ، فِي ذِرَاعٍ كَأَنَّها جُمَّارَةٌ[2] ، فَلا تَقَعُ عَيْنُهَا عَلَىٰ أَكْلَةٍ نَفِيسَةٍ إِلَّا خَصَّتْنِي بِهَا ، فَزَوَّجْتُهَا ، وَصَارَ يَجْلِسُ مَعِي ٱلْمَائِدَةَ ٱبنٌ لِي ، فَيُبْرِزُ كَفاً كَأَنَّها كِرْنَافَةٌ ، فِي ذِرَاعٍ كَأَنَّها كَرَبَةٌ[3] ، فَوَاللهِ إِنْ تَسْبِقْ عَيْنِي إِلَىٰ

---

(١) طَلْعَةٌ ، بِفَتْحٍ فَسُكُونٍ ، وَجَمْعُهَا طَلْعٌ ، وَهُوَ : نُورُ ٱلنَّخْلَةِ مَا دَامَ في ٱلْكَافُورِ ، وَهُوَ ـ أَي : ٱلْكافورُ ـ وِعَاؤُهُ ٱلَّذِي يَنْشَقُّ عَنْهُ .

(٢) ٱلْجُمَّارَةُ : شَحْمَةُ ٱلنَّخْلةِ ٱلَّتِي إِذَا قُطِعَتْ قِمَّةُ رَأْسِهَا ظَهرتْ كَأَنَّهَا قِطْعَةُ سَنَامٍ ـ سَنَامُ ٱلْبَعِيرِ ـ وَجَمْعُهَا جُمَّارٌ .

(٣) ٱلْكَرَبَةُ وَاحِدَةُ ٱلْكَرَبِ ، وَهِيَ : أُصُولُ ٱلسَّعَفِ ٱلْغِلَاظِ ٱلْعِرَاضِ ٱلَّتِي تَيْبَسُ فَتَصِيرُ كَٱلْكَتِفِ ؛ =

لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلا سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا .

وَتَشْبِيهُ مِعْصَمِهَا بِٱلْجُمَّارَةِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ ٱلْبَيَاضِ وَٱلْبَضَاضَةِ وَٱلْفَضَاضَةِ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ٱلدِّينَوَرِيُّ : وَرُبَّمَا شَبَّهُوا بِهَا ٱلْمَرْأَةَ ، فَقَالُوا : كَأَنَّهَا جُمَّارَةٌ ، لأَجْلِ ذَلِكَ .

٣٨٧ ـ وَقَالَ أَبُو حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيُّ [من الطويل] :

رَمَتْهُ أَنَاةٌ مِنْ رَبِيعَةِ عَامِرٍ نُؤُومِ ٱلضُّحَىٰ فِي مَأْتَمٍ أَيِّ مَأْتَمِ(١)

فَجَاءَ كَخُوطِ ٱلْبَانِ لا مُتَتَابِعٌ وَلَكِنْ بِسِيمَا ذِي وَقَارٍ وَمِيْسَمِ(٢)

فَقُلْنَا لَهَا سِرًّا : فَدِينَاكِ لا يَرُحْ صَحِيحاً وَإِنْ لَمْ تَقْتُلِيهِ فَأَلْمِمِي(٣)

فَأَلْقَتْ قِنَاعاً دُونَهُ ٱلشَّمْسُ وَٱتَّقَتْ بِأَحْسَنِ مَوْصُولَيْنِ كَفٍّ وَمِعْصَمِ(٤)

وَقَالَتْ فَلَمَّا أَفْرَغَتْ فِي فُؤَادِهِ وَعَيْنَيْهِ مِنْهَا ٱلسِّحْرَ قُلْنَ لَهُ قُمِ(٥)

---

= وَٱلْكِرْنَافَةُ : طَرَفُهَا ٱلْعَرِيضُ .

(١) قَالَ الأَصْمَعِيُّ : ٱلأَنَاةُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ : ٱلَّتِي فِيهَا فُتُورٌ عِنْدَ ٱلْقِيَامِ وَتَأَنٍّ ؛ وَقَالَ غَيْرُهُ : ٱمْرَأَةٌ أَنَاةٌ : رَزِينَةٌ لا تُصْخِبُ وَلا تُفْحِشُ ؛ وَٱلمَأْتَمُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ : ٱلنِّسَاءُ يَجْتَمِعْنَ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ ، وَهُوَ هُنَا مَقَامُ فَرَحٍ ؛ وَنُؤُومُ ٱلضُّحى ، كِنَايَةٌ عَنْ نَعْمَتِهَا وَرَفَاهَتِهَا وَأَنَّهَا مَخْدُومَةٌ مَكْفِيَّةُ المَؤُنَةِ .

(٢) ٱلْخُوطُ : ٱلْغُصْنُ ، يُشَبَّهُ بِهِ ٱلشَّابُّ ٱلنَّاعِمُ ٱلتَّامُّ ٱلْخَلْقِ ؛ وَقَوْلُهُ : لا مُتَتَابِعٍ ، أَيْ : لا هُوَ مُتَتَابِعٌ : ٱلَّذِي يَتَهَافَتُ عَلَىٰ أَمْرٍ لَيْسَ بِٱلْمَحْمُودِ ، يُقَالُ : تَتَابَعُوا فِي ٱلشَّرِّ : إِذَا تَهَافَتُوا وَسَارَعُوا إِلَيْهِ ؛ وَٱلْمِيسَمُ : ٱلْحُسْنُ وَٱلْوَسَامَةُ ، يَقُولُ : إِنَّهُ جَاءَ كَغُصْنِ ٱلْبَانِ غَيْرِ مُسْرِعٍ فِي مَشْيِهِ وَلَكِنْ جَاءَ بِهَيْئَةِ ذِي وَقَارٍ وَوَسَامَةٍ .

(٣) يَقُولُ : فَقُلْنَا لَهَا فِي ٱلسِّرِّ : جُعِلْنَا فِدَاكِ ، لا تَتْرُكِيهِ يَرْجِعُ صَحِيحاً ، بَلْ إِمَّا أَنْ تَقْتُلِيهِ وَإِمَّا أَنْ تَفْعَلِي بِهِ مَا هُوَ دُونَ ٱلْقَتْلِ ؛ فَأَلْمِمِي ، أَيْ : قَارِبِي .

(٤) يَقُولُ : فَأَلْقَتْ قِنَاعاً وَرَاءَهُ ٱلشَّمْسُ ـ يَعْنِي : وَجْهُهَا ـ ثُمَّ سَتَرَتْهُ بِمِعْصَمِهَا وَكَفِّهَا ٱلْجَمِيلَيْنِ .

(٥) يَقُولُ : فَلَمَّا صَبَّتْ فِي قَلْبِهِ وَعَيْنَيْهِ ٱلسِّحْرَ ، وَسَحَرَتْهُ بِجَمَالِهَا ، قَالَتْ لِصُوَيْحِبَاتِهَا : قُلْنَ لَهُ : قُمِ ٱلآنَ بِوَجْدٍ شَدِيدٍ وَحَسْرَةٍ دَائِمَةٍ .

فَـوَدَّ بِجَـدْعِ ٱلأَنْـفِ لَـوْ أَنَّ صَحْبَـهُ تَنَادَوْا وَقَالُوا فِي ٱلمنَاخِ لَهُ نَمِ[١]
فَرَاحَ وَمَا يَدْرِي أَفِي سَاعَةِ ٱلضُّحَىٰ تَـرَوَّحَ أَمْ دَاجٍ مِـنَ ٱللَّيْـلِ مُظْلِـمِ[٢]

٣٨٨ ـ وَإِلَيْكَ أَبْيَاتاً لِعُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ يَصِفُ فِيهَا ٱلْمَعَاصِمَ وَٱلأَعْنَاقَ [من الطويل] :

نَظَـرْتُ إِلَيْهَـا بِـٱلْمُحَصَّـبِ مِـنْ مِنًـىٰ وَلِـي نَظَـرٌ لَـوْلا ٱلتَّحَـرُّجُ عَـارِمُ[٣]
فَقُلْـتُ : أَشَمْـسٌ أَمْ مَصَـابِيـحُ بَيْعَـةٍ بَدَتْ لَكَ خَلْفَ ٱلسَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمُ
بَعِيـدَةُ مَهْـوَىٰ ٱلقُـرْطِ إِمَّـا لِنَـوْفَـلٍ أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمُ[٤]
وَمَـدَّ عَلَيْهَـا ٱلسَّجْـفَ يَـوْمَ لَقِيتُهَـا عَلَـىٰ عَجَـلٍ تُبَّـاعُهَـا وَٱلْخَـوادِمُ
فَلَـمْ أَسْتَطِعْهَـا غَيْـرَ أَنْ قَـدْ بَـدَا لَنَـا عَشِيَّـةَ رَاحَـتْ وَجْهُهَـا وَٱلْمَعَـاصِـمُ
مَعَاصِمُ لَمْ تَضْرِبْ عَلَىٰ ٱلْبَهْمِ بِٱلضُّحَىٰ عَصَاهَا وَوَجْهٌ لَمْ تَلُحْهُ السَّمَائِمُ[٥]
نُضَـارٌ تَـرَىٰ فِيـهِ أَسَـارِيـعَ مَـائِـهِ صَبِيـحٌ تُغَـادِيـهِ ٱلأَكُـفُّ ٱلنَّـوَاعِـمُ[٦]
إِذَا مَـا دَعَـتْ أَتْـرَابَهَـا فَـٱكْتَنَفْنَهَـا تَمَـايَلْـنَ أَوْ مَـالَـتْ بِهِـنَّ ٱلْمَـآكِـمُ[٧]

---

(١) ٱلْمَنَاخُ هُنَا : ٱلْمَقَامُ ، وَهُوَ فِي ٱلأَصْلِ : مَا تُنَاخُ ـ تَبْرُكُ ـ فِيهِ ٱلإِبِلُ ، يَقُولُ : فَوَدَّ لَوْ أَنَّ أَصْحَابَهُ يَقُولُونَ لَهُ جَمِيعاً بَعْدَ أَنْ يَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً : نَمْ فِي مَقَامِكَ وَلا تَسِرْ مَعَنَا وَيُقْطَعُ أَنْفُهُ .

(٢) يَقُولُ : إِنَّهُ مَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ ، لَكِنَّهُ ٱضْطَرَّ إِلَىٰ ذَلِكَ ، فَرَاحَ وَهُوَ لا يَدْرِي أَيَسِيرُ نَهَاراً أَمْ لَيْلاً لِفَرْطِ مَا أَصَابَهُ مِنَ ٱلْهُيَامِ أَوْ لِغَزَارَةِ دُمُوعِهِ ٱلَّتِي مَلأَتْ عَيْنَيْهِ ، فَصَارَ لا يُبْصِرُ .

(٣) عَارِمٌ : حَادٌّ .

(٤) بَعِيدَةُ مَهْوَىٰ ٱلْقُرْطِ ، كِنَايَةٌ عَنْ طُولِ ٱلْعُنُقِ .

(٥) ٱلْبَهْمُ : ٱلصِّغَارُ مِنْ أَوْلادِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْمَعِزِ وَٱلْبَقَرِ ، يَقُولُ : إِنَّ مَعَاصِمَهَا لَيْسَتْ مَعَاصِمُ خَشِنَةٌ شَثِنَةٌ كَمَا هُوَ حَالُ مَعَاصِمِ رَاعِيَاتِ ٱلْغَنَمِ ، بَلْ هِيَ مَعَاصِمُ خَدْلَةٌ رَيَّانَةٌ بَضَّةٌ غَضَّةٌ كَمَا هُوَ ٱلشَّأْنُ فِي مَعَاصِمِ ٱلشَّرِيفَاتِ ٱلْمُخَدَّرَاتِ ؛ وَٱلسَّمَائِمُ ، جَمْعُ سَمُومٍ ، وَهِيَ : ٱلرِّيحُ ٱلْحَارَّةُ ، وَلاحَتْهُ ٱلسَّمَائِمُ : غَيَّرَتْهُ وَسَفَعَتْ وَجْهَهُ .

(٦) أَسَارِيعُ ٱلْمَاءِ : طَرَائِقُهُ ، وَٱلْمُرَادُ : إِنَّهُ يَتَرَقْرَقُ فِيهِ مَاءُ ٱلشَّبَابِ .

(٧) ٱلْمَآكِمُ ، جَمْعُ مَأْكَمَةٍ ، وَهِيَ : ٱلرِّدْفُ وَٱلْعَجِيزَةُ .

طَلَبْـنَ ٱلصِّبَـا حَتَّـىٰ إِذَا مَـا أَصَبْنَـهُ    نَـزَعْـنَ وَهُـنَّ ٱلْمُسْلِمَـاتُ ٱلظَّـوَالِـمُ

* * *

**ٱلْفَرْجُ وَٱلأَرْدَافُ ـ ٱلْفَرْجُ في ٱللُّغَةِ :**

٣٨٩ ـ مِنْ أَسْمَاءِ فَرْجِ ٱلْمَرْأَةِ : ٱلْحِرُ ، وَٱلْجَمْعُ أَحْرَاحٌ ، قَالَ [من الرجز] :

إِنِّـي أَقُـودُ جَمَـلًا مِمْـرَاحـاً    ذَا قُبَّـةٍ مُـوقَـرَةٍ أَحْـرَاحـاً

٣٩٠ ـ وَمِنْ أَسْمَائِهِ : ٱلرَّكَبُ[1] ، قَالَ ٱلْخَلِيلُ : هُوَ لِلْمَرْأَةِ خَاصَّةً ، وَقَالَ ٱلْفَرَّاءُ : هُوَ لِلرَّجُلِ وَٱلْمَرأَةِ ، أَي : إِنَّهُ يُقَالُ لِقُبُلِ ٱلرَّجُلِ : رَكَبٌ ، وَأَنْشَدَ ٱلْفَرَّاءُ [من الرجز] :

لا يُقْنِـعُ ٱلْجَـارِيَـةَ ٱلْخِضَـابُ    وَلا ٱلْـوِشَـاحَـانِ وَلا ٱلْجِلْبَـابُ
مِـنْ دُونِ أَنْ تَلْتَقِـيَ ٱلأَرْكَـابُ    وَيَقْعُـدَ ٱلأَيْـرُ لَـهُ لُعَـابُ

٣٩١ ـ وَمِنْ أَسْمائِهِ : ٱلْهَنُ ، وَيُقَالُ : ٱلْهَنُّ ؛ وَمِنْهَا ٱلشَّكْرُ ، وَأَنْشَدُوا [من الطويل] :

صَنَـاعٌ بِـإِشفَـاهَـا حَصَـانٌ بِشَكْـرِهَـا    جَوَادٌ بِقُوتِ ٱلْبَطْنِ وٱلْعِرْضُ وَافِرُ

صَنَاعٌ بِإِشفاها ، يُرِيدُ : عَيْنَهَا ، أَي : إِنَّهَا تَصْنَعُ في ٱلْقُلُوبِ بِلَحْظِهَا صَنِيعَ ٱلإِشْفَىٰ ، وَهُوَ ـ أَيْ : الإِشْفَىٰ ـ مِثْقَبُ أَوْ مِخْرَزُ ٱلأَسَاكِفَةِ ؛ وَقَوْلُهُ : جَوَادٌ بِقُوتِ ٱلْبَطْنِ ، يَعْنِي : ٱلْحَدِيثَ ، وَهُوَ قُوتُ بَطْنِ ٱلْكَرِيمِ كَمَا قَالَ [من الطويل] :

* أُحَدِّثُهُ إِنَّ الحديثَ مِنَ القِرَى *

٣٩٢ ـ وَمِنْ أَسْمَائِهِ : ٱلْقُبُلُ ، وَٱلسَّوْأَةُ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا

---

(١) وَقِيلَ : ٱلرَّكَبُ ، هُوَ : مَوْضِعُ مَنْبِتِ ٱلْعَانَةِ .

سَوْءَاتُهُمَا﴾ [٢٠ سورة طه/ الآية : ١٢١] .

٣٩٣ ـ هَذَا ، وَشُفْرُ ٱلْفَرْجِ : حَرْفُهُ ، وَفِيهِ ٱلإِسْكَتَانِ ، قَالَ صَاحِبُ « ٱللِّسَانِ » : ٱلإِسْكَتَانُ[١] : شُفْرُ ٱلرَّحِمِ ، وَقِيلَ : جَانِبَاهُ مِمَّا يَلِي شُفْرَيْهِ ؛ قَالَ جَرِيرٌ [من الوافر] :

بِهَا وَضَحٌ بِأَسْفَلِ إِسْكَتَيْهَا كَعَنْفَقَةِ ٱلْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا[٢]

وَيُقَالُ لِلإِنْسَانِ إِذَا وُصِفَ بِٱلنَّتْنِ : إِنَّمَا هُو إِسْكُ أُمِّهِ .

٣٩٤ ـ وَٱلْبَظْرُ : مَا تَقْطَعُهُ الخَاتِنَةُ مِنَ ٱلْجَارِيَةِ ـ ٱلْفَتَاةِ ـ : مَا بَيْنَ ٱلإِسْكَتَيْنِ . وَيُقَالُ : ٱلْبَظْرُ ، وَٱلْبُنْظُرُ ، وَٱلْبَيْظِرُ .

* * *

٣٩٥ ـ وَفِي ٱلْفَرْجِ ٱلرَّحِمُ ، وَفِي ٱلرَّحِمِ حَلْقَتَانِ : إِحْدَاهُمَا ٱلَّتِي عَلَىٰ فَمِ ٱلْفَرْجِ عِنْدَ طَرَفِهِ ، وَٱلأُخْرَىٰ ٱلَّتِي تَنْضَمُّ عَلَىٰ ٱلْمَاءِ ـ مَاءِ ٱلرَّجُلِ ـ وَتَنْفَتِحُ لِلْحَيْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا : ٱلْمَهْبِلُ .

٣٩٦ ـ وَمِنْ صِفَاتِ ٱلْفَرْجِ : ٱلْمَنْهُوشُ ، وَهُوَ : ٱلْقَلِيلُ ٱللَّحْمِ ؛ وَٱلْكَعْثَبُ وَٱلْكَعْثَمُ ، وَهُوَ : ٱلْمُمْتَلِىءُ ٱلنَّاتِىءُ ، يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ كَعْثَبٌ وَكَعْثَمٌ ، وَكَثْعَمٌ : إِذَا كَانَتْ ضَخْمَةَ ٱلرَّكَبِ ـ وَٱلرَّكَبُ هُنَا : مَنْبِتُ شَعَرِ ٱلْعَانَةِ ـ وَيُقَالُ : رَكَبٌ جَهْمٌ ، أَيْ : غَلِيظٌ ؛ وَٱلْعَرَكْرَكُ : ٱلرَّكَبُ ٱلضَّخْمُ ؛ وَفَرْجٌ لَهْمُومٌ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يَلْتَهِمُ مَتَاعَ ٱلرَّجُلِ ؛ وَٱلْغُمْضُ : آخِرُ ٱلْفَرْجِ ؛ وَأَنْشَدُوا [من الطويل] :

---

(١) ٱخْتَلَفَ ٱللُّغَوِيُّونَ : هَلِ الإِسْكَتَانُ مُفْرَدُ أَوْ مُثَنَّىٰ ؟ ٱنْظُرِ « المُخَصَّصَ » وَ« ٱللِّسَانَ » ، وَالأَظْهَرُ أَنَّهُمَا مُثَنَّىٰ ، وَٱلْمُفْرَدُ : إِسْكٌ .

(٢) وَضَحٌ ، يُرْوَىٰ : بَرَصٌ ، وَٱلْوَضَحُ مَعْنَاهُ : ٱلْبَرَصُ ؛ وَٱلْعَنْفَقَةُ : شَعَرَاتٌ بَيْنَ ٱلشَّفَةِ ٱلسُّفْلَىٰ وَٱلذَّقَنِ .

وحِرٌ يَمْلأُ ٱلْكَفَّيْنِ جَهْمٌ مُزَعْفَرٌ    لَهُ غُمُضٌ مُسْتَحْصِفٌ مُتَضَرِّمُ
أَزُومٌ يَئِطُّ ٱلأَيْرُ فِيهِ إِذَا ٱنْتَحَىٰ    أَطِيطَ قُنِيِّ ٱلْهِنْدِ حِينَ تُقَوَّمُ

الأَزُومُ : ٱلْغَضُوضُ ؛ وَيَئِطُّ : يُصَوِّتُ ، وَيُقَالُ : أَطَّتِ ٱلْقَنَاةُ أَطِيطاً : صَوَّتَتْ عِنْدَ ٱلتَّقْوِيمِ .

٣٩٧ ـ وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَصِفُ رَكَبَ ٱلْمُتَجَرِّدَةِ ٱمْرَأَةِ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ ، وَقَدْ كَانَ ٱلنُّعْمَانُ سَأَلَهُ ذَلِكَ [من الكامل] :

وَإِذَا لَمَسْتَ لَمَسْتَ أَخْثَمَ جَاثِماً    مُتَحَيِّراً بِمَكَانِهِ مِلْءَ ٱلْيَدِ
وَإِذَا طَعَنْتَ طَعَنْتَ فِي مُسْتَهْدِفٍ    رَابِي ٱلْمَجَسَّةِ بِٱلْعَبِيرِ مُقَرْمَدِ
وَإِذَا نَزَعْتَ نَزَعْتَ فِي مُسْتَحْصِفٍ    نَزْعَ ٱلْحَزَوَّرِ بِٱلرِّشَاءِ الْمُحْصَدِ

ٱلأَخْثَمُ : ٱلْفَرْجُ ٱلْمُمْتَلِىءُ ٱلضَّيِّقُ ؛ وَٱلْجَاثِمُ فِي ٱلأَصْلِ : ٱللاصِقُ بِٱلأَرْضِ ٱلرَّابِضُ ؛ وَمُتَحَيِّراً ـ بِٱلرَّاءِ ـ مُسْتَعارٌ مِنْ تَحَيَّرَ ٱلْمَاءُ في ٱلنَّهْرِ : إِذَا ٱجْتَمَعَ فِيهِ وَتَمَلأَ ؛ وَمُسْتَهْدِفٍ ، بِكَسْرِ ٱلدَّالِ مِنِ ٱسْتَهْدَفَ لَكَ ٱلشَّيْءُ : إِذَا ٱنْتَصَبَ ، كَأَهْدَفَ ؛ وَرَابِي : مُرْتَفِعُ ؛ وَٱلْمَجَسَّةُ ، بِفَتْحِ ٱلْمِيمِ : مَا جَسَسْتَهُ بِيَدِكَ ؛ وَمُقَرْمَدِ : مَطْلِيٌّ ؛ وَٱلْعَبِيرُ : أَخْلاطٌ مِنَ ٱلطِّيبِ ؛ وَأَصْلُ ٱلنَّزْعِ : جَذْبُ ٱلْحَبْلِ مِنَ ٱلْبِئْرِ ، فَٱسْتَعَارَهُ لِجَذْبِ مَتَاعِ ٱلرَّجُلِ مِنَ ٱلْفَرْجِ ؛ وَٱلْمُسْتَحْصِفُ : ٱلضَّيِّقُ ٱلشَّدِيدُ ٱلْيَابِسُ ٱلْقَلِيلُ ٱلْبَلَلِ ؛ وَٱلْحَزَوَّرُ : ٱلْغُلامُ ٱلَّذِي ٱشْتَدَّ وَقَوِيَ ؛ وَٱلرِّشَاءُ : ٱلْحَبْلُ ؛ وَٱلْمُحْصَدُ : ٱلْمُحْكَمُ ٱلْفَتْلِ ، يُرِيدُ مِثْلَ نَزْعِ ٱلْغُلامِ حَبْلَ ٱلدَّلْوِ مِنَ ٱلْبِئْرِ .

٣٩٨ ـ وَأَنْشَدَ سِيبَوَيْهُ [من الرجز] :

إِنَّ لَهَا لَرَكَباً إِرْزَبَّا    كَأَنَّهُ جَبْهَةُ ذَرَّىٰ حَبَّا

ٱلرَّكَبُ : أَعْلَىٰ ٱلْفَرْجِ ؛ وَإِرْزَبًّا : ضَخْماً ؛ وَذَرَّىٰ حَبًّا : ٱسْمُ رَجُلٍ .

٣٩٩ ـ وَمِنْ أَبْيَاتِ « ٱلْحَمَاسَةِ » [من الرجز] :

قَامَتْ تَمَطَّىٰ وَٱلْقَمِيصُ مُنْخَرِقْ فَصَادَفَ ٱلْخَرْقُ مَكَاناً قَدْ حُلِقْ
كَأَنَّهُ قَعْبُ نُضَارٍ مُنْفَلِقْ

تَمَطَّى : تَتَمَطَّىٰ ، وَأَصْلُ ٱلتَّمَطِّي : ٱلتَّبَخْتُرُ وَمَدُّ ٱلْيَدَيْنِ فِي ٱلْمَشْيِ ؛ وَمَكَاناً قَدْ حُلِقْ ، يَعْنِي : ٱلْفَرْجَ أَوْ أَعْلَاهُ ؛ وَٱلْقَعْبُ : ٱلْقَدَحُ ٱلضَّخْمُ ؛ وَٱلنُّضَارُ : ٱلْخَشَبُ ٱلْجَيِّدُ تُتَّخَذُ مِنْهُ ٱلأَقْدَاحُ وَٱلْقِصَاعُ وَنَحْوُهَا .

٤٠٠ ـ وَقَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من الطويل] :

إِذَا ٱنْبَطَحَتْ جَافَىٰ عَنِ ٱلأَرْضِ بَطْنَهَا وَخَوَّىٰ بِهَا رَابٍ كَهَامَةِ جُنْبُلِ
إِذَا مَا عَلاهَا فَارِسٌ مُتَبَذِّلٌ فَنِعْمَ فِرَاشُ ٱلْفَارِسِ ٱلْمُتَبَذِّلِ

خَوَّىٰ بِهَا ، مِنْ خَوَّىٰ ٱلْبَعِيرُ تَخْوِيَةً : إِذَا بَرَكَ ثُمَّ مَكَّنَ لِثَفِنَاتِهِ فِي ٱلأَرْضِ ؛ وَٱلْجُنْبُلُ : ٱلْقَدَحُ ٱلْعَظِيمُ ، يَقُولُ : إِنَّ كَعْثَبَهَا لِضَخَمِهِ يُخَوِّي بِهَا إِذَا ٱنْبَطَحَتْ ، فَيَتَجَافَىٰ عَنِ ٱلأَرْضِ بَطْنُهَا ، وَٱلْعَرَبُ تُشَبِّهُ ٱلرَّكَبَ ٱلضَّخْمَ بِالقَعْبِ ٱلْمَكْفُوءِ ، أَي : ٱلْقَدَحُ ٱلْمَقْلُوبُ ، وَلِذَا قَالَ : كَهَامَةِ جُنْبُلٍ ؛ وَقَوْلُهُ : إِذَا مَا عَلاهَا فَارِسٌ . . . ٱلْبَيْتَ . هُوَ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ [وَيُنْسَبُ أَحْيَاناً لِصَرِيعِ ٱلْغَوَانِي ، من البسيط] :

مَا مَرْكَبٌ وَرُكُوبُ ٱلْخَيْلِ يُعْجِبُنِي كَمَرْكَبٍ بَيْنَ دُمْلُوجٍ وَخَلْخَالِ
أَلَذُّ لِلْفَارِسِ ٱلْمُجْرِيِّ إِذَا ٱنْبَهَرَتْ أَنْفَاسُ أَمْثَالِهَا مِنْ تَحْتِ أَمْثَالِي

وَٱلْفَارِسُ ٱلْمُتَبَذِّلُ ، أَيْ : اللَّابِسُ لِثِيَابِ بِذْلَتِهِ ، وَهِيَ ٱلْمَبَاذِلُ ، أَيْ : ٱلثِّيَابُ ٱلَّتِي تُلْبَسُ وَتُمْتَهَنُ وَلا تُصَانُ .

٤٠١ ـ وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [من الطويل] :

إِذَا بُطِحَتْ فَوْقَ ٱلأَثَافِي رَفَعْنَهَا بِثَدْيَيْنِ فِي نَحْرٍ عَرِيضٍ وَكَعْثَبِ

يَقُولُ : إِنَّهَا إِذَا بُطِحَتْ عَلَىٰ وَجْهِهَا لَمْ يَمَسَّ ٱلأَرْضَ مِنْهَا شَيْءٌ ، لأَنَّ نُهودَ ثَدْيَيْهَا وَكِبَرَ رَكَبِهَا مِثْلُ أَثَافِي ٱلْقِدْرِ لِبَدَنِهَا . [ وسيرد برقم : ٤٤٠ ]

* * *

٤٠٢ ـ وَبَعَثَ ٱلْجُنَيْدُ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلْمُرِّيُّ إِلَىٰ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلقَسْرِيِّ بِسَبْيٍ مِنَ ٱلْهِنْدِ بِيضٍ ، فَجَعَلَ يَهَبُ مِنْهَا لِوُجُوهِ ٱلنَّاسِ حَتَّىٰ بَقِيَتْ جَارِيَةٌ مِنْهُنَّ جَمِيلَةٌ كَانَ يَدَّخِرُهَا . فَقَالَ لأَبِي ٱلنَّجْمِ ٱلشَّاعِرِ ٱلرَّجَّازِ :

هَلْ عِنْدَكَ فِيهَا شَيْءٌ حَاضِرٌ وَتَأْخُذُهَا ٱلسَّاعَةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ أَصْلَحَكَ ٱللهُ ! فَقَالَ ٱلعُرْيَانُ بْنُ ٱلْهَيْثَمِ ٱلنَّخَعِيُّ : كَذَبَ وٱللهِ مَا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلنَّجْمِ [من الرجز] :

عَلِقْتُ خَوْداً مِنْ بَنَاتِ ٱلزُّطِّ ... ذَاتَ جِهَازٍ مُضْغَطٍ مُلَطِّ[1]
رَابِي ٱلْمَجَسِّ جَيِّدِ ٱلْمَحَطِّ ... كَأَنَّمَا قُطَّ عَلَىٰ مِقَطِّ[2]
إِذَا بَدَا مِنْهَا ٱلَّذِي تُغَطِّي ... كَأَنَّ تَحْتَ ثَوْبِهَا ٱلْمُنْعَطِّ[3]
شَطًّا رَمَيْتَ فَوْقَ شَطِّ ... لَمْ يَنْزُ فِي ٱلْبَطْنِ وَلَمْ يَنْحَطِّ[4]
فِيهِ شِفَاءٌ مِنْ أَذَىٰ ٱلتَّمَطِّي ... كَهَامَةِ ٱلشَّيْخِ ٱلْيَمَانِي ٱلثَّطِّ[5]

وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَىٰ هَامَةِ ٱلْعُرْيَانِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ ، فَضَحِكَ خَالِدٌ ، وَقَالَ لِلْعُرْيَانِ :

---

(١) ٱلزُّطِّ : جِيلٌ مِنَ ٱلسِّنْدِ ؛ وَٱلْجِهَازُ : فَرْجُ ٱلْمَرْأَةِ ؛ وَمُلَطٌّ : مَسْتُورٌ ، مِنْ أَلَطَّ ٱلشَّيْءَ : إِذَا سَتَرَهُ .

(٢) رَابِي ٱلْمَجَسِّ : مُرْتَفِعٌ مَا جَسَسْتَهُ مِنْهُ ؛ وَقُطَّ ، وَٱلْمِقَطُّ : مَا يُقَطُّ بِهِ ٱلْقَلَمُ .

(٣) ٱنْعَطَّ ٱلثَّوْبُ : ٱنْشَقَّ .

(٤) ٱلشَّطُّ : جَانِبُ سَنَامِ ٱلْبَعِيرِ ، وَٱلْعَرَبُ تُشَبِّهُ أَعْلَىٰ ٱلْفَرْجِ بِسَنَامِ ٱلْبَعِيرِ .

(٥) ٱلثَّطُّ : ٱلْخَفِيفُ ٱللِّحْيَةِ .

كَيْفَ تَرَىٰ ! أَحْتَاجَ إِلَىٰ أَنْ يُرَوِّيَ فِيهَا يَا عُرْيَانُ ؟! قَالَ : لا وَٱللهِ ! وَلٰكِنَّهُ مَلْعُونٌ ٱبْنُ مَلْعُونٍ .

* * *

٤٠٣ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من السريع] :

عَجْزَاءُ مِنْ سِرِّ بَنِي مَالِكٍ لَهَا هُنٌ مِنْ بَطْنِهَا أَرْفَعُ
زُيِّنَ أَعْلاهُ بِإِشْرَافِهِ وَٱنْضَمَّ مِنْ أَسْفَلِهِ ٱلْمُشْرَعُ

٤٠٤ ـ وحَكَىٰ أَبُو ٱلْفَرَجِ صاحِبُ « ٱلأَغَانِي » في أَخْبَارِ ٱبْنِ مَيَّادَةَ ـ وَهُوَ شَاعِرٌ فَصِيحٌ مُقَدَّمٌ مِنْ مُخَضْرَمِيِّ ٱلدَّوْلَتَيْنِ ، وَكَانَ عِرِّيضاً لِلشَّرِّ مُولَعاً بِمُهاجاةِ ٱلشُّعَرَاءِ وَمُسَابَّةِ ٱلنَّاسِ ـ قَالَ أَبُو ٱلْفَرَجُ : كَانَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ قَدْ هَاجَىٰ سِنَانَ بنَ جَابِرٍ أَحَدَ بَنِي حُمَيْسٍ ، وَكَانَ مِمَّا هَجَاهُ بِهِ ؛ وَهُنا أَوْرَدَ أَبُو ٱلْفَرَجِ أَبْياتاً نُورِدُ مَا يُغْنِينا مِنْهَا وَهُوَ هٰذَا ٱلْبَيْتُ [من الطويل] :

وَتُبْدِي ٱلحُمَيْسِيَّاتُ فِي كُلِّ زِينَةٍ فُرُوجاً كَآثَارِ ٱلصِّغَارِ مِنَ ٱلْبَهْمِ[(١)]

قَالَ : ثُمَّ إِنَّ ٱبْنَ مَيَّادَةَ خَرَجَ يَبْغِي إِبِلاً لَهُ حَتَّىٰ وَرَدَ جُبَاراً ـ مَاءٌ لِحُمَيْسِ بْنِ عَامِرٍ ـ فَأَتَىٰ بَيْتاً ، فَوَجَدَ فِيهِ عَجُوزاً قَدْ أَسَنَّتْ ، فَنَشَدَهَا إِبِلَهُ ، فَذَكَرَتْها لَهُ وَقَالَتْ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ سُلَيْمِ بْنِ مَنْصُورٍ ؛ فَأَذِنَتْ لَهُ ، وَقَالَتْ : ٱدْخُلْ حَتَّىٰ نَقْرِيَكَ ؛ وَقَدْ عَرَفَتْهُ وَهُوَ لا يَدْرِي ، فَلَمَّا قَرَتْهُ ، قَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ : وَجَدْتُ رِيحَ ٱلطِّيبِ قَدْ نَفَحَ عَلَيَّ مِنَ ٱلْبَيْتِ ، وَإِذَا بِنْتٌ لَهَا قَدْ هَتَكَتِ ٱلسِّتْرَ ، ثُمَّ ٱسْتَقْبَلَتْنِي وَعَلَيْهَا إِزَارٌ أَحْمَرُ وَهِيَ مُؤْتَزِرَةٌ بِهِ ، فَأَطْلَقَتْهُ ، وَقالتْ : ٱنْظُرْ يَا ٱبْنَ

(١) يَرْمِي نِسَاءَ بَنِي حُمَيْسٍ بِصِغَرِ فُرُوجِهِنَّ ، إِذْ يُشَبِّهُهَا بِآثَارِ أَظْلافِ ٱلصِّغَارِ مِنَ ٱلْبَهْمِ فِي ٱلأَرْضِ إِذَا مَشَتْ .

مَيَّادَةَ ٱلزَّانِيَةِ[١] ! أَهَذَا كَمَا نَعَتَّ ! فَلَمْ أَرَ ٱمْرَأَةً أَضْخَمَ قُبُلًا مِنْهَا ! نَبَا بَيْنَ فَخِذَيْهَا كَأَنَّهُ ٱلْعَقْبُ ٱلْمَكْفُوءُ ـ ٱلْمَقْلُوبُ ـ فَقَالَتْ : أَهَذَا لَمَّا قُلْتَ [من الطويل] :

وَتُبْدِي ٱلْحُمَيْسِيَّاتُ فِي كُلِّ زِينَةٍ ... فُرُوجاً كَآثَارِ ٱلصِّغَارِ مِنَ ٱلْبَهْمِ[٢]

قَالَ : قُلْتُ : لَا وَٱللهِ يَا سَيِّدَتِي ، مَا هَكَذَا قُلْتُ ، وَلَكِنْ قُلْتُ [من الطويل] :

وَتُبْدِي ٱلْخُمَيْسِيَّاتُ فِي كُلِّ زِينَةٍ ... فُرُوجاً كَآثَارِ ٱلْمُقَيْسِرَةِ ٱلدُّهْمِ

ٱلْمُقَيْسِرَةُ : ٱلإِبِلِ ٱلضَّخْمَةُ ٱلْكَبِيرَةُ .

٤٠٥ ـ وَأَحْسَنَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِي وَصْفِ ٱلْفَرْجِ بِالضِّيقِ وَٱلْحَرَارَةِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [من المنسرح] :

لَهَا حِرٌ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ ... مِنْ قَلْبِ صَبٍّ وَصَدْرِ ذِي حَنَقِ
كَأَنَّمَا حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ... مَا أَوْقَدَتْ فِي حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ
يَزْدَادُ ضِيقاً عَلَى ٱلْمِرَاسِ كَمَا ... تَزْدَادُ ضِيقاً أُنْشُوطَةُ ٱلْوَهَقِ[٣]

٤٠٦ ـ وقَالَ ٱبْنُ سُكَّرَةَ ٱلْهَاشِمِيُّ أَحَدُ شُعَرَاءِ « ٱلْيَتِيمَةِ » ـ « يَتِيمَةُ ٱلدَّهْرِ » لِلثَّعَالِبِيِّ [من المتقارب] :

وَسَوْدَاءَ بُورِكَ فِي بَضْعِهَا ... وَلا نَالَ بُؤْساً فَمَا أَضْيَقَا
نَزَوْتُ عَلَيْهَا وَلا عِلْمَ لِي ... بِأَنَّ لَهَا كَعْثَباً مُحْرِقَا
فَكِدْتُ مِنَ ٱلْحَرِّ أَنْ أَنْشَوِي ... وَمِنْ شِدَّةِ ٱلضِّيقِ أَنْ أُخْنَقَا

---

(١) مَيَّادَةُ : ٱسْمُ أُمِّ الشَّاعِرِ ، وَٱسْمُهُ ٱلرَّمَّاحُ بْنُ أَبْرَدَ .
(٢) ٱلْبَهْم ؛ جَمْعُ بَهْمَةٍ : ٱلصَّغِيرُ مِنْ أَوْلادِ ٱلضَّأْنِ : ٱلْغَنَمِ وَٱلْمَعِزِ .
(٣) الأُنْشُوطَةُ : عِقْدَةٌ يَسْهُلُ ٱنْحِلَالُهَا مِثْلُ عِقْدَةُ ٱلتِّكَّةِ ، وَمِنْ مَجَازِهَا قَوْلُهُمْ : مَا عِقَالُكَ بِأُنْشُوطَةٍ ، أَي : مَا مَوَدَّتُكَ بِوَاهِيَةٍ ، وَنَشَطْتُ ٱلْحَبْلَ أَنْشُطُهُ نَشْطاً : إِذَا رَبَطْتُهُ وَإِذَا حَلَلْتُهُ فَقَدْ نَشَطْتُهُ ؛ وَٱلْوَهَقُ : حَبْلٌ فِي طَرَفِهِ أُنْشُوطَةٌ يُطْرَحُ فِي عُنُقِ ٱلدَّابَّةِ حَتَّى تُؤْخَذَ .

٤٠٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِي سَعَتِه [من الخفيف] :

يَسَــعُ ٱلسَّبْعَــةَ ٱلأَقَــالِيــمِ طُــرّاً وَهُــوَ فِــي إِصْبَعَيْــنِ مِــنْ إِقْلِيــمِ
كَضَمِيــرِ ٱلْفُــؤَادِ يَلْتَهِــمُ ٱلــدُّنْـ ـيَــا وَتَحْــوِيــه دَفَّتَــا حَيْــزُومِ

❊ ❊ ❊

## ٱلنَّظَرُ إِلَىٰ ٱلْفَرْجِ :

٤٠٨ ـ وَهُنَا نُورِدُ خِلافَهُمْ في ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ فَرْجِ ٱلزَّوْجَةِ ، فَقَدْ قِيلَ لِلإِمَامِ إِصْبغَ المَالِكِيِّ : إِنَّ قَوْماً يَرَوْنَ كَرَاهَةَ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ فَرْجِ ٱلزَّوْجَةِ . فَقَالَ : إِنَّمَا يَرَىٰ كَرَاهَتَهُ مَنْ يَرَىٰ ذَلِكَ بِٱلطِّبِ لا بِالْعِلْمِ ، وَلا بَأْسَ بِهِ ، وَلَيْسَ بِمَكْرُوهٍ ؛ وَقَالَ ٱلْقَاضِي أَبُو ٱلْوَلِيدِ ٱبْنُ رُشْدٍ : أَكْثَرُ ٱلْعَوَامِّ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ فَرْجِ ٱمْرَأَتِهِ في حَالٍ مِنَ ٱلأَحْوَالِ ! قَالَ : وَقَدْ سَأَلَنِي عَنْ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ ، وَٱسْتَغْرَبَ أَنْ يَكُونَ جَائِزاً ! وَعَلَىٰ هَذَا أَيْضاً مَذْهَبُ ٱلْحَنَفِيَّةِ ، فَهُمْ يُجِيزُونَهُ ، وَأَمَّا ٱلشَّافِعِيَّةُ فَلَهُمْ فِيهِ قَوْلانِ ، أَحَدُهُمَا ٱلإِبَاحَةُ ، وَالآخَرُ ٱلْمَنْعُ ، وَٱلنَّظَرُ إِلَىٰ دَاخِلِهِ عِنْدَهُمْ أَشَدُّ في ٱلْمَنْعِ . وَلِبَعْضِ أَئِمَّتِهِمْ : يُكْرَهُ ٱلنَّظَرُ إِلَيْهِ لأَنَّهُ سَخَفٌ وَدَنَاءَةٌ ، أَقُولُ : وَهَذَا مَا أَرَاهُ وَيَرَاهُ كُلُّ مُهَذَّبٍ . . . حَتَّىٰ لَقَدْ رُوِيَ فِي ٱلأَثَرِ : « لا يَنْظُرْ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فَرْجِ زَوْجَتِهِ وَلَا فَرْجِ أَمَتِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُورِثُ ٱلْعَمَىٰ » .

[« كنز العمال » ، رقم : ٤٤٩٠٣] .

❊ ❊ ❊

## عُيُوبُ ٱلْفَرْجِ :

٤٠٩ ـ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلْفُقَهَاءُ أَنَّ مِمَّا يَنْفَسِخُ بِهِ عَقْدُ ٱلنِّكَاحِ عُيُوباً تِسْعَةً ، ثَلاثَةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا ٱلرِّجَالُ وَٱلنِّسَاءُ ، وَهِيَ : ٱلْجُنُونُ وَٱلْجُذَامُ وَٱلْبَرَصُ ؛ وَٱثْنَانِ

مُخْتَصَّانِ بِٱلرِّجَالِ ، وَهُمَا : ٱلْجَبُّ ، أَي : قَطْعُ ٱلذَّكَرِ ؛ وَٱلْعُنَّةُ : ٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلْجِمَاعِ ، إِمَّا لأَنَّ ٱلذَّكَرَ صَغِيرٌ لَا يَتَأَتَّىٰ بِهِ ٱلْجِمَاعُ ، وَإِمَّا لِمَرَضٍ يُسَبِّبُ عَدَمَ ٱلانْتِصَابِ ؛ وَأَرْبَعَةٌ مُخْتَصَّةٌ بِٱلنِّسَاءِ ، وَهِي : ٱلْقَرَنُ ، وَٱلْعَفَلُ ، وَالرَّتَقُ ، وَٱلْفَتَقُ ؛ فَأَمَّا ٱلْقَرَنُ فَهُوَ شَيْءٌ يَبْرُزُ في ٱلْفَرْجِ كَقَرْنِ ٱلشَّاةِ ، لا يَتَمَكَّنُ مَعَهُ ٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلْجِمَاعِ ؛ وَأَمَّا ٱلْعَفَلُ فَهُوَ لَحْمٌ يَبْرُزُ في ٱلْفَرْجِ ، وَلا يَخْلُو عَنْ رَشْحٍ ، يُشْبِهُ ٱلأَدْرَةَ لِلرَّجُلِ ـ ٱلْقَلِيطَةَ ـ ؛ وَأَمَّا ٱلرَّتَقُ ، فَهُوَ ٱنْسِدَادُ مَدْخَلِ ٱلذَّكَرِ مِنَ ٱلْفَرْجِ ، فَلا يُمْكِنُ مَعَهُ ٱلْجِمَاعُ ، وَهَذا ٱلانْسِدَادُ قَدْ يَكُونُ بِغُدَّةِ لَحْمٍ أَوْ عَظْمٍ ، وَأَمَّا ٱلْفَتَقُ أَوِ الإِفْضَاءُ ، فَهُوَ أَنْ يَخْتَلِطَ مَسْلَكُ ٱلذَّكَرِ بِمَسْلَكِ ٱلْبَوْلِ أَوِ ٱلْغَائِطِ ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ : مَشْرُومٌ أَوْ شَرِيمٌ .

٤١٠ ـ وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْفَرْجِ البَخَرُ ، أَيْ : نَتْنُ ٱلْفَرْجِ[1] .

* * *

**ٱلأَرْدَافُ :**

٤١١ ـ ٱلرِّدْفُ وَٱلْكَفَلُ وَٱلْعَجُزُ وٱلْعَجِيزَةُ وَٱلْمَأْكِمَةُ وَاحِدٌ ، وَيُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ عَجْزَاءُ ، إِذَا كَانَتْ عَظِيمَةَ ٱلْعَجِيزَةِ ، وَذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ مَعَانِي ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كَرِهُوا إِفْرَاطَ كِبَرِهَا ، وَكَذَلِكَ يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ مُؤَكِّمَةٌ ، أَيْ : عَظِيمَةُ ٱلمَأْكِمَتَيْنِ ، وَٱلمَأْكِمَةُ : ٱلْعَجِيزَةُ ، تُفْتَحُ كَافُهَا وَتُكْسَرُ ؛ وَضِدُّ ٱلْعَجْزَاءِ : ٱلزَّلَّاءُ ، وَٱلرَّسْحَاءُ ، وَهُمَا صِفَتَا ذَمٍّ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « لا تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمُ ٱلرُّسْحَ وَلا ٱلْعُمْشَ ، فَإِنَّ

---

(١) أَصْبَحَتْ هَذِهِ ٱلأَمْرَاضُ نَادِرَةَ ٱلْوُجُودِ ، لأَنَّ عِلْمَ ٱلطِّبِّ وَخُصُوصاً ٱلْجِرَاحَةَ قَدْ تَقَدَّمَ تَقَدُّماً كَثِيراً ، وَيُمْكِنُ ٱسْتِئْصَالُ هَذِهِ ٱلأَمْرَاضِ بِسُهُولَةٍ .

ٱللَّبَنَ يُورِثُ ٱلرَّسَحَ » .

ٱلرَّسَحُ : أَنْ لا يَكُونَ لِلْمَرْأَةِ عَجِيزَةٌ ، وَقَدْ رَسِحَتِ ٱلْمَرْأَةُ رَسَحاً ، وَهِي ٱلزَّلَّاءُ .

٤١٢ ـ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ [من الطويل] :

إِذَا ضَرَبَتْهَا ٱلرِّيحُ في ٱلْمِرْطِ أَشْرَفَتْ مَآكِمُهَا وَٱلزُّلُّ في ٱلرِّيحِ تُفْضَحُ

ٱلْمِرْطُ : كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ وَنَحْوِهِ يُؤْتَزَرُ بِهِ ؛ وَالزُّلُّ جَمْعُ زَلَّاء : ٱلَّتِي لا عَجِيزَةَ لَهَا .

٤١٣ ـ وَمِنْ كَلامِهِمْ : ٱلْعَجِيزَةُ أَحَدُ ٱلْوَجْهَيْنِ . . .

٤١٤ ـ وكَانَتِ ٱلثُّرَيَّا صَاحِبَةُ عُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ تَصُبُّ ٱلْمَاءَ عَلَىٰ رَأْسِهَا فَلا يَصِلُ إِلَىٰ فَخِذَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ ، لِوُفُورِ عَجِيزَتِهَا .

٤١٥ ـ وَحَكَوْا أَنَّ عَائِشَةَ بِنْتَ طَلْحَةٍ كانَتْ تَسْتَلْقِي عَلَىٰ قَفَاها ، ثُمَّ تُدَحْرِجُ الأُتْرُجَّةَ مِنْ تَحْتِ ظَهْرِهَا فَتَخْرُجُ مِنَ ٱلنَّاحِيَةِ ٱلأُخْرَىٰ ، لِوُفُورِ عَجِيزَتِهَا كَذَلِكَ ، وَفي عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ يَقُولُ ٱلْحَارِثُ بنُ خَالِدٍ ٱلْمَخْزُومِيُّ ـ وَذَلِكَ لَمَّا تَزَوَّجَهَا مُصْعَبُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ وَرَحَلَ بِهَا إِلَىٰ ٱلْعِرَاقِ [وَيُنْسَبُ لِعُبَيْدِ الله بْنِ قَيْسٍ ، مِن الكامل] :

ظَعَنَ ٱلأَمِيرُ بِأَحْسَنِ ٱلْخَلْقِ وَغَدَا بِلُبِّكَ مَطْلِعَ ٱلشَّرْقِ
في ٱلبَيْتِ ذِي ٱلْحَسَبِ ٱلرَّفِيعِ وَمِنْ أَهْلِ ٱلتُّقَىٰ وَٱلْبِرِّ وَٱلصِّدْقِ
فَظَلِلْتُ كَٱلْمَقْهُورِ مُهْجَتُهُ هَذَا ٱلْجُنُونُ وَلَيْسَ بِٱلْعِشْقِ
أُتْرُجَّةٌ عَبِقَ ٱلْعَبِيرُ بِهَا عَبَقَ ٱلدِّهَانِ بِجَانِبِ ٱلْحُقِّ(١)

---

(١) الأُتْرُجَةُ ، وَاحِدَةُ الأُتْرُجِّ : ثَمَرٌ مَعْرُوفٌ مِنْ جِنْسِ ٱللَّيْمُونِ ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضاً : ٱلتُّرُنْجُ ، وَهُوَ ذُو رَائِحَةٍ ذَكِيَّةٍ ، وَفِيهِ يَقُولُ جَحْظَةُ ٱلْبَرْمَكِيُّ [من السريع] : =

٤١٦ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ ، وَهِيَ مِمَّا ٱخْتَارَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي « حَمَاسَتِهِ » [وَيُنْسَبُ لِعُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، من الكامل] :

أَبَتِ ٱلرَّوادِفُ وَٱلثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا مَسَّ ٱلْبُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورَا

وَإِذَا ٱلرِّيَاحُ مَعَ ٱلْعَشِيِّ تَنَاوَحَتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهِجْنَ غُيُورَا

[ وسيرد برقم : ٤٣٩ ] .

ٱلثُّدِيُّ ، جَمْعُ ثَدْيٍ ؛ وَالقُمْصُ ، جَمْعُ قَمِيصٍ ، وَهُوَ : دِرْعُ ٱلْمَرْأَةِ ؛ يَقُولُ هَذَا ٱلأَعْرَابِيُّ : إِنَّ نُهُودَ ثَدْيَيْهَا وَارْتِفَاعُهُمَا يَمْنَعُ ثِيابَهَا أَنْ تَمَسَّ ٱلْبَطْنَ ، وَضَخَامَةُ رِدْفَيْهَا تَمْنَعُ ثِيابَهَا أَنْ تَمَسَّ ظَهْرَهَا ؛ وَإِذَا ٱلرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ، أَيْ : هَبَّتْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَتَقَابَلَتْ ، ٱلْتَصَقَ مِنْ ثِيَابِهَا بِبَطْنِهَا وَظَهْرِهَا مَا كَانَ يَمْنَعُهُ ثَدْيَاهَا وَرِدْفَاهَا قَبْلَ هُبُوبِهَا فَظَهَرَ مِنْ محاسِنِهَا مَا يُنَبِّهُ حَسَدَ ٱلْحَاسِدَاتِ وَيَهِيجُ غَيْرَةَ ٱلْغَيُورِ ، أَوْ تَقُولُ : إِذَا هَبَّتِ ٱلرِّيَاحُ وَجَدَتْ بَيْنَ جِسْمِهَا وَثِيابِهَا هَوَاءً خَالِياً فَتَمَكَّنَتْ مِنْ رَفْعِ ثِيَابِهَا ، فَيَبْدُو مَا تَحْتَهَا مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ ، فَيَسْتَيْقِظُ حَسَدُ ٱلْحَاسِداتِ وَتَهِيجُ غَيْرَةُ ٱلْغَيُورِ .

٤١٧ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الوافر] :

تُرَفِّعُ ثَوْبَهَا ٱلأَرْدَافُ عَنْهَا فَيَبْقَى مِنْ وِشَاحَيْهَا شَسُوعَا

إِذَا مَاسَتْ رَأَيْتَ لَهَا ٱرْتِجَاجاً لَهُ لَوْلا سَوَاعِدُهَا نَزُوعَا

---

= أُتْرُجَّةٌ كَالْمِسْكِ فِي طِيبِهِ وَٱلتِّبْرِ فِي بَهْجَةِ إِشْرَاقِهِ

كَأَنَّهَا فِي كَفِّ أُسْتَاذِنَا مَخْلُوقَةٌ مِن طِيبِ أَخْلاقِهِ

وَيَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [ من البسيط ] :

كُلُّ ٱلْخِلَالُ ٱلَّتِي فِيكُمْ مَحَاسِنُكُمْ تَشَابَهَتْ مِنْكُمُ ٱلأَخْلاقُ وَٱلْخَلَقُ

كَأَنَّكُمْ شَجَرُ ٱلأُتْرجِّ طَابَ مَعاً حَمْلًا وَنَوْراً وَطَابَ ٱلْعُودُ وَٱلْوَرَقُ

يَقُولُ ٱلْمُتَنَبِّيُّ في ٱلْبَيْتِ ٱلأَوَّلِ : إِنَّ أَرْدَافَهَا عَظِيمَةٌ شَاخِصَةٌ عَنْ بَدَنِهَا حَتَّىٰ إِنَّهَا تَرْفَعُ ثَوْبَهَا وَتَحُولُ دُونَ لُصُوقِهِ بِجَسَدِهَا ، حَتَّىٰ إِنَّهُ يَكُونُ بَعِيداً عَمَّا تَوَشَّحَتْ بِهِ مِنَ ٱلْقَلائِدِ ، فَأَرَادَ بِٱلْوِشَاحَيْنِ قِلَادَتَيْنِ تَتَوَشَّحُ بِهِمَا ٱلْمَرْأَةُ ، تُرْسِلُ إِحْدَاهُمَا عَلَىٰ جَنْبِهَا ٱلأَيْمَنِ وَٱلأُخْرَىٰ عَلَىٰ ٱلأَيْسَرِ ؛ وَٱلشَّسُوعُ : ٱلْبَعِيدُ .
وَيَقُولُ في ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : إِذَا مَاسَتْ ـ أَيْ : مَشَتْ مُتَبَخْتِرَةً ـ رَأَيْتَ لِرَوَادِفِهَا فِيهَا ٱرْتِجَاجاً وَحَرَكَةً يَكادَانِ يَنْزِعَانِ ثَوْبَهَا عَنْهَا لَوْلا أَنَّ سَوَاعِدَهَا تُمْسِكُ عَلَيْهَا ثَوْبَهَا ، لِدُخُولِهَا في ٱلْكُمَّيْنِ ، فَٱلضَّمِيرُ في « لَهُ » لِلثَّوْبِ ، وَ« نُزوعاً » صِفَةٌ لِـ« ٱرْتِجَاجاً » .

* * *

٤١٨ ـ وَكَانَ ٱلمَأْمُونُ ٱبْنُ ٱلرَّشِيدِ كَثِيراً مَا كَانَ يُجَالِسُ عَمْرَو ٱبْنَ أَبي عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيَّ ، قَالَ عَمْرُو : بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ بَيْنَ يَدَيْ ٱلْمَأْمُونِ إِذْ دَخَلَ ٱلْحَاجِبُ فَأَلْقَىٰ إِلَيْهِ سِرًّا ، أَصْغَىٰ إِلَيْهِ بِأُذُنِهِ ، فَنَهَضْتُ لأَذْهَبَ ، فَقَالَ : ٱجْلِسْ ، فَلَوْلا أَنَّ لِلْحَجَبَةِ مُؤَامَراتٍ لا تَصْلُحُ إِلا بِٱسْتِطْلاعِ ٱلرَّأْيِ فِيهَا لَكُنْتَ عِنْدَنَا مِمَّنْ لا نَحْتَشِمُهُ ، وَلَا نَسْتُرُ أَمْراً عَنْهُ ! فَقُلْتُ : ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي أَوْصَلَ لي هَذَا ٱلْفَضْلَ مِنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَىٰ ٱلْحَاجِبِ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ دَخَلَ بِوَصائِفَ حِسَانِ ٱلصُّوَرِ ، فَٱعْتَرَضَهُنَّ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهُنَّ أَفْضَلُ عِنْدَكَ ؟ فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ لِما جَمَعَتْ مِنَ ٱلأَوْصافِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ فَهَذِهِ ! وَأَشَرْتُ إِلَىٰ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ مُدْمَجَةِ ٱلْخَصْرِ رَاجِحَةِ ٱلْكَفَلِ ؛ ثُمَّ قُلْتُ : لأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ رَأْيُهُ وَٱخْتِيَارُهُ وَمَوْقِعُ شَهْوَتِهِ ؛ فَقَالَ : قَدْ وَافَقَتْ شَهْوَتِي مَا ٱخْتَبَرْتَهُ بِرَأْيِكَ ؛ وَأَمَرَهُ بِأَخْذِهَا ، وَخَرَجَ ٱلنَّخَّاسُونَ ـ تُجَّارُ ٱلرَّقِيقِ ـ وَسَائِرُ ٱلْجَوَارِي ، ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ ، وَقَالَ : مَا قَالَتِ ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُجَوِّدُونَ في ٱلأَكْفَالِ ؟ قُلْتُ : ٱلأَبْيَاتُ ٱلَّتِي تَتَهَادَاهَا ٱلرُّوَاةُ ؛ قَالَ :

كَأَنَّكَ تُرِيدُ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ [وَهُوَ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ قَيْسٍ ، من الكامل] :

وَتَنُــوءُ تُثْقِلُهَــا عَجِيــزَتُهَــا نَهْـضَ ٱلضَّعِيـفِ يَنُـوءُ بِـٱلْـوَسْـقِ

مَــا صَبَّحَــتْ أَحَــداً بِــرُؤْيَتِهَــا إِلَّا غَــدَا بِكَــوَاكِــبِ ٱلطَّلْــقِ[١]

وَقَوْلَ ٱلْقَائِلِ [من الطويل] :

وَبِيـضٍ نَضِيـرَاتِ ٱلْـوُجُـوهِ كَـأَنَّمَـا تَأَزَّرْنَ دُونَ ٱلرَّيْطِ مِنْ رَمْلِ عَالِجِ[٢]

خِدَالِ ٱلشَّوَىٰ لا تَحْتَشِي غَيْرَ خَلْقِهَا إِذَا ٱلرُّسْحُ لَمْ يَصْبِرْنَ دُونَ ٱلْمَنَافِجِ[٣]

يَـذَرْنَ مُـرُوطَ ٱلخَـزِّ مَـلأَىٰ كَـأَنَّهَـا قِصَارٌ وَإِنْ طَالَتْ بِأَيْدِي ٱلنَّوَاسِجِ

فَقُلْتُ : نَعَمْ ، يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، هُوَ ٱلَّذِي أَرَدْتُ ؛ قَالَ : لَعَمْرِي لَقَدْ أَحْسَنَ ، إِلَّا أَنَّ أَخا[٤] أَسَدٍ أَرَقُّ مَعْنَىٰ وَأَحْسَنَ مَغْزَىٰ فِي قَوْلِهِ [من الكامل] :

يَمْشِيـنَ مَثْنَـىٰ قَطَـا ٱلْبِطَـاحِ تَـأَوُّداً قُـبَّ ٱلْبُطُـونِ رَوَاجِـحَ ٱلأَكْفَـالِ[٥]

يَمْشِيـنَ بَيْـنَ حِجَـالِهِـنَّ كَمَـا مَشَـتْ بُـزْلُ ٱلْجِمَـالِ دَلَجْـنَ بِـٱلأَحْمَـالِ[٦]

---

(١) يُقَالُ : يَوْمٌ طَلْقٌ ، أَيْ : مُشْرِقٌ ، لا بَرْدَ فِيهِ وَلا حَرَّ وَلا شَيْءَ يُؤْذِي .
قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ [من الطويل] :
أَتَـاكَ ٱلـرَّبِيـعُ ٱلطَّلْـقُ يَخْتَـالُ ضَـاحِكـاً مِـنَ ٱلْحُسْـنِ حَتَّـىٰ كَـادَ أَنْ يَتَكَلَّمَـا
يُرِيدُ أَنْ مَنْ تُصْبِحُهُ رُؤْيَتُهَا يَرَىٰ ٱلزَّمَانَ صَافِياً سَعِيداً طَيِّباً لِرَوْعَتِهَا وَجَمَالِهَا وَٱسْتِبْشَاراً بِطَلْعَتِهَا ٱلرَّائِعَةِ .

(٢) عالِجُ : مَوْضِعٌ بِٱلْبَادِيَةِ بِهِ رَمْلٌ قَدْ تَرَاكَمَ وَدَخَلَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، وَهُمْ يُشَبِّهُونَ ٱلرِّدْفَ بِٱلْكَثِيبِ مِنَ ٱلرَّمْلِ ؛ وَٱلرَّيْطُ ، جَمْعُ رِيطَةٍ : ٱلمَلاءَةُ ، وَكُلُّ ثَوْبٍ لَيِّنٍ دَقِيقٍ ؛ وَتَتَأَزَّرْنَ ، أَيْ : كَأَنَّهُنَّ جَعَلْنَ ٱلرَّمْلَ بَدَلَ ٱلمَلاءَةِ ، يَصِفُهُنَّ بِضَخَامَةِ ٱلرِّدْفِ .

(٣) خِدَالُ ٱلشَّوَىٰ : مُمْتَلِئَةُ ٱلأَطْرَافِ ؛ وَٱلْمَنَافِجُ : حَشَايَا تُوضَعُ فَوْقَ ٱلأَرْدَافِ .

(٤) هُوَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ ٱلأَسَدِيُّ ، وَهُوَ مِنْ بَنِي أَسَدٍ .

(٥) قُبُّ ٱلْبُطُونِ : ضَامِرَاتُ ٱلْبُطُونِ ؛ وَرَوَاجِحُ ٱلأَكْفَالِ : ثَقِيلاتُ ٱلْعَجِيزَةِ ؛ يُقَالُ ٱمْرَأَةٌ رَجَاحٌ وَرَاجِحٌ ، أَيِ : ثَقِيلَةُ ٱلْعَجِيزَةِ ؛ وَٱلْبِطَاحُ ، جَمْعُ ٱلأَبْطَحِ : مَسِيلُ ٱلْوَادِي .

(٦) ٱلْحِجَالُ ، جَمْعُ حَجَلَةٍ ، وَهِيَ كَٱلْقُبَّةِ تُسْتَرُ بِٱلثِّيَابِ ؛ وَٱلْبُزْلُ ، جَمْعُ بَازِلٍ : ٱلْبَعِيرُ إِذَا =

فَــإِذَا أَرَدْنَ زِيــادَةً فَكَــأَنَّمَــا ... يَخْلَعْــنَ أَرْجُلَهُــنَّ مِــنْ أَوْحَــالِ
فِيهِــنَّ آنِسَــةُ ٱلْحَــدِيــثِ حَيِيَّــةٌ ... لَيْسَــتْ بِفَــاحِشَــةٍ وَلا مِتْفَــالِ[١]
وَتَكُــونُ رِيقَتُهَــا إِذَا نَبَّهْتَهَــا ... كَٱلْمِسْكِ فَوْقَ سُلاَفَةِ ٱلْجِرْيَالِ[٢]

أَفَهِمْتَ مَا أَرَادَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي ! قُلْتُ : قَدْ أَعْطَى ٱللهُ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ مَا لا يُنَازَعُ فِيهَا ؛ فَقَالَ : إِنَّ ٱلأَحْمَالَ إِذَا أَدْلَجَ بِهَا حَامِلُوهَا عَلَى ٱلإِبِلِ ٱسْتَرْخَتْ أَكْفَالُهَا ، فَإِنَّمَا شَبَّهَهَا بِهَا وَهِيَ عَلَى تِلْكَ ٱلصِّفَةِ . . .

٤١٩ ـ وَمِنْ طَرِيفِ هَذَا ٱلْبَابِ مَا يُرْوَى : أَنَّ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ أُمَّ مُعَاوِيَةَ ٱبْنِ أَبِي سُفْيَانٍ كَانَتْ وَافِرَةَ ٱلْعَجِيزَةِ ، وَجَلَسَ يَوْماً أَبُو ٱلْجَهْمِ[٣] ٱبْنُ حُذَيْفَةَ عَلَى ٱلْمَائِدَةِ مَعَ مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : يَا أَبَا ٱلْجَهْمِ ! مَنْ أَسَنُّ ، أَنَا أَمْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! وَٱللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أُمِّكَ وَعِظَمُ عَجِيزَتِهَا وَقَدْ جِئْتُ أَخْطُبُهَا قَبْلَ أَبِيكَ وَقَبْلَ زَوْجِهَا ٱلْفَاكِهِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا أَبُوكَ ، فَأَتَتْ بِكَ وَبِأُخْوَتِكَ ؛ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّهَا كَانَتْ تَسْتَكْرِمُ ٱلأَزْوَاجَ ، وَتَقَالُّ ٱلخِدَاجَ[٤] ! ثُمَّ قَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : يَا أَبَا ٱلْجَهْمِ ! إِيَّاكَ وَٱلسُّلْطَانُ ، فَإِنَّهُ يَغْضَبُ غَضَبَ ٱلصَّبِيِّ ، وَيثِبُ وُثُوبَ ٱلأَسَدِ ، وَهَذِهِ مِئَةُ أَلْفٍ ، فَٱسْتَعِنْ بِهَا وَٱلْحَقْ بِأَهْلِكَ ، وَإِيَّاكَ وَمِثْلَ هَذَا ؛ فَقَبَّلَ أَبُو ٱلْجَهْمِ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ : أَبَيْتَ إِلَّا حِلْماً وَكَرَماً ؛ ثُمَّ

---

= ٱسْتَكْمَلَ ٱلسَّنَةَ ٱلثَّامِنَةَ وَطَعَنَ فِي ٱلتَّاسِعَةِ ، وَذَلِكَ أَقْصَى أَسْنَانِ ٱلْبَعِيرِ .

(١) فَحُشَتِ ٱلْمَرْأَةُ : قَبُحَتْ وَكَبُرَتْ ؛ وَٱلْمِتْفَالُ : ٱلْمُتَغَيِّرَةُ ٱلرِّيحِ لِتَرْكِ ٱلتَّطَيُّبِ وَالادِّهَانِ .

(٢) ٱلْجِرْيَالُ : مِنْ أَسْماءِ ٱلْخَمْرِ .

(٣) أَبُو ٱلْجَهْمِ هَذَا أَسْلَمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ وَهُوَ مِنْ مُعَمَّرِي قُرَيْشٍ ، بَنَى فِي ٱلْكَعْبَةِ مَرَّتَيْنِ ، مَرَّةً فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَمَرَّةً حِينَ بُنَاهَا عَبْدُ اللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ ، وَمَاتَ فِي تِلْكَ ٱلْفِتْنَةِ .

(٤) ٱلْخِدَاجُ : ٱلنُّقْصَانُ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنْ خِدَاجِ ٱلنَّاقَةِ : إِذَا وَلَدَتْ وَلَداً نَاقِصَ ٱلْخَلْقِ أَوْ لِغَيْرِ تَمَامٍ ؛ وَتَقَالُّ ٱلْخِدَاجَ ، أَي : ذَا ٱلخِدَاجِ ، أَيْ : ٱلنَّاقِصَ ، أَي : تَرَاهُ قَلِيلاً ، أَيْ : لا تَرَاهُ شَيْئاً .

أَنْشَدَ [من الوافر] :

نَمِيلُ عَلَىٰ جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَىٰ أَبِينَا
نُقَلِّبُهُ لِنَخْبُرَ حَالَتَيْهِ فَنَخْبُرَ مِنْهُمَا كَرَماً وَلِينَا

٤٢٠ ـ وَقَالَتِ ٱمْرَأَةٌ لأُخْرَىٰ : أَتَحْتَكِ وِسَادَةٌ ! فَقَالَتْ : وَسَادَةٌ وَسَّدَنِيهَا ٱللهُ .

٤٢١ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من المنسرح] :

كَأَنَّمَا قَدُّهَا إِذَا ٱنْفَتَلَتْ سَكْرَانُ مِنْ خَمْرِ طَرْفِهَا ثَمِلُ
يَجْذِبُهَا تَحْتَ خَصْرِهَا عَجُزٌ كَأَنَّهُ مِنْ فِرَاقِهَا وَجِلُ

ٱنْفَتَلَتْ : تَثَنَّتْ وَتَمَايَلَتْ ؛ وَطَرْفُهَا : لَحْظُهَا ؛ وَرَجُلٌ ثَمِلٌ : أَخَذ مِنْهُ ٱلشَّرَابُ ؛ يَقُولُ : إِنَّهَا تَتَمَايَلُ فِي مَشْيِهَا تَمَايُلَ ٱلسَّكْرَانِ ، فَكَأَنَّ قَدَّهَا نَظَرَ إِلَىٰ طَرْفِهَا فَسَكِرَ مِنْ خَمْرِ عَيْنَيْهَا كَمَا يَسْكَرُ مِنْهُ عَاشِقُوهَا . وَيَقُولُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : إِنَّ رِدْفَهَا ثَقِيلٌ بِكَثْرَةِ ٱللَّحْمِ ، فَإِذَا هِيَ هَمَّتْ بِٱلنُّهُوضِ جَذَبَهَا رِدْفُهَا إِلَىٰ ٱلْقُعُودِ ، فَكَأَنَّ رِدْفَهَا فِي ٱرْتِجَاجِهِ وَٱضْطِرَابِهِ لِكَثْرَةِ لَحْمِهِ خَائِفٌ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَٱلْخَائِفُ يُوصَفُ بِٱلارتِعَادِ ، وَكَذَلِكَ ٱلْعَجُزُ إِذَا كَثُرَ لَحْمُهُ ، كَمَا قَالَ ٱلْقَائِلُ [ وهو المُتَنبِّي ، من الوافر ] :

إِذَا مَاسَتْ رَأَيْتَ لَهَا ٱرْتِجَاجاً

٤٢٢ ـ وَقَالَ يَزِيدُ ٱبْنُ ٱلطَّثْرِيَّةِ ـ شَاعِرٌ إِسْلامِيٌّ ، وَٱلطَّثْرِيَّةُ : أُمُّهُ ، مِنْ حَيٍّ يُقَالُ لَهُم : طَثْرٌ ـ [من الطويل] :

عُقَيْلِيَّةٌ : أَمَّا مَلَاثُ إِزَارِهَا فَدِعْصٌ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَبَتِيلُ(١)

---

(١) عُقَيْلِيَّةٌ : مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ ؛ وَمَلاثُ الإِزَارِ : ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يُشَدُّ عَلَيْهِ ٱلإِزَارُ ، وَهُوَ ٱلْكِفْلُ =

[ وَسيردُ برقم : ٤٤٥ ] .

وَمِنْ مُخْتَارِ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتِ ، وَهِيَ فِي حَمَاسَةِ أَبِي تَمَّامٍ [من الطويل] :

أَلَيْـسَ قَلِيـلًا نَظْـرَةٌ إِنْ نَظَـرْتُهَـا ... إِلَيْـكِ وَكَـلَّا لَيْـسَ مِنْـكِ قَلِيـلُ(١)

فَيَـاخُلَّـةَ ٱلنَّفْـسِ ٱلَّتِـي لَيْـسَ دُونَهَـا ... لَنَـا مِـنْ أَخِـلَّاءِ ٱلصَّفَـاءِ خَلِيـلُ(٢)

وَيَـا مَـنْ كَتَمْنَـا حُبَّـهُ لَـمْ نُطِـعْ بِـهِ ... عَـدُوًّا وَلَـمْ يُـؤْمَـنْ عَلَيْـهِ دَخِيـلُ(٣)

أَمَا مِنْ مَقَامٍ أَشْتَكِي غُرْبَةَ ٱلنَّوَىٰ ... وَخَـوْفَ ٱلْعِـدَا فِيـهِ إِلَيْـكِ سَبِيـلُ(٤)

فَـدَيْتُـكِ أَعْـدَائِـي كَثِيـرٌ وَشُقَّتِـي ... بَعِيـدٌ وَأَشْيَـاعِـي لَـدَيْـكِ قَلِيـلُ(٥)

وَكُنْـتُ إِذَا مَـا جِئْـتُ جِئْـتُ بِعِلَّـةٍ ... فَـأَفْنَيْـتُ عِـلَّاتِـي فَكَيْـفَ أَقُـولُ

فَمَـا كُـلُّ يَـوْمٍ لِـي بِـأَرْضِـكِ حَـاجَـةٌ ... وَلا كُـلُّ يَـوْمٍ لِـي إِلَيْـكِ رَسُـولُ(٦)

صَحَـائِـفُ عِنْـدِي لِلْعِتَـابِ طَـوَيْتُهَـا ... سَتُنْشَـرُ يَـوْمـاً وَٱلْعِتَـابُ طَـوِيـلُ

---

= وَالرِّدْفُ ؛ وَالدِّعْصُ : ٱلرَّمْلُ ٱلْمُجْتَمِعُ ؛ وَٱلْبَتِيلُ : ٱلدَّقِيقُ ٱلْهَضِيمُ ؛ شَبَّهَ رِدْفَهَا بِٱلدِّعْصِ لِكَثْرَةِ ٱللَّحْمِ عَلَيْهِ وَٱكْتِنَازِهِ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَأَمَّا خَصْرُهَا فَهُوَ دَقِيقٌ هَضِيمٌ .

(١) يَقُولُ ـ مُدِلًّا بِمَا يُقَاسِيهِ مِنْ جَرَّائِهَا وَيَتَحَمَّلُهُ مِنْ أَجْلِهَا ـ :
أَلَيْسَ قَلِيلًا نَظْرَةٌ مِنْكِ إِذَا حَصَلَتْ لِي ، ثُمَّ ٱسْتَدْرَكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، فَقَالَ : « كَلَّا » وَهُوَ حَرْفُ رَدْعٍ وَنَفْيٍ ، أَيْ : لَا قَلِيلَ مِنْكِ ؛ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلآخَرِ [ من الخفيف ] :
هَـلْ إِلَـىٰ نَظْـرَةٍ إِلَيْـكِ سَبِيـلُ ... فَيُـرَوَّىٰ ٱلظَّمَـا وَيُشْفَـىٰ ٱلْغَلِيـلُ
إِنَّ مَـا مِنْـكَ قَـلَّ يَكْثُـرُ عِنْـدِي ... وَكَثِيـرٌ مِمَّـنْ تُحِـبُّ ٱلْقَلِيـلُ
« ٱلْقَلِيلُ » مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ ، وَ« كَثِيرٌ مِمَّنْ نُحِبّ » خَبَرُهُ .

(٢) يَقُولُ : ٱلْخُلَّةُ : ٱلْخَلِيلُ ، وَخَلِيلُ فِي آخِرِ ٱلْبَيْتِ ٱسْمُ لَيْسَ مُؤَخَّرٌ .

(٣) بِهِ ، أَيْ : فِيهِ ؛ وَٱلدَّخِيلُ : ٱلَّذِي لا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ نَفْسُكَ ، فَهُوَ ٱلْمُدَاخِلُ ٱلْمُبَاطِنُ .

(٤) مَقَامُ : مَوْضِعُ إِقَامَةٍ ، وَجُمْلَةُ : « أَشْتَكِي غُرْبَةَ ٱلنَّوَىٰ » صِفَتُهُ .

(٥) ٱلشُّقَّةُ : ٱلسَّفَرُ ٱلطَّوِيلُ ، أَوْ بُعْدُ ٱلْمَسِيرِ إِلَىٰ أَرْضٍ بَعِيدَةٍ ؛ وَٱلأَشْيَاعُ : ٱلأَنْصَارُ .

(٦) يَقُولُ : فَمَا كُلَّ يَوْمٍ تَعْرِضُ لِي بِأَرْضِكِ حَاجَةٌ أَتَعَلَّلُ بِهَا ، وَلَيْسَ بِمَيْسُورٍ لِي أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْكِ كُلَّ يَوْمٍ رَسُولًا .

فَلا تَحْمِلِي ذَنْبِي وَأَنْتِ ضَعِيفَةٌ ... فَحَمْلُ دَمِي يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ثَقِيلُ

٤٢٣ ـ وَيزِيدُ ٱبْنُ ٱلطَّثْرِيَّةِ هُوَ ٱلْقَائِلُ [من الطويل] :

بِنَفْسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ ... عَلَىٰ كَبِدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ

وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ ... فَلا هُوَ يُعْطِينِي وَلا أَنَا سَائِلُهْ

٤٢٤ ـ وَكَانَ ٱبْنُ ٱلطَّثْرِيَّةِ هَذَا يُسَمَّىٰ ٱلْمُوَدِّقُ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِحُسْنِ وَجْهِهِ وَحُسْنِ شَعَرِهِ وَحَلاوَةِ حَدِيثِهِ ، فَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّه إِذَا جَلَسَ بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَدَّقَهُنَّ ، أَيْ : جَعَلَهُنَّ يَمِلْنَ إِلَيْهِ . وَيُقَالُ : ٱسْتَوْدَقَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَوَدِقَتْ : إِذَا مَالَتْ إِلَىٰ ٱلْفَحْلِ لأَجْلِ جِمَاعِهَا ، وَأَصْلُ هَذِهِ ٱلْمَادَّةِ فِي ذَوَاتِ ٱلْحَافِرِ ، يُقَالُ : وَدِقَتِ الفَرسُ وَٱلأَتَانُ وَٱلْبَغْلَةُ : إِذَا ٱشْتَهَتِ ٱلْفَحْلَ ، وَبِهَا وِدَاقٌ ، ثُمَّ ٱسْتُعْمِلَ ذَلِكَ فِي ٱلإِنْسَانِ .

* * *

٤٢٥ ـ وَمِنْ طَرِيفِ مَا قِيلَ فِي ثِقَلِ ٱلْعَجِيزَةِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من الكامل] :

تَمْشِي فَتُثْقِلُهَا رَوَادِفُهَا ... فَكَأَنَّهَا تَمْشِي إِلَىٰ خَلْفِ

٤٢٦ ـ وَقَوْلُ ٱلْمُؤَمَّلِ بْنِ أَمْيَلَ [من المقتضب] :

مَنْ رَأَىٰ مِثْلَ حِبَّتِي ... تُشْبِهُ ٱلْبَدْرَ إِذْ بَدَا

تَدْخُلُ ٱلْيَوْمَ ثُمَّ تَدْ ... خُلُ أَرْدَافُهَا غَدَا

* * *

## ٱلثُّدِيُّ وَٱلنُّهُودُ :

٤٢٧ ـ يُقَالُ : ثُنْدُوَةُ ٱلرَّجُلِ ، وَثَدْيُ ٱلْمَرْأَةِ ، وَخِلْفُ ٱلنَّاقَةِ ، وَضَرْعُ ٱلشَّاةِ وَٱلْبَقَرَةِ ، وَطُبْيُ ٱلْكَلْبَةِ .

٤٢٨ ـ وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ إِذَا كَعَبَ ثَدْيُهَا ، أَيْ : ظَهَر ؛ كاعِبٌ ، فَإِذَا فَلَكَ ، أَيْ : ٱسْتَدَارَ ، قِيلَ : مُفَلِّكَةٌ ، فَإِذَا نَهَدَ : أَيْ : عَلا وَأَشْرَفَ ، قِيلَ : نَاهِدٌ ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُ ٱلنَّاهِدَ وَٱلْمُفَلِّكَةَ وَاحِداً .

٤٢٩ ـ وَمِمَّا يُخْتَارُ مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في ٱلنُّهُودِ قَوْلُ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ [من الوافر] :

صُدُورٌ فَوْقَهُنَّ حِقَاقُ عَاجٍ[1] وَحَلْيٌ زَانَهُ حُسْنُ ٱتِّسَاقِ

يَقُولُ ٱلنَّاظِرُونَ إِذَا رَأَوْهَا أَهٰذَا ٱلْحَلْيُ مِنْ هٰذِي ٱلْحِقَاقِ

وَمَا تِلْكَ ٱلْحِقَاقُ سِوَىٰ ثُدِيٍّ قُدِرْنَ مِنَ ٱلْحِقَاقِ عَلَىٰ وِفَاقِ

نَوَاهِدُ لَا يُعَدُّ لَهُنَّ عَيْبٌ سِوَىٰ مَنْعُ ٱلْمُحِبِّ مِنَ ٱلْعِنَاقِ

٤٣٠ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ أَبِي ٱلسَّمْطِ بْنِ مَرْوَانَ [من المتقارب] :

كَأَنَّ ٱلثُّدِيَّ إِذَا مَا بَدَتْ وَزَانَ ٱلْعُقُودُ بِهِنَّ ٱلنُّحُورَا

حِقَاقٌ مِنَ ٱلْعَاجِ مَكْنُونَةٌ حَمَلْنَ مِنَ ٱلْمِسْكِ شَيْئاً يَسِيرَا

٤٣١ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من المتقارب] :

قَبِيحٌ بِمِثْلِكِ أَنْ تَهْجُرِي وَأَقْبَحُ مِنْ ذَاكَ أَنْ تُهْجَرِي

أَقَاتِلَتِي بِفُتُورِ ٱلْجُفُونِ وَرُمَّانَتَيْنِ عَلَىٰ مِنْبَرِ

كَحُقَّيْنِ مِنْ لُبِّ كَافُورَةٍ بِرَأْسَيْهِمَا نُقْطَتَا عَنْبَرِ

٤٣٢ ـ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ [من الرمل] :

كُنْتُ مُشْتَاقاً وَمَا يَحْجُزُنِي عَنْكِ إِلَّا حَاجِزٌ يَمْنَعُنِي

شَاخِصٌ في ٱلصَّدْرِ غَضْبَانٌ عَلَىٰ قَبَبِ ٱلْبَطْنِ وَطَيِّ ٱلْعُكَنِ

---

(١) ٱلْعَاجُ : أَنْيَابُ ٱلْفِيلِ ، وَاحِدُهَا : عَاجَةٌ ؛ وَٱلْحِقَاقُ ، جَمْعُ حُقٍّ ؛ وَتَشْبِيهُهُمُ ٱلثَّدْيَ بِحُقِّ ٱلْعَاجِ إِنَّمَا هُوَ في ٱلْبَيَاضِ وَٱلاسْتِدَارَةِ .

يَمْـــلأُ ٱلْكَـــفَّ وَلَا يَفْضُلُـــهُ وَإِذَا أَثْنَيْتَـــــهُ لا يَنْثَنِـــــي

٤٣٣ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فِي وَصْفِ مُغَنِّيَاتٍ يَضْرِبْنَ بِٱلْعُودِ [من الخفيف] :

وَقِيَـــانٍ كَـــأَنَّهَـــا أُمَّهَـــاتٌ عَـــاطِفَـاتٌ عَلَـىٰ بَنِيهَـا حَـوَانِـي
مُطْفِـــلَاتٍ وَمَـــا حَمَلْـــنَ جَنِينـــاً مُـــرْضِعَـــاتٍ وَلَسْـنَ ذَاتَ لِبَـــانِ
مُلْقِمَـــاتٍ أَطْفَـــالَهُـــنَّ ثُـــدِيًّـــا نَـــاهِـدَاتٍ كَـأَحْسَـنِ الـرُّمَّـانِ
مُفْعَمَـــاتٍ كَـــأَنَّهَـــا حَـــامِـلَاتٌ وَهُـــنَّ صُفْـــرٌ مِـــنْ دِرَّةِ ٱلأَلْبَـــانِ
كُـلُّ طِفْـلٍ يُـدْعَـىٰ بِـأَسْمَـاءَ شَتَّـىٰ بَيْـــنَ عُـــودٍ وَمِـــزْهَـــرٍ وَكِـــزَانِ
أُمُّـــهُ دَهْـــرَهَـــا تُتَـــرْجِـــمُ عَنْـــهُ وَهْـوَ بَـادِي ٱلْغِنَـىٰ عَـنِ ٱلتُّـرْجُمَـانِ

٤٣٤ ـ وَأَوَّلُ مَنْ وَصَفَ ٱلثَّدْيَ بِحُقِّ ٱلْعَاجِ هُوَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ فِي مُعَلَّقَتِهِ ، قَالَ [من الوافر] :

تُـرِيـكَ إِذَا دَخَلْـتَ عَلَـىٰ خَـلاءٍ وَقَـدْ أَمِنَـتْ عُيُـونَ ٱلْكَـاشِحِينَـا[1]
ذِرَاعَـــيْ عَيْطَـــلٍ أَدْمَـــاءَ بِكْـــرٍ هِجَـانِ اللَّـوْنِ لَـمْ تَقْـرَأْ جَنِينَـا[2]
وَثَـدْيـاً مِثْـلَ حُـقِّ ٱلْعَـاجِ رَخْصـاً حَصَـانـاً مِـنْ أَكُـفِّ ٱلـلَّامِسِينَـا[3]

٤٣٥ ـ وَٱلنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُفَضِّلُ صِغَرَ ٱلثَّدْيِ ، وَمِنْهُم مَنْ يُفَضِّلُ كِبَرَهُ ، قِيلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلنَّظَّامِ أَحِدِ شُيُوخِ ٱلْمُعْتَزِلَةِ : أَيُّ

---

(١) ٱلْكَاشِحُ : ٱلْمُضْمِرُ ٱلْعَدَاوَةِ فِي كَشْحِهِ ، وَخَصَّ ٱلْعَرَبُ ٱلْكَشْحَ بِٱلْعَدَاوَةِ لأَنَّهُ مَوْضِعُ ٱلْكَبِدِ ، وَٱلْعَدَاوَةُ عِنْدَهُمْ تَكُونُ فِي ٱلْكَبِدِ .

(٢) ٱلْعَيْطَلُ : ٱلطَّوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ مِنَ ٱلنُّوقِ ؛ وَالأَدْمَاءُ : ٱلْبَيْضَاءُ مِنْهَا ؛ وَٱلْبِكْرُ : ٱلنَّاقَةُ ٱلَّتِي حَمَلَتْ بَطْناً وَاحِداً ؛ وَهِجَانُ ٱللَّوْنِ : بَيْضَاءُ خَالِصَةُ ٱلْبَيَاضِ ؛ وَلَمْ تَقْرَأْ جَنِيناً : لَمْ تَضُمَّ فِي رَحِمِهَا وَلَداً ؛ يَقُولُ : تُرِيكَ ذِرَاعَيْنِ مُمْتَلِئَتَيْنِ لَحْماً كَذِرَاعَيْ نَاقَةٍ بَيْضَاءَ وَلَمْ تَلِدْ بَعْدُ .

(٣) رَخْصاً : لَيِّناً ؛ وَحَصَاناً : عَفِيفَةً ؛ يَقُولُ : وَتُرِيكَ ثَدْياً مِثْلَ حُقٍّ مِنْ عَاجٍ بَيَاضاً وَٱسْتِدَارَةً مَصُونَةً مِنْ أَكُفِّ مَنْ يَلْمَسُهَا .

مَقَادِيرِ ٱلثُّدِيِّ أَحْمَدُ ؟ فَقَالَ : وَجَدْتُ ٱلنَّاسَ يَخْتَلِفُونَ في ٱلشَّهَوَاتِ ، وَسَمِعْنَا ٱللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ حِينَ وَصَفَ ٱلْحُورَ ٱلْعِينَ ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [٧٨ سورة النبأ/ الآية : ٣٣] وَلَمْ يَقُلْ : فَوَالِكَ وَلا نَوَاهِدَ . . . فَآثَرَ ٱلنَّظَّامُ ٱبْتِدَاءَ ٱلنُّهُودِ وَبِٱلحَرَى صِغَرَ ٱلثَّدْيِ .

٤٣٦ ـ وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ [من الكامل] :

وَٱلْبَطْنُ ذُو عُكَنٍ لَطِيفٌ طَيُّهُ وَالإِتْبُ تَنْفُجُهُ بِثَدْيٍ مُقْعَدِ

ٱلإِتْبُ : ثَوْبٌ يُؤْخَذُ فَيُشَقُّ مِنْ وَسَطِهِ ثُمَّ تُلْقِيهِ ٱلْمَرْأَةُ في عُنُقِهَا مِنْ غَيْرِ جَيْبٍ وَلا كُمَّيْنِ ؛ وَتَنْفُجُهُ : تَرْفَعُهُ ؛ يُقَالُ : نَفَجَ ثَدْيُ ٱلْمَرأَةِ قَمِيصَهَا : إِذا رَفَعَهُ ؛ وَثَدْيٌ مُقْعَدٌ : نَاتِىءٌ عَلَىٰ ٱلنَّحْرِ لَمْ يَنْثَنِ بَعْدُ ، فَهَذَا مِمَّنْ يَمِيلُ إِلَىٰ ٱلثَّدْيِ ٱلْكَبِيرِ . [ وسيرد برقم : ٤٤٨ ] .

٤٣٧ ـ وَدَخَلَ مَالِكُ بْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلأَشْتَرُ عَلَىٰ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ ـ زَفَافِهِ ـ عَلَىٰ بَعْضِ نِسَائِهِ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : كَخَيْرِ ٱمْرَأَةٍ ، لَوْلا أَنَّها جَدَّاءُ قَبَّاءُ ! فَقَالَ : وَهَلْ يُرِيدُ ٱلرِّجَالُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا ذَاكَ ! قَالَ : لا ! حَتَّىٰ تُرْوِيَ ٱلرَّضِيعَ ، وَتُدْفِيءَ ٱلضَّجِيعَ .

ٱلْجَدَّاءُ : ٱلصَّغِيرَةُ ٱلثَّدْيِ ؛ وَٱلْقَبَّاءُ : ٱلْخَمِيصَةُ ٱلْبَطْنِ ، ٱللَّطِيفَةُ ٱلْكَشْحَيْنِ .

فَكَأَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يُفَضِّلُ ٱلْكَبِيرَةَ ٱلثَّدْيِ . [ راجع رقم : ٥٣٥ ] .

* * *

٤٣٨ ـ وَكَتَبَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ ٱلثَّقَفِيُّ إِلَىٰ ٱلْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ أَنْ يَخْطُبَ عَلَىٰ ٱبْنِهِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱمْرَأَةً جَمِيلَةً مِنْ بَعِيدٍ مَلِيحَةً مِنْ قَرِيبٍ ، شَرِيفَةً في قَوْمِها

ذَلِيلَةً في نَفْسِهَا ، أَمَةً لِبَعْلِهَا ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ : إِنِّي قَدْ أَصَبْتُهَا ، وَهِيَ خَوْلَةُ بِنْتُ مِسْمَعٍ ، لَوْلا عِظَمُ ثَدْيَيْهَا ! فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحَجاجُ : لا يَحْسُنُ نَحْرُ ٱلْمَرْأَةِ حَتَّىٰ يَعْظُمَ ثَدْيَاهَا ؛ وَزَوَّجَهَا ٱبْنَهُ .

٤٣٩ ـ وَمِنْ أَبْيَاتِ « ٱلْحَمَاسَةِ » ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ في ٱلأَرْدَافِ وَتَقَدَّمَ شَرْحُهَا [ رقم : ٤١٦ ] [وَهِيَ لِعُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، من الكامل] :

أَبَتِ ٱلرَّوَادِفُ وَٱلثُّدِيُّ لِقُمْصِهَا ... مَسَّ ٱلْبُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورَا

وَإِذَا ٱلرِّيَاحُ مَعَ ٱلعَشِيِّ تَنَاوَحَتْ ... نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهِجْنَ غَيُورَا

٤٤٠ ـ وَكَذَلِكَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ [ رقم : ٤٠١ ] [من الطويل] :

إِذَا ٱنْبَطَحَتْ فَوْقَ ٱلأَثَافِي رَفَعْنَهَا ... بِثَدْيَيْنِ في صَدْرٍ عَرِيضٍ وَكَعْثَبِ

وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ في ٱلْفَرْجِ [ رقم : ٤٠١ ] .

٤٤١ ـ وَأَنْشَدَ ٱلْحِجَارِيُّ في « ٱلْمُسْهِبِ » لِبَعْضِ ٱلأَنْدَلُسِيِّينَ [من الكامل] :

يَا صَاحِبَيَّ بِمُهْجَتِي خُمْصَانَةٌ[1] ... مَالَتْ فَمَالَ ٱلْغُصْنُ مِنْ أَعْطَافِهَا

فِي ٱلصَّدْرِ مِنْهَا لِلطِّعَانِ أَسِنَّةٌ ... مَا أُشْرِعَتْ إِلَّا لِحَمْيِ قِطَافِهَا

إِنْ أَنْكَرَتْ قَتْلِي هُنَاكَ فَفَتِّشَا ... تَجِدَا دَمِي قَد جَفَّ فِي أَطْرَافِهَا

٤٤٢ ـ وَمِثْلُهُ لِبَعْضِ ٱلأَنْدَلُسِيِّينَ أَيْضاً [من الطويل] :

وَحَوْرَاءَ تَسْتَعْلِي بِنَهْدَيْنِ أُشْرِعَا ... وَلا غَرْوَ أَنْ يَدْعُوَ هَوَاهَا فَأَتْبَعَهْ

تَقُولُ وَقَدْ رَقَّت لِمَا بِي : أَجَازِعٌ ... وَأَنْتَ حَرْبِي وَٱلأَسِنَّةُ مُشْرَعَهْ

فَقُلْتُ لَهَا : جَفْنَاكِ غَزَّا تَجَلُّدِي ... وَنَهْدَاكِ نَفْسَ هَيْمَانَ مُوجَعَهْ

وَمَا زِلْتُ أَلْقَىٰ ٱلقِرْنَ يَعْلُ رُمْحُهُ ... فَكَيْفَ بِمَنْ تَلْقَىٰ ٱلْفُؤَادَ بِأَرْبَعَهْ

---

(١) خُمْصَانَةٌ : ضَامِرَةُ ٱلْبَطْنِ .

ٱلأَرْبَعَةُ : عَيْنَاهَا وَثَدْيَاهَا .

٤٤٣ ـ وَقَالَ ٱلْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ٱبْنُ ٱلْعَرَبِيِّ يُدَاعِبُ فَتًى مِنْ فِتْيَانِ ٱلْمُلَثَّمِينَ ، وَكَانَ قَدْ هَزَّ رُمْحَهُ عَلَيْهِ ، وَأَوْمَأَ بِهِ إِلَيْهِ [من الطويل] :

يَهُزُّ عَلَيَّ ٱلرُّمْحَ ظَبْيٌ مُهَفْهَفٌ    لَعُوبٌ بِأَلْبَابِ ٱلرَّعِيَّةِ عَابِثُ
وَلَوْ كَانَ رُمْحاً وَاحِداً لَاتَّقَيْتُهُ    وَلَكِنَّهُ رُمْحٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

وَٱلرُّمْحُ ٱلثَّانِي وَٱلثَّالِثُ : ٱلْقَدُّ وَٱللَّحْظُ .

* * *

## ٱلْخُصُورُ وَٱلسُّرَرُ وَٱلْعُكَنُ :

٤٤٤ ـ قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَصِفُ ضُمُورَ خَصْرِ صَاحِبَتِهِ [من الطويل] :

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَٱلْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ    وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ ٱلسَّقِيِّ ٱلْمُذَلَّلِ

ٱلْكَشْحُ : ٱلْخَصْرُ ؛ وَٱلْجَدِيلُ : ٱلْعَنَانُ ٱلْمَجْدُولُ ـ ٱلْمَضْفُورُ ـ ؛ وَمُخَصَّرُ : دَقِيقُ ٱلْوَسَطِ ؛ يَصِفُ خَصْرَهَا بِأَنَّهُ ضَامِرٌ يَحْكِي في دِقَّتِهِ ٱلزِّمَامَ ٱلْمُتَّخَذَ مِنْ جِلْدٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ بَقِيَّةِ ٱلْبَيْتِ في ٱلسِّيقَانِ . [ بل سيرد برقم : ٤٧٧ ] .

٤٤٥ ـ وَقَالَ يَزِيدُ ٱبْنُ ٱلطَّثْرِيَّةِ [من الطويل] :

عُقَيْلِيَّةٌ أَمَّا مَلَاثُ إِزَارِهَا    فَدِعْصٌ وأَمَّا خَصْرُهَا فَبَتِيلُ

وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا ٱلْبَيْتُ مَعَ أَبْيَاتٍ أُخَرَ في ٱلأَرْدَافِ [ رقم : ٤٢٢ ] ، وَشَاهِدُنَا هُنَا قَوْلُهُ : وَأَمَّا خَصْرُهَا فَبَتِيلُ ، وَٱلْبَتِيلُ : ٱلْهَضِيمُ ٱلدَّقِيقُ ، وَٱلْبَتْلُ : ٱلْقَطْعُ ؛ يَقُولُ : إِنَّهُ لِدِقَّتِهِ يَكادُ يَنْقَطِعُ .

٤٤٦ ـ وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبِ « ٱلْعِقْدِ » [من الكامل] :

يَا لُؤْلُؤاً يَسْبِي ٱلْعُقُولَ أَنِيقَا ... وَرَشاً بِتَقْطِيعِ ٱلْقُلُوبِ خَلِيقَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... دُرًّا يَعُودُ مِنَ ٱلْحَيَاءِ عَقِيقَا
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ مَحَاسِنِ وَجْهِهِ ... أَلْفَيْتَ وَجْهَكَ فِي سَنَاهُ غَرِيقَا
يَا مَنْ تَقَطَّعَ خَصْرُهُ مِنْ رِقِّهِ ... مَا بَالُ قَلْبِكَ لا يَكُونُ رَقِيقَا

يُقَالُ : إِنَّ ٱلْمُتَنَبِّيَ لَمَّا سَمِعَ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتَ صَفَّقَ بِيَدَيْهِ ٱسْتِحْسَاناً لَهَا ، وَقَالَ : وَٱللهِ يَا ٱبْنَ عَبْدِ رَبِّهِ لَتَأْتِيَنَّكَ ٱلْعِرَاقُ حَبْواً . . .

٤٤٧ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الوافر] :

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ ٱلأَبْصَارُ فِيهِ ... كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

وَقَدْ تَقَدَّمَ . [ رقم : ٨٧ ] .

* * *

٤٤٨ ـ أَمَّا العُكَنُ ـ جَمْعُ عُكْنَةٍ : مَا ٱنْطَوَىٰ وَتَثَنَّىٰ مِن لَحمِ ٱلْبَطْنِ ـ فَإِنَّ مَنْ يَسْتَحْسِنُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلضُّمُورَ وَٱلْهَيَفَ لا يَسْتَحْسِنُ ٱلْعُكَنَ ، فَإِنَّ ٱلْعُكَنَ لا تَكُونُ إِلَّا مَعَ ٱلسِّمَنِ ، وَلأَجْلِ هَذَا ٱحْتَاجَ ٱلنَّابِغَةُ إِلَىٰ ٱلتَّحَرُّزِ فِي قَوْلِهِ ٱلَّذِي أَوْرَدْنَاهُ آنِفاً [ رقم : ٤٣٦ ] ، وَهُوَ [من الكامل] :

وَٱلْبَطْنُ ذُو عُكَنٍ لَطِيفٌ طَيُّهُ

فَإِنَّ قَوْلَهُ : لَطِيفٌ طَيُّهُ ، تَحَرُّزٌ مِنَ ٱلسِّمَنِ ٱلْمَعِيبِ ، إِذْ أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ بَطْنَهَا أَلْطَفُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بَطْنٌ ذَاتُ عُكَنٍ .

٤٤٩ ـ وَقَالَ ٱبْنُ وَكِيعٍ فِيمَا يَتَّصِلُ بِهَذَا ٱلْبَابِ [من الرجز] :

خُذْهَا بِكَفَّيْ فَاتِرِ ٱلْجُفُونِ ... مُدَامَةً كَدَمْعَةِ ٱلْمَحْزُونِ

عَلَىٰ غَدِيرٍ أَمْلَسِ ٱلْمُتُونِ مِثْلِ فِرِنْدِ صَارِمٍ مَنُونِ
أَمْوَاجُهُ كَعُكْنِ ٱلْبُطُونِ

٤٥٠ ـ وَقَالَ ٱبْنُ صَارَةَ ٱلأَنْدَلُسِيُّ [من الكامل] :

وَٱلنَّهْرُ قَدْ رَقَّتْ غِلالَةُ مَتْنِهِ وَعَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ ٱلأَصِيلِ طِرَازُ
تَتَرَقْرَقُ ٱلأَمْوَاجُ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا عُكَنُ ٱلْبُطُونِ تَضُمُّهَا ٱلأَعْجَازُ

٤٥١ ـ وَقَالَ تَمِيمُ ٱبْنُ ٱلْمُعِزِّ ٱلْفَاطِمِيُّ في نِيلِ مِصْرَ [من الكامل] :

يَوْمٌ لَنَا بِٱلنِّيلِ مُخْتَصَرُ وَلِكُلِّ يَوْم مَسَرَّةٍ قِصَرُ
وَٱلسُّفْنُ تَصْعَدُ كَٱلْخُيُولِ بِنَا فِي مَوْجِهِ وَٱلْمَاءُ يَنْحَدِرُ
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عُكَنٌ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرَرُ

* * *

٤٥٢ ـ أَمَّا ٱلسُّرَرُ فَقَدْ جَاءَ في « ٱللِّسَانِ » : السُّرُّ : مَا تَقْطَعُهُ ٱلْقَابِلَةُ مِنْ سُرَّةِ ٱلصَّبِيِّ ، يُقَالُ : عَرَفْتُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُقْطَعَ سُرُّكَ ، وَلا تَقُلْ : سُرَّتُكَ ، لأَنَّ السُّرَّةَ لَا تُقْطَعُ ، وَإِنَّما هِيَ ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي قُطِعَ مِنْهُ ٱلسُّرُّ ، أَقُولُ : وَإِذَنْ تَكُونُ عَبْقَرِيَّاتُهُمْ ٱلَّتِي سَنُورِدُهَا في هَذا ٱلْمَوْضِعِ إِنَّما هِيَ في ٱلسُّرَرِ ٱلَّتِي هِيَ مَوْضِعُ ٱلسُّرِّ ٱلَّذِي يُقْطَعُ في ٱلصِّغَرِ .

٤٥٣ ـ وَمِنْ أَوْصَافِ ٱلسُّرَّةِ ٱلْمَمْدُوحَةِ في ٱلنِّسَاءِ أَنْ تَكُونَ مُتَّسِعَةً ، وَقَوْلُهُمْ في وَصْفِهَا : « كَمَدْهَنِ ٱلْعَاجِ » إِشَارَةٌ إِلَىٰ ٱتِّسَاعِهَا وَبَياضِهَا ، وَقَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ ـ وَجَمَعَ بَيْنَ العُكَنِ وَٱلسُّرَرِ ـ [من الطويل] :

وَتَحْتَ زَنَانِيرٍ شَدَدْنَ عُقُودَهَا زَنَانِيرُ أَعْكَانٍ مَعَاقِدُهَا ٱلسُّرَرْ

* * *

**ٱلاسْتِحْدَادُ وَتَنْظِيفُ ٱلْمَغَابِنِ وَٱلْخِفَاضُ :**

**ٱلاسْتِحْدَادُ :**

٤٥٤ ـ وَمِمَّا يَنْدَرِجُ في بَابِ ٱلنَّظَافَةِ حَلْقُ ٱلْعَانَةِ أَوْ ٱنْتِيارُهَا ، وَذَلِكَ مَعْدُودٌ مِنَ ٱلْفِطْرَةِ ، أَوْ سُنَنِ ٱلأَنْبياءِ .

جَاءَ في ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « مِنَ ٱلْفِطْرَةِ حَلْقُ ٱلْعَانَةِ ، وَتَقْلِيمُ ٱلأَظْفَارِ وَنَتْفُ الآبَاطِ وَٱلْخِتَانُ » [راجع البخاري ، رقم : ٥٨٨٩ ؛ مسلم ، رقم : ٢٥٧] وَمَعْنَىٰ أَنَّ هَذهِ ٱلأَشْيَاءَ مِنَ ٱلْفِطْرَةِ : أَنَّها إذَا فُعِلَتْ ٱتَّصَفَ فَاعِلُهَا بِٱلْفِطْرَةِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱللهُ ٱلْعِبَادَ عَلَيْهَا وَحَثَّهُمْ عَلَيْها وَٱسْتَحَبَّهَا لَهُمْ لِيَكُونُوا عَلَىٰ أَكْمَلِ ٱلصِّفَاتِ وَأَشْرَفِهَا صُورَةً ؛ قَالَ الإمَامُ ٱلْبَيْضَاويُّ : إنَّ ٱلْفِطْرَةَ في ٱلأَصْلِ : ٱلْجِبلَّةُ وَٱلاخْتِرَاعُ وَٱلدِّينُ وَٱلسُّنَّةُ ؛ وَٱلْمُرَادُ بِهَا هُنَا ٱلسُّنَّةُ ٱلْقَدِيمَةُ ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا ٱلأَنْبِياءُ وَٱتَّفَقَتْ عَلَيْهَا ٱلشَّرَائِعُ ، وَكَأَنَّهَا أَمْرٌ جِبلِّيٌّ فُطِرُوا عَلَيْهِ .

أَقُولُ : يُؤَيِّدُ هَذَا قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٣٠ سورة الروم/ الآية : ٣٠] .

٤٥٥ ـ وَٱلْعَانَةُ : ٱلشَّعَرُ ٱلَّذِي فَوْقَ ذَكَرِ ٱلرَّجُلِ وَحَوَالَيْه ، وَكَذَلِكَ ٱلشَّعَرُ ٱلَّذِي حَوَالَيْ فَرْجِ ٱلْمَرْأَةِ . . وَحَلْقُهُ يُسَمَّىٰ ٱلاسْتِحْدَادُ ، مِنَ ٱلْحَدِيدِ ، وَٱلْمُرَادُ حَلْقُهُ بِمُوسَىٰ ، وَيَقُومُ مَقَامَ ٱلْمُوسَىٰ ٱلنُّورَةُ ـ وَيُقَالُ مِنْها : ٱنْتَوَرَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَٱنْتَارَتْ ، مِنَ ٱلنُّورَةِ(١) .

---

(١) ٱلنُّورَةُ : ٱلْحَجَرُ يُحْرَقُ وَيُسَوَّىٰ مِنْهُ ٱلْكِلْسُ ـ ٱلْجِيرُ ـ ثُمَّ غَلَبَ عَلَىٰ أَخْلاطٍ تُضَافُ إلىٰ ٱلْكِلْسِ يُزَالُ بِهَا شَعْرُ ٱلْعَانَةِ ، وَالنِّسَاءُ يَعْرِفْنَ ٱلنُّورَةَ .

٤٥٦ ـ وَقَالَ ٱلْقَصَصِيُّونَ : إِنَّ ٱلْجِنَّ هُمْ أَوَّلُ مَنِ ٱتَّخَذَ ٱلنُّورَةَ لِبَلْقِيسَ ، قَالُوا : إِنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ لَمَّا رَاسَلَهَا ، وَكَانَ مَا قَصَّهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ مِنْ قِصَّتِهَا ، وَأَتَتْ إِلَيْهِ ، قَالَتِ ٱلْجِنُّ : إِنْ رَآهَا سُلَيْمَانُ وَٱسْتَحْسَنَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَأَوْلَدَها غُلاماً لَنْ نَبْرَحَ مِنَ ٱلْعُبُودِيَّةِ آخِرَ ٱلدَّهْرِ !

وَكَانَتْ بَلْقَيسُ شَعْرَاءَ ٱلسَّاقَيْنِ ، فَبَنَوْا صَرْحاً مُمَرَّداً مِنْ قَوَارِيرَ ، : أَيْ : زُجَاجٍ ، وَصَوَّرُوا فِيهِ حَيْوَانَ ٱلْبَحْرِ ، وَجَلَسَ سُلَيْمَانُ في أَقْصَاهُ عَلَىٰ كُرْسِيٍّ ، وَٱسْتَدْعَىٰ بَلْقِيسَ لِتَرَاهُ وَتَتَعَجَّب مِنْهُ ، وَإِنَّما أَرَادَ ٱلْجِنُّ بِذَلِكَ لِيَظْهَرَ لِسُلَيْمَانَ شَعْرَ سَاقَيْهَا فَتَنْبُو عَيْنُهُ بِهَا ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بَلْقِيسُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً ، وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا لِتَخُوضَهُ ، فَرَآهَا سُلَيْمَانُ ، فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا ، وَٱسْتَقْبَحَ شَعْرَهَا . فَعَزَّمَ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْجِنِّ أَنْ يُعَرِّفَهُ بِمَا يُذْهِبُ هَذَا ٱلشَّعَرَ ، فَٱخْتَرَعَ ٱلنُّورَةَ ، فَٱنْتَارَتْ بِهَا ، وَتَزَوَّجَهَا سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ .

٤٥٧ ـ وَمِنْ كلامِهِمْ : ٱللَّذَاتُ أَرْبَعُ : فَلَذَّةُ سَاعَةٍ ، وَهِيَ ٱلْجِمَاعُ ؛ وَلَذَّةُ يَوْمٍ ، وَهِيَ ٱلْحَمَّامُ ؛ وَلَذَّةُ جُمُعَةٍ ـ أَيْ : أُسْبُوعٍ ـ وَهِيَ ٱلنُّورَةُ ، وَلَذَّةُ حَوْلٍ ـ أَي : عَامٍ ـ وَهِيَ تَزَوُّجُ ٱلْبِكْرِ .

٤٥٨ ـ وَمِنْ كَلامِهِمْ : أَلَذُّ ٱلْجِمَاعِ بِٱلْمَرْأَةِ في يَوْمِ ٱنْتِيَارِهَا ـ إِزَالَةِ عَانَتِهَا ـ وَٱلرَّجُلِ بَعْدَ ثَلاثٍ مِنِ ٱسْتِحْدَادِهِ ـ أَي : حَلْقِ عَانَتِهِ ـ .

٤٥٩ ـ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ ٱلْمُهَلَّبِ ٱبْنِ أَبِي صُفْرَةَ : وَدِدْتُ لَوْ كَانَتْ طِلْيَةُ نُورَةٍ بِمِئَةِ أَلْفٍ ، وَلَوْ كَانَ فَرْجُ ٱلْمَرْأَةِ في جَبْهَةِ أَسَدٍ ، حَتَّىٰ لا يَطَّلِيَ إِلَّا كَرِيمٌ ، وَلا يَصِلَ إِلَىٰ ٱلْفَرْجِ إِلَّا شُجَاعٌ .

٤٦٠ ـ وَهَذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ـ كَلِمَةُ يَزِيدِ بْنِ ٱلْمُهَلَّبِ ـ يُرْوَىٰ قَرِيبٌ مِنْهَا لِلْخَلِيفَةِ ٱلْخَلِيعِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، وَهِيَ : وَدِدْتُ أَنَّ كُلَّ كَأْسٍ تُشْرَبُ مِنْ

خَمْرٍ بِدِينَارٍ ، وَأَنَّ كُلَّ حِرٍ في جَبْهَةِ أَسَدٍ ، فَلا يَشْرَبُ إِلَّا سَخِيٌّ ، وَلا يَنْكِحُ إِلَّا شُجَاعٌ .

٤٦١ ـ وَمِنْ طُرَفِ مَا رُوِيَ في بَابِ ٱلنُّورَةِ وَٱلاطِّلاءِ بِهَا أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ ٱلحَضَرَ مَعَ صاحِبَيْنِ لَهُ ، فَأَحَبَّ صاحِبَاهُ دُخُولَ ٱلْحَمَّامِ ، فَنَهاهُمَا ٱلأَعْرَابِيُّ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَبَيا إِلَّا دُخُولَهُ ، وَرَأَيَا رَجُلًا يَنْتَارُ ، فَسَأَلا عَنْ ذَلِكَ ! فَأُخْبِرَا بِخَبَرِ ٱلنُّورَةِ ، فَٱسْتَعْمَلاهَا وَلَمْ يُحْسِنَا ٱسْتِعْمالَهَا ، فَأَحْرَقَتْهُمَا ، فَقَالَ ٱلأَعْرَابِيُّ ، وَقَدْ أَوْرَدَ أَبُو تَمَّامٍ في « حَمَاسَتِهِ » ، هَذِهِ الأَبْيَاتَ [من الطويل] :

لَعَمْرِي لَقَدْ حَذَّرْتُ قُرْطاً وَجَارَهُ ... وَلا يَنْفَعُ ٱلتَّحْذِيرُ مَنْ لَيْسَ يَحْذَرُ

نَهَيْتُهُمَا عَنْ نُورَةٍ أَحْرَقَتْهُمَا ... وَحَمَّامِ سَوْءٍ مَاؤُهُ يَتَسَعَّرُ

فَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَتَانِي مُوَقَّعاً ... بِهِ أَثَرٌ مِنْ مَسِّهَا يَتَقَشَّرُ[١]

أَجِدَّكُمَا لَمْ تَعْلَمَا أَنَّ جَارَنَا ... أَبَا ٱلْحِسلِ بِٱلصَّحْرَاءِ لا يَتَنَوَّرُ[٢]

وَلَمْ تَعْلَمَا حَمَّامَنَا بِبِلادِنَا ... إِذَا جَعَلَ ٱلْحِرْبَاءَ بِٱلْجِذْلِ يَخْطِرُ[٣]

---

(١) مُوَقَّعاً : بِهِ أَثَرُ جُرُوحٍ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : بَعِيرٌ مُوَقَّعٌ ، أَيْ : بِهِ آثَارُ جُرُوحٍ ، وَتَقَشَّرَ ٱلْجِرْحُ : عَلاهُ قِشْرٌ .

(٢) أَجِدَّكُمَا : كَلِمَةٌ لا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا مُضَافَةً ، وَمَعْنَاهَا ٱلْقَسَمُ ، وَيَجُوزُ في ٱلْجِيمِ ٱلْكَسْرُ وَٱلْفَتْحُ ، فَإِذَا كُسِرَتْ كَانَ ٱلْمَعْنَىٰ أَنَّهُ يَسْتَحْلِفُهُ بِحَقِيقَتِهِ ، وَإِذا فُتِحَتْ ٱسْتَحْلَفَهُ بِبَخْتِهِ وَحَظِّهِ ؛ وَأَبُو ٱلْحِسْلِ : كِنْيَةُ ٱلضَّبِّ ، يَقُولُ : أَسْتَحْلِفُكُمَا بِحَقِيقَتِكُمَا أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ ٱلضَّبَّ لا يَسْتَعْمِلُ ٱلنُّورَةَ حَتَّىٰ تَرَكْتُمَا ٱلاقْتِدَاءَ بِهِ ، يُرِيدُ : إِنَّكُمَا مِنْ سُكَّانِ ٱلصَّحْراءِ ٱلَّتِي لا يَعْرِفُ قُطَّانُهَا ٱلنُّورَةَ ، فَكَيْفَ تَسْتَعْمِلانِهَا وَأَنْتُمْ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَضَرِ ؛ وَقَدْ خَطَّأَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ قَوْلَهُ : يَتَنَوَّرُ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ مِنَ ٱلنُّوْرة : ٱنْتَارَا ٱنْتِيَاراً ، أَو ٱنْتَوَرَا ٱنْتِوَاراً ، أَمَّا تَنَوَّرَ ، فَإِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ نَظَرَ إِلَىٰ ٱلنُّورِ ، وَأَجَازَ بَعْضُهُمْ : تَنَوَّرَ ، مِنَ ٱلنُّورَةِ ، وَٱسْتَشْهَدَ بِهَذِهِ ٱلأَبْيَاتِ .

(٣) ٱلْحِرْبَاءُ : دُوَيْبَةٌ تَسْتَقْبِلُ ٱلشَّمْسَ بِرَأْسِهَا دَائِماً ، وَيَضْرِبُونَ ٱلْمَثَلَ بِهَا في كَثْرَةِ ٱلتَّلَوُّنِ ؛ وَٱلْجِذْلُ : أَصْلُ ٱلْحَطَبِ ٱلْعَظِيمِ ؛ وَيَخْطِرُ : يُحَرِّكُ ذَنَبَهُ ؛ يَقُولُ : أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّنَا فِي شِدَّةِ أَيَّامِ ٱلْحَرِّ وَٱلْقَيْظِ لا نَغْتَسِلُ في ٱلْحَمَّامَاتِ إِذْ لَيْسَ في صَحْرَائِنَا حَمَّامَاتٌ ، وَلَكِنْ نَغْتَسِلُ فِي بُيُوتِنَا وَأَخْبِيَتِنَا ! .

٤٦٢ ـ وَنُورِدُ هُنَا بَعْضَ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلْحَمَّامِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱبْنِ خَفَاجَةَ ٱلأَنْدَلُسِيِّ [من السريع] :

أَهْلًا بِبَيْتِ ٱلنَّارِ مِنْ مَنْزِلٍ     شِيدَ لأَبْرَارٍ وَفُجَّارِ
يَدْخُلُهُ مُلْتَمِسٌ لَذَّةً     فَيَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ فِي ٱلنَّارِ

٤٦٣ ـ وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ ٱلْمَأْمُونِيُّ مِنْ شُعَرَاءِ « ٱلْيَتِيمَةِ » [من الطويل] :

وَبَيْتٍ كَأَحْشَاءِ ٱلْمُحِبِّ دَخَلْتُهُ     وَمَالِي ثِيَابٌ فِيهِ غَيْرُ إِهَابِي
أَرَىٰ مُحْرِماً فِيهِ وَلَيْسَ بِكَعْبَةٍ     فَمَا سَاغَ إِلَّا فِيهِ خَلْعُ ثِيَابِي
بِمَاءٍ كَدَمْعِ ٱلصَّبِّ فِي حَرِّ قَلْبِهِ     إِذَا أَذَنَتْ أَحْشَاؤُهُ بِذَهَابِ
تَوَهَّمْتُ فِيهِ قِطْعَةً مِنْ جَهَنَّمٍ     وَلَكِنَّهَا مِنْ غَيْرِ مَسِّ عِقَابِ
يُثِيرُ ضَبَاباً بِٱلْبُخَارِ مُجَدَّلًا     بُدُورُ زُجَاجٍ فِي سَمَاءِ قِبَابِ

٤٦٤ ـ وَمِنَ ٱلْفِطْرَةِ تَنْظِيفُ ٱلْمَغَابِنِ ـ وَهِيَ ٱلأَرْفَاغُ وَالآبَاطُ ـ وَالأَرْفَاغُ جَمْعُ رُفْغٍ : بَوَاطِنُ ٱلأَفْخَاذِ عِنْدَ ٱلْحَوَالِبِ ، وَفِي حَدِيثِ عِكْرِمَةَ : « مَن مَسَّ مَغَابِنَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ » [« النهاية » مادة : غبن ، « لسان العرب » مادة : غبن] وَذَلِكَ مِنْهُ ٱحْتِيَاطاً ، فَإِنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَىٰ مَنْ يَلْمَسُ ذَلِكَ ٱلْمَوْضِعَ أَنْ تَقَعَ يَدُهُ عَلَىٰ ذَكَرِهِ ، وَقَدْ أَسْلَفْنَا فِي تَقْلِيمِ ٱلأَظْفَارِ قَوْلًا عَلَىٰ ٱلْمَغَابِنِ [رقم : ٢١٧] . وَأَمَّا الإِبْطُ ، فَقَدْ قَالُوا : إِنَّ ٱلْمَقْصُودَ هُوَ تَنْظِيفُ ٱلإِبْطِ ، وَلَوْ كَانَ بِٱلْحَلْقِ ـ أَيْ : بِحَلْقِهِ بِنَحْوِ مُوسَىٰ ـ عَلَىٰ أَنَّ ٱلنَّتْفَ هُوَ ٱلسُّنَّةُ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مُوجِعاً فِي ٱلابْتِدَاءِ غَيْرَ أَنَّهُ يَسْهُلُ عَلَىٰ مَنِ ٱعْتَادَهُ .

٤٦٥ ـ وَمِمَّا قَالُوهُ فِي نَتْنِ ٱلإِبْطِ وَٱلْجَسَدِ [من الوافر] :

وَإِبْطُكَ قَابِضُ ٱلأَرْوَاحِ يَرْمِي     بِسَهْمِ ٱلْمَوْتِ مِنْ تَحْتِ ٱلثِّيَابِ

٤٦٦ ـ و[من مجزوء الرمل] :

رِيحُـــــهُ رِيــــحُ كـــلابٍ هَـــارَشَـتْ فـــي يَـــومِ طَـــلِّ

٤٦٧ ـ و[من الكامل] :

يَـا رَحْمَتِـي لِبُخُـورِهِ مِـنْ نَتْنِـهِ كَمْ فِي ٱلْكَنِيفِ يَضِيعُ رِيحُ ٱلْعَنْبَرِ

٤٦٨ ـ و : فُلانٌ أَنْتَنُ مِنْ رِيحِ ٱلْجَوْرَبِ .

٤٦٩ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ٱبْنُ أَبِي عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱبْنُ عَائِشَةَ ـ وَكانَ خَلِيعاً مِنْ أَهْلِ ٱلْبَصْرَةِ ـ [من الخفيف] :

مَـنْ يَكُـنْ إِبْطُـهُ كَـآبَـاطِ ذَا ٱلْخَلْـ ـقِ فَـإِبْطَـايَ فـي عِـدَادِ ٱلْفِقَـاحِ
لِـيَ إِبْطَـانِ يَـرْمِيَـانِ جَلِيسِـي بِشَبِيـهِ ٱلسُّـلَاحِ أَو بِـٱلسُّـلَاحِ
فَكَـأَنِّـي مِـنْ نَتْـنِ هَـذَا وَهَـذَا جَـالِـسٌ بَيْـنَ مُصْعَـبٍ وَصَبَـاحِ

ٱلْفِقَاحُ جَمْعُ فَقْحَةٍ : ٱلدُّبُرُ أَوْ حَلْقَتُهُ ؛ وَٱلسُّلاحُ : مَا تُلْقِيهِ مِنَ ٱلْعِذْرَةِ ؛ وَمُصْعَبُ هُوَ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مُصْعَبِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بِنِ ٱلزُّبَيْرِ بْنِ ٱلعَوَّامِ ؛ وَصَبَاحُ هُوَ صَبَاحُ بْنُ خَاقَانَ ٱلْمِنْقَرِيُّ ؛ وَكَانَا جَلِيسَيْنِ لا يَكَادَانِ يَفْتَرِقَانِ ، وَصَدِيقَيْنِ مُتَوَاصِلَيْنِ لا يَكَادَانِ يَتصارَمَانِ ، وَكانَا مِنْ مَشَايِخِ ٱلْعِلْمِ وَٱلأَدَبِ وَٱلْمُرُوءَةِ ، يَرْمِيهِمَا هَذَا ٱلشَّاعِرُ ٱلْخَلِيعُ بِٱلبَخَرِ .

❊ ❊ ❊

٤٧٠ ـ وَأَمَّـا ٱلْخِفَـاضُ أو ٱلْخَفْـضُ ، فَهُـوَ لِلْفَتَـاةِ كَـٱلْخِتَـانِ لِلصَّبِـيِّ ، فَٱلْخِفَاضُ هُوَ قَطْعُ بَظْرِ ٱلصَّبِيَّةِ ، وَقَدْ جَاءَ في ٱلْحَدِيثِ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ ٱللهِ قَالَ لأُمِّ عَطِيَّةَ ٱلْخَاتِنَةِ : « إِذَا خَفَضْتِ فَأَشِمِّي وَلا تَنْهِكِي ، فَإِنَّهُ أَضْوَأُ لِلْوَجْهِ وَأَحْظَى لَهَا عِنْدَ ٱلزَّوْجِ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٨٨٨٦] .

يُقَالُ : أَشَمَّتِ ٱلْخَافِضَةُ ٱلْبَظْرَ ، أَيْ : أَخَذَتْ مِنْهُ قَلِيلًا ؛ وَقَوْلُهُ : وَلا تَنْهِكِي ، أَيْ : لا تَأْخُذِي مِنَ ٱلْبَظْرِ كَثِيراً ؛ شَبَّهَ ٱلْقَطْعَ ٱلْيَسِيرَ بِإِشْمَامِ ٱلرَّائِحَةِ ، وَالنَّهْكَ بِالمُبَالَغَةِ فِيهِ ، أَي : ٱقْطَعِي بَعْضَ ٱلنُّوَاةِ وَلا تَسْتَأْصِلِيهَا وَمِنْ ثَمَّ يَجِبُ أَنْ يُوصَىٰ ٱلْخَافِضَاتُ بِأَنْ يُرَاعِينَ ذَلِكَ لَدَىٰ ٱلْخِفَاضِ فَلا يُبَالِغْنَ فِي قَطْعِ ٱلْبَظْرِ ، فَإِنَّ إِنْهَاكَهُ ـ أَيْ : ٱسْتِئْصَالَهُ ـ يَحْرِمُ ٱلْمَرْأَةَ لَذَّةَ ٱلْجِمَاعِ ، فَلا تَحْظَىٰ عِنْدَ زَوْجِهَا . وَسُنَّةُ ٱلْخِفَاضِ مَتَىٰ رُوعِيَ فِيهَا ٱلاعْتِدَالُ كَمَا عَلَّمَنا سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ مِنْ ٱلسِنَنِ ٱلْمُسْتَحَبَّةِ ٱلَّتِي يُظَاهِرُهَا ٱلطِّبُّ ، وَهِيَ إِنْ تُرِكَتْ أَصْلًا كَانَ هَذَا ٱلتَّرْكُ مِنَ أَسْبَابِ ٱلْغُلْمَةِ عِنْدَ ٱلنِّسَاءِ[1] ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي قَدْ يَضُرُّ بِهِنَّ وَيَعْصِفُ بِحَيَوِيَّتِهِنَّ ، إِذْ يُؤَدِّي بِهِنَّ إِلَىٰ حُبِّ ٱلْجِمَاعِ ، وَقَدْ تَزِلُّ أَقْدَامُهُنَّ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ .

٤٧١ ـ وَرَوَىٰ بَعْضُ قُضَاةِ ٱلأَنْدَلُسِ أَنَّهُ أَحْصَىٰ فِي إِحْدَىٰ ٱلْقُرَىٰ مَنْ خُفِضَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَمَنْ لَمْ يُخفَضْ ، فَوَجَدَ ٱلْعَفَافَ فِي مَنْ خُفِضَ وَأَكْثَرَ ٱلْفَوَاجِرِ بَظْرَاوَاتٍ .

٤٧٢ ـ وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَعِيبُ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي لَمْ تُخْفَضْ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ فِي ٱلسَّبِّ : يَا ٱبْنَ ٱلْمَتْكَاءِ . يَعْنُون : ٱلْبَظْرَاءَ ، أَوْ عَظِيمَةَ ٱلْبَظْرِ ؛ [والمَتْكُ وَالمُتْكُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ : عِرْقُ ٱلبَظْرِ أَوْ طَرَفُهُ ، وَقِيلَ : هو ما تُبْقِيهِ ٱلْخَاتِنَةُ] .

* * *

٤٧٣ ـ وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُرْوَىٰ فِي حِكْمَةِ ٱلْخِتَانِ ـ أَيْ : خِتَانِ ٱلرِّجَالِ ـ مَا حَكاهُ مُؤَرِّخُ ٱلأَنْدَلُسِ ٱبْنُ حَيَّانَ : أَنَّ ٱلأَمِيرَ عَبْدَ ٱلرَّحْمَنِ بْنَ ٱلْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ

---

(١) الغُلْمَةُ : هَيَجَانُ شَهْوَةِ ٱلنِّكَاحِ .

أَمِيرَ الأَنْدَلُسِ وَجَّهَ ٱلشَّاعِرَ ٱلْحَكِيمَ ٱلسِّيَاسِيَّ ٱللَّبِقَ ٱلظَّرِيفَ يَحْيَىٰ بْنَ حَكَمٍ ٱلْجَيَّانِيَّ ٱلْمُلَقَّبَ بِٱلْغَزَالِ لِجَمَالِهِ وَأَنَاقَتِهِ ، إِلَىٰ صَاحِبِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ـ ٱلأَمْبَرَاطُورِ تِيُوفِيلُوسَ قَيْصَرِ قُسْطَنْطِينِيَّةَ ـ وَقَدَّمَهُ ٱلأُمْبَرَاطُورُ إِلَىٰ زَوْجِهِ ٱلأُمْبَرَاطُورَةِ تِيُودُورَا ، فَأَنِسَتْ بِهِ وَأُعْجِبَتْ بِظَرْفِهِ ، وَسَأَلَتْهُ فِيمَا سَأَلَتْ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي دَعَا ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ ٱلْخِتَانِ وَتَغْيِيرِ خَلْقِ ٱللهِ مَعْ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْفَائِدَةِ ! فَقَالَ : إِنَّ فِيهِ أَكْبَرَ فَائِدَةٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْغَضَا إِذَا زُبِرَ[1] قَوِيَ وَٱشْتَدَّ وَغَلُظَ ، وَإِنْ لَمْ يُفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ كَانَ رَقِيقاً ضَعِيفاً ؛ فَضَحِكَتْ وَٱسْتَمْلَحَتْ كَلامَهُ .

* * *

**ٱلسِّيقَانُ :**

٤٧٤ ـ وَعَلَىٰ ذِكْرِ بَلْقِيسَ وَسَاقَيْهَا نُورِدُ هُنَا صَدْراً مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلسِّيقَانِ ؛ قال الثعالبي في « فِقْهِ ٱللُّغَةِ » : وَيُسَمَّىٰ ٱلشَّعَرُ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي سَاقِ ٱلْمَرْأَةِ : ٱلغفْرُ .

٤٧٥ ـ قَالَ عُلَمَاءُ ٱللُّغَةِ : ٱلْغَفْرُ : شَعَرٌ كَٱلزَّغَبِ عَلَىٰ سَاقِ ٱلْمَرْأَةِ وَٱلْجَبْهَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ ٱلْغفَرُ ، قَالَ ٱلرَّاجِزُ [من الرجز] :

قَدْ عَلِمَتْ خَوْدٌ بِسَاقَيْهَا ٱلْغَفَرْ لَيَرْوِيَنْ أَوْ لَيَبِيدَنَّ ٱلشَّجَرْ

٤٧٦ ـ هَذَا ، وَيُقَالُ : سَاقٌ خَدَلَّجَةٌ ، أي : مُمْتَلِئَةٌ لَحماً .

أَنْشَدَ الأَصْمَعِيُّ [من الرجز] :

---

(١) زُبِرَ ، يُزبَرُ : قُطِعَ ، وَمِنْهُ زُبْرَةُ ٱلْحَدِيدِ ، وَهِيَ : ٱلْقِطْعَةُ مِنْهُ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ﴾ [١٨ سورة الكهف/ الآية : ٩٦] . وقال سبحانه : ﴿ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [٢٣ سورة المؤمنون/ الآية : ٣٥] أي : قطعاً .

إِنَّ لَهَـا لَسَـائِقـاً خَـدَلَّجَـا لَـمْ يُـدْلِـجِ ٱللَّيْلَـةَ فِيمَـنْ أَدْلَجَـا

يَعْنِي : جَارِيةً ـ فَتَاةً ـ قَدْ عَشِقَهَا فَرَكِبَ ٱلنَّاقَةَ وَسَاقَهَا مِنْ أَجْلِهَا .

وَكَذَلِكَ يُقَالُ : سَاقٌ خَدْلاَءُ وَخَدْلَةٌ ، وَتُوصَفُ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ ، فَيُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ خَدْلاَءُ وَخَدْلَةٌ : كِنَايَةٌ عِنِ ٱمْتِلاءِ سَاقَيْهَا وَذِرَاعَيْهَا ، وَمِثْلُ ذَلِكَ ٱلْمَمْكُورَةُ ، يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ مَمْكُورَةٌ ، أَيْ : مُرْتَوِيَةُ ٱلسَّاقِ خَدْلَةٌ ، وَعَلَىٰ ٱلضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ فِي صِفَةِ ٱلسَّاقِ ٱلْحُمُوشَةُ ، يُقَالُ : ٱمْرَأَةٌ حَمْشَةُ ٱلسَّاقَيْنِ ، أَيْ : دَقِيقَتُهُمَا .

٤٧٧ ـ وَمِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلسِّيقَانِ قَوْلُ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

وَكَشْحٍ لَطِيفٍ كَٱلْجَدِيلِ مُخَصَّرٍ وَسَاقٍ كَأُنْبُوبِ ٱلسَّقِيِّ ٱلْمُذَلَّلِ

ٱلْجَدِيلُ : ٱلزِّمَامُ ٱلْمَجْدُولُ مِنْ أَدَمٍ ـ جِلْدٍ ـ ؛ وَكَشْحٌ مُخَصَّرٌ : دَقِيقٌ ؛ وَٱلسَّقِيُّ : ٱلْبُرْدِيُّ ، وَاحِدَتُه : سَقِيَّةٌ ، وَهِيَ لا يَفُوتُهَا ٱلْمَاءَ ، سُمِّيَ ٱلْبَرْدِيُّ بِذَلِكَ لِنَبَاتِهِ فِي ٱلْمَاءِ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ ؛ وَٱلْمُذَلَّلُ ، أَيْ : ٱلَّذِي ذُلِّلَ بِتَدَلِّي ثِمَارِ ٱلنَّخِيلِ عَلَيْهِ ؛ يَقُولُ : إِنَّهَا تُبْدِي عَنْ كَشْحٍ ضَامِرٍ يَحْكِي فِي دِقَّتِهِ ٱلزِّمَامَ ٱلْمُتَّخَذَ مِنْ جِلْدٍ ، وعَنْ سَاقٍ يَحْكِي فِي صَفَاءِ لَوْنِهِ وَامْتِلائِهِ وَبَيَاضِهِ أَنَابِيبَ بَرْدِيٍّ بَيْنَ نَخْلٍ قَدْ ذُلِّلَتْ بِكَثْرَةِ ٱلْحَمْلِ ـ ٱلثَّمَرِ ـ فَأَظَلَّتْ هَذَا ٱلْبَرْدِيَّ ، وَإِنَّمَا ٱشْتَرَطَ ذَلِكَ لِيَكُونَ أَصْفَىٰ لَوْناً وَأَنَقَ رَوْنَقاً . [ تقدم برقم : ٤٤٤ ] .

٤٧٨ ـ وَقَالَ كُشَاجِمُ [من الكامل] :

وَإِذَا لَبِسْـنَ خَـلاَخِـلاً كَـذَّبْـنَ أَسْمَـاءَ ٱلْخَـلاخِـلْ

يَـأْبَـىٰ تَخَلْخُلَهُـنَّ سُـو قٌ مُـرَجَّحَنَّـاتٌ خَـوادِلْ

قَوْلُهُ : كَذَّبْنَ أَسْماءَ ٱلْخَلاخِلِ ، لأَنَّ مِنْ شَأْنِ ٱلْخَلاخِلِ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَسْوَسَةٌ وَصَوْتٌ ؛ يَقُولُ : لاِمْتِلاءِ سَاقَيْهَا لَمْ تَتَحَرَّكِ ٱلْخَلاخِلُ فَلَمْ يَكُنْ لَهَا

صوْتٌ ؛ كَمَا قَالَ ٱلْمُؤَمَّلُ بْنُ أَمِيلَ [من الوافر] :

عَجِبْتُ لِمَنْ يُطَيِّبُنِي بِمِسْكٍ وَبِي يَتَطَيَّبُ ٱلْمِسْكُ ٱلْغَتِيتُ
خَلاخِيلُ ٱلنِّسَاءِ لَهَا وَجِيبٌ وَوسْوَاسٌ وَخَلْخَالِي صَمُوتُ[١]

٤٧٩ ـ وَقَالَ خَالِدُ بنُ يَزِيدَ بْنِ مُعاوِيَةَ فِي زَوْجِهِ رَمْلَةَ بِنْتِ ٱلزُّبَيْرِ [من الطويل] :

تَجُولُ خَلاخِيلُ ٱلنِّسَاءِ وَلا أَرَىٰ لِرَمْلَةَ خَلْخَالًا يجُولُ وَلا قُلْبَا[٢]
فَلا تُكْثِرُوا فِيهَا ٱلْمَلامَ فَإِنَّنِي تَخَيَّرْتُهَا مِنْهُمْ زُبَيْرِيَّةً قَلْبَا[٣]
أُحِبُّ بَنِي ٱلْعَوَّامِ طُرًّا لِحُبِّهَا وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا[٤]

وَزَاد فِيهَا شَيَاطِينُ ٱلإِنْسِ [من الطويل] :

فَإِنْ تُسْلِمِي أُسْلِمْ وَإِنْ تَتَنَصَّرِي يُعَلِّقْ رِجَالٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ صُلْبَا

فَيُرْوَىٰ أَنَّ عَبْدَ ٱلْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ ذُكِرَ لَهُ هَذَا ٱلْبَيْتِ ، فَقَالَ : يَا خَالِدُ ! أَتَرْوِي هَذَا ٱلْبَيْتَ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! عَلَىٰ قَائِلِهِ لَعْنَةُ ٱللهِ .

٤٨٠ ـ وَقَالَ ٱبْنُ أَبِي زُرْعَةَ[٥] [من الكامل] :

استَكْتَمَتْ خِلْخَالَهَا وَمَشَتْ تَحْتَ ٱلظَّلامِ بِهِ فَمَا نَطَقَا

---

(١) ٱلْوَسْوَسَةُ : صَوْتُ ٱلْحلِيِّ ، وَصَوْتُهَا وَسْوَاسٌ .
(٢) القُلْبُ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلأَسْوِرَةِ .
(٣) قَلْباً بِفَتْحِ ٱلْقَافِ ، أَيْ : خالِصَةَ ٱلنَّسَبِ ، يُقَالُ : رَجُلٌ قَلْبٌ وَٱمْرَأَةٌ قَلْبٌ ، يُرِيدُونَ مَحْضَ ٱلنَّسَبِ خَالِصَهُ .
(٤) وَذَٰلِكَ أَنَّ رَمْلَةَ وَمُصْعَبَ بْنَ ٱلزُّبَيْرِ أُمُّهُمَا أُمُّ ٱلرَّبَابِ بِنْتُ أُنَيْفِ بنِ عُبَيْدِ بْنِ مَصَادٍ ، مِنْ بَنِي كَلْبِ بْنِ وَبْرَةَ .
(٥) هُوَ ٱلْمُعَلَّىٰ بْنُ سَلَمَةَ ٱبْنُ أَبِي زُرْعَةَ ٱلْكِنَانِيُّ ٱلدِّمَشْقِيُّ ، وَكَانَ مُعَاصِراً لِدِيكِ ٱلْجِنِّ ، وَكَانَا شَاعِرَيِّ ٱلشَّام فِي وَقْتِهِمَا .

حَتَّىٰ إِذَا رِيحُ ٱلصَّبَا نَسَمَتْ ... مَلأَ ٱلْعَبِيرُ بِسَيْرِهَا ٱلطُّرُقَا

٤٨١ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من البسيط] :

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ إِذْ زَارَتْ عَلَىٰ فَرَقٍ ... وَٱلنَّجْمُ فِي ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مَهْزُومُ
وَٱسْتَمْسَكَتْ حَلْيَهَا خَوْفاً فَقَالَ لَهَا ... خَلْخَالُهَا : إِنَّ مَا تَخْشِينَ مَكْتُومُ
وَنَمَّ حَلْيُ ٱلتَّرَاقِي فَٱنْثَنَىٰ قَلَقاً ... وِشَاحُهَا رَحْمَةً وَٱلْحُسْنُ مَرْحُومُ

٤٨٢ ـ وَمِمَّا قِيلَ فِي ٱلسِّيقَانِ [من المنسرح] :

سَاقٍ تَجَلَّىٰ كَأَنَّهُ قَمَرٌ ... يَحمِلُ شَمْساً ، أَفْدِيهِ مِنْ سَاقِ
شَمَّرَ عَنْ سَاقِهِ غَلَائِلَهُ ... فَقُلْتُ: مَهْلًا، وَٱكْفُفْ عَنِ ٱلْبَاقِي
لَمَّا رَآنِي، وَقَدْ فُتِنْتُ بِهِ ... مِنْ فَرْطِ وَجْدِي وَعُظْمِ أَشْوَاقِي
غَنَّىٰ وَكَأْسُ ٱلْمُدَامِ فِي يَدِهِ ... قَامَتْ حُرُوبُ ٱلْهَوَىٰ عَلَىٰ سَاقِ . .

* * *

## ٱلأَقْدَامُ :

٤٨٣ ـ وَإِذْ أَوْرَدْنَا عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلسِّيْقَانِ فَلْنُورِدْ هُنَا ذَرْواً مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلأَقْدَامِ ، وَٱلأَقْدَامُ جَمْعُ قَدَمٍ ، وَهِيَ مِنْ لَدُنِّ ٱلرُّسْغِ[1] : مَا يَطَأُ عَلَيْهِ ٱلإِنْسَانُ ، وَهِي وَٱلرِّجْلُ مُؤَنَّثَتَانِ .

وَأَحْسَنُ ٱلأَقْدَامِ ٱلسَّبْطَةُ ٱلَّتِي لَانَ عَصَبُهَا وَطَابَتْ سُلَامِيَّاتُهَا[2] وَأَصَابِعُهَا ، وَضِدُّهَا الكَزْمَاءُ ، وَهِيَ : القَصِيرَةُ ٱلْمُتَقَلِّصَةُ ٱلْغَلِيظَةُ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلْقَدَمَ بِٱللِّسَانِ يُكْنُونَ عَنْ سُبُوطَتِهَا وَلَطَافَتِهَا .

---

(١) ٱلرُّسْغُ هُنَا : مُجْتَمَعُ ٱلسَّاقَيْنِ وَٱلْقَدَمَيْنِ ، أَو مَفْصِلُ مَا بَيْنَ السَّاقِ وَٱلْقَدَمِ .
(٢) ٱلسُّلَامِيَّاتُ هُنَا : عِظَامُ ٱلأَصَابِعِ فِي ٱلْقَدَمِ .

٤٨٤ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من المنسرح] :

تَغْشَىٰ غَوَاشِي فُرُوعِهَا قَدَماً بَيْضَاءَ لِلنَّاظِرِينَ مُقْتَدَرَهْ
مِثْلَ الثُّرَيَّا إِذَا بَدَتْ سَحَراً بَعْدَ غَمَامٍ وَحَاسِرٍ حَسَرَهْ

مُقْتَدَرَةٌ ، بِفَتْحِ ٱلدَّالِ : لَطِيفَةٌ ، لا هِيَ بِٱلْقَصِيرَةِ وَلا بِالطَّوِيلَةِ ؛ وَٱلْمُقْتَدَرُ : ٱلْوَسَطُ مِنْ كُلِّ وَسَطِ شَيْءٍ ، وَرَجُلٌ مُقْتَدَرُ ٱلْخَلْقِ ، أَيْ : وَسَطُهُ ، لَيْسَ بِٱلطَّوِيلِ وَلا بِٱلْقَصِيرِ(١) ، وَحَاسِرٍ حَسَرَهُ ، أَي : وَبَعْدَ حَاسِرٍ حَسَرَ ٱلْغَمَامَ ، مِنْ حَسَرَ ٱلْغَمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ وَٱلثَّوْبَ عَنْ بَدَنِهِ ، أَيْ : كَشَفَهُمَا .

٤٨٥ ـ وَمِمَّا يُسْتَحَبُّ فِي ٱلْقَدَمِ ٱلدَّرَمُ ، قَالَ ٱبْنُ سِيدَهْ : دَرِمَ ٱلْكَعْبُ وَٱلْعُرْقُوبُ وَٱلسَّاقُ دَرَماً ، وَهُوَ أَدْرَمُ : ٱسْتَوَىٰ ، قَالَ ٱلرَّاجِزُ [من الرجز] :

قَامَتْ تُرِيكَ خَشْيَةَ أَنْ تَصْرِمَا سَاقاً بَخَنْدَاةً وَكَعْباً أَدْرَمَا
وَكَفَلًا مِثْلَ ٱلنَّقَا أَوْ أَعْظَمَا

الأَدْرَمُ : ٱلَّذِي لا حَجْم لِعِظَامِهِ ، وَمِنْهُ ٱلأَدْرَمُ : ٱلَّذِي لا أَسْنَانَ لَهُ ؛ يُرِيدُ ٱلرَّاجِزُ : أَنَّ كَعْبَهَا مُسْتَوٍ مَعَ ٱلسَّاقِ لَيْسَ بِنَاتِىءٍ ، فَإِنَّ ٱسْتِوَاءَهُ دَلِيلُ ٱلسِّمَنِ وَنُتُوَّهُ دَلِيلُ ٱلضَّعْفِ ؛ وَٱلبَخَنْدَاةُ كَٱلخَبَنْدَاةِ : ٱلسَّاقُ ٱلتَّامَّةُ ٱلْمُمْتَلِئَةُ ٱلرَّيَّاءُ ؛ وَٱلْكَفَلُ : الرِّدْفُ ؛ وَٱلنَّقَا : ٱلْقِطْعَةُ ٱلْمُحْدَوْدِبَةُ مِنَ ٱلرَّجْلِ .

٤٨٦ ـ وَمِمَّا يُسْتَحْسَنُ فِي ٱلْقَدَمِ أَنْ يَكُونَ عُرْقُوبَاهَا حَسْنَاوَيْنِ ، وَفِي ٱلأَثَرِ : أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ بَعَثَ أُمَّ سُلَيْمٍ لِتَنْظُرَ ٱمْرَأَةً ، فَقَالَ : « شُمِّي عَوَارِضَهَا وَٱنْظُرِي إِلَىٰ عُرْقُوبَيْهَا » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٤٥٤] .

---

(١) مُقْتَدِرُهُ وَمُقْتَدَرٌ ، أَرَاهَا بِفَتْحِ ٱلدَّالِ وَإِنْ جَاءَتْ فِي « اللِّسَانِ » بِكَسْرِهَا ، وَإِنِّي أَظُنُّهَا خَطَأً مَطْبَعِيّاً ، وَكَمْ فِي « ٱللِّسَانِ » مِنْ أَخْطَاء .

ٱلْعَـوَارِضُ : ٱلأَسْنَـانُ ٱلَّتِـي فـي عُـرْضِ ٱلْفَـمِ ، وَهِـيَ مَـا بَيْـنَ ٱلثَّنَـايَـا وَٱلأَضْرَاسِ ، وَاحِدُهَا عَارِضٌ ، أَمَرَهَا بِذَلِكَ لِتَخْتَبِرَ نَكْهَتَهَا ـ رَائِحَةً فِيهَا ـ ؛ وَٱلْعُرْقُوبُ : مَا ضَمَّ أَسْفَلَ أَسْفَلَ ٱلسَّاقِ وَٱلْقَدَمِ ، أَوْ هُوَ : ٱلْعَصَبُ ٱلْغَلِيظُ ٱلْمُوَتَّرُ فَوْقَ عَقِبِ ٱلإِنْسَانِ .

قَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : إِذَا ٱسْوَدَّ عُرقُوبُ ٱلْمَرْأَةِ ٱسْوَدَّ سَائِرُهَا ، وَهَذَا هُوَ مَا يَغْزُوهُ ـ يَقْصِدُهُ ـ ٱلنَّابِغَةُ بِقَوْلِهِ [من البسيط] :

لَيْسَتْ مِنَ ٱلسُّودِ أَعْقَاباً إِذَا ٱنْصَرَفَتْ ... وَلا تَبِيـعُ بِجَنْبَـيْ نَخْلَـةَ ٱلْبَـرَمَـا

إِذَا ٱنْصَرَفَتْ : يُرِيدُ إِذَا أَدْبَرَتْ ؛ وَنَخْلَةُ : مَوْضِعٌ ؛ وَٱلْبَرَمُ : ثَمَرُ ٱلطَّلْح ، وَثَمَرُهُ ٱلسَّلَمُ ، وَثَمَرُ ٱلأَرَاكِ ؛ يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةَ لَيْسَتْ عَرَاقِيبُهَا سُوداً ، وَلَيْسَتْ مِنْ أُولَئِكَ ٱللَّائِي يَبِعْنَ ٱلثِّمَارَ في ٱلأَسْوَاقِ ، يُرِيدُ أَنَّهَا مُنَعَّمَةٌ لَمْ تَلْقَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ .

* * *

٤٨٧ ـ وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ مِنْ أَجْمَلِ ٱلنِّسَاءِ وَأَتَمِّهِنَّ مَحَاسِنَ ، بَيْدَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ فِيهَا عَيْبَانِ ٱثْنَانِ : كِبَرٌ في أُذُنَيْهَا ، وَعِظَمٌ مُفْرِطٌ في قَدَمَيْهَا ، وَكَانَتْ ضَرَّتُهَا رَمْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ خَلَفٍ كَبِيرَةَ ٱلأَنْفِ ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَعِيبُهَا بِذَلِكَ ، فَيَبْلُغُ ذَلِكَ رَمْلَةَ ، فَتَقُولُ : أَتَرَاهَا نَسِيَتْ أُذُنَيْهَا وَقَدَمَيْهَا ! [ راجع رقم : ٣٥٩ ] .

٤٨٨ ـ وَقَالَ صَاحِبُ « تُحْفَةِ ٱلْعَرُوسِ » : وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ٱبْنُ مُجِيرٍ ٱلأَنْدَلُسِيُّ ـ وَهُوَ مِمَّا يُكْتَبُ عَلَىٰ قَبْقَابٍ [من البسيط] :

لا يَدَّعِي ٱلْعَاشِقُونَ ٱلْحُبَّ مَنْزِلَةً ... إِلَّا إِذَا ٱحْتَمَلُـوا لِلْحُسْـنِ كُـلَّ أَذَىٰ

لَوْ لَمْ أَكُنْ أَنْفَذَ ٱلْعُشَّاقِ فِيهِ لَمَا أَوْطَأْتُ خَدَّيَّ أَقْدامَ ٱلْحِسَانِ كَذَا

* * *

## ٱلأَلْوَانُ :

### ٱلْبَيَاضُ :

٤٨٩ ـ قَالَتْ عَائِشَةُ : ٱلْبَيَاضُ نِصْفُ ٱلْحُسْنِ .

٤٩٠ ـ وَقَالَ ٱلْمُؤَمِّلُ بْنُ أَمْيَلَ [من الكامل] :

شَهِدَ ٱلْمُؤَمِّلُ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ أَنَّ ٱلْبَيَاضَ طِرَازُ كُلِّ جَمَالِ

٤٩١ ـ وَقَالُوا : إِنَّ ٱلْبَيَاضَ يُمَازِجُهُ لَوْنَانِ يَزِيدَانِهِ حُسْناً : ٱلْحُمْرَةُ وَٱلصُّفْرَةُ ، فَأَمَّا ٱلْحُمْرَةُ فَتَعْتَرِي ٱلْبَيَاضَ مِنْ رِقَّةِ ٱللَّوْنِ وَصِحَّةِ ٱلدَّمِ ، وَأَمَّا ٱلصُّفْرَةُ فَتَعْتَرِي ٱلْبِيضَ لِاسْتِتَارِهِنَّ وَمُلازَمَتِهِنَّ ٱلْكِنَّ وَٱلنَّعْمَةَ ـ ٱلرَّفَهَ ـ وَٱلْخَفْضَ وَٱلدَّعَةَ ، وَتَعْتَرِيهِنَّ أَيْضاً لِمُلازَمَتِهِنَّ ٱلتَضَمُّخَ بِٱلطِّيبِ ، وَمِنَ أَشَدِّ مَا يَتَضَمَّخُ بِهِ تَأْثِيراً فِي لَوْنِ ٱلْبَشَرَةِ وَإِحَالَةِ بَيَاضِهَا إِلَىٰ ٱلصُّفْرَةِ مَا يُعْرَفُ ٱلْيَوْمَ بِٱلتَّوَالِيتِ [Toilette ، وهو التَّبَرُّجُ والتَّزَيُّنُ] ، وَيُقَالُ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ عَتِيقَةَ ٱلْحُسْنِ نَاعِمَةَ ٱلْبَدَنِ ، فَإِنَّ لَوْنَهَا يَكُونُ مِنْ أَوَّلِ ٱلنَّهَارِ إِلَىٰ ٱبْتِدَاءِ ٱلْعَشِيَّةِ يَضْرِبُ إِلَىٰ ٱلْحُمْرَةِ ، وَمِنِ ٱبْتِدَاءِ ٱلْعَشِيَّةِ إِلَىٰ آخِرِ ٱلنَّهَارِ يَضرِبُ إِلَىٰ ٱلصُّفْرَةِ ، وَلِذَا قَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من مجزوء الكامل] :

بَيْضَاءُ غُدْوَتَهَا وَصَفْراءُ ٱلعشِيَّةِ كَٱلْعَرَارَهْ

وَمَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلنَّاصِعَةَ ٱلْبَيَاضِ ٱلرَّقِيقَةَ ٱلْبَشَرَةَ تَبْيَضُّ بِٱلْغَدَاةِ بِبَيَاضِ ٱلشَّمْسِ وَتَصْفَرُّ بِٱلْعَشِيِّ بِٱصْفِرَارِهَا ؛ وَٱلْعَرَارَةُ ، وَاحِدَةُ ٱلعَرَارِ ، وَهُوَ : وَرْدَةٌ نَاعِمَةٌ صَفْرَاءُ طَيِّبَةُ ٱلرَّائِحَةِ .

٤٩٢ ـ قَالَ ٱلصِّمَّةُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلقُشَيْرِيُّ [وَيُنْسَبُ أَيْضاً لِمَجْنُونِ لَيْلَىٰ قَيْسِ بن ٱلْمُلَوَّحِ] [من الوافر] :

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَٱلْعِيسُ تَهْوِي ... بِنَا بَيْنَ ٱلْمُنِيفَةِ فَٱلضِّمَارِ(١)
تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عِرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ ٱلْعَشِيَّةِ مِنْ عِرَارِ(٢)
أَلَا يَا حَبَّذَا نَفَحَاتُ نُجْدٍ ... وَرَيَّا رَوْضِهِ بَعْدَ ٱلْقِطَارِ(٣)
شُهُورٌ يَنْقَضِينَ وَمَا شَعَرْنَا ... بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلا سِرَارِ(٤)

٤٩٣ ـ قَالُوا : وَهَذَا كُلُّهُ مُبالَغَةٌ في وَصْفِ ٱلْمَرْأَةِ بِٱلصَّفَاءِ وَٱلنِّعْمَةِ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ عَلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ عَلَىٰ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ في بَيْتِ ٱلأَعْشَىٰ وَنَظَائِرِهِ : إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنَّهَا تُمْسِي رَادِعَةً ـ أَيْ : مُلَطَّخَةً بِٱلطِّيبِ ـ وَتَغْتَسِلُ بِٱلْغَدَاةِ فَتَبْيَضُّ لأَجْلِ ذَلِكَ .

٤٩٤ ـ قَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من المنسرح] :

بَانَتْ بِقَلْبِي صَفْرَاءُ رَادِعَةٌ ... صَبَّتْ عَلَيْهَا مِنْ حُسْنِهَا فِتَنَا
كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ مُنَوَّرَةٌ ... تَجْمَعُ طِيباً وَمَنْظَراً حَسَنَا

فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ صُفْرَتَهَا إِنَّمَا هِيَ لأَجْلِ ٱلطِّيبِ .

٤٩٥ ـ قَالُوا : وَمَنْ شَبَّهَ ٱلْمَرْأَةَ بِٱلبَيْضَةِ فَإِنَّمَا أَرَادَ ٱلصُّفْرَةَ ٱلَّتِي فِيهَا ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [٣٧ سورة الصافات/ الآية : ٤٩] .

٤٩٦ ـ وَقَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

---

(١) ٱلمُنِيفَةُ : مَاءٌ لِبَنِي تَمِيمٍ ؛ والضِّمارُ : ٱسْمُ مَوْضِعٍ .
(٢) ٱلشَّمِيمُ ، مَصْدَرٌ .
(٣) ٱلْقِطارِ ، جَمْعُ قَطْرٍ ، وَهُوَ : ٱلْمَطَرُ .
(٤) ٱلسِّرَارُ : آخِرُ لَيْلَةٍ فِي ٱلشَّهْرِ ، يَقُولُ : إِنَّ هَذا ٱلزَّمانَ شُهُورٌ مَضَتْ ، وَمَا عَلِمْنَا بِأَنْصافِها وَلا بِأَواخِرِها لِمَا كُنَّا فِيهِ مِنَ ٱلسُّرُورِ وَطِيبِ ٱلعَيْشِ .

كَبِكْرِ ٱلْمُقَانَاةِ ٱلْبَيَاضَ بِصُفْرَةٍ غَذَّاهَا نَمِيرُ ٱلْمَاءِ غَيْرُ ٱلْمُحَلَّلِ

ٱلبِكْرُ في كُلِّ شَيْءٍ : مَا لَمْ يَسْبِقْهُ مِثْلُهُ ؛ وَٱلْمُقَانَاةُ : ٱلْخَلْطُ ، يُقَالُ : قَانَيْتُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ : إِذَا خَلَطْتَ أَحَدَهُمَا بِالآخَرِ ؛ وَٱلنَّمِيرُ : ٱلْمَاءُ ٱلنَّامِي ٱلنَّاجِعُ في ٱلرَّيِّ ؛ يَقُولُ : إِنَّ صَاحِبَتَهُ كَبِكْرِ ٱلبَيْضِ ٱلَّذِي قُونِيَ ـ خُولِطَ ـ بَيَاضُهُ بِصُفْرَةٍ ، قَالَ ٱلزَّوْزَنِيُّ : يَعْنِي بَيْضَ ٱلنَّعَامِ وَهُوَ بَيْضٌ تُخَالِطُ بَيَاضَهَا صُفْرَةٌ يَسِيرَةٌ ، شَبَّهَ لَوْنَ صَاحِبَتِهِ بِلَوْنِ بَيْضِ ٱلنَّعَامِ في أَنَّ في كُلٍّ مِنْهُمَا بَيَاضاً خَالَطَتْهُ صُفْرَةٌ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ صِفَتِهَا ، فَقَالَ : غَذَّاهَا مَاءٌ نَمِيرٌ عَذْبٌ صَافٍ لَمْ يُكْثِرْ حُلُولَ ٱلنَّاسِ عَلَيْهِ فَيُكَدِّرُهُ ذَلِكَ ، وَٱلْمَاءُ إِذَا عَذُبَ وَصَفَا كَانَ تَأْثِيرُهُ في رَيِّ شَارِبِهِ وَغِذَائِهِ أَنْجَعُ ؛ وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ في مَعْنَىٰ ٱلْبَيْتِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَالبَيَاضُ في ٱلْبَيْتِ لَكَ أَنْ تَقْرَأَهُ بِٱلْفَتْحِ وَبِٱلْخَفْضِ .

٤٩٧ ـ وَفِي ٱسْتِحْسَانِ لَوْنِ ٱلصُّفْرَةِ يَقُولُ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من البسيط] :

بَيْضَاءُ فِي دَعَجٍ صَفراءُ فِي غُنُجٍ كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ٱلذَّهَبُ(١)

٤٩٨ ـ وَقَالَ قَيْسُ بْنُ ٱلْخَطِيمِ [من الكامل] :

هَيْفَاءُ ، مِثْلُ ٱلشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا فِي ٱلحُسْنِ أَوْ كَدُنُوِّهَا لِغُرُوبِ

٤٩٩ ـ وَقَالَ أَحَدُ شُعَرَاءِ «ٱلْخَرِيدَةِ» لِابْنِ بَسَّامٍ [من السريع] :

وَقَيْنَةٍ قَالَ لَهَا نَاقِصٌ كَمُلَتِ لَوْلا صُفْرَةُ ٱللَّوْنِ
قُلْتُ : ٱتَّئِدْ فَٱلشَّمْسُ مُصْفَرَّةٌ وَهْيَ صَلَاحُ ٱلأَرْضِ فِي ٱلْكَوْنِ

٥٠٠ ـ وَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ [من الطويل] :

---

(١) الدَّعَجُ : شِدَّةُ سَوَادِ الْعَيْنِ وَشِدَّةُ بَيَاضِ بَيَاضِهَا ؛ وَٱلْغَنَجُ وَٱلْغُنُجُ : تَكَسُّرٌ وَتَدَلُّلٌ ، وَهُوَ أَيْضاً مَلاحَةُ ٱلْعَيْنَيْنِ .

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي وَجْهِهِ إِنَّ حَمْدَهُمْ ... مِنَ ٱلدُّرِّ مَا ٱصْفَرَّتْ نَوَاحِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

٥٠١ ـ وَقَالَ ٱلأَرَّجَانِيُّ [من الخفيف] :

رَاقَ مَاءُ ٱلْحَيَاةِ مِنْ وَجْنَتَيْهِ ... فَهْوَ مِرْآةُ أَوْجُهِ ٱلْعُشَّاقِ

٥٠٢ ـ وَقَالَ ٱلأَرَّجَانِيُّ أَيْضاً يَصِفُ صَفَاءَ ٱلْوَجْهِ وَرِقَّةَ ٱلْبَشَرَةِ [من الوافر] :

وَأَغْيَدَ رَقَّ مَاءُ ٱلْوَجْهِ فِيهِ ... فَلَوْ أَرْخَىٰ لِثَاماً عَنْهُ ، سَالا

تَبِينُ سَوَادَهَا ٱلأَبْصَارُ فِيهِ ... فَحَيْثُ لَحِظْتَ مِنْهُ حَسِبْتَ خَالا[١]

٥٠٣ ـ وَقَالَ بَشَّارُ [من الطويل] :

وَمَا ظَفِرَتْ عَيْنِي غَدَاةَ لَقِيتُهَا ... بِشَيْءٍ سِوَىٰ أَطْرَفِهَا وَٱلْمَحَاجِرِ

بِحَوْرَاءَ مِنْ حُورِ ٱلْجِنَانِ عَزِيزَةٍ ... يَرَىٰ وَجْهَهُ فِي وَجْهِهَا كُلُّ نَاظِرِ

* * *

**ٱلسُّمْرَةُ :**

٥٠٤ ـ أَتَىٰ رَجُلٌ ٱبْنَةَ الْخُسِّ يَسْتَشِيرُهَا فِي ٱمْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا ، فَقَالَتْ : ٱنْظُرْهَا رَمْكَاءَ جَسِيمَةً ، أَوْ بَيْضَاءَ دَسِيمَةً ، فِي بَيْتِ جَدٍّ[٢] ، أَوْ بَيْتِ حَدٍّ[٣] ، هَؤُلاءِ أُمَّهَاتُ ٱلرِّجَالِ ؛ قَالَ : مَا تَرَكْتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ شَيْئاً ! قَالَتْ : بَلَىٰ ! شَرَّ ٱلنِّسَاءِ تَرَكْتُ : ٱلسُّوَيْداءُ ٱلْمِمْرَاضُ ، وَٱلْحُمَيْراءُ ٱلْمِحْيَاضُ ، ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْمِظَاظِ .

رَمْكَاءُ : سَمْرَاءُ ؛ وَٱلرُّمْكَةُ : لَوْنُ ٱلرَّمَادِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : بَعِيرٌ أَرْمَكُ ؛

---

(١) الْخَالُ : الشَّامَةُ ، وَهِيَ سَوْدَاءُ .

(٢) ٱلْجَدُّ : الحَظُّ .

(٣) ٱلْمَحْدُودُ : ٱلمَحْرُومُ ، ٱلْمُضَيَّقُ عَلَيْهِ فِي ٱلرِّزْقِ .

وَقَوْلُهَا : في بَيْتِ جَدٍّ أَوْ بَيْتِ حَدٍّ ، فَٱلْبَيْتُ في كَلامِ ٱلْعَرَبِ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلشَّرَفِ ، وَتُرِيدُ بِقَوْلِها هَذَا أَنَّهَا إِذَا كانَتْ شَرِيفَةً مَجْدُودَةً فَقَدْ جَمَعَتْ إِلَىٰ شَرَفِهَا ٱلثَّرْوَةَ ، وإِذَا كَانَتْ مَحْدُودَةً كانَتْ أَرْضَىٰ بِٱلْيَسِيرِ ، وَأَقْنَعَ بِٱلْبُلْغَةِ ، وَأَدْنَىٰ إِلَىٰ ٱلاسْتِخْذَاءِ وَٱلْأُلْفَةِ ؛ وَٱلْمِظَاظُ : ٱلْمُشَارَّةُ وَٱلْمُشَاقَّةُ[١] .

* * *

٥٠٥ ـ وَمِثْلُ كَلامِ ٱبْنَةِ ٱلْخُسِّ مَا يُرْوَىٰ أَنَّ غَيْلانَ بْنَ سَلَمَةَ قَالَ لِبَنِيهِ حِينَ ٱحْتُضِرَ : يَا بَنِيَّ ! عَلَيْكُمْ بِبُيُوتَاتِ ٱلْعَرَبِ[٢] ، فَإِنَّها مَدَارِجُ ٱلْكَرَمِ ، وَعَلَيْكُمْ بِكُلِّ رَمْكَاءَ رَكِينَةٍ[٣] ، أَوْ بَيْضَاءَ رَزِينَةٍ ، في بَيْتِ جَدٍّ أَوْ بَيْتِ حَدٍّ .

٥٠٦ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ [من الوافر] :

مِنَ ٱلسُّمْرِ ٱللِّدَانِ إِذَا ٱسْبَكَرَّتْ  وَصِرْفُ ٱلْمَوْتِ في ٱلسُّمْرِ ٱللِّدَانِ[٤]
شَبِيهَاتُ ٱلرِّمَاحِ قَنَا مُتُونٍ  وَكَلْماً فِي ٱلْقُلُوبِ بِلا سِنَانِ[٥]

٥٠٧ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

وَسَمْرَاءَ بَاهَىٰ كُلْفَةَ ٱلْبَدْرِ وَجْهُهَا  إِذَا لاحَ فِي لَيْلٍ مِنَ ٱلشَّعَرِ ٱلْجَعْدِ[٦]

---

(١) ٱلْمُشَارَّةُ مِنَ ٱلشَّرِّ : كَثيرَةُ ٱلشَّرِّ ؛ وَٱلْمشَاقَّةُ ، أَي : كَثِيرَةُ ٱلشِّقاقِ .
(٢) أَيْ : بِأَشْرافِهِمْ .
(٣) رَمْكَاءُ : سَمْراءُ ؛ وَرَكِينَةٌ : مُتَّزِنَةٌ عاقِلَةٌ .
(٤) ٱللِّدَانُ : ٱللَّيِّنَاتُ ؛ وَصِرْفُ ٱلمَوْتِ ، أَيْ : ٱلمَوْتُ ٱلصِّرْفُ ؛ وَٱلسُّمْرُ ٱللِّدَانُ : ٱلرِّمَاحُ ؛ وَٱسْبَكَرَّتْ : ٱعْتَدَلَتْ قَامَتُهَا .
(٥) كَلْماً : جَرْحاً ؛ وقَنَا مُتُونٍ ، فَٱلمُتُونُ : الظُّهورُ ، وَقَنا جَمْعُ قَناةٍ ، وَقَناةُ ٱلظَّهْرِ : الَّتي تَنْتَظِمُ ٱلفِقَارَ ؛ وَمِنْ كَلامِهِمْ : فُلانٌ صُلْبُ ٱلْقَناةِ ، أي : صُلْبُ ٱلْقَامَةِ ، وَٱلْقَناةُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ : ٱلْقَامَةُ .
(٦) ٱلْكُلْفَةُ : لَوْنٌ بَيْنَ ٱلسَّوَادِ وَٱلْحُمْرَةِ ؛ وَبَاهاهُ : فاخَرَهُ في ٱلْحُسْنِ ؛ وَالشَّعْرُ ٱلْجَعْدُ : غَيْرُ =

مُحَبَّبَةٌ مِنْ حَبَّةِ ٱلْقَلْبِ لَوْنُهَا وَطِينَتُهَا لِلْمِسْكِ وَٱلْعَنْبَرِ ٱلْوَرْدِ(١)

٥٠٨ ـ وَقَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ ٱلأَنْدَلُسِ ، وَٱسْمُهُ ٱبْنُ فَتُّوحٍ ، كَمَا في « ٱلذَّخِيرَةِ » لِابْنِ بَسَّامٍ [من المنسرح] :

قَدُّ قَضِيبٍ وَبَدْرُ دَيْجُورِ وَثَغْرُ دُرٍّ وَلَحْظُ يَعْفُورِ(٢)
نَازَلَ صَبْرِي وَأَيُّ مُصْطَبِرٍ يَبْقَىٰ بِتِلْكَ ٱللَّوَاحِظِ ٱلْحُورِ
كَأَنَّمَا نُورُهُ وَسُمْرَتُهُ مِسْكٌ مَشُوبٌ بِذَوْبِ كَافُورِ

٥٠٩ ـ وَقَالَ ٱبْنُ بُرْدٍ ٱلأَصْغَرُ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلأَنْدَلُسِ [من مجزوء الرمل] :

كَيْفَ لا أَعْشَقُ ظَبْياً سَارِحاً في ظِلِّ مُلْكِ
إِنَّمَا ٱلسُّمْرَةُ فِيهِ مَزْجُ كَافُورٍ بِمِسْكِ

* * *

**ٱلسَّوادُ :**

٥١٠ ـ لَيْسَ لِلنِّسَاءِ ٱلسُّودِ مِنَ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ مَا يَمْتَزْنَ بِهِ إِلَّا نَقَاءُ ٱلثُّغُورِ وَحَرارَةُ ٱلْفُرُوجِ ، أَمَّا ٱلصِّفَاتُ ٱلْمذْمُومَةُ مِنْ تَشَقُّقِ ٱلأَطْرَافِ وَٱلشِّفَاهِ وَصِغَرِ ٱلْفُرُوجِ وَنَتْنِ ٱلعَرَقِ وَشَرَاسَةِ ٱلأَخْلاقِ ، فَهِيَ ٱلْغَالِبَةُ عَلَيْهِنَّ ، وَهُنَاكَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلسُّودِ مَنْ هُنَّ سَالِماتٌ مِنْ هَذِهِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمَذْمُومَةِ جَمْعَاءَ .

٥١١ ـ وَفي وَصْفِ ٱلسُّودِ يَقُولُ أَبُو حَفْصٍ ٱلشَّطْرَنْجِيُّ [وَيُنْسَبُ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ، من

---

= ٱلْمُسْتَرْسِلِ ؛ وَٱلْعَرَبُ تَتَمَدَّحُ بِٱلشَّعَرِ الْجَعْدِ ، لأَنَّ سُبُوطَةَ ٱلشَّعْرِ هِيَ ٱلْغَالِبَةُ عَلىٰ شُعُورِ ٱلْعَجَمِ مِنَ ٱلرُّومِ وَٱلْفُرْسِ وَجُعُودَةَ ٱلشَّعَرِ هِيَ ٱلغَالِبَةُ عَلىٰ شُعُورِ ٱلْعَرَبِ .

(١) ٱلْعَنْبَرُ ٱلْوَرْدُ ، أَيْ : ٱلأَحْمَرُ ، قَالَ ٱبْنُ سِيدَه : ٱلْوَرْدُ : لَوْنٌ أَحْمَرُ يَضْرِبُ إِلىٰ صُفْرَةٍ حَسَنَةٍ في كُلِّ شَيْءٍ .

(٢) ٱلْيَعْفُورُ : الظَّبْيُ .

السريع] :

أَشْبَهَكِ ٱلْمِسْكُ وَأَشْبَهْتِهِ قَائِمَةً فِي لَوْنِهِ قَاعِدَهْ
لا شَكَّ إِذْ لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ إِنَّكُمَا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَهْ

٥١٢ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ [من الوافر] :

أُحِبُّ لِحُبِّهَا ٱلسُّودَانَ حَتَّىٰ أُحِبُّ لِحُبِّهَا سُودَ ٱلْكِلابِ

٥١٣ ـ وَأَنْشَدَ ٱلْجَاحِظُ [من الطويل] :

وَإِنَّ سَوَادَ ٱلْعَيْنِ فِي ٱلْعَيْنِ نُورُهَا وَمَا لِبَيَاضِ ٱلْعَيْنِ نُورٌ فَيُعْلَمَا

٥١٤ ـ أَخَذَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ مِنْ هَذَا إِذْ يَقُولُ يَمْدَحُ كَافُوراً [من الطويل] :

فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيَا

شَبَّهَ مِنْ عَدَا كَافُورَ بِبَيَاضِ ٱلْعَيْنِ لأَنَّهُ لا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي ٱلنَّظَرِ ، وَجَعَلَ كَافُوراً إِنْسَانَ ٱلْعَيْنِ ، كَنَّىٰ بِذَلِكَ عَنْ سَوَادِ لَوْنِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ بَيْتُ ٱلْقَصِيدِ فِي أَبْنَاءِ هَذَا ٱلدَّهْرِ ، فَإِنَّ ٱلْبَصَرَ فِي سَوَادِ ٱلْعَيْنِ وَمَا حَوْلَهُ بَيَاضٌ وَمَآقٍ لَيْسَتْ هُنَاكَ .

٥١٥ ـ وَقَالَ ٱلشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ [من الطويل] :

أُحِبُّكِ يَا لَوْنَ ٱلشَّبَابِ لأَنَّنِي رَأَيْتُكُمَا فِي ٱلْقَلْبِ وَٱلْعَيْنِ تَوْأَمَا
سَكَنْتِ سَوادَ ٱلْقَلْبِ إِذْ كُنْتِ شِبْهَهُ فَلَمْ أَدْرِ مِنْ عِزٍّ مَنِ ٱلْقَلْبُ فِيكُمَا
وَمَا كَانَ سَهْمُ ٱلعَيْنِ لَوْلا سَوَادُهُ لِيَبْلُغَ حَبَّاتِ ٱلْقُلُوبِ إِذَا رَمَىٰ
إِذَا كُنْتَ تَهْوَىٰ ٱلظَّبْيَ أَلْمَىٰ فَلا تَلُمْ جُنُونِي عَنِ ٱلظَّبْيِ ٱلَّذِي كُلُّهُ لَمَىٰ

٥١٦ ـ أَخَذَ هَذَا بَعْضُهُمْ [وَهُوَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ] فَقَالَ [من الوافر] :

يَكُونُ ٱلْخَالُ فِي خَدٍّ مَلِيحٍ فَيَكْسُوهُ ٱلمَلاحَةَ وَٱلْجَمَالا
فَكَيْفَ يُلامُ مَعْشُوقٌ عَلَىٰ مَنْ يَرَاهَا كُلَّهَا فِي ٱلْعَيْنِ خَالا

ٱلْخَالُ : ٱلشَّامَةُ .

٥١٧ ـ وَقَالَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ الأَحْنَفِ [من الطويل] :

أُحِبُّ ٱلنِّسَاءَ ٱلسُّودَ مِنْ أَجْلِ تُكْتَمٍ ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ مَنْ كَانَ أَسْوَدَا

فَجِئْنِي بِمِثْلِ ٱلْمِسْكِ أَطْيَبَ نَفْحَةً ... وَجِئْنِي بِمِثْلِ ٱللَّيْلِ أَطْيَبَ مَرْقَدَا

٥١٨ ـ وَقَالَ بَشَّارٌ [من الوافر] :

يَكُونُ ٱلْخَالُ فِي خَدٍّ نَقِيٍّ ... فَيُكْسِبُهُ ٱلْمَلَاحَةَ وَٱلْجَمَالَا

وَيُونِقُهُ لِأَعْيُنِ مُبْصِرِيهِ ... فَكَيْفَ إِذَا رأَيْتَ ٱللَّوْنَ خَالَا

٥١٩ ـ وَقَالَ آخَرُ [من السريع] :

إِنْ أَزْهَرَتْ لَيْلًا نُجُومُ ٱلسَّمَا ... بِيضًا عَلَىٰ أَسْوَدَ مُرْخَىٰ ٱلإِزَارْ

وَأَوْجَبَ ٱلْعَكْسَ مِثَالًا لَهَا ... فَٱلسُّودُ فِي ٱلأَرْضِ نُجُومُ ٱلنَّهَارْ

٥٢٠ ـ وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيْقٍ [من مخلّع البسيط] :

تِيهِي عَلَىٰ ٱلْبِيضِ وَٱسْتَطِيلِي ... تِيهَ شَبَابٍ عَلَىٰ ٱلمَشِيبِ[1]

وَلَا يَرُعْكِ ٱسْوِدَادُ لَوْنٍ ... كَمُقْلَةِ ٱلشَّادِنِ ٱلرَّبِيبِ[2]

فَإِنَّمَا ٱلنُّورُ عَنْ سَوَادٍ ... فِي أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ وَٱلْقُلُوبِ

٥٢١ ـ وَقَالَ إِمَامُ ٱلنُّحَاةِ أَبُو جِبَالَ ٱلنَّغْزِيُّ ٱلغَرْنَاطِيُّ [من البسيط] :

عَلِقْتُهُ سَبَجِيَّ ٱللَّوْنِ قَادِحَهُ ... مَا ٱبْيَضَّ مِنْهُ سِوَىٰ ثَغْرٍ حَلَىٰ ٱلدُّرَرَا[3]

---

(١) يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ ٱلسَّوْدَاءَ كَٱلشَّبَابِ ٱلَّذِي شَعْرُهُ أَسْوَدُ ، وَٱلْبِيضُ كَٱلْمَشِيبِ ، فَهُوَ أَبْيَضُ مِثْلُها ، وَالشَّبَابُ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْمَشِيبِ ، فَكَذَلِكَ ٱلسُّودُ .

(٢) ٱلشَّادِنُ مِنْ أَوْلَادِ ٱلظِّبَاءِ : ٱلَّذِي قَوِيَ وَٱسْتَغْنَىٰ عَنْ أُمِّهِ ؛ وَٱلرَّبِيبُ : ٱلمُرَبَّىٰ .

(٣) سَبَجِيٌّ ، نِسْبَةٌ إِلَىٰ السَّبَجِ ، وَهُوَ : خَرَزٌ أَسْوَدُ ؛ وَٱلْقَادِحُ : ٱلْقَاتِمُ ، ٱلشَّدِيدُ ٱلسَّوَادِ .

فَقَدْ صَاغَهُ مِنْ سَوَادِ ٱلْعَيْنِ خَالِقُهُ ... فَكُلُّ عَيْنٍ إِلَيْهِ تُدْمِنُ ٱلنَّظَرَا

٥٢٢ ـ وَمِنْ طَرِيفِ هَذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْمَغَارِبَةِ فِي سَوْدَاءَ تُسَمَّىٰ دُرَّةً [من الكامل] :

يَا رُبَّ سَوْداءٍ تُسْمَىٰ دُرَّةً ... وَمِنْ ٱلْعَجَائِبِ دُرَّةٌ سَوْدَاءُ

سَوْدَاءُ لَيْلُ ٱلْوَصْلِ مِنْها أَبْيَضٌ ... وَمِنَ ٱلْعَجَائِبِ لَيْلَةٌ بَيْضَاءُ

٥٢٣ ـ أَمَّا مَنْ أَبْدَعَ في وَصْفِ ٱلسَّوْدَاءِ وَفَاقَ سَائِرَ مِنْ وَصَفُوهَا وَأَطَالَ وَأَحْسَنَ ، فَهُوَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ سَوْدَاءُ ، وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيداً ، فَطَلَبَ مِنِ ٱبْنِ ٱلرُّوميِّ أَنْ يَذْكُرَهَا فِي شِعْرِهِ ، وَيَسْتَغْرِقَ أَوْصَافَهَا ٱلْبَاطِنَةَ وَٱلظَّاهِرَةَ ، فَقَالَ مِنْ أَبْيَاتٍ طَوِيلَةٍ [من المنسرح] :

سَوْدَاءُ لَمْ تَنْتَسِبْ إِلَى بَرَ ... صِ ٱلشُّقْرِ وَلا كُلْفَةٍ وَلا بَهَقِ(١)

وَبَعْضُ مَا فُضِّلَ ٱلسَّوَادُ بِهِ ... وَٱلْحَقُّ ذُو سُلَّمٍ وَذُو نَفَقِ(٢)

أَلَّا يَعِيبَ ٱلسَّوَادَ حُلْكَتُهُ ... وَقَدْ يُعَابُ ٱلْبَيَاضُ بِٱلْبَهَقِ

لَيْسَتْ مِنَ ٱلْعُبَّسِ ٱلأَكُفِّ وَلَا ٱلْـ ... ـفُلْحِ ٱلشِّفَاهِ ٱلْخَبائِثِ ٱلْعَرَقِ(٣)

بَلْ مِنْ بَنَاتِ ٱلْمُلُوكِ نَاعِمَةٌ ... تَنْشُرُ بِٱلدَّلِّ مَيِّتَ ٱلشَّبَقِ(٤)

فِي لِينِ سَمُّورَةٍ تَخَيَّرَهَا ٱلفَرَّا ... ءُ أَوْ لِينِ جَيِّدَ الدَّلَقِ(٥)

---

(١) يُرِيدُ بِٱلْكُلْفَةِ : ٱلنَّمَشَ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْبِيضِ ؛ وَٱلْبَرَصُ وَٱلْبَهَق مَعْرُوفانِ .

(٢) قَوْلُهُ : وَٱلْحَقُّ ذُو سُلَّمٍ وَذُو نَفَقٍ ، جُمْلَةٌ ٱعْتِراضِيَّةٌ ؛ يَقُولُ : إِنَّ ٱلْحَقَّ يَتَصَرَّفُ فِي جِهَاتٍ ، وَضَرَبَ ٱلصُّعُودَ وَٱلنُّزُولَ لِذَلِكَ مَثَلًا .

(٣) ٱلْفُلْحُ ٱلشِّفَاهِ ، فَٱلْفُلْحُ : تَشَقُّقٌ فِي ٱلشِّفاهِ وَضَخَمٌ وَٱسْتِرْخَاءٌ ، شَأْنُ شِفَاهِ الزِّنْجِ غالباً .

(٤) ٱلشَّبَقُ : شِدَّةُ ٱلْغُلْمَةِ وَٱشْتِهاءُ ٱلْجِمَاعِ .

(٥) السَّمُّورُ : حَيْوَانٌ بَرِّيٌّ أَكْبَرُ مِنِ ٱبْنِ عُرْسٍ قَلِيلًا ، وَيُشْبِهُهُ ، لَوْنُهُ أَحْمَرُ مائِلٌ إِلىٰ ٱلسَّوَادِ ، تُتَّخَذُ مِنْ جِلْدِهِ فِراءٌ ثَمِينَةٌ ؛ وَالْفَرَّاءُ : تاجِرُ ٱلْفِراءِ ؛ وَالدَّلَقُ : حَيْوَانٌ يَقْرُبُ مِنَ ٱلسِّنَّوْرِ =

تُـذْكِـرُكَ ٱلْمِسْـكَ وَٱلْغَـوَالِـيَ وَٱلسُّـ ـــكَّ ذَوَاتَ ٱلنَّسِيـــمِ وَٱلْعَبَـــقِ[١]
غُصْـنٌ مِـنَ الآبَنُـوسِ رُكِّـبَ مِـنْ مُـــؤْتَـــزَرٍ مُعْجَـــبٍ وَمُنْتَطِـــقِ[٢]
يَهْتَـزُّ مِـنْ نَـاهِـدَيْـهِ فـي ثَمَـرٍ وَمَـــنْ دَوَاجِـــي ذُرَاهُ فِـــي وَرَقِ[٣]
أَكْسَبَهَـــا ٱلْحُـــبَّ أَنَّهَـــا صُبِغَـــتْ صِبْغَـــةَ حُـــبِّ ٱلْقُلُـــوبِ وَٱلْحَـــدَقِ
فَٱنْصَرَفَتْ نَحْوَهَا ٱلضَّمائِرُ وَٱلأَبْـ ـصَـــارُ يَعْشَقْـــنَ أَيَّمَـــا عَشَـــقِ[٤]

٥٢٤ ـ وَكَرَّرَ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ فِي قَوْلِهِ [من البسيط] :

لامَ ٱلْعَـوَاذِلُ فـي سَـوْدَاءَ فـاحِمَـةٍ كَـأَنَّهَـا فـي سَـوَادِ ٱلْقَلْـبِ تِمْثَـالُ
وَهَـامَ بِـٱلْخَـالِ أَقْـوامٌ وَمَـا عَلِمُـوا أَنِّـي أَهِيـمُ بِشَخْـصٍ كُلُّـهُ خَـالُ

٥٢٥ ـ وَلِلشَّرِيفِ ٱلرَّضِيِّ في مَعْنَىٰ أَبْيَاتِهِ ٱلَّتِي أَوْرَدْنَا ، وَهِيَ أَبْيَاتٌ قَالَهَا عَلَىٰ لِسَانِ رَجُلٍ سَأَلَهُ وَصْفَ جَارِيَةٍ [من البسيط] :

لَامُوا وَلَوْ وَجَدُوا وَجْدِي لَقَدْ عُذِرُوا وَذَنْـبُ مَـنْ لامَ ذَنْـبٌ غَيْـرُ مُغْتَفَـرِ
لَمَّـا تَمَـادَوْا عَلَـىٰ عَـذْلِـي أَجَبْتُهُـمُ بِعِـــزِّ مُعْتَـــرِفٍ لا ذُلِّ مُعْتَـــذِرِ
أَهْـوَىٰ ٱلسَّـوَادَ بِـرَأْسِـي ثُـمَّ أَمْقُتُـهُ فَكَيْفَ يَخْتَلِفُ ٱللَّوْنَانِ فِي نَظَرِي
تَـأْبَـىٰ طَـلائِـعُ بِيـضٍ ذَرَّ شَـارِقُهَـا فِي عَارِضِي أَنْ تَكُونَ ٱلْبِيضُ مِن وَطَرِي
جَعَلْتُـهُ لِسَـوادِ ٱلْعَيْـنِ تَـذْكِـرَةً إِنْ تُفْقَدِ ٱلعَيْنُ يَرْضَىٰ ٱلْقَلْبُ بِالأَثَرِ
وَٱللَّيْـلُ أَسْتَـرُ لِلْخَـالِـي بِلَـذَّتِـهِ وَٱلصُّبْحُ أَفْضَحُ لِلسَّارِي عَلَىٰ غَرَرِ

---

= ـ ٱلْقِطِّ ـ في ٱلْحَجْم ، وَهُوَ أَصْفَرُ ٱللَّوْنِ ، بَطْنُهُ وَعُنُقُهُ مائِلانِ إِلىٰ ٱلْبَياضِ .

(١) ٱلْغَوالِي ، جَمْعُ غَالِيَةٍ : أَخْلاطٌ مِنَ ٱلطِّيبِ ؛ وَٱلْمِسْكُ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلطِّيبِ .

(٢) مُؤْتَزَرٌ : مَوْضِعُ ٱلإِزارِ ، يُرِيدُ كَفَلَهَا وَعَجِيزَتَها ؛ وَمُنْتَطَقٌ : مَوْضِعُ ٱلنُّطاقِ ، يُرِيدُ خَصْرَها .

(٣) دَوَاجِي ذُرَاهُ : يُرِيدُ شَعَرَهَا .

(٤) يَعْشَقْنَ أَيَّمَا عَشَقٍ ، يُرْوىٰ : يُعْنَقْنَ أَيَّما عَنَقٍ ، وَالإِعْنَاقُ : ٱلإِسْراعُ في ٱلْمَشْيِ ، وَٱلرِّوَايَةُ ٱلأُولىٰ هِيَ ٱلأَوْجَهُ .

وَكَيْفَ يَذْهَبُ عَنْ قَلْبِي وَعَنْ بَصَرِي ... مَنْ كَانَ مِثْلَ سَوَادِ ٱلْقَلْبِ وَٱلْبَصَرِ

٥٢٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ قَلاقِسَ ٱلسَّكَنْدَرِيُّ [من الخفيف] :

رُبَّ سَوْدَاءَ وَهْيَ بَيْضَاءُ مَعْنىً ... نَافَسَ ٱلْمِسْكَ عِنْدَهَا ٱلْكَافُورُ
مِثْلُ حَبِّ ٱلْعُيُونِ يَحْسَبُهُ ٱلنَّـ ... ـاظِرُ سَواداً وَإِنَّمَا هُوَ نُورُ

٥٢٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من المنسرح] :

يَفْتَرُّ ذَاكَ ٱلسَّوَادُ عَنْ يَقَقٍ ... مِنْ ثَغْرِهَا كَٱللآلِىءِ ٱلنَّسَقِ(١)
كَأَنَّهَا وَٱلْمُزَاحُ يُضْحِكُهَا ... لَيْلٌ تَفَرَّىٰ دُجَاهُ عَنْ فَلَقِ(٢)
لَهَا حِرٌ يَسْتَعِيرُ وَقْدَتَهُ ... مِنْ قَلْبِ صَبٍّ وَصَدْرِ ذِي حَنَقِ
كَأَنَّمَا حَرُّهُ لِخَابِرِهِ ... مَا أَلْهَبَتْ حَشَاهُ مِنْ حُرَقِ
يَزْدَادُ ضِيقاً عَلَىٰ ٱلْمِرَاسِ كَمَا ... تَزْدَادُ ضِيقاً أُنْشُوطَةُ ٱلْوَهَقِ(٣)
أَخْلِقْ بِهَا انْ تَقُومَ عَنْ ذَكَرٍ ... كَٱلسَّيْفِ يَفْرِي مُضَاعَفَ ٱلْحَلَقِ(٤)
إِنَّ جُفُونَ ٱلسُّيُوفِ أَكْثَرُهَا ... أَسْوَدُ وَٱلْحَقُّ غَيْرُ مُخْتَلَقِ
خُذْهَا أَبَا ٱلْفَضْلِ كُسْوَةً لَكَ مِنْ ... خَزِّ ٱلأَمَادِيحِ لا مِنَ ٱلْخِرَقِ
وَصَفْتُ فِيهَا ٱلَّتِي هَوِيتَ عَلَىٰ ٱلْوَهْـ ... ـمِ وَلَمْ نَخْتَبِرْ وَلَمْ نَذُقِ
إِلَّا بِأَخْبَارِكَ ٱلَّتِي وَقَعَتْ ... مِنْكَ إِلَيْنَا عَنْ ظَبْيَةِ ٱلبُرَقِ(٥)

* * *

(١) يَصِفُ أَسْنانَها ؛ وَيَقَقٌ : شَدِيدُ ٱلْبَيَاضِ ؛ وَٱلنَّسَقُ : ٱلْمُنَسَقَّةُ .
(٢) تفَرَّىٰ : ٱنْشَقَّ ؛ وَٱلْفَلَقُ : ٱلصُّبْحُ .
(٣) ٱلْوَهَقُ : حَبْلٌ في طَرَفِهِ أُنْشُوطَةٌ يُطْرَحُ في عُنُقِ ٱلدَّابَّةِ حَتّىٰ تُؤْخَذَ .
(٤) يَفْري : يَقْطَعُ ؛ ومُضَاعَفُ الْحلَقِ : الدِّرْعِ .
(٥) ٱلْبُرَقُ ، جَمْعُ بُرْقَةٍ : مَكَانٌ تَكْثُرُ فِيهِ ٱلظِّبَاءِ .

**ٱلسِّمَنُ وَٱلضُّمُورُ :**

٥٢٨ ـ قَالَ أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلأَصْبَهَانِيُّ : أَكْثَرُ ٱلْبُصَرَاءِ بِجَوَاهِرِ ٱلنِّسَاءِ ٱلَّذِينَ هُمْ جَهَابِذَةُ ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُونَ ٱلْمَجْدُولَةَ ، ٱلَّتِي تَكُونُ بَيْنَ ٱلسَّمِينَةِ وَٱلْمَمْشُوقَةِ ، وَلا بُدَّ أَنْ تَكُونَ كَاسِيَةَ ٱلْعِظَامِ ، وَلِذَلِكَ قَالُوا : كَأَنَّهَا غُصْنُ بَانٍ ، وَقَضِيبُ خَيْزُرانٍ ، وَجَدْلُ عِنَانٍ(١) .

قَالَ : وَٱلتَّثَنِّي في مَشْيِ ٱلْمَرْأَةِ أَحْسَنُ مَا فِيهَا ، وَلا يُمْكِنُ ذَلِكَ مَعَ ٱلسِّمَنِ .

٥٢٩ ـ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْجَاهِلِيُّ قَيْسُ بْنُ ٱلْخَطِيمِ [من المنسرح] :

بَيْنَ شُكُولِ ٱلنِّسَاءِ خِلْقَتُهَا قَصْدٌ فَلا جَبْلَةٌ وَلا قَضَفُ

شُكُولُ : ضُرُوبُ ؛ وَقَصْدٌ : لا طَوِيلَةٌ وَلا قَصِيرَةٌ وَلا جَسِيمَةٌ ، كَأَنَّ خِلْقَتَهَا يَجِيءُ بِهَا ٱلْقَصْدُ مِنَ ٱلأُمُورِ وَٱلْمُعْتَدِلُ ٱلَّذِي لا يَمِيلُ إِلَىٰ أَحَدِ طَرَفَيِّ ٱلتَّفْرِيطِ وَالإِفْرَاطِ كَما قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ ؛ وَجَبْلَةٌ ، بِكَسْرِ ٱلْجِيمِ وَبِفَتْحِهَا : غَلِيظَةٌ ، وَقَالَ ٱبْنُ بَرِّيٍّ : جَبْلَةٌ في شِعْرِ قَيْسٍ بِفَتْحِ ٱلْجِيمِ ٱسْمُ فَاعِلٍ مِنْ جَبَلَ يَجْبَلُ فَهو جَبِلٌ وَجَبْلٌ : إِذَا غَلُظَ ؛ وَٱلْقَضَفُ : ٱلدِّقَّةُ وَقِلَّةُ ٱللَّحْمِ .

٥٣٠ ـ وَقَالَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ [من الطويل] :

رَعَابِيبُ بِيضٌ لا قِصَارٌ زَعَانِفٌ وَلا قِمْعَاتٌ حُسْنُهُنَّ قَرِيبُ

ٱلرَّعَابِيبُ ، جَمْعُ رُعْبُوبَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْبَيْضَاءُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلْحُلْوَةُ ؛ وَٱلزَّعَانِفُ : ٱللَّئِيمَاتُ ٱلْخَسَائِسُ ، وَزَعَانِفُ كُلِّ شَيْءٍ : رَدِيئُهُ وَرَذَّالُهُ ؛ وَقِمْعَاتٌ :

(١) جَدَلَ ٱلشَّيْءَ يَجْدُلُهُ جَدْلًا : أَحْكَمَ فَتْلَهُ ، وَمِنْهُ جارِيَةٌ مَجْدُولَةٌ ، أَيْ : حَسَنَةُ ٱلْجَدْلِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيلَ لِزِمَامِ ٱلنَّاقَةِ : ٱلْجَدِيلُ .

ذَلِيلاتٌ ؛ وَحُسْنُهُنَّ قَرِيبُ ، أَيْ : لا تُسْتَحْسَنُ إِذَا بَعُدَتْ عَنْكَ وَإِنَّما تَسْتَحْسِنُهَا عِنْدَ ٱلتَّأَمُّلِ لِدَمَامَةِ قَامَتِهَا .

٥٣١ ـ وَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من الطويل] :

فَوْقَ ٱلْقَصِيرَةِ وَٱلطَّوِيلَةُ فَوْقَهَا ... دُونَ ٱلسَّمِينِ وَدُونَهَا ٱلْمَهْزُولُ

٥٣٢ ـ وَكَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ يُفَضِّلُ زَوْجَتَهُ حَدْرَاءَ عَلَىٰ زَوْجَتِهِ ٱلنَّوَّارُ ، وَكَانَتْ حَدْرَاءُ عَرَبِيَّةٌ هَيْفَاءُ مَجْدُولَةٌ ، وَكَانَتِ ٱلنَّوَّارُ حَضَرِيَّةٌ جَسِيمَةٌ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ [من الطويل] :

لَعَمْرِي لأَعْرَابِيَّةٌ فِي مِظَلَّةٍ ... تَظَلُّ بِرَوْقَيْ بَيْتِهَا ٱلرِّيحُ تَخْفِقُ[1]

كَأُمِّ غَزَالٍ أَوْ كَدُرَّةِ غَائِصٍ ... إِذَا مَا بَدَتْ مِثْلَ ٱلْغَمَامَةِ تُشْرِقُ

أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ ضِنَاكٍ ضِغَنَّةٍ ... إِذَا رُفِعَتْ عَنْهَا ٱلْمَرَاوِحُ تَعْرَقُ[2]

كَبَطِّيخَةِ ٱلزُّرَّاعِ يُعْجِبُ لَوْنُهَا ... صَحِيحاً وَيَبْدُو دَاؤُهَا حِينَ تُفْلَقُ

٥٣٣ ـ وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : تَسابَقْتُ مَعَ ٱلنَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا جُوَيْرِيَةٌ ـ فَتَاةٌ صَغِيرَةٌ ـ فَسَبَقْتُهُ ، فَلَمَّا حَمَلْتُ ٱللَّحْمَ ، قَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ : «تَعَالَيْ أُسابِقْكِ» ، فَقُلْتُ : وَكَيْفَ أُسَابِقُكَ يَا رَسُولُ ٱللهِ وَأَنا عَلَىٰ هَذِهِ ٱلْحالِ !؟ قَالَ : «لا بُدَّ» ، فَسَابَقْتُهُ ، فَسَبَقَنِي ، فَقَالَ : « هَذِهِ بِتِلْكَ » . [أبو داود ، رقم : ٢٥٧٨ ؛ النسائي في «الكبرى» ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٧٩ ؛ « مسند أحمد » ، رقم ؛ ٢٣٥٩٨ و٢٤٤٦٠ و٢٤٩٦٠ و٢٥٧٢٥ و٢٥٧٤٥ و٢٥٨٦٦] . [ وسيرد برقم : ٦٥٧ ] .

---

(١) رَوْقَيْ ٱلْبَيْتِ : مُقَدَّمُهُ ، أَوْ سَقْفُ فِي مُقَدَّمِ ٱلْبَيْتِ .

(٢) ٱمْرَأَةٌ ضِنَاكٌ : ضَخْمَةٌ ، قَالَ ٱلْعَجَّاجُ يَصِفُ ٱمْرَأَةً [ من الرجز ] :

فَهْيَ ضِنَاكٌ كَالْكَثِيبِ ٱلْمَنْهَالْ

ٱمْرَأَةٌ ضِغَنَّةٌ : كَثِيرَةُ ٱللَّحْمِ رَخْوَةٌ .

٥٣٤ ـ وَقَالَتْ : أَرَادَتْ أُمِّي أَنْ تُسَمِّنَنِي لِدُخُولِ رَسُولِ ٱللهِ صَلىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمْ أُقْبِلْ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا تُرِيدُهُ ، حَتَّىٰ أَطْعَمَتْنِي ٱلْقِثَّاءَ بِٱلرُّطَبِ ، فَسَمِنْتُ عَلَيْهِ كَأَحْسَنِ ٱلسِّمَنِ . [أبو داود ، رقم : ٣٩٠٣ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٣٢٤] .

٥٣٥ ـ وَدَخَلَ مَالِكُ بْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلأَشْتَرُ عَلَىٰ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ صَبِيحَةَ بِنَائِهِ عَلَىٰ بَعْضِ نِسَائِهِ ، فَقَالَ : كَيْفَ وَجَدَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَهْلَهُ ؟ فَقَالَ : كَخَيْرِ ٱمْرَأَةٍ لَوْلَا أَنَّهَا قَبَّاءُ جَدَّاءُ ! قَالَ : وَهَلْ يُرِيدُ ٱلرِّجَالُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا ذَاكَ يَا أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ : كَلَّا ، حَتَىٰ تُدْفِيءَ ٱلضَّجِيعَ ، وَتَرْوِيَ ٱلرَّضِيعَ .

ٱلْقَبَّاءُ : ٱلْخَمِيصَةُ ٱلْبَطْنِ ، ٱللَّطِيفَةُ ٱلْكَشْحَيْنِ ؛ وَٱلْجَدَّاءُ : ٱلصَّغِيرَةُ ٱلثَّدْيَيْنِ ، وَهَذَا ٱلْكَلامُ مِنْ عَلِيٍّ يَدُلُّ عَلَىٰ ٱسْتِحْسَانٍ مِنْهُ لِضِخَمِ ٱلْمَرْأَةِ وَسِمَنِهَا ، وَلِكِبَرِ ٱلثَّدْي ؛ وَهَذَا كِبَرُ ٱلثَّدْيِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . [ راجع رقم : ٤٣٥ و٤٣٧ ] .

* * *

٥٣٦ ـ وَقَالَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ : لا تُسَمِّنُوا نِسَاءَكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ فَٱحْفَظُوهُنَّ [ فَٱخْفِضُوهُنَّ ] .

أَقُولُ : وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ مَا قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلسِّمَنُ فِي ٱلنِّسَاءِ غُلْمَةٌ ، وَفِي ٱلرِّجَالُ عُقْلَةٌ .

ٱلْغُلْمَةُ : هَيَجَانُ ٱلشَّهْوَةِ ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ ٱلْغَلِمَةُ عَلَىٰ زَوْجِهَا » [راجع « الجامع الصغير » ، رقم : ٤٠٩٣] وَٱلْعُقْلَةُ : ٱلْحَبْسَةُ ، أَيْ : إِنَّ ٱلسِّمَنَ فِي ٱلرِّجَالِ لا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَداءِ مَا يُؤَدِّيهِ غَيْرُ ٱلسَّمِينِ .

* * *

**ٱلطُّولُ وَٱلْقِصَرُ :**

٥٣٧ ـ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ فِي « ٱلْكَامِلِ » [صفحة : ١٢٣] : وَٱلْعَرَبُ تَمْدَحُ بِٱلطُّولِ ،

وَتَضَعُ مِنَ ٱلْقِصَرِ ، فَلا يَذْكُرُهُ إِلَّا مُحْتَجٌّ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَمْدَحُ بِهِ غَيْرَهُ ، قَالَ عَنْتَرَةُ [من الكامل] :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَىٰ نِعالَ ٱلسِّبْتِ لَيْس بِتَوْأَمِ[1]

٥٣٨ ـ وَقَالَ جَرِيرٌ [من الطويل] :

تَعالَوْا فَفَاتُونَا فَفِي ٱلْحُكْمِ مَقْنَعٌ إِلَىٰ ٱلْغُرِّ مِنْ أَهْلِ ٱلْبِطَاحِ ٱلأَكَارِمِ[2]

فَإِنِّي لأَرْضَىٰ عَبْدَشَمْسٍ وَمَا قَضَتْ وَأَرْضَىٰ ٱلطِّوَالَ ٱلْبِيضَ مِنْ آلِ هَاشِمِ

٥٣٩ ـ قَالَ ٱلْمُبَرِّدِ [«الكامل» صفحة : ١٢٤] : وَيُقَالُ : إِنَّ عَلِيَّ بْنَ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ كَانَ إِلَىٰ مَنْكِبِ عَبْدِ ٱللهِ ، وَكَانَ عَبْدُ ٱللهِ إِلَىٰ مَنْكِبِ ٱلْعَبَّاسِ ، وَكَانَ ٱلْعَبَّاسُ إِلَىٰ مَنْكِبِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، قَالَ : وَطَافَ عَلِيُّ بنُ عَبْدِ ٱللهِ بِٱلْبَيْتِ ، وَهُنَاكَ عَجُوزٌ قَدِيمَةٌ ، وَعَلِيٌّ قَدْ فَرَعَ ٱلنّاسَ ـ عَلَاهُمْ ـ كَأَنَّهُ رَاكِبٌ وَٱلنَّاسُ مُشَاةٌ .

فَقَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ : مَنْ هَذَا ٱلَّذِي فَرَعَ ٱلنَّاسَ ؟ فَقِيلَ : عَلِيُّ بنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ ٱلْعَبَّاسِ ، فَقَالَتْ : لا إِلَهَ إِلَّا ٱللهُ ، إِنَّ ٱلنَّاسَ لَيَرْذُلُونَ[3] : عَهدِي بِٱلْعَبَّاسِ

---

(١) ٱلسَّرْحَةُ : ٱلشَّجَرَةُ ٱلْعَظِيمَةُ ؛ وَٱلسِّبْتُ ، بِكَسْرِ ٱلسِّينِ : ٱلْجِلْدُ ٱلْمَدْبُوغُ بِٱلْقَرَظِ ، وَٱلنِّعَالُ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهُ كانَتْ لأُلِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلتَّرَفِ مِنْهُمْ ؛ وَلَيْسَ بِتَوْأَم : لَمْ يُشَارَكْ فِي ٱلرَّحِمِ ، وَمَتَىٰ كانَ ٱلإِنْسانُ غَيْرَ تَوْأَم كانَ كامِلَ ٱلْخِلْقَةِ مُسْتَكْمِلَ ٱلْقُوَّةِ ، يَقُولُ عَنْتَرَةُ : وَهُوَ بَطَلٌ مَدِيدُ ٱلْقامَةِ ، كَأَنَّ ثِيَابَهُ أُلْبِسَتْ شَجَرَةً عَظِيمَةً مِنَ طُولِ قَامَتِهِ وَٱسْتِوَاءِ خَلْقِهِ ، وَهُوَ لِرِفْعَةِ شَأْنِهِ تُجْعَلُ ٱلْجُلُودُ ٱلْمَدْبُوغَةُ بِٱلْقَرَظِ نِعالاً لَهُ وَأَحْذِيَةً ، وَلَمْ تَحْمِلْ أُمُّهُ مَعَهُ غَيْرَهُ ؛ وَلِمُناسَبَةِ قَوْلِهِ : لَيْسَ بِتَوْأَم ، يُرْوَىٰ أَنَّ ٱلشَّعْبِيَّ دَخَلَ عَلىٰ عَبْدِ ٱلمَلِكِ بْنِ مَرْوانَ ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ـ وَكَانَ ٱلشَّعْبِيُّ قَدْ وُلِدَ تَوْأَماً مَعَ أَخِيهِ ؛ فَكَانَ نَحِيفاً ـ فَقالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! إِنِّي زُوحِمْتُ فِي ٱلرَّحِمِ .

(٢) تعالَوْا : يُخاطِبُ ٱلْفَرَزْدَقَ وَرَهْطَهُ ؛ وفاتونا : حاكِمُونا ؛ وَأَهْلُ ٱلْبِطاحِ : ٱلَّذِينَ نَزَلُوا مِنْ قُرَيْشٍ أَباطِحَ مَكَّةَ ، وَهُمْ أَكْرَمُ مِنْ قُرَيْشِ ٱلظَّواهِرِ ، وَهُمُ ٱلَّذِينَ نَزَلُوا حَوْلَ مَكَّةَ ؛ بَعْدَ هَذا ٱلبَيْتِ [ من الطويل ] :

فَإِنَّ قُرَيْشَ ٱلْحَقَّ لَنْ تَتَّبِعَ ٱلْهَوىٰ وَلَنْ يَقْبَلُوا فِي ٱللهِ لَوْمَةَ لائِمِ

(٣) أَظُنُّها تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ ٱلنَّاسَ يَؤُولُونَ إِلىٰ ٱلرذْلِ ٱلدُّونِ في مَنْظَرِهِ وَحالاتِهِ ، تَعْنِي : أَنَّ عَلِيّاً =

يَطُوفُ بِهَذَا ٱلْبَيْتِ كَأَنَّهُ فُسْطَاطٌ أَبْيَضُ . تُرِيدُ : كَأَنَّهُ بِنَاءٌ أَبْيَضُ مُرْتَفِعٌ .

٥٤٠ ـ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ [« الكامل » صفحة : ١٢٤] : وَيُرْوَىٰ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ ، وَهُوَ ٱلأُسْوَةُ وَٱلْقُدْوَةُ ، كَانَ فَوْقَ ٱلرَّبْعَةِ[1] ، وَلَمْ يَكُنْ بِٱلطَّوِيلِ ٱلْمُشَذَّبِ[2] ، وَكَانَ إِذَا مَشَىٰ مَعَ ٱلطِّوَالِ طَالَهُمْ[3] . . .

٥٤١ ـ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ [«الكامل» صفحة : ١٢٤] : وَلَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْعَجَمِ أَنَّ ٱلْكَمالَ في ٱلاعْتِدَالِ ، وَلَا يُقَالُ غَيْرُ هَذَا عَنْ حَكِيمٍ ، وَأَبْيَنُ مَا فِيهِ مَا ٱخْتَارَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ . . . .

٥٤٢ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ مِنْ طَيِّءٍ ٱسْمُهُ أُنَيْفُ [بنُ حَكِيمٍ] ٱلنَّبْهَانِيُّ يَذْكُرُ يَوْمَ ظَهْرِ ٱلدَّهْنَاءِ ، وَكَانَ بَيْنَ طَيِّءٍ وَأَسَدِ بْنِ خُزَيْمَةَ [من الطويل] :

وَلَمَّا ٱلْتَقَىٰ ٱلصَّفَّانِ وَٱخْتَلَفَ ٱلقَنَا ... نِهَالًا وَأَسْبَابُ ٱلْمَنَايَا نِهَالُهَا[4]

تَبَيَّنَ لِي أَنَّ ٱلقَمَاءَةَ ذِلَّةٌ ... وَأَنَّ أَشِدَّاءَ ٱلرِّجَالِ طِوَالُهَا[5]

---

= عَلىٰ طُولِهِ لا يَلْحَقَ في ذَلِكَ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ آبائِهِ ، فَكَأَنَّ ٱلْخَلَفَ دائِماً أَقَلُّ مِنَ ٱلسَّلَفِ .

(١) فَوْقَ ٱلرَّبْعَةِ ، بِسُكُونِ ٱلْبَاءِ وَفَتْحِهَا ، أَيْ : إِنَّهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ فَوْقَ ٱلمَرْبُوعِ ٱلْخَلْقِ ٱلَّذِي لا هُوَ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالقَصِيرِ .

(٢) ٱلْمُشَذَّبُ : ٱلْمُفْرِطُ في ٱلطُّولِ ، مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلنَّخْلِ ٱلْمُشَذَّبِ ٱلَّذي قُطِعَ جَرِيدُهُ فَظَهَرَ طُولُهُ .

(٣) طَالَهُمْ : غَلَبَهُمْ في طُولِ ٱلْقَامَةِ ، وَذَلِكَ فِي رَأْيِ ٱلْعَيْنِ وَبِدْءِ ٱلنَّظَرِ ، يَرَىٰ ٱلرَّائِي مِنْ ظُهُورِهِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَطْوَلُ ٱلقَوْمِ ، آيَةٌ خَصَّهُ ٱلْخالِقُ بِهَا .

(٤) وَٱخْتَلَفَ ٱلْقَنَا نِهالًا ، يُرِيدُ : إِنَّ كِلا ٱلصَّفَّيْنِ سَقَا قَنَاهُ مِنْ دَمِ الآخَرِ ؛ فَنِهالًا : عِطاشاً ، وَٱلنَّاهِلُ : ٱلْعَطْشَانُ وَٱلرَّيَّانُ ، فَهُوَ مِنَ الأَضْدَادِ .
وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَاسِ ٱلْمُبَرِّدُ : قَوْلُهُ : نِهالًا ، يُرِيدُ قَدْ وَرَدَتِ الدَّمَ مَرَّةً وَلَمْ تُثَنِّ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلنَّاهِلَ : ٱلَّذِي يَشْرَبُ أَوَّلَ شُرْبِهِ ، فَإِذا شَرِبَ ثانِيَةً فَهُوَ عَالٌّ ؛ يُقَالُ : سَقَاهُ عَلًّا بَعْدَ نَهْلٍ ، وَعَلَلًا بَعْدَ نَهْلٍ ؛ وَقَوْلُهُ : وَأَسْبَابُ ٱلْمَنَايَا نِهالُهَا ، لا يُرِيدُ : إِنَّ أَوَّلَ ما يَقَعُ مِنْهَا يَكُونُ سَبَباً لِما بَعْدَهُ .

(٥) ٱلْقَمَاءَةُ هُنا ، ٱلمُرادُ بِهَا : صِغَرُ ٱلجِسْمِ .

٥٤٣ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَجْلَانَ ٱلنَّهْدِيُّ ، شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ تَيَّمَهُ ٱلْحُبُّ فَقَتَلَهُ ، يَقُولُ هَذَا ٱلشِّعْرَ في زَوْجِهِ هِنْدٍ ، وَكَانَ قَدْ فَارَقَهَا ، أَسَفاً عَلَيْهَا [من الطويل] :

وَحُقَّةِ مِسْكٍ مِنْ نِسَاءٍ لَبِسْتُهَا شَبَابِي ، وَكَأْسٍ بَاكَرَتْنِي شُمُولُهَا
جَدِيدَةِ سِرْبَالِ ٱلشَّبَابِ كَأَنَّهَا أَبَاءَةُ بَرْدِيٍّ نَمَتْهَا غُيُولُهَا
وَمُخْمَلَةٍ بِٱللَّحْمِ مِنْ دُونِ ثَوْبِهَا تَطُولُ ٱلْقِصَارَ وَالطِّوَالُ تَطُولُهَا

حُقَّةُ مِسْكٍ : كِنَايَةٌ عَنِ ٱمْرَأَةٍ ، جعَلَهَا لِطِيبِ رَيَّاهَا كَحُقَّةٍ نُحِتَتْ مِنْ عَاجٍ وَنَحْوِهِ ، مَمْلُوءَةٍ مِسْكاً ؛ وَلَبِسْتُهَا : تَمَتَّعْتُ بِهَا ؛ وَشَبَابِي : مَنْصُوبٌ عَلَىٰ ٱلظَّرْفِيَّةِ ، أَيْ : مُدَّةَ شَبَابِي ؛ وَكَأْسٍ ، عَطْفٌ عَلَىٰ حُقَّةِ مِسْكٍ ؛ وَٱلشُّمُولُ : ٱلْخَمْرَةُ ٱلَّتِي لَهَا عَصْفَةٌ كَعَصْفَةِ ٱلشُّمَّالِ ، أَوْ هِيَ ٱلَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَىٰ ٱلْعَقْلِ فَتَذْهَبُ بِهِ ؛ وَجَدِيدَةِ سِرْبَالِ ٱلشَّبابِ ، يَعْنِي : إِنَّهَا فِي عُنْفُوَانِ شَبَابِهَا ، وَأَدْخَلَ ٱلْهَاءَ عَلَىٰ جَدِيدَةٍ ، وَٱلأَكْثَرُ أَنْ يُقَالَ : مِلْحَفَةٌ جَدِيدٌ ، وَإِنْ كانَتْ جَدِيدَةً في قَوْلِهِمْ : مِلْحَفَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ جَدَّ ٱلْحَائِكُ ٱلثَّوْبَ يَجُدُّهُ (بِٱلضَّمِّ) : قَطَعَهُ ، فَهُوَ جَدِيدٌ ، وَهِيَ جَدِيدٌ بِدُونِ هَاءٍ ، لأَنَّهُ في مَعْنَىٰ مَجْدُودٍ ، وفَعِيلٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولٍ يَسْتَوِي فِيهِ ٱلْمُذَكَّرُ وَٱلْمُؤَنَّثُ ؛ أَمَّا جَدِيدَةٌ في قَولِ شَاعِرِنَا فَهِيَ مِنْ جَدَّ ٱلثَّوْبُ . . يَجِدُّ (بِٱلْكَسْرِ) إِذَا كَانَ جَدِيداً ، نَقِيضُ بَلِيَ ، فَهُوَ جَدِيدٌ وَجَدِيدَةٌ ؛ وَالأَبَاءَةَ : ٱلْقَصَبَةُ ؛ وَٱلْبَرْدِيُّ : نَبَاتٌ كَٱلْقَصَبِ كَانَ قُدَمَاءُ المِصْرِيِّينَ يَسْتَخْدِمُونَ قِشْرَهُ لِلْكِتَابَةِ ، وَشَبَّهَ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةَ بِٱلْبَرْدِيِّ ٱلْمَسْقِيِّ لِحُسْنِ بِنْيَتِهَا وَكَمالِ خِلْقَتِهَا ، أَلَا تَرَىٰ إِلىٰ قَوْلِهِ : نَمَتْهَا غُيُولُهَا ، وَٱلْغُيُولُ جَمْعُ غِيلٍ ، وَهُوَ ٱلمَاءُ يَجْرِي بَيْنَ ٱلأَشْجَارِ ؛ وَقَوْلُهُ : وَمُخْمَلَةٍ بِٱللَّحْمِ مِنْ دُونِ ثَوْبِهَا ، فَمَعْنَىٰ مُخْمَلَةٍ بِٱللَّحْمِ أَنَّ أَعْضَاءَهَا تَسَاوَتْ في رُكُوبِ ٱللَّحْمِ إِيَّاهَا وَظُهُورِ ٱلسِّمَنِ عَلَيْهَا ، فَكَأَنَّ ٱللَّحْمَ

جُعِلَ لَهَا خَمْلًا ، وَٱلْخَمْلُ : ٱلْهُدْبُ مِمَّا يُنْسَجُ وَتَفْضُلُ لَهُ فُضُولٌ - وَفَائِدَةُ (مِنْ دُونِ ثَوْبِهَا) أَنَّهَا مِلْءُ دِرْعِهَا ، فَلِهَذَا تَكُونُ سَمِينَةَ ٱلْمُعَرَّىٰ ؛ وَقَوْلُهُ : تَطُولُ ٱلْقِصَارَ ، يُرِيدُ أَنَّهَا رَبْعَةٌ .

٥٤٤ - وَقَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ[1] [من الطويل] :

وَأَنْتِ ٱلَّتِي حَبَّبْتِ كُلَّ قَصِيرَةٍ … إِلَيَّ وَمَا تَدْرِي بِذَاكَ ٱلْقَصَائِرُ

عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ ٱلْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ … قِصَارَ ٱلْخُطَىٰ شَرُّ ٱلنِّسَاءِ ٱلْبَحَاتِرُ

ٱلْقَصِيرَةُ وَمِثْلُهَا قَصُورَةٌ : ٱلْمَحْبُوسَةُ ٱلْمَقْصُورَةُ فِي ٱلْبَيْتِ لا تُتْرَكُ أَنْ تَخْرُجَ ؛ وَٱلْبَحَاتِرُ : ٱلْقَصِيرَاتُ ، مِنْ قِصَرِ ٱلْقَامَةِ ؛ وَيُرْوَىٰ بَدَلَ ٱلْبَحَاتِرِ : ٱلْبَهَاتِرَ وَهِيَ قَبْلُ كَٱلْبَحَاتِرُ ؛ وَٱلْحِجَالَةُ ، جَمْعُ حَجَلَةٍ ، وَهُوَ : بَيْتٌ كَٱلْقُبَّةِ يُسْتَرُ بِٱلثِّيَاتِ وَيَكُونُ لَهُ أَزْرَارٌ كِبَارٌ .

٥٤٥ - وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من البسيط] :

كَأَنَّمَا أُفْرِغَتْ مِنْ مَاءِ لُؤْلُؤَةٍ … فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ وَجْهِهَا قَمَرُ

كَمَا ٱشْتَهَتْ خُلِقَتْ حَتَّىٰ إِذَا ٱكْتَمَلَتْ … تَمَّتْ قَوَاماً فَلا طُولٌ وَلا قِصَرُ

٥٤٦ - وَقَالَ بَهَاءُ ٱلدِّينِ زُهَيْرٌ [من الطويل] :

وَهَيْفَاءُ تَحْكِي ٱلرُّمْحَ لَوْناً وَقَامَةً … لَهَا مُهْجَتِي مَبْذُولَةٌ وَفُؤَادِي

لَقَد عَابَهَا ٱلْوَاشِي فَقَالَ : طَوِيلَةٌ … مَقَالَ حَسُودٍ مُظْهِرٍ لِعِنَادِي

---

(١) مِنَ ٱلْغَرِيبِ أَنَّ كُثَيِّرَ عَزَّةَ قَائِلَ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَانَ قَصِيراً جِدّاً إِلَىٰ حَدٍّ أَنَّهُ لا يَبْلُغُ ضُرُوعَ الإِبِلِ ، وَكَانُوا يُلَقِّبُونَهُ : « زُبَّ ٱلذُّبَابِ » لِقِصَرِهِ ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَىٰ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، قَالَ لَهُ : تَطَأْطَأْ لا يُصِبْ رَأْسَكَ ٱلسَّقْفُ ! وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ لَمَّا رَآهُ : تَسْمَعُ بِٱلْمُعَيْدِيِّ لا أَنْ تَرَاهُ ، لِقَمَاءَتِهِ .

وَفِيهِ يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْحَزِينُ ٱلْكِنَانِيُّ [ من الطويل ] :

يَكَادُ كُثَيْرٌ مِنْ تَقَارُبِ شَخْصِهِ … يَعَضُّ قُرَاداً بِأُسْتِهِ وَهُوَ قَائِمُ

فَقُلْتُ لَهُ : بُشِّرْتَ بِٱلْخَيْرِ إِنَّهَا حَيَاتِي فَإِنْ طَالَتْ فَذَاكَ مُرَادِي
وَمَا عَابَهَا ٱلْقَدُّ ٱلطَّوِيلُ وَإِنَّهُ لأَوَّلُ حُسْنٍ لِلْمَلِيحَةِ بَادِي
رَأَيْتُ ٱلْحُصُونَ ٱلشُّمَّ تَحْفَظُ أَهْلَهَا فَأَعْدَدْتُهَا حِصْناً لِحِفْظِ وِدَادِي

٥٤٧ ـ وَوَرَدَ في ٱلأَثَرِ : أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ نُغَاشٍ ـ وَفي رِوَايَةٍ : بِرَجُلٍ نُغَاشِيٍّ ـ فَخَرَّ سَاجِداً للهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَسْأَلُ ٱللهَ ٱلْعَافِيَةَ » .

النُّغَاشُ وَٱلنُّغَاشِيُّ : ٱلْقَصِيرُ ، أَقْصَرُ مَا يَكُونُ .

٥٤٨ ـ وَرُوِي أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ رَأَىٰ رَجُلًا قَصِيراً ، فَقَالَ : «مَنْ رَأَىٰ مُبْتَلَىً فَقَالَ : ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي عَافَانِي مِمَّا ٱبْتَلَىٰ بِهِ غَيرِي وَفَضَّلَنِي عَلَيْهِ وَعَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا ، عَافَاهُ ٱللهُ مِمَّا ٱبْتَلاهُ بِهِ كَائِناً مَا كَانَ» . [راجع الترمذي ، رقم : ٢٤٣١ و٢٤٣٢] فَعَدَّ رَسُولُ ٱللهِ ٱلقِصَرَ بَلِيَّةً يُسْتَعَاذُ بِٱللهِ مِنْهُ .

٥٤٩ ـ وَكَانَ ٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ أَعْوَرَ دَمِيماً آدَمَ قَصِيراً ، فَهَجَاهُ رُجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكُوفَةِ ، فَقَالَ [من الطويل] :

إِذَا رَاحَ فِي قُبْطِيَّةٍ مُتَأَزِّراً فَقُلْ جُعَلٌ يَسْتَنُّ فِي لَبَنٍ مَحْضِ
فَأُقْسِمُ لَوْ خَرَّتْ مِن ٱسْتِكَ بَيْضَةٌ لَمَا ٱنْكَسَرَتْ مِن قُرب بَعضِكَ مِنْ بَعْضِ[1]

ٱلْقُبْطِيَّةُ : ثِيَابٌ مِنَ ٱلْكَتَّانِ تُنْسَجُ بِمِصْرَ مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ ٱلقِبْطِ عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاسٍ ،

---

(١) قَالَ ٱبْنُ دُرَيْدٍ لأَبي حاتِمٍ : ما أَظُنُّ أَحداً سَبَقَهُ إِلىٰ قَوْلِه : جُعَلٌ يَسْتَنُّ في لَبَنٍ مَحْضٍ ؟ فَقالَ : بَلىٰ ، كانَ إِبْراهيمُ بْنُ عَرَبِيّ وَالِي ٱلْيَمامَةِ ، فَصَعَدَ ٱلمِنْبَرَ وَعَلَيْهِ ثِيابٌ بِيضٌ ، فَبَدَا وَجْهه وَكَفَّاهُ ، فَقالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [ من الطويل ] :
تَرَىٰ مِنْبَرَ ٱلْعَبْدِ ٱللَّئِيمِ كَأَنَّمَا ثَلاثَةُ غِرْبانٍ عَلَيْهِ وُقُوعُ
وَخَرَجَ نُصَيْبٌ مِنْ عِنْدِ هِشامٍ وَعَلَيْهِ ثِيابٌ بِيضٌ ، فَقالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [ من الرجز ] :
كَأَنَّمَا لَمَّا بَدَا لِلنَّاسِ أَيْرُ حِمارٍ لُفَّ فِي قِرْطاسِ

قَالُوا : إِذَا نَسَبْتَ ٱلنَّاسَ إِلَىٰ ٱلْقِبْطِ قُلْتَ : قِبْطِيٌّ ، بِكَسْرِ ٱلْقافِ ، وَتُنْسَبُ إِلَيْهِمُ ٱلثِّيَابُ فَتَقُولُ : قُبْطِيّ ، بِضَمِّ ٱلقَافِ ، لِلْفَرْقِ ؛ وَٱلْجُعَلُ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلْخَنافِسِ ؛ وَيَسْتَنُّ : يَذْهَبُ وَيَجِيءُ .

٥٥٠ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَنْ أَرَادَ ٱلنَّجابَةَ فَعَلَيْهِ بِٱلطِّوَالِ ، وَمَنْ أَرادَ ٱللَّذَّةَ فَبِٱلْقِصارِ ، فَإِنَّهُنَّ لَذِيذَاتُ ٱلنِّكَاحِ .

٥٥١ ـ وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ : مَنْ تَزَوَّجَ قَصِيرَةً فَلَمْ يَجِدْهَا عَلَىٰ ٱلْمُوافقَةِ فَعَلَيَّ مَهْرُهَا .

٥٥٢ ـ وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : كَانَ أَعْرَابِيٌّ طَوِيلًا قَبِيحاً ، فَخَطَبَ ٱمْرَأَةً ، وَقَالَ : أُرِيدُهَا قَصِيرَةً جَمِيلَةً ، لِيَأْخُذَ ٱلْوَلَدُ طُولِي وَجَمَالَهَا ؛ قَالَ : وَتَزَوَّجَهَا عَلَىٰ تِلْكَ ٱلصِّفَةِ ، فَجَاءَ وَلَدُهُ عَلَىٰ قُبْحِهِ وَقِصَرِهَا .

٥٥٣ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ : لا يَمْنَعُكُمْ مِنْ تَزَوُّجِ ٱمْرَأَةٍ قَصِيرَةٍ قِصَرُهَا ، فَإِنَّ ٱلطَّوِيلَةَ تَلِدُ ٱلْقَصِيرَ ، وَٱلْقَصِيرَةَ تَلِدَ ٱلطَّوِيلَ ، وَإِيَّاكُمْ وَٱلْمُذَكَّرَةَ ، فَإِنَّهَا لَا تُنْجِبْ .

ٱلْمُذَكَّرَةُ : ٱلْمُشَبَّهَةُ بِٱلذُّكُورِ .

٥٥٤ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ يَنْعَتُ ٱمْرَأَةً : لَيْسَ بِهَا قِصَرٌ يُذِيلُهَا ، وَلا طُولٌ يُخْرِقُهَا ، فَإِنَّ ٱلطُّولَ مَخْرَقَةٌ .

قَوْلُهُ : يُخْرِقُهَا ، أَيْ : يَكُونُ لَهَا خُرْقاً ؛ وَٱلْخَرِيقُ : ٱلَّذِي لا يُحْسِنُ ٱلْعَمَلَ .

٥٥٥ ـ وَكَانَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ يُلَقَّبُ « زُبَّ ٱلذُّبَابِ » لِقِصَرِهِ ، قَالَ زَوْجُ عَزَّةَ يَهْجُوهُ [من الطويل] :

لَعَمْـرُكَ مَـا زُبُّ ٱلـذُّبَـابِ كُثَيِّـرٌ بِفَحْـلٍ وَلا آبَـاؤُهُ بِفُحُـولِ

قَالُوا : إِنَّ كُثَيِّراً كَانَ قَصِيراً لا يَبْلُغُ ضُرُوعَ ٱلإِبِلِ ، وَكَانَ إِذَا دَخَلَ عَلَىٰ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَان ، قَالَ لَهُ : تَطَأْطَأْ لا يُصِبْ رَأْسَكَ ٱلسَّقْفُ ! وَقَالَ لَهُ لَمَّا رَآهُ : تَسمَعُ بِٱلْمُعَيْدِيِّ لا أَنْ تَرَاهُ ؛ لِقَمَاءَتِهِ .

* * *

## ٱلثِّيَابُ وَٱلْحُلِيِّ وَٱلطِّيبُ :

٥٥٦ ـ كُلُّ مَا أَسْلَفْنَا فِي هَذَا ٱلْبَابِ ـ بَاب حَضِّهِمُ ٱلنِّسَاءَ عَلَىٰ ٱلزِّينَةِ وَٱلتَّجَمُّلِ وَٱلنَّظَافَةِ ـ إِنَّمَا هُوَ خَاصٌّ بِنَظَافَةِ ٱلْبَدَنِ وَأَعْضَاءِ ٱلْبَدَنِ وَعَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي وَصْفِ أَعَضَاءِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَفِي هَذَا ٱلْمَوْضِعِ نُورِدُ عَبْقَرِيَّاتِهِمُ فِي ٱلعِنَايَةِ بِمَا يُحِيطُ بِٱلْبَدَنِ ، مِنَ ٱلثِّيَابِ وَٱلْحُلِيِّ وَٱلطِّيبِ .

* * *

٥٥٧ ـ وَأَوَّلُ مَا يَجمُلُ ٱلعِنَايَةُ بِهِ فِي ذَلِكَ وَأَوْلاهُ هُوَ ٱلثِّيَابُ ، فَجَدِيرٌ بِٱلْمَرْأَةِ أَنْ تُنَظِّفَ ثِيَابَهَا لِئَلَّا يُسْرِعَ تَعَلُّقُ الأَدْرَانِ بِهَا ، وَأَنْ تَخْتَارَ مِنَ ٱلثِّيَابِ مَا يُوَائِمُ ٱلذَّوْقَ ٱلْعَامَّ وَلا يَنْبُو بِهِ ذَوْقُ عَصْرِهَا وَأَهْلُ جِيلِهَا ، وَأَنْ تُرَاعِيَ فِي ذَلِكَ ذَوْقَ زَوْجِهَا وَمَا عَسَاهُ تُجْلِبُ بِهِ رِضَاهُ وَإِقْبَالَهُ عَلَيْهَا .

وَقَدْ أَجْمَعَ ذَوُو ٱلبَصَرِ بِٱلأُمُورِ عَلَىٰ أَنَّ ٱجْتِلابَ مَيْلِ ٱلرَّجُلِ ـ أَعْنِي : ٱلزَّوْجَ ـ إِلَىٰ زَوْجِهِ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يَرَاهَا فِي ٱلْهَيْئَةِ ٱلْمُونِقَةِ ، وَٱلزِّينَةِ ٱلْمُوَافِقَةِ ، ٱلَّتِي تُحَرِّكُ ذَوِي ٱلانْكِسَارِ وَٱلْفُتُورِ ، وَتَزِيدُ ذَوِي ٱلنَّشَاطِ نَشَاطاً ؛ وَٱلْمَرْأَةُ ٱلْفَطِنَةُ ٱللَّبِقَةُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلتَّبَعُّلِ يَجِبُ عَلَيْهَا أَنْ تُرَاعِيَ ذَلِكَ وَمَا سِوَاهُ مِمَّا يَتِمُّ بِهِ إِقْبَالُ ٱلرَّجُلِ ـ أَعْنِي : ٱلزَّوْجَ ـ عَلَيْهَا ، وَأَنْ تَتَفَقَّدَ مِنْ أَحْوَالِ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا

وَشَاهِدِهَا وَغَائِبِهَا مَا تَأْمَنُ مَعَهُ أَنْ يَسْبِقَ إِلَىٰ طَرَفِ بَعْلِهَا أَوْ أَنْفِهِ شَيْءٌ يَذُمُّهُ مِنْهَا أَوْ يَكْرَهُهَا مِنْ أَجْلِهِ ، وَأَنْ تَعْتَقِدَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ عِنَايَتَهَا هَذِهِ وَٱحْتِفَالَهَا إِنَّمَا هُوَ لِنَفْسِهَا وَعَائِدٌ عَلَيْهَا ، خَشْيَةَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لِزَوْجِهَا ٱلتَّقْصِيرُ فَتَطْمَحُ نَفْسُهُ إِلَىٰ غَيْرِهَا .

وَكُلُّ ذَلِكَ فِي ٱلأَوْقَاتِ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِأَنْ يَقْرَبَ مِنْهَا فِيهَا ، وَهِيَ فِي ٱلأَعَمِّ ٱلأَغْلَبِ ٱلأَوْقَاتُ ٱلَّتِي ذكرَهَا ٱللهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ ٱلْكَرِيمِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٥٨] .

ٱنْظُرِ ٱلْقَوْلَ عَلَىٰ هَذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ فِي بَابِ حَضِّهِمُ ٱلْمَرْأَةَ عَلَىٰ ٱلْحِشْمَةِ .

وَهُنَا أَنْصَحُ لِلْمَرْأَةِ نَصِيحَتَيْنِ : فَأَمَّا أُولاهُمَا فَأَنْ لا تُمْعِنَ فِي ٱلزِّينَةِ ، فَإِنَّ ٱلإِفْرَاطَ فِي ٱلزِّينَةِ كَٱلتَّفْرِيطِ فِيهَا كِلاهُمَا مَذْمُومٌ ، تَنْفُرُ مِنْهُ ٱلأَذْوَاقُ .

وَأَمَّا الأُخْرَىٰ فَإِذَا كَانَتِ ٱلزِّينَةُ ٱلْمُفْرِطَةُ مَذْمُومَةً مِنَ ٱلْفَتَيَاتِ فَأَوْلَىٰ أَنْ تُذَمَّ مِنَ ٱلْمُسِنَّاتِ ، وَحَسْبُ ٱلْمُسِنَّةُ أَنْ تَكُونَ نَظِيفَةً فِي بَدَنِهَا وَثِيَابِهَا ، أَمَّا الإِفْرَاطُ فِي ٱلتَّجَمُّلِ وَٱلزِّينَةِ فَهُوَ لَوْنٌ مِنَ ٱلْوَقَاحَةِ وَٱلسَّمَاجَةِ .

٥٥٨ ـ كَانَ لِرَجُلٍ مِنَ الأَعْرَابِ ٱمْرَأَةٌ عَجُوزٌ ، وَكَانَتْ تَشْتَرِي ٱلعِطْرَ بِٱلْخُبْزِ ، فَقَالَ [من الطويل] :

عَجُوزٌ تُرَجِّي أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً ... وَقَدْ لُحِبَ ٱلْجَنْبَانِ وَٱحْدَوْدَبَ ٱلظَّهْرُ[(١)]

تَدُسُّ إِلَىٰ ٱلعَطَّارِ سِلْعَةَ بَيْتِهَا ... وَهَلْ يُصْلِحُ ٱلعَطَّارُ مَا أَفْسَدَ ٱلدَّهْرُ

وَمَا غَرَّنِي إِلَّا خِضَابٌ بِكَفِّهَا ... وَكُحْلٌ بِعَيْنَيْهَا وَأَثْوَابُهَا ٱلصُّفْرُ

---

(١) لُحِبَ ٱلْجَنْبانِ : قَلَّ لَحْمُهُما .

وَجَـاءُوا بِهَـا قَبْـلَ ٱلْمُحَـاقِ بِلَيْلَـةٍ فَكَـانَ مُحَـاقاً كُلُّـهُ ذَلِـكَ ٱلشَّهْـرُ[(١)]

فَقَالَتِ ٱمْرَأَتُهُ [من الطويل] :

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلنَّـابَ تُحْلَـبُ عُلْبَـةً وَيُتْرَكُ ثَلْبٌ لا ضِرَابٌ وَلا ظَهْرُ[(٢)]

وَلَيْتَ شِعْرِي ! مَاذَا يَقُولُ هَذَا ٱلأَعْرَابِيُّ إِذَا هُوَ قَدْ رُدَّ إِلَىٰ عَصْرِنَا هَذَا فِي مِصْرِنَا هَذَا ، فَرَأَىٰ عَجَائِزَنَا ، وَلا سِيَّمَا سَاكِنَاتِ ٱلْقُصُورِ وَٱلْمُتَشَبِّهَاتِ بِهِنَّ وَقَدْ غَالَيْنَ فِي ٱلزِّينَةِ ، وَذَهَبْنَ فِيهَا كُلَّ مَذْهَبٍ ، فَصَبَغْنَ شُعُورَهُنَّ ، وَلَوَّنَّ وُجُوهَهُنَّ وَشِفَاهَهُنَّ بِتِلْكَ ٱلأَصْبَاغِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ بَيْنَ أَبْيَضَ وَأَحْمَرَ وَأَسْوَدَ وَأَصْفَرَ ، فَغَيَّرْنَ صِبْغَةَ ٱللهِ ٱلْجَمِيلَةَ حَتَّىٰ فِي إِدْبَارِهَا ، وَصِرْنَ بِهَذَا ٱلصُّنْعِ سُخْرِيَّةَ ٱلنَّاظِرِينَ ، وَضُحْكَةَ ٱلْغَادِينَ وَٱلرَّائِحِنَ ! وَقَدْ غَابَ عَنْهُنَّ ـ لَهُنَّ ٱللهُ ـ أَنَّ جَمَالَهُنَّ فِي أَنْ لا يَتَجَمَّلْنَ ، وَزِينَتُهُنَّ فِي أَنْ لَا يَتَزَيَّنَّ .

أَلَيْسَتِ ٱلْمُسِنَّاتُ ٱلرِّيفِيَّاتُ ٱلْعَاطِلاتُ[(٣)] ٱللاتِي يَتْرُكْنَ أَنْفُسَهُنَّ بِدُونِ زِينَةٍ أَجْمَلَ مِنْ حَضْرِيَّاتِنَا فِي مِثْلِ هَذَا ٱلتَّجَمُّلِ ٱلْبَهْرَجِ !

٥٥٩ ـ [قال المتنبيُّ من البسيط] :

مَا أَوْجُهُ ٱلْحَضَرِ ٱلْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَـأَوْجُـهِ ٱلْبَدَوِيَّـاتِ ٱلـرَّعَـابِيـبِ[(٤)]

---

(١) ٱلْمُحَاقُ ، مُثَلَّثُ ٱلْمِيمِ : آخِرُ ٱلشَّهْرِ أَوْ ثَلاثُ لَيَالٍ فِي آخِرِهِ .

(٢) قَوْلُهَا : أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّابَ تُحْلَبُ عُلْبَةً ، تَقُولُ : فِيهَا مَنْفَعَةٌ عَلَىٰ حَالٍ مَا ؛ وَٱلنَّابُ : ٱلنَّاقَةُ ٱلْمُسِنَّةُ ؛ وَٱلْعُلْبَةُ : إِنَاءٌ لَهُمْ مِنْ جِلْدٍ يُحْلَبُ فِيهِ ؛ وَالثَّلْبُ : ٱلَّذِي قَدْ تَنَاهَىٰ فِي ٱلسِّنِّ مِنَ ٱلإِبِلِ ، وَيُسْتَعَارُ لِلإِنْسَانِ ، تَقُول : إِنَّ ٱلرَّجُلَ ٱلعَجُوزَ لا فَائِدَةَ مِنْهُ ٱلْبَتَّةَ .

(٣) ٱلْعَاطِلاتُ ، أَي : مِنَ ٱلْحُلِيِّ .

(٤) ٱلرَّعَابِيبُ ، جَمْعُ رُعْبُوبَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلسَّمِينَةُ ، يَقُولُ ٱلْمُتَنَبِّيُّ : لَيْسَتِ ٱلأَوْجُهُ ٱلْمُسْتَحْسَنَاتُ بِٱلْحَضَرِ كَأَوْجُهِ نِسَاءِ ٱلْبَدْوِ ، وَقَدْ بَيَّنَ ٱلسَّبَبَ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلتَّالِي .

حُسْنُ ٱلْحِضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ ... وَفي ٱلْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ (١)

أَيْنَ ٱلْمَعِيزُ مِنَ ٱلآرَامِ نَاظِرَةً ... وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ فِي ٱلْحُسْنِ وَٱلطِّيبِ (٢)

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا ... مَضْغَ ٱلْكَلامِ وَلا صَبْغَ ٱلْحَوَاجِيبِ (٣)

وَلا بَرَزْنَ مِنَ ٱلْحَمَّامِ مَاثِلَةً ... أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلاتِ ٱلْعَرَاقِيبِ (٤)

وَمِنْ هَوَىٰ كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوِّهَةً ... تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ

وَمِنْ هَوَىٰ ٱلصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ ... رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي ٱلرَّأْسِ مَكْذُوبِ

٥٦٠ ـ وَمِثْلُ ٱلْبَدَوِيَّاتِ ٱلرِّيفِيَّاتُ . . . وَإِنِّي وَأَيْمُنُ ٱللهِ ، مَا وَقَعَ نَظَرِي عَلَىٰ رِيفِيَّةٍ عَجُوزٍ ، وَقَدْ تَلَفَّعَتْ مِلْفَعَتَها وَٱنْتَعَلَتْ حِذَاءَها أَوْ « بَلْغَتَهَا » ، وَفَاحَ مِنْها عَبِيرُ عِطْرِهَا ٱلنِّسْوِيِّ ٱلرِّيفِيِّ ٱلسَّاذَجِ ، إِلّا كَسَتْنِي تَوْقِيراً لَهَا وَحَنَاناً ، وَرَوْحاً وَرَيْحَاناً ، وَبَرْداً وَسَلاماً ، وَإِكْبَاراً وَإِعْظَاماً ! حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتْ عَيْنِي تِلْكَ ٱلْحَضَرِيَّةَ ٱلْعَجُوزَ وَقَدِ ٱزَّيَّنَتْ ضُرُوباً مِنَ ٱلزِّينَةِ وَأَلْوَاناً وَٱفْتَنَّتْ فِيهَا ٱفْتِنَاناً رَأَيْتُنِي

---

(١) ٱلْحِضارَةِ بِكَسْرِ ٱلْحَاءِ وَفَتْحِهَا : ٱلإِقامَةُ في ٱلْحَضَرِ ؛ وَٱلْبَدَاوَةُ : الإِقامَةُ في ٱلْبَدْوِ ؛ وَالتَّطْرِيَةُ : ٱلْمُعَالَجَةُ ؛ تَقُولُ : طَرَّىٰ الطِّيبَ ، إِذا خَلَطَهُ بِالأَفاوِيهِ ، وَطَرّىٰ ٱلطَّعامَ : خَلَطَهُ بِٱلتَّوابِلِ ؛ يَقُولُ : إِنّ حُسْنَ أَهْلِ ٱلحضَارَةِ مُتَكَلَّفٌ مَجْلُوبٌ بِٱلحِيلَةِ وَٱلْعِلاجِ ، أَمَّا حُسْنُ ٱلْبَدَوِيّاتِ ، فَهُوَ خِلْقَةٌ لا يَعْرِفْنَ ٱلتَّكَلُّفَ وَٱلْحُسْنَ ٱلمَجْلوبَ بِالاحْتِيالِ .

(٢) شَبَّهَ نِساءَ ٱلْحَضَرِ بِٱلْمَعِيزِ وَنِسَاءَ ٱلْبَدْوِ بِالآرَامِ ـ ٱلظِّباءِ ٱلْخَالِصَةِ ٱلْبَيَاضِ ـ يَقُولُ : أَيْنَ تَقَعُ ٱلْمَعِيزُ مِنَ ٱلظِّباءِ في ٱلْحُسْنِ وَٱلطِّيبِ ، أَكَانَتْ مُقْبِلَةً أَمْ مُعْرِضَةً ، فَٱلظِّبَاءُ تَفْضُلُها عُيُوناً وَغَيْرَ عُيُونٍ .

(٣) يُرِيدُ بِظِباءِ ٱلْفَلاةِ : ٱلْبَدَوِيّاتِ ؛ ومَضْغُ ٱلْكَلامِ : تَرْكُ إِبانَتِه كَأَنَّ ٱلْمُتَكَلِّمَ يَمْضَغُ شَيْئاً ، يَقُولُ : إِنَّ نِساءَ ٱلْبَدْوِ فَصِيحاتٌ مُبِينَاتٌ لا يَمْضُغْنَ كلامَهُنَّ غَنَجاً وَتَخْنِيثاً كَنِساءِ ٱلْحَضَرِ ، وَلا يَصْبِغْنَ حَواجِبَهُنَّ طَلَباً لِلزِّينَةِ مِثْلَهُنَّ .

(٤) مائِلَةً : شاخِصةً ؛ وَٱلْعَرَاقِيبُ ، جَمْعُ عُرْقُوبٍ ، وَهُوَ : ٱلْعَصَبُ ٱلغَلِيظُ فَوْقَ عَقِبِ ٱلرَّجُلِ ، يَقُولُ : وَلَيْسَتِ ٱلْبَدَوِيّاتُ كَٱلحَضَرِيّاتِ يَجْلِبْنَ حُسْنَهُنَّ بِأَنْ يَدْخُلْنَ ٱلْحَمّامَ فَيَخْرُجْنَ مِنْهُ وَقَدْ شَدَدْنَ خُصُورَهُنَّ ، فَشَخَصَتْ أَوْرَاكُهُنَّ مِنْ تَحْتِها ، وَصَقَلْنَ عَراقِيبَهُنَّ .

وَقَدْ غَثَّتْ نَفْسِي ، وَتَلَذَّعَتْ كَبِدِي ، وَشَقَّ مَنْظَرُهَا وَكَلامُهَا عَلَىٰ الآذَانِ وَٱلْحَدَقِ . . . وَهَبْنِي عَذَرْتُ ٱلْفَتَاةَ إِذَا هِيَ ٱزَّيَّنَتْ فَمَا ٱلْعُذْرُ في ٱلزِّينَةِ إِذَا ٱلْمَرْأَةُ شَاخَتْ وَنَالَتْ مِنْهَا ٱلسِّنُونُ ! إِنَّنِي لا أَنْعَىٰ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ زِينَتَهَا ، لأَنَّ حُبَّ ٱلزِّينَةِ جِبِلَّةٌ فِي ٱلنِّسَاءِ ، كَمَا قُلْتُ ؛ وَلَكِنَّ ٱلْعَجُوزَ يَخْلُقُ بِهَا أَنْ تَتَزَيَّنَ ٱلزِّينَةَ ٱلْوَقُورَ ، ٱلَّتِي لا تَبْلُغَ مَبْلَغَ ٱلْمِسْخِ وَٱلتَّدْلِيسِ وَٱلزُّورِ ؛ أَيَّتُهَا ٱلْعَجَائِزُ ! ٱحْتَرِمْنَ أَنفُسَكُنَّ ، وَٱعْلَمْنَ أَنَّ جَلالَ ٱلشَّيْخُوخَةِ في ٱلشَّيْخُوخَةِ ، وَأَنَّ ٱلْجَمَالَ ٱلْمُتَصَنَّعَ إِنَّمَا هُوَ لَدَىٰ إِنْعَامِ ٱلنَّظَرِ أَقبحُ ٱلْقُبْحِ ، وَأَنْتُنَّ إِذَا جَهِلْتُنَّ أَوْتَجَاهَلْتُنَّ ذَلِكَ فَوَطِّنَّ أَنْفُسَكُنَّ عَلَىٰ ٱلسُّخْرِيَةِ مِنْكُنَّ وَلا أَبْعَدَ ٱللهُ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ .

* * *

**ٱلثِّيَابُ :**

ٱلرُّخْصَةُ في إِجَادَةِ ٱلْمَلْبَسِ :

٥٦١ ـ قَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبَّاسٍ : كُلْ مَا شِئْتَ وَٱلْبَسْ مَا شِئْتَ ، مَا أَخْطَأَكَ شَيْآنِ : سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ .

ٱلْمَخِيلَةُ : ٱلْخُيَلَاءُ وَٱلْكِبْرُ ، يَقُولُ : مَا دُمْتَ في أَكْلِكَ وَلُبْسِكَ مُجَانِباً ٱلإِسْرَافَ وَٱلْكِبْرَ فَإِنَّ ذَلِكَ مَحْمُودٌ ، أَمَّا إِنْ أَسْرَفْتَ في أَكْلِكَ وَلُبْسِكَ أَوْ كُنْتَ تَقْصِدُ إِلىٰ ٱلْخُيلاءِ وَٱلْكِبْرِ فَهَذَا مِمَّا نَهَىٰ ٱللهُ عَنْهُ .

٥٦٢ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ : «إِيَّاكُمْ وَٱلْمَخِيلَةُ» فَقِيلَ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! نَحْنُ قَوْمٌ عَرَبٌ ، فَمَا ٱلْمَخِيلَةُ ؟ قَالَ : «سَبْلُ ٱلإِزَارِ» أَيْ : إِرْسَالُهُ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ .

٥٦٣ ـ وَقَالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ

﴿مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآيتان : ٣١ و٣٢] .

ٱلزِّينَةُ : ٱلثِّيَابُ وَكُلُّ مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ ؛ وَعِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، أَيْ : كُلَّمَا صَلَّيْتُمْ أَوْ طُفْتُمْ بِٱلْبَيْتِ ؛ وَٱلسُّنَّةُ : أَنْ يَأْخُذَ ٱلرَّجُلُ أَحْسَنَ هَيْئَتِهِ لِلصَّلاةِ ، وَكَانُوا يَطُوفُونَ بِٱلْبَيْتِ وهُمْ عُرَاةٌ تَفَاؤُلًا لِيَتَعَرَّوْا مِنَ ٱلذُّنُوبِ كَمَا تَعَرَّوْا مِنَ ٱلثِّيَابِ ، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ .

٥٦٤ ـ قَالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : يُحْكَىٰ أَنَّ ٱلرَّشِيدَ كَانَ لَهُ طَبِيبٌ نَصْرَانِيٌّ حَاذِقٌ ، فَقَالَ لِعَلِيِّ بَنِ ٱلْحُسَيْنِ بَنِ وَاقِدٍ : لَيْسَ فِي كِتَابِكُمْ مِنْ عِلْمِ ٱلطِّبِّ شَيْءٌ ، وَٱلْعِلْمُ عِلْمَانِ : عِلْمُ ٱلأَبْدَانِ وَعِلْمُ ٱلأَدْيَانِ ! فَقَالَ لَهُ : قَدْ جَمَعَ ٱللهُ ٱلطِّبَّ كُلَّهُ فِي نِصْفِ آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ، قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ٣١] فَقَالَ ٱلنَّصْرَانِيُّ : وَلا يُؤْثَرُ مِنْ رَسُولِكُمْ شَيْءٌ فِي ٱلطِّبِّ ! فَقَالَ : قَدْ جَمَعَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلطِّبَّ فِي أَلْفَاظٍ يَسِيرَةٍ ، قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : قَوْلُهُ : «ٱلْمَعِدَةُ بَيْتُ وَٱلْحِمْيَةُ رَأْسُ ٱلدَّوَاءِ[1] ، وَأَعْطِ كُلَّ بَدَنٍ مَا عَوَّدْتَهُ» [قَالَ ٱلسَّخَاوِيُّ فِي «ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْحَسَنَةِ» : لا يَصِحُّ رَفْعُهُ إِلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، بَلْ هُوَ مِنْ كَلامِ ٱلْحَارِثِ بْنِ كِلْدَةَ طَبِيبِ ٱلْعَرَبِ أَوْ غَيْرِهِ .] فَقَالَ ٱلنَّصْرَانِيُّ : مَا تَرَكَ كِتَابُكُمْ وَلا نَبِيُّكُمْ لِجَالِينُوسَ طِبّاً .

٥٦٥ ـ وَقَالُوا : كُلْ مَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُكَ وَٱلْبَسْ مَا تَشْتَهِيهِ ٱلنَّاسُ .

٥٦٦ ـ وَرَوَىٰ ٱبْنُ أَبِي ٱلْحَدِيدِ فِي شَرْحِهِ لـ «نَهْجِ ٱلْبَلاغَةِ» وَٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي

---

(١) هِيَ ٱلْمَعِدَةُ ، وَٱلمِعْدَةُ ؛ وَٱلْحِمْيَةُ : ٱلاحْتِماءُ مِنَ ٱلطَّعامِ ، أَيْ : ٱلْجُوعُ ، «جُوعُوا تَصِحُّوا» . وقَدْ غَابَ عَنْ عَلِيٍّ هَذَا ٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي هُوَ جِمَاعُ ٱلصِّحَّةِ ، وَهُوَ : «نَحْنُ قَوْمٌ لا نَأْكُلُ حَتَّىٰ نَجُوعَ ، وَإِذَا أَكَلْنَا لا نَشْبَعُ» .

«ٱلْعِقْدِ» : إِنَّ ٱلرَّبِيعَ بْنَ زِيَادٍ ٱلْحَارِثِيَّ[١] أَصَابَتْهُ نُشَّابَةٌ ـ سَهْمٌ ـ فِي جَبِينِهِ ، فكَانَتْ تَنْتَقِضُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ عَامٍ ـ أَيْ : تَنْتَكِسُ بَعْدَ بُرْئِهَا ـ فَأَتَاهُ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ عَائِداً ، فَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَبَا عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ؟ قَالَ : أَجِدُنِي لَوْ كَانَ لا يُذْهِبُ مَابِي إِلَّا ذَهَابُ بَصَرِي فَدَيْتُهُ بِهَا ؛ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ : وَمَا قِيمَةُ بَصَرِكَ عِنْدَكَ ؟ قال : لَوْ كَانَتْ لِيَ ٱلدُّنْيَا فَدَيْتُهُ بِهَا ؛ قَالَ : لا جَرَمَ لَيُعْطِيَنَّكَ ٱللهُ عَلَىٰ قَدْرِ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ ، إِنَّ ٱللهَ يَعْطِي عَلَىٰ قَدْرِ ٱلأَلَمِ وَٱلْمُصِيبَةِ ، وَعِنْدَهُ بَعْدُ تَضْعِيفٌ كَثِيرٌ . . . وَقَالَ لَهُ ٱلرَّبِيعُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! أَلا أَشْكُو إِلَيْكَ عَاصِمَ ٱبْنَ زِيَادٍ[٢] ؟ قَالَ : وَمَالَهُ ؟ قَالَ : لَبِسَ ٱلْعَبَاءَ ، وَتَخَلَّىٰ عَنِ ٱلدُّنْيَا[٣] ، وَغَمَّ أَهْلَهُ ، وَأَحْزَنَ وَلَدَهُ ؛ فَقَالَ : عَلَيَّ بِهِ[٤] ؛ فَلَمَّا أَتَاهُ عَبَسَ ـ قَطَّبَ ـ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالَ : يَا عُدَيَّ[٥] نَفْسِهِ ! أَتُرَىٰ ٱللهَ أَحَلَّ لَكَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَهُوَيَكْرَهُ أَخْذَكَ مِنْهَا ! لأَنْتَ أَهْوَنُ عَلَىٰ ٱللهِ مِنْ ذَلِكَ ! أَوَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾[٦] [٥٥ سورة الرحمن/ الآيتان : ١٩ و٢٠] ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ

---

(١) ٱلرَّبِيعُ بْنُ زِيادٍ هَذا هُوَ ٱلَّذي ٱفْتَتَحَ بَعْضَ خُراسانَ ، وَهُوَ ٱلَّذي قَالَ فِيهِ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ : دُلُّونِي عَلَىٰ رَجُلٍ إِذَا كَانَ فِي ٱلْقَوْمِ أَمِيراً فَكَأَنَّهُ لَيْسَ بِأَمِيرٍ ، وإِذا كانَ في ٱلْقَوْمِ لَيْسَ بِأَمِيرٍ فَكَأَنَّهُ الأَمِيرُ بِعَيْنِهِ ؛ وَهُوَ صاحِبُ ٱلْوَقْعَةِ مَعَ عُمَرَ لَمَّا أَحْضَرَ عُمَّالَهُ ، فَتَقَشَّفَ لَهُ ٱلرَّبِيعُ وَأَكَلَ مَعَهُ ٱلْخَشِنَ مِنَ ٱلطَّعامِ ، فَأَقَرَّهُ عَلىٰ عَمَلِهِ وَصَرَفَ ٱلْباقِينَ . ٱنْظُرِ ٱلْمُجَلَّدَ الأَوَّلَ مِنَ « ٱلذَّخائِرِ وَٱلْعَبْقَرِيَّاتِ » .

(٢) هُوَ أَخُو ٱلرَّبِيعِ .

(٣) ٱلْعَبَاءُ ، جَمْعُ عَباءَةٍ ، وَقَدْ تُلَيَّنُ ٱلْهَمْزَةُ ، فَيُقالُ : عَبايَةٌ ؛ يُرِيدُ أَنَّهُ تَقَشَّفَ .

(٤) يُقالُ : عَلَيَّ بِفُلانٍ ؛ أَيْ : أَحْضِرْهُ ؛ وَٱلأَصْلِ : أَعْجِلْ بِهِ عَلَيَّ ، فَحَذَفَ فِعْلَ الأَمْرِ وَدَلَّ ٱلْباقِي عَلَيْهِ .

(٥) تَصْغِيرُ عَدُوٍّ ، وَقَدْ يُرادُ بِهِ ٱلتَّحْقِيرُ ، وَقَدْ يَخْرُجُ مَخْرَجَ ٱلتَّحَنُّنِ وَٱلشَّفَقَةِ ، كَقَوْلِكَ : يا بُنَيَّ ! .

(٦) ٱلْمَرَجُ : ٱلْخَلْطُ ، يَقُولُ سُبْحانَه : خَلَطَ ٱلْبَحْرَ ٱلْمِلْحَ وَٱلْبَحْرَ ٱلْعَذْبَ حَتَّىٰ ٱلْتَقَيا وَبَيْنَهُما حاجِزٌ=

وَٱلْمَرْجَانُ﴾(١) [٥٥ سورة الرحمن/ الآية : ٢٢] وَقَوْلَهُ : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [٣٥ سورة فاطر/الآية : ١٢] أَمَا وَٱللهِ إِنَّ ٱبْتِذَالَ نِعَمِ ٱللهِ بِٱلْفِعَالِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنِ ٱبْتِذَالِهَا بِٱلْمَقَالِ(٢) ، وَقَدْ سَمِعْتَهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [٩٣ سورة الضحى/ الآية : ١١] وَيَقُولُ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية : ٣٢] وَإِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَاطَبَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِمَا خَاطَبَ بِهِ ٱلْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [٢٣ سورة المؤمنون/ الآية : ٥١] وَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ١٧٢] ؛ فَقَالَ عَاصِمٌ : فَعَلامَ ٱقْتَصَرْتَ أَنْتَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ لُبْسِ ٱلْخَشِنِ وَأَكْلِ ٱلْخَشِنِ(٣) ؟ قَالَ : وَيْحَكَ ! إِنِّي لَسْتُ كَأَنْتَ ، إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ ٱفْتَرَضَ عَلَىٰ أَئِمَّةِ ٱلعَدْلِ أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ ٱلنَّاسِ كَيْلا يَتَبَيَّغَ بِٱلْفَقِيرِ فَقْرُهُ .

قَوْلُهُ : أَنْ يُقَدِّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِضَعَفَةِ ٱلنَّاسِ ، يُرِيدُ : أَنْ يَفْتَرِضُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّاسِ وَفُقَرَائِهِمْ فَيَتَشَبَّهُوا بِهِمْ ، أَيْ : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ ٱلإِمَامِ ٱلْعَادِلِ أَنْ يُشَبِّهَ نَفْسَهُ فِي لِبَاسِهِ وَطَعَامِهِ بِضَعَفَةِ ٱلنَّاسِ لِكَيْلا يَهْلِكَ ٱلْفُقَرَاءُ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا

---

= مِنْ قُدْرَةِ اللهِ لا يَبْغِي أَحَدُهُما عَلىٰ الآخَرِ بِالْمُمازَجَةِ .

(١) قَالَ ﴿ مِنْهُمَا ﴾ مَع أَنَّ ٱللُّؤْلُؤَ وَٱلْمَرْجَانَ لا يَخْرُجَانِ إِلَّا مِنَ ٱلْبَحْرِ ٱلمَلِحِ ، لأَنَّهُمَا لَمَّا ٱلْتَقَيَا وَصارا كَٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ جَازَ ذَلِكَ ، وَهَذا كَما يُقالُ : خَرَجْتُ مِنَ ٱلْبَلَدِ ، وَإِنَّما خَرَجْتُ مِنْ مَحَلَّةٍ مِنْ مَحالِّه ، بَلْ مِنْ دارٍ وَاحِدَةٍ مِنْ دُورِه .

(٢) أَظُنُّهُ يُرِيدُ بِهَذِهِ ٱلْعِبَارَةِ أَنَّ ٱلتَّمَتُّعَ بِنِعَمِ ٱللهِ وَطَيِّبَاتِهِ ٱلَّتِي أَعْطانا إِيَّاها ، بِٱلْفِعْلِ أَحَبُّ إِلَيْهِ سُبْحانَهُ مِنَ ٱلتَّمَتُّعِ بِهَا بِٱلْقَوْلِ ، فَكَأَنَّ مَعْنىٰ قَوْلِه تَعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [٩٣ سورة الضحىٰ/ الآية : ١١] أَيْ : أَظْهِرْهَا بِٱلتَّمَتُّعِ بِهَا ؛ وَهَذا هُوَ ما أَوْرَدْناهُ بِحَدِيثِ ٱلأَصْمَعِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ .

(٣) طَعَامٌ خَشِنٌ : غَليظٌ ، أَوْ لا إِدامَ مَعَهُ .

أَمَامَهُمْ بِتِلْكَ ٱلْهَيْئَةِ وَبِذَلِكَ ٱلمَطْعَمِ كَانَ أَدْعَىٰ لَهُمْ إِلَىٰ سُلْوَانِ لَذَّاتِ ٱلدُّنْيَا وَٱلصَّبْرِ عَنْ شَهَوَاتِ ٱلنُّفُوسِ ، فَقَوْلُهُ : « يَتَبَيَّغُ » هو مِنْ تَبَيَّغَ ٱلدَّمُ بِصَاحِبِهِ ؛ أَيْ : هَاجَ بِهِ ؛ وَفِي ٱلْحَدِيثِ : «عَلَيْكُمْ بِٱلْحَجَامَةِ لا يَتَبَيَّغُ بِأَحَدِكُمُ ٱلدَّمُ فَيَقْتُلُهُ» [الترمذي ، رقم : ٢٠٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٣٤٨٦] أي : لا يَتَهَيَّجُ .

❊ ❊ ❊

٥٦٧ ـ وَأَرَادَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ يَوْماً حَاجَةً ، كَانَ طَرِيقُهُ إِلَيْهَا عَلَىٰ بَابِ ٱلأَصْمَعِيِّ ، فَدَفَعَ إِلَىٰ خَادِمٍ كِيساً فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ ، وَقَالَ : إِنِّي سَأَنْزِلُ فِي رَجْعَتِي إِلَىٰ ٱلأَصْمَعِيِّ ، وَسَيُحَدِّثُنِي وَيُضْحِكُنِي ، فَإِذَا ضَحِكْتُ فَضَعِ ٱلْكِيسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَأَىٰ حُبًّا[1] مَكْسُورَ ٱلرَّأْسِ ، وَجَرَّةً مَكْسُورَةَ ٱلْعُنُقِ ، وَقَصْعَةً مُشَعَّبَةً ، وَجَفْنَةً أَعْشَاراً ؛ وَرَآهُ عَلَىٰ مُصَلًّى بَالٍ وَعَلَيْهِ بَرَّكَانٌ[2] أَجْرَدُ ، فَغَمَزَ غُلامَهُ أَلَّا يَضَعَ ٱلكِيسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَمْ يَدَعِ ٱلأَصْمَعِيَّ شَيْئاً مِمَّا يُضْحِكُ ٱلثَّكْلانَ إِلَّا أَوْرَدَهُ عَلَيْهِ ، فَمَا تَبَسَّمَ وَخَرَجَ ، فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ يُسَايِرُهُ : «مَنِ ٱسْتَرْعَىٰ ٱلذِّئْبَ ظَلَمَ» [قَوْلٌ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّاب] وَمَنْ زَرَعَ سَبَخَةً حَصَدَ ٱلفَقْرَ ، فَإِنِّي وَٱللهِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا يَكْتُمُ ٱلْمَعْرُوفَ بِٱلْفِعْلِ لَمَا حَفَلْتُ نَشْرَهُ بِٱللِّسَانِ ، وَأَيْنَ يَقَعُ مَدْحُ ٱللِّسَانِ مِنْ مَدْحِ آثَارِ ٱلْغِنَىٰ ، لأَنَّ ٱللِّسَانَ قَدْ يَكْذِبُ وَٱلحَالُ لا تَكْذِبُ ، وَللهِ دَرُّ نُصَيْبٍ حَيْثُ يَقُولُ [من الطويل] :

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِٱلَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ[3]

---

(١) ٱلْحُبُّ : ٱلخَابِيَةُ ، فارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ .
(٢) كِساءٌ أَسْوَدُ .
(٣) فعاجُوا : عَطَفُوا إِبِلَهُمْ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَعَلِمْتَ أَنَّ نَاوُوسَ أَبْرَوِيزَ أَمْدَحُ لأَبْرَوِيزَ مِنْ شِعْرِ زُهَيْرٍ لِآلِ سِنَانٍ ؟

٥٦٨ ـ وَكَانَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ عَلَىٰ زُهْدِهِ يَلْبَسُ ثَوْباً بِأَرْبَعِ مِئَةِ دِرْهَمٍ ، وَفَرْقَدٌ ٱلسَّبَخِيُّ ٱلصُّوفِيُّ يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ ، فَلَقِيَهُ ٱلْحَسَنُ ، فَقَالَ لَهُ فَرْقَدٌ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ! مَا أَلْيَنَ ثَوْبَكَ ! فَقَالَ ٱلْحَسَنُ : يَا فُرَيْقِدُ ! لَيْسَ لِينُ ثِيَابِي يُبَاعِدُنِي مِنَ ٱللهِ ، وَلا خُشُونَتُهَا تُقَرِّبُكَ مِنْهُ ، «إِنَّ ٱللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ ٱلْجَمَالَ» [مسلم ، رقم : ٩١] .

٥٦٩ ـ وَجَاءَ سَيَّارُ أَبُو ٱلْحَكَمِ إِلَىٰ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ فِي ثِيَابٍ ٱشْتَهَرَهَا مَالِكٌ ـ شَنَّعَ بِهَا ـ فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : مَا هَذِهِ ٱلشُّهْرَةُ ؟ فَقَالَ لَهُ سَيَّارُ : أَتَضَعُنِي عِنْدَكَ أَمْ تَرْفَعُنِي ؟ قَالَ : بَلْ تَضَعُكَ ؛ قَالَ : أَرَاكَ تَنْهَانِي عَنِ ٱلتَّوَاضُعِ ! فَنَزَلَ مَالِكٌ وَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ .

* * *

٥٧٠ ـ وَقَالُوا : لِكُلِّ شَيْءٍ رَاحَةٌ ، فَرَاحَةُ ٱلْبَيْتِ كَنْسُهُ ، وَرَاحَةُ ٱلثَّوْبِ طَيُّهُ .

٥٧١ ـ وَقَالُوا : يَقُولُ ٱلثَّوْبُ : ٱطْوِنِي أُجَمِّلْكَ ؛ وَيَقُولُ أَيْضاً : أَكْرِمْنِي دَاخِلًا أُكْرِمْكَ خَارِجاً .

٥٧٢ ـ وَقَالَ رَجُلٌ يَهْجُو رَجُلًا بِرَثَاثَةِ ٱلْحَالِ [من المنسرح] :

يَأْتِيكَ فِي جُبَّةٍ مُخَرَّقَةٍ أَطْوَالُ أَعْمَارٍ مِثْلُهَا يَوْمُ
وَطَيْلَسَانٍ كَٱلآلِ يَلْبَسُهُ عَلَىٰ قَمِيصٍ كَأَنَّهُ غُلْمُ

* * *

**مَنْ سَاءَ لُبْسُهُ وَحَسُنَتْ نَفْسُهُ :**

٥٧٣ ـ وَبَعْدُ ، فَقَوَامُ ٱلتَّجَمُّلِ بِـٱلثِّيَابِ أَنْ لا يَكُونَ هُنَاكَ إِسْرَافٌ وَلا كِبْرِياءُ ، وَأَنْ تَكُونَ ٱلثِّيَابُ نَظِيفَةً ، وَمِنْ هُنَا نَرَىٰ كَثِيراً مِنَ ٱلْعُقَلاءِ مَنْ لا يَأْبَهُ لِلثِّيَابِ ، فَنَرَاهُمْ يَلْبَسُونَ ٱلثِّيَابَ ٱلْخَشِنَةَ وَٱلْمُرَقَّعَاتِ ، وَلَكِنْ مَعَ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظَافَةِ .

٥٧٤ ـ قَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ : رَأَيْتُ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ يَطُوفُ بِٱلْبَيْتِ وَإِزَارُهُ مَرْقُوعٌ بِأَدَمٍ ـ جِلْدٍ ـ وَكَانَ لَهُ ـ لِعُمَرَ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَمِيصٌ قِيمَتُهُ أَرْبَعَةُ دَرَاهِمَ ؛ وَقَالَ : إِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ أُسْأَلَ عَنْ لِينِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ! فَبَكَىٰ سَالِمٌ غُلامُهُ ، وَقَالَ لَهُ : رَأَيْتُكَ قَبْلَ ٱلْخِلافَةِ لَبِسْتَ ثَوْبَا بِأَرْبَعِينَ دِيناراً ، فَٱسْتَحْسَنْتَهُ ! ، فَقَالَ : يَا سَالِمُ ! إِنِّي كُنْتُ لَمْ أَنَلْ شَيْئاً إِلَّا طَلَبْتُ مَا فَوْقَهُ ، فَلَمَّا نِلْتُ ٱلْخِلافَةَ عَلِمْتُ أَنْ لَيْسَ فَوْقَهَا إِلَّا ٱلْجَنَّةُ ، فَدَعْنِي أَطْلُبُهَا .

* * *

٥٧٥ ـ وَدَخَلَ ٱلْعَالِمُ ٱلنَّسَّابَةُ ٱلنَّخَّارُ ٱلْعُذْرِيُّ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ فِي عَبَاءَةٍ لَهُ ، فَٱحْتَقَرَهُ ، فَرَأَىٰ ذَلِكَ ٱلنَّخَّارُ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! لَيْسَتِ ٱلْعَبَاءَةُ تُكَلِّمُكَ ، إِنَّمَا يُكَلِّمُكَ مَنْ فِيهَا ؛ ثُمَّ تَكَلَّمَ ، فَمَلأَ سَمْعَهُ ، ثُمَّ نَهَضَ وَلَمْ يَسْأَلْهُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَحْقَرَ أَوَّلًا وَلا أَجَلَّ آخِراً مِنْهُ .

٥٧٦ ـ وَدَخَلَ مُحَمدُ بْنُ كَعْبٍ ٱلْقُرَظِيُّ ـ مِنَ ٱلتَّابِعِينَ ، وَمِنْ أَفَاضِلِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ عِلْماً وَفِقْهاً ـ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ فِي ثِيَابٍ رَثَّةٍ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : مَا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ لُبْسِ مِثْلِ هَذِهِ ٱلثِّيَابِ ؟ فَقَالَ : أَكْرَهُ أَنْ أَقُولَ ٱلزُّهْدَ

فَأُطْرِيَ نَفْسِي[١] ، أَوْ أَقُولُ ٱلْفَقْرَ فَأَشْكُوَ رَبِّي .

٥٧٧ ـ وَدَخَلَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ عَلَىٰ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ فِي ثِيَابٍ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ تُخَالِفُهَا ، فَقَالَ لَهُ هِشَامُ : كَأَنَّ ٱلْعِمَامَةَ لَيْسَتْ مِنَ ٱلثِّيَابِ ؟ قَالَ : إِنَّهَا مُسْتَعَارَةٌ ! فَقَالَ لَهُ : كَمْ سِنُّكَ ؟ قَالَ : سِتُّونَ سَنَةٍ ؛ مَا رَأَيْتُ ٱبْنَ سِتِّينَ أَبْقَىٰ كَدْنَةً مِنْكَ ! ـ ٱلْكَدْنَةُ : كَثْرَةُ ٱلشَّحْمِ وَٱللَّحْمِ أَوِ ٱلسِّمَنُ وَٱلامْتِلاءُ ـ مَا طَعَامُكَ ؟ قَالَ : الْخُبْزُ وَٱلزَّيْتُ ؛ قَالَ : أَمَا تَأْجُمُهُمَا ؟ ـ أَيْ : مَا تَكْرَهُهُمَا ـ قَالَ : إِذَا أَجِمْتُهُمَا تَرَكْتُهُمَا حَتَّىٰ أَشْتَهِيَهُمَا ؛ ثُمَّ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ صُدِعَ ، فَقَالَ سَالِمُ : أَتَرَوْنَ ٱلأَحْوَلَ قَدْ لَقَعَنِي[٢] بِعَيْنِهِ ؟ فَمَاتَ مِنْ تِلْكَ ٱلْعِلَّةِ .

* * *

٥٧٨ ـ وَنُظِرَ إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ ٱلْعَاصِ عَلَىٰ بَغْلَةٍ قَدْ شَمِطَ وَجْهُهَا هَرَمًا[٣] ، فَقِيلَ لَهُ : أَتَرْكَبُ هَٰذِهِ وَأَنْتَ عَلَىٰ أَكْرَمِ نَاخِرَةٍ بِمِصْرَ[٤] ؟ فَقَالَ : لا مَلَلَ عِنْدِي لِدَابَّتِي مَا حَمَلَتْ رِجْلَيَّ ، وَلا لِامْرَأَتِي مَا أَحْسَنَتْ عِشْرَتِي ، وَلا لِثَوْبِي مَا سَتَرَ عَوْرَتِي ، وَلا لِصَدِيقِي مَا حَفِظَ سِرِّي ، إِنَّ ٱلْمَلَلَ مِنْ كَوَاذِبِ ٱلأَخْلاقِ .

* * *

(١) فأطْري من الإطراء ، وهو مجاوزة الحد في المدح .

(٢) لَقَعَهُ : أَصابَهُ بَعَيْنِه كَمَا يُصِيبُ ٱلعائِنُ ٱلمُعِينَ ، وَمِثْلُهُ : زَلَقَهُ ، قَالَ تَعالىٰ : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [٦٨ سورة القلم/الآية : ٥١] [ والأَحْوَلُ هُنا : هِشامُ بْنُ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ] .

(٣) شَمِطَ وَجْهُها : ٱبْيَضَّ وَجْهُها ، وَذَلِكَ كِنَايَةٌ عَنْ ضَعْفِها .

(٤) ناخِرَةٌ ، مِنَ ٱلنَّخْرِ ، وَهُوَ : صَوْتٌ يُمَدُّ في خَياشِيمِ ٱلأَنْفِ ، يُرِيدُ : وَأَنْتَ والٍ عَلىٰ مِصْرَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْناهُ : وَأَنْتَ لَكَ أَكْرَمُ ناخِرَةٍ ، وَهِي : ٱلخَيْلِ .

٥٧٩ ـ وَقَالَ أَبُو هِفَّانَ ، وَهُوَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَرْبٍ ٱلْمِهْزَمِيُّ ٱلْعَبْدِيُّ ، رَاوِيَةٌ عَالِمٌ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْغَرِيبِ ، شِعْرُهُ جَيِّدٌ إِلَّا أَنَّهُ مُقِلٌّ ، وَهُوَ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْهَاشِمِيَّةِ [من البسيط] :

تَعَجَّبَتْ دُرُّ مِنْ شَيْبِي فَقُلْتُ لَهَا ... لا تَعْجَبِي قَدْ يَلُوحُ ٱلْفَجْرُ في ٱلسَّدَفِ
وَزَادَهَا عَجَباً أَنْ رُحْتُ فِي سَمَلٍ ... وَمَا دَرَتْ دُرُّ أَنَّ ٱلدُّرَّ في ٱلصَّدَفِ

٥٨٠ ـ وَقَالَ أَيْضاً [من الطويل] :

لَعَمْرِي لَئِنْ بِيعَتْ فِي دَارِ غُرْبَةٍ ... ثِيَابِي أَنْ ضَاقَتْ عَلَيَّ ٱلْمَآكِلُ
فَمَا أَنَا إِلَّا ٱلسَّيْفُ يَأْكُلُ جَفْنَهُ ... لَهُ حِلْيَةٌ مِنْ نَفْسِهِ وَهُوَ عَاطِلُ

٥٨١ ـ وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبٍ [من مجزوء الكامل] :

لَيْسَ ٱلْجَمَالُ بِمِئْزَرٍ ... فَٱعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا
إِنَّ ٱلْجَمَالَ مَعَادِنٌ ... وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدَا

فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّنْ لا يُبَالُونَ ٱلْمَلابِسَ وَجَمالَهَا ، وَإِنَّمَا يَرَوْنَ ٱلتَّجَمُّلَ مِنْ شِنْشِنَةِ ٱلنِّسَاءِ وَ ٱلصِّغَارِ ، وَإِنَّمَا يَعْتَدُّونَ بِجَمَالِ ٱلنُّفُوسِ وَبُعْدِ هِمَمِهَا .

٥٨٢ ـ قَالَ يَحْيَىٰ بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ لِلْعَتَّابِيِّ فِي لِبَاسِهِ ـ وَكَانَ لا يُبَالِي مَا لَبِسَ ـ : يَا أَبَا عَلِيٍّ ! أَخْزَىٰ ٱللهُ ٱمْرَءاً رَضِيَ أَنْ يَرْفَعَهُ هَيْئَتَاهُ : جَمَالُهُ وَمَالُهُ ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ حَظُّ ٱلأَدْنِيَاءِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ، لا وَٱللهِ حَتَّىٰ يَرْفَعَهُ أَكْبَرَاهُ : هِمَّتُهُ وَنَفْسُهُ ، وَأَصْغَرَاهُ : قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ .

قَوْلُهُ : وَأَصْغَرَاهُ : قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ ، مَعْنَاهُ : إِنَّ ٱلْمَرْءَ إِنَّمَا يَعْلُو ٱلأُمُورَ وَيَضْبِطُهَا بِجَنَانِهِ وَلِسَانِهِ .

٥٨٣ ـ وَقَالَ زُهَيْرُ ٱبْنُ أَبِي سُلْمَىٰ [من الطويل] :

لِسَانُ ٱلْفَتَىٰ نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤَادُهُ ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ
وَكائِنْ تَرَىٰ مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ

٥٨٤ ـ وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلنَّفْسِ وَعُلُوَّ قَدْرِهَا لا يُبَايِنُ ٱلتَّجَمُّلَ وَٱلْعِنَايَةَ بِٱلمَلابِسِ ، وَإِنَّمَا ٱلْمَعِيبُ أَنْ يَكُونَ وَكْدَكَ التجملُ وَٱلاهْتِمامُ بِٱلْمَظْهَرِ وَلا يَعْنِيكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ جَمِيلَ المَخْبَرِ .

٥٨٥ ـ وَقَالُوا : ٱلْبِسِ ٱلْبَيَاضَ وَٱلسَّوادَ ، فَإِنَّ ٱلدَّهْرِ هَكَذَا : بَيَاضُ نَهَارٍ وَسَوَادُ لَيْلٍ .

٥٨٦ ـ وَمِمَّا قِيلَ في ٱلسَّوادِ قَوْلُ قَيْسِ بْنِ ٱلأَسْلَتِ [من الوافر] :

رَأَيْتُكِ فِي ٱلسَّوَادِ فَقُلْتُ بَدْرٌ ... بَدَا مِنْ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيمِ
وَأَلْقَيْتِ ٱلسَّوَادَ فَقُلْتُ شَمْسٌ ... مَحَتْ بِشُعَاعِهَا ضَوْءَ ٱلنُّجُومِ

* * *

٥٨٧ ـ وَقَدِمَ أَحَدُ ٱلتُّجَّارِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ يَحْمِلُ مِنْ خُمُرِ ٱلعِراقِ[١] ، فَبَاعَ جَمِيعَ مَا قَدِمَ بِهِ إِلا ٱلسُّودَ فَلَمْ تَنْفُقْ[٢] ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَىٰ الدَّارِمِيِّ[٣] ٱلشَّاعِرِ ٱلظَّرِيفِ ـ وَكَانَ في أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ـ ، وَكَانَ قَدْ تَنَسَّكَ وَتَعَبَّدَ ، فَعَمِلَ بَيْتَيْنِ وَأَمَرَ مَنْ يُغَنِّي بِهِمَا في ٱلْمَدِينَةِ ، وَهَذَانِ ٱلْبَيْتَانِ هُمَا [من الكامل] :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ في ٱلْخِمَارِ ٱلأَسْوَدِ ... مَاذَا صَنَعْتِ بِزاهِدٍ مُتَعَبِّدِ
قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلاةِ ثِيَابَهُ ... حَتَّىٰ وَقَفْتِ لَهُ بِبَابِ ٱلْمَسْجِدِ

(١) ٱلْخُمُرُ ، جَمْعُ خِمارٍ ، وَهُوَ : ما تُغَطِّي بِهِ ٱلمَرْأَةُ رَأْسَها .
(٢) نَفَقَتِ ٱلسِّلْعَةُ نِفاقاً : راجَتْ وَرُغِبَ فِيها .
(٣) ٱنْظُرْ أَخْبارَ ٱلدَّارِمِيّ في ٱلْجُزْءِ ٱلثَّالِثِ مِنَ « الأَغاني » .

فَشَاعَ ٱلْخَبَرُ في ٱلْمَدِينَةِ أَنَّ ٱلدَّارِمِيَّ قَدْ رَجَعَ عَنْ زُهْدِهِ وَتَعَشَّقَ صَاحِبَةَ ٱلْخِمَارِ ٱلأَسْوَدِ ، فَلَمْ يَبْقَ في ٱلْمَدِينَةِ مَلِيحَةٌ إِلَّا ٱشْتَرَتْ لَهَا خِماراً أَسْوَدَ ، فَلَمَّا أَنْفَدَ ٱلتَّاجِرُ مَا مَعَهُ رَجَعَ ٱلدَّارِمِيُّ إِلَىٰ تَعَبُّدِهِ وَعَمَدَ إِلَىٰ ثِيابِ نُسْكِهِ فَلَبِسَهَا وَلَزِمَ ٱلْمَسْجِدَ .

* * *

٥٨٨ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ في لابِسَةِ ٱلأَحْمَرِ [من الوافر] :

وَشَمْسٍ مِنْ قَضِيبٍ في كَثِيبٍ تَبَدَّتْ في لِبَاسٍ جُلَّنَارِي[1]

سَقَتْنِي رِيقَهَا صِرْفاً وَحَيَّتْ بِوَجْنَتِهَا فَهَاجَتْ جُلُّ نَارِي

٥٨٩ ـ وَقَالَ آخَرُ في لابِسَةِ ثَوْبٍ خَمْرِيٍّ [من السريع] :

في ثَوْبِهَا ٱلْخَمْرِيِّ قَدْ أَقْبَلَتْ بِوَجْنَةٍ حَمْرَاءَ كَٱلْجَمْرِ

فَمِلْتُ سُكْراً حِينَ أَبْصَرْتُهَا لا تُنْكِرُوا سُكْرِي مِنَ ٱلْخَمْرِ

٥٩٠ ـ وَسُئِلَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ عَنِ ٱلثِّيَابِ ؟ فَقَالَ : ٱلصُّفْرُ أَشْكَلُ ، وَٱلْحُمْرُ أَجْمَلُ ، وَٱلْخُضْرُ أَقْبَلُ ، وَٱلسُّودُ أَهْوَلُ ، وَٱلْبِيضُ أَفْضَلُ .

٥٩١ ـ وَقَالَ أَفْلاطُونُ : ٱلصِّبْغُ ٱلشَّقَائِقِيُّ وَٱلرَّوَائِحُ ٱلزَّعْفَرَانِيَّةُ تُسَكِّنُ ٱلْغَضَبَ ، وَٱلصِّبْغُ ٱلْيَاقُوتِيُّ وَٱلرَّوَائِحُ ٱلْوَرْدِيَّةُ تُحَرِّكُ ٱلسُّرُورَ .

* * *

**ذَمُّ مَنْ حَسُنَ لِبَاسُه وَلَؤُمَ فِعْلُهُ :**

٥٩٢ ـ نَظَرَ أَرِسْطُو إِلَىٰ رَجُلٍ حَسَنِ ٱللِّبَاسِ سَيِّءِ ٱلْكَلامِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا

---

(١) ٱلْجُلَّنَارِ : زَهْرُ الرُّمَّانِ .

رَجُلَ ! تكَلَّمْ عَلَىٰ قَدْرِ لِبَاسِكَ أَوْ ٱلْبَسْ عَلَىٰ قَدْرِ كَلامِكَ .

٥٩٣ ـ وَقَالُوا : فُلانٌ ثِيَابُهُ تَرْفَعُهُ ، وَنَفْسُهُ تَضَعُهُ .

٥٩٤ ـ وَقَالُوا : ثَوْبٌ نَظِيفٌ وَرُوحٌ سَخِيفٌ .

٥٩٥ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من البسيط] :

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حُسْنُ بِزَّتِهِ ... وَهَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جَوْدَةُ ٱلْكَفَنِ

ٱلمَضِيمُ : ٱلْمَظْلُومُ : وَٱلْبِزَّةُ : ٱللِّبَاسُ .

٥٩٦ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الوافر] :

أَرَىٰ حُلَلًا تُصَانُ عَلَىٰ رِجَالٍ ... وَأَعْرَاضاً تُذَالُ وَلا تُصَانُ

٥٩٧ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الكامل] :

فَتَرَىٰ خَسِيسَ ٱلْقَوْمِ يَتْرُكُ عِرْضَهُ ... دَنِساً وَيَمْسَحُ نَعْلَهُ وَشِرَاكَهَا

٥٩٨ ـ وَقَالَ غَيْرُهُ :

ٱسْتَجِيدُوا ٱلثِّيَابَ ، إِنَّ حِمَارَ ٱلسَّوْءِ تُخْفَىٰ عُيُوبُهُ بِٱلْجِلَالِ .

ٱلْجِلالُ ، جَمْعُ جُلٍّ ، وَهُوَ : ٱلَّذِي تَلْبَسُهُ ٱلدَّابَّةُ لِتُصانُ بِهِ .

* * *

## حَضُّهُمْ عَلَىٰ ٱلتَّطَيُّبِ :

٥٩٩ ـ ذُكِرَ لِبَعْضِ عُقَلاءِ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ هَؤُلاءِ ٱلَّذِينَ يَتَقَشَّفُونَ ، فَقَالَ : مَا عَلِمْتُ أَنَّ ٱلْقَذَرَ مِنَ ٱلدِّين .

٦٠٠ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ : «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ ٱلنِّسَاءُ وَٱلطِّيبُ» . [« النسائي » ، رقم : ٣٩٣٩ و٣٩٤٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٨٨٤ و١٢٦٤٤ و١٣٦٢٣] .

٦٠١ ـ وَفِيهِ : «خَيْرُ طِيبِ ٱلرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ[١] ، وَخَيْرُ طِيبِ ٱلنِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ» . [الترمذي ، رقم ٢٧٨٧ ؛ النسائي ، رقم : ٥١١٧ و٥١١٨ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٧٤] .

٦٠٢ ـ وَأَنْشَدَ ٱبْنُ ٱلأَعْرَابِيِّ [لِيَزِيدَ ٱبْنِ ٱلطَّثْرِيَّةِ ، من الكامل] :

خَـوْدٌ يَكُـونُ بِهَـا ٱلْقَلِيـلُ تَمَسُّـهُ مِـنْ طِيبِهَـا عَبِقـاً يَطِيـبُ وَيَكْثُـرُ
شَكَـرَ ٱلْكَـرَامَـةَ جِلْـدُهَـا فَصَفَـا لَهَـا إِنَّ ٱلْقَبِيحَـةَ جِلْـدُهَـا لا يَشْكُـرُ

٦٠٣ ـ وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ قَوْماً [من البسيط] :

ٱلْمُطْعِمُـونَ إِذَا مَـا أَزْمَـةٌ أَزَمَـتْ وَٱلطَّيِّبُـونَ ثِيَـابـاً كُلَّمَـا عَـرِقُـوا

٦٠٤ ـ وَقَالَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من المتقارب] :

وَأَنْـتِ إِذَا مَـا وَطِئْـتِ ٱلتُّـرَا بَ صَـارَ تُـرَابُـكِ لِلنَّـاسِ طِيبَـا

٦٠٥ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلرُّبَيْسِ [عَبَّادُ بْنُ طَهْمَةَ أو طَهْفَةَ التَّغْلَبِيُّ] ، شَاعِرٌ أُمَوِيٌّ ، يَمْدَحُ أَسَيْلَمَ بْنَ ٱلأَحْنَفِ الأَسَدِيَّ [من الطويل] :

أَلَا أَيُّهَا ٱلرَّكْبُ ٱلْمُخِبُّونَ هَلْ لَكُمْ بِسَيِّدِ أَهْلِ ٱلشَّامِ تُحْبَوْا وَتَرْجِعُوا
مِنَ ٱلنَّفَرِ ٱلْبِيضِ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱعْتَزَوْا وَهَابَ ٱلرِّجَالُ حَلْقَةَ ٱلْبَابِ قَعْقَعُوا
جَلَا ٱلْمِسْكُ وَٱلْحَمَّامُ وَٱلبِيضُ كَٱلدُّمَىٰ وَفَـرْقُ ٱلْمَـدَارِي رَأْسَـهُ فَهْـوَ أَنْـزَعُ

ٱلْمُخِبُّونَ : ٱلَّذِينَ تَخُبُّ بِهِمْ دَوَابُّهُمْ ، مِنَ ٱلْخَبَبِ ، وَهُوَ : ٱلسُّرْعَةُ ؛ وَتُحْبَوْا ، فِعْلٌ مَجْهُولٌ ، كَحَبَا ٱلرَّجُلُ يَحْبُوهُ حَبْواً : أَعْطَاهُ ، وَٱلاسْمُ : ٱلْحِبَاءُ ؛ وَٱلْبِيضُ ، لا يُرِيدُ بِيضَ ٱلأَلْوَانِ ، وَإِنَّمَ يُرِيدُ نَقَاءَ ٱلأَعْرَاضِ مِنَ ٱلدَّنَسِ وَٱلْعُيُوبِ ، وَإِذَا ٱعْتَزَوْا : إِذَا ٱنْتَسَبُوا ؛ وَقَعْقَعُوا ، أَيْ : قَعْقَعُوا حَلَقَةَ ٱلْبَابِ ،

---

(١) مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ ، كَٱلمِسْكِ وَٱلْعَنْبَرِ وَٱلْعُودِ ، وَأَمَا ٱلعَكْسُ ، فَكَٱلزَّعْفَرَانِ .

مِنَ ٱلْقَعْقَعَةِ ، مَصْدَرُ قَعْقَعَ ٱلشَّيْءَ إِذَا حَرَّكَهُ فَسُمِعَ لَهُ صَوْتٌ ؛ يَصِفُ ٱلْمَمْدُوحَ بِأَنَّهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكِرَامِ ٱلَّذِينَ يَقْدُمُونَ عَلَىٰ ٱلْمُلُوكِ بِشَرَفِ أَحْسَابِهِمْ وَكَرَمِ أَنْسَابِهِمْ وَلا يَهَابُونَ قَعْقَعَةَ أَبْوَابِهِمْ كَٱللِّئَامِ ٱلَّذِينَ خَمُلَ ذِكْرُهُمْ وَقَصُرَتْ هِمَمُهُمْ ؛ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ [« الكامل » صفحة : ٢٣٦] : يُخْبِرُ بِجَلاَلَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ بِأَقْدَارِهِمْ وَثِقَتِهِمْ بِأَنَّ مِثْلَهُمْ لا يُرَدُّ ، وَقَدْ قَالَ جَرِيرٌ لِلتَّيْمِ خِلافَ هَذَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ [من الكامل] :

قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ ٱلْمُلُوكَ وُفُودُهُمْ نُتِفَتْ شَوَارِبُهُمْ عَلَىٰ ٱلأَبْوَابِ

وَجَلَا : كَشَفَ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : جَلا ٱلأَمْرَ : كَشَفَهُ ؛ وَٱلدُّمَىٰ ، جَمْعُ دُمْيَه ، وَهِيَ : ٱلصُّورَةُ ٱلْمُصَوَّرَةُ ٱلَّتِي يُبَالَغُ في تَحْسِينِهَا ، تُشَبَّهُ ٱلنِّسَاءُ ٱلْبِيضُ بِهَا ؛ وَٱلْمَدَارِي ، جَمْعُ مِدْرَاةٌ ، يُرِيدُ ٱلْمِشْطَ أَوْ شَيْئاً شَبِيهاً بِٱلْمِشْطِ ؛ وأَنْزَعُ ، مِنَ ٱلنَّزَعِ بِٱلتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ : ٱنْحِسَارُ ٱلشَّعَرِ مِنْ أَعْلَىٰ ٱلْجَبِينَيْنِ .

٦٠٦ ـ وَقَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : ٱلرَّائِحَةُ ٱلطَّيِّبَةُ تَزِيدُ في ٱلْعَقْلِ .

٦٠٧ ـ وَقَالَ آخَرُ : مَنْ طَابَ رِيحُهُ زَادَ عَقْلُهُ ، وَمَنْ نَظُفَ ثَوْبُهُ قَلَّ هَمُّهُ .

٦٠٨ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ في وَصْفِ ٱلْبُخُورِ [من الوافر] :

بُخُورٌ مِثْلُ أَنْفَاسِ ٱلْحَبِيبِ وَطِيبٌ قَدْ أَخَلَّ بِكُلِّ طِيبِ
يَظَلُّ ٱلذَّيْلُ يَسْتُرُهُ وَلَكِنْ تَنِمُّ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ ٱلْجُنُوبِ
إِذْ مَا شَمَّ أَنْفٌ حَنَّ قَلْبٌ كَأَنَّ ٱلأَنْفَ جَاسُوسُ ٱلْقُلُوبِ

٦٠٩ ـ وَقَدْ تَمَدَّحُوا بِطِيبِ عَرْفِ ٱلنِّسَاءِ وَأَشَادُوا بِهِ .

٦١٠ ـ قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

٦١١ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الطويل] :

أَتَـاهَـا بِعِطْـرٍ أَهْلُهَـا فَتضَـاحَكَـتْ وَقَالَتْ : وَهَلْ يَحْتَاجُ عِطْرٌ إِلَىٰ عِطْرِ

٦١٢ ـ وَقَالَ ٱلأَعْشَىٰ [من البسيط] :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ ٱلْحَزْنِ مُعْشِبَةٌ خَضْـراءُ جَـادَ عَلَيْهـا مُسْبِـلٌ هَطِـلُ
يُضَاحِكُ ٱلشمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِقٌ مُـؤَزَّرٌ بِعَمِيـمِ ٱلنَبْـتِ مُكْتَهِـلُ[1]
يَـوْمـاً بِـأَطْيَـبَ مِنْهَـا نَشْـرُ رَائِحَـةٍ وَلا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا ٱلأُصُلُ[2]

٦١٣ ـ وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من الطويل] :

ذَكَـرْتُـكِ بِـٱلـرَّيْحَـانِ لَمَّـا شَمِمْتُـهُ وَبِٱلرَّاحِ لَمَّا قَابَلَتْ أَوْجُهَ ٱلشُّرْبِ
تَـذَكَّـرْتُ بِـٱلـرَّيحَـانِ مِنْـكِ رَوَائِحـاً وَبِٱلرَّاحِ طَعْماً مِنْ مُقَبَّلِكِ ٱلْعَذْبِ

٦١٤ ـ وَقَالَ سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلٍ ٱلرِّيَاحِيُّ [من الطويل] :

فَمَـا زَال بُـرْدِي طَيِّبـاً مِـنْ ثِيـابِهَـا إِلَىٰ ٱلْحَوْلِ ، حَتَّىٰ أَنْهَجَ ٱلْبُرْدُ بالِيَا[3]

٦١٥ ـ وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من الخفيف] :

وَجَدَ ٱلنَّاسُ سَاطِعَ ٱلْمِسْكِ مِنْ دِجْـ ـلَـةَ قَـدْ أَوْسَـعَ ٱلْمَشَـارِعَ طِيبَـا
فَهُـمُ يُنْكِـرُونَ ذَاكَ وَمَـا يَـدْ رُونَ أَنْ قَـدْ حَلَلْـتِ مِنْهَـا قَـرِيبَـا

٦١٦ ـ وَقَالَ آخَرُ [من السريع] :

جَـارِيَـةٌ أَطْيَـبُ مِـنْ طِيبِهَـا وَٱلطِّيـبُ فِيـهِ ٱلْمِسْـكُ وَٱلْعَنْبَـرُ

---

(١) كَوْكَبُ ، هُوَ : مُعْظَمُ ٱلنَّباتِ ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ : ٱلْكَوْكَبُ مِنْ كَوَاكِبِ ٱلسَّماءِ مَعْرُوفٌ ، وَيُشَبَّهُ بِهِ ٱلنَّوْرُ ؛ وَشَرِقَ ـ بِكَسْرِ ٱلرَّاءِ ـ : رَيَّانُ مُمْتَلِىءٌ ماءً ؛ وَمُضاحَكَتُه لِلشَّمْسِ كِنايَةٌ عَنْ حُسْنِهِ وَنَضْرَتِهِ ؛ وَمُؤَزَّرٌ بِعَمِيمِ ٱلنَّبْتِ ، يَعْني أَنَّهُ كَالإِزارِ لَهُ ؛ وَمُكْتَهِلُ ، مِنِ ٱكْتَهَلَ ٱلنَّبْتُ : تَمَّ طُولُهُ وَظَهَرَ نَوْرُهُ .

(٢) الأُصُلُ : جَمْعُ أَصيلٍ ، وَهُوَ : ٱلْعَشِيُّ .

(٣) أَنْهَجَ ٱلثَّوْبُ : بَلِيَ ، أَوْ أَخَذَ في ٱلْبِلَىٰ .

وَوَجْهُهَـا أَحْسَـنُ مِـنْ حَلْيِهَـا ... وَٱلْحَلْـيُ فِيـهِ ٱلـدُّرُّ وَٱلْجَـوْهَـرُ

٦١٧ ـ وَقَالَ آخَرُ [وَهُوَ مَجْنُونُ لَيْلَىٰ قَيْسُ بْنُ ٱلْمُلَوَّحِ ، من الطويل] :

أَرَىٰ كُلَّ أَرْضٍ دُسْتِ فِيهَا وَإِنْ مَضَتْ ... لَهَـا حِجَـجٌ يَـزْدَادُ طِيبـاً تُـرَابُهَـا[١]

٦١٨ ـ وَأَوَّلُ مَنْ وَصَفَ طِيبَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي وَطِئَهَا ٱلْمَحْبُوبُ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلثَّقَفِيُّ ٱلنُّمَيْرِيُّ في أَبْيَاتِهِ في زَيْنَبَ بِنْتِ يُوسُفَ أُخْتِ ٱلْحَجَّاجِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ ، وَنُورِدُ سَائِرَ الأَبْيَاتِ [من الطويل] :

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نَعْمَانَ أَنْ مَشَتْ ... بِـهِ زَيْنَـبٌ فـي نِسْـوَةٍ عَطِـرَاتِ[٢]

لَـهُ أَرَجٌ مِـن مُجْمَـرِ ٱلْهِنْـدِ سَـاطِـعٌ ... تَطَلَّـعُ رَيَّـاهُ مِـنَ ٱلْكَفِـرَاتِ[٣]

تَهادَيْنَ مَا بَيْنَ ٱلْمُحَصِّبِ مِنْ مِنىً ... وَأَقْبَلْـنَ لا شُعْثـاً وَلا غَبِـرَاتِ[٤]

أَعَانَ ٱلَّذِي فَوْقَ ٱلسَّمَوَاتِ عَرْشُهُ ... مَـوَاشِـيَ بِـٱلْبَطْحَـاءِ مُـؤْتَجِـرَاتِ[٥]

مَـرَرْنَ بِفَـخٍّ ثُـمَّ رُحْـنَ عَشِيَّـةً ... يُلَبِّيـنَ لِلـرَّحْمَـنِ مُعْتَمِـرَاتِ[٦]

يُخَبِّئْـنَ أَطْـرَافَ ٱلْبَنَـانِ مِـنَ ٱلتُّقَـىٰ ... وَيَقْتُلْـنَ بِـالأَلْحَـاظِ مُقْتَـدِراتِ[٧]

---

(١) وَإِنْ مَضَتْ لَها حِجَجٌ : وَإِنْ مَرَّتْ عَلَيْها أَعْوَامٌ .

(٢) عَطِرَاتِ ، تُرْوَىٰ : خَفِراتِ .

(٣) يُرْوَىٰ صَدْرُ هَذَا ٱلْبَيْتِ : لَهُ أَرَجٌ بِٱلْعَنْبَرِ ٱلْوَرْدِ فَاغِمٌ ؛ وَٱلْكَفِرَاتُ ، جَمْعُ كَفِرٍ بِفَتْحِ ٱلْكَافِ وَكَسْرِ ٱلْفَاءِ : ٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِبالِ .

(٤) ٱلْمُحَصِّبِ : مَوْضِعٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَمِنىٰ ، وَهُوَ إِلىٰ مِنىٰ أَقْرَبُ .

(٥) مُؤْتَجِراتِ : طَالِباتٍ لِلأَجْرِ وَٱلثَّوابِ ؛ وَتُرْوَىٰ : مُعْتَجِراتِ ، أَيْ : لابِساتِ ٱلْمَعَاجِرِ ، وَهِيَ أَثْوابٌ تَلُفُّها ٱلنِّساءُ عَلىٰ ٱسْتِدارَةِ رُؤُوسِهِنَّ ، ثُمَّ يَتَجَلْبَبْنَ فَوْقَها بِجَلابِيبِهِنَّ .

(٦) فَخّ : مَوْضِعٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَكَّةَ ثَلاثَةُ أَمْيالٍ .

(٧) يُخَبِّئْنَ ، تُرْوَىٰ : يُخَمِّرْنَ ؛ وَيُقالُ : لَيْسَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنَ ٱلطَّائِفِ تَخْرُجُ إِلَّا وَعَلىٰ يَدَيْها قُفَّازَانِ لِلتُّقىٰ .

تَقَسَّمْنَ لُبِّي يَوْمَ نَعْمَانَ إِنَّنِي ... رَأَيْتُ فُؤَادِي عَارِمَ ٱلنَّظَرَاتِ[١]

جَلَوْنَ وُجُوهاً لَمْ تَلُحْهَا سَمَائِمٌ ... حَرُورٌ وَلَمْ يُسْفَعْنَ بِٱلسَّبَرَاتِ[٢]

فَقُلْتُ : يَعَافِيرُ ٱلظِّبَاءِ تَنَاوَلَتْ ... نِيَاعَ غُصُونِ ٱلمَرْدِ مُهْتَصِرَاتِ[٣]

وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ ٱلنُّمَيْرِيِّ رَاعَهَا ... وَكُنَّ مِنَ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ

فَأَدْنَيْنَ ، حَتَّىٰ جَاوَزَ ٱلرَّكْبُ دُونَهَا ... حِجاباً مِنَ ٱلقِسِّيِّ وَٱلحِبَرَاتِ[٤]

فَكِدْتُ ٱشْتِيَاقاً نَحْوَهَا وَصَبَابَةً ... تَقَطَّعُ نَفْسِي إِثْرَهَا حَسَرَاتِ

فَرَاجَعْتُ نَفْسِي وَٱلْحَفِيظَةَ بَعْدَ مَا ... بَلَلْتُ رِدَاءَ ٱلْعَصْبِ بِٱلْعَبَرَاتِ[٥]

٦١٩ ـ هَذَا ؛ وَقَدْ عَابُوا قَوْلَ كُثَيِّرِ عَزَّةَ [من الطويل] :

فَمَا رَوْضَةٌ بِٱلْحَزْنِ طَيِّبَةُ ٱلثَّرَىٰ ... يَمُجُّ ٱلنَّدَا جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا[٦]

بِأَطْيَبَ مِنْ أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِناً ... وَقَدْ أُوقِدَتْ بِٱلْمَنْدَلِ ٱلرَّطْبِ نَارُهَا[٧]

---

(١) عارِمُ ٱلنَّظَرَاتِ : شَديدُها ؛ وَٱلْعُرَامُ : ٱلشِّدَّةُ وَٱلْقُوَّةُ وَٱلشَّراسَةُ .

(٢) لاحَهُ يَلوحُه لَوْحاً : غَيَّرَ لَوْنَهُ ؛ وَالسَّمائِمُ ، جَمْعُ سَمُومٍ ، وَهِيَ : الرِّيحُ ٱلْحَارَّةُ ؛ وَيُسْفَعْنَ مِنْ سَفَعَتْهُ ٱلشَّمْسُ وَٱلنَّارُ وَٱلسَّمُومُ : لَفَحَتْهُ وَغَيَّرَتْ لَوْنَ بَشَرَتِهِ ، وَالسَّبَرَاتُ جَمْعُ سَبْرَةٍ : شِدَّةُ بَرْدِ ٱلشِّتاءِ .

(٣) ٱلْيَعافِيرُ ، جَمْعُ يَعْفُورٍ ، وَهُوَ : ٱلظَّبْيُ ، لَوْنُهُ لَوْنُ ٱلْعَفَرِ ، أَيْ : ٱلتُّرابُ ؛ وَنِياعُ جَمْعُ نائِعٍ ، مِنْ ناعَ ٱلغُصْنُ : إِذا حَرَّكَتْهُ الرِّيحُ ؛ يُرِيدُ : إِنَّ أَعْناقَهُنَّ في ٱمْتِدادِها كَأَعْناقِ ٱلظِّباءِ ؛ وَٱلمَرْدُ : ٱلغُصْنُ مِنْ ثَمَرِ الأَرَاكِ ؛ وَمُهْتَصِراتُ : مُعْطُوفاتٌ ، مِنِ ٱهْتَصَرَ ٱلْغُصْنَ : عَطَفَهُ وَأَمَالَهُ .

(٤) القِسُّ : ضَرْبٌ مِنَ الثِّيابِ يُنْسَجُ مِنْ كَتَّانٍ مَخْلُوطٍ بِحَريرٍ ، يُنْسَبُ إِلَىٰ قِسّ ، وَهِيَ : قَرْيَةٌ مِنْ مِصْرَ عَلَىٰ سَاحِلِ ٱلْبَحْرِ بَيْنَ ٱلْفَرَما وَٱلعَرِيش ؛ وَٱلْحِبَرَاتُ : ضَرْبٌ مِنْ بُرودِ ٱلْيَمَنِ .

(٥) العَصْبُ : بُرُودٌ يَمَنِيَّةٌ مُخَطَّطَةٌ .

(٦) الحَزْنُ : حَزْنُ بَنِي يَرْبُوعَ ، وَفِيهِ رِياضٌ كَثِيرَةٌ ؛ وَٱلْجَثْجاثُ : مِنْ أَحْرَارِ ٱلشَّجَرِ ، يَنْبُتُ بِٱلْقَيْظِ ، لَهُ زَهْرَةٌ صَفْرَاءُ كَأَنَّهَا زَهْرَةُ عَرْفَجَةٍ ، طَيِّبَةُ ٱلرِّيح ، تَأْكُلُهُ الإِبِلُ إِذا لَمْ تَجِدْ غَيْرَهُ ؛ وَٱلْعَرَارُ : بَهَارُ ٱلْبَرِّ ، وَهُوَ : نَبْتٌ طَيِّبُ ٱلرِّيحِ ، قالَ ٱبْنُ بَرِّيٍّ : وَهُوَ ٱلنَّرْجِسُ ٱلْبَرِّيُّ .

(٧) مَوْهِناً : بَعْدَ دُخُولِنا في ٱللَّيْلِ .

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ٱمْرَأَةَ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجِمٍ ، وَٱسْمُهَا قَطَامُ ، قَالَتْ لِكُثَيِّرٍ لَمَّا زَارَها فِي دَارِهَا فِي ٱلْكُوفَةِ لِيُوَبِّخَهَا عَلَىٰ قَتْلِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : بِاللهِ ، مَا رَأَيْتُ شَاعِراً قَطُّ أَنْقَصَ عَقْلًا وَلا أَضْعَفَ وَصْفاً مِنْكَ ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ زَنْجِيَّةً بَخَّرَتْ أَرْدَانَهَا بِمَنْدَلٍ رَطْبٍ أَمَا كَانَتْ تَطِيبُ ! أَلَّا قُلْتَ كَما قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ .

وَأَنْشَدَتْ بَيْتَهُ ٱلَّذِي أَسْلَفْنَا ، وَهُوَ :

أَلَمْ تَرَيَاني . . . البيت . . . . [راجع رقم : ٦١٠] .

فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ [من الكامل] :

ٱلْحَقُّ أَبْلَجُ لا يُخِيلُ سَبِيلُهُ وَٱلْحَقُّ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلأَلْبَابِ

لا يَخِيلُ سَبِيلُهُ ، مِنْ أَخَالَ ٱلأَمْرُ : ٱشْتَبَهَ .

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي ٱلأَغَانِي أَبْيَاتَ كُثَيِّرٍ عَلَىٰ ٱلْوَجْهِ ٱلتَّالِي [من الطويل] :

فَإِنْ خَفِيَتْ كَانَتْ لِعَيْنِكَ قُرَّةً وَإِنْ تَبْدُ يَوْماً لَمْ يَغُمَّكَ عَارُهَا

مِنَ ٱلْخَفِرَاتِ ٱلْبِيضِ لَمْ تَرَ غَلِيظَةً وَفِي ٱلْحَسَبِ ٱلضَّخْمِ ٱلرَّفِيعِ نَجَارُهَا

فَمَا رَوْضَةٌ بِٱلْحَزْنِ طَيِّبَةُ ٱلثَّرَىٰ يَمُجُّ ٱلنَّدَا جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا

بِأَطْيَبَ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتَ طَارِقاً وَقَدْ أُوقِدَتْ بِٱلْمَنْدَلِ ٱلرَّطْبِ نَارُهَا

* * *

**ٱلْحُلِيُّ :**

٦٢٠ ـ قَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : «لا تَلْبَسُوا ٱلْحَرِيرَ وَلا الدِّيبَاجَ ، وَلا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا ، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَنَا فِي ٱلآخِرَةِ» [البخاري ، رقم : ٥٤٢٦ ؛ مسلم ، رقم : ٢٠٦٧] .

٦٢١ ـ وَجَاءَ فِي كِتَابِ «ٱلْفِقْهِ عَلَىٰ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلأَرْبَعَةِ» مَا يَلِي :

يَحْرُمُ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَٱلمَرْأَةِ ٱسْتِعْمَالُ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَعِلَّةُ ٱلنَّهْيِ عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ لِلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَاضِحَةٌ ، لأَنَّ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا تَقْلِيلاً لِمَا يَتَعَامَلُ ٱلنَّاسُ بِهِ مِنَ ٱلنَّقْدَيْنِ ، وَكَسْراً لِقُلُوبِ ٱلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ لا يَجِدُونَ مِنْهُمَا مَا يَحْصُلُونَ بِهِ عَلَىٰ قُوتِهِمُ ٱلضَّرُورِيِّ إِلّا بِجَهْدٍ عَظِيمٍ ، بَيْنَمَا يَرَوْنَ غَيْرَهُمْ يُسْرِفُ فِيهَا غَايَةَ ٱلإِسْرَافِ وَيَحْبِسُهَا عِنْدَهُ بِدُونِ مُبَالَاةٍ ، فَيُشَعِّرُ ذَلِكَ قُلُوبَهُمْ وَيَتْرُكُ فِي أَنْفُسِهِمْ أَسْوَأَ ٱلأَثَرِ ، لِذَلَكَ حَرَّمَتِ ٱلشَّرِيعَةُ ٱلإِسْلامِيَّةُ ٱسْتِعْمالَهَا عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَٱلنِّسَاءِ إِلَّا فِي أَحْوالٍ تَقْتَضِيهَا ، فَأَبَاحَتْ لِلنِّسَاءِ مَا تَتَزَيَّنُ بِهِ مِنْها ، لأَنَّ ٱلْمَرْأَةَ فِي حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ إِلَىٰ ٱلزِّينَةِ ، فَلَهَا أَنْ تَتَحَلَّىٰ بِمَا شَاءَتْ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَكَذَلِكَ أَبَاحَتْ لِلرِّجَالِ ٱلتَّخَتُّمَ بِٱلْفِضَّةِ لأَنَّهُ قَدْ يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ يَنْقُشَ عَلَيْهِ ٱسْمَهُ ، فَيَسْهُلُ عَلَيْهِ ٱسْتِعْمالُهُ ، وَيَكُونَ آمِناً عَلَيْهِ بِلُبْسِهِ فِي يَدِهِ . وَكَذَلِكَ أَبَاحَتِ ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي لا يَضِيقُ ٱلنَّقْدَيْنِ مِمَّا سَيَأْتِي بَيَانُهُ .

فَيَحْرُمُ ٱتِّخَاذُ الآنِيَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، فَلا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَوِ ٱمْرَأَةٍ أَنْ يَأْكُلَ أَوْ يَشْرَبَ فِيهَا ، لِقَوْلِهِ ﷺ : «لا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا ، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي ٱلآخِرَةِ» [البخاري ، رقم : ٥٤٢٦ ؛ مسلم ، رقم : ٢٠٦٧] ، وَكَذَلِكَ لا يَحِلُّ ٱلتَّطَيُّبُ مِنْهَا أَوِ ٱلادِّهَانُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ . وَكَمَا يَحْرُمُ ٱسْتِعْمَالُهَا يَحْرُمُ ٱقْتِنَاؤُهَا بِدُونِ ٱسْتِعْمَالٍ ، وَيُسْتَثْنَىٰ مَا إِذَا قُصِدَ بِٱقْتِنَائِهَا تَأْجِيرُهَا لِمَنْ يَحِلُّ لَهُ ٱسْتِعْمَالُهَا . وَكَذَلِكَ يَحْرُمُ ٱلأَكْلُ بِمِلْعَقَةِ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱتِّخَاذُ مِيلِ ٱلْمُكْحُلَةِ مِنْهُمَا وَٱلْمِرآةِ وَقَلَمِ ٱلدَّوَاةِ وَالمُشْطِ وَٱلْمِبْخَرَةِ وَٱلْقُمْقُمِ . وَكَذَا يَحْرُمُ ٱتِّخَاذُ فَنْجَانِ ٱلقَهْوَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَظَرْفِ ٱلسَّاعَةِ وَقِدْرَةِ ٱلتُّمْبَاكِ «ٱلشِّيشَةِ» وَنَحْوِهَا . أَمَا مَا يَحِلُّ مِنْ ذَلِكَ فَفِيهِ تَفْصِيلُ ٱلْمَذَاهِبِ .

* * *

٦٢٢ ـ وبَعْدُ فكَمَا يُعَدُّ الإفْرَاطُ في ٱلزِّينَةِ كَافَّةً عاباً ، فَإِنَّ الإفْرَاطَ في ٱلتَّحَلِّي بِٱلْحُلِيِّ يُعَدُّ مِنْ أَعْيَبِ ٱلْعُيُوبِ ، وَهُوَ عُنْوَانُ ٱلسَّخَفِ وَفَسَادِ ٱلذَّوْقِ ، وَقَدْ أَدْرَكْنَا نِسَاءَنَا في ٱلزَّمَنِ ٱلْقَدِيمِ وَهُنَّ يَتَنَافَسْنَ وَيُغَالِينَ في ٱلْحُلِيِّ ، حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلسَّيِّدَةَ حَانُوتُ صَائِغٍ مُتَنَقِّلٍ . . وَلَكِنَّ هَذِهِ ٱلْبِدْعَةَ قَدْ زَالَتْ أَوْ كَادَتْ تَزُولُ بَيْنَ ٱلشَّرِيفَاتِ مَنْ نِسَائِنَا ، وَهَذَا دَلِيلُ أَنَاقَتِهِنَّ وَتَحَسُّنِ ذَوْقِهِنَّ وَإِدْرَاكِهِنَّ أَنَّ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ نِسَاؤُنَا في ٱلْجِيلِ ٱلْمُنْصَرِمِ مِنَ ٱلإِفْرَاطِ في ٱلْعِنَايَةِ بِٱلْحُلِيِّ وَالإِكْثَارِ مِنْهَا عَمَلٌ غَيْرُ لائِقٍ مَنَافٍ لِلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ، أَمَّا مَا نَرَاهُ مِنْ بَعْضِ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلإِكْثَارِ مِنَ ٱلْحِلْيَةِ في أَيْدِيهِمْ وَصُدُورِهِمْ ، فَحَسْبُهُمْ أَنَّهُمْ يُعَدُّونَ فِي ذَلِكَ مِنَ ٱلْمُتَشَبِّهِينَ بِٱلنِّسَاءِ ، وَأَيَّ نِسَاءٍ ! نِسَائِنَا ٱلْمُتَبَذِّلاتِ . . .

* * *

إِلَىٰ نِسَاءِ ٱلْيَوْمِ :

٦٢٣ ـ وَلِمُنَاسَبَةِ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في ٱلثِّيَابِ نَنْصَحُ لِنِسَائِنَا هَذِهِ ٱلنَّصِيحَةَ :

أَظُنُّكُنَّ لا تَجْهَلْنَ أَيَّتُهَا الآنِسَاتِ وَٱلسَّيِّدَاتِ أَنَّ عَوْرَةَ ٱلْمَرْأَةِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ هُوَ كُلُّ جِسْمِهَا مَا عَدَا وَجْهَهَا وَكَفَّيْهَا ، وَمَعْنَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ لا يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ٱلْمُسْلِمِ أَنْ يَنْظُرَ مِنْكُنَّ إِلَّا إِلَىٰ ٱلْوَجْهِ وَٱلْكَفَّيْنِ ، وَأَنَّكُنَّ مِنْ جِهَتِكُنَّ يَجِبُ عَلَيْكُنَّ أَنْ تَجْهَدْنَ وَتَعْلَمْنَ عَلَىٰ أَنْ لا تُمَكِّنَ ٱلرَّجُلَ ٱلأَجْنَبِيَّ عَنْكُنَّ مِنْ أَنْ يَرَىٰ أَيَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِكُنَّ مَا عَدَا ٱلْوَجْهِ وَٱلْكَفَّيْنِ ، وَلَقَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مَنْ عُلَمَائِنَا أَنَّ عَوْرَةَ ٱلْمَرْأَةِ جَمِيعُهَا مَا عَدَا ٱلْوَجْهَ ، وَأَمَّا بِٱلنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِ ٱلْمُسْلِمِ ، فَقَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ وَٱلشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ : يَحْرُمُ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمَةِ أَنْ تَكْشِفَ مِنْ جَسَدِهَا لِغَيْرِ ٱلْمُسْلِمِ وَلَوْ وَجْهاً أَوْ يَداً ، وَكَذَلِكَ لا يَجْهَلْنَ أَنَّ ٱلثِّيَابَ وَإِنْ كَانَ ٱلأَفْضَلُ تَقْصِيرَهَا ، بَيْدَ أَنَّهُ لا يَجُوزُ بِحَالٍ أَنْ تَرْتَفِعَ عَنَ ٱلْقَدَمِ ، فَإِذَا عَلِمْتُنَّ هَذَا فَكَيْفَ ٱسْتَسَغْتُنَّ وَأَبَحْتُنَّ لأَنْفُسِكُنَّ أَنْ

تَرْفَعْنَ ثِيَابَكُنَّ إِلَىٰ أَفْخاذِكُنَّ وَإِلَىٰ مَا فَوقَ أَفْخاذِكُنَّ!

كَيْفَ تَرْضَيْنَ أَنْ يَرَىٰ ٱلنَّاسُ سِيقَانَكُنَّ وَأَفَخاذَكُنَّ وَأَعْضاءَكُنَّ ! وَمَاذَا تَقْصِدْنَ بِذَلِكَ وَمَاذَا تَترَامَيْنَ إِلَيْه بِهَذِهِ ٱلْبِدْعَةِ ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلشَّنْعَاءِ ٱلَّتِي يَنْبُو بِهَا ٱلدِّينُ وَٱلْفَضِيلَةُ وَٱلأَخْلاقُ ٱلْكَرِيمَةُ ٱلنَّبِيلَةُ !؟

لَقَدْ فَاتَكُنَّ وَغَابَ عَنْكُنَّ أَنَّكُنَّ بِهَذَا ٱلصَّنِيعِ ٱبْتَذَلْتُنَّ أَنْفُسَكُنَّ إِلَىٰ أَقْصَىٰ حُدُودِ ٱلابْتِذَالِ ، أَلا تَدْرِينَ أَنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَىٰ ٱلإِنْسَانِ مَا مُنِعَ ! فَإِذَا ٱعْتَادَ ٱلرِّجَالُ ٱلْقَرِيبُ مِنْهُمْ وَٱلبَعِيدُ وَٱلصَّالِحُ وَٱلطَّالِحُ وَٱلشَّرِيفُ وَٱلدَّنِيءُ وَٱلْعِلْيَةُ وَٱلسَّفَلَةُ رُؤيَةَ سِيقَانِكُنَّ وَأَفْخَاذِكُنَّ وَأَعْضَادِكُنَّ فَلا مَحَالَةَ أَنْ يَزْهَدُوا فِيكُنَّ وَتَقِلُّ مَنْزِلَةُ ٱلْمَرْأَةِ وَجَمَالُهَا وَأُنوثَتُهَا في نَظَرِ ٱلرِّجَالِ .

أَنْشُدُكُنَّ ٱللهَ ثُمَّ ٱلْوَاجِبَ وَأَنْشُدُكُنَّ أَنفُسَكُنَّ وَمُسْتَقْبَلَكُنَّ إِلَّا مَا أَقْلَعْتُنَّ عَنْ هَذِهِ ٱلْبِدْعَةِ ٱلْمُنْكَرَةِ .

لَقَدْ كَانَ ٱلنِّساءُ في صَدْرِ ٱلإِسْلامُ طَائِفَتَيْنِ : ٱلحَرَائِرُ وَٱلإِمَاءُ ، وَكَانَ مَا يُمَيِّزُ ٱلْحَرَائِرَ مِنَ ٱلإِمَاءِ هُوَ ٱلاحْتِشَامُ وَٱلْكَمالُ ، فَكَانَتِ ٱلْحَرَائِرُ يَتَقَنَّعْنَ وَلا يَتَبَرَّجْنَ ، أَمَّا ٱلإِمَاءُ فَكُنَّ عَلَىٰ ٱلْعَكْسِ ، لا بَأْسَ بِتَبَذُّلِهِنَّ وَتَبَرُّجِهِنَّ وسُفُورِهِنَّ ، فَأَصْبَحَ ٱلحَالُ وَٱلأَسَفُ يَكْوِي قُلُوبَنَا عَلَىٰ ٱلعَكْسِ ، أَصْبَحَ ٱلنِّسَاءُ ٱلْعَامِلاتُ مِن فَلّاحَاتٍ وَحَضَرِيَّاتٍ أَدْنَىٰ إِلَىٰ ٱلْكَمالِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلشَّرِيفَاتِ أَوْ مَا يُسَمِّينَ أَنْفُسَهُنَّ رَاقِياتٍ . . . أَيَّتُهَا ٱلشَّرِيفَاتُ ٱلْكَرِيماتُ تَدَبَّرْنَ هَذِهِ ٱلنَّصِيحَةَ ، وَقِفْنَ عِنْدَها مَلِيّاً ، وَبادِرْنَ بِٱلانْتِصَاحِ بِهَا ، فَإِنَّ ٱلأَمْرَ جِدُّ خَطِيرٍ ! وَأَيُّ خَطرٍ في أَنْ تَبْتَذِلْنَ أَنْفُسَكُنَّ وَتَعْرِضْنَ أَجْملَ مَا فِيكُنَّ مِنَ ٱلسَّوَاعِدِ وَٱلسِّيقَانِ وَٱلأَفْخَاذِ عَلَىٰ ٱلنَّظَّارَةِ ، وفِيهِمُ ٱلفُسَّاقُ وَٱلْمُجَّانُ وَٱلشُّطَّارُ وَكُلُّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ .

وَمَاذَا أَبْقَيْتُنَّ لِبُعُولَتِكُنَّ وَمَنْ سَيَكُونُونَ بُعُولَتَكُنَّ !

وَلَيتَ شِعْرِي مَنْ تُقَلِّدْنَ في ذَلِكَ ؟ وَأَيُّ نِسَاءٍ رَأَيْتُنَّ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ؟ لا نِسَاءٌ مُتَمَدْيِنَاتٌ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ مِمَّنْ تَحَرَّزْنَ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ مِنْ سَوَاقِطِ سَائِرِ ٱلشُّعُوبِ . وَإِلَّا فَهَاهُنَّ أُولاءِ نِسَاءُ ٱلأُمَمِ ٱلْمُتَمَدْيِنَةِ عَلَىٰ مَرْأَىٰ مِنَّا وَمَسْمَعٍ نَرَاهُنَّ مُحتَشِمَاتٍ كَامِلاتٍ مُمْتَازَاتٍ في ٱلْحِشْمَةِ وَٱلْكَمالِ ، عَنْ كَثِيرٍ مَنْ نِسَائِنَا ٱلرَّاقِيَاتِ ، إِنَهُنَّ جِدِّيَاتٌ غَيْرُ هَازِلاتٍ .

عَلَىٰ أَنَّنَا نَحْنُ ٱلشَّرْقِيِّينَ إِذَا كُنَّا نَفْخَرُ عَلَىٰ ٱلْغَرْبِيِّينَ بِشَيْءٍ ، فَهَذَا ٱلشَّيْءُ هَوَ ٱحْتِشَامُ نِسَائِنَا وَكَمالُهُنَّ كَانَ ، أَمَّا الآنَ ، فَأَيُّ مَفْخَرَةٍ بَقِيَتْ لِنِسَائِنَا بَعْدَ هَذَا ٱلتَّبَرُّجِ ٱلْمُخْزِيِّ وَٱلْبِدْعَةِ ٱلَّتِي يَنْعَاهَا عَلَيْنَا ٱلعَدُوُّ قَبْلَ ٱلصَّدِيقِ ، وَٱلْغَرْبِيُّ قَبْلَ ٱلشَّرْقِيِّ ، وَٱلزِّنْدِيقُ قَبْلَ ٱلْمُؤْمِنِ . . . ٱللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ أَنْ تَهْدِيَ قَوْمَنَا فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ .

* * *

**ثِيَابُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحُلِيِّهَا وَطِيبِهَا :**

٦٢٤ ـ وَإِذْ أَنَّ ثِيَابَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحُلِيَّهَا وَطِيبَهَا كَثِيراً مَا تَنْبَرِي لِلنَّاظِرِ في أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَسَائِرِ آدابِهِمْ كَانَ حَقّاً عَلَيْنَا أَنْ نَخْتَتِمَ هَذَا ٱلْبَابَ بِإِيرَادِ أَلْوَانٍ مِنْ ثِيَابِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَحُلِيِّهَا وَطِيبِهَا ، وَوَصْفِهَا ، وَٱلتَّعْرِيفِ بِهَا .

* * *

**ثِيَابُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ :**

٦٢٥ ـ لَبِسَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ضُرُوباً مِنَ ٱلثِّيَابِ مُخْتَلِفاً ٱلْفُنُونِ وَٱلأَلْوَانِ مِمَّا أَخْرَجَتْهُ مَنَاسِجُ ٱلْيَمَنِ وَعُمَانَ وَٱلْبَحْرَيْنِ وَٱلشَّامِ وَٱلْعِرَاقِ ، وَمَا ٱجْتَلَبَتْهُ مِنْ بِلادِ فَارِسَ وَسَوَاحِلِ ٱلْهِنْدِ .

٦٢٦ ـ وَمِنْهَا مَا رَقَّ نَسْجُهُ ، وَدَقَّ خَيْطُهُ ، وَذَلِكَ مَا تُسَمِّيهِ بِٱلْمُهَلْهَلِ وَٱلْمُسَلْسَلِ وَٱلْهَفَّافِ وَمَا كَثُفَ حَوْكُهُ وَضُوعِفَتْ حَوَاشِيهِ ، وَذَلِكَ ما تَدْعُوهُ

بِٱلصَّفِيقِ ، وَٱلشَّبِيعِ ، وَٱلْحَصِيفِ .

٦٢٧ ـ وَمِنْهَا مَا لَمْ يُخَالِطْ لَوْنَه لَوْنٌ آخَرُ ، وَلَهُنَّ في ذَلِكَ ٱلأَبْيَضُ ، وَٱلأَسْوَدُ ، وَٱلأَحْمَرُ ، وَٱلأَصْفَرُ ، وَٱلأَخْضَرُ ، وَٱلْمُدَمَّىٰ ـ وَهُوَ ذُو ٱلْحُمْرَةِ ٱلْقَانِيَةِ ـ وَٱلْمُشْرِقُ ـ وَهُوَ مَا كَانَ وَسْطاً بَيْنَ ٱلْحُمْرَةِ وَٱلْبَيَاضِ ـ وَٱلْمَفْرُوقُ ـ وَهُوَ مَا أُشْرِبَ بِٱلزَّعْفرَانِ ـ وَمَا ٱجْتَمَعَ فِيهِ لَوْنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا ، أَوْ مِنْ ذَلِكَ ٱلْمُشْرَبُ ـ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتماوَجُ بَيْنَ لَوْنَيْنِ ـ وَٱلْمُخَطَّطُ وَٱلْمُسَهَّمُ ـ وَهُوَ مَا أَشْبَهَتْ خُطُوطُهُ أَفَاوِيقَ ٱلسَّهْمِ ـ وَٱلْمُفَرَّقُ ـ وَهُوَ مَا ٱجْتَمَعَ إِلَىٰ لَوْنِهِ خُطُوطٌ بِيضٌ ـ وَٱلنَّمِيقُ ، أَوِ ٱلْمُنَمَّقُ ـ وَهُوَ ٱلْمَنْقُوشُ ـ وَٱلْمُوَشَّىٰ ـ وَهُوَ مَا ٱجْتَمَعَ عَلَيْهِ ٱلزُّخْرُفُ ـ وَٱلْمُعَيَّنُ ـ وَهُوَ مَا أَشْبَهَتْ نُقُوشُهُ عُيُونَ ٱلنَّرْجِسِ ـ وَٱلْمُصَلَّبُ ـ وَهُوَ مَا تَقَاطَعَتْ خُطُوطُهُ كَتَقَاطُعِ ٱلصُّلْبَانِ ـ وَٱلْمُذْهَبُ ـ وَهُوَ مَا حُبِكَ نَسْجُهُ بِخُيُوطٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ ـ وَفِيهِ يَقُولُ سُلْمِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ [من مخلّع البسيط] :

وَٱلبِيضَ يَرْفُلْنَ كَالدُّمَىٰ في ٱلرَّيْطِ وَٱلْمُذْهَبِ ٱلْمَصُونِ[1]

٦٢٨ ـ وَأَمَّا مَادَّتُهَا فَٱلْحَرِيرُ . وَمِنْهُ ٱلدِّيبَاجُ ، وَٱلدِّمَقْسُ ، وَٱلسُّنْدُسُ ، وَالإِسْتَبْرَقُ[2] .

وَٱلْخَزُّ ـ وَهُوَ وَبَرُ دَابَّةٍ كَالأَرْنَبِ تُدْعَىٰ بِذَلِكَ ٱلاسْمِ ، وَيُشْبِهُ ٱلْحَرِيرَ فِي مَلامَستِهِ وَنُعُومَتِهِ ـ وَوَبَرُ ٱلأَرْنَبِ ، وَلَيْس كُلُّ ٱلأَرَانِبِ يُتَّخَذُ وَبَرُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ نَوْعٌ خَاصٌّ يُجْتَلَبُ مِنْ شَمَالِ ٱلْعِرَاقِ ؛ وَٱلْقُطْنُ ، وَٱلصُّوفُ ، وَٱلْكَتَّانُ ، وَأَشْبَاهُهَا .

٦٢٩ ـ وَأَمَّا أَنْوَاعُهَا فَجَمَّةُ ٱلْعَدَدِ ، مُخْتَلِفَةُ ٱلْهَيْئَاتِ . وَأَشْمَلُهَا وَأَعَمُّهَا

---

(١) ٱنْظُرْ هَذا ٱلبَيْتَ وَأَبْياتاً أُخرىٰ مَعَهُ في الفقرة رقم : ٢٢ .

(٢) ٱلدِّيْباجُ : ٱلْحَرِيرُ عامَّةً ؛ وَٱلسُّنْدُسُ : رَقِيقُهُ ؛ وَٱلاسْتَبْرَقُ : صَفِيقُهُ أَوْ ما حُبِكَ بِٱلذَّهَبِ مِنْهُ ؛ وَٱلدِّمَقْسُ : ٱلْقَزُّ .

مَا أَنَا سائِقُهُ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُ ٱلشِّعَارُ وَٱلدِّثَارُ .

أَمَّا شِعَارُهَا ـ وَهُوَ مَا يَلِي جَسَدَهَا ـ فَٱلصِّدَارُ وَٱلمِجْوَلُ ، وَهُمَا قَمِيصَانِ قَصِيرَانِ مُتَقَارِبَانِ لا أَكْمَامَ لَهُمَا ، وَدُونَهُمَا ٱلسَّرَاوِيلُ .

وَأَمَّا دِثَارُهَا ـ وَهُوَ مَا يَلِي ٱلشِّعَارَ ـ فَٱلدِّرْعُ ـ وَهُوَ جِلْبَابٌ شَامِلٌ يُحِيطُ بِدِثَارِهَا ـ وَٱلنِّطَاقُ ، وَيُلْبَسُ دُونَ ٱلدِّرْعِ ـ وَهُوَ ثَوْبٌ تَشُدُّهُ ٱلْمَرْأَةُ إِلَىٰ وَسْطِهَا وَتُرْخِي نِصْفَهُ ٱلأَعْلَىٰ عَلَىٰ نِصْفِهِ ٱلأَسْفَلِ ـ وَإِذَا نَحْنُ قَرَّبْنَاهُ إِلَىٰ مُتَنَاوَلِ ٱلْعَصْرِ ٱلْحَاضِرِ قُلْنَا : إِنَّهُ «مَلْكُوفٌ» مُضَاعَفٌ . وَمِنْ فَوقِ هَذيْنِ ٱلبَتُّ ، وَهُوَ ثَوْبٌ أَخْضَرُ مُهَلْهَلٌ يُحِيطُ بِجِسْمِ ٱلْمَرْأَةِ وَيُقَنِّعُ جُزْءٌ مِنْهُ رَأْسَهَا وَوَجْهَهَا ؛ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ٱلْبَتُّ فَٱلْحُلَّةُ ، وَهُوَ ثَوْبٌ يُظَاهِرُهُ ثَوْبٌ آخَرُ ، وَيَغْلِبُ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ ٱلثَّوْبَيْنِ رَقِيقاً شَفَّافاً لِيَظْهَرَ مَا يَلِيهِ ، وَقَدْ تُطْلَقُ ٱلْحُلَّةُ عَلَىٰ ٱلثَّوْبِ ٱلْمُبَطَّنِ .

وَقَدْ تَرْتَدِي فَوْقَ ذَلِكَ بِصِنْفٍ مِنَ ٱلأَرْدِيَةِ ٱزْدِيَاناً وَٱخْتِيَالًا أَوْ تَصَوُّنا وَٱحْتِشَاماً .

وَمِنْ هَذِهِ ٱلأَرْدِيَةِ ٱلْعِطَافُ ، أَوْ ٱلْمِعْطَفُ ، وَهُوَ رِدَاءٌ تُلْقِيهِ عَلَىٰ عِطْفَيْهَا وَتُرْسِلُهُ عَلَىٰ جِسْمِهَا ؛ وَٱلرَّيْطَةُ ، وَهِيَ مُلَاءَةٌ ذَاتُ لِفْقٍ وَاحِدٍ ، أَيْ : شِقَّةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَٱلْحِبَرَةُ ، وَهِيَ بُرْدٌ مُوَشَّىً مِنْ بُرُودِ ٱلْيَمَنِ ؛ وَلَيْسَ هُنَاكَ وَصْفٌ أَدَقُّ لَهَا مِنْ قَوْلِ صَبِيٍّ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ لَسَعَهُ زُنْبُورٌ وَلَمْ يَكُنْ قَدْ عَرَفَ ٱسْمَهُ ، فَقَالَ لأَبِيهِ : يَا أَبَتِ لَسَعَنِي طَائِرٌ كَأَنَّهُ مُلْتَفٌّ فِي بُرْدَيْ حِبَرَةٍ يَمَانِيَّةٍ . وَهِيَ أَغْلَىٰ وَأَبْهَجُ مَا ٱرْتَدَاهُ ٱلنِّسَاءُ في ذَلِكَ ٱلْعَهْدِ . وَقَدْ شَبَّهَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ ٱلْحَوَامِيمَ في ٱلقُرْآنِ بِٱلْحِبَرَاتِ ، تَنْوِيهاً بِهَا وَإِشَادَةً بِفَضْلِهَا .

وَمِنْ أَرْدِيَتِهِنَّ ٱلْمِرْطُ ، وَهِيَ مُلَاءَةٌ ذَاتُ شُقَّتَيْنِ ، وَلَيْسَ بَيْنَ أَرْدِيَتِهِنَّ مَا هُوَ أَعَمُّ ٱسْتِعْمالًا مِنْهَا ؛ وَمِنْهَا ٱللِّفَاعُ ، وَهُوَ رِدَاءٌ تَلْتَفِعُ بِهِ ، وَهُوَ بِـ«ٱلشَّالِ» أَشْبَهُ .

وَلَهُنَّ غَيْرُ ذَلِكَ ٱلْوِشَاحُ ، وَهُوَ شُقَّةٌ مُرَصَّعَةٌ بِٱلْجَوَاهِرِ تَشُدُّهَا ٱلْمَرْأَةُ بَيْنَ

عَاتِقَيْهَا وَخَصْرِهَا ؛ وَٱلسَّرَقُ ، وَاحِدَتُهُ سَرَقَةٌ ، وَهِيَ شِقَاقٌ مِنَ ٱلْحَرِيرِ يَلْتَفِعْنَ بِهَا ؛ وَٱلْمِطْرَفُ ، وَهُوَ رِدَاءٌ مُرَبَّعٌ مِنَ ٱلْخَزِّ مُوَشًّى بِالأَعْلامِ .

وَٱلْعَمَرُ ، وَهُوَ مِنْدِيلُ ٱلرَّأْسِ ، وَلا يَلْبَسُهُ إِلَّا ٱلْحَرَائِرُ .

وَهُنَالِكَ ٱلْمَيْدَعُ ، وَهُوَ ثَوْبٌ تَضَعُهُ عِنْدَ مُعَانَاةِ عَمَلِهَا فَتَصُونُ بِهِ غَوَالِيَ ثِيَابِهَا مِنَ ٱلابْتِذَالِ ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِمَا نَدْعُوهُ « بِٱلْمَرْيَلَةِ » قَالَ ٱلضَّبِّيُّ :

أُقَدِّمُهُ قُدَّامَ نَفْسِي وَأَتَّقِي ... بِهِ ٱلْمَوْتَ إِنَّ ٱلصُّوفَ لِلْخَزِّ مِيدَعُ[1]

وَلَهُنَّ فِي هَذِهِ ٱلْمَوَاطِنِ ٱلْمِسْحُ ، وَجَمْعُه مُسُوحٌ ؛ وَفِيهِ وَفِي ٱلسُّلُبِ ـ جَمْعُ سِلابٍ ـ يَقُولُ لَبِيدُ [من الرجز] :

يَخْمُشْنَ حُرَّ أَوْجُهٍ صِحَاحِ ... فِي ٱلسُّلُبِ ٱلسُّودِ وَفِي الأَمْسَاحِ

٦٣٠ ـ وَأَمَّا مَا تَحْتَذِيهِ ، فَٱلْخُفُّ ، وَهُوَ مَا طَالَ مِنَ ٱلأَحْذِيَةِ ؛ وَٱلْقَفْشُ ، أَوِ ٱلْكَوْثُ ، وَهُوَ ٱلْقَصِيرُ ٱلْمَكْشُوفُ مِنْهَا ؛ وَٱلْجَوْرَبُ ، وَهُوَ شِعَارُ ٱلْقَدَمَيْنِ ؛ وَٱلْقُفَّازُ ، وَيُتَّخَذُ لِلْقَدَمَيْنِ وَٱلْيَدَيْنِ مَعاً ، وَهُوَ أَدَقُّ نَسْجاً ، وَأَنْضَرُ لَوْناً مِنَ ٱلْجَوْرَبِ ، وَلِذَلِكَ شَبَّهُوا بِهِ ٱلْحِنَّاءَ فِي ٱلْيَدَيْنِ وَٱلْقَدَمَيْنِ ، فَقَالُوا : تَقَفَّزَتِ ٱلْفَتَاةُ : إِذَا خُضِّبَتْ بِٱلْحِنَّاءِ .

* * *

## حُلِيُّهَا :

٦٣١ ـ بِلادُ ٱلْعَرَبِ مَحْفُوفَةُ ٱلْجَنَبَاتِ بِمَغَاوِصِ ٱللُّؤْلُؤَ وَٱلْمَرْجَانِ . وَهِيَ

---

(١) وَٱلْمَيْدَعُ يُسَمَّىٰ ٱلْمِعْوَزَةُ ، قَالَ صَاحِبُ « اللِّسانِ » : ٱلْمِعْوَزَةُ كُلُّ ثَوْبٍ تَصُونُ بِهِ آخَرَ ، وَيُقَالُ : ٱلْمِعْوَزُ ، وَٱلْجَمْعُ مَعَاوِزُ .
[ وَٱلْمَرْيَلَةُ أَوِ ٱلْمَرْيُولُ ، هُوَ : مَا يَلْبَسُهُ ٱلطِّفْلُ فَوْقَ مَلابِسِهِ لِاتِّقَاءِ ٱلرِّيَالَةِ ؛ وَٱلرُّوَالُ ، وَهُوَ : مَا يَسِيلُ مِنْ لُعَابِ ٱلطِّفْلِ ، وَٱلمِرْئَلَةُ : ٱسْمُ آلَةٍ مِنْهُ . وَٱلْبَعْضُ يَجْعَلُهُ مِنَ ٱلإِيطَالِيَّةِ : Mariuolo ، أَوْ أَنَّ ٱلإِيطَالِيَّةَ أَخَذَتْهُ مِنَ ٱلْعَرَبِيَّةِ . ] .

فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَوْرَدٌ لِلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلزُّمُرُّدِ وَٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْعَقِيقِ وَٱلْيَاقُوتِ وأَشْبَاهِهَا مِمَّا يَهْبِطُ بِهِ ٱلتُّجَّارُ مِنْ مُخْتَلَفِ ٱلأَقْطَارِ لِيَبِيعُوهُ بِلُؤْلُؤِ ٱلْعَرَبِ وَمَرْجَانِهِمْ . فَلَيْسَ بِدْعاً بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَتَّخِذَ ٱلنِّسَاءُ تِلْكَ ٱلْجَوَاهِرَ مَعْقِدَ زِينَتِهِنَّ ، وَمُجْتَلَبَ ٱلأَبْصَارِ إِلَيْهِنَّ ، فَلَمْ يَتَجَافَ عَنْهَا إِلَّا وَاحِدٌ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ : ٱمْرَأَةٌ غَنِيَتْ بِفَرْطِ جَمَالِهَا ، وَبَدِيعِ مَحَاسِنِهَا ، فَهِيَ تَتْرُكُهَا ثِقَةٍ بِذَلِكَ ٱلْجَمَالِ ، وَٱسْتِهَانَةً بِأَمْرِ ٱلْحُلِيِّ ، وَتِلْكَ ٱلَّتِي يَدْعُونَهَا ٱلْعَاطِلَ ؛ وَأُخْرَىٰ ٱمْرَأَةٌ نَكَبَهَا ٱلدَّهْرُ ، وَٱسْتَلَبَ مِنْهَا عَزِيزاً عَلَيْهَا ،فَهِيَ تَطْرَحُهَا كَرَاهِيَّةً لِلزِّينَةِ ، وَإِيذَاناً بِٱلْحِدَادِ ، وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمُّونَهَا ٱلْمَرْهَاءُ . فَأَمَّا مَنْ سِوَاهُنَّ فَهُنَّ جَمِيعاً حَالِيَاتٌ .

تُقَلَّدُ ٱلصَّبِيَّةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ صُنُوفاً مِنَ ٱلْحُلِيِّ مُنْذُ بِدْءِ عَهْدِهَا وَأَوَّلِ نَشْأَتِهَا .

وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ ٱللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ حَاكِياً قَوْلَ جَهَلَةِ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/ الآية : ١٨] فَجَعَلُوا ٱلتَّنْشِئَةَ في ٱلْحِلْيَةِ شِعَارَ ٱلإِنَاثِ ، وَمَوْطِنَ ٱلْكِنَايَةِ عَنْهُنَّ .

أَمَّا مَا عُقِدَتِ ٱلْخَنَاصِرُ عَلَيْهِ مِنْ صُنُوفِ حِلِيِّهِنَّ ، وَضُرُوبِ زِينَتِهِنَّ ، فَذَلِكَ ٱلَّذِي أُورِدُهُ عَلَيْكَ :

فَهُنَالِكَ ٱلتَّاجُ أَوِ ٱلإِكْلِيلُ ، وَهُوَ عِصَابَةٌ مُرَصَّعَةٌ بِٱلْجَوَاهِرِ تَحُوطُ جَبِينَ ٱلْمَرْأَةِ .

وَٱلْقُرْطُ ، وَهُوَ مَا عُلِّقَ في أَسْفَلِ ٱلأُذُنِ . فَأَمَّا مَا عُلِّقَ في أَعْلاهَا فَٱلشَّنْفُ .

وَٱلْحِبُّ وَهُوَ ٱلْقُرْطُ مِنْ حَبَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَيُسَمَّىٰ ٱلْخَيْطُ ٱلَّذِي يَصِلُ بَيْنَ ٱلْقُرْطَيْنِ بِٱلْعُقَابِ .

وَٱلْخُرْصُ ، ٱلْحَلْقَةُ مِنَ ٱلذَّهَبِ أَوِ ٱلْفِضَّةِ في أُذُنِ ٱلصَّبِيِّ وَٱلصَّبِيَّةِ وَٱلْمَرْأَةِ .

٦٣٢ ـ هٰذَا ، وَيَغْلِبُ عَلَىٰ ٱلْقُرْطِ أَنْ تُعَلَّقَ بِهِ جَوْهَرَةٌ أَوْ لُؤْلُؤَةٌ . وَقَدْ ضَرَبُوا

ٱلْمَثَلَ بِقُرْطَيْ مَارِيَةَ بِنْتِ ظَالِمِ بْنِ وَهْبٍ ٱلْكِنْدِيِّ زَوْجِ ٱلْحَارِثِ ٱلأَكْبَرِ ٱلْغَسَّانِيِّ مَلِكِ ٱلشَّامِ ، وَفِيهِمَا دُرَّتَانِ كَبَيْضَتَيْ ٱلْحَمَامِ لَمْ يَرَ ٱلرَّاؤُونَ أَعْجَبَ وَلا أَوْضَأَ مِنْهُمَا ، وَقَدْ تَوَارَثَهُمَا نِسَاءُ ٱلْمُلُوكِ مِنْ بَعْدِهَا حَتَّىٰ كَانَ مَآلُهُمَا إِلَىٰ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، وَكَانَتْ زَوْجاً لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ ٱلْخِلافَةَ ، فَلَمَّا وَلِيَهَا قَالَ لَهَا : إِنْ أَحْبَبْتِ ٱلْمُقَامَ عِنْدِي فَضَعِي ٱلْقُرْطَيْنِ فِي بَيْتِ مَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ ؛ فَصَدَعَتْ بِأَمْرِهِ .

فَلَمْ يَزَالا فِي مَوْطِنِهِمَا مِنْ بَيْتِ ٱلْمَالِ حَتَّىٰ ٱنْتَقَضَ ٱلْمُلْكُ ٱلأَمَوِيُّ ، فَذَهَبَ خَبَرُهُمَا .

وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: أَنْفَسُ مِنْ قُرْطَيْ مَارِيَةَ. يَضْرِبُونَهُ فِي كُلِّ غَالٍ وَعَزِيزٍ عَلَيْهِمْ ، وَقَوْلُهُمْ : آتِيكَ بِمَا شِئْتَ وَلَوْ بِقُرْطَيْ مَارِيَةَ . قَالَ قَائِلُهُمْ [من مجزوء الكامل] :

يَـا أَيُّهَـا ٱلمَلِـكُ ٱلَّـذِي ... مَلَـكَ ٱلأَنَـامَ عَـلَانِيَـهْ
ٱلْمَـالُ آخِـذُه سِـوَا ... يَ وَكُنْـتُ عَنْـهُ نَـاحِيَـهْ
إِنِّـي أُؤَدِّيـهِ إِلَيْـ ... ـكَ وَلَـوْ بِقُـرْطَـيْ مَـارِيَـهْ

٦٣٣ ـ وَهُنَالِكَ ٱلْقِلَادَةُ ، وَهِيَ مَا يُجْعَلُ بِٱلْعُنُقِ ، وَيُسَمَّىٰ مَوْطِنُهُمَا بِٱلْمُقَلَّدِ ، وَأَنْفَسُهَا مَا كَانَ مِنَ ٱللُّؤْلُؤِ وَحْدَهُ ، أَوْ مُفَصَّلًا مَعَ غَيْرِهِ مِنَ ٱلْجَوَاهِرِ . وَمِنْهَا ٱلزُّمُرُّدُ وَٱلزَّبَرْجَدُ وَٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ . وَقَدْ يُضَافُ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلشَّذْرُ ، وَهُوَ حَبَّاتٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ ، وَٱلْجُمَانُ وَهِيَ لَآلِىءُ مِنَ ٱلْفِضَّةِ ، وَهُمْ يُسَمُّونَ ٱللُّؤْلُؤَةَ ٱلَّتِي تَوَسَّطَتْ حَبَّاتَ ٱلْعِقْدِ بِٱلْوَاسِطَةِ .

وَٱلتِّقْصَارُ أَوِ ٱلمِخْنَقَةُ : قِلادَةٌ لاصِقَةٌ بِٱلْعُنُقِ .

وَتُسَمَّىٰ ٱلأَهْدَابُ ٱلْمُتَدَلِّيَةُ مِنَ ٱلْقِلادَةِ عَلَىٰ ٱلصَّدْرِ بِٱلسُّمُوطِ ، وَوَاحِدُهَا سِمْطٌ . وَٱلسِّمْطُ أَيْضاً ٱلْخَيْطُ يُنْظَمُ فِيهِ ٱللُّؤْلُؤُ وَغَيْرُهُ .

وَٱلطَّوْقُ : حَلْيٌ يُحِيطُ بِٱلْعُنُقِ ، وَيَغْلِبُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِلأَطْفَالِ .

وَٱلسِّخَابُ : قِلادَةٌ مِنْ قَرَنْفُلٍ أَوْ مَا يُشَابِهُهُ ، وَيَغْلِبُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ لِلأَطْفَالِ أَيْضاً .

وَٱلسَّلْسُ : نَظْمٌ يُنْظَمُ مِنَ الخَرَزِ ، وَلِلْخَرَزِ صُنُوفٌ جَمَّةٌ ، أَجْمَلُهَا وَأَحَبُّهَا ٱلخَرَزُ ٱليَمَانِيُّ ، وَهُوَ صِنْفٌ مِنَ ٱلْخَرَزِ مُحَلًّىٰ .

وَٱلْوِشَاحُ ، وَهُوَ خِيطَانٌ مِنَ ٱلْجَوْهَرِ مَنْظُومَانِ مَخَالَفٌ بَيْنَهُمَا ، مَعْطُوفٌ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ الآخَرِ .

وَٱلسِّوَارُ أَوِ ٱلأَسْوِرَةُ ، وَهُوَ نِطَاقُ ٱلْمِعْصَمِ . وَهُوَ مِنْ خَصَائِصِ ٱلْحَرَائِرِ ، وَفِي أَمْثَالِهِمْ : * لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمَتْنِي *

وَٱلْمِعْضَدُ أَوْ ٱلدُّمْلُجُ : طَوْقُ ٱلْعَضُدِ . وَهُوَ شَبِيهٌ بِٱلسِّوَارِ لِلْيَدِ .

وَٱلْخَاتَمُ وَٱلْفَتَخُ ، وَأَوَّلُهُمَا مَالَهُ فَصٌّ ، وَٱلثَّانِي مَا لا فَصَّ لَهُ . وَكِلاهُمَا يُلْبَسُ في أَصَابِعِ ٱلْيَدَيْنِ وَٱلرِّجْلَيْنِ مَعاً .

وَٱلْخَلْخَالُ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَىٰ مَالَهُ رَنِيْنٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ رَنِينٌ فَهُوَ ٱلْفَتَخُ ، فَإِنْ غَاصَ في ٱلسَّاقِ فَهُوَ ٱلْخَدَمَةُ . وَعِنْدَ ٱلْعَرَبِ صِنْفٌ مِنَ ٱلْحُلْي يُصَاغُ مُجَوَّفاً وَيُحْشَىٰ بِٱلطِّيبِ وَيُسَمَّىٰ ذَلِكَ بِٱلْكَبِيسِ .

وَيُسَمَّىٰ صَوْتُ ٱلْحُلِيِّ بِٱلْوَسْوَاسِ أَوِ ٱلنَّقْنَقَةِ .

وَٱلتَّمِيمَةُ : خَرَزَةٌ تُعَلَّقُ في عُنُقِ ٱلصَّبِيِّ أَوِ ٱلصَّبِيَّةِ ، أَوْ خَيْطٌ تُعَلَّقُ فِيهِ ٱلتَّعَاوِيذُ بِزَعْمِ أَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْهُمُ ٱلآفَاتِ .

* * *

## ٱلطِّيبُ :

٦٣٤ ـ وَمِنْ لَوَاحِقِ ٱلزِّينَةِ عِنْدَهُنَّ ، بَلْ مِنْ أُصُولِهَا وَدَعَائِمِهَا ٱلطِّيبُ ، وَهُوَ زِينَةُ ٱلعَرَبِ جَمِيعاً ، رِجَالًا وَنِسَاءً وَأَطْفَالًا .

وَٱلطِّيبُ عِنْدَهُنَّ عَلَىٰ صِنْفَيْنِ : أَعْوَادٌ يُتَبَخَّرُ بِهَا ، وَدُهْنٌ يُدَّهَنُ بِهِ .

فَمِنَ ٱلأَوَّلِ : ٱلصَّنْدَلُ ؛ وَٱلسَّاجُ ؛ وَٱللُّبْنِيُّ ، وَهُوَ شَجَرٌ يَسِيلُ مِنْهُ لَبَنٌ كَٱلْعَسَلِ في طَعْمِهِ ؛ وَٱلْعُودُ ، وَهُوَ ٱلْمِسْكُ يُعْجَنُ بِٱلْعُودِ ؛ وَٱلرَّنْدُ ، وَهُوَ شَجَرٌ زَكِيُّ ٱلرَّائِحَةِ .

وَمِنْ أَزْهَارِهِنَّ ٱلآسُ ، وَمِنْهُ يُعْتَصَرُ دُهْنٌ يُدَّهَنُ بِهِ .

وَمِنَ ٱلثَّاني : ٱلْعَنْبَرُ ؛ وَٱلْمِسْكُ ؛ وَٱلْغَالِيَةُ ، وَهِيَ أَزْكَىٰ صُنُوفِ ٱلطِّيبِ عِنْدَهُنَّ ، وَتُتَّخَذُ مِنَ ٱلْمِسْكِ يُعْجَنُ بِٱلْعَنْبَرِ وَٱلْبَانِ . فَأَمَّا ٱلْبَانُ فَشَجَرٌ يَسْمُو وَيَطُولُ في ٱستِوَاءٍ وَوَرَقُهُ كَوَرَقِ ٱلأَثْلِ ، وَثَمَرَتُهُ كَقَرْنِ ٱللُّوبِيَاءِ وَلَهَا حَبٌّ يُعْتَصَرُ ، فَيَخْرُجُ مِنْهُ ذَلِكَ ٱلدُّهْنِ .

عَلَىٰ أَنَّ هُنَالِكَ مِنَ ٱلْعَرَبِ ، وَأَخَصُّهُمْ أَهْلُ ٱلْبَادِيَةِ ، مَنْ يَتَوَاصَوْنَ بِٱطِّرَاحِ ٱلطِّيبِ وَتَرْكِ ٱلتَّضَمُّخِ بِهِ ، وَيَرَوْنَ في ٱلْمَاءِ غَنَاءً عَنْهُ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا يَقُولُ ٱلْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ ٱلمَذْحِجِيُّ فِيمَا يُوصِي بِهِ بَنِيهِ : وَتَزَوَّجُوا ٱلأَكْفَاءَ ، وَلْيَسْتَعْمِلْنَ في طِيبِهِنَّ ٱلْمَاءَ .

* * *

## حَضُّهُمُ ٱلرِّجَالَ عَلَىٰ أَنْ يَتَجَمَّلُوا لِزَوْجَاتِهِمْ :

٦٣٥ ـ وَكَمَا حَضُّوا ٱلْمَرْأَةَ عَلَىٰ أَنْ تَتَجَمَّلَ لِزَوْجِهَا حَضُّوا ٱلرَّجُلَ عَلَىٰ أَنْ يَتَجَمَّلَ لِزَوْجَتِهِ .

قَالَ بَعْضُ ٱلْمُفَسِّرِينَ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٨] قَالَ : يَتَزَيَّنُ ٱلرَّجُلُ لِلمَرْأَةِ كَمَا يُحِبُّ أَنْ تَتَزَيَّنَ لَهُ . . . وَيُرْوَىٰ ذَلِكَ عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ .

٦٣٦ ـ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ : لا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلْقَبِيحِ ، فَإِنَّهُنَّ يُحْبِبْنَ مَا تُحِبُّونَ .

٦٣٧ ـ وَأَتَتِ ٱمْرَأَةٌ إِلَىٰ عُمَرَ بِزَوْجٍ لَهَا أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! خَلِّصْنِي مِنْ هَذَا ؛ فَنَظَرَ عُمَرُ ، فَعَرَفَ مَا كَرِهَتْ مِنْهُ ، فَأَشَارَ إِلَىٰ رَجُلٍ ، فَقَالَ : ٱذْهَبْ بِهِ فَحَمِّمْهُ وَقَلِّمْ أَظْفَارَهُ ، وَخُذْ مِنْ شَعَرِهِ وَٱئْتِنِي بِهِ ؛ فَذَهَبَ فَفَعَلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَتَاهُ ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ عُمَرُ أَنْ خُذْ بِيَدِهَا ، فَأَخَذَ بِيَدِهَا وَهِيَ لا تَعْرِفُهُ ، فَقَالَتْ : يَا عَبْدَ ٱللهِ ! سُبْحَانَ ٱللهُ ، أَبَيْنَ يَدَيْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ تَفْعَلُ هَذَا ؟ فَلَمَّا عَرَفَتْهُ ، ذَهَبَتْ مَعَهُ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَكَذَا فَٱصْنَعُوا لَهُنَّ ، فَوَٱللهِ ، إِنَّهُنَّ لَيُحْبِبْنَ أَنْ تَتَزَيَّنُوا لَهُنَّ كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَتَزَيَّنَّ لَكُمْ .

٦٣٨ ـ وَسَمِعَ عُمَرُ ٱمْرَأَةً في ٱلطَّوَافِ تَقُولُ [من الطويل] :

فَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَىٰ بِعَذْبٍ مُبَرَّدٍ نُقَاخٍ فَتِلْكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَّتِ[1]
وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَىٰ بِأَخْضَرَ آجِنٍ أُجَاجٍ فَلَوْلا خَشْيَةُ ٱللهِ فَرَّتِ[2]

فَفَهِمَ عُمَرُ شَكْوَاهَا ، وَٱسْتَدْعَىٰ زَوْجَهَا ، فَرَأَىٰ رَجُلاً قَبِيحاً ، فَخَيَّرَهُ بَيْنَ خَمْسَ مِئَةِ دِرْهَمٍ أَوْ جَارِيَةٍ مِنَ ٱلْفَيْءِ عَلَىٰ أَنْ يُطَلِّقَهَا ، فَٱخْتَارَ خَمْسَ مِئَةِ دِرْهَمٍ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، فَطَلَّقَهَا .

---

(١) النُّقَاخُ : ٱلْمَاءُ ٱلْبَارِدُ ٱلْعَذْبُ ٱلصَّافِي ٱلْخَالِصُ ؛ وَقَرَّتِ : ٱسْتَقَرَّتْ ، مِنْ قَرَّ بِٱلْمَكَانِ .
(٢) ماءٌ أُجاجٌ : مِلْحٌ أَوْ مُرٌّ .

٦٣٩ ـ وَدَخَلَ عِمْرَانُ بْنُ حِطَّانَ عَلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ وَقَدْ تَزَيَّنَتْ ، وَكَانَتْ ٱمْرَأَةً جَمِيلَةً ، وَكَانَ هُوَ قَصِيراً قَبِيحاً ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا ٱزْدَادَتْ فِي عَيْنِهِ حُسْناً ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ عَنْهَا ، فَقَالَتْ : مَالَكَ ؟ قَالَ : أَصْبَحْتِ وَٱللهِ جَمِيلَةً ! فَقَالَتْ : أَبْشِرْ ، فَإِنِّي وَإِيَّاكَ فِي ٱلْجَنَّةِ ؛ قَالَ : مِنْ أَيْنَ عَلِمْتِ هَذَا ؟ قَالَتْ : أُعْطِيتَ مِثْلِي فَشَكَرْتَ ، وَأُعْطِيتُ مِثْلَكَ فَصَبَرْتُ ، وَٱلشَّاكِرُ وَٱلصَّابِرُ فِي ٱلْجَنَّةِ ؛ فَخَجِلَ وَنَهَاهَا أَنْ تَعُودَ لِمِثْلِ مَا قَالَتْ .

٦٤٠ ـ وَخَطَبَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا فَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ ٱللهِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ ٱللهِ : «إِنَّهَا صَغِيرَةٌ !» وَخَطَبَهَا عَلِيٌّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ فَزَوَّجَهَا مِنْهُ . [النسائي ، رقم : ٣٢٢١] وَكَانَ سِنُّ فَاطِمَةَ إِذْ ذَاكَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَسِنُّ عَلِيٍّ إِحْدَىٰ وَعِشْرِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَكَانَ بَيْنَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ أَبُو بَكْرٍ فِي ٱلسِّنِّ ثَمَانِي عَشَرَةَ سَنَةً ، وَبَيْنَ عَلِيٍّ وَعُمَرَ ثَمَانِ سِنِينَ .

* * *

٦٤١ ـ وَتَزَوَّجَ رَجُلٌ عَلَىٰ عَهْدِ عُمَرَ ، وَكَانَ قَدْ خَضَبَ لِحْيَتَهُ ، فَنَصَلَ[1] خِضَابُهُ ، فَٱسْتَعْدَىٰ عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْمَرْأَةِ عُمَرَ ، وَقَالُوا : حَسِبْنَاهُ شَابّاً ! فَأَوْجَعَهُ عُمَرُ ضَرْباً ، وَقَالَ لَهُ : غَرَرْتَ ٱلْقَوْمَ .

٦٤٢ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

أَلَا يَا عِبَادَ ٱللهِ قَلْبِي مُتَيَّمٌ ... بِأَحْسَنِ مَنْ صَلَّىٰ وَأَقْبَحِهِمْ بَعْلَا
يَدُبُّ عَلَىٰ أَحْشَائِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ ... دَبِيبَ ٱلْقَرَنْبَىٰ يَقْرُونَقاً سَهْلَا

ٱنْظُرْ بَابَ ٱلْكَفَاءَةِ تَجِدُ شَرْحَ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ . [ رقم : ٧٤٩ ] .

* * *

(١) نَصَلَ خِضَابُهُ : زَالَ خِضَابُهُ .

# ٱلْبَابُ ٱلثَّالِثُ
# حَضُّهُمُ ٱلرِّجَالَ عَلَىٰ ٱلْوَصَاةِ بِٱلنِّسَاءِ

وَمَا دَامَ هَذَا هُوَ مَرْكَزُ ٱلْمَرْأَةِ ، فَلا جَرَمَ أَنْ يَحُضُّوا عَلَىٰ ٱلْوَصَاةِ بِهَا وَالإِشْفَاقِ عَلَيْهَا .

* * *

٦٤٣ ـ جَاءَ في خُطْبَةِ ٱلْوَدَاعِ[١] مِمَّا يَحُضُّ ٱلنِّساءِ : « وَأَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ، فَٱتَّقُوا ٱللهَ فِي ٱلنِّسَاءِ وَٱسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْراً ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ ، لا يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئاً ، وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ ٱللهِ ، وَٱسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ ٱللهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَإِنَّ ٱللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ ، وَتَضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُم رِزْقُهُنَّ وَكُسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ » [الترمذي ، رقم : ١١٦٣ و٣٠٨٧ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٨٥١] .

قوله ﷺ : «فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٍ» فَعَوَانٍ جَمْعُ عَانِيَةٍ ، وَهِيَ : ٱلأَسِيرَةُ ؛ يَقُولُ ﷺ إِنَّمَا هُنَّ عِنْدَكُمْ بِمَنْزِلَةِ ٱلأَسْرَىٰ .

٦٤٤ ـ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : إِنَّمَا ٱلنِّكَاحُ رِقٌّ ، فَلْيَنْظُرِ ٱمْرُؤٌ مَنْ يَرِقُّ كَرِيمَتَهُ . [قَالَ ٱلْحَافِظُ ٱلْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ

---

(١) هِيَ خُطْبَةُ سَيِّدِنا رَسُولِ ٱللهِ في آخِرِ حِجَّةٍ حَجَّها ، وَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ ، لأَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ لَمْ يَحُجَّ بَعْدَهَا .

ٱلإِحْيَاءِ » : رَوَاهُ أَبُو عُمَرَ ٱلنَّوْقَانِيُّ في « معَاشَرَةِ ٱلأَهْلِينَ » مَوْقُوفاً عَلَى عَائِشَةَ وَأَسْمَاءَ ٱبْنَتَيْ أَبِي بَكْرٍ. قَالَ ٱلْبَيْهَقِيُّ : وَرُوِيَ ذَلِكَ مَرْفُوعاً ، وَٱلْمَوْقُوفُ أَصَحُّ].

٦٤٥ ـ وَقَالَتْ ٱمْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بنِ صَعْصَعَةَ زُوِّجَتْ في طَيِّءٍ [من الطويل] :

وَلا تَحْمَدَنَّ ٱلدَّهْرَ أُخْتٌ أَخاً لَهَا ... وَلا تَـرْثِيَـنَّ ٱلـدَّهْـرَ بِنْـتٌ لِـوَالِـدِ
هُـمُ جَعَلُـوهَـا حَيْـثُ لَيْسَـتْ بِحُـرَّةٍ ... وَهُمْ طَرَحُوهَا في ٱلأَقَاصِي ٱلأَبَاعِدِ

٦٤٦ ـ وَهَكَذَا كَانُوا يُعِدُّونَ ٱلزَّوْجَةَ كَٱلأَسِيرَةِ أَوْ كَالرَّقِيقِ ٱلْمَمْلُوكِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانُوا يُحِثُّونَ عَلَىٰ ٱلوَصَاةِ بِهَا وَٱلرَّحْمَةِ لَهَا وَٱلإِشْفَاقِ عَلَيْهَا ، وَمِنْ ثَمَّ تَرَىٰ هَذِهِ ٱلْعَرَبِيَّةَ تَنْعَىٰ عَلَىٰ ٱلآبَاءِ وَٱلأُخْوَةِ غَلْبَهُمْ ـ تَزْوِيجَهُمْ ـ بَنَاتِهِمْ ، وَتَطْرِيحَهُمْ إِيَّاهُنْ في الأَقَاصِي ٱلأَبَاعِدِ ، وَإِنَّهُمْ لِذَلِكَ لا يَسْتَحِقُّونَ حَمْداً وَثَنَاءً مِنْهُنَّ في حَيَاتِهِمْ ، وَلا رِثَاءً إِذْ هُمْ يَمُوتُونَ ، وَلَكِنْ مَا ٱلْحِيلَةُ ؟ وَإِنَّمَا هِيَ سُنَّةُ ٱللهِ فِي خَلْقِهِ ! وَبَعْدُ ، فَمِسْكِينَةٌ حَقّاً هِيَ ٱلْمَرْأَةُ لَوْ فَكَّرَ ٱلرِّجَالُ ، وَهِيَ لِذَلِكَ حَقِيقَةٌ بِٱلْعَطْفِ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلرِّثَاءِ .

٦٤٧ ـ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ أَبْعَدِ مِنْ أَنَّ ٱلنِّكَاحَ رِقٌ فَجَعَلَهُ وَأْداً لِبَناتِهِمْ .

قَالَ شَاعِرُ « ٱلْحَمَاسَةِ » [من الطويل] :

تَبَغَّىٰ ٱبْنُ كُوزٍ وَٱلسَّفَاهَةُ كَٱسْمِهَا ... لِيَسْتَـادَ مِنَّـا[1] أَنْ شَتَـوْنَـا لَيَـالِيَـا
فَمـا أَكْبَـرُ ٱلأَشْيَـاءِ عِنْـدِي حَـزَازَةً ... بِـأَنْ أُبْـتَ مَـزْرِيًّـا عَلَيْـكَ وَزَارِيَـا
وَأَنَّا عَلَىٰ عَضِّ ٱلزَّمَانِ ٱلَّذِي تَرَىٰ ... نُعالِجُ مِنْ كُرْهِ ٱلْمَخَازِي ٱلدَّوَاهِيَا
فَـلَا تَطْلُبَنْهَـا يـا ٱبْـنَ كُـوزٍ فَـإِنَّـهُ ... غَدَا ٱلنَّاسُ مُذْ قَامَ ٱلنَّبِيُّ ٱلْجَوارِيَا
وَإِنَّ ٱلَّتِـي حُـدِّثْتَهَـا فِـي أُنُـوفِنَـا ... وَأَعْنَـاقِنَـا مِـنَ ٱلإِبَـاءِ كَمَـا هِيَـا

(١) وَقَالَ في « اللِّسانِ » ـ مادّةِ سَوَدَ ـ أَنّ مَعْنَىٰ « لِيَسْتادَ مِنَّا » : أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَّا سَيِّدَةً .

يقول هَذَا ٱلْحَمَاسِيُّ ـ وَكَانَ رَجُلٌ يُسَمَّىٰ يَزِيدُ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ كُوزٍ ٱلأَسَدِيُّ قَدْ خَطَبَ إِلَيْهِ ٱبْنَتَهُ ، فَأَبَىٰ هَذَا ٱلْحَمَاسِيُّ ، وَقَالَ ـ : حَاوَلَ ٱبْنُ كُوزٍ فَتَطَلَّبَ ٱلنِّكَاحَ فِينَا لِيَتَشَرَّفَ وَيَسُودَ ، أَوْ تَطَلَّبَ ٱلنِّكَاحَ في سَادَاتِنَا ، مِنْ أَجْلِ أَنْ شَتَوْنَا ، أَيْ : أَجْدَبْنَا وَأَلَمَّ بِنَا ٱلْقَحْطُ ؛ وَكَانَ هَذَا مِنْه سَفَهاً ، وَٱلسَّفَهُ قَبِيحٌ كَٱسْمِهِ . ثُمَّ قَالَ في ٱلبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَلَيْسَ يَشْتَدُّ عَلَيَّ رُجُوعُكَ خَائِباً غَيْرَ ظَافِرٍ بِطَلَبَتِكَ مُزْرِياً عَلَيْكَ بِرَدِّنَا إِيَّاكَ ، وَزَارِياً عَلَيْنَا لِتَقْدِيرِكَ أَنَّا أَسَأْنَا إِلَىٰ أَنْفُسِنَا بِٱنْصِرَافِكَ عَنَّا . ثُمَّ قَالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلثَّالِثِ : نَحْنُ نُقَاسِيَ ٱلدَّوَاهِي مِنْ شِدَّةِ ٱلْحَالِ وَكَلَبِ ٱلزَّمَانِ هَرَباً مِنَ ٱلْمَخَازِي ؛ ثُمَّ قَالَ : فَلا تَطْلُبَنْهَا يَا ٱبْنَ كُوزٍ . . . ٱلْبَيْتَ ؛ يَقُولُ : لا تُحَاوِلْ يَا ٱبْنَ كُوزٍ أَنْ نُزَوِّجَكَ إِيَّاهَا ، فَإِنَّ تَزَوُّجَكَ إِيَّاهَا وَأْدٌ لَهَا ، وَٱلنَّاسُ مُنْذُ ظَهَرَ ٱلنَّبِيُّ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَنُهِينَا عَنْ وَأْدِ ٱلبَنَاتِ عَلَىٰ يَدَيْه ، قَدْ أَبْقَوا عَلَىٰ ٱلبَنَاتِ وَٱمْتَنَعُوا مِنْ وَأْدِهِنَّ ، فَكَيْفَ نَئِدُ بِنْتَنَا بِتَزْوِيجِكَ إِيَّاهَا ! ثُمَّ قَالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلأَخِيرِ : إِنْ أَصَابَتْنَا ٱلسَّنَةُ ـ أَي : ٱلْجَدْبُ ـ فَنَحْنُ عَلَىٰ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنَ ٱلإِبَاءِ وَعِزَّةِ ٱلنَّفْسِ وَشَرَفِ ٱلْهِمَّةِ ، وَإِنَّمَا خَصَّ الأُنوفَ وَٱلأَعْنَاقَ بِٱلذِّكْرِ لأَنَّهُ يُقَالُ : في أَنْفِ فُلانٍ خُنْزُوَانَةٌ ، وَأَنْفُهُ أَنْفُ ٱللَّيْثِ ، إِذَا أَرَادُوا ٱلْكِبْرَ وَٱلْعِزَّةَ وَٱلأَنَفَةَ ، وَلِذَلِكَ قَوْلُهُمْ : في عُنُقِهِ صَوَرٌ . . .

* * *

٦٤٨ ـ وَلأَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولُ ٱللهِ كَانَ شَدِيدَ ٱلإِشْفَاقِ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ ، كَثِيرَ ٱلْوَصَاةِ بِهِنَّ ، لِمَا كُنَّا يُعَانِينَهُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ تَحَيُّفِ حُقُوقِهِنَّ .

قَالَ صَلَوَاتِ ٱللهِ عَلَيْهِ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ ٱلنِّسَاءَ وَٱلطِّيبُ ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في ٱلصَّلاةِ »[1] [النسائي ، رقم : ٣٩٣٩ و٣٩٤٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٨٨٤

(١) يُورِدُهُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلْمُحَدِّثِينَ هُكَذا : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثلاثٌ . . . » الخ ، بِزِيَادَة=

و١٢٦٤٤ و١٣٦٢٣] قَالَ ٱبْنُ ٱلْحَاجِّ فِي « ٱلْمَدْخَلِ » : إِنَّمَا قَالَ : «حُبِّبَ» بِٱلْفِعْلِ مَجْهُولًا وَلَمْ يَقُلْ : «أَحْبَبْتُ» لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ ذَلِكَ ٱلْحُبَّ إِنَّمَا أُرِيدَ عَلَيْهِ وَأُجْبِرَ لِلتَّشْرِيعِ ، أَمَّا ٱلصَّلاةُ ، فَلَمَّا كَانَ مَفْطُوراً عَلَىٰ مَحَبَّتِهَا قَالَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي ٱلصَّلاةِ » ، وَكَذَلِكَ إِنَّمَا قَالَ : « مِنْ دُنْيَاكُمْ » ، فَأَضَافَهَا إِلَيْهِمْ دُونَهُ ، فَلَمْ يَقُلْ : « دُنْيَايَ » وَلا « مِنَ ٱلدُّنْيَا » ، لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّ حُبَّهُ إِنَّمَا هُوَ مَقْصُورٌ عَلَىٰ مَا يُزْلِفُهُ إِلَىٰ ٱللهِ سُبْحَانَهُ ، مِنَ ٱلصَّلاةِ ٱلَّتِي جُعِلَتْ قُرَّةَ عَيْنِهِ وَٱبْتِهَاجَهُ بِهَا لا غَيْرَ ، إِذْ أَنَّهُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ بَشَرِيٌّ ٱلظَّاهِرِ مَلَكُوتِيُّ ٱلْبَاطِنِ ، وَإِذَا هُوَ بَاشَرَ مَا يَصِحُّ أَنْ يُبَاشِرَهُ ٱلنَّاسُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ كَانَ مِنْهُ تَأْنِيساً لأُمَّتِهِ وَتَشْرِيعاً لَهَا ، وَلِذَا قَدَّمَ ٱلنِّسَاءَ عَلَىٰ ٱلطِّيبِ . . . وَهَذَا كَلامٌ صَحِيحٌ وَحَقٌّ إِذَا نُظِرَ إِلَيْهِ نَظْرَةٌ مُجَرَّدَةٌ مِنَ ٱلْهَوَىٰ بَعِيدَةٌ عَنْ نَزَعَاتِ ٱلشَّيْطَانِ ، فَسَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ يَقُولُ : إِنَّمَا قُرَّةَ عَيْنِي وَٱبْتِهَاجِي فَقَطْ فِيمَا يُقَرِّبُنِي إِلَىٰ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ ٱلصَّلاةِ وَمَا لَفَّ لِفَّهَا ، أَمَّا دُنْيَاكُمْ فَإِنَّمَا أَرَادَنِي ٱللهُ وَإِقَامَةُ شَرَائِعِهِ عَلَىٰ حُبِّ ٱلنِّسَاءِ وَٱلطِّيبِ مِنْهَا ، أَيْ : حُبُّ هَذَا ٱلْجِنْسِ ٱلضَّعِيفِ ، وَكَذَلِكَ حُبُّ ٱلتَّعَطُّرِ ، لِيَكُونَ لَكُمْ بِي فِي ذَلِكَ أُسْوَةٌ ، فَتَسْتَوْصُوا بِٱلنِّسَاءِ خَيْراً ، وَتَتَجَمَّلُوا بِكُلِّ مَا هُوَ جَمِيلٌ ، بِمَا يُجَمِّلُ بَاطِنَكُمْ وَمَا يُجَمِّلُ ظَاهِرَكُمْ . . .

٦٤٩ ـ وَلْنَمْضِ فِي شَرْحِ كَلِمَةِ ٱلرَّسُولِ ﷺ عَنِ ٱلنِّسَاءِ فِي خُطْبَةِ ٱلْوَدَاعِ ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَإِنَّكُمْ إِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ ٱللهِ » ، يَقُولُ : إِنَّ ٱللهَ ٱئْتَمَنَكُمْ

---

= « ثَلاثٍ » وَهَذِهِ « ثَلاثٌ » فَضْلًا عَنْ أَنَّها تُفْسِدُ ٱلْمَعْنَىٰ ، فَإِنَّ سَيِّدَنا رَسُولُ ٱللهِ لَمْ يَقُلْها ، قَال ٱبْن قَيِّمِ ٱلْجَوْزِيَّةِ : مَنْ رَوَاهُ : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْياكُمْ ثَلاثٌ » فَقَدْ وَهِمَ ، وَلَمْ يَقُلْ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ « ثَلاثٌ » وَالصَّلاةُ لَيْسَتْ مِنْ أُمُورِ ٱلدُّنْيا حَتَّىٰ تُضافُ إِلَيْها . وَكَذَلِكَ أَنْكَرَ كَلِمَةَ : « ثَلاثٍ » ٱلْحافِظُ ٱبْنُ حَجَرٍ وَٱلزَّرْكَشِيُّ وَغَيْرُهُما مِنْ رِجالِ ٱلْحَدِيثِ : وَٱنْظُرْ « ٱلْمَوَاهِبَ اللَّدُنِّيَّة » وَشَرْحَها لِلزُّرْقاني ج٥ ص٥١ وَما بَعْدَها .

عَلَيْهِنَّ فَيَجِبُ حِفْظُ ٱلأَمَانَةِ وَصِيَانَتُهَا بِمُرَاعَاةِ حُقُوقِهَا وَٱلْقِيَامِ بِمَصَالِحِهَا ٱلدِّينِيَّةِ وَٱلدُّنْيَوِيَّةِ ؛ وَقَوْلُهُ : « وَٱسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ ٱللهِ » ، فَكَلِمَةُ ٱللهِ هِي كَلِمَةُ ٱلنِّكَاحِ ٱلَّتِي تُسْتَحَلُّ بِهَا ٱلْفُرُوجُ ، أَيْ : ٱلصِّيَغُ ٱلَّتِي يَنْعَقِدُ بِهَا ٱلنِّكَاحُ مِنْ إِيجَابٍ وَقُبُولٍ ؛ وَأَمَّا قَوْلُهُ : « لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً تَكْرَهُونَهُ » فَٱلْمَعْنَىٰ : أَنَّهُ لَيْسَ لِلزَّوْجَةِ أَنْ تُمَكِّنَ أَحَداً مَا ، وَلَوِ ٱمْرَأَةً أَوْ مُحْرَماً ، مِنْ دُخُولِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلَّا إِذَا عَلِمَتْ عَدَمَ كَرَاهِيَّةِ زَوْجِهَا لِذَلِكَ ؛ وَعَبَّرَ بِٱلْفُرُشِ لأَنَّ ٱلدَّاخِلَ يَطَأُ فِرَاشَ ٱلْمَنْزِلِ ٱلَّذِي يَدْخُلُهُ ، قَالَ ٱلإِمَامُ ٱلْخَطَّابِيُّ : مَعْنَىٰ ٱلْحَدِيثِ : أَنَّهُ لا يُؤْذَنُ لأَحَدٍ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَنْ يَدْخُلَ فَيَتَحَدَّثُ إِلَيْهِنَّ ، وَكَانَ ٱلْحَدِيثُ مِنَ ٱلرِّجَالِ إِلَىٰ ٱلنِّسَاءِ مِنْ عَادَاتِ ٱلْعَرَبِ لا يَعُدُّونَهُ عَيْباً وَلا رِيبَةً ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ ٱلْحِجَابِ وَصَارَ ٱلنِّسَاءُ مَقْصُورَاتٍ ، نَهَىٰ عَنْ مُحَادَثَتِهِنَّ وَٱلْقُعُودِ إِلَيْهِنَّ ؛ وَقَولُهُ ﷺ : « فَإِنْ فَعَلْنَ فَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ » يُرِيدُ : لا تُحَوِّلُوهُنَّ إِلَىٰ بَيْتٍ آخَرَ ، وَلا تَتَحَوَّلُوا أَنْتُمْ عَنْهُنَّ وَلَكِنِ ٱهْجُرُوهُنَّ فِي مَضَاجِعِهِنَّ ، قِيلَ : هُوَ أَنْ يَنَامَ مَعَهَا فِي ٱلْمَضْجَعِ وَلَكِنْ يُوَلِّيهَا ظَهْرَهُ وَلا يُكَلِّمَهَا وَلا يُجَامِعَهَا ، وَقِيلَ : هُوَ أَنْ يَتْرُكَ مَضْجَعَهَا وَيَنَامَ فِي مَضْجَعِ غَيْرِهِ وَلَكِنْ فِي بَيْتِهَا ، وَٱلْمُبَرِّحُ : ٱلشَّاقُّ ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ فِي حَدِيثٍ آخَرَ : «لا يَجْلِدُ أَحَدُكُمْ ٱمْرَأَتَهُ جَلْدَ ٱلْبَعِيرِ ، ثُمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخِرِ ٱلْيَوْمِ» [البخاري ، رقم : ٤٩٤٢ ؛ مسلم ، رقم : ٢٨٥٥] وَقَوْلُهُ : بِٱلْمَعْرُوفِ ، أَيْ بِحَسَبِ طَاقَتِكُمْ . .

وَسَيَمُرُّ عَلَيْكَ صَدْرٌ مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلْحِجَابِ . [ الأرقام : ٧٢٠ ـ ٧٣٨ ]

* * *

٦٥٠ ـ وَجَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : «أَكْمَلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» [الترمذي ، رقم : ١١٦٢ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٧٩٢] .

وَقَوْلُهُ صَلَّىٰ ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ» أَيْ : مَنْ يُعَامِلُهُنَّ بِٱلصَّبْرِ عَلَىٰ أَخْلاقِهِنَّ ، وَبِطَلاقَةِ ٱلْوَجْهِ وَٱلإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ وَكَفِّ ٱلأَذَىٰ عَنْهُنَّ ، وَبَذْلِ ٱلنَّدَىٰ إِلَيْهِنَّ ، وَحِفْظِهِنَّ مِنَ ٱلْمَزَالِقِ وَمَوَاطِنِ ٱلرِّيَبِ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ ٱلْمُصْطَفَىٰ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ أَحْسَنُ ٱلنَّاسِ مُعَاشَرَةً لِنِسَائِهِ .

* * *

٦٥١ ـ وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « إِنَّمَا ٱلْمَرْأَةُ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ عَوْجَاءَ ، فَإِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ إِقَامَتِهَا تَكْسِرْهَا ، فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا » [راجع البخاري ، رقم : ٥١٨٤ ؛ ومسلم ، رقم : ١٤٦٨] .

ٱلضِّلْعُ وَٱلضِّلَعُ لُغَتَانِ ، وَشَاهِدُ ٱلضِّلَعِ قَوْلُ حَاجِبِ بْنِ ذُبْيَانَ [من الطويل] :

هِيَ ٱلضِّلَعُ ٱلْعَوْجَاءُ لَسْتَ تُقِيمُهَا     أَلَا إِنَّ تَقْوِيمَ ٱلضُّلُوعِ ٱنْكِسَارُهَا

وَشَاهِدُ ٱلضِّلْعِ قَوْلُ ٱبْنِ مُفَرِّغٍ [من مجزوء الكامل] :

وَرَمَقْتُهَا فَوَجَدْتُهَا     كَٱلضِّلْعِ لَيْسَ لَهَا ٱسْتِقَامَهْ

وَٱلضِّلْعُ : مَحْنِيَّةُ ٱلْجَنْبِ ـ عَظْمٌ مُسْتَطِيلٌ مِنْ عِظَامِ ٱلْجَنْبِ مُنْحَنٍ ـ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ ، وَٱلْحَدِيثُ تَمْثِيلٌ ، وَٱلْمُرَادُ ٱلإِرْشَادُ إِلَىٰ سِيَاسَةِ ٱلنِّسَاءِ ؛ بِأَخْذِ ٱلْعَفْوِ مِنْهُنَّ وَٱلصَّبْرِ عَلَىٰ عِوَجِهِنَّ ، وَإِنَّ مَنْ رَامَ تَقْوِيمَهُنَّ فَاتَهُ ٱلانْتِفَاعُ بِهِنَّ ، مَعَ أَنَّهُ لا غِنَىٰ عَنِ ٱمْرَأَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَسْتَعِينُ بِهَا عَلَىٰ مَعَاشِهِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : ٱلاسْتِمْتَاعُ بِٱلْمَرْأَةِ لا يَتِمُّ إِلَّا بِٱلصَّبْرِ عَلَيْهَا ، وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ هَذَا ٱلْحَدِيثِ : « إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَىٰ طَرِيقَةٍ ، فَإِنِ ٱسْتَمْتَعْتَ بِهَا ٱسْتَمْتَعْتَ وَفِيهَا عِوَجٌ ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا ، وَكَسْرُهَا طَلاقُهَا » [البخاري ، رقم : ٣٣٣١ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٦٨] ، نَبَّهَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ إِلَىٰ أَنَّهُ يَنْبَغِي

مُدارَاتِهُنَّ وَأَنْ لا يُنَغِّصَ عَلَيْهِنَّ في أَخْلاقِهِنَّ وَٱنْحِرَافِ طَبَائِعِهِنَّ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَىٰ مُفَارَقَتِهِنَّ .

٦٥٢ ـ وَقَالَ ٱلإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ [ « الإحياء » ٢/ ٤٣ ] ، وَذَكَرَ حُقُوقَ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَحُقُوقَهُ عَلَيْهَا : أَمَّا ٱلْمَرْأَةُ ، فَلَهَا عَلَىٰ زَوْجِهَا أَنْ يُعَاشِرَهَا بِٱلْمَعْرُوفِ ، وَأَنْ يُحَسِّنَ خُلُقَهُ مَعَهَا . قَالَ : وَلَيْسَ حُسْنُ ٱلْخُلُقِ مَعَهَا كَفَّ ٱلأَذَىٰ عَنْهَا ، بَلِ ٱحْتِمَالَ ٱلأَذَىٰ مِنْهَا ، وَٱلْحِلْمَ عَلَىٰ طَيْشِهَا وَغَضَبِهَا ، ٱقْتِدَاءً بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَقَدْ كَانَ أَزْوَاجُهُ يُرَاجِعْنَهُ فِي ٱلْكَلامَ ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ إِلى ٱللَّيْلِ ؛ وَرَاجَعَتِ ٱمْرَأَةُ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ٱلْكَلامَ ، فَعَلاهَا بِٱلدُّرَّةِ [ وَقَالَ ] : أَتُرَاجِعِينِي يَا لُكَاعِ ! فَقَالَتْ : إِنَّ أَزْوَاجَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ يُرَاجِعْنَهُ ، وَهُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ؛ فَقَالَ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ : خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ إِنْ رَاجَعَتْهُ ﷺ ؛ ثُمَّ قَالَ لِحَفْصَةَ : لا تَغْتَرِّي بِٱبْنَةِ ٱبْنِ أَبِي قُحَافَةَ ، فَإِنَّهَا حِبُّ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ(١) .

٦٥٣ ـ وَدَفَعَتْ إِحْدَاهُنَّ في صَدْرِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَزَجَرَتْهَا أُمُّهَا ، فَقَالَ : « دَعِيهَا ! فَإِنَّهُنَّ يَصْنَعْنَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ » . [قَالَ ٱلْحَافِظُ ٱلْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ ٱلإِحْيَاءِ » : لَمْ أَقِفْ لَه على أَصْلٍ .] .

٦٥٤ ـ وَجَرَىٰ بَيْنَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ وَبَيْنَ عَائِشَةَ كَلامٌ حَتَّىٰ أُدْخِلَ أَبُو بَكْرٍ حَكَماً بَيْنَهُ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ وَبَيْنَهَا ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « تَكَلَّمِي أَوْ أَتَكَلَّمُ ؟ » فَقَالَتْ : تَكَلَّمْ أَنْتَ وَلا تَقُلْ إِلّا حَقّاً .. فَلَطَمَهَا أَبُو بَكْرٍ حَتَّىٰ أَدْمَىٰ فَاهَا ، وَقَالَ : أَوَ يَقُولُ غَيْرَ ٱلْحَقِّ يَا عُدَيَّةَ نَفْسِهَا ؟! فَٱسْتَجَارَتْ بِرَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَقَعَدَتْ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَقَالَ لَهُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّا لَمْ نَدْعُكَ لِهَذَا » ، أَوْ : « لَمْ نُرِدْ مِنْكَ هَذَا » . [ قَالَ ٱلْحَافِظُ ٱلْعِرَاقِيُّ فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ ٱلإِحْيَاءِ » : أَخْرَجَهُ

---

(١) يُرِيدُ بِٱبْنَةِ أَبِي قُحَافَةِ : ٱلسَّيِّدَةَ عائِشَةَ ؛ وَحُبُّ رَسُولِ ٱللهِ ، أَيْ : مَحْبُوبَتُهُ .

ٱلطَّبرانِيُّ فِي « ٱلأَوْسَطِ » ، وَٱلْخَطِيبُ فِي « ٱلتَّارِيخِ » ، مِن حَدِيثِ عَائِشَةَ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ ] .

٦٥٥ ـ وَكَانَ ﷺ يَقُولُ لهَا : « إِنِّي لأَعْرِفُ إِذَا كُنْتِ عَنِّي رَاضِيَةً ، وَإِذَا كُنْتِ عَلَيَّ غَضْبَى » ، قَالَتْ : وَكَيْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « إِذَا رَضِيتِ قُلْتِ : لا وَإِلٰهِ مُحَمَّدٍ ، وَإِذَا غَضِبْتِ قُلْتِ : لا وَإِلٰهِ إِبْرَاهِيمَ » قَالَتْ : أَجَلْ يَا رَسُولَ ٱللهِ ، مَا أَهْجُرُ إِلَّا ٱسْمَكَ . [ البخاري ، رقم : ٥٢٢٨ ؛ مسلم ، رقم : ٢٤٣٩ ] .

٦٥٦ ـ قَالَ : وَيُقَالُ : إِنَّ أَوَّلَ حُبٍّ وَقَعَ فِي ٱلإِسْلامِ حُبُّ ٱلنَّبِيِّ ﷺ لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ تَعَالَىٰ عَنْهَا .

٦٥٧ ـ قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ [ « الإحياء » ٢/ ٤٤ ] : وَأَعْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَزِيدَ عَلَىٰ ٱحْتِمَالِ ٱلأَذَىٰ بِٱلْمُدَاعَبَةِ وَٱلْمُزَاحِ وَٱلْمُلاعَبَةِ ، فَهِيَ ٱلَّتِي تُطَيِّبُ قُلُوبَ ٱلنِّسَاءِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ ٱللهِ يَمْزَحُ مَعَهُنَّ وَيَتَنَزَّلُ إِلَىٰ دَرَجَاتِ عُقُولِهِنَّ فِي ٱلأَعْمَالِ وَٱلأَخْلاقِ ، حَتَّىٰ يُرْوَىٰ أَنَّهُ كَانَ يُسَابِقُ عَائِشَةَ فِي ٱلْعَدْوِ ، فَسَبَقَتْهُ يَوْماً وَسَبَقَهَا فِي بَعْضِ ٱلأَيَّامِ ، وَقَالَ : « هَذِهِ بِتِلْكَ » [أبو داود ، رقم : ٢٥٧٨ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٧٩] . [ راجع رقم : ٥٣٣ ] .

٦٥٨ ـ وَفِي ٱلْخَبَرِ أَنَّهُ ﷺ ، كَانَ مِنْ أَفْكَهِ ٱلنَّاسِ مَعَ نِسَائِهِ ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : سَمِعْتُ أَصْوَاتَ أُنَاسٍ مِنَ ٱلْحَبَشَةِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَتُحِبِّينَ أَنْ تَرَي لَعِبَهُمْ ؟ » قَالَتْ : قُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ ٱللهِ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ ، فَجَاءُوا ، وَقَامَ رَسُولُ ٱللهِ بَيْنَ ٱلْبَابَيْنِ وَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَىٰ ٱلبَابِ وَمَدَّ يَدَهُ ، وَوَضَعْتُ ذَقْنِي عَلَىٰ ذِرَاعِهِ ، وَجَعَلُوا يَلْعَبُونَ وَأَنَا أَنْظُرُ ، وَجَعَلَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَقُولُ : « حَسْبُكِ ؟ » ، وَأَقُولُ : ٱسْكُتْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً ؛ ثُمَّ قَالَ : « يَا عَائِشَةُ ! حَسْبُكِ الآنَ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ ؛ فَأَشَارَ

إِلَيْهِمْ ، فَٱنْصَرَفُوا . [ راجع البخاري ، رقم : ٩٥٠ ؛ مسلم ، رقم : ٨٩٢ ] .

٦٥٩ ـ وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مَعَ خُشُونَتِهِ : يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ في أَهْلِهِ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ ٱلصَّبِيِّ ، فاذا ٱلتُمِسَ ما عندَه وُجِدَ رَجلًا .

وَفي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَرْوِيِّ: « إِنَّ ٱللهَ يُبْغِضُ ٱلْجَعْظَرِيَّ ٱلْجَوَّاظَ »[1] [« كنز العمال » ، رقم : ٤٣٦٧٩] .

٦٦٠ ـ قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ [ « الإحياء » ٢/ ٤٤ ] : وَيَنْبَغِي مَعَ هَذَا أَنْ لا يَنْبَسِطَ في ٱلْمُدَاعَبَةِ وَلِينِ ٱلْخُلُقِ وَٱلْمُوَافَقَةِ بِٱتِّبَاعِ هَوَاهَا إِلَىٰ حَدٍّ يُسْقِطُ هَيْبَتَهُ ، وَيُفْسِدُ خُلُقَهَا ، بَلْ يُرَاعِي ٱلاعْتِدَالَ في ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَلا يَدَعُ ٱلْهَيْبَةَ وَٱلانْقِبَاضَ مَهْمَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ ، وَلا يَفْتَحُ بَابَ ٱلْمُسَاعَدَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ ٱلبَتَّةَ ، بَلْ كُلَّمَا رَأَىٰ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ تَنَمَّرَ وَٱمْتَعَضَ . قَالَ ٱلْحَسَنُ : مَا أَطَاعَ رَجُلٌ ٱمْرَأَتَهُ فِيمَا تَهْوَىٰ إِلَّا كَبَّهُ ٱللهُ فِي ٱلنَّارِ ، وَقَالَ ﷺ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلزَوْجَةِ » [قَالَ ٱلْحَافِظُ ٱلعِرَاقِي فِي « تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ ٱلإِحْيَاءِ » : لَمْ أَقِفْ لَهُ عَلَى أَصْلٍ .] ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لأَنَّهُ إِذَا أَطَاعَهَا في هَوَاهَا فَهُوَ عَبْدُهَا ، وَقد تَعِسَ ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانهُ قَدْ مَلَّكَهُ ٱلْمَرْأَةَ فَمَلَّكَهَا هُوَ نَفْسَهُ ، فقَدْ عَكَسَ ٱلأَمْرَ وَقَلَبَ ٱلْقَضِيَّةَ ، وَأَطَاعَ ٱلشَّيْطَانَ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١١٩] إِذْ حَقُّ ٱلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ مَتْبُوعاً لا تَابِعًا ، وَقَدْ سَمَّىٰ ٱللهُ تَعَالَىٰ ٱلرِّجَالَ : ﴿ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] وَسَمَّىٰ ٱلزَّوْجَ سَيِّداً ، فَقَالَ : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [١٢ سورة يوسف/ الآية : ٢٥] فَإِذَا ٱنْقَلَبَ ٱلسَّيِّدُ مُسَخَّراً ، فَقَدْ بَدَّلَ نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْراً ، وَنَفْسُ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ مِثالِ نَفْسِكَ ، إِنْ أَرْسَلْتَ عِنَانِهَا قَلِيلًا جَمَحَتْ بِكَ طَوِيلًا ، وَإِنْ أَرْخَيْتَ زِمَامَهَا فِتْراً جَذَبَتْكَ ذِرَاعاً ، وَإِنْ كَبَحْتَهَا وَشَدَدْتَ يَدَكَ عَلَيْهَا فِي مَحَلِّ

---

(١) ٱلجَعْظَرِيُّ : ٱلْفَظُّ ٱلْغَلِيظُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ؛ وَٱلْجَوَّاظُ : ٱلْبَطِرُ ٱلكَفُورُ .

ٱلشِّدَّةِ مَلَكْتَهَا ، وَقَالَ ٱلشَّافِعِيُّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : ثَلاثَةٌ إِنْ أَكْرَمتَهُمْ أَهَانُوكَ ، وَإِنْ أَهَنْتَهُمْ أَكْرَمُوكَ ؛ فَذَكَرَ مِنْهُمُ ٱلْمَرْأَةَ ؛ أَرَادَ إِنْ مَحَضْتَ لَهُمُ ٱلإِكْرَامَ وَلَمْ تَمْزِجْ غِلَظَكَ بِلِينِكَ وَفَظَاظَتَكَ بِرِفْقِكَ .

٦٦١ ـ وَكَانَ نِسَاءُ ٱلْعَرَبِ يُعَلِّمْنَ بَنَاتِهِنَّ ٱخْتِبَارَ ٱلأَزْوَاجِ ؛ فَكَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ تَقُولُ لِابْنَتِهَا : ٱخْتَبِرِي زَوْجَكِ قَبْلَ ٱلإِقْدَامِ وَٱلْجُرْأَةِ عَلَيْهِ ، فَٱنْزَعِي زُجَّ رُمْحِهِ ، فَإِنْ سَكَتَ فَقَطِّعِي ٱللَّحْمَ عَلَىٰ تُرْسِهِ ، فَإِنْ سَكَتَ فَكَسِّرِي ٱلْعِظَامَ بِسَيْفِهِ ، فَإِنْ صَبَرَ فَٱجْعَلِي ٱلإِكَافَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ وَٱمْتَطِيهِ ، فَإِنَّمَا هُوَ حِمَارُكِ . [ راجع رقم : ٨٠١ ] .

٦٦٢ ـ وَعَلَىٰ ٱلْجُمْلَةِ ، فَبِٱلْعَدْلِ قَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلأَرْضُ ، وَكُلُّ مَا جَاوَزَ حَدَّهُ ٱنْقَلَبَ إِلَىٰ ضِدِّهِ ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ ٱلاقْتِصَادِ فِي ٱلْمُخَالَفَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ وَتَتَبَّعَ ٱلْحَقَّ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لِتَسْلَمَ مِنْ شَرِّهِنَّ .

وَمِمَّا يَجْمُلُ إِيرَادُهَا هُنَا مَا رُوِيَ : أَنَّ ٱمْرَأَةً أَتَتْ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ ، فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! إِنَّ زَوْجِي يَصُومُ ٱلنَّهَارَ وَيَقُومُ ٱللَّيْلَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَشْكُوَهُ إِلَيْكَ وَهُوَ يَقُومُ بِطَاعَةِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ! فَقَالَ لَهَا : جَزَاكِ ٱللهُ خَيْراً مِنْ مُثْنِيَةٍ عَلَىٰ زَوْجِهَا ؛ وَكَأَنَّ عُمَرَ لَمْ يَفْهَمْ عَنْهَا ، وَكَانَ فِي ٱلْمَجْلِسِ كَعْبُ بْنُ سُوْرٍ ٱلأَزْدِيُّ ، فَأَخْبَرَ عُمَرَ أَنَّهَا تَشْكُو أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا مِنْ زَوْجِهَا نَصِيبٌ ؛ فَأَمَرَهُ عُمَرُ أَنْ يَسْمَعَ مِنْهَا وَيَقْضِيَ بَيْنَهُمَا ، فَقَضَىٰ لِلْمَرْأَةِ بِيَومٍ مِنْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَلَيْلَةٍ مِنْ أَرْبَعِ لَيَالٍ ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَاكَ ، فَقَالَ : إِنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَحَلَّ لَهُ أَرْبَعَ نِسْوَةٍ لا زِيَادَةَ ، فَلَهَا لَيْلَةٌ مِنْ أَرْبَعِ لَيَالٍ .

٦٦٣ ـ وَقَدْ رَوَىٰ ٱلشَّعْبِيُّ هَذَا ٱلْخَبَرَ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ ، قَالَ : إِنَّ كَعْبَ بْنَ سُوْرٍ كَانَ جَالِساً عِنْدَ عُمَرَ ، فَجَاءَتْهُ ٱمْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ : مَا رَأَيْتُ رَجُلاً قَطُّ أَفْضَلَ

مِنْ زَوْجِي ، إِنَّهُ لَيَبِيتُ لَيْلَهُ قَائِماً وَيَظَلُّ نَهَارَهُ صَائِماً فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْحَارِّ مَا يُفْطِرُ ؛ فَٱسْتَغْفَرَ لَهَا عُمَرُ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهَا ، وَقَالَ : مِثْلُكِ أَثْنَىٰ بِٱلْخَيْرِ ؛ فَٱسْتَحْيَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَقَامَتْ رَاجِعَةً ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ سُوْرٍ : يَا أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! هَلْ أَعْدَيْتَ ٱلْمَرْأَةَ عَلَىٰ زَوْجِهَا إِذْ جَاءَتْكَ تَسْتَعْدِيكَ[1] ؟ فَقَالَ عُمَرُ : أَكَذَلِكَ أَرَادَتْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ قَالَ : رُدُّوا عَلَيَّ ٱلْمَرْأَةَ ؛ فَرُدَّتْ ، فَقَالَ لَهَا : لا بَأْسَ بِٱلْحَقِّ أَنْ تَقُولِيهِ ، إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّكِ جِئْتِ تَشْتَكِينَ زَوْجَكِ أَنَّهُ يَجْتَنِبُ فِرَاشَكِ ؛ قَالَتْ : أَجَلْ ، إِنِّي ٱمْرَأَةٌ شَابَّةٌ ، وَإِنِّي أَبْتَغِي مَا يَبْتَغِي ٱلنِّسَاءُ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَىٰ زَوْجِهَا ، فَجَاءَ ، فَقَالَ لِكَعْبٍ : ٱقْضِ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَالَ : أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِنَ أَحَقُّ بِأَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا ؛ فَقَالَ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَتَقْضِيَنَّ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّكَ فَهِمْتَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا لَمْ أَفْهَمْ ؛ قَالَ : فَإِنِّي أَرَىٰ أَنَّ لَهَا يَوْماً مِنْ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ إِنْ كَانَ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرُهَا ، فَإِنِّي أَقْضِي لَهُ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ يَتَعَبَّدُ فِيهِنَّ ، وَلَهَا يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ ؛ فَقَالَ عُمَرُ : ٱذْهَبْ ، فَأَنْتَ قَاضٍ عَلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ . . .

٦٦٤ ـ وَمِمَّا يَصِحُّ إِيرَادُهُ فِي هَذَا ٱلْمَوْضِعِ ذَرْوٌ مِنْ حَثِّهِمْ عَلَىٰ ٱلْبِرِّ بِٱلأُمَّهَاتِ ، قَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ « ٱلْجَنَّةُ تَحْتَ أَقْدَامِ ٱلأُمَّهَاتِ » [« الجامع الصغير » ، رقم : ٣٦٤٢] .

وَٱلْمُرَادُ : أَنْ يَكُونَ ٱلإِنْسَانُ فِي بِرِّ أُمِّهِ وَخِدْمَتِهَا كَٱلتُّرَابِ تَحْتَ قَدَمَيْهَا ، مُؤْثِراً لِهَوَاهَا عَلَىٰ هَوَاهُ ، مُقَدِّماً بِرَّهَا عَلَىٰ سِوَاهَا ، لِتَحَمُّلِهَا شَدَائِدَ حَمْلِهِ وَرَضَاعِهِ وَتَرْبِيَتِهِ .

٦٦٥ ـ وَقِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ :

---

(١) يُقَالُ : ٱسْتَعْدَيْتَ ٱلأَمِيرَ عَلَىٰ فُلانٍ فَأَعْدَانِي ، أَيْ : ٱسْتَعَنْتُ بِهِ عَلَيْهِ فَأَعَانَنِي ، والاسْمُ مِنْهُ ٱلْعَدْوَىٰ ، وَهِيَ : طَلَبُ ٱلْمَعُونَةِ .

إِنَّكَ مِنْ أَبَرِّ ٱلنَّاسِ بِأُمِّكَ ، وَلسْنَا نَرَاكَ تَأْكُلُ مَعَ أُمِّكَ فِي صَحْفَةٍ ! فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ تَسْبِقَ يَدِي إِلَىٰ مَا قَدْ سَبَقَتْ عَيْنُهَا إِلَيْهِ فَأَكُونُ قَدْ عَقَقْتُهَا .

٦٦٦ ـ وَمِنْ طُرَفِهِمْ مَا رَوَاهُ ٱلْمُبَرِّدُ [« الكامل » صفحة : ٤٣٧] : أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلٌ وَهُوَ يَطُوفُ بِٱلْبَيْتِ وَهُوَ يَدْعُو لأُمِّهِ وَلايَذْكُرُ أَبَاهُ ، فَعُوتِبَ ، فَقَالَ : هَٰذِهِ ضَعِيفَةٌ وَأَبِي رَجُلٌ يَحْتَالُ لِنَفْسِهِ .

٦٦٧ ـ قَالَ [« الكامل » صفحة : ٤٣٧] : وَرَأَيْتُ رَجُلًا يَطُوفُ بِٱلْبَيْتِ وَأُمُّهُ عَلَىٰ عُنُقِهِ وَهُوَ يَقُولُ [من الرجز] :

أَحْمِلُ أُمِّي وَهْيَ ٱلْحَمَّالَهْ تُرْضِعُنِي ٱلدِّرَّةَ وَٱلْعُلالَهْ
وَلا يُجَازَىٰ وَالِدٌ فَعَالَهْ[1]

٦٦٨ ـ وَقَدْ أَوْرَدْنَا كَثِيراً مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي بِرِّ ٱلْوَالِدَيْنِ فِي ٱلْمُجَلَّدِ ٱلأَوَّلِ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ [أَيْ : أَوَّلِ هَذَا الكِتَابِ ؟] . وَٱسْتِيفَاءً لِهَذَا ٱلْبَابِ ، بَابِ ٱلْحَثِّ عَلَىٰ ٱلْوَصَاةِ بِٱلنِّسَاءِ ، نُورِدُ صَدْراً مِنَّ حَثِّهِمْ عَلَىٰ مَحَبَّةِ ٱلْبَنَاتِ . . .

٦٦٩ ـ يُرْوَىٰ أَنَّ مَعْنَ بنَ أَوْسٍ ٱلْمُزَنِيَّ ـ شَاعِرٌ إِسْلامِيٌّ مِنَ ٱلْفُحُولِ ـ كَانَ مِئْنَاثاً ، وَكَانَ لَهُ ثَمَانِ بَنَاتٍ ، وَكَانَ يُحْسِنُ صُحْبَتَهُنَّ وَتَرْبِيَتَهُنَّ ، فَوُلِدَ لِبَعْضِ عَشِيرَتِهِ بِنْتٌ ، فَكَرِهَهَا وَأَظْهَرَ جَزَعاً مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ مَعْنٌ [من الطويل] :

رَأَيْتُ رِجَالًا يَكْرَهُونَ بَنَاتِهِمْ وَفِيهِنَّ ـ لا تُكْذَبْ ـ نِسَاءٌ صَوَالِحُ
وَفِيهِنَّ ، وَٱلأَيَّامُ يَعْثُرْنَ بِٱلْفَتَىٰ عَوَائِدُ لا يَمْلَلْنَهُ وَنَوَائِحُ

٦٧٠ ـ وَدَخَلَ عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ عَلَىٰ مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ ٱبْنَتُهُ عَائِشَةُ ، فَقَالَ :

---

(١) ٱلدِّرَّة : ٱسْمُ ما يَدِرُّ مِنْ ثَدْيِها ٱبْتِدَاءً كانَ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ وَٱلْعُلالَةُ لا تُكونُ إِلّا بَعْدَ حَلْبِ ٱلدِّرَّةِ ؛ وَفَعَالَه ، أَيْ : فِعْلُهُ ٱلْحَسَنُ .

مَنْ هَذِهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ تُفَّاحَةُ ٱلْقَلْبِ ؛ فَقَالَ : ٱنْبِذْهَا عَنْكَ ؛ قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُنَّ يَلِدْنَ ٱلأَعْدَاءَ ، وَيُقَرِّبْنَ ٱلْبُعَدَاءَ ، وَيُوَرِّثْنَ ٱلضَّغَائِنَ ؛ فَقَالَ : لا تَقُلْ ذَلِكَ يَا عَمْرُو ، فَوَٱللهِ مَا مَرَّضَ ٱلْمَرْضَىٰ وَلا نَدَبَ ٱلْمَوْتَىٰ وَلا أَعَانَ عَلَىٰ ٱلأَحْزَانِ ، مِثْلُهُنَّ ، وَإِنَّكَ لَوَاجِدُ خَالًا قَدْ نَفَعَهُ بَنُو أُخْتِهِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : مَا أَعْلَمُكَ إِلَّا حَبَّبْتَهُنَّ إِلَيَّ . . .

٦٧١ ـ وَقَالَ أَبُو خَالِدٍ ٱلْقِنَانِيُّ ـ وَكَانَ مِنَ ٱلْخَوَارِجَ ـ [«الكامل» صفحة: ١٠٨٢]: وَكَانَ قَطَرِيُّ بْنُ ٱلْفُجَاءَةِ دَعَاهُ إِلَىٰ ٱلْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ ، فَقَالَ [من الوافر] :

لَقَـدْ زَادَ ٱلْحَيَـاةَ إِلَـيَّ حُبًّـا ... بَنَـاتِـي ، إِنَّهُـنَّ مِـنَ ٱلضِّعَـافِ

أُحَـاذِرُ أَنْ يَـرَيْـنَ ٱلْبُـؤْسَ بَعْـدِي ... وَأَنْ يَشْـرَبْـنَ رَنْقـاً بَعْـدَ صَـافِ[1]

وَأَنْ يَعْـرَيْـنَ إِنْ كُسِـيَ ٱلْجَـوَارِي ... فَتَنْبُـو ٱلعَيْـنُ عَـنْ كَـرَمٍ عِجَـافِ[2]

[ وَأَنْ يَضْطَـرَّهُـنَّ ٱلـدَّهْـرُ بَعْـدِي ... إِلَـىٰ غُمْـرٍ غَلِيـظِ ٱلْقَلْـبِ جَـافِ ]

وَلَـوْلا ذَاكَ قَـدْ سَـوَّمْـتُ مُهْـرِي ... وَفـي ٱلـرَّحْمَـنِ لِلضُّعَفَـاءِ كَـافِ[3]

أَبَـانَـا ، مَـنْ لَنَـا إِنْ غِبْـتَ عَنَّـا ... وَصَـارَ ٱلْحَيُّ بَعْـدَكَ فـي ٱخْتِـلافِ

رَاجِعِ ٱلْمُجَلَّدِ ٱلأَوَّلَ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ [أَيْ : أَوَّلِ هَذَا ٱلكِتَاب] .

٦٧٢ ـ وَقَالَ حِطَّانُ بْنُ ٱلْمُعَلَّىٰ ـ شَاعِرٌ إِسْلامِيٌّ ـ [من السريع] :

أَنْـزَلَنِـي ٱلـدَّهْـرُ عَلَـىٰ حُكْمِـهِ ... مِـنْ شَـامِـخٍ عَـالٍ إِلَـىٰ خَفْـضِ

---

(١) ٱلرَّنْقُ : ٱلماءُ ٱلْكَدِرُ .

(٢) كَرَم عِجافِ : قَالَ ٱبْنُ سِيدَه : رَجُلٌ كَرَمٌ ، أَيْ : كَرِيمٌ ، وَكَذَلِكَ ٱلاثْنانِ وَٱلْجَمْعُ وَٱلْمُؤَنَّثُ ، تَقُولُ : ٱمْرَأَةٌ كَرَمٌ ، وَنِسْوَةٌ كَرَمٌ ، لأَنَّهُ وَصْفٌ بِٱلْمَصْدَرِ ؛ وَعِجَافٌ ، جَمْعُ عَجْفاءُ عَلَىٰ غَيْرِ قِياسٍ ، وَٱلْعُجْفُ : ٱلْهُزَالُ .

(٣) يَقُولُ : لَوْلا إِشْفَاقِي عَلَىٰ بَنَاتي لَخُضْتُ غِمَارَ ٱلْحَرْبِ وَٱللهُ حَسْبُهُنَّ وَكَافٍ لَهُنَّ ؛ وَٱلخَيْلُ ٱلْمُسَوَّمَةُ : ٱلمُرْسَلَةُ وَعَلَيْها رُكْبانُها .

وَغَـالَنِـي ٱلـدَّهْـرُ بِـوَفْـرِ ٱلْغِنَـىٰ فَلَيْـسَ لِـي مَـالٌ سِـوَىٰ عِـرْضِ
أَبْكَـانِـي ٱلـدَّهْـرُ وَيَـا رُبَّمَـا أَضْحَكَنِـي ٱلـدَّهْـرُ بِمَـا يُـرْضِ
لَـوْلا بُنَيَّـاتٌ كَـزُغْـبِ ٱلْقَطَـا رُدِدْنَ مِـنْ بَعْـضٍ إِلَـىٰ بَعْـضِ
لَكَـانَ لِـي مُضْطَـرَبٌ وَاسِـعٌ فِي ٱلأَرْضِ ذَاتِ ٱلطُّولِ وَٱلعَرْضِ
وَإِنَّمَـا أَوْلادُنَـا بَيْنَنَـا أَكْبَـادُنَـا تَمْشِـي عَلَـىٰ ٱلأَرْضِ
لَـوْ هَبَّـتِ ٱلـرِّيـحُ عَلَـىٰ بَعْضِهِـمْ لَامْتَنَعَـتْ عَيْنِـي مِـنَ ٱلغُمْـضِ

أَنْزَلَنِي ٱلدَّهْرُ عَلَىٰ حُكْمِهِ : أَنْزَلَهُ مِنَ ٱلْعِزَّةِ إِلَىٰ ٱلذِّلَّةِ يَحْكُمُ فِيهَا بِمَا يَشَاءُ ؛ وَمِنْ شَامِخٍ : مِنْ جَبَلٍ شَاهِقٍ طَوِيلٍ فِي ٱلسَّمَاءِ ؛ وَإِلَىٰ خَفْضٍ : إِلَىٰ مُطْمَئِنٍّ مِنَ ٱلأَرْضِ ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ ؛ وَغَالَنِي ٱلدَّهْرُ : أَخَذَهُ غِيلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ ؛ وَبِوَفْرِ ٱلْغِنَىٰ ، يُرِيدُ فِي كَثْرَةِ مَالِهِ ؛ وَلَيْسَ لِي مَالٌ سِوَىٰ عِرْضِي ، أَيْ : لَمْ يُبْقِ لَهُ ٱلدَّهْرُ شَيْئاً إِلَّا أَتَىٰ عَلَيْهِ ، سِوَىٰ عِرْضِهِ فَلَمْ يَنْتَقِصْهُ ؛ وَٱلْعِرْضُ : مَوْضِعُ ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مِنَ ٱلإِنْسَانِ سَواءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ أَوْ سَلَفِهِ أَوْ مَنْ يَلْزَمُهُ أَمْرُهُ ، وَقِيلَ : هُوَ جَانِبُهُ ٱلَّذِي يَصُونُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ وَيُحَامِي عَنْهُ أَنْ يُنْتَقَصَ وَيُثْلَبَ ؛ وَبِمَا يُرْضِي : أَضْحَكَنِي أَحْياناً بِمَا يُرْضِينِي ؛ وَكَزُغْبِ ٱلْقَطَا : وَاحِدُها زَغْبَاءُ ، وَٱلذَّكَرُ أَزْغَبُ ، وَٱلمَصْدَرُ ٱلزَّغَبُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْ رِيشِ ٱلْفَرْخِ ، وَكَذَا مِنْ شَعَرِ ٱلصَّبِيِّ ؛ وَرُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ إِلَىٰ بَعْضٍ : تَصْوِيرٌ لِهَيْئَةِ تَدَاخُلِ ٱلأَفْرَاخِ وَٱنْضِمَامِ بَعْضِهِنَّ إِلَىٰ بَعْضٍ أَوَّلَ نَشْأَتِهِنَّ ، يَصِفُ بَنَاتَهُ بِأَنَّهُنَّ ضِعَافٌ لا يَسْتَطِعْنَ ٱلْقِيَامَ بِشُؤُونِهِنَّ ؛ وَمُضْطَرَبٌ : ٱضْطِرَابٌ وَتَحَرُّكٌ ؛ وأَكْبَادُنَا : تَمْثِيلٌ لِمَعْنَىٰ ٱلشَّفَقَةِ عَلَيْهِنَّ ، وَقَدْ بَيَّنَهَا بِقَوْلِهِ : لَوْ هَبَّتِ ٱلرِّيحُ . . . ٱلْبَيْتَ .

* * *

حَدِيثُ أَبِي زَرْعٍ وَأُمِّ زَرْعٍ :

٦٧٣ ـ وَنَخْتَتِمُ هَذَا ٱلْبَابَ ـ بَابَ ٱلإِحْسَانِ فِي مُعَاشَرَةِ ٱلأَهْلِ وَحَضِّهِمْ

ٱلرِّجَالَ عَلَىٰ ٱلرِّفْقِ بِٱلنِّسَاءِ وَمُفَاكَهَتِهِنَّ بِحَدِيثٍ طَرِيفٍ أَوْرَدَهُ ٱلْبُخَارِيُّ [رقم : ٥١٨٩] في صَحِيحِهِ وَأَوْرَدَهُ غَيْرُهُ [مسلم ، رقم : ٢٤٤٨] مِنْ رِجَالِ ٱلْحَدِيثِ ، وَذَلِكَ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ ٱللهِ قَالَ يَوْماً لِعَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا يُدَاعِبُهَا وَيُفَاكِهُهَا وَيَقُصُّ عَلَيْهَا مِنْ طُرَفِ ٱلْمَاضِينَ مَا تَنْبَسِطُ بِهِ نَفْسُهَا وَما فِيهِ لِمَنْ بَقِيَ ٱعْتِبَارٌ ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِعِبَارَةٍ مَسْجُوعَةٍ سَجْعاً لَهُ هُوَ ٱلآخَرُ طُلَاوَتُهُ ، أَمَّا أَلْفَاظُهُ ٱلْغَرِيبَةُ فَهِيَ أَيْضاً مِمَّا يُسْتَطْرَفُ وَيُسْتَسَاغُ في مِثْلِ هَذَا ٱلْمَقَامِ ، قَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ عَلَيْهِ لِعَائِشَةَ وَقَدْ سَمِعَهَا تَفْخَرُ بِمَالِ أَبِيهَا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ أَلْفَ أَلْفَ أُوقِيَّةً ، فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : ٱسْكُتِي يَا عَائِشَةَ فَإِنِّي « كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ » ، قَالَتْ عائِشَةُ : بِأَبِي وَأُمِّي يَا رَسُولَ ٱللهِ ، وَمَنْ كَانَ أَبُو زَرْعٍ ! قَالَ ﷺ : « جَلَسَ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ ٱمْرَأَةً ، فَتَعَاهَدْنَ أَنْ لا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئاً ، قَالَتِ ٱلأُولَىٰ : زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ ، عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ وَعْثٍ ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَىٰ ، وَلا سَمِينٌ فَيُنْتَقَىٰ ؛ قَالَتِ ٱلثَّانِيَةُ : زَوْجِي لا أَبُثُّ خَبَرَهُ ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لا أَذَرَهُ ، إِنْ أَذكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ ؛ قَالَتِ ٱلثَّالِثَةُ : زَوْجِي ٱلْعَشَنَّقُ ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ ، وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ ؛ قَالَتِ ٱلرَّابِعَةُ : زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ ، لا حَرٌّ وَلا قَرٌّ وَلا مَخَافَةٌ وَلا سَآمَةٌ ؛ قَالَتِ ٱلْخَامِسَةُ : زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ ، وَلا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ ؛ قَالَتِ ٱلسَّادِسَةُ : زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ ، وَإِنْ شَرِبَ ٱشْتَفَّ ، وَإِنِ ٱضْطَجَعَ ٱلْتَفَّ ، وَلا يُولِجُ ٱلْكَفَّ لِيَعْلَمَ ٱلبَثَّ ؛ قَالَتِ ٱلسَّابِعَةُ : زَوْجِي غَيَايَاءُ طَبَاقَاءُ ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَوَاءٌ ، إِن حَدَّثْتَهُ سَبَّكَ ، وَإِنْ مَازَحْتَهُ شَجَّكَ ، أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكَ ؛ قَالَتِ ٱلثَّامِنَةُ : زَوْجِي ٱلْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ وَٱلرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ ؛ قَالَتِ ٱلتَّاسِعَةُ : زَوْجِي رَفِيعُ ٱلْعِمَادِ ، طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ ، عَظِيمُ ٱلرَّمَادِ ، قَرِيبُ ٱلْبَيْتِ مِنَ ٱلنَّادِ ؛ قَالَتِ ٱلْعَاشِرَةُ : زَوْجِي مَالِكٌ ، وَمَا مَالِكٌ ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ ٱلْمَبَارِكِ ، قَلِيلاتُ ٱلْمَسَارِحِ ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ ٱلْمِزْهَرِ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ

هَوَالِكُ ؛ قَالَتِ ٱلْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ ؟ أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ ، وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ نَفْسِي إِلَيَّ ، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ ، وَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلا أُقَبَّحُ ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ ؛ أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ؛ ٱبْنُ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا ٱبْنُ أَبِي زَرْعٍ ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ ٱلشَّطْبَةِ ، وَتُشْبِعُهُ ذِرَاعُ ٱلْجَفْرَةِ ؛ بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أَبِيهَا ، وَطَوْعُ أُمِّهَا ، وَمِلْءُ كِسَائِهَا ، وَغَيْظُ جَارَتِهَا ؛ جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ؟ لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثاً ، وَلا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، وَلا تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشاً ؛ قَالَتْ : ثُمَّ خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَٱلأَوْطَابُ تُمْخَضُ ، فَلَقِيَ ٱمْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَٱلْفَهْدَيْنِ ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا ، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وَأَخَذَ خَطِّيًّا ، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَماً ثَرِيًّا ، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجاً ، وَقَالَ : كُلِي أُمَّ زَرْعٍ ، وَمِيرِي أَهْلَكِ ؛ قَالَتْ : فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ » . . . فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « فَكُنْتُ لَكِ يَا عَائِشَةَ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ فِي ٱلأُلْفَةِ وَٱلرِّفَاءِ[١] ، لا فِي ٱلْفُرْقَةِ وَٱلْخِلاءِ[٢] ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَّقَهَا وَأَنِّي لَا أُطَلِّقُكِ » ، قَالَتْ عَائِشَةُ : بِأَبِي وَأُمِّي لأَنْتَ خَيْرٌ لِي مِنْ أَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ . . .

ٱلشَّرْحُ ، قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِنَّ سَبَبَ هَذَا ٱلْحَدِيثِ أَنَّ عَائِشَةَ كَمَا قُلْنَا فَخَرَتْ بِمَالِ أَبِيهَا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ . فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : «ٱسْكُتِي يَا عَائِشَةُ ! فَإِنِّي كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ» ؛ وَقِيلَ : إِنَّ ٱلسَّبَبَ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ ٱللهِ دَخَلَ عَلَىٰ عَائِشَةَ

---

(١) في الأصل : « الوفاء » بدلًا من : « الرفاء » . بسام .

(٢) في الأصل : « الجلاء » بدلًا من : « الخلاء » التي تعني : المباعدة والمجانبة . بسام .

وَٱبْنَتِهِ فَاطِمَةَ وَقَدْ جَرَىٰ بَيْنَهُما كَلامٌ ، فَقَالَ : ما أَنْت بِمُنْتَهِيَةٍ يا حُمَيْراءُ[١] عَنِ ٱبْنَتِي ، « إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَكِ كَأَبي زَرْعٍ » مَعَ أُمِّ زَرْعٍ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! بِأَبِي وَأُمِّي حَدِّثْنا عَنْهُما . . . الخ . هَذَا وَيَنْطَوِي فِي هَذا ٱلْحَدِيثِ مَعَانٍ ، مِنْهَا إِحْسانُ ٱلْمَرْءِ في عِشْرَةِ زَوْجِهِ بِٱلتَّأْنِيسِ ، وَٱلْمُزاحُ وَبَسْطُ ٱلنَّفْسِ وَمُداعَبَةُ ٱلرَّجُلِ زَوْجَهُ وَإِعْلامُها بِمَحَبَّتِهِ لَها ، وَمِنْها حَضُّ ٱلنِّساءِ عَلَىٰ ٱلْوَفاءِ لِبُعُولَتِهِنَّ وَٱلشُّكْرِ لِجَميلِهِمْ ، وَمِنْها ٱلْحَثُّ عَلَىٰ ٱلإِشادَةِ بِمَحَاسِنِ ٱلزَّوْجِ ما دَامَ ذا خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَمِنْها أَنَّ مِنْ شِيمَةِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلتَّحَدُّثَ إِلىٰ ٱلنِّساءِ عَنْ أَخلاقِ زَوْجِهَا إِنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرّاً فَشَرٌّ ، إِلىٰ آخِرِ ما هُنالِكَ ، وَالآنَ فَلْنَشْرَحِ ٱلْحَدِيثَ .

أَمَّا قَوْلُ الأُولىٰ : زَوْجِي لَحْمُ جَملٍ غَثٍّ عَلىٰ رَأْسِ جَبَلٍ وَعْثٍ . . . فَٱلغَثُّ : ٱلهَزِيلُ ؛ وَٱلْوَعْثُ : ٱلصَّعْبُ ٱلْمُرْتقىٰ بِحَيْثُ يَشُقُّ فِيهِ ٱلْمَشْيُ ، وَمِنْهُ وَعْثاءُ ٱلسَّفَرِ ؛ وَيُنْتَقىٰ ، أيْ : يُطْلَبُ نِقْيُهُ ، وَٱلنِّقْيُ : ٱلْمُخُّ ، تَقُول : إِنَّ زَوْجَها كَلَحْمِ جَمَلٍ هَزِيلٍ فَوْقَ جَبَلٍ وَعْرٍ ، فلا ٱلْجَبَلُ سَهْلٌ فلا يَشُقُّ ٱرْتِقاؤُهُ لأَخْذِ ٱللَّحْمِ وَلَوْ كانَ هَزِيلاً ، وَلا ٱللَّحْمُ سَمِينٌ فَيَتَحَمَّلُ ٱلْمَشَقَّةَ في صُعُودِ ٱلْجَبَلِ لِتَحْصِيلِهِ ؛ شَبَّهَتْ زَوْجَها بِلَحْمِ ٱلْجَمَلِ ٱلْهَزِيلِ في قِلَّةِ خَيْرِهِ وَمَنْفَعَتِهِ ، وَشَبَّهَتْ وُعُورَةَ خُلُقِهِ وَشَراسَتَهُ بِٱلجَبَلِ ٱلْوَعْثِ ، وَبُعْدَ خَيْرِهِ بِبُعْدِ ٱللَّحْمِ عَلىٰ رَأْسِ ٱلْجَبَلِ ، وَٱلزُّهْدَ فِيما يُرْجىٰ مِنْهُ مَعَ قِلَّتِهِ بِٱلزُّهْدِ في لَحْمِ ٱلْجَمَلِ ٱلْهَزِيلِ ، فَأَعْطَتِ ٱلتَّشْبِيهَ حَقَّهُ وَوَفَّتْهُ قِسْطَهُ .

وَقَوْلُ ٱلثَّانِيَةِ : إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرُ عُجَرَه وَبُجَرَهُ ، تُرِيدُ أَذْكُرُ مَعايِبَهُ ٱلْكَثِيرَةَ

---

(١) كَانَ سَيِّدنا رَسُولُ ٱللهِ يَقُولُ لِعَائِشَةَ أَحْياناً : « يا حُمَيْراءُ » ، تَصْغِيرُ ٱلْحَمْراءِ ، يُرِيدُ : ٱلْبَيْضاءَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْناً مِنْ مُفاكَهَتِهِ لَها ، وَفي ٱلْحَدِيثِ : « خُذُوا شَطْرَ دِينِكُمْ مِنَ ٱلْحُمَيْرَاءِ » . [ « النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير ، مادة : حمر ] .

وَتَأَخُّرَهُ عَنِ ٱلْمَكارِمِ ، وَهَذانِ ٱلْحَرْفَانِ ـ عُجَرُهُ وَبُجَرُهُ ـ قَدْ يُسْتَعْمَلانِ فِيمَا يَكْتُمُهُ ٱلْمَرْءُ وَيُخْفِيهِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلانِ في ٱلْهُمُومِ وَٱلأَحْزانِ ، وَقَدْ يُقالُ : أَفْضَيْتُ إِلَيْهِ بِعُجَرِي وَبُجَرِي ، أَيْ : بِأَمْري كُلِّه ، تَقُولُ هَذِهِ ٱلمَرْأَةُ : إِنِّي أَخافُ أَلّا أَتْرُكَ مِنْ خَبَرِ زَوْجِي شَيْئاً ، أَيْ : إِنَّهُ لِطُولِهِ وَكَثْرَتِهِ أَخافُ إِنْ بَدَأْتُهُ لَمْ أَقْدِرْ عَلىٰ تَكْمِيلِهِ ، وَهَذا هُوَ مَعْنىٰ قَوْلِها : إِنِّي أَخافُ أَلّا أَذَرَهُ ، ثُمَّ قَالَتْ : إِنْ ذَكَرْتُ خَبَرَ زَوْجِي أَذْكُرُ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ مِنْ مَساوِيهِ ، وَهَذا مِمَّا أَخْشاهُ ، فَقَدْ يَبْلُغُهُ فَيُفارِقُهَا ، وَقَدِ ٱلْتَزَمَتِ ٱلصِّدْقَ ، فَسَكَتَتْ عَنِ ٱلتَّفْسِيرِ لِذَلِكَ ؛ فَهَذِهِ ٱلثَّانِيَةُ أَيْضاً مِمَّنْ يَذْمُمْنَ أَزْوَاجَهُنَّ لِمَساوِيهِنَّ ، وَلَكِنَّها تَذُمُّهُ بِٱلْكِنايَةِ .

وَقَوْلُ ٱلثَّالِثَةِ : زَوْجِي ٱلْعَشَنَّقُ ، فَٱلْعَشَنَّقُ : ٱلْقَبِيحُ ٱلطُّولِ ؛ وَقَالَ ٱلخَلِيلُ : هُوَ ٱلطَّوِيلُ ٱلْعُنُقِ ؛ تَقُولُ : إِنَّ لَهُ مَنْظَراً بِلا مَخْبَرٍ ، لأَنَّ ٱلطُّولَ في ٱلْغَالِبِ دَليلُ ٱلسَّفَهِ ؛ وَقَوْلُها : إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ . . . الخ ، تَقُولُ : إِنْ ذَكَرَتْ عُيُوبَهُ فَيَبْلُغُهُ ذَلِكَ طَلَّقَها ، وَإِنْ سَكَتَتْ عَنْها فَهِيَ عِنْدَهُ مُعَلَّقَةٌ ، لا ذاتُ زَوْجٍ وَلا أَيِّمٌ ؛ أَوْ تَقُولُ : إِنَّها أَرادَتْ سُوءَ حالِها عِنْدَهُ ، فَأَشارَتْ إِلى سُوءِ خُلُقِهِ وَعَدَمِ ٱحْتِمالِهِ لِكَلامِها إِنْ شَكَتْ لَهُ حَالَها ، وَأَنَّها تَعْلَمُ أَنَّها مَتىٰ ذَكَرَتْ لَهُ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ بادَرَ إِلىٰ طَلاقِها ، وَإِنْ سَكَتَتْ صابِرَةً كانَتْ عِنْدَهُ كَٱلمُعَلَّقَةِ ٱلَّتي هِيَ لا ذاتُ زَوْجٍ وَلا أَيِّمٌ ، وَفي رِوايَةِ [ يَعْقُوبِ بنِ السِّكِّيتِ ] بَعْدَ قَوْلِها : وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ ، عَلىٰ حَدِّ ٱلسِّنانِ ٱلْمُذَلَّقِ ، وَٱلمُذَلَّقُ : ٱلْمُجَرَّدُ . أَيْ : إِنَّها إِنْ حادَتْ عَنِ ٱلسِّنانِ سَقَطَتْ فَهَلَكَتْ ، وَإِنِ ٱسْتَمَرَّتْ عَلَيْهِ أَهْلَكَها . . . وَهَذِهِ ٱلمَرْأَةُ كَذَلِكَ مِمَّنْ لا يَحْمَدْنَ أَزْوَاجَهُنَّ كَما تَرىٰ .

أَمَّا ٱلرَّابِعَةُ ٱلَّتي تَقُولُ : زَوْجِي كَلَيْلِ تِهامَةٍ . . الخ ، فَإِنَّها تُرِيدُ مَدْحَ زَوْجِها إِذْ تَصِفُهُ بِجَمِيلِ ٱلْعُشْرَةِ ، وَٱعْتِدالِ ٱلْحَالِ ، وَسَلامَةِ ٱلْبَاطِنِ ، فَلا أَذىٰ

عِنْدَهُ وَلا مَكْرُوهَ ، وَأَنا لا أَخافُ مِنْ شَرِّهِ ، وَلا مَلَلَ عِنْدَهُ فَيَسْأَمُ مِن عِشْرَتِي ، أَوْ لَيْسَ بِسَيِّءِ ٱلْخُلُقِ فَأَسْأَمُ مِنْ عِشْرَتِهِ ، فَأَنا لَذِيذَةُ ٱلْعَيْشِ عِنْدَهُ كَلَذَّةِ أَهْلِ تِهامَةَ بِلَيْلِهِمُ ٱلْمُعْتَدِلِ .

أَمَّا ٱلْخَامِسَةُ ، فَهِيَ كَذَلِكَ تَمْدَحُ زَوْجَها ، تَقُولُ : إِنَّ زَوْجَها إِذا دَخَلَ ٱلْبَيْتَ فَهِدَ ، أَي : صَارَ كَٱلْفَهْدِ[1] في تَغَاضِيهِ ، قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : شَبَّهَتْهُ في لِينِهِ وَغَفْلَتِهِ بِٱلْفَهْدِ ، لأَنَّهُ يُوصَفُ بِٱلْحَيَاءِ وَقِلَّةِ ٱلشَّرِّ وَكَثْرَةِ ٱلنَّوْمِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ ، أَيْ : يَصِيرُ بَيْنَ ٱلنَّاسِ مِثْلَ ٱلأَسَدِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَلا يَسْأَلُ عَمّا عَهِدَ : أَيْ : إِنَّهُ كَرِيمٌ كَثِيرُ ٱلتَّغَاضِ لا يَتَفَقَّدُ مَا ذَهَبَ مِنْ مالِهِ ، وَإِذَا جَاءَ بِشَيْءٍ لِبَيْتِهِ لا يَسْأَلُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

أَمَّا ٱلسَّادِسَةُ ، فَهِي تَشْكُو زَوْجَها وَتَذُمُّهُ ، تَقُولُ : إِنْ أَكَلَ لَفَّ ، أَيْ : إِنَّهُ يُكْثِرُ مِنَ ٱلطَّعامِ وَيَسْتَقْصِي حَتّىٰ لا يَتْرُكُ مِنْهُ شَيْئاً ؛ وَإِنْ شَرِبَ ٱشْتَفَّ ، أَي : إِنَّهُ لا يُبْقِي في ٱلإِناءِ شَيْئاً مِنَ ٱلْمَاءِ ، مِنَ ٱلشُّفافَةِ ، وَهِيَ ٱلْبَقِيَّةُ تَبْقىٰ في ٱلإِناءِ ، وَٱلْعَرَبُ تَذُمُّ بِكَثْرَةِ ٱلأَكْلِ وَٱلشُّرْبِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَإِنِ ٱضْطَجَعَ ٱلْتَفَّ ؛ أَيْ : إِنْ نامَ رَقَدَ ناحِيَةً وَتَلَفَّفَ بِكِسائِهِ وَحْدَهُ وَٱنْقَبَضَ عَنْ أَهْلِهِ ـ زَوْجِهِ ـ إِعْراضاً ، فَهِيَ كَئِيبَةٌ لِذَلِكَ ، وَلِهَذا قَالَتْ : وَلا يُولِجُ ٱلْكَفَّ لِيَعْلَمَ ٱلْبَثَّ ، أَيْ : لا يَمُدُّ يَدَهُ لِيَعْلَمَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلأَسَفِ وَٱلْحُزْنِ فَيُزِيلَهُ ، وَقَدْ تُرِيدُ أَنَّهُ يَنَامُ نَوْمَ ٱلْعاجِزِ ٱلْفَشِلِ ٱلْكَسِلِ ، وَٱلْمُرادُ بِٱلْبَثِّ ٱلْحُزْنُ ، وَيُطْلَقُ عَلىٰ ٱلشَّكْوىٰ وَعَلىٰ ٱلْمَرَضِ وَعَلىٰ ٱلأَمْرِ ٱلَّذِي لا يُصْبَرُ عَلَيْهِ ، فَأَرَادَتْ أَنَّهُ لا يَسْأَلُ عَنِ الأَمْرِ ٱلَّذِي يَهُمُّها ، فَوَصَفَتْهُ بِقِلَّةِ ٱلشَّفَقَةِ عَلَيْها ، وَأَنَّهُ لَوْ رَآها عَلِيلَةً لَمْ يُدْخِلْ يَدَهُ في ثَوْبِها لِيَتَفَقَّدَ

---

(١) ٱلْفَهْدُ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلسِّبَاعِ بَيْنَ ٱلْكَلْبِ وَٱلنَّمِرِ ، قَوَائِمُهُ أَطْوَلُ مِنْ قَوائِمِ ٱلنَّمِرِ ، وَهُوَ مُنَقَّطٌ بِنُقَطٍ سُودٍ لا يَتَكَوَّنُ مِنْها حَلَقٌ كَٱلنَّمِرِ . [ كذا في الأصل ، وهو خلط بين النَّمِرِ وَٱلْبَبْرِ ، والصواب أَنَّ ٱلنَّمِرَ ، هو : المُنَقَّطُ مِنْهُما للنُّمَرِ التي فيه ، وأما الآخر الذي عليه الخطوط فهو ٱلْبَبْرُ ] .

خبَرَها كَعادَةِ ٱلأَجانِبِ فَضْلًا عَنِ ٱلأَزْواجِ ، أَوْ أَنَّ ذلِكَ كِنايَةٌ عَنْ تَرْكِهِ مُلاعَبَتَها ، أَوْ عَنْ تَرْكِ ٱلْجِماعِ ، وَٱلعَرَبُ تَتَمَدَّحُ بِكَثْرَةِ ٱلْجِماعِ لِدَلالَتِها عَلىٰ صِحَّةِ ٱلذُّكُورِيَّةِ وَٱلْفُحُولِيَّةِ . وَقالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ مَعْنىٰ قَوْلِها : وَلا يُولِجُ ٱلْكَفَّ لِيَعْلَمَ ٱلْبَثَّ : أَنَّهُ لا يُعْنىٰ بِمَصالِحِها وَيُهْمِلُ تَفَقُّدَ أُمُورِها وَلا يُبالي أَنْ تَجُوعَ ؛ وَقَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ في وَصْفِها لِزَوْجِها بَيْنَ ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلنَّهَمِ وَٱلْمَهَانَةِ وَسُوءِ ٱلعِشْرَةِ مَعَ أَهْلِهِ .

أَمَّا ٱلسَّابِعَةُ ، فَهِيَ تَقُولُ : زَوْجِي غَيَاياءُ ، فَغَيَاياءُ إِمَّا مُشْتَقٌّ مِنَ ٱلْغَيَايَةِ ، وَهِيَ كُلُّ شَيْءٍ أَظَلَّ ٱلشَّخْصَ فَوْقَ رَأْسِهِ ، فَكَأَنَّهُ مُغَطّىٰ عَلَيْهِ مِنْ جَهْلِهِ ، وَٱلْمَعْنىٰ أَنَّهُ لا يَهْتَدِي إِلىٰ مَسْلَكٍ ، أَوْ أَنَّها وَصَفَتْهُ بِثِقَلِ ٱلرُّوحِ وَأَنَّهُ كَالظِّلِّ ٱلْمُتَكاثِفِ ٱلظُّلْمَةِ ٱلَّذي لا إِشراقَ فِيهِ ، وَإِمَّا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ ٱلْغَيِّ ، وَهُوَ ٱلانهِماكُ في ٱلشَّرِّ ، أَوِ ٱلغَيِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلضَّلالُ وَٱلْخَيْبَةُ ؛ وَٱلطَّباقَاءُ هُوَ ٱلْمُطْبَقُ عَلَيْهِ حُمْقاً ، وَقالَ ٱلْجاحِظُ : هُوَ ٱلثَّقِيلُ ٱلصَّدْرِ عِنْدَ ٱلْجِماعِ ، يَنْطَبِقُ صَدْرُهُ عَلىٰ صَدْرِ ٱلْمَرْأَةِ فَيَرْتَفِعُ سُفْلُهُ عَنْها ؛ وَقَدْ ذَمَّتِ ٱمْرَأَةٌ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ ، فَقالَتْ : إِنَّهُ ثَقيلُ ٱلصَّدْرِ ، خَفِيفُ العَجُزِ ، سَريعُ الإِراقَةِ ، بَطِيءُ ٱلإِفاقَةِ . وَقَوْلُها : كُلُّ داءٍ لَهُ دَواءٌ ، فَمَعْناهُ : كُلُّ شَيْءٍ تَفَرَّقَ فِي ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمَعايِبِ مَوْجُودٌ فِيهِ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْناهُ : كُلُّ داءٍ فِيهِ مُوفٍ عَلىٰ ٱلْغَايَةِ ، أَيْ : إِنَّهُ في غايَةِ ٱلتَّناهِي ، وَقَوْلُهَا : إِنْ حَدَّثْتَهُ سَبَّكَ ، أَوْ مازَحْتَهُ شَجَّكَ ، أَوْ جَمَعَ كُلًّا لَكَ ؛ تَقُولُ ـ كما جاءَ في بَعْضِ ٱلرِّواياتِ [ وَهِيَ رِوايَةُ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكّارٍ ] ـ : إِذَا حَدَّثْتِه سَبَّكِ ، وَإِذَا مازَحْتِه شَجَّكِ ، أَيْ : جَرَحَكِ في رَأْسِكِ ، أَوْ فَلَّكِ ، أَيْ : ثَلَمَكِ ؛ أَيْ : جَرَحَ جَسَدَكِ أَوْ كَسَرَكِ ، أَوْ جَمَعَ كُلَّ هٰذَا لَكِ ؛ تَصِفُهُ بِٱلْحُمْقِ وَسُوءِ ٱلْعِشْرَةِ ، فَإِذَا حَدَّثَتْهُ سَبَّها ، وَإِذَا مازَحَتْهُ شَجَّها ، وَإِذَا أَغْضَبَتْهُ كَسَرَ عُضْواً مِنْ أَعْضَائِها ، أَوْ جَمَعَ كُلَّ ذَلِكَ لَكِ ـ ٱلضَّرْبَ وَٱلْجَرْحَ وَكَسْرَ ٱلْعُضْوِ وَمُوجِعَ ٱلْكَلامِ ـ .

وَأَمَّا ٱلثَّامِنَةُ ، فَتَقُولُ : ٱلْمَسُّ مِنْ زَوْجِي مَسُّ أَرْنَبٍ ، تَصِفُهُ بِأَنَّهُ لَيِّنُ ٱلْجَسَدِ نَاعِمُهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كَنَّتْ بِذَلِكَ عَنْ حُسْنِ خُلُقِهِ وَلِينِ عَرِيكَتِهِ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَرِيحُهُ رِيحُ زَرْنَبٍ ـ وَٱلزَّرْنَبُ نبتٌ طَيِّبُ ٱلرَّائِحَةِ ـ تَصِفُهُ بِأَنَّهُ طَيِّبُ ٱلْعَرَقِ لِنَظَافَتِهِ وَتَطَيُّبِهِ ، أَوْ كَنَّتْ بِذلِكَ عَنْ طِيبِ حَدِيثِهِ أَوْ طِيبِ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِ لِجَمِيلِ مُعَاشَرَتِهِ ، وَفِي بَعْضِ ٱلرِّوَايَةِ [ وهي رِوَايَةُ الزُّبَيْرِ بْنِ بَكَّارٍ ، وَرِوَايَتَا عُقْبَةَ وَعُمَرَ عِنْدَ النَّسَائِيِّ ] هَذِهِ ٱلزِّيَادَةُ : « وَأَنَا أَغْلِبُهُ وَٱلنَّاسَ يَغْلِبُ » . تَقُولُ : إِنَّهُ لِكَرَمِ أَخْلاقِهِ يَحْتَمِلُهَا ، فَهِيَ تَغْلِبُهُ ، وَأَنَّهُ لِشَجَاعَتِهِ مَعَ غَلَبَةِ ٱمْرَأَتِهِ عَلَيْهِ يَغْلِبُ ٱلنَّاسَ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ مُعَاوِيَةُ : ٱلنِّسَاءُ يَغْلِبْنَ ٱلْكِرَامَ وَيَغْلِبُهُنَّ ٱللِّئَامُ .

وَأَمَّا ٱلتَّاسِعَةُ ، فَهِيَ تَقُولُ : زَوْجِي رَفِيعُ ٱلْعِمَادِ ، فَٱلْعِمَادُ في ٱلأَصْلِ : ٱلْخَشَبَةُ ٱلَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا ٱلْبَيْتُ ، أَرَادَتْ عِمَادَ بَيْتِ شَرَفِهِ ، وَٱلْعَرَبُ تَضَعُ ٱلْبَيْتَ مَوْضِعَ ٱلشَّرَفِ في ٱلنَّسَبِ وَٱلْحَسَبِ ، فَهِيَ تُكْنِي بِذَلِكَ عَنْ شَرَفِهِ وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ ؛ وٱلنِّجَادُ : حَمَائِلُ ٱلسَّيْفِ ، وَطُولُ ٱلنِّجَادِ كِنَايَةٌ عَنْ طُولِ قَامَتِهِ ، فَإِنَّهَا إِذَا طَالَتْ طَالَ نِجَادُهُ ، وَفي ضِمْنِ ذَلِكَ أَنَّهُ صَاحِبُ سَيْفٍ ، فَهِيَ تَصِفُهُ بِٱلشَّجَاعَةِ ؛ وَقَوْلُهَا : عَظِيمُ الرَّمَادِ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلْكَرَمِ ، أَنَّ نَارَ قِرَاهُ لِلأَضْيَافِ لا تَنْطَفِىءُ لِتَهْتَدِي ٱلضِّيفَانُ إِلَيْهَا ، وَبِذَلِكَ يَصِيرُ رَمادُ نَارِهِ كَثِيراً ؛ وَقَوْلُهَا : قَرِيبُ ٱلْبَيْتِ مِنَ ٱلنَّادِ ، وَقَفَتْ عَلَىٰ ٱلنادِ بِٱلسُّكُونِ لِلسَّجْعِ ، وَٱلنَّادِي وَٱلنَّدِيُّ : مَجْلِسُ ٱلْقَوْمِ ؛ تَصِفُهُ بِأَنَّهُ شَرِيفٌ في قَوْمِهِ ، فَهُمْ إِذَا حَزَبَهُمْ أَمْرٌ وَأَرَادُوا أَنْ يَتَفَاوَضُوا وَيَشْتَوِرُوا فِي أَمْرٍ أَتَوْهُ فَأْتَمَرُوا بِأَمْرِهِ وَٱعْتَمَدُوا عَلَىٰ رَأْيِهِ ؛ وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ : إِنَّهَا وَصَفَتْهُ بِٱلسِّيَادَةِ وَٱلْكَرَمِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَحُسْنِ ٱلْخُلُقِ وَطِيبِ ٱلْمُعَاشَرَةِ .

وَقَالَتِ ٱلْعَاشِرَةُ : زَوْجِي مَالِكٌ ، وَمَا مَالِكٌ ؟ مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ . . .

الخَ ؛ تَقُولُ : إِنَّ زَوْجَهَا فَوْقَ كُلِّ مَالِكٍ ، أَيْ : إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَدُورُ في ٱلْبَالِ مِنْ مَالِكِ ٱلأَمْوَالِ ، أَيْ : إِنَّهُ أَجْمَعُ لِخِصَالِ ٱلسِّيَادَةِ وَٱلْفَضْلِ وَٱلْكَرَمِ مِنْ كُلِّ مَنْ مَلَكَ ، فَهُوَ لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ ٱلْمَبَارِكِ ، أَيْ : لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْ ثَمَّ كَثُرَتْ مَبَارِكُهَا ـ جَمْعُ مَبْرَكٍ ـ : مَوْضِعُ نُزُولِ ٱلإِبِلِ ؛ وَمَعْنَىٰ قَوْلِهَا : قَلِيلاتُ ٱلْمَسَارِحِ ـ جَمْعُ مَسْرَحٍ ـ : ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي تُطْلَقُ لِتَرْعَىٰ فِيهِ ، إِنَّهُ لِكَرَمِهِ وَكَثْرَةِ قِرَاهُ لِلأَضْيَافِ لا يُوَجِّهُ مِنْهَا إِلَىٰ ٱلْمَسَارِحِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَيَتْرُكُ سَائِرَهَا بِفِنَائِهِ ، فَإِنْ فَاجَأَهُ ضَيْفٌ وَجَدَ عِنْدَهُ مَا يَقْرِيهِ بِهَا مِنْ لُحُومِهَا وَأَلْبَانِهَا ، أَوْ هِيَ تُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَىٰ كَثْرَةِ طُرُوقِ ٱلضِّيفَانِ ، فَٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي يَطْرُقُهُ ٱلضَّيْفُ فِيهِ لا تَسْرَحُ حَتَّىٰ يَأْخُذَ مِنْهَا حَاجَتَهُ لِلضِّيفَانِ ، وٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي لا يَطْرُقُهُ فِيهِ أَحَدٌ تَسْرَحُ كُلُّهَا ، فَأَيَّامُ ٱلطُّرُوقِ أَكْثَرُ مِنْ أَيَّامِ عَدَمِهِ ، فَهِيَ لِذَلِكَ قَلِيلَةُ ٱلْمَسَارِحِ ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ ٱلْمِزْهَرِ ـ وَهُوَ ٱلْعُودُ : آلَةٌ مِنْ آلاتِ ٱلطَّرَبِ ـ أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ ، تَعْنِي : إِنَّهُ لَمَّا كَثُرَ ٱعْتِيَادُهُ نَحْرَ ٱلإِبِلِ لِقِرَىٰ ٱلضِّيفَانِ ، وَٱعْتَادَ أَنْ يَسْقِيهِمْ وَيُلْهِيَهُمْ ، مُبَالَغَةً في قِرَاهُمْ أَنَّهَا سَتُنْحَرُ ٱلبَتَّةَ . . تَمْدَحُ زَوْجَهَا وَتَصِفُهُ بِأَنَّهُ مِضْيَافٌ وَثَرِيٌّ نَبِيلٌ .

وَقَالَتِ ٱلْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ ؟ أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ ، أَيْ : أَثْقَلَ أُذُنَيَّ بِمَا جَرَتْ عَادَةُ ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلتَّحَلِّي بِهِ ، مِن قُرْطٍ وَشَنْفٍ ، مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، حَتَّىٰ تَدَلَّىٰ وَٱضْطَرَبَ ، وَٱلنَّوْسُ : حَرَكَةُ كُلِّ شَيْءٍ مُتَدَلٍّ ؛ وَقَوْلُهَا : وَمَلأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ ، لَمْ تُرِدِ ٱلعَضُدَ وَحْدَهُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَتِ ٱلْجَسَدَ كُلَّهُ ، لأَنَّ ٱلعَضُدَ إِذَا سَمِنَتْ سَمِنَ سَائِرُ ٱلْجَسَدِ ، وَخَصَّتِ ٱلْعَضُدَ لأَنَّهُ أَقْرَبُ مَايَلِي بَصَرَ ٱلإِنْسَانِ مِنْ جَسَدِهِ . وَقَوْلُهَا : وَبَجَّحَنِي فَبَجَحَتْ نَفْسِي إِلَيَّ ؛ تُرِيدُ : إِنَّهُ عَظَّمَنِي فَعَظُمَتْ نَفْسِي عِنْدِي ، وَقِيلَ : فَرَّحَنِي فَفَرِحْتُ ؛ ثُمَّ قَالَتْ : وَجَدَنِي في أَهْلِ غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ فَجَعَلَنِي . . . الخ ؛ تَقُولُ : إِنَّهُ وَجَدَهَا في

شَظَفٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ وَجَهْدٍ وَمَشَقَّةٍ ، فَجَعَلَهَا في أَهْلِ صَهِيلٍ ، أَيْ : خَيْلٍ ، وَأَطِيطٍ أَيْ : إِبِلٍ ؛ تُرِيدُ : إِنَّهُ جَعَلَهَا ذَاتَ خَيْرٍ وَوَسَّعَ عَلَيْهَا وَرَفَّهَ عَنْهَا ؛ وَقَوْلُهَا : وَدَائِسٍ وَمُنِقٍّ ، فَالدَّائِسُ : ٱلَّذِي يَدُوسُ ٱلطَّعَامَ وَيَدُقُّهُ لِيُخْرِجَ ٱلْحبَّ مِنْهُ ، وَٱلْمُنِقُّ مِنَ ٱلنَّقِيقِ ـ أَيْ : ٱلصَّوْتُ ـ تُرِيدُ أَصْوَاتَ ٱلْمَوَاشِي وَالأَنْعَامِ ، وَقَالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : كَأَنَّهَا أَرَادَتْ مَنْ يَطْرُدُ ٱلدَّجَاجَ عَنِ ٱلْحَبِّ فَيَنِقُّ ؛ وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ : إِنَّهَا تَصِفُهُ بِكَثْرَةِ أَمْوَالِهِ ، وَإِنَّهُ نَقَلَهَا مِنْ شَظَفِ عَيْشِ أَهْلِهَا إِلَىٰ ٱلثَّرْوَةِ ٱلْوَاسِعَةِ مِنَ ٱلْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَٱلزَّرْعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَتْ : وَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلا أُقَبَّحُ ، أَي : فَلا يُقَالُ لي : قَبَّحَكِ ٱللهُ ، أَيْ : لِكَثْرَةِ إِكْرَامِهِ لَهَا وَتَدَلُّلِهَا عَلَيْهِ ، لا يَرُدُّ لَهَا قَوْلًا ، وَلا يُقَبِّحُ عَلَيْهَا مَا تَأْتِي بِهِ ؛ قَالَتْ : وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ ، أَيْ : تَنَامُ ٱلصُّبْحَةَ ، وَهِيَ نَوْمُ أَوَّلِ ٱلنَّهَارِ ، فَلا تُوقَظُ ؛ تُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ لَهَا مَنْ يَكْفِيهَا مُؤْنَةَ بَيْتِهَا وَمِهْنَةَ أَهْلِهَا ؛ قَالَتْ : وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ ، وتُرْوَىٰ : فَأَتقَمَّحُ ، وَكِلْتَا ٱللَّفْظَتَينِ مَعْنَاهُمَا : أَشْرَبُ ٱللَّبَنَ فَأَرْوَىٰ حَتَّىٰ أَدَعَ ٱلشَّرَابَ ؛ أَرَادَتْ أَنَّهَا تَشْرَبُ حَتَّىٰ تَرْوَىٰ وَتَرْفَعَ رَأْسَهَا عَنْ شُرْبِهِ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْبَعِيرُ إِذَا كَرِهَ شُرْبَ ٱلْمَاءِ ؛ تُشِيرُ بِذَلِكَ كُلِّهِ إِلَىٰ عِزَّتِهَا عِنْدَهُ وَكَثْرَةِ ٱلْخَيْرِ لَدَيْهَا . .

وَقَوْلُهَا عَنْ أَمِّ أَبِي زَرْعٍ : عُكُومُهَا رَدَاحٌ ، فَٱلْعُكُومُ ٱلأَحْمَالُ ٱلَّتِي تُجْمَعُ فِيهَا ٱلأَمْتِعَةُ ؛ وَٱلرَّدَاحُ : ٱلثَّقِيلَةُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْحَشْوِ مِنَ ٱلأَثَاثِ وَٱلأَمْتِعَةِ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ : ٱمْرَأَةٌ رَدَاحٌ ، أَيْ عَجْزَاءُ ـ ذَاتُ عَجِيزَةٍ كَبِيرَةٍ ـ ثَقِيلَةُ الأَوْرَاكِ ، تَامَّةُ ٱلْخَلْقِ ؛ وَبَيْتُهَا فَسَاحُ ، أَيْ : وَاسِعٌ ؛ وَتُرْوَىٰ : فَيَاحُ ، وَهُوَ ٱلْوَاسِعُ كَذَلِكَ ؛ تَصِفُ وَالِدَةُ زَوْجِهَا وَتَكْنِي بِذَلِكَ عَنْ كَثْرَةِ ٱلْخَيْرِ وَرَغَدِ ٱلْعَيْشِ وَٱلْبِرَّ بِمَنْ يَنْزِلُ بِهِمْ .

وَقولُهَا عَنِ ٱبْنِ أَبي زَرْعٍ : مَضْجعُهُ كَمَسَلِّ ٱلشَّطْبَةِ ، قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ [وَهُوَ أَبُو عُبَيْدٍ] : ٱلشَّطْبَةُ : مَا شُطِبَ مِنْ جَرِيدِ ٱلنَّخْلِ ، وَهُوَ سَعَفُهُ ؛ شَبَّهَتْهُ بِتِلْكَ ٱلشَّطْبَةِ لِنِعْمَتِه ـ وَرَفَاهَتِهِ ـ وَٱعْتِدَالِ شَبَابِهِ ، وَقَال آخَرُ : أَرَادَتْ أَنَّهُ مَهْزُولٌ كَأَنَّهُ سَعَفَةٌ في دِقَّتِهَا ، أَرَادَتْ أَنَّهُ قَلِيلُ ٱللَّحْمِ ، دَقِيقُ ٱلْخَصْرِ ، فَشَبَّهَتْهُ بِٱلشَّطْبَةِ ، أَيْ : مَوْضِعُ نَوْمِهِ دَقِيقٌ لِنَحَافَتِهِ ، وَقِيلَ : أَرَادَتْ سَيْفَاً سُلَّ مِنْ غِمْدِهِ ؛ وَٱلشَّطْبَةُ : ٱلسَّيْفُ ، وَقَدْ شَبَّهَتِ ٱلعَرَبُ ٱلرِّجَالَ بِٱلسُّيُوفِ ، إِمَّا لِخُشُونَةِ ٱلجَانِبِ وَشِدَّةِ ٱلْمَهَابَةِ ، وَإِمَّا لِجَمَالِ ٱلرَّوْنَقِ وَكَمالِ ٱللَّأْلاءِ ؛ قَالَتْ : وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ ٱلْجَفْرَةِ ، فَٱلْجَفْرَةُ ٱلأُنثَىٰ مِنْ أَوْلادِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْمَاعِزِ : مَا بَلَغَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَجَفَرَ جَفْنَاهُ ، وَفُصِلَ عَنْ أُمِّهِ ، وَأَخَذَ فِي ٱلرَّعْيِ ؛ تَمْدَحُهُ بِقِلَّةِ ٱلأَكْلِ .

وَقَوْلُهَا عَنْ بِنْتِ أَبِي زَرْعٍ : طَوْعُ أَبِيهَا وَطَوْعُ أُمِّهَا ، أَيْ : إِنَّهَا بَارَّةٌ بِهِمَا ؛ وَقَوْلُهَا : وَمِلْءُ كِسَائِهَا ، كِنَايَةٌ عَنْ نَعْمَةِ جِسْمِهَا وَكَمَالِ كَيَانِهَا ؛ وَغَيْظُ جَارَتِهَا ، أَيْ : إِنَّهَا لِبَرَاعَتِهَا وَتَفَوُّقِهَا تَحْسُدُهَا جَارَتُهَا فَتَغْتَاظُ مِنْهَا حَسَدَاً ، وَٱلْجَارَةُ إِمَّا عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا وَإِمَّا ٱلْمُرَادُ بِهَا ٱلضَّرَّةُ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ قَالَ لِٱبْنَتِهِ حَفْصَةَ زَوْجِ ٱلْمُصْطَفَىٰ : لا يَغُرَّنْكِ إِنْ كَانَتْ جَارَتُكِ أَضْوأَ مِنْكَ وَأَحَبَّ إِلَىٰ ٱلنَّبِي ﷺ . يُرِيدُ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا .

وَقَوْلُهَا عَنْ جارِيَةِ أَبِي زَرْعٍ : لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثاً ، وَفي رِوَايَةٍ : لا تَنُثُّ حَدِيثَنَا تَنْثِيثاً ، وَمَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ إِفْشَاءُ ٱلْحَدِيثِ وَإِظْهَارُهُ ، أَيْ : تُفْشِي حَدِيثَنَا وَلا تُظْهِرُهُ لِلنَّاسِ ؛ وَقَوْلُهَا : وَلا تُنَقِّثُ مَسِيرَتَنَا تَنْقِيثاً ، أَرَادَتْ : إِنَّهَا أَمِينَةٌ عَلَىٰ حِفْظِ طَعَامِنَا ، لا تَنْقُلُه وَتُخْرِجُهُ وَتُفَرِّقُهُ ؛ وَلا تَمْلأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشاً : أَرَادَتْ أَنَّها نَظِيفَةٌ فَلا تَمْلأُ بيْتَنا بِٱلمزابِلِ ، كَأَنَّهَا عُشُّ طَائِرٍ ؛ أَوْ أَرَادَتْ أَنَّهَا لا تَخُونَنَا في طَعَامِنَا فَتَخْبأُ مِنْهُ في هَذِهِ ٱلزَّاوِيَةِ وَفي هَذِهِ ٱلزَّاوِيَةِ ، كَٱلطُّيُورِ إِذَا

عَشَّشَتْ في مَوَاضِعَ شَتَّىٰ .

ثُمَّ قَالَتْ أُمُّ زَرْعٍ : خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَٱلأَوطَابُ تَمْخَضُ ، فَٱلأَوطَابُ جَمْعُ وَطْبٍ ، وَهُوَ وِعَاءُ ٱللَّبَنِ ، تُرِيدُ أَنَّهُ خَرَجَ في زَمَنِ ٱلخِصْبِ وَطِيبِ ٱلرَّبِيعِ ؛ وَهِيَ تُمَهِّدُ بِذِكْرِ هَذَا لِلْبَاعِثِ عَلَىٰ رُؤْيَةِ أَبِي زَرْعٍ لِلْمَرْأَةِ عَلَىٰ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي رآهَا عَلَيْهَا ، أَيْ : إِنَّهَا مِنْ مَخْضِ ٱللَّبَنِ تَعِبَتْ فَٱسْتَقَلَّتْ تَسْتَرِيحُ ، فَرَآهَا أَبُو زَرْعٍ عَلَىٰ هَذِهِ ٱلْحَالِ ؛ قَالَتْ : فَلَقِيَ ٱمْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَٱلْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ ، تُرِيدُ أَنَّهَا ذَاتُ كَفَلٍ عَظِيمٍ ، فَإِذَا ٱسْتَلْقَتِ ٱرْتَفَعَ كَفَلُهَا بِهَا عَنِ ٱلأَرْضِ حَتَّىٰ يَصِيرَ تَحْتَهَا فَجْوَةٌ تَجْرِي فِيهَا ٱلرُّمَّانَتَانِ ، وَقَدْ أَوَّلَ بَعْضُهُمُ ٱلرُّمَّانَتَيْنِ بِٱلثَّدْيَيْنِ ، وَفي هَذَا ٱلتَّشْبِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ صِغَرِ سِنِّهَا وَأَنَّهَا لَمْ تَتَرَهَّلْ حَتَّىٰ يَنْكسِرَ ثَدْيَاهَا وَيَتَدَلَّيَا ؛ ثُمَّ قَالَتْ : فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا ـ أَيْ : تَزَوَّجَهَا ـ فَنَكَحْتُ ـ تَزَوَّجْتُ ـ بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيّاً ، أَيْ : مِنْ سَرَاةِ ٱلنَّاسِ وَخِيَارِهِمْ ؛ رَكِبَ شَرِيّاً ، أَيْ : فَرَساً يَسْتَشْرِي في سَيْرِهِ ، أَيْ : يَلِجُّ وَيَمْضِي وَيجِدُّ فِيهِ بِلا فُتُورٍ وَلا ٱنْكِسَارٍ ، وَمِنْ هَذَا يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا لَجَّ في ٱلأَمْرِ : قَدْ شَرِيَ فِيهِ وَٱسْتَشْرَىٰ ، أَوْ تَقُولُ : شَرِيّاً ، أَيْ : فَرَساً خِيَاراً فَائِقاً ، وَشَرَىٰ ٱلْمَالِ وَشَرَاتُهُ : خِيَارُهُ ؛ وَأَخَذَ خَطِّيّاً ، أي : رُمْحاً مَنْسُوباً إِلَىٰ ٱلْخَطِّ ـ مَكانٌ تُنْسَبُ إِلَيْهِ ٱلرِّمَاحُ ـ وَأَرَاح عَلَيَّ نَعماً ثَرِيّاً ، أَيْ : إِنَّهُ غَزَا فَغَنِمَ ، فَأَتَىٰ بِٱلنَّعَمِ ٱلْكَثِيرَةِ ، مِنْ إِبِلٍ وَخِـلافِهَا ، قَالَتْ : وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجاً ، فَٱلرَّائِحَةُ : ٱلآتِيَةُ وَقْتَ ٱلرَّوَاحِ ، وَهُوَ آخِرُ ٱلنَّهَارِ ؛ وَزَوْجاً ، أَيْ : ٱثْنَتَيْنِ ؛ وَقَالَ لَهَا : كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ . . . الخ ، مِيرِي أَهْلَكِ ، أَيْ : أَوْسِعِي عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلمِيرَةِ ، وَهِيَ : ٱلطَّعَامُ ؛ وٱلحَاصِلُ أَنَّهَا وَصَفَتْهُ بِٱلسُّؤْدُدِ وَٱلنَّبَالَةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ وَٱلْجُودِ ، إِذْ أَنَّهُ أَبَاحَ لَهَا أَنْ تَأْكُلَ مَا شَاءَتْ مِنْ مَالِه وَتَهْدِي مِنْهُ مَا شَاءَتْ لأَهْلِهَا ، مُبَالَغَةً في إِكْرَامِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ أَحْوَالُهُ عِنْدَهَا حَقِيرَةً

بِالإِضَافَةِ إِلَىٰ أَبِي زَرْعٍ ، لأَنَّ أَبَا زَرْعٍ كَانَ أَوَّلَ أَزْوَاجِهَا ، فَتمَكَّنَتْ مَحَبَّتُهُ مِنْ قَلْبِهَا ، وَ[ لأبي تمام ، من الكامل ] :

مَـــا ٱلْحُـــبَّ إِلّا لِلْحَبِيـــبِ ٱلأَوَّلِ

وَٱللهُ أَعْلَمُ . . .

❁ ❁ ❁

**ٱلْمَرْأَةُ رَيْحَانَةٌ :**

٦٧٤ ـ قَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْمُقَفَّعِ مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ ـ وَهَذِهِ ٱلْكَلِمَةُ جَاءَتْ في « نَهْجِ ٱلْبَلاغَةِ » مَنْسُوبَةً إِلَىٰ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ـ :

إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّساءِ ، فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلىٰ أَفْنٍ ، وَعَزْمَهُنَّ إِلىٰ وَهْنٍ ، وَٱكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصارِهِنَّ ، بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ، فَإِنَّ شِدَّةَ ٱلْحِجَابِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلارْتِيَابِ ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ دُخُولِ مَنْ لا تَثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، فإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ لا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَٱفْعَلْ ، وَلا تُمَلِّكَنَّ ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلأَمْرِ مَا جاوَزَ نَفْسَها ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْعَمُ لِحَالِها ، وَأَرْضىٰ لِبَالِها ، وَأَدْوَمُ لِجَمالِها ، وَإِنَّما ٱلْمَرْأَةُ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ[1] ، فَلا تَعْدُ بِكَرَامَتِها نَفْسَها ، وَلا تُطْمِعْها في أَنْ تَشْفَعَ عِنْدَكَ لِغَيْرِها .

ٱلأَفْنُ بِٱلسُّكُونِ : ٱلنَّقْصُ ، وَرَجُلٌ أَفِينٌ وَمَأْفُونٌ ، أَيْ : ناقِصُ ٱلْعَقْلِ ؛ وَمَنْ رَوَاهُ : إِلىٰ أَفَنٍ ، بِٱلتَّحْرِيكِ ، فَهُوَ ضِعْفُ ٱلرَّأْيِ ؛ وَٱلْوَهْنُ : ٱلضَّعْفُ ؛ وَقَوْلُهُ : وَٱكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصارِهِنَّ ، فَـ« مِنْ » هَهُنا زَائِدَةٌ ، وَهُوَ مَذْهَبُ

(١) ٱلرَّيْحَانَةُ : ٱلطَّاقَةُ مِنَ ٱلرَّيْحَانِ ، وَهُوَ كُلُّ نَبْتٍ طَيِّبُ ٱلرِّيحِ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْمَشْمُومِ ؛ وَٱلْقَهْرَمَانُ ، فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ ، بِمَعْنىٰ : ٱلْخَازِنُ وَٱلْوَكِيلُ ، ٱلْحَافِظُ لِمَا تَحْتَ يَدِهِ وَٱلْقَائِمُ بِأُمُورِ ٱلرَّجُلِ ، أَيْ : أَمِينُ ٱلدَّخْلِ وَٱلْخَرْجِ ، وَالأُنْثىٰ : قَهْرَمانَةٌ ، وَجَمْعُ ٱلْقَهْرَمَانِ قَهَارِمَةٌ .

أَبِي ٱلْحَسَنِ ٱلأَخْفَشِ في زِيَادَةِ « مِنْ » في ٱلْمُوجِبِ ؛ ثُمَّ ذَكَرَ فَائِدَةَ ٱلْحِجَابِ وَنَهىٰ أَنْ يَدْخُلَ علَيْهِنَّ مَنْ لا يُوثَقُ بِهِ ، وَقَالَ : إِنَّ خُرُوجَهُنَّ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَذا لأَنَّ مَنْ تِلْكَ صِفَتُهُ يَتَمَكَّنُ مِنَ ٱلْخَلْوَةِ مَا لا يَتَمَكَّنُ مِنْهُ مَنْ يَرَاهُنَّ فِي ٱلطُّرُقَاتِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَٱفْعَلْ ؛ يرْوَىٰ أَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِهِمْ بِنْتٌ حَسْنَاءُ ، فَحَجَّ بِها . وَكَانَ يَعْصِبُ عَيْنَيْها وَيَكْشِفُ لِلنَّاسِ وَجْهَها ، فَقِيلَ لَهُ في ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّما ٱلْحَذَرُ مِنْ رُؤْيَتِها ٱلنَّاسَ لا مِنْ رُؤْيَةِ ٱلنَّاسِ لَها . . . ثُمَّ قَال ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : وَلا تُمَلِّكَنَّ ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلأَمْرِ مَا جاوَزَ نَفْسَها ، أَيْ : لا تُدْخِلَهَا مَعَكَ في تَدْبِيرٍ وَلا مَشُورَةٍ وَلا تَتَعَدَّيَنْ حَالَ نَفْسِها وَمَا يُصْلِحُ شَأْنَها ؛ فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمانَةٍ ، أَيْ : إِنَّمَا خُلِقَتْ لِتَسْتَمْتِعَ بِها ، فَلا تُفْسِدْ أُنُوثَتَها بِتَوْسِيدِ مَا هُوَ مِنْ شَأْنِ ٱلرِّجَالِ إِلَيْها ؛ ثُمَّ أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَلا تَعْدُ بِكَرَامَتِها نَفْسَها .

٦٧٥ ـ هَذا وَلِمناسَبَةِ قَوْلِهِمْ : ٱلْمَرْأَةُ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ ، يُرْوىٰ أَنَّ خَالِدَ بْنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ وَقَعَ يَوْماً في عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، وَأَقْبَلَ يَصِفُهُ بِٱلْبُخْلِ ، وَزَوْجُهُ رَمْلَةُ بِنْتُ ٱلزُّبَيْرِ أُخْتُ عَبْدِ اللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ جَالِسَةً ، فَأَطْرَقَتْ وَلَمْ تَتَكَلَّمْ بِكَلِمَةٍ ، فَقَالَ لَها خَالِدُ : ما لَكِ لا تَتَكَلَّمِينَ ؟ أَرِضاً بِمَا قُلْتُهُ أَمْ تَنَزُّهاً عَنْ جَوابي ؟ فَقَالَتْ : لا هَذا وَلا ذَاكَ ، وَلَكِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لَمْ تُخْلَقْ لِلدُّخُولِ بَيْنَ ٱلرِّجَالِ ، إِنَّما نَحْنُ رَيَاحِينُ لِلشَّمِّ وَٱلضَّمِّ ، فَمَا لَنا وَلِلدُّخُولِ بَيْنَكُمْ ! فَأَعْجَبَهُ قَوْلُها ، فقَامَ وَقَبَّلَ ما بَيْنَ عَيْنَيْها .

٦٧٦ ـ وَمَرَّ شاعِرٌ بِنِسْوَةٍ ، فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهُنَّ ، فَأَنْشَدَ [من البسيط] :

إِنَّ ٱلنِّسَاءَ شَيَاطِينٌ خُلِقْنَ لَنا نَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ شَرِّ ٱلشَّيَاطِينِ

فَأَجابَتْهُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ [من البسيط] :

إِنَّ ٱلنِّسَاءَ رَيَاحِينٌ خُلِقْنَ لَكُمْ وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ ٱلرَّيَاحِينِ

٦٧٧ ـ وَشَبِيهٌ بِهَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من الطويل] :

أَرىٰ صاحِبَ ٱلنِّسْوَانِ يَحْسَبُ أَنَّها ... سَـواءٌ وَبَـوْنٌ بَيْنَهُـنَّ بَعِيـدُ

فَمِنْهُـنَّ جَنَّـاتٌ يَفِـيءُ ظِـلالُهـا ... وَمِنْهُـنَّ نِيـرَانٌ لَهُـنَّ وَقِيـدُ

٦٧٨ ـ وَمِمّا يَتَّصِلُ بِهَذَا مَا رُوِيَ [« الكامل » صفحة : ١١٧١] أَنَّهُ لَمَّا قَتَلَ مُصْعَبُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ ٱبْنَةَ ٱلنُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ زَوْجَةَ ٱلْمُخْتارِ ٱبْنِ أَبي عُبَيْدٍ ، أَنْكَرَ ٱلنَّاسُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَأَعْظَمُوهُ ، لأَنَّهُ أَتىٰ بِما نَهىٰ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عَنْهُ في نِسَاءِ ٱلْمُشْرِكِينَ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبيعَةَ [من الخفيف] :

إِنَّ مِـنْ أَعْظَـمِ ٱلْكَبَـائِـرِ عِنْـدِي ... قَتْـلَ حَسْنـاءَ غـادَةٍ عُطْبُـولِ[1]

قُتِلَـتْ بـاطِـلًا عَلـىٰ غَيْـرِ ذَنْـبٍ ... إِنَّ للهِ دَرَّهـا مِـنْ قَتِيـلِ

كُتِـبَ ٱلْقَتْـلُ وَٱلْقِتَـالُ عَلَيْنـا ... وَعَلـىٰ ٱلْغَـانِيَـاتِ جَـرُّ ٱلـذُّيُـولِ

٦٧٩ ـ وَلَمَّا خَرَجَتِ ٱلْخَوارِجِ بِٱلأَهْوازِ أَخَذُوا ٱمْرَأَةً فَهَمُّوا بِقَتْلِها ، فَقالَتْ لَهُمْ : أَتَقْتُلُونَ ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾[2] [٤٣ سورة الزخرف/ الآية : ١٨] ! فَأَمْسَكُوا عَنْها . .

* * *

(١) ٱلْعُطْبُولُ : ٱلشَّابَّةُ ٱلْجَميلةُ ٱلْفَتِيَّةُ .

(٢) ٱقْتِباسٌ مِنَ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمة : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [ ٤٣ سورة الزخرف/ الآية : ١٨ ] قَالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : يُنَشَّأُ : يُرَبَّىٰ ؛ وَٱلْحِلْيَةُ : ٱلزِّينَةُ وَٱلنِّعْمَةُ ؛ ثُمَّ قَالَ تَفْسيراً لِقَوْلِه سُبْحَانَهُ : ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [ ٤٣ سورة الزخرف/ الآية : ١٨ ] : وَهُوَ إِذَا ٱحْتَاجَ إِلىٰ مُجَاثَاةِ ٱلْخُصُوم ( قالَ في « اللِّسَانِ » : جَثَا يَجْثُو . . . : جَلَسَ عَلىٰ رُكْبَتَيْه لِلْخُصُومَةِ وَنَحْوِهَا ) . وَمُجَارَاةِ ٱلرِّجَالِ كَانَ غَيْرَ مُبينٍ : لَيْسَ عِنْدَهُ بَيَانٌ ، وَلا يَأْتِي بِبُرْهَانٍ يَحْجُّ بِهِ مَنْ يُخاصِمُهُ ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ عُقُولِ ٱلنِّساءِ وَنُقْصانِهِنَّ عَنْ فِطْرَةِ ٱلرِّجَالِ ، يُقالُ : قَلَّما تَكَلَّمَتِ ٱلْمَرْأَةُ فَأَرادَتْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِحُجَّتِها إِلَّا تَكَلَّمَتْ بِٱلْحُجَّةِ عَلَيْها ؛ قَالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : وَفِيهِ أَنَّهُ جَعَلَ ٱلنَّشْءَ فِي ٱلزِّينَةِ وَٱلنُّعُومَةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ وَٱلْمُذَامِّ وَأَنَّهُ مِنْ صِفَةِ رَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ .

٦٨٠ ـ وَقَدْ سَبَقَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ ٱبْنَ ٱلْمُقَفَّع إلىٰ هَذِهِ ٱلْكَلِمَةِ : إِنَّما ٱلْمَرْأَةُ رَيْحانَة لا قَهْرَمانَةٌ ، أَوْ هُوَ ـ ٱلْحَجَّاجُ ـ أَخَذَها مِنْ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبي طالِبٍ فَقالَها لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ دَخَلَ عَلىٰ ٱلْوَلِيدِ وَعَلَيْهِ دِرْعٌ وَعِمامَةٌ سَوْداءُ وَقَوْسٌ عَرَبِيَّةٌ وَكِنانَةٌ ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ أُمُّ ٱلْبَنِينِ بِنتُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ بْنِ مَرْوانَ ـ أُخْتُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ـ وَهِيَ تَحْتَ ٱلْوَلِيدِ ـ زَوْجَتُهُ ـ فَقالَتْ : مَنْ هَذا ٱلأَعْرابيُّ ٱلْمُسْتَلْئِمُ في ٱلسِّلاحِ عِنْدَكَ وَأَنْتَ فِي غِلالَةٍ ؟ فَبَعَثَ إِلَيْها : إِنَّهُ ٱلْحَجَّاجُ ؛ فَأَعادَتِ ٱلرَّسُولَ إِلَيْه ، فَقالَ : تَقُولُ لَكَ : وَٱللهِ لأَنْ يَخْلُوَ بِكَ مَلك ٱلْمَوْتِ أَحْياناً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَخْلُوَ بِكَ ٱلْحَجَّاجُ ؛ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ ٱلْوَلِيدُ وَهُوَ يُمازِحُهُ ، فَقالَ ٱلْحَجَّاجُ : يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ! دَعْ عَنْكَ مُفاكَهَةَ ٱلنِّساءِ بِزُخْرُفِ ٱلْقَوْلِ ، فَإِنَّما ٱلْمَرْأَةُ رَيْحانَةٌ وَلَيْسَتْ قَهْرَمانَةً ، فَلا تُطْلِعْها عَلىٰ سِرِّكَ وَمكايَدَةِ عَدُوِّكَ ؛ فَلَمّا دَخَلَ ٱلْوَلِيدُ عَلَيْها أَخْبَرَها وَهُوَ يُمازِحُها بِمَقالَةِ ٱلْحَجّاجِ ، فَقالَتْ : يا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! حاجَتي أَنْ تَأْمُرَهُ غَداً بِأَنْ يَأْتِيَنِي مُسَلِّماً ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ ، فَأَتاها ٱلْحَجّاجُ ، فَحَجَبَتْهُ ، فَلَمْ يَزَلْ قائِماً ، ثُمَّ قالَتْ لَهُ : إِيهِ يا حَجّاجُ ! أَنْتَ ٱلْمُمْتَنُّ عَلىٰ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِقِتالِ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ وَٱبْنِ ٱلأَشْعَثِ[1] ؟! أَمَا وَٱللهِ لَوْلا أَنَّ ٱللهَ عَلِمَ أَنَّكَ شَرُّ خَلْقِهِ مَا ٱبْتَلاكَ بِرَمْيِ ٱلْكَعْبَةِ ٱلْحَرامِ ، وَقَتْلِ ٱبْنِ ذاتِ ٱلنِّطاقَيْنِ[2] أَوَّلِ مَوْلودٍ وُلِدَ في ٱلإِسْلامِ؛ وَأَما نَهْيُكَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمنِينَ عَنْ مُفاكَهَةِ ٱلنِّساءِ وَبُلُوغِ لَذّاتِهِ وَأَوْطارِهِ ، فَإِنْ كُنَّ يَنْفَرِجْنَ عَنْ مِثْلِكَ ، فَمَا أَحَقَّهُ بِٱلأَخْذِ مِنْكَ ، وَإِنْ كُنَّ يَنفَرِجْنَ عَنْ مِثْلِهِ فَهُوَ غَيْرُ قابِلٍ لِقَوْلِكَ ، أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ نَفَضَ نِساءُ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلطِّيبَ مِنْ غَدارِهِنَّ فَبِعْنَهُ في

(١) ٱبْنُ ٱلزُّبَيْرِ هوَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ مَلِكُ ٱلْحِجازِ ، وَٱبْنَ ٱلأَشْعَثِ هُوَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلأَشْعَثِ .

(٢) هِيَ أَسْماءُ بِنْتُ ٱلصِّدِّيقِ أَبي بَكْرٍ وَأُمُّ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ .

أُعْطِيَةِ أَهْلِ ٱلشَّامِ حِينَ كُنْتَ في ٱلْمَأْزِقِ ٱلْمُتَضَايِقِ قَدْ أَظَلَّتْكَ رِماحُهُمْ وَأَثْخَنَتْكَ صِفاحُهُمْ ، وَحَتَّىٰ كَانَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ آبائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، فَأَنْجاكَ اللهُ مِنْ عَدُوِّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحُبِّهِمْ إِيَّاهُ ، قَاتَلَ ٱللهُ ٱلْقَائِلَ حِينَ نَظَرَ إِلَيْكَ وَسِنَانُ غَزالَةَ بَيْنَ كَتِفَيْكَ [من الكامل] :

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي ٱلْحُرُوبِ نَعَامَةٌ ... رَبْدَاءُ تَجْفِلُ مِنْ صَفِيرِ ٱلصَّافِرِ
هَلَّا كَرَرْتَ عَلىٰ غَزالَةَ فِي ٱلْوَغَىٰ ... بَلْ كانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحَيْ طائِرِ[1]

وَغَزَالَةُ : ٱمْرَأَةُ شَبِيبٍ ٱلْخارِجِيِّ ، وَلَها في بابِ ٱلشَّجاعَةِ مَكانٌ .

ثُمَّ قالَتْ : ٱخْرُجْ ؛ فَخَرَجَ . . .

٦٨١ ـ أَمَّا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ : وَلا تُطْمِعْها في أَنْ تَشْفَعَ لَدَيْكَ لِغَيْرِها ، فَإِنَّ مِنْ سُوءِ ٱلسِّياسَةِ أَنْ يُطْمِعَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ في أَنْ تَشْفَعَ عِنْدَهُ لِمُسْتَشْفِعٍ كانَ مَنْ كانَ .

٦٨٢ ـ رَوَىٰ ٱلزُّبَيْرُ بْنُ بَكّارٍ ، قَالَ : كَانَتِ ٱلْخَيْزُرانُ كَثيراً ما تُكَلِّمُ مُوسىٰ ٱلْهَادِي ٱبْنَها وَأَخا هارونِ ٱلرَّشِيدِ لَمّا ٱسْتُخْلِفَ ، في ٱلْحَوَائِجِ ، وَكَانَ يُجِيبُها إِلىٰ كُلِّ ما تَسْأَلُ ، حَتّىٰ مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ مِنْ خِلافَتِهِ ، وَتَتَالىٰ ٱلنَّاسُ عَلَيْها وَطَمِعُوا فِيها ، فَكَانَتِ ٱلْمَوَاكِبُ تَغْدُو إِلىٰ بابِها ، وَكَلَّمَتْهُ يَوْماً فِي أَمْرٍ فَلَمْ يَجِدْ إِلىٰ إِجابَتِها سَبِيلًا ، وَٱحْتَجَّ عَلَيْها بِحُجَّةٍ ، فَقَالَتْ : لَا بُدَّ مِنْ إِجَابَتِي ؛ فَقَالَ : لا أَفْعَلُ ؛ قَالَتْ : إِنِّي قَدْ ضَمِنْتُ هَذِهِ ٱلْحَاجَةَ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ مَالِكٍ ؛ فَغَضِبَ مُوسىٰ ، وَقَالَ : وَيْلِي عَلىٰ ٱبْنِ ٱلْفاعِلَةِ ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ صاحِبُها ، وَٱللهِ

---

(١) قالَ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتَ عِمْرانُ بْنُ حِطّانٍ ، وَقَدْ كانَ ٱلْحَجّاجُ لَجَّ في طَلَبِهِ ، وَقَوْلُهُ : بَلْ كانَ قَلْبُكَ في جَناحَيْ طائِرٍ ، يُرِيدُ إِمّا خَفَقَانَ قَلْبِهِ وَٱضْطِرَابَهُ فَزَعاً وَخَوْفاً ، وَإِمّا ذَهابُ قَلْبِهِ مِنْ أَصْلِهِ ؛ وَنَعامَةٌ رَبْداءُ : لَوْنُها إِلىٰ ٱلْغُبْرَةِ ؛ وَتَجْفِلُ : تُسْرِعُ مُنْزَعِجَةً نافِرَةً .

لا قَضَيْتُها لَكِ وَلا لَهُ ؛ قالَتْ : وَٱللهِ لا أَسْأَلُكَ حاجَةً أَبداً ، قالَ : إِذَنْ وَٱللهِ لا أُبالِي ؛ فَقَامَتْ مُغْضَبَةً ، فَقَالَ : مَكانَكِ تَسْتَوْعِبي كَلامي ، وَٱللهِ وَأَنا بَرِيءٌ مِنْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ ٱللهِ صلّىٰ اللهُ عَليه وآلِه وسلَّم لإِنْ بَلَغَني أَنَّهُ وَقَفَ أَحَدٌ مِنْ قُوّادِي وَخاصَّتِي وَخَدَمِي وَكُتَّابي عَلىٰ بابِكِ لأَضْرِبَنَّ عُنُقَهُ وَلأَقْبِضَنَّ مالَهُ ، فَمَنْ شاءَ فَلْيَفْعَلْ ، مَا هَذِهِ ٱلْمَواكِبُ ٱلَّتي تَغْدُو إِلىٰ بابِكِ كُلَّ يَوْمٍ !؟ أَما لَكِ مِغْزَلٌ يَشْغَلُكِ أَوْ مُصْحَفٌ يُذَكِّرُكِ أَوْ بَيْتٌ يَصُونُكِ ! إِيَّاكِ ثُمَّ إِيّاكِ أَنْ تَفْتحِي فاكِ فِي حاجَةٍ لِمِلِّيٍّ أَوْ ذِمِّيٍّ ؛ فَٱنْصَرفَتْ وَمَا تَعْقِلُ ما تَطأُ عَلَيْهِ ، وَلَمْ تَنطِقْ عِنْدَهُ بِحُلْوَةٍ وَلا مُرَّةٍ بَعْدَها حَتّىٰ ماتَ .

* * *

**كَيْفَ تُساسُ ٱلنِّساءِ :**

٦٨٣ ـ وَمِنْ أَحْسَنِ ما أُثِرَ في سِياسَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمَرْأَةَ قَوْلُ ٱلْفَيْلَسُوفِ ٱلرَّئِيسِ ٱبْنِ سِينا : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلصَّالِحَةَ شَرِيكَةُ ٱلرَّجُلِ فِي مُلْكِهِ ، وَقَيِّمَتُهُ في مَالِهِ ، وَخَلِيفَتُهُ في رَحْلِهِ ـ مَنْزِلِه ـ وَخَيْرُ ٱلنِّساءِ ٱلْعاقِلَةُ ، ٱلدَّيِّنَةُ ، ٱلْحَيِيَّةُ ، ٱلْوَدُودُ ، ٱلْوَلُودُ ، ٱلْقَصِيرَةُ ٱللِّسانِ ، ٱلْمُطاوِعَةُ ٱلْعِنانِ ، ٱلنَّاصِحَةُ ٱلْجَيْبِ[1] ، ٱلأَمِينَةُ ٱلْغَيْبِ ، ٱلرَّزَانُ في مَجْلِسِهَا ، ٱلْوَقُورُ في هَيْئَتِهَا ، ٱلْمَهِيبَةُ في فاقَتِهَا ، ٱلْخَفِيفَةُ ٱلْمُبْتَذَلَةُ في خِدْمَتِهَا لِزَوْجِها ، تُحْسِنُ تَدْبِيرَها ، وَتُكَثِّرُ قَليلَهُ بِتَقْدِيرِها ، وَتَجْلو أَحْزانَهُ بِجَمِيلِ أَخْلاقِها ، وَتُسَلِّي هُمُومَهُ بِلَطِيفِ مُداراتِها . . . وَجِماعُ سِياسَةِ ٱلرَّجُلِ أَهْلَهُ ثَلاثَةُ أُمُورٍ لا تَدعَهُ ، وَهِيَ : ٱلْهَيْبَةُ ٱلشَّدِيدَةُ ، وَٱلْكَرامَةُ ٱلتَّامَّةُ ،

---

(١) يُقالُ : فُلانٌ ناصِحُ ٱلْجَيْبِ ، أَيْ : نَقِيُّ ٱلصَّدْرِ ، خالِصُ ٱلْقَلْبِ ، لا غِشَّ فِيهِ ؛ وَٱلْجَيْبُ في ٱلأَصْلِ : طَوْقُ ٱلْقَمِيصِ ، ثُمَّ يُطْلَقُ عَلىٰ ٱلْقَلْبِ وَٱلصَّدْرِ ، فَيُقَالُ : ناصِحُ ٱلْجَيْبِ ، أَيْ : خالِصُ ٱلْقَلْبِ وَالصَّدْرِ ، أَيْ : أَمِينٌ ، قال [من الكامل] :

وَخَشَّنْتِ صَدْراً جَيْبُهُ لَكِ ناصِحُ

وَشُغْلُ خاطِرِها بِٱلْمُهِمِّ . . . أَمَّا ٱلْهَيْبَةُ فَهِيَ إِذا لَمْ تَهَبْ زَوْجَها هانَ عَلَيْها ، فَلَمْ تَسْمَعْ لأَمْرِهِ ، وَلَمْ تُصْغِ لِنَهْيِهِ ، ثُمَّ لَمْ تَقْنَعْ بِذَلِكَ حَتَّىٰ تَقْهَرَهُ عَلىٰ طاعَتِها ، فَتَعُودُ آمِرَةً وَيَعُودُ مَأْمُوراً ، وَتَصيرُ ناهِيَةً وَيَصيرُ مَنْهِيّاً ، وَتَرْجِعُ مُدَبِّرَةً وَيَرْجِعُ مُدَبَّراً ، وَذلِكَ هُوَ ٱلانْتِكاسُ وَٱلانْقِلابُ ؛ وَٱلْوَيْلُ حِينَئِذٍ لِلرَّجُلِ ، ماذا يَجْلِبُ لَهُ تَمَرُّدُها وَطُغْيانُها ، وَيَجْنِيهِ عَلَيْها قِصَرُ رَأْيِها وَسُوءُ تَدْبِيرِها وَيَسُوقُهُ إِلَيْهِ غَيُّها وَرُكُوبُها هَواها ، مِنَ ٱلْعارِ وَٱلشَّنارِ وَٱلْهَلاكِ وَٱلدَّمارِ ! فَٱلْهَيْبَةُ رَأْسُ سِياسَةِ ٱلرَّجُلِ أَهْلَهُ وَعِمادُها ، وَهِيَ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي يَنْسَدُّ بِهِ كُلُّ خَلَّةٍ ، وَيُتِمُّ تَمامُهُ كُلَّ نَقْصٍ ، وَيَنُوبُ عَنْ كُلِّ غائِبٍ ، وَيُغْنِي عَنْ كُلِّ فائِتٍ ، وَلا يَنُوبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلا يَتِمُّ دُونَهُ أَمْرٌ ، فِيمَا بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَأَهْلِهِ ؛ وَلَيْسَتْ هَيْبَةُ ٱلْمَرْأَةِ بَعْلَها شَيْئاً غَيْرَ إِكْرامِ ٱلرَّجُلِ نَفْسَهُ ، وَصِيانَةِ دِينِهِ وَمُروؤَتِهِ ، وَتَصْدِيقِهِ وَعْدَهُ ووَعِيدَهُ . . .

أَمَّا كَرامَةُ ٱلرَّجُلِ أَهْلَهُ ، فَمِنْ مَنافِعِها أَنَّ ٱلْحُرَّةَ ٱلْكَرِيمَةَ إِذا ٱسْتَجْلَتْ كَرامَةَ زَوْجِها دَعاها ٱسْتِدامَتُها لها ، وَمُحاماتُها عَلَيها ، وَإِشْفاقُها مِنْ زَوالِها ؛ إِلىٰ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ جَمِيلَةٍ لَمْ يَكَدِ ٱلرَّجُلُ يَقْدِرُ علىٰ إِصارَتِها إِلَيْها مِنْ غَيْرِ هَذا ٱلْبابِ ، بِٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّدِيدِ وَٱلْمُؤْنَةِ الثَّقِيلَةِ ؛ عَلىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ كُلَّما كانَتْ أَعْظَمَ شَأْناً ، وَأَفْخَمَ أَمْراً كانَ ذَلِكَ أَدَلَّ عَلىٰ نُبْلِ زَوْجِها وَشَرَفِهِ ، وَعَلىٰ جَلالَتِهِ وَعِظَمِ خَطَرِهِ ؛ وَكَرامَةُ ٱلرَّجُلِ أَهْلَهُ عَلىٰ ثَلاثَةِ أَشْياءَ : في تَحْسِينِ شارَتِها ، وَشِدَّةِ حِجَابِها ، وَتَرْكِ إِغارَتِها[1] .

وأَمَّا شَغْلُ ٱلْخاطِرِ بِٱلْمُهِمِّ فَهُوَ أَنْ يَتَّصِلَ شُغْلُ ٱلْمَرْأَةِ بِسِياسَةِ أَوْلادِها ، وَتَدْبِيرِ خَدَمِها ، وَتَفَقُّدِ ما يَضُمُّهُ خِدْرُها مِنْ أَعْمالِها ؛ فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذا كانَتْ ساقِطَةَ ٱلشُّغْلِ ، خالِيَةَ ٱلْبالِ ، لَمْ يَكُنْ لَها هَمٌّ إِلَّا ٱلتَّصَدِّي لِلرِّجالِ بِزِينَتِها ،

---

(١) الإِغارَةُ مِنَ ٱلْغَيْرَةِ .

وَٱلتَّبَرُّجَ بِهَيْأَتِها ، وَلَمْ يَكُنْ لَها تَفْكِيرٌ إِلَّا فِي ٱسْتِزَادَتِها ، فَيَدْعُوها ذَلِكَ إِلىٰ ٱسْتِصْغَارِ كَرامَتِهِ ، وَٱسْتِقْصارِ زَمَانِ زِيادَتِهِ وَتَسَخُّطِ جُمْلَةِ إِحْسَانِه . . .

* * *

**حَثُّهمْ عَلىٰ مَنْعِ ٱلنِّساءِ مِنَ ٱلْخَمْرِ وَسَماعِ ٱلْغِناءِ :**

٦٨٤ ـ مِما لا جُنَّ بِهِ وَلا خَفاءَ أَنَّ ٱلخَمْرَ تُهَيِّجُ ٱلْعَواطِفَ وَتَبْعَثُ ٱلشَّوْقَ ٱلْقَدِيمَ ٱلَّذي قَدْ ضَلَّ فِي ٱلأَحْشاءِ ، وَأَنَّها تَبْلُغُ بِشارِبِها أَنْ تَشْرَبَ عَقْلَهُ حَتّىٰ يَرىٰ حَسناً ما لَيْسَ بِٱلْحَسَنِ ، وَأَنَّها تَتْرُكُ ٱلشَّيْخَ صَبِيّاً [من مجزوء الرمل] :

وَتُــرِيــهِ ٱلْغَــيَّ رُشْــدَا وَتُــرِيــهِ ٱلــرُّشْــدَ غَيَّــا

٦٨٥ ـ وَلَا جَرَمَ أَنَّها تُحْدِثُ ٱلطَّرَبَ وَٱلأَرْيَحِيَّةَ ، وَهُمَا يَخْرُجَانِ بِصَاحِبِهِما فِي ٱلأَعَمِّ ٱلأَغْلَبِ إِلىٰ ما لا يَتَّفِقُ وَٱلدِّينُ وَٱلْخُلُقُ وَٱلْكَمالُ [من المتقارب] :

رَأَيْــتُ ٱلْمُــدامَــةَ غَــلَّابَــةً تُهَيِّــجُ لِلْقَلْــبِ أَشْــوَاقَــهُ
تُسِــيءُ مِــنَ ٱلْمَــرْءِ تَــأْدِيبَــهُ وَلَكِــنْ تُحَسِّــنُ أَخْــلاقَــهُ[1]

٦٨٦ ـ وَمِثْلُ ٱلْخَمْرِ فِي ذَلِكَ ٱلْغِناءُ وَٱلْمُوسِيقىٰ ، وَمِنَ هُنا حَضَّ ٱلْعُقَلاءُ عَلىٰ مَنْعِ ٱلنِّساءِ مِنْ شُرْبِ ٱلْخَمْرِ وَسَمَاعِ ٱلْغِنَاءِ ، صَوْناً لَهُنَّ عَنْ كُلِّ ما قَدْ يُزَحْزِحُهُنَّ عَنْ دائِرَةِ كَمالِهِنَّ وَمَا عَساهُ أَن يَمَسَّ مَوْضِعَ ٱلْكَرامَةِ مِنْهُنَّ . وَمَا يُوقِعُهُنَّ فِيما يُكْرَهُ وَيُذَمُّ مِنْهُنَّ .

٦٨٧ ـ رَوَوْا : أَنَّ أَعْرابِيَّةً عَجُوزاً[2] مَرَّتْ بِفِتْيَةٍ حَضَرِيِّينَ يَتَعاطَوْنَ ٱلرَّاحَ ، فَعَاجَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْتِماساً لِلرَّاحَةِ ، فَسَقَوْها مِنْ خَمْرِهِمْ ، فَلَمَّا نالَ مِنْها ٱلشَّرَابُ

---

(١) لِلْمُتَنَبِّي ، وَتُحَسِّنُ لِلْمَرْءِ أَخْلاقَهُ لِمَا تُحْدِثُ في شارِبِها مِنَ ٱلسَّماحَةِ وَٱلْبَذْلِ .
(٢) قِيلَ : هِيَ لَيْلىٰ ٱلأَخْيَلِيَّةُ .

وَتَمَشَّتْ حُمَيّا ٱلْكَأْسِ فِيها ، قَالَتْ : أَيَشْرَبُ نِساؤُكُمْ هَذا ٱلشَّرَابَ ؟ قَالوا : نَعَمْ ؛ قَالَتْ : زَنَيْنَ إِذَنْ وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ . . . أَوْ مَا هَذا مَعْنَاهُ .

٦٨٨ ـ ومَنْ كَلامِ فَيْلَسُوفِ ٱلإِسْلامِ يَعْقُوبَ [ بنُ إِسْحَاقَ ] بْنِ ٱلصَّبَاحِ ٱلْكِنْدِيِّ في ضَرَرِ سَمَاعِ ٱلْغِنَاءِ سَوَاءٌ أَكَانَ لِلرَّجُلِ أَمْ لِلْمَرْأَةِ : سَمَاعُ ٱلغِنَاءِ بِرْسامٌ [ ٱلْبِرْسَامُ : ٱخْتِلالُ ٱلْعَقْلِ ] حادٌّ ، لأَنَّ ٱلإِنْسانَ يَسْمَعُ فَيَطْرَبُ فَيُنْفِقُ فَيُسْرِفُ فَيَفْتَقِرُ فَيَغْتَمُّ فَيَعْتَلُّ فَيَمُوتُ . . . وَكَانَ هَذا ٱلْفَيْلَسُوفُ بَخِيلًا ، وَكَثيراً ما كانَ يَمْدَحُ ٱلْبُخْلَ ، وَلَعَلَّ كَلِمَتَهُ هَذِهِ نِتاجُ بُخْلِهِ .

٦٨٩ ـ وَقَالَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ يَزَيد بْنِ عَبْدِ ٱلمَلكِ : يا بَنِي أُمَيَّةَ ! إِيَّاكُمْ وَٱلْغِناءَ ؛ فَإِنَّهُ يُنْقِصُ ٱلْحَياءَ ، وَيَزِيدُ في الشَّهْوَةِ ، وَيَهْدِمُ ٱلْمُروءَةَ ، وَيَثُوِّرُ عَلىٰ ٱلْخَمْرِ ، وَيَفْعَلُ ما يَفْعَلُ ٱلسُّكْرُ ، فَإِنْ كُنْتُمْ لا بُدَّ فاعِلِينَ فَجَنِّبُوهُ ٱلنِّساءَ، فَإِنَّ ٱلْغِناءَ رُقْيَةُ ٱلزِّنا ، وَإِنِّي لأَقُولُ ذَلِكَ فِيهِ عَلىٰ أَنَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ ، وَأَشْهىٰ إِلَيَّ مِنَ ٱلْمَاءِ ٱلْبَارِدِ إِلىٰ ذِي ٱلْغُلَّةِ ، وَلَكِنَّ ٱلْحَقَّ أَحَقُّ أَنْ يُقالَ .

٦٩٠ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ : إِنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ لأَنْجَشَةَ وَهُوَ يَحْدو بِٱلنِّسَاءِ : « رِفْقاً أَنْجَشَةُ بِٱلْقَوارِيرِ » [راجع البخاري ، رقم : ٦١٤٩ ؛ مسلم ، رقم : ٢٣٢٣] .

قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ : أَرَادَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ بِٱلْقَوارِيرِ ٱلنِّساءَ ، شَبَّهَهُنَّ بِٱلْقَوارِيرِ لِضَعْفِ عَزائِمِهِنَّ ، وَقِلَّةِ دَوامِهِنَّ عَلىٰ ٱلْعَهْدِ ، وَٱلْقَوارِيرُ ٱلزُّجاجُ ، يُسْرِعُ إِلَيْها ٱلْكَسْرُ وَلا تَقْبَلُ ٱلْجَبْرَ ؛ وَكانَ أَنْجَشَةُ يَحْدُو بِهِنَّ رِكَابَهُنَّ ، وَيَرْتَجِزُ بِنَسِيبِ ٱلشِّعْرِ وَٱلرَّجَزِ وَراءَهُنَّ ، فَلَمْ يُؤْمَنْ أَنْ يُصِيبَهُنَّ ما يَسْمَعْنَ مِنْ رَقِيقِ ٱلشِّعْرِ فِيهِنَّ ، أَوْ يَقَعَ في قُلُوبِهِنَّ حُداؤُهُ ، فَأَمَرَ أَنْجَشَةَ بِٱلْكَفِّ عَنْ نَشِيدِهِ وَحُدائِهِ حِذارَ صَبْوَتِهِنَّ إِلىٰ غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ . . .

وقالَ بَعْضُهُمْ : أَرَادَ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ أَنَّ ٱلإِبِلَ إِذَا سَمِعَتِ ٱلْحُداءَ

أَسْرَعَتْ في ٱلْمَشْي وَٱشْتَدَّتْ فَأَزْعَجَتِ ٱلرَّاكِبَ فَأَتْعَبَتْهُ ، فَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، لأَنَّ ٱلنِّساءَ يَضْعُفْنَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْحَرَكَةِ .

أَقُولُ : وَٱلْحَدِيثُ بِهَذا ٱلْمَعْنَىٰ ٱلثَّاني يَكونُ مِنْ بَابِ ٱلْوُصاةِ بِٱلنِّسَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ .

٦٩١ ـ وَرَوَوْا : أَنَّ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ كانَ يَسْمُرُ لَيْلَةً عَلىٰ ظَهْرِ سَطْحٍ ، ثُمَّ دَعا بِوَضُوءٍ ، فَجَاءَتْ بِهِ جَارِيَةٌ لَهُ ، فَبَيْنَا هِيَ تَصُبُّ إِذْ تَلاهَتْ عَنْهُ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَإِذا هِيَ مُصْغِيَةٌ تَسْمَعُ مُغَنِّياً كانَ بِنَاحِيَةِ العَسْكَرِ ، فَأَنْصَتَ لَهُ ، فَسَمِعَهُ يُغَنِّي [من البسيط] :

مَحْجُوبَةٌ سَمِعَتْ صَوْتِي فَأَرَّقَها ... في آخِرِ ٱللَّيْلِ حَتّىٰ شَفَّها ٱلسَّهَرُ
تُدْنِي عَلىٰ جِيدِها ثِنْيَيْ مُعْصَفَرَةٍ ... وَٱلْحَلْيُ مِنْها عَلىٰ لَبَّاتِها خَصِرُ
في لَيْلَةِ ٱلنِّصْفِ ما يَدْرِي مُضاجِعُها ... أَوَجْهُها ما يَرَىٰ أَمْ وَجْهُها ٱلْقَمَرُ
لَوْ خُلِّيَتْ لَمَشَتْ نَحْوِي عَلىٰ قَدَمٍ ... تَكادُ مِنْ رِقَّةٍ لِلْمَشْيِ يَنْفَطِرُ

فَلَمَّا أَصْبَحَ أُحْضِرَ لَدَيْهِ ، فَقالَ : ما ٱسْمُكَ ؟ قَالَ : سَمِيرٌ ؛ فَسَأَلَهُ عَنِ ٱلْغِناءِ فَٱعْتَرَفَ بِهِ ، قَالَ : ما عَهْدُكَ بِهِ ؟ قَالَ : ٱللَّيْلَةَ ٱلْماضِيَةَ ؛ قَالَ : وَأَيْنَ كُنْتَ ؟ فَأَشَارَ إِلىٰ ناحِيَةِ العَسْكَرِ ، قالَ : فَمَا غَنَّيْتَ بِهِ ؟ فَأَخْبَرَهُ بِما سَمِعَ ، فَأَقْبَلَ سُلَيْمانُ عَلىٰ ٱلْقَوْمِ ، فَقالَ : هَدَرَ ٱلْجَمَلُ فَضَبِعَتِ ٱلنَّاقَةُ[1] ، وَنَبَّ ٱلتَّيْسُ فَشَكِرَتِ ٱلشَّاةُ ، وَهَدَرَ ٱلْحَمَامُ فَزَافَتِ ٱلْحَمامَةُ ، وَغَنَّىٰ ٱلرَّجُلُ فَطَرِبَتِ ٱلْمَرْأَةُ ، وَمَا أَحْسَبُ أُنْثَىٰ تَسْمَعُ مِثْلَ هَذا إِلَّا صَبَتْ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَخُصِيَ ، ثُمَّ أَمَرَ عامِلَهُ

---

(١) ضَبِعَتِ ٱلنَّاقَةُ ـ بِٱلْكَسْرِ ـ تَضْبَعُ ضَبْعاً وَضَبَعَةً : أَرَادَتِ ٱلْفَحْلَ ؛ وَنَبَّ ٱلتَّيْسُ يَنِبُّ ـ بِٱلْكَسْرِ ـ نَبّاً وَنَبِيباً : صاحَ عِنْدَ ٱلسِفادِ ؛ وَشَكِرَتِ ٱلنَّاقَةُ ـ بِٱلْكَسْرِ ـ يُرِيدُ : ٱمْتَلأَتْ غُلْمَةً ؛ وَزَافَتِ ٱلْحَمامَةُ : إِذا مَشَتْ مُدِلَّةً .

عَلىٰ المَدِينَةِ : أَنِ ٱخْصِ مَنْ قِبلَكَ مِنَ ٱلْمُخَنَّثِينَ ٱلْمُغَنِّينَ ؛ فَخَصىٰ مِنْهُمْ تِسْعَةً ، وَكَانَ سُلَيْمانُ مُفْرِطَ ٱلْغَيْرَةِ . . .

٦٩٢ ـ وَمِنْ طَرِيفِ ما يُروىٰ في هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ أَنَّ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَمَّا كَتَبَ إِلىٰ ٱبْنِ حَزْمٍ عامِلِهِ عَلىٰ ٱلمَدِينَةِ أَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ إِلَيْهِ أَنْ يُحْصِيَ ٱلْمُخَنَّثِينَ بِٱلْمَدِينَةِ ( بِٱلْحاءِ ٱلْمُهْمَلَةِ ) ، أَيْ : يَعُدُّهُمْ لِيَرىٰ فِيهِمْ رَأْيَهُ ، فَوَقَعَ لِلْكاتِبِ نُقْطَةٌ عَلىٰ ٱلْحاءِ فَصَيَّرَتْها خاءً مُعْجَمَةً . فَلَمَّا وَصَلَ ٱلْكِتابُ إِلىٰ ٱبْنِ حَزْمٍ خَصاهُمْ مِنْ ساعَتِهِ ، قالوا : وَلَمَّا خُصِيَ طُوَيْسُ قالَ : ٱلآنَ أُعِيدَ عَلَيْنا ٱلْخِتانُ ٱلأَكْبَرُ ، فَلَيْتَ هَذا مِنْ أَوَّلٍ ؛ فَقَالَ لَهُ ٱلْمُخَنَّثُ ٱلدَّلَّالُ : بَلْ هُوَ ٱلْخِتانُ ٱلأَكْبَرُ لِكُلِّ مُخَنَّثٍ أَبْتَرٍ ، فَقَالَ نَسيمُ ٱلسَّحَرِ : ٱلآنَ صِرْنا مخَنَّثينَ خِصْياناً حَقّاً ؛ فَقَالَ نَوْمُ ٱلضُّحىٰ : يَانَسِيمُ ! بَلْ وَاللهِ كُنَّا مُخَنَّثِينَ فَصِرْنا نِساءً ؛ فَقَالَ لَهُ جامِعُ ٱلأُنْسِ : يا قَوْمُ ! ٱسْتَرَحْنا وَٱللهِ مِنْ حَمْلِ مِيزابِ ٱلْبَوْلِ ؛ فَقَال غُصْنُ ٱلْبانِ : أَقْصِروا عَنِ ٱلْكلامِ ، فَإِنَّكُمْ وَاللهِ جَميعاً مَجانينُ ، فَما ٱلَّذِي نَصْنَعُ بِسِلاحٍ لا يَنْفَعُ ؟ ! .

* * *

٦٩٣ ـ وَفي مَعْنىٰ قَوْلِ سلَيْمانَ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ : وَغَنّىٰ ٱلرَّجُلُ فَطَرِبَتِ ٱلْمَرْأَةُ ، قَوْلُ ٱلْبُرَيْقِ ٱلْهُذَلِيِّ [من المتقارب] :

مَعِي صاحِبٌ مِثْلُ حَدِّ ٱلسِّنَانِ ... شَدِيدٌ عَلىٰ قِرْنِهِ مِحْطَمُ
مِنَ ٱلْمُدَّعِينَ إِذَا نُوكِروا ... تُضِيفُ إِلىٰ صَوْتِهِ ٱلْغَيْلَمُ[1]

* * *

(١) تُضِيفُ ، مِنْ قَوْلِهِمْ : ناقَةٌ تُضِيفُ إِلىٰ صَوْتِ ٱلْفَحْلِ : إِذَا سَمِعَتْهُ أَرادَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ ؛ وَٱلْغَيْلَمُ : ٱلْجَارِيَةُ ٱلْحَسْناءُ تَسْتَأْنِسُ إِلىٰ صَوْتِهِ ، وَقِيلَ : ٱلْجارِيَةُ ـ ٱلْفَتاةُ ٱلْمُغْتَلِمَةُ ـ يَصِفُ صاحِبَهُ أَنَّهُ مِمَّنْ يَدَّعُونَ أَنَّ صَوْتَهُ حَسَنٌ حَتّىٰ إِنَّ ٱلْفَتاةَ ٱلْمُغْتَلِمَةَ تَسْتَأْنِسُ إِلىٰ صَوْتِهِ .

**حَضَّهُمْ عَلىٰ مَنْعِ ٱلنِّساءِ مِنْ كُلِّ ما يُصْبِيهُنَّ :**

٦٩٤ ـ وَكَذلِكَ كانُوا يَحُضُّونَ عَلىٰ مَنْعِهِنَّ مِنْ كُلِّ ما يُطْرِبُهُنَّ وَيُصْبِيهِنَّ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : إِيَّاكَ أَنْ تَتْرُكَ حُرْمَتَكَ تُصْغِي إِلىٰ قَوْلِ عُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ [من الطويل] :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غَداةَ غَدٍ أَمْ رائِحٌ فَمُهَجِّرُ

فَإِنَّها تُطْرِبُ ٱلْغانِيَاتِ وَ . . . أَقُولُ : وَأَيْنَ تَقَعُ قافِيَةُ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ هَذِهِ مِمَّا يُغَنِّيهِ مُغَنُّونا ٱلْيَوْمَ مِنْ تِلْكَ ٱلأَغاني ٱلسُّوقِيَّةِ ٱلْوَقِحَةِ ٱلسَّافِرَةِ ٱلْمُبْتَذلَةِ ٱلْفَاجِرَةِ ٱلَّتي تُؤَثِّرُ أَثَرَها السَّيِّءَ فِي نُفُوسِ فِتْيانِنا وَفتَياتِنا ، وَتُغْدِرُ فِيهِمْ فُحْشاً وَتَخَنُّثاً ! ٱللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنا وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بالله .

٦٩٥ ـ أَمَّا قَصِيدَةُ ٱبْنِ أَبي رَبيعَةَ فَإِنَّا نُورِدُ أَكْثَرَها هُنا[1] عَلىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ نَهْيِ هَذا ٱلرَّجُلِ مِنْ إِصْغَاءِ ٱلنِّساءِ إِلَيْها ، فَإِنَّها مِنْ غُرَرِ ٱلْقَصائِدِ ، وَكَانَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبَّاسٍ يَحْفَظُها ، فَإِذا لِيمَ في ذَلِكَ قَالَ : إِنَّها « أَمِنْ آل نُعْمٍ » ! يَسْتَجِيدُها ، وَإِلَيْكَ ٱلأَبْيَاتُ ٱلَّتي ٱخْتَرْناها مَعَ شَرْحِها ، قَالَ [من الطويل] :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أَنْتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غَداةَ غَدٍ أَمْ رائِحٌ فَمُهَجِّرُ

إِلىٰ أَنْ قَالَ :

فَلَمَّا فَقَدْتُ ٱلصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ مَصَابِيحُ شُبَّتْ بِٱلْعِشَاءِ وَأَنْؤُرُ
وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجُو غُيُوبَهُ وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ
وَنَفَّضْتُ عَنِّي ٱلْعَيْنَ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ ٱلْـ ـحُبَابِ وَرُكْنِي خِيفَةَ ٱلْقَوْمِ أَزْوَرُ

(١) [ وهي في « الأمالي » لأبي علي القالي ، ١٤١/٣ ، وفي « خزانة الأدب » ٣١٦/٥ ـ ٣١٢ ؛ وفي الديوان ٨٤ ـ ٩٥ ] .

فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأْتُهَا فَتَوَلَّهَتْ ... وكَادَتْ بِمَكْنُونِ ٱلتَّحِيَّةِ تَجْهَرُ
وَقَالَتْ ـ وَعَضَّتْ بِٱلْبَنَانِ ـ فَضَحْتَنِي ... وَأَنْتَ ٱمْرُؤٌ مَيْسُورُ أَمْرِكَ أَعْسَرُ
أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَّا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَفْ ... رَقِيباً وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ
[فَقُلْتُ: كَذَاكِ ٱلْحُبُّ قَدْ يَحمِلُ ٱلْفَتَىٰ ... عَلَىٰ ٱلْهَوْلِ حَتَّىٰ يُسْتَقَادَ فَيُنْحَرُ]
فَوَ ٱللهِ مَا أَدْرِي أَتَعْجِيلُ حَاجَةٍ ... سَرَتْ بِكَ أَمْ قَدْ نَامَ مَن كُنْتَ تَحْذَرُ
فَقُلْتُ لَهَا: بَلْ قادَنِي ٱلشَّوقُ وَٱلْهَوَىٰ ... إِلَيْكِ وَمَا عَيْنٌ مِنَ ٱلنَّاسِ تَنْظُرُ
فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طُولُهُ ... وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ
وَيَالَكَ مِنْ مَلْهًىٰ هُنَاكَ وَمَجْلِسٍ ... لَنَا لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلَيْنَا مُكَدِّرُ
يَمُجُّ ذَكِيَّ ٱلْمِسْكِ مِنْهَا مُفَلَّجٌ ... رَقِيقُ ٱلْحَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ مُؤَشَّرُ
يَرِفُّ إِذْ يَفْتَرُّ عَنْهُ كَأَنَّهُ ... حَصَىٰ بَرَدٍ أَوْ أُقْحُوانٌ مُنَوِّرُ
وَتَرْنُو بِعَيْنَيْهَا إِلَيَّ كَمَا رَنَا ... إِلَىٰ رَبْرَبٍ وَسْطَ ٱلْخَمِيلَةِ جُؤْذُرُ
فَلَمَّا تَقَضَّىٰ ٱللَّيْلُ إِلَّا أَقَلَّهُ ... وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ
أَشَارَتْ بِأَنَّ ٱلْحَيَّ قَدْ حَانَ مِنْهُمُ ... هُبُوبٌ وَلَكِنْ مَوْعِدٌ لَكَ عَزْوَرُ
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا مُنَادٍ بِرِحْلَةٍ ... وَقَدْ لاحَ مَفْتُوقٌ مِنَ ٱلصُّبْحِ أَشْقَرُ
فَلَمَّا رأتْ مَنْ قَدْ تَنَوَّرَ مِنْهُمُ ... وَأَيْقَاظَهُمْ قَالَتْ: أَشِرْ كَيْفَ تَأْمُرُ
فَقُلْتُ: أُبَادِيهِمْ فَإِمَّا أُفُوتُهُمْ ... وَإِمَّا يَنَالُ ٱلسَّيْفُ ثَأْراً فَيَثْأَرُ
فَقَالَتْ: أَتَحْقِيقاً لِمَا قَالَ كَاشِحٌ ... عَلَيْنَا وَتَصْدِيقاً لِمَا كَانَ يُؤْثَرُ
فَإِنْ كَانَ مَا لا بُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ ... مِنَ ٱلأَمْرِ أَدْنَىٰ لِلْخَفَاءِ وَأَسْتَرُ
أَقُصُّ عَلَىٰ أُخْتَيَّ بَدْءَ حَدِيثِنَا ... وَمَالِيَ مِنْ أَنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ
لَعَلَّهُمَا أَنْ تَبْغِيَا لَكَ مَخْرَجاً ... وَأَنْ تَرْحُبَا سِرْباً بِمَا قَدْ كُنْتُ أَحْصَرُ
فَقَامَتْ كَئِيباً لَيْسَ فِي وَجهِهَا دَمٌ ... مِنَ ٱلْحُزْنِ تَذْرِي عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ
فَقَالَتْ لأُخْتَيْهَا: أَعِينَا عَلَىٰ فَتَىً ... أَتَىٰ زَائِراً وَٱلأَمْرُ لِلأَمْرِ يُقْدَرُ

فَـأَقْبَلَتَـا فَـٱرْتَـاعَتَـا ثُـمَّ قَـالَتَـا : أَقِلِّي عَلَيْكِ ٱلْهَـمَّ فَـٱلْخَطْـبُ أَيْسَـرُ
يَقُـــومُ فَيَمْشِـــي بَيْنَنَـــا مُتَنَكِّـــراً فَـلَا سِـرُّنَـا يَفْشُـو وَلا هُـوَ يَظْهَـرُ
فَكَـانَ مِجَنِّـي دُونَ مَـنْ كُنْـتُ أَتَّقِـي ثَـلاثُ شُخُـوصٍ كَـاعِبَـانِ وَمُعْصِـرُ
فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ ٱلْحَيِّ قُلْنَ لِي أَلَـمْ تَتَّـقِ ٱلأَعْـدَاءَ وَٱللَّيْـلُ مُقْمِـرُ
وَقُلْنَ : أَهٰذَا دَأْبُكَ ٱلدَّهْرَ سَادِراً أَمَـا تَسْتَحِـي أَوْ تَـرْعَـوِي أو تُفَكِّـرُ

ٱلشَّرْحُ : « نُعْم » ٱسْمُ مَحْبُوبَتِهِ ؛ « فَمُهَجِّرُ » : مِنْ هَجَّرَ ٱلرَّاكِبُ : سَارَ وَقْتَ ٱلْهَاجِرَةِ ؛ « شُبَّتْ » : أُوقِدَتْ ؛ « قُمَيْرٌ » : تَصْغِيرُ قَمَرٍ ، وَإِنَّمَا صَغَّرَهُ لأَنَّهُ نَاقِصٌ عَنِ ٱلتَّمَامِ ، وَهَذَا فِي أَوَّلِ ٱلشَّهْرِ وَآخِرِهِ ؛ «رُعْيَانٌ » جَمْعُ ٱلرَّاعِي ؛ «سُمَّرٌ » جَمْعُ سَامِرٍ ، وَهُمْ : ٱلْجَمَاعَةُ يَتَحَدَّثُونَ لَيْلًا ؛ « نَفَضْتُ عَنِّي ٱلْعَيْنَ » يَقُولُ : ٱحْتَرَسْتُ مِنْهَا وَأَمِنْتُهَا ، وَتُرْوَىٰ : « وَنَفَّضْتُ عَنِّي ٱلنَّوْمَ » وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ تَحْدِيدِ نَظَرِهِ وَشِدَّةِ حَذَرِهِ مِنَ ٱلرُّقَبَاءِ ؛ « ٱلْحُبَابُ » : حَيَّةٌ بِعَيْنِهِ ؛ « رُكْنِي » يُرِيدُ : جَانِبِي ، وَرُكْنُ ٱلشَّيْءِ : جَانِبُهُ ٱلَّذِي تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ وَتَقُومُ بِهِ ؛ وَ« أَزْوَرُ » : مَائِلٌ فِيهِ ٱزْوِرَارٌ وَٱنْحِرَافٌ عَنِ ٱلْقَصْدِ ، وَٱزْوَرَّ عَنْهُ : عَدَلَ وَٱنْحَرَفَ ؛ وَ« أَرَيْتَكَ » كَلِمَةٌ تَقُولُهَا ٱلْعَرَبُ عِنْدَ ٱلاسْتِخْبَارِ ، بِمَعْنَىٰ : أَخْبِرْنِي ؛ وَ« ذو غُرُوبٍ » فَغَرْبُ كُلِّ شَيْءٍ : حَدُّهُ ، وَإِنَّمَا يَعْنِي ٱلأَسْنَانَ ؛ و« مُؤشَّر » فَتَشْرِيرِ ٱلأَسْنَانِ : تَحْدِيدُ أَطْرَافِهَا ، يَكُونُ خِلْقَةً وَصِنَاعَةً ؛ وَ« تَرِفُّ » : تُبْرِقُ وَتَتَلأْلأُ ؛ وَ« تَرْنُو » فَٱلرُّنُوُّ : إِدَامَةُ ٱلنَّظَرِ مَعَ سُكُونِ ٱلطَّرْفِ ، وَرَنَا لَهُ : أَدَامَ ٱلنَّظَرَ ؛ وَ« ٱلْخَمِيلَةُ » : كُلُّ مَوْضِعٍ كَثُرَ فِيهِ ٱلشَّجَرُ ؛ وَ« ٱلرَّبْرَبُ » : ٱلْقَطِيعُ مِنْ بَقَرِ ٱلْوَحْشِ ؛ وَ« جُؤْذُرُ » : وَلَدُ ٱلْبَقَرَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ ، يَصِفُ هَيْئَةَ نَظَرَاتِهَا ٱلْمُتَتَالِيَةِ فِي مَوْضِعٍ لا تَتَفَرَّقُ فِيهِ أَشِعَّةُ ٱلْبَصَرِ ؛ وَ« تَوَالِي نَجْمِهِ تَتَغَوَّرُ » فَٱلتَّوَالِي : ٱلتَّوَابِعُ ، وَتَتَغَوَّرُ : تَغُورُ وَتَذْهَبُ ؛ وَ« حَانَ مِنْهُمْ هُبُوبٌ » فَٱلْهُبُوبُ : ٱلانْتِبَاهُ ، يُقَالُ : هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ يَهُبُّ : ٱنْتَبَهَ ؛ وَ« عَزْوَرُ » : مَوضِعٌ ؛ وَ« مَفْتُوقٌ » مِنَ ٱلْفَتْقِ ،

وَهُوَ : ٱنْفِلاقُ ٱلصُّبْحِ ؛ وَ« أَشْقَرُ » مِنَ ٱلشُّقْرَةِ ، وَهِيَ : حُمْرَةٌ صَافِيَةٌ في بَياضٍ ؛ وَ« أَيْقَاظُهُمْ » جَمْعُ يَقِظٍ ؛ وَ« فَقَالَتْ : أَتحْقِيقاً » أَيْ : أَتفعَلُ هَذا تَحْقِيقاً ؟ وَمِنْ كَلامِ ٱلْعَرَبِ : أَكُلَّ هَذَا بُخْلًا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَآهُ يَفْعَلُ شَيْئاً أَنْكَرَهُ ، فَقَالَ : أَتفعَلُ كُلَّ هَذَا بُخْلًا ؛ وَ« أُبَادِيهِمْ » أَيْ : أُظْهِرُ لَهُمْ ، غَيْرُ مَهْمُوزٍ ، وَبَدَأْتُ هَذَا ، مَهْمُوزاً ، إِذَا أَرَدْتَ بِهِ مَعْنَىٰ ٱلأَوَّلِ ؛ وَ« بَدْءُ حَدِيثِنَا » أَيْ : أَوَّلُ حَدِيثِنا ؛ وَ« أَنْ تَرْحُبَا » أَيْ : أَنْ تَتَّسِعَا ، أَيْ : تَتَّسِعُ صُدُورُهُمَا ، مِنْ قَوْلِهِمْ : فُلانٌ رَحِيبُ ٱلصَّدْرِ ؛ وَٱلسِّرْبُ بِكَسْرِ ٱلسِّينِ : ٱلصَّدْرُ ، يُقَالُ : فُلانٌ وَاسِعُ ٱلسِّرْبِ ، أَيْ : ٱلصَّدْرِ ؛ وَ« أُحْصَرُ » : أَضِيقُ بِهِ ذَرْعاً ؛ وَ« مِجَنِّي » : تُرْسِي ؛ وَ« ثَلاثُ شُخُوصٍ » كَانَ ٱلْوَجْهُ ثَلاثَةَ شُخُوصٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا قَصَدَ ٱلْمَرْأَةَ أَنَّثَ عَلَىٰ ٱلْمَعْنَىٰ ؛ وَ« ٱلْمُعْصِرُ » : ٱلْفَتَاةُ ٱلَّتِي قَارَبَتِ ٱلْحَيْضَ . [راجع رقم: ١٧٣] .

* * *

## ٱلزَّهْوُ وَٱلْبُخْلُ وَٱلْجُبْنُ وَٱلْخَفَرُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلنِّسَاءِ :

٦٩٦ ـ قَالَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ : خِيَارُ خِصَالِ ٱلنِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ ٱلرِّجَالِ : ٱلزَّهْوُ ـ يُرِيدُ : ٱلأَنَفَةَ وَٱلتَّرَفُّعَ ـ ، وَٱلْجُبْنُ ، وَٱلْبُخْلُ ؛ فَإِذَا كَانَت ٱلْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا[١] ، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ ـ خَافَتْ ـ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَعْرِضُ لَهَا[٢] ، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا .

٦٩٧ ـ أَقُولُ : وَعَلَىٰ ٱلْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ سَمْحَةً ، فَضْلًا أَنَّهُ مَتَىٰ عُلِمَ مِنْهَا ٱلْجُودُ بِمَا يُطْلَبُ مِنْهَا فَلَرُبَّمَا جَرَّ ٱلطَّمَعُ فِيهَا إِلَىٰ أَمْرٍ آخَرَ وَرَاءَ ذَلِكَ ،

---

(١) يُعْجِبُنِي كُلَّ ٱلإِعْجَابِ تِلْكَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمَزْهُوَّةُ ٱلْمُتَرَفِّعَةُ ذاتُ ٱلشَّمَمِ وَٱلأَنَفَةِ وَٱلْعِزَّةِ ، وَإِذا كانَ ٱلزَّهْوُ مَذْموماً فِي ٱلرِّجَالِ فَإِنَّهُ فِي ٱلنِّساءِ مِمَّا يُحْمَدُ وَيُسْتَحْسَنُ وَيَزِيدُهُنَّ جَمالًا وَرَوْعَةً وَسُلْطاناً عَلىٰ ٱلْقُلُوبِ ، وَبِئْسَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلذَّلِيلَةُ ٱلْمُسْتَخْذِيَةُ ، فَقَدْ وَضَعَتْ نَفْسَهَا ٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذِي يَعَافُهُ ٱلرِّجَالُ .

(٢) أَوْ تَقُولُ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا جَبُنَتْ كَفَّتْ عَنِ ٱلْمَساوِىءِ خَوْفاً عَلىٰ نَفْسِها أَوْ عِرْضِها .

وَلِهَذَا جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/الآية : ٣٢] وَرُبَّمَا جَادَتِ ٱلْمَرْأَةُ بِٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ٥] قِيلَ : ٱلنِّسَاءُ وَٱلصِّبْيَانُ ، وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ * ٱلْجَوْرُ فِي الحُوْرِ مِثْلَ ٱلشُّحِّ في الرَّجُلِ *

٦٩٨ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من البسيط] :

مَا لِلْحِسَانِ مُسِيئَاتٍ بِنَا وَلَنَا ... إِلَىٰ ٱلْمُسِيئَاتِ طُولَ ٱلدَّهْرِ إِحْسَانُ
فَإِنْ يُحْنَ بِعَهْدٍ قُلْنَ مَعْذِرَةً ... إِنَّا نَسِينَا وَفِي ٱلنِّسْوَانِ نِسْيَانُ
لا نُلْزَمُ الذِّكْرَ ـ إِنَّا لَمْ نُسَمَّ بِهِ ... وَلا مُنِحْنَاهُ بَلْ لِلذِّكْرِ ذُكْرَانُ[1]
فَضْلُ ٱلرِّجَالِ عَلَيْنَا أَنَّ شِيمَتَهُمْ ... جُودٌ وَبَأْسٌ وَأَحْلامٌ وَأَذْهَانُ
وَأَنَّ فِيهِمْ وَفَاءً لا نَقُومُ لَهُ ... وَهَلْ يَقُومُ مَعَ ٱلنُّقْصَانِ رُجْحَانُ

٦٩٩ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الطويل] :

بِنَفْسِي ٱلْخَيَالُ ٱلزَّائِرِيُّ بَعْدَ هَجْعَةٍ ... وَقَوْلَتُهُ لِي : بَعْدَنَا ٱلْغُمْضَ تَطْعَمُ ؟
سَلامٌ فَلَوْلا ٱلْخَوْفُ وَٱلْبُخْلُ عِنْدَهُ ... لَقُلْتُ : أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا ٱلْمُسَلِّمُ[2]

٧٠٠ ـ وَقَالَ ٱبْنُ نُبَاتَةَ ٱلسَّعْدِيُّ [من الكامل] :

كَسْلَىٰ يَزُورُ مَعَ ٱلظَّلَامِ لَهَا ... طَيْفٌ فَأَعْدَىٰ طَيْفَهَا ٱلْكَسَلُ
بَخِلَتْ بِمَا جَادَ ٱلرُّقَادُ بِهِ ... وَمِنَ ٱلْغَوَانِي يَحْسُنُ ٱلْبَخَلُ

---

(١) الذِّكْرُ بِفَتْحِ ٱلذَّالِ وَكَسْرِهَا : ٱلتَّذَكُّرُ .

(٢) يَقُولُ ٱلْمُتَنَبِّيُّ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلأَوَّلِ : أَفْدِي بِنَفْسِي ٱلْخَيَالَ ٱلَّذِي زَارَنِي بَعْدَ مَا نِمْتُ وَقَالَ لِي مُعاتِباً : أَتَنَامُ بَعْدَ فِرَاقِنَا ؟ وَهَلْ مَنْ فَارَقَتْهُ أَحِبَّتُهُ يَنَامُ ؟ فَٱلْهَجْعَةُ : ٱلرَّقْدَةُ ، وَقَوْلُهُ : بَعْدَنَا ، أَيْ : أَبَعْدَنَا ، بِهَمْزَةِ ٱلإِنْكَارِ ؛ وَطَعِمَ ٱلشَّيْءَ : ذَاقَهُ . وَيَقُولُ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي : وَقَالَ لِي ٱلْخَيَالُ : عَلَيْكَ سَلامٌ ؛ ثُمَّ قَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ : وَلَوْلا أَنَّ هَذَا ٱلْخَيَالَ : بَخِيلٌ لا يَجُودُ بِمَطْلُوبِي وَجَبَانٌ لا يَزُورُ مُجَاهِراً لَحَمَلَنِي ٱلابْتِهَاجُ بِهِ وَٱلإِجْلالُ لَهُ عَلَىٰ أَنْ أَظُنَّهُ ٱلْمَمْدُوحَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ .

٧٠١ ـ قَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلطُّغْرائِيُّ [من الكامل] :

ٱلْجُـودُ وَٱلإِقْـدَامُ فِـي فِتْيَـانِهِـمْ وَٱلْبُخْـلُ فـي ٱلْفَتَيَـاتِ وَٱلإِشْفَـاقُ
وَٱلرَّمْيُ في ٱلأَحْدَاقِ دَأْبُ رُمَاتِهِمْ وَٱلـرَّامِيَـاتُ سِهَـامُهـا ٱلأَحْـدَاقُ

٧٠٢ ـ وَبَعْدُ ؛ فَإِذا كَانَ ٱلْبُخْلُ وَٱلزَّهْوُ وَٱلْجُبْنُ مِمّا يُحْمَدُ في ٱلنِّسَاءِ وَيُذَمُّ في ٱلرِّجَالِ ، فَٱلْحَياءُ وَإِنْ كانَ مِمّا يُحْمَدُ فِي ٱلرِّجَالِ فَهُوَ في ٱلنِّساءِ أَحْمَدُ وَأَمْثَلُ وَأَجْمَلُ ، وَمَا هُوَ ٱلْحَيَاءُ ؟ ٱلْحَياءُ فَضيلَةٌ وَسَطٌ بَيْن رَذِيلَتَيْنِ ، هُمَا : ٱلْوَقَاحَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلجَراءَةُ عَلىٰ ٱلْقَبائِحِ وَعَدَمِ ٱلْمُبالاةِ بِهَا ، وَٱلْخَجَلُ ٱلَّذِي هُوَ ٱنْحِصَارُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلفِعْلِ مُطْلَقاً ؛ فَٱلْحَياءُ إِذَنْ هُوَ : ٱنْقِباضُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْقَبيحِ مَخَافَةَ ٱلذَّمِّ ، وَٱشْتِقَاقُهُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ، لأَنَّهُ حَالَةٌ تَعْتَرِي ٱلْقُوَّةَ ٱلْحَيْوانِيَّةَ فَتَعُوقُها عَنْ أَفْعالِها ٱلْمُنْكَرَةِ ٱلْمَقْبُوحَةِ ، وَٱلْحَياءُ خَلَّةٌ تَراها فِي ٱلأَنْبِياءِ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلصَّالِحِينَ وَٱلصَّالِحَاتِ وَٱلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبَاتِ وَٱلْعُظَمَاءِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ، وَعَلىٰ ٱلْجُمْلَةِ تَراها في كِرامِ ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ ، أَمَّا قِلَّةُ ٱلْحَياءِ فَلا تَرَاها إِلَّا في لِئَامِ ٱلنَّاسِ ، وَٱلْحَياءُ مِنْ ثَمَّ قِوَامُ الأَخْلاقِ ٱلْفاضِلَةِ ، فَلَوْلا ٱلْحَياءُ لَكَانَ ٱلإِنْسانُ حَيْواناً بَهيماً لا يُبالي أَيَّ شَيْءٍ يَفْعَلُ .

٧٠٣ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ : « ٱلْحَيَاءُ مِنَ ٱلإِيمانِ » . [البخاري ، رقم : ٢٤ ؛ مسلم ، رقم : ٣٦] .

قَالَ ٱبْنُ ٱلأَثِيرِ في « ٱلنِّهايَةِ » : جَعَلَ ٱلْحَيَاءَ ـ وَهُوَ غَريزَةٌ ـ ـ مِنَ ٱلإِيمانِ ـ وَهُوَ ٱكْتِسَابٌ ـ لأَنَّ ٱلْمُسْتَحِي يَنْقَطِعُ بِحَيَائِهِ عَنِ ٱلْمَعَاصِي وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ تَقِيَّةٌ ، فَصَارَ كَالإِيمانِ ٱلَّذِي يَقْطَعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ ، وَإِنَّما جَعَلَهُ ـ أَيْ : ٱلْحَيَاءَ ـ بَعْضَهُ ـ أَيْ : بَعْضَ ٱلإِيمانِ ـ لأَنَّ ٱلإِيمانَ يَنْقَسِمُ إِلىٰ ٱئْتِمارٍ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَٱنْتِهاءٍ عَمَّا نَهىٰ ٱللهُ عَنْهُ ، فَإِذا حَصَلَ ٱلانْتِهاءُ بِٱلْحَياءِ كانَ بَعْضَ ٱلإِيمانِ .

٧٠٤ ـ وَمِنْ جَوامِعِ ٱلْكَلِمِ قَوْلُ سَيِّدِنا رَسُولِ ٱللهِ ﷺ : « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ ما شِئْتَ » . [البخاري ، رقم : ٣٤٨٣] .

يُقَالُ : ٱسْتَحْيَا يَسْتَحْيِي وَٱسْتَحَىٰ يَسْتَحِي ، وَٱلأَوَّلُ أَعْلىٰ ، أَيْ : أَفْصَحُ ، وَلِهَذا ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ تَأْويلانِ ، أَحَدُهُما ظَاهِرٌ وَهُوَ ٱلْمَشْهُورُ ، أَيْ : إِذا لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ ٱلعَيْبِ لَمْ تَخْشَ ٱلْعَارَ مِمَّا تَفْعَلُهُ فَٱفْعَلْ ما تُحَدِّثُكَ بِهِ نَفْسُكَ مِنْ أَغْراضِها ، حَسَناً كانَ أَوْ قَبيحاً ؛ وَلَفْظُهُ أَمْرٌ وَمَعْناهُ تَوْبيخٌ وَتَهْدِيدٌ ، وَفيهِ إِشْعارٌ بِأَنَّ ٱلَّذي يَرْدَعُ ٱلإِنْسانَ عَنْ مُواقَعَةِ ٱلسُّوءِ هُوَ ٱلْحَيَاءُ ، فَإِذا ٱنْخَلَعَ مِنْهُ كانَ كَٱلْمَأْمُورِ بِٱرتِكابِ كُلِّ ضَلالَةٍ وَتَعاطِي كُلِّ سَيِّئَةٍ ؛ وَٱلثَّاني أَنْ يُحْمَلَ ٱلأَمْرُ عَلىٰ بابِهِ ، يَقُولُ : إِذَا كُنْتَ فِي فِعْلِكَ آمِناً أَنْ تَسْتَحِيَ مِنْهُ لِجَرْيِكَ فِيه عَلىٰ سُنَنِ ٱلصَّوابِ وَلَيْسَ مِنَ ٱلأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُسْتَحْيا مِنْها فَٱصْنَعْ مِنْها ما شِئْتَ[1] .

٧٠٥ ـ وَقالَ أَبُو تَمَّامٍ [من الوافر] :

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عـاقِبَـةَ ٱللَّيـالِـي ... وَلَـم تَسْتَحِـيْ فَـٱصْنَـعْ مـا تَشَـاءُ
يَعيـشُ ٱلْمَـرْءُ مَـا ٱسْتَحْيـا بِخَيْـرٍ ... وَيَبْقَـىٰ ٱلْعُـودُ مـا بَقِـيَ ٱللِّحـاءُ

ٱللُّحَاءُ : قِشْرُ ٱلْعُودِ وَٱلشَّجَرِ .

٧٠٦ ـ وَبَعْدُ ؛ فَلَسْتُ في ٱلْواقِعِ أَترامىٰ بِمَا أَسْلَفْتُ إِلىٰ حَضِّهِمُ ٱلنِّسَاءَ عَلىٰ ٱلْحَيَاءِ ، لأَنّ ٱلْحَيَاءَ كَما قُلْتُ لَيْسَ مِمّا يَجْمُلُ بِٱلنِّسَاءِ فَحَسْبُ ، وَإِنَّما يَشْرُكُ ٱلنِّساءَ فِيهِ ٱلرِّجَالُ ، وَإِنَّما أَقْصِدُ إِلىٰ أَنَّ مِمَّا هُوَ أَلْزَمُ بِٱلنِّساءِ وَيَكِدْنَ أَنْ يَسْتَأْثِرْنَ بِوجُوبِهِ مَا يُسَمُّونَهُ ٱلْخَفَرُ ، وَٱلْخَفَرُ هُوَ : شِدَّةُ ٱلْحَيَاءِ ، يقَالُ : خَفِرَتِ ٱلْمَرْأَةُ خَفَراً وَخَفَارَةً . فَهِيَ خَفِرَةٌ وَمُتَخَفِّرَةٌ وَخَفِيرٌ ، مِنَ نِسْوَةٍ خَفائِرَ وَمِخْفارٌ ، عَلىٰ

---

(١) وَهَذا هُوَ ما رَواهُ ٱلْمُبَرِّدُ عَنِ ٱلْمَازِنِيِّ ، قَالَ : مَعْنىٰ : « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَٱصْنَعْ ما شِئْتَ » أَيْ : إِذَا صَنَعْتَ مَا لا يُسْتَحىٰ مِنْ مِثْلِهِ فَٱصْنَعْ مِنْهُ ما شِئْتَ .

ٱلنَّسَبِ أَوْ ٱلْكَثْرَةِ . وَتَخَفَّرَتْ : ٱشْتَدَّ حَياؤُها . . .

وَقَدْ مَدَحَ ٱلْعَرَبُ وَغَيْرُ ٱلعَرَبِ ٱلْخَفَرَ ، وَأَشَادُوا بِهِ ، وجَعَلُوهُ مِنْ مَحاسِنِ ٱلْمَرْأَةِ كَما سَيَمُرُّ بِكَ في بابِ ٱلْعِفَّةِ ، وَلَكِنَّا نَعْجَلُ وَنُورِدُ شيْئاً مِنْ ذَلِكَ هُنا ، قَالَ عَزَّ وجَلَّ يَصِفُ ذَهابَ ٱبْنَةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ إِلىٰ سَيِّدِنا مُوسىٰ لِتَدْعُوَهُ : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ﴾ [٢٨ سورة القصص/الآية : ٢٥] .

٧٠٧ ـ وَقَالَ ٱلفَرَزْدَقُ يَصِفُ نِساءً [من الكامل] :

يَـأْنَسْـنَ عِنْـدَ بُعُـولِهِـنَّ إذا خَلَـوْا ... وَإِذا هُـمُ خَـرَجُـوا فَهُـنَّ خِفـارُ

خِفارُ : شَدِيدَاتُ ٱلْحَيَاءِ .

٧٠٨ ـ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْجَاهِلِيُّ ٱلشَّنْفَرَىٰ مِنْ أَبْياتٍ مُوفِيَةٍ عَلىٰ ٱلْغايَةِ في ٱلصِّدْقِ وَٱلْجَمالِ وَٱلرَّوْعَةِ وَبَراعَةِ ٱلْوَصْفِ [من الطويل] :

أُمَيْمَـةُ لا يُخْـزِي نَثـاهـا حَلِيلَهـا ... إذا ذُكِـرَ ٱلنِّسْـوَانُ عَفَّـتْ وَجَلَّـتِ
يَحُـلُّ بِمَنْجَـاةٍ مِـنَ ٱللَّـوْمِ بَيْتُهـا ... إِذا مـا بُيُـوتٌ بِـٱلمَـلامَـةِ حُلَّـتِ
فَقَـدْ أَعْجَبَتْنِي لا سَقُـوطاً خِمَـارُهـا ... إِذا مَـا مَشَـتْ وَلا بِـذَاتِ تَلَفُّـتِ
كَـأَنَّ لَهـا فـي الأَرْضِ نِسْيـاً تَقُصُّـهُ ... عَلـىٰ أَمِّهـا وَإِنْ تُحَـدِّثْـكَ تَبَلَّـتِ
فَدَقَّتْ وَجَلَّتْ وَٱسْبَكَرَّتْ وَأُكْمِلَتْ ... فَلَوْ جُنَّ إِنْسانٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ جُنَّتِ

ٱلنَّثا بِتَقْدِيمِ ٱلنُّونِ : ٱسْمٌ مِنْ نَثا ٱلْحَدِيثِ يَنْثُوهُ نَثْواً : حَدَّثَ بِهِ وَأَشاعَهُ ، حَسَناً كانَ ٱلْحَدِيثُ أَوْ قَبِيحاً ، يَقُولُ ٱلشَّنْفَرَىٰ في هَذَا ٱلْبَيْتِ : إِنَّ أَخْبارَها لا تُخْزِي زَوْجَها لِمَكانِها مِنَ ٱلْعِفَّةِ ، فَإِذا ذُكِرَ ٱلنِّسَاءُ كانَتْ هِيَ ٱلْعَفِيفَةَ وَجَلَّ قَدْرُها وَعَظُمَ ؛ وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي لَيْسَ في حَاجَةٍ إِلىٰ ٱلشَّرْحِ ؛ أَمَّا قَوْلُهُ في ٱلبَيْتِ ٱلثَّالِثِ : لا سَقوطاً خِمَارُها إِذا ما مَشَتْ ، فإِنَّهُ يُرِيدُ أَنَّها [ لا ] تتعَمَّدُ إِسْقاطَ خِمارِها حَياءً وَٱحْتِشاماً وَإِمْعاناً في ٱلْعِفَّةِ ، فَهِيَ لَيْسَتْ مِنْ أُولَئِكَ ٱلنِّسْوَةِ

ٱلْخَبِيثاتِ ٱللائي يُسْقِطْنَ خِمارَهُنَّ يُرِدْنَ إِظْهارَ مَحاسِنِهِنَّ ، فَخِمارَهَا مَفْعُولُ سَقُوطاً ، وَإِنَّما قُلْتُ : لا تَتَعَمَّدُ لأَنَّ مِنَ الآنِساتِ الغِرَّةِ ٱلْبَلْهَاءِ[1] ٱلَّتي لا تَفْطُنُ إِلىٰ ٱلشَّرِّ وَتَغْفُلُ عَنْهُ ؛ فَتَلْبَسُ ٱلْبُرْقُعَ وَهِيَ لَمْ تَعْتَدْهُ بَعْدُ ، فَيَسْقُطُ ، وَهَذا مِمَّا يُحْمَدُ مِنْهُنَّ ، وَهُناكَ مَنْ لا تَتَبَرْقَعُ لأَنَّ ٱلْحُسْنَ زَهاها أَنْ تَتَقَنَّعَ ، قالَ الأَصْمَعِيُّ : وَقَدْ تُلْقِي ٱلْمَرْأَةُ خِمارَهَا لِحُسْنِها وَهِيَ عَلىٰ عِفَّةٍ ؛ قَالَ أَبُو ٱلنَّجْمِ [من الرجز] :

مِـنْ كُـلِّ غَـرّاءَ سَقُـوطِ ٱلْبُـرْقُـعِ بَلْهـاءَ لَـمْ تُحْفَـظْ وَلَـمْ تُضَيَّـعِ[2]

ثُمَّ قالَ الشَّنْفَرىٰ : كَأَنَّ لَها في ٱلأَرْضِ نِسْياً . . . ٱلْبَيْتَ . فإِنْ يُرِدْ شِدَّةَ ٱسْتِحْيائِها ، يَقُولُ : لا تَرْفَعُ رَأْسَها ، كَأَنَّها تَطْلُبُ شَيْئاً في ٱلأَرْضِ ، وٱلنِّسْيُ هُنا : ما أَضَلَّهُ أَهْلُه فَيُطْلَبُ وَيُطْمَعُ فِيهِ ، وَتَقُصُّهُ : تَتْبَعُهُ . قالَ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ ﴾ [٢٨ سورة القصص/الآية : ١١] أي : اتْبَعِي أَثَرَهُ ؛ وَقَوْلُه : عَلىٰ أَمِّها ، فَالأَمُّ : ٱلْقَصْدُ ؛ وَقَوْلُهُ : وَإِنْ تُحَدِّثْكَ تَبَلَّتِ : أَيْ : تَقْطَعُ ٱلْحَدِيثَ مِنْ خَفَرِها وَحَيَائِها ، يُقالُ : بَلَتَ ٱلْحَياءُ حَدِيثَها ، أَيْ : قَطَعَهُ ؛ وَدَقَّتْ يُرِيدُ : دَقَّ خَصْرُها وَأَنْفُها وَحَاجِباها ؛ وَجَلَّتِ ؛ أَيْ : عَظُمَ ساقاها وَعَضُداها وَكُلُّ ما يَحْسُنُ عِظَمُهُ ؛ وَهَذا كَما يَقُولُ عِرْوَةُ بْنُ أُذَيْنَةَ [من الكامل] :

بَيْضـاءُ بـاكَـرَهـا ٱلنَّعِيـمُ فَصـاغَهـا بِلَبَـاقَـةٍ فَـأَدَقَّهـا وَأَجَلَّهـا

وَٱسْبَكَرَّتْ ، أَيْ : ٱعْتَدَلَتْ قامَتُها .

---

(١) فَتاةٌ غِرَّةٌ : لا تَعْرِفُ ٱلشَّرَّ ، غَيْرُ مُجَرِّبَةٍ ؛ وَفي ٱلْحَديثِ : « ٱلْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ ، وَٱلكافِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ » [الترمذي ، رقم : ١٩٦٤ ؛ أبو داود ، رقم : ٤٧٩٠] وَٱلْخِبُّ ٱللَّئِيمُ : ٱلْخَدَّاعُ ٱلْمُفْسِدُ ، ضِدُّ الغِرِّ ، وَٱلْبَلْهاءُ : ٱلْغافِلَةُ عَنِ ٱلشَّرِّ ٱلْحَسَنَةُ ٱلظَّنِّ بِٱلنَّاسِ .

(٢) يَقُولُ : إِنَّها لَمْ تُحْفَظْ مِنَ ٱلرِّيبَةِ لِمَكانِها مِنَ ٱلطِّيبَةِ وَلَمْ يُضَيِّعْها وَالِدُها ؛ وَٱلْغَرّاءُ ، مِنَ ٱلْغُرَّةِ ، وَهِيَ : بَياضُ ٱلْوَجْه .

٧٠٩ ـ وَمِنْ بَدِيعِ ما قِيلَ في خَفَرِ ٱلشَّرِيفَةِ وَشِدَّةِ حَيائِها قَوْلُ أَبي قَيْسِ ٱبْنِ ٱلأَسْلَتِ [من الطويل] :

وَيُكْـرِمُهـا جـاراتُهـا فَيَـزُرْنَهـا وَتَعْتَـلُّ عَـنْ إِتْيـانِهِـنَّ فَتُعْـذَرُ
وَلَيْـسَ لَهـا أَنْ تَسْتَهِيـنَ بِجَـارَةٍ وَلَكِنَّهـا مِنْهُـنَّ تَحْيَـا وَتَخْفَـرُ

تَحْيا وَتَخْفَرُ : تَسْتَحِي وَيَشْتَدُّ حَياؤُها .

٧١٠ ـ وَقَوْلُ الآخَرِ [من البسيط] :

مِنَ ٱلأَوَانِسِ مِثْلُ ٱلشَّمْسِ لَمْ يَرَها في سَاحَةِ ٱلـدَّارِ لا بَعْلٌ وَلا جَارُ

٧١١ ـ وَقَوْلُ ٱلأَعْشَىٰ [من البسيط] :

لَمْ تَمْشِ مِيلًا وَلَمْ تَرْكَبْ عَلىٰ جَمَلٍ وَلا تَرىٰ ٱلشَّمْسَ إِلَّا دُونَها كِلَلُ[1]

[راجع رقم : ٧١٧]

٧١٢ ـ وَيَقُولُ ٱلأَعْشىٰ في ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتي مِنْها هَذا ٱلْبَيْتُ [من البسيط] :

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ ٱلجِيْرانُ طَلْعَتَها وَلَا تَـراهـا لِسِـرِّ ٱلْجَـارِ تَخْتَتِـلُ

تَخْتَتِلُ : تَتَسَمَّعُ لِسِرِّهِ ، يُقَالُ : ٱخْتَتَلَ ٱلرَّجُلُ : إِذَا تَسَمَّعَ لِسِرِّ ٱلْقَوْمِ .

**وَمِمَّا قِيلَ في مَشْيِ ٱلنِّسَاءِ :**

٧١٣ ـ قَالَ عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبيعَةَ [من المنسرح] :

أَبْصَـرْتُهـا غُـدْوَةً وَنِسْـوَتَهـا يَمْشِيـنَ بَيْـنَ ٱلمَقَـامِ وَٱلْحَجَـرِ
بِيضـاً حِسـانـاً خَـرَائِـداً قُطُفـاً يَمْشِيْـنَ هَـوْنـاً كَمِشْيَـةِ ٱلْبَقَـرِ[2]

---

(١) ٱلْكِلَلُ ، جمع كِلَّةٍ ، وَٱلْكِلَّةُ : ما يُسَمّىٰ النَّاموسِيَّةُ [ وَهِيَ سِتْرٌ رَقيقٌ يُحاطُ كَٱلْبَيْتِ وَٱلْقُبَّةِ يُتَوَقَّىٰ به وَفيهِ مِنَ ٱلْحَشَرَاتِ ٱلطَّائِرَةِ كَٱلنَّامُوسِ وغَيْرِهِ ] .

(٢) ٱلْخَرَائِدُ جَمْعُ خَرِيدَةٍ ، وَهِيَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ : ٱلحَيِيَّةُ ٱلْخافِضَةُ ٱلصَّوْتِ ، وَقَالَ ٱللَّيْثُ : سَمِعْتُ =

قَـدْ فُـزْنَ بِـٱلْحُسْـنِ وَٱلْجَمَـالِ مَعـاً ... وَفُـزْنَ رِسْـلًا بِـٱلـدَّلِّ وَٱلخَفَـرِ[١]

٧١٤ ـ وَقَالَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من البسيط] :

شَمْـسٌ مُقَـدَّرَةٌ فـي خَلْـقِ جَـارِيَـةٍ ... كَـأَنَّمـا كَشْحُهـا طَـيُّ ٱلطَّـوامِيـرِ[٢]

كَـأَنَّهـا حِيـنَ تَمْشـي فـي وَصـائِفِهـا ... تَمْشي عَلىٰ ٱلبَيْضِ أَوْ زُرْقِ ٱلْقَوارِيرِ

٧١٥ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الكامل] :

شَبَّهْـتُ مِشْيَتَهـا بِمِشْيَـةِ ظـافِـرٍ ... يَخْتَـالُ بَيْـنَ أَسِنَّـةٍ وَسُيُـوفِ

صَلِـفٍ تَنـاهَـتْ نَفْسُـهُ فـي نَفْسِـهِ ... لَمَّـا ٱنْثَنَـىٰ بِسِنـانِـهِ ٱلْمَـرْعُـوفِ

٧١٦ ـ وَقَال ٱبْنُ مُقْبِلٍ [من البسيط] :

يَهْـزُزْنَ لِلْمَشْـيِ أَوْصـالًا مُنَعَّمَـةً ... هَـزَّ ٱلْجَنُوبِ مَعـاً عَيْدَانَ يَبْـرِينَـا[٣]

أَوْ كَـٱهْتِـزَازِ رُدَيْنِـيٍّ تَنَـاوَلُـهُ ... أَيْـدِي ٱلتِّجَـارِ فَـزَادُوا مَتْنَـهُ لِينَـا[٤]

يَمْشِيـنَ هَيْـلَ ٱلنَّقـا مـالَـتْ جَـوانِبُـهُ ... يَنْهـالُ حِينـاً وَيَنْهـاهُ ٱلثَّـرىٰ حِينَـا[٥]

٧١٧ ـ أَمَّا قَوْلُ ٱلأَعْشىٰ [ من البسيط ] :

لَمْ تَمْشِ مِيلًا وَلَمْ تَرْكَبْ عَلىٰ جَمَلٍ

ٱلْبَيْتَ [رقم : ٧١١] ، فَقَدْ أَخَذَ هَذَا ٱلْمَعنىٰ ذُو ٱلْوِزَارَتَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ

---

= أَعْراباً مِنْ كَلْبٍ يَقُولُ : ٱلْخَرِيدَةُ : ٱللُّؤْلُؤَة لَمْ تُثْقَبْ ، وَهِيَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلبِكْرُ ؛ وَقُطُفاً جَمْعُ قَطُوفٍ ، وَهِيَ : ٱلَّتِي تَقَارَبَ خَطْوُها ، هَذَا وَهُمْ يَسْتَحْسِنُونَ مِشْيَةَ ٱلبَقَرِ ٱلْوَحْشِيِّ .

(١) ٱلرَّسْلُ هُنا بِفَتْحِ ٱلرَّاءِ : ٱلَّذِي فِيهِ لِينٌ وَٱسْتِرْخَاءٌ ؛ وَسَيْرٌ رَسْلٌ : سَهْلٌ .

(٢) ٱلطَّوَامِيرُ : ٱلصُّحُفُ ، واحِدُها طُومَار ، وَهُو : ٱلصَّحِيفَةُ .

(٣) يَبْرِينُ : قَرْيَةٌ كَثِيرَةُ ٱلنَّخْلِ وَٱلْعُيُونِ ٱلْعَذْبَةِ بِحِذَاءِ ٱلأَحْسَاءِ بِٱلْبَحْرَيْنِ ؛ وَٱلْعَيْدَانُ جَمْعُ عَيْدَانَةٍ ، وَهِيَ : ٱلنَّخْلَةُ ٱلطَّوِيلَةُ ؛ وَٱلْجَنُوبُ : رِيحُ ٱلْجَنُوبِ .

(٤) ٱلرُّدَيْنِيُّ : ٱلرُّمْحُ .

(٥) ٱلنَّقَا : ٱلرَّمْلُ ؛ وَٱلثَّرىٰ : ٱلتُّرابُ ٱلنَّدِيُّ .

عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ عُمَرَ بْنِ شَهيدٍ وَزيرُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلنَّاصِرِ ، إِذْ يَقُولُ [من الطويل] :

تَـرىٰ ٱلْبَـدْرَ مِنْهـا طـالِعـاً فَكَـأَنَّمـا يَجُولُ وَشاحَاهَا عَلىٰ لُؤْلُؤٍ رَطْبِ
بَعِيدَةُ مَهوىٰ ٱلْقُرْطِ مُخْطَفَةُ ٱلْحَشا وَمُفْعَمَـةُ ٱلْخَلْخَـالِ مُفْعَمَـةُ ٱلْقَلْـبِ
مِنَ ٱللَّاءِ لَمْ يَرْحَلْنَ فَوْقَ رَواحِلٍ وَلا سِرْنَ يَوْماً في رِكابٍ وَلا رَكْبِ
وَلا أَبْـرَزَتْهُـنَّ ٱلْمُـدَامُ لِنَشْـوَةٍ وَشَدْوٍ كَما تَشْدُو ٱلْقِيَانُ عَلىٰ ٱلشُّرْبِ

بَعِيدَةُ مَهْوىٰ ٱلْقُرْطِ ، كِنايَةٌ عَنْ طُولِ ٱلْعُنُقِ وَحُسْنِ ٱلْجِيدِ ؛ وَٱلْقُرْطُ : ٱلشَّنْفُ يُعَلَّقُ في شَحْمَةِ ٱلأُذُنِ ؛ ومُخْطَفَةُ ٱلْحَشَا : ضامِرَةٌ ؛ وَمُفْعَمَةُ ٱلْخَلْخالِ ، كِنايَةٌ عَنْ رَبالَةِ السَّاقِ ؛ وَمُفْعَمَةُ ٱلْقَلْبِ ـ ٱلسِّوَارِ ـ ، كِنَايَةٌ عَنْ رَبالَةِ مِعْصَمِها ؛ وَقَوْلُهُ : مِنَ ٱللَّاءِ لَمْ يَرْحَلْنَ . . . ٱلْبَيْتَ ، يَقُولُ : إِنَّهُنَّ ذَوَاتُ رَفاهِيَّةٍ وَنَعْمَةٍ ، وَدَعَةٍ وَرَغَدِ عَيْشٍ ، وَلَسْنَ مِنَ ٱلْبادِيَاتِ ٱلْخَشِنَاتِ ٱللاّئي يَرْتَحِلْنَ فَوْقَ ٱلإِبِلِ لِلنُّجْعَةِ ؛ وَقَوْلُهُ : وَلا أَبْرَزَتْهُنَّ ٱلْمُدَامُ . . . ٱلْبَيْتَ ، يَقُولُ : إِنَّهُنَّ مَعَ تَرَفِهِنَّ لَسْنَ مِنَ ٱلإِماءِ وَلا مِنَ ٱلْقِيَانِ ٱللَّواتِي يُبْتَذَلْنَ في ٱلْغِنَاءِ وَٱلْمُنادَمَةِ ، أَيْ : إِنَّهُنَّ مَصُوناتٌ عَفيفاتٌ .

٧١٨ ـ وَلَمَّا أُنْشِدَ بَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ [وهو مجنون ليلى قيس بن المُلَوَّح، من الطويل] :

أَلَّا إِنَّمـا لَيْلـىٰ عَصَـا خَيْـزُرانَـةٍ إِذا غَمَـزُوهـا بِـٱلأَكُـفِّ تَلِيـنُ

قَالَ : وَٱللهِ لَوْ زَعَمَ أَنَّها عَصا مُخٍّ أَوْ عَصا زُبْدٍ لَقَدْ كانَ جَعَلَها جافِيَةً خَشِنَةً بَعْدَ أَنْ جَعَلَها عَصاً ! أَلا قَال كَما قُلْتُ [من الوافر] :

وَدَعْجـاءِ ٱلْمَحَـاجِـرِ مِـنْ مَعَـدٍّ كَـأَنَّ حَـدِيثَهَـا ثَمَـرُ ٱلْجِنَـانِ
إِذَا قَـامَـتْ لِمِشْيَتِهـا تَثَنَّـتْ كَـأَنَّ عِظَـامَهـا مِـنْ خَيْـزُرَانِ

* * *

٧١٩ ـ وَنَخْتِمُ هذا [ٱلْبابَ] بابَ ٱلْحَياءِ وَٱلْخفَرِ، بِهَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ ٱلْجَمِيلَيْنِ

[لِيَزيد بنِ الطَّثْرِيَّة ، أو لمجنون ليلى قيس بن المُلَوَّح ، أو لابن مَيَّادَة الرمّاح بن أبرد ؛ من الطويل] :

بِنَفْسي وَأَهْلِي مَنْ إذَا عَرَضُوا لَهُ ... بِبَعْضِ الأَذَىٰ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ

وَلَمْ يَعْتَذِرْ عُذْرَ ٱلْبَرِيِّ وَلَمْ تَزَلْ ... بِهِ سَكْتَةٌ حَتَّىٰ يُقالَ مُرِيبُ

* * *

## حَضُّهُمُ ٱلنِّساءَ عَلَىٰ ٱلْحِشْمَةِ وَنَهْيُهُمْ إِيَّاهُنَّ عَنِ ٱلتَّبَرُّجِ :

٧٢٠ ـ نُورِدُ في هَذا ٱلْمَوْضِعِ شَيْئاً مِنْ تَعاليمِ ٱلإِسْلامِ فِي ٱلْحَضِّ عَلىٰ ٱحْتِشامِ ٱلنِّساءِ وَتَرْكِ ٱلتَّبَرُّجِ وَكُلُّ مَا هوَ مَدْرَجَةٌ مَزالِقِ ٱلأَقْدامِ ، وَهِي تَعاليمُ سامِيَةٌ كَأَنَّ ٱلْمسْلِمِينَ لَمْ يَعْرِفُوها وَلَمْ يَتَفَطَّنُوا إِلىٰ مَرامِيها . . . وَمِنْ ثَمَّ أَفْرَدْنا لَها باباً :

قالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٩] .

يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ : يُرْخِينَها عَلَيْهِنَّ ويُغَطِّينَ بِها وُجُوهَهُنَّ وَأَعْطافَهُنَّ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلنِّساءَ كُنَّ فِي أَوَّلِ ٱلإِسلامِ عَلىٰ هِجِّيراهُنَّ في ٱلْجَاهِلِيَّةِ مُتَبَذِّلاتٍ ، تَبْرُزُ ٱلْمَرْأَةُ في دِرْعٍ وَخِمارٍ ، فَأُمِرْنَ أَنْ يُغَطِّينَ وُجُوهَهُنَّ كَيْ يَتَمَيَّزَ ٱلْحَرائِرُ مِنَ الإِماءِ وَٱلْقِيانِ وَٱلماهِنَاتِ ، وَكَانَ ٱلْفِتْيانُ وَٱلشُّطَّارُ يَتَعَرَّضُونَ ـ إذا خَرَجْنَ بِٱللَّيْلِ إِلىٰ قَضاءِ حَوائِجِهِنَّ في ٱلنَّخِيلِ وَٱلْغِيطَانِ ـ لِلإِماءِ ، وَرُبَّما تَعَرَّضُوا لِلْحُرَّةِ بِعِلَّةِ ٱلأَمَةِ ، يَقُولُونَ : حَسِبْناها أَمَةً ! فَأُمِرْنَ أَنْ يُخالِفْنَ بِزِيِّهِنَّ عَنْ زِيِّ ٱلإِماءِ بِلِبْسِ ٱلأَرْدِيَةِ وَٱلملاحِفِ وَسَتْرِ ٱلرُّؤُوسِ وَٱلْوجُوهِ لِيُحْتَشَمْنَ وَيُهَبْنَ فَلا يَطْمَعُ فِيهِنَّ طامِعٌ .

* * *

٧٢١ ـ وَقَالَ سَبْحانَهُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآيتان : ٥٨ و٥٩] .

أَمَرَ سُبْحَانَهُ بِأَنْ يَسْتَأْذِنَ ٱلْعَبِيدُ وَالإِمَاءُ وَالأَطْفَالُ ٱلَّذِينَ لَمْ يَحْتَلِمُوا مِنَ الأَحْرَارِ ثلاثَ مَرَّاتٍ في ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ : قَبْلَ صَلاةِ ٱلْفَجْرِ ، لأَنَّهُ وَقْتُ ٱلْقِيامِ مِنَ ٱلْمَضَاجِعِ وَطَرْحِ ما يُنامُ فِيهِ مِنَ ٱلثِّيابِ وَلُبْسِ ثِيَابِ ٱلْيَقَظَةِ ؛ وَبِٱلظَّهِيرَةِ لأَنَّها وَقْتُ وَضْعِ ٱلثِّيابِ لِلْقائِلَةِ ؛ وَبَعْدَ صَلاةِ ٱلْعِشاءِ لأَنَّهُ وَقْتُ التَّجَرُّدِ مِنْ ثِيابِ ٱلْيَقَظَةِ وَٱلالْتِحافِ بِثِيابِ ٱلنَّوْمِ ؛ وَسَمّىٰ سُبْحانَهُ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَـٰذِهِ الأَحْوَالِ عَوْرةً ، لأَنَّ ٱلنَّاسَ يَخْتَلُّ تَسَتُّرُهُمْ وَتَحفُّظُهُمْ فِيها ، ثُمَّ عَذَرَهُمْ في تَرْكِ ٱلاسْتِئْذانِ ، ٱسْتِئْذانِ ٱلإماءِ وَٱلْعبيدِ وَٱلأَطفالِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا ٱلْحُلُمَ وَرَاءَ هَـٰذِهِ ٱلْمَرَّاتِ ، وَبَيَّنَ وَجْهَ ٱلْعُذْرِ في قَوْلِهِ : ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ يَعْني : إِنَّ بِكُمْ وَبِهِمْ حاجَةً إِلىٰ ٱلْمُخَالَطَةِ وَٱلْمُداخلَةِ يَطُوفونَ عَلَيْكُم لِلْخِدْمَةِ وَتَطُوفونَ عَلَيْهِمْ للاسْتِخْدامِ ؛ ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : وَإِذا بَلَغَ ٱلأَطفالُ مِنَ الأَحْرارِ فَلْيَسْتَأْذِنوا في جَميعِ ٱلأَوْقاتِ كَمَا ٱلرِّجَالُ ٱلْكِبارُ ٱلَّذِينَ لَمْ يَعْتادُوا ٱلدُّخُولَ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِإِذْنٍ ، وَٱلْحاصِلُ أَنَّ ٱلأَطْفالَ مَأْذُونٌ لَهُمْ في ٱلدُّخُولِ بِغَيْرِ إِذْنٍ إِلَّا في ٱلْعَوْرَاتِ ٱلثَّلاثِ ، فَإِذا ٱعْتادَ ٱلأَطْفالُ ذَلِكَ ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حَدِّ ٱلطُّفولَةِ بِأَنْ يَحْتَلِمُوا أَوْ يَبْلُغُوا ٱلسِّنَّ ٱلَّتي يُحْكَمُ عَلَيْهِمْ فِيها بِٱلْبُلُوغِ وَجَبَ أَنْ يُفْطَمُوا عَنْ تِلْكَ ٱلْعَادَةِ وَيُحْمَلُوا علىٰ أَنْ يَسْتَأْذِنوا في جَميعِ ٱلأَوْقاتِ كَما ٱلرِّجَالُ ٱلْكِبارُ ٱلَّذينَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ لا يَدْخُلُوا إِلَّا بِإِذْنٍ ؛ ٱنْظُرْ آيَةَ ٱلاسْتِذانِ بَعْدُ .

٧٢٢ ـ ثُمَّ قَالَ سُبْحانَهُ [٢٤ سورة النور/الآية : ٦٠] : ﴿ وَٱلْقَوَاعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ اللَّائي قَعَدْنَ عَنِ ٱلْحَيْضِ وَٱلْوَلَدِ لِكِبَرِهِنَّ ﴿ ٱلَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ لا يَطْمَعْنَ فِيهِ لِكِبَرِهِنَّ ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ أَيْ : ٱلثِّيابَ ٱلظَّاهِرَةَ ، كَٱلْجِلْبابِ ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ غَيْرَ مُظْهِراتٍ زِينَةً مِمَّا أُمِرْنَ بِإِخْفائِهِ في غَيْرِ ما آيَةٍ ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أَيْ : مِنَ ٱلوَضْعِ ، لأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ ٱلتُّهْمَةِ ؛ وَبَعْدُ، فَٱعْتَبِروا أَيُّها ٱلنَّاسُ بِهٰذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَريمَةِ ٱلَّتي تَحُضُّ عَلىٰ ٱلاحْتِشامِ وَٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلْمَزالِقِ وَٱلرِّيَبِ حَتّىٰ مَعَ ٱلأَطْفالِ وَٱلْخَدَمِ ، وَأَيِّ خَدَمٍ : ٱلإِماءِ وَٱلْعَبيدِ .

٧٢٣ ـ وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآيتان : ٣٠ و٣١] .

يَقُولُ سُبْحانَهُ لِرَسُولِهِ ٱلأَمينِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنينَ يَغُضُّوا أَبْصارَهُمْ عَنْ كُلِّ مُحَرَّمٍ عَلَيْهِمْ وَأَنْ يَقْصُرُوها عَلىٰ ما يَحِلُّ ، وَأَنْ يَسْتُرُوا عَوْراتِهِمْ[١] ، فَإِنَّ ذٰلِكَ أَزْكىٰ لَهُمْ وَأَطْهَرُ ، لِمَا فيهِ مِنَ ٱلْبُعْدِ عَنِ ٱلرِّيبَةِ ؛ ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحانَهُ أَنَّهُ خَبيرٌ بِأَفْعالِهِمْ وَأَحْوالِهِمْ وَكَيْفَ يُجيلُونَ أَبْصارَهُمْ ، وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ بِسائِرِ حَواسِّهِمْ

(١) فَالمُرادُ بِحِفْظِ ٱلفُرُوجِ سَتْرُها ، وَقيلَ : ٱلمُرادُ ٱلنَّهْيُ عَنِ ٱلزِّنا ؛ وَقَدْ آثَرْنا ٱلأَوَّلَ تَبَعاً لِقَوْلِ بَعْضِ عُلَمائِنا : كُلُّ مَا في ٱلقُرْآنِ مِنْ حِفْظِ ٱلفَرْجِ فَهُوَ عَنِ ٱلزِّنا إِلَّا هٰذا ، فَإِنَّهُ أَرادَ بِهِ ٱلاسْتِتارَ ؛ وَٱلْفَرْجُ : ٱلْعَوْرَةُ .

وَجَوارِحِهِمْ ، فَعَلَيْهِمْ إِذا عَرَفُوا ذَلِكَ أَنْ يَكُونوا مِنْهُ عَلىٰ حَذَرٍ في كُلِّ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ ، وَكَذَلِكَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ أَنْ يَغْضُضْنَ أَبْصارَهُنَّ ، فَلا يَنْظُرْنَ إِلىٰ ما لا يَحِلُّ لَهُنَّ ٱلنَّظَرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلرِّجالِ ؛ حَدَّثَتْ أُمُّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْها قالَتْ : كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ مَيْمُونَةُ ، فَأَقْبَلَ ٱبْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ـ ٱلأَعْمىٰ ـ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أُمِرْنا بِٱلحِجابِ ، فَدَخَلَ عَلَيْنا ، فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « ٱحْتَجِبا » ، فَقُلْنا : يا رَسُولَ اللهِ ! أَلَيْسَ أَعْمىٰ لا يُبْصِرُنا ؟ قالَ : « أَفَعَمْياوَانِ أَنْتُما ؟ أَلَسْتُما تُبْصِرَانِه ؟» [الترمذي ، رقم : ٢٧٧٨ ؛ أبو داود ، رقم : ٤١١٢] وَإِنَّما قَدَّمَ سُبْحَانَهُ غَضَّ ٱلأَبْصارِ عَلىٰ حِفْظِ ٱلْفُرُوجِ لأَنَّ ٱلنَّظَرَ بَرِيدُ ٱلزِّنا وَرَائِدُ ٱلْفُجُورِ ، وَٱلْبَلْوىٰ فِيهِ أَشَدُّ وأَكْثَرُ ، وَلَا يَكادُ يُقْدَرُ عَلىٰ ٱلاحْتِراسِ مِنْهُ .

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا ما ظَهَرَ مِنْها ، فَٱلزِّينَةُ : ما تَزَيَّنَتْ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ مِنْ حُلِيٍّ أَوْ كُحْلٍ أَوْ خِضابٍ ، فَمَا كانَ ظَاهِراً مِنْها كَٱلْخاتَمِ وَٱلْفَتَخَةِ[١] وَٱلْكُحْلِ وَٱلْخِضَابِ فَلا بَأْسَ بِإِظْهَارِهِ لِلأَجَانِبَ ! وَمَا خُفِيَ مِنْها كَٱلسِّوَارِ وَٱلْخَلْخَالِ وَٱلدُّمْلُجِ وَٱلْقِلادَةِ وَالإِكْلِيلِ وَٱلْوِشاحِ وَٱلْقُرْطِ فَلا تُظْهِرْهُ إِلَّا لِهَؤُلاءِ ٱلْمَذْكُورِينَ بَعْدُ ، وَإِنَّما ذَكَرَ ٱلزِّينَةَ دُونَ مَواضِعِها لِلْمُبالَغَةِ فِي ٱلأَمْرِ بِٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّسَتُّرِ ، لأَنَّ هَذِهِ ٱلزِّينَةَ وَاقِعَةٌ عَلىٰ مَواضِعَ مِنَ ٱلْجَسَدِ لا يَحِلُّ ٱلنَّظَرُ إِلَّا لِمَنِ ٱسْتُثْنِيَ في ٱلآيَةِ بَعْدُ ـ وَهِيَ ٱلذِّراعُ وَٱلسَّاقُ وَٱلْعَضُدُ وَٱلْعُنُقُ وَٱلرَّأْسُ وَٱلصَّدْرُ وَٱلأُذُنُ ـ فَنَهىٰ عَنْ إِبْدَاءِ ٱلزِّينَةِ نَفْسِهَا لِيُعْلَمَ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا لَمْ يَحِلَّ إِلَيْها لِمُلابَسَتِها تِلْكَ ٱلْمَواضِعِ كَانَ ٱلنَّظَرُ إِلىٰ ٱلْمَواضِعِ نَفْسِهَا متَمَكِّناً فِي ٱلْخَطَرِ ثابِتَ ٱلْقَدَمِ فِي ٱلْحُرْمَةِ شاهِداً عَلىٰ أَنَّ ٱلنِّساءَ يَجْمُلُ أَنْ يَحْتَطْنَ في سَتْرِها وَيَتَّقِينَ ٱللهَ في ٱلْكَشْفِ عَنْها . وَإِنَّما سُومِحَ في ٱلزِّينَةِ ٱلظَّاهِرَةِ لأَنَّ سَتْرَها فِيهِ حَرَجٌ ، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لا تَجِدُ

---

(١) الفَتَخَةُ ، مُحَرَّكَةٌ : حَلْقَةٌ مِنْ فِضَّةٍ لا فَصَّ فِيها ، فَإِذا كَانَ فِيها فَصٌّ فَهُوَ ٱلْخَاتَمُ .

بُدّاً مِنْ مُزاوَلَةِ ٱلأَشْياءِ بِيَدِها ، وَمِنَ ٱلْحاجَةِ إِلىٰ كَشْفِ وَجْهِها خُصُوصاً فِي ٱلشَّهادَةِ وَٱلْمُحاكَمَةِ وَٱلزَّواجِ وَتَضْطَرُّ إِلىٰ ٱلْمَشْيِ في ٱلطُّرُقاتِ وَظُهُورِ قَدَمَيْها ، وَخاصَّةً ٱلْفَقِيراتُ مِنْهُنَّ ، فَقَوْلُهُ سُبْحانَهُ : ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ، يَعْني : إِلَّا ما جَرَتِ ٱلْعادَةُ عَلىٰ ظُهُورِهِ وَكانَ ٱلأَصْلُ فيهِ ٱلظُّهُورُ ، وَإِنَّما سُومِحَ فِي ٱلزِّينَةِ ٱلْخَفِيَّةِ لأُولَئِكَ ٱلَّذينَ ٱسْتَثْناهُمْ لِمَا كانُوا مُخْتَصِّينَ بِهِ مِنَ ٱلْحاجَةِ ٱلْمُضْطَرَّةِ إِلىٰ مُداخَلَتِهِمْ وَمُخالَطَتِهِمْ ، وَلِقِلَّةِ تَوَقُّعِ ٱلْفِتْنَةِ مِنْ جِهاتِهِمْ . وَلِمَا في ٱلطِّباعِ مِنَ ٱلنُّفْرَةِ عَنْ مُمارَسَةِ ٱلْقَرائِبِ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ : ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا﴾ ، فَقَدْ كانَتْ جُيُوبُهُنَّ - قَبَّاتُهُنَّ - في ٱلْجاهِلِيَّةِ واسِعَةً تَبْدُو مِنْها نُحُورُهُنَّ وَصُدُورُهُنَّ وَما حَوْلَها ، وَكُنَّ يَسْدُلْنَ ٱلْخُمُرَ - ٱلْمَقانِعَ - مِنْ وَرائِهِنَّ فَتَبْقَىٰ مَكْشُوفَةً ، فَأُمِرْنَ بِأَنْ يَسْدُلْنَها مِنْ قُدَّامِهِنَّ حَتّىٰ تَتَغَطّىٰ أَعْناقُهُنَّ وَنُحُورُهُنَّ . . .

٧٢٤ - وَعَنْ عائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْها : ما رَأَيْتُ خَيْراً مِنْ نِساءِ ٱلأَنْصارِ ، لَمَّا نَزَلَتْ هٰذِهِ ٱلآيَةُ قامَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ إِلىٰ مِرْطِها فَصَدَعَتْ - شَقَّتْ وَقَطَعَتْ - مِنْهُ صَدْعَةً ، فَٱخْتَمَرْنَ - تَقَنَّعْنَ - فَأَصْبَحْنَ عَلىٰ رُؤُوسِهِنَّ ٱلْغِرْبانُ[1] . [البخاري ، رقم : ٤٧٥٩ ؛ أبو داود ، رقم : ٤١٠٢] .

وَقَوْلُهُ سُبْحانَهُ [ ٢٤ سورة النور/الآية :٣١ ] : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ الآيَةَ : بَيانٌ لِمَنْ يَحِلُّ لَهُ ٱلإِبْداءُ وَمَنْ لا يَحِلُّ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ ، يَعْني : ٱلْمُؤْمِناتُ ، لأَنَّهُ لَيْسَ لِلْمُؤْمِنَةِ أَنْ تَتَجَرَّدَ بَيْنَ يَدَيْ مُشْرِكَةٍ أَوْ كِتابِيَّةٍ ، فَإِنَّ ٱلْكافِراتِ لا يَتَحَرَّجْنَ عَنْ وَصْفِهِنَّ لِلرِّجالِ ، وَقيلَ : ٱلنِّساءُ كُلُّهُنَّ ، وَلِلْعُلَماءِ فِي ذٰلِكَ خِلافٌ ، وَقَوْلُهُ : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ، يَعْني : ٱلإِماءُ وَٱلْعَبِيدُ ، لِمَا رُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ أَتىٰ فاطِمَةَ بِعَبْدٍ وَهَبَهُ لَها

---

(١) شَبَّهَتِ ٱلْخُمُرَ في سَوادِها بِٱلْغِرْبانِ ، جَمْعُ غُرابٍ .

وَعَلَيْها ثَوْبٌ إذا قَنَّعَتْ بِهِ رَأْسَها لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْها وَإذا غَطَّتْ رِجْلَيْها لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَها ، فَقَالَ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكِ بَأْسٌ ، إِنَّما هُوَ أَبُوكِ وَغُلامُكِ »[أبو داود ، رقم : ٤١٠٦] ، وَقِيلَ : ٱلْمُرادُ بِها ٱلإِماءُ ، وَهَذا هُوَ ٱلْحَقُّ ، لأَنَّ عَبْدَ ٱلْمَرْأَةِ بِمَنْزِلَةِ ٱلأَجْنَبِيِّ مِنْها ، خَصِيّاً كانَ أَوْ فَحْلًا .

٧٢٦ ـ وَعَنْ مَيْسُونِ بِنْتِ بَحْدَلٍ ٱلْكِلابِيَّةِ ، أَنَّ مُعاوِيَةَ دَخَلَ عَلَيْها وَمَعَهُ خَصِيٌّ ، فَتَقَنَّعَتْ مِنْهُ ، فَقالَ : هُوَ خَصِيٌّ ، فَقالَتْ : يا مُعاوِيَةُ ! أَتَرىٰ أَنَّ المُثْلَةَ بِهِ تُحَلِّلُ ما حَرَّمَ ٱللهُ ؟ .

٧٢٧ ـ وَعِنْدَ أَبي حَنِيفَةَ : لا يَحِلُّ ٱسْتِخْدامُ ٱلْخِصْيانِ وَإِمْساكُهُمْ وَبَيْعُهُمْ وَشِراؤُهُمْ .

٧٢٨ ـ أَقُولُ : فَلْيَأْتُوا فَلْيَنْظُرُوا بُيُوتَ أَغْنِياءِ ٱلْمُسْلِمِينَ ، كَيْفَ تَزْخَرُ بِٱلرِّجالِ ، وَكَيْفَ لا يَتَوَرَّعُ نِساؤُهُم عَنِ ٱسْتِخْدامِ ٱلْخِصْيانِ وَٱلْفُحُولِ وَكُلِّ مَنْ هَبَّ وَدَبَّ ، فَٱللَّهُمَّ حَوالَيْنا وَلا عَلَيْنا .

٧٢٩ ـ ثُمَّ قَالَ سُبْحانَهُ [ ٢٤ سورة النور/الآية : ٣١ ] : ﴿أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ ، أَي : غَيْرِ أُولِي ٱلْحَاجَةِ إِلىٰ ٱلنِّساءِ ، وَهُمُ ٱلشُّيُوخُ ٱلصُّلَحاءُ أَوِ ٱلشُّيُوخُ ٱلَّذِينَ بِهِمْ عَنانَةٌ ، وَقِيلَ : هُمُ ٱلَّذِينَ يَتْبَعُونَكُمْ لِيُصِيبُوا مِنْ فَضْلِ طَعامِكُمْ وَلا حاجَةَ لَهُمْ إِلىٰ ٱلنِّساءِ لأَنَّهُمْ بُلْهٌ لا يَعْرِفُونَ شَيْئاً مِنْ أَمْرِهِنَّ .

٧٣٠ ـ وَأَمَّا قَوْلُهُ سُبْحانَهُ [ ٢٤ سورة النور/الآية : ٣١ ] : ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ، فَٱلطِّفْلُ جِنْسٌ وُضِعَ مَوْضِعَ ٱلْجَمْعِ ٱكْتِفاءً بِدَلالَةِ ٱلْوَصْفِ ، و﴿يَظْهَرُواْ﴾ : يَطَّلِعُوا ، وَٱلْمَعْنىٰ : أَوِ الأَطْفالِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَطَّلِعُوا عَلىٰ عَوْراتِ ٱلنِّساءِ لِعَدَمِ تَمْيِيزِهِم أَوْ لِعَدَمِ بُلُوغِهِمْ حَدَّ ٱلشَّهْوَةِ ، فَيُكُونُ ٱلظُّهُورُ بِمَعْنىٰ ٱلْغَلَبَةِ ، وَهُنا يَنْتَهِي عَدَدُ ٱلَّذِينَ يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ ٱلْمُؤْمِنَةِ أَنْ تُظْهِرَ زِينَتَها

ٱلْخفِيَّةَ لَهُمْ .

٧٣١ ـ قالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : فَإِنْ قُلْتَ : لِمَ لَمْ يَذْكُرِ ٱللهُ ٱلأَعْمَامَ وَٱلأَخْوَالَ ؟ قُلْتُ : سُئِلَ ٱلشَّعْبِيُّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لِئَلَّا يَصِفَها ٱلعَمُّ عِنْدَ ٱبْنِهِ ، وَٱلْخالُ كَذَلِكَ ؛ وَمَعْناهُ : أَنَّ سائِرَ ٱلْقَراباتِ تَشْتَرِكُ ٱلأَبَ وَٱلِابْنَ في ٱلْمَحْرَمِيَّةِ ، إِلَّا ٱلعَمَّ وَٱلْخَالَ وَأَبْناءِهِما ، فَإِذَا رَآها ٱلعَمُّ فَرُبَّما وَصَفَها لابْنِهِ وَلَيْسَ بِمُحْرَمٍ ، فَيُدَانِي تَصَوُّرُهُ لَها بِٱلْوَصْفِ نَظَرَهُ إِلَيْها ، وَهَذا أَيْضاً مِنَ ٱلدَّلالاتِ ٱلْبَلِيغَةِ عَلَىٰ وُجُوبِ ٱلاحْتِيَاطِ عَلَيْهِنَّ في ٱلتَّسَتُّرِ .

٧٣٢ ـ ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ [ ٢٤ سورة النور/الآية : ٣١ ] : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ قالُوا : كَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ فِي ٱلْجاهِلِيَّةِ تَضْرِبُ ٱلأَرْضَ بِرِجْلِها لِيَتَقَعْقَعَ خَلْخَالُها فَيُعْلَمُ أَنَّها ذَاتُ خَلْخَالٍ ، وَقِيلَ : كانَتْ تَضْرِبُ بِإِحْدىٰ رِجْلَيْها ٱلأُخْرىٰ لِيُعْلَمَ أَنَّها ذَاتُ خَلْخَالَيْنِ ، فَنَهاهُمُ ٱللهُ عَنْ مِثْلِ هَذا لأَنَّهُ يُورِثُ مَيْلًا في ٱلرِّجَالِ . . .

٧٣٣ ـ وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآيتان : ٢٧ و٢٨] .

* * *

٧٣٤ ـ وَقَالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ

مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآيات : ٣٢ ـ ٣٥] .

* * *

٧٣٥ ـ وَعَنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ : « ٱلْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ[١] ، فَإِذا خَرَجَتْ ٱسْتَشْرَفَها ٱلشَّيْطانُ[٢] ، وَأَقْرَبُ ما تَكُونُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّها وَهِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِها » [الترمذي ، رقم : ١١٧٣ ؛ و« يجمع الزوائد » ، رقم : ٢١١٦] .

٧٣٦ ـ وَرُوِيَ عَنْهُ ـ عَنِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، أَنَّ ٱمْرَأَتَهُ سَأَلَتْهُ أَنْ يَكْسُوَها جِلْباباً ، فَقالَ : إِنِّي أَخْشىٰ أَنْ تَدَعِي جِلْبابَ ٱللهِ ٱلَّذي جَلْبَبَكِ بِهِ ؛ قالَتْ : وَمَا هُوَ ؟ قالَ : بَيْتُكِ ؛ قالَتْ : أَجِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ رَسُولِ ٱللهِ ؟ .

---

(١) عَوْرَةٌ ، أَيْ : إِنَّها مَوْصُوفَةٌ بِهَذِهِ ٱلصِّفَةِ ، وَمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَحَقُّهُ أَنْ يُسْتَرَ ؛ وَٱلْمُرادُ أَنَّهُ يُسْتَقْبَحُ ظُهُورُها لِلرِّجُلِ ؛ وَٱلْعَوْرَةُ : سَوْءَةُ ٱلإِنْسانِ وَكُلُّ ما يُسْتَحىٰ مِنْهُ ، كُنِّيَ بِها عَنْ وُجُوبِ ٱلاسْتِتارِ فِي حَقِّها ، وَٱلْعَوْرَةُ فِي الأَصْلِ : كُلُّ خَلَلٍ يُتَخَوَّفُ مِنْهُ ، وَقالَ بَعْضُهُم : ٱلْعَوْرَةُ كُلُّ ما يُسْتَحَىٰ مِنْ إِظْهارِهِ ، وَأَصْلُها مِنَ ٱلْعارِ ، وَهُوَ : ٱلْمَذَمَّةُ .

(٢) ٱسْتَشْرَفَها ٱلشَّيْطانُ ، يَعْنِي : رَفَعَ ٱلْبَصَرَ إِلَيْها لِيُغْوِيَها أَوْ يُغْوِيَ بِها ، فَيُوقِعَ أَحَدَهُما أَوْ كِلَيْهِما فِي ٱلْفِتْنَةِ ، أَوْ ٱلْمُرادُ شَيْطانُ ٱلإِنْسِ ، سَمَّاهُ بِهِ عَلىٰ ٱلتَّشْبِيهِ ، بِمَعْنىٰ : إِنَّ أَهْلَ ٱلْفِسْقِ إِذا رَأَوْها بارِزَةً طَمَحُوا بِأَبْصارِهِمْ نَحْوَها وَٱلاسْتِشْرافُ فِعْلُهُمْ ، لَكِنْ أُسْنِدَ إِلىٰ ٱلشَّيْطانِ لِما أُشْرِبَ فِي قُلوبِهِمْ مِنَ ٱلْفُجُورِ ، فَفَعَلُوا مَا فَعَلوا بِإِغْوائِهِ وَتَسْوِيلِهِ ، وَكَوْنُهُ ٱلْباعِثُ عَلَيْهِ ذَكَرَهُ ٱلْقاضِي ، وَقالَ ٱلطِّيبِيُّ : هَذا كُلُّهُ خارِجٌ عَنِ ٱلْمَقْصُودِ ، وَٱلْمَعْنىٰ ٱلْمُتَبادَرُ أَنَّها ما دامَتْ فِي خِدْرِها لَمْ يَطْمَعِ ٱلشَّيْطانُ فِيها وَفِي إِغْواءِ ٱلنَّاسِ ، فَإِذا خَرَجَتْ طَمِعَ وَأَطْمَعَ ، لأَنَّها حَبائِلُهُ وَأَعْظَمُ فُخُوخِهِ ؛ وَأَصْلُ ٱلاسْتِشْرافِ : وَضْعُ ٱلْكَفِّ فَوْقَ ٱلْحاجِبِ وَرَفْعُ ٱلرَّأْسِ لِلنَّظَرِ .

قَوْلُها : أَجِنَّكَ ، مَعْنَاهُ : مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ .

* * *

٧٣٧ ـ وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ ، قَالَ لِلنِّساءِ ٱللاتِي يَخْرُجْنَ إِلىٰ ٱلْمَسْجِدِ : لأَرُدَّكُنَّ حَرَائِرَ .

أيْ : لأُلْزِمُكُنَّ ٱلْبُيُوتَ فَلا تَخْرُجْنَ إِلىٰ ٱلْمَسْجِدِ ، لأَنَّ ٱلْحِجَابَ إِنَّما ضُرِبَ عَلىٰ ٱلْحَرَائِرِ دُونَ ٱلإِمَاءِ .

* * *

٧٣٨ ـ وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّ مَنْ أَنْعمَ ٱلنَّظَرَ فِي هَذِهِ ٱلآياتِ ٱلْكَرِيمَةِ وَٱلأَحاديثِ ٱلشَّرِيفَةِ وَنَظائِرِها ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ ، تَحَقَّقَ أَنَّ نِسَاءَ ٱلْمُسْلِمِينَ مَأْمُورَاتٌ بِٱلاحْتِشامِ وَبِلَوْنٍ مِنَ ٱلْحِجَابِ هُوَ عَدَمُ ٱلتَّبَرُّجِ ، وَأَنَّ ٱلأَفْضَلَ لَهُنَّ أَنْ يَقْرَرْنَ فِي بُيُوتِهِنَّ ، وَإِذا هُنَّ خَرَجْنَ فَٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَحْتَشِمْنَ وَيَبْتَعِدْنَ عَنْ كُلِّ مَا يَدْعو إِلىٰ ٱلافْتِتانِ بِهِنَّ ، وَإِذا كَانَتِ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيمَةُ ٱلَّتِي خُوطِبَ بِهَا نِساءُ ٱلنَّبِيِّ خاصَةً بِهِنَّ في ٱلظَّاهِرِ ، فَهِيَ مِنَ ٱلْخَاصِّ ٱلَّذي أُرِيدَ بِهِ ٱلْعَامُّ ، وَلا سِيَّما إِذا ضُمَّ إِلَيْها سائِرُ الآياتِ ، أَوْ يَقُولُ : إِنَّ مَضْمُونَها هُوَ ٱلْمَثَلُ ٱلأَعْلىٰ لِمَا يَجِبُ عَلىٰ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمسْلِمَةِ ، أَعْنِي : إِنَّ مَا أُمِرَ بِهِ نِساءُ ٱلنَّبِيِّ هُوَ ٱلْقُدْوَةُ وَٱلأُسْوَةُ ، وَإِذَنْ فَالأَفْضَلُ لِسائِرِ ٱلْمُسْلِمَاتِ أَنْ يَمْتَثِلْنَ هَذِهِ ٱلأَوَامِرَ وَيَأْتَمِرْنَ بِها .

**ٱلْكَفاءَةُ ، وَحَضُّهُمْ عَلىٰ تَزْوِيجِ ٱلنِّساءِ مِنْ أَكْفَاءِ ٱلرِّجَالِ :**

٧٣٩ ـ ٱلْكَفَاءَةُ : مُسَاوَاةُ ٱلرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ في ٱلنَّسَبِ وَٱلإِسْلامِ وَٱلْحِرْفَةِ وَٱلْحُرِّيَّةِ وَٱلدِّيانَةِ وَٱلْمَالِ[1] ، وَٱلْكَفَاءَةُ مُعْتَبَرَةٌ في جانِبِ ٱلرَّجُلِ لا فِي جَانِبِ

---

(١) ٱنْظُرِ ٱلْقَوْلَ عَلىٰ ٱلْكَفَاءَةِ وَشُرُوطِها وَتَفْصِيلِ ذَٰلِكَ في كُتُبِ ٱلْفِقْهِ ، خُصوصاً كِتَاب « ٱلْفِقْه عَلىٰ=

ٱلْمَرْأَةِ ، فَلِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ مَنْ يَشاءُ وَلَوْ أَمَةً أَوْ خادِماً ؛ وَلأَنَّ ٱلْكَفَاءَةَ مُعْتَبَرَةٌ فِي جانِبِ ٱلرَّجُلِ ، فَكَأَنَّها تَمُتُّ إِلىٰ ٱلْوُصاةِ بِٱلنِّساءِ بِسَبَبٍ وَاصِلٍ ، وضَعْنا عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِيها عَقِيبَ بابِ ٱلْوُصَاةِ بِٱلنِّساءِ .

**حَثُّهُمْ علىٰ ٱعْتِبارِ ٱلْكَفَاءَةِ في ٱلرِّجَالِ :**

٧٤٠ ـ في ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَأَنْكِحُوا ٱلأَكِفَّاءَ » [ابن ماجه ، رقم : ١٩٦٨] وَمَعْنىٰ ٱلْحَدِيثِ : ٱلْحَثُّ عَلىٰ ٱخْتِيارِ ٱلزَّوْجَةِ ، أَي : تَحَرِّي مَا هُوَ خَيْرُ ٱلْمَنَاكِحِ وَأَطْهَرُها وَأَبْعَدُها عَنِ ٱلْخُبْثِ وَٱلْفُجُورِ « ٱنْظُرْ حَثَّهُمْ عَلىٰ ٱخْتِيارِ ذَوَاتِ ٱلدِّينِ وَٱلْحَسَبِ » [ رقم : ١٤٨٨ وما بعده ] . وَٱلشَّطْرُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْحَدِيثِ مَعْناهُ : ٱلْحَثُّ عَلىٰ ٱخْتِيَارِ ٱلزَّوْجِ ٱلْكُفْءِ .

٧٤١ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ : « إذا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَونَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ ، إِنَّكُمْ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي ٱلأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ » [الترمذي ، رقم : ١٠٨٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٦٧] .

٧٤٢ ـ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ : لأَمْنَعَنَّ فُرُوجَ ذَوِي ٱلأَحْسَابِ إِلَّا مِنَ ٱلأَكِفَّاءِ .

٧٤٣ ـ وَقَالَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ لِرَجُلٍ ٱسْتَشَارَهُ في تَزْوِيجِ بِنْتِهِ : زَوِّجْهَا مِنْ تَقِيٍّ ، فَإِنَّهُ إِنْ أَحَبَّها أَكْرَمَها ، وَإِنْ كَرِهَها لَمْ يَظْلِمْها .

٧٤٤ ـ وَقَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ : لا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلْقَبِيحِ ، فَإِنَّهُنَّ يُحْبِبْنَ مَا تُحِبُّونَ .

ٱنْظُرِ ٱلدَّمَامَةَ وَٱلْقُبْحَ . [ الباب السابع ، الأرقام : ١١٥٢ وما بعده ] .

٧٤٥ ـ وَقِيلَ لِحَكِيمٍ : فُلانٌ يَخْطُبُ فُلانَةَ ، قَالَ : أَمُوسِرٌ مِنْ عَقْلٍ وَدِينٍ ؟

---

= ٱلْمَذاهِبِ الأَرْبَعَةِ » ج٤ .

قَالوا : نعَمْ ، قَالَ : فَزَوِّجُوهُ .

٧٤٦ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لامْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ تَزَوَّجَتْ رَجُلًا مَغْمُوصاً عَلَيْهِ[١] : أَتَنْكِحُ ٱلْحُرَّةُ عَبْدَها ؟ فَقَالَتْ : يا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ [من الرجز] :

إِنَّ ٱلْمُهُورَ تُنْكِحُ ٱلأَيَامىٰ ٱلنِّسْوَةَ ٱلأَرَامِلَ ٱلْيَتَامَىٰ
ٱلْمَرْءَ لا تَبْغِي لَهُ سَلامَا

ٱلأَيَامىٰ ، جَمْعُ أَيِّمٍ ، وَهِيَ : ٱلَّتِي لا زَوْجَ لَها ، بِكْراً أَوْ ثَيِّباً ؛ وَٱلْمَرْءُ مَفْعُولٌ ثاني لِتُنْكِحُ ، وَالأَيَامىٰ مَفْعُولٌ أَوَّلُ . تَقُولُ : إِنَّ ٱلْمُهُورَ ـ جَمْع مَهْرٍ ـ تُغرِي إِلىٰ حَدِّ أَنَّها تَجْعَلُ ٱلنِّسَاءَ تَرْضىٰ بِٱلتَّزَوُّجِ مِنَ ٱلْمَرْءِ لا تَبْغِي لَهُ سَلاماً .

٧٤٧ ـ وَمِثْلُ هَذَا ما رُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا زَوَّجَ إِبْراهِيمُ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ٱلأَنْصارِيُّ يَحْيىٰ ابْنَ أَبي حَفْصَةَ ـ جَدَّ مَرْوانَ ٱبْنِ أَبِي حَفْصَةَ ٱلشَّاعِرِ ـ وَكَانَ يَحْيىٰ هَذَا مِنْ أَجْوَدِ ٱلنَّاسِ ، وَكَانَ ذَا يَسارٍ ، وَكَانَ مَوْلىٰ لِعُثْمانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَكَانَ أَبُوهُ يَهُودِيّاً أَسْلَمَ عَلىٰ يَدِ عُثْمانَ ، فَلَمَّا زَوَّجَهُ إِبْراهِيمُ ٱبْنَتَهُ عَلىٰ عِشْرِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، قَال قائِلٌ يُعَيِّرُهُ [من الطويل] :

لَعَمْرِي لَقَدْ جَلَّلْتَ نَفْسَكَ خِزْيَةً وَخَالَفْتَ فِعْلَ ٱلأَكْثَرِينَ الأَكارِمِ[٢]
وَلَوْ كانَ جَدَّاكَ ٱللَّذَانِ تَتَابَعَا بِبَدْرٍ لَمَا رَاما صَنِيعَ ٱلآلائِمِ

فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ يَرُدُّ عَلَيْهِ [من الطويل] :

فَمَا تَرَكَتْ عِشْرُونَ أَلْفاً لِقَائِلٍ مَقَالًا فَلا تَحْفِلْ مَلامَةَ لائِمِ
وَإِنْ أَكُ قَدْ زَوَّجْتُ مَوْلىٰ فَقَدْ مَضَتْ بِهِ سُنَّةٌ قَبْلِي وَحُبُّ ٱلدَّراهِمِ

* * *

---

(١) يُقَالُ : رَجُلٌ مَغْمُوصٌ عَلَيْهِ فِي حَسَبِهِ وَدِينِهِ ، أَيْ : مَطْعُونٌ عَلَيْهِ فِيهِمَا .

(٢) جَلَّلْتَ : غَطَّيْتَ ، كَمَا يَتَجَلَّلُ ٱلرَّجُلُ بِثَوْبِهِ ؛ وَخِزْيَةٌ ، بِفَتْحِ ٱلْخَاءِ وَكَسْرِها : ٱلْبَلِيَّةُ أَوِ ٱلْجَرِيمَةُ يُسْتَحىٰ مِنْها .
=

٧٤٨ ـ وَرَوَوْا : أَنَّ يَحيىٰ ٱبْنَ أَبي حَفصَةَ هَذا خَطَبَ إِلىٰ مُقاتِلِ بْنِ طَلَبَةَ بْنِ قَيسِ بْنِ عاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ سَيِّدِ أَهْلِ ٱلْوَبَرِ : ٱبْنَتَهُ وَأُخْتَيْهِ ، فَأَنْعَمَ له بِذَلِكَ ، فَبَعَثَ يَحْيىٰ إِلىٰ بَنِيهِ سُلَيْمٍ وَعمَرَ وَجَميلٍ ، فَأَتَوْهُ بِٱلْجفرِ(١) ، فَزَوَّجَهُنَّ بَنِيهِ ، وَدَخَلُوا بِهِنَّ ، ثُمَّ حَمَلُوهُنَّ إِلىٰ حَجْرٍ(٢) ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقُلاخُ بْنُ حَزْنٍ ٱلْمِنْقَرِيُّ [من البسيط] :

نُبِّئْتُ خَوْلَةَ قَالَتْ حِينَ أَنْكَحَها ... لَطَالَما كُنْتُ مِنْكَ ٱلْعَارَ أَنْتَظِرُ(٣)

أَنْكَحْتَ عَبْدَيْنِ تَرْجُو فَضْلَ مالِهِما ... في فِيكَ مِمَّا رَجَوْتَ ٱلتُّرْبُ وَٱلْحَجَرُ(٤)

للهِ دَرُّ جِيَادٍ أَنْتَ سَائِسُها ... بَرْزَنْتَها وَبِها ٱلتَّحْجِيلُ وَٱلْغُرَرُ(٥)

٧٤٩ ـ وَقَالَ آخَرُ في هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ [من الطويل] :

أَلا يا عِبَادَ ٱللهِ قَلْبي مُتَيَّمٌ ... بِأَحْسَنِ مَنْ صَلَّىٰ وَأَقْبَحِهِمْ بَعْلا

يَدُبُّ عَلىٰ أَحْشائِها كُلَّ لَيْلَةٍ ... دَبِيبَ ٱلْقَرَنْبىٰ يَقْرُو نَقا سَهْلا

القَرَنْبىٰ : دُوَيْبَةٌ عَلىٰ هَيْئَةِ ٱلْخُنْفُسِ مَنَقَّطَةُ ٱلظَّهْرِ ، وَرُبَّما كانَ في ظَهْرِها نُقْطَةٌ حَمْراءُ وَفي قَوائِمِها طُولٌ عَلىٰ ٱلْخُنْفُسِ ، وَهِي ضَعِيفَةُ ٱلْمَشْيِ ، وَيَقْرُو : يَتَتَبَّعُ ، يُقالُ : قَرَا ٱلأَرْضَ يَقْرُوها قَرْواً : إذا تَتَبَّعَها وَسَارَ فِيها يَنْظُرُ حَالَها وَيَتَعَرَّفُ أَمْرَها ؛ وَٱلنَّقا : قِطْعَةٌ مِنْ رَمْلٍ مُحْدَوْدِبَةٌ . [ راجع رقم : ٦٤٢ ] .

* * *

(١) ٱلْجفرُ : مَوْضِعٌ بِنَجْدٍ .

(٢) حَجْرُ : قَصَبَةُ ٱلْيَمامَةِ .

(٣) خَوْلَةُ : ٱسْمُ إِحْدىٰ بِنْتَيْ مُقَاتِلٍ ، وَرَوىٰ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱبْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ خَوْلَةَ هَذِهِ تَزَوَّجها يَحْيَىٰ نَفْسُهُ .

(٤) قَوْلُهُ : أَنْكَحْتَ عَبْدَيْنِ ، هُمْ ثَلاثَةٌ كَمَا عَلِمْتَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ إِلَّا ٱثْنَيْنِ .

(٥) بَرْزَنْتَها : جَعَلْتَهَا مِنْ بَرَازِينَ ٱلْخَيْلِ ، وهِي : ما لَيْسَتْ مِنْ نِتَاجِ ٱلْخَيْلِ ٱلْعِرَابِ .

٧٥٠ ـ وَقَالَ أَعْرابِيٌّ في ٱلْمَرْأَةِ ٱلْكَرِيمَةِ تُزَوَّجُ مِنْ وَغْدٍ لَئِيمٍ ، وَهِيَ أَبْيَاتٌ كُثْرٌ ، نُورِدُ مِنْها ما يَلِي [من الطويل] :

أَيَا عَمْرَو كَمْ مِنْ مُهْرَةٍ عَرَبِيَّةٍ … مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ بُلِيَتْ بِوَغْدٍ يَقُودُها

يَسُوسُ وَمَا يَدْرِي لَها مِنْ سِيَاسَةٍ … يُرِيدُ بِها أَشْياءَ لَيْسَتْ تُرِيدُها

مُبَتَّلَةِ ٱلأَعْجَازِ زَانَتْ عُقُودَها … بِأَحْسَنَ مِمَّا زَيَّنَتْها عُقُودُها

بُلِيَتْ ، أَرادَ بُلِّيَتْ فَخَفَّفَ ؛ وَمُبَتَّلَةُ ٱلأَعْجازِ : مُنْقَطِعَةُ ٱلأَرْدَافِ ، أَيْ : إِنَّ أَرْدَافَها مُنْقَطِعَةٌ عَنْ ظَهْرِها ، وَهَذا مِنْ محاسِنِ ٱلْمَرْأَةِ .

* * *

٧٥١ ـ وَقَالَ رَجُلٌ يَذْكُرُ ٱمْرَأَةً زُوِّجَتْ مِنْ غَيْرِ كُفْءٍ [من الطويل] :

لَقَدْ فَرِحَ ٱلْواشُونَ أَنْ نالَ ثَعْلَبٌ … شَبِيهَةَ ظَبْيٍ مُقْلَتَاهَا وَجِيدُها

أَضَرَّ بِهَا فَقْدُ ٱلْوَلِيِّ فَأَصْبَحَتْ … بِكَفِّ لَئِيمِ ٱلْوَالِدَيْنِ يَقُودُها

ثَعْلَبُ ، هُوَ : زَوْجُها .

* * *

٧٥٢ ـ وَقَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ٱلأَنْصارِيِّ في زَوْجِها رَوْحِ بْنِ زِنْباعٍ [من الطويل] :

وَهَلْ هِنْدُ إِلَّا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ … سَلِيلَةُ أَفْراسٍ تَجَلَّلَها نَغْلُ(١)

فَإِنْ نُتِجَتْ مُهْراً كَرِيماً فَبِٱلْحَرَىٰ … وَإِنْ يَكُ إِقْرافٌ فَمَا أَنْجَبَ ٱلْفَحْلُ(٢)

٧٥٣ ـ وَكَانَ رَوْحُ بْنُ زِنْباعٍ سَيِّدَ يَمانِيَةِ ٱلشَّامِ وَقائِدَها وَخَطِيبَها وَمِحْرَنَها

---

(١) نَغْلُ ، أَصْلُهُ نَغِلٌ كَكَتِفٍ ، وَهُوَ : ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوابِّ ، أَرادَتِ ٱلْفَرَسَ ٱلْهَجِينَ ، وَيُرْوىٰ بَدَلَ نَغْلٍ : بَغْلٌ ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ ٱلرِّوَايَةُ بِشَيْءٍ ، لأَنَّ ٱلْبَغْلَ لا يَنْسِلُ .

(٢) ٱلْمُرادُ بِالإِقْرافِ هُنَا أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْرُ مُقْرِفاً ، أَيْ : نَذْلًا خَسِيساً ، وَٱلْمُقْرِفُ في ٱلأَصْلِ : مَنْ أُمُّهُ عَرَبِيَّةٌ وَأَبُوهُ لَيْسَ كَذلِكَ .

وشُجاعَها ، وَإِنَّما قَالَتْ لَهُ هِنْدُ ذَلِكَ لأَنَّهُ كانَ قَدْ مَسَّهُ يَوْمَ ٱلْمَرْجِ أَسْرٌ فَٱفْتَدىٰ ، فَقَالَتْ لَهُ هِنْدُ قَوْلَ ٱلْعَربِيةِ ٱلشَّرِيفَةِ لِلْمَوْلىٰ ، وَعَيَّرَتْهُ بِٱلإِقْرافِ .

وَكَانَ رَوْحُ قَدْ طَلَّقَها ، وَقَالَ : سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكِ بَعْلًا يَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ وَيَقِيؤُها في حِجْرِكِ ؛ فَتزَوَّجَها بَعْدَهُ ٱلْفَيْضُ ٱبْنُ أَبي عَقِيلٍ ٱلثَّقَفِيُّ ، فَكَانَ يَسْكَرُ وَيَقِيءُ في حِجْرِها .

* * *

٧٥٤ ـ وَهَذا مِن هِنْدٍ مِثْلُ قَوْلِ عَقِيلِ بْنِ عُلَّفَةَ ٱلشَّاعِرِ ـ وَكَانَ غَيُوراً شَدِيدَ ٱلأَنفَةِ في أَمْرِ ٱلْمُصاهَرَةِ ـ وَكَانَ عُثْمَانُ بْنُ حَيَّانَ ٱلْمُرِّيُّ أَمِيرُ ٱلْمَدِينَةِ ، قَالَ لَهُ : زَوِّجْني ٱبْنَتَكَ. فَرَفَعَ عَقيلُ صَوْتَهُ، وَقَالَ لَهُ: أَناقَتِي أَصْلَحكَ ٱللهُ ! فَظَنَّ عُثْمَانُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ، فَرَفَعَ صَوْتَهُ : زَوِّجْنِي ٱبْنَتَكَ ؛ فَرَفَعَ عَقيلٌ صَوْتَهُ ، وَقَالَ : أَناقَتِي أَصْلَحَكَ ٱللهُ ! فَقَالَ عُثْمانُ: أَنْتَ أَعْرابيٌّ جِلْفٌ أَحْمَقُ؛ وَأَمَرَ بِإِخْراجِهِ. . . وَهَذا مِنْ عَقيلٍ عَلىٰ أَنفَتِهِ ، لأَنَّ عُثْمَانَ كانَ قَدْ مَسَّهُ هُوَ أَوْ أَبَاهُ أَسْرٌ .

* * *

٧٥٥ ـ وَقَالَ ٱلْمُبَرِّدُ في « ٱلْكَامِلِ » [ صفحة : ٥٦٤ ] : وَكَانَ عَقيلُ بْنُ عُلَّفَةَ مِنَ ٱلْغَيْرَةِ وَٱلأَنَفَةِ عَلىٰ ما لَيْسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ عَلِمْنَاهُ ، فَخَطَبَ إِلَيْه عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوانَ ٱبْنَتَهُ عَلىٰ أَحَدِ بَنِيهِ ، وَكَانَتْ لِعَقِيلٍ إِلَيْهِ حاجَاتٌ ، فَقَالَ عَقيلُ : أَمَّا إِذْ كُنْتُ فاعِلًا فَجَنِّبْنِي هُجَناءَكَ[1] . [ راجع رقم : ١٤٧٦ ] .

---

(١) يُرِيدُ أَبْناءَ ٱلإِماءِ وَأُمَّهاتِ ٱلأَوْلادِ ، وَهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ وَمُسْلِمٌ وَٱلْمُنْذِرُ وَعَنْبَسَةُ وَمُحَمَّدُ وَسَعِيدُ ٱلْخَيْرِ وَٱلْحَجَّاجُ أَوْلادُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَٱلْهُجْنَةُ في ٱلنَّاسِ وَٱلْخَيْلِ إِنَّما تَكُونُ مِنْ قَبيلِ ٱلأُمِّ ، فَإِذا كانَ ٱلأَبُ عَتِيقاً وَالأُمُّ لَيْسَتْ كَذَلِكَ كانَ ٱلْوَلَدُ هَجِيناً ، وَٱلْقُرْفَةُ مِنْ قِبَلِ ٱلأَبِ ، فَإِذا كَانَتِ ٱلأُمُّ عَرَبِيَّةً وَٱلأَبُ لَيْسَ كَذَلِكَ كانَ ٱلْوَلَدُ مُقْرِفاً .

٧٥٦ ـ وَخَطَبَ إِلَيْهِ ٱبْنَتَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشامِ بْنِ إِسْماعِيلَ بْنِ هِشامِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ ، وَهُوَ خالُ هِشامِ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ، وَالي ٱلْمَدِينَةِ ، وَكَانَ أَبْيَضَ شَديدَ ٱلْبَياضِ ، فَرَدَّهُ عَقِيلُ ، وَقَالَ [من الوافر] :

رَدَدْتُ صَحيفَـةَ ٱلْقُـرَشِـيِّ لَمَّـا  أَبَـتْ أَعْـراقُـهُ إِلَّا ٱحْمِـراراً

[ « الكامل » للمبرّد ، صفحة : ٥٦٤ ] ـ [ راجع رقم : ١٤٧٧ ] .

* * *

٧٥٧ ـ وَمِمَا يُرْوىٰ في بابِ ٱلْغَيْرَةِ وَٱلأَنَفَةِ : أَنَّهُ قِيلَ لِعَقيلِ بْنِ عُلَّفَةَ : قَدْ عَنَّسْت بَناتِكَ ، أَفَما تَخْشىٰ عَلَيْهِنَّ ٱلْفَسادَ ! قالَ : كَلَّا ، إِنِّي خَلَّفْتُ عِنْدَهُنَّ ٱلْحافِظَيْنِ ؛ قِيلِ : وَمَا هُمَا ؟ قَالَ : ٱلْجُوعُ وَٱلْعُرِي ، أُجِيعُهُنَّ فَلا يَمْرَحْنَ وأُعَرِّيهِنَّ فَلا يَبْرَحْنَ .

٧٥٨ ـ وَرَوىٰ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلاءِ أَنَّه حَمَلَ يَوْماً ٱبْنَةً لَهُ وَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الرجز] :

إِنِّـي وَإِنْ سِيـقَ إِلَـيَّ ٱلْمَهْـرُ  أَلْـفٌ وَعُبْـدَانٌ وَذَوْدٌ عَشْـرُ

أَحَـبُّ أَصْهـاري إِلَـيَّ ٱلْقَبْـرُ[1]

* * *

٧٥٩ ـ وَذَكَرَ ٱلأَصْمَعِيُّ أَنَّ عَقيلًا كانَ لِغَيْرَتِهِ إِذا رَأَىٰ ٱلرَّجُلَ يَتَحَدَّثُ إِلىٰ ٱلنِّساءِ أَخَذَهُ وَدَهَنَ أَرْفاغَهُ وَمَغابِنَهُ بِزُبْدٍ ، وَرَبَطَهُ ، وَطَرَحَهُ في قَرْيَةِ ٱلنَّمْلِ ، فلا يَعُودُ إِلىٰ مُحادَثَتِهِمْ .

* * *

(١) ٱلْعُبْدَانُ ـ بِضَمِّ ٱلْعَيْنِ وَكَسْرِها ـ جَمْعُ عَبْدٍ ؛ وَٱلذَّوْدُ : ٱلْقَطِيعُ مِنَ ٱلإِبِلِ ؛ وَأَحَبُّ أَصْهاري إِلَيَّ ٱلْقَبْرُ ، يُرِيدُ بِذلِكَ أَنَّ أَحَبَّ أَصْهارِهِ إِلَيْهِ مَوْتُ بَناتِهِ .

٧٦٠ ـ وَجَاءَ في « ٱلْحَيْوَانِ » [ ٤/٣١ ] لِلْجَاحِظِ : خَطَبَ إِلَىٰ عَقِيلِ بْنِ عُلَّفَةَ بَعْضَ بَنَاتِهِ رَجُلٌ مِنَ ٱلْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَأَخَذَهُ ، فَشَدَّهُ قِماطاً ، وَدَهَنَ ٱسْتَهُ بِرُبٍّ ، وَقَمَطَهُ[(١)] ، وَقَرَّبَهُ مِنْ قَرْيَةِ ٱلنَّمْلِ ، فَأَكَلَ ٱلنمْلَةُ حُشْوَةَ بَطْنِهِ .

* * *

٧٦١ ـ وَرَوىٰ ٱلأَصْمَعِيُّ أَيضاً ، قَالَ : كَانَ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ في بَعْضِ سَفَرِهِ وَمَعَهُ ٱبْنُهُ ٱلعَمَلَّسُ وَٱبْنَتُهُ ٱلْجَرْبَاءُ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَفَلُوا ، حَتّىٰ إِذا كَانُوا بِبَعْضِ ٱلطَّرِيقِ قَالَ عَقِيلُ [من الطويل] :

قَضَتْ وَطَراً مِنْ دَيْرِ سَعْدٍ وَرُبَّما عَلا عُرُضٌ نـاطَحْنَـهُ بِـٱلْجَمَـاجِـمِ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلىٰ ٱبْنِهِ ، فَقَالَ : أَجِزْ يا عَمَلَّسُ ؛ فَقالَ [من الطويل] :

فَأَصْبَحْنَ بِـٱلْمُـومَـاةِ يَحْمِلْـنَ فِتْيَـةً نَشَاوىٰ مِنَ ٱلإِدْلاجِ مِيلَ ٱلْعَمَـائِـمِ

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلىٰ ٱبْنَتِهِ ، فقَالَ : أَجِيزي يا جَرْباءُ ؛ فَقَالَتْ [من الطويل] :

كَـأَنَّ ٱلْكَـرَىٰ أَسْقـاهُـمُ صَـرْخَـدِيَّـةً عُقاراً تَمَشَّتْ في ٱلْمَطَا وَٱلْقَوَائِمِ[(٢)]

فَأَقْبَلَ عَلىٰ ٱبْنَتِهِ يَضْرِبُها وَيقُولُ : وَٱللهِ ، ما وَصَفْتِها بِهَذِهِ ٱلصِّفَةِ حَتّىٰ شَرِبْتِهَا ؛ فَوَثَبَ إِخْوَتُها فقاتَلُوهُ دُونَها ؛ وَقَدْ رُوِيَتْ هَذِهِ ٱلْقِصَّةُ بِأَبْسَطَ مِنْ هَذا .

* * *

٧٦٢ ـ وَلَمَّا أَكْرَهَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ ٱلثَّقَفِيُّ عَبْدَ ٱللهَ بْنَ جَعْفَرِ ٱبْنِ أَبي طالِبٍ[(٣)] علىٰ أَنْ زَوِّجهُ ٱبْنَتَهُ ، ٱسْتَأْجَلَهُ في نَقْلِها سَنَةً ، فَفَكَّرَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ

---

(١) قَمَطَهُ : جَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ؛ وَٱلرُّبُّ ، هُوَ : ٱلدِّبْسُ ، أَوْ هُوَ ثُفْلُ ٱلزَّيْتِ وَٱلسَّمْنِ .

(٢) ٱلْكَرىٰ : ٱلنُّعاسُ ؛ وَٱلصَّرْخَدِيَّةُ : تُرِيدُ ٱلْخَمْرَ ؛ وَٱلمَطَا : ٱلظَّهْرُ .

(٣) عَبْدُ ٱللهِ بْنُ جَعْفَرٍ هُوَ بَطَلُ ٱلْجُودِ وَٱلسَّخَاءِ وَٱلظَّرْفِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ جَعْفَرِ ٱبْنِ =

جَعْفَرٍ في ٱلانْفِكَاكِ مِنْهُ ، فَأُلْقِيَ في رُوعِه خَالِدُ بْنُ يَزِيدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ يُعْلِمُهُ ذَلِكَ ، وَكَانَ ٱلْحَجَّاجُ تَزَوَّجَها بِإِذْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَمْهَرَها أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَوَرَدَ عَلىٰ خالِدٍ كِتابُ عَبْدِ ٱللهِ لَيْلًا ، فَٱسْتَأْذَنَ مِنْ سَاعَتِه عَلىٰ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَفِي هَذا ٱلْوَقْتِ ! فَقَالَ : إِنَّهُ أَمْرٌ لا يُؤَخَّرُ ؛ فَأُعْلِمَ عَبْدُ ٱلمَلِكِ بِذَلِكَ ، فَأَذِنَ لَهُ ؛ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْه ، قَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلمَلِكِ : فِيمَ ٱلسُّرىٰ يا أَبَا هاشِمٍ ؟ قَالَ : أَمْرٌ جَلَلٌ لَمْ آمَنْ أَنْ أُؤَخِّرَهُ ، فَتَحْدُثُ عَلَيَّ حادِثَةٌ فَلا أَكُونُ قَضَيْتُ حَقَّ بَيْعَتِكَ ؛ قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أَتَعْلَمُ أَنَّهُ مَا كانَ بَيْنَ حَيَّيْنِ مِنَ ٱلْعَدَاوَةِ وٱلْبَغْضاءِ مَا كانَ بَينَ آلِ الزُّبَيْرِ وَآل أَبِي سُفْيَانَ ؛ قَالَ : لا ؛ قَالَ : فَإِنَّ تَزْوِيجِي إِلىٰ آلِ ٱلزُّبَيْرِ حَلَّلَ ما كانَ لَهُمْ في قَلْبِي ، فَمَا أَهْلُ بَيْتٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ ؛ قَالَ : فَإِنَّ ذَلِكَ لَيَكُونُ ؛ قَالَ : فَكَيْفَ أَذِنْتَ لِلحَجَّاجِ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنْ بَنِي هاشِمٍ وَأَنْتَ تَعْلَمُ ما يَقُولونَ وَيُقالُ فِيهِمْ ، وَٱلْحَجَّاجُ مِنْ سُلْطانِكَ بِحَيْثُ عَلِمْتَ ! فَجَزَّاهُ خَيْراً ؛ وَكَتَبَ إِلىٰ ٱلْحَجَّاجِ بِعَزْمَةٍ أَنْ يُطَلِّقَها ، فَطَلَّقَها ؛ فَغَدَا ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ يُعَزُّونَهُ عَنْها ، فَكَانَ فِيمَنْ أَتَاهُ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ ٱبْنِ أَبِي سُفْيانَ ، فَأَوْقَعَ ٱلْحَجَّاجُ بِخَالِدٍ ، فَقَالَ : كانَ ٱلأَمْرُ لآبائِه فَعَجَزَ عَنْهُ حَتّىٰ ٱنْتُزِعَ مِنْهُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ عُتْبَةَ : لا تَقُلْ ذَا أَيُّها الأَمِيرُ ، فَإِنَّ لِخَالِدٍ قَدِيماً سَبَقَ إِلَيْه ، وَحَدِيثاً لَمْ يُغْلَبْ عَلَيْهِ ، وَلَوْ طَلَبَ ٱلأَمْرَ لَطَلَبَهُ بِحَدٍّ وَجِدٍّ[1] ، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ عِلْماً فَسَلَّمَ ٱلْعِلْمَ

---

= أَبِي طَالِبٍ ، وَأُمُّهُ أَسْماءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ أُخْتُ أُمِّ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةَ بِنتِ ٱلْحَارِثِ لأُمِّهَا ، هَاجَرَ أَبَوَاهُ إِلىٰ ٱلْحَبَشَةِ ، وَهُنَالِكَ كانَ مَوْلِدُهُ قَبْلَ هِجْرَةِ ٱلْمُصْطَفىٰ بِثلاثِ سِنِينٍ ، وَأَتىٰ بِهِ أَبَوَاهُ ٱلْمَدِينَةَ وَلَهُ سَبْعُ سِنِينٍ ، وَتُوُفِّيَ أَبُوهُ في غَزْوَةِ مُؤْتَةَ ، وَكَانَ أَمْرُ ٱلْقَوْمِ فِيهِمَا ، فَكَفَلَهُ عَمُّهُ سَيِّدُنا رَسُولُ ٱللهِ وَدَعَا لَهُ ، ثمَّ ٱنْتَقَلَ إِلىٰ كَفالَةِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ إِلىٰ كَفالَةِ عَمِّه عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طالِبٍ ، وَكَانَ أَحَدُ أُمَراءِ جُنْدِهِ في صِفِّينَ ، وَزَوَّجَهُ عَلِيٌّ بِٱبْنَتِه زَيْنَبَ ، وَكَانَ كَما قُلْنَا عَلَماً مِنْ أَعْلامِ ٱلْجُودِ حَتّىٰ لُقِّبَ بِقُطْبِ ٱلسَّخاءِ ، وَفي سَبِيلِ جُودِهِ ٱحْتَمَلَ ٱلدَّيْنَ حَتّىٰ رَضِيَ أَنْ يُزَوِّجَ ٱبْنَتَهُ مِنَ ٱلْحَجَّاجِ ، لأَنَّهُ وَفَّىٰ عَنْهُ دَيْنَهُ وَأَعْطَاهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(١) ٱلْحَدُّ : ٱلْبَأْسُ وَٱلنَّجْدَةُ وَٱلنَّفَاذُ في ٱلأُمُورِ ؛ وَٱلْجِدُّ : ٱلاجْتِهَادُ .

إِلىٰ أَهْلِهِ ؛ فَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ : يا آل أَبي سُفْيانَ ، أَنْتُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تَحْلُمُوا ، وَلا يَكُونُ ٱلْحُلُمُ إِلَّا عَنْ غَضَبٍ ، فَنَحْنُ نُغْضِبُكُمْ في ٱلْعَاجِلِ ٱبْتِغاءِ مَرْضاتِكُمْ في ٱلآجِلِ ؛ ثُمَّ قَالَ ٱلْحَجَّاجُ : وَٱللهِ لأَتَزَوَّجَنَّ مَنْ هُوَ أَمَسُّ بِهِ رَحِماً ثُمَّ لا يُمْكِنُهُ فِيهِ شَيْءٌ . فَتَزَوَّجَ أُمَّ ٱلْجُلاسِ بِنْتَ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدِ ٱبْنِ أَبي ٱلْعِيصِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ .

٧٦٣ ـ وَمِمَّا يُسْتَطْرَفُ في هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ أَنَّهُ لَمَّا زَوَّجَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ جَعْفَرٍ ٱبْنَتَهُ ٱلْحَجَّاجَ ، قِيلَ لَهُ : أَتُنْكِحُ ٱبْنَتَكَ ٱلْحَجَّاجَ ! قَالَ : أَنْكَحْتُمُوهُ دِينَكُمْ ، وَٱلدِّينُ أَجَلُّ مِنْ بَضْعِ ٱلْمَرْأَةِ .

❊ ❊ ❊

٧٦٤ ـ أقول : وَإِنَّما أَنْكَرُوا تَزْوِيجَ بِنْتِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ جعْفَرٍ ٱلْحجّاجَ لأَنَّ عَبْدَ ٱللهِ مِنَ ٱلشَّرَفِ وَكَرَمِ ٱلْمَحْتِدِ بِٱلْمكَانِ ٱلَّذي لا يَخْفىٰ ، أَمَّا ٱلْحَجَّاجُ ، فَعَلىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَمِيرٌ إِلَّا أَنَّ أَبَاهُ كانَ مُعَلِّمَ صِبْيانٍ ، وَكَذٰلِكَ كانَ ٱلْحَجّاجُ نَفْسُه .

٧٦٥ ـ وَيُرْوىٰ أَنَّهُ لما زُفَّتْ إِلىٰ ٱلْحَجَّاجِ نَظَرَ إِلىٰ عَبْرَتِهَا تَجُولُ في عَيْنَيْها ، فَقَالَ : بِأَبي أَنْتِ وأُمِّي ، مِمَّ تَبْكِينَ ؟ فَقالَتْ : أَبْكِي مِنْ شَرَفٍ ٱتَّضَعَ وَمِنْ ضَعَةٍ شَرُفَتْ ؛ وَلَمَّا أُمِرَ ٱلْحَجَّاجُ بِطَلاقِها ، قَالَ لَها ٱلْحَجَّاجُ : إِنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنينَ كَتَبَ إِلَيَّ بِطَلاقِكِ ؛ فَقَالَتْ : هُوَ وَٱللهِ أَبَرُّ بي مِمَّنْ زَوَّجَنِيكَ .

٧٦٦ ـ وَجَاءَ رَجُلٌ إِلىٰ ٱبْنِ سِيرِينَ ، فَقَالَ : رَأَيْتُ حِدَأَةً علىٰ شُرَفِ مَسْجِدِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَقَالَ لَه : إِنْ صَدَقَتْ رُؤْيَاكَ فَسَيَتَزَوَّجُ ٱلْحَجَّاجُ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَيْتِ . فَكَانَ .

❊ ❊ ❊

٧٦٧ ـ وَمِنَ ٱلمُلَحِ فِي هَذا ٱلْبَابِ ، أَنَّه قِيلَ لأَحَدِ ٱلْمُجَّانِ : فُلانٌ ٱلْمُؤَذِّنُ تَزَوَّجَ بِٱبْنَةِ فُلانٍ ٱلمُقْرِىءِ ! فَقَالَ : إِنَّهُما سَيَلِدانِ مُصْحَفاً .

* * *

٧٦٨ ـ وَقالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ لامْرَأَتِهِ [من المتقارب] :

فَـإِمَّـا هَلَكْـتُ فـلا تَنْكِحِـي خَـذُولَ ٱلْعَشِيـرَةِ حَسَّـادَهَـا
يَـرَىٰ مَجْـدَهُ ثَلْـبَ أَعْـراضِهـا لَـدَيْـهِ وَيُبْغِـضُ مَـنْ سـادَهـا

ثَلْبُ أَعْراضِها : عَيْبُها وَنَقْصُها ، يُقالُ : ثَلَبَهُ يَثْلِبُهُ ثَلْباً : عابَهُ وَتَنَقَّصَهُ .

* * *

٧٦٩ ـ وَمِثلُ قولِ حَسّانٍ لامْرَأَتِه قَوْلُ هُدْبَةَ بْنِ خَشْرَمَ ٱلْعُذْرِيِّ لامْرَأَتِهِ ، وَنَسُوقُ حَدِيثَهُ بِرُمَّتِهِ[١] :

قَال ٱلْمُبَرِّدُ في « ٱلْكَامِلِ » : وَمِنَ ٱلْجُفاةِ عِنْدَ ٱلمَوْتِ هُدْبَةُ بْنُ خَشْرَمَ العُذْرِيُّ ، وكَانَ قَتَلَ زِيَادَةَ بْنِ زَيْدِ ٱلْعُذرِيَّ[٢] .

فلمَّا حُمِلَ إلىٰ مُعَاوِيَةَ تَقَدَّمَ مَعَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَن أَخُو زِيَادَةَ ، فَٱدَّعَىٰ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : أَتُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ٱلْجَوابُ شِعْراً أَمْ نَثْراً ؟ .

قَالَ : بَلْ شِعْراً ، فَإِنَّهُ أَمْتَعُ ؛ فَقَالَ هُدْبَةُ[٣] [من الطويل] :

---

(١) وَٱنْظُرْ قِصَّتَهُ كامِلَةً في « الأَغاني » ج٢١ ، وفي « خِزانَةِ الأَدَبِ » لِلبَغْدادِيِّ ج٤ ، طبعة بُولاق ؛ وَقَدْ آثَرْنا حَديثَ ٱلْمُبَرِّدِ .

(٢) وَكَانَا قَدْ أَقْبَلا مِنَ ٱلشَّامِ فِي رَكْبٍ مِنْ قَوْمِهِمَا ، وَكَانَا يَتَعَاقَبَانِ سَوْقَ ٱلإِبِلِ ، فَرَجَزَ كِلاهُمَا بِأُخْتِ ٱلآخَرِ بِمَا يَقْبُحُ ذِكْرُهُ ، فَغَضِبَ هُدْبَةُ حَتَّىٰ أَصَابَ مِنْهُ غِرَّةً فَقَتَلَهُ . ٱنْظُرْ رَجَزَهُمَا فِي « ٱلأَغَانِي » وَ« ٱلْخِزانَةِ » .

(٣) مِنْ كَلِمَةٍ مَطْلِعُهَا [من الطويل] :

=

فَلَمَّـا رَأَيْـتُ إِنَّمَـا هِـيَ ضَـرْبَـةٌ ... مِنَ ٱلسَّيْفِ أَوْ إِغْضَاءُ عَيْنٍ عَلَىٰ وَتْرِ (١)
عَمَـدْتُ إِلَـىٰ أَمِيـرٍ لا يُعَيَّـرُ وَالِـدِي ... خَـزَايَتَـهُ وَلا يُسَـبُّ بِـهِ قَبْـرِي (٢)
رُمِينَـا فَـرَامَيْنَـا فَصَـادَفَ سَهْمُنَـا ... مَنِيَّـةَ نَفْـسٍ فِـي كِتَـابٍ وَفِـي قَـدْرِ
وَأَنْـتَ أَمِيـرُ ٱلْمُـؤْمِنِيـنَ فَمَـا لَنَـا ... وَرَاءَكَ مِنْ مَعْدًى وَلا عَنْكَ مِنْ قَصْرِ (٣)
فَـإِنْ تَـكُ فِـي أَمْـوَالِنَـا لا تَضِيـقُ بِهَـا ... ذَرَاعـاً وَإِنْ صبْـرٌ فَنَصْبِـرُ لِلصَّبْـرِ (٤)

فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : أَرَاكَ قَدْ أَقْرَرْتَ يَا هُدْبَةُ ؛ قَالَ : هُوَ ذَاكَ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ : أَقِدْنِي ؛ فَكَرِهَ ذَاكَ مُعَاوِيَةُ ، وَضَنَّ بِهُدْبَةَ عَنِ ٱلْقَتْلِ ، وَكَانَ ٱبْنُ زِيَادَةَ صَغِيراً .

فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ : أَوَمَا عَلَيْكَ أَنْ تَشْفِيَ صَدْرَكَ وَتَحْرِمَ غَيْرَكَ (٥) ! ثُمَّ وَجَّهَ بِهِ إِلَىٰ ٱلْمَدِينَةِ .

وَقَالَ : يُحْبَسُ (٦) إِلَىٰ أَنْ يَبْلُغَ ٱبْنُ زِيَادَةَ ؛ فَبَلَغَ وَكَانَ وَالِي ٱلْمَدِينَةِ سَعِيدَ ٱبْنَ ٱلْعَاصِ ، فَمِمَّا وُقِفَ عَلَيْهِ مِنْ قَسْوَتِهِ قَوْلُهُ [من الطويل] :

---

= أَلا يَـا لِقَـوْمٍ لِلنَّـوَائِـبِ وَٱلـدَّهْـرِ ... وَلِلْمَـرْءِ يُـرْضِـي نَفْسَـهُ وَهُـوَ لا يَـدْرِي
وَلِـلأَرْضِ كَـمْ مِـنْ صَـالِـحٍ قَـدْ تَلَمَّـأَتْ ... عَلَيْـهِ فَـوَارَتْـهُ بِلَمّـاعَـةِ ٱلْقَفْـرِ
فَـلاذَا جَـلالٍ هِبْنَـهُ لِجَـلالِـهِ ... وَلا ذَا ضِيَـاعٍ هُـنَّ يَتْـرُكْـنَ لِلْفَقْـرِ
تَلَمَّأَتْ بِهِ ٱلأَرْضُ وَعَلَيْهِ : ٱشْتَمَلَتْ ، وَٱلْمُرَادُ بِٱلضِّيَاعِ هُنَا ٱلْعِيَالُ .

(١) ٱلْوَتْرُ : ٱلذَّحْلُ ، وَٱلثَّأْرُ .
(٢) خَزَايَتُهُ : خِزْيُهُ وَهَوَانُهُ .
(٣) مِنْ مَعْدَىٰ : مِنْ مُتَجَاوَزٍ إِلَىٰ غَيْرِكَ ؛ وَلا عَنْكَ مِنْ قَصْرٍ ، يُرِيدُ : وَلا مَنْعٌ فِي أَمْرِي عَنْكَ .
(٤) فَإِنْ تَكُ ، يَعْنِي ٱلدِّيَةَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ ، وَٱلصَّبْرُ هُنَا : ٱلْحَبْسُ .
(٥) وَتَحْرِمَ غَيْرَكَ ، أَيْ : مِنْ أَخْذِ ٱلدِّيَةِ لَوْ قَبِلَهَا ، وَيُرْوَىٰ أَنَّهُ قَالَ : هَلْ لِزِيَادَةَ وَلَدٌ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ وَٱسْمُهُ ٱلْمِسْوَرُ ، وَهُوَ غُلامٌ لَمْ يَبْلُغْ ، وَأَنَا عَمُّهُ وَوَلِيُّ دَمِ أَبِيهِ ؛ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِنَّكَ لا تُؤْمَنُ عَلَىٰ أَخْذِ ٱلدِّيَةِ أَوْ قَتْلِ ٱلرَّجُلِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَٱلْمِسْوَرُ أَحَقُّ بِدَمِ أَبِيهِ .
(٦) يُرْوَىٰ أَنَّهُ حُبِسَ ثَلاثَ سِنِينَ أَوْ خَمْساً أَوْ سِتّاً .

وَلَمَّا دَخَلْتُ ٱلسِّجْنَ يا أُمَّ مَالِكٍ ذَكَرْتُكِ وَٱلأَطْرَافُ فِي حِلَقٍ سُمْرِ[(١)]
وَعِنْدَ سَعِيدٍ غَيْرَ أَنْ لَمْ أَبُحْ بِهِ ذَكَرْتُكِ إِنَّ الأَمْرَ يُذْكَرُ بِٱلأَمْرِ

فَسُئِلَ عَنْ هَذَا ٱلْقَولِ ، فَقَالَ : لَمَّا رَأَيْتُ ثَغْرَ سَعِيدٍ ـ وَكَانَ سَعِيدٌ حَسَنَ ٱلثَّغْرِ جِدّاً ـ ذَكَرْتُ بِهِ ثَغْرَهَا ؛ وَيُقَالُ : إِنَّهُ عُرِضَ عَلَىٰ ٱبْنِ زِيَادَةَ عَشْرُ دِيَاتٍ ؛ فَأَبَىٰ إِلَّا ٱلقَودَ ، وَكَانَ مِمَّنْ عَرَضَ ٱلدِّيَاتِ مِمَّنْ ذُكِرَ لَنَا ٱلْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ جَعْفَرَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلامُ وَسَعِيدُ بْنُ ٱلْعَاصِ وَمَرْوَانُ بْنُ ٱلْحَكَمِ وَسَائِرُ ٱلْقَوْمِ مِنْ قُرَيْشٍ وَٱلأَنْصَارِ .

فَلَمَّا خُرِجَ بِهِ لِيُقَادَ بِٱلْحَرَّةِ[(٢)] جَعَلَ يُنْشِدُ ٱلأَشْعَارَ ، فَقَالَتْ لَهُ حُبَّىٰ ٱلْمَدِينِيَّةِ[(٣)] : مَا رَأَيْتُ أَقْسَىٰ قَلْباً مِنْكَ ! أَتُنْشِدُ ٱلأَشْعَارَ وَأَنْتَ يُمْضَىٰ بِكَ لِتُقْتَلَ ! وَهَذِهِ خَلْفَكَ كَأَنَّهَا ظَبِيٌ عَطْشَانُ تُوَلْوِلُ ! تَعْنِي ٱمْرَأَتَهُ ، فَوَقَفَ وَوَقَفَ ٱلنَّاسُ مَعَهُ ، فَأَقْبَلَ عَلَىٰ حُبَّىٰ وَقَالَ [من الطويل] :

فَمَا وجَدَتْ وَجْدِي بِهَا أُمُّ وَاحِدٍ وَلا وَجْدَ حُبَّىٰ بِٱبْنِ أُمِّ كِلابِ[(٤)]
رَأَتْهُ طَوِيلَ ٱلسَّاعِدَيْنِ شَمَرْدَلًا كَمَا ٱنْتَعَتَتْ مِنْ قُوَّةٍ وَشَبَابِ[(٥)]

---

(١) يُرِيدُ بِٱلأَطْرَافِ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ ، وَٱلْحِلَقِ ٱلسُّمْرِ : ٱلْقُيُودَ وَٱلأَغْلالَ .

(٢) ٱلْحَرَّةُ ، يُرِيدُ حَرَّةَ وَاقِم ، إِحْدَىٰ حَرَّتَيْ ٱلْمَدِينَةِ وَهِيَ ٱلشَّرْقِيَّةُ .

(٣) حُبَّىٰ ـ بِضَمِّ ٱلْحَاءِ وَتَشْدِيدِ ٱلْبَاءِ : ٱسْمُ ٱمْرَأَةٍ ٱشْتَهَرَتْ بِشِدَّةِ ٱلشَّبَقِ ، تَزَوَّجَتْ وَهِيَ عَجوزٌ شابّاً في مُقْتَبَلِ ٱلسِّنِّ ، يُقالُ لَهُ : ٱبْنُ أَمِّ كِلابٍ ، وَضُرِبَ بِها ٱلْمَثَلُ ، فَقيلَ : أَشْبَقُ مِنْ حُبَّىٰ ؛ وَالمَدِينيَّةُ بِإِثْباتِ ياءِ المَدينَةِ ؛ قالَ بَعْضُ ٱللُّغَوِيِّينَ : إِذا أَنْسَبْتَ إِلىٰ مَدِينَةِ ٱلرَّسُولِ قُلْتَ : مَدَنِيٌّ ، وَإِلىٰ مَدينَةِ ٱلْمَنْصُورِ وَأَصْفَهانَ وَغَيْرِهِما : مَدِينِي ؛ وَإِلىٰ مَدائِنِ كِسْرىٰ : مَدائِني لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلنَّسَبِ .

(٤) وَجَدَ بِهِ وَجْداً : أَحَبَّهُ ؛ يَقُولُ : إِنَّ حُبِّي زَوْجَتِي لَمْ يَبْلُغْهُ حُبُّ أَحَدٍ وَلا حُبُّ أُمٍّ وَحِيدَهَا وَلا حُبُّ حُبَّىٰ زَوْجَهَا .

(٥) الشَّمَرْدَلُ : ٱلْفَتَىٰ ٱلْقَوِيُّ ٱلْجَلْدُ ؛ ٱنْتَعَتَتْ ، أَيْ : وُصِفَتْ ، وَمَصْدَرُهُ ٱلانْتِعَاتُ ، وَهُوَ =

فَأَغْلقَتْ حُبَّىٰ ٱلْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَسَبَّتْهُ .

وَعَرَضَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ ٱلشَّاعِرُ ، فَقَالَ لَهُ : أَعَلىٰ هَذِهِ ٱلْحَالِ ! قَالَ : نَعَمْ ؛ فَأَنْشَدَهُ [من الطويل] :

وَلَسْتُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا ٱلْجَهْرُ سَرَّنِي ... وَلا جَازِعٍ مِنْ صَرْفِهِ ٱلْمُتَقَلِّبِ
وَلا أَتَبَغَّىٰ الشَّرَّ والشَّرُّ تَارِكِي ... وَلَكِنْ مَتَىٰ أُحْمَلْ عَلَىٰ ٱلشَّرِّ أَرْكَبِ
وَحَرَّبَنِي مَوْلايَ حَتَّىٰ غَشِيتُهُ ... مَتَىٰ مَا يُحَرِّبْكَ ٱبْنُ عَمِّكَ تَحْرَبِ(١)

فَلَمَّا قُدِّمَ نَظَرَ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ ، فَدَخَلَتْهُ غَيْرَةٌ ، وَقَدْ كَان جُدِعَ فِي حَرْبِهِمْ ، فَقَالَ [من الطويل] :

أَقِلِّي عَلَيَّ ٱللَّوْمَ يَا أُمَّ يَوْزَعا ... وَلا تَجْزَعِي مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
وَإِنْ يَكُ أَنْفِي بَانَ مِنْهُ جَمَالُهُ ... فَمَا حَسَبِي فِي ٱلصَّالِحِينَ بِأَجْدَعَا(٢)
فَلا تَنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ ٱلدَّهْرُ بَيْنَنَا ... أَغَمَّ ٱلقَفَا وَٱلْوَجْهِ لَيْسَ بِأَنْزَعا(٣)
ضَرُوباً بِلَحْيَيْهِ عَلَىٰ عَظْمِ زَوْرِهِ ... إِذَا ٱلنَّاسُ هَشُّوا لِلْفَعَالِ تَقَنَّعا(٤)

---

= ٱلْوَصْفُ ؛ كَٱلنَّعْتِ .

(١) حَرَّبَنِي : حَمَلَهُ عَلَىٰ ٱلْغَضَبِ ؛ وَمَوْلاهُ : ٱبْنُ عَمِّهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ زِيَادَةَ مِنْ قَبِيلَةِ هُدْبَةَ ، وَتَحَرَّبَ مِنْ حَرِبَ ٱلرَّجُلُ بِٱلْكَسْرِ حَرَباً بِٱلتَّحْرِيكِ : ٱشْتَدَّ غَضَبُهُ .

(٢) أَصْلُ ٱلْجَدْعِ : ٱلْقَطْعُ ، يُقَالُ : جَدَعَ فُلانٌ أَنْفَهُ وَمَا شاكَلَهُ : قَطَعَهُ ، وَجُمْلَةُ قَوْلِهِ : إِنَّ حَسَبَهُ فِي ٱلصَّالِحِينَ لَيْسَ بِمَقْطُوعٍ ، يُرِيدُ : أَنَّهُ مُعْرِقٌ لَهُ فِي ٱلْحَسَبِ ، أَيْ : ٱلْمَجْدِ وَكَرَمِ ٱلآبَاءِ .

(٣) ٱلْغَمَمُ : أَنْ يَسِيلَ ٱلشَّعْرُ حَتَّىٰ يَضِيقَ ٱلْوَجْهُ وَٱلْقَفَا ، وَٱلنَّزَعُ : ٱنْحِسَارُ مُقَدَّمِ شَعْرِ ٱلرَّأْسِ عَنْ جَانِبَيِ ٱلْجَبْهَةِ ، وَٱلْعَرَبُ تُحِبُّ ٱلنَّزَعَ وَتَتَيَمَّنُ بِٱلأَنْزَعِ وَتَذُمُّ ٱلْغَمَمَ وَتَتَشَاءَمُ بِٱلأَغَمِّ ، وَتَزْعُمُ أَنَّ ٱلأَغَمَّ ٱلْقَفَا وَٱلْجَبِينَ لا يَكُونُ إِلّا لَئِيماً خَسِيساً نَقِيضَ ٱلْكَرِيمِ .

(٤) ٱلزَّوْرُ : أَعْلَىٰ وَسَطِ ٱلصَّدْرِ ؛ وَضَرُوباً بِلَحْيَيْهِ عَلَىٰ عَظْمِ زَوْرِهِ ، يُرِيدُ إِنَّهُ مِنْ شِدَّةِ دَهَشِهِ يَتَلَجْلَجُ وَيَضْطَرِبُ فَيَصْطَكُّ لَحْيَاهُ بِزَوْرِهِ ؛ وَهَشُّوا : ٱنْبَسَطُوا ؛ وَتَقَنَّعَ : تَسَتَّرَ ، أَيْ : أَخْفَىٰ نَفْسَهُ مُتَأَخِّراً عَنِ ٱلْمَكَارِمِ ؛ وَٱلْفَعَالُ ، بِفَتْحِ ٱلْفَاءِ : ٱلْفِعْلُ ٱلْحَسَنُ ، يَقُولُ : إِنَّهُ فَسْلٌ مُتَأَخِّرٌ =

وَحُلِّي بِذِي أُكْرُومَةٍ وَحَمِيَّةٍ ... وَصَبْرٍ إِذا مَا ٱلدَّهْرُ عَضَّ فَأَسْرَعَا

فَقَالَتْ : قِفُوا عَنْهُ سَاعَةً ؛ ثُمَّ مَضَتْ وَقَدِ ٱصْطَلَمتْ أَنْفَهَا .

فَقَالَتْ : أَهذا فِعْلُ مَنْ لَهُ فِي ٱلرِّجَالِ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ : ٱلآنَ طَابَ ٱلمَوْتُ(١) .

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَىٰ أَبَوَيْهِ ، فَقَالَ [من الرمل] :

إِبْلِيَانِي ٱلْيَوْمَ صَبْراً مِنْكُمَا ... إِنَّ حُزْناً مِنْكُمَا ٱلْيَوْمَ لَشَرّ(٢)

مَا أَظُنُّ ٱلْمَوْتَ إِلَّا هَيِّناً ... إِنَّ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ دَارَ ٱلْمُسْتَقَرّ

ثُمَّ قَالَ [من الطويل] :

أَذَا ٱلْعَرْشِ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مُؤْمِنٌ ... مُقِرٌّ بِزَلَّاتِي إِلَيْكَ فَقِيرُ

وَإِنِّي وَإِنْ قَالُوا أَمِيرٌ مُسَلَّطٌ ... وَحَجَّابُ أَبْوَابٍ لَهُنَّ صَرِيرُ

لأَعْلَمُ أَنَّ ٱلأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنْ ... فَرَبٌّ وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ غَفُورُ

ثُمَّ قَالَ لابن زِيادَة : أَثْبِتْ قَدَمَيْكَ وَأَجِدِ ٱلضَّرْبَةَ ، فَإِنِّي أَيْتَمْتُكَ صَغِيراً ، وَأَرْمَلْتُ أُمَّكَ شابَّةً ؛ ثُمَّ سَأَلَ فَكَّ قُيُودِهِ فَفُكَّتْ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [من الطويل] :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي فِي ٱلْحَدِيدِ فَإِنَّنِي ... قَتَلْتُ أَخَاكُمْ مُطْلَقاً لَمْ يُقَيَّدِ

❋ ❋ ❋

---

= عَنِ ٱلْمَكَارِمِ .

(١) قَالَ ٱلنَّوْفَلِيُّ : حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ عُذْرَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : إِنِّي لَفِي بِلادِنَا يَوْماً فِي بَعْضِ ٱلْمِيَاهِ ، فَإِذَا أَنَا بِٱمْرَأَةٍ تَمْشِي أَمَامِي وَهِيَ مُدْبِرَةٌ وَلَهَا خَلْقٌ عَجِيبٌ ، مِنْ عَجُزٍ وَهَيْئَةٍ وَتَمَامِ جِسْمٍ وَتَمَامِ قَامَةٍ ، وَإِذَا صَبِيَّانِ قَدِ ٱكْتَنَفَاهَا يَمْشِيَانِ ، فَتَقَدَّمْتُهَا ، وَٱلْتَفَتُّ إِلَيْهَا ، وَإِذَا أَقْبَحُ مَنْظَرٍ ، وَإِذَا هِيَ مَجْدُوعَةُ ٱلأَنْفِ ، مَقْطُوعَةُ ٱلشَّفَتَيْنِ ؛ فَسَأَلْتُ عَنْهَا ، فَقِيلَ : هَذِهِ ٱمْرَأَةُ هُدْبَةَ ، تَزَوَّجَتْ بَعْدَهُ رَجُلاً أَوْلَدَهَا هَذَيْنِ ٱلصَّبِيَّيْنِ .

(٢) إِبْلِيَانِي بِكَسْرِ ٱلْهَمْزَةِ وَٱلْبَاءِ ٱلْمُوَحَّدَةِ أَيْ : ٱمْتَحِنَانِي ، قَالَ فِي « ٱلْقَامُوسِ » : ٱلْبَلاءُ يَكُونُ مِحْنَةً وَيَكُونُ مِنْحَةً .

٧٧٠ ـ وَخَطَبَ رَجُلٌ إِلىٰ ٱبْنِ عَبَّاسٍ يَتِيمَةً لَهُ ، فَقَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ : لا أَرْضاها لَكَ ؛ قالَ : وَلِمَ وَفي حِجْرِكَ نشأَتْ ؟ قالَ : لأَنَّها تَتَشَرَّفُ وَتَنْظُرُ(١) ؛ قالَ : وَمَا هٰذا ؟ فَقَالَ ٱبْنُ عَبّاسٍ : ٱلآنَ لا أَرْضاكَ لَها .

* * *

٧٧١ ـ وَخَطَبَ لَقِيطُ بْنُ زُرارَةَ إِلىٰ قَيْسِ بْنِ خالِدٍ ذي ٱلْجَدَّيْنِ ٱلشَّيْبانِيِّ ، فَقَالَ لَهُ قَيْسُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَقِيطُ بْنُ زُرارَةَ ؛ قَالَ : وَما حَمَلَكَ أَنْ تَخْطُبَ إِلَيَّ عَلانِيَةً ؟ فَقالَ : لأَنّي عَرَفْتُ أَنّي إِنْ عالَنْتُكَ لَمْ أَفْضَحْكَ ، وَإِنْ سارَرْتُكَ لَمْ أَخْدَعْكَ . فَقَالَ : كُفءٌ كَريمٌ ، لا تَبيتُ وَٱللهِ عَزَباً وَلا غَريباً ؛ فَزَوَّجَهُ ٱبْنَتَهُ وَساقَ عَنْهُ(٢) .

* * *

٧٧٢ ـ وَخَطَبَ عُمَرُ بنُ ٱلْخَطَّابِ أُمَّ أَبَانٍ بِنْتَ عُتْبَةَ بْنِ رَبيعَةَ ، بَعْدَ أَنْ ماتَ عَنْها يَزِيدُ بْنُ سُفْيانَ ، فَقالَتْ : لا يَدْخُلُ إِلَّا عابِساً وَلا يَخْرُجُ إِلَّا عابِساً ، يُغْلِقُ أَبْوابَهُ وَيُقِلُّ خَيْرَهُ ؛ ثُمَّ خَطَبَها ٱلزُّبَيْرُ ، فَقالَتْ : يَدٌ لَهُ عَلىٰ قُروني وَيَدٌ لَهُ في

---

(١) رُوِيَتْ هٰذِهِ ٱلْحِكَايَةُ عَلىٰ وَجْهٍ آخَرَ ، وَهُوَ : كانَ في دارِ ٱبْنِ عَبّاسٍ يَتِيمَةٌ ، فَخَطَبَها رَجُلٌ ، فَقالَ لَهُ : لَا أَرْضاها لَكَ ؛ فَقَالَ ٱلرَّجُلُ : وَلٰكِنّي رَضِيتُ بِها ؛ فَقالَ : الآنَ لا أَرْضاكَ لَها ؛ أَمَّا قَوْلُ ٱبْنِ عَبّاسٍ في ٱلرِّوايَةِ الأُولىٰ : لأَنَّها تَتَشَرَّفُ وَتَنْظُرُ ؛ فَأَظُنُّهُ يُريدُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّها الآنَ تَتَشَرَّفُ بِانْتِسابِها إِلَيَّ ، ثُمَّ تَنْظُرُ حَتّىٰ تُصِيبَ مَنْ يُغْنِي غَنائِي لِتَتَشَرَّفَ بِهِ ، فَلَمّا قَالَ ٱلرَّجُلُ : وَمَا هٰذا ؟ قَالَ لَهُ ٱبْنُ عَبّاسٍ : ٱلآنَ لا أَرْضَاكَ لَها ؛ أَوْ لَعَلَّ ٱبْنَ عَبّاسٍ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ : إِنَّها لِيُتْمِهَا تَشْعُر بِأَنَّها في حَاجَةٍ إِلى مَنْ يَنْفِي عَنْهَا هٰذا ٱلنَّقْصَ بِتَشْرِيفِهِ إِيّاها ، أَيْ : إِنَّ يَتِيمَتَهُ تَرْغَبُ في أَنْ تَتَشَرَّفَ بِتَزَوُّجِها مِنْ رَجُلٍ شَرِيفٍ ، ثُمَّ هِيَ تَنْظُرُ ، أَيْ تُؤَخِّرُ زَواجَها حَتّىٰ تُصيبَ ٱلرَّجُلَ ٱلْكُفْءَ ، فَلَمّا قَالَ ٱلرَّجُلُ : وَمَا هَذا ؟ ، أَيْ : ما قِيمَةُ هٰذا ؟ قَالَ ٱبْنُ عَبّاسٍ : الآنَ لا أَرْضاكَ لَها .

(٢) وَسَاقَ عَنْهُ ، أَيْ : دَفَعَ عَنْهُ ٱلْمَهْرَ .

ٱلسَّوْطِ ؛ وَخطَبها عليٌّ ، فَقَالَتْ : لَيسَ لِلنِّساءِ مِنْهُ حظٌّ ، إلَّا أَنْ يَقْعُدَ بَيْنَ شُعَبِهِنّ ٱلأَرْبَعِ لا يُصِبْنَ مِنْهُ غَيرَهُ ؛ وَخطَبها طَلْحَةُ فَأَجابَتْ ، فتزوَّجها ، فَدخَلَ عَلَيْها عَلِيٌّ ٱبْنُ أَبي طالِبٍ ، فَقالَ لَها : رَدَدْتِ مَنْ رَدَدْتِ مِنّا وَتَزَوَّجْتِ ٱبْنَ بِنْتِ ٱلْحَضْرَمِيِّ ! فقالَتْ : ٱلْقَضاءُ وَٱلْقَدَرُ ؛ فَقالَ : أَما إِنَّكِ تَزَوَّجْتِ أَجْمَلَنا مَرْآةً ، وَأَجْوَدَنا كَفّاً ، وأَكْثَرَنا خَيْراً عَلىٰ أَهْلِهِ .

* * *

٧٧٣ ـ وَخَطَبَ زِيادُ بْنُ أَبيهِ إِلىٰ سَعيدِ بْنِ ٱلْعَاصِ يَخْطُبُ إِلَيْهِ أُمَّ عُثْمانَ بِنْتَ سَعيدٍ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمَالٍ كَثيرٍ ، فَلَمّا قَرَأَ ٱلْكِتَابَ أَمَرَ حاجِبَهُ بِقَبْضِ ٱلْمَالِ وَٱلْهَدَايا ، فَلَمَّا قَبَضَها أَمَرَ بِقَسْمِهَا بَيْنَ جُلَسائِهِ ، فَقَالَ ٱلْحَاجِبُ : إِنَّها أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ : أَنَا أَكْثَرُ مِنْهَا ؛ فَفَعَلَ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلىٰ زِيادٍ : بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ . أَمَّا بَعْدُ ؛ فَـ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [٩٦ سورة العلق/ الآيتان : ٦ و٧] .

أَقُولُ : وَإِنَّما فَعَلَ ذَلِكَ سَعيدٌ لأَنَّ زِياداً يُزَنُّ ـ يُتَّهَمُ ـ بِأَنَّهُ لِزِنْيَةٍ ، وَإِنْ كانَ قَدْ أَصْبَحَ أَميراً ، وَإِنْ كانَ قَدِ ٱسْتَلْحَقَهُ مُعاوِيَةُ .

* * *

٧٧٤ ـ وَخَطَبَ خالِدُ بْنُ صَفْوانٍ ٱمْرَأَةً ، فَقَالَ : أَنا خالِدُ بْن صَفْوانَ ، وَٱلْحَسَبُ عَلىٰ مَا قَدْ عَلِمْتِهِ ، وَكَثْرَةُ ٱلْمَالِ عَلىٰ ما قَدْ بَلَغَكِ ، وَفِيَّ خِصالٌ سَأُبَيِّنُها لَكَ فَتُقْدِمينَ عَلَيَّ أَوْ تَدَعِينَ ؛ قالَتْ : وَما هِيَ ؟ قالَ : إِنَّ ٱلْحُرَّةَ إِذا دَنَتْ مِنِّي أَمَلَّتْنِي ، وَإِذا تَباعَدَتْ عَنِّي أَعَلَّتْنِي ، وَلا سَبيلَ إِلىٰ دِرْهَمِي وَدِيناري ، وَيَأْتِي عَلىٰ ساعَةٌ مِنَ ٱلْحَلالِ لَوْ أَنَّ رَأْسي في يَدِي نَبَذْتُهُ ؛ فَقالَتْ : قَدْ فَهِمْنا مَقالَتَكَ وَوَعَيْنا ما ذَكَرْتَ ، وَفِيكَ بِحَمْدِ ٱللهِ خِصالٌ لا نَرْضاها لِبَناتِ إِبْلِيسَ ، فَٱنْصَرِفْ رَحِمَكَ ٱللهُ .

* * *

٧٧٥ ـ وَقَالَ رَجُلٌ لابْنِ هُبَيْرَةَ : أَنَا ٱبْنُ ٱلَّذِي خَطَبَ إِلىٰ معَاوِيَةَ ؛ فَقَالَ ٱبْنُ هُبَيْرَةَ : أَفزَوَّجَهُ ؟ قَالَ : لا ؛ فَقالَ : ما صَنَعْتَ شَيْئاً .

* * *

٧٧٦ ـ وَقِيلَ لِابْنَةِ ٱلْخُسِّ ـ وَهِيَ هِنْدُ ٱبْنَـةِ ٱلْخُسِّ الإِيَادِيَّةِ ٱلَّتِي ٱشْتَهَرتْ بِفَصَاحَتِهَا ـ : أَلا تَتَزَوَّجِينَ ؟ فَقَالَتْ : بَلى ! لا أُرِيدُهُ أَخَا فُلانٍ وَلا ٱبْنَ فُلانٍ وَلا ٱلظَّرِيفَ [ وَلا ] ٱلْمُتَظَرِّفَ وَلا ٱلسَّمِينَ ٱلأَلْحَمَ(١) ، وَلَكِنْ أُرِيدُهُ كَسُوباً إِذَا غَدَا ، ضَحوكاً إِذَا أَتَىٰ .

* * *

٧٧٧ ـ وَمِنْ طَرِيفِ مَا يَصِحُّ أَنْ نُورِدَهُ في هَذَا ٱلْبَابِ وَنَخْتِمُهُ بِهِ مَا أَوْرَدَهُ ٱلمُبَرِّدُ فِي « ٱلْكَامِلِ » [صفحة : ٥٨٤] قَالَ : وَقَدْ كَانَ ٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ، وَهُوَ وَالِي ٱلْكُوفَةِ لِمُعَاوِيَةَ ، سَارَ إِلَىٰ دَيْرِ هِنْدِ بِنْتِ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ ، وَهِيَ فِيه عَمْياءُ مترَهِّبَةٌ عَلَىٰ دِينِ ٱلنَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَتْ بِنْتَ تِسْعِينَ سَنَةً ، فَٱسْتَأْذَنَ عَلَيْهَا ، فَقِيلَ لَهَا : أَمِيرُ هَذِهِ ٱلْمَدَرَةِ بِٱلْبَابِ ؛ فَقَالَتْ : قُولُوا لَهُ : أَمِنْ وَلَد جَبَلَةَ بْنِ ٱلأَيْهَمِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لا ؛ قَالَتْ : أَفَمِنْ ولَدَ ٱلْمُنْذِرِ بْن مَاءِ ٱلسَّمَاءِ ؟ قَالَ : لا ؛ قَالَتْ : فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : ٱلْمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ٱلثقَفِيُّ ؛ قَالَتْ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : جِئْتُكِ خَاطِباً ؛ قَالَتْ : لَوْ كُنْتَ جِئْتَنِي لِجَمَالٍ أَوْ لِمَالٍ لأَطْلَبْتُكَ ـ أَيْ : أَعْطَيْتكَ مَا تَطْلُبُ ـ وَلَكِنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَتَشرَّفَ بِي فِي مَحَافِلِ ٱلعَرَبِ فتَقولَ : نَكَحْتُ ٱبْنَةَ ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ ، وَإِلَّا فَأَيُ خَيْرٍ فِي ٱجْتِمَاعِ أَعْوَرَ وَعَمْيَاءَ !(٢)

---

(١) ٱلأَلْحَمُ : كَثِيرُ ٱللَّحْمِ .

(٢) هُوَ ٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ٱبْنُ أَبِي عَامِرِ ٱبْنِ مَسْعُودٍ ٱلثَّقَفِيُّ ، شَهِدَ عُمْرَةَ ٱلْحُدَيْبِيَةِ وَبَيْعَةَ ٱلرِّضْوَانِ ، وَكَانَ مِنْ دُهَاةِ ٱلْعَرَبِ ، وَكَانَ ٱلْمُغِيرَةُ أَعْوَرَ .

فَبعَثَ إِلَيْهَا : كَيْفَ كَانَ أَمْرُ كُمْ ؟ فقَالَتْ : سأَخْتَصِرُ لَكَ ٱلْجَوَابَ ، أَمْسَينَا مَساءً وليس في الأَرْضِ عَرَبِيٌّ إِلَّا وهُوَ يَرْغَبُ إِلَيْنَا ويَرْهَبُنَا ، ثُمَّ أَصْبَحْنَا وَلَيْسَ فِي ٱلأَرْضِ عَرَبِيٌّ إِلَّا وَنَحْنُ نَرْغَبُ إِلَيْهِ وَنَرْهَبُهُ ؛ ثُمَّ ٱنْصرَفَ ٱلْمُغِيرَةُ .

* * *

**حَدِيثُ ٱلْبَنَاتِ ٱللَّائِي وَصفْنَ مَا يُحْبِبْنَ مِنَ ٱلأَزْوَاجِ :**

٧٧٨ ـ قَالَتْ عَجُوزٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ لِثَلاثِ بَنَاتٍ لَهَا : صِفْنَ مَا تُحْبِبْنَ مِنَ ٱلأَزْوَاجِ ؛ فقَالَتِ ٱلْكُبْرَىٰ : أُرِيدُ أَرْوَعَ بَسَّاماً ، أحَذَّ مِجْذَاماً ، سَيِّدَ نَادِيهِ ، وَثِمَالَ عَافِيهِ ، وَمُحْسِبَ رَاجِيهِ ، فِنَاؤُهُ رَحْبُ ، وَقِيادُه صَعْبُ ؛ وَقَالَتِ ٱلْوُسْطَىٰ : أُرِيدُ عَالِيَ ٱلسَّنَاءِ ، مُصَمِّمَ ٱلمَضَاءِ ، عَظِيمَ نَارٍ ، مُتَمِّمَ أَيْسَارٍ ، يُفِيدُ وَيُبِيدُ ، وَيُبْدِىءُ وَيُعِيدُ ، هُوَ في ٱلأَهْلِ صَبِيٌّ ، وَفي ٱلْجَيْشِ كَمِيٌّ ، تَسْتَعْبِدُهُ ٱلْحَلِيلَةُ ، وَتُسَوِّدُهُ ٱلفَضِيلَةُ ؛ وَقَالَتِ ٱلصُّغْرَىٰ : أُرِيدُهُ بازِلَ عَامٍ ، كَٱلْمُهَنَّدِ ٱلصَّمْصَامِ ، قِرَانُهُ حُبُورٌ ، وَلِقَاؤُهُ شُرُورٌ ، إِنْ ضَمَّ قَضْقَضَ ، وَإِنْ دَسَرَ أَغْمَضَ ، وَإِنْ أَخَلَّ أَحْمَضَ ؛ قَالَتْ أُمُّهَا : فُضَّ فُوكِ ! لَقَدَ فَرَرْتِ لِي شِرَّةَ ٱلشَّبَابِ جذَعَةً .

الشَّرْحُ : ٱلأَرْوَعُ : ٱلَّذِي يَرْدَعُكَ جَمَالُهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلأَرْوَعُ وَٱلنَّجِيبُ وَاحِدٌ ، وَهُمَا ٱلْكَرِيمُ ؛ وَٱلأَحَذُّ هَاهُنَا : ٱلْخَفِيفُ ٱلسَّرِيعُ ؛ وَٱلْمِجْذَامِ ، مِفْعالٌ مِنَ الجَذْمِ ، وَهُوَ : ٱلقَطْعُ ، تَرِيدُ : إِنَّهُ قَطَّاعٌ لِلأُمُورِ ؛ وَٱلنَّادِي وَٱلنَّدِيُّ : ٱلْمَجْلِسُ ؛ وَالثِّمَالُ : ٱلْغِيَاثُ ، وثِمالُ ٱلْقَوْمِ : غِيَاثُهُمْ وَمَنْ يَقُومُ بِأَمْرِهِمْ ؛ وَعافِيهِ : ٱلَّذِينَ يَعْفُونَهُ ، أَيْ : يَأْتُونَه سَائِلِيهِ ؛ وَمُحْسِبُ : كَافٍ ؛ وَفِنَاؤُهُ رَحْبٌ ، أَيْ : فِنَاءُ دَارِهِ وَاسِعٌ ؛ وَٱلسَّنَاءُ مِنَ ٱلشَّرَفِ مَمْدُودٌ وَمِنَ ٱلضَّوْءِ مَقْصُورٌ ؛ وَٱلْمُصَمِّمُ مِنَ ٱلرِّجَالِ : ٱلَّذِي يَمْضِي في الأُمُورِ لا يَرُدُّ عَزْمَهُ

شَيْءٌ ؛ وَعَظِيمُ نَارٍ ، أَيْ : إِنَّهُ يُوقِدُ ٱلنَّارَ ٱلْعَظِيمَةَ لِتُرْشِدَ ٱلنَّاسَ إِلَىٰ رَحَابِهِ فَيُقْرِيهِمْ ؛ وَمُتَمِّمُ أَيْسَارٍ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الأَيْسارِ[١] سَبْعَةٌ عَلَىٰ عَدَدِ ٱلْقِدَاحِ ، فَيَأْخُذُ كُلُّ رَجُلٍ قِدْحاً ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَٰلِكَ تَوَحَّدُوهَا ، فَإِذَا نَقَصَ عَدَدُهُمْ عَنْ ذَٰلِكَ أَخَذَ ٱلرَّجُلَ ٱلْكَرِيمُ مِنْهُمْ مَا فَضَلَ مِنَ ٱلْقِدَاحَ فَيَكُونُ لَهُ حَظُّ ٱلْفَائِزِ مِنْهَا وَعَلَيْهِ غُرْمُ ٱلْخَائِبِ ، فَكَأَنَّهُ قَدْ تَمَّمَ عَدَدَ الأَيْسَارِ بِذَلِكَ ، وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَعُدُّ ذَلِكَ فَضِيلَةً وَتَتَمَدَّحَ بِهِ ، وَقَالَ ٱبْنُ ٱلأَعْرَابِيِّ : إِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَفُوزُ قِدْحُهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ وَيُطْعِمُ ٱللَّحْمَ سُمِّيَ مُتَمِّماً ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَ مُتَمِّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ ٱلشَّاعِرُ ؛ وَيُبْدِىءُ وَيُعِيدُ : ذُو حِيلَةٍ ، وَفِي ضِدِّهِ يُقَالُ : فُلانٌ مَا يُبْدِىءُ وَمَا يُعِيدُ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حِيلَةٌ ؛ وَكَمِيٌّ : جَرِيءٌ مُقْدِمٌ شُجَاعٌ ؛ وَٱلْحَلِيلَةُ : ٱلزَّوْجَةُ ؛ وَقَوْلُ ٱلصُّغْرَىٰ : أُرِيدُهُ بازِلَ عَامٍ ، تُرِيدُ : تَامَّ ٱلشَّبَابِ ، كَامِلَ ٱلْقُوَّةِ ، لأَنَّ ٱلْبَعِيرِ أَتَمُّ مَا يَكُونُ شَبَاباً وَأَكْمَلُهُ قُوَّة ، إِذَا كَانَ بَازِلَ عَام ؛ وَقَضْقَضَ ، أَيْ : حَطَمَ ، كَمَا يُقَضْقِضُ ٱلأَسَدُ ٱلْفَرِيسَةَ ، وَهُوَ أَنْ يَحْطِمَهَا وَيَنْفُضَهَا فَتَسْمَعَ لِعِظَامِهَا صَوْتاً ، وَٱلأَسَدُ ٱلْقَضْقَاضُ : ٱلْحَطَّامُ ؛ وَدَسَرَ : دَفَعَ ؛ ٱلإِغْمَاضُ : ٱلإِيلاجُ ٱلشَّدِيدُ ؛ وَإِنْ أَخَلَّ أَحْمَضَ : فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسارٍ قَالَ : قُلْت لِابْنِ عُمَرَ : كَيْفَ تَرىٰ فِي التَّحْمِيضِ ؟ قَالَ : وَمَا ٱلتَّحْمِيضُ ؟ قُلْتُ : أَنْ يَأْتِيَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي دُبُرِهَا ؛ قَالَ : أَوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ؟ أَقُولُ : وَٱلْخُلَّةُ فِي الأَصْلِ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلنَّبَاتِ حُلْوٌ ، وَٱلْحَمْضُ : نَبَاتٌ مَالِحٌ ، وَإِذَا شَبِعَتِ ٱلإِبِلُ مِنَ ٱلْخُلَّةِ أَكَلَتِ ٱلْحَمْضَ ، وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ : ٱلْخُلَّةُ خُبْزُ ٱلإِبِلِ وَٱلْحَمْضُ فَاكِهَتُهَا ، وَمِنْ ذَا قَالُوا : تَحَمَّضَ ٱلرَّجُلُ : إِذَا تَحَوَّلَ مِنْ شَيْءٍ إِلىٰ شَيْءٍ ، وَإِذَا أَتَىٰ ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي غَيْرِ مَأْتَاهَا ٱلَّذِي يَكُونُ مَوْضِعَ ٱلْوَلَدِ فَقَدْ حَمَّضَ تَحْمِيضاً ، كَأَنَّهُ تَحَوَّلَ مِنْ

---

(١) الأَيْسَارِ جَمْعُ يَسَرٍ ، وَيُقَالُ : يَاسِرٌ ، وَهُوَ : ٱلَّذِي يَدْخُلُ مَعَ ٱلْقَوْمِ فِي ٱلْقِدَاحِ .

خَيْرِ ٱلْمَكَانَيْنِ إِلَىٰ شَرِّهِمَا ، شَهْوَةً مَعْكُوسةً ، كَفِعْلِ قَوْمِ لُوطٍ ٱلَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ ٱللهُ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، وَيُقَالُ لِلتَّفْخِيذِ في ٱلْجِماعِ : تَحْمِيضٌ ، وَيُقَالُ : قَدْ أَحْمَضَ ٱلْقَوْمُ إِحْمَاضاً : إِذَا أَفَاضُوا فِيمَا يُؤْنِسُهُمْ مِنَ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْكَلامِ ، وَكَانَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِذَا أَفَاضَ مَن عِنْدَهُ في ٱلْحَدِيثِ بَعْدَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلتَّفْسِيرِ : أَحْمِضُوا ! وَذَلِكَ لَمَّا خَافَ عَلَيْهِمُ ٱلمَلَالَ أَحَبَّ أَنْ يُرِيحَهُمْ ، فَأَمَرَهُمْ بِالإِحْمَاضِ بِٱلأَخْذِ في مُلَحِ ٱلْكَلامِ وَٱلْحِكَايَاتِ .

* * *

## ٱمْرَأَتَانِ مِنْ حَكِيمَاتِ ٱلْعَرَبِ تَصِفَانِ ٱلرِّجَالَ وَٱلنِّسَاءَ :

٧٧٩ ـ وَافَتْ جُمْعَةُ بِنْتُ حَابِسٍ وَهِنْدُ ٱبْنَةُ ٱلْخُسِّ[1] سُوقَ عُكَاظٍ ، فَٱجْتَمَعَتَا بَيْنَ يَدَيْ ٱلْقَلَمَّسِ[2] ٱلْكِنَانِيِّ ، فقَالَ لَهُمَا : إِنِّي سَائِلُكُمَا لأَعْلَمَ أَيَّكُمَا أَبْسَطُ لِسَاناً ، وَأَظْهَرُ بَيَاناً ، وَأَحْسَنُ لِلصِّفَةِ إِتْقَاناً ؛ قَالَتَا : سَلْنَا عَمَّا بَدَا لَكَ ، فَسَتَجِدُ عِندَنا عُقُولًا ذَكِيَّةً ، وَأَلْسِنَةً قَوِيَّةً ، وَصِفَةً جَلِيَّةً ؛ ثُمَّ سَأَلَهُمَا عَنْ أَشْيَاءَ نُورِدُ مِنْهَا مَا يَعْنِينَا ، قَالَ : فَأَيُّ ٱلرِّجَالِ أَحَبُّ إِلَيْكِ يَا جُمْعَةُ ؟ قَالَتْ : أُحِبُّ ٱلْحُرَّ ٱلنَّجِيبَ ، ٱلسَّرِيَّ ٱلْقَرِيبَ ، ٱلسَّمْحَ ٱلْحَسِيبَ ، ٱلْفَطِنَ ٱلأَرِيبَ ، ٱلْمِصْقَعَ ٱلْخَطِيبَ ، ٱلشُّجَاعَ ٱلمَهِيبَ ؛ قَالَ ٱلْقَلَمَّسُ : كَيْفَ تَسْمَعِينَ يَا هِنْدُ ؟ قَالَتْ :

---

(١) جُمْعَةُ بِنْتُ حَابِسٍ وَهِنْدُ بِنْتُ ٱلْخُسِّ : حَكِيمَتَانِ يُضْرَبُ بِهِمَا ٱلْمَثَلُ في ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْحِكْمَةِ وَٱلدَّهَاءِ ، قَالَ ٱلْجَاحِظُ في « ٱلْبَيَانِ وَٱلتَّبْيِينِ » : مِنْ أَهْلِ ٱلدَّهَاءِ وَٱلنَّكْرَاءِ ـ ٱلدَّهَاءِ ـ وَمِنْ أَهْلِ ٱللَّسَنِ وَٱللَّقَنِ وَٱلْجَوَابِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلامِ ٱلصَّحِيحِ وَٱلأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ وَٱلْمَخَارِجِ ٱلْعَجِيبَةِ هِنْدُ بِنْتُ ٱلْخُسِّ وَهِيَ ٱلزَّرْقَاءُ ، وَجُمْعَةُ بِنْتُ حَابِسٍ .

(٢) القَلَمَّسُ : [حُذَيفَةُ بْنُ عَبْدٍ] سَيِّدٌ مِنْ سَادَاتِ كِنَانَةَ ، وَحَكِيمٌ مِنْ حُكَمَاءِ ٱلْعَرَبِ ، وَكَاهِنٌ مِنْ كُهَّانِهِمْ ، وَكَانَ يَنْسَأُ ٱلشُّهورَ فَيُحِلُّ حَرَامَهَا وَيُحَرِّمُ حَلالَهَا ، فَأَبْطَلَ ٱللهُ ٱلنَّسِيءَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ ﴾ [٩ سورة التوبة/ الآية : ٣٧]

وَصَفَتْ رَجُلًا سَيِّداً جَواداً ، يَنْهَضُ إِلَىٰ ٱلْخَيْرِ صَاعِداً ، وَيَسُرُّكَ غَائِباً وَشَاهِداً ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ؛ قَالَ : فَقُولِي ! قَالَتْ : أُحِبُّ ٱلرَّحْبَ ٱلذِّرَاعِ ، ٱلطَّوِيلَ ٱلْبَاعِ ، ٱلسَّخِيَّ ٱلنَّفَّاعَ ، ٱلْمَنِيعَ ٱلدَّفَّاعَ ، ٱلدَّهْمَثِيَّ ٱلْمُطَاعَ[1] ، ٱلْبَطَلَ ٱلشُّجَاعَ ، ٱلَّذِي يَحُلُّ بِٱلْيَفَاعِ[2] ، وَيُهِينُ فِي ٱلْحَمْدِ ٱلْمَتَاعَ ؛ قَالَ : كِلْتَاكُمَا مُحْسِنَةٌ ، فَأَيُّ ٱلرِّجَالِ أَبْغَضُ إِلَيْكِ يَا جُمْعَةُ ؟ قَالَتْ : أُبْغِضُ ٱلسَّأَّالَةَ ٱللَّئِيمَ ، ٱلْبَغِيضَ ٱلزَّنِيمَ[3] ، الأَشْوَهَ ٱلدَّمِيمَ ، ٱلظَّاهِرَ ٱلْعُصُومِ[4] ، ٱلضَّعِيفَ ٱلْحَيْزُومِ[5] ؛ قَالَ : كَيْفَ تَسْمَعِينَ يَا هِنْدُ ؟ قَالَتْ : ذَكَرَتْ رَجُلًا خَطَرُهُ صَغِيرٌ[6] ، وَخَطْبُهُ يَسِيرٌ ، وَعَيْبُهُ كَثِيرٌ ، وَأَنْتَ بِبُغْضِهِ جَدِيرٌ ، وَغَيْرُهُ أَبْغَضُ إِلَيَّ . قَالَ : فَقُولِي ! قَالَتْ : أُبْغِضُ ٱلضَّعِيفَ ٱلنُّخَاعَ[7] ، ٱلْقَصِيرَ ٱلْبَاعِ ، ٱلأَحْمَقَ ٱلْمِضْيَاعَ ، ٱلَّذِي لا يُكْرِمُ وَلا يُطَاعُ ؛ قَالَ ٱلْقَلَمَّسُ : كِلْتَاكُمَا مُحْسِنَةٌ ، فَأَيُّ ٱلنِّسَاءِ أَحَبُّ إِلَيْكِ يا جُمْعَةُ ؟ قَالَت : أُحِبُّ ٱلْغَرِيرَةَ ٱلْعَذْرَاءَ[8] ، ٱلرُّعْبُوبَةَ ٱلْعَيْطَاءَ[9] ، ٱلْمَمْكُورَةَ ٱللَّغَّاءَ[10] ، ذَاتَ ٱلْجَمالِ وَٱلْبَهَاءِ ، وَٱلسِّتْرِ وَٱلْحَيَاءِ ، ٱلْبَضَّةَ ٱلرَّخْصَةَ[11] ، كَأَنَّها فِضَّةٌ بَيْضَاءُ ؛ قَالَ : كَيْفَ تَسْمَعِينَ يَا هِنْدُ ؟ قَالَتْ :

---

(١) الدَّهْمَثِيُّ : ٱلْكَرِيمُ .
(٢) ٱلْيَفَاعُ : ٱلْمُرْتَفِعُ مِنَ ٱلأَرْضِ ، وَإِنَّمَا يحل ٱلْكَرِيمُ بِٱلْيَفَاعِ حَتَّىٰ يَرَىٰ ٱلسَّارُونَ نَارَهُ فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ .
(٣) ٱلزَّنِيمُ : ٱلشِّرِّيرُ ، أَوْ ٱلدَّعِيُّ ٱلَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَىٰ ٱلْقَوْمِ وَلَيْسَ مِنْهُمْ .
(٤) ٱلْعُصُومُ : بَقَايَا ٱلْخِضَابِ .
(٥) ٱلْحَيْزُومُ : ٱلصَّدْرُ ، وَضَعْفُهُ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلْحُمْقِ وَضِيقِ ٱلذِّرَاعِ .
(٦) ٱلْخَطَرُ : ٱلْقَدْرُ وَٱلْمَنْزِلَةُ .
(٧) تُرِيدُ بِٱلضَّعِيفِ ٱلنُّخَاعِ : ٱلْعَاجِزَ ٱلَّذِي يَضِيقُ بِٱلْهَمِّ وَلا يُطِيقُهُ .
(٨) ٱلغَرِيرَةُ : ٱلطَّيِّبَةُ ٱلْقَلْبِ ٱلَّتِي لا تَعْرِفُ ٱلشَّرَّ .
(٩) ٱلرُّعْبُوبَةُ : ٱلْفَتَاةُ ٱلْبَيْضَاءُ ٱلْحُلْوَةُ ٱللَّيِّنَةُ ٱلنَّاعِمَةُ ؛ وَٱلْعَيْطَاءُ : ٱلطَّوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ .
(١٠) ٱلْمَمْكُورَةُ : ٱلْمُمْتَلِئَةُ ٱلسَّاقَيْنِ فِي بَيَاضٍ وَلِينٍ ؛ وَٱللَّغَّاءُ : ٱلسَّمِينَةُ ٱلطَّوِيلَةُ .
(١١) ٱلْبَضَّةُ : ٱللَّيِّنَةُ ٱلْجَسَدِ ٱلنَّاعِمَةُ ٱلْجِلْدِ ٱلْمُمْتَلِئَةُ ؛ وَٱلرَّخْصَةُ : ٱللَّيِّنَةُ ٱلنَّاعِمَةُ كَذَلِكَ .

وَصفت جارِيَةٌ ـ فتاةً ـ هِي حاجَةُ ٱلْفتىٰ ، ونُهْيَةُ ٱلرِّضا[١] ، وغيْرُها أَحبُّ إِليَّ ؛ قَالَ : فقُولِي ! قالَتْ : أُحِبُّ كُلَّ مُشْبعَةِ ٱلْخلْخالِ[٢] ، ذاتِ شَكْلٍ ودَلالٍ[٣] ، وظَرْفٍ وبَهاءٍ وجَمالٍ ؛ قالَ ٱلْقلَمَّسُ : كِلْتاكُما مُحْسِنَةٌ ، فَأَيُّ ٱلنَّاسِ أَبْغَضُ إِلَيْكِ يا جُمْعَةُ ؟ قالَتْ : أُبغِضُ كُلَّ سَلْفعٍ بَذِيَّةٍ[٤] ، جاهِلَةٍ غَبِيَّةٍ ، حَرِيصَةٍ دَنِيَّةٍ ، غيرِ كَرِيمَةٍ ولا سَرِيَّةٍ[٥] ، ولا سِتِّيرَةٍ ولا حَيِيَّةٍ ؛ قَالَ : كَيْفَ تَسْمَعِينَ يا هِنْدُ ؟ قالَتْ : وَصفَتِ ٱمْرَأَةً صاحِبُها خَلِيقٌ أَلَّا يَصْلُحَ لَهُ حالٌ ، ولا يَنْعَمَ لَهُ بالٌ ، ولا يُثْمِرَ لَهُ مالٌ ، وغيْرُها أَبْغضُ إِليَّ ؛ قالَ : فَقُولِي ! قالَتْ : أُبْغِضُ ٱلْمُتَجَرِّفَةَ[٦] ٱلشَّوْهاءَ ، ٱلْمَنْفُوخَةَ ٱلْكَبْداءَ[٧] ، ٱلْعِنْفِصَ ٱلْوَقْصاءَ[٨] ، ٱلْحَمِشَةَ ٱلزَّلَّاءَ[٩] ، ٱلَّتي إِنْ وَلَدَتْ لَمْ تُنْجِبْ ، وَإِنْ زُجِرَتْ لَمْ تَعْتَتِبْ ، وَإِنْ تُرِكَتْ طَفِقَتْ تَصْخَبُ ؛ فقَالَ ٱلْقلَمَّسُ : أَحْسَنْتُما وأَجْملْتُما .

* * *

---

(١) نُهْيَةُ ٱلرِّضا : غايَةُ ٱلرِّضا .

(٢) إِشْباعُ ٱلْخلْخالِ : كِنايَةٌ عَنِ ٱمْتِلاءِ ٱلسَّاقِ .

(٣) ٱلشَّكْلُ : ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلْحُمْرَةِ وَٱلْبَياضِ .

(٤) السَّلْفَعُ مِنَ ٱلنِّساءِ : ٱلشَّدِيدَةُ ٱلصَّخَبِ ، ٱلسَّيِّئَةُ ٱلْخُلُقِ .

(٥) السَّرِيَّةُ : ٱلشَّرِيفَةُ .

(٦) ٱلْمُتَجَرِّفَةُ : ٱلشَّدِيدَةُ ٱلْهُزالِ .

(٧) ٱلْمَنْفُوخَةُ : ٱلْمُتَّسِعَةُ ٱلْبَطْنِ ؛ وَٱلْكَبْداءُ : ٱلضَّخْمَةُ ٱلْوَسَطِ ، ٱلْبَطِيئَةُ ٱلْمَشْيِ .

(٨) ٱلْعِنْفِصُ : ٱلْبَذِيئَةُ ، ٱلْقَلِيلَةُ ٱلْحَياءِ ، ٱلْقَلِيلَةُ ٱلْجِسْمِ ، ٱلْكَثِيرَةُ الاخْتِيالِ ؛ وَٱلْوَقْصاءُ : ٱلْقَصِيرَةُ ٱلْعُنُقِ .

(٩) ٱلْحَمِشَةُ : ٱلدَّقِيقَةُ ٱلسَّاقِ ؛ وَٱلزَّلَّاءُ : ٱلدَّقِيقَةُ ٱلْوَرِكَيْنِ .

# الْبَابُ الرّابعُ
# فِتْنَةُ ٱلنِّسَاءِ
# وَحَضُّهُمْ عَلىٰ تَوَقِّيها

٧٨٠ ـ جاءَ في ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلىٰ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلنِّساءِ » [ البخاري ، رقم : ٥٠٩٦ ؛ مسلم ، رقم : ٢٧٤٠ ] .

قَالَ أَئِمَّةُ ٱللُّغَةِ : جِمَاعُ مَعْنىٰ ٱلْفِتْنَةِ : ٱلابْتِلاءُ وَٱلامْتِحَانُ وَٱلاخْتِيَارُ ، وَأَصْلُها مِنْ قَوْلِكَ : فَتَنْتُ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ : إِذَا أَذَبْتَهُمَا بِٱلنَّارِ لِتُمَيِّزَ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْجَيِّدِ ؛ قَالَ ٱبْنُ ٱلأَثِيرِ في « ٱلنِّهايَةِ » : وَقَدْ كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُ ٱلْفِتْنَةِ فيما أَخْرَجَهُ ٱلاخْتِبَارُ لِلْمَكْرُوهِ[١] ، ثُمَّ كَثُرَ حَتّىٰ ٱسْتُعْمِلَ بِمَعْنىٰ الإِثْمِ وَٱلْكُفْرِ ، وَٱلْقِتَالِ ، وَٱلإِحْراقِ ، وَالإِزالَةِ وَٱلصَّرْفِ عَنِ ٱلشَّيْءِ[٢] . أَقُولُ : وَمَعْنىٰ ٱلْحَدِيثِ : أَخَافُ أَنْ يُعْجَبَ ٱلرِّجَالُ بِٱلنِّسَاءِ وَيُغْرَوْا بِهِنَّ فَيَشْتَغِلُوا بِهِنَّ عَنِ ٱلْعَمَلِ ٱلنَّافِعِ ٱلْمُجْدِي في ٱلدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

* * *

٧٨١ ـ وَجاءَ في الأَثَرِ : « إِنَّكُمُ ٱبْتُلِيتُمْ بِفِتْنَةِ ٱلضَّرَّاءِ فَصَبَرْتُمْ ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ فِتْنَةَ ٱلسَّرَّاءِ ، وَإِنَّ مِنْ أَشَدِّ ذَلِكَ عِنْدِي ٱلنِّسَاءَ إِذا تَحَلَّيْنَ ٱلذَّهَبَ ، وَلَبِسْنَ رَيْطَ ٱلشّامِ ، وَعَصْبَ أَيْمَنَ ، فَأَتْعَبْنَ ٱلْغَنِيَّ ، وَكَلَّفْنَ ٱلْفَقِيرَ ما لا يَجِدُ » [ راجع

(١) أَيْ : في ٱلشَّيْءِ يُخْتَبَرُ فَتَكُونُ نَتِيجَةُ هَذا ٱلاخْتِبارِ بَلاءً وَنِقْمَةً ، كَٱلافْتِتَانِ بِٱلنِّساءِ مَثَلًا .
(٢) ٱنْظُرْ « لِسانَ ٱلْعَرَبِ » مادَّةِ فَتَنَ ، فَهُناكَ ما يُنْقِعُ غُلَّتَكَ .

« مجمع الزوائد » ، رقم : ١٧٨٠٢ ؛ و« كنز العمال » ، رقم : ٤٤٤٨٢] .

ٱبتُلِيتُمْ بِفِتْنَةِ ٱلضَّرَّاءِ . . . إِلىٰ آخِرِهِ ، يُرِيدُ : إِنَّكُم ٱخْتُبِرْتُمْ بِٱلفَقْرِ وَٱلشِّدَّةِ وَٱلْعَذابِ فَصَبَرْتُمْ عَلى ذٰلِكَ ، وَإِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخافُهُ عَلَيْكُمْ هُوَ فِتْنَةُ ٱلسَّرَّاءِ ، وَهِيَ ٱلدُّنْيا ٱلْوَاسِعَةُ وَٱلرَّاحَةُ وَٱلنَّعْمَةُ ، وَأَشَدُّ ما أَخافُهُ عَلَيْكُمْ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسَّرَّاءِ هُوَ ٱلنِّساءُ إِذا تَحَلَّيْنَ ٱلذَّهَبَ . . . الخ الخ ، وَٱلرَّيْطُ جَمْعُ رَيْطَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْمُلاءَةُ إِذا كَانَتْ قِطْعَةً وَاحِدَةً وَلَمْ تَكُنْ لِفقَيْنِ ؛ وَٱلْعُصْبُ : بُرْدٌ يُصْبَغُ غَزْلُهُ ثُمَّ يُنْسَجُ .

* * *

٧٨٢ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ أَيْضاً : « ٱتَّقُوا ٱلدُّنْيا ! وَٱتَّقُوا ٱلنِّساءَ ! فَإِنَّ إِبْليسَ طَلَّاعٌ رَصَّادٌ ، وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ مِنْ فُخُوخِهِ بِأَوْثَقَ لِصَيْدِهِ في ٱلأَتْقِياءِ مِنَ ٱلنِّساءِ »

[ « كنز العمال » ، رقم : ٤٤٤٨١] .

طَلَّاعٌ ، يُرِيدُ : هَجَّامٌ ، يُقالُ : طَلَعَ عَلَيْنا فُلانٌ هَجَمَ ؛ وَيُقالُ : رَجُلٌ طَلَّاعُ ٱلثَّنايا : مُجَرِّبٌ لِلأُمُورِ رَكَّابٌ لَها يَعْلُوها وَيَقْهَرُها وَيَهْجُمُ عَلَيْها بِشِدَّةٍ وَغَلَبَةٍ ؛ وَقَوْلُهُ : رَصَّادٌ ، أَيْ : رَقَّابٌ وَثَّابٌ كَمَا يَرْصُدُ ٱلْقُطَّاعُ ٱلْقافِلَةَ فَيَثِبُونَ عَلَيْها ؛ ثُمَّ قَالَ : وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ مِن فُخوخِهِ . . . الخ ، فَالفُخُوخُ جَمْع فَخٍّ : آلَةُ ٱلصَّيْدِ ، وَمِنَ ٱلْمَجَازِ : وَثَبَ فُلانٌ مِنْ فَخِّ إِبْلِيسَ : إِذا تابَ ؛ يَقُولُ صَلَواتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : إِنَّ إِبْلِيسَ ما يَثِقُ في صَيْدِهِ ٱلأَتْقِياءَ بِشَيْءٍ مِنَ آلاتِ ٱلصَّيْدِ وُثُوقَهُ بِٱلنِّساءِ ، أَمَّا كَوْنُهُنَّ مِنْ فُخُوخِ إِبْلِيسَ فَلأَنَّهُ جَعَلَهُنَّ مَصْيَدَةً ، يُزَيِّنُهُنَّ في قُلُوبِ ٱلرِّجالِ وَيُغْرِيهِمْ بِهِنَّ فَيُوْرِطُهُمْ في الزِّنا ، كَصائِدٍ يَنْصِبُ شَبَكَتَهُ لِيَصْطَادَ بِهَا وَيُغْرِي ٱلصَّيْدَ عَلَيْها لِيَقَعَ في حَبائِلِها ؛ وَمِنْ هَذا قَوْلُ بَعْضِ ٱلْحُكَماءِ : ما أَيِسَ ٱلشَّيْطَانُ مِنْ إِنْسانٍ قَطُّ إِلَّا أَتاهُ مِنْ قِبَلِ ٱلنِّساءِ .

* * *

٧٨٣ ـ وَعَنْ بَعْضِهِم : ما أُتِيَتْ أُمَّةٌ قَطُّ إلَّا مِنْ قِبَلِ نِسائِهِمْ . . .

وَهَذِهِ كَلِمَةُ صِدْقٍ يَجْمُلُ ٱلْوُقُوفُ عِنْدَها ، وَٱسْتِيعابُها وَٱلاعْتِبارُ بِها .

* * *

٧٨٤ ـ وَمِمَّا يُرْوىٰ في فِتْنَةِ ٱلنِّساءِ أَنَّ عَابِداً كانَ في بَنِي إِسْرائِيلَ ، [ ٱسْمُهُ : بَرْصِيصا ] وَكانَ مِنْ أَعْبَدِ أَهْلِ زَمانِهِ ، وَكَانَ في زَمانِهِ ثَلاثَةُ إِخْوَةٍ لَهُمْ أُخْتٌ ، وَكانَتْ بِكْراً ، فَخَرَجَ ٱلْبَعْثُ عَلَيْهِمْ ـ أَيْ : جاءَ دَوْرُهُمْ في ٱلتَّجْنِيدِ لِلْحَرْبِ ـ فَلَمْ يَدْرُوا عِنْدَ مَنْ يُخَلِّفُونَ أُخْتَهُمْ ، وَلا مَنْ يَأْمَنُونَ عَلَيْها ، فَأَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلىٰ أَنْ يُخَلِّفُوها عِنْدَ ٱلعابِدِ ، فَأَتَوْهُ وَسَأَلُوهُ أَنْ يُخَلِّفُوها عِنْدَهُ ، فَأَبىٰ ذٰلِكَ ، فَلَمْ يَزالُوا بِهِ حَتّىٰ قالَ : أَنزِلُوها في بَيْتٍ جِوارَ صَوْمَعَتِي ؛ فَأَنْزَلُوها في ذٰلِكَ ٱلْبَيْتِ ، ثُمَّ ٱنْطَلَقوا وَتَرَكُوها . فَمَكَثَتْ في جِوارِ ٱلْعابِدِ زَماناً يُنْزِلُ إِلَيْها ٱلطَّعامَ مِنْ صَوْمَعَتِهِ فَيَضَعُهُ عِنْدَ بابِ ٱلصَّوْمَعَةِ ، ثُمَّ يُغْلِقُ بابَهُ وَيَصْعَدُ صَوْمَعَتَهُ ، ثُمَّ يَأْمُرُها فَتَخْرُجُ مِنْ بَيْتِها ، فتأْخُذُ ما وُضِعَ لَها مِنَ ٱلطَّعامِ ، فَتَلَطَّفَ لَهُ ٱلشَّيْطانُ ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَغِّبُهُ في ٱلْخَيْرِ وَيُعَظِّمُ عِنْدَهُ خُروجَ ٱلْجارِيَةِ مِنْ بَيْتِها نَهاراً ، وَيُخَوِّفُهُ أَنْ يَراها أَحَدٌ فَيَعْلَقَها ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ مَشىٰ بِطَعامِها وَوَضَعَهُ عِنْدَ بابِ بَيْتِها ، وَلا يُكَلِّمُها ، فَلَبِثَ بِذٰلِكَ زَماناً ، ثُمَّ جاءَهُ إِبْليسُ ، فَرَغَّبَهُ في ٱلْخَيْرِ والأجرِ ، وَقالَ لَهُ : لَوْ كُنْتَ تَمْشِي إِلَيْهَا بِطَعَامِهَا حَتَّى تَضَعَهُ فِي بَيْتِها ، كانَ أَعْظَمَ لأَجْرِكَ ؛ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ مَشىٰ إِلَيْها بِطَعامِها ، فَوَضَعه فِي بَيْتِها ، فَلَبِثَ بِذٰلِكَ زَماناً ، ثُمَّ جاءَهُ إِبْليسُ فَرَغَّبَهُ في ٱلْخَيْرِ وَحَضَّهُ عَلَيْهِ ، وَقالَ لَه : لَوْ كُنْتَ تُكَلِّمُها وَتُحَدِّثُها ، فتَأْنَسَ بِحَدِيثِكَ ، فَإِنَّها قَدِ ٱسْتَوْحَشَتْ وَحْشَةً شَدِيدَةً ؛ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ حَدَّثَها زَماناً ، يَطَّلِعُ إِلَيْها مِنْ فَوْقِ صَوْمَعَتِهِ ، ثُمَّ أَتاهُ إِبْليسُ بَعْدَ ذٰلِكَ ، فَقالَ لَهُ : لَوْ كُنْتَ تَنزِلُ إِلَيْهَا فَتَقْعُدَ عَلىٰ بابِ صَوْمَعَتِكَ وَتُحَدِّثَها ، وَتَقْعُدَ عَلىٰ

باب بَيْتِها فَتُحَدِّثَكَ كانَ آنَسَ لَها ؛ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ أَنْزَلَهُ فَأَجْلَسَهُ عَلىٰ بابِ صَوْمَعَتِهِ يُحَدِّثُها ، وَتَخْرُجُ الْجارِيَةُ مِنْ بَيْتِها حَتّىٰ تَقْعُدَ عَلىٰ بابِها ، فَلَبِثا زماناً يَتَحَدَّثانِ ، ثُمَّ جاءَ إِبْليسُ فَرَغَّبَهُ في ٱلْخَيْرِ ، فَقالَ لَهُ : لَوْ خَرَجْتَ مِنْ بابِ صْوَمَعَتِكَ فَجَلَسْتَ قَريباً مِنْ بَيْتِها ، فَحَدَّثْتَها كانَ آنَسَ لَها ؛ فلم يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ فَعَلَ ، فَلَبِثا بِذَلِكَ زَماناً ، ثُمَّ جاءَهُ إِبْليس فَقالَ : لَوْ دَنَوْتَ مِنْ بابِ بَيْتِها ! ثُمَّ قالَ : لَوْ دَخَلْتَ ٱلْبَيْتَ فَحَدَّثْتَها وَلَمْ تَتْرُكْها تُبرِزْ وَجْهَها لأَحَدٍ كانَ أَحْسَنَ ؛ فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ دَخَلَ ٱلْبَيْتَ ، فَجعَلَ يُحَدِّثُها نَهارَهُ كُلَّهُ ، فَإِذا أَمْسىٰ صَعَدَ في صَوْمَعَتِهِ . ثُمَّ أَتاهُ إِبْلِيسُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يُزَيِّنُها لَهُ حَتّىٰ ضَرَبَ ٱلْعابِدُ بِيَدِهِ عَلىٰ فَخِذِها وَقَبَّلَها ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ يُحْسِنُها في عَيْنِهِ وَيُسَوِّلُ لَهُ حَتّىٰ وَقَعَ عَلَيْها ، فَأَحْبَلَها ، فوَلَدَتْ غُلاماً ، فَجاءَ إِبْليسُ ، فَقالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ إِنْ جاءَ إِخْوَتُها وَقَدْ وَلَدَتْ مِنْكَ ، كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ فَٱعْمِدْ إِلىٰ ٱبْنِها فَٱذْبَحْهُ وَٱدْفِنْهُ ، فَإِنَّها ستَكْتُمُ ذَلِكَ عَلَيْكَ مخافَةَ إِخْوَتِها ؛ فقَتَلَهُ . ثُمَّ جاءَهُ فَقالَ : أَتُراها تَكْتُمُ ما صَنَعْتَ بِها ؟ فَخُذْها وَٱذْبَحْها وَٱدْفِنْها مَعَ ٱبْنِها ؛ فَذَبَحَها وَأَلْقاها فِي ٱلْحُفْرَةِ ، فَمَكَثَ ما شاءَ ٱللهُ حَتّىٰ قَفَلَ إِخوَتُها مِنَ ٱلْغَزْوِ . فَجاءُوهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ أُخْتِهِمْ ، فَنَعاها لَهُمْ ، وَتَرَحَّمَ عَلَيْها ، وبَكاها ، وَقالَ : كانَتْ خَيْرَ ٱمْرَأَةٍ ، وَهَذا قَبْرُها ؛ فَأَتىٰ إِخْوَتُها ٱلْقَبْرَ ، فَبَكُوها ، وَتَرَحَّمُوا عَلَيْها ، وَأَقامُوا عَلىٰ قَبْرِها أَيّاماً ، ثُمَّ ٱنْصَرَفوا إِلىٰ أَهالِيهِمْ .

قالَ : فَلَمَّا جَنَّهُمُ ٱللَّيْلُ وَأَخَذُوا مَضاجِعَهُمْ ، أَتاهُمُ ٱلشَّيْطانُ في ٱلنَّوْمِ ، فَبَدَأَ بِأَكْبَرِهِمْ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُخْتِهِمْ ، فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ ٱلْعابِدِ وَبِمَوْتِها ؛ فَكَذَّبَهُ ٱلشَّيْطانُ ، وَقالَ : لَمْ يَصْدُقْكُمْ أَمْرَ أُخْتِكُمْ ، إِنَّهُ أَحْبَلَها وَوَلَدَتْ مِنْهُ غُلاماً ، فَذَبَحَهُ وَذَبَحَها مَعَهُ فَرَقاً مِنْكُمْ ، وَأَلْقاهُما في ٱلْحُفْرَةِ خَلْفَ بابِ ٱلْبَيْتِ . وَأَتىٰ

ٱلأَوْسَطَ فقالَ لَهُ مِثْلَ ذلِكَ . ثُمَّ أَتىٰ أَصْغَرَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ . فَلَمَّا ٱسْتَيْقَظَ ٱلْقَوْمُ ٱسْتَيْقَظُوا مُتَعَجِّبِينَ لِما رآهُ كُلٌّ مِنهُمْ ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ يَقُولُ : لَقَدْ رَأَيْتُ عَجَباً ؛ وَأَخْبَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً بِمَا رَأَىٰ ، فَقَالَ كَبِيرُهُمْ : هَذا حُلْمٌ ، لَيْسَ هَذا بِشَيْءٍ ، فَٱمْضُوا بِنَا ، وَدَعُوا هَذا ؛ فَقَالَ أَصْغَرُهُمْ : لا أَمْضِي حَتَّىٰ آتِيَ هَذا ٱلْمَكَانَ فَأَنْظُرَ فيهِ ؛ فَٱنْطَلَقُوا فَبَحَثُوا ٱلْمَوْضِعَ ، فَوَجَدُوا أُخْتَهُمْ وَٱبْنَهَا مَذْبُوحَيْنِ ، فَسَأَلُوا عَنْها ٱلْعَابِدَ ، فَصَدَّقَ قَوْلَ إِبْلِيسَ فيما صَنَعَ بِهِما ، فَٱسْتَعْدَوْا عَلَيْهِ مَلِكَهُمْ ، فَأُنْزِلَ مِن صَوْمَعَتِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَصْلِبُوهُ ، فَلَمَّا أَوْثَقُوهُ عَلىٰ ٱلْخَشَبَةِ أَتاهُ ٱلشَّيْطانُ ، فَقَالَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي صاحِبُكَ ٱلَّذي فَتَنْتُكَ في ٱلْمَرْأَةِ حَتَّىٰ أَحْبَلْتَها وَذَبَحْتَهَا وَٱبْنَها ، فَإِنْ أَنْتَ أَطَعْتَني ٱلْيَوْمَ وَكَفَرْتَ بِٱلَّذي خَلَقَكَ خَلَّصْتُكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ . فَكَفَرَ ٱلْعابِدُ بِٱللهِ ، فَلَمَّا كَفَرَ خَلّىٰ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَصْحابِهِ ، فَصَلَبُوهُ .

قَالَ وَهْبٌ : فَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ ٱلآيَةُ : ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٥٩ سورة الحشر/ الآيتان : ١٦ و١٧] .

[راجع كُتُبَ التفسير عند الآيتين السابقتين] .

* * *

٧٨٥ ـ وَبَعْدُ ؛ فَلَيْسَ يَجْمُلُ بِـٱلْقَـارِىءِ أَنْ تَقْتَحِـمَ عَيْنُـهُ مِثْـلَ هَـٰذِهِ ٱلإِسْرَائِيلِيَّاتِ ٱزْدِراءً وَقِلَّةَ ٱحْتِفَالٍ ، فَلَيْسَتِ ٱلْعِبْرَةُ بِأَنَّها صِدْقٌ أَوْ غَيْرُ صِدْقٍ ، وَلَكِنَّ ٱلْعِبْرَةَ بِأَنَّهَا مِثَالٌ جَمِيلٌ لِتِلْكَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَكْثُرُ وُقُوعُهَا فِي مِثْلِ هَذَا ٱلْمَوْقِفِ ، مَوْقِفِ ٱلرَّجُلِ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ إِذَا هُوَ خَلا بِهَا وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ رَقِيبٌ ، فَفِي مِثْلِ هَذَا ٱلْمَوْقِفِ يَقُومُ ٱلشَّيْطَانُ بِدَوْرِهِ وَيُمَثِّلُهُ أَدَقَّ تَمْثِيلٍ ، وَصَدَقَ مَا جَاءَ فِي

ٱلأَثَـرِ : « مَـا ٱجْتَمَـعَ رَجُـلٌ وَٱمْـرَأَةٌ وَلَيْـسَ مَعَهَـا مَحْـرَمٌ إِلَّا كَـانَ ٱلشَّيْطَـانُ ثَالِثَهُمَا » . . . أَوْ مَا هَذَا مَعْنَاهُ . [ راجع البخاري ، رقم : ٥٢٣٣ ؛ مسلم ، رقم : ١٣٤١ ] .

* * *

٧٨٦ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْمُهَنَّدِ [من المتقارب] :

وَأَفْجَـرُ مِـنْ رَاهِـبٍ يَـدَّعِـي ... بِـأَنَّ ٱلنِّسَـاءَ عَلَيْـهِ حَـرَامْ

يُحَـرِّمُ بَيْضَـاءَ مَمْكُـورَةً ... وَيُغْنِيـهِ فـي ٱلْبَضْـعِ عَنْهَـا ٱلْغُـلامْ(١)

إِذَا مَـا مَشَـىٰ غَـضَّ مِـنْ طَـرْفِـهِ ... وَفِـي ٱللَّيْـلِ بِـٱلـدَّيْـرِ مِنْـهُ عُـرَامْ(٢)

وَدَيْـرُ ٱلْعَـذَارَىٰ فُضُـوحٌ لَـهُ ... وَعِنْـدَ ٱللُّصُـوصِ حَـدِيـثُ ٱلأَنَـامْ(٣)

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : هَؤُلاءِ لُصُوصٌ نَزَلُوا دَيْرَ ٱلْعَذَارَىٰ لَيْلًا ، فَأَخَذُوا ٱلْقَسَّ فَشَدُّوهُ وَثَاقاً ، ثُمَّ أَخَذَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ جَارِيَةً ـ فَتَاةً ـ فَوَجَدُوهُنَّ مُفْتَضَّاتٍ قَدِ ٱفْتَضَّهُنَّ ٱلقَسُّ كُلَّهُنَّ .

٧٨٧ ـ وَقَدْ قَرَأْتُ فِي « ٱلْحَيَوَانِ » [ ١/ ١٢٥ ] لِلْجَاحِظِ حَدِيثاً بَدِيعاً عَزَاهُ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلصَّابِئِينَ يُسَمَّىٰ : أَبَا ٱلْمُبَارَكِ ٱلصَّابِيءَ ، نُورِدُهُ هُنَا لِتَعْلَمَ مِقْدَارَ فِتْنَةِ ٱلنِّسَاءِ وَمَحَلَّهُنَّ مِنْ قُلُوبِ ٱلرِّجَالِ ، وَكَانَ أَبُو ٱلْمُبَارَكِ هَذَا قَدْ خَصَىٰ نَفْسَهُ ، وَكَانَ قَدْ أَرْبَىٰ عَلَىٰ المِئَةِ ، وَكَانَ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ يَبْعَثُونَ إِلَيْهِ وَيَسْمَعُونَ مِنْهُ ، وَيَسْمُرُ عِنْدَهُمْ ، لِلَّذِي يَجِدُونَهُ عِنْدَهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ وَالإِفْهَامِ ، وَطُرَفِ ٱلأَخْبَارِ ؛

---

(١) ٱلْمَمْكُورَةُ : ٱلْمَطْوِيَّةُ ٱلْخَلْقِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلْمُسْتَدِيرَةُ ٱلسَّاقَيْنِ .

(٢) عُرَامٌ : شَرَاسَةٌ .

(٣) دَيْرُ ٱلْعَذَارَىٰ : دَيْرٌ قَدِيمٌ بِقُرْبِ سُرَّ مَنْ رَأَىٰ ، كَانَ بِهِ نِسَاءٌ عَذَارَىٰ مُتَرَهِّبَاتٌ . ٱنْظُرْ « مَسَالِكَ ٱلأَبْصَارِ فِي مَمَالِكِ ٱلأَمْصَارِ » لِابْنِ فَضْلِ ٱللهِ ٱلْعُمَرِيِّ وَ« مُعْجَمَ البُلْدَانِ » لِيَاقُوتَ .

قَالَ ٱلْجَاحِظُ [« الحيوان » ١/١٢٦] : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ ٱبْنُ عَبَّادٍ ، قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : وَجَرَىٰ ذِكْرُ ٱلنِّسَاءِ وَمَحَلِّهِنَّ مِنْ قُلُوبِ ٱلرِّجَالِ ، حَتَّىٰ زَعَمُوا أَنَّ ٱلرَّجُلَ كُلَّمَا كَانَ عَلَيْهِنَّ أَحْرَصَ كَانَ ذَلِكَ أَدَلَّ عَلَىٰ تَمَامِ ٱلْفُحُولَةِ فِيهِ ، وَكَانَ أَذْهَبَ لَهُ فِي ٱلنَّاحِيَةِ ٱلَّتِي هِيَ فِي خِلْقَتِهِ وَمَعْنَاهُ وَطَبْعِهِ ، إِذْ كَانَ قَدْ جُعِلَ رَجُلًا وَلَمْ يُجْعَلِ ٱمْرَأَةً . قَالَ ٱبْنُ عَبَّادٍ : فَقَالَ لَنَا : أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي قَدْ أَرْبَيْتَ عَلَىٰ المِئَةِ ، فَيَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ وَهْنُ ٱلْكِبَرِ وَنَفَاذُ ٱلذِّكْرِ[1] ، وَمَوْتِ ٱلشَّهْوَةِ ، وَٱنْقِطَاعُ يُنْبُوعِ ٱلنُّطْفَةِ ؛ قَدْ أَمَاتَ حَنِينَهُ إِلَىٰ ٱلنِّسَاءِ وَتَفْكِيرَهُ فِي ٱلْغَزَلِ . قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَنْ عَوَّدَ نَفْسه تَرْكَهُنَّ مُدَداً ، وَتَخَلَّىٰ عَنْهُنَّ سِنِينَ وَدَهْراً ؛ أَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَةُ ، وَتَمْرِينُ ٱلطَّبِيعَةِ ، وَتَوْطِينُ ٱلنَّفْسِ ؛ قَدْ حَطَّ مِنْ ثِقَلِ مُنَازَعَةِ ٱلشَّهْوَةِ ، وَدَوَاعِي ٱلْبَاءَةِ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ ٱلْعَادَةَ (ٱلَّتِي) هِيَ ٱلطَّبِيعَةُ ٱلثَّانِيَةُ ، قَدْ تَسْتَحْكِمُ بِبَعْضِ عمدِ هَجْرٍ لِمُلَامَسَةِ ٱلنِّسَاءِ . قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ ٱلْخُلْوَةِ بِهِنَّ وَلَمْ يُجَالِسْهُنَّ مُتَبَذِّلَاتٍ ، وَلَمْ يَسْمَعْ حَدِيثَهُنَّ وَخَلَابَتَهُنَّ لِلْقُلُوبِ ، وَٱسْتِحَالَتَهُنَّ لِلأَهْوَاءِ ، وَلَمْ يَرَهُنَّ مُنْكَشِفَاتٍ عَارِيَاتٍ ، إِذَا تَقَدَّمَ لَهُ ذَلِكَ مَعَ طُولِ ٱلتَّرْكِ ، أَلَّا يَكُونُ بَقِي مَعَهُ مِنْ دَوَاعِيهِنَّ شَيْءٌ . قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لِمَنْ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مَجْبُوبٌ ، وَأَنَّ سَبَبَهُ إِلَىٰ خِلَاطِهِنَّ مَحْسُومٌ ، أَنْ يَكُونَ ٱلْيَأْسُ مِنْ أَمْتَنِ أَسْبَابِهِ إِلَىٰ ٱلزُّهْدِ وَٱلسَّلْوَةِ ، وَإِلَىٰ مَوْتِ ٱلْخَوَاطِرِ . قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَنْ دَعَاهُ ٱلزُّهْدُ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَفِيمَا يَحْتَوِيهِ ٱلنِّسَاءُ مَعَ جَمَالِهِنَّ وَفِتْنَةِ ٱلنُّسَّاكِ بِهِنَّ ، وَٱتِّخَاذِ ٱلأَنْبِيَاءِ لَهُنَّ ، إِلَىٰ أَنْ خَصَّ نَفْسَه ، وَلَمْ يُكْرِهْهُ عَلَيْهِ أَبٌ وَلَا عَدُوٌّ ، وَلَا سَبَاهُ سَابٍ ؛ أَنْ يَكُونَ مِقْدَارُ ذَلِكَ ٱلزُّهْدِ هُوَ

---

(١) ٱلذِّكْرِ هُنَا بِمَعْنَىٰ ٱلتَّذْكَارِ .

ٱلْمِقْدَارَ ٱلَّذِي يُمِيتُ الذِّكْرَ لَهُنَّ ، وَيُسَرِّي عَنْهُ أَلَمَ فَقْدِ وُجُودِهِنَّ ، وَيَنْبَغِي لِمَنْ كَانَ في إِمْكَانِهِ أَنْ يُنْشِيءَ ٱلْعَزْمَ ، وَيَخْتَارَ ٱلإِرَادَةَ ٱلَّتِي يَصِيرُ بِهَا إِلَىٰ قَطْعِ ذَلِكَ ٱلْعُضْوِ ٱلْجَامِعِ لِكِبَارِ ٱللَّذَّاتِ ، وَإِلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ ٱلأَلَمِ ، وَمَعَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَطَرِ ، وَإِلَىٰ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْمُثْلَةِ وَٱلنَّقْصِ ٱلدَّاخِلِ عَلَىٰ ٱلْخِلْقَةِ ؛ أَنْ تَكُونَ ٱلْوَسَاوِسُ في هَذَا ٱلْبَابِ لا تَعْرُوهُ ، وَٱلدَّوَاعِي لا تَقْرُوهُ . قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : وَيَنْبَغِي لِمَنْ سَخَتْ نَفْسُهُ عَنِ ٱلسَّكَنِ ، وَعَنِ ٱلْوَلَدِ ، وَعَنْ أَنْ يَكُونَ مَذْكُوراً بِٱلْعَقِبِ ٱلصَّالِحِ ، أَنْ يَكُونَ قَدْ نَسِيَ هَذَا ٱلْبَابَ إِنْ كَانَ قَدْ مَرَّ مِنْهُ عَلَىٰ ذِكْرِ هَذَا ؛ وَأَنْتُمْ تَعْلَمونَ أَنِّي سَمَلْتُ عَيْنِي يَوْمَ خَصَيْتُ نَفْسِي ، فَقَدْ نَسِيتُ كَيْفِيَّةَ ٱلصُّوَرِ وَكَيْفَ تَرُوعُ ، وَجَهِلْتُ ٱلْمُرَادَ مِنْهَا ، وَكَيْفَ تُرَادُ ، أَفَمَا كَانَ [مِنْهُ كَانَ كَذَلِكَ] حَرِيًّا أَنْ تَكُونَ نَفْسُهُ سَاهِيَةً لاهِيَةً مَشْغُولَةً بِٱلْبَابِ ٱلَّذِي ٱحْتَمَلَ لَهُ هَذِهِ ٱلْمَكَارِهِ . قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : أَوَلَوْ لَمْ أَكُنْ هَرِماً ، وَلَمْ يَكُنْ هَاهُنَا طُولُ ٱجْتِنَابٍ ، وَكَانَتِ ٱلآلَةُ قَائِمَةً ؛ أَلَيْسَ في أَنِّي لَمْ أَذُقْ حَيَواناً مُنْذُ ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَلَمْ تَمْتَلِئْ عُرُوقِي مِنَ ٱلشَّرَابِ مَخَافَةَ ٱلزِّيَادَةِ في ٱلشَّهْوَةِ ، وَٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلْعَزْمِ ؛ أَلَيْسَ في ذَلِكَ مَا يَقْطَعُ ٱلدَّوَاعِي ، وَيُسْكِنُ ٱلْحَرَكَةَ إِنْ هَاجَتْ ؟ قَالَ : قُلْنَا : صَدَقْتَ . قَالَ : فَإِنِّي بَعْدَ جَمِيعِ مَا وَصَفْتُ لَكُمْ ، لأَسْمَعُ نَغْمَةَ ٱلْمَرْأَةِ فَأَظُنُّ مرَّةً أَنَّ كَبِدِي قَدْ ذَابَتْ ، وَأَظُنُّ مرةً أَنَّهَا قَدِ ٱنْصَدَعَتْ ، وَأَظُنُّ مَرَّةً أَنَّ عَقْلِي قَدِ ٱخْتُلِسَ ، وَرُبَّمَا ٱضْطَرَبَ فُؤَادِي عِنْدَ ضَحِكِ إِحْدَاهُنَّ حَتَّىٰ أَظُنَّ أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ مِنْ فَمِي ، فَكَيْفَ أَلُومَ عَلَيْهِنَّ غَيْرِي !؟

قَالَ ٱلْجَاحِظُ : فَإِنْ كَانَ ـ حَفِظَكَ ٱللهُ تَعَالَىٰ ـ قَدْ صَدَقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ في تِلْكَ ٱلْحَالِ ، بَعْدَ أَنِ ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ ٱلْخِصَالُ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهَذَا قَبْلَ هَذَا ٱلْوَقْتِ بِنَحْوِ سِتِّينَ سَنَةً أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً !؟ وَمَا ظَنُّكَ بِهِ قَبْلَ ٱلْخِصَاءِ بِسَاعَةٍ !؟ وَلَيْسَ في ٱلاسْتِطَاعَةِ وَلا في صِفَةِ ٱلإِمْكَانِ ، أَنْ يُحْتَجَزَ عَنْ إِرَادَةِ ٱلنِّسَاءِ ، وَمَعَهُ مِنَ

ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِنَّ وَٱلشَّهْوَةِ لَهُنَّ هَذَا ٱلْمِقْدَارُ ! ٱللهُ تَعَالَىٰ أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ ، وَأَعْدَلُ عَلَىٰ عِبَادِهِ ، مِنْ أَنْ يُكَلِّفَهُمْ هِجْرَانَ شَيْءٍ قَدْ وَصَلَهُ بِقُلُوبِهِمْ هَذَا ٱلْوَصْلَ وَأَكَّدَهُ هَذَا ٱلتَّأْكِيدَ .

* * *

٧٨٨ ـ وَفِي ٱلأَثَرِ : « إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ تُقبلُ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ ٱمْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَعْمَدْ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ » [مسلم ، رقم : ١٤٠٣] . قَوْلُهُ : « إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ تُقْبِلُ وَتُدْبِرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ » ، إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهَا تَدْعُو إِلَىٰ ٱلْهَوَىٰ وَٱلْفِتْنَةِ بِجَمَالِهَا وَمَا رُكِّبَ فِي طِبَاعِ ٱلرَّجُلِ مِنَ ٱلْمَيْلِ إِلَيْهَا ، كَمَا يَدْعُو ٱلشَّيْطَانُ بِوَسْوَسَتِهِ وَإِغْوَائِهِ لِذَلِكَ ؛ وَقَوْلُهُ : « فَإِذَا أَبْصَرَ أَحَدُكُمُ ٱمْرَأَةً . . . الخ » تَنْبِيهٌ إِلَىٰ دَوَاءِ ٱلدَّاءِ ٱلْمُحَرِّكِ لِلشَّهْوَةِ ، بِإِطْفَائِهِ بِٱلْمُوَاقَعَةِ وَتَسْكِينِ ٱلنَّفْسِ بِإِرَاقَةِ مَا تَحَرَّكَ مِنَ ٱلْمَاءِ .

* * *

٧٨٩ ـ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : صَحِبْتُ ٱلْحَسَنَ ٱلْبَصْرِيَّ ثَلاثِينَ سَنَةً ، مَا سَمِعْتُهُ قَطُّ خَاضَ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَخُوضُ فِيهِ ٱلنَّاسُ مِنَ أَمْرِ ٱلدُّنْيَا ، إِنَّمَا كَانَ أَكْثَرَ ذِكْرِهِ ٱلْمَوْتُ ، حَتَّىٰ أَتَتْهُ ٱمْرَأَةٌ يَوْماً نَاهِيكَ مِنِ ٱمْرَأَةٍ شَبَاباً وَجَمَالاً وَشَحْماً وَلَحْماً ، يَدْفَعُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، فَجَلَسَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَتْ : يَا شَيْخُ ! أَيَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يَتَزَوَّجَ عَلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ وَهِيَ شَابَّةٌ جَمِيلَةٌ وَلُودٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَحَلَّ ٱللهُ لَهُ أَرْبَعاً ؛ قَالَ : فَكَشَفَتْ عَنْ وَجْهٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهُ حُسْناً ، وَقَالَتْ : أَوَ عَلَىٰ مِثْلِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : سُبْحَانَ ٱللهِ ٱلْعَظِيمِ ! بِعَيْشِكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ لا تُفْتِ الرِّجَالَ بِهَذَا ؛ ثُمَّ قَامَتْ مُنْصَرِفَةً ، وَأَتْبَعَهَا ٱلْحَسَنُ بَصَرَهُ ، قَالَ : مَا ضَرَّ ٱمْرَأً كَانَتْ هَذِهِ عِنْدَهُ مَا فَاتَهُ مِنْ دُنْيَاهُ . . .

* * *

٧٩٠ ـ وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : وَكُلُّكُمْ حَصَانٌ مَا لَمْ يُرَاوَدْ .

حَصَانٌ : عَفِيفٌ ؛ وَمَا لَمْ يُرَاوَدْ : مَا لَمْ تَتَعَرَّضْ لَهُ ٱلنِّسَاءُ .

❊ ❊ ❊

٧٩١ ـ وَعَتِبَتِ ٱلأَسْوَدَ ٱلْخَاقَانِيَّ ٱمْرَأَتُهُ عَلَىٰ هَوَىٰ لَهُ ، فَقَالَ [من الخفيف] :

وَيْـكِ إِنَّ المَـلَامِ يُغْـرِي ٱلْمَلُـومَـا لَيْـسَ جُرْمِـي كَمَـا زَعَمْـتِ عَظِيمَـا

إِنْ أَكُـنْ عَـاشِقـاً فَلَـمْ آتِ إِلَّا مَـا أَتَتْـهُ ٱلـرِّجَـالُ قَبْلِـي قَـدِيمَـا

إِنَّمَـا يَكْثُـرُ ٱلتَّعَجُّـبُ مِمَّـنْ كَـانَ مِـنْ فِتْنَـةِ ٱلنِّسَـاءِ سَلِيمَـا

[ سيرد برقم : ٩٨٩ ] .

❊ ❊ ❊

٧٩٢ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَقِيتُ ٱمْرَأَةً مِنْ قَوْمِي بِمَكَّةَ ، فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُهَا ، وَعَبدُ ٱللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ يُصَلِّي ، فَسَمِعَنِي أَقُولُ لَهَا : يَا فُلانَةُ ! ٱسْتَوْحَشَ لِفِرَاقِكِ ٱلْقَلْبُ ، وَجَاوَرَنِي مَنْ لا أَهْوَىٰ ، فَكُنْتُ كَمَا قَالَ ٱلأَوَّلُ [من الطويل] :

أَيَبْعُـدُ مَـنْ أَهْـوَىٰ وَيُسْعِفُنَـا ٱلنَّـوَىٰ بِمَـنْ لا يُبَـالِـي أَنْ يُفَـارِقَـهُ أَهْلِـي

فَأَقْبَلَ عَلَيَّ ٱبْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَالَ : مَنْ هَذِهِ مِنْكَ ؟ قُلْتُ : مِنَ ٱلْعَشِيرَةِ وَبَنَاتِ ٱلْعَمِّ ؛ فَقَالَ : قُمْ وَإِلَّا وَقَعْتُمَا فِي فِتْنَةٍ ، « إِنَّ ٱلنِّسَاءَ حَبَائِلُ ٱلشَّيْطَانِ » [« كنز العمال » ، رقم : ٤٣٥٨٧] ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلُوَ بِٱمْرَأَةٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَحْرَماً .

حَبَائِلُ ٱلشَّيْطَانِ : مَصَايِدُهُ ، وَاحِدُهَا حِبَالَةٌ ـ بِكَسْرِ ٱلْحَاءِ ـ وَهُوَ : مَا يُصَادُ بِهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ ؛ وَٱلْمَحْرَمُ : ذَاتُ ٱلرَّحِمِ فِي ٱلْقَرَابَةِ ، أَيْ : لا يَحِلُّ تَزْوِيجُهَا .

❊ ❊ ❊

٧٩٣ ـ وَقَالَ حَكِيمٌ : أَضَرُّ ٱلأَشْيَاءِ بِٱلمَالِ وَٱلنَّفْسِ وَٱلدِّينِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْعِرْضِ شِدَّةُ ٱلإِغْرَامِ بِٱلنِّسَاءِ ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُبْتَلَىٰ بِهِ ٱلْمُغْرَمُ بِهِنَّ أَنَّهُ لا يَقْتَصِرُ عَلَىٰ مَا عِنْدَهُ مِنْهُنَّ ، وَلَوْ كُنَّ أَلْفاً ، وَيَطْمَحُ إِلَىٰ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْهُنَّ .

* * *

٧٩٤ ـ وَقَالَ أَبُو فِرَاسٍ ٱلْحَمْدَانِيُّ [من الطويل] :

لَقَدْ ضَلَّ مَنْ تَحْوِي هَوَاهُ خَرِيدَةٌ ... وَقَدْ ذَلَّ مَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ كَعَابُ

[« ديوان أبي فراس » صفحة : ٢٤] .

* * *

٧٩٥ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الوافر] :

وَمَنْ خَبَرَ ٱلْغَوَانِي فَٱلْغَوَانِي ... ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلامُ

[« ديوان أبي الطيب » صفحة : ١٠١] .

يَعْنِي ٱلْمُتَنَبِّيُّ : إِنَّهُنَّ يُتْعِبْنَ مَنْ يَصْبُو إِلَيْهِنَّ وَيَعْلَقُ قَلْبُهُ بِحُبِّهِنَّ .

* * *

٧٩٦ ـ وَمِمّا يَصِحُّ إِيرَادُهُ هُنَا ، وَإِنْ كَانَ سَيَأْتِي أَشْبَاهُهُ في مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ ، قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من الكامل] :

لايَأْمَنَنَّ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ أَخٌ أَخاً ... مَا فِي ٱلرِّجَالِ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ أَمِينُ

[« ديوان الإمام علي ابن أبي طالب » صفحة : ١٢١] .

٧٩٧ ـ وَقَوْلُ ٱلْمَعَرِّيّ [من الوافر] :

إِذَا بَلَغَ ٱلْوَلِيدُ لَدَيْكَ عَشْراً فَلا يَدْخُلْ عَلَىٰ ٱلْحُرُمِ ٱلْوَلِيدُ
فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَأَضَعْتَ نُصْحِي فَأَنْتَ ـ وَإِنْ رُزِقْتَ حِجاً ـ بَلِيدُ
أَلَا إِنَّ ٱلنِّسَاءَ حِبَالُ غَيٍّ بِهِنَّ يُضَيَّعُ ٱلشَّرَفُ ٱلتَّلِيدُ

[« اللزوميات » صفحة : ٢٣٧] .

٧٩٨ ـ وَقَوْلُ ٱلأَخْطَلِ [من الكامل] :

ٱلْمُهْدِيَاتُ لِمَنْ هَوِينَ مَسَبَّةً وَٱلْمُحْسِنَاتُ لِمَنْ قَلَيْنَ مَقَالَا
وَإِذَا وَعَدْنَكَ نَائِلًا أَخْلَفْنَهُ ووجَدتَ دون عِدَاتِهِنَّ مِطالَا
وَإِذَا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فَإِنَّهُ نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالَا
وَإِذَا دَعَوْنَكَ بِأُخَيَّ فَإِنَّهُ أَدْنَىٰ وَأَقْرَبُ خُلَّةً وَوِصَالَا

[« ديوان الأخطل » صفحة : ٢٤٦] .

٧٩٩ ـ وَقَدْ نَظَرَ ٱلطَّبِيبُ ٱلشَّاعِرُ ٱلأَنْدَلُسِيُّ أَبُو بَكْرٍ ٱبْنُ زَهْرٍ إِلَىٰ أَبْيَاتِ ٱلأَخْطَلِ في أَبْيَاتِهِ ٱلطَّرِيفَةِ ٱلَّتِي قَالَهَا حِينَ شَاخَ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ ٱلشَّيْبُ [من البسيط] :

إِنِّي نظَرْتُ إِلَىٰ ٱلْمِرْآةِ قَدْ جُلِيَتْ فَأَنْكَرَتْ مُقْلَتَايَ كُلَّ مَا رَأَتَا
رَأَيْتُ فِيهَا شُوَيْخاً لَسْتُ أَعْرِفُهُ وَكُنْتُ أَعْهَدُهُ مِنْ قَبْلُ ذَاكَ فَتَىٰ
فَقُلْتُ أَيْنَ ٱلَّذِي بِالأَمْسِ كَانَ هُنَا مَتَىٰ تَرَحَّلَ عَنْ هَذَا ٱلْمَكَانِ مَتَىٰ
فَٱسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ مُعْجَبَةٌ إِنَّ ٱلَّذِي أَنْكَرَتْهُ مُقْلَتَاكَ أَتَىٰ
كَانَتْ سُلَيْمَىٰ تُنَادِي يَا أُخَيَّ وَقَدْ صَارَتْ سُلَيْمَىٰ تُنَادِي ٱلْيَوْمَ يَا أَبَتَا

* * *

٨٠٠ ـ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ :

وَمَـنْ يُطِـعِ ٱلنِّسَـاءَ يُـلاقِ مِنْهَـا إِذَا أَغْمَـزْنَ فِيـهِ ٱلأَقْـوَرِينَـا

يُقَالُ : أَغْمَزَ فِي ٱلرَّجُلِ إِغْمازاً : ٱسْتَضْعَفَهُ وَعَابَهُ وَصَغَّرَ شَأْنَهُ ؛ وَٱلأَقْوَرِين : ٱلدَّوَاهِي ؛ يَقُولُ : مَن يُطِعِ ٱلنِّسَاءَ إِذَا عِبْنَهُ وَزَهِدْنَ فِيهِ يُلاقِ ٱلدَّوَاهِي ٱلَّتِي لا طَاقَةَ لَهُ بِهَا .

* * *

٨٠١ ـ وَنُورِدُ هُنَا لِمُنَاسَبَةِ طَاعَةِ ٱلنِّسَاء وَصِيَّةَ ٱلأَعْرَابِيَّةِ ٱلَّتِي أَوْصَتِ ٱبْنَتَهَا عِنْدَ إِهْدَائِهَا ـ زَفَافِهَا ـ بِمَا يَأْتِي : ٱقْلَعِي زُجَّ رُمْحِهِ ، فَإِنْ أَقَرَّ فَٱقْلَعِي سِنَانَهُ (سِنَانَ رُمْحِهِ) ، فَإِنْ أَقَرَّ فَٱكْسِرِي ٱلْعِظَامَ بِسَيْفِه ، فَإِنْ أَقَرَّ فَٱقْطَعِي ٱللَّحْمَ عَلَىٰ تُرْسِهِ ، فَإِنْ أَقَرَّ فَضَعِي ٱلإِكَافَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ فَإِنَّهُ حِمَارٌ . وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا [ رقم : ٦٦١ ] .

* * *

٨٠٢ ـ وَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِٱمْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » [البخاري ، رقم : ٥٢٣٣ ؛ مسلم رقم : ١٣٤١] .

ذُو ٱلْمَحْرَمِ : مَن لا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا مِنَ ٱلأَقَارِبِ ، كَالأَبِ وَٱلابْنِ وَالعَمِّ ، ومَن يَجْرِي مَجْرَاهُمْ .

* * *

٨٠٣ ـ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : « لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِٱمْرَأَةٍ ، فَأَيُّما رَجُلٌ خَلَا بِٱمْرَأَةٍ كَانَ ٱلشَّيْطَانُ ثَالِثَهُمَا » [الترمذي ، رقم : ١١٧١ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١١٥] .

* * *

٨٠٤ ـ وَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَٱلدُّخُولَ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! أَفَرَأَيْتَ ٱلْحَمْوَ ؟ قال : « ٱلْحَمْوُ المَوْتُ »

[البخاري ، رقم : ٥٢٣٢ ؛ مسلم ، رقم : ٢١٧٢] .

وَحَمْوُ ٱلْمَرْأَةِ وَحَمُوهَا : أَبُو زَوْجِهَا وَأَخُو زَوْجِهَا ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ قِبَلِهِ ؛ قَالَ ٱبْنُ ٱلأَعْرَابِيِّ : قَوْلُهُمْ : « ٱلْحَمْوُ ٱلْمَوْتُ » : كَلِمَةٌ تَقُولُهَا ٱلْعَرَبُ ، كَمَا تَقُولُ : « ٱلأَسَدُ ٱلْمَوْتُ » أَيْ : لِقَاؤُهُ مِثْلُ المَوْتِ ، وَكَما تَقُولُ : « ٱلسُّلْطَانُ نَارٌ » ، [ وَٱلْمَعْنَىٰ : ٱحْذَرُوهُ كَمَا تَحْذَرُونَ ٱلْمَوْتَ . « فتح الباري » ] فَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ : « ٱلْحَمُ ٱلْمَوْتُ » أَنَّ خَلْوَةَ ٱلْحَمِ مَعَها أَشَدُّ مِنْ خَلْوَةِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلْغُرَبَاءِ ، لأَنَّهُ رُبَّمَا حَسَّنَ لَهَا أَشْيَاءَ وَحَمَلَهَا عَلَىٰ أُمُورٍ تَثْقُلُ عَلَىٰ ٱلزَّوْجِ ، مِنِ ٱلتِمَاسِ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِهِ أَوْ سُوءِ عُشْرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، وَلأَنَّ ٱلزَّوْجَ لا يُؤْثِرُ أَنْ يَطَّلِعَ ٱلْحَمُ عَلَىٰ بَاطِنِ حَالِهِ بِدُخُولِ بَيْتِهِ . [ « النهاية » لابن الأثير ] . قَالَ الإِمَامُ ٱلأَزْهَرِيُّ [ « لسان العرب » مادة : حما ] : كَأَنَّه ذَهَبَ إِلَىٰ أَنَّ ٱلفَسَادَ ٱلَّذِي يَجْرِي بَيْنَ ٱلْمَرْأَةِ وَأَحْمَائِها أَشَدُّ مِنْ فَسَادٍ يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ٱلْغَرِيبِ ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا كَٱلمَوْتِ .

وَعِبَارَةُ ٱلْمُنَاوِي فِي شَرْحِ ٱلْحَدِيثِ [ « فيض القدير » ، رقم : ٢٩٠٥ ] : أَي : إِنَّ دُخُولَ ٱلْحَمو عَلَىٰ زَوْجَةِ أَخِيه يُشْبِهُ ٱلمَوْتَ في ٱلاسْتِقْبَاحِ وَٱلْمَفْسَدَةِ ، [ فَهُوَ مُحَرَّمٌ شدِيدُ ٱلتَّحْرِيم ] ، وَإِنَّمَا بَالَغَ فِي ٱلزَّجْرِ لِتَسَامُحِ ٱلنَّاسِ فِي ذَلِكَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ غَيْرُ أَجْنَبِيٍّ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ، وَخَرَجَ هَذَا مَخْرَجُ قَوْلِهِمْ : ٱلأَسَدُ ٱلمَوْتُ ، أَي : لِقَاؤُه يُفْضِي إِلَيْهِ ، وَكَذَا دُخُولُ ٱلْحَمْوِ عَلَيْهَا ، يُفْضِي إِلَىٰ موتِ ٱلدِّينِ ، أَوْ إِلَىٰ مَوْتِهَا بِطَلَاقِهَا عِنْدَ غَيْرَةِ ٱلزَّوْجِ أَوْ بِرَجْمِهَا إِنْ زَنَتْ مَعَهُ ، وَقَدْ بَالَغَ مَالِكٌ ـ هُوَ ٱلإِمَامُ مَالِكٌ صَاحِبُ ٱلْمَذْهَبِ ـ فِي هَذَا البابِ حَتَّىٰ مَنَعَ مَا يَجُرُّ إِلَىٰ ٱلتُّهَمِ ، كَخَلْوَةِ

ٱمْرَأَةٍ بِٱبْنِ زَوْجِهَا ، وَإِنْ كَانَتْ جَائِزَةً ؛ إِلَىٰ أَنْ قَالَ : وَٱلْحَمْوُ : أَخُ ٱلزَّوجِ وَقَرِيبُهُ .

* * *

**وَصْفُهُنَّ بِغَلَبَةِ الرِّجَالِ :**

٨٠٥ ـ قَالَ أَحَدُهُمْ لِمُعَاوِيَةَ ٱبْنِ أَبي سُفْيانَ : يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ كَيْفَ نَنْسُبُكَ إِلىٰ ٱلعَقْلِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ نِصْفُ إِنْسانٍ ـ يُرِيدُ غَلَبَةَ ٱمْرَأَتِهِ عَلَيْهِ ـ فَقَالَ مُعَاوِيَةُ هَذِهِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلبَلِيغَةَ ٱلْبَعِيدَةُ ٱلْغَوْرِ : إِنَّهُنَّ يَغْلِبْنَ ٱلْكِرامَ وَيَغْلِبُهُنَّ ٱللِّئامُ .

* * *

٨٠٦ ـ وَقَالَ صَاحِبُ بْنُ ذُبْيانَ [من الطويل] :

أَلَيْـسَ عَجِيبـاً ضَعْفُهـا وَٱقْتِـدَارُهـا ... وَيَجْمَعْنَ ضَعْفاً وَٱقْتِداراً عَلىٰ ٱلْفَتىٰ

* * *

٨٠٧ ـ وَقَالَ جَريرٌ [من البسيط] :

إِنَّ ٱلْعُيونَ ٱلَّتِي في طَرْفِها مَرَضٌ ... قَتَلْنَنـا ثُـمَّ لَـمْ يُحْيِيـنَ قَتْـلانـا[1]

يَصْرَعْنَ ذَا ٱللُّبِّ حَتّىٰ لا حِرَاكَ بِهِ ... وَهُـنَّ أَضْعَـفُ خَلْـقِ ٱللهِ أَرْكـانـا

[ « ديوان جرير » صفحة : ٤٩٠] .

٨٠٨ ـ وَقَالَ هَارُونُ ٱلرَّشيدُ في ثلاثٍ مِنْ جَوارِيهِ [من الكامل] :

مَلَـكَ ٱلثَّـلاثُ ٱلآنِسـاتُ عِنَـانِـي ... وَحَلَلْـنَ مِـنْ قَلْبِـي بِكُـلِّ مَكـانِ

---

(١) قَوْلُهُ : « قَتَلْنَنا » قالَ ٱلسَّيِّدُ ٱلمُرْتَضىٰ في أَماليهِ : ٱلْمَعْنَىٰ : كِدْنَ يَقْتُلْنَنا ، ثُمَّ قَالَ : فَأَمَّا قَوْلُهُ : ثُمَّ لَمْ يَحْيِينَ قَتْلانا ، فَإِنَّ مَعْناهُ أَنَّهُنَّ لَمْ يَزِلْنَ يَفْعَلْنَ ما قارَبْنا عِنْدَهُ ٱلمَوْتَ وَٱلْقَتْلَ ، مِنَ ٱلصُّدُودِ وَٱلْهَجْرِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَسمّىٰ هَذِهِ الأُمُورَ قَتْلاً كَمَا سَمّىٰ أَضْدادَها حَيَاةً .

مـا لـي تُطـاوِعُنـي ٱلْبَـرِيَّـةُ كُلُّهـا    وَأُطِيعُهُـنَّ وَهُـنَّ فـي عِصْيـانِـي
مـا ذاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطـانَ ٱلْهَـوىٰ    وَبِـهِ يَصُلْـنَ أَعَـزُّ مِـنْ سُلْطـانِـي

[ « ديوان العباس بن الأحنف » صفحة : ٣١٢ ] .

وَيقُالُ : إِنَّ العَبَّاسَ بْنَ الأَحْنَفِ هُوَ صاحِبُ هٰذِهِ ٱلأَبْياتِ قَالَها عَلىٰ لِسانِ ٱلرَّشِيدِ حِينَ طُلِبَ إِلَيْهِ ذَلِكَ ، وَهِيَ بِنَفْسِ ٱلْعَبَّاسِ أَشْبَهُ .

٨٠٩ ـ وَقال سُلَيْمانُ بْنُ [ ٱلْحَكَمِ ٱلْمَرْوانِيُّ ، ٱلْمُلَقَّبُ بِـ ] ٱلْمُسْتَعِينِ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلأُمَوِيُّ ٱلأَنْدَلُسِيُّ يُعارِضُ ٱلرَّشِيدَ [من الكامل] :

عَجَبـاً يَهـابُ ٱللَّيْـثُ حَـدَّ سِنـانِـي    وَأَهـابُ لَحْـظَ فَـواتِـرِ ٱلأَجْفَـانِ
وَأُقَـارِعُ ٱلأَهْـوَالَ لَا مُتَهَيِّبـاً    مِنْهـا سِـوَىٰ الإِعْـراضِ وَٱلْهِجـرانِ
وَتَمَلَّكَـتْ قَلْبـي ثَـلاثٌ كَـالـدُّمـىٰ    زُهْـرُ ٱلْـوُجُـوهِ نَـوَاعِـمُ ٱلأَبْـدَانِ
كَكَـواكِـبِ ٱلظَّلْمَـاءِ لُحْـنَ لِنَـاظِـرٍ    مِـنْ فَـوْقِ أَغْصـانٍ عَلـىٰ كُثْبـانِ
هٰذِي ٱلْهِلالُ ، وَتِلْكَ بِنْتُ ٱلْمُشْتَرِي    حُسْناً ، وَهٰذِي أُخْتُ غُصْنِ ٱلْبَانِ
حَـاكَمْـتُ فِيهِـنَّ ٱلسُّلُـوَّ إِلـىٰ ٱلصِّبـا    فَقَضـىٰ لِسُلْطـانٍ عَلـىٰ سُلْطَـانِ
فَأَبَحْنَ مِنْ قَلْبِي ٱلْحِمىٰ وَتَرَكْنَنِي    فـي عِـزِّ مُلْكـي كَـالأَسِيـرِ ٱلْعَـانِـي
لا تَعْـذِلُـوا مَلِكـاً تَـذَلَّـلَ فـي ٱلْهَـوىٰ    ذُلُّ ٱلْهَـوىٰ عِـزٌّ وَمُلْـكٌ ثـانـي
مـا ضَـرَّ أَنِّـي عَبْـدُهُـنَّ صَبـابَـةً    وَبَنُـو ٱلـزَّمَـانِ وَهُـنَّ مِـنْ عُبْـدَانـي
إِنْ لَـمْ أُطِـعْ فِيهِـنَّ سُلْطـانَ ٱلْهَـوىٰ    كَلَفـاً بِهِـنَّ فَلَسْـتُ مِـنْ مَـرْوانِ

* * *

٨١٠ ـ وَقالَ ٱلأَمِيرُ عَبْدُ اللهِ بْنُ طاهِرٍ [من الخفيف] :

نَحْـنُ قَـوْمٌ تُلِينُنـا ٱلْحَـدَقُ ٱلنُّجْـ    ـلُ عَلـىٰ أَنَّنـا نُلِيـنُ ٱلْحَـدِيـدا

طَـوْعُ أَيْـدِي ٱلظِّبـاءِ تَقْتـادُنـا ٱلعِيـ ـــسُ وَنَقْتـادُ بِـاْلطِّعَـانِ ٱلأُسُـودَا
نَمْلِـكُ ٱلصِّيـدَ ثُـمَّ تَمْلِكُنـا ٱلبِيـ ـضُ ٱلمَصُونَاتُ أَعْيُناً وَخُدُودا[1]
تَتَّقِـي سُخْطَنـا ٱلأُسـودُ وَنَخْشـىٰ سَخَطَ ٱلْخَشْفِ حِينَ يُبْدِي ٱلصُّدُودا[2]
فَتَـرانـا يَـوْمَ ٱلْكَـرِيهَـةِ أَحْـرا راً وَفِـي ٱلسِّلْـمِ لِلْغَـوانِـي عَبيـدا[3]

* * *

٨١١ ـ وَبعْدُ ؛ فَقَدْ بانَ لَكَ مِمّا أَسْلَفْنا في عَبْقَرِيّاتِهِمْ في فِتْنَةِ ٱلنِّساءِ أَنَّ ٱلنِّساءَ بِحَقٍ فِتْنَةُ ٱلْفِتَنِ ، وَهَذا مِمّا لا رَيْبَ فِيهِ ، فَكَمْ مَاتَ بِهِنَّ مِنْ كَرِيمٍ ، وَعَطِبَ بِهِنَّ مِنْ سَلِيمٍ ، وَجُنَّ بِهِنَّ مِنْ عاقِلٍ وَكَمْ وَكَمْ ، وَإِذَنْ كانَ ٱلأَمْثَلُ بِالرَّجُلِ أَنْ يُبْقِيَ عَلىٰ نَفْسِهِ وَعَلىٰ عَقْلِهِ وَعَلىٰ مَالِهِ وَعَلىٰ عِرْضِهِ وَعَلىٰ دِينِهِ وَعَلىٰ خُلُقِهِ بِٱلابْتِعادِ عَنْ أَسْبابِ ٱلافْتِنَانِ بِهِنَّ مَا وَجَدَ إِلىٰ ذٰلِكَ سَبيلًا ، وَأَنْ يَسْتَمْتِعَ بِهِنَّ فِي حُدُودِ ٱلشَّرِيعَةِ ، أَعْني في حُدُودِ ٱلعَقْلِ وَٱلْمُثُلِ ٱلْعُلْيا ، وَكَذٰلِكَ كانَ ٱلأَمْثَلُ بِٱلرَّجُلِ أَنْ يَحْفَظَ مَنْ يَرْعَاهُ مِنَ ٱلنِّساءِ ، وَأَن يَصُونَهُنَّ وَلا يُعْرِضَهُنَّ لافْتِتَانِ ٱلرِّجَالِ بِهِنَّ ، فَإِنَّ كُلَّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَٱلرَّجُلُ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ زَوْجَتِهِ وَبَناتِهِ وَسائِرِ مَنْ يَرْعَاهُ مِنَ ٱلنِّساءِ .

٨١٢ ـ هَذَا ؛ وَمِنْ بابِ فِتْنَةِ ٱلنِّساءِ ما حَكاهُ ٱللهُ سُبْحانَهُ في حَقِّ ٱلزَّوْجاتِ مِنْ أَنَّ مِنْهُنَّ مَنْ هُنَّ عَدُوَّاتٌ لِلرِّجَالِ يَشْغَلْنَهُمْ عَنْ كُلِّ نافِعٍ لَهُمْ، قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٦٤ سورة التغابن/الآية : ١٤] يَقُولُ

---

(١) ٱلصِّيدُ ، يُرِيدُ المُلُوكَ .
(٢) ٱلْخَشْفُ : وَلَدُ ٱلظَّبي ، يُشَبَّهُ بِهِ ٱلإِنْسَانُ .
(٣) يَوْمُ ٱلْكَرِيهَةِ : يَوْمُ ٱلْحَرْبِ وَٱلطِّعانِ .

سُبْحَانَهُ : إِنَّ مِنَ ٱلأَزْوَاجِ أَزْوَاجاً يُعادِينَ بُعُولَتَهُنَّ وَيُخاصِمْنَهُمْ وَيَجْلِبْنَ عَلَيْهِمْ ، وَمِنَ ٱلأَوْلادِ أَوْلاداً يُعادُونَ آباءَهُمْ وَيَعُقُّونَهُمْ وَيُجَرِّعُونَهُمُ ٱلغَصَصَ وَٱلأَذىٰ ، فَكُونوا مِنْ هَؤُلاءِ جَميعاً عَلىٰ حَذَرٍ ، وَلا تَأْمَنُوا غَوَائِلَهُمْ وَشَرَّهُمْ ؛ أَيْ يقُولُ : إِنَّ مِنْ هَؤُلاءِ جميعاً ـ الأَزْوَاجُ وَالأَوْلادُ ـ مَنْ هُوَ فِتْنَةٌ لَكُمْ يَصُدُّونَكُمْ عَنْ كُلِّ ما يُجْدِي عَلَيْكُمْ وَيَنْفَعُكُمْ في ٱلدُّنْيا وَالآخِرَةِ ، فَلا تَفْتَتِنُوا بِهِم وَخَالِفُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا عَنْهُمْ وَتَصْفَحُوا وتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، قِيلَ : إِنَّ ناساً أَرادُوا ٱلْهِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ إِلىٰ ٱلمَدِينَةِ ، فَثَبَّطَهُمْ أَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ ، وَقَالُوا : تَنْطَلِقُونَ وَتُضَيِّعُونَنا ! فَرَقُّوا لَهُمْ وَوَقَفُوا ، فَلَمَّا هاجَرُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَرَأَوا ٱلَّذِينَ سَبَقُوهُمْ قَدْ فَقِهُوا في ٱلدِّينِ أَرَادُوا أَنْ يُعَاقِبُوا أَزوَاجَهُمْ وَأَوْلادَهُمْ ، فَحَسَّنَ ٱللهُ لَهُمُ ٱلْعَفْوَ .

❋ ❋ ❋

# الْبَابُ الْخَامِسُ

# حَثُّهُمْ عَلىٰ ٱلْعِفَّةِ وَصَوْنِ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَقَوْلُهُمْ في ٱلزِّنا وَمَا إِلَيْهِ

٨١٣ ـ جِمَاعُ مَعْنىٰ ٱلْعِفَّةِ : ٱلْكَفُّ عَمَّا لا يَحِلُّ أَوْ ضَبْطُ ٱلنَّفْسِ وَتَنْزِيهُها عَنْ كُلِّ ما يَهْوِي بِالإنْسانِ إِلىٰ مُسْتَوىٰ ٱلْحَيَوانِ ، وَٱلْعِفَّةُ فَضِيلَةٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ : رَذيلَةِ ٱلشَّرَهِ وَٱلاسْتِخْذَاءِ لِلأَهْوَاءِ ، الأَهْوَاءِ الضَّارَّةِ غَيْرِ ٱللائِقَةِ بِٱلْمَثَلِ الأَعْلىٰ والكمال ؛ وَرَذيلَةِ ٱلْجُمُودِ ، جمُودِ ٱلشَّهواتِ وَٱلْعَواطِفِ وَٱلأَحاسيسِ ؛ وَٱلْعِفَّةُ ضُرُوبٌ ، فَمِنْها عِفَّةُ ٱللِّسانِ ، وَعِفَّةُ ٱلْيَدِ ، وَعِفَّةُ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ ، وَعِفَّةُ ٱلْبَطْنِ ، وَعِفَّةُ ٱلْفَرْجِ ؛ وَٱلَّذِي يَعْنِينا هُنا هُوَ عِفَّةُ ٱلْفَرْجِ وَعِفَّةُ ٱلْجَوارِحِ ٱلَّتي تُؤَدِّي إِلىٰ عِفَّةِ ٱلْفَرْجِ .

٨١٤ ـ قالَ ٱللهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [٧٩ سورة النازعات/ الآيتان : ٤٠ و٤١] .

مَقامُ رَبِّهِ ، يُرادُ بِهِ أَنَّ ٱللهَ قائِمٌ عَلَيْهِ ، أَيْ : حافِظٌ مُهَيْمِنٌ ، مِنْ قَوْلِهِ تَعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية : ٣٣] فَهُوَ يُراقِبُ ذٰلِكَ فَلا يَجْسُرُ عَلىٰ مَعْصِيَةٍ ، وَقِيلَ : مَعْنى مَقامِ رَبِّهِ : مَوْقِفُهُ ٱلَّذي يَقِفُ فِيهِ ٱلْعِبادُ لِلْحِسَابِ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ .

٨١٥ ـ وَقالُوا في قَوْلِهِ تَعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [٥٥ سورة الرحمن/ الآية : ٤٦] هُوَ ٱلرَّجُلُ يَخْلُو بِٱلْمَعْصِيَةِ فَيَتْرُكُها خَوْفاً مِنَ ٱللهِ وَتَنَزُّهاً عَمّا

يَشِينُ وَإِيثاراً لِمَا هُوَ خَيْرٌ وَأَجْمَلُ .

٨١٦ ـ وَٱلْهَوَىٰ ما تَهْوَاهُ ٱلأَنْفُسُ وَتَصْبُو إِلَيْهِ ، وَٱلْمُرادُ بِهِ في أَغْلَبِ أَحْوالِهِ وَإِطلاقَاتِهِ : الشَّهَوَاتُ ٱلضَّارَّةُ ٱلْمُعْطِبَةُ ، وَسُمِّيَ كَذَلِكَ لأَنَّهُ يَهْوِي بِصاحِبِهِ إِلىٰ ٱلمَهَالِكِ ، وَيَنْزَلِقُ بِهِ إِلىٰ مَهاوِي ٱلْخِزْيِ وَٱلْهَوَانِ .

٨١٧ ـ وَفي ٱلأَثَرِ : « مَنْ وُقِيَ شَرَّ لَقْلَقِهِ وَقَبْقَبِهِ وَذَبْذَبِهِ فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ ٱلْجَنَّةُ » [ « كنز العمال » ، رقم : ٧٨٧٢] .

وَفي رِوايَةٍ : « فَقَدْ وُقِيَ شِرَّةَ ٱلشَّبَابِ » .

وَٱللَّقْلَقُ : ٱللِّسانُ ؛ وَٱلْقَبْقَبُ : ٱلْبَطْنُ ، مِنَ ٱلْقَبْقَبَةِ ، وَهِيَ : حِكايَةُ صَوْتِ ٱلْبَطْنِ ؛ وَٱلذَّبْذَبُ : ٱلذَّكَرُ ، لِتَذَبْذُبِهِ ، أَيْ : حَرَكَتِه .

٨١٨ ـ وَفيهِ : « مَنْ حَفِظَ ما بَيْن فُقْمَيْهِ وَرِجْلَيْهِ دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ » [ « كنز العمال » ، رقم : ٧٨٦٩] .

فُقْمَاهُ : لَحياهُ ، أَيْ : مَنْ حَفِظَ فَمَهُ مِن أَكْلِ ٱلْحَرامِ وَقُبْحِ ٱلْكَلامِ ؛ وَمَنْ حَفِظَ فَرْجَهُ عَنِ ٱلْحَرامِ ؛ دَخَلَ ٱلْجَنَّةَ .

٨١٩ ـ وَفِيهِ : « مَنْ أَحَبَّ فَعَفَّ فَماتَ فَهُوَ شَهِيدٌ » [رواه ابن عدي في « الكامل » ٣/ ١٢٦٣ ؛ والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » ٥/ ١٥٦ و٦/ ٥٠ ؛ وقد قال ابن القيم ببطلانه ، راجع « روضة المحبين » ، و« الجواب الكافي »] .

٨٢٠ ـ وَفيهِ : « ٱعْصِ ٱلْهَوىٰ وَٱلنِّساءَ وَٱصْنَعْ ما شِئْتَ » [راجع « كشف الخفاء » ، رقم : ١٦٣٦] .

٨٢١ ـ وَفيهِ : « أَفْضَلُ ٱلْجِهَادِ أَنْ يُجاهِدَ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ » [ « كنز العمال » ، رقم : ١١٢٦٢] .

٨٢٢ ـ وَقَالَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبي طَالِبٍ : ما ٱلْمُجاهِدُ ٱلشَّهِيدُ في سَبيلِ ٱللهِ بِأَعْظَمَ أَجْراً مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَّ ، لَكَادَ ٱلْعَفيفُ أَنْ يَكُونَ مَلَكاً مِنَ ٱلْمَلائِكَةِ .

٨٢٣ ـ وَقيلَ لِحَكيمٍ : ما أَحْسَنَ أَنْ يَصْبِرَ ٱلإِنْسانُ عَمّا يَشْتَهي ! فَقَالَ : أَحْسَنُ مِنْهُ أَلَّا يَشْتَهِي إِلَّا ما يَنْبَغي . . .

٨٢٤ ـ وَفي ٱلْحَديثِ ٱلْمَرْفُوعِ : « لَا تَكُونَنَّ حَديدَ ٱلنَّظَرِ إِلىٰ ما لَيْسَ لَكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَزْني فَرْجُكَ ما حَفِظْتَ عَيْنَيْكَ ، وَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَلَّا تَنْظُرَ إِلىٰ ثَوْبِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتي لا تَحِلُّ لَكَ فَٱفْعَلْ ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ ـ أَيْ : ٱلنَّظَرَ إِلىٰ ٱلثَّوْبِ ـ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ » .

٨٢٥ ـ مِنْ جَوامِعِ ٱلْكَلِمَةِ في هَذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُ صَلَواتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ ٱلنَّارُ بِٱلشَّهَوَاتِ » [ البخاري ، رقم : ٦٤٨٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٨٢٢ ] .

أَصْلُ ٱلْحَفِّ : ٱلدَّائِرُ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُحِيطُ بِهِ ؛ وَٱلْمَكَارِهُ جَمْعُ مَكْرُهَةٍ ، وَهُوَ : ما يَكْرَهُهُ ٱلْمَرْءُ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقِيامِ بِٱلْوَاجِبِ ، ٱلْوَاجِبِ نَحْوَ ٱللهِ وَنَحْوَ ٱلنَّاسِ وَنَحْوَ نَفْسِهِ ؛ وَٱلشَّهَوَاتُ جَمْعُ شَهْوَةٍ ، وَهِيَ : ما تَصْبُو إِلَيْهِ ٱلنَّفْسُ وَتَهْوَاهُ ؛ وَٱلْحَدِيثُ تَمْثِيلٌ ؛ وَٱلْمَعْنىٰ : لا يُوصَلُ إِلىٰ ٱلْجَنَّةِ وَلا تُنالُ إِلَّا بِقَطْعِ مَغَاوِرِ ٱلْمَكارِهِ وَٱلصَّبْرِ عَلَيْها ؛ وَٱلنَّارُ لا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا مَنْ حَطَمَ نَفْسَهُ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَإِلَّا أَفْضَتْ بِهِ ٱلشَّهَوَاتُ إِلىٰ ٱلنَّارِ ؛ وَٱلْحَدِيثُ مِنْ جَوامِعِ كَلِمِهِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ فِي ذَمِّ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْحَثِّ عَلىٰ ٱلطَّاعاتِ .

* * *

٨٢٦ ـ وَقيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ ٱلعَزيزِ : أَيُّ ٱلْجِهادِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : جِهَادُكَ هَوَاكَ .

٨٢٧ ـ وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينارٍ يَقُولُ : جاهِدُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تُجَاهِدُونَ أَعْدَاءَكُمْ ، وَكَانَ يَقُولُ : ما أَشَدَّ فطامَ ٱلْكَبِيرِ[1] !.

٨٢٨ ـ وَكَانَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ يَقُولُ : حادِثُوا هَذِهِ ٱلْقُلُوبَ ، فَإِنَّها سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ ، وَٱقْدَعُوا هَذِهِ ٱلأَنْفُسَ فَإِنَّها طُلَعَةٌ ، وَإِنَّكُمْ إِلَّا تَقْدَعُوها تَنْزِعْ بِكُم إِلىٰ شَرِّ غايَةٍ .

حادِثُوا هَذِهِ ٱلْقُلُوبَ : ٱجْلُوها بِمُعاهَدَتِها بِٱدِّكارِ ٱلْمَوَاعِظِ وَٱسْتِبْصارِ ٱلْعِبَرِ حَتّىٰ يَزُولَ عَنْها ٱلطَّبَعُ وَيَنْجَلِي ٱلصَّدَأُ ٱلَّذِي غَشِيَهَا بِمُلابَسَةِ ٱلذُّنُوبِ ؛ وَٱقْدَعُوها : كُفُّوها عَمَّا تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ : ٱقْدَعُوا هَذِهِ ٱلأَنْفُسَ فَإِنَّها أَسْأَلُ شَيْءٍ إِذا أُعْطِيَتْ ، وَأَمْنَعُ شَيْءٍ إِذَا سُئِلَتْ .

٨٢٩ ـ وفي الحديث : « ثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطاعُ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ ٱلْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » [ « كنز العمال » ، رقم : ٤٣٦٠٨] .

٨٣٠ ـ وَقَال بُزُرْجَمِهْرُ : إِذا ٱشْتَبَهَ عَلَيْكَ أَمْرانِ ، فَلَمْ تَدْرِ في أَيِّهِما الصوابَ، فَٱنْظُرْ أَيَّهُما أَقْرَبُ إِلىٰ هَواكَ فَخالِفْهُ ، فَٱلصَّوَابُ في مُخَالَفَةِ ٱلْهَوىٰ .

٨٣١ ـ وَقال بَعْضُهُمْ [ هو أبو العَتاهِيَة ، من الخفيف ] :

مَنْ أَجَابَ ٱلْهَوىٰ إِلىٰ كُلِّ ما يَدْ عُـو إِلَيْـهِ دَاعِيـهِ ضَـلَّ وَتـاهـا

٨٣٢ ـ وَقَالَ هِشامُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ [من الطويل] :

إِذا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ ٱلْهَوىٰ قادَكَ ٱلْهَوَىٰ إِلـىٰ بَعْـضِ مـا فيـهِ عَلَيْـكَ مَقَـالُ

٨٣٣ ـ وَبَعَثَ أَحَدُ ٱلْمُلُوكِ إِلىٰ أَحَدِ ٱلنُّسَّاكِ : ما لَكَ لا تَخْدُمُني وَأَنْتَ عَبْدِي ؟ فَقالَ : لَو ٱعْتَبَرْتَ لَعَلِمتَ أَنَّكَ عَبْدُ عَبْدِي ؛ قَالَ : كَيْفَ ؟ قَالَ :

---

(١) كانَ عالِماً زاهِداً لا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، ماتَ سَنَةَ ١٣١ هـ بِالْبَصْرَةِ .

لأَنَّكَ تَتَّبِعُ ٱلْهَوىٰ ، فَأَنْتَ عَبْدُهُ ، وَأَنا أَمْلِكُهُ فَهُوَ عَبْدِي ؛ فَقالَ : صَدَقْتَ .

٨٣٤ ـ وَقالوا : سُلْطَانُ مَنْ مَلَكَ ٱلْهَوىٰ فَوْقَ سُلْطَانِ مَنْ مَلَكَ ٱلدُّنْيا .

٨٣٥ ـ وَقالوا : إِنْ قَدَّمْتَ هَوَاكَ عَلىٰ عَقْلِكَ لَمْ تُصِبْ رَشَداً في حَياتِكَ وَلا أَمْناً بَعْدَ وَفاتِكَ .

٨٣٦ ـ وَقَالُوا [من الكامل] :

إِنَّ ٱلْهَوَانَ هُوَ ٱلْهَوىٰ قُلِبَ ٱسْمُهُ ... فَإِذا هَوِيْتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوانا

٨٣٧ ـ وَقَالَ حاتِمٌ ٱلطَّائِيُّ [من الطويل] :

وَإِنَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ ... وَفَرْجَكَ نالا مُنْتَهىٰ ٱلذَّمِّ أَجْمَعا

٨٣٨ ـ وَقَالَ ٱلأَخْطَلُ [من الطويل] :

وَإِنَّ ٱمْرَأً لا يَنْثَنِي عَنْ غِوَايَةٍ ... إِذا ما ٱشْتَهَتْهَا نَفْسُهُ لَجَهُولُ

٨٣٩ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الطويل] :

إِذا ما رَأَيْتَ ٱلْمَرْءَ يَقْتَادُهُ ٱلْهَوَىٰ ... فَقَدْ ثَكِلَتْهُ عِنْدَ ذاكَ ثَواكِلُهْ

وَقَدْ أَشْمَتَ ٱلأَعْداءَ جَهْلًا بِنَفْسِهِ ... وَقَدْ وَجَدَتْ فِيهِ مَقالًا عَوَاذِلُهْ

وَلَنْ يَزَعِ ٱلنَّفْسَ ٱللَّجُوجَ عَنِ ٱلْهَوىٰ ... مِنَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فاضِلُ ٱلْعَقْلِ كَامِلُهْ

٨٤٠ ـ وَلِلنَّاسِ في قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ عِبْرَةٌ في هَذا ٱلْبَابِ وَعِظَةٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُ إِلّا قَوْلُهُ تَعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [١٢ سورة يوسف/الآية : ٥٣] لَكانَ فِيهِ ٱلْغَنَاءُ كُلُّهُ .

٨٤١ ـ وَقالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطّابِ : ٱقْدَعُوا هَذِهِ ٱلنُّفُوسَ عَنْ شَهَواتِها ، فَإِنَّها طَلّاعَةٌ تَنْزِعُ إِلىٰ شَرِّ غايَةٍ ، إِنَّ هَذا ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيءٌ وَإِنَّ ٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيءٌ ، وَتَرْكُ ٱلْخطِيئَةِ خَيْرٌ مِنْ مُعالَجَةِ ٱلتَّوْبَةِ ، وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً ، وَشَهْوَةِ ساعَةٍ

أَوْرَثَتْ حُزْناً طَويلًا .

٨٤٢ ـ وَقَدْ أَشادَ ٱلشُّعَراءُ بِٱلْعِفَّةِ وَعَدُّوها مِنَ ٱلْفَضائِلِ ٱلَّتي يَتَمَدَّحُونَ بِهَا وَيَفْتَخِرُونَ .

٨٤٣ ـ قَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الطويل] :

عَـوَاذِلُ ذاتِ ٱلْخَـالِ فِـيَّ حَـوَاسِـدُ وَإِنَّ ضَجيـعَ ٱلخَـوْدِ مِنِّـي لَمَـاجِـدُ
يَـرُدُّ يَـداً عَـنْ ثَـوْبِهـا وَهْـوَ قـادِرٌ وَيَعْصِي ٱلْهَوى في طَيْفِها وَهْوَ رَاقِدُ
مَتىٰ يَشْتَفِي مِنْ لاعِجِ ٱلشَّوْقِ في ٱلْحَشىٰ مُحِـبٌّ لَهـا فـي قُـرْبِـهِ مُتَبـاعِـدُ
إذا كُنْتَ تَخْشىٰ ٱلْعَارَ في كُلِّ خَلْوَةٍ فَلِـمْ تَتَصَبَّـاكَ ٱلْحِسـانُ ٱلْخَـرائِـدُ

يَقُولُ ٱلْمُتَنَبِّيُّ في ٱلْبَيْتِ ٱلأَوَّلِ : إِنَّ ٱللَّوَاتي يَعْذُلْنَ ـ يَلُمْنَ ـ هَذِهِ ٱلْمَرأَةَ ـ ٱلَّتي هِي صاحِبَةُ ٱلْخَالِ علىٰ خَدِّها ـ فِيَّ لأَجْلِ مَحَبَّتِها إِيّايَ هُنَّ حَواسِدُ لَها عَلَيَّ ، لأَنَّها ظَفِرَتْ مِنِّي بِضَجِيعٍ ماجِدٍ ؛ وَٱلْخَوْدُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلنَّاعِمَةُ ٱلْحَسَنَةُ ٱلْخَلْقِ . ثُمَّ قَالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلثَّاني : إِنَّني أَعِفُّ عَنْها مَعَ كَوْنِي قادِراً علىٰ تَرْكِ ٱلْعَفَافِ ، وَقَدْ صارَ ذٰلِكَ سَجِيَّةً لي حَتّىٰ صِرْتُ أَعِفُّ عَنْ طَيْفِها أَيْضاً إذا زارَني في نَوْمِي ، يَصِفُ نَفْسَهُ بِٱلْعِفَّةِ وَٱلرَّغْبَةِ عَنِ ٱلصَّبْوَةِ بِٱلنِّساءِ . وَقَوْلُه : مَتىٰ يَشْتَفِي . . . الخ ، يَقُولُ : مَتىٰ يَجِدُ ٱلشِّفاءَ مِنَ ٱلشَّوْقِ ٱلْمُحْرِقِ مُحِبٌّ لِهَذِهِ ٱلْمَحْبُوبَةِ إذا دَنَا مِنْها بِشَخْصِهِ نَأَىٰ عَنْها بِعَفَافِهِ . ثُمَّ قَالَ في البَيْتِ الأَخِيرِ : إذا كُنْتَ في ٱلْخَلْوَةِ بِهِنَّ تَنْأَىٰ عَنْهُنَّ وَتَعِفُّ ، فَمالَكَ وَلِعِشْقِ ٱلْحِسانِ وَٱلنِّزاعِ إِلَيْهِنَّ؟ .

* * *

٨٤٤ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الطويل] :

عَفِيفٌ تَرُوقُ ٱلشَّمْسَ صُورَةُ وَجْهِهِ وَلَوْ نَزَلَتْ شَوْقاً لَحَادَ إِلىٰ ٱلظِّلِّ

يَقُولُ : إِنَّ ٱلشَّمْسَ تَسْتَحْسِنُ صُورَةَ وَجْهِهِ ، فَلَوْ نَزَلَتْ إِلَيْهِ ٱلشَّمْسُ شَوْقاً

إِلَيْهِ لَمَالَ عَنْها وَعفَّ ، يَعْنِي : إِنَّهُ عَفيفٌ عَنْ كُلِّ أُنْثىٰ حَتّىٰ عَنِ ٱلشَّمْسِ ، فَلَوْ هِيَ نَزَلَتْ إِلَيْهِ لَحقَّقَ مَعْنىٰ ٱلْعِفَّةِ .

* * *

٨٤٥ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ أَيْضاً [من الخفيف] :

كَمْ حَبيبٍ لا عُذْرَ في ٱللَّوْمِ فيهِ     لَكَ فيهِ مِنَ ٱلتُّقىٰ لُوَّامُ
رَفَعَتْ قَدْرَكَ ٱلنَّزاهَةُ عَنْهُ     وَثَنَتْ قَلْبَكَ ٱلْمَساعي ٱلْجِسامُ

يَصِفُهُ بِتَقْوىٰ ٱللهِ وَخَشْيَتِهِ ، يَقُولُ : كَمْ حَبيبٍ يَسْتَحِقُّ ٱلْمُواصلَةَ لِبَراعَتِهِ في ٱلْحُسْنِ وَلا تُلامُ لَوْ واصَلْتَهُ ، لَكِنَّكَ مَعَ ذَلِكَ تَتْرُكُهُ لِتَقْوىٰ ٱللهِ ، فَكَأَنَّكَ قَدْ أَقَمْتَ عَلَيْهِ في ٱلتُّقىٰ لُوَّاماً يَلُومُونَكَ فِيما يُوافِقُ مُقْتَضىٰ ٱلتَّقْوىٰ ؛ ثُمَّ قَالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلْثاني : نَزاهَتُكَ وَتَجَنُّبُكَ ٱلآثامَ رَفَعَا قَدْرَكَ عَنْ مُواصَلَتِهِ ، وَصَرَفَتْ قَلْبَكَ عَنْهُ ٱلأُمُورُ ٱلْجِسامُ ٱلَّتي تَترامىٰ إِلَيْها لِبُعْدِ مُرْتَقىٰ هِمَّتِكَ .

* * *

٨٤٦ ـ وَفِي ذَوَاتِ ٱلْعَفَافِ ٱلْبَعِيدَاتِ ٱلْمُتَنَاوَلِ وَإِنْ كُنَّ لَطِيفاتِ ٱلْحَدِيثِ ، يَقُولُ ٱلْمُتَنَبِيُّ [من البسيط] :

كَأَنَّها ٱلشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قابِضِهِ     شُعاعُها وَيَراهُ ٱلطَّرْفُ مُقْتَرِبا

٨٤٧ ـ وَقَبْلَهُ يَقُولُ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من المتقارب] :

هِيَ ٱلشَّمْسُ مَسْكَنُها فِي ٱلسَّماءِ     فَعَزِّ ٱلْفُؤَادَ عَزاءً جَميلا
فَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْها ٱلصُّعُودَ     وَلَنْ تَسْتَطِيعَ إِلَيْكَ ٱلنُّزولا

* * *

٨٤٨ ـ وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثابِتٍ يَمْدَحُ عائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْها [من الطويل] :

حَصَــانٌ رَزَانٌ مــا تُــزَنُّ بِــرِيبَــةٍ وَتُصْبِحُ غَرْثىٰ مِنْ لُحُومِ ٱلْغَوافِلِ

ٱلْحَصَانُ : ٱلْعَفِيفَةُ ؛ وَٱمْرَأَةٌ رَزانٌ : إِذا كانَتْ ذاتُ ثَبَاتٍ وَوَقارٍ وَعَفافٍ ، وَكانَتْ رَزِينَةً في مَجْلِسِها ، مُلازِمةً مَوْضِعَها ، قَليلَةَ ٱلتَّصَرُّفِ وَٱلتَّنَقُّلِ ؛ وَمَا تُزَنُّ : ما تُتَّهَمُ ؛ وَغَرْثىٰ : جائِعَةٌ ؛ وَٱلْغَوافِلُ ، جَمْعُ غافِلَةٍ ، يُرِيدُ : إِنَّها لا تَرْتَعُ في أَعْراضِ ٱلنَّاسِ .

٨٤٩ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ٱبْنِ أَبِي طالِبٍ ، وَهُوَ وَالِدُ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلْخارِجَيْنِ عَلىٰ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصورِ [من الكامل] :

أُنُــسٌ حَــرائِــرُ مــا هَمَمْــنَ بِــرِيبَــةٍ كَظِبــاءِ مَكَّــةَ صَيْــدُهُــنَّ حَــرامُ
يُحْسَبْـنَ مِـنْ لِيـنِ ٱلْحَـدِيـثِ زَوَانِياً ويَصُــدُّهُــنَّ عَــنِ ٱلْخَنَــا ٱلإِسْــلامُ

أُنُسٌ : آنِساتٌ ؛ وَٱلْخَنا : ٱلْفُحْشُ .

* * *

٨٥٠ ـ ويُرْوىٰ أَنَّ عَلِيَّ ٱبْنَ أَبِي طالِبٍ كانَ جالِساً في أَصْحابِهِ ، فَمَرَّتْ بِهِمُ ٱمْرَأَةٌ جَميلَةٌ ، فَتَرَمَّقَها ٱلْقَوْمُ بِأَبْصارِهِمْ ، فَقَالَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : إِنَّ أَبْصارَ هَذِهِ ٱلْفُحُولِ طَوَامِحُ ، وَإِنَّ ذَلِكَ سَبَبُ هَياجِها ، فَإِذا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلىٰ ٱمْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلامِسْ أَهْلَهُ ، فَإِنَّما هِيَ ٱمْرأَةٌ كَٱمْرَأَةٍ .

طَوَامِحُ ، جَمْعُ طامِحٍ أَوْ طامِحَةٍ ، نَقُولُ : طَمَحَ ٱلدَّهْرُ إِذا ٱرْتَفَعَ ؛ وَطَمَـحَ : أَبْعَـدَ فـي ٱلطَّلَـبِ ؛ وَإِنَّ ذَلِـكَ ، أَيْ : طُمُـوحُ ٱلأَبْصـارِ ؛ سَبَـبُ هَياجِها ، أَيْ : هَيَجَانُ هَذِهِ ٱلْفُحُولِ لمُلامَسَةِ ٱلأُنْثىٰ .

* * *

٨٥١ ـ وَقَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ : الشَّيْطَانُ مِنَ ٱلرِّجالِ وَٱلنِّساءِ في ثَلاثَةِ مَنازِلَ :

في ٱلنَّظَرِ وَٱلقَلْبِ وَٱلْفَرْجِ .

٨٥٢ ـ وَرُوِيَ أَنَّ أَعْرابِياً قال : خَرَجْتُ في لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ ، فَإِذا أَنا بِجارِيَةٍ ـ فَتاةٍ ـ كَأَنَّها فِلْقَةُ قَمَرٍ ، فَراوَدْتُها ، فَقالَتْ : أَمَا لَكَ زَاجِرٌ مِن عَقْلٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ ناهٍ مِن دِينٍ ! فَقُلْتُ : إِنَّهُ لا يَرانا إِلَّا ٱلْكَوَاكِبُ ؛ فَقَالَتْ : وَأَيْنَ مُكَوْكِبُها ! .

* * *

٨٥٣ ـ وَخَلا بَعْضُ ٱلأَعْرابِ بِٱمْرَأَةٍ ، فَهَمَّ بِها ، فَأَجابَتْهُ ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ ٱلرَّجُلِ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ أَدْرَكَتْهُ عِصْمَةُ ٱللهِ ، فَتَنَحّىٰ عَنْها ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مَنْ باعَ جَنَّةً عَرْضُها ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلأَرْضُ بِمِقْدَارِ فِتْرٍ بَيْنَ رِجْلَيْكِ لَقَلِيلُ ٱلْبَصَرِ بِٱلْمَسَاحَةِ .

* * *

٨٥٤ ـ وَعَنِ ٱبْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، قَالَ : قالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « ٱنْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ ، حَتّىٰ إِذَا جَنَّ عَلَيْهِمُ ٱللَّيْلُ أَوَوْا إِلىٰ غارٍ في جَبَلٍ ، فَٱنْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ ٱلْجَبَلِ ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ ٱلْغارَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ٱنْظُرُوا أَعْمالًا عَمِلْتُمُوها للهِ صَالِحَةً فَٱدْعُوا ٱللهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُها ؛ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : ٱللَّهُمَّ ! إِنَّه كانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبيرَانِ ، وَلي صِبْيَةٌ صِغارٌ ، كُنْتُ أَرْعىٰ عَلَيْهِمْ ، فَإِذا رُحْتُ عَلَيْهِمْ ، فَحَلَبْتُ ، بَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهُمَا قَبْلَ وَلَدِي ، فَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُما أَهْلًا ولا مالًا[1] ، وَإِنَّهُ نَأىٰ بِيَ ٱلشَّجَرُ[2] ، فَمَا أَتَيْتُ حَتّىٰ أَمْسَيْتُ ، فَوَجَدْتُهُما قَدْ ناما ، فَحَلَبْتُ لَهُما غَبُوقَهُما ، وَقُمْتُ عِنْدَ رَأْسَيْهِما أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُما مِنْ نَوْمِهِما ، وَأَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَ بِٱلصِّبْيَةِ قَبْلَهُما ، وَٱلصِّبْيَةُ

---

(١) أَي : ما كُنْتُ أُقَدِّمُ عَلَيْهِما أَحَداً في شُرْبِ نَصيبِهِما فِي ٱللَّبَنِ ٱلَّذِي يَشْرَبانِهِ ، مِنَ ٱلْغَبُوقِ ، وَهُوَ شُرْبُ ٱلْعَشِيِّ ، مُقابِلِ ٱلصَّبُوحِ ؛ وَمُرادُهُ بِٱلأَهْلِ زَوْجُهُ وَوَلَدُهُ ، وَبِٱلْمَالِ رَقِيقُهُ وَخَدَمُهُ .

(٢) بَعُدَ عَلَيْهِ ٱلشَّجَرُ لِطَلَبِ ٱلْمَرْعىٰ .

يَتَضاغَوْنَ[١] عِنْدَ قَدَمي ، فَلَبِثْتُ وَٱلْقَدَحُ عَلىٰ يَدِي أَنْتَظِرُ ٱسْتِيقاظَهُما حَتَّىٰ بَرَقَ ٱلْفَجْرُ ـ أَضاءَ ـ ، فَٱسْتَيْقَظا ، فَشَرِبا غَبُوقَهُما ؛ ٱللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعلْتُ ذٰلِكَ ٱبْتِغاءَ وَجْهِكَ فَٱفْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ مِنْ هٰذِهِ ٱلصَّخْرَةِ ؛ فَٱنْفَرَجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطِيعُونَ ٱلْخُرُوجَ ؛ وَقالَ ٱلثَّانِي : ٱللَّهُمَّ ! كانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُها عَنْ نَفْسِها ، فَٱمْتَنَعَتْ مِنِّي ، حَتّىٰ أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ ٱلسِّنِينَ[٢] ، فَجاءَتْنِي ، فَأَعْطَيْتُها عِشْرِينَ ومِئَةَ دِينارٍ عَلىٰ أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِها ، فَفَعَلَتْ ، حَتّىٰ إِذا قَدَرْتُ عَلَيْها ، قَالَتْ : لا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ ٱلْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ؛ فَتَحَرَّجْتُ مِنَ ٱلْوُقُوعِ عَلَيْها ، فَٱنْصَرَفْتُ عَنْها وَهِيَ أَحَبُّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ ٱلذَّهَبَ ٱلَّذي أَعْطَيْتُها ؛ ٱللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَٱفْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فِيهِ ؛ فَٱنْفَرَجَتِ ٱلصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطيعُونَ ٱلْخُرُوجَ مِنْها ؛ وَقالَ ٱلثَّالِثُ : ٱللَّهُمَّ ! إِنِّي ٱسْتَأْجَرْتُ أُجَراءَ ، فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ ٱلَّذي لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتّىٰ كَثُرَتْ مِنْهُ ٱلأَمْوَالُ ، فَجاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقالَ : يا عَبْدَ ٱللهِ ! أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي ! فَقُلْتُ لَهُ : كُلُّ ما تَرىٰ مِنْ أَجْرِكَ مِنَ ٱلإِبِلِ وَٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلرَّقِيقِ ؛ فَقالَ : يا عَبْدَ ٱللهِ ! لا تَسْتَهْزِىءُ بي ! فَقُلْتُ : إِنِّي لا أَسْتَهْزِىءُ بِكَ ؛ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَٱسْتاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئاً ؛ ٱللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذٰلِكَ ٱبْتِغاءَ وَجْهِكَ فَٱفْرُجْ عَنَّا ما نَحْنُ فيهِ ؛ فَٱنْفَرَجَتِ ٱلصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ [ البخاري ، رقم : ٢٢٧٢ و٣٤٦٥ ؛ مسلم ، رقم : ٢٧٤٣] .

* * *

٨٥٥ ـ وَجاءَ في ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ

---

(١) يَتَضاغَوْنَ : يَصِيحُونَ وَيَبْكُونَ .

(٢) يُرِيدُ أَنَّها أَصابَها قَحْطٌ وَجَدْبٌ .

إِلَّا ظِلُّهُ[١] » . فَذَكَرَ مِنْهُمْ رَجُلًا دَعَتْهُ ٱمْرَأَةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ ٱللهَ . [ البخاري ، رقم : ٦٦٠ ؛ مسلم ، رقم : ١٠٣١] .

* * *

٨٥٦ ـ وَقَالَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طالِبٍ : سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ ـ وَذُكِرَ ٱلنَّظَرُ إِلىٰ ٱلنِّساءِ ـ فَقَالَ : « ٱلنَّظْرَةُ ٱلأُولىٰ لكَ ـ يَعْنِي : نَظْرَةَ ٱلْفَجْأَةِ ـ وَٱلثَّانِيَةُ عَلَيْكَ لا لَكَ ، وَٱلنَّظَرُ إِلىٰ ٱلْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ ، فَمَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ ٱللهِ تَعالىٰ آتاهُ ٱللهُ إِيماناً يَجِدُ حَلاوَتَهُ في قَلْبِهِ » [« مستدرك الحاكم » ، رقم : ٧٨٧٥/٣٢ ، عن حذيفة ؛ راجع الترمذي ، رقم : ٢٧٧٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٤٩] .

* * *

٨٥٧ ـ وَفي ٱلْحَديثِ ٱلشَّريفِ : « ٱلْعَيْنَانِ تَزْنِيانِ ، وَزِناهُما ٱلنَّظَرُ » [راجع البخاري ، رقم : ٦٢٤٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٦٥٧] .

* * *

٨٥٨ ـ وَفيهِ : « نَظَرُ ٱلرَّجُلِ إِلىٰ مَحَاسِنِ ٱلْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمومٌ مِنْ سِهامِ إِبْلِيسَ » [ « كنز العمال » ، رقم : ١٣٠٧٣] .

* * *

٨٥٩ ـ وَمِنْ كَلامِ ٱلسَّيِّدِ ٱلْمَسِيحِ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ : « ٱلنَّظَرُ يَزْرَعُ في ٱلْقَلْبِ ٱلشَّهْوَةَ ، وَكَفىٰ بِها خَطِيئَةً » [ راجع « كشف الخفاء » ، رقم : ١٣٢٠] .

* * *

---

(١) يُظِلُّهُمُ ٱللهُ في ظِلِّهِ ، ٱلْمُرادُ : يَشْمَلُهُمْ بِرَحْمَتِهِ ؛ وَيَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ، أَي : لا رَحْمَةَ إِلَّا رَحْمَتِهِ ، وَهُوَ يَوْمُ ٱلْقِيامَةِ .

٨٦٠ ـ وَقَدْ أَكْثَرَ ٱلشُّعَراءُ في وَصْفِ ما يُحْدِثُهُ ٱلنَّظَرُ مِنَ ٱلْبَلايا ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّيِّ [من الكامل] :

وَأَنا ٱلَّذي ٱجْتَلَبَ ٱلْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ ... فَمَنِ ٱلْمُطالَبُ وَٱلقَتِيلُ ٱلْقاتِلُ

٨٦١ ـ وَقالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من الوافر] :

وَمَا أَدْري إِذا ما جَنَّ لَيْلٌ ... أَشَوْقاً في فُؤادي أَمْ حَريقا

أَلا يا مُقْلَتَيَّ ، دَهَيْتُماني ... بِلَحْظِكُما فَذُوقا ثُمَّ ذُوقا

٨٦٢ ـ وَقالَ بَعْضُهُمْ [من مجزوء الرمل] :

أَنا ما بَيْنَ عَدُوَّيْـ ... ـنِ هُما : قَلْبي وَطَرْفي

يَنْظُرُ ٱلطَّرْفُ وَيَهْوىٰ الـ ... ـقَلْبُ وَٱلْمَقْصُودُ حَتْفي

٨٦٣ ـ وَقالَ آخَرُ [من الخفيف] :

فَتَصَبَّرْ ولا تَشِمْ كُلَّ بَرْقٍ ... رُبَّ بَرْقٍ فيهِ صَواعِقُ حَيْنِ

وَٱغْضُضِ ٱلطَّرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرامٍ ... تَكْتَسي فيهِ ثَوْبَ ذُلٍّ وَشَيْنِ

فَقِيادُ ٱلْفَتىٰ مُوافَقَةُ ٱلنَّفْـ ... ـسِ وَبَدْءُ ٱلْهَوىٰ طُمُوحُ ٱلْعَيْنِ

* * *

٨٦٤ ـ وَلِمُناسَبَةِ ٱلنَّظَرِ نُورِدُ عَلَيْكَ بَعْضَ طُرَفِهِمْ فِيهِ :

نَظَرَ أَشْعَبُ يَوْماً إِلىٰ ٱبْنِهِ وَهُوَ يُدِيمُ ٱلنَّظَرَ إِلىٰ ٱمْرَأَةٍ ، فَقالَ : يا بُنَيَّ ! نَظَرُكَ هَذا يُحْبِلُ .

٨٦٥ ـ وَقالَ بَعْضُ ٱلشُّعَراءِ في هَذا ٱلْمَعْنىٰ [من الطويل] :

وَلي نَظْرَةٌ لَوْ كانَ يُحْبِلُ ناظِرٌ ... بِنَظْرَتِهِ أُنْثىٰ لَقَدْ حَبِلَتْ مِنّي

٨٦٦ ـ وَقالَ الشّاعِرُ [من الكامل] :

وَمُــراقَبَيْــنِ يُكَتِّمــانِ هَــوَاهُمــا جَعَــلا ٱلصُّــدُورَ لِمَـا تَجِــنُّ قُبُــورَا
يَتَــلاحَظَــانِ تَــلاحُظــاً فَكَــأَنَّمــا يَتَنــاسَخـانِ مِـنَ ٱلْجُفُـونِ سُطُـورا

٨٦٧ ـ وَقَالَ أَعْرابِيٌّ [ وَيُنْسَبُ لِجَميلِ بُثَيْنَةَ ، من الطويل ] :

وَمَــا خَــاطَبَتْهــا مُقْلَتَــايَ بِنَظْــرَةٍ فَتَفْهَــمَ نَجْـوانـا ٱلْعُيُـونُ ٱلنَّـوَاظِـرُ
وَلَكِـنْ جَعَلْـتُ ٱلْـوَهْـمَ بَيْنِي وَبَيْنَهـا رَسُـولًا فَـأَدَّىٰ مـا تَجِـنُّ ٱلضَّمـائِـرُ

٨٦٨ ـ وَنَحْوَهُ قَوْلُ أَبي ٱلْعَتاهِيَةِ [من الطويل] :

أَما وَٱلَّذي لَوْ شاءَ لَمْ يَخْلُقِ ٱلنَّوىٰ لَئِنْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي لَما غِبْتَ عَنْ قَلْبي
تُـرينيـكَ عَيْـنُ ٱلْـوَهْـمِ حَتّىٰ كَـأَنَّني أُناجِيكَ مِن قُرْبٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قُرْبي

* * *

٨٦٩ ـ رَجْعُ ما ٱنْقَطَعَ :

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ ٱللَّذَّةَ مَشُوبَةٌ بِٱلْقُبْحِ ، فَفَكِّرُوا في ٱنْقِطاعِ ٱللَّذَّةِ وَبَقاءِ ذِكْرِ ٱلْقُبْحِ .

* * *

٨٧٠ ـ وَقَالَ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ إِبْراهِيمُ [ بْنُ مُحَمَّدٍ ] بْنِ عَرَفَةَ [ ٱلْمُلَقَّبُ بِنِفْطَوَيْه ] [من البسيط] :

كَمْ قَدْ ظَفِرْتُ بِمَنْ أَهْوىٰ فَيَمْنَعُنِي مِنْـهُ ٱلْحَيَـاءُ وَخَـوْفُ ٱللهِ وَٱلْحَـذَرُ
وَكَـمْ خَلَـوْتُ بِمَـنْ أَهْـوىٰ فَيُقْنِعُنـي مِنْـهُ ٱلْفُكـاهَـةُ وَٱلتَّقْبيـلُ وَٱلنَّظَـرُ
أَهْوَىٰ ٱلْمِلاحَ وَأَهْوىٰ أَنْ أُجالِسَهُمْ وَلَيْـسَ لـي فـي حَـرامٍ مِنْهُـمُ وَطَـرُ
كَـذَلِـكَ ٱلْحُـبُّ لا إِتْيـانُ مَعْصِيَـةٍ لا خَيْـرَ فـي لَـذَّةٍ مِـنْ بَعْدِهـا سَقَـرُ

* * *

٨٧١ ـ وَقَالَ أَيْضاً [من الكامل] :

لَيْسَ ٱلظَّرِيفُ بِكَامِلٍ في ظَرْفِهِ حَتّىٰ يَكُونَ عَنِ ٱلْحَرامِ عَفيفا
فَإِذا تَعَفَّفَ عَنْ مَحارِمِ رَبِّهِ فَهُناكَ يُدْعىٰ في ٱلأَنامِ ظَرِيفا

* * *

٨٧٢ ـ وَقَالَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من البسيط] :

أَتَأْذَنُونَ لِصَبٍّ في زِيارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَواتُ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ
لا يُضْمِرُ ٱلسُّوءَ إِنْ طَالَ ٱلْجُلُوسُ بِهِ عَفُّ ٱلضَّميرِ وَلَكِنْ فاسِقُ ٱلنَّظَرِ

* * *

٨٧٣ ـ وَقَالَ سَعيدُ بْنُ حُمَيْدٍ [من الخفيف] :

زائِرٌ زارَنا عَلىٰ غَيْرِ وَعْدِ مُخْطَفُ ٱلْكَشْحِ[١] مُثْقَلُ ٱلأَرْدَافِ
غالَبَ ٱلْخَوْفَ حِينَ غالَبَهُ ٱلشَّوْ قُ وَأَخْفىٰ ٱلْهَوىٰ وَلَيْسَ بِخافِ
غَضَّ طَرْفِيَ عَنْهُ تُقىٰ ٱللهِ فَٱخْتَرْ تُ عَلىٰ بَذْلِهِ بَقاءَ ٱلتَّصافي
ثُمَّ وَلّىٰ وَٱلْخَوْفُ قَدْ عَمَّ عِطْفَيْـ ـهِ وَلَمْ يَخْلُ مِنْ لِباسِ ٱلْعَفافِ

* * *

٨٧٤ ـ وَقَالَ صَرِيعُ ٱلْغَوَانِي مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ [من الطويل] :

وَمَا ذَمِّيَ ٱلأَيامَ أَنْ لَسْتُ مادِحاً لِعَهْدِ لَيالِيها ٱلَّتِي سَلَفَتْ قَبْلُ
أَلَا رُبَّ يَوْمٍ صادِقِ ٱلْعَيْشِ نِلْتُهُ بِهَا وَنَدِيمايَ ٱلْعَفافَةُ وَٱلْبَذْلُ

* * *

(١) مُخْطَفُ ٱلْكَشْحِ : ضَامِرُ ٱلْخَصْرِ .

٨٧٥ ـ وَدَخَلَ رَجُلٌ غَيْضَةً لَهُ ، فَقَالَ : لَوْ خَلَوْتُ هُنا بِفُلانَةٍ فَلَمْ يَرَنا أَحَدٌ ؟ فَسَمِعَ صَوْتاً مَلأَ ٱلْغَيْضَةَ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [٦٧ سورة الملك/ الآية : ١٤] .

٨٧٦ ـ وَهَذا كَمَا قَالَ نابِغَةُ بَنِي شَيْبانَ [من الخفيف] :

إِنَّ مَنْ يَرْكَبُ ٱلْفَواحِشَ سِرّاً حِينَ يَخْلو بِسِرِّهِ غَيْرُ خالِ
كَيْفَ يَخْلو وَعِنْدَهُ كاتِباهُ شاهِداهُ وَرَبُّهُ ذُو ٱلْجَلالِ

[ « الأمالي » للقالي ٢/٢٦٨ ؛ الديوان ، صفحة : ١٥١ ، رقم : ١٠ ] .

٨٧٧ ـ وَقالَ [أَبو ٱلْعَتَاهِيَةِ أو صالح بن عبد القدوس ، من الطويل] :

إِذا ما خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْماً فلا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقيبُ
وَلا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ يَغْفُلُ ساعَةً وَلا أَنَّ ما تُخْفيهِ عَنْهُ يَغيبُ

* * *

٨٧٨ ـ وَكانَ رَجُلٌ مِنْ قُرّاءِ أَهْلِ مَكَّةَ وَنُسَّاكِها يُسَمّىٰ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ٱبْنُ أَبي عَمَّارٍ الجُشَمِيُّ ، وَكَانَ يُسَمَّىٰ : ٱلْقَسَّ ، لِنُسُكِهِ وَعِبادَتِهِ ، وَكانَ يُشَبَّهُ بِعَطَاءِ ٱبْنِ أَبي رَباحٍ ، فَمَرَّ ذاتَ يَوْمٍ بِدَارِ سَلَّامَةَ ٱلْمُغَنِّيَةِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِسَلَّامَةِ ٱلْقَسِّ[1] ، وَإِنَّما سُمِّيَتْ بِهِ ، فَسَمِعَ غِناءَها عَلىٰ غَيْرِ تَعَمُّدٍ مِنْهُ لِذَلِكَ ، فَبَلَغَ غِناؤُها مِنْهُ كُلَّ مَبْلَغٍ ، فَرآهُ مَوْلاها ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ لَكَ أَنْ أُخْرِجَها إِلَيْكَ أَوْ تَدْخُلَ فَتَسْمَعُ !؟ فَأَبىٰ ؛ فَقالَ مَوْلاها : أَنا أُقْعِدُها في مَوْضِعٍ تَسْمَعُ غِناءَها وَلا تَراها ؛ فَأَبىٰ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ دَخَلَ ، فَأَسْمَعَهُ غِناءَها ، فَأَعْجَبَهُ ، فَقالَ لَهُ : هَلْ لَكَ في أَنْ أُخْرِجَها إِلَيْكَ ؟ فَأَبىٰ ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتّىٰ أَخْرَجَها ، فَأَقْعَدَها

---

(١) ٱنْظُرْ أَخْبارَها في « الأَغاني » ج٢ طَبْعَةِ دَارِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمِصْرِيَّةِ .

بَيْنَ يَدَيْهِ ، فتَغَنَّتْ ، فَشُغِفَ بِها وَشُغِفَتْ بِهِ ، وَعَرَفَ ذَلِكَ أَهْلُ مَكَّةَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ يَوْماً : أَنا وَٱللهِ أُحِبُّكَ ! قالَ : وَأَنا وَٱللهِ أُحِبُّكِ ! قالَتْ : وَأُحِبُّ أَنْ أَضَعَ فَمِي عَلىٰ فَمِكَ ؛ قالَ : وَأَنا وَٱللهِ أَحِبُّ ذَاكَ ؛ قَالَتْ : فَما يَمْنَعُكَ ؟ فَوالله إِنَّ ٱلْمَوْضِعَ لَخَالٍ . قالَ : إِنِّي سَمِعْتُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/الآية : ٦٧] وأَنَا أَكْرَهُ أَنْ تَكُونَ خُلَّةُ ما بَيْنِي وَبَيْنِكَ تَؤُولُ إِلىٰ عَدَاوَةٍ ؛ ثُمَّ قامَ وَٱنْصَرَفَ وَعَادَ إِلىٰ ما كانَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلنُّسُكِ . . وَلَهُ فِيها أَشْعارٌ تَجِدُها في « الأَغاني » .

* * *

٨٧٩ ـ وَقيلَ لِبَعْضِ ٱلأَعْرابِ وَقَدْ طَالَ حُبُّهُ لِجَارِيَةٍ ـ فَتَاةٍ ـ : ما كُنْتَ صانِعاً لَوْ ظَفِرتَ بِهَا وَلا يَراكُما إِلَّا ٱلله تَعالىٰ ؟ قَالَ : أَخَافُ ٱللهَ ، وَلا أَجْعَلُهُ أَهْونَ ٱلنَّاظِرِينَ . . . وَلَكِنْ أَصْنَعُ مَعَها ما أَصْنَعُ بِحَضْرَةِ أَهْلِها : حَديثٌ طَويلٌ ، وَلَحْظٌ كَلِيلٌ ، وَتَرْكُ ما يَكْرَهُهُ ٱلرَّبُّ ، وَيَنْقَطِعُ بِهِ ٱلْحُبُّ .

* * *

٨٨٠ ـ وَقالَ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ مُطَيْرٍ مِنْ أَبْياتٍ [من الطويل] :

وَما ٱلْجُودُ عَنْ فَقْرِ ٱلرِّجَالِ وَلَا ٱلْغِنىٰ ... وَلَكِنَّهُ خِيمُ ٱلرِّجَالِ وَخِيرُها
وَقَدْ تَغْدِرُ ٱلدُّنْيا فَيُضْحِي غَنِيُّها ... فَقيراً وَيَغْنىٰ بَعْدَ بُؤْسٍ فَقِيرُها
وَكَأَيِّنْ تَرَىٰ مِنْ حَالِ دُنْيا تَغَيَّرَتْ ... وَمَالٍ صَفا بَعْدَ ٱكْدِرارٍ غَدِيرُها
وَمِنْ طامِعٍ في حَاجَةٍ لَنْ يَنالَها ... وَمِنْ يائِسٍ مِنْها أَتاهُ يَسيرُها
وَمَنْ يَتَّبِعْ ما يُعْجِبُ ٱلنَّفْسَ لَمْ يَزَلْ ... مُطِيعاً لَها في فِعْلِ شَيْءٍ يَضِيرها
فَنَفْسَكَ أَكْرِمْ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَها تَسْتَعِيرُها
وَلا تَقْرَبِ ٱلأَمْرَ ٱلْحَرَامَ فَإِنَّهُ ... حَلاوَتُهُ تَفْنىٰ وَيَبْقىٰ مَرِيرُها

* * *

٨٨١ ـ وَقَالَ عَقيلُ بْنُ عُلَّفَةَ مِنْ أَبْياتٍ أَوْرَدَها أَبو تَمَّامٍ في « حَماسَتِهِ » [من الوافر] :

وَلَسْتُ بِصادِرٍ عَنْ بَيْتِ جاري صُدُورَ ٱلْعَيْرِ غَمَّرَهُ ٱلْوَرُودُ
وَلَسْتُ بِسائِلٍ جاراتِ بَيْتِي أَغُيَّابٌ رِجالُكِ أَمْ شُهودُ
وَلا أُلْقِي لِذِي ٱلْوَدَعاتِ سَوْطِي لأُلْهِيَهُ وَرَبَّتَهُ أُرِيدُ

العَيْرُ : ٱلْحِمَارُ ، يَقُولُ : لا أَصْدُرُ عَنْ بَيْتِ جارِي مِثْلَ ٱلْحِمَارِ قَدْ تَغَمَّرَهُ ، أَيْ : لَمْ يَرْوَ ، وَفِيهِ حاجَةٌ إِلىٰ ٱلْعَوْدَةِ ؛ يَعْنِي : لا أَلْتَفِتُ إِلىٰ بَيْتِ جارَتي كَمَا يَلْتَفِتُ ٱلْحِمَارُ إِلىٰ ٱلْمَاءِ إِذا صَدَرَ غَيْرَ رَيَّانٍ ، أَوْ تَقُولُ : لا أَخْرُجُ خُرُوجَ ٱلْخَائِفِ ؛ وَشُهُودُ : حاضِرونَ ؛ وَذُو ٱلْوَدَعَاتِ : ٱلصَّبِيُّ ؛ وَرَبَّتُهُ : أُمُّهُ ؛ يَقُولُ : لا أُلْهِي ٱلصَّبِيَّ بِٱلسَّوْطِ قاصِداً بِذَلِكَ إِلىٰ مُغازَلَةِ أُمِّهِ .

٨٨٢ ـ وَهَذا مِثْلُ قَوْلِ مِسْكِينٍ ٱلدَّارِمِيِّ [من السريع] :

لا آخُذُ ٱلصِّبْيانَ أَلْثِمُهُمْ وَٱلأَمْرُ قَدْ يُغْزَىٰ بِهِ ٱلأَمْرُ

يُغْزَىٰ : يُقْصَدُ ، مِن قَوْلِهِمْ : قَدْ عَرَفْتُ مَغْزاكَ .

٨٨٣ ـ وَقَالَ صاعِدُ ٱللُّغَوِيُّ صاحِبُ « ٱلْفُصُوصِ » وَٱلَّذي وَفَدَ إِلىٰ ٱلأَنْدَلُسِ ؛ فِي مِثْلِ هَذا ٱلْمَعْنىٰ [من البسيط] :

إِذا رَأَيْتَ صَبِيَّ ٱلْقَوْمِ يَلْثِمُهُ ضَخْمُ ٱلْمَنَاكِبِ لا عَمٌّ وَلا خالُ
فَٱحْفَظْ ثِيابَكَ مِنْهُ أَنْ يُدَنِّسَها ولا يُغَرَّنْكَ حُسْنُ ٱلْحَالِ وَٱلمالُ

وَلَهُمْ في هَذا ٱلْمَعْنىٰ ٱلدَّقيقِ كَثيرٌ ، فَلِلَّهِ دَرُّهُمْ ، فَقَدْ ٱسْتَشَفُّوا ٱلضَّمائِرَ وَتَغَلْغَلُوا في أَعْماقِ ٱلنُّفوسِ وَفَطِنُوا إِلىٰ أَغْراضِها وَمَغازِيها .

* * *

٨٨٤ ـ وَقَالَ ٱبْنُ حَبْنَاءَ التَّميميُّ ـ شاعِرٌ أُمَوِيٌّ ـ [من البسيط] :

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ حَالٍ تُزَيِّنُ لِي ... لَوْمَ ٱلْعَشِيرَةِ أَوْ تُدْنِي مِنَ ٱلنَّارِ
لا أَقْرُبُ ٱلْبَيْتَ أَحْبُو مِنْ مُؤَخَّرِهِ ... وَلا أُكَسِّرُ في ٱبْنِ ٱلْعَمِّ أَظْفارِي
إِنْ يَحْجُبَ اللهُ أَبْصاراً أُراقِبُها ... فَقَدْ يَرىٰ ٱللهُ حَالَ ٱلْمُدْلِجِ ٱلسَّارِي

وَقَوْلُهُ : لا أَقْرُبُ ٱلْبَيْتَ أَحْبُو مِنْ مُؤَخَّرِهِ ، يُرِيدُ : لا آتِيهِ لِرِيبَةٍ ؛ وَقَوْلُهُ : وَلا أُكَسِّرُ في ٱبْنِ ٱلْعَمِّ أَظْفارِي ، يَقُولُ : لا أَغْتابُهُ ؛ وَٱلْمُدْلِجُ : ٱلَّذي يَسيرُ مِنْ أَوَّل ٱللَّيْلِ ، وَٱلسُّرىٰ لا يَكُونُ إِلَّا سَيْرَ ٱللَّيْلِ . [ راجع حاشية رقم : ٨٨٥ ] .

* * *

٨٨٥ ـ وَقالَ شاعِرٌ يُسَمّىٰ هِلالُ بْنُ خَثْعَم [من الطويل] :

وَإِنِّي لَعَفٌّ عَنْ زِيارَةِ جارَتي ... وَإِنِّي لَمَشْنُوءٌ إِلَيَّ ٱغْتِيابُها
إِذا غابَ عَنْها بَعلُها لَمْ أَكُنْ لَها ... زَؤوراً وَلَمْ تَنْبَحْ عَلَيَّ كِلابُها
وَما أَنا بِٱلدَّارِي أَحاديثَ بَيْتِها ... وَلا عالِماً مِنْ أَيِّ حَوْكٍ ثِيابُها
وَإِنَّ قِرابَ ٱلْبَطْنِ يَكْفِيكَ مِلأَهُ ... وَيَكْفِيكَ سَوْءاتِ ٱلأُمُورِ ٱجْتِنابُها

قالَ ٱلسَّيِّدُ ٱلْمُرْتَضىٰ في « أماليهِ » : قَدْ جَمَعَتْ هَذِهِ ٱلأَبياتُ فِقَراً عَجيبةً ، وَكِناياتٍ بَليغَةً ، لأَنَّهُ نَفىٰ عَنْ نَفْسِهِ زِيارَةَ جارَتِه عِنْدَ غَيبَةِ بَعْلِها ، وَخَصَّ حالَ ٱلغَيْبَةِ ، لأَنَّها أَدْنىٰ إِلىٰ ٱلرِّيبَةِ وَأَخصُّ بِٱلتُّهْمَةِ ؛ فَقالَ : وَلَمْ تَنْبَحْ عَلَيَّ كِلابُها ، أَرادَ : إِنِّي لا أَطْرُقُها لَيْلاً مُسْتَخْفِياً مُتَنَكِّراً ، فَتُنْكِرَني كِلابُها وَتَنْبَحُني ، وَهَذِهِ ٱلْكِنايَةُ تَجْري مَجْرىٰ قَوْلِ ٱلآخَرِ : لا أَدْخُلُ ٱلْبَيْتَ أَحْبُو مِنْ مُؤَخَّرِهِ[1] ؛

---

(١) هُوَ صَدْرُ بَيْتٍ مِنْ أَبْياتٍ جَميلَةٍ لابْنِ حَبْناءَ ٱلتَّميمِيِّ ـ شاعِرٌ أُمَوِيٌّ ـ [مَرَّ بَعْضٌ مِنْهَا رقم : ٨٨٤] وَهِيَ [من البسيط] :

إِنّي هَزِئْتُ مِنْ أُمِّ ٱلْقَمْرِ إِذْ هَزِئَتْ ... بِشَيْبِ رَأْسِي وَما بِٱلشَّيْبِ مِنْ عارِ
ما شِقْوَةُ ٱلْمَرْءِ بِٱلإِقْتارِ يُقْتِرُهُ ... وَلا سَعادَتُهُ يَوْماً بِإِكْثارِ=

وَرُوِيَ : وَلَمْ تَأْنَسْ إِلَيَّ كِلابُها ، وَهَذا مَعْنىً آخَرُ ، كَأَنَّهُ أَرادَ : إِنَّهُ لَيْسَ يُكْثِرُ ٱلطُّروقَ إِلَيْها وَٱلْغِشْيانَ لِمَنْزِلِها فَتأْنَسُ بِهِ كِلابُها ، لأَنَّ ٱلأُنْسَ لا يَكُونُ إِلَّا مَعَ ٱلْمُواصَلَةِ ؛ وَقَوْلُهُ : وما أَنا بِٱلدَّارِي أَحاديثَ بَيْتِها ، أَرادَ بِهِ أَيْضاً ٱلتَّأْكِيدَ في نَفْيِ زِيارَتِها وَطُرُوقِها عَنْ نَفْسِهِ ، لأَنَّهُ إِذا أَدْمَنَ ٱلزِّيارَةَ عَرَفَ أَحاديثَ بَيْتِها ، فَإِذا لَمْ يَزُرْها لَمْ يَعْرِفْ ؛ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُريدَ أَنَّني لا أَسْأَلُ عَنْ أَحْوالِها وَأَحاديثِها كَما يَفْعَلُ أَهْلُ ٱلْفُضُولِ ، فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَقَوْلُهُ : وَلا عالِماً مِنْ أَيِّ حَوْكٍ ثِيابُها ، كِنايَةٌ مَليحَةٌ عَنْ أَنَّهُ لا يَجْتَمِعُ مَعَها ولا يَقْرُبُ مِنْها ، فَيَعْرِفُ صِفَةَ ثِيابِها ؛ أَقُولُ : أَمَّا قَوْلُهُ : وَإِنَّ قِرابَ ٱلْبَطْنِ يَكْفيكَ مِلأَهُ : فَإِنَّ ما يُقارِبُ ٱلشِّبَعَ يَكْفيكَ لا ٱلامْتِلاءُ ؛ فَقِرابُ ٱلشَّيْءِ : ما قارَبَ قَدْرَهُ .

* * *

٨٨٦ ـ وَوَصَفَ أَعْرابيٌّ ٱمْرَأَةً طَرَقَها ، فَقالَ : ما زَالَ ٱلْقَمَرُ يُرِينِيها ، فَلَمّا غابَ أَرَتْنِيهِ ؛ فَقيلَ : فَمَا كانَ بَيْنَكُما ؟ قالَ : ما أَقْرَبَ ما أَحَلَّ ٱللهُ مِمَّا حَرَّمَ ! إِشارَةٌ في غَيْرِ بَأْسٍ ، وَدُنُوٌّ غَيْرُ ماسٍّ ، ولا وَجَعٌ أَشَدَّ مِنَ ٱلذُّنُوبِ .

* * *

---

= إِنَّ ٱلشَّقِيَّ ٱلَّذِي فِي ٱلنَّارِ مَنْزِلُهُ ... وَٱلْفَوْزُ فَوْزُ ٱلَّذِي يَنْجُو مِنَ ٱلنَّارِ
أَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ أَمْرٍ يُزَيِّنُ لي ... لَوْمَ ٱلْعَشِيرَةِ أَوْ يُدْني مِنَ ٱلْعارِ
وَخَيْرُ دُنْيا يُنَسِّي شَرَّ آخِرَةٍ ... وَسَوْفَ يُنْبِئُنِي ٱلْجَبَّارُ أَسْراري
لا أَدْخُلُ ٱلْبَيْتَ أَحْبُو مِنْ مُؤَخَّرِهِ ... وَلا أُكَسِّرُ فِي ٱبْنِ ٱلْعَمِّ أَظْفاري
إِنْ يَحْجُبِ ٱللهُ أَبْصاراً أُراقِبُها ... فَقَدْ يَرَىٰ ٱللهُ حالَ ٱلْمُدْلِجِ السَّاري

فَقَوْلُهُ : لا أَدْخُلُ ٱلْبَيْتَ أَحْبُو مِنْ مُؤَخَّرِهِ ، يُريدُ : إِنَّني لا أَقْصِدُ ٱلْبَيْتَ لِلرِّيبَةِ وَٱلْفَسادِ ، لأَنَّ مِنْ شَأْنِ مَنْ يَسْعىٰ إِلىٰ إِفْسادِ ٱلْحُرَمِ وَيَقْصِدُ ٱلْبُيُوتَ لِلرِّيبَةِ أَنْ يَعْدِلَ عَنْ أَبْوابِها طَلَباً لإِخْفاءِ أَمْرٍ ؛ وَقَوْلُهُ : وَلا أُكَسِّرُ في ٱبْنِ ٱلْعَمِّ أَظْفاري ، أَرادَ أَنَّهُ لا يَصِلُ ٱبْنَ ٱلْعَمِّ مِنِّي السُّوءُ وَلا يَتَأَلَّمُ بِشَيْءٍ مِنْ جِهَتي فَأَكُونَ كَأَنَّني قَدْ جَرَحْتُهُ بِأَظْفاري وَكَسَرْتُها في لَحْمِهِ .

٨٨٧ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلظُّرَفاءِ : كانَ أَرْبابُ ٱلْهوىٰ يُسَرُّونَ فِيما مَضىٰ وَيَقْنَعُونَ بِأَنْ يَمْضَغُ أَحَدُهُمْ لُباناً قَدْ مَضَغَتْهُ حَبِيْبَتُهُ ، أَوْ يَسْتاكَ بِسوَاكِها ، وَيَرَوْنَ ذَلِكَ عَظيماً . وَٱلْيَوْمَ يَطْلُبُ أَحَدُهُمُ ٱلْخَلْوَةَ وَإِرْخاءَ ٱلسُّتُورِ كَأَنَّهُ قَدْ أَشْهَدَ عَلىٰ نِكاحِها أَبا سَعيدٍ وَأَبا هُرَيرة !.

٨٨٨ ـ وَقالَ ٱلْمُتَنَبي [من الكامل] :

إِنِّي عَلىٰ شَغَفِي بِما في خُمْرِها ... لأَعِفُّ عَمَّا في سَرَاوِيلاتِها

وَتَرىٰ ٱلْفُتُوَّةَ وَٱلْمُرُوَّةَ وَٱلأُبُوَّ ... ةَ فِيَّ كُلِّ مَليحَةٍ ضَرّاتِها

هُنَّ ٱلثَّلاثُ ٱلْمانِعاتي لَذَّتي ... في خَلْوَتي لا ٱلْخَوْفُ مِنْ تَبِعاتِها

ٱلْخُمْرُ جَمْعُ خِمَارٍ ، وَهُوَ ما تُغَطِي بِهِ ٱلْمَرْأَةُ رَأْسَها ؛ وَٱلسَّرَاوِيلاتُ جَمْعُ سِرْوَالٍ ، وَهُوَ ذَلِكَ ٱللِّباسِ ٱلْخَاصِّ بِسَتْرِ ٱلنِّصْفِ ٱلأَسْفَلِ مِنَ ٱلْجِسْمِ ؛ وَكَانَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ يَسْتَهْجِنُ قَوْلَ ٱلْمُتَنبِّي : عَما في سَرَاوِيلاتِها ، وَيَقُولُ : كانَ ٱلْشُّعَرَاءُ يَصِفُونَ ٱلْمَآزِرِ تَنْزِيْهاً لأَلْفاظِها عَمَّا يُسْتَشْنَعُ حَتّىٰ تَخَطّىٰ هَذا ٱلشَّاعِرُ ٱلْمَطْبُوعَ . . . إِلىٰ ٱلتَّصْرِيح . . .

وَكَثيرٌ مِنَ ٱلْعَهْرِ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنْ هَذا ٱلْعَفَافِ . . . قَالَ بَعْضُهُمْ : هَذا مِمَّا عابَهُ ٱلصَّاحِبُ عَلىٰ ٱلْمُتَنبِّي ، وَإِنَّما قَالَ ٱلْمُتَنبي : عَمّا في سَرابيلاتِها ، جَمْعُ سِرْبالٍ ، وَهُوَ ٱلْقَمِيصُ . يَقُولُ ٱلْمُتَنبّي في هَذا ٱلْبَيْتِ : إِنِّي مَعَ حُبِّي لِوَجْهِهِنَّ أَعُفُّ عَنْ أَبْدانِهِنَّ ، ثُمَّ قَالَ : في ٱلْبَيْتَيْنِ ٱلتَّالِيَيْنِ : إِنَّ ٱلْفُتُوَّةَ ـ الكَرَمُ ـ وَٱلْمُرُوَّةَ ـ ٱلإِنْسانِيَّةُ ـ وَٱلأُبُوَّةَ ـ ٱلإِباءُ وَٱلأَنَفَةُ وَعِزَّةُ ٱلنَّفْسِ ـ إِنَّ هَذِهِ ٱلْمَعَاني هِيَ ٱلَّتي تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْخَلْوَةِ بِٱلْحِسَانِ ، فَكَأَنَّها ضَرائِرُ لَهُنَّ ، فَهِيَ ٱلَّتي تَكُفُّهُ عَنْ لَذاذاتِهِ وَٱلتَّمَتُّعِ بِٱلْحِسانِ لا ٱلْخَوْفُ مِنْ تَبِعاتِها ؛ وَقَالَ قَوْمٌ : هَذا تَهاوُنٌ بِٱلدِّينِ وَضَرْبٌ مِنَ ٱلإِلْحَادِ ؛ وَقَدْ فاتَهُمْ أَنَّ هَذا مَذْهَبٌ لِلشُّعَراءِ مَعْرُوفٌ ، لا يُرِيدُونَ

ٱلتَّهاوُنَ بِٱلدِّينِ بَلِ ٱلْمُبالَغَةَ في وَصْفِ سَجَاياهُمْ وَأَخْلاقِهِمْ بِٱلطَّهارَةِ ، وَأَنَّهُمْ يَتْرُكُونَ ٱلْقَبيحَ لأَنَّهُ قَبيحٌ لا لِوُرُودِ ٱلشَّرْعِ بِهِ وَخَوْفِ ٱلْعِقابِ مِنَ ٱللهِ ، كَمَا قَالَ ٱلْمَعَرِّيُّ [من الكامل] :

وَلْتَفْعَلِ ٱلنَّفْسُ ٱلْجَميلَ لأَنَّهُ ... خَيْرٌ وَأَفْضَلُ لا لأَجْلِ ثَوابِها

* * *

٨٨٩ ـ وَدَخَلَتْ بُثَيْنَةُ عَلىٰ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَقَالَ : ما أَرىٰ فيكِ يا بُثَيْنَةُ مِمَّا كانَ يَلْهَجُ بِهِ جَميلٌ ! فَقالَتْ : إِنَّه كانَ يَرْنُو إِلَيَّ بِعَيْنَيْنَ لَيْسَتا في رَأْسِكَ يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنينَ ؛ قَالَ : فَكَيْفَ صادَفْتِه في عِفَّتِهِ ؟ قَالَتْ : كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ إِذْ قَالَ [من المنسرح] :

لا وَٱلَّذي تَسْجُدُ ٱلْجِباهُ لَهُ ... ما لي بِما ضَمَّ ثَوْبُها خَبَرُ

وَلا بِفيها وَلا هَمَمْتُ بِهِ ... ما كانَ إِلَّا ٱلْحَديثُ وَٱلنَّظَرُ

٨٩٠ ـ قالَ بَعْضُ ٱلصَّالِحِينَ : دَخَلْتُ عَلىٰ جَميلٍ في مَرَضِ مَوْتِهِ ، فَقَالَ : يا فُلانُ ! رَجُلٌ يَلْقىٰ ٱللهَ وَلَمْ يَسْفِكْ دَماً حَراماً ، وَلَمْ يَشْرَبْ خَمْراً ، وَلَمْ يَأْتِ فاحِشَةً ، أَتَرْجُو لَهُ ؟ قَالَ : إِيْ وَاللهِ ، فَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ ؛ فَذَكَرْتُ لَهُ بُثَيْنَةَ ، فَقَالَ : إِنِّي لَفِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلدُّنْيا ، وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ ٱلآخِرَةِ ، لا نالَتْنِي شَفاعَةُ مُحَمَّدٍ إِنْ كُنْتُ حَدَّثْتُ نَفْسي بِريبَةٍ مَعَها أَوْ مَعَ غَيْرِها قَطُّ .

أَقولُ : وَهَكَذا كانَ عِشْقُهُمْ عِشْقاً رُوحانِيّاً ، عُذْرِيّاً أَوْ أَفْلاطُونِيّاً ، لا ما نُشاهِدُ [ ٱلْيَوْمَ ] في هَذا ٱلْجيلِ ٱلْمادِّيِّ ٱلسَّخيفِ . . .

* * *

٨٩١ ـ وَقالَ أَبُو ٱلْفَرَجِ في « الأَغاني » في تَرْجَمَةِ جَميلٍ : سَعَتْ أَمَةٌ لِبُثَيْنَةَ بِها إِلىٰ أَبيها وَأَخيها ، وَقالَتْ لَهُما : إِنَّ جَميلًا عِنْدَها ٱللَّيْلَةَ ؛ فَأَتَياها مُشْتَمِلَيْنِ عَلىٰ سَيْفَيْنِ ، فَرَأَياهُ جالِساً حُجْرَةً ـ ناحِيَةً ـ مِنْها يُحَدِّثُها وَيَشْكُو إِلَيْها بَثَّهُ ، ثُمَّ قالَ لَها : يا بُثَيْنَةُ ! أَرَأَيْتِ وِدّي إِيّاكِ وَشَغَفي بِكِ ، أَلا تَجْزِينِيهِ ؟ قالَتْ : بِماذا ؟ قالَ : بِما يَكُونُ بَيْنَ ٱلْمُتَحابَّيْنِ ؛ فَقالَتْ لَهُ : يا جَميلُ ! أَهَذا تَبْغي ؟ وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتَ عِنْدي بَعيداً مِنْهُ ، وَلَئِنْ عاوَدْتَ تَعْريضاً بِريبَةٍ لا رَأَيْتَ وَجْهي أَبَداً ؛ فَضَحِكَ وَقالَ : وَوَٱللهِ ما قُلْتُ لَكِ هَذا إِلَّا لأَعْلَمَ ما عِنْدَكِ فيهِ ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّكِ تُجيبينَني إِلَيْهِ لَعَلِمْتُ أَنَّكِ تُجيبينَ غَيْري ، وَلَوْ رَأَيْتُ مِنْكِ مُساعَدَةً عَلَيْهِ لَضَرَبْتُكِ بِسَيْفي هَذا ما ٱسْتَمْسَكَ في يَدي ، وَلَوْ أَطاعَتْني نَفْسي لَهَجَرْتُكِ هِجْرَةَ ٱلأَبَدِ ، أَوَ ما سَمِعْتِ قَوْلي [من الطويل] :

وَإِنّي لأَرْضىٰ مِنْ بُثَيْنَةَ بِٱلَّذي ... لَوْ أَبْصَرَهُ ٱلْواشي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ
بِلا وَبِأَنْ لا أَسْتَطيعَ وَبِٱلْمُنىٰ ... وَبِٱلأَمَلِ ٱلْمَرْجُوِّ قَدْ خابَ آمِلُهْ
وَبِٱلنَّظْرَةِ ٱلْعَجْلىٰ وَبِٱلْحَوْلِ تَنْقَضي ... أَواخِرُهُ لا نَلْتَقي وَأَوائِلُهْ

فَقالَ أَبُوها لأَخيها : قُمْ بِنا ، فَما يَنْبَغي لَنا بَعْدَ ٱلْيَوْمِ أَنْ نَمْنَعَ هَذا ٱلرَّجُلَ مِنْ لِقائِها ؛ فَٱنْصَرَفا وَتَرَكاها .

* * *

٨٩٢ ـ وَمِنْ طَريفِ ما يُرْوىٰ عَنْ ظُرَفاءِ ٱلْمُحِبّينَ ما يَلي :

قالَ يُوسُفُ بنُ ٱلْماجِشُونَ : أَنْشَدْتُ مُحَمَّدَ بْنَ ٱلْمُنْكَدِرِ قَوْلَ وَضّاحِ ٱلْيَمَنِ[1] [من الطويل] :

---

(١) هُوَ صاحِبُ هَذِهِ ٱلأَبْياتِ ٱلْمَشْهورَةِ فِيما يُسَمُّونَهُ « ٱلْمُراجَعاتُ » [من السريع] :
قالَتْ : أَلا لا تَلِجَنَّ دارَنا ... إِنَّ أَبانا رَجُلٌ غائِرُ=

إذا قُلْتُ هاتِي نَوِّلِيني تَبَسَّمَتْ وَقالَتْ : مَعاذَ ٱللهِ مِنْ فِعْلِ ما حَرُمْ
فَمَا نَوَّلَتْ حَتّىٰ تَضَرَّعْتُ عِنْدَها وَأَعْلَمْتُها ما رَخَّصَ ٱللهُ في اللَّمَمْ

فَضَحِكَ ، وَقالَ : إنْ كانَ وَضَّاحُ إلَّا مُفْتياً لِنَفْسِهِ .

ٱللَّمَمُ هُنا ـ كَما قالَ الإمامُ ٱلْجَوْهَرِيُّ ـ هُوَ نَحْوَ ٱلْقُبْلَةِ وَٱلنَّظْرَةِ وما أَشْبَهَهَا ، وَقَوْلُهُ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ [٥٣ سورة النجم/الآية : ٣٢] ، قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱللَّمَمُ مُقارَبَةُ ٱلذَّنْبِ ، وَقالَ آخَرونَ : ٱللَّمَمُ ما دُونَ ٱلْكَبائِرِ مِنَ ٱلذُّنُوبِ ؛ وَذَكَرَ ٱلْكَلْبِيُّ أَنَّها ٱلنَّظْرَةُ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ ، وَهِيَ مَغْفُورَةٌ ، فَإِنْ أَعادَ ٱلنَّظَرَ فَلَيْسَ بِلَمَمٍ وَهُوَ ذَنْبٌ ؛ وَقَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُنْكَدِرِ : إنْ كانَ وَضَّاحُ إلا مُفْتِياً لِنَفْسِهِ ، يَقُولُ : إنَّ وَضّاحاً لَمْ يَكُ في قَوْلِهِ هَذا إلَّا مُفْتياً لِنَفْسِهِ وَإِلَّا فَٱللَّمَمُ ذَنْبٌ كانَ يُرْجىٰ لَهُ ٱلْمَغْفِرَةُ ، فَإِنْ نافِيَةٌ ، عَلىٰ أَنَّ قَوْلَ وَضّاحٍ هَذا إِنَّما جاءَ عَلىٰ مَذْهَبِ ٱلشُّعَراءِ ، مَثَلُهُ مَثَلُ قَوْلِ بَشّارِ بْنِ بُرْدٍ [من البسيط] :

لَوْ كُنْتِ تَلْقينَ ما نَلْقىٰ قَسَمْتِ لَنا يَوْماً نَعيشُ بِهِ مِنْكُمْ وَنَبْتَهِجُ
لا خَيْرَ في ٱلْعَيْشِ إِنْ دُمْنا كَذا أَبَداً لا نَلْتَقي وَسَبيلُ ٱلْمُلْتَقىٰ نَهَجُ
قَالُوا : حَرامٌ تَلاقِينا فَقُلْتُ لَهُمْ ما في ٱلتَّلاقي وَلا في قُبْلَةٍ حَرَجُ
مَنْ راقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بحَاجَتِهِ وَفازَ بِٱلطَّيِّباتِ ٱلْفاتِكُ ٱللَّهِجُ

---

= أَمَا رَأَيْتَ ٱلْبابَ مِنْ دُونِنا ؟ قُلْتُ : فَإِنِّي واثِبٌ ظافِرُ
قالَتْ : فَإِنَّ ٱلْقَصْرَ مِنْ دُونِنا ! قُلْتُ : فَإِنِّي فَوْقَهُ ظاهِرُ
قالَتْ : فَإِنَّ ٱللَّيْثَ عالٍ بِهِ قُلْتُ : فَسَيْفي مُرْهَفٌ باتِرُ
قالَتْ : فَهَذا ٱلْبَحْرُ ما بَيْنَنا قُلْتُ : فَإِنِّي سابِحٌ ماهِرُ
قالَتْ : أَلَيْسَ ٱللهُ مِنْ فَوْقِنا ؟ قُلْتُ : بَلىٰ ! وَهُوَ لَنا غافِرُ
قالَتْ : فَإِمّا كُنْتَ أَعْيَيْتَنا فَأْتِ إذا ما هَجَعَ ٱلسَّامِرُ
وَٱسْقُطْ عَلَيْنا كَسُقُوطِ ٱلنَّدىٰ لَيْلَةَ لا ناهٍ وَلا زاجِرُ

أَشْكُو إِلَىٰ ٱللهِ هَمّاً ما يُفارِقُني وَشُرَّعاً في فُؤادي ٱلدَّهرَ تَعْتَلِجُ

قَولُ بَشّارٍ : وَسَبيلُ ٱلْمُلْتَقىٰ نَهجُ ، فَٱلنَّهجُ : ٱلبَيِّنُ ٱلْواضِحُ ؛ وَقَوْلُهُ : ما في ٱلتَّلاقي وَلا في قُبْلَةٍ حَرَجُ ، يُرْوىٰ : ما في ٱلْتِزامٍ وَلا في قُبْلَةٍ حَرَجُ ، وَٱلالْتِزامُ : ٱلاعْتِناقُ ؛ وَقَوْلُهُ : وَشُرّعاً ، فَٱلشُّرَّعُ : ٱلرِّماحُ ، وَٱلْمُرادُ بِها ٱلْهُمُومُ عَلىٰ ٱلْمُجازِ ؛ وَٱلدَّهْرَ ظَرْفٌ ؛ وتَعْتَلِجُ تَتَضارَبُ وَتَتَمارَسُ .

* * *

٨٩٣ ـ وَقالَ ٱلْحَجّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِلَيْلىٰ ٱلأَخْيَلِيَّةِ صاحِبَةِ تَوْبَةَ بْنِ ٱلْحُمَيِّرِ حِينَ قَدِمَتْ عَلَيْهِ وَقَدْ أَسَنَّتْ ، وَطَلَبَ إِلَيْها أَنْ تُنْشِدَهُ شَيْئاً مِنْ شِعْرِ تَوْبَةَ ، فَأَنْشَدَتْهُ ٱلأَبْياتَ ٱلَّتي يَقُولُ فِيها [من الطويل] :

وَكُنْتُ إِذا ما زُرْت لَيْلىٰ تَبَرْقَعَتْ فَقَدْ رابَني مِنْها ٱلغَداةَ سُفورُها

فَقالَ ٱلْحَجّاجُ : مَا ٱلَّذي رابَهُ مِنْ سُفورِكِ ؟ فَقالَتْ : أَيُّها ٱلأَميرُ ! كانَ يُلِمُّ بي كَثيراً ، فَأَرْسَلَ إِلَيَّ يَوْماً أَنّي آتيكِ ، وَفَطِنَ ٱلْحَيُّ ، فَأَرْصَدُوا لَهُ ، فَلَمّا أَتاني سَفَرْتُ عَنْ وَجْهي ، فَعَلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ لِشَرٍّ ، فَلَمْ يَزِدْ عَلىٰ ٱلتَّسْليمِ وَٱلرُّجُوعِ ؛ فَقالَ : للهِ دَرُّكِ ، فَهَلْ رَأَيْتِ مِنْهُ شَيئاً تَكْرَهِينَهُ ؟ فَقالَتْ : لا وَاللهِ ٱلَّذي أَسْأَلُهُ أَنْ يُصْلِحَكَ ، غَيْرَ أَنَّهُ قالَ مَرَّةً قَوْلاً ظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ خَضَعَ لِبَعْضِ ٱلأَمْرِ ، فَقُلْتُ [من الطويل] :

وَذِي حاجَةٍ قُلْنا لَهُ لا تَبُحْ بِها فَلَيْسَ إِلَيْها ما حَيِيتَ سَبيلُ
لَنا صاحِبٌ لا يَنْبَغي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لأُخْرىٰ صاحِبٌ وَخَليلُ

فلا وَٱللهِ ٱلَّذي أَسْأَلُهُ أَنْ يُصْلِحَكَ ما رَأَيْتُ مِنْهُ شَيْئاً حَتّىٰ فَرَّقَ ٱلْمَوْتُ بَيْني وَبَيْنَهُ .

* * *

٨٩٤ ـ وَنَزَلَ خارِجِيٌّ عَلىٰ بَعْضِ إِخْوانِهِ مِنْهُمْ مُسْتَتِراً مِنَ ٱلْحَجّاجِ ، فَشَخَصَ ٱلْمَنْزُولُ عَلَيْهِ لِبَعْضِ حاجاتِهِ ، وَقالَ لِزَوْجَتِهِ : يا فُلانَةُ ! أُوصِيكِ بِضَيْفي هَذا خَيْراً ؛ وَكانَتْ مِنْ أَجْمَلِ ٱلنِّساءِ ، فَلَمّا عادَ بَعْدَ شَهْرٍ قالَ لَها : كَيْفَ كانَ ضَيْفُكِ ؟ قالَتْ : ما أَشْغَلَهُ بِالعَمىٰ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ! وَكانَ ٱلضَّيْفُ أَطْبَقَ جَفْنَيْهِ ، فَلَمْ يَنْظُرْ إِلىٰ ٱلْمَرْأَةِ وَلا إِلىٰ مَنْزِلِها إِلىٰ أَنْ عادَ زَوْجُها .

* * *

٨٩٥ ـ وَخَرَجَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنْ صالِحاتِ نِساءِ قُرَيْشٍ إِلىٰ بابِها تُغْلِقُهُ وَرَأْسُها مَكْشوفٌ ، فَرَآها أَجْنَبِيٌّ ، فَرَجَعَتْ وَحَلَقَتْ شَعْرَها ، وَكانَتْ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنِّساءِ شَعْراً ، فَقيلَ لَها في ذَلِكَ ؟ قالَتْ : ما كُنْتُ لأَدَعَ عَلىٰ رَأْسي شَعْراً رَآهُ مَنْ لَيْسَ لِي بِمَحْرَمٍ .

* * *

٨٩٦ ـ وَمَرَّتِ ٱمْرَأَةٌ حَسْناءُ بِقَوْمٍ مِنْ بَني نُمَيْرٍ مُجْتَمِعِينَ في نادٍ لَهُم ، فَرَمَقُوها بِأَبْصارِهِمْ ، وَقالَ قائِلٌ مِنْهمْ : ما أَكْمَلَها لَوْلا أَنَّها رَسْحاءُ[1] ، فَٱلْتَفَتَتْ إِلَيهِم وَقالَتْ : وَاللهِ يا بَني نُمَيْرٍ ! ما أَطَعْتُمُ ٱللهَ وَلا ٱلشّاعِرَ ، قالَ ٱللهُ : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٣٠] ، وقالَ ٱلشّاعِرُ[2] [من الوافر] :

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ    فَلا كَعْباً بَلَغْتَ وَلا كِلابا

فَأَخْجَلَتْهُمْ .

* * *

(١) ٱلرَّسْحاءُ ضِدُّ ٱلْعَجْزاءُ .

(٢) جَريرٌ .

٨٩٧ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَصَوِّفَةِ : شَكَوْتُ إِلىٰ بَعْضِ ٱلزُّهَّادِ فَسَاداً أَجِدُهُ في قَلْبي ، فقَالَ : هَلْ نَظَرْتَ إِلىٰ شَيْءٍ فتَاقَتْ إِلَيْهِ نَفْسُك ؟ قُلْتُ : نعَمْ ؛ قَالَ : ٱحْفَظْ عَيْنَيْكَ فإِنَّكَ إِنْ أَطْلَقْتَهُما أَوْقَعَتاكَ في مَكْرُوهٍ ، وَإِنْ مَلَكْتَهُما مَلَكْتَ سائِرَ جَوارِحِكَ .

* * *

٨٩٨ ـ وَقَالَ مُسْلِمٌ ٱلْخَوَّاصُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلصُّوفِيِّ : أَوْصِنِي ! فَقَالَ : أُوصيكَ بِتَقْوىٰ ٱللهِ في أَمْرِكَ كُلِّهِ ، وَإِيثارِ ما يُحَبُّ عَلىٰ مَحَبَّتِكَ ، وَإِيَّاكَ وَٱلنَّظَرَ إِلىٰ كُلِّ ما دَعاكَ إِلَيْهِ طَرْفُكَ ، وَشَوَّقَكَ إِلَيْهِ قَلْبُكَ ، فَإِنَّهُما إِنْ مَلَكاكَ لَمْ تَمْلِكْ شَيْئاً مِنْ جَوارِحِكَ ، حَتّىٰ تَبْلُغَ بِهِما ما يُطالبانِكَ بِهِ ، وَإِنْ مَلَكْتَهُما كُنْتَ ٱلدَّاعِيَ لَهُمَا إِلىٰ ما أَرَدْتَ ، فلا يَعْصِيانِ لَكَ أَمْراً وَلا يَرُدَّان لَكَ قَوْلًا .

* * *

٨٩٩ ـ وَقَالَ حَكيمٌ : مَنْ جَرىٰ مَعَ هَوَاهُ طَلَقاً ، جَعَلَ عَلَيهِ لِلذُّلِّ طُرُقاً .

* * *

٩٠٠ ـ وَقَالَ آخَرُ : مَنْ طَاوَعَ طَرْفَهُ تابَعَ حَتْفَهُ .

* * *

٩٠١ ـ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ [من الطويل] :

نَظَرْتُ فَقَادَتْني إِلىٰ ٱلْحَتْفِ نَظْرَةٌ ... إِلَـيَّ بِمَضْمُـونِ ٱلضَّمِيـرِ تُشيـرُ
فَلا تَصْرِفَنَّ ٱلطَّرْفَ في كُلِّ مَنْظَرٍ ... فَـإِنَّ مَعَـارِيـضَ ٱلْبَـلاءِ كَثِيـرُ

* * *

٩٠٢ ـ وَكانَ يُقَالُ : مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي ٱلْحَلالِ مِنَ ٱلنِّساءِ لَمْ يَتُقْ إِلىٰ

ٱلْحَرَامِ مِنْهُنَّ ، كَٱلطَّلِيحِ ، مُنَاهُ أَنْ يَسْتَرِيحَ .

* * *

٩٠٣ ـ وَنَظَرَ بَعْضُ ٱلصَّالِحِينَ إِلىٰ غُلامٍ جَمِيلٍ عَلىٰ فَرَسٍ رائِعٍ ، فَقَالَ : لا أَدْرِي بِمَ أُدَاوِي طَرْفِي ؟ وَلا بِمَ أُعالِجُ قَلْبِي ؟ ما أَتُوبُ إِلىٰ ٱللهِ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا رَجَعْتُ ، وَلا أَسْتَغْفِرُهُ مِنْ أَمْرٍ إِلَّا أَتَيْتُ أَعْظَمَ مِنْهُ ، حَتّىٰ لَقَدِ ٱسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسأَلَهُ ٱلْمَغْفِرَةَ لِمَا يَلْحَقُ قَلْبِي مِنَ ٱلْقُنُوطِ مِنْ عَفْوِهِ ، لِعَظِيمِ حالي بِٱلْمُنْكَرِ ٱلَّذي أَصْنَعُهُ ؛ فَقَالَ لَهُ قائِلٌ : وَأَيَّ مُنْكَرٍ أَتَيْتَ ؟ فَقَالَ : أَتُرِيدُ مِنِّي أَكْثَرَ مِنْ نَظَرِي هَذا ! وَاللهِ ، لَقَدْ خَشيتُ أَنْ يُبْطِلَ كُلَّ عَمَلٍ قَدَّمْتُه ، وَخَيْرٍ أَسْلَفْتُهُ ؛ ثُمَّ بَكىٰ حَتّىٰ أَلْصَقَ خَدَّهُ بِٱلأَرْضِ .

* * *

٩٠٤ ـ وَقَالَتْ عاتِكَةُ ٱلْمُرِّيَّةُ [ أَوْ أُمُّ فَرْوَةَ الغَطْفَانِيَّة ] [من الكامل] :

وَمَا طَعْمُ مَاءٍ أَيِّ مَاءٍ بِعُزْلَةٍ ... تَحَدَّرَ مِنْ غُرٍّ طِوَالِ ٱلذَّوائِبِ[1]

بِمُنْعَرَجٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ تَقَابَلَتْ ... عَلَيْه رِياحُ ٱلصَّيْفِ مِنْ كُلِّ جانِبِ[2]

نَفَتْ جَرْيَةُ ٱلْمَاءِ ٱلْقَذىٰ عَنْ مُتُونِهِ ... فَلَيْسَ بِهِ عَيْبٌ تَراهُ لِعائِبِ

بِأَطْيَبَ مِمَّنْ يَقْصِرُ ٱلطَّرْفَ دُونَهُ ... تُقَىٰ ٱللهِ وَٱسْتِحْياءُ [بَعْضِ] ٱلْعَواقِبِ

* * *

٩٠٥ ـ وَقَالَ ٱلأَحْوَصُ ـ شاعِرٌ إِسْلامِيٌّ مَدَنِيٌّ كانَ مُعاصِراً لِجَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ ـ [من الكامل] :

---

(١) الغُرُّ : السَّحابُ .

(٢) بِمُنْعَرَجٍ : بِمُنْعَطَفٍ .

قَالَتْ وَقُلْتُ : تَحَرَّجي وَصِلِي حَبْلَ ٱمْرِىءٍ بِوِصالِكُمْ صَبِّ
صاحِبْ إِذَنْ بَعْلِي ، فَقُلْتُ لَها ٱلْغَدْرُ شَيْءٌ لَيْسَ مِنْ ضَرْبي
شَيْئانِ لا أَدْنُو لِوَصْلِهِما عِرْسُ ٱلْخَليلِ وَجارَةُ ٱلْجَنْبِ[1]
أَمَّا ٱلْخَليلُ فَلَسْتُ فاجِعَهُ وَٱلْجارُ أَوْصاني بِهِ رَبِّي

* * *

٩٠٦ ـ وَكَانَ هَذا ٱلأَحْوَصُ قَدْ أَكْثَرَ ٱلْقَوْلَ في أُمِّ جَعْفَرٍ ـ ٱمْرَأَةٌ مِنَ ٱلأَنْصارِ مِنْ بَنِي خَطْمَةَ ـ وَشَاعَ تَشْبيهُهُ بِهَا ، فَجاءَتْ يَوْماً مُنْتَقِبَةً ، فَوَقَفَتْ عَلَيْهِ في مَجْلِسِ قَوْمِهِ ، وَلا يَعْرِفُها ، وَكَانَتْ ٱمْرَأَةً عَفيفَةً ، فَقالَتْ لَهُ : ٱقْضِ ثَمَنَ ٱلْغَنَمِ ٱلَّتي ٱبْتَعْتَها مِنِّي ؛ فَقَالَ : ما ٱبْتَعْتُ مِنْكِ شَيْئاً ؛ فَأَظْهَرَتْ كِتاباً قَدْ وَضَعَتْهُ عَلَيْهِ وَبَكَتْ وَشَكَتْ حاجَةً وَضُرّاً وَفاقَةً ، وَقَالَتْ : يا قَوْمُ ! كَلِّمُوهُ ؛ فَلامَهُ قَوْمُهُ ، وَقَالُوا : ٱقْضِ ٱلْمَرْأَةَ حَقَّها ؛ فَجَعَلَ يَحْلِفُ أَنَّهُ ما رآها قَطُّ وَلا يَعْرِفُها ، فَكَشَفَتْ وَجْهَها ، وَقَالَتْ : وَيْحَكَ ! أَما تَعْرِفُني ! فَجَعَلَ يَحْلِفُ مُجْتَهِداً أَنَّهُ ما يَعْرِفُها وَلا رآها قَطُّ ، حَتّىٰ إِذا ٱسْتَفاضَ قَوْلُها وَقَوْلُهُ وَٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ وَكَثُرُوا وَسَمِعُوا ما دارَ وَكَثُرَ لَغَطُهُمْ وَأَقْوالُهُمْ ، قَامَتْ ثُمَّ قَالَتْ : أَيُّها ٱلنَّاسُ ! ٱسْكُتُوا ! ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ ، وَقَالَتْ : يا عَدُوَّ ٱللهِ ! صَدَقْتَ وَٱللهِ ما لي عَلَيْكَ حَقٌّ ولا تَعْرِفُني ، وَقَدْ حَلَفْتَ عَلىٰ ذَلِكَ ، وَأَنْتَ صادِقٌ ، وَأَنا أُمُّ جَعْفَرٍ وَأَنْتَ تَقُولُ : قُلْتُ لأُمِّ جَعْفَرٍ ، وَقَالَتْ لي أُمُّ جَعْفَرٍ ، في شِعْرِكَ ! فَخَجِلَ ٱلأَحْوَصُ ، وَٱنْكَسَرَ عَنْ ذَلِكَ ، وَبَرِئَتْ عِنْدَهُمْ .

* * *

(١) جارَةُ ٱلْجَنْبِ ، يُرِيدُ : ٱمْرَأَةَ جارِيَ ٱلَّذي يَقْرُبُ مِنِّي وَيَكُونُ إِلىٰ جَنْبي .

٩٠٧ ـ وَكَانَ ممّا قَالَ فِيها [من الطويل] :

لَقَدْ مَنَعَتْ معْروفَها أُمُّ جَعْفَرٍ وَإِنِّي إِلَىٰ مَعْروفِها لَفَقِيرُ
وَقَدْ أَنْكَرَتْ بَعْدَ ٱعْتِرافٍ زِيارَتي وَقَدْ وَغِرَتْ فِيها عَلَيَّ صُدُورُ
أَدُورُ وَلَوْ لا أَنْ أَرَىٰ أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَبْيَاتِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ
أَزُورُ ٱلْبُيُوتَ ٱللّاحِقَاتِ بَيْتِها وَقَلْبِي إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي لا أَزُورُ
وَمَا كُنْتُ زَوَّاراً وَلَكِنَّ ذَا ٱلْهَوَىٰ إِذَا لَمْ يَزُرْ لا بُدَّ أَنْ سَيَزُورُ

* * *

وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلْعِفَّةِ :

٩٠٨ ـ تَقُولُ ٱلْعَرَبُ : فُلانٌ عَفِيفُ ٱلإِزَارِ ، خَفِيفٌ مِنَ ٱلأَوْزَارِ ؛ وَالإِزَارُ فِي الأَصْلِ : كُلُّ مَا وَارَاكَ وَسَتَرَكَ مِنَ ٱلثِّيَابِ ، أَوْ تَقُولُ : ٱلإِزَارُ : مَا سَتَرَ ٱلنِّصْفَ ٱلأَسْفَلَ مِنَ الإِنْسَانِ .

٩٠٩ ـ وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ يَصِفُ جَارِيَةً [من الرمل] :

أَجْلِ أَنَّ اللهَ قَدْ فضَّلَكُمْ فَوْقَ مَا أَحْكِي بِصُلْبٍ وَإِزَارْ

أَجْلِ : أَي : مِنْ أَجْلِ ؛ وَٱلصُّلْبُ : ٱلْحَسَبُ ؛ وَأَرادَ بِالإِزَارِ هُنَا : ٱلْعِفَّةُ ؛ تَقُولُ :

إِنَّ ٱللهَ فَضَلَّكُمْ بِحَسَبٍ وَعَفَافٍ فَوْقَ مَا أَحْكِي ، أَيْ : مَا أَقُولُ[١] .

٩١٠ ـ وَقَالَتْ خِرْنِقُ بِنْتُ هَفَّانَ تَرْثِي زَوْجَهَا عَمْرو بْنَ مَرْثَدٍ وَٱبْنَهَا عَلْقَمَةَ ٱبْنَ عَمْرٍو وَأَخَوَيْهِ حَسَّانَ وَشُرَحْبِيلَ ـ وَخِرْنِقُ هِيَ أُخْتُ طَرَفَةَ ٱبْنِ ٱلْعَبْدِ أَوْ عَمَّتُهُ ـ [من الكامل] :

---

(١) وَيُرْوَىٰ بَيْتُ عَدِيٍّ عَلَىٰ وَجْهٍ آخَرَ وَمَعْنَىٰ آخَرَ .

لا يَبْعَدَنْ قَومِي ٱلَّذِينَ هُمُ ... سُمُّ ٱلْعُدَاةِ وَآفَةُ ٱلْجُزْرِ[(١)]

ٱلنَّازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... وَٱلطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ ٱلأُزْرِ[(٢)]

إِنْ يَشْرَبُوا يَهَبُوا وَإِنْ يَذَرُوا ... يَتَوَاعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ ٱلْهُجْرِ

قَوْمٌ إِذَا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ ... لَغَطاً مِنَ ٱلتَّأْيِيهِ وَٱلزَّجْرِ

وَٱلْخَالِطِينَ نَحِيتَهُمْ بِنُضَارِهِمْ ... وَذَوِي ٱلْغِنَىٰ مِنْهُمْ بِذِي ٱلْفَقْرِ

هَـٰذَا ثَنَائِي ـ مَا بَقِيتُ ـ عَلَيْهِمُ ... فَإِذَا هَلَكْتُ أَجَنَّنِي قَبْرِي

[« الأمالي » للتالي ، ٢/١٥٨] .

قَوْلُهَا : وَآفَةُ ٱلجُزرِ ، فَٱلْجُزُرُ جَمْعَ جُزورٍ ، وَهِيَ : ٱلنَّاقَةُ تُجْزَرُ وَتُقْطَعُ ، تَصِفُهُمْ بِٱلْكَرَمِ ؛ وَقَوْلُهَا : ٱلنازِلُونَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ، تُرِيدُ : مُعْتَرَكَ ٱلْحَرْبِ ، تَصِفُهُمْ بِٱلشَّجَاعَةِ ، وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِد الأُزْرِ ، فَالأُزْرُ بِسُكُونِ ٱلزَّايِ للضَّرُورَةِ ، جَمْعُ إِزَارٍ ، تَصِفُهُمْ بِٱلْعِفَّةِ ؛ وَٱلْهُجْرُ : ٱلْفُحْشُ ؛ وَٱللَّغَطُ : ٱلْجَلَبَةُ ؛ وَٱلتَّأْيِيهُ : ٱلصَّوْتُ ؛ يُقَالُ : أَيَّهْتُ بِهِ تأْييها : إِذَا صِحْتَ بِهِ ؛ وَٱلنَّحِيتُ : الدَّخِيلُ في ٱلْقَوْمِ ؛ وَٱلنُّضَارُ : ٱلْخَالِصُ ٱلنَّسَبِ ؛ وَأَرَادَتْ بِٱلْبَيْتِ ٱلأَخِيرِ : إِنَّهَا قَدْ قَامَ عُذْرُهَا في تَرْكِهَا ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ إِذَا مَاتَتْ ، فَهَذَا مَا وُضِعَ فِيهِ ٱلسَّبَبُ مَوْضِعَ ٱلمُسَبَّبِ ، لأَنَّ ٱلْمَعْنَىٰ : فَإِذَا هَلَكْتُ ٱنْقَطَعَ ثَنَائِي ، وَإِنَّمَا قَالَتْ : جَنَّنِي قَبْرِي ، لأَنَّ مَوْتَهَا سَبَبُ ٱنْقِطَاعِ ٱلثَّنَاءِ .

* * *

---

(١) ٱلْعُدَاةُ : ٱلأَعَادِي ؛ وَٱلْجُزْرُ جَمْعُ جَزُورٍ : ٱلْبَعِيرُ أَوْ ٱلنَّاقَةُ ٱلْمَجْزُورَةُ ، تَصِفُهُمْ بِٱلْبَأْسِ وَٱلْكَرَمِ ، وَكَانَ نِسَاءُ ٱلْعَرَبِ ـ إِذَا حُمِلَ ٱلْمَيْتُ مِنْ بَيْتِهِ أَوْ وُورِيَ قَبْرَهُ يَقُلْنَ : لا يَبْعَدْ ، يَرُونَ بِذَلِكَ أَنَّنَا أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَيْكَ فَلا تَحْجُبُ دُونَنَا أَثَرَ يَمِينِكَ وَلا نُورَ جَبِينِكَ .

(٢) وَيُرْوَىٰ : ٱلنَّازِلِينَ ، وَٱلطَّيِّبِينَ مَعَاقِدَ ٱلأُزْرِ .

٩١١ ـ وَيَقُولُونَ : فُلانٌ طاهِرُ ٱلثَّوْبِ وَطَاهِرُ ٱلثِّيَابِ : إِذَا وَصَفُوهُ بِطَهَارَةِ ٱلْعِرْضِ وَٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْعَيْبِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [٧٤ سورة المدثر/ الآية : ٤] يَقُولُ سُبْحَانَهُ : لا تَلْبَسْ ثِيَابَكَ عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ وَلا عَلَىٰ فُجُورٍ ، وَقِيلَ غَيْرُ[١] ذَلِكَ ؛ وَيَقُولُونَ في ضِدِّ ذَلِكَ : فُلانٌ دَنِسُ ٱلثِّيَابِ : إِذَا كَانَ خَبِيثَ ٱلْعِرْضِ .

* * *

٩١٢ ـ وَيَقُولُونَ : فُلانٌ أَبْيَضُ ، وَفُلانَةٌ بَيْضَاءُ ، يَعْنُونَ نَقَاءَ ٱلْعِرْضِ مِنَ ٱلدَّنَسِ وَٱلْعُيُوبِ ، وَهُوَ كَثِيرٌ في شِعْرِهِمْ ، لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ بَيَاضَ ٱللَّوْنِ ، وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ ٱلمَدْحَ بِٱلْكَرَمِ ـ ضِدِّ ٱللُّؤْمِ ـ وَنَقَاءِ ٱلْعِرْضِ مِنَ ٱلْعُيُوبِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ [من البسيط] :

أَشَــمُّ أَبْيَــضُ يُفَكِّــكُ عَــنْ أَيْدِي ٱلْعُنَاةِ وَعَنْ أَعْنَاقِهَا ٱلرِّبَقَا[٢]

٩١٣ ـ وَقَالَ [عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ قَيْسٍ ، من المنسرح] :

أُمُّكَ بَيْضَاءُ مِنْ قُضَاعَةَ فِي ٱلْـ ـبَيْتِ ٱلَّـذِي تَسْتَظِلُّ فِـي طُنُبِـهْ

٩١٤ ـ وَإِذَا قَالُوا : فُلانٌ أَبْيَضُ ٱلْوَجْهِ ، وَفُلانَةٌ بَيْضَاءُ ٱلْوَجْهِ ، أَرَدُوا نَقَاءَ ٱللَّوْنِ مِنَ ٱلكَلَفِ وَٱلسَّوَادِ ٱلشَّائِنِ .

* * *

(١) قِيلَ : لَا تَكُنْ غَادِراً فَتَدنَّسَ ثِيَابَكَ ، فَإِنَّ ٱلْغَادِرَ دَنِسُ ٱلثِّيَابِ ؛ وَقِيلَ : عَمَلَكَ فَأَصْلِحْ ؛ وَقِيلَ : نَفْسَكَ فَطَهِّرْ ؛ وَٱلْعَرَبُ تُكْنِي بِٱلثِّيَابِ عَنِ ٱلنَّفْسِ ؛ وَقِيلَ : فَطَهِّرْ ، أي : قَصِّرْ ، فَإِنَّ تَقْصِيرَهَا طُهْرٌ .

(٢) ٱلشَّمَمُ في ٱلأَنْفِ : ٱرْتِفَاعُ ٱلْقَصَبَةِ وَحُسْنُهَا وَٱسْتِوَاءُ أَعْلاهَا وَٱنْتِصَابُ ٱلأَرْنَبَةِ ، وَإِذَا وَصَفَ ٱلشَّاعِرُ فَقَالَ : أَشَمُّ ، فَإِنَّمَا يَعْنِي سَيِّداً ذَا أَنَفَةٍ ؛ وَفَيَّاضٌ : وَهَّابٌ جَوَادٌ ؛ وَٱلْعُنَاةُ جَمْعُ عَانٍ ، وَهُوَ : ٱلأَسِيرُ ؛ وَٱلرِّبَقُ ، جَمْعُ رِبقَةٍ ، وَهِي في ٱلأَصْلِ : عُرْوَةٌ في حَبْلٍ تُجْعَلُ في عُنُقِ ٱلبَهِيمَةِ أَوْيَدِهَا تَمْسِكُهَا ، وَقَالُوا عَلَىٰ ٱلمَثَلِ : فَرَّجَ عَنْهُ رِبقَتَهُ ، أَيْ : كُرْبَتَهُ ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ .

٩١٥ ـ وَيَقُولُونَ في عِفَّةِ ٱلإِنْسَانِ : فُلانٌ مَا وَضَعَتْ مُومَسٌ عِنْدَهُ قِنَاعاً ، أَوْ مَا قَلَبَتْ لَهُ كَفٌّ لامِسٍ .

* * *

٩١٦ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

فَقَالَتْ : بِحَقِّ ٱللهِ إِلَّا أَتَيْتَنَا ... إِذَا كَانَ لَوْنُ ٱللَّيْلِ لَيْلَ ٱلطَّيَالِسِ
فَجِئْتُ وَمَا فِي ٱلْقَوْمِ يَقْظَانٌ غَيْرُهَا ... وَقَدْ نَامَ عَنْهَا كُلُّ وَالٍ وَحَارِسِ
فَبِتْنَا بِلَيْلٍ طَيِّبٍ نَسْتَلِذُّهُ ... جَمِيعاً وَلَمْ تُقْلَبْ بِهَا كَفُّ لامِسِ

فَقَدْ كَنَىٰ بِذَلِكَ أَجْمَلَ كِنَايَةٍ عَنِ ٱلْعِفَّةِ وَتَنْزِيهِ ٱلنَّفْسِ وَصِيَانَةِ ٱلْجَيْبِ عَمَّا يُرِيبُ . . .

* * *

٩١٧ ـ وَمِمَّا يَصِحُّ أَنْ يَنْدَمِجَ فِي هَذَا ٱلْبَابِ وَيُعَدُّ فِي بَابِ ٱلْكِنَايَةِ عَنِ ٱلْفِعْلِ بِتَرْكِ ذِكْرِهِ قَوْلُ عَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ [من البسيط] :

سَقَىٰ ٱلمَطِيرَةَ ذَاتَ ٱلظِّلِّ وَٱلشَّجَرِ ... وَدَيْرَ عَبْدُونَ ، هَطَّالٌ مِنَ ٱلمَطَرِ(١)
يَا طَالَمَا نَبَّهَتْنِي لِلصَّبُوحِ بِهِ ... فِي ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ وَٱلْعُصْفُورِ لَمْ يَطِرِ(٢)
أَصْوَاتُ رُهْبَانِ دَيْرٍ فِي صَلاتِهِمْ ... سُودُ ٱلمَدَارِعِ نَعَّارِينَ فِي ٱلسَّحَرِ(٣)
مُزَنَّرِينَ عَلَىٰ ٱلأَوْسَاطِ قَدْ جَعَلُوا ... عَلَىٰ ٱلرُّؤُوسِ أَكَالِيلاً مِنَ ٱلشَّعَرِ
كَمْ فِيهِمْ مِنْ مَلِيحِ ٱلْوَجْهِ مُكْتَمِلٍ ... بِٱلسِّحْرِ يُطْبِقُ جَفْنَيْهِ عَلَىٰ حَوَرِ(٤)

---

(١) ٱلْمَطِيرَةَ : قَرِيَةٌ مِنْ نَوَاحِي سَامُرَّاءَ ـ سُرَّ مَنْ رَأَىٰ ـ وَكَانَتْ مِنْ مُتَنَزَّهَاتِ بَغْدَادَ وَسَامُرَّاءَ ؛ وَدَيْرُ عَبْدُونَ : بِسَامُرَّاءَ بِجَانِبِ ٱلْمَطِيرَةِ ـ يَاقُوتُ ـ .

(٢) ٱلصَّبُوحُ : شُرْبُ ٱلْخَمْرِ صُبْحاً .

(٣) ٱلْمَدَارِعُ ، جَمْعُ مَدْرَعَةٍ : جُبَّةٌ مَشْقُوقَةُ ٱلْمُقَدَّمِ مِنَ ٱلصُّوفِ .

(٤) الحَوَرُ : أَنْ يَشْتَدَّ بَيَاضُ ٱلْعَيْنِ وَسَوادُ سَوَادِهَا وَتَسْتَدِيرَ حَدَقَتُهَا وَتَرِقَّ جُفُونُهَا .

لاحَظْتُهُ بِٱلْهَوَىٰ حَتَّىٰ ٱسْتَقَادَ لَهُ ... طَوْعاً وَأَسْلَفَنِي ٱلْمِيعَادَ بِٱلنَّظَرِ
وَجَاءَ مَنْ فِي ظَلامِ ٱللَّيْلِ مُسْتَتِراً ... يَسْتَعْجِلُ ٱلْخَطْوَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرِ
فَقُمْتُ أَفْرِشُ خَدِّي فِي ٱلتُّرَابِ لَهُ ... ذُلّاً وَأَسْحَبُ أَذْيالِي عَلَىٰ ٱلأَثَرِ
وَلاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا ... مِثْلَ ٱلْقُلامَةِ قَدْ قُصَّتْ مِنَ ٱلظُّفُرِ
فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ ... فَظُنَّ خَيْراً وَلا تَسْأَلْ عَنِ ٱلْخَبَرِ

* * *

٩١٨ ـ وَمِمّا عَدُّوهُ في هَذَا ٱلْبابِ مَا يُرْوَىٰ : أَنَّ عَبْدَ ٱلمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ أَحْضَرَ ٱلفِرَزْدَقَ وَجَرِيراً وَٱلأَخْطَلَ ، وَقَالَ : لِيَصِفْ كُلٌّ مِنْكُمْ مَرْكِباً حَتَّىٰ أَدْفَعَهُ إِلَيْهِ ، فَوَصَفَ جَرِيرٌ فَرَساً ، وَٱلأَخْطَلُ نَاقَةً ، وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [من البسيط] :

مَا مَرْكَبٌ وَرُكُوبُ ٱلْخَيْلِ يُعْجِبُنِي ... كَمَرْكَبٍ بَيْنَ دُمْلُوجٍ وَخَلْخَالِ
أَلَذَّ لِلْفَارِسِ ٱلْمُجْرِي إِذَا ٱنْبَهَرَتْ ... أَنْفَاسُ أَمْثَالِهَا مِنْ تَحْتِ أَمْثَالِي(١)

وَأَوْمَأَ إِلَىٰ جَارِيَةٍ رَائِعَةٍ كَانَتْ عَلَىٰ رَأْسِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، فَقَالَ عَبْدُ ٱلمَلِك : خُذْ بِيَدِهَا ؛ فَقَالَتْ : ٱللهَ ٱللهَ فِيَّ يَا أَمِيرَ ٱلمُؤْمِنِينَ ! أَتَدْفَعُنِي إِلَىٰ هَذَا ٱلأَعْرَابِيِّ ٱلْجِلْفِ ! فَقَالَ : لِيَنْطَلِقْ بكِ ؛ فَمَضَىٰ وَأَخَذَهَا .

* * *

٩١٩ ـ وَمِنْ هَذَا أَخَذَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ [من الكامل] :

وَطَرِبْتُ طَرْبَةَ فَاسِقٍ مُتَهَتِّكٍ ... وَعَقَدْتُ صَبْوَةَ نَاسِكٍ مُتَحَرِّجِ
وَٱللهُ يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَتْ عِفَّتِي ... مَا بَيْنَ خَلْخَالٍ هُنَاكَ وَدُمْلُجِ

وَهَذَا أَدْنَىٰ إِلَىٰ ٱلْكِنَايَةِ عَنِ ٱلْعِفَّةِ .

* * *

(١) ٱنْبَهَرَتْ : ٱنْقَطَعَ نَفَسُهَا مِنَ الإِعْيَاءِ .

## ٱلزِّنَا وَٱلسِّحاقِ :

٩٢٠ ـ الزِّنَا يُمَدُّ وَيُقْصَرُ ، زَنَىٰ ٱلرَّجُلُ يَزْنِي ، مَقْصُورٌ ، وَزِناءَ ، مَمْدُودٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ [من الكامل] :

أَمَّا الزِّنَاءُ فَإِنَّنِي لَسْتُ قَارِبَهُ وَٱلْمَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْخَمْرِ نِصْفَانِ

قَالَ ٱللِّحْيَانِي : ٱلزِّنا مَقْصُورٌ : لُغَةُ أَهْلِ ٱلْحِجَازِ ، قَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [١٧ سورة الإسراء/الآية : ٣٢] ، وَٱلزِّنَاءُ مَمْدُودٌ : لُغَةُ بَنِي تَمِيمٍ ، وَٱلنِّسْبَةُ إِلَىٰ ٱلمَقْصُورِ زِنَوِيٌّ ، وَإِلَىٰ ٱلْمَمْدُودِ زِنائِيٌّ ، وَزَنَّاهُ تَزْنِيَةً : نَسَبَهُ إِلَىٰ ٱلزِّنَا ، وَقَالَ لَهُ : يَا زَانِي ، وَيُقَالُ لِلْوَلَدِ إِذَا كانَ مِنْ زُنًى : هُوَ لِزَنْيَةٍ ، وَفلانٌ ٱبْنُ زَنْيَةٍ وَزِنْيَةٍ ، وَٱلْفَتْحُ أَعْلَىٰ ، وَهُوَ نَقِيضُ قَوْلِكَ : لِرِشْدَةَ وَرَشْدَةٍ .

* * *

## نَهْيُهُمْ عَنِ ٱلزِّنَا :

٩٢١ ـ قَالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [١٧ سورة الإسراء/الآية : ٣٢] .

قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ أَيْ : بِٱلعَزْمِ وَٱلإِتْيَانِ بِٱلْمُقَدِّمَاتِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ تُبَاشِرَهُ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ أَيْ : عَمَلًا قَبِيحاً مُمْعِناً فِي ٱلْقُبْحِ زَائِداً عَلَيْهِ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ أَيْ : بِئْسَ طَرِيقاً طَرِيقُهُ ؛ قَالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : وَهُوَ أَنْ تُغْصِبَ غَيْرَكَ ٱمْرَأَتَهُ أَوْ أُخْتَهُ أَوْ بِنْتَهُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ـ أَيْ : مِنْ غَيْرِ طَرِيقٍ مَشْرُوعٍ ـ وَٱلسَّبَبُ مُمْكِنٌ ، وَهُوَ ٱلصِّهْرُ ٱلَّذِي شَرَّعَهُ ٱللهُ .

* * *

٩٢٢ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « لا يَزْنِي ٱلزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلا يَشْرَبُ ٱلْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » [« البخاري ، رقم : ٢٤٧٥ ؛ مسلم ، رقم : ٥٧] .

* * *

٩٢٣ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ أَيْضاً : « إِيَّاكُمْ وَٱلزِّنَا ، فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ : ثَلاثٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَثَلاثٌ في الآخِرَةِ ؛ فَأَمَّا ٱللَّوَاتِي في ٱلدُّنْيَا : فَذَهَابُ نُورِ ٱلْوَجْهِ ، وَٱنْقِطَاعُ ٱلرِّزْقِ ، وَسُرْعَةُ ٱلْفَنَاءِ ؛ وَأَمَّا ٱللَّوَاتِي في ٱلآخِرَةِ : فَغَضَبُ ٱلرَّبِّ ، وَسُوءُ ٱلْحِسَابِ ، وَٱلْخُلُودُ في ٱلنَّارِ ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ تَعَالَىٰ » [راجع « كنز العمال » ، رقم : ١٣٠٢٢] .

* * *

٩٢٤ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ أَيْضاً : « مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ ٱلْعِلْمُ ، وَيَظْهَرَ ٱلْجَهْلُ ، وَتُشْرَبَ ٱلْخَمْرُ ، وَيَظْهَرَ ٱلزِّنَا ، وَيَقِلَّ ٱلرِّجَالُ ، وَتَكْثُرَ ٱلنِّسَاءُ حَتَّىٰ يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ ٱمْرَأَةً ٱلْقَيِّمُ ٱلْوَاحِدُ » [« البخاري » ، رقم :٦٨٠٨]

* * *

## عُقُوبَةُ ٱلزَّانِي :

٩٢٥ ـ قَالَ سُبْحانَهُ وَتَعَالَىٰ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآية : ٢] .

* * *

٩٢٦ ـ يُرْوَىٰ أَنَّهُ سُئِلَ جعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُم عَنْ قَوْلِ ٱلْمُصْطَفَىٰ : « لا يَزْنِي ٱلزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ، فَأَدَارَ دائِرَةً كَبِيرَةً وَأَدارَ وَسَطَهَا دائِرَةً صَغِيرَةً ، وقَالَ : ٱلْكَبِيرَةُ هِيَ ٱلإِسْلامُ وَٱلصَّغِيرَةُ هِيَ ٱلإِيمَانُ ؛ فَإِذَا زَنَىٰ خَرَجَ في ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ مِنَ ٱلإِيمَانِ إِلَىٰ ٱلإِسْلامِ ، فَإِنْ كَفَرَ خَرَجَ مِنَ ٱلدَّائِرَةِ ٱلْكَبِيرَةِ إِلَىٰ ٱلشِّرْكِ وَٱلْكُفْرِ وَٱلْعِيَاذُ بِٱللهِ .

٩٢٧ ـ قَالَ عُلَمَاؤنا : إِنَّما قَدَّمَ ٱلزَّانِيَةَ لأَنَّ ٱلزِّنَا في ٱلأَغْلَبِ يَكُونُ بِتَعَرُّضِهَا لِلرَّجُلِ وَعَرْضِ نَفْسِهَا عَلَيْهِ ، وَلأَنَّ مَفْسَدَتَهُ تَتَحَقَّقُ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهَا ، وَٱلجَلْدُ : ضَرْبُ ٱلْجِلْدِ ، وَهُوَ حُكْمٌ خاصٌّ بِمَنْ لَيْسَ بِمُحْصَنٍ ، أَمَّا حَدُّ ٱلْمُحْصَنِ فَهُوَ ٱلرَّجْمُ[1]

(١) هَذَا هُوَ [حَدُّ] ٱلزِّنَا فِي ٱلإِسْلامِ ، أَمَّا فِي ٱلْقَوانِينِ ٱلمِصْرِيَّةِ ٱلْمَأْخُوذَةِ عَنِ ٱلْقَوانِينِ ٱلْفِرَنْسِيَّةِ ، فَقَدْ جَعَلَ ٱلشَّارِعُ وِجْهَتَهُ ٱلأُولَىٰ في ٱلتَّشْرِيعِ ٱلرِّضَا وَٱلإِكْرَاهَ ، وَٱلعَلَنِيَّةَ وَٱلاسْتِتَارَ ، وَسِنَّ ٱلْمجْنِيِّ عَلَيْه ؛ وَشَرَعَ في ٱلْجمِيعِ ٱلْحَبْسَ ٱلثَّقِيلَ وَٱلْحَبْسَ ٱلْخَفِيفَ عَلَىٰ حَسْبِ ٱلظُّرُوفِ وَالأَحْوَالِ ، فَإِذَا كَانَ ٱلْفِعْلُ عِبَارَةً عَنْ فِسْقٍ بِصَبِيَّةٍ ـ أَوْ صَبِيٍّ ـ مَهْمَا كَانَ نَوْعُ ٱلْفَاحِشَةِ فَٱلْعِقَابُ ٱلسَّجْنُ ، أَيْ : ٱلْحَبْسُ ٱلثَّقِيلُ ، وَإِنْ كَانَ بِٱمْرَأَةٍ أَوْ ذَكَرٍ بَالِغَيْنِ فَٱلْعِقَابُ يَخْتَلِفُ ، فَإِنْ كَانَ بِٱلإِكْرَاهِ فَٱلحَبْسُ ٱلثَّقِيلُ جِدّاً ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلأَشْغَالِ ٱلشَّاقَّةِ ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ إِكْرَاهٍ وَكَانَ ٱلمَفْسُوقُ بِهِ ذَكَراً فَلا عِقَابَ ، وَإِنْ كَانَتْ أُنْثَىٰ ، فَإِنْ كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً فَعِقَابُهَا مِنْ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ إِلَىٰ سَنَتَيْنِ وَعِقَابُ ٱلْفَاعِلِ كَذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرُ مُتَزَوِّجَةٍ فلا عِقَابَ عَلَيْهَا وَلا عَلَىٰ مَنْ فَعَلَ بِهَا ، وَقَدْ جَعَلَ هَذَا ٱلْقَانُونُ لِلزَّوْجِ ٱلْحَقَّ في إِسْقَاطِ ٱلْعِقَابِ عَنْ زَوْجَتِهِ إِذَا شَاءَ ، كَمَا جَعَلَ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ ٱلْحَقَّ في إِقَامَةِ ٱلدَّعْوَىٰ عَلَيْهَا ؛ أَمَّا عِقَابُ ٱلزَّوْجِ ٱلَّذِي يَزْنِي في مَنْزِلِه ٱلَّذِي تُقِيمُ فِيهِ زَوْجَتُهُ فَعِقَابُهُ ٱلْحَبْسُ مِنْ شَهْرٍ إِلَىٰ سِتَّةِ أَشْهُرٍ وَغرَامَةٌ لا تَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفِ قِرْشٍ ، وَيُشْتَرَطُ فِي عِقَابِهِ أَنْ تَكُونَ ٱلشَّكْوَىٰ مِنَ ٱلزَّوْجَةِ دُونَ غَيْرِهَا ، فَإِذَا زَنَىٰ في غَيْرِ مَنْزِلِه بِٱمْرَأَةٍ غَيْرِ مُتَزَوِّجَةٍ وَبِرِضَاهَا فَلا عِقَابَ عَلَيْهِ ، وَإِذَا زَنَىٰ فِي غَيْرِ مَنْزِلِه بِمُتَزَوِّجَةٍ وَبِرِضَاهَا وَلَمْ يَشْتَكِ مِنْهُ زَوْجُهَا فَلا عِقَابَ عَلَيْهِ وَلا عَلَيْهَا ؛ وَمَنْ فَعَلَ فِعْلًا فَاضِحاً أَوْ فَاحِشَةً غَيْرَ مُسْتَتِرٍ بِرِضَا ٱلْمَجْنِيِّ عَلَيْهِ أَوْ عَلَيْهَا فَعِقَابُهُ ٱلْحَبْسُ مِنْ شَهْرٍ إِلَىٰ سِنَةٍ وَغرَامَةٌ لا تَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفِ قِرْشٍ . فَلِلإِكْرَاهِ وَٱلْمُجَاهَرَةِ شَأْنٌ عَظِيمٌ في ٱلْعِقَابِ عَلَىٰ مَذْهَبِ ٱلْقَانُونِ ٱلْمَصْرِيِّ ، وَقَدْ جَاءَ فِيهِ كَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَغْرَىٰ إِنْسَانٌ صَبِيَّةً يَقِلُّ عُمْرُهَا عَنْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَفَعَلَ بِهَا ٱلْفَاحِشَةَ فَعِقَابُهُ أَشَدُّ عِقَابٍ وَرَدَ بِعُقُوبَةِ هَاتِكٍ =

وَٱلإِحْصَانُ يَتَوَفَّرُ بِهَذِهِ ٱلأَشْيَاءَ : ٱلْحُرِّيَّةُ[١] ، وَٱلْبُلُوغُ ، وَٱلْعَقْلُ ، وَٱلتَّزَوُّجُ بِنِكَاحٍ صَحِيحٍ ؛ فَإِذَا فُقِدَتَ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ ٱلأَشْيَاءِ فَلا إِحْصَانَ ؛ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٢] ، فَإِنَّ ٱلْوَاجِبَ عَلَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَصَلَّبُوا فِي دِينِ ٱللهِ ، وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا ٱلْجِدَّ وَٱلْمَتَانَةَ ـ ٱلْقُوَّةَ ـ فِيهِ ، وَلا يَأْخُذُهُمْ ٱللِّينُ وَٱلْهَوَادَةُ فِي ٱسْتِيفَاءِ حُدُودِهِ ، وَكَفَى بِرَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةً فِي ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ : « وَلَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » [ البخاري ، رقم : ٣٤٧٥ ؛ مسلم ، رقم : ١٦٨٨ ] ؛ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٥٩] فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّهْيِيجِ وَإِلْهَابِ ٱلْغَضَبِ لِلّٰهِ وَلِدِينِهِ ؛ وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤٢ سورة النور/الآية: ٢]، زِيَادَةً فِي ٱلتَّنْكِيلِ ، فَإِنَّ ٱلتَّشْهِيرَ قَدْ يُنَكِّلُ أَكْثَرَ مِمَّا يُنَكِّلُ ٱلتَّعذِيبُ ، وَٱلطَّائِفَةُ ٱلْمُرَادُ بِهَا : جَمْعٌ يَحْصُلُ بِهَا ٱلتَّشْهِيرُ .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ ٱلْكَبِيرَةَ ـ كَبِيرَةَ ٱلزِّنَا هِيَ مِنْ أُمَّهَاتِ ٱلْكَبَائِرِ فِي ٱلإِسْلامِ ، وَلِهَذَا قَرَنَهَا ٱللهُ بِٱلشِّرْكِ وَقَتْلِ ٱلنَّفْسِ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ[٢] : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا[٣]

---

= ٱلْعِرْضِ كَرْهاً ، أَيْ : ٱلأَشْغَالُ ٱلشَّاقَّةُ سَبْعُ سَنَوَاتٍ ، وَإِذَا كَانَ سِنُّ ٱلْمَفْتُونَةِ أَوِ ٱلْمَخْطُوفَةِ فَوْقَ ٱلْخَامِسَةَ عَشْرَةَ فَٱلْعِقَابُ ٱلْحَبْسُ ٱلْخَفِيفُ مِنْ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ إِلَىٰ سَنَةٍ ، وَلَوْ كَانَتِ ٱلْمَخْطُوفَةُ أَوِ ٱلْمَفْتُونَةُ مُتَزَوِّجَةً فَٱلْعِقَابُ ٱلأَشْغَالُ ٱلشَّاقَّةُ ، وَلَوْ تَزَوَّجَ ٱلْخَاطِفُ بِمَخْطُوفَتِهِ أَوْ مَفْتُونَتِهِ غَيْرِ ٱلْمُتَزَوِّجَةِ فَلا عِقَابَ عَلَيْهِ . [ فيا سُبْحَانَ ٱللهِ ، أَيْنَ شَرَفُ ٱلإِسْلامِ وَعُلُوُّ مَقَامِهِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْوَضْعِيَّةِ ٱلدَّنِيَّةِ فِي نَظْرَتِهَا وَمَكَانَتِهَا ؟! ] .

(١) أَمَّا ٱلْعَبْدُ فَإِنَّهُ يُجْلَدُ خَمْسِينَ جَلْدَةً فَقَطْ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَعِنْدَ ٱلشَّافِعِيِّ ثَلاثَةُ أَقْوَالٍ : يُجْلَدُ خَمْسِينَ جَلْدَةً وَيُغَرَّبُ سَنَةً كَٱلْحُرِّ ، وَقِيلَ : يُغَرَّبُ نِصْفَ سَنَةٍ ، وَقِيلَ : لا يُغَرَّبُ .

(٢) فِي سُورَةِ ٱلْفُرْقَانِ .

(٣) أثام : هُوَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ فِعْلِ ٱلإِثْمِ ، قَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من الكامل] :

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ ٱلْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ ... وَأَسَمْتُ سَرْحَ ٱللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ ٱمْرُؤٌ بِشَبَابِهِ ... فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ =

يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [٢٥سورة الفرقان/ الآيتان: ٦٨ و٦٩] وَلِذَلِكَ وَفَّىٰ ٱللهُ فِيهِ عِقْدَ ٱلْمِئَةِ بِكَمَالِهِ ، بِخِلافِ حَدِّ ٱلْقَذْفِ ـ قَذْفِ ٱلْمُحْصَنَاتِ ـ وَشُرْبِ ٱلْخَمْرِ ؛ وَشَرَعَ فِيهِ ٱلْقَتْلَةَ ٱلْمَهُولَةَ ، وَهِيَ ٱلرَّجْمُ ، وَنَهَىٰ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَنِ ٱلرَّأْفَةِ عَلَىٰ ٱلْمَجْلُودِ فِيهِ ، وَأَمَرَ بِشَهَادَةِ ٱلطَّائِفَةِ لِلتَّشْهِيرِ .

* * *

## قُبْحُ ٱلْمَعْصِيَةِ :

٩٢٨ ـ وَجَاءَ فِي « طَوْقِ ٱلْحَمَامَةِ » لِلإِمَامِ ٱبْنِ حَزْمٍ تَحْتَ عُنْوانِ : « قُبْحِ ٱلْمَعْصِيَةِ » ما يَأْتِي مَعَ شَيْءٍ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ ، قَالَ رَحِمَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ :

وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ يُطِيعُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَعْصُونَ عُقُولَهُمْ ، وَيَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ ، وَيَرْفِضُونَ أَدْيانَهُمْ ، وَيَتَجَنَّبُونَ ما حَضَّ ٱللهُ تَعالىٰ عَلَيْهِ وَرَتَّبَهُ في ٱلأَلْبابِ ٱلسَّلِيمَةِ ، مِنَ ٱلْعِفَّةِ وَتَرْكِ ٱلْمَعَاصِي وَمُقَارَعَةِ ٱلْهَوىٰ ، وَيُخَالِفُونَ ٱللهَ رَبَّهُمْ وَيُوافِقُونَ إِبْلِيسَ فيمَا يُحِبُّهُ مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْمُعْطِبَةِ ، فَيُواقِعُونَ ٱلْمَعْصِيَةَ في حُبِّهِمْ ؛ وَقَدْ عَلِمْنا أَنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ في ٱلإِنْسانِ طَبِيعَتَيْنِ مُتَضادَّتَيْنِ ، إِحْدَاهُما لا تُشيرُ إِلَّا بِخَيْرٍ وَلَا تَحُضُّ إِلَّا عَلىٰ حَسَنٍ ، وَلا يُتَصَوَّرُ فِيها إِلَّا كُلُّ أَمْرٍ مَرْضِيٍّ ، وَهِيَ ٱلْعَقْلُ ، وقائِدُهُ العَدْلُ ؛ وَٱلثَّانِيةُ ضِدٌّ لَها ، لا تُشيرُ إِلَّا إِلىٰ ٱلشَّهَوَاتِ وَلا تَقُودُ إِلَّا إِلىٰ ٱلرَّدَىٰ ، وَهِيَ ٱلنَّفْسُ ، وَقَائِدُها ٱلشَّهْوَةُ ، وَٱللهُ تَعالىٰ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [١٢ سورة يوسف/الآية : ٥٣] فَهَاتانِ ٱلطَّبيعَتَانِ قُطْبانِ في ٱلإِنْسانِ ، وَهُما قُوَّتانِ مِنْ قُوىٰ ٱلْجَسَدِ ٱلْفَعَّالِ بِهِما ، وَمُطْرَحانِ مِنْ مَطارِحِ شُعاعاتِ هٰذَينِ ٱلْجَوْهَرَيْنِ ٱلْعَجِيبَيْنِ ٱلرَّفيعَيْنِ ٱلْعُلْوِيَّيْنِ ،

---

= فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ ، أَيْ : إِنَّ عُصَارَةَ ٱلْغَوَايَةِ وَٱلاسْتِخْذَاءِ لِلأَهْوَاءِ ٱلْخِزْيُ وَٱلْعَطَبُ وَٱلآلامُ وَٱلأَسْقَامُ وَٱلنَّدَمُ وَٱلأَسَفُ فِي ٱلدُّنْيَا وَغَضَبُ ٱللهِ وَعَذَابُهُ فِي ٱلآخِرَةِ .

فَفِي كلِّ جَسَدٍ مِنْهُما حَظُّهُ عَلىٰ قَدْرِ مُقابَلَتِهِ لَهُما في تَقْدِيرِ ٱلْوَاحِدِ ٱلصَّمَدِ تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُهُ حِينَ خلَقَهُ وَهَيَّأَهُ ، فَهُما يَتَقابلانِ أَبداً ويَتَنازعانِ دَأْباً ، فإذا غلَبَ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّفسَ ٱرْتَدَعَ ٱلإنسانُ وَقمَعَ عوارِضَهُ ٱلْمَدْخُولَةَ وَٱسْتَضاءَ بِنُورِ ٱللهِ وَٱتَّبَعَ ٱلعَدْلَ ، وَإِذا غلَبَتِ ٱلنَّفسُ ٱلعَقْلَ عَمِيَتِ ٱلبصيرَةُ ، وَلَمْ يَتَّضِحِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْحَسَنِ وَٱلقَبيحِ ، وَعَظُمَ ٱلالْتِباسُ وَتَرَدّىٰ ٱلْمَرْءُ في هُوَةِ ٱلرَّدىٰ وَمِهْوَاةِ ٱلْهَلَكَةِ ، وَبِهَذا حَسُنَ ٱلأَمْرُ وَٱلنَّهْيُ وَوَجَبَ الاكْتِمالُ ، وَصَحَّ ٱلثَّوابُ وَٱلْعِقابُ وَٱسْتُحِقَّ ٱلْجَزاءُ ، وَإِنَّ ٱلوُقُوفَ عِنْدَ حَدِّ ٱلطَّاعَةِ لَمَعْدُومٌ إِلَّا مَعَ طُولِ ٱلرِّياضَةِ وَصِحَّةِ ٱلْمَعْرِفَةِ وَنَفاذِ ٱلتَّمْييزِ ، وَمَعَ ذَلِكَ ٱجْتِنابُ ٱلتَّعَرُّضِ لِلْفِتَنِ وَمُداخَلَةَ ٱلنَّاسِ جُمْلَةً وَٱلْجُلُوسُ في ٱلْبُيُوتِ ، وَبِٱلْحَرِيِّ أَنْ تَقَعَ السَّلامَةُ ٱلْمَضْمُونَةُ ، أَوْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ حَصُوراً لا أَرَبَ لَهُ مِنَ ٱلنِّساءِ وَلا جارِحَةَ لَهُ تُعِينُهُ عَلَيْهِنَّ .

* * *

صَدَرَ مِنْ مُلَحِهِمْ في هَذا ٱلْبَابِ ، بابِ الزِّنا :

٩٢٩ ـ أَنْشَدَ ٱلفَرَزْدَقُ هِشامَ بْنَ عَبْدِ ٱلمَلِكِ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتي يَقُولُ فِيها [من الوافر] :

وَبِيضٍ كَـٱلـدُّمـىٰ قَـدْ بِـتُّ أَسْـري ... بِهِـنَّ إِلَـىٰ ٱلْخَـلاءِ عَـنِ ٱلنِّيـامِ
ثَـلاثٌ وَٱثْنَتَـانِ فَهُـنَّ خَمْـسٌ ... وَسـادِسَـةٌ تَميـلُ إِلـىٰ ٱلشِّمـامِ[(١)]
فَبِتْـنَ بِجـانِبَـيَّ مُطَـرَّحـاتٍ ... وَبِـتُّ أَفُـضُّ أَغْـلاقَ ٱلْخِتـامِ[(٢)]

فَقَالَ هِشامُ : أَحْلَلْتَ نَفْسَكَ يا فَرَزْدَقُ ! أَقْرَرْتَ عِنْدِي بِٱلزِّنا وَأَنا إِمَامٌ ،

---

(١) يُرِيدُ بِالشِّمامِ : ٱلقُبَلَ وَٱلرَّشْفَ .
(٢) مُطَرَّحاتٍ يُرْوىٰ : مُصَرَّعاتٍ . وَقَوْلُهُ : أَفُضُّ أَغْلاقَ ٱلْخِتامِ ، أَرادَ خِتامَ ٱلأَغْلاقِ ، فَقَلَبَ ، وهَذا كِنايَةٌ عنِ ٱفْتِضاضِ ٱلْعَذارىٰ ، قَبَّحَهُ ٱللهُ .

وَلا بُدَّ لي مِنْ إقامَةِ ٱلْحَدِّ عَلَيْكَ ؛ فَقَالَ : بِمَ أَوْجَبْتَ ذٰلِكَ عَلَيَّ يا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنينَ ؟ فَقَالَ : بِكِتابِ ٱللهِ : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٢] . قالَ ٱلْفَرَزْدَقُ : فَإِنَّ كِتابَ ٱللهِ يَدْرَأُ - يَدْفَعُ - عَنِّي ، قَالَ ٱللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٢٦ سورة الشعراء/الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٦] فأَنا قُلْتُ ما لَمْ أَفْعَلْ .

٩٣٠ - أَقولُ : وَمِنْ هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ أَخَذَ ٱلصَّفِيُّ ٱلْحِلِّيُّ قَوْلَهُ [من الكامل] :

نَحْنُ ٱلَّذينَ أَتىٰ ٱلْكِتابُ مُخَبِّراً ... بِعَفافِ أَنْفُسِنا وَفِسْقِ ٱلأَلْسُنِ

* * *

٩٣١ - وَقِيلَ لِرَجُلٍ في ٱمْرَأَتِهِ - وَكانَتْ لا تَرُدُّ يَدَ لامِسٍ(١) - عَلامَ تَحْبِسُها - أيْ : تُبْقي عَلَيْها - مَعَ ما تَعرِفُ مِنْها ؟ فَقَالَ : إِنَّها جَميلَةٌ فَلا تُفْرَكُ - لا تُبْغَضُ - وَأُمُّ عِيالٍ فَلا تُتْرَكُ .

* * *

٩٣٢ - وَقِيلَ لأَبي ٱلطَّمَحانِ ٱلْقَيْنِيِّ : خَبِّرْنا عَنْ أَدْنىٰ ذُنُوبِكَ ؛ قالَ : لَيْلَةُ ٱلدَّيْرِ ؛ قالوا : وَمَا لَيْلَةُ ٱلدَّيْرِ ؟ قَالَ : نَزَلْتُ عَلىٰ دَيْرانِيَّةٍ(٢) ، فَأَكَلْتُ طُفَيْشَلاً(٣) بِلَحْمِ خِنْزِيرٍ ، وَشَرِبْتُ مِنْ خَمْرِها ، وَزَنَيْت بِها ، وَسَرَقْتُ كِساءَها ، وَمَضَيْتُ .

* * *

٩٣٣ - باتَ أَعْرابِيٌّ ضَيْفاً لِبَعْضِ ٱلْحَضَرِ ، فَرَأىٰ ٱمْرَأَةً ، فَهَمَّ أَنْ يُخالِفَ

---

(١) كِنايَةٌ عَنْ فَجْرِها .
(٢) صاحِبَةُ الدَّيْرِ .
(٣) نَوْعٌ مِنَ ٱلمَرَقِ .

إِلَيْها في أَوَّلِ ٱللَّيْلِ ؛ فَمَنَعَهُ ٱلْكَلْبُ ، ثُمَّ أَرادَ ذٰلِكَ نِصفَ ٱللَّيْلِ فَمَنَعَهُ ضَوْءُ ٱلْقَمَرِ ؛ ثُمَّ أَرادَ ذٰلِكَ في ٱلسَّحَرِ فَإِذا عَجُوزٌ قائِمَةٌ تُصَلِّي ؛ فَقَالَ [من البسيط] :

لَـمْ يَخلُـقِ ٱللهُ شَيْئـاً كُنْـتُ أَكْـرَهُـهُ    غَيْرَ ٱلْعَجُوزِ وَغَيْرَ ٱلْكَلْبِ وَٱلْقَمَرِ
هَــذا نَبُــوحٌ وَهَــذا يُسْتَضــاءُ بِــهِ    وَهَــذِهِ شَيْخَــةٌ قَــوَّامَــةُ ٱلسَّحَــرِ

* * *

٩٣٤ ـ وَقالَ ٱلْهَيْثَمُ بْنُ عَدِيٍّ : قَدِمَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنْ كَلْبٍ شَرِيفَةٌ مَكَّةَ لِلْحَجِّ ـ وَكانَتْ مِنْ أَجْمَلِ ٱلنِّساءِ ـ فَرآها عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبيعَةَ ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُها وَيَتْبَعُها كُلَّ يَوْمٍ ، فَتَقُولُ لَهُ : إِلَيْكَ عَنِّي ! فَإِنَّكَ في حَرَمِ ٱللهِ وَفي أَيّامٍ عَظِيمَةِ ٱلْحُرْمَةِ ؛ فَأَلَحَّ عَلَيْها ، فَخافَتِ ٱلشُّهْرَةَ ـ ٱلْفَضِيحَةَ ـ فَقالَتْ لِزَوْجِها ذاتَ يَوْمٍ : إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَتَوَكَّأَ عَلَيْكَ إِذا رُحْتُ إِلىٰ ٱلْمَسْجِدِ ، فَراحَتْ مُتَوَكِّئَةً عَلىٰ زَوْجِها ، فَلَمَّا أَبْصَرَها عُمَرُ وَلَّىٰ ، فَقالَتْ : عَلىٰ رُسْلِكَ يا فَتىٰ [من البسيط] :

تَعْدُو ٱلذِّئابُ عَلىٰ مَنْ لا كِلابَ لَهُ    وَتَتَّقِي مَـرْبِـضَ ٱلْمُسْتَثْفِـرِ ٱلْحَـامِـي

هَذا ٱلْبَيْتُ لِلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْياني مِنْ قَصِيدَةٍ مَطْلِعُها [من البسيط] :

قَالَتْ بَنُو عامِرٍ خالُوا بَنِي أَسَدٍ    يـا بُـؤْسـي لِلْجَهْـلِ ضَـرّاراً لأَقْـوَامِ

وَخالُوا بَنِي أَسَدٍ : قاطِعُوهُمْ ؛ وَٱسْتَثْفَرَ ٱلْكَلْبُ : إِذا أَدْخَلَ ذَنَبَهُ بَيْنَ فَخِذَيْهِ حَتّىٰ يُلْزِقَهُ بِبَطْنِهِ ، وَهُوَ ٱلاسْتِثْفارُ .

* * *

٩٣٥ ـ وَقالَ جَرِيرُ فِي ٱلْفَرَزْدَقِ [من الطويل] :

لَقَـدْ وَلَـدَتْ أُمُّ ٱلفَـرَزْدَقِ فَـاجِـراً    فَجَـاءَتْ بِـوَزْوَازٍ قَصِيرِ ٱلْقَـوائِـمِ[1]

---

(١) ٱلْوَزْوازُ : ٱلْكَثِيرُ ٱلنَّزَواتِ وَٱلتَّحَرُّكِ ، نَسَبَهُ إِلَىٰ ٱلطَّيْشِ .

يُـوَصِّـلُ حَبْلَيْـهِ إِذَا جُـنَّ لَيْلُـهُ لِيَـرْقَـىٰ إِلَـىٰ جَـارَاتِـهِ بِـالسَّـلالِـمِ

وَمَـا كَـانَ جَـارٌ لِلْفَـرَزْدَقِ مُسْلِـمٌ لِيَـأْمَـنَ قِـرْداً لَيْلُـهُ غَيـرُ نَـائِـمِ[١]

أَتَيْـتَ حُـدُودَ اللهِ إِذْ كُنْـتَ يَـافِعـاً وَشِبْتَ فَمَا يَنْهَاكَ شَيْبُ اللَّهَازِمِ[٢]

تَتَبَّـعُ فـي الْمَـاخُـورِ كُـلَّ مُـرِيبَـةٍ وَلَسْتَ بأَهْلِ الْمُحْصَنَاتِ الْكَرَائمِ

هُوَ الرِّجْسُ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَاحْذَرُوا مَـدَاخِـلَ رِجْسٍ بِـالْخَبِيثَـاتِ عَـالِـمِ

لَقَـدْ كَـانَ إِخْـرَاجُ الفَـرَزْدَقِ عَنْكُـمُ طَهُوراً لِمَا بَيْنَ الْمُصَلَّىٰ وَوَاقِمِ[٣]

* * *

٩٣٦ ـ وَجاءَ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ إِلَىٰ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُحِلَّ لَهُ الزِّنَا ، فقَالَ ﷺ : « أَتُحِبُّ أَنْ يُؤتَىٰ إِلَيْكَ مِثْلُ ذلِكَ ؟ » قَالَ : لا ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلامُ : « فَارْضَ لأَخِيكَ مَا تَرْضَىٰ لِنَفْسِكَ » ثُمَّ قَالَ : فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ يُذْهِبَ مِنِّي الشَّبَقَ ؛ فَدَعَا لَهُ . [راجع « الإصابة » ، رقم : ١٠٤٤٥] وَفي ذَلِكَ يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ [من البسيط] :

سَـالَـتْ هُـذَيْـلٌ رَسُـولَ اللهِ فَـاحِشَـةً ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ[٤]

سَـالُـوا نَبِيَّهُـمُ مَـا لَيْـسَ مُعْطِيَهُـمْ حَتَّىٰ الْمَمَاتِ وَكَانُوا عُرَّةَ الْعَرَبِ[٥]

* * *

٩٣٧ ـ وَقَالَتْ عَجُوزٌ لِزَوْجِها : أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَزْنِي وَعِنْدَكَ حَلالٌ طَيِّبٌ ؟

---

(١) لِيَأْمَنَ قِرْداً : يَرْمِيهِ بِالزِّنَا وَالْفُجُور ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : هُوَ أَزْنَىٰ مِنْ قِرْدٍ .

(٢) حُدُودُ اللهِ : مَحَارِمُهُ ؛ وَاللَّهَازِمُ : أُصُولُ اللَّحْيَيْنِ ، جَمْعُ لَهْزَمَةٍ .

(٣) الْمُصَلَّىٰ : مَوْضِعٌ في عَقِيقِ الْمَدِينَةِ ؛ وَوَاقِمُ : أُطُمٌ مِنْ آطامِ الْمَدِينَةِ .

(٤) سَالَتْ ، أَرَادَ : سَأَلَتْ ، مُخَفَّفُ الْهَمْزَةِ .

(٥) عُرَّةُ الْعَرَبِ : فَضِيحَتُهُمْ وَشَيْنُهُمْ ، أَوْ تَقُولُ : كَانُوا شَرَّ الْعَرَبِ .

فَقَالَ : أَمَّا حَلالٌ فَنَعَمْ ، وَأَمَّا طَيِّبٌ فَلا .

* * *

٩٣٨ ـ وَأُتِيَ ٱبْنُ أَبِي مُسَاحِقٍ بِٱبْنِ أُخْتٍ لَهُ وَقَدْ أَحْبَلَ جَارِيَةً ـ فَتَاةً ـ مِنْ جَوَارِي جِيرَانِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَدُوَّ اللهِ ! إِذَا ٱبْتُلِيتَ بِٱلْفَاحِشَةِ فَهَلَّا ٱعْتَزَلْتَ ! قَالَ : جُعِلْتُ فِدَاءَكَ ، بَلَغَنِي أَنَّ ٱلعَزْلَ مَكْرُوهٌ ؛ قَالَ : أَفَمَا بَلَغَكَ أَنَّ ٱلزِّنَا حَرَامٌ!

* * *

٩٣٩ ـ وَقِيلَ لِابْنَةِ ٱلْخُسِّ ـ وَهِيَ هِنْدُ بِنْتُ ٱلْخُسِّ بْنِ حَابِسِ بْنِ قُرَيْطٍ ٱلإِيَادِيَّةِ ، وَكَانَتْ مَعْرُوفَةً بِٱلْفَصَاحَةِ ، وَرُوِيَ لَهَا أَمْثَالٌ كَثِيرَةٌ تَدَاوَلَتْهَا ٱلْعَرَبُ ، وَكَانَتْ قَدْ زَنَتْ بِعَبْدِهَا ، فَأَتَتْ بِغُلامٍ ، فَقِيلَ لَهَا : لِمَ زَنَيْتِ وَأَنْتِ سَيِّدَةُ قَوْمِكِ ؟ فَقَالَتْ : قُرْبُ ٱلْوِسَادِ ، وَطُولُ ٱلسَّوَادِ .

الوِسَادُ : ٱلْمِخَدَّة ؛ وَٱلسَّوَادُ : ٱلمَسَارَّةُ ، وَقِيلَ : ٱلْمُرَاوَدَةُ .

[ وَزَادَ فِيهِ بَعْضُ ٱلْمُجَّانِ : وَحُبُّ ٱلسِّفَادِ ]

* * *

٩٤٠ ـ وَقَالَ لَهَا أَبُوهَا يَوْماً : أَيُّ شَيْءٍ فِي بَطْنِكِ ؟ أَخْبِرِينِي بِهِ وَإِلَّا ضَرَبْتُ رَأْسَكِ ؛ فَقَالَتْ : أَرَأَيْتَكَ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِمَا فِي بَطْنِي ، أَيَكُفُّ ذَاكَ عَنِّي عَذَابَكَ ٱلْيَوْمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : أَسْفَلُهُ طَعَامٌ وَأَعْلاهُ غُلامٌ ؛ فَٱسْأَلْ عَمَّا شِئْتَ . قَالَ : أَيُّ ٱلْمَالِ خَيْرٌ ؟ قَالَتْ : ٱلنَّخْلُ ، ٱلرَّاسِخاتُ فِي ٱلْوَحْلِ ، ٱلْمُطْعِمَاتُ فِي ٱلْمَحْلِ[1] ؛ قَالَ : وَأَيُّ شَيْءٍ ؟ قَالَتْ : ٱلضَّأْنُ قَرْيَةٌ لا وَبَاءَ بِهَا[2] ؛ نُنْتِجُهَا

---

(١) ٱلْمَحْلُ : ٱلْجَدْبُ ، نَقِيضُ ٱلْخَصْبِ .

(٢) لا وَبَاءَ بِهَا : لا حُمَّىٰ .

رُخَالًا[١] ، وَنَحْلُبُهَا عُلالًا[٢] ، وَنَجُزُّ لَهَا جُفَالًا[٣] ، وَلا أَرَىٰ مِثْلَهَا مَالًا ؛ قَالَ : فَالإِبِلُ مَالُكِ تُؤَخِّرِينَهَا ؟ قَالَتْ : هِي أَذْكَارُ ٱلرِّجَالِ[٤] ، وَإِرْقَاءُ ٱلدِّمَاءِ ،[٥] وَمُهورُ ٱلنِّسَاءِ ؛ قَالَ : فَأَيُّ ٱلرِّجَالِ خَيْرٌ ؟ قَالَتْ [من المنسرح] :

خَيْرُ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُرَهَّقُونَ كَمَا ... خَيْرُ تِلَاعِ ٱلْبِلادِ أَكْلَؤُهَا[٦]

قَالَ : أَيُّهُمْ ؟ قَالَتْ : ٱلَّذِي يُسْأَلُ وَلا يَسْأَلُ ، وَيُضِيفُ وَلا يُضَافُ ، وَيُصْلِحُ وَلايُصْلَحُ ؛ قَالَ : فَأَيُّ ٱلرِّجَالِ شَرٌّ ؟ قَالَتْ : ٱلثُّطَيْطُ ٱلنُّطَيْطُ[٧] ، ٱلَّذِي مَعَهُ سُوَيْطٌ ، ٱلَّذِي يَقُولُ : أَدْرِكُونِي مِنْ عَبْدِ بَنِي فُلانٍ فَإِنِّي قَاتِلُهُ أَوْ هُوَ قَاتِلِي ؛ قَالَ : فَأَيُّ ٱلنِّسَاءِ خَيْرٌ ؟ قَالَتْ : ٱلَّتِي فِي بَطْنِهَا غُلامٌ ، عَلَىٰ وَرِكِهَا غُلامٌ ، يَمْشِي وَرَاءَهَا غُلامٌ ؛ قَالَ : فَأَيُّ ٱلْجِمَالِ خَيْرٌ ؟ قَالَتْ : ٱلسِّبَحْلُ ٱلرِّبَحْلُ[٨] ، ٱلرَّاحِلَةُ ٱلْفَحْلُ ؛ قَالَ : أَرَأَيْتَكِ ٱلْجَذَعَ ؟ قَالَتْ : لا يَضْرِبُ

---

(١) رِخْلٌ وَرُخَالٌ كَظِئْرٍ وَظُؤَارٍ : ٱلأُنْثَىٰ مِنْ أَوْلادِ ٱلضَّأْنِ .

(٢) عُلالًا ، مِنَ العَلَل ، ضِدُّ النَّهَلِ .

(٣) ٱلْجُفَالُ مِنَ ٱلشَّعَرِ : ٱلْمُجْتَمِعُ ٱلْكَثِيرُ ، يَقُولُ : تُجَزُّ مَرَّةً ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلضَّائِنَةَ إِذَا جُزَّتْ لَمْ يَسْقُطْ مِنْ صُوفِهَا شَيْءٌ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ حَتَّىٰ يُؤْتَىٰ عَلَيْهِ .

(٤) أَذْكَارُ ، جَمْعُ ذِكْرٍ لِمَنْ يَهِبِ الإِبِلَ .

(٥) إِرْقَاءُ ، مَصْدَرٌ ، تُرِيدُ حَقْنَ دِمَاءِ ٱلْقَتْلَىٰ بِإِعْطَائِهَا في ٱلدِّيَاتِ ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « لا تَسُبُّوا الإِبِلَ ، فَإِنَّ فِيهَا رَقُوءَ ٱلدَّمِ وَمَهْرَ ٱلْكَرِيمَةِ » [« النهاية في غريب الحديث » ، مادة : رقأ] .

(٦) ٱلبَيْتُ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ هَرْمَةَ كَمَا في « ٱللِّسَانِ » ، فَالظَّاهِرُ هُوَ أَنَّ رَاوِي هَذَا ٱلْحَدِيثِ هُوَ ٱلَّذِي تَمَثَّلَ بِهَذَا ٱلْبَيْتِ لا ٱبْنَةُ ٱلخُسِّ ، لِأَنَّ ٱبْنَ هَرْمَةَ مُتَأَخِّرٌ عَنِ ٱبْنَةِ ٱلْخُسِّ مِئَاتٍ مِنَ ٱلسِّنِينَ ؛ وَٱلْمُرَهَّقُ : ٱلَّذِي يَغْشَاهُ ٱلسُّؤَّالُ وَٱلضِّيفَانُ ؛ وَٱلتِّلاعُ جَمْعُ تَلْعَةٍ : مَسِيلُ ٱلْمَاءِ أَوْ أَرْضٌ مُرْتَفِعَةٌ يَتَرَدَّدُ فِيهَا ٱلسَّيْلُ ثُمَّ يَدْفَعُ مِنْهَا إِلَىٰ تَلْعَةٍ أَسْفَلَ مِنْهَا ؛ وَأَكْلَؤُهَا : أَكْثَرُهَا عُشْباً .

(٧) ٱلثُّطَيْطُ : ٱلَّذِي لا لِحْيَةَ لَهُ ؛ وَٱلنُّطَيْطُ : ٱلْهِذْرِيَانُ ، وَهُوَ : ٱلْكَثِيرُ ٱلْكَلامِ ٱلَّذِي يَأْتِي بِٱلْخَطَإِ وَٱلصَّوَابِ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ .

(٨) ٱلسِّبَحْلُ ٱلرِّبَحْلُ : ٱلْبَجِيلُ ٱلْكَثِيرُ ٱللَّحْمِ .

وَلا يَدَعُ ؛ قَالَ : أَرَأَيْتَكِ الثَّنِيَّ ؟ قَالَتْ : يَضْرِبُ وَضِرَابُهُ أَنِيٌّ[1] ؛ قَالَ : أَرَأَيْتَكِ ٱلسَّدِيسَ ؟ قَالَتْ : ذَاكَ القَبِيسُ[2] .

❋ ❋ ❋

**خَاتِمَةُ ٱلزُّنَاةِ :**

٩٤١ ـ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [من الطويل] :

وَإِنِّـي لأَخْشَـىٰ إِنْ خَطَبْـتَ إِلَيْهِـمُ ... عَلَيْكَ، ٱلَّذِي لاقَىٰ يَسَارُ ٱلْكَوَاعِبِ

٩٤٢ ـ وَهَذَا يَسَارُ ٱلْكَوَاعِبِ كَانَ عَبْداً لِبَنِي غُدَانَةَ ، فَرَاوَدَ مَوْلاتَهُ عَنْ نَفْسِهَا ، فَنَهَتْهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَأَلَحَّ ، فَوَعَدَتْهُ ، فَجَاءَ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُبَخِّرَكَ فَإِنَّ رَائِحَتَكَ مُتَغَيِّرَةٌ ، فَوَضَعَتْ تَحْتَهُ مِجْمَرَةً ، وَقَدْ أَعَدَّتْ لَهُ حَدِيدَةً حَادَّةً ، فَأَدْخَلَتْ يَدَهَا ، فَقَبَضَتْ عَلَىٰ مَتَاعِهِ ، وَهُوَ يَرَىٰ أَنَّ ذَلِكَ لِشَيْءٍ ، فَقَطَعَتْهُ بِٱلْمُوسَىٰ ، فَقَالَ : صَبْراً عَلَىٰ مَجَامِرِ ٱلْكِرَامِ . فَذَهَبَتْ مَثَلًا ، وَصَارَ هُوَ مَثَلًا [« مجمع الأمثال » ، رقم : ٢٠٨٦] .

❋ ❋ ❋

٩٤٣ ـ وَكَانَ أَبْرَوِيزُ قَدِ ٱخْتَبَرَ رَجُلًا ، فَرَآهُ زَانِياً خَائِناً ، فَوَسَمَهُ بِسِمَةِ ٱلزُّنَاةِ وَنَفَاهُ مِنَ ٱلْمَدَائِنِ ، فَأَخَذَ مُوسَىٰ وَجَبَّ نَفْسَهُ ، وَقَالَ : مَنْ أَطَاعَ عُضْواً صَغِيراً فَسَدَتْ سَائِرُ أَعْضَائِهِ ؛ وَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ .

❋ ❋ ❋

٩٤٤ ـ وَبَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَظُنُّنِي فِي غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَىٰ تَنْبِيهِ ٱلنَّاظِرِ فِي كِتَابِنَا هَذَا إِلَىٰ

---

(١) أَنِيٌّ : بَطِيءٌ .
(٢) ٱلقَبِيسُ : ٱلْفَحْلُ ٱلسَّرِيعُ ٱلإِلْقَاحِ ، وَفِي ٱلْمَثَلِ : « لِقْوَةٌ لاقَتْ قَبِيساً » .

تِلْكَ ٱلأَدْوَاءِ ٱلْخَبِيثَةِ ٱلَّتِي تُصِيبُ ٱلزُّنَاةَ في هَذِهِ ٱلأَيَّامِ ، وَإِلَىٰ ٱلْمَآسِي ٱلْمُؤْسِفَةِ ٱلَّتِي تَنْتَهِي بِهَا في ٱلأَعَمِّ ٱلأَغْلَبِ حَالُ ٱلزُّنَاةِ مِنْ قَتْلٍ وَعَارٍ وَشَنَارٍ وَفَقْرٍ ، وَوَاللهِ يَميناً لا حَانِثاً فِيهَا وَلا آثِماً لَقَدْ أَدْرَكْتُ كَثِيراً مِنْ سَرَوَاتِنَا ٱلَّذِينَ كَانُوا مِنْ أَغْنِيَائِنَا ٱلَّذِينَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ ، وَبَعْدُ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا أَضَاعُوا ضِيَاعَهُمْ ، وَذَهَبَ ٱللهُ بِذَهَبِهِمْ ، وَكَانَ سِرُّ هَذِهِ ٱلْمَتْرَبَةِ هُوَ ٱلزِّنَا وَحْدَهُ ، نَعُوذُ بِٱللهِ مِنْ نَزَوَاتِ نُفُوسِنَا[1] .

* * *

---

(١) فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِٱلنِّسَاءِ ، أَيْ : فَإِنْ تَسْأَلُونِي عَنِ ٱلنِّسَاءِ ، فَٱلبَاءُ بِمَعْنَى عَنْ ، عَلَىٰ حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [٢٥ سورة الفرقان/ الآية : ٥٩] .

[ هَذَا كَلامُ عَبْدِ ٱلرَّحْمنِ ٱلْبَرْقُوقِيِّ رَحِمَهُ ٱللهُ وَهُوَ لَمْ يُدْرِكْ مُنْتَصَفَ ٱلْقَرْنِ ٱلْعِشْرِينَ ، فَمَا كَانَ قَوْلُهُ لَوْ أَدْرَكَ ٱلْقَرْنَ ٱلْحَادِيَ وَٱلْعِشْرِينَ ، وَرَأَىٰ ٱلْمَآسِي ٱلَّتِي يُخَلِّفُهَا مَرَضُ نَقْصِ ٱلْمَنَاعَةِ ٱلْمُكْتَسَبَةِ وَٱلَّذِي يُرْمَزُ لَهُ بِالإِيدْزِ أَوْ ٱلسِّيدَا ؟! لا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ ٱلْعُقُوبَاتِ ٱلدُّنْيَوِيَّةَ وَٱلْمُعَجَّلَةَ هِيَ رَادِعٌ وَمَانِعٌ عَنْ ٱقْتِرَافِ هَذِهِ ٱلْكَبِيرَةِ ، ٱلَّتِي نَهَانَا دِينُنَا عَنْهَا ] .

# ٱلْبَابُ ٱلسَّادِسُ

## ٱخْتِيَارُهُنَّ ٱلشَّبَابَ وَٱلْمُرْدَ وَتَفَجُّعُ ٱلرِّجَالِ مِنْ جَرَّاءِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ وَذَمُّهُمُ ٱلْمَشِيبَ وَزُهْدُ ٱلرِّجَالِ فِي ٱلْعَجَائِزِ ، وَقَوْلُهُمْ فِي ٱلْخِضَابِ وَٱللِّحَىٰ وَٱلصَّلَعِ وَسَائِرِ مَا يَتَّصِلُ بِهَٰذِهِ ٱلْمَعَانِي

### تَفْضِيلُهُنَّ ٱلشَّبَابَ وَٱلأَغْنِيَاءَ :

٩٤٥ ـ قَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْجَاهِلِيُّ عَلْقَمَةُ بْنُ عَبَدَةَ ٱلْفَحْلُ [من الطويل] :

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِٱلنِّسَاءِ فَإِنَّنِي ... عَلِيمٌ بِأَدْوَاءِ ٱلنِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ ٱلْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ ... فَلَيْسَ لَهُ فِي وِدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ ٱلْمَالِ حَيْثُ عَلِمْنَهُ ... وَشَرْخُ ٱلشَّبَابِ عِنْدَهُنَّ عَجِيبُ[(١)]

* * *

٩٤٦ ـ وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

أَرَاهُنَّ لَا يُحْبِبْنَ مَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلا مِنْ رَأَيْنَ ٱلشَّيْبَ فِيهِ وَقَوَّسَا[(٢)]

* * *

(١) شَرْخُ ٱلشَّبَابِ : قُوَّتُهُ وَنَضَارَتُهُ ، وَقَالَ ٱلْمُبَرِّدُ : ٱلشَّرْخُ : ٱلشَّبَابُ . لِأَنَّ ٱلشَّرْخَ ٱلْحَدُّ ، وَأَنْشَدَ [من الخفيف] :

إِنَّ شَرْخَ ٱلشَّبَابِ تَأْلَفُهُ ٱلْبِيـ ... ـضُ وَشَيْبَ ٱلْقَذَالِ شَيْءٌ زَهِيدُ

وَقَالَ حَسَّانُ [من الخفيف] :

إِنَّ شَرْخَ ٱلشَّبَابِ وَٱلشَّعَرَ ٱلأَسْـ ... ـوَدَ مَا لَمْ يُعَاصِ كَانَ جُنُونَاً

مَا لَمْ يُعَاصِ : مَا لَمْ يَغْصِ .

(٢) قَوَّسَ ٱلشَّيْخُ تَقْوِيساً : ٱنْحَنَىٰ ظَهْرُهُ .

٩٤٧ ـ وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : قَدْ كَرِهَتِ ٱمْرَأَتُكَ شَيْبَكَ فَمالَتْ عَنْكَ ؛ فَقَالَ : إِنَّمَا مَالَتْ إِلَىٰ ٱلأَنْذَالِ لِقِلَّةِ ٱلْمَالِ ، وَٱللهِ ، لَوْ كُنْتُ فِي سِنِّ نُوحٍ ، وَشَيْبَةِ إِبْلِيسَ ، وَخِلْقَةِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ ، وَمَعِي مَالٌ ، لَكُنْتُ أَحَبَّ إِلَيْهَا مِنْ مُقْتِرٍ فِي جَمالِ يُوسُفَ ، وَسِنِّ عِيسَىٰ ، وَجُودِ حَاتِمٍ ، وَحِلْمِ ٱلأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ .

* * *

٩٤٨ ـ وَكَانَ ٱلْحَارِثُ بْنُ سَلِيلٍ ٱلأَسَدِي حَلِيفاً لِعَلْقَمَةَ بْنِ خَصَفَةَ ٱلطَّائِي ، فَزَارَهُ فَنظَرَ إِلَىٰ ٱبْنَتِهِ ٱلزَّبَّاءَ ، وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ أَهْلِ دَهْرِهَا ، فَقَالَ : أَتَيْتُ خَاطِباً ، وَقَدْ يُنْكَحُ ٱلْخَاطِبُ ، وَيُدْرَكُ ٱلطَّالِبُ ، وَيُمْنَحُ ٱلرَّاغِبُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَلْقَمَةُ : أَنْتَ كُفْءٌ كَرِيمٌ ، يُقْبَلُ مِنْكَ ٱلصَّفْوُ ، وَيُؤْخَذُ مِنْكَ ٱلْعفْوَ ، فَأَقِمْ نَنْظُرْ فِي أَمْرِكَ ؛ ثُمَّ ٱنْكَفَأَ إِلَىٰ أُمِّهَا ، وَقَالَ : إِنَّ ٱلْحَارِثَ بْنَ سَلِيلٍ سَيِّدُ قَوْمِهِ حَسَباً ومَنْصِباً وبَيْتاً ، وَقَدْ خَطَبَ إِلَيْنَا ٱلزَّبَّاءَ ، فَلا يَنْصَرِفَنَّ إِلَّا بِحَاجَتِهِ ؛ فَقَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِابْنَتِهَا : أَيْ بُنَيَّةُ ! أَيُّ ٱلرِّجَالِ أَحَبُّ إِلَيْكِ ، ٱلْكَهْلُ ٱلْجَحْجَاحُ[1] ، ٱلْوَاصِلُ الْمَنَّاحُ[2] ، أَمِ ٱلْفَتَىٰ ٱلْوَضَّاحُ ، ٱلذَّهُولُ ٱلطَّمَّاحُ ؟[3] قَالَتْ : بَلِ ٱلْفَتَىٰ ٱلْوَضَّاحُ ؛ فَقَالَتْ : إِنَّ ٱلْفَتَىٰ يُغِيرُكِ ، وَإِنَّ ٱلشَّيْخَ يَغِيرُكِ ، [ وَلَيْسَ ٱلْكَهْلُ ٱلْفَاضِلُ ، ٱلْكَثِيرُ ٱلنَّائِلِ ؛ كَٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ ، ٱلْكَثِيرِ ٱلْمَنِّ ] ؛ [4] . فَقَالَتْ :

---

(١) ٱلْجَحْجَاحُ : ٱلسَّيِّدُ ٱلْكَرِيمُ ٱلْمُسَارِعُ إِلَىٰ ٱلْمَكَارِمِ .

(٢) ٱلْمَنَّاحُ : ٱلْكَثِيرُ ٱلْعَطَاءِ . [ وَفِي رِوَايَةٍ : ٱلْمَيَّاحُ ، أَيْ : ٱلْمُتَبَخْتِرُ فِي مَشْيِهِ كَمَشْيِ ٱلْبَطَّةِ ] .

(٣) ٱلطَّمَّاحُ : ٱلْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ .

(٤) يُغِيرُكِ ٱلأُولَىٰ بِضَمِّ ٱلْيَاءِ ، مِنَ ٱلْغَيْرَةِ بِفَتْحِ ٱلْغَيْنِ ، أَيْ : يَتَزَوَّجُ عَلَيْكِ ؛ مِنْ تَغَارِينَ مِنْهُ ؛ وَيَغِيرُكِ ٱلثَّانِيَةُ بِفَتْحِ ٱلْيَاءِ ، مِنَ الغِيرَةِ بِكَسْرِ ٱلْغَيْنِ ، وَهِيَ : ٱلْمِيرَةُ وَٱلنَّفْعُ ، يُقَالُ : غَارَ =

يَا أُمَّاهُ ! [من المتقارب] :

وإِنَّ ٱلْفَتَـــــاةَ تُحِـــــبُّ ٱلْفَتَـــــىٰ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ كَحُـــبِّ ٱلــرُّعَــاءِ أَنِيــقَ ٱلْكَــلَا[١]

فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّةُ ! إِنَّ ٱلْفَتَىٰ شَدِيدُ ٱلْحِجَابِ ، كَثِيرُ ٱلْعِتَابِ ؛ قَالَتْ : يَا أُمَّاهُ ! أَخْشَىٰ مِنَ ٱلشَّيْخِ أَنْ يُدَنِّسَ ثِيَابِي وَيُبْلِيَ شَبَابِي وَيُشْمِتَ بِي أَتْرَابِي ؛ فَلَمْ تَزَلْ أُمُّهَا حَتَّىٰ غَلَبَتْهَا عَلَىٰ رَأْيِهَا ، فَتَزَوَّجَ بِهَا ٱلْحَارِثُ عَلَىٰ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ مِنَ ٱلْإِبِلِ وَخَادِمٍ وَأَلْفَ دِرْهَمٍ ، فَٱبْتَنَىٰ بِهَا . ثُمَّ رَحَلَ بِهَا إِلَىٰ قَوْمِهِ ، فَإِنَّهُ لَجَالِسٌ ذَاتَ يَوْمٍ بِفَنَاءِ قَوْمِهِ وَهِيَ إِلَىٰ جَانِبِهِ إِذْ أَقْبَلَ شَبَابٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يَعْتَلِجُونَ[٢] ، فَتَنَفَّسَتْ ثُمَّ بَكَتْ ، فَقَالَ لَهَا : مَا يُبْكِيكِ ؟ فَقَالَتْ : مَالِي وَلِلشُّيوخِ ، ٱلنَّاهِضِينَ كَٱلْفُرُوخِ ! ؛ فَقَالَ : ثَكِلَتْكِ أُمُّكِ « تَجُوعُ ٱلْحُرَّةُ وَلا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا »[٣] ـ فَذَهَبَتْ مَثَلًا ـ أَمَا وَأَبِيكِ لَرُبَّ غَارَةٍ شَهِدْتُهَا ، وَسَبِيَّةٍ أَرْدَفْتُهَا ، وَخَمْرَةٍ شَرِبْتُهَا ، فَأَلْحِقِي بِأَهْلِكِ ، لا حَاجَةَ لِي فِيكِ .

* * *

٩٤٩ ـ وَكَانَ لِبَعْضِ ٱلأَعْرَابِ ٱمْرَأَةٌ لا تَزَالُ تُشَارُّهُ[٤] ، وَقَدْ كَانَ أَسَنَّ

---

= ٱلرَّجُلُ أَهْلَهُ يُغِيرُهُمْ غِيرَةً وَغِيَاراً ، أَي : مَارَهُمْ وَنَفَعَهُمْ . [ وَفِي رِوَايَةٍ : يَمِيرُكِ ] .

(١) ٱلْكَلا مُخَفَّفٌ ، كَلأٌ ، وَهُوَ : ٱلْعُشْبُ ؛ وَٱلكَلا : ٱلأَنِيقُ ، ٱلْحَسَنُ ٱلْمُعْجِبُ ؛ وَالرُّعَاءُ : جَمْعُ رَاعٍ .

(٢) يَعْتَلِجُونَ : يَتَصَارَعُونَ .

(٣) مَعْنَىٰ ٱلمَثَلِ : لا تَكُونُ ظِئْراً ـ مُرْضِعاً ـ وَإِنْ أَذَاها ٱلجُوعُ ، وَٱلْمَثَلُ يَضْرَبُ فِي صِيَانَةِ ٱلرَّجُلِ نَفْسَهُ عَنْ خَسِيسِ ٱلْمَكَاسِبِ .

(٤) تُشَارُّهُ ، مِنَ ٱلشَّرِّ ، أَيْ : تُخَاصِمُهُ وَتَعَادِيهِ .

وَٱمْتَنَعَ مِنَ ٱلنِّكَاحِ ـ ٱلْوَطْءِ ـ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : أَلَيْسَ هُنَا سَبِيلٌ لِلصُّلْحِ بَيْنَكُمَا ؟ فَقَالَ : لا ! إِنَّهُ قَدْ مَاتَ ٱلَّذِي كَانَ يُصْلِحُ بَيْنَنَا .

* * *

٩٥٠ ـ وَقَالَ غَيْرُهُ فِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ [من الخفيف] :

لَمْ تُوَافِقْ طِبَاعُ هَذِي طِبَاعِي ... فَأَنَا وَهْيَ دَهْرَنَا فِي صِرَاعِ
وَتَحَرَّيْتُ أَنْ أَنَالَ رِضَاهَا ... فَأَبَتْ غَيْرَ جَفْوَةٍ وَٱمْتِنَاعِ
فَتَفَكَّرْتُ لِمَ بُلِيتُ بِهَذَا ... فَإِذَا أَنَّ ذَا لِضَعْفِ ٱلْمَتَاعِ

* * *

٩٥١ ـ وَمِمَّنْ أَفْتَنَّ فِي وَصْفِ مَتَاعِهِ بِٱلضَّعْفِ وَٱلْفُتُورِ وَٱلْوَهنِ وَرِثَائِهِ إِيَّاه أَبُو حُكَيْمَةَ رَاشِدُ بْنُ إِسْحَاقَ ٱلْكَاتِبُ ، قَالَ [من الوافر] :

وَضَاحِكَةٍ إِلَيَّ مِنَ ٱلنِّقَابِ ... تُلاحِظُنِي بِنَظْرَةِ مُسْتَرَابِ
كَشَفْتُ قِنَاعَهَا فَإِذَا عَجُوزٌ ... مُسَوَّدَةُ ٱلْمَفَارِقِ بِٱلْخِضَابِ
فَمَا زَالَتْ تُحَمِّسُنِي طَوِيلًا ... وَتَأْخُذُ فِي أَحَادِيثِ ٱلتَّصَابِي[1]
تُحَاوِلُ أَنْ تُقِيمَ أَبَا زِيَادٍ ... وَدُونَ قِيَامِهِ شَيْبُ ٱلْغُرَابِ
فَقُلْتُ لَهَا : حَلَلْتِ بِشَرِّ وَادٍ ... كَرِيهِ ٱلْمُجْتَنَىٰ قَحْطِ ٱلْجَنَابِ
أَتَتْ بِجِرَابِهَا تَكْتَالُ فِيهِ ... فَقَامَتْ وَهِيَ فَارِغَةُ ٱلْجِرَابِ

٩٥٢ ـ وَقَالَ [من المنسرح] :

كَأَنَّ أَيْرِيَ مِنْ لِينِ مَقْبَضِهِ ... خَرِيطَةٌ قَدْ خَلَتْ مِنَ ٱلْكُتُبِ
كَأَنَّهُ حَيَّةٌ مُطَوَّقَةٌ ... قَدْ جَعَلَتْ رَأْسَهَا مَعَ ٱلذَّنَبِ

---

(١) ٱلتَّحْمِيسُ : ٱلْمُغَازَلَةُ .

٩٥٣ ـ وَقَالَ [من البسيط] :

أَيْـرٌ تَعقَّـفَ وَٱسْتَـرْخَـتْ مَفَـاصِلُـهُ    مِثْـلَ ٱلْعَجُـوزِ حَنَـاهَـا شِـدَّةُ ٱلْكِبَـرِ
يَقُـومُ حِيـنَ يُـرِيـدُ ٱلْبَـوْلَ مُنْحَنِيـاً    كَــأَنَّــهُ قَــوْسُ نَــدَّافٍ بِـلا وَتَـرِ
وَلَا يَقُـــومُ إِذَا نَبَّهْتَـــهُ سَحَـــراً    كَمَا تَقُومُ أُيُورُ ٱلنَّاسِ فِي السَّحَرِ

٩٥٤ ـ وَقَالَ [من الطويل] :

يَنَـامُ عَلَـىٰ كَـفِّ ٱلْفَتَـاةِ وَتَـارَةً    لَـهُ حَـرَكَـاتٌ مَـا يُحِـسُّ بِهَـا ٱلْكَـفُّ
كَمَا يَرْفَعُ ٱلْفَرْخُ ٱبْنُ يَوْمَيْنِ رَأْسَهُ    إِلَـىٰ أَبَـوَيْـهِ ثُـمَّ يُـدْرِكُـهُ ٱلضَّعْـفُ
فَتَـاةٌ غَـدَتْ مَعْقُـوفَـةٌ أَوْ كَـأَنَّـهُ    رِشَـاءٌ عَلَـىٰ رَأْسِ ٱلـرَّكِيَّـةِ مُلْتَـفُّ

نَكْتَفِي بِهَذَا ٱلْمِقْدَارِ مِنْ أَبْياتِ أَبِي حُكَيْمَةَ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ ٱشْتَهَرَتْ كَٱشْتِهَارِ طَيْلَسَانِ ٱبْنِ حَرْبٍ .

* * *

٩٥٥ ـ وَقَالَ بَعْضُهُم : خَرَجْتُ إِلَىٰ نَاحِيَةِ ٱلطُّفَاوَةِ ، فَإِذَا أَنَا بِٱمْرَأَةٍ لَمْ أَرَ أَجْمَلَ مِنْهَا ، فَقُلْتُ : أَيَّتُهَا ٱلْمَرْأَةُ ! إِنْ كَانَ لَكِ زَوْجٌ فَبَارَكَ ٱللهُ لَهُ فِيكِ ، وَإِلَّا فَأَعْلِمِينِي ؛ فَقَالَتْ : وَمَا تَصْنَعُ بِي وَفِيَّ شَيْءٌ لا أَرَاكَ تَرْتَضِيهِ ؛ قُلْتُ : وَمَا هُوَ ؟ قالَتْ : شَيْبٌ فِي رَأْسِي ؛ قَالَ : فَثَنَيْتُ عِنَانَ دَابَّتِي رَاجِعاً ، فَصَاحَتْ بِي : عَلَىٰ رِسْلِكَ أُخبِرْكَ بِشَيْءٍ ؛ فَوَقَفْتُ ، وَقُلْتُ : وَمَا هُوَ يَرْحَمُكِ ٱللهُ ؟ قَالَتْ : وَٱللهِ مَا بَلَغْتُ ٱلْعِشْرِينَ بَعْدُ ، وَهَذَا رَأْسِي ؛ فَكَشَفَتْ عَنْ عَنَاقِيدَ كَالْحُمَمِ ، قَالَتْ : وَٱللهِ مَا رَأَيْتُ بِرَأْسِي بَياضاً قَطُّ ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّا نَكْرَهُ مِنْكَ مَا تَكْرَهُ مِنَّا ؛ وَأَنْشَدَتْ [من الوافر] :

أَرَىٰ شَيْـبَ ٱلـرِّجَـالِ مِـنَ ٱلْغَـوَانِـي    بِمَـوْقِـعِ شَيْبِهِـنَّ مِـنَ ٱلـرِّجَـالِ[1]

---

(١) [ راجع « ديوان منصور النمري » صفحة : ١٢٠ ] .

قَالَ : فَرَجَعْتُ خَجِلًا كَاسِفَ ٱلْبَالِ .

قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ : أَرَىٰ شَيْبَ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلْغَوَانِي . . . ٱلْبَيْتُ مِثْلُهُ قَوْلُ مَنْصُورٍ ٱلنَّمِرِيِّ [من الطويل] :

كَرِهْنَ مِنَ ٱلشَّيْبِ ٱلَّذِي لَوْ رَأَيْنَهُ ... بِهِنَّ رَأَيْتَ ٱلطَّرْفَ عَنْهُنَّ أَزْوَرَا

* * *

٩٥٦ ـ وَقَالَ كِسْرَىٰ أَنُوشِرْوَانَ : كُنْتُ أَخَافُ إِذَا أَنَا شِخْتُ لا تُرِيدُنِي ٱلنِّسَاءُ ، فَإِذَا أَنَا لا أُرِيدُهُنَّ .

* * *

٩٥٧ ـ وَيَقُولُ أَبُو حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيُّ [من الطويل] :

رَمَتْنِي وَسِتْرُ ٱللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... عَشِيَّةَ آرَامِ ٱلْكِنَاسِ رَمِيمُ[(١)]

رَمِيمُ ٱلَّتِي قَالَتْ لِجَارَاتِ بَيْتِهَا ... ضَمِنْتُ لَكُمْ أَنْ لا يَزَالُ يَهِيمُ[(٢)]

أَلا رُبَّ يَوْمٍ لَوْ رَمَتْنِي رَمَيْتُهَا ... وَلَكِنَّ عَهْدِي بِٱلنِّضَالِ قَدِيمُ

سِتْرُ ٱللهِ هُوَ الشَّيْبُ ، وَقِيلَ : مَا حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهَا ، وَقِيلَ : ٱلإِسْلامُ ؛ وَٱلآرَامُ جَمْعُ إِرَمٍ ، كَعِنَبٍ ، وَهِيَ : ٱلْحِجَارَةُ تُنْصَبُ عَلَماً في ٱلْمفَازَةِ يُهْتَدَىٰ بِهَا ؛ وَٱلْكِنَاسُ : ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ ٱلظِّبَاءُ وَٱلْبَقَرُ ؛ وَرَمِيمُ في آخر ٱلْبَيْتِ ٱلأَوَّلِ فاعِلُ رَمَتْنِي ، وَهُوَ ٱسْمُ جَارِيَةٍ ـ فَتَاةٍ ـ ؛ يَقُولُ ٱلنُّمَيْرِيُّ : رَمَتْنِي بِطَرْفِهَا وَأَصَابَتْنِي بِمَحَاسِنِهَا ، وَلَوْ كُنْتُ شَابّاً لَرَمَيْتُ كَمَا رُمِيتُ وَفَتَنْتُ كَمَا فُتِنْتُ ،

---

(١) وَيُرْوَىٰ هَذَا ٱلْعَجز : « عَشِيَّةَ أَحْجَارِ ٱلْكِنَاس رَمِيمُ » . قَالَ ٱبْنُ ٱلأَعْرَابِي : أَرَادَ : عَشِيَّةَ رَمْلِ ٱلْكِنَاسِ ، وَهُوَ رَمْلٌ في بِلادِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ كِلابٍ ، فَلَمْ يَسْتَقِيمْ لَهُ ٱلْوَزْنُ ، فَوَضَعَ ٱلأَحْجَارَ مَوْضِعَ ٱلرَّمْلِ .

(٢) أَنْ لا يَزَالُ ، فَأَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ ٱلثَّقِيلَةِ ، وَالأَصْلُ : أَنَّهُ لا يَزَالُ يهِيمُ .

وَلَكِنْ قَدْ تَطَاوَلَ عَهْدِي بِٱلشَّبَابِ .

❋ ❋ ❋

٩٥٨ ـ وَيَقُولُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من الوافر] :

لَقَدْ أَبْغَضْتُ نَفْسِي فِي مَشِيبِي فَكَيْفَ تُحِبُّنِي ٱلْخَوْدُ ٱلْكَعَابُ[١]

❋ ❋ ❋

٩٥٩ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

إِذَا مَا رَأَتْكَ ٱلْبِيضُ صَدَّتْ وَرُبَّمَا غَدَوْتَ وَطَرْفُ ٱلْبِيضِ نَحْوَكَ أَصْوَرُ[٢]

وَمَا ظَلَمَتْكَ ٱلْغَانِيَاتُ بِصَدِّهَا وَإِنْ كَانَ فِي أَحْكَامِهَا مَا يُجَوَّرُ[٣]

أَعِرْ طَرْفَكَ ٱلْمِرْآةَ وَٱنْظُرْ فَإِنْ نَبَا بِعَيْنَيْكَ عَنْكَ ٱلشَّيْبُ فَٱلْبِيضُ أَعْذَرُ

إِذَا شَنِئَتْ عَيْنُ ٱلْفَتَىٰ شَيْبَ نَفْسِهِ فَعَيْنُ سِوَاهُ بِٱلشَّنَاءَةِ أَجْدَرُ[٤]

❋ ❋ ❋

٩٦٠ ـ وَقَالَ أَبُو دُلَفَ ٱلْعِجْلِيُّ [من الكامل] :

نَظَرَتْ إِلَيَّ بِعَيْنِ مَنْ لَمْ يَعْدِلِ لَمَّا تَمَكَّنَ طَرْفُهَا مِنْ مَقْتَلِي

لَمَّا تَبَسَّمَ بِٱلْمَشِيبِ مَفَارِقِي صَدَّتْ صُدُودَ مُفَارِقٍ مُتَحَمِّلِ

فَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَصْلَهَا بِتَعَطُّفٍ وَٱلشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَنْ لا تَفْعَلِي

❋ ❋ ❋

---

(١) ٱلْخَوْدُ : ٱلمَرْأَةُ ٱلْجَمِيلَةُ .

(٢) أَصْوَرُ : مَائِلُ .

(٣) يُجَوَّرُ يُنْسَبُ إِلَىٰ الجَوْرِ : ٱلظُّلْمِ .

(٤) الشَّنَاءَةُ : ٱلْبُغْضُ .

٩٦١ ـ وَأَنْشَدُوا [من الوافر] :

رَأَيْتُ ٱلشَّيْبَ تَكْرَهُهُ ٱلْغَوَانِي وَيُحْبِبْنَ ٱلشَّبَابَ لَمَّا هَوِيْنَا
فَهَذَا ٱلشَّيْبُ نَخْضِبُهُ سَوَاداً فَكَيْفَ لَنَا فَنَسْتَرِقُ ٱلسِّنِينَا

* * *

٩٦٢ ـ وَقَالُوا [من الطويل] :

أَلَا رُبَّ حَوْراءَ ٱلْمَحَاجِرِ طَفْلَةٍ تُزَفُّ إِلَىٰ شَيْخٍ مِنَ ٱلْقَوْمِ تِنْبَالِ[1]
يَقُولُونَ : جَرَّتْهَا إِلَيْهِ قَرَابَةٌ فَوَيْلُ ٱلْغَوَانِي مِنْ بَنِي ٱلْعَمِّ وَٱلْخَالِ

* * *

٩٦٣ ـ وَفي الأَثَرِ : إِنَّ شَابَّةً زُوِّجَتْ شَيْخاً ، فَقَتَلَتْهُ ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابَ : لِيَنْكِحِ ٱلرَّجُلُ لُمَتَهُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ، وَلتَنْكِحِ ٱلْمَرْأَةُ لُمَتَهَا مِنَ ٱلرِّجالِ .

اللُّمَة : ٱلْمِثْلُ في ٱلسِّنِّ وَٱلتِّرْبُ ، كَأَنَّ عُمَرَ كَرِهَ لِلشَّابِّ أَنْ يَتَزَوَّجَ المُسِنَّةَ وَلِلْمُسِنِّ أَنْ يَتَزَوَّجَ ٱلشَّابَّةَ .

* * *

**وَمِنْهُنَّ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْكُهُولَ :**

٩٦٤ ـ وَمِنَ ٱلنِّساءِ مَنْ رَجَحَ عَقْلُهُنَّ عَلَىٰ هَوَاهُنَّ وَآثَرْنَ ٱلْكُهُولَ عَلَىٰ ٱلشُّبَّانِ .

قَالَتْ تُمَاضِرُ ٱمْرَاَةُ عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ لِعُثْمانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : هَلْ لَكَ فِي ٱبْنَةِ عَمٍّ لِي ، بِكْرٍ جَمِيلَةٍ ، مُمْتَلِئَةِ ٱلْخَلْقِ ، أَسِيلَةِ ٱلْخَدِّ ، أَصِيلَةِ ٱلرَّأْيِ ،

---

(١) الطَّفْلَةُ : ٱلرَّخْصَةُ ٱلنَّعِمَةُ ؛ وَٱلتِّنْبَالُ : ٱلْقَصِيرُ ، وَٱلْبَلِيدُ ٱلْكَسلانُ .

تَتَزَوَّجُها ؟ قَالَ : نَعَم ؛ فَذَكَرَتْ لَهُ نَائِلَةَ بِنْتَ ٱلْفَرَافِصَةِ ٱلْكَلْبِيَّةَ ، فَتَزَوَّجَهَا وَهِيَ نَصْرَانِيَّةٌ ، فَتَحَنَّفَتْ وَحُمِلَتْ إِلَيْهِ مِنْ بِلادِ كَلْبٍ مَعَ أَخِيهَا ضَبٍّ ـ وَكَانَ مُسْلِماً ـ دَخَلَتْ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهَا : لَعَلَّكِ تَكْرَهِينَ مَا تَرَيْنَ مِنْ شَيْبِي ؟ قَالَتْ : وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، إِنِّي لَمِنْ نِسْوَةٍ أَحَبُّ بُعُولَتِهِنَّ إِلَيْهِنَّ ٱلْكُهُولُ ! قَالَ : إِنِّي قَد جُزْتُ ٱلْكُهُولَ ، وَأَنَا شَيْخٌ ! قَالَتْ : أَذْهَبْتَ شَبَابَكَ مَعَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ في خَيْرِ مَا ذَهَبَتْ فِيهِ ٱلأَعْمَارُ ! قَالَ عُثْمَانَ : إِمَّا أَنْ تَقُومِي إِلَيَّ وَإِمَّا أَنْ أَقُومَ إِلَيْكِ ؛ فَقَالَتْ : مَا تَجَشَّمْتُ إِلَيْكَ مِنْ عُرْضِ ٱلسَّمَاوَةِ أَبْعَدُ مِمَّا بَيْنَنَا ، بَلْ أَقُومُ أَنَا ؛ فَقَامَتْ حَتَّىٰ جَلَسَتْ مَعَهُ عَلَىٰ ٱلسَّرِيرِ ، فَقَالَ : ٱطْرَحِي دِرْعَكِ ، ثُمَّ ٱطْرَحِي إِزَارَكِ ؛ قَالَتْ : ذَاكَ إِلَيْكَ ؛ وَمَسَحَ رَأْسَهَا وَدَعَا لَهَا بِٱلْبَرَكَةِ ، فَكَانَتْ أَحَبَّ نِسائِهِ إِلَيْهِ ، وَلَمْ تَزَلْ نَائِلَةُ عِنْدَ عُثْمَانَ حَتَّىٰ قُتِلَ ، فَلَمَّا دُخِلَ إِلَيْهِ وَقَتْهُ بِيَدِهَا ، فَجُذِمَتْ ـ قُطِعَتْ ـ أَنامِلُهَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مُعَاوِيَةُ بَعْدَ ذَلِكَ يَخْطُبُهَا ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ : مَا تَرْجُو مِنِ ٱمْرَأَةٍ جَذْمَاءَ ! وَقِيلَ : إِنَّهَا قَالَتْ لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ : إِنِّي رَأَيْتُ ٱلْحُزْنَ يَبْلَىٰ كما يَبْلَىٰ ٱلثَّوْبُ ، وَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَبْلَىٰ حُزْنُ عُثْمَانَ مِنْ قَلْبِي ! فَدَعَتْ بِفِهْرٍ [أَيْ : بِحَجَرٍ قَدْرَ مَا يُدَقُّ بِهِ ٱلْجَوْزُ ، أَوْ مَا يَمْلأُ الكَفَّ] ، فَهَتَمَتْ فَاهَا ، وَقَالَتْ : وَٱللهِ لا قَعَدَ أَحَدٌ مِنِّي مَقْعَدَ عُثْمَانَ أَبَداً ! [ راجع رقم : ١٥٥٧ ] .

* * *

٩٦٥ ـ وَقيلَ لامْرَأَةٍ : أَمَا تَكْرَهِينَ شَيْبَ زَوْجِكِ ! فَقَالَتْ : إِنَّهُ نَشَأَ فينا ، وَإِنَّما تَكْرَهُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلرَّجُلَ ٱلشَّائِبَ إِذا كانَ غَرِيباً وَرَأَتْهُ بَديهَةً .

* * *

٩٦٦ ـ وَقَالَتِ ٱمْرَأَةٌ : لا يُعْجِبُنِي ٱلشَّابُّ يَمْعَجُ مَعْجَ ٱلْمُهْرِ ، طَلَقاً أَوْ طَلَقَيْنِ[١] ، ثُمَّ يَرْبِضُ بِناحِيَةِ ٱلْمَيْدَانِ . . . وَلَكِنْ أَيْنَ أَنْتِ مِنْ شَيْخٍ يَضَعُ قِبَّ

---

(١) مَعَجَ ٱلْفَرَسُ : كانَ سَرِيعَ ٱلسَّيْرِ سَهْلَهُ ؛ وَٱلطَّلَقُ : ٱلشَّوْطُ ٱلْوَاحِدُ في جَرْيِ ٱلْخَيْلِ .

ٱسْتِه بِٱلأَرْضِ ثمَّ سَحْباً وَجَرّاً[١] .

* * *

كَما أَنَّ مِنَ ٱلنِّساءِ وَٱلرِّجالِ مَنْ يُفَضِّلُ ٱلْفُقَراءَ عَلىٰ ٱلأَغْنِياءِ :

٩٦٧ ـ وَحَسْبُكَ في هَذا ٱلْبابِ ما كانَ مِنْ أَحَدِ ٱلْفُقَهاءِ ٱلسَّبْعَةِ بِٱلْمَدِينَةِ سَيِّدِ ٱلتَّابِعِينَ مِنَ ٱلطِّرازِ ٱلأَوَّلِ ٱلْعالِمُ ٱلْمُحَدِّثُ ٱلْفَقيهُ ٱلزَّاهِدُ ٱلْعَابِدُ أَبو مُحَمَّدٍ سَعيدُ بْنُ ٱلْمُسَيَّبِ ٱلْمُتَوَفَّىٰ سَنَةَ ٩٣هـ ، فَقَدْ خَطَبَ إِلَيْهِ ٱبْنَتَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوانَ لابْنِهِ ٱلْوَلِيدِ حِينَ وَلَّاهُ ٱلْعَهْدَ ، فَأَبىٰ سَعيدٌ أَنْ يُزَوِّجَهُ ، وَقَدْ لاقىٰ ٱلأَلاقي مِنْ جَرَّاءِ هَذا الإِباءِ ، وَدُعِيَ إِلىٰ نَيِّفٍ وَثلاثين أَلْفاً لِيَأْخُذها ، وَقَالَ : لا حاجَةَ لي فيها وَلا في بَني مَرْوانَ حَتّىٰ أَلْقىٰ ٱللهَ فَيحْكُمَ بَيْني وبَيْنَهُمْ ؛ قالَ ٱبْنُ خلِّكان في تَرْجَمَتِه بَعْدَ هَذا : وَقالَ أَبو وَدَاعَةَ[٢] : كُنْتُ أُجالِسُ سَعِيدَ بْنَ ٱلْمُسَيَّبِ ، فَفَقَدَنِي أَيّاماً ، فلَمّا جِئْتُهُ ، قَالَ : أَيْنَ كُنتَ ؟ قُلْتُ : تُوُفِّيَتْ أَهْلِي ، فَٱشْتَغَلْتُ بِها ؛ فقَالَ : هَلّا أَخْبَرْتَنا فَشَهِدْناها ! قال أَبُو وَدَاعَةَ : ثُمَّ أَرَدْتُ أَنْ أَقُومَ ، فَقَالَ : هَلْ أَحْدَثْتَ ٱمْرَأَةً غَيْرَها ؟ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ ٱللهُ ، وَمَنْ يُزَوِّجُنِي وَمَا أَمْلِكُ إِلَّا دِرْهَمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً ! فَقَالَ : إِنْ أَنا فَعَلْتُ تَفْعَلُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ؛ ثُمَّ حَمِدَ ٱللهَ تَعَالىٰ وَصَلّىٰ عَلىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ وَزَوَّجَنِي عَلىٰ دِرْهَمَيْنِ ، أَوْ قَالَ : عَلىٰ ثَلاثةٍ . قَالَ : فَقُمْتُ وَمَا أَدْرِي ما أَصْنَعُ مِنَ ٱلْفَرَحِ ، فَصِرْتُ إِلىٰ مَنْزِلي ، وَجَعَلْتُ أَتَفَكَّرُ مِمَّنْ آخُذُ وَأَسْتَدِينُ ! وَصَلَّيْتُ ٱلْمَغْرِبَ ، وَكُنْتُ صائِماً ، فَقَدَّمْتُ عَشايَ لأُفْطِرَ ـ وَكانَ خُبْزاً وَزَيْتاً ـ وَإِذا بِٱلْبابِ يُقْرَعُ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذا ؟

---

(١) ٱلْقِبّ : ٱلْعَظْمُ ٱلنَّاتِىءُ مِنَ ٱلظَّهْرِ بَيْنَ ٱلأَلْيَتَيْنِ .

(٢) ٱلْمَشْهُورُ أَنَّهُ كَثِيرُ بنُ ٱلْمُطَّلِبِ ٱبْنِ أَبِي وَدَاعَةَ ، رَاجِع « سير أعلام النبلاء » ٤/ ٢٣٤ ؛ أَوْ أَنَّهُ عَبْدُ ٱللهِ ٱبْنُ أَبِي وَدَاعَةَ ، رَاجِع « التمهيد » لابْنِ عَبْدِ ٱلْبَرِّ ٢/ ١٨٧ . بسام .

قَالَ : سَعِيد ؛ ففَكَّرْتُ في كُلِّ إِنسانٍ ٱسْمُهُ سَعيدٌ إِلَّا سَعيدَ بْنَ ٱلْمُسَيَّبِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ إِلَّا ما بَيْنَ بَيْتِه وَٱلْمَسْجِدِ ، فَقُمْتُ وَخَرَجْتُ وَإِذا بِسَعِيدِ بْنِ ٱلْمُسَيَّبِ ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَا[١] لَهُ ، فَقُلْتُ : يا أَبا مُحَمَّدٍ ! هَلا أَرْسَلْتَ إِلَيَّ فَآتِيكَ ! قالَ : لا ! أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ تُؤْتىٰ ! قُلْتُ : فَمَا تَأْمُرُني ؟ قالَ : رَأَيْتُكَ رَجُلًا عَزَباً قَدْ تَزَوَّجْتَ[٢] فَكَرِهْتُ أَنْ تَبيتَ ٱللَّيْلَةَ وَحْدَكَ ، وَهَذِهِ ٱمْرَأَتُكَ ، وَهَذِهِ خادِمٌ تَخْدِمُكُمْ ، مَعَها أَلْفُ دِرْهَمٍ نَفَقَةً لَكُمْ ، فَخُذْها يا عَبْدَ ٱللهِ بِأَمانَةِ ٱللهِ ، فَوَٱللهِ إِنَّكَ لَتَأْخُذُها صَوَّامَةً عارِفَةً بِكِتابِ ٱللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ ٱللهِ ، فَٱتَّقِ ٱللهَ فيها ، وَلا يَمْنَعُكَ مَكانُها مِنِّي إِنْ رَأَيْتَ مِنْها ما تَكْرَهُ أَنْ تُحَسِّنَ أَدَبَها ؛ ثُمَّ سَلَّمَها إِلَيَّ ، ثُمَّ صَعِدْتُ إِلىٰ ٱلسَّطْحِ ، فَنَادَيْتُ ٱلْجيرانَ ، فَجاءُوني ، وَقالُوا : ما شَأْنُكَ ؟ فَقُلْتُ : زَوَّجَني سَعيدُ بْنُ ٱلْمُسَيَّبِ ٱلْيَوْمَ ٱبْنَتَهُ ، وَقَدْ جاءَ بِها عَلىٰ غَفْلَةٍ ، وَها هِيَ في ٱلدَّارِ ، فَنَزَلُوا إِلَيْها ، وَبَلَغَ أُمِّي ، فَجاءَتْ وَقالَتْ : وَجْهِي مِنْ وَجْهِكَ حَرامٌ إِنْ مَسَسْتَها قَبْلَ أَنْ أُصْلِحَها ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ؛ فَأَقَمْتُ ثَلاثاً ، ثُمَّ دَخَلْتُ بِها ، فَإِذا هِيَ مِنْ أَجْمَلِ ٱلنِّساءِ وَأَحْفَظِهِمْ لِكِتابِ ٱللهِ تَعالىٰ وَأَعْلَمِهِمْ بِسُنَّةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَأَعْرَفِهِمْ بِحَقِّ ٱلزَّوْجِ . قالَ أَبُو وَداعَةَ : فَمَكَثَ ـ سَعِيدٌ ـ شَهْراً لا يَأْتيني وَلا آتِيهِ ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ شَهْرٍ ، وَهُوَ في حَلْقَتِه ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ وَلَمْ يُكَلِّمْني ، حَتّىٰ ٱنْفَضَّ مَنْ في ٱلْمَجْلِسِ ، فَلَمّا لَمْ يَبْقَ غَيْري وَغَيْرُهُ قالَ : ما حالُ ذَلِكَ ٱلإِنْسانِ ؟ قُلْتُ : هُوَ عَلىٰ ما يُحِبُّ ٱلصَّدِيقُ وَيَكْرَهُ ٱلْعَدُوُّ ؛ وَكانَ سَعيدٌ كَثيراً ما يَسْأَلُني عَنْها ، فَأَقُولُ : بِخَيْرٍ ؛ فَيَقُولُ :

---

(١) يُقالُ : بَدَا لي بَداءٌ ، أَيْ : تَغَيَّرَ رَأْيِي عَلىٰ ما كانَ عَلَيْهِ ، وَهُنا يُريدُ أَبُو وَداعَةَ بِقَوْلِهِ : فَظَنَنْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَا لَهُ ، أَنْ رَأْيَ سَعِيدٍ تَغَيَّرَ ، وَبَدَا لَهُ أَمْرٌ آخَرُ في تَزْويجِ أَبِي وَداعَةَ بِنْتِه .

(٢) يُريدُ : قَدْ عَقِدَ عَقْدُكَ عَلىٰ ٱمْرَأَةٍ هِيَ بِنْتُ سَعِيدٍ .

يا عَبْدَ ٱللهِ ! إِنْ خفَّ عَلَيْكَ أَنْ تُزِيرَناها[١] فَٱفْعَلْ ؛ فَلَمَّا حَضَرَ وِلادُها خَرَجْتُ لأَنْظُرَ في بَعْضِ ما يَنْظُرُ فِيهِ ٱلرَّجُلُ لأَهْلِهِ ، وَرَجَعْتُ إِلىٰ ٱلدَّارِ ، وَإِذا بِها شَخْصٌ ما رَأَيْتُهُ قَطُّ ، فَرَجَعْتُ مُوَلِّياً ، فَنادَتْني مِنْ وَرائِي : يا عَبْدَ ٱللهِ ! ٱدْخُلْ ! فَقَدْ أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ هَذِهِ ٱلنَّظْرَةَ ؛ فَقُلْتُ : وَمَنْ أَنْتِ يَرْحَمُكِ ٱللهُ ؟ قالَتْ : أَنا أُمُّ ٱلْفَتاةِ يا عَبْدَ ٱللهِ ! كَيْفَ رَأَيْتَ أَهْلَكَ ؟ قُلْتُ : جَزاكُمُ ٱللهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ ، خَيْراً ، لَقَدْ رَبَّيْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ ، وَأَدَّبْتُمْ فَأَحْكَمْتُمْ ؛ فَقالَتْ : يا عَبْدَ ٱللهِ ! لا يَمْنَعْكَ مَكانُها مِنّا أَنْ تَرىٰ بَعْضَ ما تَكْرَهُ فَتُحَسِّنَ أَدَبَها ، يا عَبْدَ ٱللهِ ! لا تُمَلِّكْها مِنْ أَمرِها ما جَاوَزَ نَفْسَها ، فَإِنَّ ٱلْمَرْأَةَ رَيْحانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرمانَةٍ .

* * *

## زُهْدُهُمْ في ٱلْعَجائِزِ :

٩٦٨ ـ قالَ أَعْرابِيٌّ [من الطويل] :

لا تَنْكِحَنَّ ٱلدَّهْرَ ما عِشْتَ أَيِّماً ... مُخَرَّمَةً قَدْ مُلَّ مِنْها وَمَلَّتِ[٢]
تَحُكُّ قَفاها مِنْ وَراءِ خِمارِها ... إِذا فَقَدَتْ شَيْئاً مِنَ ٱلْبَيْتِ جُنَّتِ[٣]
تَجُودُ بِرِجْلَيْها وَتَمْنَعُ دَرَّها ... وَإِنْ طُلِبَتْ مِنْها ٱلْمَوَدَّةُ هَرَّتِ[٤]

* * *

---

(١) أَزارَهُ : حَمَلَهُ عَلىٰ ٱلزِّيارةِ .

(٢) لا تَنْكِحَنَّ : لا تَتَزَوَّجَنَ ؛ وَٱلأَيِّمُ : ٱلَّتي ماتَ عَنْها زَوْجُها ؛ وَمُخَرَّمَةٌ : كَثُرَ ٱلدُّعاءُ عَلَيْها بِأَنْ يَخْتَرِمَها ٱلْمَوْتُ وَيَسْتَأْثِرَ بِها ؛ وَمُلَّ مِنْها وَمَلَّتِ : يُرِيدُ أَنَّها طَعَنَتْ في ٱلسِّنِّ وَقَضَتْ مَآرِبُ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَضَتْ مِنْها .

(٣) تحكُّ قَفاها ، أَيْ : لِمَا فِيها مِنَ ٱلْقَمْلِ ، يُرِيدُ إِنَّها غَيْرُ نَظِيفَةٍ ، فَلا تَكْشِفُ رَأْسَها وَلَكِنْ تَحُكُّهُ وَراءَ ٱلْخِمارِ ؛ وَقَوْلُهُ : إِذا فَقَدَتْ شَيْئاً مِنَ ٱلْبَيْتِ جُنَّتِ ، أَيْ : إِذا فَقَدَتْ ما لا خَطَرَ لَهُ كانَ عِنْدَها كَٱلشَّيْءِ ٱلَّذي لا عِوَضَ مِنْهُ .

(٤) قَالَ ٱلتِّبْرِيزِيُّ : هَذا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَثَلاً لِقِلَّةِ خَيْرِها ، فَشَبَّهَها بِٱلشَّاةِ ٱلَّتي تُعالِجُ رِجْلَيْها ، فَإِذا=

٩٦٩ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الطويل] :

أُلامُ عَلىٰ بُغْضي لِمَا بَيْنَ حَيَّةٍ ... وَضَبْعٍ وَتِمْساحٍ تَغَشَّاكَ مِنْ بَحْرِ (١)

تُحاكِي نَعِيماً زالَ في قُبْحِ وَجْهِها ... وَصَفْحَتُها لَمَّا بَدَتْ سَطْوَةُ ٱلدَّهْرِ (٢)

هِيَ ٱلضَّرَبَانُ في ٱلْمَفاصِلِ خالِياً ... وَشُعْبَةُ بِرْسامٍ ضَمَمْتَ إِلىٰ ٱلنَّحْرِ (٣)

إِذا سَفَرَتْ كانَتْ لِعَيْنِكَ سُخْنَةً ... وَإِنْ بُرْقِعَتْ فَٱلْفَقْرُ في غايَةِ ٱلْفَقْرِ (٤)

وَإِنْ حَدَّثَتْ كانَتْ جَميعَ مَصائِبٍ ... مُوَفَّرَةٍ تَأْتي بِقاصِمَةِ ٱلظَّهْرِ (٥)

حَدِيثٌ كَقَلْعِ ٱلضِّرْسِ أَوْ نَتْفِ شارِبٍ ... وَغَنْجٌ كَحَطْمِ ٱلأَنْفِ عِيلَ بِهِ صَبْري (٦)

وَتَفْتَرُّ عَنْ قُلْحٍ عَدِمْتُ حَدِيثَها ... وَعَنْ جَبَلَيْ طَيٍّ وَعَنْ هَرَمَي مِصرِ (٧)

* * *

= أُريدَ حَلْبُها مَنَعَتْ ، وَيَجوزُ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُرادُ إِنْ قَعَدَتْ عَنِ ٱلْوِلادَةِ فَهِيَ تُساعِدُ في ٱلْجِماعِ وَلا تَحمِلُ وَلا تَلِدُ ؛ أَرادَ بِهَرَّتْ : كَرِهَتْ وَتَقَبَّضَتْ .

(١) جَمَعَ بَيْنَ ٱلْحَيَّةِ وَٱلضَّبْعِ وَٱلتِّمْساحِ لأَنَّهُ لا يَقْصِدُ ٱلتَّشْبيهَ مِنْ وَجْهٍ واحِدٍ ، وَإِنَّما يُريدُ ٱلتَّشْبيهَ مِنْ وُجُوهٍ كَثيرَةٍ مِنَ ٱلْخَلْقِ وَٱلْخُلُقِ . وَتَغَشَّاكَ ، أَيْ : ٱلتِّمْساحُ ؛ أَيْ : أَتاكَ .

(٢) يَقولُ : تُحاكِي في قُبْحِ وَجْهِها قُبْحَ زَوالِ ٱلنِّعْمَةِ ، كَمَا قيلَ في ٱلْمَثَلِ : « أَقْبَحُ مِنْ زَوالِ ٱلنِّعْمَةِ » ثُمَّ شَبَّهَ صَفْحَتَها ـ أَيْ : عُرْضَ وَجْهِها ـ بِسَطْوَةِ ٱلدَّهْرِ ، وَالسَّطْوُ : ٱلْبَسْطُ عَلىٰ الإِنْسانِ بِقَهْرِهِ مِنْ فَوْقٍ ، وَأَصْلُهُ : ٱلْبَطْشُ وَٱلْقَهْرُ .

(٣) ٱلْبِرْسامُ : ٱلْتِهابٌ في ٱلْحِجابِ ٱلَّذي بَيْنَ ٱلْكَبِدِ وَٱلْقَلْبِ ؛ يَقُولُ : إِذا خَلَوْتَ بِها كانَتْ خَلْوَتُها كَمَوجانِ ٱلْعُرُوقِ بِالآلَمِ في مَفاصِلِ ٱلْمُنْقَرِسِ ـ ٱلْمُصابِ بِٱلنِّقْرِسِ [ ٱزْدِيادُ نِسْبَةِ حَمْضِ ٱلْبَوْلِ فِي ٱلدَّمِ عَنِ ٱلْحَدِّ ٱلطَّبِيعِي ] : داءٌ يَأْخُذُ في ٱلرِّجْلِ ، وَهُوَ وَرَمٌ يَحْدُثُ في مَفاصِلِ ٱلْقَدَمِ ، وَفي إِبْهَامِها ٱلْبَثْرُ [ حَيْثُ تَتَرَكَّزُ بِلَّوْراتِ حَمْضِ ٱلْبَوْلِ ، وَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلىٰ آلامٍ مُبْرِحَةٍ ] ـ وَإِنْ جَذَبْتَها إِلىٰ نَفْسِكَ قاسَيْتَ مِنْها ما يُقاسي ٱلْمُبَرْسَمُ .

(٤) سُخْنَةُ ٱلْعَيْنِ نَقِيضُ قُرَّتِها ، وَيُقالُ : أَسْخَنَ ٱللهُ عَيْنَهُ : إِذا أَبْكاهُ ؛ وَقَوْلُهُ : فَالفَقْرُ في غايَةِ ٱلْفَقْرِ ، يَعني : إِذا تَناهىٰ ٱلْفَقْرُ حَتّىٰ لا يَكُونُ وَراءَهُ شَرٌّ مِنْهُ .

(٥) قاصِمَةُ ٱلظَّهْرِ : ٱلدَّاهِيَةُ .

(٦) ٱلحَطْمُ : كَسْرُ ٱلشَّيْءِ ٱلْيابِسِ ؛ وَعيلَ بِهِ صَبْري : غُلِبَ .

(٧) تَفْتَرُّ : تَبْتَسِمُ ؛ وَٱلْقَلَحُ ، أَيْ : الأَسْنانُ ٱلْمُصابَةُ بِٱلْقَلَحِ ، وَهُوَ : صُفْرَةٌ فِي الأَسْنانِ .

٩٧٠ ـ وَقالَ أَعْرابيٌّ [من البسيط] :

لا تَنْكِحَنَّ عَجُوزاً إِنْ دَعُوكَ لَها ... وَإِنْ حَبَوْكَ عَلىٰ تَزْويجِها ٱلذَّهَبَا(١)

وَإِنْ أَتَوْكَ وَقالوا إِنَّها نَصَفٌ ... فَإِنَّ أَمْثَلَ نِصْفَيْها ٱلَّذي ذَهَبا(٢)

ٱلنَّصَفُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلْوَسَطُ بَيْنَ ٱلحَدَاثَةِ وَٱلْمُسِنَّةِ ؛ وَقيلَ : هِيَ ٱلَّتي بَلَغَتْ خَمْسينَ سنَةً .

❊ ❊ ❊

٩٧١ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ خَيْرَ نِصْفَيْ ٱلرَّجُلِ آخِرُهُما ، يَذْهَبُ جَهْلُهُ ، وَيَثُوبُ حِلْمُهُ ، ويَجْتَمِعُ رَأْيُهُ ، وَإِنَّ [ شَرَّ ] نِصْفَيْ ٱلْمَرْأَةِ آخِرُهُما ، يَسُوءُ خُلُقُها ، وَيَحِدُّ لِسانُها ، وتَعْقُمُ رَحِمُها .

❊ ❊ ❊

٩٧٢ ـ وَقَال ٱلأَطِبَّاءُ : نِكَاحُ ٱلْعَجوزِ سُمٌّ مِنَ ٱلسُّمُومِ ، يُفْنِي ٱلْبَدَنَ ، وَيُورِثُ ٱلْهَمَّ وَالْحَزَنَ .

❊ ❊ ❊

٩٧٣ ـ وَقالوا : لا تَأْكُلُ وَلا تَرْكَبُ وَلا تَنْكِحُ إِلَّا فَتِيّاً .

❊ ❊ ❊

---

(١) في « حَماسَةِ أَبي تَمّام » بَدَلُ : إِنْ دَعُوكَ لَها ، إِنْ أُتيتَ بِها ؛ وَبَدَلَ قَوْلِهِ : وَإِنْ حَبَوْكَ . . . الخ ، وَٱخْلَعْ ثِيابَكَ مِنْها مُمْعِناً هَرَباً . قَالَ ٱلتَّبْريزيُّ : قَوْلُهُ : وَٱخْلَعْ ثِيابَكَ مِنْها ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ : فَسُلِّي ثِيابي مِنْ ثِيابِكِ تَنْسُلُ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْناهُ : تَشَمَّرْ وتَخَفَّفْ ؛ وَمَعْنىٰ مِنْها ، أَيْ : مِنْ أَجْلِها ؛ وَقَوْلُهُ هَرَباً ، أَيْ : هارباً .

(٢) أَمْثَلُ نِصْفَيْها ، أَيْ : أَصْلَحُهُما ، يُقالُ : فُلانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلانٍ ، أَيْ : هُوَ أَوْفىٰ إِلىٰ ٱلْخَيْرِ مِنْهُ ؛ وَأَماثِلُ ٱلْقَوْمِ : خِيارُهُمْ .

٩٧٤ ـ وَقَالوا : مُضاجَعَةُ ٱلْعَجُوزِ يَخافُ مِنْها مَوْتُ ٱلْفُجاءَةِ .

* * *

٩٧٥ ـ وَلَمَّا أَسَنَّتْ رَمْلَةُ بِنْتُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ خَلَفٍ ـ وَكَانَتْ ضَرَّةً لِعائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عُبَيْدٍ ـ جَعَلَتْ تَتَجَنَّبُه في مِثْلِ أَيّامِ أَقْرائِها ـ حَيْضاتِها ـ تُرِيهِ أَنَّها في سِنٍّ مَنْ تَحيضُ ـ مَعَ أَنَّها مُسِنَّةٌ لا تَحيضُ ـ فَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَراءِ في ذَلِكَ [من الخفيف] :

جَعَـلَ ٱللهُ كُـلَّ قَطْـرَةِ حَيْـضٍ  قَطَـرَتْ مِنْـكِ فـي حَمـاليـقِ عَيْنـي

* * *

٩٧٦ ـ وَقَدَّمَتِ ٱمْرَأَةٌ زَوْجَها إِلىٰ زِيادِ بْنِ أَبيهِ تُنازِعُهُ ، وَقَدْ كانَتْ سِنُّهُ أَعْلىٰ مِنْ سِنِّها ، فَجَعَلَتْ تَعيبُ زَوْجَها وَتَقَعُ فيهِ ، فَقالَ زَوْجُها : أَيُّها ٱلأَميرُ ! إِنَّ شَرَّ شَطْرَيْ ٱلْمَرْأَةِ اخِرُها ، وَخَيْرَ شَطْرَيْ ٱلرَّجُلِ آخِرُهُ ، ٱلْمَرْأَةُ إِذا كَبِرَتْ عُقِمَتْ رَحِمُها ، وَحَدَّ لِسانُها ، وَساءَ خُلُقُها ، وَإِنَّ ٱلرَّجُلَ إِذا كَبِرَتْ سِنُّه ٱسْتَحْكَمَ رَأْيُهُ ، وَكَثُرَ حِلْمُهُ ، وَقَلَّ جَهْلُهُ .

* * *

٩٧٧ ـ وَقَالَ أَعْشىٰ هَمْدَانَ لاَمْرَأَتِهِ : إِنَّكِ لَسَلِسَةُ ٱلثُّقْبَةِ ، سَريعَةُ ٱلْوَثْبَةِ ، حَديدَةُ ٱلرُّكْبَةِ ؛ فَقالَتْ : وَٱللهِ إِنَّكَ لَسَريعُ ٱلإِراقَةِ ، بَطِيءُ الإِفاقَةِ ، قَليلُ ٱلطَّاقَةِ ؛ فَطَلَّقَها وَقالَ [من المتقارب] :

تَقـادَمَ عَهْـدُكِ أُمَّ ٱلْحَـلالِ  وَطـاشَـتْ نِبـالُـكِ عِنْـدَ ٱلنِّضـالِ

وَقَـدْ بُـتَّ حَبْلُـكِ فَـٱسْتَيْقِنـي  بِـأَنّـي طَـرَحْتُـكِ ذاتَ ٱلشِّمـالِ

وَأَنْ لا رُجُـوعَ فَـلا تُكْـذَبيـ  ـنَ ما حَنَّتِ ٱلنِّيبُ إِثْرَ ٱلْعِصالِ

* * *

٩٧٨ ـ وَطَلَّقَ بَعْضُهُمْ ٱمْرَأَتَهُ ، فَقَالَتْ لَهُ : بَعْدَ صُحْبَةِ خَمْسينَ سَنَةٍ ! فَقَالَ : ما لَكِ عندي ذَنْبٌ غَيْرُه .

* * *

٩٧٩ ـ وَقَالَ شاعِرٌ ـ وَقَدْ عاتَبَتْهُ ٱمْرَأَتُهُ هَوًى لَهُ ـ [من الخفيف] :

وَيْـكِ إِنَّ ٱلْمُـلامَ يُغْـرِي ٱلْمَلُـومـا ... لَيْسَ جُـرْمـي كَمَـا زَعَمْـتِ عَظيمـا
إِنْ أَكُـنْ عـاشِقـاً فَلَـمْ آتِ إِلَّا ... مـا أَتَتْـهُ ٱلـرِّجـالُ قَبْلِـي قَـديمـا
إِنَّمـا يَكْثُـرُ ٱلتَّعَجُّـبُ مِمَّـنْ ... كـانَ مِـنْ فِتْنَـةِ ٱلنِّسـاءِ سَليمـا

[ راجع رقم : ٧٩١ ، حَيْثُ نُسِبَ ٱلشِّعْرُ لِلأَسْودِ ٱلْخاقانِيِّ ]

* * *

٩٨٠ ـ وَقالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ يَسيرٍ(١) : عَلِقَ أَبي جارِيَةً ـ فَتاةً ـ لِبَعْضِ ٱلهاشِمِيِّينِ ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ أُمِّي تُعاتِبُهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْها [من البسيط] :

لا تَتْبَعَـنْ لَـوْعَـةً إِثْـري وَلا هَلَعـا ... وَلا تُقـاسِـنَّ بَعْـدِي ٱلْهَـمَّ وَٱلْجَـزَعـا
بَلِ ٱئْتَسي تَجِدِي إِنِ ٱئْتَسَيْتِ أُسًى ... بِمِثْلِ ما قَدْ فُجِعْتِ ٱلْيَوْمَ قَدْ فُجِعا(٢)
مـا تَصْنَعيـنَ بِعَيْـنٍ عَنْـكِ طـامِحَـةٍ ... إِلـىٰ سِـواكِ وَقَلْـبٍ عَنْـكِ قَـدْ نَـزَعـا
إِنْ قُلْتِ قَدْ كُنْتُ في وُدٍّ وَتَكْرُمَةٍ ... فَقَـدْ صَـدَقْـتِ وَلَكِـنْ ذاكَ قَـدْ مُنِعـا
وَأَيُّ شَـيْءٍ مِـنَ ٱلـدُّنْيـا سَمِعْـتِ بِـهِ ... إِلَّا إِذا صـارَ فـي غـايـاتِـهِ ٱنْقَطَعـا
لَـمْ تُبْـقِ عَيْنـا حُسَيـنٍ عِنْـدَ لَحْظِهِمـا ... لِغَيْـرِهـا فـي فُـؤادي بَعْـدَهـا طَمَعـاً

---

(١) مُحَمَّدُ بْنُ يَسيرٍ : شاعِرٌ مِنْ شُعراءِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبّاسِيَّةِ ، وَعَبْدُ اللهِ ٱبْنُهُ شاعِرٌ كَذٰلِكَ ، وَهُوَ غَيْرُ مُحَمَّدِ بْنِ بَشيرٍ ٱلْخارِجِيِّ ٱلْعُدْوانِيِّ ٱلشّاعِرِ أَيْضاً .

(٢) يَقُولُ : ما حَدَثَ لَكِ مِنِّي حَدَثَ لِكَثيراتٍ ، فَٱتْرُكي ٱلْهَمَّ ، وَلْيَكُنْ لَكِ أُسْوَةٌ بِمَنْ قَدْ فُجِعَ بِمِثْلِ ما فُجِعْتِ بِهِ .

وَهَلْ يُطاقُ مُذَكٍّ عِنْدَ صَبْوَتِهِ      وَمَنْ يَقُومُ لِمَسْتُورٍ إذا خُلِعا

قَوْلُهُ : وَأَيُّ شَيْءٍ مِنَ ٱلدُّنْيا . . . ٱلْبَيْتُ ، مِثْلُهُ قَوْلُ ٱلعَرَبِ : « مَنْ بَلَغَ غايَةَ ما يُحِبُّ فَلْيَتَوَقَّعْ غايَةَ ما يَكْرَهُ » .

وَقَوْلُ ٱلشَّاعِرِ [من المتقارب] :

إذا تَمَّ أَمْرٌ دَنا نَقْصُهُ      تَوَقَّعْ زَوالًا إِذا قيلَ تَمّ[1]

وَقَوْلُهُ : لَمْ تُبْقِ عَيْنا حُسَيْنٍ . . . ٱلْبَيْتُ ، فَلَعَلَّهُ يُكْني بِحُسَيْنٍ عَنْ خَليلَتِهِ ، وَقَدْ جَرَتْ عادَتُهم بِأَنْ يُكْنوا عَنِ ٱلْحَبيبِ بِمُذَكَّرٍ .

وَقَوْلُهُ : وَهَلْ يُطاقُ مُذَكٍّ . . . ٱلْبَيْتُ ، فَٱلْمُذَكَّىٰ مِنَ ٱلدَّوابِ : ٱلَّذي أَتَىٰ عَلَيْهِ سَنَةٌ بَعْدَ قُروحٍ ؛ وَذَكّىٰ : أَسَنَّ وَكَبُرَ ، وَمِثْلُ هَذا ٱلْبَيْتِ قَوْلُ ٱلْحارِثِ بْنِ وَعْلَةَ [من الكامل] :

ٱلآنَ لَمَّا ٱبْيَضَّ مَسْرُبَتي      وَعَضَضْتُ مِنْ نابي عَلَىٰ جِذْمِ[2]

وَحَلَبْتُ هَذا الدَّهْرَ أَشْطُرَهُ      وَأَتَيْتُ ما آتي عَلَىٰ عِلْمِ[3]

تَرْجُو ٱلأَعادِي أَنْ أُسالِمَها      جَهْلًا تَوَهَّمَ صاحِبِ الحُلْمِ

---

(١) قَبْلَ هَذا ٱلْبَيْتِ :

هُمُومُكَ بِٱلْعَيْشِ مَقْرونَةٌ      فَما تَقْطَعُ ٱلْعَيْشُ إِلَّا بِهَمّ
وَحُلْوَةُ دُنْياكَ مَسْمُومَةٌ      فَما تَأْكُلُ ٱلشَّهْدَ إِلَّا بِسَمّ

(٢) ٱلْمَسْرُبَةُ : ٱلشَّعْرُ ٱلْمُسْتَدَقُّ ٱلَّذي يَأْخُذُ مِنَ ٱلصَّدْرِ إِلىٰ ٱلسُّرَّةِ ؛ وَجِذْمُ الأَسْنانِ : مَنابِتُها ؛ يَقُولُ : كَبِرْتُ حَتّىٰ أَكَلْتُ عَلىٰ جِذْمِ نابي .

(٣) يُقالُ : حَلَبَ فُلانٌ ٱلدَّهْرَ أَشْطُرَهُ ، أَيْ : خَبِرَ ضُرُوبَهُ ، يَعْني : إِنَّهُ مَرَّ بِهِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ وَشِدَّتُهُ وَرَخاؤُهُ ، تَشْبِيهاً بِحَلْبِ جَميعِ أَخْلافِ ٱلنّاقَةِ ، مَا كانَ مِنْها حَفِلًا وَغَيْرَ حَفِلٍ ، وَدارّاً وَغَيْرَ دارٍّ ؛ وَأَصْلُهُ مِنْ أَشْطُرِ ٱلنّاقَةِ وَلَها خِلْفانَ قادِمانِ وَآخِرانِ ، كَأَنَّهُ حَلَبَ ٱلْقادِمَيْنِ وَهُما ٱلْخَيْرُ ، وَالآخِرَيْنِ وَهُما الشَّرُّ ، وَكُلُّ خِلْفَيْنِ شَطْرٌ ؛ وَقِيلَ : أَشْطُرَهُ : دِرَرَهُ ، جَمْعُ دِرَّة : سَيَلانُ ٱللَّبَنِ .

وَقَوْلُ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ [من السريع] :

وَٱلشَّيْـخُ لا يَتْـرُكُ أَخْـلاقَـهُ ... حتَّـىٰ يَـوارَىٰ فِـي ثَـرَىٰ رَمْسِـهْ
إِذَا ٱرْعَـوَىٰ عَـادَ إِلَـىٰ غَيِّـهِ ... كَـذِي ٱلضَّنَـىٰ عَـادَ إِلَـىٰ نُكْسِـهْ

وَقَوْلُ ٱلآخَرِ [من الكامل] :

أَتَـرُوضُ عِـرْسَـكَ بَعْـدَ مَـا هَـرِمَـتْ ... وَمِـنَ ٱلْعَنَـاءِ رِيَـاضَـةُ ٱلْهَـرِمِ

ٱلْعِرْسُ : ٱلزَّوْجَةُ .

وَرَجُلٌ مَسْتُورٌ وَسِتِّيرٌ : عَفِيفٌ ؛ وَخَلُعَ ٱلرَّجُلُ خَلاعَةً ، فَهُوَ خَلِيعٌ : إِذَا تَشَطَّرَ وَخَبُثَ وَٱسْتُهْتِرَ وَصَبَا حَتَّىٰ لَكَأَنَّهُ خَلَعَ رَسَنَهُ ، أَوْ خَلَعَتْهُ عَشِيرَتُهُ وَتَبَرَّءُوا مِنْهُ .

* * *

٩٨١ ـ وَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ ، قَالَ : كُنَّا بِمَجْلِسٍ لَنَا بِٱلْبَصْرَةِ ، وَمَعَنَا خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ ، إِذْ جَلَسَ إِلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي ٱلْعَنْبَرِ ، فَتَذَاكَرْنا ٱلنِّسَاءَ ، فَقَالَ خَالِدٌ : خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ ٱلَّتِي ٱحْتَنَكَ سِنُّهَا ، وَٱسْتَحْكَمَ رَأْيُهَا ، وَخَمُصَ بَطْنُهَا ، وَعَظُمَتْ عَجِيزَتُهَا ، وَمَلأَتْ حُضْنَ مُعَانِقِهَا ؛ فَقَالَ ٱلأَعْرَابِيُّ : دَعْ عَنْكَ ٱلَّتِي ٱسْتَحْكَمَ رَأْيُهَا وَعَلَيْكَ بِها حِينَ أَكْعَبَتْ إِلَىٰ أَنْ أَنْهَدَتْ ، غِرَّةٌ لا تَدْرِي مَا يُرَادُ بِهَا ؛ وَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الطويل] :

عَلَيْكَ أَبَا صَفْوَانَ إِنْ كُنْتَ نَاكِحاً ... فَتَـاةَ أَنَـاسٍ ذَاتَ إِتْـبٍ وَمِئْـزَرِ[1]
لَهَـا كَفَـلٌ وَافٍ وَبَطْـنٌ مُعَكَّـنٌ ... وَأَخْثَمُ مِثْلَ ٱلْقَعْبِ غَيْـرُ مُنَـوِّرِ[2]

* * *

---

(١) ٱلإِتْبُ : ٱلْقَمِيصُ لَيْسَ لَهُ كُمَّانِ ؛ وَٱلْمِئْزَرُ : ٱلإِزَارُ .
(٢) ٱلْكَفَلُ : ٱلعَجُزُ ؛ وَٱلْمُعَكَّنُ : ٱلْمُتَثَنِّي لَحْمُهُ سِمَناً ؛ وَٱلأَخْثَمُ : ٱلْفَرْجُ ؛ وَٱلْقَعْبُ : ٱلْقِدْحُ ٱلضَّخْمُ ٱلْغَلِيظُ ؛ وَغَيْرُ مُنَوِّرٍ ، بِكَسْرِ ٱلْوَاوِ ، يُرِيدُ أَنَّهُ حُلِقَ وَلَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ .
=

٩٨٢ ـ وَفِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: غِرَّةٌ لا تَدْرِي مَا يُرَادُ بِهَا، يَقُولُ ٱلْمَجْنُونُ [من الطويل]:

وَعُلِّقْتُ لَيْلَىٰ وَهْيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ ... وَلَم يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ[(١)]

صَغِيرَيْنِ نَرْعَىٰ ٱلْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَىٰ ٱلآنَ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ ٱلبَهْمُ[(٢)]

[الديوان، صفحة: ٩٧].

* * *

٩٨٣ ـ وَيَقُولُ خَالِدُ بْنُ ٱلْمُهَاجِرِ [من الكامل]:

أَمْسَتْ مَنَازِلُكُمْ بِمَكَّةَ مِنْكُمْ[(٣)] ... قَفْراً وَأَصْبَحَتِ ٱلْمَعَالِمُ خَالِيَهْ

لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ رَجْعَكُمْ لَرَجَعْتُكُمْ ... قَدْ كُنْتُمُ زَيْنِي بِهَا وَجَمَالِيَهْ

عُلِّقْتُهَا غِرًّا غُلاماً نَاشِئاً ... غَضَّ ٱلشَّبَابِ وَعُلِّقَتْنِي جَارِيَهْ

حَتَّىٰ ٱسْتَوَيْنَا لَمْ تَزَلْ لِيَ خُلَّةً ... أَبْكِي إِذَا طَعَنَتْ بِعَيْنٍ بَاكِيَهْ

* * *

٩٨٤ ـ وَقَالَ نُصَيْبُ [ويُنْسَبُ لأبي نُوَاسٍ، من الوافر]:

وَلَوْلا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصَيْبٌ ... لَقُلْتُ بِنَفْسِيَ ٱلنَّشَأُ ٱلصِّغَارُ

بِنَفْسِي كُلُّ مَهْضُومٍ حَشَاهَا ... إِذَا ظُلِمَتْ فَلَيْسَ لَهَا ٱنْتِصَارُ

* * *

٩٨٥ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ فِي فَتَاةٍ يُقَالُ لَهَا: فَاطِمَةُ، وَكَانَ قَدْ كُفَّ وَذَهَبَ بَصَرُهُ، فَسَمِعَهَا تُغَنِّي فَهَوِيَهَا [من الرمل]:

---

(١) يُقَالُ: غِرٌّ، لِلْمُذَكَّرِ وَٱلْمُؤَنَّثِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ يُقَالُ لِلْمُؤَنَّثِ: غِرَّةٌ.
(٢) ٱلْبَهْمُ: صِغَارُ ٱلضَّأْنِ.
(٣) ٱنْظُرْ: « نَوَادِرِ ٱلْقَالِي ».

بِنْـــتُ عَشْــرٍ وَثَــلاثٍ قُسِّمَــتْ بَيْـــنَ غُصْـــنٍ وَكَثِيـــبٍ وَقَمَـــرْ
دُرَّةٌ بَحْـــرِيَّـــةٌ مَكْنُـــونَـــةٌ مَـازَهَـا ٱلتَّـاجِـرُ مِـنْ بَيْـنِ ٱلـدُّرَرْ
عَجِبَـتْ فَطْمَـةُ مِـنْ نَعْتِـي لَهَـا هَـلْ يُجِيـدُ ٱلنَّعْـتَ مَكْفُـوفُ ٱلْبَصَـرْ
أُمَّتَـــا بَـــدَّدَ هَـــذَا لُعَبِـــي وَوِشَـاحِـي حَلَّـهُ حَتَّـىٰ ٱنْتَثَـرْ
فَـــدَعِينِـــي مَعَـــهُ يَـــا أُمَّتَـــا عَلَّنَـا فـي خَلْـوَةٍ نَقْضِـي ٱلْـوَطَـرْ
أَقْبَلَـــتْ مُغْضَبَـــةً تَضْـــرِبُهَـــا وَٱعْتَـــرَاهَـــا كَجُنُـــونٍ مُسْتَعِـــرْ
بِـــأَبِـــي وَٱللهِ مَـــا أَحْسَنَـــهُ دَمْـعَ عَيْـنٍ يَغْسِـلُ ٱلْكُحْـلَ قَطَـرْ
أَيُّهَـــا ٱلنُّـــوَّامُ هُبُّـــوا وَيْحَكُـــمْ وَٱسْـأَلُـونِـي ٱلْيَـوْمَ مَـا طَعْـمُ ٱلسَّهَـرْ

* * *

٩٨٦ ـ وَلِلأَعْرَابِيِّ ٱلَّذِي أَوْرَدْنَا حَدِيثَه آنِفاً مَعَ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ أَبْيَاتٌ فِي تَرْتِيبِ أَسْنَانِ ٱلنِّسَاءِ هِيَ وَإِنْ كَانَتْ ضَعِيفَةً ، غَيْرَ أَنَّهَا مُسْتَمْلَحَةٌ ظَرِيفَةٌ ، وَمِنْ ثَمَّ نُورِدُهَا هُنَا ، قَالَ [ من الطويل ] :

مَتَى تَلْقَ بِنْتَ ٱلْعَشْرِ قَد نَصَّ ثَدْيُهَا كَلُـؤْلُـؤَةِ ٱلْغَـوَّاصِ يَهْتَـزُّ جِيـدُهَـا
تَجِـدْ لَـذَّةً مِنْهَـا لِخِفَّـةِ رُوحِهَـا وَغِـرَّتِهَـا وَٱلْحُسْـنُ بَعْـدُ يَـزِيـدُهَـا
وَصَاحِبَةُ ٱلْعِشْرِينَ لا شَيْءَ مِثْلُهَا فَتِلْـكَ ٱلَّتِـي تَلْهُـو بِهَـا وَتُـرِيـدُهَـا
وَبِنْـتُ ٱلثَّـلاثِيـنَ ٱلشِّفَـاءُ حَـدِيثُهَـا هِيَ ٱلْعَيْشُ مَا رَقَّتْ وَلا دَقَّ عُودُهَا
وَإِنْ تَلْـقَ بِنْـتَ ٱلأَرْبَعِيـنَ فَغِبْطَـةٌ وَخَيْـرُ ٱلنِّسَـاءِ وَدُّهَـا وَوَلُـودُهَـا
وَصَـاحِبَـةُ ٱلْخَمْسِيـنَ فِيهَـا بَقِيَّـةٌ مِنَ ٱلْبَاهِ وَٱللَّذَّاتِ صُلْبٌ عَمُودُهَا
وَصَـاحِبَـةُ ٱلسِّتِّيـنَ لا خَيْـرَ عِنْـدَهَـا وَفِيهَـا ضَيَـاعٌ وَٱلْحَـرِيـصُ يُـرِيـدُهَـا
وَصَاحِبَةُ ٱلسَّبْعِينَ إِنْ تُلِفْ مُعْرِساً عَلَيْكُـمْ فَتِلْكُـمْ خَـزْيَـةٌ يَسْتَفِيـدُهَـا
وَذَاتُ ٱلثَّمَـانِيـنَ ٱلَّتِـي قَـدْ تَحَلَّـلَـتْ مِـنَ ٱلْكِبَـرِ ٱلْفَـانِـي وَقُـدَّ وَرِيـدُهَـا

وَصَاحِبَةُ ٱلتِّسْعِينَ يُرْعَشُ رَأْسُهَا وَبِٱللَّيْلِ مِقْلاقٌ قَلِيلٌ هُجُودُهَا

* * *

٩٨٧ ـ وَمِنْهُمْ مَنْ شَبَّبَ بِٱلْعَجَائِزِ ، قَالَ أَبُو ٱلأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيُّ [من الطويل] :

أَبَىٰ ٱلقَلْبُ إِلَّا أُمَّ عَوْفٍ وَحُبَّهَا عَجُوزاً وَمَنْ يُحْبِبْ عَجُوزاً يُفَنَّدِ
كَسَحْقِ يَمَانٍ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرُقْعَتُهُ مَا شِئْتَ فِي ٱلْعَيْنِ وَٱلْيَدِ(١)

* * *

٩٨٨ ـ وَأَرْسَلَتْ خَرْقَاءُ صَاحِبَةُ ذِي ٱلرُّمَّةِ إِلَىٰ ٱلْقُحَيْفِ لِيُشَبِّبَ بِهَا ، فَقَالَ : لا أُشَبِّبُ بِعَجُوزٍ ؛ فَبَرَزَتْ لَهُ ، فَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ، وَرَأَىٰ أَحْسَنَ ٱلنِّسَاءِ ، فَقَالَ [من الطويل] :

لَقَدْ أَرْسَلَتْ خَرْقاءُ نَحْوِي رَسُولَهَا لِتَجْعَلَنِي خَرْقَاءُ مِمَّنْ أَضَلَّتِ
وَخَرْقَاءُ لا تَزْدَادُ إِلَّا مَلاحَةً وَلَوْ عُمِّرَتْ تَعْمِيرَ نُوحٍ وَجَلَّتِ

* * *

٩٨٩ ـ وَكَانَ بِنْيَامِين دِزْرَائِيلِي Benjamin Disraeli ، رَئِيسُ ٱلْوَزَارَةِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ ، صَبًّا مُغْرَماً بِٱلْمُسِنَّاتِ مِنَ ٱلإِنْكِلِيزِيَّاتِ ، جَاءَ فِي مَجَلَّةِ « البَيَانِ » ٱلَّتِي كانَ يَقُومُ بِإِخْرَاجِهَا مُؤَلِّفُ هَذَا ٱلْكِتَابِ مَا يَأْتِي ، وَهُوَ مِمَّا نَقَلَهُ إِلَىٰ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمَرْحُومَ محمد السِّبَاعِي :

---

(١) التَّفنِيدُ : ٱلتَّوْبِيخُ وَٱللَّوْمُ ؛ والسَّحْقُ : ٱلْخَلَقُ مِنَ ٱلثِّيَابِ ٱلَّذِي قَدِ ٱنْسَحَقَ وَٱنْجَرَدَ ، وَقَوْلُهُ : وَرُقْعَتُهُ . . . الخ يَقُولُ : هي في ٱلنِّسَاءِ كَخَلَقِ ٱلْبُرْدِ ٱلْيَمَانِ في ٱلثِّيَابِ وَقَدْ قَدُمَ عَهْدُهُ ، فَإِذا مَسَسْتَهُ وَنَظَرْتَ إِلَيْهِ وَجَدْتَ رُقْعَتَهُ زَائِدَةً عَلَىٰ كُلِّ رُقْعَةٍ دِقَّةً وَمَتَانَةً ، فَكَذَلِكَ مَنْظَرُ أُمِّ عَوْفٍ وَمُخْتَبَرُهَا ؛ وَقَوْلُهُ : مَا شِئْتَ ؛ يُرِيدُ : مَا شِئْتَهُ ، وَقَوْلُهُ : في العين ؛ يُرِيدُ : في ٱلنَّظَرِ ؛ وَفِي ٱليد ؛ يُرِيدُ : عِنْدَ ٱللَّمْسِ .

مِنْ مَأْثُورِ كَلِماتِ بِنْيَامِين دِزْرائِيلِي Benjamin Disraeli قَوْلُهُ : إِنِّي مَدِينٌ في كُلِّ شَيْءٍ لِلْمَرْأَةِ ، وَإِلَىٰ تَأْثِيرِهَا فِيَّ ، وَسُلْطَانِهَا عَلَيَّ ؛ يُعْزَىٰ كُلُّ مَا أُوتِيتُ مِنَ ٱلْفَخَارِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلذِّكْرِ ، وَكُلُّ مَا صَادَفْتُ مِنَ ٱلنَّجاحِ وَٱلْفَوْزِ ، وَإِذَا كُنْتُ لا أَزَالُ في هَرَمِي أَحْمِلُ قَلْباً فَتِيّاً ، وَوِجْداناً ضَرِماً ذَكِيّاً ، وَلا أَبْرَحُ تَحْتَ وَقَارِ ٱلشَّيْبِ وَجَلالِ ٱلشَّيْخُوخَةِ أُقَلِّبُ لِسانَ شَاعِرٍ مُتَخَيِّلٍ ، وَعَاشِقٍ مُتَغَزِّلٍ . وَأَقُولُ مَعَ ٱلقَائِلِ [وهو ابن المعتز ، من المجتث] :

يَـا هِنْـدُ مَـا شَـابَ قَلْبِـي وَإِنَّمَـا شَـابَ ٱلشَّعَـرْ

فَذَلِكَ أَيْضاً رَاجِعٌ إِلَىٰ تَأْثِيرِ ٱلْمَرْأَةِ .

في هَذَا ٱلإِقْرَارِ ٱلصَّادِرِ مِنْ إِمَامِ ٱلْبَلاغَةِ وَٱلسِّيَاسَةِ تَعْلِيلٌ شَافٍ لِمَا ٱمْتَازَتْ بِهِ شَيْخُوخَةُ ٱلرجُلِ ٱلْعَظِيمِ مِنْ حَوادِثِ ٱلْحُبِّ ٱلْعَجِيبَةِ ، وَرِوَايَاتِ ٱلْغَرَامِ ٱلْمُدْهِشَةِ ٱلْغَرِيبَةِ . كَانَ دَزْرائِيلِي Disraeli في كُلِّ أَدْوارِ حَياتِهِ سَرِيعَ ٱلافْتِتَانِ بِجَمَالِ ٱلْمَرْأَةِ مُفْرِطَ ٱلْوَلُوعِ بِمَلَاحَاتِهَا ، فَكَانَ لا يَنْفَكُّ مِنْ شَغَفٍ بِٱلنِّسَاءِ ، وَحَنِينٍ إِلَيْهِنَّ ، وَطَرَبٍ إِلَىٰ مُحادَثَتِهِنَّ ، وَمُغَازَلَتِهِنَّ ، بَلْ هُيَامٍ فِي إِثْرِهِنَّ ، وَٱقْتِنَاصٍ لأَوَانِسِهِنَّ وَشَوَارِدِهِنَّ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِعِلْمٍ مِنْ زَوْجَتِهِ ٱلَّتِي كانَتْ تَطِيبُ نَفْساً عَنْ ذَلِكَ وَتَتَّسِعُ بِهِ صَدْراً . وَكَانَتْ صَنَعَ اللهُ لَهَا وَلَهُ أَدَقَّ قَلْباً وَأَكْرَمَ شَيْبَةً مِنْ أَنْ تُكَدِّرَ عَلَىٰ زَوْجِهَا ٱلْعَبْقَرِيِّ صَفْوَهُ فِي أَمْرٍ لَيْسَ فِيهِ عَلَيْهَا كَبِيرُ شِقْوَةٍ وَلَا بَلاءٍ . وَلا جَرَمَ ، فَلَقَدْ كَانَتْ تَنْطَوِي عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ ٱلْبُطُولَةِ ، فَكَانَتْ لِغَرَائِبِ خَصَائِصِ ٱلأَبْطَالِ أَفْهَمَ مِنْ طَبَقَةِ ٱلْعَادِيَّاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ، وَلِشَوَاذِ نَزَعَاتِ ٱلْعُظَمَاءِ أَفْطَنَ وَأَخْبَرَ . وَهِيَ بِمَا أُوتِيَتْ مِنْ طَبِيعَةِ ٱلْبُطُولَةِ مَلِيئَةٌ أَنْ تُجِلَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْعَبْقَرِيَّ ـ زَوْجَهَا ـ وَتُقَدِّسَهُ وَاهِبَةً لَهُ تِلْكَ ٱلْهَفَوَاتِ ٱلَّتِي هِيَ أَبَداً مِنْ مُسْتَلْزِمَاتِ ٱلْبُطُولَةِ وَٱلْعَظَمَةِ ـ بَلِ ٱلَّتِي هِيَ أُسُّ ٱلْبُطُولَةِ وَمَادَّتُهَا ، وَبِهَا غِذَاؤُهَا وَنَمَاؤُهَا ، وَعَلَيْهَا مَدَارُهَا

وَقِوامُهَا . وَكَانَتْ زَوْجَةُ دِزْرَائِيلي Disraeli هَذِهِ أَرْمَلَةَ أَحَدِ زُمَلَائِهِ ٱلسِّيَاسِيِّينَ ، أَوْرَثَهَا مالًا جَمّاً ، وَعقَاراً كَثِيراً ، فَٱقْتَرَنَ بِهَا دِزْرَائِيلي Disraeli وَهُوَ ٱبْنُ أَرْبَعَةَ وَثَلاثِينَ . وَكَانَ يَقُولُ لَها مُمَازِحاً : إِنَّمَا أَغْرَاهُ بِزَوَاجِهَا مَالُهَا وَثَرْوَتُهَا .

وَلَكِنَّ ٱللَّيْدِي بِيكُونسفيلد Beaconsfield ( زَوْجَةِ دِزْرَائِيلي Disraeli ) صَرَّحَتْ مَرَّةً في بَعْضِ أَحَادِيثِهَا لأَتْرَابٍ لَهَا : كَلَّا وَٱللهِ مَا كانَ ٱقْتِرَانُ بِنْيَامِينَ Benyamin بي لِطَمَعٍ في ثَرْوَتي ، وَكَيْفَ ، وَلَقَدْ كَانَ يُبْدِي شَوْقَهُ لِي وَغَرَامَهُ في حَيَاةِ زَوْجِي ٱلأَوَّلِ ؟! .

وَلَقَدْ عَاشَ دِزْرَائِيلي Disraeli وَزَوْجَتُهُ ثَلَاثَةَ وَثلاثِينَ عَاماً في صَفَاءٍ وَرَخَاءٍ . وَلَقَدْ كَانَ بَلَغَ مِنْ فَرْطِ حُبِّهَا إِيَّاهُ أَنَّهَا جَعَلَتْ تَدَّخِرُ قُصَاصَاتِ شَعْرِهِ طُولَ مُدَّةِ حَيَاتِهَا ٱلزَّوْجِيَّةِ ، وَكَانَتْ تَقُصُّ شَعْرَهُ بِيَدَيْهَا كُلَّ أُسْبُوعَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ .

وَٱلرِّسَالَةُ ٱلآتِيَةُ ، وَهِيَ مَا كَتَبَهُ دِزْرَائِيلي Disraeli إِلَىٰ زَوْجَتِهِ أَثْنَاءَ تَأْلِيفِهِ مَأْسَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ « الأوريوس » ، تَنُمُّ عَمَّا كَانَ يَجِدُ لَهَا في أَعْمَاقِ قَلْبِهِ مِنْ شِدَّةِ ٱلْغَرَامِ وَٱلْوَجْدِ ، وَهَا هِيَ :

لَقَدْ أَدْمَنْتُ أَمْسِ ٱلْكِتَابَةَ أَسُحُّ بِهَا سَحّاً ، وَأَهْضِبُ بِهَا هَضْباً ، وَلَقَدْ وَٱللهِ جَعَلْتُ أَصُبُّ فِي فُصُولِ قِصَّتِي ٱلْخَيَالِيَّةِ وِجْدَانَاتِي ٱلشَّخْصِيَّةَ وَمَشَاعِرِي ٱلذَّاتِيَّةَ ، فَجَاءَتْ وَكَأَنَّها قِطْعَةٌ مِنْ حَيَاتِي ٱلْمَاضِيَةِ ، وَشُعْبَةٌ مِنْ عِيشَتِي ٱلْخَالِيَةِ ، يَوْمَ أُطَارِحُكَ ٱلْغَرَامَ ، وَأُحَادِثُكِ أَسْبَابَ ٱلْهَوَىٰ . فَإِذَا نَظَرْتُ في تِلْكَ ٱلصُّحُفِ وَجَدْتُهَا مِرْآةَ مَاضِيكِ وَصَدَىٰ ذِكْرَيَاتِهِ ، وَإِذَا تَلَوْتُهَا تَلَوْتُهَا بِمُهْجَةٍ وَاقِدَةٍ ، وَأَنْفَاسٍ صَاعِدَةٍ ، وَبِحَشاً خَافِقَةٍ ، وَمُقْلَةٍ مَقْرُوحَةٍ . وَكَيْفَ وَقَدْ كُنْتُ أَكْتُبُهَا وَشَخْصُكِ مُرْتَسِمٌ عَلَىٰ صَفْحَةِ جَنَانِي ، وَٱسْمُكِ يُرَفْرِفُ عَلَىٰ أَسَلَةِ لِسَانِي . وَلَا غَرْوَ ، فَمنْ غَيْرُكِ مُلْهِمِي ـ إِذَا تَنَاوَلْتُ ٱلْيَرَاعَةَ ـ وَمَصْدَرُ وَحْيِي وَشَيْطَانِي ؟

لَمْ يَكَدْ يَمْضِي عَلَىٰ وَفَاةِ هَذِهِ ٱلزَّوْجَةِ نِصْفُ عَامٍ حَتَّىٰ رَأَيْنَا صَاحِبَ ٱلرِّيَاسَةِ وَدَاهِيَةَ ٱلْحُكَّامِ وَٱلسِّيَاسَةِ ، يُحَرِّرُ ٱلرَّسَائِلَ ٱلْغَرَامِيَّةَ لِٱمْرَأَتَيْنِ كَانَتَا فِي تِلْكَ ٱلآوِنَةِ جَدَّتَيْنِ ، لَهُمَا أَوْلادٌ وَأَحْفَادٌ . وَكَانَ فِي ذَلِكَ ٱلْحِينِ قَدْ أَرْبَىٰ عَلَىٰ ٱلثَّامِنَةِ وَٱلسِّتِّينَ ، وَلَكِنَّ رَسَائِلَهُ كَانَ بِهَا مِنْ حَرَارَةِ ٱلْوَجْدِ وَسَعِيرِ ٱلْجَوَىٰ مَا أَدْهَشَ مَعْشُوقَتَهُمَا وَٱسْتَثَارَ أَقْصَىٰ عَجَبِهِمَا . وَكَانَتَا أُخْتَيْنِ : ٱللادي شِسْترفِيلْد Chesterfield ، وَٱلْكُنْتِيس سيلينا أوف براد فورد Celina of Bradford . وَكَانَتِ ٱلأُولَىٰ قَدْ أَنَافَتْ عَلَىٰ ٱلسَّبْعِينَ . وَلَكِنَّ ٱلَّتِي شَغَفَ بِهَا دِزْرَائِيلِي Disraeli وَهَامَ ، وَرَاحَ فِيهَا نَهْبَ ٱلْوَسَاوِسِ وَٱلأَوْهَامِ ، هِيَ اللادي براد فورد Celina of Bradford ٱلَّتِي كَانَتْ مُتَزَوِّجَةً وَقَدْ نَاهَزَتِ ٱلْخَامِسَةَ وَٱلْخَمْسِينَ . وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنْ فَرْطِ وَجْدِهِ بِهَا أَنَّهُ بَعَثَ إِلَيْهَا بِمِئَةٍ وَأَلْفِ رِسَالَةٍ ، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهَا فِي سَحَابَةِ نَهَارٍ بِٱلْخَمْسِ وَٱلسِّتِّ مِنَ ٱلرَّسَائِلِ عَلَىٰ أَيْدِي رُسُلٍ مُخْتَارَةٍ ، كَانَ يَقُولُ عَنْهُمْ فِي كُتُبِهِ إِلَىٰ ٱلسَّيِّدَةِ ٱلمَذْكُورَةِ : « وَإِنَّ رُسُلِي إِلَيْكِ لَعَبِيدُكِ وَرِقُّ يَدَيْكِ ، لا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَيِّدِهِمْ صَبِّكِ ٱلْمُتَيَّمِ ، وَهُمْ تَحْتَ أَمْرِكِ ، وَاقِفُونَ بِبَابِكِ مِنَ ٱلشُّرُوقِ إِلَىٰ ٱلْغُرُوبِ » .

وَيَدُلُّكَ عَلَىٰ فَرْطِ وَقْدَةِ لَوْعَتِهِ فِي ٱلْغَرَامِ ، وَشِدَّةِ ٱلْتِهَابِ غُلَّتِهِ فِي ٱلْهُيَامِ ، ٱلرِّسَالَةُ ٱلآتِيَةُ ، وَهِيَ مَا كَتَبَهُ ٱلسِّيَاسِيُّ ٱلدَّاهِيَةُ إِلَىٰ ٱللادِي براد فورد Bradford عَقِبَ تَقَلُّدِهِ مَنْصِبَ رِيَاسَةِ ٱلْوَزَارَةِ لِلْمَرَّةِ ٱلثَّانِيَةِ بِثَلاثَةِ أَسَابِيعَ . وَكَانَتِ ٱلسَّيِّدَةُ ٱلْمَذْكُورَةُ قَدْ أَزْمَعَتْ مُغَادَرَةَ لَنْدُن London مَعَ أُخْتِهَا لِمُدَّةٍ لَا تَتَجَاوَزُ ٱلأُسْبُوعَيْنِ ، فَوَجَدَ لِوَشْكِ هَذَا ٱلْبَيْنِ مِنْ شِدَّةِ ٱلْكَرْبِ وَفَرْطِ ٱلْجَزَعِ مَا أَجْرَىٰ يَرَاعَهُ بِٱلْكَلِمَةِ ٱلآتِيَةِ :

أَتَعْلَمِينَ ، يَا فِتْنَةَ ٱلْعَالَمِ ، وَزِينَةَ ٱلدُّنْيَا ؛ أَنَّكِ مَا كَانَتْ قَطُّ أَجْمَلَ ولا أَمْلَحَ مِنْكِ نِسَاءُ هَذَا ٱلْيَوْمِ ، وَأَمَّا لَوِ ٱسْتَطَعْتُ وَسَاعَدَنِي ٱلْقَدَرُ لَجَلَسْتُ إِلَىٰ يَوْمِ

ٱلْقِيَامَةِ أَلْتَهِمُ بِعَيْنِي بَدَائِعَ جَمَالِكَ ، وَبِأُذُنِي رَوَائِعَ مَقَالِكِ . وَلَكِنْ كَانَ يُنَغِّصُ عَلَيَّ لَذَّتِي ، وَيُكَدِّرُ صَفَاءَ نِعْمَتِي ؛ عِلْمِي أَنَّ هَذَا ٱللِّقاءَ إِنَّما كَانَ لِوَدَاعٍ ، وَأَنَّ ٱلْفِرَاقَ كانَ رَهِيناً بِذَلِكَ ٱلاجْتِمَاعِ .

[ قَالَ البُحْتُرِيُّ ، مِنَ الخفيف] :

حَجَبُوهَا حَتَّىٰ بَدَتْ لِفِرَاقٍ كَانَ دَاءً لِعَاشِقٍ وَدَوَاءَ
أَضْحَكَ ٱلْبَيْنُ يَوْمَ ذَاكَ وَأَبْكَىٰ كُلَّ ذِي لَوْعَةٍ وَسَرَّ وَسَاءَ
فَجَعَلْنَا ٱلْوَدَاعَ فِيهِ سَلاماً وَجعَلْنَا ٱلْفِرَاقَ فِيهِ لِقَاءَ

وٱلظَّاهِرُ أَنَّ اللادِي برادفورد Bradford ٱحْتَجَّتْ عَلَىٰ طُغْيَانِ صَبَابَتِه ، وَأَنْكَرَتْ مِنْهُ غُلَوَاءَ هُيَامِهِ وَسَوْرَتِهِ ، حَتَّىٰ كَتَبَ إِلَيْهَا ديزرائيلي Disraeli رَدّاً عَلَىٰ إِنْكَارِهَا وَٱحْتِجَاجِهَا ٱلرِّسَالَةَ ٱلآتِيَةَ : مَا أَحْسَبُ أَنِّي كُنْتُ في مُكَاشَفَتِي إِيَّاكِ ٱلْهَوَىٰ وَمُصَارَحَتِي ما شَفَّنِي مِنَ ٱلْجَوَىٰ بِمُتَجَاوِزٍ قَدْرِي ، وَمُتَعَدٍّ حَدِّي وَطَوْرِي ؛ وَكَيْفَ وَلَمْ أَبْغِ مِنْكَ قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلأَصْحَابِ ، وَمُؤَانَسَةِ ٱلأَحْبَابِ؛ وَلا حَاوَلْتُ أَزْيَدَ مِنِ التِماس القائل [ وَهُوَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ ، من البسيط ] :

أَتَأْذَنُونَ لِصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ

فَإِذَا بَلَغْتُ هَذَا كَانَ غَايَةَ مَا أُرِيدُ ، فَلَمْ أَطْمَحْ إِلَىٰ مَا دُونَهُ ، وَلَمْ أَقُلْ : هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؟ فَجَنِّبِينِي ـ يَا قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ ـ وَعَبَثِكِ بِٱلْحِرْمَانِ . وَلا تُرَوِّعِينِي بِنَذِيرِ ٱلصَّدِ وَٱلْهِجْرَانِ ، فَمَا أَرَانِي لِذَاكَ ، وَلا مُسْتَوْجِباً مُسَاءَتِكِ وَأَذَاكِ . وَعَلَىٰ كُلٍّ ، فَلَنْ يَكُونَ مِنِّي بَعْدَ ٱلْيَوْمِ أَدْنَىٰ مَا يُسْخِطُكِ وَيَسُوءُكِ .

ثُمَّ مُشِيَ بِٱلصُّلْحِ بَيْنَهُمَا ، وَجَاءَتْهُ رِسَالَةٌ مِنْ مَعْشُوقَتِهِ سيلنا لادي برادفورد Celina of Bradford تُنْبِىءُ عَنِ ٱلْعَفْوِ وَٱلرِّضَا ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا :

قَرَأْتُ كِتَابَكِ ، فَأَبْرَأَ عِلَّتِي ، وَشَفَى غُلَّتِي .

[ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ ، من الوافر ] :

وَكَـانَ أَلَـذَّ فِـي نَفْسِـي وَأَنْـدَىٰ عَلَـىٰ كَبِـدِي مِـنَ الـزَّهْـرِ ٱلْجَنِـيِّ
وَضُمِّـنَ صَـدْرُهُ مَـا لَـمْ تُضَمَّـنْ صُـدُورُ ٱلْغَـانِيَـاتِ مِـنَ ٱلْحُلِـيِّ

وَأَقَامَا حِقْبَةً مِنَ ٱلدَّهْرِ بَيْنَ صُلْحٍ وَخِصَامٍ ، وَنِفَارٍ وَوِئَامٍ ، وَإِنَّ شَأْنَهُمَا فِي ٱلْحُبِّ لَعَلَىٰ حَدِّ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ [من البسيط] :

لا خَيْرَ فِي ٱلْحُبِّ وَقْفاً لا تُحَرِّكُهُ عَـوَامِـلُ ٱلْيَـأْسِ أَوْ يَـرْتَـاحُـهُ ٱلطَّمَـعُ

وَقَوْلِ ٱلآخَرِ [من الطويل] :

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْحُبِّ عَتْبٌ وَلا رِضَا فَأَيْنَ حَلاوَاتُ ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْكُتُبِ

وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْعَجَائِبِ ، أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَتْ أَعْبَاءُ ٱلسِّيَاسَةِ تَتَرَاكَمُ عَلَىٰ كَاهِلِ ٱلسِّيَاسِي ٱلأَرِيبِ ، وَجَوُّ ٱلْحَوَادِثِ مُظْلِمٌ مُكْفَهِرٌّ ، كُنْتَ تَرَاهُ فِي هَذَا ٱلْمَأْزِقِ ٱلضَّنْكِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْعَصِيبِ يُوَالِي ٱلرَّسَائِلَ إِلَىٰ اللادي برادفورد Bradford كَأَمْثَالِ ٱلرِّسَالَةِ الآتِيَةِ : « لا أَكْذُبُكِ يَا مَوْلاتِي إِنَّهُ لا حَيَاةَ لِي إِلَّا بِرُؤْيَتِكِ ، وَلا بَقَاءَ لِي إِلَّا بِسَمَاعِ صَوْتِكِ وَنَغْمَتِكِ ، أَوْ تِلاوَةِ كِتَابِكِ وَرِسَالَتِكِ » .

« أَحْمَدُ ٱللهَ ٱلَّذِي مَدَّ فِي أَجَلِي حَتَّىٰ نَعِمْتُ بِفَجْرِ ٱلْحُبِّ وَضُحَاهُ ، وَبِبُكْرَتِهِ وَمَمْسَاهُ ، وَبِسَحَرِهِ وَأَصِيلِهِ ، وَمَغْدَاهُ وَمَقِيلِهِ » .

« أَلَا إِنَّ رُؤْيَتِي إِيَّاكِ فِي ٱلْمَجْلِسِ ٱلْحَافِلِ لَلَذَّةٌ مُتَمَيِّزَةٌ عَنْ سِوَاهَا ، عَلَىٰ أَنَّ خَلْوَتِي بِكِ مُتْعَةٌ مُغَايِرَةٌ لِتِلْكَ لَسْتُ عَلَىٰ مَمَرِّ ٱلدُّهُورِ أَنْسَاهَا . وَلِكِلْتَيْهِمَا بعدُ مَذْهَبُهُمَا ٱلْخَاصُّ مِنَ ٱلرَّوْحِ وَمَجْرَاهَا كَنُورِ ٱلْقَمَرِ وَكَٱلشَّمْسِ فِي ضُحَاهَا » .

وَأَعْجَبُ مَا فِي غَرَامِيَّاتِ ديزرائيلي Disraeli أَنَّهُ لَمَّا يَئِسَ مِنْ رِضَىٰ اللادي برافورد Bradford بِٱلاقْتِرَانِ بِهِ ، خَطَبَ أُخْتَهَا ٱلْكُبْرَىٰ اللادي شيسترفيلد

Chesterfield مُحْتَجّاً لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ : سَأَعْتَنِقُ إِحْداهُمَا كَزَوْجَةٍ لِي ، وَأَعْتَنِقُ ٱلأُخْرَىٰ كَشَقِيقَةٍ[١] .

وَلَكِنَّ اللادي شيسترفيلد Chesterfield أَبَتْ ذَلِكَ لِاعْتِقَادِهَا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَشْغَلُ مِنْ قَلْبِهِ ٱلْمَكَانَ ٱلأَعْلَىٰ .

أَمَّا رَسَائِلُ ٱلسَّيِّدَتَيْنِ إِلىٰ ديزرائيلي Disraeli وَحَقِيقَةُ شُعُورِهِمَا نَحْوَهُ ، فَهَذَا مَا لَمْ يَتَيَسَّرْ تَحْقِيقُهُ وَتَثْبِيتُهُ ، وَلَنْ يَتَيَسَّرَ ، وَذَلِكَ لأَنَّ رَسَائِلَهُمَا إِلَيْهِ أُحْرِقَتْ عَقِبَ وَفَاتِهِ طِبْقاً لِمُرَادِهُمَا وَرَغْبَتِهِمَا ٱلصَّرِيحَةِ . عَلَىٰ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللادي برافورد Bradford كَانَتْ لا تُغَالِي بِشَيْءٍ مُغالاتَهَا بِفُونُوغَرافٍ Phonographe صَغِيرٍ لِدِيزْرَائِيلي Disraeli أَهْدَتْهُ إِلَيْهِما المَلِكَةُ فِيكْتُورِيا Victoria ٱلَّتِي كَانَتْ يُسَمِّيهَا ديزرائيلي Disraeli : « ٱلْحُورِيَّةُ » .

وَلَمْ يَفْتُرْ شَغَفُ ٱلرَّجُلِ بِٱلنِّسَاءِ حَتَّىٰ فِي أُخْرَيَاتِ عُمُرِهِ ، بَلْ بَقِيَ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْحِينِ طَلّاباً لِلْغَوَانِي ، حَرِيصاً عَلَىٰ مَجَالِسِهِنَّ ، حَتَّىٰ آلَ ٱلأَمْرُ أَخِيراً إِلَىٰ أَنَّهُ أَلَّفَ نَادِياً مِنْ صُوَيْحِبَاتِهِ كَانَ فِيهِ ٱللَّذَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ وَٱلنِّعْمَةُ ٱلْعُظْمَىٰ . . .

* * *

عَوْدٌ على عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في ٱلمَشِيبِ :

٩٩٠ ـ وَمِنْ بارِعِ مَا قِيلَ فِي ذَمِّ ٱلشَّيْبِ وَبُكِيَ بِهِ ٱلشَّبَابُ ، قَوْلُ مُحمدِ بْنِ حَازِمٍ ٱلْبَاهِلِيِّ [من البسيط] :

لا تَكْذِبَنَّ فَمَا ٱلدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا ... مِنَ ٱلشَّبَابِ بِيَوْمٍ واحِدٍ بَدَلُ

شَرْخَ الشَّبابِ لَقَدْ أَبْقَيْتَ لِي أَسَفاً ... مَا جَدَّ ذِكْرُكَ إِلّا جَدَّ لِي ثَكَلُ[٢]

---

(١) كَذَا ٱلأَصْلُ ، فَهَلِ ٱلصَّوَابُ هُوَ : « كَعَشِيقَةٍ » ؟
(٢) ثَكَلُ : فَقْدُ .

كَفَاكَ بِٱلشَّيْبِ عَيْباً عِنْدَ غَانِيَةٍ ... وَبِٱلشَّبَابِ شَفِيعاً أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ

٩٩١ ـ وَقَوْلُ مَنْصُورٍ ٱلنَّمِرِيِّ في قَصِيدَةٍ يَمْدَحُ بِهَا هَارُونَ ٱلرَّشِيدَ [من البسيط]:

مَا تَنْقَضِي حَسْرَةٌ مِنِّي وَلا جَزَعُ ... إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ

مَا وَاجَهَ ٱلشَّيْبَ مِنْ عَيْنٍ وَإِنْ وَمِقَتْ ... إِلَّا لَهَا نَبْوَةٌ عَنْهُ ومُرْتَدَعُ[١]

مَا كُنْتُ أُوفِي شَبَابِي كُنْهَ غِرَّتِهِ ... حَتَّىٰ ٱنْقَضَىٰ فَإِذَا ٱلدُّنيا لَهُ تَبَعُ[٢]

إِنْ كُنْتِ لَمْ تَطْعَمِي ثُكْلَ ٱلشَّبَابِ وَلَمْ ... تَشْجَىٰ بِغُصَّتِهِ فَٱلعُذْرُ لا يَقَعُ

أَبْكِي شَبَاباً سُلِبْنَاهُ وَكَانَ وَلَا ... تُوفِي بِقِيمَتِهِ ٱلدُّنْيَا وَمَا تَسَعُ

قِيلَ: إِنَّ ٱلرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَهُ: فَإِذَا ٱلدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ؛ قَالَ: نَعَمْ، مَا خَيْرُ دُنْيَا لا يُخْطَرُ فِيهَا بِبُرْدِ ٱلشَّبَابِ!

* * *

---

(١) وَمِقَتْ: أَحَبَّتْ؛ وَٱلْمِقَةُ: ٱلْمَحَبَّةُ؛ وَمُرْتَدَعُ: ٱرْتِدَاعٌ وَكَفٌّ.

(٢) كُنْهُ ٱلشَّيْءِ: قَدْرُهُ وَوَجْهُهُ وَنِهَايَتُهُ وَغَايَتُهُ، تَقُولُ: فِعْلُ فُلانٍ فَوْقَ كُنْهِ ٱسْتِحْقَاقِهِ، أَيْ: فَوْقَ قَدْرِهِ، وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ [من الطويل]:

وَإِنَّ كَلامَ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ ... لَكَٱلنَّبْلِ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا

فِي غَيْرِ كُنْهِهِ: رُئِيَ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ وَمَوْضِعِهِ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ: «لا تَسْأَلِ ٱلْمَرْأَةُ طَلاقَهَا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ» أَيْ: فِي غَيْرِ أَنْ تَبْلُغَ مِنَ ٱلأَذَىٰ إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ ٱلَّتِي تُعْذَرُ فِي سُؤَالِ ٱلطَّلاقِ مَعَهَا، قَالَ ٱلزَّبِيدِيُّ: وَمِمَّا يُسْتَدْرَكُ: كُنْهُ ٱلشَّيْءِ: حَقِيقَتُهُ، أَيْ كَمَا يَقُولُ ٱلْمَنْطِقِيُّونَ، عُلَمَاءُ ٱلْمَنْطِقِ. قَالَ: نَقَلَهُ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ، ونَسَبَهُ ٱبْنُ دُرَيْدٍ إِلَىٰ ٱلْعَامَّةِ، وَأَقَرَّهُ ٱلْجَمَاهِيرُ، وَٱسْتَعْمَلُوهُ فِيهَا ـ أَيْ: فِي ٱلْحَقِيقَةِ ـ حَتَّىٰ صَارَ أَشْهَرَ مِنْ هَذِهِ ٱلْمَعَانِي ـ أَيْ: ٱلَّتِي أَسْلَفْنَا ـ.

وَٱلْغِرَّةُ بِكَسْرِ ٱلْغَيْنِ: ٱلْغَفْلَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: كَانَ ذَلِكَ فِي غَرَارَتِي وَحَدَاثَتِي، أَيْ: فِي غِرَّتِي وَأَيَّامِ غَفْلَتِي؛ وَمِنْهُ ٱلْجَارِيَةُ ٱلْغِرَّةُ، أَيْ: ٱلشَّابَةُ ٱلَّتِي لَمْ تُجَرِّبِ ٱلأُمُورَ، وَلا تَعْلَمُ مَا يَعْلَمُ ٱلنِّسَاءُ مِنَ ٱلْخُبْثِ وَٱلْخَبِّ ـ ٱلْمَكْرِ ـ وَمِنْهُ يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا شَاخَ: أَدْبَرَ غَرِيرُهُ وَأَقْبَلَ هَرِيرُهُ، أَيْ: ذَهَبَتْ غَفْلَتُهُ وَطِيبَتُهُ، وَجَاءَ سُوءُ خُلُقِهِ.

٩٩٢ ـ وَقَالَ ٱلْغَزِّيُّ [من الكامل] :

لا تَطْمَعَنْ بِوَصْلِ خَوْدٍ أَبْصَرَتْ سَيْفَ ٱلْمَشِيبِ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ مُجَرَّدَا
عُذْرُ ٱلْكَوَاعِبِ أَنَّهُنَّ كَوَاكِبٌ لَا يَجْتَمِعْنَ مَعَ ٱلصَّبَاحِ إِذَا بَدَا

❋ ❋ ❋

٩٩٣ ـ وَقَالَ [من الوافر] :

إِذَا ٱشْتَعَلَتْ قُرُونُ ٱلرَّأْسِ شَيْباً خَبَتْ نَارُ ٱلْخَوَاطِرِ وَٱلطِّبَاعِ
فَلا تَقُلِ ٱلْبَيَاضُ لَهُ شُعَاعٌ بَيَاضُ ٱلْعَيْنِ يَذْهَبُ بِٱلشُّعَاعِ

❋ ❋ ❋

٩٩٤ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْغُصْنِ ٱلأَسَدِيُّ [من الوافر] :

أَتَأْمُلُ رَجْعَةَ ٱلدُّنْيَا سَفَاهاً وَقَدْ صَارَ ٱلشَّبَابُ إِلَىٰ ذَهَابِ
فَلَيْتَ ٱلْبَاكِيَاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ جُمِعْنَ لَنَا فَنُحْنَ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ

❋ ❋ ❋

٩٩٥ ـ وَقَالَ صُرَّدُرّ [من الكامل] :

لَمْ أَبْكِ أَنْ رَحَلَ ٱلشَّبَابُ وَإِنَّمَا أَبْكِي لأَنْ يَتَقَارَبَ ٱلْمِيعَادُ
شَعَرُ ٱلْفَتَىٰ أَوْرَاقُهُ فَإِذَىٰ ذَوَىٰ جَفَّتْ عَلَىٰ آثَارِهِ ٱلأَعْوَادُ

❋ ❋ ❋

٩٩٦ ـ وَللهِ عَلِيُّ بنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيُّ إِذْ يَقُولُ [من الكامل] :

لا تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ إِلّا إِذَا لَمْ يَبْكِهَا بِدَمِ[1]

---

(١) لا تَلْحَ : لَا تَلُمْ .

عَيْـبُ الشَّبِيبَـةِ غَـوْلُ سَكْـرَتِهـا ... مِقْـدَارَ مَـا فِيهَـا مِـنَ ٱلنِّعَـمِ(١)
لَسْنَـا نَـراهـا حَـقَّ رُؤْيَتِهَـا ... إِلَّا زَمَـانَ ٱلشَيْـبِ وَٱلْهَـرَمِ
كَـٱلشَّمْـسِ لا تَبْـدُو فَضِيلَتُهَـا ... حَتَّـى تُغَشَّـىٰ ٱلأَرْضُ بِـٱلظُّلَـمِ
وَلَـرُبَّ شَـيْءٍ لا يُبَيِّنُـهُ ... وُجْـدَانُـهُ إِلَّا مَـعَ ٱلْعَـدَمِ

* * *

٩٩٧ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّام [من الطويل] :

غَـدَا ٱلشَّيْـبُ مُخْطَطًّا بِفَوْدَيَّ خُطَّـةً ... سَبِيلُ ٱلرَّدَىٰ مِنهَا إِلَىٰ ٱلنَّفْسِ مَهْيَعُ(٢)
هُوَ ٱلزَّوْرُ يُجفَىٰ وَٱلْمُعَاشِرُ يُجْتَوَىٰ ... وَذُو ٱلإِلْفِ يُقْلَىٰ وَٱلْجَدِيدُ يُرَقَّعُ(٣)
لَـهُ مَنْظَـرٌ فـي ٱلعَيْـنِ أَبْيَـضُ نَـاصِـعٌ ... وَلٰكِنَّـهُ فـي ٱلْقَلْـبِ أَسْـوَدُ أَسْفَـعُ
وَنَحْنُ نُزَجِّيهِ عَلَى ٱلْكُرْهِ وَٱلرِّضَا ... وَأَنْفُ ٱلْفَتَىٰ مِن وَجْهِهِ وَهْوَ أَجْدَعُ(٤)

* * *

---

(١) «مِقْدَارَ» مفعولُ « غَوْلُ » ، وغَوْلُ بِمَعْنَىٰ : اغْتيال ؛ يَقُولُ : إِنَّ عَيْبَ ٱلشَّبَابِ أَنَّ سَكْرَتَهُ تَغْتَالُ وتَذْهَبُ بِمِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ نِعَمٍ ، وَهُمْ يُشَبِّهُونَ ٱلإِنْسَانَ في شَيْبَتِهِ بِٱلسَّكْرَانِ لَهْواً وَغَفْلَةً ؛ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱلْمُتَنَبِّي [ من الوافر ] :

إِذَا كَـانَ ٱلشَّبَـابُ ٱلسُّكْـرَ وَالشَّيْـ ... ـبُ هَمّـاً فَـٱلْحَيَـاةُ هِـيَ ٱلْحِمَـامُ

وَغَوْلُ سَكْرَتِهَا ، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي وَصْفِ خَمْرِ ٱلْجَنَّةِ ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ [ ٣٧ سورة الصافات/ الآية : ٤٧ ] .

(٢) « ٱلشَّيْبُ » يُرْوَىٰ : ٱلْهَمُّ ؛ وَ« ٱلْفَوْدَانِ » : جَانِبَا ٱلرَّأْسِ ؛ وَ« مَهْيَعٌ » : بَيِّنٌ وَاضِحٌ .

(٣) « الزَّوْرُ » : ٱلزَّائِرُ ؛ وَ« يُجْتَوَىٰ » : يُكْرَهُ ؛ وَ« يُقْلَىٰ » : يُبْغَضُ ؛ وَقَوْلُهُ : « وَٱلْجَدِيدُ يُرَقَّعُ » يعني : ٱلْخِضَابُ ؛ يَقُولُ : إِنَّ ٱلشَّيْبَ هُوَ ٱلزَّائِرُ ٱلْمَجْفُوُّ ، وَٱلْعَشِيرُ ٱلْمَكْرُوهُ ، وَٱلأَلِيفُ ٱلبَغِيضُ ، وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَىٰ ٱلتَّرْقِيعِ ؛ وَمَا تَرْقِيعُهُ إِلَّا خِضَابُهُ ، لأَنَّهُ يُخْضَبُ مَرَّةً فَيَنْصِلُ ، وهَلُمَّ .

(٤) « نُزَجِّيهِ » مِنَ ٱلرَّجَاءِ ، وَيُرْوَىٰ : نُزْجِيه ، بِٱلزَّاي ، وَٱلتَّزْجِيَةُ : ٱلْمُدَافَعَةُ وَٱلسَّوْقُ بِرِفْقٍ ؛ يَقُولُ : نَصْحَبُ ٱلشَّيْبَ وَنُدَافِعُهُ وَنَحْمِلُهُ وَنَسُوقُهُ كَارِهِينَ وَرَاضِينَ ، وَقَوْلُهُ : « وَأَنْفُ ٱلْفَتَىٰ . . . الخ » يُشِيرُ إِلَىٰ ٱلْمَثَلِ : « أَنْفُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعَ » ـ أَيْ ؛ مَقْطُوعٌ ـ يَقُولُ : لا سَبِيلَ إِلَىٰ ٱلْخَلاصِ مِمَّا لَزِمَ .

٩٩٨ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ أَيْضاً [من الخفيف] :

شُعْلَةٌ فِي ٱلْمَفَارِقِ ٱسْتَوْدَعَتْنِي وَفِي صَمِيمِ ٱلْفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيمَا
غُرَّةٌ بُهْمَةٌ أَلا إِنَّمَا كُنْـ ـتُ أَغَرَّ أَيَّامَ كُنْتُ بَهِيمَا[1]
دِقَّةٌ فِي ٱلْحَيَاةِ تُدْعَىٰ جَلالاً مِثْلُ مَا سُمِّيَ ٱللَّدِيغُ سَلِيمَا
حَلَّمَتْنِي زعَمْتُمُو وَأَرَانِي قَبْلَ هَذَا ٱلتَّحْلِيمِ كُنْتُ حَلِيمَا

٩٩٩ ـ وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي [من البسيط] :

لَيْتَ ٱلْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي ٱلَّذِي أَخَذَتْ مِنِّي بِحِلْمِي ٱلَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِيبِي
فَمَا ٱلْحَدَاثَةُ فِي حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ قَدْ يُوجَدُ ٱلْحِلْمُ فِي ٱلشُّبَّانِ وَٱلشِّيبِ

١٠٠٠ ـ وَذَلِكَ أَنَّ مِنهُمْ مَن مَدَحَ ٱلشَّيْبَ بِأَنَّهُ يُكْسِبُ صَاحِبَهُ ٱلْعَقْلَ وَٱلْحُنْكَةَ وَٱلْوَقَارَ ، فَرَدَّ عَلَيهم أَبُو تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّيُّ بِأَنَّ ٱلشَّبَابَ لا يُنَافِي ٱلْعَقْلَ ، وَأَنَّ ٱلشَّابَّ قَدْ يَكُونُ عَاقِلاً أَرِيباً .

* * *

١٠٠١ ـ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ ٱلشُّعَرَاءِ يَهِيمُونَ فِي كُلِّ وَادٍ ، وَأَنَّهُمْ يَنْقُضُونَ ٱلْيَوْمَ مَا أَبرَمُوهُ بِٱلأَمْسِ وَعَلَىٰ ٱلْعَكْسِ ، فَإِذَا كَانَ أَبُو تَمَّامٍ قَدْ رَدَّ عَلَىٰ مَنْ مَدَحَ ٱلشَّيْبَ بِأَنَّهُ يُورِثُ ٱلْحِلْمَ وَٱلْوَقَارَ ، فَإِنَّهُ وَافَقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي بَعْضِ شِعْرِهِ ، فَقَال [من البسيط] :

وَلَا يَرُوعَنْكِ إِيمَاضُ ٱلْقَتِيرِ بِهِ فَإِنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ ٱلرَّأْيِ وَٱلأَدَبِ[2]

---

(١) « ٱلْغُرَّةُ » في ٱلأَصْلِ : ٱلْبَيَاضُ في جَبْهَةِ ٱلْفَرَسِ فَوْقَ قَدْرِ ٱلدِّرْهَمِ ، وَمِنْهُ : فَرَسٌ أَغَرُّ ؛ وَ« ٱلْبُهْمَةُ » كَٱلظُّلْمَةِ وَزْناً وَمَعْنَىٰ ، وَ« غُرَّةٌ بُهْمَةٌ » عَلَىٰ مَعْنَىٰ ٱلتَّضَادِ ، أَيْ : إِنَّ ٱسْمَهَا غُرَّةٌ لأَنَّهَا بَيْضَاءُ وَهِيَ فِي ٱلْوَاقِعِ وَعَلَىٰ ٱلْحَقِيقَةِ ظُلْمَةٌ في قُبْحِهَا ، كَمَا قَالَ آنِفاً ، وَلَكِنَّهُ فِي ٱلْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ ، ثُمَّ قَالَ : وَهُوَ إِنَّمَا كَانَ أَغَرَّ في ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي كَانَ شَعْرُهُ أَسْوَدَ بَهِيماً .

(٢) « ٱلْقَتِيرُ » : ٱلْمَشِيبُ ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ : أَنَّ رَجُلاً سَأَلَهُ ﷺ عَنِ ٱمْرَأَةٍ أَرَادَ نِكَاحَهَا =

١٠٠٢ ـ ويقول دِعْبِلٌ [من الكامل] :

أَهْـلًا وَسَهْـلًا بِـالْمَشِيـبِ فَـإِنَّـهُ ... سِمَـةُ ٱلْعَفِيـفِ وَحِلْيَـةُ ٱلْمُتَحَـرِّجِ

ضَيْـفٌ أَلَـمَّ بِمَفْـرِقِـي فَقَـرَيْتُـهُ ... رَفْـضَ ٱلْغَـوَايَـةِ وَٱقْتِصَـادَ ٱلْمَنْهَـجِ

وَكَـأَنَّ شَيْبِـي نَظْـمُ دُرٍّ زَاهِـرٍ ... فِـي تَـاجِ ذِي مُلْـكٍ أَغَـرَّ مُتَـوَّجِ

وَلَهُمْ في هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ كَثِيرٌ .

* * *

١٠٠٣ ـ وَنَعُودُ إِلَىٰ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في ٱلْبُكَاءِ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ وَذَمِ ٱلْمَشِيبِ ؛ فَمِن أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي وصْفِ ٱلشَّيْبِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَبْتَدِي إِلَىٰ أَنْ يَنْتَهِي قَوْلُ أَعْرَابِيٍّ [من الكامل] :

ذَهَـبَ ٱلشَّبَـابُ فَـلا شَبَـابَ جُمَـانَـا ... وَكَأَنَّ مَا قَدْ كَانَ لَمْ يَكُ كَانَا[(١)]

وَطَوَيْتُ كَفِّي يَا جُمَانَ عَلَىٰ ٱلْعَصَا ... وَكَفَـىٰ جُمَـانَ بِطَيِّهَـا حَـدَثَـانَـا[(٢)]

يَـا مَـنْ لِشَيْـخٍ قَـدْ تَخَـدَّدَ لَحْمُـهُ ... أَفْنَـىٰ ثَـلاثَ عَمَـائِـمٍ أَلْـوَانَـا[(٣)]

سَـوْدَاءَ حَـالِكَـةٍ وَسَحْـقَ مُفَـوَّفٍ ... وَأَجَـدَّ لَـوْنـاً بَعْـدَ ذَاكِ هِجَـانَـا[(٤)]

---

= ـ زَوَاجَهَا ـ ، قَالَ : « وَبِقَدْرِ أَيِّ ٱلنِّساءِ هِيَ ؟ » قَالَ : قَدْ رَأَتِ ٱلقَتِيرَ ؛ قَالَ : « دَعْهَا » . [« مسند الإمام أحمد » ، رقم : ٢٦٥٢٤ ؛ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٣٤٩] . وَأَصْلُ ٱلْقَتِيرِ رُؤُوسُ ٱلْمَسَامِيرِ في ٱلدِّرْعِ تَلُوحُ فِيهَا ، شُبِّهَ بِهَا ٱلشَّيْبُ إِذَا نَقَبَ في سَوَادِ ٱلشَّعْرِ .

(١) « جُمَانَا » يُرِيدُ : يَا جُمَانَةُ ؛ فَرَخَّمَ .

(٢) « حَدَثَانُ ٱلدَّهْرِ » : نُوَبُهُ وَمَصَائِبُهُ ؛ يَقُولُ : كَفَىٰ بِطَيِّ كَفِّي عَلَىٰ ٱلْعَصَا مُصِيبَةٌ وَمَرْزِئَةٌ يَا جُمَانَةُ .

(٣) « تَخَدَّدَ لَحْمُهُ » : ٱضْطَرَبَ لَحْمُهُ مِنَ ٱلْهُزَالِ وَتَقَبُّضِ جِلْدِهِ ؛ وَ« أَلْوَانَا » صِفَةٌ لِـ « ثلاث » عَلَىٰ ٱلْمَعْنَىٰ ، كَأَنَّهُ قَالَ : مُخْتَلِفَاتٌ ، وَقَدْ بَيَّنَ ٱلْعَمَائِمَ ٱلثَّلاثَ في ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي يَلِيهِ .

(٤) يَقُولُ : إِنَّ ٱلْعَمَائِمَ ٱلثَّلاثَ ٱلَّتِي أَفْنَاهَا هِي : شَعْرُهُ ٱلأَسْوَدُ ٱلصِّرْفُ إِذْ كَانَ شَابّاً ، وَهُوَ قَوْلُهُ : =

صَحِبَ ٱلزَّمانَ عَلَىٰ ٱخْتِلافِ فُنُونِهِ فَـأَرَاهُ مِنْـهُ كَـرَاهَـةً وَهَـوَانَـا
قَصَـرَ ٱللَّيَـالِـي خَطْـوَهُ فَتَـدَانَـىٰ وَحَنَـوْنَ قَـائِـمَ صُلْبِـهِ فَتَحَـانَـىٰ[1]
وَٱلْمَـوْتُ يَـأْتِـي بَعْـدَ ذَلِـكَ كُلِّـهِ وَكَـأَنَّمَـا يُعْنَـىٰ بِـذَاكَ سِـوَانَـا[2]

* * *

١٠٠٤ ـ وَمِنْ بَدِيعِ ٱلتَّشْبِيهِ في هَذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ [من الكامل] :

وَٱلشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي ٱلسَّوَادِ كَـأَنَّهُ لَيْـلٌ يَصِيـحُ بِجَـانِبَيْـهِ نَهَـارُ

وَقَبْلَهُ [من الكامل] :

قَالَتْ : وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلُكَ لِلصِّبَا وَعَلَيْـكَ مِـنْ سِمَـةِ ٱلْحَلِيـمِ وَقَـارُ

ٱسْتَعَارَ ٱللَّيْلَ لِلشَّبَابِ ، وَٱلنَّهَارَ لِلْمَشِيبِ ، وَأَسْنَدَ ٱلصِّيَاحَ إِلَىٰ ٱلنَّهَارِ ، كما أَنَّهُ تَخَيَّلَ أَنَّ ٱلنَّهَارَ مُقْبِلٌ إِقْبَالَ ٱلْهَازِمِ ، وَأَنَّ ٱللَّيْلَ مُدْبِرٌ إِدْبَارَ ٱلْمَهْزُومِ ، وَمِنَ ٱلْعَادَةِ أَنْ يَصِيحَ ٱلْهَازِمُ عَلَىٰ ٱلْمَهْزُومِ .

* * *

= « سَوْدَاءَ حَالِكَةٍ » . ثُمَّ شَعْرُهُ ٱلأَسْوَدُ بَعْدَ أَنْ خَالَطَهُ ٱلشَّيْبُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « وَسَحْقَ مُفَوَّفٍ » وَٱلتَّفْوِيفُ : ٱلتَّنْقِيشُ ، مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلفَوْفِ ، وَهُوَ : ٱلنُّكْتَةُ ٱلْبَيْضَاءُ ٱلَّتِي تَحْدُثُ فِي أَظْفَارِ ٱلأَحْدَاثِ . وٱلسَّحْقُ : ٱلخَلَقُ ٱلْبَالِي . أَمَّا ٱلعِمَامَةُ ٱلثَّالِثَةُ ، فَذَلِكَ حِينَ يَعُمُّ رَأْسَهُ ٱلشَّيْبُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « وَأَجَدَّ لَوْناً بَعْدَ ذَاكِ هِجَانَا » ؛ وَأَجَدَّ ، أَيْ ٱسْتَجَدَّ ، وَالهِجَانُ : ٱلأَبْيَضُ .

(١) قَوْلُهُ : « ٱللَّيَالِي » فَاعِلُ « قَصَرَ » ، وَ« خَطْوَهُ » مَفْعُولٌ ، وَقَوْلُهُ : « وَحَنَوْنَ قَائِمَ صُلْبِهِ فَتَحَانَىٰ » ، يَقُولُ فِي مِثْلِهِ أَبُو ٱلطَّمَحَانِ ٱلْقَيْنِي ، وَأَجَادَ كُلَّ ٱلإِجَادَةِ [من الوافر] :

حَنَتْنِـي حَـانِيَـاتُ ٱلـدَّهْـرِ حَتَّـىٰ كَـأَنِّـي خَـاتِـلٌ أَدْنُـو لِصَيْـدِ
قَـرِيـبُ ٱلْخَطْـوِ يَحْسَـبُ مَـنْ رَآنِـي ـ وَلَسْـتُ مُقَيَّـداً ـ أَنِّـي بِقَيْـدِ

(٢) قَوْلُهُ : « وَكَأَنَّمَا يُعْنَىٰ بِذَاكَ سِوَانَا » مِنْ أَبْلَغِ مَا يَكُونُ مِنَ ٱلمَوْعِظَةِ ، يَقُولُ : كَأَنَّمَا ٱلمَقْصُودَ بِذَلِكَ غَيْرَنَا لا نَحْنُ ، وَإِلَّا لَاعْتَبَرْنَا وَٱتَّعَظْنَا .

١٠٠٥ ـ وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ [من الكامل] :

كَــالصُّبْــحِ أَحْــدَثَ لِلظَّــلامِ أُفُــولا

* * *

١٠٠٦ ـ وَقَوْلُ ٱلآخَرِ [من الكامل] :

لَيْــلٌ تَلَفَّــعَ مُــدْبِــراً بِنَهَــارِ

* * *

١٠٠٧ ـ وَقَوْلُ ٱلْبُحْتُرِي [من الطويل] :

مشِيبٌ كَنَثِّ ٱلسِّرِّ أَعْيَىٰ بِحَمْلِهِ مُحَدِّثَهُ أَوْ ضَاقَ صَدْرُ مُذِيعِهِ
تَلاحَقَ حَتَّىٰ كَادَ يَأْتِي بَطِيئُهُ لِحَثِّ ٱللَّيَالِي قَبْلَ آتِي سَرِيعِهِ

* * *

١٠٠٨ ـ وَمِنْ بَدِيعِ ٱلتَّشْبِيهِ أَيْضاً قَوْلُ شَاعِرٍ يُسَمَّىٰ دَاودَ بْنَ جَهْوَةَ [من الطويل] :

وَأَنْكَرْتُ شَمْسَ ٱلشَّيْبِ في رَأْسِ لِمَّتِي لَعَمْرِي لَلَيْلِي كَانَ أَحْسَنَ مِنْ شَمْسِي
كَأَنَّ ٱلصِّبَا وَٱلشَّيْبُ يَطْمِسُ نُورَهُ عَرُوسُ أُناسٍ مَاتَ في لَيْلَةِ ٱلْعُرْسِ

١٠٠٩ ـ وقَدْ أَخَذَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ مَعْنَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلأَوَّلِ مِنْ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ ، فَقَالَ [من الطويل] :

أَرَىٰ ٱلدَّهْرَ أَجْرَىٰ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ بِعَدْلٍ فَلا هَذَا وَلا ذَاكَ سَرْمَدُ
وَجَارَ عَلَىٰ لَيْلِ ٱلشَّبَابِ فَضَامَهُ نَهَارُ مَشِيبٍ سَرْمَدٌ لَيْسَ يَنْفَدُ

وَيَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

أَبَيْـنَ ضُلُـوعِـي جَمْـرَةٌ تَتَـوَقَّـدُ عَلَـىٰ مَـا مَضَـىٰ أَمْ حَسْـرَةٌ تَتَجَـدَّدُ
خَلِيلَـيَّ مَـا بَعْـدَ ٱلشَّبَـابِ رَزِيَّـةٌ يَجُـمٌّ لَهَـا مَـاءُ ٱلشُّـؤُونِ وَيَعْتَـدُ
فَـلا تَلْعَبَـا إِنْ فَـاضَ دَمْـعٌ لِفَقْـدِهِ فَقُـلْ لَـهُ بَحْـرٌ مِـنَ ٱلـدَّمْـعِ يَثْمُـدُ
وَلا تَعْجَبَـا لِلْجِلْـدِ يَبْكِـي ، فَـرُبَّمَـا تَفَطَّـرَ عَـنْ عَيْـنٍ مِـنَ ٱلْمَـاءِ جَلْمَـدُ
شَبَـابُ ٱلْفَتَـىٰ مَجْلُـودُهُ وَعَـزَاؤُهُ فَكَيْـفَ ؟ وَأَنَّـىٰ ؟ بَعْـدَهُ يَتَجَلَّـدُ
وَفَقْدُ ٱلشَّبَابِ ٱلْمَوْتُ يُوجَدُ طَعْمُهُ صُرَاحاً ، وَطَعْمُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْمَوْتِ يُفْقَدُ
رُزِئْـتُ شَبَـابِـي عَـوْدَةً بَعْـدَ بَـدْأَةٍ وَهُـنَّ ٱلـرَّزَايَـا بَـادِيَـاتٌ وَعُـوَّدُ
سُلِبْـتُ سَـوَادَ ٱلْعَـارِضَيْـنِ وَقَبْلَـهُ بَيَـاضُهُمَـا ٱلْمَحْمُـودَ إِذْ أَنَـا أَمْـرَدُ
وَبُـدِّلْـتُ مِـنْ ذَاكَ ٱلْبَيَـاضِ وَحُسْنِـهِ بَيَــاضـاً ذَمِيمــاً لا يَــزَالُ يَسْــوَدُ
لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْبَيَاضَيْنِ : مُعْجِبٌ أَنِيـقٌ وَمَشْنُـوءٌ إِلَـىٰ ٱلْعَيْـنِ أَنْكَـدُ
تَضَاحَكَ فِي أَفْنَانِ رَأْسِي وَلِحْيَتِي وَأَقْبَـحُ ضَحَّـاكَيْـنِ شَيْـبٌ وَأَدْرَدُ
وَكُنْـتُ جَـلاءً لِلْعُيُـونِ مِـنَ ٱلْقَـذَىٰ فَقَـدْ جُعِلْـتُ تَقْـذَىٰ بِشَيْبِـي وَتَـرْمَـدُ
هِيَ ٱلأَعْيُنُ ٱلنُّجْلُ ٱلَّتِي كُنْتَ تَشْتَكِي مَوَاقِعَهَا فِي ٱلْقَلْبِ ، وَٱلرَّأْسُ أَسْوَدُ
فَمَـالَـكَ تَـأْسَـىٰ ٱلآنَ لَمَّـا رَأَيْتَهَـا وَقَـدْ جُعِلَـتْ مَـرْمَـىٰ سِـوَاكَ تَعْمَـدُ
تَشَكَّـىٰ إِذَا مَـا أَقْصَـدَتْـكَ سِهَـامُهَـا وَتَـأْسَّـىٰ إِذَا نَكَّبْـنَ عَنْـكَ وَتَكْمَـدُ
كَـذَلِـكَ تِلْـكَ ٱلنُّبْـلُ مَـنْ وَقَعَـتْ بِـهِ وَمَنْ صُرِفَتْ عَنْهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ مُقْصَدُ
إِذَا عَـدَلَـتْ عَنَّـا وَجَـدْنَـا عُـدُولَهَـا كَمَوْقِعِهَا فِي ٱلْقَلْبِ ، بَلْ هُوَ أَجْهَدُ
تُنَكِّـبُ عَنَّـا مَـرَّةً ، فَكَـأَنَّمَـا مُنَكِّبُهَــا عَنَّــا إِلَيْنَــا مُسَــدَّدُ
كَفَـى حُـزْنـاً أَنَّ ٱلشَّبَـابَ مُعَجَّـلٌ قَصِيـرُ ٱللَّيَـالِـي وَٱلْمَشِيـبَ مُخَلَّـدُ
إِذَا حَلَّ جَارَيْ ٱلْمَـرْءِ شَـأْوَ حَيَاتِـهِ إِلَىٰ أَنْ يَضُمَّ ٱلْمَرْءَ وَٱلشَّيْبَ مَلْحَدُ
أَرَىٰ ٱلـدَّهْـرَ أَجْـرَىٰ لَيْلَـهُ وَنَهَـارَهُ بِعَـدْلٍ فَـلا هَـذَا وَلَا ذَاكَ سَـرْمَـدُ

وَجَارَ عَلَىٰ لَيْلِ ٱلشَّبَابِ مَعَاشِرٌ فقَالُوا نَهَارُ ٱلشَّيْبِ أَهْدَىٰ وَأَرْشَدُ
وَكَانَ نَهَارُ ٱلْمَرْءِ أَهْدَىٰ لِسَعْيِهِ وَلَكِنْ ظَلَّ ٱللَّيْلُ أَنْدَىٰ وَأَبْرَدُ
أَأَيَامَ لَهْوِي هَلْ مَوَاضِيكِ عُوَّدُ ؟ وَهَلْ لِشَبَابٍ ضَلَّ بِٱلأَمْسِ مُنْشِدُ ؟
أَقُولُ وَقَدْ شَابَتْ شَوَاتِي وَقُوِّسَتْ قَنَاتِي ، وَأَضْحَتْ كِدْنَتِي تَتَخَدَّدُ[1]
وَدَبَّ كَلالٌ فِي عِظَامِي أَدَبَّنِي جَنِيبُ ٱلْعَصَا أَنْآدُ أَوْ أَتَأَيَّدُ
وَبُورِكَ طَرْفِي فَٱلشُّخُوصُ حِيَالَهُ قَرَائِنُ - مِنْ أَدْنَىٰ مَدًى - وَهِيَ فُرَّدُ
وَلَذَّتْ أَحَادِيثِي ٱلرِّجَالَ ، وَأَعْرَضَتْ سُلَيْمَى وَرَيَّا عَنْ حَدِيثِي وَمَهْدَدُ
لِمَا تُؤْذِنُ ٱلدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ ٱلطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ
وَإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَأَنَّهَا لأَفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ
إِذَا أَبْصَرَ ٱلدُّنْيَا ٱسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَىٰ مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ[2]
وَلِلنَّفْسِ أَحْوَالٌ تَظَلُّ كَأَنَّهَا تُشَاهِدُ فِيهَا كُلَّ غَيْبٍ سَيَشْهَدُ

* * *

لَعِبْتُ بِأَوَّلَيِ ٱلدَّهْرِ فَٱغْتَالَ شِرَّتِي بِأُخْرَىٰ حَقُودٍ ، وَٱلْجَرَائِمُ تُحَقِّدُ
فَصَبْرًا عَلَىٰ مَا ٱشْتَدَّ مِنْهُ ، فَإِنَّمَا يَقُومُ لَمَّا يَشْتَدُّ مَنْ يَتَشَدَّدُ
يُذِيقُ ٱلْفَتَىٰ طَوْرَيْ رَخَاءٍ وَشِدَّةٍ حَوَادِثُهُ ، وَٱلْحَوْلُ بِٱلْحَوْلِ يُطْرَدُ
وَمَالِي عَزَاءٌ عَنْ شَبَابِي عَلِمْتُهُ سِوَىٰ أَنَّنِي مِنْ بَعْدِهِ لا أُخَلَّدُ
وَإِنَّ مَشِيبِي « وَاعِدٌ » بِلِحَاقِهِ وَإِنْ قَالَ قَوْمٌ إِنَّهُ « يَتَوَعَّدُ »

وَهَذِهِ أَبْيَاتُ ٱبْنِ ٱلرُّومِي مِنْ قَصِيدَةٍ بَارِعَةٍ كَثِيرَةِ ٱلنَّوَادِرِ قَلِيلَةِ ٱلْحَشْوِ عَلَىٰ طُولِهَا ، إِذْ يَبْلُغُ عَدَدُ أَبْيَاتِهَا أَرْبَعَ مِئَةِ بَيْتٍ يَمْدَحُ صَاعِدَ بْنَ مَخْلَدٍ ، وَيَذْكُرُ

---

(١) ٱلْكِدْنَةُ بِضَمِّ ٱلْكَافِ وَكَسْرِهَا : غِلَظُ ٱلْجِسْمِ وَسِمَنُهُ .
(٢) ٱسْتَهَلَّ : رَفَعَ صَوْتَهُ بِٱلْبُكَاءِ صَارِخاً .

ٱلْمُوَفَّقَ وَصَاحِبَ ٱلزَّنْجِ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ فِي ٱلْمَدِيحِ [من الطويل] :

تَـرَاهُ عَـنِ ٱلْحَـرْبِ ٱلْعَـوَانِ بِمَعْـزِلٍ وَآرَاؤُهُ فِيهَـا وَإِنْ غَـابَ شُهَّـدُ
كَمَا ٱحْتَجَبَ ٱلْمِقْدَارُ وَٱلْحُكْمُ حُكْمُهُ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ طُرًّا لَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدُ[١]

* * *

١٠١٠ ـ وَلْنُعْطِفْ عَلَىٰ قَوْلِهِمْ فِي ٱلتَّفَجُّعِ عَلَىٰ أَيَّامِ ٱلشَّبَابِ وَذمِّ ٱلشَّيْبِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱلْمَعَرِّي [من البسيط] :

إِذَا ٱلْفَتَـىٰ ذَمَّ عَيْشـاً فـي شَبِيْبَتِـهِ فَمَا يَقُولُ إِذَا عَصْرُ ٱلشَّبَابِ مَضَىٰ[٢]
وَقـد تَعَـوَّضْـتُ مِـنْ كُـلٍّ بِمُشْبِهِـهِ فَمَا وَجَدْتُ لأَيَّامِ ٱلصِّبَا عِوَضَا[٣]

وَفِي هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ يَقُولُ فِي غَيْرِ هَذَا ٱلْبَابِ [من البسيط] :

وَقَدْ غَرِضْتُ مِنَ ٱلدُّنْيَا فَهَلْ زَمَنِي مُعْطٍ حَيَاتِي لِغِرٍّ بَعْدُ مَا غَرِضَا[٤]
جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ لِيَ ٱلتَّجَارِبُ فِي وُدِّ ٱمْرِىءٍ غَرَضَا

* * *

١٠١١ ـ وَطَرِيفٌ كُلَّ ٱلطَّرَافَةِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من مخلّع البسيط] :

مَـنْ شَـابَ قَـدْ مَـاتَ وَهْـوَ حَـيٌّ يَمْشِـي عَلَـىٰ ٱلأَرْضِ مَشْـيَ هَـالِـكْ

---

(١) ٱلْمِقْدَارُ : ٱلْقَدَرُ ، و« لَيْسَ عَنْهُ مُعرَّدُ » : لَيْسَ عَنْهُ فِرارٌ وَمَهْرَبٌ ، فَٱلتعْرِيدُ : ٱلْفِرَارُ .

(٢) أَيْ : إِذَا لَمْ يَحْمَدِ ٱلإِنْسَانُ عَيْشَهُ فِي زَمَنِ ٱلشَّبَابِ ، فَكَيْفَ يَحْمَدُهُ إِذَا وَلَّى ٱلشَّبَابُ وَحَلَّ بِهِ ٱلْمَشِيبُ ، وَهُوَ تَخَاذُلُ ٱلْقُوَىٰ وَتَحَوُّلُ ٱلأَحْوَالِ !

(٣) يَقُولُ : ٱسْتَبْدَلْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَقَدْتُهُ بَدَلًا يُغْنِي غَنَاءَهُ ، وَإِذَا فَقَدْتُ أَيَّامَ ٱلصِّبَا لَمْ أَجِدْ بَدَلًا ، أَيْ : لا يَقُومُ مَقَامَ ٱلشَّبَابِ حَالٌ مِنَ ٱلأَحْوَالِ .

(٤) ٱلْغَرَضُ : ٱلضَّجَرُ وَٱلْمَلالُ ، وَغَرِضَ مِنْ كَذَا ، وَغَرِضَ بِٱلْمُقَامِ : ضَجِرَ وَقَلِقَ ؛ وَالغِرُّ : ٱلَّذِي لَمْ يُجَرِّبِ ٱلأُمُورَ ، يَقُولُ : تَمَرَّسْتُ بِٱلدُّنْيَا . . حَتَّىٰ ضَجِرْتُ مِنْهَا وَسَئِمْتُ أَحْوَالَهَا ، فَهَلْ يَسْمَحُ زَمَنِي بِأَنْ يُعْطِيَ حَيَاتِي مَنْ لَمْ يُجَرِّبِ ٱلدُّنْيَا وَلَمْ يَتَبَرَّمْ بِتَقَلُّبِ أَحْوَالِهَا !

لَوْ كَانَ عُمْرُ ٱلْفَتَىٰ حِساباً     لَكَانَ فِي شَيْبِهِ فَذَالِكْ[١]

* * *

١٠١٢ ـ وَلأَبِي تَمَّامٍ [من الخفيف] :

لَوْ رَأَىٰ ٱللهُ أَنَّ فِي ٱلشَّيْبِ خَيْراً     جاوَرَتْهُ ٱلأَبْرَارُ فِي ٱلْخُلْدِ شِيباً

يُشِيرُ أَبُو تَمَّامٍ إِلَىٰ مَا وَرَدَ في ٱلأَثَرِ مِنْ أَنَّ ٱلْجَنَّةَ لا يَدْخُلُها عَجُوزٌ ، وَأَنَّ ٱلشِّيْبَ يَسْتَحِيلُونَ عِنْدَ دُخُولِ ٱلْجَنَّةِ إِلَىٰ شَبَابِ أَبْنَاءِ ثَلاثَةٍ وَثَلاثِينَ . [راجع كتب التفسير في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ٥٦ سورة الواقعة/ الآيات : ٣٥ ـ ٣٧؛ و« الشمائل » للترمذي ، رقم : ٢٤١ ؛ و« الأنوار » للبغوي ، رقم : ٣٢٠] وَقَبْلَ هَذَا ٱلْبَيْتِ [من الخفيف] :

لَعِبَ ٱلشَّيْبُ بِٱلْمَفَارِقِ بَلْ جَـ     ـدَّ فَأَبْكَىٰ تُمَاضِراً وَلَعُوبَا[٢]

خَضَبَتْ خَدَّهَا إِلَىٰ لُؤْلُؤِ ٱلعِقْـ     ـدِ دَماً أَنْ رَأَتْ شَوَاتِي خَضِيبَا[٣]

كُلُّ داءٍ يُرْجَىٰ ٱلدَّواءُ لَهُ     إِلَّا ٱلْفَظِيعَيْنِ مِيتَةً وَمَشِيبَا

يَا نَسِيبَ ٱلثَّغَامِ ذَنْبُكِ أَبْقَىٰ     حَسَنَاتِي عِنْدَ ٱلْحِسَانِ ذُنُوبَا[٤]

---

(١) ٱلْفَذَالِكُ : جَمْعُ فَذْلَكَةٍ ، أَيْ : جُمْلَةُ ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُقَالُ عِنْدَهَا : فَذَلِكَ كَذَا ؛ قَالَ ٱلْمُتَنَبي [من الكامل ] :

نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ ٱلْحِسَابِ مُقَدَّماً     وَأَتَىٰ فَذَالِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرَا

(٢) تُمَاضِرُ وَلَعُوبُ ٱسْمَا ٱمْرَأَتَيْنِ ، وَتُمَاضِرُ : ٱسْمُ ٱلْخَنْسَاءِ ، وَ« ٱلْمُفَارِقُ » جَمْعُ مَفْرِقٍ كَمَقْعِدٍ ومَجْلِسٍ ، وَهُوَ وَسَطُ ٱلرَّأْسِ حَيْثُ يُفْرَقُ ٱلشَّعْرُ ، يَقُولُ : لَمَّا بَدَا ٱلشَّيْبُ في مَفْرِقِ رَأْسِي بَكَتِ ٱلنِّسَاءُ لِمَا فَاتَهُنَّ مِنَ ٱلصَّبْوَةِ إِلَيْهِ .

(٣) ٱلشَّوَاةُ : جِلْدَةُ ٱلرَّأْسِ ، وَخَضِيبٌ بِمَعْنَىٰ مَخْضُوب ، أَيْ : مَصْبُوغ ، وَقَوْلُهُ : « إِلَىٰ لُؤْلُؤِ ٱلْعِقْدِ » أَيْ : ٱنْتَهَىٰ ٱلدَّمْعُ إِلَىٰ صَدْرِها لِكَثْرَتِهِ ، وَقَوْلُهُ : « أَنْ رَأَتْ » أَيْ : لأَنْ رَأَتْ .

(٤) ٱلثَّغَامُ : نَبْتٌ أَبْيَضُ ، شَبَّهَ بِهِ ٱلشَّيْبَ في ٱلْبَيَاضِ .

وَلَئِنْ عِبْنَ مـا رَأَيْنَ لَقَدْ أَنْـ ـكَرْنَ مُسْتَنْكَراً وَعِبْنَ مَعِيبَا
أَوْ تَصَدَّعْنَ عَنْ قِلًى لَكَفَىٰ بِٱلشَّـ ـيْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُنَّ حَسِيبَا(١)

* * *

١٠١٣ ـ وَقالَ أَبُو تَمَّام [من الكامل] :

راحَتْ غَواني ٱلْحَيِّ عَنْكَ غَوانِياً يَلْبَسْنَ نَأْياً تارَةً وَصُدُودا
مِنْ كُلِّ سابِغَةِ ٱلشَّبابِ إِذا بَدَتْ تَرَكَتْ عَمِيدَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَميدا
أَرْبَيْنَ بِٱلْمُرْدِ ٱلْغَطارِفِ بُدَّناً غِيداً أَلِفْنَهُمْ لِدَاناً غِيدا
أَحْلَىٰ ٱلرِّجالِ مِنَ ٱلنِّساءِ مَواقِعاً مَنْ كانَ أَشْبَهَهُمْ بِهِنَّ خُدُودا

وَ« عَميدُ » ٱلأُولىٰ بِمَعْنىٰ رَئيسٍ وَسَيِّدٍ ، وَالثَّانِيَةُ بِمَعْنىٰ ٱلْمَعْمُودِ ٱلْمَشْغوفِ عِشْقاً أَوِ ٱلَّذي بَلَغَ بِهِ ٱلْحُبُّ مَبْلَغاً ، وَلا يُرِيدُ أَبُو تَمّامٍ بِقَوْلِهِ : « عَميدَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ » رَجُلًا بِعَيْنِهِ ، إِنَّما يُشيرُ إِلىٰ الآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ

---

(١) ٱلْحَسِيبُ : ٱلْكَافي ، يَقُولُ : إِذا كانَ تَفَرُّقُهُنَّ عَنّي لِلْبُغْضِ ، فَإِنَّ ٱلشَّيْبَ كافٍ في أَنْ يَكُونَ سَبَباً في ذَلِكَ ، قَالَ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمُرْتَضىٰ في « أَماليه » : وَجَدْتُ ٱلآمِدِيَّ يَذْكُرُ أَنَّ قَوْماً ٱدَّعَوا ٱلْمُناقَضَةَ عَلىٰ أَبي تَمّامٍ في هَذِهِ ٱلأَبْياتِ بِقَوْلِهِ : « فَأَبْكىٰ تُماضِراً وَلَعُوباً » وَقَوْلِهِ : « خَضَبَتْ خَدَّها . . . » ٱلْبَيْتَيْنِ ، وَقَوْلِهِ : « وَلَئِنْ عِبْنَ . . . » البيتِ ، قالوا : كَيْفَ يَبْكِينَهُ دَماً عَلىٰ شَيْبِهِ ثُمَّ يُعِبْنَهُ ؟ قَالَ الآمِدِيُّ : وَلَيْسَ هاهُنا مُناقِضٌ ، لأَنَّ ٱلشَّيْبَ إِنَّما أَبْكىٰ تُماضِرَ وَلَعُوبَ أَسَفاً عَلىٰ شَبابِهِ ، وَٱلْحِسانُ ٱللَّواتي عِبْنَهُ غَيْرُ هاتَيْنِ ٱلْمَرْأَتَيْنِ ، فَيَكُونُ مَنْ أَشْفَقَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّيْبِ مِنْهُنَّ وَأَسِفَ عَلىٰ شَبابِهِ بَكىٰ ، كَما قَالَ ٱلأَخْطَلُ [من الكامل] :

لَمَّا رَأَتْ بَدَلَ ٱلشَّبابِ بَكَتْ لَهُ إِنَّ ٱلْمَشِيبَ لأَرْذَلُ ٱلرُّذَّالِ

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ حالَ مَنْ عابَهُ . فَالَ ٱلْمُرْتَضىٰ : وَلَيْسَ يَحْتاجُ في ٱلْعُذْرِ لأَبي تَمّامٍ إِلىٰ ما تَكَلَّفَهُ الآمِدِيُّ ، بَلِ ٱلْمُنافَضَةُ زائِلَةٌ عَنْهُ عَلىٰ كُلِّ حالٍ ، وَإِنْ كانَ مَنْ قَدْ بَكىٰ شَبابَهُ وَتَلَهَّفَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلنِّساءِ هُنَّ ٱللَّوَاتِي أَنْكَرْنَ مَشِيبَهُ وَعِبْنَهُ بِهِ ، وَمَا ٱلْمُنْكَرُ مِنْ ذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ يَتَناقَضُ أَنْ يُبْكىٰ عَلىٰ شَبابِهِ وَنُزولِ شَيْبِهِ ؟ مِنْهُنَّ مَنْ رَأىٰ ٱلشَّيْبَ ذَنْباً وَعَيْباً مُنْكَراً ، وَفي هَذا غايَةُ ٱلْمُطابَقَةِ ، لأَنَّهُ لا يَبْكي ٱلشَّيْبَ وَيَجْزَعُ مِنْ حُلُولِهِ وَفِراقِ ٱلشَّبابِ إِلَّا مَنْ رَآهُ مُنْكَراً وَمَعِيباً .

ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/الآية : ٣١] وَٱلْقَرْيَتانِ في ٱلآيَةِ : مَكَّةُ وَٱلطَّائِفُ ، وَعَظِيمُ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عُرْوَةُ بْنُ مُسْعُودٍ ٱلثَّقَفِيُّ[١] ، وَقَدْ شاعَ ٱسْتِعْمالُ أَبي تَمَّامٍ حَتّىٰ قَالُوا في صَدْرِ ٱلإِسْلامِ : لَيْسَ فُلانٌ بِعَمِيدِ ٱلْقَرْيَتَيْنِ ، يَعْنونَ : لَيْسَ سَيِّداً عَظِيماً . وَقَوْلُ أَبي تَمَّامٍ : « أَرْبَبْنَ بِٱلْمُرْدِ ٱلْغطارِفِ . . . » ٱلْبَيْتَ ، فَأَرْبَبْنَ مِنْ أَرَبَّ بِٱلشَّيْءِ : إِذا لَزِمَهُ وَأَقَامَ عَلَيْهِ ، يُقالُ : أَرَبَّ وَأَلَبَّ بِٱلْمَكَانِ : إِذا أَقَامَ فِيهِ وَلَزِمَهُ ؛ يُرِيدُ أَبُو تَمامٍ : إِنَّهُنَّ لَزِمْنَ هَوىٰ ٱلْمُرْدِ وَأَقَمْنَ عَلَيْهِ ، وَرَوَاهُ قَوْمٌ : « أَرْبَيْنَ بِٱلْمُرْدِ » ، مِنَ ٱلرِّبا ، ٱلَّذي مَعْناهُ ٱلزِّيادَةُ . يَقُولُ أَبُو تَمّامٍ : أَرْبَيْنَ بِٱلْمُرْدِ ، أَيْ : ٱزْدَدْنَ عَلَيْنا بِهِمْ ، وَجَعَلْنَ ٱلْمُرْدَ زِيادَةً ٱخْتَرْنَها عَلَيْنا ؛ وَٱلْغَطَارِفُ جَمْعُ غِطْرِيفٍ ، وَهُوَ : ٱلشَّابُ ٱلظَّرِيفُ ٱلْحَسَنُ ؛ وَٱلأَغْيَدُ : ٱلنَّاعِمُ ٱلْمُتَثَنِّي مِنَ ٱللِّينِ . وَٱلْغَيْدَاءُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمُتَثَنِّيَةُ مِنَ ٱللِّينِ ، وَٱللِّدَانُ ، جَمْعُ لَدِنٍ ، وَهُوَ : ٱللَّيِّنُ .

* * *

١٠١٤ ـ وَلِيَحْيىٰ بْنِ خالِدِ بْنِ بَرْمَكَ ـ وَتُرْوىٰ لِغَيْرِهِ [أبي العتاهية] ـ [من الكامل] :

ٱللَّيْـلُ شَيَّـبَ وَٱلنَّهـارُ كِـلاهُمـا ... رَأْسـي بِكَثْـرَةِ مـا تَـدُورُ رَحـاهُمـا

يَتَنـاهَبـانِ نُفُـوسَنـا وَدِمـاءَنـا ... وَلُحُـومَنـا عَمْـداً وَنَحْـنُ نَـراهُمـا

وَٱلشَّيْـبُ إِحْـدىٰ ٱلْمَيْتَتَيْـنِ تَقَـدَّمَـتْ ... أُولاهُمـا وَتَـأَخَّـرَتْ أُخْـراهُمـا

* * *

١٠١٥ ـ وَقَالَ صُرَّ دُرَّ [من الكامل] :

لَـمْ أَبْـكِ أَنْ رَحَـلَ ٱلشَّبـابُ وَإِنَّمـا ... أَبْكِـي لأَنْ يَتَقـارَبَ ٱلْمِيعـادُ

---

(١) قالَهُ ٱلمُفَسِّرُونَ في قَوْلِهِ تَعالىٰ : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [٤٣ سورة الزخرف/الآية : ٣١] .

شَعَـرُ ٱلْفَتـىٰ أَوْراقُـهُ فَـإِذا ذَوَتْ    جَفَّـتْ عَلـىٰ آثـارِهِ ٱلأَعْـوادُ

* * *

١٠١٦ ـ وَقَالَ ٱلطُّغَرائِيُّ [من الكامل] :

أَمَّـا ٱلشَّبيبَـةُ وَٱلنَّعِيـمُ فَـإِنَّنـي    لَـمْ أَدْرِ أَيُّهُمـا أَلَـذُّ وَأَنْضَـرُ
حَتّىٰ ٱنْقَضىٰ عَصْرُ ٱلشَّبابِ فَبَانَ لِي    أَنَّ ٱلشَّبـابَ هُـوَ ٱلنَّعِيـمُ ٱلأَكْبَـرُ
لا تُخْـدَعَـنْ عَنْـهُ فَبَـائِـعُ سـاعَـةٍ    مِنْـهُ بِـدُنْيـاهُ جَميعـاً يَخْسِـرُ

* * *

١٠١٧ ـ وَلِمَحْمُودٍ ٱلوَرَّاقِ [ وتنسَبُ لمحمد بن حازم ٱلْباهِلِيّ ] [من المتقارب] :

أَلَيْـسَ عَجيبـاً بِـأَنَّ ٱلْفَتـىٰ    يُصـابُ بِبَعْـضِ ٱلَّـذي فـي يَـدَيْـهِ
فَمِـنْ بَيْـنِ بـاكٍ لَـهُ مُـوجَـعٍ    وَبَيْـنَ مُعَـزٍّ مُغِـذٍّ إِلَيْـهِ
وَيَسْلُبُـهُ ٱلشَّيْـبُ شَـرْخَ ٱلشَّبـابِ    وَلَيْـسَ يُعَـزِّيـهِ خَلْـقٌ عَلَيْـهِ

* * *

١٠١٨ ـ وَلأَبي دُلَفَ [من البسيط] :

في كُلِّ يَوْمٍ أَرىٰ بَيْضاءَ قَدْ طَلَعَتْ    كَـأَنَّمـا طَلَعَـتْ فـي نـاظِـرِ ٱلْبَصَـرِ
لَئِنْ قَصَصْتُكِ بِٱلْمِقْراضِ عَنْ بَصَرِي    لِمَا قَرَضْتُكَ عَنْ هَمِّي وَعَنْ فِكْرِي

* * *

١٠١٩ ـ وَلِمُناسَبَةِ قَصِّ ٱلشَّيْبِ نُورِدُ هُنا قَوْلَ كُشاجمَ في قَرْضِ طَلائِعِ ٱلْمَشِيبِ [من الوافر] :

نَظَـرْتُ إِلـىٰ ٱلْمِـراةِ فَـرَوَّعَتْنـي    طَـلائِـعُ شَيْبَتَيْـنِ أَلَمَّتـا بِـي(١)

---

(١) المِراةِ بِنَقْلِ حَرَكَةِ ٱلْهَمْزَةِ فَحَذْفِها .

فَـأَمَّـا شَيْبَـةٌ فَفَـزِعْـتُ مِنْهـا ... إِلىٰ ٱلْمِقْراضِ مِنْ حُبِّ ٱلتَّصابي
وَأَمَّـا شَيْبَـةٌ فَعَفَـوْتُ عَنْهـا ... لِتَشْهَـدَ بِـٱلْبَـراءَةِ مِـنْ خِضـابي
فَيـا لَـكَ مِـنْ مَشيـبٍ قَـدْ تَبـدّىٰ ... أَقَمْـتُ بِـهِ ٱلـدَّلِيـلَ عَلـىٰ شَبـابـي

* * *

١٠٢٠ ـ وَمِنْ طَريفِ ما يُرْوىٰ في هَذا ٱلْبابِ أَنَّ ٱلإِمامَ أَبا حَنيفَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قالَ لِلْحَجّامِ : ٱلْتَقِطْ هَذِهِ ٱلشَّعَراتِ ٱلْبِيضَ ؛ فَقالَ ٱلْحَجامُ : لا تَلْتَقِطْها ، فَإِنَّها تَكْثُرُ ؛ فَقالَ ٱلإِمامُ : إِذَنْ فَٱلْتَقِطِ ٱلسُّودَ ، فَلَعَلَّها تَكْثُرُ . . .

* * *

١٠٢١ ـ وَكانَ حَجّامٌ يَلْتَقِطُ ٱلْبِيضَ مِنْ لِحْيَةِ رَجُلٍ ، فَلَمّا كَثُرَ ، قالَ : ما تَرىٰ في ٱلْحَصادِ ، فَقَدْ ذَهَبَ وَقْتُ ٱلالْتِقاطِ . . .

* * *

١٠٢٢ ـ وَقالَ ٱبْنُ طَباطَبا [من الطويل] :

تَـأَوَّبَنِـي هَـمٌّ لِبَيْضـاءَ نـابِتَـهْ ... لَها بِغْضَةٌ في مُضْمَرِ ٱلْقَلْبِ ثابِتَهْ
وَمِـنْ عَجَـبٍ أَنّـي إِذا رُمْـتُ قَصَّهـا ... قَصَصْتُ سِواها وَهِيَ تَضْحَكُ شامِتَهْ

* * *

١٠٢٣ ـ وَقالَ أَبُو دُلَفَ [من السريع] :

ٱشْتَعَـلَ ٱلشَّيْـبُ فَـأَخْفَيْتُـهُ ... وَكَـلَّ مِقْـراضِـيَ فَـأَعْفَيْتُـهُ
وَكُلَّمـا عـالَجْـتُ قَصّـاً لَـهُ ... وَقُلْـتُ فـي نَفْسـي أَخْفَيْتُـهُ
طـالَعَنـي مِـنْ طُـرَّتـي طـالِـعٌ ... كَـأَنَّنـي بِـٱلأَمْـسِ رَبَّيْتُـهُ
أَرُومُ مـا لَيْسَـتْ لَـهُ حِيلَـةٌ ... أَعْيـانـي ٱلشَّيْـبُ فَخَلَّيْتُـهُ

* * *

١٠٢٤ ـ وَإِنَّكَ لَتَراهُمْ يُعَلِّلُونَ ٱلشَّيْبَ أَحْياناً بِأَنَّهُ نِتاجُ ٱلْهُمُومِ وَٱلشَّدائِدِ ، فَيَقُولُ بَعْضُهُم [ من الرمل ] :

إِنَّ شَيْبَ ٱلرَّأْسِ نَوَّارُ ٱلْهُمُومِ

* * *

١٠٢٥ ـ وَيَقُولُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ [من الكامل] :

قالَتْ : كَبِرْتَ وَشِبْتَ ، قُلْتُ لَها : هَـذا غُبارُ وَقائِعِ ٱلدَّهْرِ

* * *

١٠٢٦ ـ وَيَقُولُ أَبُو تَمّامٍ [من الخفيف] :

شابَ رَأْسي وَما رَأَيْتُ مَشيبَ ٱلرَّأْ ... سِ إِلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ ٱلْفُؤَادِ
وَكَذاكَ ٱلْقُلوبُ في كُلِّ بُؤْسٍ ... وَنَعيمٍ طَلائِعُ ٱلأَجْسادِ
زارَني شَخْصُهُ بِطَلْعَةِ ضَيْمٍ ... عَمَّرَتْ مَجْلِسي مِنَ ٱلْعُوّادِ
نالَ رَأْسي مِنْ ثُغْرَةِ ٱلْهَمِّ داءٌ ... لَمْ يَنَلْهُ مِنْ ثُغْرَةِ ٱلْميلادِ
طالَ إِنْكاري ٱلْبَياضَ وَإِنْ عُمِّرْ ... تُ شَيْئاً أَنْكَرْتُ لَوْنَ ٱلسَّوادِ

مَعْنىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلأَوَّلِ وَٱلثّاني : شابَ رَأْسي لا لِكِبَرِ سِنّي ، بَلْ لِهُمُومٍ شَمِلَتْ فُؤادي ، فَكُلُّ أَلَمٍ يَحْدُثُ بِٱلْبَدَنِ مِنْ حادِثٍ ، وَيَظْهَرُ ، فَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ بِٱلْقَلْبِ أَوَّلًا كَما أَنَّ كُلَّ ما يَقَعُ بِٱلْجَيْشِ قَدْ وَقَعَ أَوَّلًا بِطائِفِهِمْ[1] . فَٱلْقُلُوبُ أَسْبَقُ إِلىٰ حالَيِ ٱلْبُؤْسِ وَٱلنَّعيمِ ، فَهِيَ تَجْري مِنَ ٱلأَجْسادِ مَجْرىٰ ٱلطَّلائِعِ مِنَ ٱلأَجْنادِ ، وَقَوْلُهُ : زارني شَخْصُهُ . . . ٱلْبَيْتَ في نِهايَةِ ٱلْبَلاغَةِ وَٱلْحُسْنِ ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ يَقُولُ :

(١) ٱلطّائِفُ : ٱلْعَسَسُ ٱلَّذي يَتَجَسَّسُ لِلْجَيْشِ ، وَمِثْلُهُ ٱلطَّليعَةُ ، فَهُوَ بِمَعناها .

إِنَّ شَخْصَ ٱلشَّيْبِ لَمَّا زارَهُ كَثُرَ ٱلْمُتَوَجِّعونَ لَهُ ، وَٱلْمُتَأَسِّفُونَ عَلىٰ شَبابِهِ ، وَٱلْمُتَفَجِّعونَ مِنْ مُفارَقَتِهِ ، فَكَأَنَّهُمْ في مَجْلِسٍ عُوّادٌ لَهُ ، لأَنَّ مِنْ شَأْنِ ٱلْعائِدِ لِلْمَرِيضِ أَنْ يَتَوَجَّعَ وَيَتَفَجَّعَ - وَكَنىٰ بِقَوْلِهِ : « عَمَّرْتُ مَجْلسي مِنَ ٱلْعُوَّادِ » عَنْ كَثْرَةٍ مِنْ تَفَجُّعٍ وَتَوَجُّعٍ مِنْ مَشيبِهِ . وَقَوْلُهُ : « نال رَأْسي مِنْ ثُغْرَةِ ٱلْهَمِّ . . . » ٱلْبَيْتَ ، فَٱلثُّغْرَةِ : ٱلْفُرْجَةُ تكونُ في ٱلشَّيْءِ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ كُلُّ بَلَدٍ جاوَرَ عَدُوّاً ثَغْراً ، كانَ مَعْناهُ : مَكْشوفٌ لِلْعَدُوِّ ، فَأَبُو تَمَّامٍ يَقُولُ : وَجَدَ ٱلشَّيْبُ مِنَ ٱلْهَمِّ فُرْجَةً دَخَلَ عَلىٰ رَأْسي مِنْها ، لأَنَّ ٱلْهَمَّ يُشَيِّبُ لا مَحالَةَ .

وَقَوْلُهُ : « لَمْ يَنَلْهُ مِنْ نُغْرَةِ ٱلْميلادِ » أَرادَ بِثُغْرَةِ ٱلْمِيلادِ : ٱلْوَقْتَ ٱلَّذِي يَهْجُمُ عَلَيْهِ فِيهِ ٱلشَّيْبُ مِنْ عُمْرِهِ ، لأَنَّهُ يَجِدُ ٱلسَّبيلَ في ذَلِكَ ٱلْوَقْتِ إِلىٰ ٱلْحُلُولِ بِرَأْسِهِ ، فَجَعَلَهُ ثُغْرَةً مِنْ هَذا ٱلْوَجْهِ ، فَأَرادَ : أَنَّ ٱلشَّيْبَ حَلَّ بِرَأْسِهِ مِنْ جِهَةِ هُمُومِهِ وَأَحْزَانِهِ ، وَبَلَغَ مِنْ ذَلِكَ ما لَمْ يَبْلُغِ ٱلسِّنَّ ٱلَّتي تُوجِبُ حُلولَهُ بِهِ ، وَمِنْ حَيْثُ كِبَرُهُ . . . وَقَوْلُهُ : طالَ إِنْكارِيَ ٱلْبَياضَ[1] . . . ٱلْبَيْتَ ، فَالأَصْلُ في هَذا ٱلْمَعْنىٰ قَوْلُ ثَعْلَبَةَ بنِ مُوسىٰ [من البسيط] :

قَدْ كُنْتُ أَرْتاعُ لِلْبَيْضاءِ في حَلَكٍ    فَصِرْتُ أَرْتاعُ لِلسَّوْداءِ في يَقَقِ[2]

---

(١) وَقالَ ٱلْمَرْزُوقِيُّ : يَحْتَمِلُ هَذا وُجوهاً : أَحَدُها ما قالَ ٱلأَعْرابِيُّ لَمّا ٱسْتُوصِفَ حالَهُ ، فَقالَ : كُنْتُ أُنْكِرُ ٱلشَّعْرَةَ ٱلْبَيْضاءَ ، فَصِرْتُ ٱلآنَ أُنْكِرُ ٱلشَّعْرَةَ ٱلسَّوْداءَ ؛ وَٱلثّاني : إِنْ عُمِّرْتُ شَيْئاً ٱسْوَدَّ مِنْ جِلْدِي وَلَوْني ما كانَ مُبْيَضّاً فَأَنْكَرْتُهُ ، وَهَذا كَما قالَ ٱلْعُرْيانُ ٱبْنُ ٱلْهَيْثَمِ لَمّا سَأَلَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ ، عَنْ حالِهِ ، فَقالَ : ٱبْيَضَّ مِنِّي ما كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يَسْوَدَّ ، وَٱسْوَدَّ مِنِّي ما كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يَبْيَضَّ ؛ ثُمَّ قالَ [من الطويل] :

فَكُنْتُ شَبابي أَبْيَضَ ٱللَّوْنِ زاهِراً    فَصِرْتُ بُعَيْدَ أَسْوَدَ حالِكا

وَٱلثّالِثُ : إِنْ عُمِّرْتُ شَيْئاً أَنِسْتُ بِٱلْبَياضِ وَسَكَنْتُ إِلَيْهِ حَتّىٰ أَكُونَ مُنْكِراً لِلسَّوادِ كَإِنْكارِي ٱلسّاعَةَ لِلْبَياضِ .

(٢) لِلْبَيْضاءِ : ٱلشَّعْرَةُ ٱلْبَيْضاءُ ؛ وَٱلْحَلَكُ : شِدَّةُ ٱلسَّوادِ ؛ يُرِيدُ : ٱلشَّعْرَ ٱلأَسْوَدَ ؛ وَٱلْيَقَقُ : شِدَّةُ ٱلْبَياضِ .

=

وَبَعْدَهُ :

أَفْنىٰ ٱلشَّبابَ ٱلَّذي أَفْنَيْتُ جِدَّتَهُ ... كَرُّ ٱلْجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِ

لَمْ يَتْرُكا لِيَ في طُولِ ٱخْتِلافِهِما ... شَيْئاً أَخافُ عَلَيْهِ لَذْعَةَ ٱلْحَدَقِ[١]

مَنْ لَمْ يَشِبْ لَيْسَ مِمْلاقاً حَليلَتَهُ ... وَصاحِبُ ٱلشَّيْبِ لِلنِّسْوَانِ ذُو مَلَقِ[٢]

قَدْ كُنَّ يَفْرَقْنَ مِنْهُ في شَبيبَتِهِ ... فَصارَ يَفْرَقُ مِمَّنْ كانَ ذا فَرَقِ[٣]

إِنَّ ٱلْخِضابَ لَتَدْليسٌ يُغَشُّ بِهِ ... كَٱلثَّوْبِ يُطْوىٰ لِتَدْليسٍ عَلىٰ حَرَقِ

* * *

١٠٢٧ ـ وَقَدْ حَسَّنَ هَذا ٱلْمَعْنىٰ أَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّيُّ فَقَالَ [من الكامل] :

رَاعَتْكِ رَائِعَةُ ٱلْبَياضِ بِعارِضِي ... وَلَوْ أَنَّها ٱلأُولىٰ لَرَاعَ ٱلأَسْحَمُ[٤]

لَوْ كانَ يُمْكِنُني سَفَرْتُ عَنِ ٱلصِّبا ... فَٱلشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ ٱلأَوانِ تَلَثُّمُ[٥]

* * *

١٠٢٨ ـ أَمَّا قَوْلُ ثَعْلَبَةَ بْنِ مُوسىٰ : « إِنَّ ٱلْخِضابَ لَتَدْلِيسٌ يُغَشُّ بِهِ . . . » البيتَ ، فَإِنَّهُ يُرْوىٰ أَيْضاً عَلىٰ هَذا ٱلْوَجْهِ [من البسيط] :

---

(١) قَوله : « لَذْعَةَ ٱلْحَدَقِ » فَهُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ : لَذَعَتْهُ ٱلنَّارُ : إِذا لَفَحَتْهُ .

(٢) حَليلَتُهُ : مَنْ تَحالُّهُ وَتُجاوِرُهُ .

(٣) يَفْرَقْنَ مِنْهُ : يَفْزَعْنَ وَيَرْتَعْنَ مِنْ رَوْعَةِ جَمالِهِ وَرَوْقَةِ شَبابِهِ .

(٤) رائِعَةُ ٱلْبَياضِ : ٱلشَّعْرَةُ ٱلَّتي تَرُوعُ ٱلنَّاظِرَ ، وَتُرْوىٰ : راعِيَةُ ٱلْبَياضِ ، وَٱلرَّاعِيَةُ مِنَ ٱلشَّعَرِ : أَوَّلُ شَعْرَةٍ تَطْلُعُ مِنَ ٱلشَّيْبِ ، قَالَ [من البسيط ] :

أَهْلًا بِراعِيَةٍ لِلشَّيْبِ واحِدَةٍ ... تَنعىٰ ٱلشَّبابَ وَتَنْهانا عَنِ ٱلغَزَلِ

(٥) يَقُولُ : لَوْ أَمْكَنَني أَنْ أُظْهِرَ صِبايَ لَكَشَفْتُ عَنْهُ ، فَإِنِّي حديثُ ٱلسِّنِّ وَلَكِنَّ ٱلشَّيْبَ جارَ عَليَّ عاجِلًا فَسَتَرَ شَبابي ، فَكَأَنَّهُ تَلَثَّمَ بِسَتْرِ ما تَحْتَهُ مِنَ ٱلسَّوادِ ، يَعْني : إِنَّ عَلىٰ شَبابِهِ لِثاماً مِنَ ٱلشَّيْبِ ٱلَّذي عَجَّلَ إِلَيْهِ قَبْلَ وَقْتِهِ .

شَيْـبٌ تُغَيِّبُـه عَمَّـنْ تَغُـرُّ بِـهِ     كَبَيْعِكَ ٱلثَّوْبَ مَطْوِيّا عَلىٰ حَرَقِ

* * *

١٠٢٩ ـ وَٱلَّذي يَعْنينا هُوَ قَوْلُهُمْ في ٱلْخِضابِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱبْنِ ٱلرُّومي [من الخفيف] :

يـا بَيـاضَ ٱلْمَشيـبِ سَـوَّدْتَ وَجْهِـي     عِنْـدَ بِيـضِ ٱلْـوُجُـوهِ سُـودِ ٱلْقُـرُونِ
فَلَعَمْـري لأُخْفِيَنَّـكَ جُهْـدِي     عَـنْ عِيـانِـي وَعَـنْ عيـانِ ٱلْعُيُـونِ
وَلَعَمْـري لأَمْنَعَنَّـكَ أَنْ تَضْحَـ     ـكَ فـي رَأْسِ آسِـفٍ مَحْـزُونِ
بِخِضـابٍ فيـهِ ٱبْيِضـاضٌ لِـوَجْهِـي     وَسَـوَادٌ لِـوَجْهِـكَ ٱلْمَلْعُـونِ

* * *

١٠٣٠ ـ وَقالَ آخَرُ [من الخفيف] :

إِنَّ شَيْئـاً صَـلاحُـهُ بِـٱلْخِضـابِ     لَعَـذَابٌ مُـوَكَّـلٌ بِعَـذابِ
وَلعَمْـرُ ٱلإِلَـهِ لَـوْلا هَـوَىٰ ٱلْبِيْـ     ـضِ وَأَنْ تَشْمَئِزَّ نَفْسُ ٱلْكِعَـابِ
لأَرَحْتُ ٱلْخَدَّيْنِ مِنْ وَضَرِ ٱلْخِطْـ     ـرِ وَأَذْعَنْـتُ لانْقِضـاءِ ٱلشَّبـابِ(١)

* * *

١٠٣١ ـ وَقيلَ لأَعْرابيٍّ : أَلَا تَخْضِبُ بِٱلْوَسْمَةِ ؟ فَقالَ : لِمَ ذاكَ ؟ فَقالَ : لِتَصْبُوَ إِلَيْكَ ٱلنِّساءُ ؛ فَقالَ : أَمَّا نِساؤُنا فَما يُرِدْنَ مِنّا بَدِيلًا ، وَأَمَّا غَيْرُهُنَّ فَما نَلْتَمِسُ صَبْوَتَهُنَّ .

* * *

---

(١) ٱلْخِطْر : نَباتٌ يُجْعَلُ وَرَقُهُ في ٱلْخِضابِ ٱلأَسْوَدِ ، يُخْتَضَبُ بِهِ .

١٠٣٢ ـ وَقَالَ ٱلْعُتْبِيُّ [من الوافر] :

وَقَـائِلَـةٍ : تُبَيِّـضُ وَٱلْغَـوَانـي نَـوافِـرُ عَـنْ مُعَـالَجَـةِ ٱلْقَتِيـرِ (١) ؟
عَلَيْـكَ ٱلْخِطْـرَ عَلَّـكَ أَنْ تَـدانـىٰ إلَـىٰ بيـضٍ تَـرائِبُهُـنَّ حُـورِ
فَقُلْتُ لَها : ٱلْمَشيبُ نُذيرُ عُمْري وَلَسْـتُ مُسَـوِّداً وَجْـهَ ٱلنَّـذيـرِ

* * *

١٠٣٣ ـ وَقَالَ يَزيدُ بْنُ مُحمدٍ ٱلْمُهَلَّبِيُّ [من الوافر] :

صَبَغْـتُ ٱلـرّاسَ خَتْـلاً لِلْغَـوانِـي كَما غَطَّىٰ عَلىٰ ٱلرِّيْبِ ٱلْمُريبُ (٢)
أُسَـوِّفُ تَـوْبَتـي خَمْسيـنَ عـامـاً وَظَنِّـي أَنَّ مِثْلِـي لا يَتُـوبُ
يُقَـوَّمُ بِـٱلثِّقـافِ ٱلْعُـودُ لَـدْنـاً وَلا يَتَقَـوَّمُ ٱلْعُـودُ ٱلصَّليـبُ (٣)

* * *

١٠٣٤ ـ وَقِيلَ لأَفْلاطُونَ Platon : لِمَ ٱخْتَضَبَ فُلانٌ ؟ فَقَالَ : كَرِهَ أَنْ يُؤْخَذَ بِحِنْكَةِ ٱلْمَشايخِ .

* * *

١٠٣٥ ـ وَقِيلَ لأَعْرابِيَّةٍ : فُلانٌ يَخْتَضِبُ ؛ فَقَالَتْ : لا يُنالُ ٱلشَّبابُ بِٱلْخِضَابِ كَما لا يُنالُ ٱلْغِنىٰ بِٱلْمُنىٰ .

* * *

(١) قَوْلُهُ : « تُبَيِّضُ » تُريدُ : أَتَرْضىٰ بِبَياضِ ٱلشَّيْبِ ؛ وَ« القَتِيرُ » في ٱلأَصْلِ : رُؤُوسُ مَسامِيرِ حَلَقِ ٱلدِّرْعِ ، يُشْبِهُ ٱلشَّيْبَ إِذا ظَهَرَ في سَوادِ ٱلشَّعْرِ ، وَ« مُعَالَجَةِ » لَكَ أَنْ تَقْرَأَهُ بِفَتْحِ ٱللامِ ، فَيَكُونُ مَصْدَراً ، أَوْ بِكَسْرِها عَلىٰ أَنَّهُ ٱلْجَماعَةُ ٱلَّتي تُعالِجُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ .

(٢) خَتْلاً ، مَصْدَرُ خَتَلَ ٱلصَّائِدُ ٱلصَّيْدَ : إِذا ٱسْتَتَرَ عَنْهُ بِشَيْءٍ ، ثُمَّ جُعِلَ مَثَلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وُرِّيَ بِغَيْرِهِ وَسُتِرَ عَلىٰ صاحِبِهِ ؛ وَ« ٱلرِّيْبُ » : ٱلظِّنَّةُ وَٱلتُّهْمَةُ .

(٣) « ٱلثِّقَافُ » : خَشَبَةٌ قَوِيَّةٌ قَدْرَ ذِراعٍ ، في طَرَفِها يَدْخَلُ فِيهِ ما يُرادُ تَقْوِيمُهُ مِنْ رُمْحٍ أَوْ قَوْسٍ ، وَٱللَّدْنُ : ٱللَّيِّنُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

١٠٣٦ ـ وَقالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الكامل] :

يـا أَيُّهـا ٱلـرَّجُـلُ ٱلْمُسَـوِّدُ وَجْهَـهُ كَيْمـا يُعَـدُّ بِـهِ مِـنَ ٱلشُّبَّـانِ
أَقْصِـرْ فَلَـوْ سَـوَّدْتَ كُـلَّ حَمَـامَـةٍ بَيْضـاءَ مـا عُـدَّتَ مِـنَ ٱلْغِـرْبـانِ

* * *

١٠٣٧ ـ وَقَدْ مَدَحَ آخَرونَ ٱلْخِضابَ ، فَقَدْ وَرَدَ في ٱلأَثَرِ : « ٱخْتَضِبُوا بِٱلسَّوَادِ ، فَإِنَّهُ أَسْكَنُ لِلزَّوْجَةِ ، وَأَهْيَبُ لِلْعَدُوِّ » .

* * *

١٠٣٨ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [ من الكامل ] :

ٱلشَّيْبُ ضَيْفُكَ فَٱقْرِهِ بِخِضابِ

* * *

١٠٣٩ ـ وَقَال آخَرُ [من الكامل] :

إِنَّ ٱلْخِضابَ هُوَ ٱلشَّبابُ ٱلثَّاني

* * *

١٠٤٠ ـ وَقَال شاعِرٌ [من الطويل] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلشَّيْبَ قَدْ شاكَ أَهْلَهُ تَقَنَّعْـتُ وَٱبْتَعْـتُ ٱلشَّبـابَ بِـدِرْهَـمِ

* * *

١٠٤١ ـ وَقالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَقَدْ ناقَضَ بِذَلِكَ مُحْمُودَ ٱلوَرَّاقَ حِينَ قالَ [من مجزوء الكامل] :

يـا خـاضِـبَ ٱلشَّيْـبِ ٱلَّـذي فـي كُـلِّ ثـالِثَـةٍ يَعُـودْ

إِنَّ ٱلنُّصُولَ إِذا بَدَا ... فَكَأَنَّهُ شَيْبٌ جَدِيدْ
وَلَهُ بَدِيهَةُ رَوْعَةٍ ... مَكْرُوهُها أَبَداً عَتِيدْ
فَدَعِ ٱلْمَشيبَ لِمَا أَرَا ... دَ فَلَنْ يَعُودَ لِمَا تُرِيدْ

* * *

١٠٤٢ ـ فَقَالَ [من المتقارب] :

وَقَالوا : ٱلنُّصُولُ شَيْبٌ جَدِيدٌ ! ... فَقُلْتُ : ٱلْخِضابُ شَبابٌ جَديدْ !
إِساءَةُ هَذا بِإِحْسانِ ذا ... فَإِنْ عادَ هَذا فَهَذا يَعُودْ

* * *

١٠٤٣ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

رَأَيْتُ خِضابَ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ مَشيبِهِ ... حِداداً علىٰ شَرْخِ ٱلْمَشيبَةِ يُلْبَسُ
وَإِلّا فَما يَغْزُو ٱمْرُؤٌ بِخِضابِهِ ... أَيَطْمَعُ أَنْ يَخْفىٰ شَبابٌ مُدَلَّسُ
وَكَيْفَ بِأَنْ يَخْفىٰ ٱلمَشيبُ لِخَاضِبٍ ... وَكُلُّ ثَلاثٍ صُبْحُهُ يَتَنَفَّسُ
وَهَبْهُ يُوَاري شَيْبَهُ أَيْنَ ماؤُهُ ... وَأَيْنَ أَديمٌ لِلشَّبيبَةِ أَمْلَسُ

* * *

١٠٤٤ ـ وَقِيلَ لِبَعْضِ ٱلحُكَماءِ : قَدْ شِبْتَ وَأَنْتَ شابٌّ فَلِمَ لا تَخْضِبُ ؟ فَقالَ : إِنَّ ٱلثَّكْلىٰ لا تَحْتاجُ إِلىٰ ٱلْماشِطَةِ .

* * *

١٠٤٥ ـ وَرَأَيْتُ أَبْياتاً ضَعيفَةً في ٱلاعْتِذارِ عَنِ ٱلْخِضابِ أَوْرَدَها ياقُوتُ في « مُعْجَمِ ٱلأُدَباءِ » في تَرْجَمَةِ ٱلإِمامِ أَبي عَلِيٍّ ٱلْفارِسِيِّ ، وَقالَ : إِنَّهُ ـ أَيْ : أَبا عَلِيٍّ ـ لا يُعْرَفُ لَهُ شِعْراً غَيْرُها ، وَهِيَ [من الوافر] :

خَضَبْتُ ٱلشَّيْبَ لَمّا كانَ عَيْباً وَخَضْبُ ٱلشَّيْبِ أَوْلىٰ أَنْ يُعابا
وَلَمْ أَخْضِبْ مَخافَةَ هَجْرِ خِلٍّ وَلا عَيْباً خَشيتُ وَلا عِتابا
وَلَكِنَّ ٱلْمَشيبَ بَدَا ذَميماً فَصَيَّرْتُ ٱلْخِضابَ لَهُ عِقابا

* * *

١٠٤٦ ـ وَقيلَ لأَعْرابيٍّ : ألا تُغَيِّرُ شَيْبَكَ بِٱلْخِضابِ ؟ فَقَالَ : بَلىٰ ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ مَرَّةً ثُمَّ لَمْ يُعاوِدْ ، فَقيلَ لَهُ : لِمَ لا تُعاوِدُ ٱلْخِضابَ ؟ فَقال : يا هَناهُ[1] ، لَقَدْ شُدَّ لَحْيايَ[2] إِخالُني مَيْتاً .

* * *

١٠٤٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الكامل] :

قُلْ لِلْمُسَوِّدِ حينَ سَوَّدَ : هَكَذا غِشُّ ٱلْغَوانِي في ٱلْهَوىٰ إِيّاكا
كَذَبَ ٱلْغَوانِيَ في سَوادِ عِذارِهِ فَكَذَبْنَهُ في وُدِّهِنَّ كَذاكا

* * *

١٠٤٨ ـ وَقَالَ أَيْضاً [من الطويل] :

إِذا دامَ لِلْمَرْءِ ٱلسَّوادُ وَلَمْ تَدُمْ غَضارَتُهُ ظَنَّ ٱلسَّوادَ خِضابا
فَكَيْفَ يَظُنُّ ٱلشَّيْخُ أَنَّ خِضابَهُ يُظَنُّ سَواداً أَوْ يُخالُ شَبابا

* * *

١٠٤٩ ـ وَقَالَ [من مخلّع البسيط] :

---

(١) « يا هَناهُ » كَلِمَةٌ لا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا في ٱلنِّداءِ ، وَٱلأَصْلَ : يا هَنُ ، فَأَلْحَقُوهُ أَلِفَ إِشْباعٍ وَهاءَ سَكْتٍ تُضَمُّ أَوْ تُبْدَلُ في ٱلأَصْلِ تاءً مَضْمُومَةً تَشْبيهاً بِحَرْفِ الإِعْرابِ ، وَمَعْناهُ : يا رَجُلُ .
(٢) كَأَنَّهُمْ كانوا يَضَعُونَ ٱلْخِضابَ في خِرْقَةٍ يُشَدُّ بِها ٱللَّحْيَانِ .

لَـمْ أَخْضِـبِ ٱلشَّيْـبَ لِلْغَـوَانِـي أَبْغِـي بِـهِ عِنْـدَهُـنَّ وِدادا
لَكِـنْ خِضـابـي عَلـىٰ شَبـابـي لَبِسْـتُ مِـنْ بَعْـدِهِ حِـدادا

* * *

١٠٥٠ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الوافر] :

تَسَتَّـرَ بِـٱلْخِضـابِ وَأَيُّ شَـيْءٍ أَدَلُّ عَلـىٰ ٱلْمَشِيبِ مِنَ ٱلْخِضـابِ

* * *

١٠٥١ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من البسيط] :

وَمِنْ هَوَىٰ كُلِّ مَنْ لَيسَتْ مُمَوِّهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشيبي غَيْرَ مَخْضوبِ
وَمِنْ هوىٰ ٱلصِّدْقِ في قَوْلي وَعادَتِهِ رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ في ٱلْوَجْهِ مَكْذوبِ

* * *

١٠٥٢ ـ وَمِنْ قَوْلِهِمْ في مَدْحِ ٱلْخِضابِ مَا جاءَ في ٱلأَثَرِ : « غَيِّرُوا ٱلشَّيْبَ وَجَنِّبُوهُ ٱلسَّوَادَ » [« مسند الإمام أحمد » ، رقم : ١٣١٧٦] .

يَقُولُ : لَوِّنُوا ٱلشَّيْبَ بِنَحْوِ حِنَّاء أَوْ كَتَمٍ وَلا تَقْرُبُوا ٱلسَّوَادَ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ ﷺ لَمَّا جِيءَ بِأَبي قُحافَةَ والِدِ أَبي بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقِ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ ، وَكَأَنَّ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ ثُغامَةٌ بَيْضاءُ، فَقالَ ﷺ ذَلِكَ ؛ قَالَ ٱبْنُ حَجَرٍ [« فتح الباري »، رقم: ٥٨٩٩ ]: يُسْتَحَبُّ ٱلْخِضابُ إِلَّا إِنْ كانَتْ عادَةُ أَهْلِ بَلَدِهِ تَرْكَ ٱلصِّبْغِ ، فَإِنَّ مَنْ يَنْفَرِدُ بِهِ عَنْهُمْ يَصيرُ شُهْرَةً ـ مَفْضوحاً ـ فَٱلتَّرْكُ أَوْلىٰ ، وَقَدْ رَوَوْا أَنَّ ٱلْمُصْطَفىٰ ﷺ لَمْ يَخْضِبْ ، وَكَذا جَمْعٌ مِنَ ٱلصَّحابَةِ .

* * *

١٠٥٣ ـ وَسُئِلَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبي طَالِبٍ عَنْ قَوْلِ ٱلرَّسُولِ : « غَيِّروا ٱلشَّيْبَ

وَلا تَشَبَّهُوا بِٱلْيَهُودِ » [ الترمذي ، رقم : ١٧٥٢] ، فَقالَ : إِنَّما قالَ ﷺ ذَلِكَ وَٱلدِّينُ قُلٌّ ، فَأَمّا ٱلآنَ وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطاقُهُ وَضَرَبَ بِجِرانِهِ فَٱمْرُؤٌ وَما ٱخْتارَ .

غَيِّرُوا ٱلشَّيْبَ ، أَيْ : بِٱلْخِضابِ ، لِيَراكُمُ ٱلأَعْداءُ كُهُولًا أَقْوِياءَ ؛ وَقُلٌّ : أَيْ : قَليلٌ أَهْلُهُ ؛ وَٱلنِّطاقُ : ٱلْحِزامُ ٱلْعَريضُ ؛ وَٱتِّساعُهُ : كِنايَةٌ عَنِ ٱلانْتِشارِ ؛ وَٱلْجِرانُ : مُقَدَّمُ عُنُقِ ٱلْبَعيرِ يَضْرِبُ بِهِ عَلىٰ ٱلأَرْضِ إِذا ٱسْتَراحَ وَتَمَكَّنَ ، أَيْ : بَعْدَ قُوَّةِ ٱلإِسْلامِ ، إِنْ شاءَ ٱلإِنْسانُ خَضَبَ وَإِنْ شاءَ تَرَكَ .

* * *

١٠٥٤ ـ وَقالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من الطويل] :

وَما خَضَبَ ٱلنّاسُ ٱلْبَياضَ لأَنَّهُ ... قَبيحٌ وَلَكِنْ أَحْسَنُ ٱلشَّعْرِ فاحِمُهْ

* * *

١٠٥٥ ـ وَقالَ مَحْمُودُ ٱلْوَرّاقُ [من الكامل] :

لِلضَّيْفِ أَنْ يُقْرىٰ وَيُعْرَفَ حَقُّهُ ... وَٱلشَّيْبُ ضَيْفُكَ فَٱقْرِهِ بِخِضابِ

[ راجع رقم : ١٠٩٣ ] .

* * *

١٠٥٦ ـ وَهُناكَ مَنْ لا يَأْبَهُ لِلشَّيْبِ وَلا يَرْعَوي عَنِ ٱلتَّصابي ، فَيَلْهُو وَيَلْعَبُ كَأَنَّهُ في مَيْعَةِ ٱلصِّبا وَجِنِّ ٱلشَّبابِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَهاوَنَ بِٱلشَّيْبِ ٱلشّاعِرُ جَريرُ إِذْ يَقُولُ [من الوافر] :

يَقُولُ ٱلْعاذِلاتُ : عَلاكَ شَيْبٌ ... أَهَذا ٱلشَّيْبُ يَمْنَعُني مَراحي

* * *

١٠٥٧ ـ وَتَبِعَهُ ٱلنّاسُ ، فَمِنْ أَحْسَنِهِمْ قَوْلًا في ذَلِكَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ حَيْثُ يَقُولُ [من الخفيف] :

لاحَ شَيْبِـي فَـرُحْـتُ أَمْـرَحُ فيـهِ مَرَحَ ٱلطِّرْفِ في ٱلْعِذارِ ٱلْمُحَلَّىٰ[1]
وَتَـوَلّـىٰ ٱلشَّبـابُ فَـازْدَدْتُ رَكْضـاً فـي مَيـاديـنِ بـاطِلـي إِذْ تَـوَلَّـىٰ
إِنْ مَـنْ سـاءَهُ ٱلـزَّمـانُ بِشَـيْءٍ لأَحَـقُّ ٱمْـرِىءٍ بِـأَنْ يَتَسَلَّـىٰ

* * *

١٠٥٨ ـ وَقالَ إِبْراهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ [من الطويل] :

أَلَا طَـرَقَتْنـا آخِـرَ ٱللَّيْـلِ زَيْنَـبُ عَلَيْكَ سَلامٌ هَلْ لِما فاتَ مَطْلَبُ
وَقـالَـتْ : تَجَنَّبْنـا وَلا تَقْـرَبَنَّـا وَكَيْـفَ وَأَنْتُـمْ حـاجَتـي أَتَجَنَّـبُ
يَقُولونَ : هَلْ بَعْدَ ٱلثَّلاثينَ مَلْعَبٌ فَقُلْتُ : وَهَلْ قَبْلَ ٱلثَّلاثِينَ مَلْعَبُ
لَقَدْ جَلَّ قَدْرُ ٱلشَّيْبِ إِنْ كانَ كلَّما بَدَتْ شَيْبَةٌ يَعْرىٰ مِنَ ٱللَّهْوِ مَرْكَبُ

* * *

١٠٥٩ ـ وَقِيلَ لِسَلْمٍ ٱلْخاسِرِ : ما أَكْبَرُ ما صَنَعَ بِكَ ٱلشَّيْبُ ! فَقَالَ : ما صَنَعْتُ بِهِ أَكْبَرُ ، وَٱللهِ ما هِبْتُهُ وَلا رَعَيْتُهُ وَلا ٱمْتَنَعْتُ لَهُ عَنْ تَعاطِي مَحَرَّمٍ وَٱرْتِكابِ مَأْثَمٍ .

* * *

١٠٦٠ ـ ولأَبي بَكْرٍ ٱلْخَوارِزْمِيِّ ٱلْكاتِبِ ٱلشَّاعِرِ ٱلأَدِيبِ ٱلأَشْهَرِ ، وهُوَ مَعْنىٰ غَريبٌ [من الطويل] :

قَالُوا : أَفِقْ مِنْ سَكْرَةِ ٱللَّهْوِ وَٱلصِّبا فَقَـدْ لاحَ صُبْـحٌ فـي دُجـاكَ عَجِيـبُ
فَقُلْتُ لَهُمْ : كُفُّوا ٱلْمَلَامَ وَأَقْصِرُوا فَـإِنَّ ٱلْكَـرىٰ عِنْـدَ ٱلصَّبـاحِ يَطِيـبُ

* * *

---

(١) ٱلطِّرْفُ مِنَ ٱلْخَيْلِ : ٱلْكَرِيمُ ٱلْعَتِيقُ ؛ وَٱلْعِذارُ هُنا : ٱللِّجامُ ؛ وَٱلْمُحَلّىٰ أي : ٱلْمُحَلَّىٰ بِٱلْفِضَّةِ .

١٠٦١ ـ وَقَالَ ٱلطُّغرائِيُّ [من المنسرح] :

قَـدْ كـانَ لِـي فـي شَيْبَتِـي فَـرَحٌ يَحْـدُثُ لِـي بَغْتَـةً بِـلا سَبَـبِ
فَمُـذْ تَـوَلّـىٰ ٱلصِّبـا تَبَيَّـنَ لـي أَنَّ ٱلصِّبـا كـانَ مُـوجِـبَ ٱلطَّـرَبِ
حَـظٌّ تَـوَلّـىٰ فَلَسْـتُ أُدْرِكُـهُ إِلَّا بِعَـوْنٍ مِـنِ ٱبْنَـةِ ٱلْعِنَـبِ
فَهـاتِهـا مِـنْ شَيْبَتـي بَـدَلًا أَقْـضِ بِهـا بَعْـضَ ذَلِـكَ ٱلأَرَبِ
صَفْـراءُ مِثْـلُ ٱلنُّضـارِ أَلْبَسَهـا مِـزاجُهـا لُـؤْلُـؤاً مِـنَ ٱلْحَبَـبِ
فَـأَسْعَـدُ ٱلنَّـاسِ مَـنْ حَـوَتْ يَـدُهُ مـا شـاءَ مِـنْ لُـؤْلُـؤٍ وَمِـنْ ذَهَـبِ

* * *

١٠٦٢ ـ وَقَالَ بَهاءُ ٱلدِّينِ زُهَيْرُ وَقَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ ٱلسِّنُّ [من مجزوء الكامل] :

قَـالُـوا كَبِـرْتَ عَـنِ ٱلصِّبـا وَقَطَعْـتَ تِلْـكَ ٱلنَّـاحِيَـهْ
فَـدَعِ ٱلصِّبـا لِـرِجـالِـهِ وَٱخْلَـعْ ثِيـابَ ٱلْعـادِيَـهْ
وَنَعَـمْ كَبِـرْتُ وَإِنَّمـا تِلْـكَ ٱلشَّمـائِـلُ بـاقِيَـهْ
وَتَفُـوحُ مِـنْ عِطْفَـيَّ أَنْـ ـفـاسُ ٱلشَّبـابِ كَمـا هِيَـهْ
وَيَمِيـلُ بـي نَحْـوَ ٱلصِّبـا قَلْـبٌ رَقِيـقُ ٱلْحَـاشِيَـهْ
فِيـهِ مِـنَ ٱلطَّـرَبِ ٱلْقَـدِيـ ـمِ بَقِيَّـةٌ فـي ٱلـزَّاوِيَـهْ
[ ٱلشَّـوْقُ نـارٌ حـامِيَـهْ وَلَقَـدْ تَـزايَـدَ مَـا بِيَـهْ ]

* * *

١٠٦٣ ـ وَمِنْ أَجْمَلِ ما وَرَدَ في ٱلتَّرْحِيبِ بِٱلشَّيْبِ قَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ زِيادٍ ٱلْكاتِبِ ، وَقيلَ لِيَحْيَىٰ بْنِ زِيادِ ٱلْحارِثِيِّ [من الطويل] :

وَلَمّـا رَأَيْـتُ ٱلشَّيْـبَ حَـلَّ بَيـاضُـهُ بِمَفْـرِقِ رَأْسِ قُلْـتُ لِلشَّيْـبِ مَـرْحَبـا

وَلَوْ خِلْتُ أَنِّي إِن كَفَفْتُ تَحِيَّتي تَنكَّبَ عَنِّي رُمْتَ أَنْ يَتَنكَّبا
وَلَكِنْ إِذا ما حَلَّ كُرْهٌ فَسامَحَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ يَوْماً كانَ لِلْكُرْهِ أَذْهَبا

* * *

١٠٦٤ ـ وَلِمُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ في نَحْوِهِ [من البسيط] :

ٱلشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ يُفارِقَني أَعْجِبْ بِشَيْءٍ عَلىٰ ٱلْبَغْضاءِ مَوْرُودِ
يَمْضي ٱلشَّبابُ وَقَدْ يَأْتي لَهُ خَلَفٌ وَٱلشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقوداً بِمَفْقودِ

* * *

١٠٦٥ ـ وَقالَ آخَرُ في بابٍ مِنْ أَبْوابِ مَنْ لَمْ يَحْفِلْ بِحُلُولِ ٱلشَّيْبِ :

وَتَنكَّرَتْ شَيْبي فَقُلْتُ لَها لَيْسَ ٱلْمَشِيبُ بِناقِصٍ عُمُري
سِيّانَ شَيْبي وَٱلشَّبابُ إِذا ما كُنْتُ مِنْ أَجَلي عَلىٰ قَدَرِ

* * *

١٠٦٦ ـ وَقالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيىٰ ٱلصُّولي ، وَكانَ قَدِ ٱنْحَدَرَ مَعَ ٱلْمُكْتَفي بِٱللهِ ٱلْخَليفَةِ ٱلْعَبّاسي في سَفينَةٍ لِلصَّيْدِ ، وَمَعَهُما يَحْيىٰ بْنُ عَلي ٱلْمُنَجِّمْ وَآخَرُونَ ، ثُمَّ أَجْرَوا ذِكْرَ ٱلشَّيْبِ ، فَنَزَعَ ٱلْمُكْتَفي عِمامَتَهُ ، فَإِذا شَيْبَتانِ في مُقَدَّمِ رَأْسِهِ ، فَقالَ : لَقَدْ غَمَّني طُلُوعُ هاتَيْنِ ٱلشَّيْبَتَيْنِ ؛ فَقالَ لَهُ ٱلصُّولي : إِنَّما يَعيشُ ٱلنّاسُ في ٱلشَّيْبِ ، فَأَمّا ٱلسَّوادُ فَلا يَصْحَبُ ٱلنّاسُ خالِصاً أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعينَ سَنَةً إِلىٰ خَمْسينَ ، وَقَدْ يُعاشُ في ٱلْبَياضِ ٱلَّذي لا سَوادَ فيهِ ثَمانونَ سَنَةً ؛ فَأَنْشَدَهُ يَحْيىٰ ٱبْنُ عَلِيٍّ ٱلْمُنَجِّمُ في مَعْنىٰ طُولِ ٱلْعُمُرِ مَعَ ٱلشَّيْبِ قَوْلَ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

أَلا إِنَّ بَعْدَ ٱلْعُدْمِ لِلْمَرْءِ قِنْوَةً وَبَعْدَ ٱلْمَشِيبِ طُولَ عُمْرٍ وَمَلْبَسا[1]

---

(١) ٱلْقِنْوَةُ : بِكَسْرِ ٱلْقافِ وَضَمِّها : ما يُقْتَنىٰ وَيُكْتَسَبُ ؛ وَٱلْمَلْبَسُ : ما يُلْبَسُ مِنَ ٱلثِّيابِ .

وَأَنْشَدْتُهُ أَنا أَيضاً أَبْياتاً أَنْشَدَها إِسْحاقُ بْنُ إِبْراهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيُّ لِبَعْضِ ٱلْقَيْسِيِّينَ [من الكامل] :

ٱلشَّيْـبُ إِنْ يَظْهَـرْ فَـإِنَّ وَرَاءَهُ عُمْـراً يَكُـونُ خِـلالَـهُ مُتَنَفَّـسُ
لَـمْ يَنْتَقِـصْ مِنِّـي ٱلْمَشِيـبُ قُـلامَـةً وَلَنَحْـنُ حِيـنَ بَـدا أَلَـبُّ وَأَكْيَـسُ

* * *

١٠٦٧ ـ وَقَالَ رُؤْبَةُ بْنُ ٱلْعَجَّاجِ [من الخفيف] :

أَيُّهـا ٱلشَّـامِـتُ ٱلْمُعَيِّـرُ بِـٱلشَّيْـ ـبِ أَقِلَّـنَّ بِـٱلشَّبـابِ ٱفْتِخـارا
قَـدْ لَبِسْـتُ ٱلشَّبـابَ غَضّـاً جَـديـداً فَـوَجَـدْتُ ٱلشَّبـابَ ثَـوْبـاً مُعـارا

* * *

١٠٦٨ ـ وَقَالَ أَبُو تَمّامٍ [من البسيط] :

أَبْدَتْ أَسىً أَنْ رَأَتْني مُخْلِسَ ٱلْقُصَبِ وَآلَ ما كانَ مِنْ عُجْبٍ إِلىٰ عَجَبِ[1]
لا تُنْكِـري مِنْـهُ تَخْـديـداً تَخَلَّلَـهُ فَٱلسَّيْفُ لا يُزْدَرىٰ إِنْ كانَ ذا شُطَبِ[2]
وَلا يُـؤَرِّقْـكِ إِيمـاضُ ٱلْقَتِيـرِ بِـهِ فَـإِنَّ ذاكَ ٱبْتِسـامُ ٱلـرَّأْيِ وَٱلأَدَبِ[3]

* * *

## عَبْقَرِيّاتُهُمْ في مَدْحِ ٱلشَّيْبِ غَيْرُ ما أَسْلَفْنا :

١٠٦٩ ـ وَلْنَعْطِفْ عَلىٰ عَبْقَرِياتِهِمْ في مَدْحِ ٱلشَّيْبِ : قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ

---

(١) أَخْلَسَ رَأْسُهُ ، فَهُوَ مُخْلِسٌ وَخَلِيسٌ : إِذا كانَ فِيهِ بَياضٌ وَسَوَادٌ ؛ وَٱلْقُصَبُ جَمْعُ قَصَبَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْخُصْلَةُ ٱلْمُلْتَوِيَةُ مِنَ ٱلشَّعْرِ .

(٢) ٱلتَّخْدِيدُ : ٱلتَّشَنُّجُ وَٱلْهُزَالُ ؛ وشُطَبُ ٱلسَّيْفِ : طَرَائِقُهُ ٱلَّتي تَلْمَعُ مِنْ شِدَّةِ جَرَيانِ مائِهِ وَصَفاءِ فِرِنْدِهِ .

(٣) ٱلْقَتِيرُ : ٱلشَّيْبُ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذا ٱلْبَيْتُ في هَذا ٱلْبابِ .

صاحِبُ « ٱلْعِقْدِ » [من الوافر] :

كَأَنَّ سَوَادَ لِمَّتِهِ ظَلامٌ يُطِلُّ مِنَ ٱلْمَشِيبِ عَلَيْهِ نُورُ

* * *

١٠٧٠ ـ وَقَالَ أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلأَسْباطِي [من الخفيف] :

لا يُرِعْكِ ٱلْمَشيبُ ، يا ٱبْنَةَ عَبْدِ ٱللَّـ ـهِ فَٱلشَّيْبُ زِينَةٌ وَوَقارُ !
إِنَّما تَحْسُنُ ٱلرِّياضُ إِذا ما ضَحِكَتْ في ظِلالِها ٱلأَنْوارُ

* * *

١٠٧١ ـ وَقَالَ أَبُو عَوَانَةَ ٱلْكَاتِبُ [من الخفيف] :

هَزِئَتْ إِذْ رَأَتْ مَشيبي ، وَهَلْ غَـ ـيْرَ ٱلْمَصابيحِ زِينَةٌ لِلسَّماءِ
وَتَوَلَّتْ فَقُلْتُ قَوْلاً بِإِفْصا حٍ لَها ، لا بِٱلرَّمْزِ وَٱلإِيماءِ
إِنَّما ٱلشَّيْبُ في ٱلْمَفارِقُ كَٱلنُّو رِ بَدَا وَٱلسَّوَادُ كَٱلظَّلْماءِ
لا مَحيصٌ عَنِ ٱلْمَشيبِ أَوْ ٱلْمَوْ تِ فَكُنْ لِلْحَوْباءِ أَوْ لِلنَّماءِ
إِنَّ عُمْراً عُوِّضْتُ فِيه عَنِ ٱلْمَوْ تِ بِشَيْبٍ مِنْ أَعْظَمِ ٱلنَّعْماءِ

* * *

١٠٧٢ ـ وَتَأَمَّلَ حَكيمٌ شَيْبَهُ ، فَقَالَ : مَرْحَباً بِزَهْرَةِ ٱلْحِكْمَةِ ، وَيُمْنِ ٱلْهُدىٰ ، وَمُقَدَّمَةِ ٱلْعِفَّةِ ، وَلِباسِ ٱلتَّقْوىٰ .

* * *

١٠٧٣ ـ وَدَخَلَ أَبُو دُلَفَ عَلىٰ ٱلْمَأْمُونِ وَعِنْدَهُ جارِيَةٌ لَهُ ، وَكَانَ أَبُو دُلَفَ قَدْ تَرَكَ ٱلْخِضابَ ، فَأَشَارَ ٱلْمَأْمُونُ إِلىٰ ٱلْجارِيَةِ ، فَقالَتْ لَهُ : شِبْتَ يا أَبا دُلَفَ ، إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ؛ فَسَكَتَ عَنْها أَبُو دُلَفَ ، فَقَالَ لَهُ

ٱلْمَأْمُونُ : أَجِبْها ؛ فَقَالَ [ وتنسب الأبيات لدعبل الخزاعي ، من البسيط] :

تَهَزَّأَتْ إِذْ رَأَتْ شَيْبي ، فَقُلْتُ لَها : لا تَهْزَئِي مَنْ يَطُلْ عُمْرٌ بِهِ يَشِبِ
شَيْبُ ٱلرِّجالِ لَهُمْ زَيْنٌ وَمَكْرُمَةٌ وَشَيْبُكُنَّ لَكُنَّ ٱلْوَيْلُ فَٱكْتَئِبي
فِينا لَكُنَّ ـ وَإِنْ شَيْبٌ بَدا ـ أَرَبٌ وَلَيْسَ فِيكُنَّ بَعْدَ ٱلشَّيْبِ مِنْ أَرَبِ

* * *

١٠٧٤ ـ وَقالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مُعَلِّلًا ظُهُورَ ٱلشَّيْبِ بِصَدِّ ٱلْحَبيبِ وَهَجْرِهِ [من الخفيف] :

عَيَّرَتْني ٱلْمَشيبَ وَهْيَ بَدَتْهُ في عِذاري بِٱلصَّدِّ وَٱلاجْتِنابِ
لا تَرَيْهِ عاراً فَما هُوَ بِٱلـ ـشَّيْبِ وَلَكِنَّهُ جَلاءُ ٱلشَّبابِ
وَبَياضُ ٱلْبازِيِّ أَصْدَقُ حُسْناً إِنْ تَأَمَّلْتِ مِنْ سَوادِ ٱلْغُرابِ

* * *

١٠٧٥ ـ وَقالَ [من الخفيف] :

عَذَلَتْنا في عِشْقِها أُمُّ عَمْرٍو هَلْ سَمِعْتُمْ بِٱلْعاذِلِ ٱلْمَعْشُوقِ
وَرَأَتْ لِمَّةً أَلَمَّ بِها ٱلشَّيْـ ـبُ فَرِيْعَتْ مِنْ ظُلْمَةٍ في شُرُوقِ
وَلَعَمْري لَوْلا ٱلأَقاحِيُّ لأَبْصَرْ تَ أَنيقَ ٱلرِّياضِ غَيْرَ أَنيقِ
وَسَوادُ ٱلْعُيونِ لَوْ لَمْ يُحَجِّرْ هُ بَياضٌ ما كانَ بِٱلْمَوْمُوقِ[1]
وَمِزَاجُ ٱلصَّهْباءِ بِٱلْماءِ أَمْلَىٰ بِصَبُوحٍ مُسْتَحْسَنٍ وَغَبُوقِ
أَيَّ لَيْلٍ يَبْهىٰ بِغَيْرِ نُجُومٍ أَوْ سَحابٍ تَنَدَّىٰ بِغَيْرِ بُرُوقِ !

* * *

---

(١) حَجَّرَهُ : دارَ بِهِ ؛ وَٱلْمَوْمُوقُ : ٱلْمَحْبُوبُ .

١٠٧٦ ـ وَقَالَ أَبُو هِفَّانَ[(١)] [من البسيط] :

تعَجَّبَتْ دُرُّ مِنْ شَيْبِي ، فَقُلْتُ لَها     لا تَعْجَبي فَبَياضُ ٱلصُّبْحِ في ٱلسَّدَفِ[(٢)]
وَزَادَها عَجَباً أَنْ رُحْتُ في سَمَلٍ     وَما دَرَتْ دُرُّ أَنَّ ٱلدُّرَّ في ٱلصَّدَفِ[(٣)]

❊ ❊ ❊

١٠٧٧ ـ وَقَالَ مِهْيارُ ٱلدَّيْلَمِيُّ [من الطويل] :

أَرَاكِ تَرَيْنِّي نَاقِصاً وَنَقِيصَتي     لَيالٍ وَأَيّامٌ عَلَيَّ تَزيدُ
لِكُلِّ جَديدٍ بِٱعْتِرافِكِ لَذَّةٌ     فَمَا لَكِ عِفْتِ ٱلشَّيْبَ وَهُوَ جَدِيدُ

❊ ❊ ❊

## مَنْ أَقْلَعَ عَنِ ٱلتَّصابي لَدىٰ ظُهُورِ ٱلشَّيْبِ وَتَشْنِيعِهِمْ عَلىٰ ٱلتَّصابي بَعْدَ ٱلْمَشيبِ :

١٠٧٨ ـ قَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ : ما وَعَظَني شِعْرٌ ما وَعَظَني ما قالَ [ الدُّرَيْد بنُ الصِّمَّةِ ، من الطويل] :

صَبا ما صبا حَتّىٰ عَلا ٱلشَّيْبُ رَأْسَهُ     فَلَمّا عَلاهُ قالَ لِلْباطِلِ أَبْعِدْ

❊ ❊ ❊

١٠٧٩ ـ وَقَالَ أَحْمَدُ ٱبْنُ أَبي طاهِرٍ [من الطويل] :

رَكِبْتُ ٱلصِّبا حَتّىٰ إِذَا ما وَنىٰ ٱلصِّبا     نَزَلْتُ مِنَ ٱلتَّقْوىٰ بِأَكْرَمِ مَنْزِلِ
وَدِينُ ٱلْفَتىٰ بَيْنَ ٱلتَّنَسُّكِ وَٱلنُّهىٰ     وَدُنْيا ٱلْفَتىٰ بَيْنَ ٱلصِّبا وَٱلتَّغَزُّلِ

❊ ❊ ❊

---

(١) هُوَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَرْبِ المِهْزَمِيُّ ٱلْعَبْدِيُّ [ . . . ـ ٢٥٧هـ = . . . ـ ٨٧١م ] ، رَاوِيَةٌ عالِمٌ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْغَريبِ ، وَشِعْرُهُ جَيِّدٌ ، إِلَّا أَنَّهُ مُقِلٌّ ، وَهُوَ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْهَاشِمِيَّةِ .
(٢) السَّدَفُ ، جَمْعُ سَدْفَةٍ ، وَهِيَ : ٱلظُّلْمَةُ .
(٣) السَّمَلُ : ٱلثَّوْبُ ٱلْخَلَقُ ٱلْبالي .

١٠٨٠ ـ وَقَالَ أَعْرابِيٌّ : فُلانٌ وَضَعَ رِداءَ مُجُونِهِ لَمّا بَدا ٱلفَجْرُ مِنْ لَيالي قُرونِهِ .

* * *

١٠٨١ ـ وَقيلَ لِرَجُلٍ : أَلا تَشْرَبُ ؟ فَقَالَ : في شَيْبِ ٱلرَّأْسِ مَطْرَدَةٌ عَنِ ٱلْكَأْسِ .

* * *

١٠٨٢ ـ وَمِنْ كَلامِهِمْ : ثَلاثَةٌ كُلٌّ مِنْها يَقْتَضي تَجَنُّبَ ٱلصِّبا : ظُهُورَ ٱلشَّيْبِ ، وَٱلتَّحَصُّنُ بِٱلتَّزَوُّجِ ، وَٱلْحَجُّ إِلىٰ بَيْتِ ٱللهِ ٱلْحَرامِ .

* * *

١٠٨٣ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلْبَبَّغاءُ [من البسيط] :

لا عُـذْرَ بَعْـدَ عِـذارٍ شـابَ أَكْثَـرُهُ     فَـٱلشَّيْـبُ أَوْعَـظُ إِعْـذارٍ وَإِنْـذارِ

* * *

١٠٨٤ ـ وفي الأَثَرِ : « إِنَّ ٱللهَ يُبْغِضُ ٱلشَّيْخَ ٱلْغِرْبِيبَ » [ رواه ابن عدي في « الكامل » ، والديلمي ، عن أبي هُرَيْرة ؛ « الجامع الصغير » ، رقم : ١٨٥١ ؛ « كنز العمال » ، رقم : ١٧٣٣٥] .

ٱلغِرْبِيبُ : ٱلَّذي لا يَشيبُ ، وَٱلْمُرادُ : مَنْ يَعْمَلُ عَمَلَ مَنْ لِحْيَتُهُ سَوْداءُ ، يَعْني : عَمَلَ ٱلشَّبابِ مِنَ ٱللَّهْوِ وَٱللَّعِبِ وَٱلتَّصابي وَٱلإِكْبابِ عَلىٰ ٱلشَّهَواتِ .

* * *

١٠٨٥ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : حانَ حَصادي وَلَمْ يَصْلُحْ فَسادِي .

* * *

١٠٨٦ ـ وَقالَ شاعِرٌ [من الخفيف] :

أَنْتَ في ٱلأَرْبَعِينَ مِثْلُكَ في ٱلْعِشْـ ـرِينَ قُلْ لي مَتىٰ يَكُونُ ٱلْفَلاحُ

* * *

١٠٨٧ ـ وَقالَ ٱلأَعْوَرُ ٱلشَّنِّيُّ ، وتُرْوىٰ لِيَزِيدَ بْنِ خَذَّاقٍ [من الوافر] :

إذا ما ٱلْمَرْءُ قَصَّرَ ثُمَّ مَرَّتْ عَلَيْهِ ٱلأَرْبَعُونَ مِنَ ٱلرِّجالِ

وَلَمْ يَلْحَقْ مَصالِحَهُمْ فَدَعْهُ فَلَيْسَ بِلاحِقٍ أُخْرىٰ ٱللَّيالي

* * *

١٠٨٨ ـ وَفي مِثْلِ هَذا ٱلْمَعْنىٰ يَقُولُ ٱلأُقَيْشِرُ ـ شاعِرٌ إِسْلامِيٌّ ـ [من الطويل] :

إذا ٱلْمَرْءُ وَفّىٰ ٱلأَرْبَعينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ دُونَ ما يَأْتي حَياءٌ وَلا سِتْرُ

فَدَعْهُ وَلا تَنْفَسْ عَلَيْهِ ٱلَّذي ٱرْتَأَىٰ وَإِنْ جَرَّ أَسْبابَ ٱلْحَياةِ لَهُ ٱلدَّهْرُ(١)

وَلَهُمْ في هَذا ٱلْمَعْنىٰ كَثيرٌ .

* * *

١٠٨٩ ـ في قَوْلِهِمْ ، وَٱلْقائِلُ هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ أَيُّوبَ ٱلتَّيْمِيُّ [من الطويل] :

إذا كانَتِ ٱلْخَمْسونَ سِنَّكَ لَمْ يَكُنْ لِدائِكَ إِلَّا أَنْ تَمُوتَ طَبيبُ

وَإِنَّ ٱمْرَأً قَدْ سارَ خَمْسينَ حِجَّةً إِلىٰ مَنْهَلٍ مِنْ وِرْدِهِ لَقَريبُ

إذا ما مَضىٰ ٱلْقَرْنُ ٱلَّذي أَنْتَ فِيهِمْ وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فَأَنْتَ غَريبُ

* * *

---

(١) يُقالُ : نَفِسْتُ عَلَيْهِ ٱلشَّيْءَ أَنْفَسُهُ نَفاسَةً ، وَنَفِسْتُ عَلَيْهِ بِهِ : إذا لَمْ تَرَهُ أَهْلاً لَهُ ، وَهَذانِ ٱلْبَيْتانِ مِنْ أَبْياتٍ أَوْرَدناها في ٱلْجُزْءِ ٱلثّاني مِنْ هَذا ٱلْكِتابِ [ ؟ ] ، ونَسَبَها بَعْضُهُمْ لأَيْمَنَ بْنِ ضَريحِ بْنِ فاتِكٍ ٱلأَسْدِيِّ .

١٠٩٠ ـ يُقالُ إنَّ ٱلتَّيْميَّ أَخَذَها مِنْ كَلِمَةٍ لِلْحَجّاجِ كَتَبَها إِلىٰ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، وَهِيَ: إِنِّي نَظَرْتُ في عُمْري فَإِذا أَنَا قَدْ بَلَغْتُ خَمْسينَ سَنَةً، وَأَنْتَ نَحْوي في ٱلسِّنِّ، وَإِنَّ أمْرَأً قَدْ سارَ إِلىٰ مَنْهَلٍ خَمْسينَ عاماً لَقَمِنٌ أَنْ يَكُونَ دَنا مِنْهُ.

* * *

١٠٩١ ـ وَنَخْتَتِمُ هَذا ٱلْمَعْنىٰ بِأَبْياتٍ جَميلَةٍ لِلشّاعِرِ ٱبْنِ ٱلرِّقاعِ ٱلْعامِليِّ ـ شاعِرٌ أُمَوِيٌّ ـ [من الكامل]:

لَولا ٱلْحَياءُ وَأَنَّ رَأْسي قَدْ عَسا ... فيهِ ٱلْمَشيبُ لَزُرْتُ أُمَّ ٱلْقاسِمِ

فَكَأَنَّها بَيْنَ ٱلنِّساءِ أَعارَها ... عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جآذِرِ جاسِمِ

وَسْنانُ أَقْصَدَهُ ٱلنُّعاسُ فَرَنَّقَتْ ... في عَيْنِهِ سِنَةٌ وَلَيْسَ بِنائِمِ

يَصْطادُ يَقْظانَ ٱلرِّجالِ حَديثُها ... وَتُطيرُ بَهْجَتُها بِنَوْمِ ٱلْحالِمِ

عَسا فيهِ ٱلْمَشيبُ: ٱشْتَدَّ بَياضُهُ، مِنْ عَسا ٱلنَّباتُ عُسُوّاً، عَلىٰ فُعُولٍ: ٱشْتَدَّ وَغَلُظَ؛ وَٱلْجآذِرُ جَمْعُ جُؤْذَرٍ ـ بِفَتْحِ ٱلذّالِ وَضَمِّها ـ وَهُوَ وَلَدُ ٱلْبَقَرَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ؛ وَجاسِمُ: قَرْيَةٌ بِٱلشّامِ بَيْنَها وَبَيْنَ دِمَشْقَ ثَمانِيَةُ فَراسِخَ؛ وَأَقْصَدَهُ ٱلنُّعاسُ: أَصابَهُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَقْصَدَهُ: إِذا رَماهُ بِسَهْمٍ فَلَمْ يُخْطِئْ مَقاتِلَهُ؛ وَرَنَّقَتْ في عَيْنِهِ سِنَةٌ، مِنَ ٱلتَّرْنيقِ، بِمَعْنىٰ ٱلْمُخالَطَةِ.

* * *

### تَفاريقُ في ٱلشَّيْبِ وَٱلشَّبابِ:

١٠٩٢ ـ قالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من الوافر]:

إِذا كانَ ٱلشَّبابُ ٱلسُّكْرَ وَٱلشَّيْـ ... ـبُ هَمّاً فَٱلْحَياةُ هِيَ ٱلْحِمامُ

يَقُولُ: إِذا كانَ ٱلإِنْسانُ في شَبيبَتِهِ كَٱلسَّكْرانِ لَهْواً وَغَفْلَةً وَتَصابِياً وَجُنُوناً

مُسْتَعِراً ، وَفي ٱلْمَشِيبِ غارِقاً في بَحْرٍ مِنَ ٱلْهَمِّ لِضَعْفِهِ وَتَلَفُّتِه لِمَا فاتَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَلأَنَّهُ يَجُرُّ وَرَاءَهُ سِنينَ كُثْراً مُوقَرَةً بِٱلآلامِ وَغِيَرِ ٱلدَّهْرِ فَإِنَّ ٱلْحَيَاةَ هِيَ ٱلْمَوْتُ ، يَعْني : إِنَّ ٱلْحَيَاةَ في ٱلدُّنْيا مُنَغَّصَةٌ مُكَدَّرَةٌ .

* * *

١٠٩٣ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّي [من الطويل] :

مُشِبُّ ٱلَّذي يَبْكي ٱلشَّبَابَ مُشِيبُهُ ... فَكَيْفَ تَوَقِّيهِ وبانِيهِ هادِمُهْ

وَتَكْمِلَةُ ٱلْعَيْشِ ٱلصِّبَا وَعَقِيبُهُ ... وَغَائِبُ لَوْنِ ٱلْعَارِضَيْنِ وَقَادِمُهْ

وَمَا خَضَبَ ٱلنَّاسُ ٱلْبَيَاضَ لأَنَّهُ ... قَبِيحٌ وَلَكِنْ أَحْسَنُ ٱلشَّعْرِ فاحِمُهْ

[ راجع رقم : ١٠٥٥ ] .

يَقُولُ : إِنَّ ٱلَّذي يَجْزَعُ عَلىٰ فَقْدِ ٱلشَّبابِ وَيَبْكِيهِ إِنَّما أَشابَهُ مَنْ أَشَبَّهَ ؛ وَٱلشَّيْبُ حَصَلَ مِنْ لَدُنِّ مَنْ حَصَلَ مِنْهُ ٱلشَّبابُ ، فَكَيْفَ ٱلسَّبِيلُ إِلىٰ ٱلتَّوَقِّي مِنَ ٱلْمَشِيبِ وَٱلَّذي بَنىٰ ٱلشَّبابَ هُوَ ٱلَّذي هَدَمَهُ ، وَهَذا ٱلْمَعْنىٰ يَنْظُرُ إِلىٰ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِي [من الطويل] :

تُضَعْضِعُهُ الأَوْقاتُ وَهْيَ بَقَاؤُهُ ... وَتَغْتالُهُ ٱلأَقْوَاتُ وَهْيَ لَهُ طُعْمُ

إِذا ما رَأَيْتَ ٱلشَّيْءَ يُبْلِيهِ عُمْرُهُ ... وَيُفْنِيهِ أَنْ يَبْقىٰ فَفي دائِهِ عُقْمُ

ثُمَّ قالَ ٱلْمُتُنَبِّي في ٱلْبَيْتِ ٱلثَّاني : وَتَمَامُ ٱلْعَيْشِ هُوَ ٱلصِّبا وَمَا يَتْلُوهُ مِنْ بُلُوغِ ٱلأَشُدِّ حَتّىٰ يَكُونَ يافِعاً مُتَرَعْرِعاً إِلىٰ أَنْ يَخْتَلِفَ إِلىٰ عارِضَيْهِ لَوْنا سَوَادٍ وَبَياضٍ ، يُرِيدُ ٱلْمُتَنَبِّيُ ٱلْحَضَّ عَلىٰ ٱلسُّكُونِ إِلىٰ ٱلشَّيْبِ وَٱلرِّضا بِهِ .

* * *

١٠٩٤ ـ [ وَقال ٱلْمُتَنَبِّيُّ ، من الطويل] :

مُنًى كُنَّ لي أَنَّ ٱلْبَياضَ خِضابُ ... فَيَخْفى بِتَبْيِيضِ ٱلْقُرُونِ شَبابُ
لَيالِيَ عِنْدَ ٱلْبِيضِ فَوْدايَ فِتْنَةٌ ... وَفَخْرٌ وَذاكَ ٱلْفَخْرُ عِنْدِيَ عابُ
فَكَيْفَ أَذُمُّ ٱلْيَوْمَ ما كُنْتُ أَشْتَهي ... وَأَدْعُو بِما أَشْكُوهُ حِينَ أُجابُ
جَلا ٱللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدىٰ كُلَّ مَسْلَكٍ ... كَما ٱنْجابَ عَنْ ضَوْءِ ٱلنَّهارِ ضَبابُ
وَفي ٱلْجِسْمِ نَفْسٌ لا تَشيبُ بِشَيْبِهِ ... وَلَوْ أَنَّ ما في ٱلْوَجْهِ مِنْهُ حِرابُ
لَها ظُفُرٌ إِنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ... وَنابٌ إِذا لَمْ يَبْقَ في ٱلْفَمِ نابُ
يُغَيِّرُ مِنّي ٱلدَّهْرُ ما شاءَ غَيْرَها ... وَأَبْلُغُ أَقْصىٰ ٱلْعُمْرِ وَهْيَ كَعابُ

قوله : مُنىٰ كُنَّ لِي أَنَّ ٱلْبَياضَ خِضابُ ، ٱلْبَيْتَ ؛ فَٱلْقُرُونُ : ضَفائِرُ ٱلشَّعَرِ ؛ يَقُولُ : إِنَّ مَشِيبي هَذا وَكَوْنَ ٱلْبَياضِ خِضاباً لي يَخْفىٰ بِهِ سَوادُ شَعَرِي مُنًىٰ كانَتْ لِي قَدِيماً ، يَعْني : إِنَّهُ كانَ يتَمَنَّىٰ ٱلشَّيْبَ مِنْ قَدِيمٍ لِيَخْفَىٰ شَبابُهُ بِٱبْيِضاضِ شَعْرِهِ ، ولأَنَّهُ أَوْقَرُ وَأَجَلُّ في ٱلْعَيْنِ ؛ وَقَوْلُهُ : لَيالِيَ عِنْدَ ٱلْبِيضِ فَوْدَايَ فِتْنَةٌ ، ٱلْبَيْتَ ؛ فَٱلْبِيضُ : ٱلنِّساءُ ؛ وَٱلْفَوْدانِ : جانِبا ٱلرَّأْسِ ؛ وَٱلْعابُ : ٱلْعَيْبُ ؛ يَقُولُ : إِنَّ تَمَنِّيَ ٱلْمَشِيبِ كانَ في ٱللَّيالِيَ ٱلَّتي كانَ شَعَرُ رَأْسِهِ فيها لَدىٰ ٱلنِّساءِ فِتْنَةً ، لِحُسْنِ شَعْرِهِ وَفِتْنَتِهِ ، وَكُنَّ يَفْخَرْنَ بِوَصْلِي ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ ٱلْفَخْرَ عَيْبٌ عِنْدِي ، لأَنِّي مِمَّنْ يَعِفُّ عَنِ ٱلنِّساءِ وَيَرْغَبُ عَنْ وِصالِهِنَّ ، وَٱلشَّيْبُ أَوْقَرُ وَٱلشَّبيبَةُ أَنْزَقُ . ثُمَّ قالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلثَّالِثِ : فَكَيْفَ أَذُمُّ ٱلْمَشِيبَ ٱلْيَوْمَ وَقَدْ كُنْتُ أَتَمَنَّاهُ ! وَكَيْفَ أَدْعو لِنَفْسي وَأَطْلُبُ لَها ما إِذا أُجِبْتُ إِلَيْهِ شَكَوْتُهُ ! يعني : لا يَنْبَغِي أَنْ أَشْكُوَ ٱلشَّيْبَ ٱنْتِهاءً وَقَدْ تَمَنَّيْتُهُ ٱبْتِداءً ؛ وَقَدْ سَمَتَ في هذا سَمْتَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ في قَوْلِهِ [من الطويل] :

هِيَ ٱلأَعْيُنُ ٱلنُّجْلُ ٱلَّتي كُنْتَ تَشْتَكي ... مَواقِعَها في ٱلْقَلْبِ وَٱلرَّأْسُ أَسْوَدُ
فَما لَكَ تَأْسىٰ ٱلآنَ لَمَّا رَأَيْتَها ... وَقَدْ جَعَلَتْ مَرْمىٰ سِواكَ تَعَمَّدُ

وَقَوْلُ ٱلْمُتَنَبِّي : جَلَا ٱللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدَىٰ كُلَّ مَسْلَكٍ ، ٱلْبَيْتَ ؛ فَجَلا : زَالَ وَٱنْكَشَفَ ، وَٱللَّوْنُ فاعِلٌ ، يَقُولُ : إِن بَياضَ ٱلشَّيْبِ كانَ كَأَنَّهُ كامِنٌ في ٱلسَّوادِ ، فَلَمّا زَالَ ٱلسَّوادُ عَنْهُ بَدا وَٱنْكَشَفَ ، فَٱهْتَدىٰ صاحِبُهُ إِلىٰ كُلِّ طَرِيقٍ مِنَ ٱلرُّشْدِ وَٱلْخَيْرِ ، كَٱلنَّهارِ إِذا جَلا عَنْهُ ٱلضَّبابُ ٱهْتَدَىٰ ٱلسَّالِكُ في ضَوْئِهِ . وَقَوْلُهُ : وَفِي ٱلْجِسْمِ نَفْسٌ لا تَشيبُ بِشَيْبِهِ . . . ٱلأَبْياتُ ٱلثَّلاثَةُ ؛ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ كانَ يَتَمَنّىٰ ٱلشَّيْبَ ـ وَٱلشَّيْبُ فِيهِ ٱلضَّعْفُ وَٱلْعَجْزُ ـ ذَكَرَ أَنّ هِمَّتَهُ لا تَشيبُ وَلا يَنالُ مِنْهَا ٱلضَّعْفُ بِشَيْبِ جِسْمِهِ ، وَلَوْ أَنَّ ٱلشَّعَرَاتِ ٱلْبِيضَ في وَجْهِهِ كانَتْ حِراباً ؛ ثُمَّ قالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلتَّالي : إِنْ كَلَّ ظُفْرِي وَلَمْ يَبْقَ فِيَّ نابٌ ، مِنَ ٱلْكِبَرِ فهِمَّتي لا يَكِلُّ ظُفْرُها وَلا يَذْهَبُ نابُها ؛ ثُمَّ قَالَ في ٱلْبَيْتِ ٱلأَخيرِ : إِنَّ نَفْسي شابَّةٌ أَبَداً لا يُغَيِّرُها ٱلدَّهْرُ وَإِنْ تَغَيَّرَ جِسْمي .

* * *

١٠٩٥ ـ وَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ ـ وَهُوَ مِنْ مَعَانِيهِ ٱلَّتي فَتَقَها ـ قَوْلُهُ يَعيبُ مَنْ تَعَلَّلَ بِٱلتَّأَسِّي بِمَا نالَ غَيْرَهُ وَهُوَ يَرْثِي شَبابَهُ ، وَقَدْ صَدَقَ وَأَحْسَنَ [من الخفيف] :

يـا شَبـابـي وَأَيْـنَ مِنِّـي شَبـابـي ... آذَنَتْنِـي حِبـالُـهُ بِـٱنْقِضـابِ

لَهْـفَ نَفْسـي عَلىٰ نَعِيمِـي وَلَهْـوِي ... تَحْـتَ أَفْنـانِـهِ ٱللِّـدَانِ ٱلـرِّطـابِ

وَمُعَـزٍّ عَـنِ ٱلشَّبـابِ مُـؤَسٍّ ... بِمَشيـبِ ٱللِّـدَاتِ وَٱلأَصْحـابِ

قُلْـتُ لَمَّـا ٱنْتَحـىٰ يَعُـدُّ أُسـاهُ ... مِـنْ مُصـابِ شَبـابُـهُ فَمُصـابِ

لَيْـسَ تَـأْسُـو كُلُـومُ غَيْـري كُلُـومِـي ... مـا بِـهِ مـا بِـهِ وَمـا بـيَ مـا بـي

* * *

١٠٩٦ ـ وَقَالَ ٱلْعُتْبِيُّ [من البسيط] :

مَـنْ عـاشَ أَخْلَقَـتِ ٱلأَيَّـامُ جِـدَّتَـهُ ... وَخـانَـهُ ٱلثِّقَتـانِ : ٱلسَّمْـعُ وَٱلْبَصَـرُ

قالَتْ : عَهِدْتُكَ مَجْنوناً ، فَقُلْتُ لَها : إِنَّ ٱلشَّبابَ جُنُونٌ بُرْؤُهُ ٱلْكِبَرُ

* * *

١٠٩٧ ـ وَقالَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ [من مجزوء الكامل] :

ٱلْمَرْءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعيـ ـشَ وَطُولُ عَيْشٍ قَدْ يُضُرُّهْ
تَفْنىٰ بَشاشَتُهُ وَيَأْتي بَعْدَ حُلْوِ ٱلْعَيْشِ مُرُّهْ
وَتَسُوءُهُ ٱلأَيّامُ حَتّىٰ ما يَرىٰ شَيْئاً يَسُرُّهْ

* * *

١٠٩٨ ـ وَقالَ ٱلسَّيِّدُ مُحَمَّدُ تَوْفيقُ ٱلْبَكْرِيُّ [من المتقارب] :

زَمانٌ إِذا ما تَذَكَّرْتُهُ تَخَيَّلْتُهُ حُلْماً في ٱلْكَرىٰ
وَعَهْدُ ٱلشَّبابِ كَرُؤْيا إِذا مَضَتْ أَدْرَكَتْها نُفُوسُ ٱلْوَرىٰ

* * *

١٠٩٩ ـ وَقالَ [من مجزوء الرجز] :

أَشَعْرَةٌ بَيْضاءُ أَمْ أَوَّلُ خَيْطِ ٱلْكَفَنِ
أَمْ تِلْكَ سَهْمٌ مُرْسَلٌ لا يُتَّقىٰ بِٱلْجَنَنِ
وَٱلزَّرْعُ إِنْ هاجَ فَقَدْ حانَ ٱلْحَصادُ وَأَني

* * *

١١٠٠ ـ وَبَديعُ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

كَفىٰ بِسِراجِ ٱلشَّيْبِ لِلرَّأْسِ هادِياً لِمَنْ قَدْ أَضَلَّتْهُ ٱلْمَنايا لَيالِيا
أَمِنْ بَعْدِ إِبْداءِ ٱلْمَشيبِ مَقاتِلي لِرامِي ٱلْمَنايا تَحْسَبِنِّيَ ناجِيا

غَدَا ٱلدَّهْرُ يَرْمِينِي فَتَدْنُو سِهامُهُ لِشَخْصِيَ أَخْلِقْ أَنْ يصِبْنَ سَوَادِيا[1]
وَكَانَ كَرامِي ٱللَّيْلِ يَرْمِي وَلا يَرىٰ فَلَمَّا أَضاءَ ٱلشَّيْبُ شَخْصِي رَمانِيا

* * *

١١٠١ ـ وَكَانَ مِنْ عادَةِ أَهْلِ ٱلأَنْدَلُسِ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَلْبَسُوا ٱلْبَياضَ عَلىٰ ٱلْمُتَوَفَّىٰ ، قَالَ ٱبْنُ بَسَّامٍ في « ٱلذَّخيرَةِ » : وَفي هَذا يَقُولُ ٱلْحُلْوَانِيُّ [من الوافر] :

لَئِنْ كانَ ٱلْبَياضُ لِباسَ حُزْنٍ بِأَنْدَلُسٍ فَذاكَ مِنَ ٱلصَّوَابِ
أَلَمْ تَرَنِي لَبِسْتُ بَياضَ شَيْبِي لأَنِّي قَد حَزِنْتُ عَلىٰ ٱلشَّبابِ

* * *

١١٠٢ ـ وَقالَ ٱبْنُ بَسَّامٍ :

وَقَدْ أَخَذَ هَذا ٱلْمَعْنىٰ بَعْضُ أَهْلِ عَصْرِنا ، وَهُوَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بنُ قاسِمٍ المُحَدِّثُ بِقُرْطُبَةَ ، فَقالَ [من الكامل] :

قالَتْ وَقَدْ نَظَرَتْ فَرَوَّعَها شَيْبٌ عَلىٰ فَوْدَيَّ مُنْتَشِرُ
ما شَأْنُ ذاكَ ٱلْبَياضِ ؟ قُلْتُ لَها : ماتَ ٱلشَّبابُ فَبُيِّضَ ٱلشَّعَرُ

* * *

١١٠٣ ـ وَقَالَ عَوْفُ بْنُ مُحَلَّمٍ ٱلْخُزاعِيُّ أَوْ ٱلشَّيْبانيُّ وَقَدْ دَخَلَ عَلىٰ ٱلأَميرِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طاهِرٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ ٱللهِ ، فَلَمْ يَسْمَعْ ، فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ ، فَأَنْشَدَ هَذِهِ ٱلأَبْياتَ ، وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّهُ ٱرْتَجَلَها ٱرْتِجالاً [من السريع] :

يا ٱبْنَ ٱلَّذي دانَ لَهُ ٱلْمَشْرِقانِ طُرّاً وَقَدْ دانَ لَهُ ٱلْمَغْرِبانْ
إِنَّ ٱلثَّمانِينَ وَبُلِّغْتَها قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلىٰ تُرْجُمانْ

---

(١) سَوادِيا : شَخْصِي ، فَٱلسَّوَادُ : ٱلشَّخْصُ .

وَبَدَّلَتْنِي بِالشَّطَاطِ انْحَنِي ... وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السِّنَانْ[١]
وَبَدَّلَتْنِي مِنْ زَماعِ الْفَتَىٰ ... وَهِمَّتِي هَمَّ الْجَبانِ الْهِدَانْ[٢]
وَقارَبَتْ مِنِّي خُطاً لَمْ تَكُنْ ... مُقارَباتٍ وَثَنَتْ مِنْ عِنانْ
وَأَنْشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَرَىٰ ... عَنانَةً مِنْ غَيْرِ نَسْجِ الْعَنانْ[٣]
وَلَمْ تَدَعْ فِيَّ لِمُسْتَمْتِعٍ ... إِلَّا لِسانِي وَبِحَسْبِي لِسانْ
أَدْعُو بِهِ اللهَ وَأُثْنِي بِهِ ... عَلَىٰ الأَميرِ الْمُصْعَبِيِّ الْهِجَانْ[٤]
فَقَرِّبانِي بِأَبِي أَنْتُما ... مِنْ وَطَنِي قَبْلَ اصْفِرارِ الْبَنَانْ[٥]
وَقَبْلَ مَنْعَايَ إِلَىٰ نِسْوَةٍ ... أَوْطانُها حَرَّانُ وَالرَّقَّتانْ[٦]

* * *

١١٠٤ ـ وَقالَ النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ ـ شاعِرٌ مُخَضْرَمٌ ، وَفَدَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) الشَّطاطُ : حُسْنُ الْقَوامِ وَالاعْتِدالُ ؛ وَالصَّعْدَةُ : الْقَناةُ الْمُسْتَوِيَةُ تَنْبُتُ كَذٰلِكَ لا تَحْتاجُ إِلىٰ تَثْقِيفٍ .

(٢) الزَّماعُ : الْمَضاءُ في الأَمْرِ وَالْعَزْمِ عَلَيْهِ ؛ وَالْهِدانُ : الأَحْمَقُ الْجافي ، الْوَخِمُ الثَّقيلُ في الْحَرْبِ .

(٣) الْعَنانُ ، بِفَتْحِ الْعَيْنِ : السَّحابُ ، واحِدَتُهُ عَنانَةٌ ؛ يُشيرُ بِهٰذا إِلىٰ ضَعْفِ بَصَرِهِ ، وَأَنَّهُ لا يَرىٰ النَّاسَ إِلَّا مِنْ وَراءِ سَحابَةٍ .

(٤) الْهِجانُ : الْكَريمُ .

(٥) قَبْلَ اصْفِرارِ الْبَنانِ ، أَيْ : قَبْلَ الْمَوْتِ .

(٦) هُوَ عَوْفُ بْنُ مُحَلِّمٍ ، مَوْلىٰ بَني أُمَيَّةَ ، وَيُقالُ : مَوْلىٰ بَني شَيْبانَ الْجَزَرِيُّ الْحَرّانِيُّ ، يُكْنىٰ أَبا الْمِنْهالِ ، شاعِرٌ مُجيدٌ مِنْ شُعَراءِ الدَّوْلَةِ الْهاشِمِيَّةِ ، أَدْرَكَ سِنّاً بِالْجَزيرَةِ ، ثُمَّ قَدِمَ الْعِراقَ ، وَاتَّصَلَ بِذي الْيَمينَيْنِ طاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ والِدِ عَبْدِ اللهِ بْنِ طاهِرٍ ، وَكانَ سَبَبُ اتِّصالِهِ بِهِ أَنَّهُ نادىٰ عَلىٰ الْجِسْرِ بِبَغْدادَ أَيّامَ الْفِتْنَةِ بِهٰذِهِ الأَبْياتِ [ وتنسب لدعبل الخزاعي ، من الوافر] :

عَجِبْتُ لِحَرَّاقَةِ ابْنِ الْحُسَيْـ ... ـنِ كَيْفَ تَعُومُ وَلا تَغْرَقُ
وَبَحْرانِ مِنْ تَحْتِها واحِدٌ ... وَآخَرُ مِنْ فَوْقِها مُطْبَقُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذاكَ عِيدانُها ... وَقَدْ مَسَّها كَيْفَ لا تُورِقُ

وَأَسْلَمَ ـ [من الطويل] :

تَدارَكَ ما قَبْلَ ٱلشَّبابِ وَبَعْدَهُ حَوادِيثُ أَيّامٍ تَمُرُّ وَأَغْفُلُ
يَوَدُّ ٱلْفَتىٰ طُولَ ٱلسَّلامَةِ جاهِداً فَكَيْفَ يَرىٰ طُولَ ٱلسَّلامَةِ يَفْعَلُ
يَرُدُّ ٱلْفَتىٰ بَعْدَ ٱعْتِدالٍ وَصِحَّةٍ يَنُوءُ إِذا رامَ ٱلْقِيامَ وَيُحْمَلُ

* * *

١١٠٥ ـ وَقالَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ ٱلْهِلالِيُّ [من الطويل] :

أَرىٰ بَصَري قَدْ رابَني بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ داءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَما
وَلا يَلْبَثُ ٱلْعَصْرانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِذا طَلَبا أَنْ يُدْرِكا ما تَيَمَّما

* * *

١١٠٦ ـ وَقالَ أَبُو حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيُّ [من الطويل] :

أَلَا حَيِّ مِنْ أَجْلِ ٱلْحَبِيبِ ٱلْمَغانِيا لَبِسْنَ ٱلْبِلىٰ مِمّا لَبِسْنَ ٱللَّيالِيا
إِذا تَقاضىٰ ٱلْمَرْءَ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ تَقاضاهُ شَيْءٌ لا يَمَلُّ ٱلتَّقاضِيا

* * *

١١٠٧ ـ وَقالَ بَعْضُ شُعَراءِ ٱلْجاهِلِيَّةِ [ هُوَ عَمْرُو بْنُ قُمَيْئَةَ ، من الكامل] :

كانَتْ قَناتِي لا تَلِينُ لِغامِزٍ فَأَلانَها ٱلإِصْباحُ وَٱلإِمْساءُ
وَدَعَوْتُ رَبِّي في ٱلسَّلامَةِ جاهِداً لِيُصِحَّنِي فَإِذا ٱلسَّلامَةُ داءُ

* * *

١١٠٨ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « كَفىٰ بِٱلسَّلامَةِ داءً »[1] [ رواه الدَّيلمي في

(١) يُرِيدُ سَيِّدُنا رَسُولُ ٱللهِ أَنَّهُ إِذا ٱمْتَدَّ بِٱلْمَرْءِ العُمُرُ وَبَلَغ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً ، كانَ هَذا ٱلْكِبَرُ ٱلْمُسَبِّبُ =

« مسند الفردوس » ، عن ابن عباس ؛ « الجامع الصغير » ، رقم : ٦٢٣٤ ؛ « كنز العمال » ، رقم : ٦٦٩٢ ] .

* * *

١١٠٩ ـ وَقيلَ لأَعْرابيٍّ : كَيْفَ حالُكَ ؟ فَقالَ : ما حالُ مَنْ يَفْنىٰ بِبَقائِه ، وَيَسْقَمُ بِسَلامَتِهِ ، وَيُؤْتىٰ مِنْ مَأْمَنِه ! .

* * *

١١١٠ ـ وَحَدَّثَ مُجَمِّعُ بْنُ يَعْقُوبَ ٱلأَنْصارِيُّ ، قالَ : أَدْرَكْتُ حَسّانَ بْنَ ٱلْغَديرِ شَيْخاً كَبيراً مِنْ أَجْمَلِ ٱلشُّيُوخِ وَأَحْسَنِهِمْ ، فَحَدَّثَني ، قالَ : سارَتْ عَلَيْنا سائِرَةٌ مِنْ بَني جُشَمِ بْنِ بَكْرٍ ، فَرَأَيْتُ فِيهِمْ فَتاةً ما رَأَيْتُ في نِساءِ ٱلْعَرَبِ مِثْلَها حُسْناً ، فَكُنْت أَخْطُبُها ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي تَزْوِيجُها ، فَضَرَبَ ٱلدَّهْرُ بَيْنَنا ، فَإِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ بِأَرْبَعينَ سَنَةً لَفي بِلادي إِذْ أَهْلُوها قَدْ سارُوا ، وَإِذا بِها عَجُوزٌ تَسْأَلُ عَنِّي ،

= عَنِ ٱلسَّلامَةِ وَٱلْعافِيَةِ داءً مِنْ أَخْبَثِ ٱلأَدْواءِ لِمَا يَتْبَعُ ٱلْكِبَرَ مِنَ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّهْشيمِ ومَا إِلَيْهِما ؛ وَثَمَّةَ مَعْنىٰ آخَرَ لِعَلَّهُ يُريدُهُ صَلَواتُ ٱللهِ عَلَيْه ، وَهُوَ أَنَّ ٱلْحَياةَ ٱلإِنْسانِيَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلىٰ أَنَّ بَعْضَ ٱلضَّعْفِ نافِعٌ لَها ، فَلَوْ سَلِمَ ٱلإِنْسانُ مِنَ ٱلأَدْواءِ فَكَفىٰ بِسَلامَتِه داءً ، لأَنَّ ٱلسَّلامَةَ تُفْسِدُ فِيه بَعْضَ ٱلْغَرائِزِ ٱلْكَريمَةِ ، فَيَبْطُرُ وَيَطْغىٰ ، إِلىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمّا يُشاهَدُ في أَهْلِ ٱلْغُرورِ ، وَعِبارَةُ ٱلْمُناوِي شارِحِ « ٱلْجامِعِ ٱلصَّغيرِ » : لأَنَّ دَوامَ سَلامَةِ ٱلْعَبْدِ في نَفْسِه وَأَهْلِه مِنَ ٱلمَصائِبِ تُورِثُهُ ٱلْبَطَرَ وَٱلْعُجْبَ وَٱلْكِبْرَ وَتُحَبِّبُ إِلَيْهِ ٱلدُّنْيا . لِمَا يَأْلَفُهُ مِنَ ٱلشَّهَواتِ ، وَحُبُّ ٱلدُّنْيا رأسُ كلِّ خَطِيئَةٍ ، وَٱلتَّمَتُّعُ بِٱلشَّهَواتِ ٱلْمُباحاتِ يَحْجُبُ ٱلْقُلُوبَ عَنِ الآخِرَةِ وَكُلُّ ذَلِكَ يُسْقِمُ ٱلدِّينَ ، وَيُكَدِّرُ ٱلإِيمانَ ، وَيُخْرِجُ إِلىٰ ٱلطُّغْيانِ ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [٩٦ سورة العلق/ الآيتان : ٦ و٧] . لَكِنَّ هَذا لا يُنافي طَلَبَ ٱلْعافِيَةِ ٱلْمَأْمُورَ بِهِ في عِدَّةِ أَحاديثَ ، لأَنَّ ٱلْمَطْلُوبَ عافِيَةٌ سَليمَةُ ٱلْعاقِبَةِ مِمّا ذُكِرَ .

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلىٰ أَنَّ مَعْنىٰ ٱلْحَديثِ : أَنَّ حُبَّ ٱلسَّلامَةِ داءٌ يَمْنَعُ صاحِبَهُ مِنْ رُكُوبِ ٱلْغَرَرِ وَٱقْتِحامِ ٱلْخَطَرِ ، في عِزَّةِ ٱلْمَجْدِ وَٱكْتِسابِ ٱلْحَمْدِ ، مُحافَظَةً عَلىٰ صِحَّتِه وَسَلامَتِه ؛ وَٱلدّاءُ : ٱلْعَيْبُ ؛ وَمِنْهُ حَديثُ أُمِّ زَرْعٍ « كُلُّ داءٍ لَهُ داءٌ » تُريدُ : كُلُّ عَيْبٍ يَكُونُ في ٱلرِّجالِ فَهُوَ عَيْبٌ فِيه .

فَلَمّا دَفعَتْ إِليَّ وَرَأَتْ كِبَرِي ، قَالَتْ : أَأَنْتَ ٱبْنُ ٱلْغَدير ؟ فَقُلْتُ : نَعَم ، قالَتْ : لَقَدْ أَكَلَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْكَ وَشَرِبَ ! قالَ : فَذَلِكَ قَوْلي فيها وَقَدْ كَبِرَتْ أَيْضاً وَتَغَيَّرَتْ [من الكامل] :

قَالَتْ أُمَامَةُ يَوْمَ بُرْقَةِ وَاسِطٍ : يا ٱبْنَ ٱلْغَديرِ لَقَدْ جَعَلْتَ تَنَكَّرُ
أَصْبَحْتَ بَعْدَ شَبابِكَ ٱلْغَضِّ ٱلَّذي وَلَّتْ شَبِيبَتُهُ وَغُصْنُكَ أَخْضَرُ
شَيْخاً دِعامَتُهُ ٱلْعَصا وَمُشَيَّعاً لا تَبْتَغي خَبَراً ولا تُسْتَخْبَرُ[١]
فَأَجَبْتُها أَنْ مَنْ يُعَمَّرْ يَعْتَرِفْ ما تَزْعُمينَ وَيَنْبُ عَنْهُ ٱلْمَنْظَرُ
وَلَقَدْ رَأَيْتُ شَبيبَهَ ما عَيَّرْتِني يَسْري عَليَّ بِهِ ٱلزَّمانُ وَيُبْكِرُ
وَجَعَلْتُ يُغْضِبُني ٱلْيَسيرُ ومَلَّني أَهْلي وَكُنْتُ مُكَرَّماً لا أُكْهَرُ[٢]
وَشَرِبْتُ في ٱلْقَعْبِ ٱلصَّغيرِ وَقادَني نَحْوَ ٱلْجَماعَةِ مِنْ بَنِيَّ ٱلأَصْغَرُ

* * *

## ٱلشَّبَابُ وَٱلشَّيْبُ وَٱلْكِبَرُ في ٱللُّغَةِ :

١١١١ ـ ٱلْمَرْءُ ما دامَ بَيْنَ ٱلثَّلاثينَ وَٱلأَرْبَعِينَ فَهُوَ شابٌّ ، ثُمَّ هُوَ كَهْلٌ إِلىٰ أَنْ يُسْتَوْفِيَ ٱلسِّتِّينَ ، وَيَقُولونَ : فُلانٌ ناهَزَ ٱلأَرْبَعِينَ ، أَوِ ٱلْخَمْسينَ ، وَحَبَا لَهَا : إِذا دَنا لَها وَلَمْ يَبْلُغْها ، وَنَيَّفَ عَلىٰ ٱلْخَمْسينَ ، وذَرَّفَ ، وَأَرْقىٰ ، وَأَوْفىٰ ، وَأَرْبىٰ ، وَٱرْتقىٰ ؛ كُلُّ هَذا : جاوَزَها وَزادَ عَلَيْها ؛ فَإِذا ٱسْتَبانَتْ فيهِ ٱلسِّنُّ فَهُوَ شَيْخٌ ، وَقِيلَ : هُوَ شَيْخٌ مِنْ خَمْسينَ إِلىٰ آخِرِ عُمُرِهِ ، وَٱلْمُخْلَدُ : ٱلَّذي أَسَنَّ وَلَمْ يَشِبْ ، فَإِذا ٱرْتَفَعَ عَنْ ذَلِكَ فَهُوَ مسِنٌّ ونَهْشَلٌ ، وَإِذا قارَبَ ٱلْخَطْوَ وَضَعُفَ قِيلَ : دَلَفَ يَدْلِفُ دَلَفاً وَدَليفاً ، وَيُقالُ لِلشَّيْخِ إِذا ٱنْحَنىٰ : قَدْ

(١) مُشَيَّعاً : يُرِيدُ قَوِيّاً بِعَصاهُ ، أَيْ : إِنَّ ٱلْعَصا تُشَجِّعُهُ وَتُقَوِّيهِ .
(٢) أُكْهَرُ : أُنْهَرُ .

رَقَعَ ٱلشَّنَّ وَساقَ ٱلعَنْزَ ، وَكَذَلِكَ : قَوَّسَ وَتَقَوَّسَ وَهُوَ أَقْوَسُ ، فَإِذا بَلَغَ أَقْصىٰ مِنْ ذَلِكَ فَهُو هَمٌّ ، مِنْ قَوْمٍ أَهْمامٍ ، وَمِثْلُهُ : ٱلهَرِمُ ، فَإِذا ذَهَبَ عَقْلُهُ فَهُوَ خَرِفٌ . وَهُنَالِكَ أَحْرُفٌ كَثيرَةٌ في هَذا ٱلْمَعْنىٰ لا دَاعي لإِيرادِها لأَنَّها غَريبَةٌ .

وَيُقالُ لِلرَّجُلِ أَوَّلَ ما يَظْهَرُ ٱلشَّيْبُ بِهِ : قَدْ وَخَطَهُ ٱلشَّيْبُ ، وَرَجُلٌ أَشْيَبُ وَأَشْمَطُ ؛ وَمِنْ قَوْلِهِمْ : شَيْبٌ شائِبٌ ، يُرِيدونَ ٱلْمُبالَغَةَ ، وَشَيَّبَ ٱلْهَمُّ مَثَلًا رَأْسَهُ ؛ فَإِذا زادَ قيلَ : قَدْ خَوَّصَهُ ٱلشَّيْبُ وَخَصَّفَهُ ، وَقَدْ تَلَفَّعَ بِٱلشَّيْبِ .

* * *

## ٱللِّحىٰ وَٱلشَّوارِبُ وَٱلصَّلَعُ :

١١١٢ ـ جاءَ في ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « أَحْفوا ٱلشَّوارِبَ وَأَعْفُوا ٱللِّحىٰ »
[ البخاري ، رقم : ٥٨٩٣ ؛ مسلم ، رقم : ٢٥٩] .

أَحْفُوا ، بِقَطْعِ ٱلْهَمْزَةِ وَوَصْلِها ، مِنْ أَحْفاهُ وَحَفاهُ : ٱسْتَأْصَلَهُ ؛ قالَ ٱلْقاضي عِياضٌ : مِنَ ٱلإِحْفاءِ ، وَأَصْلُهُ ٱلاسْتِقْصاءُ في أَخْذِ ٱلشَّارِبِ ، وَفي مَعْناهُ : أَنْهِكُوا ٱلشَّوارِبَ ، فِي ٱلرِّوايَةِ ٱلأُخْرىٰ ، وَٱلإِنْهاكُ : ٱلْمُبالَغَةُ في ٱلشَّيْءِ ، وَٱلْمُرادُ : بالِغُوا في قَصِّ ما طالَ مِنْهُما حَتَّىٰ تَتَبَيَّنَ ٱلشَّفَةُ بَياناً ظاهِراً ؛ نَدْباً . وَقيلَ : وُجُوباً . أَمَّا حَلْقُهُ بِٱلْكُلِّيَّةِ فَمَكْرُوهٌ عَلىٰ ٱلأَصَحِّ عِنْدِ ٱلشَّافِعِيَّةِ ، وَصَرَّحَ مالِكٌ بِأَنَّهُ بِدْعَةٌ . وَأَخَذَ ٱلْحَنَفِيَّةُ وَٱلْحنابِلَةُ بِظَاهِرِ ٱلْخَبَرِ ، فَسَنُّوا حَلْقَهُ . أَمّا قَوْلُهُ : وَأَعْفُوا ٱللِّحىٰ ، فَٱلإِعْفاءُ : أَنْ يُوَفَّرَ شَعْرُها وَيُكَثَّرَ وَلا يُقَصَّ ، يُقالُ : أَعْفَيْتُهُ وَعَفَّيْتُهُ ـ لُغَتانِ ـ إِذا فَعَلْتَ بِهِ ذَلِكَ ، وَإِنَّما حَثُّوا عَلىٰ إِعْفاءِ ٱللِّحىٰ لأَنَّ في ذَلِكَ جَمالًا لِلْوَجْهِ ، وَزِينَةً لِلرَّجُلِ ، وَتَمْييزاً لَهُ عَنِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَمُخالَفَةً لِزَيِّ ٱلْمَجُوسِ أَوِ ٱلْيَهُودِ أَوِ ٱلْمُشْرِكِينَ .

* * *

١١١٣ ـ وَكَانَ مِنْ يَمينِ عائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْها : « لا وَٱلَّذِي زَيَّنَ ٱلرِّجالَ

بِٱللِّحاءِ » [ قال العجلوني في « كشف الخفاء » ، رقم : ١٤٤٧ : رواه الحاكم عن عائشة وذكره في تخريج أحاديث « الفردوس » للحافظ ابن حجر في أثناء حديث ] .

* * *

١١١٤ ـ قَالَ ٱلشَّرِيفُ ٱلرَّضِيُّ [من الطويل] :

رَأَتْ شَعَراتٍ في عِذاري تَبَسَّمَتْ ... كَما ٱفْتَرَّ طِفْلُ ٱلرَّوْضِ عَنْ خِلَعِ ٱلوَسْمِي

فَقُلْتُ لَها : ما ٱلشَّعْرُ سالَ بِعارِضِي ... وَلٰكِنَّهُ نَبْتُ ٱلسِّيادَةِ وَٱلْحِلْمِ

يَزِيدُ بِهِ وَجْهي ضِياءً وَبَهجَةً ... وَمَا تَنْقُصُ ٱلظَّلْماءُ مِنْ بَهْجَةِ ٱلنَّجْمِ

* * *

١١١٥ ـ وَقَالُوا : لا تَصافَيَنَّ مَنْ لا شَعَرَ عَلىٰ عارِضَيْهِ وَإِنْ كانَتِ ٱلدُّنْيا خَراباً إِلَّا مِنْهُ .

* * *

١١١٦ ـ وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلىٰ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ ، وَكَانَ ٱلرَّجُلُ عَظيمَ ٱللِّحْيَةِ وَقتَيْبَةُ خَفيفَ ٱللِّحْيَةِ ، فَقالَ قُتَيْبَةُ : لَقَدْ كَبِرَتْ لِحْيَتُكَ . فَقالَ ٱلرَّجُلُ : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية: ٥٨] ؛ فَقالَ قُتَيْبَةُ : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [٥ سورة المائدة/ الآية : ١٠٠] .

* * *

١١١٧ ـ وَقَالَ ٱلْجاحِظُ فِيمَنْ طالَتْ لِحْيَتُهُ : ما طالَتْ لِحْيَةُ رَجُلٍ إِلَّا تَكَوْسَجَ عَقْلُهُ[1] .

* * *

(١) يُريدُ ٱلْجاحِظُ بِتَكَوْسَجَ عَقْلُهُ : نَقَصَ عَقْلُهُ ، قالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : ٱلْكَوْسَجُ : ٱلنَّاقِصُ ٱلأَسْنانِ ، وَيُقَالُ لِلَّذي لا شَعْرَ عَلىٰ عارِضَيْهِ : كَوْسَجٌ وَثَطٌّ . وَكَوْسَجٌ ، فارِسِيَّةٌ عُرِّبَتْ ، قالَ سِيبَوَيْه : أَصْلُها بِٱلفارِسِيَّةِ كُوسَهْ .

١١١٨ ـ وَفي ٱلْحَديثِ : « مِنْ سَعَادَةِ ٱلْمَرْءِ خِفَّةُ لِحْيَتِهِ » [ رواه الطبراني في « الكبير » وابن عدي في « الكامل » ، عن ابن عباس ؛ « الجامع الصغير » ، رقم : ٨٢٥١ ؛ « كنز العمال » ، رقم : ٣٠٧٤٨] . وَلَيْسَ هَذا يُناقِضُ حَديثَ ٱلإِعْفاءِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ٱلنَّبِيَّ ﷺ كانَ يَأْخُذُ مِنْ لِحْيَتِهِ في طُولِها وَعَرْضِها .

* * *

١١١٩ ـ وَقَدْ قالَ بَعْضُ ٱلْعُلَماءِ : إِنَّهُ لا بَأْسَ بِأَخْذِ ٱلْعارِضَيْنِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ فَقيهِ ٱلْعِراقِ إِبْراهِيمَ بْنِ يَزِيدَ ٱلنَّخَعِيِّ أَنَّهُ كانَ يُبَطِّنُ لِحْيَتَهُ ، وَيَأْخُذَ مِنْ جَوانِبِها ، قالَ شَمِرٌ : مَعْنىٰ يُبَطِّنُ لِحْيَتَهُ أَنْ يَأْخُذَ ٱلشَّعَرَ مِنَ ٱلْحَنَكِ وَٱلذَّقْنِ .

* * *

١١٢٠ ـ وَكَانَ ٱبْنُ ٱلرُّومِي يَسْخَرُ مِنَ ٱللِّحىٰ ٱلطِّوالِ وَيُسَمِّيها أَذْناباً وَمَخالِيَ وَمَذَبَّاتٍ ، وَقَدْ بَلَغَ بِهِ ٱلأَمْرُ في ذَلِكَ إِلىٰ حَدٍّ أَنَّهُ كانَ يَشُكُّ في أَدَبِ كُلِّ غَزيرِ ٱللِّحْيَةِ بَلْ يَجْعَلُ غَزارَتَها دَليلاً عَلىٰ نَزارَةِ أَدَبِهِ ، حَتّىٰ ٱلْبُحْتُرِيّ ٱلَّذي يَقُولُ فِيهِ :

ٱلْبُحْتُرِيُّ ذَنُوبُ ٱلْوَجْهِ نَعْرِفُهُ وَما رَأَيْنا ذَنُوبَ ٱلْوَجْهِ ذا أَدَبِ[1]

وَيَبْدُو أَنَّهُ كانَ يُغالِطُ في هَذا لأَنَّهُ فِيما يَظْهَرُ كانَ يَشْعُرُ بِهَيْبَةِ ٱللِّحْيَةِ ، وَأَنَّها آيَةُ ٱلتَّذْكيرِ ، حَيْثُ يَقُولُ لِصاحِبِ لِحْيَةٍ طَويلَةٍ [من الخفيف] :

اِرْعَ فيها ٱلْمُوسىٰ فَإِنَّكَ مِنْها ـ يَشْهَدُ ٱللهُ ـ في أَثامٍ كَبيرِ[2]

أَيُّما كُوْسَجٍ يَراها فَيَلْقىٰ رَبَّهُ بَعْدَها صَحيحَ ٱلضَّميرِ[3]

---

(١) يُقالُ : فَرَسٌ ذَنُوبٌ ، أَيْ : وافِرُ شَعَرِ ٱلذَّنَبِ ؛ وَذَنُوبُ ٱلْوَجْهِ ، أَيْ : إِنَّ لِوَجْهِهِ ذَنَباً وافِرَ ٱلشَّعْرِ مِنْ هَذا .

(٢) أَرْعَ فِيها ٱلْمُوسىٰ ، أَيْ : ٱجْعَلِ ٱلْمُوسىٰ تَرْعىٰ فِيها ، أَيْ : ٱحْلِقْها .

(٣) يُرِيدُ بِٱلْكَوْسَج : ٱلْقَليلُ شَعْرِ ٱللِّحْيَةِ ، أَيْ : ٱلَّذي لا شَعْرَ في ذَقْنِهِ إِلَّا شَعَراتٌ في أَسْفَلِ=

هُوَ أَحْرىٰ بِأَنْ يَشُكَّ وَيُغْرىٰ بِٱتِّهامِ ٱلْحَكيمِ في ٱلتَّقْديرِ
لِحْيَةٌ أُهْمِلَتْ فَسالَتْ وَفاضَتْ فَإِلَيْها تُشيرُ كَفُّ ٱلْمُشيرِ
ما رَأَتْها عَيْنُ ٱمْرِىءٍ ما رآها قَطُّ إِلَّا أَهَلَّ بِٱلتَّكْبيرِ
رَوْعَةٌ تَسْتَخِفُّهُ لَمْ يُرَعْها مَن رَأىٰ وَجْهَ مُنْكَرٍ ونَكيرِ
فَٱتَّقِ ٱللهَ ذا ٱلْجَلالِ وَغَيِّرْ مُنْكَراً فيكَ مُمْكِنَ ٱلتَّغْييرِ
أَوْ فَقَصِّرْ مِنْها فَحَسْبُكَ مِنْها نِصْفُ شِبْرٍ عَلامَةَ ٱلتَّذْكيرِ

* * *

١١٢١ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلعَتَاهِيَةِ [من مجزوء الكامل] :

لا تَفْخَرَنَّ بِلِحْيَةٍ كَثُرَتْ مَنابِتُها طَويلَهْ
تَهْوِي بِها هُوجُ ٱلرِّيا حِ كَأَنَّها ذَنَبُ ٱلْحَسيلَهْ[1]
قَدْ يُدْرِكُ ٱلشَّرَفَ ٱلفَتىٰ يَوْماً وَلِحْيَتُهُ قَليلَهْ

* * *

١١٢٢ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [ من السريع ] :

وَلِحْيَةٍ يَحْمِلُها مائِقٌ مِثْلُ ٱلشِّراعَيْنِ إِذا أُشْرِعا
تَقُودُهُ ٱلرِّيحُ بِها صاغِراً قَوْداً حَثيثاً يُتْعِبُ ٱلأَخْدَعا
لَوْ غاصَ في ٱلْبَحْرِ بِها غَوْصَةً صادَ بِها حِيتانَهُ أَجْمَعا

* * *

١١٢٣ ـ وَقَالَ مَرْوَانُ ٱبْنُ أَبي حَفْصَةَ [من الوافر] :

= حَنَكِهِ ، وَيُقالُ لَهُ : ثَطٌّ ، وَيُسَمِّيهِ ٱلعَامَّةُ في مِصْرَ : أَجْرودٌ .
(١) ٱلْحَسِيلَةُ : ٱلعِجْلَةُ .

لَقَدْ كانَتْ مَجالِسُنا فِساحاً ... فَضَيَّقَها بِلِحْيَتِهِ رَباحُ
مُبَعْثَرَةُ ٱلأَسافِلِ وَٱلأَعالي ... لَها في كُلِّ زاوِيَةٍ جَناحُ

* * *

١١٢٤ ـ وَقالَ بَعْضُهُمْ [من الوافر] :

أُنَفِّشُ لِحْيَةً عَرُضَتْ وَطالَتْ ... مِنَ ٱلْهَدَباتِ تَمْلأُ عُرْضَ صَدْرِي
أَكادُ إِذا قَعَدْتُ أَبُولُ فيها ... إِذا أَنا لَمْ أُعَقِّصْها بِظُفْرِي

* * *

١١٢٥ ـ وَأَوْرَدَ ٱلْمُبَرِّدُ في « ٱلْكامِلِ » [٢/ ٦٥٢] لأَعْرابِيٍّ [من الطويل] :

كُلُّ ٱمْرِىءٍ ذِي لِحْيَةٍ عَثْوَلِيَّةٍ ... يَقُومُ عَلَيْها ظَنَّ أَنَّ لَهُ فَضْلا
وَمَا ٱلْفَضْلُ في طُولِ ٱلسِّبالِ وَعَرْضِها ... إِذا ٱللهُ لَمْ يَجْعَلْ لِحامِلِها عَقْلا

قالَ ٱلْمُبَرِّدُ : عَثْوَلِيَّةٌ : كَثيرَةٌ ، قالَ : وَٱلْمُسْتَعْمَلُ : يُقالُ : رَجُلٌ عِثْوَلٌ : إِذا كانَ كَثيرَ ٱلشَّعرَ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ في ٱلرَّأْسِ وَٱللحْيَةِ ، وَبَناهُ ٱلأَعْرابِيُّ بِناءَ « جِدْوَلٍ » كَأَنَّهُ « عِثْوَلٌ » ، ثُمَّ نَسَبَ إِلَيْهِ ؛ وَٱلسَّبَلَةُ[1] : مُقَدَّمُ ٱللِّحْيَةِ ، وَيُقالُ لِمَا أَسْبَلَ مِنَ ٱلشَّارِبَيْنِ : سَبَلَتانِ .

* * *

١١٢٦ ـ وَنَظَرَ يَزيدُ بْنُ مَزْيَدٍ ٱلشَّيْبانِيُّ إِلىٰ رَجُلٍ ذِي لِحْيَةٍ عَظِيمَةٍ وَقَدْ

---

(١) وَجَمْعُها : سِبالٌ .
وَقالَ صاحِبُ « ٱلْقاموسِ » : ٱلسَّبَلَةُ ـ مُحَرَّكَةٌ ـ ٱلدَّائِرَةُ في وَسَطِ ٱلشَّفَةِ ٱلْعُلْيا ؛ أَوْ ما عَلىٰ ٱلشَّارِبِ مِنَ ٱلشَّعَرِ ، أَوْ طَرَفُهُ ، أَوْ مُجْتَمَعُ ٱلشَّارِبَيْنِ ، أَوْ ما عَلىٰ ٱلذَّقَنِ إِلىٰ طَرَفِ ٱللِّحْيَةِ كُلِّها ، أَوْ مُقَدَّمُها خاصَّةً .

تَلَفَّفَتْ عَلَىٰ صَدْرِهِ ، فَإِذا هُوَ خاضِبٌ ، فَقَالَ : إِنَّكَ مِنْ لِحْيَتِكَ في مَؤُونَةٍ ؛ فَقالَ ٱلرَّجُلُ أَجَلْ ، وَلِذَلِكَ أَقُولُ [من الطويل] :

لَهَا دِرْهَمٌ لِلدُّهْنِ في كُلِّ جُمْعَةٍ ... وَآخَرُ لِلْحِنّاءِ يَبْتَدِرانِ[1]

وَلَوْلا نَوَالٌ مِنْ يَزِيدَ بْنِ مَزْيَدٍ ... لَصَيَّحَ في حافاتِها ٱلْجَلَمانِ[2]

* * *

١١٢٧ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من المتقارب] :

إِذا عَرَضَتْ لِلْفَتىٰ لِحْيَةٌ ... وَطَالَتْ وَصَارَتْ إِلىٰ سُرَّتِهْ

فَنُقْصانُ عَقْلِ ٱلْفَتىٰ عِنْدَنا ... بِمِقْدارِ ما زِيدَ مِنْ لِحْيَتِهْ

* * *

١١٢٨ ـ وَقَالُوا : ٱللِّحْيَةُ الطَّويلَةُ عُشُّ ٱلْبَراغيثِ ، وَمَزْبَلَةُ ٱلتُّرابِ وَٱلْغُبارِ .

* * *

١١٢٩ ـ وَقَالَ رَجُلٌ لآخَرَ قَدْ مَلأَتْ لِحْيَتُهُ وَجْهَهُ : خَنْدِقْ عَلىٰ وَجْهِكَ قَبْلَ أَنْ يَجْرِيَ ٱلْمَاءُ في ٱلْعُودِ ، فَيَصيرَ وَجْهُكَ كُلُّهُ رَأْسا . . .

* * *

---

(١) قَبْلَ هَذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ [من الطويل] :

لَعَمْرُكَ لَوْ يُعْطِي ٱلأَمِيرُ عَلىٰ ٱللِّحىٰ ... لأُلْفيتُ قَدْ أَيْسَرْتُ مُنْذُ زَمانِ

إِذَنْ لَشَفَتْني لِحْيَتي مِنْ عِصابَةٍ ... لَهُمْ عِنْدَهُ أَلْفٌ وَلي مِئَتانِ

إِذا نُشِرَتْ في يَوْمِ عيدٍ رَأَيْتَها ... عَلىٰ ٱلنَّحْرِ مِنْ مِئَتَيْنِ كَالقَفَدانِ

مِن مِئَتَيْنِ ، يُريدُ : مِنْ مِئَتَيْ فَرْسَخٍ ؛ وَٱلْقَفَدانِ : خَريطَةُ ٱلْعَطّارِ ، أَوْ خَريطَةٌ مِنْ جِلْدٍ تَتخذُ لِلْعِطْرِ .

(٢) لَصَيَّحَ ، يُروىٰ : لَصَوَّتَ ؛ وَٱلْجَلَمَانُ : ٱلْمِقَصُّ ، وَإِنَّما ثُنِّيَ لإِرادَةِ شَفْرَتَيْهِ وَلا وَاحِدَ لَهُ .

١١٣٠ ـ وَقَالَ شاعِرٌ [من الطويل] :

إذا لِحْيَةٌ خَفَّتْ وَفَىٰ عَقْلُ رَبِّها وَإِنْ ضَخُمَتْ لَمْ يَحْظَ إِلَّا بِها ٱلصَّدْرُ

* * *

وَمِنْ طُرَفِهِمْ فِيمَنْ يَنْتِفُ لِحْيَتَهُ أَوْ يَحْلِقُها :

١١٣١ ـ قِيلَ لأَبي عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمَنْتُوفِ : لِمَ تَنْتِفُ لِحْيَتَكَ ؟ فَقَالَ : وَأَنْتَ ، لِمَ لا تَنْتِفُها ؟.

* * *

١١٣٢ ـ وَقَالَ ٱبْنُ طَباطَبَا في بَعْضِ مَنْ كان يَنْتِفُ لِحْيَتَهُ [من مجزوء الرجز] :

يا مَنْ يُزِيلُ خِلَّةَ ٱلرَّحْمَـ ـنِ عَمَّا خُلِقَتْ
هَلْ لَكَ عُذْرٌ عِنْدَهُ إِذا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ
في لِحْيَةٍ إِنْ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ نُتِفَتْ

* * *

١١٣٣ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الكامل] :

إِنْ كانَ بِٱلْمِلْقاطِ يَحْصِدُ نَبْتَها فَيَدُ ٱللَّيالي مِنْ وَراهُ تَزْرَعُ

* * *

١١٣٤ ـ وَقيلَ لِمُخَنَّثٍ : لِمَ تَنْتِفُ لِحْيَتَكَ وَهِيَ مِنْ هِبَةِ ٱللهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ ٱللهَ تَعالىٰ أَمَرَني بِذٰلِكَ ، فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٨٦] وَلَمْ أَجِدْ أَحْسَنَ مِنْها فَرَدَدْتُها .

* * *

١١٣٥ ـ وَقيلَ لآخَرَ : لِمَ تَنْتِفُ لِحْيَتَكَ ، وَقَدْ زَيَّنَ ٱللهُ بِها وَجْهَكَ ؟ فَقَالَ : أَتُحِبُّ أَنْ يُزَيِّنَ بها فَقْحَتَكَ ؟ قَالَ : لا ، قَالَ : ما لا تُحِبُّ أَنْ يَطلُعَ في ٱسْتِكَ ، كَيْفَ ٱسْتَصْلِحُهُ لِوَجْهي !.

* * *

١١٣٦ ـ وَمِنْ عَبْقَرِيّاتِهِمْ في ٱلصَّلَعِ قَوْلُ ٱلْخَليلِ بْنِ أَحْمَدَ : كانَ ٱلشَّريفُ إِذا لَمْ يَصْلَعْ نَتَفوا شَعْرَهُ تَشْبيهاً بِذَلِكَ .

* * *

١١٣٧ ـ وَأَنْشَدَ ٱلْعُتْبيُّ [من البسيط] :

قَدْ حَصَّ رَأْسي فَتيتُ ٱلْمِسْكِ أَخْلُطُهُ بِـٱلْعَنْبَرِ ٱلـوَرْدِ حَتّـىٰ مـا بِـه شَعَـرُ

فَقالَ : لَشَتَّانَ ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبي قَيْسِ ٱبْنِ ٱلأَسْلَتِ في قَوْلِهِ [من السريع] :

قَـدْ حَصَّـتِ ٱلبَيْضَـةُ رَأْسـي فَمـا أَطْعَـمُ نَـوْمـاً غَيْـرَ تَهْجـاعِ[1]

حَصَّ شَعَرُهُ : ٱنْجَرَدَ وَتَناثَرَ وَذَهَبَ ؛ وَٱلْبَيْضَةُ : وَاحِدَةُ ٱلْبَيْضِ مِنَ ٱلْحَديدِ ، يُريدُ ٱبْنُ ٱلأَسْلَتِ أَنَّ ٱلْبَيْضَةَ لا تُفارِقُه لِطُولِ مُمارَسَتِهِ ٱلْحُرُوبَ حَتّىٰ إِنَّها ذَهَبَتْ بِشَعْرِهِ ، وَيُريدُ ٱلْعُتْبِيُّ أَنَّ فُرْقاناً كَبيراً بَيْنَ مَنْ ذَهَبَ شَعْرُهُ مِنْ طُولِ ٱلدِّهْنِ بِالطِّيبِ وَمَنْ ذَهَبَ شَعَرُهُ مِنْ طُولِ لُبْسِهِ ٱلْمِغْفَرَ وَٱلْحَديدَ ، فَذاكَ مُتْرَفٌ وَهَذا رَجُلٌ مِحْرَبٌ .

* * *

١١٣٨ ـ وَأَلَحَّ رَجُلٌ ٱلنَّظَرَ إِلىٰ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبي طالِبٍ ، فَقالَ لَهُ : إِلىٰ أَيِّ

---

(١) ٱلتَّهْجاعُ : ٱلنَّوْمَةُ ٱلْخَفيفَةُ .

شَيْءٍ تَنْظُرُ ؟ فَقَالَ : إِلىٰ بَطْنٍ مُنْدَحٍ[1] ، وَهامَةٍ صَلْعَاءَ ؛ فَقَالَ عَلِيٌّ : أَمّا ٱلْبَطْنُ فَأَسْفَلُهُ طُعْمٌ وَأَعْلاهُ عِلْمٌ ، وَأَمّا ٱلْهَامَةُ فَكَما قالَ ٱلشَّاعِرُ [من البسيط] :

بَنَى لَنا ٱلْمَجْدَ آباءٌ لَهُمْ شَرَفٌ صُلْعُ ٱلرُّؤُوسِ وَسِيما ٱلسُّؤْدُدِ ٱلصَّلَعُ

* * *

١١٣٩ ـ يُرْوىٰ أَنَّ ٱلأَبْرَشَ ٱلْكَلْبِيَّ دَخَلَ عَلىٰ هِشامِ بْنِ عَبدِ ٱلْملِكِ وَحجَّامٌ يَحْجُمُهُ ، فَمَسَّ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : يا أَبْرَشُ ! ما صُلِعَ لَئِيمٌ قَطُّ ؛ فَكَشَفَ ٱلْحَجَّامِ فَإِذا هُوَ أَصْلَعُ ؛ فَقالَ : أَمِنْ كَرَمٍ صُلِعَ هَذا ! .

* * *

١١٤٠ ـ وَقالَتِ ٱمْرَأَةٌ لِزَوْجِها ـ وَكانَ أَصْلَعَ ـ: لَسْتُ أَغْبِطُ إِلَّا شَعَرَكَ ، حَيْثُ فارَقَكَ فَٱسْتَراحَ مِنْكَ ! .

* * *

١١٤١ ـ وَكانَ لِلْخَليلِ بْنِ أَحْمَدَ واضِعِ عِلْمِ ٱلْعَرُوضِ صَديقٌ يُكْنىٰ أَبا ٱلْمُعَلَّىٰ ، مَوْلًى لِبَني يَشْكُرَ ، وَكانَ أَصْلَعَ شَديدَ ٱلصَّلَعِ ، فَبَيْنا هُوَ وَٱلْخَليلُ جالِسانِ عِنْدَ قَصْرِ أَوْسٍ ، إِذْ مَرَّتْ بِهِما ٱمْرَأَةٌ يُقالُ لَها : أُمُّ عُثمانَ ، مِنْ وَلَدِ ٱلْمُعارِكِ ٱبْنِ عُثْمانَ، وَمَعَها بَناتٌ لَها، فَقالَ أَبُو ٱلْمُعَلَّىٰ لِلْخليلِ: يا أَبا عَبْدِ ٱلرَّحْمَنِ ! أَلا تُكَلِّمُ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةَ ؟ قال : وَيْحَكَ ! لا تَفْعَلْ ، فَإِنَّهُنَّ أَعَدُّ شَيْءٍ جَواباً ، وَٱلْقَوْلُ إِلىٰ مِثْلِكَ يُسْرِعُ ؛ فَجَلَسْنَ يَتَرَوَّحْنَ ، فَقالَ لأُمِّهِنَّ : يا أَمَةَ ٱللهِ ! أَلَكِ زَوْجٌ ؟ قالَتْ : لا وَٱللهِ ، وَلا لِوَاحِدَةٍ مِنّا ؛ قالَ : فَهَلْ لَكُنَّ في أَزْواجٍ ؟ قالَتْ : وَدِدْنا وَٱللهِ ؛

(١) ٱنْدَحَّ بَطْنُ فُلانٍ ٱنْدِحاحاً : ٱتَّسَعَ مِنَ ٱلْبِطْنَةِ ، ٱنْدَاحَ بَطْنُهُ ٱنْدِياحاً : إِذا ٱنْتَفَخَ وَتَدَلّىٰ مِنْ سِمَنٍ كانَ ذٰلِكَ أَوْ عِلَّةٍ .

قَالَ : فَأَنا أَتزَوَّجُكِ وَيَتَزَوَّجُ هَذا إِحْدىٰ بَناتِكِ ؛ فَقَالَتْ لَهُ : أَمَّا أَنْتَ فَقَدِ ٱبْتَلاكَ ٱللهُ بِبلاءَيْنِ ، أَمَّا أَحَدُهُما فَإِنَّهُ قَدْ قَرَعَ رَأْسَكَ بِمِسْحَاةٍ ، وَجَعَلَ لَكَ عِقْصَةً فِي قَفَاكَ بَيْضاءَ(١) ، فَكَأَنَّما صارَتْ في قَفَاكَ نُخامَةً ، فَبَلَغَ من نُوكِكَ أَنَّكَ خَضَبْتَها بِحُمْرَةٍ ، فَلَوْ كُنْتَ إِذِ ٱبْتُليتَ خَضَبْتَها بِسَوَادٍ فَغَطَّيْتَ عَوَارَكَ هَذا ٱلَّذي أَبْداهُ مِنْكَ ! ثُمَّ قالَتْ لَهُ : أَظُنُّكَ مِنَ رَهْطِ ٱلأَعْشىٰ ؛ فَقَالَ لَها أَبُو ٱلْمُعَلّىٰ : أَنا مَوْلًى لِبَني يَشْكُرَ ؛ قالَتْ : أَفتَرْوِي بَيْتَ ٱلأَعْشىٰ [من البسيط] :

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كَانَ ٱلَّذِي نَكِرَتْ ... مِنَ ٱلْحَوَادِثِ إِلَّا ٱلشَّيْبَ وَٱلصَّلَعَا

فَمَا بَقِيَ بَعْدَ ٱلشَّيْبِ وَٱلصَّلَعِ إِلَّا أَنْ تَلْعَقَ ٱلزُّبْدَ أَوْ تَمُوتَ هُزَالًا ؛ ثُمَّ ٱلْتَفَتَتْ إِلَىٰ ٱلْخَلِيلِ ، فَقَالَتْ : مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ ٱللهِ ؟ فَقَالَ : أَنَا ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ ، كُفِّي رَحِمَكِ ٱللهُ ، فَقَدْ وَٱللهِ نَهَيْتُهُ عَنْ كَلامِكِ وَحَذَّرْتُهُ هَذَا ؛ قَالَتْ : أَمَا إِنَّكَ قَدْ نَصَحْتَ لَهُ ، أَمَا عَلِمَ هَذَا ٱلأَحْمَقُ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ يَخْتَرْنَ مِنَ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُسْحُلانِيَّ(٢) ٱلْمَنْظَرَانِيَّ ٱلمَخْبَرَانِيَّ ، ٱلْغَلِيظَ ٱلقَصَرَةِ ، ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَمَرَةِ ، ٱلَّذِي إِذَا طَعَنَ فَأَصَابَ حَفَرَ ، وَإِذَا أَخْطَأَ قَشَرَ ، وَإِذَا أَخْرَجَهُ عَقَرَ ؛ قَالَ : فَضَحِكَ ٱلْخَلِيلُ ، ثُمَّ قَامَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَمَعَهَا بَنَاتُهَا يَتَهَادَيْنَ ، فَتَمَثَّلَ أَبُو ٱلْمُعَلَّىٰ بِقَوْلِ عُمَرَ ٱبْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ٱلْمَخْزُومِيِّ [من مجزوء الخفيف] :

فَتَهَادَيْنَ وَٱنْصَرَفْنَ ... ثِقَالَ ٱلْحَقَائِبِ

فَقَالَتْ : يَا أَحْمَقْ ! أَمَا تَرْوِي مَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ فِي قَوْمِكَ ؟ قَالَ : لا ؛ فَقَالَتْ : قَالَ :

---

(١) العِقْصَةُ : ٱلْخَصْلَةُ مِنَ ٱلشَّعَرِ .

(٢) ٱلْمُسْحُلانِيُّ : ٱلطَّوِيلُ ٱلْحَسَنُ ٱلْقَوَامِ ؛ وَٱلْمَنْظَرانِيُّ : ذُو ٱلْمَنْظَرِ والرُّواءِ وَٱلْهَيْئَةِ ؛ وَٱلْمَخْبَرَانِيُّ : ذُو ٱلْمَخْبَرِ ٱلْحَسَنِ .

وَيَشْكُـرُ لا تَسْتَطِيعُ ٱلْـوِنَـاءَ     وَتَعْجِـزُ يَشْكُـرُ أَنْ تَغْـدِرَا

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِٱللهِ لَوْ كَانَ لِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنَّا مِنَ ٱلأَحْرَاحِ بِعَدَدِ مَا أَهْدَىٰ مالِكٌ ٱلْعُكْلِيُّ إِلَىٰ عَمْرَةَ بِنْتِ ٱلْحَارِثِ ٱلنُّمَيْرِيِّ ، مَا أَعْطَيْنَاكَ وَلا صَاحِبَكَ مِنْهَا شَيْئاً ؛ فَقَالَ ٱلْخَلِيلُ : أَنْشَدْتُكِ بِٱللهِ ، كَمْ كَانَتْ ٱلْهَدِيَّةُ ٱلَّتِي أَهْدَاهَا ٱلْعُكْلِيُّ إِلَىٰ ٱلنُّمَيْرِيَّةِ ؟ قَالَتْ لَهُ : أَرَاكَ حَاذِقاً بِٱلتَّجْمِيشِ[1] ، قَلِيلَ ٱلرِّوَايَةِ لِلشِّعْرِ ؛ ثُمَّ أَنْشَدَتْهُ قَوْلَ ٱلْعُكْلِيِّ : [من الرجز]

هَـدِيَّتِـي أُخْـتَ بَنِـي نُمَيْـرِ     لِحِـرْكِ يَـا عَمْـرَةُ أَلْـفُ عَيْـرِ

فِـي كَـلِّ عَيْـرٍ أَلْـفُ كُـرٍّ أَيْـرِ

قَالَ : فَقَالَ ٱلْخَلِيلُ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ قَصَّرَ ! أَفَلَا جَعَلَ لِاسْتِهَا بَعْضَ ٱلْهَدِيَّة وَلَمْ يَدَعْهَا فَارِغَةً ! قَالَتْ : قَدْ أَشْفَقَ عَلَىٰ هَدِيَّتِه أَنْ تَحْتَرِقْ ، أَلَمْ تَرْوِ بَيْتَ جَرِيرٍ حَيْثُ يَقُولُ : [من الوافر]

وَلَـوْ وُضِعَـتْ فِقَـاحُ بَنِـي نُمَيْـرِ     عَلَـىٰ خَبَـثِ ٱلْحَـدِيـدِ إِذاً لَـذَابَـا

فَقَالَ ٱلْخَلِيلُ لأَبِي ٱلْمُعَلَّىٰ [من الوافر] :

نَصَحْتُـكَ يَـا مُحَمَّـدُ إِنَّ نُصْحِـي     رَخِيـصٌ يَـا رَفِيقِـي لِلصَّـدِيـقِ

فَلَـمْ تَقْبَـلْ وَكَـمْ مِـنْ نُصْـحِ وُدٍّ     أُضَيِّـعَ فَحَـادَ عَـنْ وَضَـحِ ٱلطَّـرِيـقِ

قَالَ : ثُمَّ ٱنْصَرَفَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَبَقِي ٱلْخَلِيلُ وَأَبُو ٱلْمُعَلَّىٰ مُتَعَجِّبَيْنِ مِنْهَا وَمِنْ ذَرَابَةِ لِسَانِهَا وَسُرْعَةِ جَوَابِهَا .

* * *

---

(١) ٱلتَّجْمِيشُ : ٱلْمُغَازَلَةُ وَمُحَادَثَةُ ٱلنِّسَاءِ .

١١٤٢ ـ وَإِلَيْكَ أُرْجُوزَةً لأَبِي ٱلنَّجْمِ : [من الرجز]

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ ٱلْخِيَارِ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً كُلُّهُ لَمْ أَصْنَعِ
مِنْ أَنْ رَأَتْ رَأْسِي كَرَأْسِ ٱلأَصْلَعِ مَيَّزَ عَنْهُ قُنْزُعاً عَنْ قُنْزُعِ
جَذْبُ ٱللَّيَالِي : أَبْطِئِي أَوْ أَسْرِعِي قَرْناً أَشِيبِيهِ وَقَرْناً فَٱنْزَعِي
أَفْنَاهُ قِيلُ ٱللهِ لِلشَّمْسِ ٱطْلَعِي حَتَّىٰ إِذَا وَارَاكِ أُفْقٌ فَٱرْجِعِي
يَا ٱبْنَةَ عَمَّا ، لا تَلُومِي وَٱهْجَعِي لا يَخْرِقُ ٱللَّوْمُ حِجَابَ مَسْمَعِي
أَلَمْ يَكُنْ يَبْيَضُّ إِنْ لَمْ يَصْلَعِ إِنْ لَمْ يُصِبْنِي قَبْلَ ذَاكَ مَصْرَعِي
لا تُسْمِعِينِي مِنْكِ لَوْماً وَٱسْمَعِي أَيْهَاتَ أَيْهَاتَ فَلا تَطَلَّعِي
هِيَ ٱلْمَقَادِيرُ فَلُومِي أَوْ دَعِي لا تَطْمَعِي فِي فُرْقَتِي لا تَطْمَعِي
وَلَا تُرَوِّعِينِي لا تُرَوِّعِي وَٱسْتَشْعِرِي ٱلْيَأْسَ وَلا تَفَجَّعِي
فَذَاكِ خَيْرٌ لَكِ مِنْ أَنْ تَجْزَعِي فَتُحْبَسِي وَتُشْتَمِي وَتُوجَعِي

أُمُّ ٱلْخِيَارِ ، هِيَ : زَوْجَةُ أَبِي ٱلنَّجْمِ ؛ وَكُلُّهُ تُقْرَأُ بِٱلرَّفْعِ وَبِٱلنَّصْبِ ـ ٱنْظُرْ كُتُبَ ٱلنَّحْوِ وَالبَيَانِ ـ وَمِنْ أَنْ رَأَتْ ، أَيْ : مِنْ أَجْلِ أَنْ رَأَتْ ؛ يَقُولُ أَبُو ٱلنَّجْمِ : إِنَّ زَوْجَتِي أَصْبَحَتْ تَدَّعِي عَلَيَّ ذَنْباً ـ وَهُوَ ٱلشَّيْبُ وَٱلصَّلَعُ وَٱلْعَجْزُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمّا تَسْتَتْبِعُهُ ٱلشَّيْخُوخَةُ ، مَعَ أَنَّنِي لَمْ أَصْنَعْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ٱلذَّنْبِ ، ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا ٱلصَّلَعُ مَيَّزَ ـ أَيْ : فَصَلَ عَنْهُ ـ أَيْ : عَنْ رَأْسِي قُنْزُعاً بَعْدَ قُنْزُعٍ ، جَذْبُ ٱللَّيَالِي ، أَيْ : مُضِيُّهَا وَكَرُّهَا ؛ وَٱلْقُنْزُعُ وَٱلْقُنْزُعَةُ : ٱلشَّعْرُ حَوْلَ ٱلرَّأْسِ وَٱلْخُصْلَةُ مِنَ ٱلشَّعَرِ تُتْرَكُ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلصَّبِيِّ ؛ وَعَنْ قُنُزعٍ ، أَيْ : بَعْدَ قُنْزُعٍ ؛ وَأَبْطِئِي أَوْ أَسْرِعِي ، حَالٌ مِنَ ٱللَّيَالِي عَلَىٰ تَقْدِيرِ ٱلْقَوْلِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعاً ، أَيْ : ٱصْنَعِي أَيَّتُهَا ٱللَّيَالِي مَا بَدَا لَكِ ، فَلا أُبَالِي بَعْدَ هَذَا ؛ ثُمَّ قَالَ يُخَاطِبُ ٱللَّيَالِي : قَرْناً أَشِيبِيهِ وَقَرْناً فَٱنْزَعِي ؛ وَٱلْقَرْنُ : ٱلْخُصْلَةُ مِنَ ٱلشَّعْرِ ،

وَيُقَالُ : أَشَابَ ٱلدَّهْرُ أَو ٱلْهَمُّ رَأْسَهُ : شَيَّبَهُ ؛ وَٱنْزَعِي مِن ٱلنَّزَعِ ، وَهُوَ ٱنْحِسَارُ ٱلشَّعْرِ عَنْ جَانِبَيْ ٱلْجَبْهَةِ ؛ ثُمَّ قَالَ : أَفْنَاهُ قِيلُ ٱللهِ لِلشَّمْسِ ٱطْلَعِي ، فَٱلضَّمِيرُ في أَفْنَاهُ لأَبِي ٱلنَّجْمِ أَوْ لِلشَّعْرِ ؛ وَقِيلُ ٱللهِ : أَمْرُهُ ؛ وَيَا ٱبْنَةَ عَمَّا ، أَصْلُهُ : يَا ٱبْنَةَ عَمِّي ؛ وَيَبْيَضُّ ، أَيْ : ٱلرَّأْسُ ؛ وَأَيْهَاتَ أَيْهَاتَ لُغَةٌ فِي هَيْهَاتَ ، أَيْ : بَعُدَ ؛ وَتَطَلَّعِي بِحَذْفِ إِحْدَىٰ ٱلتَّاءَيْنِ ، أَي : تَتَطَلَّعِي ؛ وَٱسْتَشْعِرِي ، يُرِيدُ أَضْمِرِي ، يقال : ٱسْتَشْعَرَ خَوْفاً ، يُرَادُ : أَضْمَرَ .

* * *

١١٤٣ ـ وَمِنْ أَبْيَاتِ « ٱلْحَمَاسَةِ » ـ حَمَاسَةِ أَبِي تَمَّامٍ ـ [من الطويل] :

أَلَا قَالَتِ ٱلْعَصْمَاءُ يَوْمَ لَقِيتُهَا ... أَرَاكَ حَدِيثاً نَاعِمَ ٱلْبَالِ أَفْرَعَا

فَقُلْتُ لَهَا : لَا تُنْكِرِينِي فَقَلَّمَا ... يَسُودُ ٱلْفَتَىٰ حَتَّىٰ يَشِيبَ وَيَصْلَعَا

وَلَلْقَارِحُ ٱلْيَعْبُوبُ خَيْرٌ عُلالَةً ... مِنَ ٱلْجَذَعِ ٱلْمُرْخَىٰ وَأَبْعَدُ مَنْزَعَا

ٱلْعَصْمَاءُ : ٱمْرَأَةٌ ؛ وَٱلْحَدِيثُ هُنَا نَقِيضُ ٱلْقَدِيمِ ، وَهُوَ ظَرْفٌ ؛ يَقُولُ : قَالَتْ لِي هَذِهِ ٱلْمَرْأَةُ لَمَّا ٱلْتَقَيْتُ مَعَهَا : أَعْلَمُكَ عَنْ قَرِيبٍ نَاعِمَ ٱلْحَالِ أَفْرَعَ ، أَيْ : تَامَّ شَعَرِ ٱلرَّأْسِ ، لَمْ يَتَسَلَّطْ صَلَعٌ ولا حَدَثَ ٱنْحِسَارُ شَعَرٍ ، فَكَيْفَ تَغَيَّرْتَ مَعَ قُرْبِ ٱلأَمَدِ ؟! ثُمَّ قَالَ : فَقُلْتُ لَهَا : لا تَسْتَنْكِرِي مَا رَأَيْتِ مِنْ شُحُوبِ لَوْنِي وَٱنْحِسَارِ شَعْرِ رَأْسِي ! فَمَا يَنَالُ ٱلْفَتَىٰ ٱلسِّيَادَةَ حَتَّىٰ يَسْتَبْدِلَ بِشَبِيبَته شَيْباً وَبِوُفُورِ شَعَرِ رَأْسِهِ صَلَعاً ؛ ثُمَّ قَالَ يُفَضِّلُ نَفْسَهُ مَعَ شَيْخُوخَتِهِ وَقَدْ حَنَّكَهُ ٱلدَّهْرُ عَلَىٰ ٱلأَحْدَاثِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُجَرِّبُوا ٱلأُمُورَ : إِنَّ ٱلفَرَسَ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ وَٱلْقُوَّةِ ٱلَّذِي يَجْرِي جِرْيَةَ ٱلْمَاءِ سُهُولَةً وَنَفَاذاً خَيْرٌ بَقَاءً وَأَبْعَدُ غَايَةً مِنَ ٱلْحَدَثِ وَهُو مُهْمَلٌ لَمْ يُؤَدَّبْ بِإِسْرَاجٍ وَلا إِلْجَامٍ ، فَٱلْقَارِحُ مِنَ ٱلْخَيْلِ بِمَنْزِلَةِ ٱلْبَازِلِ مِنَ ٱلإِبِلِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي تَمَّتْ وَٱسْتَحْكَمَتْ قُوَّتُهُ ؛ وَٱلْيَعْبُوبُ : ٱلْفَرَسُ ٱلْكَثِيرُ

ٱلْجَرْيِ ؛ وَٱلْجذَعُ : مَا لَهُ سَنَتَانِ ؛ وَٱلْعُلَالَةُ : بَقِيَّةُ ٱلْجَرْيِ ؛ وَٱلْمُرَادُ بِهِ هُنَا : ٱلْجَرْيُ ؛ وَٱلْمُرْخَىٰ : ٱلَّذِي يُرْخَىٰ فِي سَيْرِهِ قَلَيلًا قَلِيلًا لا يُكَلَّفُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَيُرْوَىٰ ٱلْمُرْخِي ، وَٱلإِرْخَاءُ : لِينٌ فِي ٱلْجَرْيِ ؛ وَٱلْمَنْزَعُ : ٱلنُّزُوعُ إِلَىٰ ٱلْغَايَةِ .

* * *

١١٤٤ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِي يَصِفُ ٱلصَّلَعَ [من السريع] :

يَـأْخُـذُ أَعْلَـىٰ ٱلْـوَجْـهِ مِـنْ رَأْسِـهِ ... أَخْـذَ نَهَـارِ ٱلصَّيْـفِ مِـنْ لَيْلِـهِ

* * *

١١٤٥ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من البسيط] :

جَـزِعْـتُ لِلشَّيْـبِ لَمَّـا حَـلَّ أَوَّلُـهُ ... فَجَـاءَنِـي حَـادِثٌ أَنْسَـانِـيَ ٱلْجَـزَعَـا

فَكَيْـفَ لِـي بِـدَوَاءٍ يُـذْهِـبُ ٱلصَّلَعَـا ... هَبِ ٱلْمَشِيبَ يُدَاوِي ٱلْخِطْرُ شَائِعَهُ

* * *

١١٤٦ ـ وَبَدِيعٌ قَوْلُ أَبِي ٱلنَّجْمِ [من الرجز] :

قَـالَـتْ سُلَيْمَـىٰ : أَنْـتَ شَيْـخٌ أَنْـزَعُ ... فَقُلْـتُ : مَـا ذَاكَ وَإِنِّـي أَصْلَـعُ[١]

ثُـمَّ حَسَـرْتُ عَـنْ صَفَـاةٍ تَلْمَـعُ ... فَـأَقْبَلَـتْ قَـائِلَـةً تَسْتَـرْجِـعُ[٢]

مَـــا رَأْسُ ذَا إِلَّا جَبِيـــنٌ أَجْمَـــعُ

* * *

١١٤٧ ـ وَمِثْلُه قَوْلُ رُؤْبَةَ [من الرجز] :

---

(١) أَنْزَعُ ، مِنَ ٱلنَّزَعِ ( بِٱلتَّحْرِيكِ ) وَهُوَ ٱنْحِسَارُ مُقَدَّمِ شَعَرِ ٱلرَّأْسِ مِنْ جَانِبَيْ ٱلْجَبْهَةِ ؛ وَأَصْلَعُ مِنَ ٱلصَّلَعِ ، وَهُوَ ذَهَابُ شَعَرِ ٱلرَّأْسِ كُلِّهِ أَوْ ذَهَابُ وَسَطِهِ .

(٢) ٱلصَّفَاةُ فِي ٱلأَصْلِ : ٱلصَّخْرَةُ ٱلْمَلْسَاءُ شَبَّهَ بِهَا رَأْسَهُ ؛ وَتَسْتَرْجِعُ : تَقُولُ : إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

قَدْ تَرَكَ ٱلدَّهْرُ صَفَاتِي صَفْصَفَا[١] فَصَارَ رَأْسِي جَبْهَةً إِلَىٰ ٱلْقَفَا
كَأَنَّمَا قَدْ كَانَ رَبْعاً فَعْفَعاَ يُمْسِي وَيُضْحِي لِلْمَنَايَا هَدَفَا

* * *

١١٤٨ ـ وَقَدْ كَانَ أَبُو ٱلنَّجْمِ ٱلْعِجْلِي أَحَدُ رُجَّازِ ٱلْعَرَبِ ٱلْفُحُولِ ، وَمِنْ طَرِيفِ أَخْبَارِهِ مَا رَوَاهُ ٱلْمُبَرِّدِ في « ٱلْكَامِلِ » [٢/٩٩٧ ـ ٩٩٩] وَأَبُو ٱلْفَرَجِ في « ٱلأَغَانِي » [١٠/١٥٥ ـ ١٥٧] ، وَهُوَ مِمَّا يَتَّصِلُ بِمَوْضُوعِ هَذَا ٱلْمُعْجَمِ وإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مَوْضِعَهُ [ راجع رقم : ١٢٣٢ ] ، قَالا :

أَنْشَدَ أَبُو ٱلنَّجْمِ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أُرْجُوزَتَهُ ٱلَّتِي مَطْلِعُهَا : [من الرجز]

ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلأَجْلَلِ

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ قَوْلَهُ في صِفَةِ ٱلشَّمْسِ :

حَتَّى إِذَا ٱلشَّمْسُ جَلَاهَا ٱلْمُجْتَلِي بَيْنَ سِمَاطَيْ شَفَقٍ مُرَعْبَلِ[٢]
صَغْوَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ فَهِيَ عَلَىٰ ٱلأُفُقِ كَعَيْنِ ٱلأَحْوَلِ[٣]

غَضِبَ هَشَامٌ ـ وَكَانَتْ عَيْنُ هِشَامٍ حَوْلاءَ ، وَقَدْ ذَهَبَ ٱلرَّوِيُّ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ عَنِ ٱلْفِكْرِ في عَيْنِ هِشَامَ ـ فَأَمَرَ هِشَامُ بِطَرْدِهِ ، فَأَمَّلَ أَبُو ٱلنَّجْمِ رَجْعَتَه ، وَكَانَ يأْوِي ٱلْمَسَاجِدَ ، فَأَرِقَ هِشَامٌ لَيْلَةً ، فقَالَ لِحَاجِبِهِ : أَبْغِنِي رَجُلًا عَرَبِيًّا فَصِيحاً يُحادِثُني وَيُنْشِدُنِي ؛ فَطَلَبَ لَهُ مَا طَلَبَ ، فَوَقَفَ عَلَىٰ أَبِي ٱلْنَجْمِ فَأَتَىٰ ، فَلَمَّا دُخِلَ بِهِ إِلَيْهِ ، قَالَ : أَيْنَ تَكُونُ مُنْذُ أَقْصَيْنَاكَ ؟ قَالَ : بِحَيْثُ أَلْفَتْنِي رُسُلُكَ . قَالَ : فَمَنْ كَانَ أَبَا مَثْوَاكَ[٤] ؟ قَالَ : رَجُلَيْنِ : كَلْبِيًّا وَتَغْلِبِيًّا ، أَتَغَدَّىٰ عِنْدَ

(١) صَفْصَفًا : عَلَىٰ ٱلْمَثَلِ بِٱلْقَاعِ ٱلصَّفْصَفِ ، وَهُوَ : ٱلأَمْلَسُ ، لا نَبَاتَ فِيهِ .
(٢) ٱلسِّمَاطَانِ : ٱلْجَانِبَانِ ؛ وَٱلْمُرَعْبَلُ : ٱلْمُقَطَّعُ .
(٣) صَغْوَاءُ : مِنْ صَغَتِ ٱلنُّجُومُ : إِذَا مَالَتْ لِلْغُرُوبِ ، يَقُولُ : كَادَتْ تَغِيبُ .
(٤) يُقَالُ لِرَبِّ ٱلْبَيْتِ وَرَبَّةِ ٱلْبَيْتِ ٱللَّذَيْنِ يَنْزِلُ بِهِمَا ٱلضَّيْفُ : هِيَ أُمُّ مَثْوَاهُ وَهُوَ أَبُو مَثْوَاهُ ؛ وَفي =

أَحَدِهِمَا وَأَتَعَشَّىٰ عِنْدَ ٱلآخَرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : مَالَكَ مِنَ ٱلْوَلَدِ ؟ قَالَ : ثَلاثُ بَنَاتٍ وَبُنَيٌّ ؛ فَقَالَ لَهُ : هَلْ أَخْرَجْتَ مِنْ بَنَاتِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ زَوَّجْتُ ٱثْنَتَيْنِ وَبَقِيَتْ وَاحِدَةٌ تُجْمِزُ فِي أَبْيَاتِنَا ـ بُيُوتِنَا ـ[1] كَأَنَّهَا نَعَامَةٌ ؛ قَالَ : فَمَا وَصَّيْتَ بِهِ ٱلأُولَىٰ ؟ وَكَانَتْ تُسَمَّىٰ بَرَّةَ ، قَالَ [من الرجز] :

أَوْصَيْتُ مِنْ بَرَّةَ قَلْبَاً حُرَّا ... بِٱلْكَلْبِ خَيْراً وَٱلْحَمَاةِ شَرَّا[2]

لَا تَسْأَمِي ضَرْبَاً لَهَا وَجَرَّا ... حَتَّىٰ يَرَوْا حُلْوَ ٱلْحَيَاةِ مُرَّا

وَإِنْ كَسَتْكِ ذَهَبَاً وَدُرَّا ... وَٱلْحَيَّ عُمِّيهِمْ بِشَرٍّ طُرَّا

فَضَحِكَ هِشَامُ ، وَقَالَ : فَمَا قُلْتَ لِلأُخْرَىٰ ؟ قُلْتُ [من الرجز] :

سُبِّي ٱلْحَمَاةَ وَٱبْهَتِي عَلَيْهَا ... وَإِنْ رَنَتْ فَٱزْدَلِفِي إِلَيْهَا[3]

وَأَوْجِعِي بِٱلْفِهْرِ رُكْبَتَيْهَا ... وَمِرْفَقَيْهَا وَٱضْرِبِي جَنْبَيْهَا[4]

لا تُخْبِرِي ٱلدَّهْرَ بِذَاكِ ٱبْنَيْهَا

فَضَحِكَ هِشَامُ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : مَا قُلْتَ فِي ٱلثَّالِثَةِ وَفِي تَأْخِيرِ تَزْوِيجِهَا ؟ قَالَ : قُلْتُ [من الرجز] :

كَأَنَّ ظَلَّامَةَ أُخْتَ شَيْبَانْ ... يَتِيمَةٌ وَوَالِدَاهَا حَيَّانْ

---

= ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ﴾ [١٢ سورة يوسف/ الآية : ٢١] مَعْنَاهُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ : إِضَافَتُهُ .

(١) تُجْمِزُ ، بِكَسْرِ ٱلْمِيمِ : تَعْدُو وَتُسْرِعُ .

(٢) قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ : قَوْلُهُ : بِٱلْكَلْبِ خَيْراً وَٱلْحَمَاةِ شَرّاً ، كَلامٌ مَعِيبٌ عِنْدَ ٱلنَّحْوِيِّينَ ، وَبَعْضُهُمْ لا يُجِيزُهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَطْفٌ عَلَىٰ عَامِلَيْنِ بِٱلْبَاءِ وَعَلَىٰ ٱلْفِعْلِ .

(٣) وَٱبْهَتِي عَلَيْهَا ، يُرِيدُ : ٱبْهَتِيهَا ، فَضَمَّنَهُ مَعْنَىٰ ٱكْذِبِي ، فَعَدَّاهُ بِعَلَىٰ ، إِذْ لا يُقَالُ : بَهَتَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : بَهَتَهُ إِذَا قَالَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْعَلْهُ ، وَيُرْوَىٰ بَدَلَ : ٱبْهَتِي عَلَيْهَا : ٱنْهَتِي عَلَيْهَا بِٱلنُّونِ ، مِنَ ٱلنَّهِيتُ ، وَهُوَ صَوْتُ ٱلأَسَدِ دُونَ زَئِيرِهِ ؛ وَٱزْدَلِفِي إِلَيْهَا ، أَيْ : تَقَرَّبِي .

(٤) ٱلْفِهْرُ : ٱلْحَجَرُ .

ٱلْجِيــدُ مِنْهَــا عُطُــلٌ وَالآذَانْ وَلَيْسَ فـي ٱلـرِّجْلَيْنِ إِلَّا خَيْطَـانْ
فَهِـيَ ٱلَّتِـي يُـذْعَـرُ مِنْهَـا ٱلشَّيْطَـانْ

فَقَالَ هِشَامُ لِحاجِبِهِ : مَا فَعَلْتَ بِٱلدَّنانِيرِ ٱلْمَخْتُومَةِ ٱلَّتِي أَمَرْتُكَ بِقَبْضِهَا ؟ قَالَ : هَا هِيَ عِنْدِي ، وَوَزْنُهَا خَمْسُ مِئَةٍ ؛ قَالَ : فَٱدْفَعْهَا إِلَىٰ أَبِي ٱلنَّجْمِ لِيَجْعَلْهَا في رِجْلَيْ ظَلَّامَةَ مَكَانَ ٱلْخَيْطَيْنِ .

* * *

١١٤٩ ـ وَمِنْ مُلَحِ أَبِي ٱلنَّجْمِ ـ وَهِي مِمّا يَمُتُّ إِلَىٰ مَوْضُوعِنَا بِسَبَبٍ وَاصِلٍ ـ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ أَتَتْ لَهُ سَبْعُونَ سَنَةً ، فَقَالَ لَهُ هِشَامُ : مَا رَأْيُكَ في ٱلنِّسَاءِ ؟ قَالَ : إِني لأَنْظُرُ إِلَيْهِمْ شَزْراً وَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ خزراً[١] ؛ فَوَهَبَ لَهُ جَارِيَةً ، وَقَالَ لَهُ : ٱغْدُ عَلَيَّ فَأَعْلِمْنِي مَا كَانَ مِنْكَ ؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ : مَا صَنَعْتَ ؟ فَقَالَ : مَا صَنَعْتُ شَيْئاً وَلا قَدَرْتُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قُلْتُ فِي ذَلِكَ أَبْيَاتاً ؛ ثُمَّ أَنْشَدَهُ [من الكامل] :

نَظَرَتْ فَأَعْجَبَهَا ٱلَّذِي في دِرْعِهَا مِنْ حُسْنِهِ ، وَنَظَرْتُ فِي سِرْبَالِيَا
فَرَأَتْ لَهَا كَفَلًا يَمِيلُ بِخَصْرِهَا وَعْثاً رَوادِفُهُ وَأَجْثَمَ جَاثِيَا[٢]
[ضَيِّقاً، يَعَضُّ بِكُلِّ عَرْدٍ نَالَهُ، كَٱلْقَعْبِ، أَوْ صَرحٍ يُرَىٰ مُتَجَافِيَا]
وَرَأَيْتُ مُنْتَشِرَ ٱلْعِجَانِ مُقَلَّصاً رِخْواً مَفَاصِلُهُ وَجِلْدًا بَالِيَا[٣]
أُدْنِي لَهُ ٱلرَّكَبَ ٱلْحَلِيقَ كَأَنَّمَا أُدْنِي إِلَيْهِ عَقَارِباً وَأَفَاعِيَا[٤]

---

(١) ٱلشَّزْرُ : ٱلنَّظَرُ بِجَانِبِ ٱلْعَيْنِ في إِعْرَاضٍ ؛ وَٱلْخَزَرُ : أَنْ يَكُونَ ٱلإِنْسَانُ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ بِمُؤَخَّرِ عَيْنِهِ .
(٢) الوَعْثُ : ٱللِّينُ ، وَيُرِيدُ بِٱلأَجْثَمِ فَرْجَهَا .
(٣) ٱلْعِجَانُ : ٱلْقَضِيبُ ٱلْمَمْدُودُ مِنَ ٱلْخِصْيَةِ إِلَىٰ ٱلدُّبُرِ .
(٤) الرَّكَبُ : ٱلْفَرْجُ .

إِنَّ ٱلنَّدَامَةَ وَٱلسَّدَامَةَ فَٱعْلَمَنْ ، لَوْ قَدْ صَبَرْتُكَ لِلْمُوَاسِي خَالِيَا
مَا بَالُ رَأْسِكَ مِنْ وَرَائِيَ طَالِعاً أَظَنَنْتَ أَنَّ حِرَ ٱلْفَتَاةِ وَرَائِيَا
فَٱذْهَبْ فَإِنَّكَ مَيْتٌ لا يُرْتَجَىٰ أَبَدَ ٱلأَبِيدِ ، وَلَوْ عَمَرْتَ لَيَالِيَا
أَنْتَ ٱلغَرُورُ إِذَا خُبِرْتَ ، وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْغُرُورُ لِمَنْ رَجَاهُ شَافِيَا
لَكِنَّ أَيْرِي لا يُرَجَّىٰ نَفْعُهُ حَتَّى أَعُودَ أَخَا فَتَاءٍ نَاشِيَا[1]

فَضَحِكَ هِشَامٌ وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ .

[ « طبقات فحول الشعراء » ٢/٧٤٥ ـ ٧٤٨ ؛ « الأغاني » ١٠/١٥٨ ؛ « المختار من شعر بشار » ٢٠٩ ؛ « معاهد التنصيص » ١١ ؛ « الحيوان » ٤/٢٥٨ ؛ « مجموعة المعاني » ٢١٩ ] .

* * *

## ٱلصَّلَعُ فِي ٱللُّغَةِ :

١١٥٠ ـ إِذَا ٱنْحَسَرَ ٱلشَّعْرُ عَنْ جَانِبَيْ جَبْهَةِ ٱلرَّجُلِ فَهُوَ أَنْزَعُ ، فَإِذَا زَادَ شَيْئاً فَهُو أَجْلَحُ ، فَإِذَا بَلَغَ ٱلانْحِسَارُ نِصْفَ رَأْسِهِ فَهُوَ أَجْلَى وَأَجْلَهُ ، فَإِذَا زَادَ فَهُوَ أَصْلَعُ ، فَإِذَا ذَهَبَ ٱلشَّعْرُ كُلُّهُ فَهُوَ أَحصُّ ، قَالَ ٱلثَّعَالِبِيُّ فِي « فقْهِ ٱللُّغَةِ » [ القسم الأول الفصل العاشر ] : وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقَرَعِ وَٱلصَّلَعِ أَنَّ ٱلْقَرَعَ ذَهَابُ ٱلْبَشَرَةِ ، وَٱلصَّلَعُ ذَهَابُ ٱلشَّعَرِ مِنْهَا .

* * *

## فَائِدَةٌ :

١١٥١ ـ قَالَ ٱبْنُ سِينَا : لا يَحْدُثُ ٱلصَّلَعُ لِلنِّسَاءِ ، لِكَثْرَةِ رُطُوبَتِهِنَّ ، وَلا لِلْخِصْيَانِ ، لِقُرْبِ أَمْزِجَتِهِمْ مِنْ أَمْزِجَةِ ٱلنِّسَاءِ .

* * *

---

(١) ٱلْفَتَاءُ : ٱلشَّبَابُ .

# ٱلْبَابُ السَّابِعُ
# في ٱلدَّمَامَةِ وَٱلْقُبْحِ

وَفي هَذَا ٱلْبَابِ نُورِدُ صَدْراً مِنْ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي ٱلدَّمَامَةِ وَٱلْقُبْحِ وَوَصْفِ بَعْضِ ٱلْعُيُوبِ ٱلْخَلْقِيَّةِ فِي ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ .

**ٱلمَوْصُوفُ بِٱلْقُبْحِ :**

١١٥٢ ـ يُقَالُ : فُلانٌ أَقْبَحُ مِنْ زَوَالِ ٱلنِّعَمِ وَفَوْتِ ٱلْمُنَى وَطَلْعَة ٱلرَّدَىٰ ، وَمِنْ سَنَةٍ بِلا نِيلٍ .

* * *

١١٥٣ ـ وَلَمَّا سَمعَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ قَوْلَ حَمَّادِ عَجْرَدٍ فِيهِ [من الهزج] :

شَبِيهُ ٱلْوَجْهِ بِٱلْقِرْدِ ... إِذَا مَا عَمِيَ ٱلْقِرْدُ

بَكَىٰ وَقَالَ : أَلَمْ يَكْفِهِ تَشْبِيهِي بِٱلْقِرْدِ حَتَّىٰ جَعَلَهُ أَعْمَىٰ ! هُوَ يَرَانِي فَيَصِفُنِي وَلَسْتُ أَرَاهُ فَأَصِفَهُ ! وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ [من الكامل]

نِعْمَ ٱلْفَتَىٰ لَوْ كَانَ يَعْبُدُ رَبَّهُ ... وَيُقِيمُ وَقْتَ صَلاتِهِ حَمَّادُ

وَٱبْيَضَّ مِنْ شُرْبِ ٱلْمُدَامَةِ وَجْهُهُ ... وَبَيَاضُهُ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ سَوَادُ

* * *

١١٥٤ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ في ٱبْنِ كَيْغَلَغَ [من الكامل] :

وَإِذَا أَشَارَ مُحَدِّثاً فَكَأَنَّهُ ... قِرْدٌ يُقَهْقِهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ

* * *

١١٥٥ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِي [من المنسرح] :

يُفْـــزَعُ ٱلصِّبْيَـــةُ ٱلصِّغَـــارُ بِـــهِ وَإِذَا بَكَـــىٰ بَعْضُهُـــمْ فَلَـــمْ يَنَـــمِ

* * *

١١٥٦ ـ وَجِيءَ بِعَيَّارٍ ـ ٱلَّذِي يَتَرَدَّدُ بِلا عَمَلٍ يُخَلِّي نَفْسَهُ وَهَوَاهَا ـ إِلَىٰ بَعْضِ ٱلْكِبَارِ ، فَقَالَ لِغُلامِهِ : ٱلْطُمْ حُرَّ وَجْهِهِ ؛ فَقَالَ : يَا سَيِّدِي لَيْسَ لِوَجْهِهِ حُرٌّ[1] ؛ لأَنَّهُ كَانَ قَبِيحاً .

* * *

١١٥٧ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ [من مجزوء الرجز] :

وَجْـــهٌ قَبِيـــحٌ حَـــامِـــضٌ لَـــوْ عَضَّـــهُ ٱلْكَلْـــبُ ضَـــرِسْ

* * *

١١٥٨ ـ وَوَقَعَ بَيْنَ ٱلإِمَامِ ٱلأَعْمَشِ وَبَيْنَ ٱمْرَأَتِهِ وَحْشَةٌ[2] ، فَسَأَلَ بَعْضَ أَصْحَابِهِ أَنْ يَرْتَضِيَهَا وَيُصْلِحَ بَيْنَهُمَا ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا ، وَقَالَ : إِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ شَيْخُنَا وَفَقِيهُنَا ، فَلا يُزَهِّدَنَّكِ فِيهِ عَمَشُ عَيْنَيْهِ ، وَحُمُوشَةُ سَاقَيْهِ ، وَضَعْفُ رُكْبَتَيْهِ ، وَقَزَلُ ـ عَرَجُ ـ رِجْلَيْهِ ، وَنَتْنُ إِبْطَيْهِ ، وَبَخْرُ شِدْقَيْهِ ؛ فَقَالَ ٱلأَعْمَشُ : قُمْ عَنَّا قَبَّحَكَ ٱللهُ ، فَقَدْ أَرَيْتَهَا مِنْ عُيُوبِي مَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهُ وَتُبْصِرُهُ . . .

* * *

(١) حُرُّ ٱلْوَجْهِ : مَا أَقْبَلَ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛ وَقِيلَ : ٱلخَدُّ ؛ وَٱلْحُرُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ : أَحْسَنُهُ وَأَكْرَمُهُ .

(٢) ٱلأَعْمَشُ ، هُوَ : سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ ٱلْكُوفِي [٦١ ـ ١٤٨هـ = ٦٨١ ـ ٧٦٥م] ، كَانَ ثِقَةً عَالِماً فَاضِلًا ، وَلَقِيَ كِبَارَ ٱلتَّابِعِينَ ، وَكَانَ لَطِيفَ ٱلْخُلُقِ ، مَزَّاحاً ؛ ٱنْظُرْ « وَفَيَاتِ ٱلأَعْيَانِ » لابْنِ خلِّكَانَ .

١١٥٩ ـ وَرُوِيَ أَنَّ رَجُلًا وَٱمْرَأَتَهُ ٱخْتَصَمَا إِلَىٰ أَمِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ ٱلْعِرَاقِ ، وَكَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ حَسَنَةَ ٱلْمُنْتَقَبِ ، قَبِيحَةَ ٱلْمَسْفِرِ[1] ، وَكَانَ لَهَا لِسَانٌ ، فَكَأَنَّ ٱلْعَامِلَ ـ ٱلأَمِيرَ ـ مَالَ مَعَهَا ، فَقَالَ : يَعْمَدُ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْكَرِيمَةِ فَيَتَزَوَّجُهَا ، ثُمَّ يُسِيءُ إِلَيْهَا ! فَأَهْوَىٰ زَوْجُهَا فَأَلْقَىٰ ٱلنِّقَابَ عَنْ وَجْهِهَا ، فَقَالَ ٱلأَمِيرُ : عَلَيْكِ ٱللَّعْنَةُ ، كَلامُ مَظْلُومٍ وَوَجْهُ ظَالِمٍ . . .

* * *

١١٦٠ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ [ وَيُنْسَبُ لِذِي ٱلرُّمَّةِ ، من الوافر ] :

جَزَىٰ ٱللهُ ٱلْبَرَاقِعَ مِنْ ثِيَابِ ... عَنِ ٱلْفِتْيَانِ شَرًّا مَا بَقِينَا
يُوَارِينَ ٱلْحِسَانَ فَلَا نَرَاهَا ... وَيَزْهَيْنَ ٱلْقِبَاحَ فَيَزْدَهِينَا

* * *

١١٦١ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلغَطَمَّشِ ٱلْحَنَفِيُّ [ويُنْسَبُ لِدِعْبِلِ الخزاعي، من المتقارب] :

مُنِيتُ بِزَغْرَدَةٍ كَٱلْعَصَا ... أَلَصَّ وَأَخْبَثَ مِنْ كُنْدُشِ[2]
[ تُحِبُّ ٱلنِّسَاءَ وَتَأْبَىٰ ٱلرِّجَالَ ... وَتَمْشِي مَعَ ٱلأَخْبَثِ ٱلأَطْيَشِ ]
لَهَا وَجْهُ قِرْدٍ إِذَا ٱزَّيَّنَتْ ... وَلَوْنٌ كَبَيْضِ ٱلْقَطَا ٱلأَبْرَشِ[3]

---

(١) أَيْ : إِنَّهَا تُرَىٰ جَمِيلَةً إِذَا كَانَ عَلَيْهَا ٱلنِّقَابُ ، أَمَّا إِذَا أَسْفَرَتْ بَانَ قُبْحُهَا ٱلأَصِيلُ .

(٢) مُنِيتُ : ٱبْتُلِيتُ ؛ وَزَغْرَدَةٌ : صَاغَهَا ٱللهُ خَلْقاً وَخُلُقاً كَما يُصَاغُ ٱلرِّجَالُ ، وَقَالَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ ٱلمَعَرِّيُّ : ٱلزَّغْرَدَةُ فِيمَا قِيلَ : ٱلصَّغِيرَةُ ٱلْجِسْمِ ، وَشَبَّهَهَا بِٱلْعَصَا لِقِلَّةِ لَحْمِهَا وَهُزَالِهَا ؛ [ ويُرْوَى : زَنْمَرْدَة ، أو زِمَّرْده ؛ وَهِيَ ٱلَّتِي بَيْنَ ٱلرَّجُلِ وَٱلْمَرْأَةِ ، مِنَ ٱلْفَارِسِيَّةِ ، زَن : امرأة ؛ ومَرْد : رجل ] . وكُنْدُشُ : لَقَبُ لِصٍّ كَانَ مَعْرُوفاً عِنْدَهُمْ ؛ وَقِيلَ : هُوَ ٱلْعَقْعَقُ ، طَائِرٌ عَلَىٰ شَكْلِ ٱلْغُرَابِ ، وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِٱلسَّرِقَةِ ، وَقِيلَ : ٱلْفَأْرَةُ .

(٣) ٱزَّيَّنَتْ ، أَيْ : تَزَيَّنَتْ ؛ وَٱلْقَطَا : طَائِرٌ مَعْرُوفٌ ؛ وَٱلْبَرَشُ : نُقَطٌ بِيضٌ تَظْهَرُ عَلَىٰ ٱلْجِلْدِ يُخَالِفُ لَوْنُهَا لَوْنَ ٱلْجِلْدِ .

وَثَـدْيٌ يَجُـولُ عَلَـىٰ نَحْـرِهَـا ... كَقِـرْبَـةِ ذِي ٱلثَّلَّـةِ ٱلْمُعْطِـشِ (١)
لَهَـا رَكَـبٌ مِثْـلُ ظِلْـفِ ٱلْغَـزَالِ ... أَشَـدُّ ٱصفِـرَاراً مِـنَ ٱلْمِشْمِـشِ (٢)
وَفَخِـذَانِ بَيْنَهُمَـا نَعْنَـفٌ ... يُجِيـزُ ٱلْمَحَـامِـلَ لَـمْ تَخْـدِشِ (٣)
وَسَـاقٌ مُخَلْخَلُهَـا حَمْشَـةٌ ... كَسَـاقِ ٱلْجَـرَادَةِ أَوْ أَحْمَـشِ (٤)
كَـأَنَّ ٱلثَّـآلِيـلَ فِـي وَجْهِهَـا ... إِذَا أَسْفَـرَتْ بِـدَدُ الكِشْمِـشِ (٥)
لَهَـا جُمَّـةٌ فَـوْقَهَـا جَثْلَـةٌ ... كَمِثْـلِ ٱلْخَـوَافِـي مِـنَ ٱلْمُـرْعَـشِ (٦)

* * *

١١٦٢ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي ٱمْرَأَتِهِ [من البسيط] :

تَمَّـتْ عُبَيْـدَةٌ إِلَّا مِـنْ مَحَاسِنِهَـا ... وَٱلْمِلْحُ مِنْهَا مَكَانَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ
قُلْ لِلَّذِي عَابَهَا مِنْ عَائِبٍ حَنِقٍ ... أَقْصِرْ فَرَأْسُ ٱلَّذِي قَدْ عِبْتَ لِلْحَجَرِ

---

(١) ٱلثَّلَّةُ : ٱلْقِطْعَةُ مِنَ ٱلْغَنَمِ ؛ وَٱلْمُعْطِشُ : ٱلَّذِي قَدْ عَطِشَتْ غَنَمُهُ ، يَصِفُهَا بِعِظَمِ ٱلثَّدْيِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّ ثَدْيَهَا طَوِيلٌ وَإِنْ كَانَتْ حَالِيَةً ، فَقَدْ وَصَفَهُ بِٱلطُّولِ وَٱلتَّشَنُّجِ .

(٢) الرَّكَبُ : ٱلْفَرْجُ ، أَوْ مَنْبَتُ شَعْرِ ٱلْعَانَةِ ، يَصِفُهَا بِٱلْهُزَالِ وَصُفْرَةِ ٱللَّوْنِ .

(٣) ٱلنَّعْنَفُ : ٱلْمَهْوَاةُ بَيْنَ ٱلْجَبَلَيْنِ ؛ وَٱلْمَحَامِلُ ، جَمْعُ مَحْمَلٍ ، وَهُوَ : ٱلْهَوْدَجُ وَمَا يُرْكَبُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَيْضاً ٱلزِّنْبِيلُ ٱلَّذِي يُحْمَلُ فِيهِ ٱلْعِنَبُ وَنَحْوُهُ إِلَىٰ ٱلجَرِينِ ؛ يَصِفُهَا بِأَنَّ فَخِذَيْهَا فِي ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلْهُزَالِ وَقِلَّةِ ٱلامْتِلاءِ ، بِحَيْثُ لَوْ مَرَّ بَيْنَهُمَا ٱلْمَحْمَلُ لا تَخْدِشُهُ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْهُوَّةِ وَٱلاتِّسَاعِ .

(٤) ٱلْمُخَلْخَلُ مِنَ ٱلسَّاقِ : مَوْضِعُ ٱلْخَلْخَالِ ؛ وَٱلْحَمْشَةُ : ٱلرَّقِيقَةُ ٱلْقَلِيلَةُ ٱللَّحْمِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَإِنَّما أَنَّثَ وَقَالَ : مُخَلْخَلُهَا حَمْشَةٌ ، لأَنَّ ٱلْمُخَلْخَلَ مِنَ ٱلسَّاقِ ، وٱلسَّاقُ مُؤَنَّثَةٌ ، وَبَعْضُ ٱلشَّيْءِ إِذَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْكُلِّ أُجْرِيَ فِي ٱلأَحْوَالِ مَجْرَاهُ إِلَّا أَنْ يَمْنَعَ مَانِعٌ .

(٥) ٱلثَّآلِيلُ ، جَمْعُ ثُؤْلُولٍ ، وَهُوَ : خُرَاجٌ نَاتِىءٌ صُلْبٌ مُسْتَدِيرٌ ؛ وَٱلْبِدَدُ ، جَمْعُ بِدَّةٍ ، وَهِيَ : ٱلْقِطَعُ ٱلْمُتَفَرِّقَةُ ؛ وَٱلْكِشْمِشُ : ضَرْبٌ مِنَ ٱلْعِنَبِ صَغِيرٌ .

(٦) ٱلْجُمَّةُ مِنَ ٱلشَّعْرِ : دُونَ ٱللِّحْيَةِ فِي ٱلطُّولِ ، وَهِيَ تُشْبِهُ ٱلْقُصَّةَ ؛ وَٱلْجَثْلَةُ : ٱلْكَثِيرَةُ ؛ وَٱلْخَوَافِي : مَا دُونَ ٱلرِّيشَاتِ ٱلْعَشْرِ فِي جَنَاحِ ٱلطَّائِرِ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلْقَوَادِمِ ؛ وَٱلْمُرْعَشُ ، عُنِيَ بِهِ : ٱلنَّسْرُ ٱلَّذِي قَدْ هَرِمَ .

يَقُولُ هَذَا ٱلأَعْرَابِيُّ : تَمَّتْ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ ، فَكَأَنَّ تَمَامَهَا في ٱلْمَقَابِحِ ، وَالمِلْحُ ـ أَيْ : ٱلْمَلَاحَةُ ـ بَعِيدَةٌ مِنْهَا بُعْدَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ ، يَصِفُهَا بِأَنَّهَا ٱسْتَكْمَلَتْ جَمِيعَ أَوْصَافِ ٱلْقُبْحِ ، ثُمَّ قَالَ : قُلْ لِلَّذِي عَابَهَا حَنَقاً وَغَيْظاً : هَوِّنْ عَلَيْكَ وَأَقْلِلْ مِنْ ذِكْرِ مَعَائِبِهَا ، فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا كَسْرُ رَأْسِهَا بِٱلْحَجَرِ .

* * *

١١٦٣ ـ وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ يَهْجُو رَجُلًا بِقُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَٱلأَخْلاقِ [من الكامل] :

قَبُحَتْ مَنَاظِرُهُ فَحِينَ خَبَرْتُهُ ... حَسُنَتْ مَنَاظِرُهُ لِقُبْحِ ٱلمَخْبَرِ

* * *

١١٦٤ ـ وَقَالَ ٱلجَاحِظُ : مَا أَخْجَلَنِي قَطُّ إِلَّا ٱمْرَأَةٌ مَرَّتْ بِي إِلَى صَائِغٍ ، فَقَالَتْ لَهُ : ٱعْمَلْ مِثْلَ هَذَا ؛ فَبَقِيتُ مَبْهُوتاً ، ثُمَّ سَأَلْتُ ٱلصَّائِغَ فَقَالَ : هَذِهِ ٱمْرَأَةٌ أَرَادَتْ أَنْ أَعْمَلَ لَهَا صُورَةَ شَيْطَانٍ ؛ فَقُلْتُ : لا أَدْرِي كَيْفَ أُصَوِّرُهُ ؟ فَأَتَتْ بِكَ إِلَيَّ لأُصَوِّرَهُ عَلَىٰ صُورَتِكَ .

* * *

١١٦٥ ـ وَفي ٱلْجَاحِظِ يَقُولُ بَعْضُهُم [من الكامل] :

لَوْ يُمْسَخُ ٱلْخِنْزِيرُ مَسْخاً ثَانِياً ... مَا كَانَ إِلَّا دُونَ قُبْحِ ٱلْجَاحِظِ

رَجُلٌ يَنُوبُ عَنِ ٱلْجَحِيمِ بِوَجْهِهِ ... وَهُوَ ٱلْقَذَىٰ في عَيْنِ كُلِّ مُلاحِظِ

وَلَوَ أَنَّ مِرْآةً جَلَتْ تِمْثَالَهُ ... وَرَآهُ كَانَ لَهُ كَأَعْظَمِ وَاعِظِ

* * *

١١٦٦ ـ وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيّ : رَأَيْتُ بَدَوِيَّةً مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ وَجْهاً ، وَلَهَا زَوْجٌ قَبِيحٌ ، فَقُلْتُ . يَا هٰذِهِ ! أَتَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي تَحْتَ هَذَا ؟ فَقَالَتْ : يَا هٰذَا ! لَعَلَّهُ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ فَجَعَلَنِي ثَوَابَهُ ، وَأَسَأْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ رَبِّي فَجَعَلَهُ عَذَابِي ! أَفَلا أَرْضَىٰ بِمَا رَضِيَ ٱللهُ بِهِ ! راجع رقم : ١٤٥٩ .

* * *

١١٦٧ ـ وَحَجَّ مُخَنَّثٌ فَرَأَىٰ رَجُلًا قَبِيحَ ٱلْوَجْهِ يَسْتَغْفِرُ، فَقَالَ : يَا حَبِيبِي ! مَا أَرَاكَ تَبْخَلُ بِهَذَا ٱلْوَجْهِ عَلَىٰ جَهَنَّمَ !

* * *

١١٦٨ ـ وَخَطَبَ رَجُلٌ عَظِيمُ ٱلأَنْفِ ٱمْرَأَةً ، فَقَالَ لَهَا : إِنِّي رَجُلٌ كَرِيمُ ٱلْمُعَاشَرَةِ ، مُحْتَمِلٌ لِلْمَكَارِهِ ؛ فَقَالَتْ : لا شَكَّ فِي ٱحْتِمَالِكَ ٱلْمَكَارِهِ مَعَ حَمْلِكَ هَذَا ٱلأَنْفِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ! [راجع رقم : ١٢٣٥] .

* * *

١١٦٩ ـ وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَهْجُو أُمَّهُ [من الوافر] :

تَنَحَّيْ فَٱجْلِسِي مِنِّي بَعِيداً ... أَرَاحَ ٱللهُ مِنْكِ ٱلْعَالَمِينَا

أَغِرْبَالًا إِذَا ٱسْتُوْدِعْتِ سِرًّا ... وَكَانُوناً عَلَىٰ ٱلْمُتَحَدِّثِينَا[1]

[ أَلَمْ أُوضِحْ لَكِ ٱلْبَغْضَاءَ مِنِّي ... وَلَكِنْ لا أَخَالُكِ تَعْقِلِينَا ]

حَيَاتُكِ مَا عَلِمْتُ حَيَاةُ سُوءٍ ... وَمَوْتُكِ قَدْ يَسُرُّ ٱلصَّالِحِينَا

* * *

١١٧٠ ـ وَقَالَ فِيهَا أَيْضاً [من الوافر] :

---

(١) ٱلْغِرْبَالُ هُنا : ٱلنَّمَّامُ ؛ وَٱلْكَانُونُ : ٱلثَّقِيلُ ٱلْوَخِمُ مِنَ ٱلنَّاسِ .

جَـزَاكِ ٱللهُ شَـرًّا مِـنْ عَجُـوزٍ ... وَلَقَّـاكِ ٱلْعُقُـوقَ مِـنَ ٱلْبَنِيـنِ
فَقَـدْ مُلِّكْـتِ أَمْـرَ بَنِيـكِ حَتَّـىٰ ... تَـرَكْتِهُـمُ أَدَقَّ مِـنَ ٱلطَّحِيـنِ
لِسَـانُـكِ مِبْـرَدٌ لا خَيْـرَ فِيـهِ ... وَدَرُّكِ دَرُّ جَـاذِبَـةٍ دَهِيـنِ[1]

* * *

**ٱلْمُسْتَقْبِحُ وَجْهَ نَفْسِهِ :**

١١٧١ ـ قَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْحُطَيْئَةُ [من الطويل] :

[ أَبَـتْ شَفَتَـايَ ٱلْيَـوْمَ إِلَّا تَكَلُّمـاً ... بِشَـرٍّ فَمَـا أَدْرِي لِمَـنْ أَنَـا قَـائِلُـهْ ]
أَرَىٰ لِـيَ وَجْهـاً قَبَّـحَ ٱللهُ خَلْقَـهُ ... فَقُبِّـحَ مِـنْ وَجْـهٍ وَقُبِّـحَ حَـامِلُـهْ

* * *

١١٧٢ ـ وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ فِي ٱلْمِرْآةِ ـ وَكَانَ قَبِيحاً ـ فَقَالَ : ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي لا يُحْمَدُ عَلَىٰ ٱلْمَكْرُوهِ سِوَاهُ . . .

* * *

١١٧٣ ـ وَنَظَرَ بَعْضُهُمْ فِي ٱلْمِرْآةِ ـ وَكَانَ قَدْ جُدِّرَ ـ أَصَابَهُ ٱلْجدَرِيُّ ـ فَبَدَّلَ خَلْقَهُ ـ فَقَالَ : ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَأَحْسَنَ خَلْقِي ، ثُمَّ بَدَا لَهُ فَشَوَّهَنِي . . .

* * *

١١٧٤ ـ أَخَذَ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَقَالَ [من البسيط] :

قَـدْ كَـانَ رَبِّـي سَـوَّىٰ خَلْقَـهُ فَطَغَـىٰ ... فَـأَحْسَـنَ ٱللهُ فِـي تَشْـوِيـهِ خِلْقَتِـهْ

* * *

---

(١) ٱلْجَاذِبَةُ : ٱلنَّاقَةُ ٱلَّتِي جَذَبَتْ لَبَنَهَا فِي ضِرْعِهَا فَذَهَبَ صَاعِداً ؛ وَٱلدَّهِينُ مِنَ ٱلإِبِلِ : ٱلنَّاقَةُ ٱلبَكِيئَةُ ٱلَّتِي يُمْرَىٰ ضَرْعُهَا فَلا يَدُرُّ قَطْرَةً .

## ٱلْمُعَرِّضُ بِقُبْحِ غَيْرِهِ :

١١٧٥ ـ رَأَىٰ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانٍ ٱلْفَرَزْدَقَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا فِرَاسٍ ! مَا أَنْتَ بِٱلَّذِي لَمَّا ﴿ رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1] [١٢ سورة يوسف/الآية : ٣١] ؟ فَقَالَ لَهُ : وَلا أَنْتَ بِٱلَّذِي قَالَتِ ٱلْفَتَاةُ لأَبِيهَا : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[2] [٢٨ سورة القصص/الآية : ٢٦] .

* * *

١١٧٦ ـ وَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْ لِحْيَةِ آخَرَ شَيْئاً ، فَلَمْ يَدْعُ لَهُ ، فَغَضِبَ ، فَقَالَ : لا تَغْضَبْ ، فَمَا مَنَعَنِي أَنْ أَقُولَ : صَرَفَ ٱللهُ عَنْكَ ٱلسُّوءَ إِلَّا ٱلْخوفُ مِنْ أَنْ يَصْرِفَ عَنْكَ وَجْهَكَ ، فَإِنَّ ٱلسُّوءَ كُلَّهُ فِيهِ . . .

* * *

١١٧٧ ـ وَقِيلَ لِرَجُلٍ : كَيْفَ رَأَيْتَ فُلاناً ؟ فَقَالَ : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [١٨ سورة الكهف/ الآية : ١٨] .

* * *

١١٧٨ ـ وَقَالَ رَجُلٌ لِلْفَرَزْدَقِ : مَا أَقْبَحَ وَجْهُكَ ، كَأَنَّمَا خُلِقَ مِنْ أَحْرَاحٍ ! فَقَالَ : أَنْظُرْ ! هَلْ تَرَىٰ حِرَ أُمِّكَ !

* * *

١١٧٩ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لأَبِي ٱلْعَيْنَاءِ : يَا قِرْدُ ! فَقَالَ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ [٣٦ سورة يس/ الآية : ٧٨] .

* * *

---

(١) يُرِيدُ سَيِّدَنَا يُوسُفَ ، وَكَانَ مَوْصُوفاً بِالْجَمَالِ .

(٢) يُرِيدُ سَيِّدَنَا مُوسَىٰ ، وَيُعَرِّضُ بِأَنَّ خَالِداً لَيْسَ بِالأَمِينِ .

**ٱلْمُعْتَذِرُ عَنْ قُبْحِهِ :**

١١٨٠ ـ قَالَ رَجُلٌ لِلأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ : « تَسْمَعُ بِٱلْمُعَيْدِيِّ لا أَنْ تَرَاهُ » . فَقَالَ : مَا ذَمَمْتَ مِنِّي يَا ٱبْنَ أَخِي ؟ قَالَ : ٱلدَّمَامَةَ وَقِصَرَ ٱلْقَامَةِ ! قَالَ : لَقَدْ عِبْتَ عَلَيَّ مَا لَمْ أُؤَامَرْ فِيهِ[1] .

* * *

١١٨١ ـ وَقِيلَ لِحَكِيمٍ : مَا أَقْبَحَ صُورَتَكَ ! فَقَالَ : لَيْسَ حُسْنُكَ إِلَيْكَ فَتُحْمَدَ عَلَيْهِ ، وَلا قُبْحِي إِلَيَّ فَأُعَاتَبَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا ذلكَ صُنْعُ ٱلْبَارِي تَعَالَىٰ مَنْ ذَمَّهُ كَفَرَ .

* * *

**قَدْ يَكُونُ ٱلْقَبِيحُ ٱلْمَظْهَرِ جَمِيلَ ٱلْمَخْبَرِ :**

١١٨٢ ـ قَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ عُمَرَ : قَدِمَ عَلَيْنَا ٱلأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ٱلْكُوفَةَ مَعَ ٱلْمُصْعَبِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، فَمَا رَأَيْتُ خَصْلَةً تُذَمُّ إِلَّا وَقَدْ رَأَيْتُهَا في ٱلأَحْنَفِ : كَانَ صَعْلَ ٱلرَّأْسِ[2] ، مُتَرَاكِبَ ٱلأَسْنَانِ ، أَشْدَقَ[3] ، مَائِلَ ٱلذَّقْنِ ، مَاتِىءَ ٱلْوَجْهِ ، غَائِرَ ٱلْعَيْنَيْنِ ، خَفِيفَ ٱلْعَارِضِ ، أَحْنَفَ ٱلرِّجْلِ[4] ؛ وَلَكِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ جَلَا عَنْ نَفْسِهِ[5] .

* * *

١١٨٣ ـ وَإِلَيْكَ ٱلأَبْيَاتُ ٱلْمَشْهُورَةُ ٱلْمُتَدَاوَلَةُ ٱلَّتِي لا تَزَالُ عَلَىٰ قِدَمِهَا

---

(١) مَا لَمْ أُؤَامَرْ فِيهِ : مَا لَمْ أُشَاوَرْ فِيهِ .

(٢) صَعْلُ ٱلرَّأْسِ : صَغِيرُ ٱلرَّأْسِ .

(٣) ٱلأَشْدَقُ : ٱلَّذِي في خَدِّهِ مَيْلٌ .

(٤) ٱلأَحْنَفُ : ٱلَّذِي تَمِيلُ قَدَمَاهُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَىٰ أُخْتِهَا .

(٥) جَلَا عَنْ نَفْسِهِ : كَلِمَةٌ عَبْقَرِيَّةٌ ، يُرِيدُ أَنَّهُ عَلَىٰ قُبْحِ مَنْظَرِهِ إِذَا تَكَلَّمَ أَتَىٰ بِمَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وَعُلُوِّ كَعْبِهِ وَجَمَالِ نَفْسِهِ ، وَظَهَرَ بِمَظْهَرِهِ ٱلْحَقِيقِيِّ .

وَٱبْتِذَالِهَا جَدِيدَةً ، وَقَدْ نَسَبَهَا أَبُو تَمَّامٍ في « حَمَاسَتِهِ » لِعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ ٱلصَّحَابِيِّ ٱلشَّاعِرِ ، وَنَسَبَهَا آخَرُونَ لمُعَاوِيَةَ بْنِ مَالِكٍ مُعَوِّدِ ٱلْحُكَماءِ [وآخرون لِكُثَيِّر ، من الوافر] :

تَرىٰ ٱلرَّجُلَ ٱلنَّحيفَ فَتَزْدَريهِ ... وَفي أَثْوابِهِ أَسَدٌ هَصورُ[١]

وَيُعْجِبُكَ ٱلطَّريرُ فَتَبْتَليهِ ... فَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّريرُ[٢]

بُغاثُ ٱلطَّيْرِ أَطْوَلُها رِقاباً ... وَلَمْ تَطُلِ ٱلْبُزاةُ وَلا ٱلصُّقُورُ[٣]

خَشاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُها فِراخاً ... وأُمّ الصَّقْرِ مِقْلاتٌ نَزورُ[٤]

ضِعافُ ٱلأُسْدِ أَكْثَرُها زَئيراً ... وَأَصْرَمُها ٱللَّواتي لا تَزيرُ

وَقَدْ عَظُمَ ٱلْبَعيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ ... فَلَمْ يَسْتَغْنِ بِٱلْعِظَمِ ٱلْبَعيرُ

يُنَوَّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِٱلْهَراوىٰ ... فَلا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلا نَكيرُ[٥]

يُقَوِّدُهُ ٱلصَّبِيُّ بِكُلِّ أَرْضٍ ... وَيَنْحَرُهُ عَلىٰ ٱلتُّرْبِ ٱلصَّغيرُ

فَما عِظَمُ ٱلرِّجالِ لَهُمْ بِزَيْنٍ ... وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَخَيْرُ[٦]

* * *

(١) هَصُورَ يُرْوىٰ مَزيرُ ؛ وَٱلْهَصُورُ : ٱلأَسَدُ ٱلشَّديدُ ٱلَّذِي يَفْتَرِسُ وَيَكْسُرُ ؛ وَٱلْمَزِيرُ : ٱلشَّديدُ ٱلْقَلْبِ ٱلْقَوِيُّ ٱلنَّافِذُ ، وَمِنْ مَعانِيهِ : ٱلْعاقِلُ ٱلْحازِمُ .

(٢) ٱلطَّريرُ : ذُو ٱلرُّواءِ وَٱلْمَنْظَرِ وَٱلْجَمالِ وَٱلْهَيْئَةِ ٱلْحَسَنَةِ .

(٣) ٱلْبُغاثُ ـ بِفَتْحِ ٱلْباءِ وَضَمِّها ـ: كُلُّ طائِرٍ لَيْسَ مِنْ جَوارِحِ ٱلطَّيْرِ ، أَيْ : يَصيدُ ، وَيُضْرَبُ بِها ٱلْمَثَلُ في ٱللُّؤْمِ وَٱلشَّرِّ ، وَفي ٱلضَّعْفِ ، وَفِي ٱلْمَثَلِ : « إِنّ ٱلْبُغاثَ بِأَرْضِنا يَسْتَنْسِرُ » يُضْرَبُ مَثَلاً لِلَّئيمِ يَرْتَفِعُ أَمْرُهُ .

(٤) خَشاشُ ٱلطَّيْرِ : شِرارُها وَمَا لا يَصيدُ مِنْها ، كَٱلْبُغاثِ ؛ وَٱلْمِقْلاتُ : ٱلَّتي تَلِدُ وَاحِداً ثُمَّ لا تَلِدُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَقيلَ : ٱلَّتي لا يَعيشُ لَها وَلَدٌ ، وَٱلْقَلَتُ : ٱلْهَلاكُ ، يَقُولُ : أَقْلَتَتِ ٱلْمَرْأَةُ : إِذا هَلَكَ وَلَدُها ؛ وَٱلنَّزُورُ : ٱلْقَليلَةُ ٱلأَوْلادِ .

(٥) يُنَوَّخُ : يُبَرَّكُ ؛ نَوَّخَ ٱلْجَمَلَ وَأَناخَهُ فَٱسْتَناخَ : أَبْرَكَهُ فَبَرَكَ .

(٦) ٱلْخَيْرُ : ٱلْكَرَمُ ، وَهُوَ أَيْضاً ٱلشَّرَفُ .

## ٱلْقَبِيحُ ٱلْمُتَغَازِلُ :

١١٨٤ ـ قالَ بَعْضُهُمْ [من السريع] :

جـارِيَـةٌ أَعْجَبَهـا حُسْنُهـا ... وَمِثْلُهـا مِـنَ ٱلنَّـاسِ لَـمْ يُخْلَـقِ

قُلْـتُ لَهـا : إِنِّـي مُحِـبٌّ لَهـا ... فَـأَقْبَلَـتْ تَضْحَـكُ مِـنْ مَنْطِقـي

وَٱلْتَفَتَـتْ نَحْـوَ فَتـاةٍ لَهـا ... كَـأَنَّهـا ٱلـرَّبْـرَبُ فـي ٱلقُـرْطُـقِ[1]

قَـالَـتْ لَهـا : قُـولِـي لِهَـذا ٱلفَتـىٰ ... ٱنْظُـرْ إِلـىٰ وَجْهِـكَ ثُـمَّ ٱعْشَـقِ

* * *

١١٨٥ ـ وَقالَ آخَرُ [من الكامل] :

تَيْـسٌ تَنَفَّـقَ بِـٱلـدَّلالِ لِيُشْتَهـىٰ ... فَـٱزْدادَ مَقْتـاً بِـٱلـدَّلالِ وَمَـا نَفَـقْ[2]

فَكَـأَنَّـهُ مِـنْ يُبْسِـهِ وَسَـوادِهِ ... مِحْـراكُ تَنُّـورٍ تَلَـوّىٰ فَـٱحْتَـرَقْ[3]

* * *

١١٨٦ ـ وَقيلَ لِلْحُظْوَةِ : أَيْنَ تَذْهَبِينَ ؟ قالَتْ : أُقارِنُ ٱلْقِباحَ .

وَقَدْ رَأَيْنا كَثيراً مِنَ ٱلأَزْواجِ ٱلْقِباحِ وَزَوْجاتُهُمْ في ٱلْغايَةِ مِنَ ٱلْجَمالِ . وَٱلْعَكْسَ ، فَسُبْحانَ مُقَسِّمِ ٱلْحُظُوظِ ، وَٱلْمُؤْدِمِ بَيْنَ ٱلْقُلُوبِ .

* * *

---

(١) ٱلرَّبْرَبُ : ٱلْقَطيعُ مِنَ ٱلظِّباءِ ، وَمِنْ بَقَرِ ٱلْوَحْشِ ؛ وَٱلْقُرْطُقُ : قَباءٌ أَبْيَضُ ، وَهُوَ تَعْريبُ : كُرْتَه .

(٢) نَفَقَ ، مِنْ نَفَقَ ٱلْبَيْعُ : رَاجَ ، وَتَنَفَّقَ بِالدَّلالِ : حاوَلَ بِالدَّلِّ أَنْ يَرُوجَ .

(٣) ٱلتَّنُّورُ : ٱلْفُرْنُ يُخْبَزُ فِيهِ ، وَهُوَ تَفْعولٌ مِنَ ٱلنَّارِ ، وَقيلَ : فارِسيٌّ مُعَرَّبٌ ؛ وَٱلْمِحْراكُ : ٱلْخَشَبَةُ ٱلَّتي تُحَرَّكُ بِها ٱلنَّارُ .

١١٨٧ ـ وَكَانَ ٱلْمُغيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَبيحاً أَعْوَرَ ، فَخَطَبَ ٱمْرَأَةً ، فَأَبَتْ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ ، فبعث إليها : إن تَزَوَّجْتِنِي مَلأتُ بَيْتَكِ خَيْراً ، ورَحِمَكِ أَيْراً ؛ فتزوَّجت بِه .

* * *

١١٨٨ ـ وَسُئِلَتْ عَنْهُ ٱمْرَأَةٌ طَلَّقَهَا ، فَقَالَتْ : عَسَلٌ يَمَانِيَّةٌ في ظَرْفٍ سَوْءٍ .

* * *

١١٨٩ ـ وَكانَ ذُو ٱلرُّمَّةِ ٱلشَّاعِرُ يُشَبِّبُ بِمَيَّةَ ، وَكَانَتْ مِنْ أَجْمَلِ ٱلنِّساءِ ، وَلَمْ تَرَهُ قَطُّ ، فَجَعَلَتْ للهِ عَلَيْها بَدَنَةً حِينَ تَراهُ ، فَلَمّا رَأَتْهُ رَأَتْ رَجُلًا دَميماً أَسْوَدَ ، فَقَالَتْ : وَاسَوْءَتَاهُ ! وَابُؤْساهُ ! فَقَالَ : ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

عَلىٰ وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلاحَةٍ وَتَحْتَ ٱلثِّيابِ ٱلشَّيْنُ لَوْ كانَ بادِيا
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلْمـاءَ يَخْبُـثُ طَعْمُـهُ وَإِنْ كانَ لَوْنُ ٱلْماءِ أَبْيَضَ صافيا

* * *

١١٩٠ ـ وَذَكَرَ أَعْرابيٌّ ٱمْرَأَةً حَسَنَةَ ٱللَّفْظِ ، قَبيحَةَ ٱلْوَجْهِ ، فَقَالَ : تُرْخِي ذَيْلَها عَلىٰ عُرْقُوبَيْ نَعامَةٍ ، وَتُسْدِلُ خِمارَها عَلىٰ وَجْهٍ كَٱلْجُعالَةِ[1] .

* * *

١١٩١ ـ وَكانَ بَعْضُ ٱلْمُعَلمينَ يُقْعِدُ أَبْناءَ ٱلْمَياسيرِ وَٱلْحِسانَ ٱلْوُجوهِ في ٱلظِّلِّ ، وَيُقْعِدَ ٱلآخَرينَ في ٱلشَّمْسِ ، وَيَقُولُ : يا أَهْلَ ٱلْجَنَّةِ ! ٱبْزُقُوا في وُجوهِ أَهْلِ ٱلنَّارِ .

* * *

(١) ٱلْجُعالَةُ : ٱلْخِرْقَةُ ٱلَّتي تُنْزَلُ بِها ٱلْقِدْرُ ( عَنِ ٱلنَّارِ ) .

١١٩٢ ـ وَكانَ حافِظُ إِبْراهيم شاعِرُ مِصْرَ ٱلظَّريفُ في حَفْلٍ ، وَكانَ عَنْ يَمينِهِ غُلامٌ جَميلٌ ، وَعَنْ يَسارِهِ دَميمٌ ، فَقالَ لِلدَّميمِ : إِنِّي حِينَ أَنْظُرُ مَنْ عَنْ يَميني أَسْكَرُ ، وَإِذا نَظَرْتُ إِلَيْكَ أَصْحُو وَأَفيقُ .

* * *

**عَبْقَرِيّاتُهُمْ في مَقابِحَ وَعُيوبٍ شَتَّىٰ :**

**فِي ٱلْجُذامِ :**

١١٩٣ ـ في ٱلْحَديثِ ٱلشَّريفِ : « لا عَدْوىٰ وَلا طِيَرَةَ وَلا هامَةَ ولا صَفَرَ ولا غُولَ ، وَفِرَّ مِنَ ٱلْمَجْذومِ كَما تَفِرُّ مِنَ ٱلأَسَدِ » [ البخاري ، رقم : ٥٧٠٧ ؛ مسلم ، رقم : ٢٢٢٠] .

ٱلطِّيَرَةُ : مَصْدَرُ تَطَيَّرَ طِيَرَةً كَتَخَيَّرَ خِيَرَةً ، وَلَمْ يَجِئْ مِنَ ٱلْمَصادِرِ هَكَذا غَيْرُهُما ، وَأَصْلُهُ ٱلتَّطَيُّرُ بِٱلسَّوانِحِ وَٱلْبَوارِحِ مِنَ ٱلطَّيْرِ وَٱلظِّباءِ وَغَيْرِهِما ، وَكانَ ذَلِكَ يَصُدُّهُمْ عَنْ مَقاصِدِهِمْ فَنَفاهُ ٱلشَّرْعُ وَأَبْطَلَهُ وَنَهىٰ عَنْهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ تَأْثيرٌ في جَلْبِ نَفْعٍ وَلا دَفْعِ ضَرَرٍ ، وَفي ٱلْحَديثِ : « ثَلاثَةٌ لا يَسْلَمُ مِنْها أَحَدٌ : ٱلطِّيَرَةُ وَٱلْحَسَدُ وَٱلظَّنُّ » ، قيلَ : فَما نَصْنَعُ ؟ قالَ : « إِذا تَطَيَّرْتَ فَٱمْضِ ، وَإِذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ ، وَإِذ ظَنَنْتَ فَلا تُصَحِّحْ » [ « مجمع الزوائد » ، رقم : ١٣٠٤٦] ، وَٱلْهامَةُ في ٱلأَصْلِ : ٱلرَّأْسُ ، وكانَتِ ٱلْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّ رُوحَ ٱلْقَتيلِ ٱلَّذي لَمْ يُدْرَكْ بِثَأْرِهِ تَصيرُ هامَةً ، فَتَزْقُو عِنْدَ قَبْرِهِ ، تَقُولُ : ٱسْقوني ٱسْقوني ، فَإِذا أُدْرِكَ بِثَأْرِهِ طارَتْ ؛ قالَ ذُو ٱلإِصْبَعِ ٱلْعَدْوانِيُّ [من البسيط] :

يا عَمْرُو إِنْ لا تَدَعْ شَتْمي وَمَنْقَصَتي أَضْرِبْكَ حَتّىٰ تَقُولَ ٱلْهامَةُ ٱسْقوني

يُريدُ : أَقْتُلْكَ ؛ وَمِنْ قَوْلِهِمْ : هَذا هامَةُ ٱلْيَوْمِ أَوْ غَدٍ ، أَيْ : يَموتُ ٱلْيَوْمَ

أَوْ غداً ، وَقيلَ : كانوا يَزْعُمُونَ أَنَّ رُوحَ ٱلْمَيْتِ تَصيرُ هامَةً . فَتطيرُ ، وَيُسَمُّونَهُ : ٱلصَّدَىٰ ، فَنفاهُ ٱلإِسْلامُ وَنَهاهُمْ عَنْهُ ؛ وَقيلَ : ٱلْهَامَةُ : ٱلْبُومَةُ ، وَقَدْ كانُوا يَتَشَاءَمُونَ بِها . أَمَّا ٱلصَّفَرُ فَقَدْ كانَتِ ٱلعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّ في ٱلْبَطْنِ حَيَّةً يُقالُ لَها : ٱلصَّفَرُ ، تُصيبُ ٱلإِنْسانَ إِذا جاعَ وَتُؤْذيهِ ، وَأَنَّها تُعْدِي ، فَأَبْطَلَ ٱلإِسلامُ ذَلِكَ ، وَقيلَ غَيْرُ هَذا . أَمَّا ٱلغُولُ ، فَهُوَ أَحَدُ ٱلْغِيلانِ ، وَهِيَ كَمَا زَعَمُوا جِنْسٌ مِنَ ٱلْجِنِّ وٱلشَّياطِينِ ، كانَتِ ٱلْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّ ٱلغُولَ في ٱلْفَلاةِ تَتَراءىٰ لِلنَّاسِ فَتَتَغَوَّلُ تَغوُّلًا ، أَيْ : تَتَلَوَّنُ تَلَوُّناً في صُوَرٍ شَتَّىٰ ؛ وَتَتَغَوَّلُهُمْ ، أَيْ : تُضِلُّهُمْ عَنِ ٱلطَّريقِ وَتُهْلِكُهُمْ ، فَنفاهُ ٱلنَّبِيُّ ﷺ وَأَبْطَلَهُ ؛ وَبَعْدُ ، فَمَعْنىٰ لا عَدوىٰ . . . الخ ، أَنَّ مُصاحَبَةَ ٱلْمَعْلُولِ وَمُؤاكَلَتَهُ لا تُوجِبُ حُصُولَ تِلْكَ ٱلعِلَّةِ ، لَكِنَّها تَكُونُ مِنَ ٱلأَسْبابِ ٱلْمُقَدَّرَةِ ٱلَّتي تَعَلَّقَتْ مَشيئَةُ ٱللهِ بِتَرَتُّبِ ٱلْعِلَّةِ عَلَيْها بِٱلنِّسْبَةِ إِلىٰ بَعْضِ ٱلأَبْدانِ ، فَعَلىٰ ٱلْعاقِلِ أَنْ يَتَحَرَّزَ عَنها ما وَجَدَ لِذَلِكَ سَبيلًا ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ أَلَّا يَدَعَ ٱلأَوْهامَ تَتَسَرَّبُ إِلَيْهِ ، وَيَكِلُ أَمْرَهُ إِلىٰ ٱللهِ ، وَمِنْ ثَمَّ قالَ : وَفِرَّ مِنَ ٱلْمَجْذومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ ٱلأَسَدِ .

* * *

١١٩٤ ـ وَمَرَّ سُلَيْمانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بِٱلمَجْذومينَ في طَريقِ مَكَّةَ ، فَأَمَرَ بِإِحْراقِهِمْ ، وَقالَ : لَوْ كانَ ٱللهُ يُريدُ بِهَؤلاءِ خَيْراً ما ٱبْتَلاهُمْ بِهَذا ٱلْبَلاءِ . . .

* * *

١١٩٥ ـ وَعَن قَتادَةَ : أَنَّ مَجْذوماً دَخَلَ عَلىٰ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْحَارِثِ ، فَقَالَ : أَخْرِجُوهُ ، قالوا : وَلِمَ ؟ قالَ : بَلَغَني أَنَّهُ مَلْعُونٌ .

* * *

**ٱلْبَرَصُ ، وَيُقالُ لَه : ٱلْوَضَحُ :**

١١٩٦ ـ كانَ ٱلشَّاعِرُ ٱلأُمَوِيُّ ٱلْمُغيرَةُ ٱبْنُ حَبْناءَ بْنِ عَمْرِو بْنِ رَبيعَةَ بْنِ حَنْظَلَةَ يَأْكُلُ يَوْماً مَعَ ٱلْمُفَضَّلِ بْنِ ٱلْمُهَلَّبِ ٱبْنِ أَبي صُفْرَةَ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْمُفَضَّلُ [من الطويل] :

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْحَنْظَلِيِّ وَلَوْنِهِ    أَكيلَ كِرامٍ أَوْ جَليسَ أَميرِ

فَرَفَعَ ٱلْمُغيرَةُ يَدَهُ مُغْضَباً ، ثُمَّ قالَ [من البسيط] :

إِنِّي ٱمْرُؤٌ حَنْظَلِيٌّ حِينَ تَنْسُبُني    لا مِلْعَتيكِ وَلا أَخْوالِيَ ٱلْعَوَقُ
لا تَحْسَبَنَّ بَياضاً فِيَّ مَنْقَصَةً    إِنَّ ٱللَّهاميمَ في أَقْرابِها بَلَقُ

لا مِلْعَتيك ، أَيْ : لسْتُ مِنَ ٱلْعَتيكِ ، وَهي قَبيلَةٌ ، وَٱلْعَوَقُ مِنْ يَشْكُرَ ، وَهُمْ أَخْوالُ ٱلْمُفَضَّل ؛ وَٱللَّهاميمُ ، جَمْعُ لِهْميمٍ وَلُهْمُومٍ : ٱلْجَوادُ ٱلسَّابِقُ يَجْري أَمامَ ٱلْخَيْلِ ، وَسُمِّيَ كَذَلِكَ لالتِهامِهِ ٱلأَرْضَ ، وَكَذَلِكَ يُقالُ لِلْجَوادِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذي يَسْبِقُهُمْ إِلىٰ ٱلْمَكارِمِ ؛ وَٱلأَقْرابُ جَمْعُ قُرُبٍ ، وَهِيَ : ٱلخاصِرَةُ ؛ وَفي أَقْرابِها ، تُرْوىٰ : في أَلْوانِها .

وَلَمَّا بَلَغَ ٱلْمُهَلَّبَ ما جَرىٰ تَناوَلَ ٱلْمُفَضَّلَ بِلِسانِهِ وَشَتَمَهُ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلىٰ ٱلْمُغيرَةِ بِعَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ وَٱسْتَصْفَحَهُ عنِ ٱلْمُهَلَّبِ وَٱعْتَذَرَ إِلَيْه ، فَقَبِلَ رِفْدَهُ ، وَعَذَرَهُ ، وَٱنْقَطَعَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ مُؤاكَلَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ .

* * *

١١٩٧ ـ وَكانَ بَلْعاءُ بنُ قَيْسٍ أَبْرَصَ ، فَقَالَ لَهُ قائِلٌ : ما هَذا بِكَ يا بَلْعاءُ ؟ فَقَالَ : سَيْفُ ٱللهِ جَلاهُ .

* * *

١١٩٨ ـ وَقَالَ شاعِرٌ [من الطويل] :

أَيَشْتِمُنـي زَيْـدٌ بِـأَنْ كُنْـتُ أَبْـرَصـاً    فَكُـلُّ كَـريـمٍ لا أبـا لَـكَ أَبْـرَصُ

* * *

١١٩٩ ـ وَقالَ آخَرُ [من الرمل] :

نَفَـرَتْ سَـوْدَةُ مِنِّـي إِذْ رَأَتْ    صَلَـعَ ٱلـرَّأْسِ وَفـي ٱلْجِلْـدِ وَضَـحْ

قُلْـتُ : يـا سَـوْدَةُ هَـذا وَٱلَّـذي    يَفْـرِجُ ٱلْكُـرْبَـةَ عَنَّـا وَٱلْكَلَـحْ

هُـوَ زَيْـنٌ لِـيَ فـي ٱلْـوَجْـهِ كَمـا    زَيَّـنَ ٱلطِّـرْفَ تَحـاسِيـنُ ٱلقُـزَحْ

ٱلوَضَح : ٱلبَرَصُ ؛ وَٱلْكَلَحُ هُنا : ٱلشِّدَّةُ ؛ وَٱلطِّرْفُ : ٱلْفَرَسُ ٱلْكَريمُ ؛ وٱلقُزَحُ : خُطوطٌ مِنْ صُفْرَةٍ وَحُمْرَةٍ وَخُضْرَةٍ ، ٱلْوَاحِدَةُ : قُزْحَةٌ ، وَمِنْهُ قَوْسُ قُزَحَ : طَرائِقُ مُتَقَوِّسَةٌ تَبْدُو في ٱلسَّمَاءِ أَيَّامَ ٱلرَّبيعِ غِبَّ ٱلمَطَرِ بِحُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ وَخُضْرَةٍ .

* * *

١٢٠٠ ـ وَقَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ يَهْجُو أَصْهارَهُ بِأَنَّهُم بُرصُ ٱلأَسْتاهِ :

وَيُحْشَـرُ نُـورُ ٱلْمُسْلِمِيـنَ أَمَـامَهُـمْ    وَيُحْشَـرُ فـي أَسْتـاهِ ضَمْـرَةَ نُـورُهـا

* * *

١٢٠١ ـ وَكانَ أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمِ بْنِ فاتِكٍ ٱلأَسَدِيُّ أَبْرَصَ ، وَكانَ أَثيراً عِنْدَ عَبْدِ ٱلعَزيزِ بْنِ مَرْوانَ ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ أَيْمَنُ يَوْماً، فَقالَ لَهُ: أَنْتَ طَرِفٌ مَلُولَةٌ[1] ؛ فَقَالَ لَهُ : أَنا مَلُولَةٌ وَأَنا أُؤاكِلُكَ مُذْ كَذا ؟ فَلَحِقَ بِبِشْرِ بْنِ مَرْوانَ ، فَأَكْرَمَهُ

(١) ٱلطَّرِفُ ، كَٱلْكَتِفِ : مَنْ لا يَثْبُتُ عَلىٰ ٱمْرَأَةٍ وَلا صاحِبٍ ؛ وَٱلْمَلُولَةُ : ٱلْكَثيرُ ٱلْمَلَلِ وَٱلسَّأَمِ لِعَشيرِهِ .

وَٱخْتَصَّهُ وَلَمْ يَكُنْ يُؤاكِلُهُ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْماً وَبَيْنَ يَدَيْهِ لَبَنٌ قَدْ وُضِعَ ، فَقالَ : قَدْ حَدَّثَتْ نَفْسي ٱلْبارِحَةَ بِٱلصَّوْمِ ، فَلَمّا أَصْبَحْتُ أُتوني بِهَذا وَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ، وَلا أَرىٰ أَحَداً أَحَقَّ بِهِ مِنْكَ ، فَدُونَكَهُ .

* * *

١٢٠٢ ـ وَأَصابَ أَبا عَزَّةَ ٱلْجُمَحِيَّ وَضَحٌ ـ بَرَصٌ ـ فَكانَ لا يُجالَسُ ، فَأَخَذَ شَفْرَةً وَطَعَنَ في بَطْنِهِ ، فمارَتِ[1] ٱلشَّفْرَةُ وَخَرَجَ ماءٌ أَصْفَرُ وَبَرِىءَ ، فقالَ [من الرجز] :

لاهُمَّ رَبَّ وائِلٍ وَنَهْدِ ... وَرَبَّ مَن يَرْعىٰ بَياضَ لَحْدِي[2]

أَصْبَحْتُ عَبْداً لَكَ وَٱبْنَ عَبْدِ ... أَبْرَأْتَ مِنِّي بَرَصاً بِجِلْدي

مِنْ بَعْدِ ما طَعَنْتُ في مَعَدّي[3]

* * *

**عِظَمُ ٱلأُذُنِ وَصِغَرُها :**

١٢٠٣ ـ قالُوا : إِنَّ طُولَ ٱلأُذُنِ دَليلٌ عَلىٰ طُولِ ٱلْعُمْرِ .

* * *

١٢٠٤ ـ وَقُدِّمَ رَجُلٌ لِلْقَتْلِ ، وَكانَ طَويلَ ٱلأُذُنِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَيْسُوا قَدْ زَعَمُوا أَنَّ طُولَ ٱلأُذُنِ دَليلُ طُولِ ٱلْعُمْرِ ؟ فَقَالَ : لَوْ تَرَكُونِي لَطالَ وَلَٰكِنْ حالُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ! .

* * *

---

(١) مارَتِ ٱلشَّفْرَةُ : نَفَذَتْ إِلىٰ داخِلِ ٱلْجِسْمِ .
(٢) نَهْدُ : قَبيلَةٌ مِنَ ٱلْيَمَنِ .
(٣) ٱلْمَعَدُّ : ٱلْبَطْنُ .

١٢٠٥ ـ وَأُحْضِرَ رَجُلٌ طَويلُ الأُذُنِ لِلْقَتْلِ ، فَجَعَلَ يَلْمِسُ أُذُنَيْهِ ، وَيَقُولُ : واضَياعَ أَمَلِهِ وَٱنْقِطَاعَ رَجَائِهِ .

* * *

١٢٠٦ ـ وَيُقالُ لِصِغَرِ ٱلأُذُنِ ٱلسَّكَكُ ، فَٱلسَّكَكُ : صِغَرُ ٱلأُذُنِ وَلُزُوقُها بِٱلرَّأْسِ وَقِلَّةُ إِشْراقِها ، وَيُقالُ مِنْ ذا : سَكَّهُ يَسُكُّهُ : إِذا ٱصْطَلَمَ أُذُنَيْهِ ـ قَطَعَهُما ـ وَمِنْ ذَلِكَ : ٱسْتَكَّتْ مُسامِعُهُ ، أَيْ : صَمَّتْ وَضَاقَتْ ، قالَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلذُّبْيانِيُّ [من الطويل] :

أَتَـانـي أَبَيْـتَ ٱللَّعْـنَ أَنَّـكَ لُمْتَنـي وَتَلْـكَ ٱلَّتي تَسْتَكُّ مِنْهـا ٱلْمَسـامِعُ

* * *

١٢٠٧ ـ وَٱلْعَرَبُ تَقولُ : كُلُّ سَكَّاءَ تَبيضُ ، وَكُلُّ شَرْفاءَ تَلِدُ ؛ فَٱلسَّكَّاءُ : ٱلَّتي لا أُذُنَ لَها ؛ وَٱلشَّرْفاءُ : ٱلَّتي لَها أُذُنٌ وَإِنْ كانَتْ مَشْقُوقَةً ، قالَ ٱلْجاحِظُ : وَلا نَدْرِي لِمَ كانَ ٱلْحَيْوَانُ إِذا كانَ أَشْرَفَ ٱلآذانِ وَلَدَ وَإِذا كانَ مَمْسوحاً باضَ .

* * *

ٱلآدَرُ ـ ٱلْقَيْلَطُ :

١٢٠٨ ـ ٱلآدَرُ أَوْ ٱلْقَيْلَطُ أَوْ ٱلْقَيْليطُ : مَنِ ٱنْتَفَخَتْ خُصْيَتاهُ بِماءٍ يُصيبُها ، وَهَذا ٱلدَّاءُ يُسَمَّىٰ ٱلأُدْرَةَ أَوْ ٱلْقِيْلَةَ ٱلْمَائِيَّةَ .

* * *

١٢٠٩ ـ يُرْوىٰ أَنَّ رَجُلًا أَحْدَبَ سَقَطَ في بِئْرٍ فَذَهَبَتْ حَدَبَتُهُ ، فَصارَ آدَرَ ، فَدَخَلُوا يُهَنِّئُونَهُ ، فَقالَ : ٱلَّذي جاءَ شَرٌّ مِنْ ٱلَّذي ذَهَبَ .

* * *

١٢١٠ ـ وَقَالَ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ [من الطويل] :

فَمَا ذَنْبُنَا فِي أَنْ أَدَاءَتْ خُصَاكُمْ وَأَنْ كُنْتُمْ فِي قَوْمِكُمْ مَعْشَراً أُدْرَا
إِذَا جَلَسُوا خَيَّلْتَ تَحْتَ ثِيَابِهِمْ خَرَانِقُ تُوفِي بِٱلضَّغِيبِ لَهَا نَذْرَا

أَدَاءَتْ : صَارَتْ ذَاتَ دَاءٍ ؛ وَخَيَّلْتَ : ظَنَنْتَ ؛ وَٱلْخَرَانِقُ ، جَمْعُ خِرْنِقٍ ، وَهُوَ : ٱلْفَتِيُّ مِنَ ٱلأَرْنَبِ ؛ وَٱلضَغِيبُ : صَوْتُ ٱلأَرْنَبِ وَٱلذِّئْبِ .

* * *

١٢١١ ـ وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ [من الوافر] :

كَذِي دَاءٍ بِإِحْدَىٰ خِصْيَتَيْهِ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَوَجَّعْ مِنْ سَقَامِ
فَأَلْقَىٰ ثَوْبَهُ حَوْلًا كَرِيتاً عَلَىٰ شِعْرَاءَ تُنْقِضُ بِٱلْبِهَامِ

حَوْلًا كَرِيتاً : تَامَّ ٱلْعَدَدِ ، يُقَالُ : حَوْلٌ كَرِيتٌ ، وَسَنَةٌ كَرِيتٌ ، وَكَذَلِكَ ٱلْيومُ وَٱلشَّهْرُ ، أَرَادَ بِٱلشِّعْرَاءِ : خُصْيَةً كَثِيرَةَ ٱلشَّعْرِ ٱلنَّابِتِ عَلَيْهَا ؛ وَقَوْلُهُ : تُنْقِضُ بِٱلْبِهَامِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : أَنْقَضْتُ بِٱلْعَنْزِ إِنْقَاضاً : إِذَا دَعوتَهَا ؛ وَٱلْبِهَامُ ، جَمْعُ بَهْمَةٍ : ٱلصَّغِيرُ مِنْ أَوْلَادِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْمَعْزِ وَٱلْبَقَرِ ، مِنَ ٱلْوَحْشِ وَغَيْرِهَا ، وَيُرِيدُ ٱلْجَعْدِيُّ بِقَوْلِهِ تُنْقِضُ بِٱلْبِهَامِ : أُدْرَةً في خُصْيَتَيْهِ إِذَا فَشَّتْ خَرَجَ لَهَا صَوْتٌ كَتَصْوِيتِ ٱلنَّقْضِ بِٱلْبَهْمِ إِذَا دَعَاهَا .

* * *

ٱلْعَرَجُ :

١٢١٢ ـ قالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

وَمَا بِيَ مِنْ عَيْبِ ٱلْفَتَىٰ غَيْرَ أَنَّنِي جَعَلْتُ ٱلْعَصَا رِجْلًا أُقِيمُ بِهَا رِجْلي

* * *

١٢١٣ ـ وَقَالَ آخَرُ [من البسيط] :

قَدْ كُنْتُ أَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ مُعْتَدِلًا فَٱلْيَوْمَ أَمْشِي عَلَىٰ أُخْرَىٰ مِنَ ٱلشَّجَرِ

* * *

١٢١٤ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الرجز] :

* قَدْ صِرْتُ أَمْشِي بِثَلَاثِ أَرْجُلِ *

* * *

١٢١٥ ـ وَقَالَ [من البسيط] :

إِذَا غَدَوْا وَعِصِيُّ ٱلطَّلْحِ أَرْجُلُهُمْ كَمَا يُنْصَّبُ وَسْطَ ٱلْبِيْعَةِ ٱلصُّلُبُ

* * *

١٢١٦ ـ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْحَمِيدِ بْنُ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ ٱلْخَطَّابِ أَعْرَجَ ، وَكَانَ وَالِيَ ٱلْكُوفَةِ ، وَوَلِيَ شُرْطَةَ ٱلْكُوفَةِ ٱلْقَعْقَاعُ بنُ سُوَيْدٍ ، وَكَانَ أَعْرَجَ ، فَقَالَ ٱلْحَكَمُ بْنُ عَبْدَلٍ ، وَكَانَ هُوَ ٱلآخَرُ أَعْرَجَ [من الكامل] :

أَلْقِ ٱلْعَصَا وَدَعِ ٱلتَّنَاوُشَ وَٱلْتَمِسْ عَمَلًا فَهٰذِي دَوْلَةُ ٱلْعُرْجَانِ

لأَمِيرِنَا وَأَمِيرِ شُرْطَتِنَا مَعاً يَا قَوْمَنَا لِكِلَيْهِمَا رِجْلانِ

ٱلتَّنَاوُشُ : ٱلتَّنَاوُلُ بِٱلْيَدِ ، وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ ٱلسُّؤَالِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : وَدَعِ ٱلتَّخَامُعَ ، وَٱلتَّخَامُعُ : ٱلتَّظَاهُرُ بِٱلْخَمْعِ ، وَهُوَ ٱلْعَرَجُ ، يُقَالُ : خَمَعَتِ ٱلضَّبُعُ خَمْعاً وَخُمُوعاً وَخَمَعَاناً : إِذَا ظَلَعَتْ فِي مِشْيَتِهَا كَأَنَّ بِهَا عَرَجاً .

* * *

## ٱلْعَوَرُ وَٱلْعَمَىٰ :

١٢١٧ ـ قِيلَ لأَعْوَرٍ : أَعْمَى ٱللهُ عَيْنَكَ ؛ قَالَ : قَدْ أُجِيبَ نِصْفُ دَعْوَتِكَ .

* * *

١٢١٨ ـ وَتَنَادَرَ قَوْمٌ فِي مَجْلِسٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : مَنْ كَانَ أَعْوَرَ فَهُوَ نِصْفُ رَجُلٍ ، وَمَنْ لَا يُحْسِنُ ٱلسِّبَاحَةَ فَهُوَ نِصْفُ رَجُلٍ ، وَمَنْ لا يَتَزَوَّجُ فَهُوَ نِصْفُ رَجُلٍ ؛ وَكَانَ مَعَهُمْ رَجُلٌ ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ ٱلْمَعَانِي كُلُّهَا ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْتَاجُ إِلَىٰ نِصْفِ رَجُلٍ حَتَّىٰ أَكُونَ لَا شَيْءَ .

* * *

١٢١٩ ـ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّخْعِيُّ لِسُلَيْمانَ ٱلأَعْمَشِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُماشِيَهُ : إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا رَأَوْنَا مَعاً قَالُوا : أَعْوَرُ وَأَعْمَشُ ؛ قَالَ : مَا عَلَيْكَ أَنْ يَأْثَمُوا وَنُؤْجَرُ ؟ قَالَ : مَا عَلَيْكَ أَنْ يَسْلَمُوا وَنَسْلَمُ !

* * *

١٢٢٠ ـ وَتَمَاشَىٰ أَعْوَرَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا [من الوافر] :

أَلَمْ تَرَنِي وَعَمْراً حِينَ نَمْشِي ... نُرِيدُ ٱلسُّوقَ لَيْسَ لَنَا نَظِيرُ

أُمَاشِيهِ عَلَىٰ يُمْنَىٰ يَدَيْهِ ... وَفِيمَا بَيْنَنَا رَجُلٌ ضَرِيرُ[1]

* * *

(١) يَقُولُ : إِنَّهُ لَمَّا مَاشَاهُ عَلَىٰ ٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي وَصَفَ ، وَكَانَتْ عَيْنُهُ ٱلْعَوْرَاءُ هِيَ ٱلْيُسْرَىٰ وَعَيْنُ صَاحِبِهِ ٱلْعَوْرَاءُ هِيَ ٱلْيُمْنَىٰ ، كَانَا كَأَنَّ بَيْنَهُمَا أَعْمَىٰ ، وَهُوَ مَعْنًى طَرِيفٌ ، وَمِثْلُهُ [من الخفيف] :

هِيَ عَوْرَاءُ بِٱلْيَمِينِ وَهَذَا ... أَعْوَرٌ بِٱلشِّمَالِ وَافَقَ شَنَّا

بَيْنَ شَخْصَيْهِمَا ضَرِيرٌ إِذَا مَا ... قَعَدَتْ عَنْ شِمَالِهِ تَتَغَنَّىٰ

١٢٢١ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ عَبَّاسٍ بَعْدَ مَا كُفَّ بَصَرُهُ ، وَقِيلَ : هُمَا لِحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ [من البسيط] :

إِنْ يَأْخُذِ ٱللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُمَا فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ
قَلْبٌ ذَكِيٌّ وَعَقْلٌ غَيْرُ ذِي دَخَلٍ وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَٱلسَّيْفِ مَأْثُورُ

* * *

١٢٢٢ ـ وَقَدْ أَخَذَ أَبُو يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيُّ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ وَكَانَ أَعْمَىٰ [من المتقارب] :

فَإِنْ تَكُ عَيْنِي خَبَا نُورُهَا فَكَمْ قَبلَهَا نُورُ عَيْنٍ خَبَا
فَلَمْ يَعْمَ قَلْبِي وَلَكِنَّمَا أَرَىٰ نُورَ عَيْنِي إِلَيْهِ سَرَىٰ
فَأَسْرَجَ فِيهِ إِلَىٰ ضَوْئِهِ سِرَاجاً مِنَ ٱلْعِلْمِ يَشْفِي ٱلْعَمَىٰ

* * *

١٢٢٣ ـ وَقَالَ ٱلْخُرَيْمِيُّ أَيْضاً [من المنسرح] :

أُصْغِي إِلَىٰ قَائِدِي لِيُخْبِرَنِي إِذَا ٱلْتَقَيْنَا عَمَّنْ يُحَيِّينِي
أُرِيدُ أَنْ أَعْدِلَ ٱلسَّلَامَ وَأَنْ أَفْصِلَ بَيْنَ ٱلشَّرِيفِ وَٱلدُّونِ
أَسْمَعُ مَا لَا أَرَىٰ فَأَكْرَهُ أَنْ أُخْطِىءَ وَٱلسَّمْعُ غَيْرُ مَأْمُونِ
للهِ عَيْنِي ٱلَّتِي فُجِعْتُ بِهَا لَوْ أَنَّ دَهْراً بِهَا يُوَاتِينِي
لَوْ كُنْتُ خُيِّرْتُ مَا أَخَذْتُ بِهَا تَعْمِيرَ نُوحٍ فِي مُلْكِ قَارُونِ

* * *

١٢٢٤ ـ وَقَالَ ٱلْجُنَيْدُ : حَضَرْتُ أَبَا عَلِيٍّ ٱلأُشْنَانِيَّ ـ وَكَانَ ضَرِيراً ـ فَقَرَأَ قَارِىءٌ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [٤٠ سورة غافر/الآية : ١٩]

فَقَالَ : سَقَطَ عَنِّي نِصْفُ ٱلْعَمَلِ .

* * *

١٢٢٥ ـ وَوُلِدَ بَشّارُ بْنُ بُرْدٍ أَعْمَىٰ ـ أَكْمَهَ ـ فَمَا نَظَرَ إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا قَطُّ ، وكَانَ يُشَبِّهُ ٱلأَشْيَاءَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ في شِعْرِهِ ، فَيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ ٱلْبُصَرَاءُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ، فَقِيلَ لَهُ يَوْماً ، وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَهُ [من الطويل] :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ٱلتَّشْبِيهِ ، فَمِن أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ ٱلدُّنْيَا قَطُّ وَلا شَيْئاً فِيهَا ؟ فَقَالَ : إِنَّ عَدَمَ ٱلنَّظَرِ يُقَوِّي ذَكَاءَ ٱلْقَلْبِ ، وَيَقْطَعُ عَنْهُ ٱلشُّغْلَ بِمَا يُنْظَرُ إِلَيْهِ مِنَ ٱلأَشْيَاءِ فَيَتَوَفَّرُ حِسُّهُ وَتَذْكُو قَرِيحَتُهُ ؛ ثُمَّ أَنْشَدَهُمْ قَوْلَهُ [من الطويل] :

عَمِيتُ جَنِيناً وَٱلذَّكَاءُ مِنَ ٱلْعَمَىٰ ... فَجِئْتُ عَجِيبَ ٱلظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْئِلَا
وَغَاضَ ضِيَاءُ ٱلْعَيْنِ لِلْعِلْمِ رَافِداً ... لِقَلْبٍ إِذَا مَا ضَيَّعَ ٱلنَّاسُ حَصَّلَا

* * *

١٢٢٦ ـ وَقِيلَ لِبَشَّارٍ : مَا أَذْهَبَ ٱللهُ عَيْنَيْ ٱمْرِىءٍ إِلَّا عَوَّضَهُ عَنْهُمَا ، فَمَا ٱلَّذِي عَوَّضَكَ ؟ قَالَ : أَلَّا أَرَىٰ مِثْلَكَ .

* * *

١٢٢٧ ـ وَقِيلَ لِرَجُلٍ قَدْ ذَهَبَ بَصَرُهُ : قَدْ سُلِبْتَ حُسْنَ وَجْهِكَ ؛ فَقَالَ : لَكِنِّي مُنِعْتُ ٱلنَّظَرَ إِلَىٰ مَا يُلْهِي وَعُوِّضْتُ ٱلْفِكْرَةَ فِيمَا يُجْدِي . . . فَحُكِيَ ذَلِكَ لِبَعْضِ ٱلْبُلَغَاءِ ، فَقَالَ : ٱلْعَفَاءُ عَلَىٰ ٱلتَّعَزِّي إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْكَلَامِ .

* * *

١٢٢٨ ـ وَقَالَ فُلانٌ : كُنَّا مَعَ بَشَّارٍ ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ ، فَسَأَلَهُ عَنْ مَنْزِلِ رَجُلٍ

ذَكَرَهُ لَهُ ، فَجَعَلَ يُفَهِّمُهُ وَلا يَفْهَمُ ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ ، وَقَامَ يَقودُهُ إِلَىٰ مَنْزِلِ ٱلرَّجُلِ وَهُوَ يَقُولُ [من البسيط] :

أَعْمَىٰ يَقُودُ بَصِيراً لا أَبَا لَكُمُ     قَدْ ضَلَّ مَنْ كَانَتِ ٱلْعُمْيَانُ تَهْدِيهِ

حَتَّىٰ صَارَ بِهِ إِلَىٰ مَنْزِلِ ٱلرَّجُلِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : هَذَا هُوَ مَنْزِلُهُ يَا أَعْمَىٰ .

* * *

١٢٢٩ ـ وَقَالُوا : ٱلأَعْمَىٰ مُكابِرٌ ، وَٱلأَعْوَرُ ظَلُومٌ ، وَٱلأَحْوَلُ تَيَّاهٌ .

* * *

١٢٠٣ ـ وَقَال شَاعِرٌ يَشْكُو ضَعْفَ بَصَرِهِ [من البسيط] :

أَشْكُو إِلَىٰ ٱللهِ أَهْوَالًا أُكَابِدُهَا     إِذَا سَرَىٰ ٱلْقَوْمُ لَمْ أُبْصِرْ طَرِيقَهُمُ

* * *

ٱلْحَوَلُ :

١٢٣١ ـ خَرَجَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، فَتَلَقَّاهُ أَعْوَرُ ، فَقَالَ : إِنِّي تَشَاءَمْتُ بِعَوَرِكَ ! فَقَالَ لَهُ ٱلرَّجُلُ : شُؤْمُ ٱلأَعْوَرِ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَشُؤْمُ ٱلأَحْوَلِ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ ؛ وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ ، فَخَجِلَ .

* * *

١٢٣٢ ـ وَأَنْشَدَ أَبُو ٱلنَّجْمِ هِشَاماً أُرْجُوزَتَهُ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا [ من الرجز ] :

ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلْوَهُوبِ ٱلْمُجْزِلِ

فَلَمْ يَزَلْ هِشَامٌ يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ حَتَّىٰ بَلَغَ قَوْلَهُ فِي صِفَةِ ٱلشَّمْسِ [من الرجز] :

حَتَّىٰ إِذَا ٱلشَّمْسُ جَلاهَا ٱلْمُجْتَلِي     بَيْنَ سِمَاطَيْ شَفَقٍ مُرَعْبَلِ

صَغْـوَاءَ قَـدْ كَـادَتْ وَلَمّـا تَفْعَـلِ فَهْـيَ فِـي ٱلأُفْـقِ كَعَيْـنِ ٱلأَحْـوَلِ

أَمَرَ بِوَجْىءِ رَقَبَتِهِ وَإِخْرَاجِهِ[1] . [ راجع رقم : ١١٤٨ ] .

* * *

١٢٣٣ ـ وَعُرِضَ عَلَىٰ أَمِيرِ أَثْوَابُ خَزٍّ وَفِي ٱلْمَجْلِسِ أَعْوَرُ وَأَحْوَلُ ، فَقَالَ ٱلأَعْوَرُ لِلأَحْوَلِ : بِهَذَا ٱلثَّوْبِ عَيْبٌ ؛ فَقَالَ : يَا صَفْعَانُ ! إِنَّ بَصَرَكَ بِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ أَحَدُّ مِنْ بَصَرِي بِعَيْنَيْنِ ! فَقَالَ ٱلأَعْوَرُ : دُرَيْهِمٌ جَيِّدٌ خَيْرٌ مِن دِرْهَمَيْنِ مُزَيَّفَيْنِ .

* * *

١٢٣٤ ـ وَٱشْتَرَىٰ أَبُو ٱلأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيُّ جَارِيَةً ـ فَتَاةً ـ حَوْلاءَ ، فَأَغَارَ ٱمْرَأَتَهُ أُمَّ عَوْفٍ ، وَكَانَتِ ٱبْنَةَ عَمِّهِ ، وَكَانَتْ تُشَارُّهُ ـ تَخَاصِمُهُ ـ كُلَّ يَوْمٍ ، وَتَقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي حَوْلاءَ ؟ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ قَالَ [من الطويل] :

يَعِيبُـونَهَـا عِنْـدِي وَلا عَيْـبَ عِنْـدَهَـا سِوَىٰ أَنَّ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ بَعْضَ ٱلتَّأَخُّرِ
فَـإِنْ يَـكُ فـي ٱلْعَيْنَيْـنِ سُـوءٌ فَـإِنَّهَـا مُهَفْهَفَـةُ ٱلأَعْلَـىٰ رَدَاحُ ٱلْمُـؤَخَّـرِ[2]

* * *

**كِبَرُ ٱلأَنْفِ وَقُبْحُهُ :**

١٢٣٥ ـ خَطَبَ رَجُلٌ قَبِيحُ ٱلأَنْفِ ٱمْرَأَةً ، فَقَالَ : عِنْدِي ٱحْتِمَالٌ لِلْمَكْرُوهِ وَوَفَاءٌ عَظِيمٌ . . . فَقَالَتِ ٱلْمَرْأَةُ : مَا أَشُكُّ فِي ٱحْتِمَالِكِ لِلْمَكْرُوهِ لأَنَّكَ تَحْمِلُ هَذَا ٱلأَنْفَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ! [ راجع رقم : ١١٦٨ ] .

* * *

---

(١) ٱلْمُرَعْبَلُ : ٱلْمُمَزَّقُ ؛ وَصَغْوَاءُ : مَائِلَةٌ لِلْغُرُوبِ ، يُقَالُ : صَغَتِ ٱلشَّمْسُ تَصْغُو صَغْواً ، فَهِيَ صَغْوَاءُ ؛ وَجْءُ رَقَبَتِهِ كِنَايَةٌ عَنْ ضَرْبِهِ وَلَكْزِهِ .

(٢) ٱمْرَأَةٌ رَدَاحٌ : ضَخْمَةُ ٱلأَوْرَاكِ .

١٢٣٦ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَأَيْتُ أَعْرَابِياً أَنْفُهُ كَأَنَّهُ كُوزٌ مِنْ عِظَمِهِ[1] ، فَرَآنَا نَضْحَكُ ، فَقَالَ : مَا يُضْحِكُكُمْ ! وَٱللهِ لَقَدْ كُنَّا فِي قَوْمٍ مَا يُسَمُّونَنَا إِلَّا ٱلأُفَيْطِسُ .

❊ ❊ ❊

١٢٣٧ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من المتقارب] :

إِذَا أَنْتَ أَقْبَلْتَ فِي حَاجَةٍ فَكَلِّمْهُ إِنْ شِئْتَ مِنْ خَلْفِهِ
فَإِنْ أَنْتَ وَاجَهْتَهُ فِي ٱلْكَلَا مِ لَمْ يَسْمَعِ ٱلصَّوْتَ مِن أَنْفِهِ

❊ ❊ ❊

١٢٣٨ ـ وَقَال ذُو ٱلإِصْبَعِ ٱلْعَدْوَانِيُّ [من المتقارب] :

أَرَىٰ شَعَرَاتٍ عَلَىٰ حَاجِبَيَّ بِيضاً نَبَتْنَ جَمِيعاً تُؤَامَا[2]
ظَلِلْتُ أُهَاهِي بِهِنَّ ٱلْكِلَا بَ أَحْسَبُهُنَّ صُواراً قِيَامَا[3]
وَأَحْسَبُ أَنْفِي إِذا مَا مَشَيْـ ـتُ شَخْصاً أَمَامِي رَآنِي فَقَامَا

❊ ❊ ❊

١٢٣٩ ـ وَمِنَ ٱلطَّرِيفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من مجزوء الرمل] :

لَكَ أَنْفٌ ذُو أُنُوفِ أَنِفَتْ مِنْهُ ٱلأُنُوفُ
أَنْتَ فِي ٱلْقُدْسِ تُصَلِّي وَهُوَ فِي ٱلْبَيْتِ يَطُوفُ

❊ ❊ ❊

---

(١) ٱلْكُوزُ ، جَمْعُهُ كِيزَان وَأَكْوَازٌ ، [وَهُوَ : نَوْعٌ مِنَ ٱلْكُؤُوسِ ٱلْكَبِيرَةِ] .
(٢) تُؤَاماتٍ ، جَمْعُ تَوْءَم ، وَٱلتَّوْءَمَانِ : ٱلمَوْلُودَانِ فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ .
(٣) أُهَاهِي : أُغْرِي ؛ وَٱلصُّوَارُ : القَطِيعُ مِنَ ٱلْبَقَرِ .

ٱلْحَدَبُ :

١٢٤٠ ـ قَال ٱلْجَاحِظُ : مَنِ ٱعْتَرَاهُ ٱلْحَدَبُ طَال أَيْرُهُ وَكَثُرَ خُبْثُه وَظَرْفُهُ .

* * *

١٢٤١ ـ وَأُتِيَ بَعْضُ ٱلْوُلاةِ بِأَحْدَبَ جَنَىٰ جِنَايَةً ، فَقَالَ لَهُ ٱلْوَالِي : لأَضْرِبَنَّكَ ضَرْباً يُقِيمُ ظَهْرَكَ ؛ فَقَالَ ٱلأَحْدَبُ : إِنَّكَ إِذَن لَعَظِيمُ ٱلْبَرَكَةِ .

* * *

١٢٤٢ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من مجزوء الكامل] :

تَعْدُو ٱلْجِيَادُ بِخَالِدٍ فَكَأَنَّمَا تَعْدُو بِقِرْبَهْ
تَيْسٌ أَنَبُّ مِنَ ٱلتُّيُو سِ فَكَأَنَّ لِحْيَتَهُ مِذَبَّهْ

نَبَّ ٱلتَّيْسُ ؛ صَاحَ عِنْدَ ٱلْهِيَاجِ ؛ وَٱلْمِذَبَّةُ : مَا يُذَبُّ بِهِ ٱلذُّبَابُ ، ٱلمِنَشَّةُ .

* * *

ٱلثُّقَلاءُ :

١٢٤٣ ـ وَمِمَّا يَنْدَرِجُ فِي هَذَا ٱلْبَابِ عَبْقَرِيَّاتُهُمْ فِي ٱلثُّقَلاءِ .
قالوُا : مَنْ خَافَ أَنْ يُثَقِّلَ لَمْ يَثْقُلْ .

* * *

١٢٤٤ ـ وَمِثْلُهُ : إِذَا عَلِمَ ٱلثَّقِيلُ أَنَّهُ ثَقِيلٌ فَلَيْسَ بِثَقِيلٍ .

* * *

١٢٤٥ ـ وَقَالَ بَخْتَيَشُوعُ ٱلطَّبِيبُ لِلْمَأْمُونِ : لا تُجَالِسِ ٱلثُّقَلاءَ ، فَإِنَّا نَجِدُ فِي ٱلطِّبِّ : مُجَالَسَةُ ٱلثُّقَلاءِ حُمَّىٰ ٱلرُّوحِ .

* * *

١٢٤٦ ـ وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ إِذَا ٱسْتَثْقَلَ رَجُلًا ، قَالَ : ٱللَّهُمَّ ٱغْفِرْ لَهُ وَأَرِحْنَا مِنْهُ .

* * *

١٢٤٧ ـ وَكَتَبَ رَجُلٌ عَلَىٰ خَاتَمِهِ : « أَبْرَمْتَ فَقُمْ » فَكَانَ إِذَا جَلَسَ إِلَيْهِ ثَقِيلٌ نَاوَلَهُ إِيَّاهُ .

* * *

١٢٤٨ ـ وَقَالَ صَدَقَةُ بْنُ خَالِدٍ : أَتَيْتُ ٱلْكُوفَةَ ، فَجَلَسْتُ إِلَىٰ أَبِي حَنِيفَةَ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ ، فَقَالَ [من المتقارب] :

فَمَا ٱلْفِيلُ تَحْمِلُهُ مَيِّتاً ‌ ‌ ‌ ‌ بِأَثْقَلَ مِنْ بَعْضِ جُلَّاسِنَا

فَمَا حَمَلْتُ عَنْهُ شَيْئاً . . .

* * *

١٢٤٩ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ [ هو دِعْبِلٌ ٱلْخُزَاعِيُّ ، من مجزوء الكامل ] :

إِنِّي أُجَالِسُ مَعْشَراً ‌ ‌ ‌ ‌ نَوْكَىٰ أَخَفُّهُمْ ثَقِيلُ

قَوْمٌ إِذَا جَالَسْتَهُمْ ‌ ‌ ‌ ‌ صَدِئَتْ بِقُرْبِهِمُ ٱلْعُقُولُ

لا يُفْهِمُونِي قَوْلَهُمْ ‌ ‌ ‌ ‌ وَيَدِقُّ عَنْهُمْ مَا أَقُولُ

فَهُمُ كَثِيرٌ بِي وَأَعْـ ‌ ‌ ‌ ‌ ـلَمُ أَنَّنِي بِهِمْ قَلِيلُ

* * *

١٢٥٠ ـ وَمَرَّ رَجُلٌ بِصَدِيقٍ لَهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ ثَقِيلٌ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ فَقَالَ [من المنسرح] :

وَقَائِلٍ كَيْفَ أَنْتَ قُلْتُ لَهُ ‌ ‌ ‌ ‌ هَذَا جَلِيسِي فَمَا تَرَىٰ حَالِي

* * *

١٢٥١ ـ وَقَالَ مَنْ لا أَذْكُرُ ٱسْمَهُ [من مجزوء الرمل] :

أَنْـــتَ يَـــا هَـــذَا ثَقِيـــلٌ وَثَقِيـــلٌ وَثَقِيـــلْ
أَنْـــتَ فـــي ٱلْمَظْهَـــرِ إِنْسَـــا نٌ وَفِـــي ٱلْمَخْبَـــرِ فِيـــلْ
لَـــوْ تَعَـــرَّضْـــتَ لِظِـــلٍّ فَسَـــدَ ٱلظِّـــلُّ ٱلظَّلِيـــلْ

* * *

١٢٥٢ ـ وَقَالَ ٱلأَعْمَشُ في ثَقِيلٍ كَانَ يَجْلِسُ إِلَىٰ جَانِبِهِ : وَٱللهِ إِنِّي لأُبْغِضُ شَقِّي ٱلَّذِي يَلِيهِ مِنِّي .

* * *

١٢٥٣ ـ وَكَانَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ إِذَا رَأَىٰ مَنْ يَسْتَثْقِلُهُ يَقْرَأُ : ﴿ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [٤٤ سورة الدخان/ الآية : ١٢] .

* * *

١٢٥٤ ـ وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : نَزَلَتْ آيَةٌ في ٱلثُّقَلاءِ : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٣] .

* * *

١٢٥٥ ـ وَقَالَ ٱلشَّعْبِيُّ : مَنْ فَاتَتْهُ رَكْعَتَا ٱلْفَجْرِ فَلْيَلْعَنِ ٱلثُّقَلاءَ .

* * *

١٢٥٦ ـ وَسَلَّمَ ثَقِيلٌ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلظُّرَفَاءِ ، فَقَالَ : وَعَلَيْكَ ٱلسَّلامُ شَهْراً .

* * *

١٢٥٧ ـ وَسُئِلَ إِنْسَانٌ لَهُ ثَلاثُ بَنِينَ ثُقلاءُ : أَيُّ بَنِيكَ أَثْقَلُ ؟ فَقَالَ : لَيْسَ

بَعْدَ ٱلْكَبِيرِ أَثْقَلُ مِنَ ٱلصَّغِيرِ إِلَّا ٱلأَوْسَطُ .

* * *

١٢٥٨ ـ وَقِيلَ لِجَالِينُوسَ Galen : لِمَ صَارَ ٱلرَّجُلُ ٱلثَّقِيلُ أَثْقَلَ مِنَ ٱلْحِمْلِ ٱلثَّقِيلِ ؟ قَالَ : لأَنَّ ثِقَلَهُ عَلَىٰ ٱلْقَلْبِ دُونَ ٱلْجَوَارِحِ ، وَٱلْحِمْلُ ٱلثَّقِيلُ يَسْتَعِينُ ٱلْقَلْبُ بِٱلْجَوَارِحِ عَلَيْهِ .

* * *

١٢٥٩ ـ وَسَمِعَ ٱلأَعْمَشُ كَلامَ ثَقِيلٍ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ وَقَلْبِي يَتَأَلَّمُ !

* * *

١٢٦٠ ـ وَقَالَ رَجُلٌ لِغُلامٍ هَاشِمِيٍّ : يَا بَغِيضُ ! فَشَكَاهُ إِلَىٰ أَبِيهِ ، فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ بَغِيضٌ ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقُولَ لَكَ حَتَّىٰ يَكُونَ بُغْضُكَ بِإِسْنَادِكَ .

* * *

١٢٦١ ـ وَكَانَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ يَقُولُ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ : أَنْتَ وَٱللهِ يَا مُحَمَّدُ ثَقِيلُ ٱلظِّلِّ ، مُظْلِمُ ٱلْهَوَاءِ ، جَامِدُ ٱلنَّسِيمِ ، بَارِدٌ حَامِضٌ مُنْتِنٌ .

* * *

١٢٦٢ ـ وَقَالَ سُهْلُ بْنُ هَارُونَ : مَنْ ثَقُلَ عَلَيْكَ بِنَفْسِهِ ، وَغَمَّكَ فِي سُؤَالِهِ ، فَأَعِرْهُ أُذُناً صَمَّاءَ ، وَعَيْناً عَمْيَاءَ .

* * *

١٢٦٣ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من البسيط] :

يَا مَنْ تَبَرَّمَتِ ٱلدُّنْيَا بِطَلْعَتِهِ     كَمَا تَبَرَّمَتِ ٱلأَجْفَانُ بِٱلسُّهُدِ

إِنِّـــي لأَذْكُــرَهُ حِينــاً فَــأَحْسِبُــهُ مِـنْ ثِقْلِـهِ جَـالِساً مِنِّي عَلَىٰ كَبِـدِي

* * *

١٢٦٤ ـ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْحَكِيمُ ٱلأَنْدَلُسِيُّ أَبُو ٱلصَّلْتِ أُمَيَّةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ [من الخفيف] :

لِي جَلِيسٌ عَجِبْتُ كَيْفَ ٱسْتَطَاعَتْ هَــذِهِ ٱلأَرْضُ وَٱلْجِبَــالُ تُقِلُّــهْ[١]

أَنَــا أَرْعَــاهُ مُكْــرَهــاً وَبِقَلْبِــي مِنْــهُ مَــا يُقْلِــقُ ٱلْجِبَــالَ أَقَلُّــهْ

فَهْــوَ مِثْــلُ ٱلْمَشِيــبِ أَكْــرَهُ مَــرْآ هُ وَلَكِــنْ أَصُــونُــهُ وَأُجِلُّــهْ[٢]

* * *

١٢٦٥ ـ وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ ٱلْمُثَنَّىٰ يَسْتَثْقِلُ جَلِيساً ٱسْمُهُ زِنْبَاعُ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَوْماً : مَا ٱلزَّنْبَعَةُ فِي كَلامِ ٱلْعَرَبِ ؟ قَالَ : ٱلتَّثَاقُلُ ، وَلِذَلِكَ سُمِّي جَلِيسُنَا زِنْبَاعاً .

* * *

١٢٦٦ ـ وَقَالَ ٱلْحَمْدُونِيُّ [من المتقارب] :

سَــأَلْتُــكَ بِــٱللهِ أَلَّا صَــدَقْــتَ وَعِلْمِــي بِــأَنَّــكَ لا تَصْــدُقُ

أَتُبْغِــضُ نَفْسَــكَ مِــنْ ثِقْلِهَــا وَإِلَّا فَــأَنْــتَ إِذَنْ أَحْمَــقُ

* * *

---

(١) تُقِلُّهُ : تحملُهُ .

(٢) ذَلِكَ لأَنَّ مُفَارَقَةَ ٱلْمَشِيبِ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْمَوْتِ ، قَالَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ [من البسيط] :

ٱلشَّيْــبُ كُــرْهٌ وَكُــرْهٌ أَنْ يُفَــارِقَنِــي فَــاعْجَبْ لِشَــيْءٍ عَلَــىٰ ٱلْبَغْضَــاءِ مَــوْدُودِ

يَمْضِــي ٱلشَّبَــابُ فَيَــأْتِــي بَعْــدَهُ خَلَــفٌ وَٱلشَّيْــبُ يَــذْهَــبُ مَفْقُــوداً بِمَفْقُــودِ

١٢٦٧ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ [من الطويل] :

مَشَىٰ فَدَعَا مِنْ ثِقْلِهِ ٱلحُوتُ رَبَّهُ وَقَالَ : إِلٰهِي زِيدَتِ ٱلأَرْضُ ثَامِنَهْ(١)

* * *

١٢٦٨ ـ وَقَالَ آخَرُ [من السريع] :

تَحْمِلُ مِنْهُ ٱلأَرْضُ أَضْعَافَ مَا يَحْمِلُهُ ٱلْحُوتُ مِنَ ٱلأَرْضِ

* * *

١٢٦٩ ـ وَمِنْ كَلامِهِمْ : مُجَالَسَةُ ٱلثُّقَلاءِ تُثِيرُ ٱلْهُمُومَ ، وَتَجْلُبُ ٱلْغُمُومَ ، وَتُؤْلِمُ ٱلْقَلْبَ ، وَتَقْدَحُ فِي ٱلنَّشَاطِ ، وَتَطْوِي ٱلانْبِسَاطِ .

١٢٧٠ ـ وَقَالُوا : فُلانٌ ثَقِيلُ ٱلطَّلْعَةِ ، بَغِيضُ ٱلتَّفْصِيلِ وَٱلْجُمْلَةِ ، بَارِدُ ٱلسُّكُونِ وَٱلْحَرَكَةِ ، يَحْكِي ثِقَلَ ٱلْحَدِيثِ ٱلْمُعَادِ ، وَيَمْشِي فِي ٱلْقُلُوبِ وَٱلأَكْبَادِ ، كَأَنَّ وَجْهَهُ أَيَّامُ ٱلْمَصَائِبِ وَلَيَالِي ٱلنَّوَائِبِ .

* * *

١٢٧١ ـ يَا عَجَبِي مِنْ جِسْمٍ كَٱلْخَيَالِ وَرُوحٍ كَٱلْجِبَالِ .

* * *

١٢٧٢ ـ هُوَ بَيْنَ ٱلْجَفْنِ وَٱلْعَيْنِ قَذَاةٌ ، وَبَيْنَ ٱلأَخْمَصِ وَٱلنَّعْلِ حَصَاةٌ .

* * *

١٢٧٣ ـ هُوَ أَثْقَلُ مِنَ خَرَاجٍ بِلا غَلَّةٍ ، وَدَوَاءٍ بِلا عِلَّةٍ .

* * *

(١) يُشِيرُ إِلَىٰ ٱلْخُرَافَةِ ٱلَّتِي تَقُولُ : إِنَّ ٱلأَرْضَ يَحْمِلُهَا حُوتٌ .

١٢٧٤ ـ وَقَالَ جَحْظَةُ ٱلْبَرْمَكِيُّ فِي ثَقِيلٍ مِنْ أَبْيَاتٍ [من السريع] :

يَـا لَفْظَـةَ ٱلنَّعْـيِ بِمَـوْتِ ٱلْخَلِيـلْ يَـا وَقْفَـةَ ٱلتَّـوْدِيـعِ بَيْـنَ ٱلْحُجُـولْ
يَـا طَلْعَـةَ ٱلنَّعْـشِ وَيَـا مَنْـزِلًا أَقْفَـرَ مِـنْ بَعْـدِ ٱلأَنِيـسِ ٱلْحُلُـولْ
يَـا شَـرْبَـةَ ٱلْيَـارَج يَـا أُجْـرَةَ ٱلْمَنْـزِ لِ يَـا وَجْـهَ ٱلْعَـذُولِ ٱلثَّقِيـلْ[1]
يَـا نَهْضَـةَ ٱلْمَحْبُـوبِ عَـنْ غَضْبَـةٍ يَـا نِعْمَـةً قَـدْ آذَنَـتْ بِـٱلـرَّحِيـلْ
وَيَـا كِتَـابـاً جَـاءَ مِـنْ مُخْلِـفٍ لِلْـوَعْـدِ مَمْلُـوءًا بِعُـذْرٍ طَـوِيـلْ
يَـا شَـوْكَـةً فـي قَـدَمٍ رَخْصَـةٍ لَيْسَ إِلَـىٰ إِخْـرَاجِهَـا مِـنْ سَبِيـلْ[2]
يَـا عِشْـرَةَ ٱلْمَخْـدُومِ فِـي رَحْلِـهِ وَيَـا صُعُـودَ ٱلسِّعْـرِ عِنْـدَ ٱلْمُعِيـلْ[3]
يَـا رَدَّةَ ٱلْحَـاجِـبِ عَـنْ قَسْـوَةٍ وَنَكْسَـةً مِـنْ بَعْـدِ بُـرْءِ ٱلْعَلِيـلْ

* * *

١٢٧٥ ـ وَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ [من المتقارب] :

ثَقِيـلٌ يُطَـالِعُنَـا مِـنَ أَمَـمْ إِذَا سَـرَّهُ رَغْـفُ أَنْفِـي أَلَـمْ
لِطَلْعَتِـهِ وَخْـزَةٌ فِـي ٱلْحَشَـا كَـوَخْـزِ ٱلْمَشَـارِطِ فـي ٱلْمُحْتَجَـمْ
[ كَـأَنَّ ٱلْفُـؤَادَ إِذَا مَـا بَـدَا بِـإِشْفَـى إِلَـىٰ كَبِـدِي يَنْتَظِـمْ ]
أَقُـولُ لَـهُ إِذْ بَـدَا لا بَـدَا وَلا حَمَلَتْـهُ إِلَيْنَـا قَـدَمْ

---

(١) ٱلْيَارَجُ أو الإِيَارَجَةُ : مَعْجُونٌ مُسْهِلٌ ، ٱلْجَمْعُ أَيَارِج ، وَٱلْكَلِمَةُ فارِسِيَّةٌ مُعَرَّبَةٌ ، [ وتَفْسِيرُهُ : ٱلدَّوَاءُ ٱلإِلَهِيُّ ] وَلَكَ أَنْ تَسْتَبْدِلَ بِهَا : يَا شَرْبَةَ ٱلْخِرْوَعِ .
[ يَـا بُكْـرَةَ ٱلثَّكْلَـى إِلَـىٰ حُفْـرَةٍ مُسْتَـوْدَعٍ فِيهَـا عَـزِيـزُ ٱلثُّكُـولْ
يَـا وَثْبَـةَ ٱلْحَـافِـظِ مُسْتَعْجِـلًا بِصَـرْفِـهِ ٱلْقِيئَـاتِ عِنْـدَ ٱلأَصِيـلْ
وَيَـا طَبِيبـاً قَـدْ أَتَـىٰ بَـاكِـراً عَلَـىٰ أَخِـي سُقْـمٍ بِمَـاءِ ٱلْبُقُـولِ ]
(٢) رَخْصَةٌ : لَيِّنَةٌ نَاعِمَةٌ .
(٣) في رَحْلِهِ : في مَنْزِلِهِ ؛ وَٱلْمُعِيلُ : مَنْ لَهُ عِيَالٌ كُثُرٌ .

فَقَــدْتُ خَيَــالَــكَ لا مِــنْ عَمًــىٰ وَصَــوْتَ كَـلامِـكَ لا مِــنْ صَمَــمْ
[ تَغَــطَّ بِمَــا شِئْــتَ عَــنْ نَــاظِـرِي وَلَــوْ بِــالْــرِّداءِ بِــهِ تَلْتَثِــمْ ]

* * *

١٢٧٦ ـ وَقالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من الخفيف] :

رُبَّمَــا يُثْقُــلُ ٱلْجَلِيــسُ وَإِنْ كَــا نَ خَفِيفــاً فِــي كَفَّــةِ ٱلْمِيــزَانِ
وَلَقَــدْ قُلْــتُ حِيــنَ وَتَّــدَ فــي ٱلأَرْ ضِ ثَقِيــلٌ أَرْبَــىٰ عَلَــىٰ ثَهْــلَانِ[1]
كَيْــفَ لَــمْ تَحْمِــلِ ٱلأَمَــانَــةَ أَرْضٌ حَمَلَــتْ فَــوْقَهَــا أَبَــا سُفْيَــانِ

* * *

١٢٧٧ ـ وَفي ٱلْبَارِدِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ في شِعْرِ ٱلصُّولِيِّ [من السريع] :

دَارِي بِــلَا خَيْــشٍ وَلَكِنَّنِــي عَقَــدْتُ مِــنْ خَيْشِــي طَــاقَيْــنِ
دَارٌ مَتَــىٰ مَــا ٱشْتَــدَّ بِــي حَــرُّهَــا أَنْشَــدْتُ لِلصُّــولِــي بَيْتَيْــنِ

* * *

١٢٧٨ ـ وقَالَ كُشَاجِم في مُغَنٍّ [من المتقارب] :

غِنَــاءُ بُــدَيْــحٍ بِــأَرْضِ ٱلْحِجَــازِ يَطِيــبُ وَأَمَّــا بِحِمْــصٍ فَــلَا
لِبَــرْدِ ٱلْغِنَــاءِ وَبَــرْدِ ٱلْهَــوَاءِ فَــإِنْ جُمِعَــا خِفْــتُ أَنْ يَقْتُــلَا

* * *

١٢٧٩ ـ وَلَقِيَ بَرْدُ ٱلْخِيَارِ ٱلْمُغَنِّي أَبَا العَبَّاسِ ٱلمُبَرِّدَ في يَوْمٍ بَارِدٍ بِٱلْجِسْرِ . فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ ٱلْمُبَرِّدُ وَأَنَا بَرْدُ ٱلْخِيَارِ ، وَٱلْيَوْمَ كَمَا تَرَىٰ ، فَٱعْبُرْ بِنَا لا يَهْلِكْ

---

(١) ثَهْلانُ : جَبَلٌ .

ٱلنَاسُ مِنْ ٱلْفَالِجِ بِسَبَبِنَا .

* * *

١٢٨٠ ـ وَمِنْ كَلامِهِمْ في ذَمِّ ٱلْمُغَنِّين غَيْرِ ٱلْمُحْسِنِينَ : يَتَرَنَّمُ فَيُتْعِبُ ، وَلا يُطْرِبُ ؛ ضَرْبُهُ[1] ، يُوجِبُ ضَرْبَهُ .

* * *

١٢٨١ ـ مِنْ عَجَائِبِ غِنَائِهِ أَنَّه يُورِدُ ٱلشِّتَاءَ في ٱلصَّيْفِ ، وَمَا رُئِيَ قَطُّ في دارٍ مَرَّتَيْنِ .

* * *

١٢٨٢ ـ وَحَضَرَ جَحْظَةُ ٱلْبَرْمَكِيُّ ـ وَكَانَ يُغَنِّي وَلا يُحْسِنُ ، وَكَانَ دَمِيماً جَاحِظَ ٱلْعَيْنَيْنِ ـ حَضَرَ مَجْلِساً فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ ، فَتَوَزَّعَ ٱلْقَوْمُ ٱلْمَخَادَّ ، فَقَالَ جَحْظَةُ : فَمَا لِي لَمْ تُعْطُونِي مِخَدَّةً ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ بَسَّامٍ : غَنِّ ، فَٱلْمَخَادُّ كُلُّهَا إِلَيْكَ تَصِيرُ .

* * *

١٢٨٣ ـ وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ بَسَّامٍ [من السريع] :

يَا مَنْ هَجَوْنَاهُ فَغَنَّانَا ... أَنْتَ وَبَيْتِ ٱللهِ أَهْجَانَا
سِيَّانِ أَنْ غَنَّى لَنَا جَحْظَةٌ ... أَوْ مَرَّ مَجْنُونٌ فَغَنَّانَا

* * *

١٢٨٤ ـ قَالَ ٱلحُصْرِيُّ : وَكَانَ خَالِدٌ يُسْتَبْرَدُ ، فَبَعَثَ بَعْضُ ٱلظُّرَفَاءِ غُلامَهُ

---

(١) أَيْ : ضَرْبُه بِٱلْعُودِ وَنَحْوِهِ .

يَشْتَرِي لَهُ خَمْسَةَ أَرْطَالٍ ثَلْجاً ، فَأَتَاهُ بِخَالِدٍ ، وَقَالَ : يَا مَوْلَايَ ! طَلَبْتَ خَمْسَةَ أَرْطَالٍ ، وَهَذَا حِمْلٌ .

* * *

١٢٨٥ ـ وَتَغَنَّىٰ بِحَضْرَةِ مَحْمُومٍ، فَقَالَ : وَيْحَكَ ! دَعْنَا نَعْرَقُ .

* * *

١٢٨٦ ـ وَٱلشَّيْءُ يُذْكَرُ بِٱلشَّيْءِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ يَهْجُو رَجُلًا [من الرجز] :

لَوْ كُنْتَ رِيحاً كَانَتِ ٱلدَّبُورَا ... أَوْ كُنْتَ غَيْماً لَمْ تَكُنْ مَطِيرَا
أَوْ كُنْتَ مَاءً لَمْ تَكُنْ طَهُورَا ... أَوْ كُنْتَ مُخّاً كُنْتَ مُخَّ رِيرَا[١]
أَوْ كُنْتَ بَرْداً كُنْتَ زَمْهَرِيرَا

* * *

١٢٨٧ ـ وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلآخَرِ [من الرجز] :

لَوْ كُنْتَ مَاءً لَمْ تَكُنْ بِعَذْبِ ... أَوْ كُنْتَ سَيْفاً كُنْتَ غَيْرَ عَضْبِ[٢]
أَوْ كُنْتَ لَحْماً كُنْتَ لَحْمَ كَلْبِ ... أَوْ كُنْتَ طِرْفاً كُنْتَ غَيْرَ نَدْبِ[٣]

* * *

---

(١) ٱلرِّيْرُ : ٱلْمُخُّ ٱلرَّقِيقُ ، يُقَالُ : مُخٌّ رِيرٌ وَرَارٌ .
(٢) غَيْرُ عَضْبٍ : غَيْرُ قَاطِعٍ .
(٣) ٱلطِّرْفُ : ٱلْكَرِيمُ مِنَ ٱلْخَيْلِ ؛ وَٱلنَّدْبُ : ٱلسَّرِيعُ ٱلْخَفِيفُ .

# الْبَابُ الثَّامِنُ

## رَمْيُهُنَّ بِٱلْكَيْدِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْغَدْرِ وَٱلتَّلَوُّنِ وَٱلْكُفْرِ بِٱلْعَشِيرِ ، وَبِٱلْحُمْقِ وَٱلْخَرْقِ ، وَحَضُّهُمْ مِنْ ثَمَّ عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِنَّ وَعَدَمِ ٱلاعْتِمَادِ عَلَيْهِنَّ

١٢٨٨ ـ وَهَذَا بَابٌ لَقَدْ تَوَسَّعُوا فِيهِ وَأَكْثَرُوا مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّىٰ لَكَأَنَّ ٱلْمُتَصَدِّيَ لِلْكَلامِ عَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ يَكْفِيهِ أَنْ لا يَعْدُوَ هَذَا ٱلْبَابِ ، فَهُوَ حَسْبُهُ ، وَهَذَا مِنْهُمْ لَعَمْرِي لَوْنٌ مِنَ ٱلْمُغَالَاةِ وَٱلْجَوْرِ وَٱلتَّحَيُّفِ وَٱلتَّعَصُّبِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ، وَإِلَّا فَمَنْ يُنْكِرُ أَنَّ مِنَ ٱلرِّجَالِ مَنْ هُوَ أَمْكَرُ وَأَغْدَرُ وَأَشَدُّ خَرَقاً وَحُمْقاً ، وَلَكِنَّهُمْ لاحَظُوا في ذَلِكَ طَبِيعَةَ ٱلْمَرْأَةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ ٱلْمَسَاوِىءَ أَكْثَرُ شُيُوعاً فِي ٱلنِّسَاءِ وَأَلْزَمُ لِلْجِبلَّةِ ٱلضَّعِيفَةِ ، عَلَىٰ أَنَّهُ مِمَّا يَجْمُلُ أَنْ يُلاحَظَ في ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ ٱمْرَأَةٍ كَذَلِكَ ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ رَجُلٍ خَيْراً مِنْ كُلِّ ٱمْرَأَةٍ، وَإِلَّا فَمِنَ ٱلنِّسَاءِ ٱلطَّيِّبَاتُ ٱلْعَاقِلَاتُ ٱلْخَيِّرَاتُ ، وَإِنْ كُنَّ قَلِيلاتٍ بِٱلإِضَافَةِ إِلَىٰ مَنْ لَسْنَ كَذَلِكَ ، نَقُولُ هَذَا وَإِنْ جَاءَ في ٱلْحَدِيثِ : « مَثَلُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلصَّالِحَةِ فِي ٱلنِّسَاءِ مَثَلُ ٱلْغُرَابِ ٱلأَعْصَمِ[1] فِي ٱلْغِرْبَانِ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٤٤٠] [وَهَذَا كِنَايَةٌ عَنْ نُدْرَةِ وُجُودِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلصَّالِحَةِ ، فَلا وُجُودَ فِي ٱلْوَاقِعِ لِلْغُرَابِ ٱلأَعْصَمِ] .

* * *

---

(١) وَبَقِيَّةُ ٱلْحَدِيثِ : قِيلَ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! وَمَا ٱلْغُرَابُ ٱلأَعْصَمُ ؟ قَالَ : « ٱلَّذِي إِحْدَىٰ رِجْلَيْهِ بَيْضَاءُ » .

١٢٨٩ ـ وَجَاءَ في حَدِيثِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ : « وَجَدْتُ إِنْسانا وَاحِداً مِنْ أَلْفِ إِنْسانٍ ، وَفي كَافَّةِ ٱلنِّسَاءِ مَا وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً » « ٱلْجَامِعَةُ » لِسُلَيْمانَ . [سفر الجامعة ، الإصحاح السابع ، الآية : ٢٨] .

وَبَعْدُ ؛ فَمِمَّا يَجِبُ أَنْ يُلاحَظَ دَائِماً أَنَّ هَذَا ٱلْمُعْجَمَ مِنْ أَخَصِّ خَصَائِصِهِ أَنْ يَعْرِضَ لِكُلِّ مَا قِيلَ في ٱلنِّسَاءِ ، سَوَاءٌ أَكَانَ لَهُنَّ أَمْ عَلَيْهِنَّ .

* * *

١٢٩٠ ـ قَالَ ٱللهُ عَزَّ وَتَقَدَّسَ عَلَىٰ لِسَانِ عَزِيزِ مِصْرَ يُخَاطِبُ ٱمْرَأَتَهُ ٱلَّتِي رَاوَدَتْ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [١٢ سورة يوسف/الآية : ٢٨] قَالَ ٱلإِمَامُ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : وَإِنَّمَا ٱسْتَعْظَمَ كَيْدَ ٱلنِّسَاءِ لأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ في ٱلرِّجَالِ ، إِلَّا أَنَّ ٱلنِّسَاءَ أَلْطَفُ كَيْداً وَأَنْفَذُ حِيلَةً ، وَلَهُنَّ في ذَلِكَ نِيقَةٌ[١] وَرِفْقٌ ، وَبِذَلِكَ يَغْلِبْنَ ٱلرِّجَالَ . قَالَ : وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [١١٣ سورة الفلق/الآية : ٤] [٢] ، وَٱلْقَصِيرَاتُ مِنْ بَيْنِهِنَّ مَعَهُنَّ مَا لَيْسَ مَعَ غَيْرِهِنَّ[٣] مِنَ ٱلْبَوَائِقِ ـ ٱلدَّوَاهِي ـ قَالَ : وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِنِّي أَخَافُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَافُ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ، لأَنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [٤ سورة

---

(١) ٱلنِّيقَةُ : ٱسْمٌ لِلتَّأَنُّقِ في ٱلأَمْرِ .

(٢) ٱلْمُرَادُ بِٱلنَّفَّاثَاتِ ٱلنِّسَاءُ ٱلْكَيَّادَاتُ ، تَشْبِيهاً لِكَيْدِهِنَّ بِٱلسِّحْرِ وَٱلنَّفْثِ في ٱلْعُقَدِ ، أَو ٱللاَّتِي يَفْتِنَّ ٱلرِّجَالَ بِتَعَرُّضِهِنَّ لَهُمْ وَعَرضِهِنَّ مَحَاسِنَهُنَّ كَأَنَّهُنَّ يَسْحَرْنَهُمْ بِذَلِكَ .

(٣) ٱلظَّاهِرُ أَنَّ ٱلزَّمَخْشَرِيَّ يُرِيدُ بِٱلْقَصِيرَاتِ ضِدَّ ٱلطَّوِيلاتِ ، مِنْ قِصَرِ ٱلْقَامَةِ ، قَالَ كُثَيِّرُ عَزَّةَ مِنْ أَبْيَاتٍ سَتَأْتِي [ من الطويل ] :

* شَـرُّ ٱلنِّسَـاءِ البَحَـاتِـرُ *

وَٱلْبَحَاتِرُ : ٱلْقَصِيرَاتُ ، وَلَعَلَّ ٱلزَّمَخْشَرِيَّ يُرِيدُ بِٱلْقَصِيرَاتِ ٱلْمَقْصُورَاتِ في ٱلْبُيُوتِ ، أَيْ : ٱلْمُخَدَّرَاتِ .

البقرة/ الآية : ٧٦] وَقَالَ لِلنِّسَاءِ : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [١٢ سورة يوسف/ الآية : ٢٨] .

* * *

١٢٩١ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « رَأَيْتُ ٱلنَّارَ فَلَمْ أَرَ كَٱلْيَوْمِ مَنْظَراً قَطُّ ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِها ٱلنِّسَاءُ » ، قَالُوا : لِمَ يَا رَسُولَ ٱللهِ ؟ قَالَ : « بِكُفْرِهِنَّ » ، قِيلَ : يَكْفُرْنَ بِٱللهِ ؟ قَالَ : « يَكْفُرْنَ ٱلْعَشِيرَ ، وَيَكْفُرْنَ ٱلإِحْسَانَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ ٱلدَّهْرَ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً ، قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ »

[البخاري ، رقم : ١٠٥٢ ؛ مسلم ، رقم : ٩٠٧] .

ٱلْمُرَادُ بِٱلْعَشِيرِ : ٱلزَّوْجُ ، مِنَ ٱلْمُعَاشَرَةِ ، وَهِيَ : ٱلْمُخَالَطَةُ .

* * *

١٢٩٢ ـ وَمِصْدَاقُ هَذَا ٱلْحَدِيثِ في ٱلْوَاقِعِ ٱلْمُشَاهَدِ كَثِيرٌ جَدّاً ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُرْوَىٰ عَنِ ٱلرُّمَيْلِيَّةِ زَوْجِ ٱلْمُعْتَمَدِ بْنِ عَبَّادٍ مَلِكِ إِشْبِيلِيَّةَ وَأَحَدِ مُلُوكِ ٱلطَوائِفِ بِٱلأَنْدَلُسِ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلْمُعْتَمَدَ كَثِيراً مَا كَانَ يَتَنَكَّرُ هُوَ وَوَزِيرُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱبْنُ عَمَّارٍ ، وَيَخْرُجَانِ إِلَىٰ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمَعْرُوفِ بِمَرْجِ ٱلْفِضَّةِ ، وَهُوَ مَكانٌ بَهِيجٌ يَسُرُّ ٱلنَّاظِرِينَ ، فَبَيْنَمَا ٱلْمُعْتَمِدُ عَشِيَّةً عَلَىٰ ضِفَّةِ ٱلْوَادِي إِذْ هَبَّتْ رِيحٌ فَزَرَدَتْهُ ، فَقَالَ لِٱبْنِ عَمَّارٍ : أَجِزْ [ من الرمل ] :

صَنَعَ ٱلرِّيحُ مِنَ ٱلْمَاءِ زَرَدْ

فَتَلَكَّأَ ٱبْنُ عَمَّارٍ ، وَبَدَرَتْهُ ٱمْرَأَةٌ كَانَتِ بِمَقْرُبَةٍ مِنْهُمَا ، فَقَالَتْ [ من الرمل ] :

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدْ

فَتَعَجَّبَ ٱبْنُ عَبَّادٍ مِنْ حُسْنِ مَا أَتَتْ بِهِ مَعَ عَجْزِ ٱبْنَ عَمَّارٍ وَإِفْحَامِهِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا ، فَرَأَىٰ صُورَةً جَمِيلَةً . فَوَقَعَتْ بِقَلْبِهِ ، وَٱنْصَرَفَ إِلَىٰ قَصْرِهِ بَعْدَ أَنْ وَكَلَ

بِهَا أَحَدَ خِصْيَانِهِ ، وَأَمَرَهُ بِحَمْلِهَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَيْهِ ٱسْتَفْهَمَهَا عَنْ نَسَبِهَا ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ ـ أَيْ أَبَاهَا ـ مِنْ صِنْفِ ٱلْمَاشِيَةِ ٱلْمُشْتَغِلِينَ بِٱلْعُكُوفِ عَلَىٰ ٱلدَّوَابِ . . . وَأَنَّهَا خِلْوٌ مِنَ ٱلزَّوْجِ ؛ فَتَزَوَّجَها ، وَقَطَعَا حِيناً مِنَ ٱلدَّهْرِ في سُرُورٍ مُتَوَالٍ وَغَبْطَةٍ يُحْسَدَانِ عَلَيْهَا ، وَحَدَثَ أَنْ رَأَتِ ٱلنِّسَاءَ يَوْماً يَمْشِينَ في ٱلطِّينِ ، فَٱشْتَهَتِ ٱلْمَشْيَ فِيهِ ، فَأَمَرَ ٱلْمُعْتَمِدُ فَسُحِقَتِ ٱلطُّيُوبُ وَذُرَّتْ في سَاحَةِ ٱلْقَصْرِ حَتَّىٰ عَمَّتْهُ ، ثُمَّ نُصِبَتِ ٱلْغَرَابِيلُ وَصُبَّ فِيهَا مَاءُ ٱلْوَرْدِ عَلَىٰ ٱلطُّيُوبِ ، وَعُجِنَتْ بِٱلأَيْدِي حَتَّىٰ صَارَتْ كَٱلطِّينِ ، وَخَاضَتْهُ مَعَ جَوَارِيهَا ، وَكَانَ يَوْماً مَشْهُوداً . وَغَاضَبَهَا في بَعْضِ ٱلأَيَّامِ ، فَأَقْسَمَتْ أَنَّهَا لَمْ تَرَ مِنْهُ خَيْراً قَطُّ . . . فَقَالَ لَهَا : وَلا يَوْمَ ٱلطِّينِ ؟ . . . فَٱسْتَحَيَتْ وَٱعْتَذَرَتْ . . .

* * *

١٢٩٣ ـ وَمِنْ كَلامِ ٱلْمَأْمُونِ : إِنَّ ٱلنِّسَاءَ شَرٌّ كُلُّهُنَّ ، وَشَرُّ ما فِيهِنَّ أَنْ لا غَناءَ عَنْهُنَّ .

* * *

١٢٩٤ ـ وَمَرَّتْ بِسُقْرَاطَ Socrates ٱمْرَأَةٌ وَهُوَ يَتَشَرَّقُ ـ يَخْضِبُ شَعَرَهُ بِٱلزَّعْفَرَانِ وَنَحْوِهِ مِن كُلِّ صَبْغٍ أَحْمَرٍ ـ فَقَالَتْ : يَا شَيْخُ ! مَا أَقْبَحَكَ ! فَقَالَ : لَوْلا أَنَّكِ مِنَ ٱلْمَرَايَا ٱلصَّدِئَةِ لَغَمَّنِي مَا بَانَ مِنْ قُبْحِ صُورَتِي فِيكِ .

* * *

١٢٩٥ ـ وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ : عَاقَبَ ٱللهُ ٱلْمَرْأَةَ بِعَشْرِ خِصَالٍ : شِدَّةِ ٱلنِّفَاسِ ، وَبِٱلْحَيْضِ ، وَبِٱلنَّجَاسَةِ فِي بَطْنِهَا وَفَرْجِهَا ، وَجَعْلِ مِيرَاثِ ٱمْرَأَتَيْنِ مِيرَاثَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَشَهَادَةِ ٱمْرَأَتَيْنِ كَشَهَادَةِ رَجُلٍ ، وَجَعْلِهَا نَاقِصَةَ ٱلْعَقْلِ وَٱلدِّينِ ـ لا تُصَلِّي أَيَّامَ حَيْضِهَا ـ وَلا يُسَلَّمُ عَلَىٰ ٱلنِّساءِ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُمُعَةٌ

وَلا جَمَاعَةٌ ، وَلا يَكُونُ مِنْهُنَّ نَبِيٌّ ، وَلا تُسَافِرُ إِلَّا بِوَلِيٍّ .

❋ ❋ ❋

١٢٩٦ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ [من الخفيف] :

ٱلنِّسَا نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ ... مَا رَأَيْنَا لَهُنَّ رَأْياً سَنِيَّا
وَلأَجْلِ ٱلْكَمَالِ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ ... تَعَالَىٰ مِنَ ٱلنِّسَاءِ نَبِيَّا

❋ ❋ ❋

١٢٩٧ ـ وَقَالُوا: لا تَدَعْ أُمَّ صَبِيِّكَ تَضْرِبُهُ، فَإِنَّهُ أَعْقَلُ مِنْهَا وَإِنْ كَانَ طِفْلاً .

❋ ❋ ❋

١٢٩٨ ـ وَكَانَ يُقَالُ : مَا نُهِيَتِ ٱمْرَأَةٌ قَطُّ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَتَتْهُ ، وَفِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ يَقُولُ طُفَيْلُ ٱلْغَنَوِيُّ [من البسيط] :

إِنَّ النِّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبَتْنَ مَعَاً ... مِنْهَا ٱلْمُرَارُ وَبَعْضُ ٱلْمُرِّ مَأْكُولُ
إِنَّ ٱلنِّسَاءَ مَتَىٰ يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ ... فَإِنَّهُ وَاقِعٌ لا بُدَّ مَفْعُولُ

ٱلْمُرارُ : شَجَرٌ مُرٌّ .

❋ ❋ ❋

١٢٩٩ ـ وَقَالُوا : إِذَا وُصِفَتِ ٱلْمَرْأَةُ بِٱلْعَقْلِ ، فَهِيَ غَيْرُ بَعِيدَةٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ ـ ٱلْحُمْقِ ـ .

❋ ❋ ❋

١٣٠٠ ـ وَرَأَىٰ سُقْرَاطُ Socrates ٱمْرَأَةً تَحْمِلُ نَاراً ، فَقَالَ : نَارٌ تَحْمِلُ نَاراً ، وَٱلحَامِلُ شَرٌّ مِنَ ٱلْمَحْمُولِ .

❋ ❋ ❋

١٣٠١ ـ وَقَالَ ٱلنَّبِيُّ سُلَيْمَانُ : ٱمْشِ وَرَاءَ ٱلأَسَدِ وَلَا تَمْشِ وَرَاءَ ٱلْمَرْأَةِ .

* * *

١٣٠٢ ـ وَقَالُوا : ٱعْصِ هَوَاكَ وَٱلنِّسَاءَ وَٱصْنَعْ مَا شِئْتَ .

* * *

١٣٠٣ ـ وَقَالَ ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلأَلْمَانِيُّ ٱلأَشْهَرُ آرْثَرَ شُوبَنْهَوَر Arthurs Schopenhauer ـ وَكَانَ فِي طَلِيعَةِ ٱلسَّاخِطِينَ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ـ : يَسْأَلُونَنِي عَنِ ٱلأَفْعَىٰ ٱللَّيِّنَةِ ٱلْمَلْمَسِ ! وَهِيَ أَمَامَهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ ! بَلْ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ! هِيَ ٱلْمَرْأَةُ !

* * *

١٣٠٤ ـ وَقَبْلَ شُوبَنْهَوَر Schopenhauer ، قَالَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ : ٱلْمَرْأَةُ عَقْرَبٌ حُلْوُ ٱللِّسْبَةِ .

يُقَالُ : لَسَبَتِ ٱلْحَيَّةُ وَٱلْعَقْرَبُ وَٱلزُّنْبُورُ تَلْسِبُهُ وَتَلْسَبُهُ لَسْباً : لَدَغَتْهُ ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْعَقْرَبِ .

* * *

١٣٠٥ ـ وَقِيلَ لِحَيَّةٍ سَامَّةٍ : أَكَانَ يَسُرُّكِ لَوْ خُلِقْتِ ٱمْرَأَةً ؟ قَالَتْ : أَنَا ٱمْرَأَةٌ ، غَيْرَ أَنَّ سُمِّيَ فِي ٱلنَّابِ وَسُمُّهَا فِي لِسَانِهَا .

* * *

١٣٠٦ ـ وَقَالَ شُوبَنْهَوَر Schopenhauer : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي تَضْطَرُّنِي إِلَىٰ أَنْ أَحْتَرِمَهَا مَا خُلِقَتْ وَلَنْ تُخْلَقَ .

* * *

١٣٠٧ ـ وَقَالَ : إِنَّ إِطْلاقَنَا عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ « سَيِّدَةٌ » لُغَةٌ يَجِبُ ٱلْقَضَاءُ عَلَيْهَا ، حَتَّىٰ لا يَبْقَىٰ غَيْرُ نُساءٍ غَارِقَاتٍ في ٱلشُّؤُونِ ٱلْمَنْزِلِيَّةِ .

* * *

١٣٠٨ ـ وَقَالَ : ٱتْرُكُوا لِلمَرْأَةِ حُرِّيَّتَهَا ، وَلا تَجْعَلُوا عَلَيْهَا رَقِيباً ، ثُمَّ قَابِلُونِي بَعْدَ سَنَةٍ وَأَخْبِرُونِي عَنِ ٱلنَّتِيجَةِ .

* * *

١٣٠٩ ـ وَقَالُوا : مَنْ أَطَاعَ عِرسَهُ لَمْ يَنْفَعْ نَفْسَهُ .

ٱلْعِرْسُ : ٱلزَّوْجَةُ .

* * *

١٣١٠ ـ وَقَالُوا : شَاوِرُهُنَّ وَخَالِفُوهُنَّ .

* * *

١٣١١ ـ وَقَالُوا : أَكْثِرُوا لَهُنَّ مِنْ « لا » ، فَإِنَّ « نَعَمْ » تُغْرِيهِنَّ بِٱلْمَسْأَلَةِ ـ أَيْ : ٱلسُّؤَالِ وَٱلطَّلَبِ ـ

* * *

١٣١٢ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ [من الطويل] :

تُعَيِّرُنِي بِٱلْغَزْوِ عِرْسِي وَمَا دَرَتْ بِأَنِّي لَهَا في كُلِّ مَا أَمَرَتْ ضِدُّ

* * *

١٣١٣ ـ وَعَارَضَتِ ٱمْرَأَةُ عُمَرَ في أَمْرٍ يُدَبِّرُهُ ، فَقَالَ : مَا لَكُنَّ وَأُمُورَ ٱلرِّجَالِ ! إِنَّمَا أَنْتُنَّ لُعْبَةٌ ، إِنْ كَانَتْ لَنَا بِكُنَّ حَاجَةٌ دَعَوْنَاكُنَّ .

* * *

١٣١٤ ـ وَقَالَ أَبُو تَمَّام [من الطويل] :

أَهُـنَّ عَـوَادِي يُـوسُـفٍ وَصَـوَاحِبُـهْ فَعَزْماً ، فَقِدْماً أَدْرَكَ ٱلنُّجحَ طالِبُهْ(١)

* * *

١٣١٥ ـ وَقَالَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ [من الطويل] :

وَلِلْخَـوْدِ مِنِّـي سَـاعَـةٌ ثُـمَّ بَيْنَنَـا فَـلاَةٌ إِلَـىٰ غَيْـرِ ٱللِّقَـاءِ تُجَـابُ

ٱلْخَودُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ : ٱلشَّابَّةُ ٱلنَّاعِمَةُ ؛ وَتُجَابُ : تُقْطَعُ ؛ يَقُولُ : إِنَّمَا أَصْبَحَتِ ٱلْمَرْأَةُ قَدْراً يَسِيراً ، ثُمَّ أَبْتَعِدُ عَنْهَا ، فَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا صَحْرَاءُ أَقْطَعُهَا إِلَىٰ غَيْرِ لِقَائِهَا .

* * *

١٣١٦ ـ وَكَانَ ٱلْمُتَنَبِّيُّ عِزْهَاةً عَزُوفَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلنِّسَاءِ ، وَمَالَهُ وَٱلْغَوَانِي وَلا هَمَّ لَهُ إِلَّا طِلَابُ ٱلْمَجْدِ وَٱلطُّمُوحُ إِلَىٰ ٱلسُّؤْدُدِ وَجَسِيمَاتِ ٱلأُمُورِ .

* * *

١٣١٧ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ ، مِنْ أَبْيَاتِ « ٱلْحَمَاسَةِ » [من الكامل] :

إِنَّ ٱلنِّسَـــاءَ وَإِنْ ذُكِـــرْنَ بِعِفَّـــةٍ فِيمَـا يُظَـاهَـرُ فـي ٱلأُمُـورِ وَيُكْتَـمُ

---

(١) هَذَا ٱلْبَيْتُ مَطْلَعُ قَصِيدَةٍ لأَبِي تَمَّام في عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَقَوْلُهُ : أَهُنَّ ، فَٱلْهَمْزَةُ فِيهِ لِلاسْتِفْهَامِ ، وَٱلْمُرادُ بِهِ ٱلتَّقْرِيرُ ، يَقُولُ : إِنَّ ٱلنِّسَاءَ هُنَّ ٱللَّوَاتِي حَاوَلْنَ صَرْفَ يُوسُفَ عَنْ تُقَاهُ وَرُشْدِهِ ، وَإِذَنْ فَٱعْزِمْ عَزْماً قَوِيّاً عَلَىٰ مُخَالَفَتِهِنَّ حَتَّىٰ تُدْرِكَ ٱلنُّجْحَ ، فَإِنَّ سَبِيلَ إِدْرَاكِ ٱلنُّجحِ ، هُوَ تَصْمِيمُ ٱلْعَزْمِ وَإِمْضَاءُ ٱلنِّيَّةِ . يُرْوَىٰ أَنَّ أَبَا ٱلْعَمَيْثَلِ ، وَكَانَ أَمِيناً لِخِزَانَةِ أَدَبِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ ، وَكَانَ قَدْ طَرَحَ هَذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ لِغُمُوضِ هَذَا ٱلْمَطْلَعِ ، فَلَمَّا عَاتَبَهُ أَبُو تَمَّامٍ عَلَىٰ هَذَا ٱلإِهْمَالِ ، قَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَمَيْثَلِ : لِم لا تَقُولُ مَا يُفْهَمُ ؟ فَأَجَابَهُ أَبُو تَمَّامٍ : وَأَنْتَ لِمَ لا تَفْهَمُ مَا يُقَالُ !

لَحْمٌ أَطَافَ بِهِ سِبَاعٌ جُوَّعٌ     مَا لا يُذَادُ فَإِنَّهُ يُتَقَسَّمُ
ٱلْيَوْمَ عِنْدَكَ دَلُّهَا وَحَدِيثُهَا     وَغَداً لِغَيْرِكَ كَفُّهَا وَٱلْمِعْصَمُ
كَٱلْخَانِ تسْكُنُهُ وَتَرْحَلُ غَازِياً     وَيَحُلُّ بَعْدَكَ فِيهِ مَنْ لا تَعْلَمُ

* * *

١٣١٨ ـ وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ [من الكامل] :

لا يُوئِسَنَّكَ مِنْ مُخَدَّرَةٍ     قَولٌ تُغَلِّظُهُ وَإِنْ جَرَحَا
عُسْرُ ٱلنِّسَاءِ إِلَىٰ مُيَاسَرَةٍ     وَٱلصَّعْبُ يُمْكِنُ بَعْدَمَا جَمَحَا

* * *

١٣١٩ ـ وَقَالَ آخَرُ [ وهو قَيْسُ بنُ ذُرَيْح ، من الطويل ] :

تَمَتَّعْ بِهَا مَا سَاعَفَتْكَ ، وَلا تَكُنْ     عَلَيْكَ شَجاً في ٱلْحَلْقِ حِينَ تَبِينُ
وَإِنْ هِيَ أَعْطَتْكَ ٱللِّيَانَ فَإِنَّهَا     لِغَيْرِكَ مِنْ خُلاَّنِهَا سَتَلِينُ
وَإِنْ حَلَفَتْ لا يَنْقُضُ ٱلنَّأْيُ عَهْدَهَا     فليس لِمَخْضُوبِ ٱلْبَنَانِ يَمِينُ

* * *

١٣٢٠ ـ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ ٱلأَنْدَلُسِيُّ ٱلظَّرِيفُ يَحْيَىٰ بْنُ ٱلْحَكَمِ ٱلْمُلَقَّبُ بِٱلْغَزَالِ [ من الكامل ] :

يَا رَاجِياً وُدَّ ٱلْغَوَانِي ضَلَّةً     وَفُؤَادُهُ كَلِفٌ بِهِنَّ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلنِّسَاءَ لَكَالسُّرُوجِ حَقِيقَةً     فَٱلسَّرْجُ سَرْجُكَ رَيْثَمَا لا تَنْزِلُ
فَإِذَا نَزَلْتَ فَإِنَّ غَيْرَكَ نَازِلٌ     ذَاكَ ٱلْمَكَانَ وَفَاعِلٌ مَا تَفْعَلُ
أَوْ مَنْزِلُ ٱلْمُجْتَازِ أَصْبَحَ غَادِياً     عَنْهُ وَيَنْزِلُ بَعْدَهُ مَنْ يَنْزِلُ
أَوْ كَٱلثِّمَارِ مُبَاحَةً أَغْصَانُهَا     تَدْنُو لأَوَّلِ مَنْ يَمُرُّ فَيَأْكُلُ

أَعْطِ ٱلشَّبِيبَةَ ـ لا أَبَا لَكَ ـ حَقَّهَا مِنْهَا فَإِنَّ نَعِيمَهَا مُتَحَوِّلُ
وَإِذَا سُلِبَتْ ثِيَابَهَا لَمْ تَنْتَفِعْ عِنْدَ ٱلنِّسَاءِ بِكُلِّ مَا تَسْتَبْدِلُ

* * *

١٣٢١ ـ وَقَالَ ٱلْعُتْبِيُّ : سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ نَاسٍ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّامِ : إِنَّ أَخَوَيْنِ كَانَ لِأَحَدِهِمَا زَوْجَةٌ ، وَكَانَ يَغِيبُ وَيَخْلُفُهُ ٱلآخَرُ فِي أَهْلِهِ ، فَهَوِيَتْهُ ٱمْرَأَةُ ٱلْغَائِبِ ، فَأَرَادَتْهُ عَلَىٰ نَفْسِهَا ، فَٱمْتَنَعَ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَخُوهُ سَأَلَهَا عَنْ حَالِهَا ، فَقَالَتْ : مَا حَالُ ٱمْرَأَةٍ تُرَاوَدُ فِي كُلِّ حِينٍ ! فَقَالَ : أَخِي وَٱبْنُ أُمِّي ! وَإِنِّي لَا أَفْضَحُهُ ! وَلَكِنْ للهِ عَلَيَّ أَلَّا أُكَلِّمَهُ أَبَداً ، ثُمَّ حَجَّ وَحَجَّ أَخُوهُ وَٱلْمَرْأَةُ ، فَلَمَّا كَانُوا بِوَادِي ٱلدَّوْمِ[1] هَلَكَ ٱلأَخُ وَدَفَنُوهُ وَقَضَوا حَجَّهُمْ وَرَجَعُوا ، فَمَرُّوا بِذَلِكَ ٱلْوَادِي لَيْلًا ، فَسَمِعُوا هَاتِفاً يَقُولُ [من الطويل] :

أَجِدَّكَ تَمْضِي ٱلدَّوْمَ لَيْلًا وَلا تَرَىٰ عَلَيْكَ لِأَهْلِ ٱلدَّوْمِ أَنْ تَتَكَلَّمَا[2]
وَبِٱلدَّوْمِ ثَاوٍ لَوْ ثَوَيْتَ مَكَانَهُ وَمَرَّ بِوَادِي ٱلدَّوْمِ لَسَلَّمَا

فَظَنَّتِ ٱلْمَرْأَةُ أَنَّ ٱلنِّدَاءَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ ، فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا : هَذَا مَقَامُ ٱلْعَائِذِ ، كَانَ مِنْ أَخِيكَ وَمِنِّي كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَقَالَ : وَاللهِ ، لَوْ حَلَّ قَتْلُكِ لَوَجَدْتِنِي سَرِيعاً ؛ فَفَارَقَهَا وَضَرَبَ خَيْمَةً عَلَىٰ قَبْرِ أَخِيهِ ، وَقَالَ [من الطويل] :

هَجَرْتُكَ فِي طُولِ ٱلْحَيَاةِ وَأَبْتَغِي كَلَاماً لَمَّا صِرْتَ رَمْساً وَأَعْظُمَا
ذَكَرْتُ ذُنُوباً فِيكَ كُنْتُ ٱجْتَرَمْتُهَا أَنَا مِنْكَ فِيهَا كُنْتُ أَسْوَا وَأَظْلَمَا

وَلَمْ يَزَلْ مُقِيماً حَتَّىٰ مَاتَ وَدُفِنَ بِجَنْبِ أَخِيهِ ، فَٱلْقَبْرَانِ مَعْرُوفَانِ .

---

(١) مَكَانٌ بِٱلْحِجَازِ .
(٢) تَعْبِيرٌ عَرَبِيٌّ ، يُرِيدُونَ : أَبِجِدٌّ هَذَا مِنْكَ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ؛ ٱنْظُرِ « ٱللِّسَانَ » مادة : « جدد » .

ٱلرَّمْسُ : تُرَابُ ٱلْقَبْرِ ؛ وَأَسْوَا ، أَصْلُهُ : أَسْوَأُ ، بِٱلْهَمْزِ ، وَسُهِّلَ لِضَرُورَةِ ٱلشِّعْرِ .

* * *

١٣٢٢ ـ وَكَانَ عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ ٱمْرَأَةٌ يُحِبُّهَا ، فَسَافَرَ عَنْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : أُشَيِّعُكَ ؛ فَشَيَّعَتْهُ ثَلاثَ مَرَاحِلَ ، فَلَمَّا مَضَىٰ قَالَتْ لِخَادِمِهَا : نَاوِلْنِي بَعْرَةً وَرَوْثَةً وَحَصَاةً ؛ فَنَاوَلَهَا ، فَأَلْقَتِ ٱلرَّوْثَةَ ، وَقَالَتْ : رَاثَ[1] خَبَرُكَ ؛ وَأَلْقَتِ ٱلْبَعْرَةُ ، وَقَالَتْ : وَعَرَ سَفَرُكَ ؛ وَأَلْقَتِ ٱلْحَصَاةَ ، وَقَالَتْ : حُصَّ أَثَرُكَ[2] ؛ فَسَمِعَهَا رَجُلٌ عَلَىٰ ٱلْمَاءِ ، فَلَحِقَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا هَٰذِهِ مِنْكَ ! قَالَ : ٱمْرَأَتِي وَأَعَزُّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ؛ فَأَخْبَرَهُ بِٱلْخَبَرِ ، فَقَامَ عَلَىٰ ٱلْمَاءِ ، فَلَمَّا أَمْسَىٰ أَقْبَلَ نَحْوَ مَنْزِلِهِ ، فَوَجَدَ مَعَهَا رَجُلًا ، فَقَتَلَهُمَا جَمِيعاً .

* * *

١٣٢٣ ـ وَرَوَوْا : أَنَّ أَرْدَشِيرَ سَارَ إِلَىٰ ٱلْحَضْرِ[3] ، وَكَانَ مَلِكُ ٱلسَّوَادِ مُتَحَصِّناً فِيهَا ، وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ مُلُوكِ ٱلطَّوَائِفِ[4] ، فَحَاصَرَهُ فِيهَا زَمَاناً لا يَجِدُ

---

(١) رَاثَ : أَبْطَأَ .

(٢) حُصَّ : قُطِعَ .

(٣) ٱلْحَضْرُ : قَصْرٌ بِحِيَالِ تَكْرِيتَ بَيْنَ دَجْلَةَ وَٱلْفُرَاتِ .

(٤) ٱلطَّوَائِفُ : مُلُوكُ ٱلطَّوَائِفِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ أَسْنَدَ كُلُّ مَلِكٍ مِنْهُمْ بِنَاحِيَتِهِ بَعْدَ تَغَلُّبِ ٱلإِسْكَنْدَرِ عَلَىٰ دَارَا مِنْ دَارَا ، وَمِنْهُمْ فُرْسٌ وَنَبِيطٌ وَعَرَبٌ ، وَكَانَ غَرَضُ ٱلإِسْكَنْدَرِ مِنْ ذَٰلِكَ تَشْتِيتَ كَلِمَتِهِمْ وَتَحَزُّبَهُمْ وَغَلَبَةَ كُلِّ رَئِيسٍ مِنْهُمْ عَلَىٰ ٱلصَّقْعِ ٱلَّذِي هُوَ بِهِ فَيَنْعَدِمُ نِظَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱلانْقِيَادُ إِلَىٰ مُلْكٍ وَاحِدٍ يَجْمَعُ كَلِمَتَهُمْ ، وَقَدْ ٱسْتَمَرَّ مُلْكُهُمْ ٥١٧ سَنَةً مِنْ مُلْكِ ٱلإِسْكَنْدَرِ إِلَىٰ ظُهُورِ أَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ بْنِ سَاسَانَ ٱلَّذِي ظَفِرَ بِهِمْ وَٱسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ مُلْكِهِمْ ، وَسَاقَ صَاحِبُ « ٱلأَغَانِي » ( ج٢ ص١٤٠ ، طبع دار الكتب المصرية ) وَٱلطَّبَرِيُّ قسم أول ( ص٨٢٩ طبع أوربة ) وكتاب « أَخْبَارُ ٱلنِّسَاءِ » (٨٧) هَٰذَا ٱلْخَبَرَ ، وَنَسَبَهُ إِلَىٰ ٱلنَّضِيرَةِ بِنْتِ ٱلضَّيْزَنِ مَعَ سَابُورَ=

إِلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّىٰ رَقِيَتْ ٱبْنَةُ مَلِكِ ٱلسَّوَادِ يَوْماً ، فَرَأَتْ أَرْدَشِيرَ ، فَعَشِقَتْهُ ، فَنَزَلَتْ وَأَخَذَتْ نُشَّابَةً وَكَتَبَتْ عَلَيْهَا : إِنْ أَنْتَ شَرَطْتَ أَنْ تَتَزَوَّجَنِي دَلَلْتُكَ عَلَىٰ مَوْضِعٍ تَفْتَتِحُ مِنْهُ هَذِهِ ٱلْمَدِينَةَ بِأَيْسَرِ حِيلَةٍ وَأَخَفِّ مُؤُونَةٍ ؛ ثُمَّ رَمَتْ بِٱلنُّشَّابَةِ نَحْوَ أَرْدَشِيرَ ، فَكَتَبَ ٱلْجَوَابَ فِي نُشَّابَةٍ : لَكِ ٱلْوَفَاءُ بِمَا سَأَلْتِ ؛ ثُمَّ أَلْقَاهَا إِلَيْهَا ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ تَدُلُّهُ عَلَىٰ ٱلْمَوْضِعِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَرْدَشِيرُ فَٱفْتَتَحَهُ وَدَخَلَ هُوَ وَجُنُودُهُ ، وَأَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ غَارُّونَ[1] ، فَقَتَلُوا مَلِكَهَا وَأَكْثَرَ مُقَاتِلَتِهَا ، وَتَزَوَّجَهَا ، فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَلَىٰ فِرَاشِهِ أَنْكَرَتْ مَكَانَهَا حَتَّىٰ سَهِرَتْ لِذَلِكَ عَامَّةَ لَيْلَتِهَا ، فَنَظَرُوا فِي ٱلْفِرَاشِ ، فَوَجَدُوا تَحْتَ ٱلْمِحْبَسِ[2] وَرَقَةً مِنْ ٱلآسِ قَدْ أَثَّرَتْ فِي جِلْدِهَا ، فَسَأَلَهَا أَرْدَشِيرُ عِنْدَ ذَلِكَ عَمَّا كَانَ أَبُوهَا يَغْذُوهَا بِهِ ، فَقَالَتْ : كَانَ أَكْثَرُ غِذَائِي ٱلشَّهْدُ وَٱلزُّبْدُ وَٱلْمُخُّ ؛ فَقَالَ أَرْدَشِيرُ : مَا أَحَدٌ بِبَالِغٍ لَكِ فِي ٱلْحَيَاةِ وَٱلإِكْرَامِ مَبْلَغَ أَبِيكِ ، وَلَئِنْ كَانَ جَزَاءُهُ عِنْدَكِ عَلَىٰ جَهْدِ إِحْسَانِهِ مَعَ لُطْفِ قَرَابَتِهِ وَعِظَمِ حَقِّهِ جَهْدَ إِسَاءَتِكِ مَا أَنَا بِآمِنٍ لِمِثْلِهِ مِنْكِ ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ تُعْقَدَ قُرُونُهَا بِذَنَبِ فَرَسٍ شَدِيدِ ٱلْمِرَاحِ جَمُوحٍ ، ثُمَّ يُجْرَىٰ ، فَفُعِلَ ذَلِكَ حَتَّى تَسَاقَطَتْ عُضْواً عُضْواً .

* * *

١٣٢٤ ـ وَلأَبِي نُوَاسٍ فِي ذَمِّهِنَّ [من الوافر] :

أَيَـا مَـنْ لَيْـسَ يَكْفِيهَـا خَلِيـلٌ وَلا أَلْفَـا خَلِيـلٍ كُـلَّ عَـامِ

أَرَاكِ تَقِيَّـةً مِـنْ قَـوْمِ مُـوسَـىٰ فَهُـمُ لَا يَصْبِـرُونَ عَلَـىٰ طَعَـامِ

* * *

= ابنِ أَرْدَشِيرَ ، فَٱنْظُرْهَا ، وَٱنْظُرْ « مُعْجَمَ يَاقُوت » في ٱسْمِ ٱلْحَضْرِ .

(١) غَارُّون : غَافِلُونَ .

(٢) ٱلْمِحْبَس ، بِكَسْرِ ٱلْمِيمِ وَفَتْحِ الباءِ : ٱلْمُقَدَّمَةُ ، وَهِي : ثَوْبٌ يُطْرَحُ عَلَىٰ ظَهْرِ ٱلْفِرَاشِ لِلنَّوْمِ عَلَيْهِ .

١٣٢٥ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من السريع] :

يَسْتَغْفِـرُ ٱلنَّـاسُ بِـأَيْـدِيهُـمُ وَهُـنَّ يَسْتَغْفِـرْنَ بِـٱلأَرْجُـلِ
فَيَـالَـهُ مِـنْ عَمَـلٍ صَـالِـحٍ يَـرْفَعُـهُ ٱللهُ إِلَـىٰ أَسْفَـلِ

* * *

١٣٢٦ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ [من الخفيف] :

كُـلُّ أُنْثَـىٰ وَإِنْ بَـدَا لَـكَ مِنْهَـا آيَـةُ ٱلْحُـبِّ حُبُّهَـا خَيْتَعُـورُ

ٱمْرَأَةٌ خَيْتَعُورُ : لا يَدُومُ وُدُّهَا .

* * *

وَفِي تَلَوُّنِ ٱلْمِلاحِ وَتَخْيِيرِهِنَّ ٱلْعَاشِقِينَ :

١٣٢٧ ـ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ [من المنسرح] :

مَـا كُنْـتُ أَيَّـامَ كُنْـتِ رَاضِيَـةً عَنِّـي بِـذَاكَ ٱلـرِّضَـا بِمُغْتَبِـطِ
عِلْمَـاً بِـأَنَّ ٱلـرِّضَـا سَيَتْبَعُـهُ مِنْـكِ ٱلتَّجَنِّـي وَكَثْـرَةُ ٱلسَّخَـطِ
فَكُـلُّ مَـا سَـاءَنِـي فَعَـنْ خُلُـقٍ مِنْـكِ وَمَـا سَـرَّنِـي فَعَـنْ غَلَـطِ

* * *

١٣٢٨ ـ وَفِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ يَقُولُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْهَاشِمِيُّ ، وَيُعْرَفُ بِأَبِي ٱلْعَبَرِ [ وتُنْسَبُ لِلْعَبَّاس بن الأَحْنَفِ ، من البسيط ] :

أَبْكِي إِذَا غَضِبَتْ حَتَّى إِذَا رَضِيَتْ بَكَيْتُ عِنْدَ ٱلرِّضَا خَوْفاً مِنَ ٱلْغَضَبِ
[ أَتُوبُ مِنْ سُخْطِهَا خَوْفاً إِذَا سَخِطَتْ فَإِنْ سَخِطَتْ تَمَادَتْ ثُمَّ لَمْ تَتُبِ ]
فَٱلْمَوْتُ إِنْ غَضِبَتْ وَٱلْمَوْتُ إِنْ رَضِيَتْ إِنْ لَـمْ يُـرَجَّ ٱلسُّلُـوُّ عِشْـتُ فِـي تَعَـبِ

* * *

١٣٢٩ ـ وَقَالَ ٱلْعَبَّاسُ بْنُ ٱلأَحْنَفِ [من الطويل] :

إِذَا رَضِيَتْ لَمْ يَهْنِنِي ذَلِكَ ٱلرِّضَا ... لِصِحَّةِ عِلْمِي أَنْ سَيَتْبَعُهُ عَتَبُ
وَأَبْكِي إِذَا مَا أَذْنَبَتْ خَوْفَ عَتْبِهَا ... فَأَسْأَلُهَا مَرْضَاتَهَا وَلَهَا ٱلذَّنْبُ
وِصَالُكُمُ هَجْرٌ وَقُرْبُكُمْ قِلًى ... وَعَطْفُكُمُ صَدٌّ وَسِلْمُكُمُ حَرْبُ
وَأَنْتُمْ بِحَمْدِ ٱللهِ فِيكُمْ فَظَاظَةٌ ... وَكُلُّ ذَلُولٍ مِنْ أُمُورِكُمُ صَعْبُ

* * *

١٣٣٠ ـ وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ [من الوافر] :

وَمَا فِي ٱلأَرْضِ أَشْقَىٰ مِنْ مُحِبٍّ ... وَإِنْ وَجَدَ ٱلْهَوَىٰ حُلْوَ ٱلْمَذَاقِ
تَرَاهُ بَاكِياً فِي كُلِّ حِينٍ ... مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لاِشْتِيَاقِ
فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا حَذَراً عَلَيْهِمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ ٱلْفِرَاقِ
وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ ٱلتَّنَائِي ... وَتَسْخَنُ عَيْنُهُ عِنْدَ ٱلتَّلاقِي

* * *

١٣٣١ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ [ ذكر ابن الجرّاحِ أنّها لمحمّد بن عليّ الضَّبِّيِّ شاعِرِ ذي اليمينين طاهر بن الحسين ، من الطويل ] :

شَكَوْتُ فَقَالَتْ كُلُّ هَذَا تَبَرُّماً ... بِحُبِّي أَرَاحَ قَلْبَكَ مِنْ حُبِّي[1]
فَلَمَّا كَتَمْتُ ٱلْحُبَّ قَالَتْ لِشَدَّ مَا ... صَبَرْتَ وَمَا هَذَا بِفِعْلِ شَجِيِّ ٱلْقَلْبِ
وَأَدْنُو فَتُقْصِينِي فَأَبْعُدُ طَالِباً ... رِضَاهَا فَتَعْتَدُّ ٱلتَّبَاعُدَ مِنْ ذَنْبِي
فَشَكْوَايَ تُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوءُهَا ... وَتَجْزَعُ مِنْ بُعْدِي وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِي
فَيَا قَوْمِ هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْرِفُونَهَا ... أَشِيرُوا بِهَا وَٱسْتَوْجِبُوا ٱلشُّكْرَ مِنْ رَبِّي

* * *

(١) « الكامل » ج١/ ٣٧٢ ٱنْظُرْهُ لِلشَّرْحِ .

١٣٣٢ ـ وَهُنا نُورِدُ كَلِمَةً لِلشَّاعِرِ أَلْفِرِدِ دِي مُوسِّيه Alfred de Musset في كِتَابِهِ « اعْتِرَافَاتُ فَتَىٰ الْعَصْرِ » La confession d'un enfant du siécle وَبِهَا نَخْتَتِمُ هَذَا الْبَابَ ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ(١) ، وَنَحَلَهَا الشَّاعِرُ لِصَاحِبٍ لَهُ أَخَذَ يَنْصَحُهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ خَانَتْهُ خَلِيلَتُهُ وَأَخذَهُ مِنْ جَرَّاءِ ذَلِكَ الْمُعَلِّمُ الْمُقْعَدُ(٢) ، قَالَ الشَّاعِرُ :

قَالَ ديزييه : أَيْ أُوكْتَاف Octave ، يَلُوحُ لي مِنْ شَوَاهِدِ أَحْوَالِكَ أَنَّكَ تَرَىٰ فِي الْحُبِّ رَأْيَ الشُّعَرَاءِ وَالرِّوَائِيِّينَ ، كَمَا وَصَفُوهُ فِي تَصَانِيفِهِمْ ، فَأَنْتَ عَلَىٰ الأَقْوَالِ لا عَلَىٰ الْفِعَالِ تُعَوِّلُ وَتَعْتَمِدُ ، وَمَنْشَأُ هَذَا السَّفْسَطَةُ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ ، وَهَذَا يَجْلِبُ عَلَيْكَ شَرًّا كَثِيراً .

فَاعْلَمْ رَعَاكَ اللهُ ، أَنَّ الشَّاعِرَ يُصَوِّرُ الْحُبَّ كَمَا يُصَوِّرُ النَّحَاتُ الْجَمَالَ ، وَكَمَا يَبْتَدِعُ الْمُوسِيقَارُ النَّغَمَ ، أَعْنِي أَنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ لَمَّا كَانَتِ الطَّبِيعَةُ قَدْ وَهَبَتْهُمْ جِهَازاً عَصَبِيّاً دَقِيقاً حَسَّاساً تَرَاهُمْ يَنْتَقُونَ وَيَخْتَارُونَ بِحِذْقٍ وَتَحَمُّسٍ أَصْفَىٰ وَأَنْقَىٰ عَنَاصِرِ الْحَيَاةِ وَأَجْمَلَ وَأَبْدَعَ أَصْنَافِ الْمَوادِ الَّتِي مِنْهَا يُؤَلِّفُونَ مُلَحَهُمْ وَتُحَفَهُمْ ، وَأَشْجَىٰ وَأَرْخَمَ أَصْوَاتِ الطَّبِيعَةِ ؛ يُرْوَىٰ أَنَّهُ كَانَ فِي أَثِينَةَ عَدَدٌ جَمٌّ مِنَ الْفَتَيَاتِ الْحِسَانِ ، فَقَامَ الْمُصَوِّرُ بركسشيتيل Praxitéle فَصَوَّرَهُنَّ جَمِيعاً وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَىٰ ، وَكَانَتْ كُلُّ حَسْنَاءَ مِنْ هَؤُلاءِ مَهْمَا أَفْرَطَ جَمَالُهَا لا تَخْلُو مِنْ عَيْبٍ وَلَوْ في مُنْتَهَىٰ الْغُمُوضِ وَالدِّقَّةِ ، فَعَمَدَ ذَلِكَ الْمُصَوِّرُ إِلَىٰ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الْعَجِيبَةِ ، فَاخْتَارَ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ أَمْلَحَ مَا فِيهَا ، وَكَوَّنَ مِنْ هَذِهِ

---

(١) [ تُمثِّلُ هذه الكلمة واقع المجتمع الغربي ونفسيّة فرد من أفراده ، وهي بعيدة كل البُعْدِ عن الحياة السَّوِيَّةِ ، وما تتضمنه من نصائح ووصايا ما هي إلّا نصائح فتى موتور محبط من المجتمع الغربي ، لا يَحُدُّ سلوكَهُ شَرْعٌ ولا يُقَيِّدُهُ خلُقٌ ، فليكن القارىء على حَذَرٍ ، فما هو إلّا نموذج لما يكتبه الغربيّون من أَدَب ! ].

(٢) تَرْجَمَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ لِمَجَلَّةِ « الْبَيَانِ » الْمَرْحُومُ مُحَمَّدُ السِّبَاعِيُّ .

ٱلْمُخْتَارَاتِ صُورَةً جَاءَتْ ٱلْغَايَةَ ٱلْقُصْوَىٰ في ٱلْحُسْنِ وَٱلإِحْسَانِ، وَٱلْمَثَلَ ٱلأَعْلَىٰ في ٱلإِبْدَاعِ وَٱلإِتْقَانِ ـ فِينَاس Vénus « الزُّهَرة » رَبَّةَ ٱلْجَمَالِ ؛ وَكَذَلِكَ أَوَّلُ مَنْ ٱبْتَدَعَ آلَةَ ٱلْمُوسِيقَىٰ وَوَضَعَ لِهَذَا ٱلْفَنِّ قَوَاعِدَهُ وَقَوانِينَهُ كَانَ ٱمْرَأً قَدْ طَالَمَا أَصْغَىٰ إِلَىٰ وَسْوَسَةِ ٱلنَّسِيمِ فِي عَذَبَاتِ ٱلأَغْصَانِ ، وَسَجْعِ ٱلْحَمَامِ عَلَىٰ مَنَابِرِ ٱلْقُضْبَانِ ؛ وَكَذَلِكَ ٱلشُّعَرَاءُ ٱلَّذِينَ عَرَفُوا ٱلْحَيَاةَ، لَمَّا رَأَوْا ٱلْجَمَّ ٱلْكَثِيرَ مِنْ غَدَرَاتِ ٱلْعُشَّاقِ، وَفَجَرَاتِ مَنْ كَانُوا يُظْهِرُونَ ٱلصَّبَابَاتِ وَٱلأَشْوَاقَ ، وَأَبْصَرُوا أَيْضاً مَا قَدْ يَبْلُغُهُ ٱلْهَوَىٰ ٱلصَّادِقُ أَحْيَاناً مِنْ عُلْيَا أَفْلاكِ ٱللَّذَّةِ ٱلْفِرْدَوْسِيَّةِ ، وَٱلْغِبْطَةِ ٱلْمَلائِكِيَّةِ ، فَصَلُوا مِنَ ٱلطَّبِيعَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ كُلَّ مَا يُدَنِّسُ أَرْدَانَهَا ، وَيُشَوِّهُ مَحَاسِنَهَا ، مِنَ ٱلْخَبَائِثِ وَٱلْخَسَائِسِ ، فَخَالَفُوا تِلْكَ ٱلأَسْمَاءَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْخَفِيَّةَ ٱلَّتِي مَا بَرِحَتْ تَتَنَقَّلُ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ ٱلْخَلْقِ مِنْ عَصْرٍ إِلَىٰ عَصْرٍ وَمِنْ جِيلٍ إِلَىٰ جِيلٍ ـ « دافنيس » Daphne و« شلو » Cello و« هير » و« لياندداد » و« بيراميس » و« قسبي » .

فَٱلَّذِي يُفَتِّشُ في ٱلْحَيَاةِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْوَاقِعِيَّةِ عَنْ مِثْلِ مَا كَانَ لِتِلْكَ ٱلأَسْمَاءِ ٱلْخَيَالِيَّةِ مِنَ ٱلْحُبِّ ٱلصَّادِقِ وَٱلْهَوَىٰ ٱلْعُذْرِيِّ ، كَٱلَّذِي يُفَتِّشُ في ٱلشَّوَارِعِ ٱلْعُمُومِيَّةِ عَنْ نِسَاءٍ في مِثْلِ مَحَاسِنِ « فيناس » Vénus ، أَوْ كَٱلَّذِي يَشْتَهِي أَنْ يَسْمَعَ مِنَ ٱلْحَمَامِ وَٱلْبَلابِلِ أَلْحَانَ ٱلْمُوسِيقَارِ ٱلْبَدِيعِ « بيتهوفن » Beethoven .

ٱلْكَمَالُ لا يُوجَدُ ، فَتَفَهُّمُ مَعَانِيهِ هُوَ أَقْصَىٰ مَا يَبْلُغُهُ ٱلذِّهْنُ ٱلْبَشَرِيُّ مِنَ ذَوِي ٱلنُّبُوغِ وَٱلْعَظَمَةِ ، وَلَكِنَّ ٱلرَّغْبَةَ في ٱمْتِلاكِ ٱلْكَمَالِ هُوَ أَقْصَىٰ دَرَجَاتِ ٱلْحُمْقِ « وَٱلسَّخَافَةِ » .

ٱفْتَحْ نَافِذَتَكَ يَا أُوكْتَاف Octave ! أَلَا تَرَىٰ أَمَامَكَ ٱللَّانِهَايَةَ ؟ أَلَا تَشْعُرُ أَنَّ ٱلْجَوَّ لا حَدَّ لَهُ وَلا غَايَةَ ؟

أَلا تَرَىٰ أَنَّ عَقْلَكَ يُوحِي إِلَيْكَ بِهَذَا ؟ وَلَكِنْ هَلْ تَسْتَطِيعُ إِدْرَاكَ مَعْنَىٰ هَذِهِ

ٱللا نِهَايَةِ؟ وَهَلْ في مَقْدُورِكَ وَأَنْتَ ٱلْفَانِي ٱبْنُ ٱلْفَانِي، وَٱلْمَحْدُودُ ٱبْنُ ٱلْمَحْدُودِ، وَٱلْمَوْلُودُ بِٱلأَمْسِ وَٱلْهَالِكُ غداً ؛ هَلْ في مَقْدُورِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَهَذِهِ حَالُهُ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّ شَيْئاً يَكُونُ بِلا غَايَةٍ وَلا نِهَايَةٍ ؟ أَلَا فَٱعْلَمَنْ أَنَّ هَذَا ٱلْمَشْهَدَ ٱلْهَائِلَ ، مَشْهَدَ ٱللَّانِهَايَةِ ، مَا زَالَ أَعْظَمَ دَاعٍ إِلَىٰ ٱلْجُنُونِ في كُلِّ قُطْرٍ مِنْ أَقْطَارِ ٱلْعَالَمِ ، وَهَذَا ٱلْمَشْهَدُ مَشْهَدُ ٱللانِهَايَةِ هُوَ ٱلْمَصْدَرُ ٱلَّذِي نَبَعَتْ مِنْهُ ٱلأَدْيَانُ وَٱلْعَقَائِدُ .

وَلَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ٱلْبَطَلَ ٱلرُّومَانِيَّ ٱلْعَظِيمَ كَارتو قَدِ ٱنْتَحَرَ لِيَخْرُجَ مِنَ ٱلْعَالَمِ ٱلْمَحْدُودِ إِلَىٰ ٱلْعَالَمِ ٱلْعَدِيمِ ٱلْحُدُودِ ، أَعْنِي أَنَّهُ أَلْقَىٰ مَا يَمْلِكُ مِنْ عَالَمِ ٱلْفَنَاءِ لِيَمْلِكَ عَالَمَ ٱلْخُلُودِ، وَٱسْتَغْنَىٰ عَنْ هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ ٱلْمَحْصُورَةِ لِيُحْرِزَ تِلْكَ ٱللانِهَايَةَ، وَمِنْ أَجْلِ إِحْرَازِ هَذِهِ ٱللانِهَايَةِ أَلْقَىٰ ٱلْقِدِّيسُونَ مِنْ طَوَائِفِ عِيسَىٰ وَٱلْمُتَّقُونَ وَٱلأَبْرَارُ وَٱلصَّالِحُونَ ٱلأَخْيَارُ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ ٱلنِّيرَانِ ٱلْحَامِيَةِ ، وَفِي لَهَوَاتِ ٱلْوُحُوشِ ٱلضَّارِيَةِ ، وَقذَفَتْ شِيعَةُ « الهيوجينوت »[١] في يَوْمِ ٱلْقِدِّيس « بارْثِيلومِيوس »[٢] Barthelemy وَغَيْرِهِ أَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ أَسِنَّةِ رِمَاحِ ٱلْكَاثُولِيكِ وَظُبَىٰ سُيُوفِهِمْ ، وَكُلُّ شُعُوبِ ٱلدُّنْيَا وَأُمَمِ ٱلأَرْضِ قَدْ مَدُّوا أَذْرُعَهُمْ إِلَىٰ هَذِهِ ٱللانِهَايَةِ ، وَوَدُّوا لَوْ يَقْذِفُونَ بِأَنْفُسِهِمْ في أَعْمَاقِهَا ، وَكَمْ تَرَىٰ ٱلْمَجْنُونَ يَوَدُّ لَوْ يَمْلِكُ ٱلسَّمَاءَ ، وَلَكِنَّ ٱلْعَاقِلَ ٱلْحَكِيمَ يُعْجَبُ بِهَا وَيَطْرَبُ ، فَيَخِرُّ لَهَا وَيَرْكَعُ ، وَبِذَلِكَ يَرْضَىٰ وَيَقْنَعُ ، فَٱلْكَمَالُ كَاللَّانِهَايَةِ ، كِلاهُمَا لا يُنَالُ وَلا يُدْرَكُ . وَمَا لَنَا خُلِقَ وَلا وُجِدَ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَرْجُو ٱلْكَمَالَ في أَيِّ كَائِنٍ أَوْ نَبْتَغِيهِ في أَيِّ شَيْءٍ ، مِنْ حُبٍّ أَوْ جَمَالٍ أَوْ سَعَادَةٍ أَوْ فَضِيلَةٍ ، وَلَكِنْ عَلَىٰ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَمَادَىٰ وَيَغْرَقَ مَا ٱسْتَطَاعَ في حُبِّ ٱلْكَمَالِ لِيَكُونَ فَاضِلاً طَاهِراً سَعِيداً .

---

(١) Huguenot بُروتِسْتَانْت ٱلْفَرَنْسِيس .

(٢) يَوْمُ ٱلْمَذْبَحَةِ ٱلشَّهِيرَةِ ٱلَّتِي هَلَكَ فِيهَا آلافٌ عَدِيدَةٌ مِنَ ٱلْبُروتِسْتَانْتْ في بَارِيس Paris .

فَهَبْكَ تَمْلِكُ صُورَةً مِنْ صُنْعِ ٱلْمُصَوِّرِ ٱلْخَالِدِ « روفائيل » Rophael وَإِنَّكَ تُبْصِرُ فِي هَذِهِ ٱلصُّورَةِ آيَةَ ٱلْكَمَالِ ، ثُمَّ هَبْكَ بَيْنَمَا تتَأَمَّلُهَا ذَاتَ يَوْمٍ وَتُدَقِّقُ ٱلنَّظَرَ فِي أَجْزَائِهَا وَتَفَاصِيلِهَا عَثَرْتَ في بَعْضِ أَرْكَانِهَا عَلَىٰ عَيْبِ عُضْوٍ مَكْسُورٍ مَثَلًا ، أَوْ عَضَلَةٍ غَيْرِ طَبِيعِيَّةٍ ، كَالَّذِي يَرَىٰ فِي إِحْدَىٰ ذِرَاعَيْ (ٱلْمُصَارِعِ ٱلْقَدِيمِ) ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَيُحْزِنُكَ بِلا شَكٍّ ، وَلَكِنَّهُ لا يَحْمِلُكَ عَلَىٰ إِلْقَاءِ ٱلصُّورَةِ فِي ٱلنَّارِ ، بَلْ أَقْصَىٰ مَا تَقُولُهُ إِذْ ذَاكَ ، هُوَ أَنَّ ٱلصُّورَةَ لَمْ تَبْلُغْ حَدَّ ٱلْكَمَالِ ، وَلَكِنَّ فِيهَا مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ ٱلْجَمَّ ٱلْعَدِيدَ .

إِنَّ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَا يَكُونُ لَهُنَّ مِنْ كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ وَحُسْنِ ٱلْوَفَاءِ مَا يَمْنَعُهُنَّ مِنِ ٱتِّخَاذِ حَبِيبَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَعَسَاكَ ظَنَنْتَ خَلِيلَتَكَ مِنْ هَذَا ٱلصِّنْفِ ، وَحَبَّذَا لَوْ كَانَتْ ، وَلَكِنَّكَ عَلِمْتَ أَنَّهَا خَدَعَتْكَ ، أَفَكَانَ ذَلِكَ مُوجِباً لأَنْ تَحْتَقِرَهَا وَتُسِيءَ مُعَامَلَتَهَا وَتَرَاهَا أَهْلًا لِبُغْضِكَ وَمَقْتِكَ .

فَهَبْ يَا أُوكْتَافُ Octave هَذِهِ ٱلْمَرْأَةَ لَمْ تَخْدَعْكَ ، وَلَمْ تَخُنْ عَهْدَكَ ، وَلَمْ تُشْرِكْ بِكَ حَبِيباً آخَرَ ، أَفَكَانَ حُبُّهَا إِيَّاكَ مَعَ هَذَا كُلِّهِ بَالِغاً حَدَّ ٱلْكَمَالِ أَوْ قُرَابَهُ ، كَلَّا ! فَمَا كَانَ أَبْعَدَهُ مِنَ ٱلْكَمَالِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ أَقَلَّهُ وَأَضْأَلَهُ وَأَشَدَّهُ تَقَيُّداً بِأَوْضَاعِ ٱلدُّنْيَا وَتَقَالِيدِ ٱلْحَيَاةِ مِنَ ٱلْغِشِّ وَٱلنِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ .

وَحَسْبُكَ دَلِيلًا أَنَّهَا كَانَتْ مِلْكاً لِغَيْرِكَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَسَتَكُونُ مُلْكاً لِغَيْرِكَ مِنْ بَعْدِكَ .

فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ تُدْرِكْ أَنَّ ٱلَّذِي يُطِيحُ بِكَ ٱلآنَ في مَهْوَاةِ ٱلْيَأْسِ هُوَ مَعْنَىٰ ٱلْكَمَالِ ٱلَّذِي أَسْنَدْتَهُ إِلَىٰ خَلِيلَتِكَ ، ثُمَّ ٱتَّضَحَ لَكَ أَنَّهُ زُورٌ وَبَاطِلٌ ، فَمَتَىٰ عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ - أَيْ : ٱلْكَمَالَ - لَمْ يَكُنْ فِي ذَاتِهِ إِلَّا ضَئِيلًا بَشَرِيّاً مَحْدُوداً ، عَلِمْتَ أَنَّ ٱرْتِفَاعَكَ أَوْ هُبُوطَكَ دَرَجَةً في ذَلِكَ ٱلسُّلَّمِ ٱلعَفِنِ ٱلقَذِرِ ، سُلَّمِ ٱلنَّقْصِ وَٱلْعَيْبِ

ٱلْبَشَرِيِّ ، إِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ حَقِيرٌ تَافِهٌ .

أَنْتَ لا تُنْكِرُ أَنَّ خَلِيلَتَكَ قَدْ كَانَتْ تُحِبُّ وَسَوْفَ تَجِدُ أُنَاساً غَيْرَكَ ، فَعَسَاكَ قَائِلًا لي : إِنَّ هَذَا لا يَهُمُّكَ مَا دَامَتْ تُحِبُّكَ وَلا تُشْرِكُ مَعَكَ غَيْرَكَ ، وَلَكِنِّي قَائِلٌ لَكَ : إِذَا كُنْتَ تُوقِنُ أَنَّهَا قَدْ أَحَبَّتْ سِوَاكَ ، فَسِيَّانِ كَانَ ذَلِكَ بِٱلأَمْسِ أَوْ مُنْذُ عَامَيْنِ ، وَإِذَا كُنْتَ تُوقِنُ أَنَّهَا سَيَكُونُ لَهَا مَعْشُوقَانِ ، فَمَاذَا يَهُمُّكَ ، كَانَ ذَلِكَ غَداً أَوْ بَعْدَ عَامَيْنِ ؟ وَإِذَا كَانَ حُبُّهَا إِيَّاكَ لا يَكُونُ إِلَّا مَرَّةً واحِدَةً ، فَمَاذَا يَعْنِيكَ دَامَ ذَلِكَ عَامَيْنِ أَوْ لَيْلَةً وَاحِدَةً ؟ أَأَنْتَ رَجُلٌ يَا أُوكْتَافُ Octave ؟ أَفَلا تَرَىٰ ٱلأَوْرَاقَ عَنْ شَجَرِهَا تَتَسَاقَطُ ٱنْتِشَاراً ؟ وَٱلشَّمْسَ تُشْرِقُ ثُمَّ بِٱلْحِجَابِ تَتَوَارَىٰ؟ . . .

أَفَلا تَسْمَعُ سَاعَةَ ٱلْحَيَاةِ تَدُقُّ لَدَىٰ كُلِّ نَبْضَةٍ مِنْ فُؤَادِكَ ؟ فَهَلْ بَيْنَ حُبِّ عَامٍ وَحُبِّ سَاعَةٍ كُلُّ ذَلِكَ ٱلْفَرْقِ ٱلْعَظِيمِ في نَظَرِنَا نَحْنُ مَعْشَرَ ٱلسُّخَفَاءِ وَٱلْحَمْقَىٰ ؟ وَإِنَّنَا لَنُبْصِرُ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّافِذَةِ ـ وَشِبْرٌ عَرْضُهَا ـ أَعْمَاقَ ٱللانِهَايَةِ ؟

أَنْتَ تُسَمِّي ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتِي تَمَحَّضَتِ ٱلْحُبَّ مُدَّةَ عَامَيْنِ مُخْلِصَةً وَفِيَّةً ، فَلَدَيْكَ فِيمَا يَظْهَرُ لِي تَقْوِيمٌ يُبَيِّنُ لَكَ كَمْ مَرَّةً تَجِفُّ لَثَمَاتُ ٱلرِّجَالِ عَلَىٰ شِفَاهِ ٱلنِّسَاءِ ، وَأَنْتَ تَرَىٰ بَوْناً شَاسِعاً بَيْنَ ٱلَّتِي تَهَبُ نَفْسَهَا مِنْ أَجْلِ ٱلْمَالِ ، وَٱلَّتِي تَهَبُ نَفْسَهَا مِنْ أَجْلِ ٱللَّذَّةِ ، وَبَيْنَ مَنْ تَهَبُ نَفْسَهَا عَنْ بَاعِثِ كِبْرِيَاءٍ وَزَهْوٍ ، وَبَيْنَ مَنْ تَهَبُ نَفْسَهَا عَنْ وَفَاءٍ وَإِخْلاصٍ ؟

وَإِنَّ فِيمَنْ تَشْتَرِي مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَنْ هُنَّ أَغْلَىٰ ثَمَناً مِنْ غَيْرِهِنَّ ، فَأَمَّا مَنْ تَحُوزُهُنَّ عَنْ بَاعِثِ زَهْوٍ وَتَعَاظُمٍ ، فَإِنَّكَ تُظْهِرُ مِنَ ٱلأُبَّهَةِ وَٱلْجَلالِ لِبَعْضِهِنَّ أَكْثَرَ مَا تُظْهِرُ لِلْبَعْضِ ٱلآخَرِ ، وَأَمَّا مَنْ تُخْلِصُ لَهُنَّ ٱلْوُدَّ وَتُمَحِّضُهُنَّ ٱلْوَفَاءَ ؛ فَإِلَىٰ بَعْضِهِنَّ تَهَبُ نِصْفَ قَلْبِكَ ، وَإِلَىٰ ٱلْبَعْضِ ثُلُثَهُ ، وَإِلَىٰ ٱلْبَعْضِ رُبْعَهُ ، حَيْثُ

مُتَفَاوِتُ أَقْدَارِهِنَّ فِي ٱلتَّرْبِيَةِ وَٱلأَدَبِ ، وَفِي ٱلْحَسَبِ وَٱلنَّسَبِ ، وَفِي ٱلْجَمَالِ وَٱلدَّلالِ ، وَٱلشِّيَمِ وَٱلْخِصَالِ ، وَحَسَبَ ٱلظُّروفِ وَأَحْيَاناً حَسبَ ٱلسَّاعَةِ وَحَالَتِهَا ٱلْجَوِّيَّةِ وَمَا قَدْ شَرِبْتَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْخَمْرِ في غِذَائِكَ .

أَنْتَ تَمْلِكُ ٱلنِّسَاءَ ٱلْيَوْمَ يَا أُوكْتَافُ Octave بِفَضْلِ زَهْرَةِ صِباكَ وَنَارِ شَبَابِكَ وَحُسْنِ صُورَتِكَ ، وَأَنْتَ تُرَجِّلُ رَأْسَكَ ، وَتُسَوِّي طُرَّتَكَ ، وَلَكِنَّكَ لِعَيْنِ هَذِهِ ٱلأَسْبَابِ لا تَعْرِفُ طَبَائِعَ ٱلْمَرْأَةِ وَكُنْهَ حَقِيقَتِهَا . . . تَنَاسُلُ ٱلْخَلائِقِ أَهَمُّ أَغْرَاضِ ٱلطَّبِيعَةِ ، فَأَيْنَمَا طَرَحْتَ بَصَرَكَ مِنْ ذُرْوَةِ ٱلْجَبَلِ إِلَىٰ قَرَارَةِ ٱلْبَحْرِ وَجَدْتَ ٱلْحَيَاةَ تَرْهَبُ ٱلْمَوْتَ . فَٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحَافَظَةً عَلَىٰ مَصْنُوعَاتِهِ وَضَعَ هَذَا ٱلْقَانُونَ ٱلأَعْظَمَ ، وَهُوَ أَنَّ أَكْبَرَ مَلاذٍّ ٱلْمَخْلُوقَاتِ جَمِيعاً مَحْصُورَةٌ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلْمُؤَدِّي إِلَىٰ ٱلتَّنَاسُلِ ، فَٱلْفَحْلُ مِنَ ٱلنَّخِيلِ حِينَمَا يُرْسِلُ إِلَىٰ أُنْثَاهُ ٱلْمَادَّةَ ٱلْمُلَقِّحَةَ تَرَاهُ يَخْفُقُ غَرَاماً وَيَرْجِفُ صَبَابَةً فِي ٱلرِّيَاحِ ٱللَّافِحَةِ ٱلْمُلْتَهِبَةِ ، وَٱلْوَعْلُ إِذَا تَأَبَّتْ عَلَيْهِ أُنْثَاهُ وَتَصَعَّبَتْ فَرُبَّمَا مَزَّقَ جِلْدَهَا وَهَتَكَ أَدِيمَها ، وَٱلْحَمَامَةُ تَخْفُقُ وَتَرْعَشُ تَحْتَ جَنَاحَيْ ذَكَرِهَا كَٱلْعَاشِقَةِ ٱلْمُغْرَمَةِ ، وَٱلرَّجُلُ حِينَ يُعَانِقُ حَبِيبَتَهُ يَحُسُّ فِي قَلْبِهِ تَطَايُرَ ذَلِكَ ٱلشَّرَرِ ٱلْمُقَدَّسِ ٱلَّذِي مِنْهُ خُلِقَ .

فَيَا صَدِيقِي ٱلْعَزِيزَ إِذَا عَانَقْتَ يَوْماً مَلِيحةً حَسْنَاءَ فَتِيَّةً قَوِيَّةً ، فَبَكَيْتَ مِنْ فَرْطِ ٱللَّذَّةِ ، وَأَحْسَسْتَ إِيْمَانَ ٱلْوَفَاءِ وَٱلْحِفَاظِ يَثِبُ إِلَىٰ شَفَتَيْكَ ، وَأَحْسَسْتَ ٱلسِّرَّ ٱلإِلَهِيَّ يَهْبِطُ عَلَىٰ رُوحِكَ ، فَٱعْمَدْ إِلَىٰ إِخْرَاجِ نَفْسِكَ مِنْ هَذِهِ ٱلْغَمْرَةِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ وَٱلنَّوْبَةِ ٱلْخَيَالِيَّةِ ، وَأَرْسِلْ مِنْ ثَاقِبِ بَصِيرَتِكَ شُعَاعاً مِنْ نُورِ ٱلْحَقِيقَةِ يُبَدِّدُ مَا يَلُفُّ شَخْصَ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةِ مِنْ ضَبَابِ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْوَهْمِيَّةِ ، وَٱلْكَمَالاتِ ٱلْخَيَالِيَّةِ ، وَيَجْلُوهَا لَكَ عَلَىٰ حَقِيقَتِهَا ٱلْمُجَرَّدَةِ ، فَٱتَّخِذْ مِنْهَا مَطِيَّةَ لَذَّةٍ مَادِيَّةٍ وَٱظْفَرْ مِنْهَا بِمُومِسٍ .

وَلَكِنْ لَا تَخْلِطْ بَيْنَ ٱلْخَمْرَةِ وَٱلنَّشْوَةِ ، وَلا تَحْسَبَنَّ ٱلْكَاسَ ٱلَّتِي شَرِبْتَ مِنْهَا ٱلرَّحِيقَ ٱلْمُقَدَّسَ مُقَدَّسَةً ، وَلا يُدْهِشَنَّكَ أَنْ تَجِدَهَا فِي ٱلْمَسَاءِ فَارِغَةً مكْسُورَةً ؛ فَمَا هِي ٱمْرَأَةٌ ، أَيْ : قَارُورَةٌ ، مِنْ طِينٍ قَدْ صَنَعَهَا خَزَّافٌ .

فَٱحْمَدِ ٱللهَ إِذْ أَرَاكَ ٱلسَّمَاءَ ؛ وَإِذَا رَأَيْتَ لَكَ أَجْنِحَةً تُصَفِّقُ بِهَا وَتُرَفْرِفُ فَلا تَحْسَبَنَّ أَنَّكَ قَدْ صِرْتَ بِذَلِكَ طَائِراً ، وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلطُّيُورَ ذَاتَهَا لا تَسْتَطِيعُ ٱخْتِرَاقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَهَتْكَ حِجَابَ ٱلسَّحَابِ ، فَإِنَّ فِي أَعْمَاقِ ٱلسَّمَاءِ طَبَقَاتٍ لا تَجِدُ فِيهَا هَوَاءً تَحْيَا بِهِ ، وَإِنَّ ٱلْقُنْبُرَةَ ٱلَّتِي تَطْمَعُ فِي ضَبَابِ ٱلصَّبَاحِ ، تُرِيدُ مَطْلَعَ ٱلشَّمْسِ رُبَّمَا سَقَطَتْ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ مَيْتَةً ، فَٱرْتَشِفْ كَأْسَ ٱلْحُبِّ كَمَا يَرْشِفُ ٱلْعَاقِلُ ٱلرَّزِينُ كَأْسَ ٱلْخَمْرِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ سِكِّيراً مُسْتَهْتِراً ، فَإِذَا صَادَفْتَ فِي مَعْشُوقَاتِكَ مُخْلِصَةً أَمِينَةً فَأَحْبِبْهَا لِهَذَا ، فَإِذَا وَجَدْتَهَا خِلافَ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ مَلِيحَةٌ حَسْنَاءُ فَأَحْبِبْهَا لِحُسْنِهَا وَمَلاحَتِهَا ، وَإِذَا أَلْفَيْتَهَا فَوْقَ ذَلِكَ ظَرِيفَةً لَبِيبَةً فَزِدْهَا حُبّاً ، فَإِذَا كَانَتْ مِنْ كُلِّ هَذِهِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَزَايَا عَارِيَةً ، وَكَانَ كُلُّ مَا فِيهَا أَنَّهَا تُحِبُّكَ فَأَحْبِبْهَا أَيْضاً ، فَإِنَّكَ لَمْ تَظْفَرْ بِمَنْ يَهْوَاكَ فِي كُلِّ آوِنَةٍ وَلَحْظَةٍ .

وَلا تَحْمِلَنَّكَ ٱلْغَيْرَةُ مِنَ ٱلنَّظِيرِ ٱلْمُزَاحِمِ عَلَىٰ نَتْفِ شَعْرِكَ وَحَثْوِ ٱلتُّرَابِ عَلَى رَأْسِكَ وَإِرَادَةِ ٱلانْتِحَارِ ، فَإِنَّ ٱلَّذِي يَتَأَلَّمُ فِيكَ إِذْ ذَاكَ إِنَّمَا رُوحُ ٱلْكِبْرِيَاءِ وَٱلتَّعَاظُمِ ، وَلَكِنِ ٱقْلِبْ سِيَاقَ ٱلأَلْفَاظِ ، وَهَبْهَا تَخُونُ خَصْمَكَ مِنْ أَجْلِكَ ، تَجِدُ فِي عَمَلِهَا هَذَا ـ وَإِنْ كَانَ لا يَزَالُ خِيَانَةً وَغَدْراً ـ مُنْتَهَىٰ ٱلسُّرُورِ وَٱللَّذَّةِ .

لا تَسُنَّ لِنَفْسِكَ قَوَانِينَ ٱلسُّلُوكِ خَاصَّةً ، وَلا تُرِدْ أَنْ تُفْرِدَكَ ٱلْمَعْشُوقَةُ بِٱلْحُبِّ وَحْدَكَ وَتُؤْثِرَكَ بِٱلْهَوَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ عَدَاكَ ، لأَنَّكَ لَمَّا كُنْتَ بَشَراً ، وَقَلِيلَ ٱلْوَفَاءِ ؛ فَإِنَّ قَانُونَكَ هَذَا يَضْطَرُّكَ إِلَىٰ أَنْ تُقَيِّدَهُ بِهَذِهِ ٱلْعِبَارَةِ : « عَلَىٰ قَدْرِ ٱلإِمْكَانِ » .

أرْضَ بِٱلْجَوِّ كَيْفَمَا كَانَ ، وَبِٱلرِّيحِ كَيْفَمَا هَبَّتْ ، وَبِٱلْمَرْأَةِ كَيْفَمَا بَدَتْ ، إنَّ الأَسْبَانِيُولاتِ خَيْرُ ٱلنِّسَاءِ ، يُحْبِبْنَ بِإِخْلاصٍ ، فَلَهُنَّ قَلْبُ صِدْقٍ مُلْهَبٍ ، وَلَكِنَّهُنَّ يَلْبَسْنَ عَلَيْهِ خَنْجَراً ؛ وَالإِيطَالِيَّاتُ شَهْوِيَّاتٌ شَبِقَاتٌ ، وَلَكِنَّهُنَّ يَخْتَرْنَ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَعْرَضَهُنَّ مَنَاكِبَ ، وَيَنْتَقِينَ عُشَّاقَهُنَّ بِمِقْيَاسِ ٱلْخَيَّاطِ ؛ وَٱلإِنْكلِيزِيَّاتُ مَيَّالاتٌ لِلْكَآبَةِ ، مُتَطَرِّفَاتٌ ، وَلَكِنَّهُنَّ تَافِهَاتٌ غَيْرُ مُتَفَنِّنَاتٍ ؛ وَٱلْفِرَنْسِيَّاتُ لَبِقَاتٌ مُتَأَنِّقَاتٌ غَنِجَاتٌ ، وَلَكِنَّهُنَّ مُجَيْرِبَاتٌ .

وَعَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، فَلا تَتَّهِمَنَّ ٱلنِّسَاءَ بِمَا لَهُنَّ مِنَ ٱلصِّفَاتِ وَٱلأَخْلاقِ ، فَنَحْنُ ٱلَّذِينَ أَلْبَسْنَاهُنَّ مَا تَرَىٰ لَهُنَّ مِنَ ٱلْخِلالِ إِذْ كُنَّا لا نَزَالُ نَخْلَعُ مَا كَسَتْهُنَّ ٱلطَّبِيعَةُ مِنَ ٱلطِّبَاعِ ، وَنُعِيرُهُنَّ ٱلْمُتَكَلَّفَ ٱلْمُصْطَنَعَ .

إِنَّ ٱلطَّبِيعَةَ ٱلَّتِي تُعْنَىٰ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدْ خَلَقَتِ ٱلْعَذْرَاءَ مُلْحَةً لِلْعَاشِقِ ، فَلَمَّا وَلَدَتْ نَبَتَ شَعْرُهَا ، وَتَغَيَّرَ شَكْلُ ثَدْيِهَا ، وَوُسِمَ بَدَنُهَا بِمَيْسَمِ ٱلْقُبْحِ ، فَخُلِقَتِ ٱلْمَرْأَةُ لِتَكُونَ أُمًّا ، فَأَصْبَحَتْ بِذلِكَ جَدِيرَةً أَنْ يَهْجُرَهَا ٱلرَّجُلُ ، إِذْ كَانَتْ قَدْ فَقَدَتْ جَمَالَهَا ، وَلَكِنَّ طِفْلَهُ يَتَشَبَّثُ بِهِ بَاكِياً ، وَهَذَا قَانُونُ ٱلأُسْرَةِ ٱلْبَشَرِيُّ ، وَكُلُّ مَا يَرْمِي إِلَىٰ خَرْقِهِ يُعَدُّ مُنْكَراً ، وَإِنَّ ٱلسَّبَبَ ٱلْبَاعِثَ لِطَبَقَاتِ ٱلْفَلاحِينَ إِلَىٰ ٱسْتِشْعَارِ ٱلصَّلاحِ وَٱلتَّقْوَىٰ هُوَ أَنَّ نِسَاءَهُنَّ لَسْنَ إِلَّا آلاتٍ لِلْوِلادَةِ وَٱلرَّضَاعَةِ ، وَمَا رِجَالُهُنَّ سِوَىٰ آلاتٍ لِلْكَدِّ وَٱلْكَسْبِ ، فَلَيْسَ لِنِسَائِهِنَّ شُعُورٌ مُسْتَعَارَةٌ ، وَلا فِي ثُدَيِّهِنَّ لَبَنُ ٱلْعُذْرَةِ ، وَلَكِنَّ حُبَّ هِذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ صَحِيحُ ٱلأَدِيمِ صَافِيهِ ، غَيْرُ نَغِلٍ وَلا أَبْرَصَ ، وَهُمْ إِذا تَعَانَقُوا فَعَلُوا ذَلِكَ وَهُمْ يَجْهَلُونَ ٱلْبَتَّةَ أَنَّ كُولُومْبَاس Columbus ٱكْتَشَفَ أَمْرِيكَةَ America ، وَإِذَا كَانُوا غَيْرَ شَهْوِيِّينَ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ صَحِيحَاتٌ مُعَافَيَاتٌ ، وَإِذَا كَانَتْ أَيْدِيهِمْ صِلاباً غِلاظاً فَمَا قُلُوبُهُمْ بِٱلصِّلابِ وَلا ٱلْغِلاظِ . . .

إنَّ ٱلْمَدِينَةَ لتَجْرِي عَلَىٰ نَقِيضِ ٱلطَّبِيعَةِ ، فَفِي مَدَائِننا وَحَسَبِ عَادَاتِنَا تَرَىٰ ٱلْعَذْرَاءَ ٱلَّتِي خُلِقَتْ لتَمْرَحَ فِي ضِيَاءِ ٱلشَّمْسِ لِتُقِرَّ نَاظِرَهَا بِرُؤْيَةِ ٱلْمُصَارِعِينَ ٱلْعُرَاةِ كَمَا كَانَتِ ٱلْحَالُ في « لاسيديمونيا » وَلِتَخْتَارَ ٱلْخَلِيلَ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَتَنْتَقِي وَتَعْشَقَ كَمَا تَشَاءُ وَتَهْوَىٰ ، تُحْجَبُ في مَقْصُورَتِهَا وَتُسْجَنُ ، وَلَكِنَّهَا تَكْتُمُ تَحْتَ صَلِيبِهَا رِوَايَةً غَرَامِيَّةً ، فَتَجْلِسُ في سِجْنِهَا صَفْرَاءَ فَاتِرَةً كَسْلَىٰ ، تَذْوِي نَضْرَتُهَا ، وَتَذْبُلُ زَهْرَتُها أَمَامَ مِرْآتِهَا . وَكَذَلِكَ تَسْهَرُ ٱللَّيْلَ ٱلطَّوِيلَ ، وَفي فَحْمَتِهِ تَخْبُو جَذْوَةُ جَمَالِهَا ٱلْوَقَّادِ ، وَتَنْطَفِىءُ جَمْرَةُ حُسْنِهَا ٱلْمَشْبُوبِ ، وَتَصُوحُ مَحَاسِنُهَا فَتَذْوِي إِذْ لا تَجِدُ مَجَالًا لِلإِزْهَارِ وَٱلإِينَاعِ ، وَلا تُصِيبُ جَوّاً فَضَاءً وَهَوَاءً طَلْقاً ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْ سِجْنِهَا بَغْتَةً وَهِيَ لا تَعْرِفُ شَيْئاً ، وَلا تُحِبُّ شَيْئاً ، وَلَكِنَّهَا تَشْتَهِي كُلَّ شَيْءٍ ، فَتَتَوَلَّىٰ تَعْلِيمَهَا عَجُوزٌ ، ثُمَّ تَهْمِسُ فِي أُذُنِهَا كَلِمَةً مُنْكَرَةً ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تُطْرَحُ عَلَىٰ فِرَاشِ رَجُلٍ مَجْهُولٍ ، فَيَغْتَصِبُهَا ٱغْتِصَاباً ؛ وَهَذَا يُسَمُّونَهُ زَوَاجَ نِظَامِ ٱلأُسْرَةِ ٱلْمُتَمَدْيِنَةِ ، ثُمَّ تَلِدُ ٱلْفَتَاةُ ٱلْمِسْكِينَةُ ، وَيَذْهَبُ جَمَالُ شَعْرِهَا وَثَدْيَيْهَا وَبَدَنِهَا . وَاهاً ! لَقَدْ فَقَدَتْ جَمَالَ عَاشِقَةٍ وَمَا ذَاقَتْ عِشْقاً . لَقَدْ حَمَلَتْ وَوَلَدَتْ وَأَنَّها لا تَعْرِفُ لِذَلِكَ عِلَّةً وَلا سَبَباً ، وَكَذَلِكَ تُرْزَقُ صَبِيّاً ، وَيُقَالُ لَهَا : « قَدْ أَصْبَحْتِ أُمّاً » فَتُجِيبُ قَائِلَةً : لَسْتُ أُمّاً . أَعْطُوا هَذَا ٱلْوَلِيدَ لِامْرَأَةٍ ذَاتِ لَبَنٍ ، فَإِنَّهُ لا لَبَنَ في ثَدْيَيَّ ، وَمَا كَذَلِكَ يَسْرِي ٱللَّبَنُ إِلَىٰ ثَدْيَيِّ ٱلنِّسَاءِ . وَيَقُولُ زَوْجُهَا : إِنَّهَا لَعَلَىٰ حَقٍّ . إِنَّ هَذَا ٱلطِّفْلَ مَسْخَطَةٌ لَهَا وَمَضْجَرَةٌ. وَكَذَلِكَ تُعَالَجُ ٱلْفَتَاةُ مِنْ دَاءِ ٱلأُمُومَةِ ، فَتعَافَىٰ ، وَلا يَمْضِي شَهْرٌ حَتَّىٰ تَجِدَهَا فِي أَحَدِ ٱلْمَرَاقِصِ أَوْ دُورِ ٱلأُوبِرَا وَطِفْلُهَا في ( شابوت ) أَوْ ( زير ) ، وَزَوْجُهَا فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ ٱلْفُجُورِ ، وَتَرَىٰ حَوْلَهَا ٱلرِّجَالَ عَشَرَاتٍ يُغَازِلُونَهَا وَيُدَاعِبُونَهَا وَيَعِدونَهَا ٱلْحُبَّ وَٱلإِخْلاصَ وَٱلوَفَاءَ ، وَيَحْلِفُونَ لَهَا بِأَغْلَظِ ٱلأَيْمَانِ أَنَّهُمْ عَبِيدُهَا وَأَسْرَاهَا ، وَأَنَّهُمْ فِيهَا هَائِمُونَ ، وَبِهَوَاهَا مَيِّتُونَ ، فَتَخْتَارُ مِنْهُمْ وَاحِداً وَتَضُمُّهُ

إِلَىٰ صَدْرِهَا ، فَيُدَنِّسُ عِرْضَهَا ، ثُمَّ يَدَعُهَا وَشَأْنَهَا ، فَتَقْضِي لَيْلَتَهَا بُكَاءً وَٱنْتِحَاباً ، ثُمَّ تَنْظُرُ ، فَإِذَا عَيْنَاهَا قَدِ ٱحْمَرَّتَا مِنَ ٱلْبُكَاءِ ، فَتَلْتَمِسُ مَنْ يهَوِّنُ خَطْبَهَا وَيُسَرِّي كَرْبَهَا ، ويَهَبُهَا ٱلْعَزَاءَ وَٱلسَّلْوَىٰ ، فَتَتَّخِذُهُ أَنِيساً وَجَلِيساً وَصَدِيقاً وَرَفِيقاً ، حَتَّى إِذَا فَقَدَتْهُ ٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ آخَرَ ، ثُمَّ آخَرَ ، وَهَكَذَا حَتَّىٰ تَتَجَاوَزَ ٱلثَّلاثِينَ مِنْ عُمُرِهَا ، وَأَخِيراً تَمَلُّ وَتَسْأَمُ وَتَتَسَخَّطُ وَتَتَبَرَّمُ وَتَشْتَكِي كِظَّةَ ٱلسَّرَفِ وَفِقْدَانَ ٱلأَمَلِ ، ثُمَّ يَمْرَضُ يَقِينُهَا ، وَتَضْمَحِلُّ عَقِيدَتُهَا ، ويَخْلُو فُؤَادُهَا مِنْ كُلِّ عَاطِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ حَتَّىٰ مِنَ ٱلاشْمِئْزَازِ وَٱلتَّأَفُّفِ ، فَبَيْنَمَا هِيَ كَذَلِكَ ، إِذْ تُصَادِفُ لَيْلَةً فِي بَعْضِ ٱلْمَرَاقِصِ ، فَتُحِبُّ فَتَى جَمِيلًا ، أَسْوَدَ ٱلشَّعْرِ ، مُتَلأْلِيءَ ٱلْعَيْنَيْنَ ، فَيَّاضَ ٱلأَمَلِ ، تَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ نَضْرَةَ ٱلصِّبَا ، ثُمَّ تَتَذَكَّرُ آلامَهَا وَأَوْجَاعَهَا ، فَتُقْبِلُ عَلَيْهِ تُعْطِيهِ عِبَراً وَدُرُوساً مِنْ تَارِيخِ حَيَاتِهَا ، وَتُعَلِّمُهُ ٱلتَّشَاؤُمَ ، وَتُبَرْهِنُ لَهُ عَلَىٰ ٱسْتِحَالَةِ مَا يُسَمُّونَهُ ٱلْحُبَّ ، وَتُحَذِّرُهُ مِنَ ٱلْهُيَامِ عَبَثاً وَرَاءَ هَذَا ٱلسَّرَابِ ٱلْخَادِعِ وَٱلْبَرْقِ ٱلْخُلَّبِ ، فَهَذِهِ هِيَ ٱلْمَرْأَةُ كَمَا خَلَقْتُمُوهَا ، كَمَا صَوَّرَتْهَا يَدُ ٱلْمَدَنِيَّةِ ، وَمِنْ هَذَا ٱلْقَبِيلِ حَبَائِبُنَا وَمَعْشُوقَاتُنَا . وَلَكِنَّهُنَّ عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ نِسَاءٌ ، وَلَهُنَّ مَحَاسِنُهُنَّ كَمَا لَهُنَّ عُيُوبُهُنَّ ، وَفِيهِنَّ مَلْهَىٰ وَمُسْتَمْتَعٌ ، وَقَدْ تُصَابُ مِنْهُنَّ أَحْيَاناً فُرَصُ ٱلنَّعِيمِ وَخَلَسَاتُ ٱللَّذَّةِ !

فَإِذَا كُنْتَ يَا صَاحِبِي مَتِينَ ٱلْخُلُقِ ، قَوِيَّ ٱلْعَزِيمَةِ ، وَاثِقاً مِنْ نَفْسِكَ ، مُسْتَكْمِلَ ٱلرُّجُولَةِ ، فَإِنِّي أُشِيرُ عَلَيْكَ بِهَذِهِ ٱلنَّصِيحَةِ : ٱدْفَعْ بِنَفْسِكَ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلا وَجِلٍ فِي غِمَارِ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَٱرْكَبْ مَتْنَ لُجِّهَا وَعُبَابَ مَوْجِهَا ، وَٱنْعَمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ بِكُلِّ مَنْ حَصَلَتْ لَدَيْكَ ، مِنْ مُومِسٍ وَعَاهِرَةٍ وَرَقَّاصَةٍ وَفَلَّاحَةٍ وَشَرِيفَةٍ وَكَرِيمَةٍ ، وَكُنْ تَارَةً وَفِيّاً ، وَطَوْراً غَادِراً ، وَآناً فَرِحاً ، وَآوِنَةً حَزِيناً ، وَسَاعَةً مُنْخَدِعاً ، وَأُخْرَىٰ مُحْتَرَماً . وَلَكِنْ إِذَا ظَفِرْتَ مِنَ ٱمْرَأَةٍ بِحُبِّهَا وَهَوَاهَا فَضِنْ بِنِعْمَةِ هَذَا ٱلْغَرَامِ أَنْ تُضِيعَهَا ـ وَلا يَعْنِيكَ صِنْفُ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي تَهْوَاكَ ـ فَكُلُّ مَا عَدَا

نِعَمَ ٱلْحُبّ بَاطِلٌ لا قِيمَةَ لَهُ ، وَإِذَا كُنتَ ٱمْرَأً عَادِيّاً فَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ تُطِيلُ ٱلتَّفْكِيرَ وَٱلتَّدَبُّرَ قَبْلَ عَقْدِ نِيَّتِكَ وَإِجْمَاعِ أَمْرِكَ . وَلَكِنَّكَ تَكُونُ جَدِيراً أَلَّا تُعَوِّلَ عَلَىٰ أَدْنَىٰ شَيْءٍ مِمَّا تَتَوَقَّعُ أَنْ تَجِدَهُ فِي عَشِيقَتِكَ .

وَإِنْ كُنتَ ضَعِيفاً سَخِيفاً مَلِيئاً أَنْ تَرْسُوَ وَتُرَسِّخَ وَتُرْسِلَ جُذُورَكَ حَيْثُ تُصَادِفُ قِطْعَةً مِنَ ٱلطِّينِ ؛ مَهْمَا قُلْتَ ، فَإِنِّي أَنْصَحُ إِلَيْكَ أَنْ تَتَّخِذَ دِرْعاً تَتَّقِي بِهَا كُلَّ شَيْءٍ ، فَإِذَا أَذْعَنْتَ لِخُلُقِكَ ٱلضَّعِيفِ ، وَطَبْعِكَ ٱلسَّخِيفِ ، عِيقَ نَمَاؤُكَ ، وَأَكْدَىٰ شَبَابُكَ ، وَلَمْ تَنْتَشِرْ لَكَ فُرُوعٌ وَأَغْصَانٌ وَرَاءَ مَرْسَىٰ أُصُولِكَ وَمَغْرِسِ جُذُورِكَ ، فَلا تَلْبَثُ أَنْ تَذْبُلَ وَتَذْوَىٰ كَٱلنَّبَاتِ ٱلْعَقِيمِ ، ثُمَّ لا تَزْهُو وَلا تُثْمِرُ ، وَيَنْتَقِلُ مَاءُ حَيَاتِكَ إِلَىٰ شَجَرَةٍ أُخْرَىٰ ، وَتَصِيرُ كُلُّ أَعْمَالِكَ وَمَجْهُودَاتِكَ أَصْغَرَ مِنْ وَرَقِ ٱلصَّفْصَافِ ، ثُمَّ لا تُسْقَىٰ إِلَّا مِنْ رَيِّ مَدَامِعِكَ ، وَلا تُغَذَّىٰ إِلَّا مِنْ مَادَّةِ قَلْبِكَ ؛ وَإِذَا كُنْتَ مُتَحَمِّساً ، مُلْتَهِبَ ٱلْحَمِيَّةِ ، تُصَدِّقُ بِٱلْخَيَالاتِ وَٱلأَحْلامِ ، وَتُرِيدُ تَحْقِيقَهَا ؛ فَلَيْسَ لَكَ عِنْدِي جَوَابٌ سِوَىٰ : « لَا وُجُودَ لِلْحُبِّ » . لِأَنِّي مُوَافِقٌ عَلَىٰ مَا تَرَاهُ أَنْتَ مِنْ أَنَّ ٱلْحُبَّ إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَهِبَ ٱلْمَرْءُ نَفْسَهُ رُوحاً وَجِسْماً ، وَبِعِبَارَةٍ أَبْلَغُ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَرْءُ مِنْ شَخْصَيْنِ شَخْصاً ، وَٱلْحُبُّ هُوَ ٱلتَّقَلُّبُ فِي ضِيَاءِ ٱلشَّمْسِ ، وَفِي ٱلْهَوَاءِ ٱلنَّقِيِّ ، وَبَيْنَ ٱلزَّهْرِ وَٱلرَّيْحَانِ ، بِجِسْمٍ ذِي أَذْرُعٍ وَرَأْسَيْنِ وَقَلْبَيْنِ ، وَٱلْحُبُّ هُوَ ٱلْيَقِينُ وَٱلإِيمَانُ ، وَهُوَ دِينُ ٱلسَّعَادَةِ ٱلدُّنْيَوِيَّةِ وَٱلنَّعِيمِ ٱلأَرْضِيِّ ، وَهُوَ مُثَلَّثٌ مُسْتَنِيرٌ فِي سَقْفِ هَذَا ٱلْمَعْبَدِ ٱلْمُسَمَّىٰ لدينا . وَٱلْحُبُّ هُوَ أَنْ يَرْتَعَ ٱلْمَرْءُ فِي أَرْجَاءِ هَذَا ٱلْمَعْبَدِ وَإِلَىٰ جَانِبِهِ مَخْلُوقٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْهَمَ لِمَاذَا يَسْتَوْقِفُكَ خَاطِرٌ أَوْ كَلِمَةٌ أَو زَهْرَةٌ أَثْنَاءَ سَيْرِكَ فَتَدْعُوكَ إِلَىٰ رَفْعِ رَأْسِكَ إِلَىٰ ذَلِكَ ٱلْمُثَلَّثِ ٱلسَّمَاوِيِّ هَذَا ، وَلا تَنْسَىٰ أَنَّ أَعْمَالَ ٱلْمَرْءِ أَشْرَفَ مَلَكَاتِهِ نِعْمَةٌ كُبْرَىٰ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ لِلْعَبْقَرِيَّةِ مَا تَعْرِفُ مِنْ جَمَالِهَا وَرَوْعَتِهَا ، فَمَا بَالُكَ إِذَنْ بِمُضَاعَفَةِ هَذِهِ ٱلْمَلَكَاتِ ، وَبِضَمِّ فُؤَادٍ إِلَىٰ فُؤَادٍ ، وَذِهْنٍ إِلَىٰ ذِهْنٍ ؛

إِلَّا أَنَّ هَذِهِ لَهِيَ ٱلسَّعَادَةُ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلنِّعْمَةُ ٱلْعُلْيَا . ومَا مَنَّ ٱللهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا وَلا أَجْزَلَ ، وَمِنْ ثَمَّ فُضِّلَ ٱلْحُبُّ حَتَّىٰ عَلَىٰ ٱلْعَبْقَرِيَّةِ ، فَبِٱللهِ إِلَّا مَا خَبَّرْتَنِي : أَكَذَلِكَ رَأْيُ زَوْجَاتِنَا في ٱلْحُبِّ ؟ كَلا ، فَغَيْرُ ذَلِكَ في ٱلْحُبِّ رَأْيُهُنَّ ، وَإِنَّمَا ٱلْحُبُّ عِنْدَهُنَّ هُوَ ٱلسَّيْرُ مُقَنَّعَاتٍ ، وَكِتَابَةُ ٱلرَّسَائِلِ ٱلْغَامِضَةِ ٱلْمُبْهَمِةِ ، وَٱلْمَشْيُ عَلَىٰ أَمْشَاطِ أَقْدَامِهِنَّ ، وَٱلتَّنْكِيتُ وَٱلتَّبْكِيتُ ، وَٱلنَّظَرَاتُ ٱلْفَاتِرَةُ ، وَٱلأَلْحَاظُ ٱلْمِرَاضُ ، وَإِرْسَالُ ٱلزَّفَرَاتِ ٱلْعَفِيفَةِ ٱلطَّاهِرَةِ ، وَيُدَبِّرْنَ ٱلْمكَايِدَ وَهُنَّ في ٱلْحُلَلِ ٱلْبَيْضَاءِ ٱلْمُنَشَّاةِ ، ثُمَّ يَنْصِبْنَ ٱلْحَبَائِلَ لإِشْجَاءِ نَظِيرَةٍ ، أَوْ خَدِيعَةِ زَوْجٍ ، أَوْ تَعْذِيبِ عَاشِقٍ . وَٱلْحُبُّ في رَأْيِ زَوْجَاتِنَا هُوَ أَنْ يَلْعَبْنَ لُعْبَةَ ٱلْغِشِّ وَٱلْكَذِبِ كَمَا يَلْعَبُ ٱلأَطْفَالُ لُعْبَةَ ٱلْمُرَاوَغَةِ ، وَهُوَ دَعَارَةُ ٱلْقَلْبِ ، وَفُسُوقُ ٱلرُّوحِ ، وَذَلِكَ أَخْبَثُ مِمَّا كَانَ يَحْدُثُ مِنْ دَعَارَةِ نِسْوَةِ ٱلرُّومَانِ في ( ساتورناليه بريابوس ) وَهُوَ صُورَةٌ مُمَوَّهَةٌ مِنَ ٱلرَّذِيلَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ ، وَهُوَ مَهْزَلَةٌ بَارِدَةٌ سَخِيفَةٌ يَظَلُّ كُلُّ ٱلْمُمَثِّلِينَ فِيهَا يَتَهَامَسُونَ ، وَيُؤَدُّونَ أَعْمَالَهُمْ بِوُجُوهٍ مَزْوِيَّةٍ ، وَأَعْيُنٍ مَغْضُوضَةٍ ، وَيَظَلُّ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا حَقِيراً مُشَوَّهاً عَلَىٰ فَرْطِ ٱلتَّأَنُّقِ وَٱلتَّكَلُّفِ ، مِثْلَ مَا تُصَدِّرُهُ إِلَيْنَا ٱلصِّينُ مِنْ تِلْكَ ٱلتُّحَفِ ٱلْخَزَفِيَّةِ ٱلْبَشِعَةِ ٱلْمُنْكَرَةِ . وَهُوَ خَلِيطٌ مَمْقُوتٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْقُبْحِ ، وَمِنْ عُنْصُرَيْ ٱلْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلنِّقْمَةِ وَٱلنَّعِيمِ وَٱلْجَحِيمِ في هَذِهِ ٱلدُّنْيَا . وَهُوَ ظِلٌّ بِلا جِسْمٍ ، وَخَيَالٌ بِلا حَقِيقَةٍ ، وَهُوَ هَيْكَلٌ عَظْمِيٌّ لِجُمْلَةِ مَخْلُوقَاتِ ٱلْخَالِقِ .

هَذَا مَا قَالَهُ ديزينيه بِصَوْتٍ صَارِمٍ في سَكِينَةِ ٱللَّيْلِ وَهُدُوئِه(١) .

* * *

(١) [ وهذا يمثِّلُ النّفسيَّة والعقليَّة الأوروبية والغَرْبيّةَ ونظرتها للمرأة !؟ ] .

## حَثُّهُمُ ٱلرِّجَالَ عَلَىٰ ٱلتَّزَوُّجِ :

١٣٣٣ ـ قَالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآيات : ١ ـ ٣] . يَقُولُ سُبْحَانَهُ : يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ! يَا بَنِي آدَمَ قَاطِبَةً ، ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، أَيْ : فَرَّعَكُمْ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ نَفْسُ آدَمَ أَبِيكُمْ ، وَخَلَقَ مِنْ هَذِهِ ٱلنَّفْسِ ، مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلاعِهَا زَوْجَهَا ، وَهِيَ أُمُّكُمْ حَوَّاءُ ، وَبَثَّ مِنْ تِلْكَ ٱلنَّفْسِ وَٱلزَّوْجَةِ ٱلْمُتَفَرِّعَةِ مِنْهَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ كَثِيرَةً تَفُوقُ ٱلْحَصْرَ ؛ وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي تَساءَلُون بِهِ ، أَيْ : وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي تَتَساءَلُونَ بِهِ وَتَتَنَاشَدُونَ ، فَيَقُولُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ : أَسْأَلُكَ بِٱللهِ ، أَوْ أُنَاشِدُكَ ٱللهَ ؟ وَأَمْثَالًا لِذَلِكَ ، وَٱتَّقُوا ٱلأَرْحَامَ ، فَصِلُوهَا وَلَا تَقْطَعُوهَا ، وَهَذَا كَمَا قَدَّمْنَا فِي بَابِ صِلَةِ ٱلرَّحِمِ ، إِشَادَةٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَنْوِيهٌ بِمَكانَةِ صِلَةِ ٱلرَّحِمِ ، إِذْ قَرَنَهَا سُبْحَانَهُ بِٱسْمِهِ ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ ﴾ أَيْ : ٱلَّذِينَ مَاتَ عَنْهُمْ آبَاؤُهُمْ ﴿ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ فَلَا يَطْمَعْ فِيهَا ٱلأَوْلِيَاءُ وَٱلأَصْفِيَاءُ وَوُلاةُ ٱلسُّوءِ وَقُضَاتُهُ ، وَيَكُفُّوا عَنْهَا أَيْدِيَهُمْ ٱلْخَاطِفَةَ ، حَتَّىٰ تَأْتِيَ ٱلْيَتَامَىٰ ـ إِذَا أُونِسَ مِنْهُمْ ٱلرُّشْدُ ـ سَالِمَةً غَيْرَ مَحْذُوفَةٍ ، ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ أَيْ : لا تَسْتَبْدِلُوا ٱلْحَرَامَ ، وَهُوَ مَالُ ٱلْيَتَامَىٰ ، بالحلال ، وَهُوَ مَالُكُمْ وَمَا أُبِيحَ لَكُمْ مِنَ ٱلْمَكَاسِبِ وَرِزْقِ ٱللهِ ٱلْمَبْثُوثِ فِي ٱلأَرْضِ ، فَتَأْكُلُوهُ مَكَانَهُ ، ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ أَيْ : لا تَضُمُّوهَا إِلَيْهَا فِي ٱلإِنْفَاقِ ، حَتَّىٰ لا تُفَرِّقُوا بَيْنَ أَمْوَالِكُمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، قِلَّةَ مُبَالاةٍ بِمَا لا يَحِلُّ

لَكُمْ وَتَسْوِيَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَلالِ ، فَإِنَّ ذَٰلِكَ حُوبٌ كَبِيرٌ ، أي : ذَنْبٌ عَظِيمٌ ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿ فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ . . . الآيَةَ ، أَيْ : إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فِي يَتَامَىٰ ٱلنِّسَاءِ إِذَا تَزَوَّجْتُمْ بِهِنَّ فَتَزَوَّجُوا ﴿ مَا طَابَ ﴾ مَا حَلَّ ﴿ لَكُم ﴾ مِنْ غَيْرِهِنَّ ، وَذَٰلِكَ أَنْ رُبَّمَا كَانَ ٱلرَّجُلُ مِنْهُمْ يَجِدُ ٱلْيَتِيمَةَ لَهَا مَالٌ وَجَمَالٌ ، وَيَكُونُ وَلِيَّهَا ، فَيَزَوَّجُهَا ضَنًّا بِهَا عَلَىٰ غَيْرِهِ ، فَرُبَّما ٱجْتَمَعَتْ عِنْدَهُ عَشْرٌ مِنْهُنَّ أَوْ أَكْثَرُ أَوْ أَقَلُّ ، فَيَخَافُ لِضَعْفِهِنَّ وَفَقْدِ مَنْ يَغْضَبُ لَهُنَّ ، أَنْ يَظْلِمَهُنَّ حُقُوقَهُنَّ وَيُفَرِّطَ فِيمَا يَجِبُ لَهُنَّ . وَقَدْ نَزَلَتِ ٱلآيَةُ فِي ٱلْيَتَامَىٰ وَمَا فِي أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ مِنَ ٱلْحُوبِ ٱلْعَظِيمِ ، فَقَالَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَٰحِدَةً ﴾ أَيْ : فَذَرُوا ٱلْجَمْعَ بَيْنَ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثٍ أَوْ أَرْبعٍ وَٱكْتَفُوا بِوَاحِدَةٍ ، أَوْ لَدَيْكُمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، أَيْ : إِمَاؤُكُمْ ، و﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أَيْ : أَقْرَبُ مِنْ أَلَّا تَمِيلُوا ، وَأَدْنَىٰ إِلَىٰ ٱلْعَدْلِ ، لأَنَّ ٱلأَمْرَ كُلَّهُ يَدُورُ مَعَ ٱلْعَدْلِ ، فَأَيْنَمَا وَجَدْتُمُ ٱلْعَدْلَ فَعَلَيْكُمْ بِهِ .

وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّا أَوْرَدْنَا عَلَيْكَ هَذِهِ ٱلآيَةَ ٱلْكَرِيمَةَ لِتَعْلَمَ أَن ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَسَّعَ عَلَيْنَا فِي بَابِ ٱلزَّوَاجِ إِلَىٰ حَدٍّ كَبِيرٍ ، وَمِنْ ذَٰلِكَ نَعْلَمُ مِقْدَارَ حَثِّهِمْ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ وَتَفَضُّلِهِ عَلَىٰ ٱلْعُزُوبَةِ ، وَهَذَا هُوَ شَاهِدُنَا هُنَا فِي هَذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ .

* * *

١٣٣٤ ـ وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَأَنكِحُوا ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٣٢]

ٱلأَيَامَىٰ ، جَمْعُ أَيِّمٍ ، وَهُوَ : ٱلْعَزَبُ ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَىٰ ، بِكْرًا كَانَ أَوْ ثَيِّباً ، وَٱلآيَةُ كَمَا تَرَىٰ حَثٌّ عَلَىٰ ٱلتَّزْوِيجِ ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ : زَوِّجُوا ـ أَيُّهَا ٱلأَوْلِيَاءُ

وَٱلسَّادَةُ ـ ٱلْعَزَبَ وَكُلَّ صَالِحٍ لِلزَّوَاجِ ، فَبِٱلزَّوَاجِ بَقَاءُ ٱلنَّوْعِ ، وَإِذَا كُنْتُمْ فُقَرَاءَ وَظَنَنْتُمْ أَنَّ فَقْرَ ٱلْخَاطِبِ أَوِ ٱلْمَخْطُوبَةِ يَحُولُ دُونَ ٱلزَّوَاجِ ، فَإِنَّ فِي فَضْلِ ٱللهِ غُنْيَةً عَنِ ٱلْمَالِ ، فَإِنَّهُ غَادٍ وَرَائِحٌ ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَذَا وَعْدٌ مِنَ ٱللهِ بِٱلإِغْنَاءِ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلأَثَرِ : ٱطْلُبُوا ٱلْغِنَىٰ فِي هَذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ؛ وَقَالَ عُمَرُ ٱبْنُ ٱلْخَطَّابِ : إِنِّي لأَعْجَبُ مِمَّنْ يَدَعُ ٱلنِّكَاحَ بَعْدَ سَمَاعِهِ لِهَذِهِ ٱلآيَةِ . . .

* * *

١٣٣٥ ـ وَكَانَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ مِطْلاقاً مِزْوَاجاً ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ عَلَّقَ بِهِمَا ٱلْغِنَىٰ ، فَقَالَ : ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٣٢] . . ٱلآيَةَ ، وَقَالَ : ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٣٠] . فَأَنَا أَتَزَوَّجُ لِلْغِنَىٰ وَأُطَلِّقُ لِلْغِنَىٰ .

* * *

١٣٣٦ ـ وَقَالَ سُبْحَانه : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٣٢] نَزَلَتْ هَذِهِ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيمَةُ فِي مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ ٱلْمُزَنِيِّ ، وَكَانَ قَدْ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا ، فَطَلَّقَهَا ، فَلَمَّا ٱنْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا ، فَأَبَىٰ أَخُوهَا أَلَّا يُزَوِّجَهُ إِيَّاهَا ، وَرَغِبَتْ فِيهِ أُخْتُهُ ، فَنَزَلَتْ ٱلآيَةُ ؛ وَقِيلَ : ٱلْخِطَابُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ ، أَيْ : لا يُوجَدُ بَيْنَكُمْ عَضْلٌ ، لأَنَّهُ إِذَا وُجِدَ بَيْنَهُمْ وَهُمْ رَاضُونَ كَانُوا فِي حُكْمِ ٱلْعَاضِلِينَ .

وَبَعْدُ ؛ فَهَذِهِ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيمَةُ نَهْيٌ عَنِ ٱلْعَضْلِ ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ ٱلْحَثَّ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ وَٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ ؛ وَعَضَلَ ٱلرَّجُلُ أَيِّمَهُ يَعْضُلُهَا وَيَعضِلُهَا عَضْلًا ، وَعَضَّلَهَا : مَنَعَهَا مِنَ ٱلزَّوَاجِ ظُلْماً وَقَسْراً ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَصْلُ

ٱلْعَضْلِ : ٱلْحَبْسُ وَٱلْمَنْعُ وَٱلتَّضْيِيقُ(١) ، وَمِنْهُ عَضَّلَتِ ٱلدَّجَاجَةُ : إِذَا نَشِبَ بَيْضُهَا فَلَمْ يَخْرُجْ ، وَعَضَّلَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِذَا نَشِبَ ٱلْوَلَدُ فَخَرَجَ بَعْضُهُ ، وَلَمْ يَخْرُجْ بَعْضٌ فَبَقِيَ مُعْتَرِضاً ، وَأَعْضَلَتْ وَهِيَ مُعْضِلٌ ـ بِلا هَاءٍ ـ وَمُعَضِّلٌ : عَسُرَ عَلَيْهَا وِلادُهُ ؛ وَقَالَ ٱبْنُ هَرْمَةَ [من الوافر] :

وَإِنَّ قَصَائِدِي لَكَ فَٱصْطَنِعْنِي عَقَائِلُ قَدْ عُضِلْنَ عَنِ ٱلنِّكَاحِ(٢)

* * *

١٣٣٧ ـ وَجَاء عَكَّاف بْنُ وَدَاعَةَ ٱلْهِلَالِيُّ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « يَا عَكَّافُ ! أَلَكَ زَوجَةٌ ؟ » قَالَ : لا ؛ قَالَ : « وَلَا جَارِيَةٌ » قَالَ : لَا ! قَالَ : « وَأَنْتَ صَحِيحٌ مُوسِرٌ ؟! » قَالَ : نَعَم ، وَٱلْحَمْدُ للهِ ؛ قَالَ : « فَأَنْتَ إِذاً مِنْ إِخْوَانِ ٱلشَّيَاطِينِ ، إِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ رُهْبَانِ ٱلنَّصَارَىٰ فَأَنْتَ مِنْهُمْ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مِنَّا ، فَٱصْنَعْ كَمَا نَصْنَعُ ، وَإِنَّ مِنْ سُنَّتِنَا ٱلنِّكَاحُ ، شِرَارُكُمْ عُزَّابُكُمْ ، وَأَرَاذِلُ مَوْتَاكُم عُزَّابُكُمْ ، وَيْحَكَ يَا عَكَّافُ ! تَزَوَّجْ ! » فَقَالَ عَكَّافُ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! لَا أَتَزَوَّجُ حَتَّىٰ تُزَوِّجَنِي مَنْ شِئْتَ ؛ فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « فَقَدْ زَوَّجْتُكَ عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ وَٱلْبَرَكَةِ كَرِيمَةَ بِنْتَ كُلْثُومٍ ٱلْحِمْيَرِيِّ » [راجع « مسند أحمد » ، رقم : ٢٠٩٣٩]

* * *

١٣٣٨ ـ وَقَالَ شَاعِرٌ [من الطويل] :

---

(١) وَمِنْهُ : أَعْضَلَ بِكَ ٱلأَمْرُ : إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْكَ فِيهِ ٱلْحِيَلُ ؛ وَدَاءٌ عُضَالٌ : شَدِيدٌ مُعْيٍ .

(٢) ٱلْعَقَائِلُ ، جَمْعُ عَقِيلَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْمَعْقُولَةُ فِي خِدْرِهَا مِنَ ٱلنِّسَاءِ ؛ وَقَوْلُهُ : فَٱصْطَنِعْنِي ، ٱعْتِرَاضٌ ؛ يَقُولُ : إِنَّ قَصَائِدِي لَكَ مِثْلُ ٱلْمُخَدَّرَاتِ ، فَلَسْتُ أَمْدَحُ بِهَا غَيْرَكَ ، فَٱجْعَلْنِي صَنِيعَتَكَ .

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلِ ٱلْمَرْءِ حُرَّةٌ ... تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ[(١)]

* * *

١٣٣٩ ـ وَعَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ ، قَالَ : قَالَ لِي طَاوُسُ : لَتَتَزَوَّجَنَّ أَوْ لأَقُولَنَّ لَكَ مَا قَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ لأَبِي ٱلزَّوَائِدِ : قَالَ : قَالَ لَهُ : مَا يَمْنَعُكَ مِنَ ٱلنِّكَاحِ إِلَّا عَجْزٌ أَوْ فُجُورٌ . . . « وَأَبُو ٱلزَّوَائِدِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ » [أخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، كما في « الدر المنثور » سورة المائدة ، الآية : ٨٧ ؛ و« كنز العمال » ، رقم : ٤٥٥٨٨ ؛ « الإصابة » لابن حجر ، رقم : ٩٩٤١] .

* * *

١٣٤٠ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « يَا مَعْشَرَ ٱلشَّبَابِ ! مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ ٱلْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ؛ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِٱلصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ » [البخاري ، رقم : ١٩٠٥ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٠٠] .

ٱلْبَاءَةُ هُنَا : ٱلنِّكَاحُ ـ ٱلزَّوَاجُ ـ وَقَدْ يُرَادُ بِٱلْبَاءَةِ : ٱلْجِمَاعُ نَفْسُهُ ، وَٱلأَصْلُ فِي ٱلْبَاءَةِ : ٱلْمَنْزِلُ ، ثُمَّ قِيلَ لِعَقْدِ ٱلتَّزْوِيجِ : بَاءَةٌ ، لأَنَّ ٱلرَّجُلَ يَتَبَوَّأُ مِنْ أَهْلِهِ ، أَيْ : يَتَمَكَّنُ مِنْ أَهْلِهِ كَمَا يَتَبَوَّأُ مِنْ دَارِهِ ، أَوْ تَقُولُ : لأَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً بَوَّأَهَا

---

(١) قَبْلَ هَذَا ٱلْبَيْتِ أَبْيَاتٌ أَوْرَدَهَا صَاحِبُ « نُزْهَةِ ٱلأَبْصَارِ وَٱلأَسْمَاعِ » نُورِدُهَا هُنَا عَلَىٰ سُوقِيَّةِ مَبْنَاهَا ، وَإِنْ كَانَتْ سَدِيدَةً فِي مَعْنَاهَا [ من الطويل ] :

إِذَا ٱشْتَغَلَ ٱلإِنْسَانُ بِٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ ... وَفِي مَكْسَبٍ يَأْتِي بِطُولِ نَهَارِهِ
وَلَيْسَ لَهُ فِي دَارِهِ مَنْ يَسُوسُهَا ... إِذَا غَابَ فِي أَشْغَالِهِ عَنْ دِيَارِهِ
فَذَلِكَ عِنْدِي مُهْمِلٌ أَمْرَ نَفْسِهِ ... مَا عَاقِلٌ يَرْضَىٰ بِهِ بِٱخْتِيَارِهِ
وَلا بُدَّ لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ إِذَا ... تَأَخَّرَ تَبْقَىٰ عَيْنُهَا فِي ٱنْتِظَارِهِ
وَتُصْلِحُ مَا يَخْتَارُهُ مِنْ أُمُورِهِ ... وَتَخْدِمُهُ فِي فَرْشِهِ وَدِثَارِهِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مَنْزِلِ ٱلْمَرْءِ حُرَّةٌ ... تُدَبِّرُهُ ضَاعَتْ مَصَالِحُ دَارِهِ

مَنْزِلًا ؛ وَيُقَالُ : ٱلْبَاءُ وَٱلْبَاءَةُ وَٱلْبَاهُ ، وَتُجْمَعُ ٱلْبَاءَةُ عَلَىٰ ٱلْبَاءَاتِ ؛ وَٱلْوِجَاءُ في ٱلأَصْلِ ، وَمِثْلُهُ ٱلْوَجَاءُ : أَنْ تُرَضَّ أُنْثَيَا ٱلْفَحْلِ رَضّاً شَدِيداً يُذْهِبُ شَهْوَةَ ٱلْجِمَاعِ وَيَتَنَزَّلُ فِي قَطْعِهِ مَنْزِلَةَ ٱلْخَصِيِّ ، وَٱلْمُرَادُ في ٱلْحَدِيثِ : أَنَّ ٱلصَّوْمَ يَقْطَعُ ٱلنِّكَاحَ كَمَا يَقْطَعُهُ ٱلْوِجَاءُ . وَقَوْلُهُ : فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : غَضَّ طَرْفَهُ وَبَصَرَهُ يَغُضُّهُ غَضّاً : كَفَّهُ وَخَفَضَهُ وَكَسَرَهُ ؛ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، أَيْ : أَشَدُّ إِحْصَاناً لَهُ وَمَنْعاً مِنَ ٱلْوُقُوعِ فِي ٱلْفَاحِشَةِ .

* * *

١٣٤١ ـ وَفي ٱلْحَدِيثِ : « إِذَا أَحَدُكُمْ أَعْجَبَتْهُ ٱلْمَرْأَةُ فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ فَلْيَعْمَدْ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ فَلْيُوَاقِعْهَا ، فَإِنَ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ . . . فَهَذَا مِنْ ذَاكَ » [مسلم ، رقم : ١٤٠٣ ؛ الترمذي ، رقم : ١١٥٨ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٥١ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢١٥١ و١٤١٢٨ و١٤٢٦١] .

* * *

١٣٤٢ ـ وَفِي ٱلْبُخَارِيِّ [رقم : ٥٠٦٣ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٠١] : جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَىٰ بُيُوتِ أَزْوَاجِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا[١] ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ! قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا ، فَأَنَا أُصَلِّي ٱللَّيْلَ أَبداً ؛ وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ ٱلدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ ؛ وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ ٱلنِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَداً ؛ فَجَاءَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ، فَقَالَ : « أَنْتُمُ ٱلَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ! أَمَا وَٱللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ ٱلنِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » .

* * *

---

(١) تقالُّوهَا ، أَيْ : ٱسْتَقَلُّوهَا ، وَأَصْلُهَا تَقَالَلُوهَا ، أَيْ : رَأَىٰ كُلٌّ مِنْهُمْ أَنَّهَا قَلِيلَةٌ .

١٣٤٣ ـ وَفِي بَعْضِ ٱلآثَارِ : « أَرْبَعٌ مِنْ سُنَنِ ٱلْمُرْسَلِينَ : ٱلتَّعَطُّرُ ، وَٱلنِّكَاحُ ، وَٱلسِّوَاكُ ، وَٱلْخِتَانُ » [الترمذي ، رقم : ١٠٨٠ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٣٠٦٩] .

* * *

١٣٤٤ ـ وَقَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : أَلَكَ ٱمْرَأَةٌ ؟ قَالَ : لَا ! قَالَ : فَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ ٱلأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً . [« كنز العمال » ، رقم : ٤٥٦٠٥] .

* * *

١٣٤٥ ـ وَقالَ حَكِيمٌ : ٱلزَّواجُ مَصْدَرُ آدابِ ٱلْمُجْتَمَعِ ٱلإِنسانِيِّ .

* * *

١٣٤٦ ـ وَقالَ آخَرُ : لَيْسَ مِنَ ٱلْمُمْكِنِ أَنْ يَحْيا ٱلرَّجُلُ ٱلْحَياةَ ٱلْفاضِلَةَ ، وَيَمُوتَ ٱلْمَوْتَةَ ٱلصَّالِحَةَ ، ما لَمْ يَكُنْ بِجانِبِهِ زَوْجَةٌ .

* * *

١٣٤٧ ـ وَمِنْ حِكْمَةِ ٱلْهِنْدِ : إِنَّ ٱلزَّوْجَةَ هِيَ ٱلصَّدِيقُ ٱلَّذي مَنَحَتْهُ ٱلآلِهَةُ لِلإِنْسانِ .

* * *

١٣٤٨ ـ وَمِنْ كَلِمَةٍ لِجان جَاك روسُّو Jean - Jacques Rousseau : أُفَضِّلُ أَنْ أَكُونَ زَوْجَةَ فَحَّامٍ عَلىٰ أَنْ أَكُونَ عَشيقَةَ مَلِكٍ .

* * *

١٣٤٩ ـ وَقالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ : لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي إِلَّا عَشْرَةُ أَيَّامٍ لأَحْبَبْتُ أَنْ أَتزوَّجَ ، لِئَلَّا أَلْقىٰ ٱللهَ عَزَباً .

* * *

١٣٥٠ ـ [ وَأَخْرَجَ ٱبْنُ سَعْدٍ وَٱبْنُ أَبي شَيْبَةَ ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ، أَنَّهُ قَالَ : زَوِّجوني ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَوْصاني أَنْ لا أَلْقىٰ ٱللهَ عَزَباً ] .

* * *

١٣٥١ ـ [ وَأَخْرَجَ ٱبْنُ أَبي شَيْبَةَ ، عَنِ ٱلْحَسَنِ ، قالَ : قَالَ مُعاذٌ في مَرَضِهِ ٱلَّذِي ماتَ فيهِ : زَوِّجُوني ، إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَلْقىٰ ٱللهَ عَزَباً ] .

* * *

١٣٥٢ ـ وَجَاءَ في كِتابِ « الصُّوَرِ » لِلْمَرْحُومِ مُحَمَّدِ ٱلسِّباعِي طَيَّبَ ٱللهُ ثَراهُ ، وَجَعلَ ٱلْجَنَّةَ مُتَقَلَّبُهُ وَمَأْوَاهُ ، ما يَلي : ٱلزَّوْجَةُ هِيَ ٱلْمَلْجَأُ ٱلنَّاعِمُ ، وَٱلْمَلاذُ ٱللَّيِّنُ ؛ هِيَ ٱلْكَهْفُ ٱلْحُلْوُ كَأَنَّهُ خَلِيَّةُ ٱلْعَسَلِ ؛ هِيَ حِصْنٌ مِنَ ٱلبِلَّوْرِ في ضَمَانَةِ ٱلشَّرَفِ ، وَقَلْعَةٌ مِنَ ٱلْحَريرِ في خَفارَةِ ٱلْعَفَافِ ؛ هِيَ ٱلسَّاحِلُ ٱلْمَتِينُ ٱلَّذي يَأْوي إِلَيْهِ صَلاحُ ٱلْحَياةِ بَعْدَ صَوْلَةِ ٱلْمَوْجِ وَثَوْرَةِ ٱلْهَوَاءِ ؛ هِيَ ٱلظِّلُّ ٱلْخَصِيبُ ٱلَّذي يَلْبَسُهُ سائِحُ ٱلإِنْسانِيَّةِ بَعْدَ وَعْثاءِ ٱلسَّفَرِ وَلَظىٰ ٱلْهَجائِرِ . . . في حَلاوَةِ ٱلزَّوْجَةِ وَرِقَّتِها ما يَمْحُو مَرارَةَ ٱلزَّمَنِ وَخُشُونَتَهُ ، وَكَذَلِكَ ٱلْحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئاتِ .

إِنَّ ٱلزَّوْجَةَ لَتَبُثُّ حَوْلَهَا هَوَاءً مِنَ ٱلسُّرُورِ لا تَكادُ تَطْرُقُهُ ٱلأَحْزَانُ ، كَأَنَّهُ هَالَةُ ٱلْقَمَرِ أَوْ دارَةُ ٱلشَّمْسِ ؛ وَإِنَّ ٱلْهُمُومَ لَتَضْمَحِلُّ في صَوْتِ ٱلزَّوْجَةِ كَٱلْخَوْفِ أَمَامَ ٱلْبُشْرىٰ ، وَإِذا كانَتِ ٱلْمُوسيقىٰ فِتْنَةَ ٱلأَلْبابِ فَقُلْ في صَوْتِ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّذي يَفْتِنُ

ٱلْمُوسيقىٰ لَوْ أَنَّها تَعْقِلُ .

ٱلْمَرْأَةُ تُحفَةُ ٱلدُّنْيا ، وَزِينَةُ ٱلْحَياةِ ، فَمَنْ أَحْكَمَ تَدْبيرَها وَجَنىٰ ثَمَرها كانَ أَميراً عَلىٰ أَكْمَلِ بُقْعَةٍ وَأَجْمَلِ مَمْلَكَةٍ ، وَمَنْ أَساءَ ٱلتَّدْبيرَ فَخَسِرَ ٱلْمَرْأَةَ أَوْ حُبَّها وَطاعَتَها فَجَدِيرٌ بِهِ أَنْ يَتَمَثَّلَ [من البسيط] :

أُعْطِيتُ مُلْكاً فَلَمْ أُحْسِنْ سِياسَتَهُ وَكُلُّ مَنْ لا يَسُوسُ ٱلْمُلْكَ يَخْلَعُهُ

* * *

١٣٥٣ ـ وَرُوِيَ عَنْ زِيادِ ٱبْنِ أَبي سُفْيانَ أَنَّهُ قالَ لِجُلَسائِهِ : مَن أَنْعَمُ ٱلنَّاسِ عيشَةً ؟ قالُوا : أَميرُ ٱلْمُؤْمِنينَ ـ يَعْنُون مُعاوِيَةَ ٱبْنَ أَبي سُفْيانَ ـ فَقالَ : وَأَيْنَ ما يَلْقىٰ مِنْ قُرَيْشٍ ! قِيلَ : فَأَنْتَ ؛ قالَ : أَيْنَ ما أَلْقىٰ مِنَ ٱلْخَوارِجِ وَٱلثُّغُورِ ؟ قِيلَ : فَمَنْ أَيُّها ٱلأَميرُ ؟ قالَ : رَجُلٌ مُسْلِمٌ ، لَهُ زَوْجَةٌ مُسْلِمَةٌ ، لَهُما كَفافٌ مِنَ ٱلْعَيْشِ ، قَدْ رَضِيَتْ بِهِ وَرَضِيَ بِها ، لا يَعْرِفُنا وَلا نَعْرِفُهُ .

* * *

١٣٥٤ ـ وَقالَ قاسِمُ أَمِينٍ : إِذا كُنْتُ أَشْعُرُ في هَذِهِ ٱلْحَياةِ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلسَّعادَةِ ، فَفِي ٱلأَوْقاتِ ٱلَّتي أُقَضِّيها في بَيْتي مَعَ زَوْجَتي وَأَوْلادي .

* * *

### حَثُّهُمْ عَلىٰ ٱلتَّزَوُّجِ أَيَّامَ ٱلشَّبابِ :

١٣٥٥ ـ قالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ حَكِيمُ ٱلْعَرَبِ [من الرجز] :

إِنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونَ أَفْلَحَ مَنْ كانَ لَهُ رِبْعِيُّونَ

يُقالَ : أَصافَ ٱلرَّجُلُ ، يُصِيفُ إِصافَةً : إِذا لَمْ يُولَدْ لَهُ حَتّىٰ يُسِنَّ وَيَكْبُرَ ، وَأَوْلادُهُ صَيْفِيُّونَ ؛ وَٱلرِّبْعيُّونُ : ٱلَّذينَ وُلِدُوا في حَداثَتِه وَأَوَّلِ شَبابِهِ ؛ وَلَمَّا

حَضَرَتْ سُلَيْمانَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلْوَفَاةُ تَمَثَّلَ بِهَذا ٱلْبَيْتِ ، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ في أَوْلادِهِ مَنْ يُقَلِّدُهُ ٱلعَهْدَ بَعْدَهُ ؛ وَمَعْنىٰ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَنَّ ٱلأَوْلادَ ٱلْكِبارَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلصِّغارِ لَدَىٰ ٱلْوَالِدِ ، وَلا سِيَّما إِذا كَبُرَ .

* * *

١٣٥٦ ـ وَمَرَّ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِ ٱلْعَجَمِ بِشَيْخٍ يَعْمَلُ في أَرْضٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّها الشَّيْخُ ، هَلَّا أَدْلَجْتَ فَيَكُونَ مِنْ ذَلِكَ ما يَكْفيكَ ! فقَالَ : أَدْلَجتُ ، وَلكِنَّ ٱلْقَضاءَ لَمْ يُدْلِجْ . . . فقَالَ : ٱكْتُمْ كَلامَنَا هَذا حَتّىٰ تَراني ؛ ثُمَّ ٱنْصَرَفَ ٱلْمَلِكُ ، فَأَحْضَرَ وَزيرَهُ ، وَقالَ : ما مَعْنىٰ كلامِ ٱلشَّيْخِ ؟ قيلَ لَهُ كَذا فَأَجابَ بِكَذا ؟ وَقَدْ أَنْظَرْتُكَ حَوْلًا ؛ فَجَعَلَ ٱلْوَزيرُ يَسْأَلُ ٱلنَّاسَ وَلا يُجيبُهُ أَحَدٌ ، حَتّىٰ وَقَعَ بِٱلشَّيْخِ ، فَسَأَلَهُ ، فقَالَ لَهُ : إِنَّ ٱلمَلِكَ ٱسْتَكْتَمَني ٱلأَمْرَ حَتّىٰ أَراهُ ؛ فَبَذَلَ لَهُ عَشْرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ ، فقَالَ : إِنَّهُ قالَ لِي : لِمَ لا تَزَوَّجْتَ أَيَّامَ ٱلشَّبابِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : قَدْ تَزَوَّجْتُ ، ولكِنْ لَمْ يَأْتِني أَوْلادٌ ! فَجاءَ ٱلْوَزيرُ ، فَأَخْبَرَ ٱلْمَلِكَ ، فقَالَ لَهُ : عَلَيَّ بِٱلشَّيْخِ ؛ فَدَعاهُ ، فَلَمَّا حَضَرَ ، قالَ لَهُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ ٱكْتُمْ أَمْرَنا حَتّىٰ تَراني ؟ قالَ : قَدْ رَأَيْتُكَ عَشْرَةَ آلافِ مَرَّةٍ ؛ فَعَلِمَ أَنَّ ٱلْوَزيرَ دَفَعَ إِلَيْهِ عَشْرَةَ آلافِ دِرْهَمٍ ، وَأَنَّهُ رَأَىٰ ٱسْمَهُ مَكتوباً عَلىٰ كُلِّ دِرْهَمٍ مِنْها وَصُورَتَه ، فقَالَ : زه ؛ وَدَفَعَ إِلَيْهِ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ أُخْرىٰ .

* * *

**ٱلأَبْكارُ وَٱلثَّيِّباتُ :**

١٣٥٧ ـ في ٱلْحَديثِ : « عَلَيْكُمْ بِٱلأَبْكارِ ، فَإِنَّهُنَّ أَطْيَبُ أَفْواهاً ، وَأَنْتَقُ أَرْحاماً ، وَأَغَرُّ غُرَّةً ، وَأَرْضىٰ بِٱلْيَسيرِ » [ ابن ماجه ، رقم : ١٨٦١ ] .

وَأَنْتَقُ أَرْحاماً ، يُرِيدُ : أَكْثَرُ وَلَداً ، يُقالُ ٱمْرَأَةٌ مِنْتاقٌ إِذا كَثُرَ وَلَدُها ، وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ [ من الكامل] :

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْنَ ٱلغِذاءِ وَأُمُّهُمْ — طَفَحَتْ عَلَيْكَ بِناتِقٍ مِذْكارِ

يَعْني بِٱلنَّاتِقِ : ٱلرَّحِمَ ، وَذَكَّرَ عَلىٰ مَعْنىٰ ٱلْفَرْجِ أَوِ ٱلْعُضْوِ .

وَأَغَرُّ غُرَّةً ، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ غُرَّةِ ٱلْبَياضِ وَصَفاءِ ٱللَّوْنِ ، لأَنَّ طُولَ ٱلتَّعْنيسِ يُحيلُ ٱللَّوْنَ ؛ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ حُسْنِ ٱلْخُلُقِ وَٱلْعِشْرَةِ ؛ وَأَرْضىٰ بِٱلْيَسيرِ ، يَعْني : بِٱلْيَسيرِ مِنَ ٱلْجِماعِ .

* * *

١٣٥٨ ـ وَقَالَ عَليٌّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ لا تَنْسىٰ أَبا عُذْرَتِها .

ٱلْعُذْرَةُ : ٱلْبَكارَةُ ، قالَ ٱبْنُ ٱلأثيرِ : ٱلْعُذْرَةُ : ما لِلْبِكْرِ مِنَ ٱلالْتِحامِ قَبْلَ ٱلافْتِضاضِ ، وَيُقالُ : فُلانٌ أَبُو عُذْرِ فُلانَةٍ ، وَأَبُو عُذْرَتِها : إِذا كانَ ٱفْتَرَعَها وَٱفْتَضَّها .

* * *

١٣٥٩ ـ وَأَنْشَدَ ٱبْنُ ٱلأَعْرابِيِّ [من الطويل] :

أُحِبُّ ٱلْخَلاوِيَّ ٱلنَّزِيهَ مِنَ ٱلْهَوىٰ — وَأَكْرَهُ أَنْ أُسْقىٰ عَلىٰ عَطَشٍ فَضْلا

يَقولُ : أَكْرَهُ ٱلْمَرْأَةَ ٱلَّتي أَكْثَرَتْ ٱلأَزْواجَ وَإِنْ كُنْتُ مُضْطَرّاً إِلَيْها .

* * *

١٣٦٠ ـ وَقالَ بَعْضُهُمْ لِوَلَدِهِ : يا بُنَيَّ ! لا تَتَّخِذْها حَنَّانَةً ، وَلا أَنَّانَةً ، وَلا مَنَّانَةً ، وَلا حَدَّاقَةً ، وَلا ذاتَ ٱلدَّاياتِ ، وَلا عُشْبَةَ ٱلدَّارِ ، وَلا كُبَّةَ ٱلْقَفا . . . .

ٱلْحَنَّانَةُ : ٱلَّتي لَها وَلَدٌ مِنْ سِواهُ ، فَهِيَ تَحِنُّ عَلَيْهِمْ . وَٱلأَنَّانَةُ : ٱلَّتي ماتَ زَوْجُها ، فَهِي إِذا رَأَتِ ٱلزَّوْجَ ٱلثَّاني أَنَّتْ ، وَقالَتْ : رَحِمَ ٱللهُ فُلاناً ، لِزَوْجِها ٱلأَوَّلِ . وَٱلْمَنَّانَةُ : ٱلَّتي لَهَا مالٌ ، فَهِيَ تَمُنُّ عَلىٰ زَوْجِها كُلَّمَا أَهْوىٰ إِلىٰ شَيْءٍ مِنْ مالِها . وَٱلْحَدَّاقَةُ : ٱلَّتي تُحَدِّقُ إِلىٰ كُلِّ شَيْءٍ فَتَقُولُ : لَيْتَهُ لي ! وَذاتُ ٱلدَّاياتِ : ٱلَّتي عِنْدَها عَجُوزٌ ، وَتَقُولُ : هِيَ دايَتي . وَعُشْبَةُ ٱلدَّارِ : يُرِيدُ بِهَا : ٱلْهَجِينَةَ[1] عَلىٰ ٱلْمَثَلِ ؛ كَقَوْلِهِمْ : خَضْراءُ ٱلدِّمَنِ ـ وَهِي عُشْبَةُ ٱلدَّارِ ـ في ٱلأَصْلِ : ٱلَّتي تَنْبُتُ في دِمْنَةِ ٱلدَّارِ وَحَوْلَها عُشْبٌ في بَياضِ ٱلأَرْضِ وَٱلتُرابِ ٱلطَّيِّبِ . وَكُبَّةُ ٱلْقَفا[2] ، هي : ٱلَّتي يَأْتي زَوْجُها أَوِ ٱبْنُها ٱلْقَوْمَ ، فَإِذا ٱنْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، قالَ رَجُلٌ مِنْ جُبَناءِ ٱلْقَوْمِ : قَدْ وَٱللهِ كانَ بَيْني وَبَيْنَ ٱمْرَأَةِ هَذا ٱلْمَوْلىٰ أَوْ أُمِّهِ أَمْرٌ . . . .

* * *

١٣٦١ ـ هَذَا ، وَعَلَىٰ ذِكْرِ ٱلأَنَّانَةِ ، ذَكَرَ ٱلرُّوَاةُ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ لَقِيطِ بْنِ زُرَارَةَ قَذُورُ بْنْتُ قَيسِ بْنِ خَالِدٍ ٱلشَّيْبَانِيِّ سَيِّدِ بَنِي رَبِيعَةَ ، وَكَانَ يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهُ ، فَلَمَّا قُتِلَ عَنْهَا تَزَوَّجَهَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِهَا ، وَكَانَ يَسْمَعُهَا تُكْثِرُ ذِكْرَ لَقِيطٍ ، وَتُظْهِرُ ٱلْجَزَعَ عَلَيْهِ ، وَتَصِفُ مَحَاسِنَهُ ، فَقَالَ لَهَا يَوْمَاً : وَيْلَكِ ! وَٱللهِ مَا كَانَ إِلَّا كَبَعْضِ عَبِيدِي ، فَصِفِي لِي بَعْضَ مَا أَعْجَبَكِ مِنْ مَحَاسِنِهِ ؛ فَقَالَتْ : نَعَمْ ، كُلُّ أُمُورِهِ كانَتْ حَسَنَةً ، وَلَكِنِّي أُحَدِّثُكَ أَنَّهُ تَطَيَّبَ يَوْماً[3] ، وَقَدْ طَعَنَ ٱلْحَيُّ ، فِي يَوْمِ ذِي زَهَرٍ وَطَلٍّ ، وَكُنْتُ نَائِمَةً ، فَكَرِهَ أَنْ يُوقِظَنِي ، فَقَعَدَ يَنْتَظِرُ ٱنْتِبَاهِي ،

(١) ٱلْهَجِينُ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ : ٱلَّذِي أَبُوهُ شَرِيفٌ وَأُمُّهُ وَضِيعَةٌ ؛ وَقِيلَ : ٱلْعَرَبِيُّ ٱبْنُ ٱلأَمَةِ ، مِنَ ٱلْهُجْنَةِ ، وَهِيَ : ٱلْعَيْبُ ، وَسَيَأْتِي كَلامٌ وافٍ في ذَلِكَ .

(٢) جاءَتْ في « لِسانِ ٱلْعَرَبِ » ـ مادَّةَ عشب ـ : كُبَّةُ ٱلْقَفا .

(٣) ٱنْظر « الكامل » ج٥ ص٩٣ .

وَمَعَهُ فَضْلَةٌ مِنْ شَرَابٍ ، فَجَعَلَ يَشْرَبُ مِنْهَا حَتَّىٰ ٱسْتَيْقَظْتُ ، فَحَمَلَنِي وَرَكِبَ فَرَسَهُ ، فَعَرَضَتْ لَنَا عَانَةٌ ـ ٱلْقَطِيعُ مِنْ حُمُرِ ٱلْوَحْشِ ـ فَحَمَلَ عَلَيْهَا ، فَصَرَعَ مِنْهَا حِمَاراً ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيَّ وَمِنْهُ رِيحُ ٱلْمِسْكِ وَرِيحُ ٱلشَّرَابِ وَرِيحُ ٱلطَّلِّ وَرِيحُ ٱلزَّهَرِ ، فَتَدَلَّيْتُ إِلَيْهِ ، فَضَمَّنِي ضَمَّةً ، وَشَمَّنِي شَمَّةً ، فَلَيْتَنِي كُنْتُ مِتُّ ثَمَّةَ . فَتَطَيَّبَ عُمَرُ وَتَنَاوَلَ مِنَ ٱلشَّرَابِ ، وَخَرَجَ ، فَتَصَيَّدَ ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهَا ، فَضَمَّهَا إِلَىٰ نَفْسِهِ ، وَقَالَ : أَيْنَ أَنَا مِنْ لَقِيطٍ ؟! فَقَالَتْ : مَرْعَىً وَلا كَٱلسَّعْدَانِ ، وَمَاءٌ وَلَا كَصَدَّاءِ[1] ! فَطَلَّقَهَا ، فَرَجَعَتْ إِلَىٰ قَوْمِهَا ، وَقَالَتْ : ٱبْنُو عَلَيَّ قُبَّةَ ٱلأَيِّمِ ، فَوَاللهِ لا جَمَعَنِي ٱللهُ مَعَ رَجُلٍ بَعْدَ لَقِيطٍ أَبَداً .

* * *

١٣٦٢ ـ وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ مُغَايِظَةً لأَزْوَاجِهَا ، وَكَانَتْ كَثِيراً مَا تَصِفُ مُصْعَبَ بْنَ ٱلزُّبَيْرِ لِعُمَرَ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ مُعَمَّرٍ ، وَكَانَتْ عِنْدَ مِصْعَبٍ قَبْلَهُ ، وَتَذْكُرُ جَمَالَهُ وَكَرَمَهُ وَحُسْنَ خُلُقِهِ ، فَيَكَادُ يَمُوتُ غَمًّا ، دَخَلَ عُمَرُ يَوْماً عَلَىٰ عَائِشَةَ ، وَقَدْ نَالَهُ حَرٌّ شَدِيدٌ وَغُبَارٌ ، فَقَالَ لَهَا : ٱنْفُضِي ٱلْغُبَارَ عَنِّي ؛ فَأَخَذَتْ مِنْدِيلًا وَجَعَلَتْ تَنْفُضُ ٱلتُّرَابَ بِهِ عَنْهُ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَا رَأَيْتُ ٱلْغُبَارَ عَلَىٰ وَجِهِ أَحَدٍ أَحْسَنَ مِنْهُ عَلَىٰ وَجْهِ مُصْعَبٍ ، لَعَهْدِي بِهِ يَوْماً وَقَدْ دَخَلَ عَلَيَّ ، وَكَانَ قَدْ فَتَحَ فَتْحاً عَظِيماً ، وَهُوَ فِي ٱلْحَدِيدِ ـ آلَةِ ٱلْحَرْبِ ـ وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَحْشَةٌ فَخَرَجْتُ ، فَهَنَّأْتُهُ وَٱلْغُبَارُ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، فَقَالَ : إِنِّي لأُشْفِقُ عَلَيْكِ مِنْ رَائِحَةِ

---

(١) ٱلسَّعْدَانُ : نَبْتٌ كَثِيرُ ٱلحَسَكِ ، تَأْكُلُهُ ٱلإِبِلُ ، فَتَسْمَنُ عَلَيْهِ ، وَيَغْذُوهَا غِذَاءً لا يُوجَدُ فِي غَيْرِهِ ؛ وَمَرْعَى خَبَرُ مُبْتَدإٍ مَحْذُوفٍ ، تَقْدِيرُهُ : هَذَا مَرْعَى جَيِّدٌ ، وَلَيْسَ فِي ٱلْجُودِ مِثْلُ ٱلسَّعْدَانِ ؛ وَصَدَّاءُ : ٱسْمُ مَاءٍ بِعَيْنِهِ ؛ وَهَذِهِ ٱلأَمْثَالُ ثَلاثَةٌ ، مِنْهَا قَوْلُهُمْ : مَرْعَى وَلا كَالسَّعْدَانِ ، وَمَاءٌ وَلا كَصَدَّاء ، وَفَتَىً وَلَا كَمَالِكٍ ؛ تُضْرَبُ هَذِهِ ٱلأَمْثَالُ لِلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ فَضْلٌ وَغَيْرُهُ أَفْضَلُ مِنْهُ ؛ وَمَالِكٌ ٱلَّذِي ذَكَرُوا هُوَ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ ، أَخُو مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ .

ٱلْحَدِيدِ ! وَأَقْبَلَتْ تَصِفُهُ وَعُمَرُ يَتَّقِدُ غَيْظاً ، وَيَكَادُ يَمُوتُ غَيْرَةً وَحَيْرَةً .

* * *

١٣٦٣ ـ وَتَزَوَّجَ ٱلْحَجَّاجُ هِنْدَ بِنْتَ أَسْمَاءَ بْنِ خَارِجَةَ ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ زِيَادٍ ، حَمَلَهَا مَعَهُ إِلَىٰ ٱلْبَصْرَةِ ، وَبَنَىٰ هُنَالِكَ ٱلْقَصْرَ ٱلْمَنْسُوبَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا كَمُلَ بِنَاؤُهُ قَالَ لَهَا : هَلْ رَأَيْتِ قَطُّ مِثْلَهُ ؟ قَالَتْ : إِنَّهُ لَحَسَنٌ ؛ قَالَ لَهَا : لِتُصْدِقِنَّنِي ؟ قَالَتْ : أَمَّا إِذْ أَبَيْتَ ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ ٱلْقَصْرِ ٱلأَحْمَرِ وَفِيهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ زِيَادٍ ! وَٱلْقَصْرُ ٱلأَحْمَرُ هُوَ دَارُ ٱلإِمَارَةِ بِٱلْبَصْرَةِ ، وَكَانَ عَبْدُ ٱللهِ بنُ زِيَادٍ بَنَاهُ بِطِينٍ أَحْمَرَ ـ فَغَضِبَ ٱلْحَجَاجُ غَضَباً شَدِيداً ، وَطَلَّقَهَا بِسَبَبِ ذَلِكَ ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَىٰ ٱلْقَصْرِ ٱلأَحْمَرِ فَهَدَمَهُ وَبَنَاهُ بِنْيَاناً آخَرَ ، ثمّ هُدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُدْخِلَ فِي جَامِعِ ٱلْبَصْرَةِ .

* * *

١٣٦٤ ـ وَجَاءَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ إِلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : « تَزَوَّجْتَ يَا زَيْدُ ؟ » قَالَ : لا ! يَا رَسُولَ ٱللهِ ؛ قَالَ : « تَزَوَّجْ تَسْتَعِفَّ ، وَلا تَتَزَوَّجْ خَمْساً ، لا تَتَزَوَّجْ شَهْبَرَةً وَلا لَهْبَرَةً وَلا نَهْبَرَةً وَلا هَيْدَرَةً وَلا لَفُوتاً » ، قَالَ زَيْدُ : وَٱللهِ يَا رَسُولَ ٱللهِ مَا أَعرِفُ مِمَّا قُلْتَ شَيْئاً ؛ قَالَ : « أَمَّا ٱلشَّهْبَرَةُ : فَٱلزَّرْقَاءُ ٱلْبَذِيَّةُ ؛ وَأَمَّا ٱللَّهْبَرَةُ : فَٱلطَّوِيلَةُ ٱلْهَزِيْلَةُ ؛ وَأَمَّا ٱلنَّهْبَرَةُ : فَٱلْعَجُوزُ ٱلْمُدْبِرَةُ ؛ وَأَمَّا ٱلْهَيْدَرَةُ : فَٱلْقَصِيرَةُ ٱلْقَبِيحَةُ ؛ وَأَمَّا ٱللَّفُوتُ : فَذَاتُ ٱلْوَلَدِ مِنْ غَيْرِكَ » [« كنز العمال » ، رقم : ٤٤٥٩٥] .

* * *

١٣٦٥ ـ وَقَالُوا : إِنْ لَمْ تَتَزَوَّجْ بِكْراً فَتَزَوَّجْ مُطَلَّقَةً ، وَلَا تَتَزَوَّجْ مُمِيتَةً ـ ٱلَّتِي مَاتَ زَوْجُهَا ـ فَإِنَّ ٱلْمُطَلَّقَةَ تَقُولُ لَهَا : لَوْ كَانَ فِيكِ خَيْرٌ لَمَا طَلَّقَكِ

زَوْجُكِ؛ وَٱلْمُمِيتَةُ تَقُولُ لَكَ : رَحِمَ ٱللهُ فُلاناً ، إِنَّهُ كَانَ لِي خَيْراً مِنْكَ بِكَذَا . . .

* * *

١٣٦٦ ـ وَكَانَتْ فَضْلُ ٱلشَّاعِرَةُ لِرَجُلٍ مِنَ ٱلنَّخَاسِينَ ، فَٱشْتَرَاهَا مِنْهُ مُحَمَّدُ ٱبْنُ ٱلْفَرَجِ وَأَهْدَاهَا إِلَىٰ ٱلْمُتَوَكِّلِ ، وَكَانَتْ بَرْزَةً ، تَجْلِسُ لِلرِّجَالِ وَتَتَحَدَّثُ مَعَ ٱلشُّعَرَاءِ ، فَقَالَ لَهَا يَوْماً أَبُو دُلَفٍ ٱلْعِجْلِيُّ يُعَرِّضُ لَهَا بِأَنَّ ٱلْمُتَوَكِّلَ إِنَّمَا ٱشْتَرَاهَا وَهِيَ ثَيِّبٌ [من الكامل] :

قَالُوا : عَشِقْتَ صَغِيرَةً ، فَأَجَبْتُهُمْ ... أَشْهَىٰ ٱلْمَطِيِّ إِلَيَّ مَا لَمْ يُرْكَبِ
كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لُؤْلُؤٍ مَثْقُوبَةٍ ... نُظِمَتْ وَحَبَّةِ لُؤْلُؤٍ لَمْ تُثْقَبِ

فَأَجَابَتْهُ [من الكامل] :

إِنَّ ٱلْمَطِيَّةَ لا يَلَذُّ رُكُوبُهَا ... مَا لَمْ تُذَلَّلْ بِٱلزِّمَامِ وَتُرْكَبِ
وَٱلدُّرُّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابَهُ ... حَتَّىٰ يُجَمَّعَ لِلنِّظَامِ بِمِثْقَبِ

* * *

١٣٦٧ ـ وَلِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ قَيْسِ ٱلرُّقَيَّاتِ [من الخفيف] :

حَبَّذَا ٱلْحَجُّ وَٱلثُّرَيَّا وَمَنْ بِٱلْخَيْـ ... ـفِ مِنْ أَهْلِهَا وَمَلْقَىٰ ٱلرِّحَالِ
دُرَّةٌ مِنْ عَقَائِلِ ٱلْبَحْرِ بِكْرٌ ... لَمْ تَنَلْهَا مَثَاقِبُ ٱللأْآلِ

ٱللأْآلُ : صَاحِبُ ٱللُّؤْلُؤِ .

* * *

١٣٦٨ ـ وَعُرِضَتْ عَلَىٰ ٱلْمُتَوَكِّلِ جَارِيَةٌ ، فَقَالَ لَهَا : أَبِكْرٌ أَنْتِ أَمْ إِيْشْ ؟ فَقَالَتْ : إِيْشْ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! فَضَحِكَ مِنْهَا وَٱشْتَرَاهَا .

* * *

١٣٦٩ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ [البخاري ، رقم : ٤٤٣ ؛ مسلم ، رقم : ٧١٥] أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ

قَالَ لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ : « أَنَكَحْتَ يَا جَابِرُ ؟ » قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ ٱللهِ ؛ قَالَ : « أَبِكْراً أَمْ ثَيِّباً ؟ » قَالَ : بَلْ ثَيِّباً ؛ قَالَ : « فَهَلَّا بِكْراً تُلَاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ ، وَتُضَاحِكُهَا وَتُضَاحِكُكَ ! » .

* * *

١٣٧٠ ـ وَقَالَ حَكِيمٌ لِمَنِ ٱسْتَشَارَهُ : أَمَّا ٱلْبِكْرُ فَلَكَ لا عليك ، وَأَمَّا ٱلثَّيِّبُ فلكَ وَعَلَيكَ ، وَأَمَّا ذَاتُ ٱلْوَلَدِ فَعَلَيْكَ لا لَكَ .

* * *

١٣٧١ ـ وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُرْوَىٰ في هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، أَنَّ رَجُلًا أَرَادَ ٱلنِّكَاحَ ، فَقَالَ : لأَسْتَشِيرَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَطْلُعُ ، ثُمَّ لأَعْمَلَنَّ بِرَأْيِهِ ؛ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ طَلَعَ عَلَيْهِ هَبَنَّقَةُ ٱلْقَيْسِيُّ ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَىٰ قَصَبَتِهِ ، وَكَانَ مِنْ عُقَلاءِ ٱلْمَجَانِينِ ؛ فَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَرَدْتُ ٱلنِّكَاحَ ، فَمَا تُشِيرُ عَلَيَّ ؟ قَالَ : ٱلْبِكْرُ لَكَ ، وَٱلثَّيِّبُ عَلَيْكَ ، وَذَاتُ ٱلْوَلَدِ لَا تَقْرَبْهَا ، وَٱحْذَرْ جَوَادِي أَنْ يَرْمَحَكَ .

* * *

١٣٧٢ ـ وَمِنْ كَلِمَةٍ لِعُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : ٱلْبِكْرُ كَٱلْبُرَّةِ[1] ، تُطْحَنُ ، ثُمَّ تُعْجَنُ ، ثُمَّ تُخْبَزُ ، ثُمَّ تُؤْكَلُ ؛ وَٱلثَّيِّبُ عُجالَةُ ٱلرَّاكِبِ ، تَمْرٌ وَسَوِيقٌ . يُشِيرُ عُمَرُ بِذَلِكَ إِلَىٰ سُهُولَةِ أَمْرِ ٱلثَّيِّبِ ، وَأَنَّ ٱلْبِكْرَ تَحْتَاجُ فِي تَزَوُّجِهَا وَٱلْبِنَاءِ بِهَا إِلَىٰ كُلَفٍ شَدِيدَةٍ ؛ وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ يَمُرُّ بِهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُسْتَعْجِلُ فَتَعْرِضُ عَلَيْهِ ٱلنُّزُولَ لِلقِرَىٰ ـ ٱلضِّيَافَةِ ـ فَيَمْتَنِعُ لِعَجَلَتِهِ ، فَتُخْرِجُ لَهُ مَا ٱسْتَيْسَرَ ، فَيَأْكُلُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ ، فَذَلِكَ هُوَ عُجَالَةُ ٱلرَّاكِبِ .

* * *

---

(١) كَٱلْبُرَّةِ ، فِي « عُيُونِ ٱلأَخْبَارِ » : كالذُّرةِ . وَٱلْبُرَّةُ وَاحِدَةُ ٱلْبُرِّ : ٱلْقَمْحُ .

١٣٧٣ ـ وَلِلْحَرِيرِيِّ في ٱلْمَقَامَةِ ٱلثَّالِثَةِ وَٱلأَرْبَعِينَ ، وَهِيَ ٱلْبِكْرِيَّةُ ، قِطْعَةٌ في تَفْضِيلِ ٱلْبِكْرِ عَلىٰ ٱلثَّيِّبِ يَقُولُ فِيها : أَمَّا ٱلْبِكْرُ ، فَٱلدُّرَّةُ ٱلْمَخْزُونَةُ(١) ، وَٱلْبَيْضَةُ ٱلْمَكْنُونَةُ(٢) ، وَٱلْبَاكُورَةُ ٱلْجَنِيَّةُ(٣) ، وَٱلسُّلافَةُ ٱلْمَذْخُورَةُ ٱلْهَنِيَّةُ(٤) ، وَٱلرَّوْضَةُ ٱلأُنُفُ(٥) ، وَٱلطَّوْقُ ٱلَّذي ثَمُنَ وَشَرُفَ(٦) ، لَمْ يُدَنِّسْها لامِسٌ(٧) ، وَلا ٱسْتَغْشاها لابِسٌ(٨) ، ولا مارَسَها عابِثٌ(٩) ، وَلا وَكَسَها طامِثٌ(١٠) ، وَلَها ٱلْوَجْهُ ٱلْحَيِيُّ ، وَٱلطَّرْفُ ٱلْخَفِيُّ ، وَٱللِّسانُ ٱلْعَيِيُّ(١١) ، وَٱلْقَلْبُ ٱلنَّقِيُّ ، ثُمَّ هِيَ

---

(١) ٱلدُّرَّةُ : ٱلْجَوْهَرَةُ ؛ وَٱلْمَخْزُونَةُ : ٱلَّتي تُجْعَلُ في ٱلْخِزانَةِ لِرِفْعَتِها ؛ يُريدُ : إِنَّ ٱلْبِكْرَ تُحْجَبُ وَتُصانُ .

(٢) أَرادَ بِٱلْبَيْضَةِ بَيْضَةَ ٱلنَّعامِ ، وَيُشَبَّهُ بِها ٱلنِّساءُ لِبَياضِها وَٱلصُّفْرَةِ ٱلَّتي تَضْرِبُ فيها ؛ قالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من البسيط] :

كَـأَنَّهـا فِضَّـةٌ قَـدْ مَسَّهـا ذَهَـبُ

وَٱلْمَكْنونَةُ : ٱلْمَصُونَةُ ؛ وَٱلنَّعامَةُ تَكُنُّ بَيْضَتَها بِريشِها وَلا تُبْدِيها لِلشَّمْسِ وَٱلرِّيحِ لِئَلّا تَتَغَيَّرَ ، وَفي ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَريمِ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [٣٧ سورة الصافات/ الآية : ٤٩] .

(٣) ٱلْباكُورَةُ : أَوَّلُ ما يُبْكِرُ مِنَ ٱلثِّمارِ .

(٤) ٱلسُّلافَةُ : ٱلْخَمْرُ ؛ وَٱلْمَذْخُورَةُ : ٱلْمَحْجُوبَةُ في آنِيَتِها .

(٥) ٱلأُنُفُ : ٱلَّتي لَمْ تُرْعَ بَعْدُ .

(٦) ٱلطَّوْقُ : ٱلثَّوْبُ ٱلرَّفيعُ ؛ وَٱلطَّوْقُ : ٱلْحُلْيُ يُجْعَلُ في ٱلْعُنُقِ ؛ وَثَمُنَ : كَثُرَ ثَمَنُهُ .

(٧) مِنْ قَوْلِهِمْ : فُلانَةٌ لا تَرُدُّ يَدَ لامِسٍ ، أَيْ : لا تَمْنَعُ مُقارَبَتَها مَنْ أَرادَها . وَلَعَلَّهُ يُريدُ : لَمْ يُلاعِبْها أَحَدٌ .

(٨) ٱسْتَغْشاها : جامَعَها ؛ وَٱللّابِسُ : ٱلَّذي لابَسَها وَٱخْتَلَطَ بِها .

(٩) مارَسَها : عالَجَها وعاناها ؛ وعابِثٌ : مُفْسِدٌ ؛ أَرادَ مَنْ يَعْبَثُ بِها عِنْدَ ٱلْجِماعِ كَما يَحْدُثُ لِلثَّيِّبِ .

(١٠) وَكَسَها : نَقَصَها وَوَضَعَ مِنْها ، وَٱلْوَكْسُ : ٱلْخَسارَةُ في ٱلْبَيْعِ ؛ وَٱلطَّامِثُ : ٱلنّاكِحُ ؛ وَٱلطَّامِثُ : ٱلْمُفْتَضُّ لِلْبِكْرِ ؛ قالَ تَعالىٰ : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [٥٥ سورة الرحمن/ الآية : ٧٤] أَيْ : لَمْ يَفْتَضَّهُنَّ أَوْ لَمْ يَمْسَسْهُنَّ .

(١١) ٱلْعَيِيُّ : ٱلَّذي لا يَعْرِفُ تَصَرُّفاتِ ٱلْكَلامِ .

ٱلدُّمْيَةُ ٱلْمُلاعِبَةُ(١) ، وَٱللُّعْبَةُ ٱلْمُداعِبَةُ(٢) ، وَٱلْغزَالَةُ ٱلْمُغازِلَةُ(٣) ، وَٱلْمِلْحَةُ ٱلْكَامِلَةُ(٤) ؛ وَٱلْوِشاحُ ٱلطَّاهِرُ ٱلْقَشيبُ(٥) ، وَٱلضَّجِيعُ ٱلَّذي يُشِبُّ وَلا يُشيبُ(٦) .

ثُمَّ قالَ في مَساوِي ٱلْبِكْرِ : وَهِيَ ٱلْمُهْرَةُ ٱلأَبِيَّةُ ٱلْعِنانِ(٧) ، وَٱلْمَطِيَّةُ ٱلأَبِيَّةُ ٱلإِذْعانِ(٨) ؛ وَٱلزَّنْدَةُ ٱلْمُتَعَسِّرَةُ ٱلاقْتِداحِ(٩) ، وَٱلْقَلْعَةُ ٱلْمُسْتَصْعَبَةُ ٱلافْتِتاحُ ؛ ثُمَّ إِنَّ مُؤْنَتَها كَثيرَةٌ ، وَمَعُونَتَها يَسيرَةٌ ، وَعِشْرَتَها صَلِفَةٌ(١٠) ، وَدَالَّتَها مُكَلَّفَةٌ(١١) ، وَيَدَها خَرْقاءُ(١٢) ، وَفِتْنَتَها صَمَّاءُ(١٣) ، وَعَرِيكَتَها

---

(١) ٱلدُّمْيَةُ : ٱلصُّورَةُ ؛ وَقَوْلُ ٱلشَّاعِرِ [من مجزوء البسيط] :

إِنَّ شِواءً وَنَشْوَةً | وَخَبَبَ ٱلْبازِلِ ٱلأَمُونِ
وَٱلْبِيضَ يَرْفُلْنَ كَٱلدُّمَىٰ | في ٱلرَّيْطِ وَٱلْمُذْهَبِ ٱلْمَصُونِ

يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ : ثِياباً فيها تَصاوِيرُ .

(٢) ٱللُّعْبَةُ : ما يُلْعَبُ بِهِ ، وفي ٱلْحَديثِ : « ٱلْمَرْأَةُ لُعْبَةُ ٱلرَّجُلِ ، فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَحْسِنَ لُعْبَتَهُ فَلْيَفْعَلْ » ، وَٱلْمُداعَبَةُ : ٱلْمُمازَحَةُ .

(٣) تَقُولُ : غازَلَتْني ٱلْمَرْأَةُ : إِذا تَماجَنَتْ عَلَيْكَ في كَلامِها ، وَأَشارَتْ إِلَيْكَ بِعَيْنِها ، وَغَمَزَتْكَ بِحاجِبِها ، حَتَّىٰ إِذا طَمِعْتَ فيها صَدَّتْ عَنْكَ .

(٤) ٱلْمِلْحَةُ : ٱلصُّورَةُ ٱلْمُسْتَمْلَحَةُ كَٱلدُّمىٰ وَكَالصُّوَرِ ٱلَّتي تَلْعَبُ بِها ٱلْبَناتُ ، وَهِيَ ٱللُّعَبُ ، وَجاءَ بِمِلْحَةٍ ، أَيْ : بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ مَليحَةٍ .

(٥) ٱلْوِشاحُ : ٱلْحِزامُ ؛ وَٱلْقَشِيبُ : ٱلْجَديدُ ؛ جَعَلَها كَٱلْوِشاحِ عِنْدَ عِناقِها وَجِماعِها .

(٦) يُشِبُّ : يَرُدُّكَ شاباً ؛ وَلا يُشيبُ : لا يَكْسوكَ ٱلشَّيْبَ .

(٧) ٱلأَبِيَّةُ ٱلْعِنانِ : ٱلْمُمْتَنِعَةُ ٱلْقِيادِ .

(٨) ٱلإِذْعانُ : ٱلْخُضُوعُ وَٱلذِّلَّةُ .

(٩) ٱلزَّنْدَةُ : ما تُزْنَدُ مِنْهُ ٱلنَّارُ ؛ وَٱلْمُتَعَسِّرَةُ ٱلاقْتِداحِ : ٱلَّتي يُعْسُرُ إِخراجُ ٱلنَّارِ مِنْها .

(١٠) صَلِفَةٌ : مُجاوِزَةٌ حَدَّ ٱلطَّوْقِ ؛ وَأَصْلُ ٱلصَّلَفِ ٱلإِعْراضُ عَنِ ٱلشَّيْءِ كَأَنَّهُ إِذا ٱسْتَقْبَلَكَ أَبْدَيْتَ لَهُ صَليفَكَ ، وَهُوَ : صَفْحَةُ عُنُقِكَ .

(١١) دالَّتُها : ٱنْبِساطُها ، يُرِيدُ : إِذا أَرادَتْ أَنْ تُدِلَّ عَلَيْكَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ .

(١٢) خَرْقاءُ : لا تُحْسِنُ ٱلْعَمَلَ .

(١٣) فِتْنَتُها : شَرُّها ؛ وَصَمَّاءُ : شَديدَةٌ كَأَنَّها لا تَسْمَعُ ٱلنَّهْيَ وَٱلْعَذْلَ .

خَشْناءُ[١]، وَلَيْلَتَها لَيْلاءُ[٢]، وَفي رِياضَتِها عَناءُ، وَعَلىٰ خِبْرَتِها غِشاءُ[٣]، وَطالَمَا أَخْزَتِ ٱلْمُنازِلَ، وَفرِكَتِ ٱلْمُغازِلَ[٤]، وَأَحْنَقَتِ ٱلْهازِلَ، وَأَضْرَعَتِ ٱلْفَنِيقَ ٱلْبازِلَ[٥]، ثُمَّ إِنَّها ٱلَّتي تَقُولُ : أَنا أَلْبَسُ وَأَجْلِسُ، فَأَطْلُبُ مَن يُطْلِقُ وَيَحْبِسُ[٦].

ثُمَّ قالَ في مَحاسِنِ ٱلثَّيِّبِ : أَمَّا ٱلثَّيِّبُ، فَٱلْمَطِيَّةُ ٱلْمُذَلَّلَةُ، وَٱللُّهْنَةُ ٱلمُعَجَّلَةُ[٧]، وَٱلْبُغْيَةُ ٱلْمُسَهَّلَةُ، وَٱلطَّبَّةُ ٱلْمُعَلِّلَةُ[٨]، وَٱلْقَرِينَةُ ٱلْمُتَحَبِّبَةُ، وَٱلْخَليلَةُ ٱلْمُتَقَرِّبَةُ[٩] ؛ وَٱلصَّناعُ[١٠] ٱلْمُدَبِّرَةُ، وَٱلْفَطِنَةُ ٱلْمُخْتَبِرَةُ ؛ ثُمَّ إِنَّها عُجالَةُ ٱلرَّاكِبِ[١١]، وَأُنْشوطَةُ ٱلْحَاطِبِ[١٢] ؛ وقَعْدَةُ ٱلْعَاجِزِ[١٣]، وَنُهْزَةُ

---

(١) عَريكَتُها : طَبيعَتُها ؛ وَفُلانٌ لَيِّنُ ٱلعَريكَةِ : إِذا كانَ لَيِّنَ ٱلْخُلُقِ، سَلِسَهُ ؛ وَشَديدُ ٱلْعَريكَةِ : إِذا كانَ شَديدَ ٱلنَّفسِ أَبِيّاً ؛ وَٱلْعَريكَةُ : ٱلنَّفس، يُقالُ : صَعْبُ ٱلْعَريكَةِ وَسَهْلُ ٱلْعَريكَةِ، أَيْ : ٱلنَّفْسُ.

(٢) لَيْلاءُ : شَديدَةُ ٱلسَّوادِ طَويلَةٌ.

(٣) ٱلخِبْرَةُ : ٱلتَّجرِبَةُ وَٱلعِلْم بِحَقيقَةِ ٱلْحَالِ ؛ وَٱلْغِشاءُ : ٱلْغِطاءُ، أَيْ : إِنَّ ٱلْبِكْرَ لا يُعْرَفُ حالُها كَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ حاجِزٌ، فَلا يُعْرَفُ إِلَّا بَعْدَ زَوالِهِ، وَذٰلِكَ بِطُولِ ٱلْمُعَاشَرَةِ.

(٤) فَرِكَتْ : أَبْغَضَتْ ؛ وَٱلْمُغازِلُ : ٱلْمُحادِثُ لَها ٱلْمُمازِحُ.

(٥) ٱلْفَنيقُ ٱلْبازِلُ، يُريدُ : ٱلرَّجُلُ ٱلْمُجَرِّبُ، وَأَصْلُ ٱلْفَنِيقِ : ٱلْفَحْلُ مِنَ ٱلإِبِلِ ؛ وَٱلبازِلُ : ٱلَّذي طَعَنَ في ٱلسَّنَةِ ٱلتَّاسِعَةِ.

(٦) أَيْ : أَطْلُبُ مَنْ لَهُ حَبْسٌ وَإِطْلاقٌ وَنَفاذٌ وَتَصَرُّفٌ.

(٧) ٱللُّهْنَةُ : ما يُعْمَلُ لِلضَّيْفِ قَبْلَ ٱلْقِرىٰ.

(٨) وَٱلطَّبَّةُ : ٱلْخَبيرَةُ ؛ وَٱلْمُعَلِّلَةُ : ٱلَّتي تُعْطيكَ ما تُريدُ مِنْها مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

(٩) ٱلْخَليلَةُ : ٱلزَّوْجَةُ.

(١٠) ٱلصَّناعُ : ٱلْحاذِقَةُ بِالصَّنْعَةِ.

(١١) عُجالَةُ ٱلرَّاكِبِ : ما يُعَجَّلُ لِلرَّاكِبِ في ٱلطَّعامِ وَٱلشَّرابِ، مِثْلُ : ٱلتَّمْرُ وَٱلسَّوِيقُ وَمَا لا تَعَبَ في مُعالَجَتِه.

(١٢) ٱلأُنْشُوطَةُ : عِقْدَةٌ تُحَلُّ بِسُهُولَةٍ.

(١٣) قَعْدَةُ ٱلْعَاجِزِ، أَيْ : مَطِيَّتُهُ، لأَنَّ ٱلْعَاجِزَ لا يَقْدِرُ عَلىٰ تَزَوُّجِ ٱلْبِكْرِ.

ٱلْمُبارِزِ[١] ؛ عَرِيكَتُها لَيِّنَةٌ[٢] ، وَعُقْلَتُها هَيِّنَةٌ[٣] ؛ وَدِخْلَتُها مُتبَيِّنَةٌ[٤] ، وَخِدْمَتُها مُزَيَّنَةٌ .

ثُمَّ قالَ في مَساوِيها : هِيَ فُضالَةُ ٱلْمَأْكَلِ[٥] ، وَثُمالَةُ ٱلْمَنْهَلِ[٦] ، وَٱللِّباسُ ٱلْمُسْتَبْذَلُ ، وَٱلْوِعاءُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ ؛ وَٱلذَّوّاقَةُ ٱلْمُتَطَرِّفَةُ[٧] ، وَٱلْخَرّاجَةُ ٱلْمُتَصَرِّفَةُ[٨] ؛ وَٱلْوَقاحُ ٱلْمُتَسَلِّطَةُ[٩] ؛ وَٱلْمُحْتَكِرَةُ ٱلْمُتَسَخِّطَةُ[١٠] ؛ ثُمَّ كَلِمَتُها : كُنْتُ وَصِرْتُ[١١] ، وَطالَما بُغِيَ عَلَيَّ فَنُصِرْتُ[١٢] ؛ وَشَتّانَ بَيْنَ ٱلْيَوْمِ وَٱلأَمْسِ ، وَأَيْنَ ٱلْقَمَرُ مِنَ

---

(١) ٱلنُّهْزَةُ : ٱلْغَنِيمَةُ ٱلسَّهْلَةُ ، وَٱلْفُرْصَةُ .

(٢) عريكَتُها لَيِّنَةٌ ، يُريدُ : إِنَّ طَبيعَتَها سَهْلَةٌ لَيِّنَةٌ ، وَأَصْلُ ٱلْعَريكَةِ : سَنَامُ ٱلْبَعيرِ ، وَكانوا يَعْمَدُونَ إِلىٰ ٱلْبَعيرِ إِذا كانَ فِيهِ شَماسٌ وَٱمْتِناعٌ فَيَقْطَعُونَ مِنْ حَوِيَّتِهِ ، وَهِيَ مُرْتَفِعَةٌ يَصْعُبُ ٱلرُّكُوبُ عَلَيْها ، فَإِذا قُطِعَ مِنْها سَكَنَ ٱلْبَعيرُ وَلانَ وَيُوَطَّأَ مَوْضِعُ ٱلرُّكُوبِ مِنْهُ ، فَيُقالُ : قَدْ لانَتْ عَريكَتُهُ .

(٣) عُقْلَتُها : حَبْسَتُها ؛ يُريدُ : إِنَّ ما يَعْقِلُها بِهِ زَوْجُها شَيْءٌ هَيِّنٌ .

(٤) دِخْلَتُها : باطِنُ أَمْرِها ؛ وَمُتَبَيِّنَةٌ : ظاهِرَةٌ ؛ يُريدُ : إِنَّ شَرَّها ظاهِرٌ .

(٥) فُضالَةُ : بَقِيَّةُ .

(٦) ثُمالَةُ ٱلْمَنْهَلِ : بَقِيَّةُ ٱلماءِ .

(٧) ٱلذَّوّاقَةُ : ٱلَّتي تَذُوقُ طَرَفَ ٱلشَّيْءِ . وتتركه ، أَوْ تَذوقُ بِطَرَفِ لِسانِها ثُمَّ تَبْصُقُهُ ؛ وَٱلْمُتَطَرِّفَةُ ، مِنْ تَطَرَّفَتِ ٱلنّاقَةُ : رَعَتْ بِأَطْرافِ ٱلْمَرْعىٰ ، يُريدُ : إِنَّها لا تُبْقي عَلىٰ زَوْجٍ واحِدٍ ، إِنَّما هِيَ تَذوقُ كُلَّ زَوْجٍ وَتُجَرِّبُ لَذَّةَ مُباشَرَتِهِمْ .

(٨) ٱلْخَرّاجَةُ : ٱلْكَثيرَةُ ٱلْخُرُوجِ ، وَٱلْمُتَصَرِّفَةُ : ٱلْجَوّالَةُ .

(٩) ٱلْوَقاحُ : ٱلْقَليلَةُ ٱلحَياءِ ؛ وَٱلْمُتَسَلِّطَةُ مِنَ ٱلسَّلاطَةِ ، وَٱمْرَأَةٌ سَليطَةٌ : صَخّابَةٌ .

(١٠) ٱلْمُحْتَكِرَةُ : ٱلَّتي تَسْرِقُ مالَ زَوْجِها ثُمَّ تَحْتَكِرُهُ ، أَيْ : تَدَّخِرُهُ ، فَإِذا ٱحْتاجَ زَوْجُها لِشِرائِهِ أَخَذَتْ مِنْهُ ثَمَنَ ما عِنْدَها مُحْتَكَراً .

(١١) تُخاطِبُ بِذٰلِكَ زَوْجَها ، أَيْ : كُنْتُ في نِعْمَةٍ مَعَ ٱلزَّوْجِ ٱلأَوَّلِ وَأَنا مَعَكَ في شَقاءٍ .

(١٢) بُغِيَ عَلَيَّ ، أَيْ : ظُلِمْتُ .

ٱلشَّمْسِ[١] ؛ وَإِنْ كانَتِ ٱلْحَنَّانَةُ ٱلْبَرُوكَ[٢] ، وَٱلطَّمَّاحَةَ ٱلْهَلُوكَ[٣] ؛ فَهِيَ ٱلْغُلُّ ٱلْقَمِلُ[٤] ، وَٱلْجُرْحُ ٱلَّذي لا يَنْدَمِلُ[٥] .

* * *

١٣٧٤ ـ وَمِنْ طُرَفِهِمْ في هَذا ٱلْبابِ ما أَوْرَدَهُ ٱبْنُ قَيِّمِ ٱلْجَوْزِيَّةِ [ بَلْ هُوَ ٱبْنُ الجَوْزِيِّ ] في كِتابِ « ٱلْمُغَفَّلينَ » ، وَذَلِكَ أَنَّ رَجُلاً ٱشْتَرىٰ جارِيَةً عَلىٰ أَنَّها بِكْرٌ ، وَحَمَلَها إِلىٰ مَنْزِلِهِ ، فَذَكَرَ لَهُ نِساؤُهُ أَنَّها ثَيِّبٌ ، فَٱخْتَصَمَ فِيها مَعَ ٱلْبائِعِ ؛ فَأَمَرَ ٱلْقاضِي أَنْ تُوضَعَ عِنْدَ أَمِينٍ ، إِلىٰ أَنْ يَكْشِفَ ٱلْقَوابِلُ أَمْرَها ، فَأُودِعَتْ عِنْدَ إِمامِ ٱلْمَسْجِدِ ، فَلَمّا أَصْبَحَ ٱلإِمامُ وَصَلَ إِلىٰ ٱلْقاضِي وَهُوَ يَتَأَوَّهُ وَيَقُولُ : ذَهَبَتِ ٱلأَمانَةُ مِنَ ٱلنِّساءِ ؛ فَسَأَلَهُ ٱلْقاضِي عَنْ قَضِيَّتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ مُشْتَرِي ٱلْجارِيَةِ قَدِ ٱطْمَأَنَّ إِلىٰ بائِعِها وَأَخَذَها مِنْهُ عَلىٰ أَنَّها بِكْرٌ ، فَخَدَعَهُ فيها وَخانَهُ ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُها ٱلْبارِحَةَ فَوَجَدْتُها ثَيِّباً واسِعَةً . . . فَمَنْ ذا ٱلَّذي يُوثَقُ بِهِ ؟ وَمَنْ ذا ٱلَّذي يُرْكَنُ إِلَيْه ! .

* * *

---

(١) وَشَتّانَ : بَعُدَ ؛ وَٱلْيَوْمُ وَٱلأَمْسُ : ٱلزَّوْجُ ٱلْحاضِرُ مَعَها وَٱلزَّوْجُ ٱلْمَفْقُودُ ، وَهُوَ ٱلَّذي أَرادَ بِٱلْقَمَرِ وَٱلشَّمْسِ .

(٢) ٱلْحَنَّانَةُ : ذاتُ ٱلْوَلَدِ مِنْ زَوْجِها ٱلأَوَّلِ ، فَمَتىٰ رَأَتْ وَلَدَها حَنَّتْ لِوالِدِهِ ؛ وَٱلبَرُوكُ : ٱلَّتي تَتَزَوَّجُ وَلَها وَلَدٌ كَبيرٌ بالِغٌ .

(٣) ٱلطَّمَّاحَةُ : ٱلَّتي فارَقَها زَوْجُها فَتَطْمَحُ لَهُ أَبَداً ، وَتَتَهالَكُ في مَحَبَّتِهِ ، أَوِ ٱلَّتي تَطْمَحُ إِلىٰ كُلِّ شَهْوَةٍ ؛ وَٱلْهَلوكُ : ٱلْفاجِرَةُ .

(٤) ٱلْغُلُّ : ٱلْقَيْدُ ٱلَّذي يُقَيَّدُ بِهِ ٱلأَسيرُ ، أَيْ : يُوضَعُ في عُنُقِهِ وَيَدَيْهِ ؛ وَٱلْقَمِلُ : ٱلَّذي كَثُرَ فيهِ ٱلْقَمْلُ .

(٥) لا يَنْدَمِلُ : لا يَبْرَأُ .

١٣٧٥ ـ وَمِنْ هَذِهِ ٱلطُّرَفِ ما رَواهُ ٱلْجاحِظُ في « البيان » ، قالَ : تَزَوَّجَ مُعَاوِيَةُ بنُ مَرْوانَ بْنِ ٱلْحَكَمِ بَعْضَ بَناتِ ٱلأَشْرافِ ، وَكانَتْ بِكْراً ، فَٱفْتَضَّها ، فَلَمّا أَصْبَحَ ، قالَ لأَبيها عَلىٰ رُؤوسِ ٱلأَشْهادِ : ما أَرَتْنا ٱبْنَتُكَ ٱلبارِحَةَ دَماً ! فَٱسْتَحْيا ، وَقالَ : إِنَّها مِنْ نساءٍ يَخْبَأْنَ ذَلِكَ لأَزْواجِهِنَّ . . . وَمُعاوِيَةُ هَذا هُوَ شَقيقُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، أُمُّهُما عائِشَةُ بِنْتُ مُعاوِيَةَ بْنِ ٱلْمُغيرَةِ ، وَكانَ يُحَمَّقُ ، وَهُوَ ٱلَّذي رَأَىٰ جَرساً عَلىٰ بَعْضِ دَوابِّ ٱلطَّحْنِ ، فَسَأَلَ رَبَّ ٱلدَّابَّةِ عَنْ ذَلِكَ ! فَقَالَ : رُبَّما أَدْرَكَتْني نَعْسَةٌ ، فَإِذا لَمْ أَسْمَعْ صَوْتَ ٱلْجَرَسِ عَلِمْتُ أَنَّها قَدْ وَقَفَتْ ، فَصِحْتُ بِها ؛ قالَ : فَإِنْ وَقفَتْ وَحَرَّكَتْ رَأْسَها هَكَذا ـ وَجَعَلَ مُعاوِيَةُ يُحَرِّكُ رَأْسَهُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً . . . ! فَقَالَ : وَمَنْ لِدابَّتي بِمِثْلِ عَقْلِ ٱلأَميرِ . . . ! .

* * *

١٣٧٦ ـ وَمِمّا يَتَّصِلُ بِهَذا ٱلْبابِ ذَلِكَ ٱلتَّشْبيهُ ٱلْبَديعُ لِعَبْدِ ٱللهِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ [من الوافر] :

تَظَلُّ ٱلشَّمْسُ تَرْمُقُنا بِطَرْفٍ خَفِيٍّ لَحْظُهُ مِنْ تَحْتِ سِتْرِ
تُحاوِلُ فَتْقَ غَيْمٍ وَهُوَ يَأْبىٰ كَعِنِّينٍ يُحاوِلُ فَتْقَ بِكْرِ

* * *

١٣٧٧ ـ وَمِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِهَذا ٱلْبابِ قَوْلُ بَشّارٍ أَوْ إِبْراهيمَ بْنِ هَرْمَةَ [من المتقارب] :

أَبُو ثابِتٍ يَتَشَهّىٰ ٱلْمَديحَ وَيَرْغَبُ عَنْ صِلَةِ ٱلْمادِحِ
كَبِكْرٍ تُحِبُّ لَذيذَ ٱلنِّكاحِ وَتَرْهَبُ مِنْ صَوْلَةِ ٱلنّاكِحِ

* * *

١٣٧٨ ـ وَقَدْ كَرَّرَ ابنُ هَرْمَةَ هَذا ٱلْمَعْنىٰ ، فقالَ يَهْجُو ٱلْعَبَّاسَ بْنَ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ، وَكانَ لا يُحِبُّ أَنْ يُعْطِي أَحَداً شَيْئاً ، وكانَ يُنْكِرُ عَلىٰ ٱلشُّعَراءِ عَدَمَ مَدْحِهِمْ إِيَّاهُ[١] [من البسيط] :

فَأَنْتُ وَٱلْمَدْحُ كَٱلْعَذْراءِ يُعْجِبُها ... مَسُّ ٱلرِّجالِ وَيَثْنِي قَلْبَها ٱلْفَرَقُ

* * *

١٣٧٩ ـ وَمِنْ هَذا ٱلْبابِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ رَبِّهِ صاحِبِ « ٱلْعِقْدِ » [من الوافر] :

نَهارٌ لاحَ في سِرْبالِ لَيْلٍ ... فَما عُرِفَ ٱلرَّوَاحُ مِنَ ٱلْبُكُورِ
وَعَيْنُ ٱلشَّمْسِ تَرْنُو مِنْ بَعيدٍ ... رُنُوَّ ٱلْبِكْرِ مِنْ خَلْفِ ٱلسُّتُورِ

* * *

١٣٨٠ ـ وَرَأَىٰ ٱلْقاسِمُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمانَ بْنِ وَهْبٍ جارِيَةً ، فَعَشِقَها ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْعىٰ في تَمَلُّكِها إِلىٰ أَنِ ٱشْتَراها ، فَلَمَّا هُيِّئَتْ لَهُ وَعَزَمَ عَلىٰ ٱفْتِضاضِها ـ وَكانَتْ بِكْراً ـ أَدْرَكَها ٱلْحَيْضُ ، فَأَعْلَمَتْهُ بِذَلِكَ ، فَكَفَّ عَنْها ، وَأَعْلَمَ بِذَلِكَ أَبا إِسْحاقَ ٱلزَّجَّاجَ ٱلنَّحْوِيَّ ، وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْظُمَ في ذَلِكَ شِعْراً ، فَقالَ [من المديد] :

فَارِسٌ ماضٍ بِحَرْبَتِهِ ... دَرِبٌ بِٱلطَّعْنِ في ٱلظُّلَمِ
رامَ أَنْ يُدْمِي فَريسَتَهُ ... فَٱتَّقَتْهُ مِنْ دَمٍ بِدَمِ

* * *

وَمِنْ كِناياتِهِمْ :

١٣٨١ ـ تَقُولُ ٱلْعَرَبُ : باتَتْ فُلانَةُ بِلَيْلَةِ حُرَّةٍ ؛ يَعْنون أَنَّها لَمْ تُمَكِّنْ

---

(١) ٱنْظُرِ « ٱلأَغاني » ج٦/ ص١٠٢ .

زَوْجَها مِنِ ٱفْتِضاضِها في ٱللَّيْلَةِ ٱلَّتي زُفَّتْ فيها ، أَوْ لَمْ يَقْدِرْ بَعْلُها عَلىٰ ٱفْتِضاضِها ؛ قالَ ٱلنَّابِغَةُ يَصِفُ نِساءً :

شُمُسٌ مَوانِعُ كُلِّ لَيْلَةِ حُرَّةٍ يُخْلِفْنَ ظَنَّ ٱلْفاحِشِ ٱلْمِغْيارِ[1]

قالوا : فَإِنْ ٱفْتَضَّها زَوْجُها في ٱللَّيْلَةِ ٱلَّتي زُفَّتْ إِلَيْهِ فَهِيَ بِلَيْلَةٍ شَيْباءَ ؛ قالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ في « أَساسِ ٱلْبَلاغَةِ » : وَباتَتْ بِلَيْلَةٍ شَيْباءَ : إِذا غَلَبَها عَلىٰ نَفْسِها ٱلزَّوْجُ لَيْلَةَ هِدائِها ـ زِفافِها ـ كَأَنَّها دُهِيَتْ بِأَمْرٍ شَديدٍ تَشيبُ مِنْه ٱلذَّوائِبُ ، وَجاءَ في « ٱللِّسان » ما يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ ياءَ شَيْباءَ بَدَلٌ مِنْ وَاوٍ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لأَنَّ ماءَ ٱلرَّجُلِ شابَ ماءَ ٱلْمَرْأَةِ .

* * *

١٣٨٢ ـ وَعُرِضَ عَلىٰ رَجُل جارِيَتانِ ، إِحْداهُما بِكْرٌ وَٱلأُخْرىٰ ثَيِّبٌ ، فَمالَ إِلىٰ ٱلْبِكْرِ وَرَغِبَ عَنِ ٱلثَّيِّبِ ، فَقالَتِ ٱلثَّيِّبُ : لِمَ رَغِبْتَ عَنِّي بِها دُوني وَما بَيْني وَبَيْنَها إِلَّا يَوْمٌ وَاحِدٌ ؟ فَقالَتِ ٱلْبِكْرُ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٢٢ سورة الحج/الآية : ٤٧] .

* * *

١٣٨٣ ـ وَمِنْ طَريفِ كِناياتِهِمْ عَنِ ٱفْتِضاضِ ٱلْعُذْرَةِ ما يُرْوىٰ في أَخْبارِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ أَنَّ يَزيدَ بْنَ مَنْصورٍ ٱلْحِمْيَرِيَّ دَخَلَ عَلىٰ ٱلْمَهْدِيِّ ـ ٱلْخَليفَةِ ٱلْعَبَّاسِيِّ وَالِدِ مُوسىٰ ٱلْهَادِي وَهَارُونَ ٱلرَّشيدِ ـ وَبَشّارٌ بَيْنَ يَدَيْهِ يُنْشِدُهُ قَصيدَةً ٱمْتَدَحَهُ بِها ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْها أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَزيدُ ـ وَكانَتْ فيهِ غَفْلَةٌ ـ فَقالَ لَهُ : يا شَيْخُ !

---

(١) ٱلْفاحِشُ : ٱلْبَخيلُ ، أَو ذُو ٱلْفُحْشِ وَٱلْخنا ؛ وَٱلْمِغْيارُ : ٱلشَّديدُ ٱلْغَيْرَةِ ؛ وَمِنْ شَأْنِ ٱلْفاحِشِ ٱلْمِغْيارِ سُوءُ ٱلظَّنِّ بِٱلنِّساءِ ، فَهَؤُلاءِ ٱلنِّسْوَةُ يُخْلِفْنَ ظَنَّهُ ، لأَنَّهُنَّ عَفيفاتٌ ؛ وَشُمُسٌ ، جَمْعُ شَمُوسٍ ، وَٱلشَّمُوسُ مِنَ ٱلنِّساءِ : ٱلَّتي لا تُطالِعُ ٱلرِّجالَ وَلا تُطْمِعُهُمْ .

ما صِناعَتُكَ ؟ فقَالَ : أَثْقُبُ ٱللُّؤْلُؤَ ؛ فَضَحِكَ ٱلْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قالَ لِبَشَارَ : ٱعْزُبْ وَيْلَكَ ! أَتَتَنادَرُ عَلىٰ خالِي ! فَقالَ بَشّارُ : وَمَا أَصْنَعُ بِهِ ! يَرىٰ شَيْخاً أَعْمىٰ يُنْشِدُ ٱلْخَليفَةَ شِعْراً وَيَسْأَلُهُ عَنْ صِناعَتِهِ !.

* * *

١٣٨٤ ـ وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ لأَبِي ٱلْعَلاءِ ٱلأَسْدِيِّ وَقَدْ دَخَلَ بِأَهْلِهِ ، مِنْ أَبْيَاتٍ [من السريع] :

وَقَـدْ مَضَـىٰ يَـوْمَـانِ مِـنْ شَهْـرِنَـا ... فَقُـلْ لَنَـا : هَـلْ ثُقِـبَ ٱلـدُّرُّ ؟

* * *

١٣٨٥ ـ وَقَالَ أَيْضاً [من السريع] :

قَلْبِي عَلَىٰ ٱلْجَمْـرَةِ يَـا أَبَـا ٱلْعَـلا ... فَهَـلْ فَتَحْـتَ ٱلْمَـوْضِـعَ ٱلْمُقْفَـلا

وَهَـل فَكَكْـتَ ٱلْكِيـسَ عَـنْ خَتْمِـهِ ... وَهَـلْ كَحَّلْـتَ ٱلنَّـاظِـرَ ٱلأَحْـوَلا

* * *

**ٱلْمُهُورُ :**

١٣٨٦ ـ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٤] .

صَدُقَاتِهِنَّ : مُهُورُهُنَّ ؛ وَنِحْلَة ، مِن نَحَلَهُ كَذَا : إِذَا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَوَهَبَهُ لَهُ عَنْ طِيبَةِ نَفْسٍ ، وَنَصْبُهُ عَلَىٰ ٱلْمَصْدَرِ ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ : وَٱنحِلُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، أَيْ : أَعْطُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ عَنْ طِيبَةِ نَفْسٍ .

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : هِي نِحْلَةٌ مِنَ ٱللهِ لِلنِّسَاءِ ، أَنْ جَعَلَ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ ٱلصَّدَاقَ وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ شَيْئاً مِنَ ٱلْغُرْمِ ، وَٱلْمُخَاطَبُ بِهَذِهِ ٱلآيَةِ

ٱلأَوْلِيَاءُ ، وَكَانُوا فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لا يُعْطُونَ ٱلنِّسَاءَ مِنْ مُهُورِهِنَّ شَيْئاً ، وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَقُولُ في ٱلْجَاهِلِيَّةِ لِلرَّجُلِ إِذَا وُلِدَتْ لَهُ بِنْتٌ : هَنِيئاً لَكَ ٱلنَّافِجَةُ ، أَيْ : ٱلْمُعَظِّمَةُ لِمَالِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُزَوِّجُهَا فَيَأْخُذُ مَهْرَهَا مِنَ ٱلإِبِلِ فَيَضُمُّهَا إِلَىٰ إِبِلِهِ ، فَيَنْفُجُهَا ، أَيْ : يُكَثِّرُها ، وَيُقَالُ لِلإِبِلِ ٱلَّتِي يَرِثُهَا ٱلرَّجُلُ فَتَكْثُرُ بِهَا إِبِلُهُ : نَافِجَةٌ ؛ وَقِيلَ : ٱلْخِطَابُ لِلأَزْوَاجِ ، أَيْ : أَدُّوا ٱلْمُهُورَ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْكُمْ كَمَا تَطِيبُونَ نَفْساً بِسَائِرِ ٱلْمُعَاوَضَاتِ ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ ، فَإِنَّ ٱلْعُلَمَاءَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي أَنَّ ٱلْمَالِكَةَ لأَمْرِ نَفْسِهَا إِذَا وَهَبَتْ مَهْرَهَا لِزَوْجِهَا يُنَفَّذُ عَنْهَا وَلا رُجُوعَ لَهَا فِيهِ ، إِلَّا ما رُوِيَ عَنِ ٱلْقَاضِي شُرَيْحٍ أَنَّهُ رَأَىٰ أَنَّ لَهَا ٱلرُّجُوعَ في ذَلِكَ ، قَالَ : فَإِنَّهَا لَوْ طَابَتْ بِهِ نَفْساً لَمْ تُطَالِبْهُ بِهِ . ( ٱنْظُرْ كُتُبَ ٱلْفِقْه ) .

* * *

١٣٨٧ ـ وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾

[٤ سورة النساء/ الآيتان : ٢٠ و٢١] .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : هَذَا إِذَا لَمْ يَكُنْ بِمُرَادِهِنَّ وَٱخْتِيَارِهِنَّ ، وَأَمَّا إِذَا طِبْنَ بِهِ نَفْساً فَيَجُوزُ لَهُمْ أَخْذُهُ كَمَا تَقَدَّمَ ، هَذَا؛ وَقَدْ رَوَوْا أَنَّ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ قَامَ خَطِيباً عَلَىٰ ٱلْمِنْبَرِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ! لا تُغَالُوا بِصَدَاقِ ٱلنِّسَاءِ ، فَلَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي ٱلدُّنْيَا أَوْ تَقْوَىٰ عِنْدَ ٱللهِ لَكَانَ أَوْلاكُمْ بِهَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ، مَا أَصْدَقَ ٱمْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَكْثَرَ مِنَ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةٍ ـ ٤٨٠ دِرْهَماً[١] فَقَامَتْ إِلَيْهِ

---

(١) يعادل الدرهم ٢,٨ غرام ، فيكون ٤٨٠ × ٢,٨ = ١٣٤٤ غراماً فضّةً .

ٱمْرَأَةٌ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! لِمَ تَمْنَعُنَا حَقًّا جَعَلَهُ ٱللهُ لَنَا ؟ وَٱللهُ يَقُولُ : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٢٠] ؟ فَقَالَ عُمَرُ : كُلُّ أَحَدٍ أَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ ! ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : تَسْمَعُونَنِي أَقُولُ مِثْلَ هَذَا ٱلْقَوْلِ فَلا تُنْكِرُونَهُ عَلَيَّ حَتَّىٰ تَرُدَّ عَلَيَّ ٱمْرَأَةٌ لَيْسَتْ مِنْ أَعْلَمِ ٱلنِّسَاءِ !

قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ : وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ عُمَرُ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلتَّحْرِيمِ ، وَلَكِنْ عَلَىٰ وَجْهِ ٱلنَّدْبِ وَٱلتَّعْلِيمِ ، قَالَ : وَقَدْ تَنَاهَىٰ ٱلنَّاسُ فِي ٱلصَّدَقَاتِ حَتَّىٰ بَلَغَ صَدَاقُ أَحَدِهِمْ أَلْفَ أَلْفٍ ، وَهَذَا قَلَّ أَنْ يُوجَدَ مِنْ حَلالٍ . . .

وَقَالَ ٱلْقَاضِي عِيَاضُ : لا خِلافَ بَيْنَ ٱلْعُلَمَاءِ أَنَّهُ لا حَدَّ لِأَكْثَرِ ٱلصَّدَاقِ ؛ وَأَمَّا أَقَلُّهُ ، فَقَالَ مَالِكٌ : لا يَجُوزُ ٱلنِّكَاحُ بِأَقَلَّ مِنْ رُبْعِ دِينَارٍ ؛ وَهَذَا مِمَّا تَفَرَّدَ بِهِ مَالِكٌ ، وَكَافَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ عَلَىٰ جَوَازِهِ بِمَا تَرَاضَىٰ عَلَيْهِ ٱلزَّوْجَانِ أَوْ مَنْ لَهُ ٱلْعَقْدُ مِمَّا فِيهِ مَنْفَعَةٌ وَإِنْ كَانَتْ قِيمَتُهُ أَقَلَّ مِنْ دِرْهَمٍ ، وَهُوَ قَوْلُ ٱلشَّافِعِيِّ وَرَبِيعَةَ ٱلرَّأْيِ وَٱبْنِ أَبِي ٱلزِّنَادِ وَٱلأَوْزَاعِيِّ وَدَاوُدَ ٱلظَّاهِرِيِّ وَفُقَهَاءِ ٱلْحَدِيثِ ، مَعَ ٱسْتِحْبَابِ بَعْضِهِمْ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْرُ مِمَّا لَهُ بَالٌ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ : أَقَلُّهُ عَشَرَةُ دَرَاهِمَ ، وَقَالَ ٱبْنُ شُبْرُمَةَ : أَقَلُّهُ خَمْسَةُ دَرَاهِمَ ؛ وَكَرِهَ ٱلنَّخَعِيُّ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِأَقَلَّ مِنْ أَرْبَعِينَ دِرْهَماً . ( ٱنْظُرْ كُتُبَ ٱلْفِقْهِ ) .

* * *

١٣٨٨ ـ وَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَعْظَمُ ٱلنِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مُؤُونَةً »

[« الجامع الصغير » ، رقم : ١١٨٧] .

* * *

١٣٨٩ ـ وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « تَيَاسَرُوا فِي ٱلصَّدَاقِ ، فَإِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيُعْطِي ٱلْمَرْأَةَ حَتَّىٰ يُبْقِي ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ حَسِيكَةً » [« كنز العمال » ، رقم : ٤٤٧٣١] .

حَسِيكَةً ، أَيْ : عَدَاوَةً وَحِقْداً .

* * *

١٣٩٠ ـ وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ : أَوَّلُ شُؤْمِ ٱلْمَرْأَةِ كَثْرَةُ صَدَاقِهَا .

* * *

١٣٩١ ـ وَسَأَلَ بَعْضُ ٱلصَّحَابَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : كَمْ كَانَ صَدَاقُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ لأَزْوَاجِهِ ؟ قَالَتْ : كَانَ صَدَاقُهُ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوْقِيَّةٍ وَنَشًّا ، قَالَتْ : وَٱلنَّشُّ : نِصْفُ أُوقِيَّةٍ . [مسلم ، رقم : ١٤٢٦ ؛ النسائي ، رقم : ٣٣٤٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٠٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٨٨٦ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٤١٠٥ ؛ الدارمي ، رقم : ٢١٩٩] .

قَالَ ٱلإِمَامُ ٱلْجَوْهَرِيُّ : ٱلنَّشُّ : عِشْرُونَ دِرْهَماً ، وَهُوَ نِصْفُ أُوقِيَّةٍ ، لأَنَّهمْ يُسَمُّونَ ٱلأَرْبَعِينَ دِرْهَماً أُوقِيَّةً ، وَيُسَمُّونَ ٱلْعِشْرِينَ نَشًّا ، وَيُسَمُّونَ ٱلْخَمْسَةَ نَوَاةً .

أَقُولُ : وَلا يُعْتَرَضُ عَلَىٰ هَذَا ٱلْحَدِيثِ بِٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي يُرْوَىٰ عَنِ ٱلزُّهْرِيِّ ، أَنَّ ٱلنَّجَاشِيَّ زَوَّجَ أُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي سُفْيَانَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ وَأَمْهَرَهَا عَنْهُ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ فَقَبِلَهُ ؛ فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ فَعَلَهُ ٱلنَّجَاشِيُّ وَتَطَوَّعَ بِهِ مِنْ مَالِهِ وَلَمْ يَبْتَدِئْهُ ٱلنَّبِيُّ وَلا أَدَّاهُ مِنْ مَالِهِ .

* * *

١٣٩٢ ـ وَرُوِيَ أَنَّ عَبْدَ ٱلرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً عَلَىٰ وَزْنِ نَوَاةٍ ، فَرَأَىٰ ٱلنَّبِيُّ بَشَاشَةَ ٱلْعُرْسِ ، فَسَأَلَهُ ؟ فَقَالَ : تَزَوَّجْتُ عَلَىٰ وَزْنِ نَوَاةٍ . [البخاري ، رقم : ٥٠٧٢ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٢٧] .

ٱلنَّوَاةُ : خَمْسَةُ دَرَاهِمَ كَمَا تَقَدَّمَ .

* * *

١٣٩٣ ـ وَجاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! إِنِّي تَزَوَّجْتُ ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلأَنْصَارِ ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ : « هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟ » قَالَ : قَدْ نَظَرْتُ ؛ قَالَ : « عَلَىٰ كَمْ تَزَوَّجْتَهَا ؟ » قَالَ : عَلَىٰ أَرْبَعِ أَوَاقٍ ؛ فَقَالَ ٱلنَّبِيُّ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « عَلَىٰ أَرْبَعِ أَوَاقٍ ؟ لَكَأَنَّمَا تَنْحَتُونَ ٱلْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا ٱلْجَبَلِ ! مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ ، وَلَكِنْ عَسَىٰ أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ » ، فَبَعَثَ بَعْثاً إِلَىٰ بَنِي عَبْسٍ بُعِثَ ذَلِكَ ٱلرَّجُلُ فِيهِمْ . [مسلم ، رقم : ١٤٢٤ ؛ النسائي ، رقم : ٢٢٣٤ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٧٧٨٣ و٧٩١٩] .

* * *

١٣٩٤ ـ وَأَصْدَقَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ فَاطِمَةَ بِنْتَ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ دِرْعاً مِنْ حَدِيدٍ .

وَهَذِهِ ٱلدِّرْعُ هِيَ دِرْعُهُ ٱلْمَعْرُوفَةِ بِٱلْحُطَمِيَّةِ ، نِسْبَةً إِلَىٰ بَطْنٍ مِنْ عَبْد ٱلْقَيْسِ ، يُقَالُ لَهُمْ : حُطَمَةُ بْنُ مُحَارِبٍ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلدُّرُوعَ ، وَٱلْحُطَمِيَّةُ أَيْضاً هِيَ ٱلَّتِي تَحْطِمُ ٱلسُّيُوفَ ، أَيْ تَكْسِرُهَا ، وَقَدْ بَاعَ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ هَذِهِ ٱلدِّرْعَ بِأَرْبَعِ مِئَةٍ وَثَمَانِينَ دِرْهَماً وَزَوَّجَ عَلِيّاً عَلَيْهَا .

* * *

١٣٩٥ ـ وَقَالَ رَجُلٌ لِحَكِيمٍ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ ؟ فَقَالَ : كَمِ ٱلْمَهْرُ ؟ قَالَ : مِئَةُ دِينَارٍ ؛ قَالَ : لَا تَفْعَلْ ، تَزَوَّجْ بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ فَإِنْ وَافَقَتْكَ رَبِحْتَ تِسْعِينَ ، وَإِنْ لَمْ تُوَافِقْكَ تَزَوَّجْتَ بِعَشْرَةٍ أُخْرَىٰ ، وَلا بُدَّ فِي عَشْرِ نِسْوَةٍ مِنِ ٱمْرَأَةٍ تُوَافِقُكَ .

* * *

١٣٩٦ ـ وتَزَوَّجَ مُصْعَبُ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ سُكَيْنَةَ بِنتَ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَائِشَةَ بِنْتَ طَلْحَةِ ، فَأَمْهَرَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بِأَلْفِ أَلْفِ دِرهَمٍ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَنَسُ بْنُ زُنَيْمٍ ٱللَّيْثِيُّ [من الكامل] :

أَبْلِغْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً مِنْ نَاصِحٍ لَكَ لا يُرِيدُ خِدَاعَا
بُضْعُ ٱلْفَتَاةِ بِأَلْفِ أَلْفٍ كَامِلٍ وَتَبِيتُ حُرَّاسُ ٱلثُّغُورِ جِيَاعَا !

فَبَلَغَ ذَلِكَ أَخا مُصْعَبٍ عَبْدَ ٱللهِ بْنَ ٱلزُّبَيْرِ ، فَقَالَ : إِنَّ مُصْعَباً قَدَّمَ أَيْرَهُ وَأَخَّرَ خَيْرَهُ ! وَكَتَبَ إِلَيْهِ يُؤَنِّبُهُ عَلَىٰ مَا فَعَلَ ، وَيَأْمُرُهُ بِٱلشُّخُوصِ ، وَيُقْسِمُ عَلَيْهِ أَلَّا يَنْزِلَ بِمَكَّةَ وَلا بِٱلْمَدِينَةِ ، وَأَنْ يَكُونَ نُزولُهُ بِٱلْبَيْدَاءِ ، وَقَالَ : إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلَّذِي يُخْسَفُ بِهِ فِي ٱلْبَيْدَاءِ ؛ فَصَارَ إِلَيْهِ مُصْعَبٌ يَتَرَضَّاهُ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا مُصْعَبُ ! أَرَأَيْتَ مَنْ صَنَعَ مَا صَنَعْتَ ! أَتَعْمَدُ إِلَىٰ مَالِ ٱللهِ فَتَمْهَرُ مِنْهُ عَائِشَةَ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ! أَتُرَاكَ تَغْرِفُ مِنْ بَحْرٍ ! فَلَانَ لَهُ مُصْعَبٌ ، وَقَالَ : قَدْ كَانَ مَا كَانَ ؛ فَتَغَافَلَ عَنْهُ ، وَعَادَ مُصْعَبٌ إِلَىٰ عَمَلِهِ وَدَخَلَ بِعَائِشَةَ . . . وَكَانَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ بَخِيلًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِي آلِ ٱلزُّبَيْرِ جَوَادٌ غَيْرَ مُصْعَبٍ .

* * *

نَظَرُ ٱلرَّجُلِ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ٱلَّتِي يُرِيدُ تَزَوُّجَهَا :

١٣٩٧ ـ قَالَ ٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : خَطَبْتُ ٱمْرَأَةً عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَقَالَ لِي : « أَنَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟ » قُلْتُ : لا ؛ قَالَ : « فَٱنْظُرْ إِلَيْهَا ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا » [الترمذي ، رقم : ١٠٨٧ ؛ النسائي ، رقم : ٢٢٣٥ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٨٦٦ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ١٧٦٧١ و١٧٦٨٨ ؛ الدارمي ، رقم : ٢١٧٢] .

أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا ، أَيْ : تَكُونُ بَيْنَكُمَا ٱلْمَحَبَّةُ وَٱلاتِّفَاقُ ، يُقَالُ : أَدَمَ ٱللهُ

بَيْنَهُمَا يَأْدِمُ أَدْماً ، أَيْ : أَلَّفَ وَوَفَّقَ ، وَيُقَالُ : آدَمَ بَيْنَهُمَا يُؤْدِمُ إِيدَاماً أَيْضاً ، فَعَلَ وَأَفْعَلَ بِمَعْنًى .

* * *

١٣٩٨ ـ وَقَالَ ٱلْغَزَالِيُّ : كَانَ بَعْضُ ٱلْمُتَوَرِّعِينَ لا يُنْكِحُونَ كَرَائِمَهُمْ إِلَّا بَعْدَ ٱلنَّظَرِ ٱحْتِرَازاً مِنَ ٱلْغُرُورِ ـ يُرِيدُ ٱلْخِدَاعَ ـ وَقَالَ ٱلأَعْمَشُ : كُلُّ تَزْوِيجٍ يَقَعُ عَلَىٰ غَيْرِ نَظَرٍ فَآخِرُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وَهُوَ مَعْلُومٌ أَنَّ ٱلنَّظَرَ لا يُعَرِّفُ ٱلْخُلُقَ وَٱلدِّيْنَ وَٱلْمَالَ ، وَإِنَّمَا يُعَرِّفُ ٱلْجَمَالَ مِنَ ٱلْقُبْحِ ، فَيُسْتَحَبُّ إِزَالَةُ ٱلْغُرُورِ ـ ٱلْخِدَاعِ ـ فِي ٱلْجَمَالِ بِٱلنَّظَرِ ، وَفِي ٱلْخُلُقِ بِٱلْوَصْفِ وَٱلاسْتِيصَافِ ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْبَغِي أَنْ يُقَدِّمَ ذَلِكَ عَلَىٰ ٱلنِّكَاحِ ـ ٱلزَّوَاجِ ـ وَلا يَسْتَوْصِفَ إِلَّا بَصِيراً حَاذِقاً خَبِيراً بِٱلظَّاهِرِ وَٱلْبَاطِنِ مِنْ أَحْوَالِهَا ، ذَا دِينٍ ، لا يَمِيلُ إِلَيْهَا فَيُفْرِطُ فِي ٱلثَّنَاءِ ، وَلا يَحْسُدُهَا فَيُقَصِّرُ ، فَٱلطِّبَاعُ مَائِلَةٌ فِي مَبَادِي ٱلنِّكَاحِ وَوَصْفِ ٱلْمُنْكُوحَاتِ إِلَىٰ ٱلإِفْرَاطِ وَٱلتَّفْرِيطِ ، وَقَلَّ مَنْ يَصْدُقُ فِيهِ وَيَقْتَصِدُ ، وَٱلْخِدَاعُ أَغْلَبُ ، فَٱلاحْتِيَاطُ فِي ذَلِكَ فِي ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلأَهَمِيَّةِ .

* * *

١٣٩٩ ـ قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ : وَلَا يُحْتَاجُ فِي نَظَرِ ٱلرَّجُلِ إِلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ بَعْدَ عَزْمِهِ عَلَىٰ نِكَاحِهَا وَخِطْبَتِهِ لَهَا إِلَىٰ ٱسْتِئْذَانِهَا ، خِلافاً لِمَالِكٍ ، فَإِنَّهُ شَرَطَ ٱسْتِئْذَانَهَا وَكَرِهَ أَنْ يَسْتَغْفِلَهَا مِنْ كُوَّةٍ وَنَحْوِهَا ، وَذَلِكَ سَدّاً لِلذَّرِيعَةِ ، وَهَذَا مِنْ أُصُولِ مَالِكٍ ، كَأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَتَسَبَّبَ بِهِ أَهْلُ ٱلْفَسَادِ إِلَىٰ ٱلاطِّلاعِ عَلَىٰ مَوَاضِعِ ٱلْفِتَنِ ، فَإِذَا عُثِرَ عَلَىٰ أَحَدِهِمْ قَالَ : أَنَا خَاطِبٌ . . . وَٱقْتَصَرَ مَالِكٌ عَلَىٰ جَوَازِ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ ٱلْوَجْهِ وَٱلْكَفَّيْنِ خَاصَّةً ، وَزَادَ أَبُو حَنِيفَةَ ظُهُورَ ٱلْقَدَمَيْنِ عَلَىٰ أَصْلِهِ فِي أَنَّهَا لَيْسَ عَلَيْهَا سَتْرُهُمَا فِي ٱلصَّلاةِ ، وَأَبَاحَ غَيْرُهُمَا ٱلنَّظَرَ إِلَىٰ جَمِيعِ بَدَنِهَا مَا عَدَا

ٱلسَّوْءَتَيْنِ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ ٱلْخَطَّابِ خَطَبَ إِلَىٰ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ٱبْنَتَهُ أُمَّ كُلْثُومٍ ، فَذَكَرَ لَهُ صِغَرَهَا ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ رَدَّكَ ! فَعَاوَدَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : أَبْعَثُ بِهَا إِلَيْكَ ، فَإِنْ أَرْضَتْكَ فَهِيَ ٱمْرَأَتُكَ ؛ فَأَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ ، فَكَشَفَ عَنْ سَاقَيْهَا ، فَقَالَتْ : مَهْ ! لَوْلا أَنَّكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَلَطَمْتُ عَيْنَكَ ؛ وَكَانَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ هَذِهِ وُلِدَتْ قَبْلَ وَفَاةِ ٱلنَّبِيِّ ، وَأُمُّهَا فَاطِمَةُ بِنْتُ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ ، وَيَزِيدُ فِي هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ رُوَاةُ ٱلأَخْبَارِ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَيْهِ بِثَوْبٍ ، وَقَالَ لَهَا : قولي لَهُ : هَذَا هُوَ ٱلَّذِي أَخْبَرَكَ عَنْهُ ؛ فَقَالَ لَهَا عُمَرُ : قُولِي لَهُ : رَضِينَا بِهِ ؛ فَلَمَّا أَدْبَرَتْ كَشَفَ عَنْ سَاقَيْهَا ، فَقَالَتْ لَهُ مَا تَقَدَّمَ ، وَلَمَّا رَجَعَتْ إِلَىٰ أَبِيهَا قَالَتْ : بَعَثْتَنِي إِلَىٰ شَيْخِ سُوءٍ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا ! فَقَالَ : هُوَ زَوْجُكِ يَا بُنَيَّةُ .

* * *

١٤٠٠ ـ فَأَمَّا ٱلسَّوْءَتَانِ ، فَلا يُبَاحُ ٱلنَّظَرُ إِلَيْهِمَا إِلَّا مَا يُحْكَىٰ عَنْ دَاوُدَ ٱلظَّاهِرِيِّ مِنْ إِبَاحَةِ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ سَائِرِ جَسَدِ ٱلْمَخْطُوبَةِ حَتَّىٰ إِلَىٰ ٱلْفَرْجِ ، وَهَذِهِ ٱلرِّوَايَةُ إِنَّمَا حَكَاهَا عَنْهُ أَبُو حَامِدٍ ٱلأَسْفَرَايِينِيُّ ، وَلَمْ تُرْوَ عَنْ دَاودَ فِي كُتُبِ أَصْحَابِهِ ، وَٱلأَدِلَّةُ ٱلْمَانِعَةُ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَىٰ ٱلْعَوْرَةِ تَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ .

* * *

١٤٠١ ـ وَلا بَأْسَ أَنْ يَبْعَثَ ٱمْرَأَةً تَنْظُرُ لَهُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِ مَا رَأَتْهُ ، قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : إِنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ أَرْسَلَ أُمَّ سُلَيْمٍ تَنْظُرُ إِلَىٰ ٱمْرَأَةٍ ، وَقَالَ لَهَا : «شُمِّي عَوَارِضَهَا ـ أَسْنَانَهَا ـ وَٱنْظُرِي إِلَىٰ عُرْقُوبَيْهَا» . [«مسند أحمد»، رقم: ١٣٠١١] .

* * *

١٤٠٢ ـ وَخَطَبَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱمْرَأَةً ، فَبَعَثَ عَائِشَةَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا ، فَجَاءَتْ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! مَا رَأَيْتُ طَائِلًا ؛ فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « لَقَدْ

رَأَيْتِ بِخَدِّهَا خَالًا ٱقْشَعَرَّ لَهُ كُلُّ شَعْرَةٍ مِنْكِ » ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! مَا دُونَكَ سِرٌّ . [« كنز العمال » ، رقم: ٣٥٤٦٠] .

* * *

١٤٠٣ ـ وَيَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ ٱلْمَخْطُوبَةِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ تَتَجَمَّلَ لِمَنْ أَرَادَ رُؤْيَتَهَا مِنَ ٱلرِّجَالِ ، وَأَنْ تُشَوِّقَ بِزِينَتِهَا .

* * *

**ٱلرَّهْزُ :**

١٤٠٤ ـ ٱلرَّهْزُ وَٱلارْتِهَازُ : كِنَايَةٌ عَنْ حَرَكَاتٍ وَأَصْوَاتٍ وَأَلْفَاظٍ تصْدُرُ عَنِ ٱلْمُتَنَاكِحَيْنَ في أَثْنَاءِ عَمَلِهِمَا ، تَعْظُمُ بِهَا لَذَّتُهُمَا ، وَتَتَقَوَّىٰ بِهَا شَهْوَتُهُمَا .

* * *

١٤٠٥ ـ قَالَتْ أُمُّ ٱلضَّحَّاكِ ٱلْمُحَارِبِيَّةُ [من الوافر] :

شِفَاءُ ٱلْحُبِّ تَقْبِيلٌ وَضَمٌّ ... وَجَرٌّ بِٱلْبُطُونِ عَلَىٰ ٱلْبُطُونِ
وَرَهْزٌ تَهْمُلُ ٱلْعَيْنَانِ مِنْهُ ... وَأَخْذٌ بِٱلذَّوَائِبِ وَٱلْقُرُونِ

* * *

١٤٠٦ ـ وَعُرِضَتْ عَلَىٰ ٱلْمُتَوَكِّلِ جَارِيَةٌ ، فَقَالَ لَهَا : مَا تُحْسِنِينَ ؟ قَالَتْ : عِشْرِينَ فَنًّا مِنَ ٱلرَّهْزِ . . . فَٱشْتَرَاهَا . . .

* * *

١٤٠٧ ـ وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : قَالَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْحَاضِرَةِ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ : أَتَعْرِفُونَ ٱلزِّنَا عِنْدَكُمْ بِٱلْبَادِيَةِ ؟ قَالَ : فَمَا عِنْدَكُمْ ؟ قَالَ : ٱلضَّمَّةُ وَٱلشَّمَّةُ وَٱلْقَبْلَةُ ؛ قَالَ ٱلْحَضَرِيُّ : لَيْسَ ٱلأَمْرُ عِنْدَنَا هَكَذَا ، هُوَ أَنْ يُبَاضِعَ

ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ ؛ فَقَالَ ٱلأَعْرَابِيُّ : هَذَا طَالِبُ وَلَدٍ .

* * *

١٤٠٨ ـ وَفِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ يَقُولُ ٱلْمَأْمُونُ [من مجزوء الرجز] :

مَا ٱلْحُبُّ إِلَّا قُبْلَةٌ وَغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ
أَوْ كُتُبٌ فِيهَا رُقًى أَنْفَذُ مِنْ نَفْثِ ٱلْعُقَدْ
مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا حُبِّهِ فَإِنَّمَا يَبْغِي ٱلْوَلَدْ
مَا ٱلْحُبُّ إِلَّا هَكَذَا إِنْ نُكِحَ ٱلْحُبُّ فَسَدْ

* * *

١٤٠٩ ـ وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُوصِلِيُّ : حَدَّثَتْنِي أُمُّ ٱلْهَيْثَمِ ، قَالَتْ : حَجَّتْ زُبَيْدَةُ في بَعْضِ ٱلأَعْوَامِ ، فَلَمَّا ٱنْتَهَتْ إِلَىٰ حِمَىٰ ضَرِيَّةَ ضُرِبَتْ لَهَا ٱلْقِبَابُ وَٱلْفَسَاطِيطُ ، ثُمَّ أَحَبَّتْ أَنْ تَأْنَّسَ بِجَوَارِي ٱلْحَيِّ ، فَأَمَرَتْ بِجَمْعِهِنَّ إِلَيْهَا . قَالَتْ : وَكُنْتُ فِيمَنْ دُعِيَ ، فَلَمَّا صِرْنَا عِنْدَهَا أَطْعَمَتْنَا طَعَاماً خِلْنَاهُ وَاللهِ مِنَ ٱلْجَنَّةِ ، ثُمَّ سُقِينَا شَرَاباً حُلْواً مَالَ بِنَا كُلَّ مُمِيلٍ ، وَشَرِبَتْ هِيَ مِنْهُ ، وَجَعَلَت تُحَدِّثُنَا بِحَدِيثٍ كَقِطَعِ ٱلرَّوْضِ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَعْرَابِيَّاتُ ؟ مَا تَعْدُدْنَ ٱلْعِشْقَ فِيكُنَّ ؟ قُلْنَا : أَيَّتُهَا ٱلْمَلِكَةُ ، يُحِبُّ ٱلْفَتَىٰ ٱلْفَتَاةَ فَيَجْتَمِعَانِ ، فَيَتَشَاكَيَانِ وَيَتَبَاكَيَانِ وَيَتَوَاصَفَانِ مَا يَجِدَانِ ، ثُمَّ يَفْتَرِقَانِ ؛ قَالَتْ : أَبِحَيْثُ يُرَيَانِ ؟ قُلْنَا : بَلْ بِحَيْثُ لا يُرَيَانِ ؛ قَالَتْ : مَا صَنَعْتُنَّ شَيْئَاً ؛ قُلْنَا : أَيَّتُهَا ٱلْمَلِكَةُ ! وَكَيْفَ ٱلأَمْرُ في أَهْلِ ٱلْحَضَرِ ؟ قَالَتْ : تَكُونُ ٱلنَّظْرَةُ فَتَزْرَعُ ٱلْمَحَبَّةَ ، ثُمَّ يَتَرَاسَلانِ وَيَتَخَاطَبَانِ ، ثُمَّ يَتَوَاعَدَانِ ، فَيَجْتَمِعَانِ ، ثُمَّ يَضْرِبُ عَبْدُ ٱللهِ زَيْداً ؟ قَالَتْ : إِنْ دَخَلْتِ ٱلْحَضَرَ عَرَفْتِ ذَلِكَ ؛ قُلْتُ : دَخَلْتُ ٱلْعِرَاقَ وَلا أَعْرِفُهُ ؛ قَالَتْ : فَضَحِكَتْ وَحَرَّكَتْ بِيَدِهَا عَلَىٰ مِنْكَبِيَّ ، وَقَالَتْ : تَجَاهَلْنَ يَا أُمَّ ٱلْهَيْثَمِ تَجَاهَلْنَ . !

* * *

١٤١٠ ـ [من الطويل] :

أُحِبُّكِ يَا سَلْمَىٰ عَلَىٰ غَيْرِ رِيبَةٍ ... وَمَا خَيْرُ حُبٍّ لا تَعِفُّ سَرَائِرُهْ
وَمَاذَا ٱلَّذِي يَشْفِي مِنَ ٱلْحُبِّ بَعْدَمَا ... تَشَرَّبَهُ بَطْنُ ٱلْفُؤَادِ وَظَاهِرُهْ

* * *

١٤١١ ـ نَعُودُ إِلَىٰ قَوْلِهِمْ فِي ٱلرَّهْزِ .

وَمِنْ بَدِيعِ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلرَّهْزِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ [من المتقارب] :

وَأَنْتِ أُمَامَةَ مَا تَعْلَمِينَ ... فَضَلْتِ ٱلنِّسَاءَ بِضِيقٍ وَحِرْ
وَيُعْجِبُنِي مِنْكِ عِنْدَ ٱلْجِمَاعِ ... حَيَاةُ ٱلْكَلامِ وَمَوْتُ ٱلنَّظَرْ

* * *

١٤١٢ ـ وَقَالَتْ فُلَانَةُ : كُنْتُ عِنْدَ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ ، فَقِيلَ : قَدْ جَاءَ عُمَرُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ ـ تعني : زَوْجَهَا ـ فَتَنَحَّيْتُ ، وَدَخَلَ ؛ فَكُنْتُ أَسْمَعُ كَلامَهُمَا ، فَلاعَبَهَا مُدَّةً ، ثُمَّ وَقَعَ عَلَيْهَا ، فَشَخَرَتْ وَنَخَرَتْ وَأَتَتْ بِٱلْعَجَائِبِ مِنَ ٱلرَّهْزِ وَأَنَا أَسْمَعُ ، فَلَمَّا خَرَجَ ، قُلْتُ لَهَا : أَنْتِ فِي نَفْسِكِ وَشَرَفِكِ وَمَوْضِعِكِ تَفْعَلِينَ هَذَا ! فَقَالَتْ عَائِشَةُ : إِنَّ ٱلْخَيْلَ لا تَشْرَبُ إِلَّا بِٱلصَّفِيرِ .

* * *

١٤١٣ ـ وَقَدْ أَخَذَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَنَقَلَهُ إِلَىٰ بَابٍ آخَرَ ، فَقَالَ [من الوافر] :

أَدِرْهَا بِٱلصَّغِيرِ وَبِٱلْكَبِيرِ ... وَخُذْهَا مِنْ يَدَيْ قَمَرٍ مُنِيرِ
وَلا تَشْرَبْ بِلا طَرَبٍ فَإِنِّي ... رَأَيْتُ ٱلْخَيْلَ تَشْرَبُ بِٱلصَّفِيرِ

* * *

١٤١٤ ـ وَكَانَ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْعَبَّاسِيُّ ٱلْمُتَوَكِّلُ مُسْتَهْتِراً بِٱلنِّسَاءِ مشْغُوفاً بِهِنَّ ، وَكَانَ رُبَّمَا يُجَامِعُ وَيَمِيلُ إِلَىٰ ٱلْمُعَاوَدَةِ ، فَيَجِدُ أَعْضَاءَهُ قَدْ ضَعُفَتْ مِنْ حَرَكَاتِ ٱلزَّهْرِ ، فَجُعِلَ لَهُ حُوْضٌ قَدْ مُلِىءَ زِئْبَقاً ، وَبُسِطَتْ لَهُ عَلَيْهِ ٱلْفُرُشُ ، فَكَانَ يُجَامِعُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ ٱلزِّئْبَقُ يُحَرِّكُهُ دُونَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَىٰ ٱلْحَرَكَةِ ، فَلَذَّهُ ذَلِكَ وَأَعْجَبَهُ ، فَسَأَلَ عَنْ مَعْدَنِ هَذَا ٱلزِّئْبَقِ ، فَقِيلَ لَه : إِنَّهُ بِٱلشِّيزِ مِنْ أَذْرَبِيجَانِ ، فَوَجَّهَ إِلَىٰ حَمْدُونَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ ٱلنَّدِيمِ لِيُوَجِّهَ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا يُحَصِّلُ مِنَ ٱلزِّئْبَقِ ، وَوَلَّاهُ ٱلْمُتَوَكِّلُ عَلَىٰ شِيزِ هَذِهِ ، فَكَرِهَهَا ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ [من المجتث] :

وِلَايَـــةُ ٱلشِّيـــزِ عَـــزْلٌ ... وَٱلْعَـــزْلُ عَنْهَـــا وِلَايَـــهْ

فَـــوَلِّنِـــي ٱلْعَـــزْلَ عَنْهَـــا ... إِنْ كُنْـــتَ بِـــي ذَا عِنَـــايَـــهْ

وَمَا زَالَ يُلِحُّ فِي طَلَبِ ٱلْعَزْلِ حَتَّى عُزِلَ وَأُعْفِيَ مِنَ ٱلْوِلَايَةِ[1] .

* * *

١٤١٥ ـ وَمِنْ هَذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ فَتَاةِ بَنِي ٱلْحَجَّاجِ لَمَّا أُنْشِدَتْ قَوْلَ عُمَارَةِ [من الطويل] :

وَمِـــنْ لَيْلَـــةٍ قَـــدْ بِتُّهَـــا غَيْـــرَ آثِـــمٍ ... بِسَاجِيَةِ ٱلْحِجْلَيْنِ رَيَّانَةِ ٱلْقُلْبِ[2]

فَضَحِكَتْ وَضَرَبَتْ بِكُمِّهَا عَلَىٰ وَجْهِهَا ، وَقَالَتْ : فَهَلَّا أَثِمَ ، صَرَمَهُ ٱللهُ !

* * *

١٤١٦ ـ وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَجَّاجِ ، وَٱسْمُهَا ٱلدَّهْنَاءُ بِنْتُ مِسْحَلٍ [من الرجز] :

---

(١) أَنْظُرْ « شِيز » في « مُعْجَمْ يَاقُوت » وَكِتَاب « تُحْفَةِ ٱلْعَرُوسِ » . [ والآنَ فِي عَصْرِنَا ، يَسْتَعمِلُونَ الفِرَاشَ ٱلْمَحْشُوَّ ماءً بدلًا مِنْ الصُّوفِ وَغَيْرِهِ لِتَحْقِيقِ هذه ٱلمَزِيَّةِ ] .

(٢) ٱلْحِجْلُ : ٱلْخَلْخَالُ ؛ وَٱلْقُلْبُ : ٱلسِّوَارُ . [ راجع « سمط اللآلي » صفحة : ٦٩٢ ] .

وَٱللهِ لا تَخْـــدَعُنِـــي بِضَـــمٍّ ‏ وَلا بِتَقْبِيــــلٍ وَلا بِشَـــمٍّ[١]

* * *

١٤١٧ ـ وَقَالَتْ أُخْرَىٰ [من الرجز] :

لا يُقْنِــعُ ٱلْجَــارِيَــةَ ٱللِّعَــابُ ‏ وَلا ٱلْـوِشَـاحَـانِ وَلا ٱلْجِلْبَـابُ[٢]

* * *

١٤١٨ ـ قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ بعْدَ هَذَا ٱلَّذِي نَقَلْنَا عَنْهُ : وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ يَرَىٰ أَنَّ ٱلظَّفَرَ بِٱلْمَعْشُوقَةِ يُسْقِطُ شَطْرَ عِشْقَيْهِمَا :

قِيلَ لأَعْرَابِيٍّ ـ وَقَدْ طَالَ عِشْقُهُ لِجَارِيَةٍ ـ : مَا كُنْتَ صَانِعاً لَوْ ظَفِرْتَ بِهَا وَلا يَرَاكُمَا غَيْرُ ٱللهِ ؟ قَالَ : إِذَنْ وَٱللهِ لأَجْعَلُهُ أَهْوَنَ ٱلنَّاظِرِينَ ، لَكِنِّي أَفْعَلُ بِهَا مَا أَفعلُهُ بِحَضْرَةِ أَهْلِهَا ؛ شَكْوَى ، وَحَدِيثٌ عَذْبٌ ، وَإِعْرَاضٌ عَمَّا يُسْخِطُ ٱلرَّبَّ ، وَيَقْطَعُ ٱلْحُبَّ .

* * *

١٤١٩ ـ وَقَالَ ٱبْنُ ٱلدُّمَيْنَةِ [من الطويل] :

[ وَبِتْنَا فُوَيْقَ ٱلْحَيِّ لا نَحْنُ مِنْهُمُ ‏ وَلَا نَحْــنُ بِــٱلأَعْــدَاءِ مُخْتَلِطَــانِ

---

(١) قَالَ ٱبْنُ بَرِّي : هَذَا ٱلشِّعْرُ لِلدَّهْنَاءِ بِنْتِ مِسْحَلٍ زَوْجِ ٱلْعَجَّاجِ ، وَكَانَتْ رَفَعَتْهُ إِلَىٰ ٱلْمُغِيرَةِ بْن شُعْبَةَ ، فَقَالَتْ لَهُ : أَصْلَحَكَ ٱللهُ ، إِنِّي مِنْه بِجُمْعٍ ـ أي : لَمْ يَفْتَضَّنِي ـ فَقَالَ ٱلْعَجَّاجُ [ من الكامل ] :

ٱللهُ يَعْلَـــمُ يَـــا مُغِيـــرَةُ أَنَّنِـــي ‏ قَــدْ دُسْتُهَــا دَوْسَ ٱلْحِصَــانِ ٱلْمُـرْسَــلِ
وَأَخَــذْتُهَــا أَخْــذَ ٱلْمُقَصِّــبِ شَــاتَــهُ ‏ عَجْــلَانَ يَــذْبَحُهَــا لِقَــوْمٍ نُــزَّلِ

فَقَالَتِ ٱلدَّهْنَاءُ هَذِهِ ٱلأَبْيَات .

(٢) اللِّعَابُ : اللَّعِبُ .

وَبَاتَ يَقِينَا سَاقِطَ ٱلطَّلِّ وَٱلنَّدَىٰ مِنَ ٱللَّيْلِ بُرْدَا يَمْنَةٍ عَطِرَانِ
نَذُودُ بِذِكْرِ ٱللهِ عَنَّا غَوَىٰ ٱلصِّبَا إِذَا كَانَ قَلْبَانَا بِنَا يَرِدَانِ
وَنَصْدُرُ عَنْ رِيِّ ٱلْعَفَافِ وَرُبَّمَا نَقَعْنَا غَلِيلَ ٱلْحُبِّ بِٱلرَّشَفَانِ ]

* * *

١٤٢٠ ـ وَجَلَسَ أَعْرَابِيٌّ فِي حَلْقَةِ يُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ فَتَذَاكَرُوا ٱلنِّسَاءَ وَأَفَاضُوا فِي أَوْصَافِهِنَّ ، فَقَالُوا لِلأَعْرَابِيِّ : أَيُّ ٱلنِّسَاءِ أَفْضَلُ عِنْدَكَ ؟ قَالَ : ٱلْبَيْضَاءُ ٱلعَطِرَةُ ، ٱللَّيِّنَةُ ٱلْخَفِرَةُ ؛ [ ٱلعَظِيمَةُ ٱلمَتَاعِ ، ٱلشَّهِيَّةُ لِلْجِمَاعِ ؛ ٱلَّتِي إِذَا ضُوجِعَتْ أَنَّتْ ، وإِنْ تُرِكَتْ حَنَّتْ ] .

يُشِيرُ بِقَوْلِهِ : « إِذَا ضُوجِعَتْ أَنَّتْ » إِلَىٰ رَهْزِهَا .

* * *

١٤٢١ ـ وَسَمِعَ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ بِنْتاً لَهُ ضَحِكَتْ ، ثُمَّ شَهِقَتْ فِي آخِرِ ضَحِكِهَا ، فَٱخْتَرَطَ ٱلسَّيْفَ وَحَمَلَ عَلَيْهَا وَهُوَ يَقُولُ [من الرجز] :

فَرِقْتُ إِنِّي رَجُلٌ فَرُوقُ مِنْ ضَحِكٍ آخِرُهُ شَهِيقُ

فَٱسْتَغَاثَتْ بِإِخْوَتِهَا ، فَحَالُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ . وَكَانَ عَقِيلٌ شَدِيدَ ٱلْغَيْرَةِ كَمَا سَيَمُرُّ بِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

* * *

١٤٢٢ ـ وَفِي رِقَّةِ كَلامِ ٱلْمَرْأَةِ يَقُولُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

وَلَمَّا تَنَازَعْنَا ٱلْحَدِيثَ وَأَسْمَحَتْ هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِي شَمَارِيخَ مَيَّالِ
وَصِرْنَا إِلَىٰ ٱلْحُسْنَىٰ وَرَقَّ كَلامُنَا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةٌ أَيَّ إِذْلالِ

* * *

١٤٢٣ ـ وَيَقُولُ [ من الطويل ] :

تَقُولُ ـ وَقَدْ جَرَّدْتُهَا مِنْ ثِيَابِهَا ... كَمَا رُعْتَ مَكْحُولَ ٱلْمَدَامِعِ أتلَعَا[1]

وَحَقِّكَ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ ... سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِد لَكَ مَدْفَعَا[2]

* * *

١٤٢٤ ـ وَأَخَذَ هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ عُمَرُ ٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَقَالَ [من الطويل] :

وَنَاهِدَةِ ٱلثَّدِيَيْنِ قُلْتُ لَهَا : ٱتَّكِي ... عَلَىٰ ٱلرَّمْلِ مِنْ دَيْمُومَةٍ لَمْ تُمَهَّدِ[3]

فَقَالَتْ : عَلَىٰ ٱسْمِ ٱللهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ ... وَإِنْ كُنْتُ قَد كُلِّفْتُ ما لم أُعَوَّدِ

فَلَمَّا دَنَا ٱلإِصْبَاحُ قَالَتْ : فَضَحْتَنِي ... فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُودٍ وَإِنْ شِئْتَ فَازْدَدِ

* * *

١٤٢٥ ـ وَعَلَىٰ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ : وَرَقَّ كَلامُنَا ، حَكَىٰ ٱلْجَاحِظُ ، قَالَ : عِنْدَنَا بِٱلْبَصْرَةِ مُخَنَّثٌ يَجْتَمِعُ ٱلنَّاسُ فِي مَنْزِلِهِ ، وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا يَتَعَشَّقُ ٱمْرَأَةً مَشْهُورَةً بِٱلْجَمَالِ ، فَلَمْ يَزَلِ ٱلْمُخَنَّثُ يَتَلَطَّفُ بِهَا حَتَّىٰ جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : فَٱجْتَمَعْتُ بِهِ وَسَأَلْتُهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ ٱجْتِمَاعِهِمَا ، فَقَالَ : لَمَّا ٱجْتَمَعْنَا رَقَّ ٱلْكَلامُ ، وَوَقَعَ ٱلالْتِزَامُ ـ ٱلضَّمُّ ـ ؛ وَقُضِيَتِ ٱلأُمُورُ ، وَشُفِيَتْ حَرَارَاتُ ٱلصُّدُورِ . في كَلامٍ غَيْرِ هَذَا . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : فَلَوْ كَانَ قَدْ أَعَدَّ هَذَا ٱلْكَلامَ لِمَسْأَلَتِي قَبْلَ ذَلِكَ بِدَهْرٍ لَكَانَ قَدْ أَجَادَ وَأَمْلَحَ .

* * *

---

(١) ٱلأَتْلَعُ : طَوِيلَ ٱلْعُنُقِ ، وَهُوَ : ٱلظَّبْيُ .

(٢) أَرَادَتْ : لَوْ أَحَدٌ أَتَانَا رَسُولُهُ سِوَاكَ لَدَفَعْنَاهُ ، فَحُذِفَ جَوَابُ « لَوْ » لِدَلالَةِ قَوْلِهِ : « وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعاً » .

(٣) ٱلدَّيْمُومَةُ : ٱلفَلاةُ ٱلْوَاسِعَةُ يَدُومُ ٱلسَّيْرُ فِيهَا لِبُعْدِهَا ؛ وَلَمْ تُمَهَّدْ : لَمْ تُذَلَّلْ ، وَلَمْ تُصْلَحْ ، وَلَمْ تُسَوَّ .

**ٱلتَّحْمِيضُ :**

١٤٢٦ ـ ٱلتَّحْمِيضُ في أَصْلِ ٱللُّغَةِ مِنْ حَمَضَتِ ٱلإِبِلُ ، فَهِيَ حَامِضَةٌ : إِذَا كَانَتْ تَرْعَىٰ ٱلْخَلَّةَ ، وَهِيَ مِنَ ٱلنَّبْتِ مَا كَانَ حُلْواً ، ثُمَّ تَصِيرُ إِلَىٰ ٱلْحَمْضِ تَرْعَاهُ ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنَ ٱلنَّبْتِ مَالِحاً أَوْ حَامِضاً ، وَمِنْهُ : تَحَمَّضَ ٱلرَّجُلَ : إِذَا تَحَوَّلَ مِنْ شَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ ، وَيُقَالُ : أَحْمَضَ ٱلقَومُ إِحْمَاضاً : إِذَا أَفَاضُوا فِيمَا يُؤْنِسُهُمْ مِنَ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْكَلامِ ، وَكَانَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ إِذَا أَفَاضَ مَنْ عِنْدَهُ فِي ٱلْحَدِيثِ بَعْدَ ٱلْقُرْآنِ وَٱلتَّفْسِيرِ : أَحْمِضُوا ، وَذَلِكَ لَمَّا خَافَ عَلَيْهِمُ ٱلمَلالَ أَحَبَّ أَنْ يُرِيحَهُمْ ، فَأَمَرَهُمْ بِالإِحْمَاضِ ، بِٱلأَخْذِ في مُلَحِ ٱلْكَلامِ وَٱلْحِكايَاتِ .

هَذَا هُوَ أَصْلُ ٱلتَّحْمِيضِ أَوِ ٱلتَّحَمُّضِ أَوِ ٱلإِحْمَاضِ .

وَٱلَّذِي نُرِيدُهُ هُنَا مِنْ هَذَا ٱلْحَرْفِ هُوَ إِتْيَانُ ٱلزَّوْجَةِ فِي دُبُرِهَا !

وَبَعْدُ ، فَلا خِلافَ بَيْنَ ٱلْعُلَمَاءِ في جَوَازِ وَطْءِ ٱلْمَرْأَةِ ـ ٱلزَّوْجَةِ ـ فِيمَا عَدَا ٱلدُّبُرِ ، مِنْ مَغابِنِهَا[1] وَسَائِرِ جَسَدِهَا ، وَإِنَّمَا ٱخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ وَطْئِهَا فِي ٱلدُّبُرِ ، وَأَكْثَرُ ٱلْعُلَمَاءِ عَلَىٰ مَنْعِهِ ، وَوَصَفُوهُ بِأَنَّهُ ٱللِّوَاطُ ٱلأَصْغَرُ .

١٤٢٧ ـ وَقَدْ جَاءَ في ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٣]

حَرْثٌ لَكُمْ ، أَيْ : مَوَاضِعُ حَرْثٍ لَكُمْ ، وَهَذَا مَجَازٌ ، شُبِّهْنَ بِٱلْمَحَارِثِ تَشْبِيهاً لِمَا يُلْقَىٰ فِي أَرْحَامِهِنَّ مِنَ ٱلنُّطَفِ ٱلَّتِي مِنْهَا ٱلنَّسْلُ بِٱلْبُذُورِ ، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٣] تَمْثِيلٌ ، أَيْ : فَأْتُوهُنَّ كَمَا تَأْتُونَ أَرَاضِيكُمُ ٱلَّتِي تُرِيدُونَ أَنْ تَحْرُثُوهَا مِنْ أَيِّ جِهَةٍ شِئْتُمْ ، لا تُحْظَرُ

(١) ٱلْمَغَابِنُ ، جَمْعُ مَغْبِنٍ ، كَمَجْلِسٍ ، وَهُوَ : ٱلنَّاحِيَةُ .

عَلَيْكُمْ جِهَةٌ دُونَ جِهَةٍ ، وَٱلْمَعْنَىٰ : جَامِعُوهُنَّ مِنْ أَيِّ شِقٍّ أَرَدْتُمْ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَأْتِيُّ وَاحِداً ، وَهُوَ مَوْضِعُ ٱلْحَرْثِ .

* * *

١٤٢٨ ـ وَرُوِيَ أَنَّ ٱلْيَهُودَ كَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا نَكَحَ ٱلرَّجُلَ ٱمْرَأَتَهُ مُجَبِّيَةً جَاءَ ٱلْوَلَدُ أَحْوَلَ .

مُجَبِّيَةً ، أَيْ : مُنْكَبَّةً عَلَىٰ وَجْهِهَا ـ فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ ٱللهِ ، فَقَالَ : « كَذَبَتِ ٱلْيَهُودُ » وَنَزَلَتْ هَذِهِ ٱلآيَةُ . [البخاري ، رقم : ٤٥٢٨ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٣٥] .

* * *

١٤٢٩ ـ وَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ هَذَا ٱلْحَيُّ مِنَ ٱلأَنْصَارِ ، وَهُمْ أَهْلُ وَثَنٍ ، مَعَ هَذَا ٱلْحَيِّ مِنَ يَهُودَ ، وَهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ ، فَكَانُوا يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلاً عَلَيْهِمْ فِي ٱلعِلْمِ ، وَكَانُوا يَقْتَدُونَ بِكَثِيرٍ مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أَلَّا يَأْتُوا نِسَاءَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ حَرْفٍ ، وَذَلِكَ أَسْتَرُ مَا تَكُونُ ٱلْمَرْأَةُ ، وَكَانَ هَذَا ٱلْحَيُّ مِنَ ٱلأَنْصَارِ قَدْ أَخَذُوا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا ٱلْحَيُّ مِنْ قُرِيشٍ يَشْرَحُونَ ٱلنِّسَاءَ شَرْحاً مُنْكَراً[١] ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِهِنَّ مُقْبِلاتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ ، فَلَمَّا قَدِمَ ٱلْمُهَاجِرُونَ ٱلْمَدِينَةَ تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلأَنْصَارِ ، فَذَهَبَ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، فَأَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّمَا كُنَّا نُؤْتَىٰ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَٱصْنَعْ ذَلِكَ وَإِلَّا فَٱجْتَنِبْنِي ؛ حَتَّىٰ شَرِيَ أَمْرُهَا[٢] ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ ٱللهِ ، فَأَنْزَلَ ٱللهُ : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٣] أَيْ : مُقْبِلاتٍ أَوْ مُدْبِرَاتٍ أَوْ مُسْتَلْقِيَاتٍ أَوْ عَلَىٰ حَرْفٍ ، وَلَكِنْ فِي مَوْضِعِ ٱلْوَلَدِ .

* * *

(١) قَالَ فِي « ٱللِّسَانِ » : شَرَحَ جَارِيَتَهُ : إِذَا وَطِئَهَا نَائِمَةً عَلَىٰ قَفَاهَا .

(٢) شَرِيَ ، ٱسْتَشْرَىٰ : ٱرْتَفَعَ وَلَجَّ .

١٤٣٠ ـ وَقِيلَ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ عُمَرَ : كَيْفَ تَرَىٰ ٱلتَّحْمِيضَ ؟ قَالَ : وَمَا ٱلتَّحْمِيضُ ؟ قَالَ ٱلسَّائِلُ : أَنْ يَأْتِيَ ٱلرَّجُلُ ٱلْمَرْأَةَ فِي دُبُرِهَا ؛ قَالَ ٱبْنُ عُمَرَ : أَوَ يَفْعَلُ هَذَا أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ[١] ؟

* * *

## كَيْفَ كَانَ نِكَاحُهُمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ :

١٤٣١ ـ جَاءَ فِي صَحِيحِ ٱلْبُخَارِيِّ [رقم : ٥١٢٧] : حَدَّثَ عُرْوَةُ بَنُ ٱلزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ ٱلنَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ ٱلنِّكَاحَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ : فَنِكَاحٌ مِنْهَا نِكَاحُ ٱلنَّاسِ ٱلْيَوْمَ ؛ يَخْطُبُ ٱلرَّجُلُ إِلَىٰ ٱلرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَوْ ٱبْنَتَهُ ، فَيُصْدِقُهَا ، ثُمَّ يَنْكِحُها[٢] ؛ وَنِكَاحٌ آخَرُ : كانَ ٱلرَّجُلُ يَقُولُ لِامْرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَتْ مِن طَمْثِهَا[٣] : أَرْسِلِي إِلَىٰ فُلانٍ فَٱسْتَبْضِعِي مِنْهُ[٤] ، وَيَعْتَزِلُهَا زَوْجُهَا وَلا يَمَسُّهَا أَبَداً ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ حَمْلُهَا مِنْ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي تَسْتَبْضِعُ مِنْهُ ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَمْلُهَا أَصَابَها زَوْجُهَا إِذَا أَحَبَّ ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذلك رَغْبَةً فِي نَجابَةِ ٱلْوَلَدِ ، فَكَانَ هَذَا ٱلنِّكَاحُ نِكَاحَ ٱلاسْتِبْضَاعِ ؛ وَنِكاحٌ آخَرُ : يَجْتَمِعُ ٱلرَّهْطُ (مَا دُونَ ٱلعَشْرَةِ) ، فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ كُلُّهُمْ يُصِيبُهَا[٥] ، فَإِذَا حَمَلَتْ وَوَضَعَتْ وَمَرَّ عَلَيْهَا لَيَالٍ بَعْدَ أَنْ تَضَعَ حَمْلَهَا أَرْسَلَتْ إِلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنْ

---

(١) ٱنْظُرِ ٱلْخِلافَ بَيْنَ ٱلْعُلَمَاءِ فِي جَوازِ هَذَا ٱلأَمْرِ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ . [أَقُولُ ، وَأَنَا بَسَّامُ : بَلِ ٱلأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ : ٱنْظُرْ حُكْمَ ذَلِكَ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ ، بَلِ ٱلأَوْلَىٰ أَنْ يُقَالَ : ٱنْظُرْ عَدَمَ جَوازِ هَذَا ٱلأَمْرِ فِي كُتُبِ ٱلْفِقْهِ] .

(٢) يُصْدِقُهَا ثُمَّ يَنْكِحُهَا ، أَيْ : يُعَيِّنُ صَدَاقَهَا ، وَيُسَمِّي مِقْدَارَهُ ، ثُمَّ يَعْقِدُ عَلَيْهَا .

(٣) إِذَا طَهُرَتْ مِنْ طَمْثِهَا ، أَيْ : حَيْضِهَا ، وَكَانَ ٱلسِّرُّ فِي ذَلِكَ أَنْ يُسْرِعَ عُلُوقُهَا مِنْهُ .

(٤) فَٱسْتَبْضِعِي مِنْهُ ، أَيْ : ٱطْلُبِي مِنْهُ ٱلْمُبَاضَعَةَ ، أَيْ : ٱلْمُجَامَعَةَ ، فِي ٱلْبُضْعِ ، وَهُوَ : ٱلْفَرْجُ .

(٥) يُصِيبُهَا : يَطَؤُهَا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَنْ رِضا مِنْهَا وَٱتِّفَاقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهَا .

يَمْتَنِعَ ، حَتَّىٰ يَجْتَمِعُوا عِنْدَهَا . تَقُولُ لَهُمْ : قَدْ عَرَفْتُمُ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِكُمْ ، وَقَدْ وَلَدَتُ ، فَهُوَ ٱبْنُكَ يَا فُلانُ[١] ؛ تُسَمِّي مَنْ أَحَبَّتْ بِٱسْمِهِ ، فَيَلْحَقُ بِهِ وَلَدُهَا ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْهُ ٱلرَّجُلُ ؛ وَنِكَاحُ ٱلرَّابِعِ : يَجْتَمِعُ ٱلنَّاسُ ٱلْكَثِيرُ فَيَدْخُلُونَ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ لا تَمْنَعُ مَن جَاءَهَا ، وَهُنَّ ٱلْبَغَايَا ، كُنَّ يَنْصِبْنَ عَلَىٰ أَبْوَابِهِنَّ رَايَاتٍ تكُونُ عَلماً ، فَمَنْ أَرَادَهُنَّ دَخلَ عَلَيْهِنَّ ، فَإِذَا حَمَلَتْ إِحْدَاهُنَّ وَوَضَعَتْ حَمْلَهَا ، جُمِعُوا لها ، وَدَعَوْا لَهُمُ ٱلْقَافَةَ[٢] ، ثُمَّ أَلْحَقُوا وَلَدَهَا بِٱلَّذِي يَرَوْنَ ، فَٱلْتَاطَ بِهِ[٣] ، وَدُعِيَ ٱبْنَهُ لا يَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ؛ فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِٱلْحَقِّ ، هَدَمَ نِكَاحَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلا نِكَاحَ ٱلنَّاسِ ٱلْيَوْمَ .

## حُقُوقُ ٱلزَّوْجِ عَلَىٰ ٱلزَّوْجَةِ :

١٤٣٢ ـ قَالَ ٱلإِمَامُ ٱلْغَزَالِيُّ في « ٱلإِحْيَاءِ » : ٱلْقَوْلُ ٱلشَّافي ، ذَلِكَ أَنَّ ٱلنِّكَاحَ نَوْعُ رِقٍّ ، فَهِيَ رَقِيقَةٌ لَهُ ، فَعَلَيْهَا طَاعَةُ ٱلزَّوْجِ مُطْلَقاً في كُلِّ مَا طَلَبَ مِنْهَا في نَفْسِهَا مِمَّا لا مَعْصِيَةَ لَهُ فِيهِ[٤] ، قَالَ : وَقَدْ وَرَدَ في تَعْظِيمِ حَقِّ ٱلزَّوْجِ عَلَيْهَا أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، قَالَ ﷺ « أَيُّمَا ٱمْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخلَتِ ٱلْجَنَّةَ »

[الترمذي ، رقم : ١١٦١ ، وقال : حديث حسن] .

* * *

---

(١) أَيْ : إِنْ كَانَ ذَكَراً ، فَلَوْ كَانَتْ أُنْثَىٰ ، لَقَالَتْ : هي ٱبْنَتُكَ ؛ لَكِنْ يَحْتَمِلُ أَلَّا تَفْعَلَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَكَراً ، لِمَا عُرِفَ مِنْ كَرَاهَتِهِمُ ٱلْبِنْتَ ، وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُ بِنْتَهُ ٱلَّتِي يَتَحَقَّقُ أَنَّهَا بِنْتُهُ فَضْلًا عَمَّنْ تَجِيءُ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ .

(٢) ٱلْقَافَةُ ، جَمْعُ قَائِفٍ ، وَهُوَ : ٱلَّذِي يَعْرِفُ شُبْهَ ٱلوَلَدِ بِٱلْوَالِدِ بِوَاسِطَةِ آثَارٍ خَفِيَّةٍ .

(٣) ٱلْتَصَقَ بِهِ وَأُلْحِقَ بِهِ .

(٤) قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لا يَصِحُّ هَذَا ٱلإِطْلَاقُ ، فَإِنَّ ٱلْعَزْلَ لا مَعْصِيَةَ فِيه ، وَمعَ ذَلِكَ ، فَلَا يَلْزَمُهَا طَاعَتُهُ فِيهِ ٱتِّفَاقاً .

١٤٣٣ ـ وَكَانَ رَجُلٌ قَدْ خَرَجَ إِلَىٰ سَفَرٍ وَعَهِدَ إِلَىٰ ٱمْرَأَتِهِ أَلَّا تَنْزِلَ مِنَ ٱلْعُلُوِ إِلَىٰ ٱلسُّفْلِ ، وَكَانَ أَبُوهَا فِي ٱلأَسْفَلِ ، فَمَرِضَ ، فَأَرْسَلَتِ ٱلْمَرْأَةُ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ تَسْتَأْذِنُ فِي ٱلنُّزُولِ إِلَىٰ أَبِيهَا ، فَقَالَ ﷺ : « أَطِيعِي زَوْجَكِ » ، فَمَاتَ ، فَٱسْتَأْمَرَتْهُ ، فَقَالَ : « أَطِيعِي زَوْجَكِ » ، فَدُفِنَ أَبُوهَا ، فَأَرسلَ رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْهَا يُخْبِرُهَا أَنَّ ٱللهَ قَدْ غَفَرَ لأَبِيهَا بِطَاعَتِهَا زَوْجَهَا . [ « مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٦٦٦ ] .

* * *

١٤٣٤ ـ وَقَال ﷺ : «إِذَا صَلَّتِ ٱلْمَرْأَةُ خَمْسَهَا ، وَصَامَتْ شَهْرَهَا ، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا ، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا ؛ دَخَلَتِ ٱلْجَنَّةَ » . [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٦٣٢ ] .

* * *

١٤٣٥ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ ٱلْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا» [الترمذي، رقم: ١١٥٩، وقال: حديث حسن صحيح].

* * *

١٤٣٦ ـ وَقَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ : أَتَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمٍ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! إِنِّي ٱمْرَأَةٌ أَيِّمٌ ، وَأُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ ، فَمَا حَقُّ ٱلزَّوْجِ ؟ قَالَ : « إِنَّ مِنْ حَقِّ ٱلزَّوْجِ عَلَىٰ ٱلزَّوْجَةِ إِذَا أَرَادَهَا فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا وَهِيَ عَلَىٰ ظَهْرِ بَعِيرٍ أَلّا تَمْنَعَهُ ، وَأَلَّا تُعْطِي شَيْئاً مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ فَعَلَتْ ذَٰلِكَ كَانَ ٱلوِزْرُ عَلَيْهَا وَٱلأَجْرُ لَهُ ، وَمِنْ حَقِّهِ أَلَّا تَصُومَ تَطَوُّعاً إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِن فَعَلَتْ جَاعَتْ وَعَطِشَتْ وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنهَا ، وَإِنْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ لَعَنَتْهَا ٱلْمَلَائِكَةُ حَتَّىٰ تَرْجِعَ إِلَىٰ بَيْتِهِ أَوْ تَتُوبَ » . [ قال الحافظ العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » : أخرجه البيهقي مختصراً على شطر الحديث ، ورواه بتمامه من حديث ابن عمر وفيه ضعف ] .

١٤٣٧ ـ إِلَىٰ أَنْ قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ : فَحُقوقُ ٱلزَّوْجِ عَلَىٰ ٱلزَّوْجَةِ كَثِيرَةٌ ، وَأَهَمُّهَا أَمْرَانِ : أَحَدُهُمَا ٱلصِّيَانَةُ وَٱلتَّسَتُّرُ ، وَٱلآخَرُ تَرْكُ ٱلْمُطَالَبَةِ مِمَّا وَرَاءَ ٱلْحَاجَةِ ، وَٱلتَّعَفُّفُ عَنْ كَسْبِهِ إِذَا كَانَ حَرَاماً ، وَهَكَذَا كَانَتْ عَادَةُ ٱلنِّسَاءِ فِي ٱلسَّلَفِ ، كَانَ ٱلرَّجُلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ تَقُولُ لَهُ ٱمْرَأَتُهُ أَوِ ٱبْنَتُهُ : إِيَّاكَ وَكَسْبَ ٱلْحَرَامِ ، فَإِنَّا نَصْبِرُ عَلَىٰ ٱلْجُوعِ وَٱلضُّرِّ وَلا نَصْبِرُ عَلَىٰ ٱلنَّارِ . . .

١٤٣٨ ـ إِلَىٰ أَنْ قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ : وَٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِيمَا يَجِبُ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ أَنْ تَكُونَ قَاعِدَةً فِي عُقْرِ بَيْتِهَا ، لازِمَةً لِمِغْزَلِهَا ، لا يَكْثُرُ صُعُودُهَا وَٱطِّلاعُهَا ، قَلِيلَةَ ٱلْكَلامِ لِجِيرَانِهَا ، لا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ إِلَّا فِي حَالٍ يُوجِبُ ٱلدُّخُولَ ، تَحْفَظُ بَعْلَهَا فِي غَيْبَتِهِ ، وَتَطْلُبُ مَسَرَّتَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهَا ، وَلا تَخُونُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ ، وَلا تَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ خَرَجَتْ بِإِذْنِهِ فَمُخْتَفِيَةً فِي هَيْئَةٍ رَثَّةٍ تَطْلُبُ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَالِيَةَ دُونَ ٱلشَّوَارِعِ وَٱلأَسْوَاقِ ، مُحْتَرِزَةً مِنْ أَنْ يَسْمَعَ غَرِيبٌ صَوْتَهَا أَوْ يَعْرِفَهَا بِشَخْصِهَا ، لا تَتَعَرَّفُ إِلَىٰ صَدِيقِ بَعْلِهَا فِي حَاجَاتِهَا ، بَلْ تَتَنَكَّرُ عَلَىٰ مَنْ تَظُنُّ أَنَّهُ يَعْرِفُهَا أَوْ تَعْرِفُهُ ، هَمُّهَا صَلاحُ شَأْنِهَا وَتَدْبِيرُ بَيْتِهَا ، مُقْبِلَةً عَلَىٰ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا ، وَإِذَا ٱسْتَأْذَنَ صَدِيقٌ لِبَعْلِهَا عَلَىٰ ٱلْبَابِ وَلَيْسَ ٱلْبَعْلُ حَاضِراً لَمْ تَسْتَفْهِمْ وَلَمْ تُعَاوِدْهُ فِي ٱلْكَلامِ غَيْرَةً عَلَىٰ نَفْسِهَا وَبَعْلِهَا ، وَتَكُونُ قَانِعَةً مِنْ زَوْجِهَا بِمَا رَزَقَ ٱللهُ ، وَتُقَدِّمُ حَقَّهُ عَلَىٰ حَقِّ نَفْسِهَا وَحَقِّ سَائِرِ أَقَارِبِهَا . . .

١٤٣٩ ـ قَالَ : وَأَلَّا تَتَفَاخَرَ عَلَىٰ ٱلزَّوْجِ بِجَمَالِهَا ، وَلا تَزْدَرِي زَوْجَهَا لِقُبْحِهِ ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ٱلأَصْمَعِيَّ قَالَ : دَخَلْتُ ٱلْبَادِيَةَ فَإِذَا أَنَا بِٱمْرَأَةٍ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ وَجْهاً ، تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ أَقْبَحِ ٱلنَّاسِ وَجْهاً ، فَقُلْتُ لَهَا : يَا هٰذِهِ ! أَتَرْضَيْنَ لِنَفْسِكِ أَنْ تَكُونِي تَحْتَ مِثْلِهِ ؟ فَقَالَتْ : يَا هَذَا ، ٱسْكُتْ ! فَقَدْ أَسَأْتَ فِي قَوْلِكَ ، لَعَلَّهُ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَالِقِهِ ، فَجَعَلَنِي ثَوَابَهُ ، أَوْ لَعَلِّي أَسَأْتُ

فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ خَالِقِي ، فَجَعَلَهُ عُقُوبَتِي ، أَفَلا أَرْضَىٰ بِمَا رَضِيَ ٱللهُ لِي ؟ فَأَسْكَتَتْنِي . [ راجع رقم : ١١٦٦ ] .

* * *

١٤٤٠ ـ وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : رَأَيْتُ فِي ٱلْبَادِيَةِ ٱمْرَأَةً عَلَيْهَا قَمِيصٌ أَحْمَرُ ، وَهِيَ مُخْتَضِبَةٌ ، وَبِيَدِهَا سُبْحَةٌ ؛ فَقُلْتُ : مَا أَبْعَدَ هَذَا مِنْ هَذَا ! فَقَالَتْ [من الطويل] :

وَللهِ مِنِّي جَانِبٌ لا أُضَيِّعُهُ وَلِلَّهْوِ مِنِّي وَٱلْبَطَالَةِ جَانِبُ

فَعَلِمْتُ أَنَّهَا ٱمْرَأَةٌ صَالِحَةٌ لَهَا زَوْجٌ تَتَزَيَّنُ لَهُ .

* * *

١٤٤١ ـ قَالَ ٱلْغَزَالِيُّ : وَمِمَّا يَجِبُ عَلَيْهَا إِذَا مَاتَ عَنْهَا زَوْجُهَا أَلَّا تَحِدَّ ـ مِنَ ٱلْحِدَادِ ـ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ ، وَأَنْ تَتَجَنَّبَ ٱلطِّيبَ وَٱلزِّينَةَ فِي هَذِهِ ٱلْمُدَّةِ .

* * *

١٤٤٢ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « لُعِنَتِ ٱلْغَائِصَةُ وَٱلْمُغَوِّصَةُ » .

ٱلْغَائِصَةُ : ٱلْحَائِضُ ٱلَّتِي لا تُعْلِمُ زَوْجَهَا أَنَّهَا حَائِضٌ لِيَجْتَنِبَهَا ، فَيُجَامِعُهَا وَهِيَ حَائِضٌ ؛ وَٱلْمُغَوِّصَةُ : ٱلَّتِي لا تَكُونُ حَائِضاً فَتَكْذِبُ ، فَتَقُولُ لِزَوْجِهَا : إِنِّي حَائِضٌ . [ « النهاية في غريب الحديث » مادة غوص ] .

* * *

١٤٤٣ ـ وَأَتَىٰ رَجُلٌ إِلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! إِنَّ لِي ٱمْرَأَةً ، إِذَا أَتَيْتُ مَهْمُوماً قَامَتْ فَأَخَذَتْ بِطَرَفِ رِدَائِي ، وَمَسَحَتْ عَلَىٰ وَجْهِي ،

وَقَالَتْ : إِنْ كَانَ هَمُّكَ لِلدُّنْيَا فَصَرَفَهُ ٱللهُ عَنْكَ ، وَإِنْ كَانَ هَمُّكَ لِلآخِرَةِ فَزَادَكَ ٱللهُ هَمًّا ؟ فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « إِنَّ لَهَا أَجْرَ ٱلشُّهَدَاءِ وَرِزْقَهُمْ » .

* * *

١٤٤٤ ـ وَقَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِيقِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا : تَزَوَّجَنِي ٱلزُّبَيْرُ ـ ٱبْنُ ٱلْعَوَّامِ ـ وَمَا لَهُ فِي ٱلأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرُ نَاضِحٍ(١) وَغَيْرُ فَرَسِهِ ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ ، وَأَسْتَقِي ٱلْمَاءَ ، وَأَخْرِزُ غَرْبَه(٢) ، وَأَعْجِنُ ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٌ لِي مِنَ ٱلأَنْصَارِ ، وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ ، وَكُنْتُ أَنْقُلُ ٱلنَّوَىٰ مِنْ أَرْضِ ٱلزُّبَيْرِ ٱلَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عَلَىٰ رَأْسِي وَهِيَ مِنِّي عَلَىٰ ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ ، فَجِئْتُ يَوْماً وَٱلنَّوَىٰ عَلَىٰ رَأْسِي ، فَلَقِيتُ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ ٱلأَنْصَارِ ، فَدَعَانِي ، ثُمَّ قَالَ : « إِخْ إِخْ »(٣) لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ ، فَٱسْتَحَيْيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ ٱلرِّجَالِ ، وَذَكَرْتُ ٱلزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ ، وَكَانَ أَغْيَرَ ٱلنَّاسِ ، فَعَرَفَ رَسُولُ ٱللهِ أَنِّي قَدِ ٱسْتَحَيْيتُ ، فَمَضَىٰ ، فَجِئْتُ ٱلزُّبَيْرَ ، فَقُلْتُ : لَقِيَنِي رَسُولُ ٱللهِ وَعَلَىٰ رَأْسِي ٱلنَّوَىٰ وَمَعَهُ نَفَرٌ مَنْ أَصْحَابِهِ ، فَأَنَاخَ لأَرْكَبَ ، فَٱسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ ، وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ ، فَقَالَ : وَٱللهِ ، لَحَمْلُكِ ٱلنَّوَىٰ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكِ مَعَهُ . . . حَتَّىٰ أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَاسَةَ ٱلْفَرَسِ ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي . . . انظر ٱلْبُخَارِيَّ [رقم : ٥٢٢٤] وَشُرَّاحَهُ [ومسلم ، رقم : ٢١٨٢] .

* * *

---

(١) ٱلنَّاضِحُ : ٱلْبَعِيرُ يُسْتَقَىٰ عَلَيْهِ .
(٢) ٱلْغَرْبُ : ٱلدَّلْوُ .
(٣) كَلِمَةٌ تُقَالُ لِلْبَعِيرِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيخَهُ .

١٤٤٥ ـ وَكانَ ٱلزِّبْرقانُ بْنُ بَدْرٍ إذا زَوَّجَ ٱبْنَةً لَهُ دَنا مِنْ خِدْرِها ، وَقالَ : أَتَسْمعينَ ؟ لا أُعَرَّفَنَّ ما طَلَبْتِ ، كُونِي لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْداً .

* * *

١٤٤٦ ـ وَقالَ أَسْماءُ بْنُ خارِجَةَ ٱلفَزارِيُّ لابْنَتِه عِنْدَ ٱلزِّفافِ : إِنَّكِ خَرَجْتِ مِنَ ٱلعُشِّ ٱلّذي فِيهِ دَرَجْتِ ، وَصِرْتِ إِلىٰ فِراشٍ لَمْ تَعْرِفِيهِ ، وَقَرينٍ لَمْ تَأْلَفيه ، فَكُوني لَهُ أَرْضاً يَكُنْ لَكِ سَماءً ، وَكُوني لَهُ مِهاداً يَكُنْ لَكِ عِماداً ، وَكُوني لَهُ أَمَةً يَكُنْ لَكِ عَبْداً ، لا تُلْحِفِي بِهِ فَيَقْلاكِ[1] ، وَلا تَباعَدِي عَنْهُ فَيَنْساكِ ، إِنْ دَنا مِنْكِ فَٱقْرُبِي مِنْهُ ، وَإِنْ نَأَىٰ فَٱبْعُدِي عَنْهُ ، وَٱحْفَظِي أَنْفَهُ وَسَمْعَهُ وَعَيْنَهُ ، فلا يَشَمَّنَّ مِنْكِ إِلَّا طَيِّباً ، ولا يَسْمَعُ مِنْكِ إِلَّا حُسْناً ، وَلا يَنْظُرُ إِلَّا جميلًا . . . وَإِيَّاكِ وَٱلغَيْرَةَ ، فَإِنَّها مِفْتاحُ ٱلطَّلاقِ ، وَعَلَيْكِ بِٱلزِّينَةِ ، فَأَزْيَنُ ٱلزِّينَةِ ٱلكُحْلُ ، وَعلَيْكِ بِٱلطِّيبِ ، وَأَطْيَبُ ٱلطِّيبِ إِسْباغُ ٱلْوُضُوءِ ، وَكُونِي كَمَا قُلْتُ لأُمِّكِ في بَعْضِ ٱلأَحايِينِ[2]

[من الطويل] :

خُذي ٱلْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي ... وَلَا تَنْطِقي في سَوْرَتي حِينَ أَغْضَبُ[3]
وَلا تَنْقُرِيني نَقْرَكِ الدُّفَّ مَرَّةً ... فَإِنَّكِ لا تَدْرِينَ كيف المُغَيَّبُ
ولا تكثِري الشكْوىٰ فتَذْهَبَ بالهوىٰ ... ويأْباكِ قَلْبِي والقُلوبُ تَقَلَّبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ ٱلحُبَّ في ٱلصَّدْرِ وَٱلأَذىٰ ... إذا ٱجْتَمَعا لَمْ يَلْبَثِ ٱلْحُبُّ يَذْهَبُ

* * *

١٤٤٧ ـ وَزَوَّجَ عامِرُ بنُ ٱلظَّرِبِ ٱبْنَتَهُ مِنْ ٱبْنِ أَخيهِ ، فَلَمّا أَرادَ تَحْويلَها ،

---

(١) لا تُلْحِفي بِهِ : لا تَلُحِّي عَلَيْهِ وَلا تُعَنِّتِيه ؛ فَيَقْلاكِ : فَيُبْغِضُكِ ، وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ مِثْلُ ٱلرَّدِّ .
(٢) وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ هَذا ٱلْحَديثَ وَٱلشِّعْرَ لأَبي ٱلأَسْوَدِ ٱلدُّؤَلِيِّ .
(٣) ٱلْعَفْوُ : ٱلْفَضْلُ ٱلَّذي لا عُسْرَ فِي إِعْطائِهِ .

قالَ لأُمِّها : مُري ٱبْنَتَكِ أَلّا تَنْزِلَ مَفازَةً إِلّا وَمَعَها ماءٌ ، فَإِنَّهُ لِلأَعْلَىٰ جَلاءٌ ، وَلِلأَسْفَلِ نَقاءٌ ، وَلا تُكْثِرْ مُضاجَعَتَهُ ، فَإِنَّهُ إِذا مَلَّ ٱلْبَدَنُ مَلَّ ٱلْقَلْبُ ، وَلا تَمْنَعْهُ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ ٱلْحُظْوَةَ في ٱلْمُوافَقَةِ ؛ فَلَمْ تَلْبَثْ إِلّا شَهْراً حَتّىٰ جاءَتْهُ مَشْجُوجَةً ، فَقالَ لابْنِ أَخيهِ : يا بُنَيَّ ! ٱرْفَعْ عَصاكَ عَنْ بَكْرَتِكَ[1] ، فَإِنْ كانَتْ نَفَرَتْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُنَفَّرَ فَذَلِكَ ٱلدَّاءُ ٱلَّذي لَيْسَ لَهُ دَواءٌ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَكُما وِفاقٌ فَفِراقُ ٱلْخُلْعِ[2] أَحْسَنُ مِنَ ٱلطَّلاقِ ، وَلَنْ تَتْرُكَ مالَكَ وَأَهْلَكَ ؛ فَرَدَّ عَلَيْهِ صَداقَهُ وَخَلَعَها ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَلَعَ مِنَ ٱلْعَرَبِ . . .

* * *

١٤٤٨ ـ وَقال عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] .

قَوّامونَ عَلىٰ ٱلنِّساءِ : يَقُومُونَ عَلَيْهِنَّ آمِرينَ ناهِينَ ، كَما يَقُومُ ٱلْوُلاةُ عَلىٰ ٱلرَّعايا ، ثُمَّ عَلَّلَ سُبْحانَهُ هَذِهِ ٱلْقِوامَةَ بِأَمْرَيْنِ : وَهْبِيٍّ وَكَسْبِيٍّ ؛ أَمّا ٱلأَوَّلُ ، فَهُوَ : أَنَّ ٱلرِّجالَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلنِّساءِ .

وَقالَ ٱلزَّمَخْشَرِيُّ : وَقَدْ ذَكَرُوا في فَضْلِ ٱلرِّجالِ ٱلْعَقْلَ وَٱلْحَزْمَ وَٱلْعَزْمَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْفُرُوسِيَّةَ ، وَأَنَّ مِنْهُمُ ٱلأَنْبياءَ وَٱلْعُلَماءَ ، وَفيهِمُ ٱلإِمامَةُ ٱلْكُبْرىٰ ـ ٱلْخِلافَةُ ـ وَٱلصُّغْرىٰ ـ ٱلإِمامَةُ في ٱلصَّلاةِ ـ وَٱلْجِهادُ وَٱلأَذانُ وَٱلْخُطْبَةُ وَٱلاعْتِكافُ وَتَكْبيراتُ ٱلتَّشْريقِ عِنْدَ أَبي حَنيفَةَ وَٱلشَّهادَةُ في ٱلْحُدُودِ وَٱلْقِصاصِ وَزِيادَةُ ٱلسَّهْمِ وَٱلتَّعْصيبُ في ٱلْمِيراثِ وَٱلْحَمالَةُ وَٱلْقَسامَةُ وَٱلْوِلايَةُ في ٱلنِّكاحِ .

* * *

(١) ٱلْبَكْرَةُ : ٱلْفَتِيَّةُ مِنَ ٱلإِبِلِ .

(٢) ٱلْخُلْعُ : ٱلطَّلاقُ عَلىٰ عِوَضٍ .

**ٱلسَّراري وَأُمَّهاتُ ٱلأَوْلادِ وَأَجْناسُ ٱلأُمَّهاتِ :**

١٤٤٩ ـ كانَتِ ٱلنَّاسُ قِدَماً ـ مُلُوكاً كانوا أَوْ سُوْقَةً ـ يَتَسَرَّوْنَ، أَيْ : يَتَمَتَّعُونَ بِٱلسَّراري(١) ، جَمْعُ سُرِّيَّةٍ ، بِضَمِّ ٱلسِّينِ ، نِسْبَةً إِلىٰ ٱلسِّرِّ(٢) ، عَلىٰ غَيْرِ قِياسٍ ، وَهِيَ ٱلأَمَةُ يَتَسَرَّىٰ بِها مالِكُها وَيَتَّخِذُها لِلْوَطْءِ ، وَٱشْتَرَطَ ٱلْفُقَهاءُ في صِدْقِ هَٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةِ حُصُولَ ٱلْوَطْءِ وَلَوْ مَرَّةً ، وَتَظْهَرُ فائِدَةُ ٱلاشْتِراطِ فِيمَنْ جَعَلَ بِيَدِ زَوْجَتِهِ عِتْقَ ٱلسُّرِّيَّةِ ٱلَّتي يَتَّخِذُها عَلَيْها، فَإِنْ لَمْ يَطَأْها لَمْ يَكُنْ لَها عِتْقُها، وَٱلسَّرارِي يُسَمَّوْنَ بَعْدَ أَنْ يُوطَأْنَ : أُمَّهاتُ أَوْلادٍ ، وَقَدْ كانَتِ ٱلسَّرارِي مِنْ أُمَمٍ شَتَّىٰ . . .

وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ وَٱلتُّقىٰ في ٱلصَّدْرِ ٱلأَوَّلِ لا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَمُسْلمٍ إِلَّا بِٱلتَّقْوىٰ ، وَلا يُفَضِّلُونَ عَرَبِيّاً عَلىٰ عَجَمِيٍّ ، ولا صَريحَ ٱلنَّسَبِ عَلىٰ هَجِينٍ ، لأَنَّ ذاكَ عرَبِيٌّ خالِصُ ٱلنَّسَبِ وَهَذا عَجَمِيٌّ أَوْ هَجينٌ ، وَإِنْ كانَتْ هُناكَ مَنْ مَلَكَتْ رَأْسَهُ ٱلنُّعَرَةُ وَٱلْعَصَبِيَّةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ وَٱلْعنْجُهِيَّةُ ٱلْجاهِلِيَّةُ ، فَيَحْتَقِرُونَ أَوْلادَ أُمَّهاتِ ٱلأَوْلادِ ، وَكانُوا يُعَيِّرُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً بِذَلِكَ . . .

قالَ ٱلْمُبَرِّدُ في « ٱلْكَامِلِ » [صفحة : ١٣٧٤] : وَلَمْ يَكُنِ الإِكْرامُ لِلْمَوالي في جُفاةِ الأَعْرابِ .

* * *

(١) كانَ ٱلتَّمَتُّعُ بِٱلسَّرارِي إِلىٰ أَنْ حُورِبَ ٱلرِّقُّ وَأُبْطِلَ في أَكْثَرِ ما يُسَمُّونَ « ٱلْبِلاد ٱلْمُتَمَدْيِنَة » . [ أَقُولُ وَأَنَا بَسَّامُ : وَيَبْدُو أَنَّ ٱلْمُجْتَمَعَ ٱلَّذِي يُقالُ لَهُ ٱلْمُتَمَدْينُ بَدَأَ فِي إِعادَةِ ٱلرِّقِّ تَدْرِيجِيّاً ، مُبْتَدِأً بِمُعْتَقَلِ غَوانْتَنامُو ، وَهَلُمَّ جرّاً ، فما حقوق الإنسان المعلنة في عصرنا الحاضر سوى أكذوبة تفسّرها الدول القوية كما تريد ، وتلغي مسلّماتِها متى تريد !؟ ] .

(٢) ٱلسِّرُّ ، أَيْ : ٱلنِّكاحُ ، قالَ تَعالىٰ : ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٣٥] وَعِنْدِي أَنَّ تَسْمِيَةَ ٱلأَمَةِ ٱلْمُتَّخَذَةِ لِلْوَطْءِ سُرِّيَّةً ، نِسْبَةً إِلىٰ ٱلسِّرِّ ، لأَنَّهُمْ فِي ٱلْغالِبِ كانوا يَتَّخِذونَ ٱلسُّرِّيَّةَ في سِرٍّ مِنْ زَوْجاتِهِمُ ٱلْحَرائِرِ . [ وأَضافَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لَعَلَّهَا مِنَ ٱلسُّرُورِ حَيْثُ يَجِدُ لَدَيْهَا ما لا يَجِدُهُ لَدَى ٱلْحَرائِرِ ] .

عَبْقَرِيَّاتُهُمْ في أَوْلادِ ٱلسَّرارِي :

١٤٥٠ ـ قالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ : لَيْسَ قَوْمٌ أَكْيَسَ مِنْ أَوْلادِ ٱلسَّرارِي ، لأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ عِزَّ ٱلْعَرَبِ وَدَهاءَ ٱلْعَجَمِ . . .

يُرِيدُ إِذا كُنَّ مِنَ ٱلْعَجَمِ .

* * *

١٤٥١ ـ وَقالَ شاعِرُهُمْ [من البسيط] :

لا تَشْتُمَنَّ ٱمْرَأً في أَنْ تَكونَ لَهُ ... أُمٌّ مِنَ ٱلرُّومِ أَوْ سَوْداءُ عَجْماءُ

فَإِنَّما أُمَّهاتُ ٱلنَّاسِ أَوْعِيَةٌ ... مُسْتَوْدَعاتٌ وَلِلأَبْناءِ آباءُ[1]

وَرُبَّ واضِحَةٍ لَيْسَتْ بِمُنْجِبَةٍ ... وَرُبَّما أَنْجَبَتْ لِلْفَحْلِ سَوْداءُ

* * *

١٤٥٢ ـ وَقالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ لِلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ : إِنَّكَ لَمُعْجَبٌ بِٱلإِماءِ ! قالَ : وَكَيْفَ لا أَعْجَبُ بِهِنَّ وَهُنَّ يَأْتِينَ بِمِثْلِكَ . . . ! .

* * *

١٤٥٣ ـ وَكَانَ لِمُعاوِيَةَ ٱبْنِ أَبي سُفْيانَ عَيْنٌ ـ جاسُوسٌ ـ بِٱلْمَدِينَةِ ، يَكْتُبُ إِلَيْهِ بِمَا يَكُونُ مِنْ أُمورِ ٱلنَّاسِ وَقُرَيْشٍ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : إِنَّ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ أَعْتَقَ جارِيَةً لَهُ وَتَزَوَّجَها ، فَكَتَبَ مُعاوِيَةُ إِلىٰ ٱلْحُسَيْنِ :

مِنْ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ مُعَاوِيَةَ إِلَىٰ ٱلْحسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَزَوَّجْتَ جارِيَتَكَ ، وَتَرَكْتَ أَكْفاءَكَ مِنْ قُرَيْشٍ ، مِمَّنْ تَسْتَحْسِنُهُ لِلْوَلَدِ ، وَتَمْجُدُ

---

(١) في رِوايَةٍ : « وَلِلأَحْسابِ آباءُ » .

بِهِ في ٱلصِّهْرِ ؛ فَلا لِنَفسِكَ نَظَرْتَ ، وَلا لِوَلَدِكَ ٱنْتَقَيْتَ . . .

فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ عَليٍّ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ ، وَتَعْيِيرُكَ إِيَّايَ بَأَنِّي تَزَوَّجْتُ مَوْلاتِي ، وَتَرَكْتُ أَكْفَائِي مِنْ قُرَيْشٍ ، فَلَيْسَ فَوْقَ رَسُولِ ٱللهِ مُنْتَهىً في شَرَفٍ ، وَلَا غَايَةٌ فِي نَسَبٍ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مِلْكَ يَمِينِي خَرَجَتْ عَنْ يَدِي بِأَمْرٍ أَلْتَمِسُ فِيهِ ثَوَابَ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، ثُمَّ ٱرْتَجَعْتُهَا عَلَىٰ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، وَقَدْ رَفَعَ ٱللهُ بِٱلإِسْلامِ ٱلْخَسِيسَةَ ، وَوَضَعَ عَنَّا بِهِ ٱلنَّقِيصَةَ ، فَلا لَوْمَ عَلَىٰ ٱمْرِىءٍ مُسْلِمٍ إِلَّا فِي أَمْرٍ مَأْثَمٍ ، وَإِنَّمَا ٱللَّوْمُ لَوْمُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ .

فَلَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةُ ٱلْكِتَابَ نَبَذَهُ إِلَىٰ يَزِيدَ ، فَقَرَأَهُ وَقَالَ : لَشَدَّ مَا فَخَرَ عَلَيْكَ ٱلْحُسَيْنُ ! قَال : لا ، وَلَكِنَّهَا أَلْسِنَةُ بَنِي هَاشِمٍ ٱلْحِدَادُ ٱلَّتِي تَفْلُقُ ٱلصَّخْرَ وَتَغْرِفُ مِنَ ٱلْبَحْرِ .

* * *

١٤٥٤ ـ وَمِثْلُ هَذِهِ ٱلْقِصَّةِ حَدَثَ بَيْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَبَيْنَ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ـ ٱلْمَعْرُوفِ بِزَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ ـ حِينَ تَزَوَّجَ أُمَّ وَلَدٍ لِبَعْضِ ٱلأَنْصَارِ ، فَلامَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ في ذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَلَيٌّ كِتَاباً يُشْبِهُ كِتَابَ أَبِيهِ إِلَىٰ مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ : إِنَّ عَلِيَّ بْنَ ٱلْحُسَيْنِ يَتَشَرَّفُ مِنْ حَيْثُ يَتَّضِعُ ٱلنَّاسُ .

* * *

١٤٥٥ ـ وَسُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ وَلَدِ ٱلرُّومِيَّةِ ؟ فَقَالَ : صَلِفٌ ، مُعْجَبٌ ، بَخِيلٌ ؛ قِيلَ : فَوَلَدُ ٱلصَّقْلَبِيَّةِ ؟ قَالَ : طَفِسٌ ، زَنِيمٌ ؛ قِيلَ : فَوَلَدَ ٱلسَّوْدَاءِ ؟ قَالَ : شُجَاعٌ ، سَخِيٌّ ؛ قِيلَ : فَوَلَدَ ٱلصَّفْرَاءِ ؟ قَالَ : هُمْ أَنْجَبُ أَوْلاداً ،

وَأَلْيَنُ أَجْسَاداً ، وَأَطْيَبُ أَفْوَاهاً ؛ قِيلَ : فَوَلَدُ ٱلْعَرَبِيَّةِ ؟ قَالَ : أَنِفٌ ، حَسُودٌ ؛ قِيلَ : فَوَلَدُ ٱلنُّوبِيَّةِ ؟ قَالَ : فَاسِقٌ ؛ قِيلَ : فَوَلَدُ ٱلْيَهُودِيَّةِ ؟ قَالَ : دَغِلٌ ، قَذِرٌ ؛ قِيلَ : فَوَلَدُ ٱلْفَارِسِيَّةِ ؟ قَالَ : مَكْرٌ وَخَدِيعَةٌ .

* * *

١٤٥٦ ـ وَقَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : مَنْ أَرَادَ ٱلْبَاءَةَ فَعَلَيْهِ بِٱلْبَرْبَرِيَّاتِ ، وَمَنْ أَرَادَ ٱلْخِدْمَةَ فَعَلَيْهِ بِٱلرُّومِيَّاتِ ، وَمَنْ أَرَادَ ٱلنَّجَابَةَ فَعَلَيْهِ بِٱلْفَارِسِيَّاتِ .

* * *

١٤٥٧ ـ وَقَالَ مُوسَى ٱلْكَاظِمُ : عَلَيْكَ بِٱلقِيَانِ ، فَإِنَّ لَهُنَّ فِطَناً وَعُقُولاً لَيْسَتْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ .

ٱلْقِيَانُ ، جَمْعُ قَيْنَةٍ ، وَهِيَ : ٱلأَمَةُ ، مُغَنِّيَةً كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مُغَنِّيَةٍ ، وَبَعْضُ ٱلنَّاسِ يَظُنُّ ٱلْقَيْنَةَ : ٱلْمُغَنِّيَةَ خَاصَّةً ، وَلَيْسَ ٱلأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ هَذَا كَلامُ عُلَمَاءِ ٱللُّغَةِ ، وَلَكِنَّ ٱلظَّاهِرَ أَنَّ ٱلْكَاظِمَ إِنَّمَا أَرَادَ بِٱلْقِيَانِ ٱلإِمَاءَ ٱلْمُغَنِّيَاتِ بِٱلاصْطِلاحِ ٱلْعُرْفِيِّ .

* * *

١٤٥٨ ـ وَقَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ[١] : إِنِّي لأَعْجَبُ مِنْ رَجُلٍ أَحْفَىٰ شَعَرَهُ ثُمَّ أَعْفَاهُ[٢] ، وَمِنْ رَجُلٍ لَبِسَ ٱلْقَصِيرَ كَيْفَ يَلْبَسُ ٱلطَّوِيلَ ، وَمِمَّنْ كَانَ صَاحِبَ سَرَارِيَّ ثُمَّ ٱتَّخَذَ ٱلْمَهِيرَاتِ .

ٱلْمَهِيرَةُ : ٱلْحُرَّةُ ٱلْمَمْهُورَةُ ، فَعِيلَةٌ بِمَعْنَىٰ مَفْعُولَةٍ ، مِنْ قَوْلِكَ : مَهَرْتُهَا :

---

(١) هُوَ مِنْ أُمَّهَاتِ ٱلأَوْلادِ .

(٢) أَحْفَىٰ ٱلرَّجُلُ شَارِبَهُ : بَالَغَ فِي أَخْذِهِ وَٱسْتَقْصَىٰ قَصَّهُ .

إِذاً جَعَلْتَ لَهَا مَهْراً ، وَقَدْ يُقَالُ : أَمْهَرْتُهَا ، بِٱلأَلِفِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ .

❋ ❋ ❋

١٤٥٩ ـ وَقَالُوا : ٱلأَمَةُ تُشْتَرَىٰ بِٱلْعَيْنِ ، وَتُرَدُّ بِٱلْعَيْبِ ، وَٱلْحُرَّةُ غُلٌّ فِي عُنُقِ مَنْ صَارَتْ إِلَيْهِ « وَهَذِهِ ٱلْكَلِمَةُ تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ تَعْلِيلًا لِقَوْلِةِ مَسْلَمَةَ آنِفاً : مِمَّنْ كَانَ صَاحِبَ سَرَارِيَّ ثُمَّ ٱتَّخَذَ ٱلْمَهِيرَاتِ » .

❋ ❋ ❋

١٤٦٠ ـ وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي ذَلِكَ : قَالَ بَعْضُ مَنْ ٱحْتَجَّ لِلْعِلَّةِ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا صَارَ أَكْثَرُ ٱلإِمَاءِ أَحْظَىٰ عِنْدَ ٱلرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْمَهِيرَاتِ أَنَّ ٱلرَّجُلَ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ ٱلأَمَةَ قَدْ تَأَمَّلَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا وَعَرَفَ مَا خَلا ٱلْخَلْوَةَ ، فَأَقْدَمَ عَلَىٰ ٱبْتِيَاعِهَا بَعْدَ وُقُوعِهَا بِٱلْمُوافَقَةِ ، وَٱلْحُرَّةُ إِنَّمَا يُسْتَشَارُ فِي جَمَالِهَا ٱلنِّسَاءُ ، وَٱلنِّسَاءُ لا يُبْصِرْنَ مِنْ جَمَالِ ٱلنِّسَاءِ وَحَاجَاتِ ٱلرِّجَالِ وَمُوَافَقَتِهِنَّ ، قَلِيلًا وَلا كَثِيراً ! وَٱلرِّجَالُ بِٱلنِّسَاءِ أَبْصَرُ ! وَقَدْ تُحْسِنُ ٱلْمَرْأَةُ أَنْ تَقُولَ : كَأَنَّ أَنْفَهَا ٱلسَّيْفُ ، وَكَأَنَّ عَيْنَهَا عَيْنُ غَزَالٍ ، وَكَأَنَّ عُنُقَهَا إِبْرِيقُ فِضَّةٍ ! وَكَأَنَّ شَعْرَهَا ٱلْعَنَاقِيدُ . . ! وَهُنَاكَ أَسْبَابٌ أُخَرُ بِهَا يَكُونُ ٱلْحُبُّ وَٱلْبُغْضُ .

أَقُولُ : هَذَا كَلامٌ بِمَكَانٍ مِنَ ٱلصِّدْقِ وَٱلسَّدَادِ مَكِينٍ ، فَلْيَعْتَبِرْ بِهِ مَنْ يُعَوِّلُ عَلَىٰ ٱلْخَاطِبَاتِ ، وَعَلَىٰ ٱلنِّسَاءِ كَافَّةً ، حِينَ يَهُمُّ بِٱلزَّوَاجِ وَيُوَسِّطُهُنَّ فِي ٱلْخِطْبَةِ ، فَهُنَّ لَعَمْرِي فَاسِدَاتُ ٱلذَّوْقِ ، وَفَاسِدُ ٱلذَّوْقِ لا يُعْطِيهِ كَمَا يَقُولُ فُقَهَاؤُنَا ، ذَلِكَ إِلَىٰ أَنَّهُنَّ قَدْ يَكْذِبْنَ تَمَشِّياً مَعَ هَوَاهُنَّ وَضِلْعِهِنَّ مَعْ مَنْ يَعْنِيهِنَّ زَوَاجُهُنَّ .

❋ ❋ ❋

١٤٦١ ـ وَكَانَ عِنْدَ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَاحِ أُمُّ سَلَمَةَ بِنْتُ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمَخْزُومِيِّ ، وَكَانَ قَدْ أَحَبَّهَا حُبًّا شَدِيداً ، وَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ مَوْقِعاً لَطِيفاً ، فَحَلَفَ لَهَا أَنْ لا يَتَّخِذَ عَلَيْهَا سُرِّيَّةً وَلَا يَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا ٱمْرَأَةً ، فَوَفَىٰ لَهَا بِذَلِكَ ، فَخَلا بِهِ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ يَوْماً ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! فَكَّرْتَ فِي أَمْرِكَ وَسَعَةِ مُلْكِكَ ، وَأَنَّكَ قَدْ مَلَّكْتَ نَفْسَكَ ٱمْرَأَةً وَٱقْتَصَرْتَ عَلَيْهَا ، فَإِنْ مَرِضَتْ مَرِضْتَ ، وَإِنْ حَاضَتْ حِضْتَ ، وَحَرَمْتَ نَفْسَكَ ٱلتَّلَذُّذَ بِٱلسَّرَارِي ، وَٱسْتِظْرَافَ ٱلْجَوَارِي ، وَمَعْرِفَةَ ٱخْتِلافِ حَالاتِهِنَّ ، وَأَجْنَاسِ ٱلتَّمَتُّعِ بِمَا يُشْتَهَىٰ مِنْهُنَّ ، فَمِنْهُنَّ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلطَّوِيلَةُ ٱلْغَيْدَاءُ ، وَٱلْبَيْضَةُ ٱلْبَيْضَاءُ ، وَٱلْعَتِيقَةُ ٱلأَدْمَاءُ ، وَٱلذَّهَبِيَّةُ ٱلسَّمْرَاءُ ، وَٱلْبَرْبَرِيَّةُ ٱلْعَجْزَاءُ ، وَٱلْمُوَلَّدَاتُ ٱلْمَدَنِيَّاتُ ٱللَّوَاتِي يَفْتِنَّ بِمُجَاوَرَتِهِنَّ ، وَيَخْلِبْنَ بِحَلاوَتِهِنَّ ؛ وَلَوْ رَأَيْتَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلسَّمْرَاءَ وَٱللَّعْسَاءَ مِنْ مُوَلَّدَاتِ ٱلْبَصْرَةِ وَٱلْكُوفَةِ ، ذَوَاتِ ٱلأَلْسُنِ ٱلْعَذْبَةِ ، وَٱلْقُدُودِ ٱلْمُهَفْهَفَةِ ، وَٱلأَوْسَاطِ ٱلْمُخْتَصَرَةِ ، وَٱلثُّدِيِّ ٱلنَّوَاهِدِ ٱلْمُحَقَّقَةِ ، وَحُسْنَ زِيِّهِنَّ وَشَكْلِهِنَ ؛ لَرَأَيْتَ فِتَناً وَمَنْظَراً حَسَناً ؛ وَأَيْنَ أَنْتَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنَاتِ ٱلأَحْرَارِ وَٱلنَّظَرِ فِيمَا عِنْدَهُنَّ مِنَ ٱلْحَيَاءِ وَٱلتَّحَضُّرِ وَٱلدَّلالِ وَٱلتَّعَطُّرِ ؛ وَأَقْبَلَ خَالِدُ يُجِيدُ فِي ٱلْوَصْفِ وَيُكْثِرُ فِي ٱلإِطْنَابِ بِحَلاوَةِ لَفْظِهِ وَجُودَةِ كَلامِهِ ؛ فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : وَيْحَكَ يَا خَالِدُ ! وَٱللهِ مَا سَلَكَ مَسَامِعِي قَطُّ كَلامٌ أَحْسَنُ مِمّا سَمِعْتُهُ مِنْكَ ، فَأَعِدْهُ عَلَيَّ ؛ فَأَعَادَهُ عَلَيْهِ ، وَزَادَ فِيهِ ؛ ثُمَّ ٱنْصَرَفَ خَالِدُ وَبَقِيَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ مُتَفَكِّراً مَغْمُوماً ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ تُبِرُّهُ بِرّاً كَثِيراً ، وَتَتَقَمَّنُ مَسَرَّتَهُ وَمُوَافَقَتَهُ فِي جَمِيعِ مَا أَرَادَهُ ، فَقَالَتْ لَهُ : مَا لِي أَرَاكَ مَغْمُوماً يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ فَهَلْ حَدَثَ أَمْرٌ تَكْرَهُهُ ؟ أَوْ أَتَاكَ خَبَرٌ ٱرْتَعْتَ لَهُ ؟ قَالَ : لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؛ قَالَتْ : فَمَا قِصَّتُكَ ؟ فَجَعَلَ يَكْتُمُ عَنْهَا ، فَلَمْ

تَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ أَخْبَرَهَا بِمَقَالَةِ خَالِدٍ ، قَالَتْ : فَمَا قُلْتَ لِابْنِ ٱلْفَاعِلَةِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَ ٱللهِ ! أَيَنْصَحُنِي وَتَشْتُمِينَهُ ! فَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَرْسَلَتْ إِلَىٰ خَالِدٍ عَبِيداً لَهَا ، وَأَمَرَتْهُمْ بِضَرْبِهِ وَٱلتَّنْكِيلِ بِهِ ؛ قَالَ خَالِدٌ : وَكُنْتُ ٱنْصَرَفْتُ إِلَىٰ مَنْزِلِي مَسْرُوراً بِمَا رَأَيْتُ مِنْ إِصْغَاءِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ كَلَامِي وَإِعْجَابِهِ بِمَا أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ، وَأَنَا لا أَشُكُّ فِي ٱلصِّلَةِ ، فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ جَاءَ أُولَئِكَ ٱلْعَبِيدُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَقْبَلُوا نَحْوِي أَيْقَنْتُ بِٱلْجَائِزَةِ ، فَوَقَفُوا عَلَيَّ ، وَسَأَلُوا عَنِّي فَعَرَّفْتُهُمْ بِنَفْسِي ، فَأَهْوَىٰ إِلَيَّ أَحَدُهُمْ بِعَمُودٍ كَانَ فِي يَدِهِ ، فَبَادَرْتُ إِلَىٰ ٱلدَّارِ ، وَأَغْلَقْتُ ٱلْبَابَ ، وَمَكَثْتُ أَيَّاماً لا أَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِي ، وَطَلَبَنِي أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ طَلَباً شَدِيداً ، فَلَم أَشْعُرْ ذَاتَ يَوْمٍ إِلَّا بِقَوْمٍ قَدْ هَجَمُوا عَلَيَّ ، فَقَالُوا : أَجِبْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! فَأَيْقَنْتُ بِٱلْمَوْتِ ، وَقُلْتُ : لَمْ أَرَ دَمَ شَيْخٍ أَضْيَعَ مِنْ دَمِي ؛ وَرَكِبْتُ، فَلَم أَصِلْ إِلَىٰ ٱلدَّارِ حَتَّىٰ ٱسْتَقْبَلَنِي عِدَّةُ رُسُلٍ ، فَدَخَلْتُ إِلَىٰ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، فَوَجَدْتُهُ جَالِساً ، فَأَوْمَأَ إِلَيَّ بِٱلْجُلُوسِ ، فَثَابَ إِلَيَّ عَقْلِي ، فَجَلَسْتُ ، وَفِي ٱلْمَجْلِسِ بَابٌ عَلَيْهِ سُتُورٌ قَدْ أُرْخِيَتْ ، وَخَلْفَهُ حَرَكَةٌ ، فَقَالَ لِي : يَا خَالِدُ ! لَمْ أَرَكَ مُنْذُ ثَلاثٍ ؛ قُلْتُ : كُنْتُ عَلِيلًا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؛ قَالَ : إِنَّكَ وَصَفْتَ لِي آخِرَ دَخْلَةٍ مِنْ أَمْرِ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْجَوَارِي مَا لَمْ يَخْرُقْ سَمْعِي قَطُّ كَلامٌ أَحْسَنَ مِنْهُ ، فَأَعِدْهُ عَلَيَّ ؛ قُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ، أَعْلَمْتُكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ إِنَّمَا ٱشْتَقَّتْ ٱسْمَ ٱلضَّرَّةِ مِنَ ٱلضَّرَرِ ، وَأَنَّ أَحَداً لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ ٱمْرَأَتَانِ إِلَّا كَانَ فِي ضَرَرٍ وَتَنْغِيصٍ ، قَالَ : وَيْحَكَ ! لَمْ يَكُنْ هَذَا فِي حَدِيثِكَ ! قُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَخْبَرْتُكَ أَنَّ ٱلثَّلَاثَ مِنَ ٱلنِّسَاءِ كَأَثَافِي ٱلْقِدْرِ ، تَغْلِي عَلَيْهَا أَبَداً ، وَأَنَّ ٱلأَرْبَعَ شَرٌّ مَجْمُوعٍ لِصَاحِبِهِ ، يُهْرِمْنَهُ وَيُسْقِمْنَهُ وَيُضْعِفْنَهُ ، وَأَنَّ أَبْكَارَ ٱلإِمَاءِ رِجَالٌ ، وَلَكِنْ لا خُصَىٰ لَهُنَّ ؛ قَالَ : فَقَالَ : بَرِئْتُ مِنْ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ إِنْ كُنْتُ سَمِعْتُ مِنْكَ مِنْ هَذَا شَيْئاً قَطُّ ؛ قَالَ خَالِدُ : بَلَىٰ ، وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ،

وَعرَّفْتُكَ أَنَّ بَنِي مَخْزُومٍ رَيْحَانَةُ قُرَيْشٍ ، وَأَنَّ عِنْدَكَ رَيْحَانَةُ ٱلرَّيَاحِينِ ، وَأَنْتَ تَطْمَحُ بِعَيْنِكَ إِلَىٰ ٱلإِمَاءِ وَٱلسَّرَارِي ! قَالَ : فَقَالَ : وَيْحَكَ ! أَتُكَذِّبُنِي وَتُكْذِبُنِي ؟! قُلْتُ : أَفَتَقْتُلُنِي يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : فَسَمِعْتُ ضَحِكاً مِنْ وَرَاءِ ٱلسِّتْرِ ، وَقَائِلًا يَقُولُ : صَدَقْتَ وَٱللهِ يَا عَمَّاهُ ، بِهٰذَا حَدَّثْتَهُ ، وَلَكِنَّهُ بَدَّلَ وَغَيَّرَ وَنَطَقَ عَلَىٰ لِسَانِكَ بِمَا لَمْ تَنْطِقْ بِهِ ؛ قَالَ خَالِدُ : فَقُمْتُ عَنْهُمَا ، وَتَرَكْتُهُمَا يَتَرَاوَضَانِ فِي أَمْرِهِمَا ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِرُسُلِ أُمِّ سَلَمَةَ وَمَعَهُمُ ٱلْمَالَ وَتُحَفٌ وَثِيَابٌ ؛ فَقَالُوا لِي : تَقُولُ لَكَ أُمُّ سَلَمَةَ : إِذَا حَدَّثْتَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَحَدِّثْهُ بِمِثْلِ حَدِيثِكَ هَذَا .

* * *

١٤٦٢ ـ وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : كَانَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَكْرَهُونَ ٱتِّخَاذَ أُمَّهَاتِ ٱلأَوْلَادِ ، حَتَّى نَشَأَ فِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ ، وَٱلْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ، فَفَاقُوا أَهْلَ ٱلْمَدِينَةِ فِقْهاً وَوَرَعاً ، فَرَغِبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلسَّرَارِي[1] .

* * *

(١) أُمُّ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ ٱلْمَعْرُوفِ بِزَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ هِيَ سُلَافَةُ بِنْتُ يَزْدَجِرْدَ آخِرِ مُلُوكِ فَارِسٍ ، وَهِيَ أُخْتُ أُمَّهَاتِ ٱلْقَاسِمِ وَسَالِمٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱلصَّحَابَةَ لَمَّا أَتَوْا ٱلْمَدِينَةَ بِسَبْيِ فَارِسٍ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ ، كَانَ مِنْهُمْ ثَلَاثُ بَنَاتٍ لِيَزْدَجِرْدَ ، فَأَمَرَ عُمَرُ بِبَيْعِهِنَّ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ : إِنَّ بَنَاتَ ٱلْمُلُوكِ لا يُعَامَلْنَ مُعَامَلَةَ ٱلسُّوقَةِ ؛ قَالَ : وَكَيْفَ ٱلطَّرِيقُ مَعَهُنَّ ؟ قَالَ : يُقَوَّمْنَ ، وَمَهْمَا بَلَغَ ثَمَنُهُنَّ قَامَ بِهِ مَنْ يَخْتَارُهُنَّ ؛ فَقُوِّمْنَ ، فَاشْتَرَاهُنَّ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَدَفَعَ وَاحِدَةً لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ، وَأُخْرَىٰ لِوَلَدِهِ ٱلْحُسَيْنِ ، وَأُخْرَىٰ لِمُحَمَّدِ ٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِيقِ ؛ فَأَوْلَدَ عَبْدُ اللهِ أَمَتَهُ سَالِماً ، وَأَوْلَدَ ٱلْحُسَيْنُ أَمَتَهُ وَلَدَهُ زَيْنَ ٱلْعَابِدِينَ ، وَأَوْلَدَ مُحَمَّدُ ٱبْنُ أَبِي بَكْرٍ أَمَتَهُ وَلَدَهُ ٱلْقَاسِمَ ؛ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ : وَكَانَتْ أُمُّ عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ مَعْرُوفَةَ ٱلنَّسَبِ خَيِّرَةً ؛ وَكَانَ يُقَالُ لِعَلِيِّ ٱبْنِ ٱلْحُسَيْنِ : ٱبْنُ ٱلْخِيرَتَيْنِ ، لِقَوْلِ رَسُولِ ٱللهِ : « للهِ مِنْ عِبَادِهِ خِيرَتَانِ ، فَخِيرَتُهُ مِنَ ٱلْعَرَبِ قُرَيْشٌ وَمِنَ ٱلْعَجَمِ فَارِسُ » ، وَيَزْدَجِرْدُ هُوَ ٱبْنُ شَهْرِيَار بْنِ أَبْرويزَ بْنِ هُرْمُزَ بْنِ أَنُوشِرْوَان آخِرُ مُلُوكِ ٱلْفُرْسِ ، مَاتَ سَنَةَ إِحْدَىٰ وَثَلَاثِينَ لِلْهِجْرَةِ .

١٤٦٣ ـ وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ [« الكامل » ٢/ ٦٤٥] : يُرْوَىٰ لَنا عَنْ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ لَمْ يُسَمَّ لَنا ، قَالَ : كُنْتُ أُجَالِسُ سَعِيدَ بْنَ ٱلْمُسَيَّبِ ، فَقَالَ لِي يَوْماً : مَنْ أَخْوَالُكَ ؟ فَقُلْتُ : أُمِّي فَتَاةٌ ـ يُرِيدُ : سُرِّيَّةٌ ـ أَمَةٌ ؛ فَكَأَنِّي نَقَصْتُ فِي عَيْنِهِ ، فَأَمْهَلْتُ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْهِ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ رَحِمَهُ ٱللهُ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ قُلْتُ : يَا عَمِّ ! مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ ٱللهِ ، أَتَجْهَلُ مِثْلَ هَذَا مِنْ قَوْمِكَ ! هَذَا سَالِمُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عُمَرَ ؛ قُلْتُ : فَمَنْ أُمُّه ؟ قَالَ : فَتَاةٌ ؛ قَالَ : ثُمَّ أَتَاهُ ٱلْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ ٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ ٱلصِّدِيقِ رَحِمَهُ ٱللهُ ؛ فَجَلَسَ عِنْدَهُ ، ثُمَّ نَهَضَ ، فَقُلْتُ : يَا عَمِّ ! مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : أَتَجْهَلُ مِنْ أَهْلِكَ مِثْلَهُ ! مَا أَعْجَبَ هَذَا ! هَذَا ٱلْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّد ٱبْنِ أَبِي بَكْرٍ ؛ فَقُلْتُ : فَمَنْ أُمُّهُ ؟ قَالَ : فَتَاةٌ ؛ فَأَمْهَلْتُ شَيْئاً حَتَّىٰ جَاءَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ نَهَضَ ، فَقُلْتُ : يَا عَمِّ ! مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا ٱلَّذِي لا يَسَعُ مُسْلِماً أَنْ يَجْهَلَهُ ! هَذَا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ قُلْتُ : فَمَنْ أُمُّه ؟ قَالَ : فَتَاةٌ ؛ قَالَ : قُلْتُ : يَا عَمُّ ! رَأَيْتُنِي نَقَصْتُ فِي عَيْنِكَ لَمَّا عَلِمْتَ أَنِّي لأُمِّ وَلَدٍ ، أَفَمَالِي فِي هَؤُلاءِ أُسْوَةٌ ؟! . . قَالَ : فَجَلَلْتُ فِي عَيْنِهِ جِدّاً .

* * *

١٤٦٤ ـ وَقَالَ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِعَبْدِ ٱلمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ : لَوْ كَانَ رَجُلٌ مِنْ ذَهَبٍ لَكُنْتُهُ ؛ قَالَ : وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لَمْ تَلِدْنِي أَمَةٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ آدَمَ إِلا هَاجَرُ ؛ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْخَلِيلِ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلمَلِكِ : لَوْلا هَاجَرُ لَكُنْتَ كَلْباً مِنَ ٱلْكِلابِ .

* * *

١٤٦٥ ـ وَيُقَالُ : إِنَّ أَوَّلَ مَلِكٍ وُلِدَ مِنْ سُرِّيَّةٍ في ٱلإِسْلَامِ هُوَ يَزِيدُ بْنُ ٱلوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلمَلِكِ ، وَذَلِكَ أَنَّ قُتَيْبَةَ بْنَ مُسْلِمٍ حِينَ ٱفْتَتَحَ ٱلصُّغْدَ وَجَدَ جَارِيَتَيْنِ ـ فَتَاتَيْنِ ـ مِنْ أَوْلادِ فَيْرُوزَ بْنِ يَزْدَجِرْدَ ، فَبَعَثَ بِهِمَا إِلَىٰ ٱلْحَجَّاجِ ، فَبَعَثَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُمَا إِلَىٰ ٱلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ؛ فَوَلَدَتْ لَهُ يَزِيدَ ، وَكَانَتْ سُلافَةُ أُمُّ زَيْنِ ٱلْعَابِدِينَ عَمَّةُ أُمِّ يَزِيدَ .

* * *

١٤٦٦ ـ قَالَ ٱبْنُ حَزْمٍ في كِتَابِهِ : « نَقْط ٱلْعَرُوسِ » [ صفحة : ١٠٤ ] : وَلَمْ يَلِ ٱلْخِلافَةَ فِي ٱلصَّدْرِ ٱلأَوَّلِ مَنْ أُمُّهُ أَمَةٌ ، حَاشَا يَزِيدَ بْنَ ٱلْوَلِيدِ ؛ وَلا وَلِيَهَا مِنْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ مَنْ أُمُّهُ حُرَّةٌ حَاشَا ٱلسَّفَّاحَ وَٱلْمَهْدِيَّ وَٱلأَمِينَ ؛ قَالَ : وَلَمْ يَلِهَا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ في ٱلأَنْدَلُسِ مَنْ أُمُّهُ حُرَّةٌ أَصْلًا .

* * *

١٤٦٧ ـ قَالَ ٱلتِّيجَانِيُّ صَاحِبُ « تُحْفَةِ ٱلْعَرُوسِ » [ صفحة : ١٨٥ ] : وَقَدْ أَخْبَرَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ ، فَقَالَ في حَدِيثِ ٱبْنِ عُمَرَ ، عَنْهُ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جِبْرِيلُ عَنْ أَمَارَتِهَا فَقَالَ : « أَنْ تَلِدَ ٱلأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَىٰ ٱلْحُفَاةَ ٱلْعُرَاةَ ٱلْعَالَةَ رِعَاءَ ٱلشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي ٱلْبُنْيَانِ » [مسلم ، رقم : ٨] .

قَالَ ٱلْعُلَمَاءُ [« تحفة العروس » صفحة : ١٨٥] : مَعْنَىٰ قَوْلِهِ : « أَنْ تَلِدَ ٱلأَمَةُ رَبَّتَهَا » : أَنَّ ٱلإِسْلامَ يَتَّسِعُ وَتَكْثُرُ ٱلسَّرَارِي وَيَسْتَوْلِدُهُنَّ ٱلْمُلُوكُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ ، فَكَأَنَّ ٱبْنَةَ ٱلسُّرِّيَّةِ ـ وَهِيَ ٱلأَمَةُ ـ رَبَّتُهَا ، لأَنَّهَا مِلْكٌ لأَبِيهَا ، وَمِلْكُ ٱلأَبِ في ٱلتَّقْدِيرِ كَأَنَّهُ مِلْكٌ لِلْوَلَدِ .

أَقُولُ : هَذَا بَعْضُ حَدِيثٍ أَوْرَدَهُ ٱلْبُخَارِيُّ في بَابِ الإِيمَانِ [رقم : ٥٠] وَفي

بَابِ ٱلْفِتَنِ وَفي بَابِ ٱلتَّفْسِيرِ [رقم : ٤٧٧٧] ، كَمَا أَوْرَدَهُ مُسْلِمٌ [رقم : ٨] وَغَيْرُهُ .
وَنَحْنُ نُورِدُهُ عَلَىٰ ٱلْوَجْهِ ٱلآتِي ، قَالَ ٱلرُّوَاةُ : بَيْنَمَا نَحْنُ ذَاتَ يَوْمٍ عِنْدَ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ ٱلثِّيَابِ ، شَدِيدُ سَوَادِ ٱلشَّعْرِ ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ ٱلسَّفَرِ ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ ٱلنَّبِيِّ ﷺ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! مَا ٱلإِيمَانُ ؟ قَالَ : « ٱلإِيمَانُ : أَنْ تُؤْمِنَ بِٱللهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، [ وَكُتُبِهِ ] ، وَبِلِقَائِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَتُؤْمِنَ بِٱلْبَعْثِ » ، قَالَ : مَا ٱلإِسْلامُ ؟ قَالَ : « ٱلإِسْلامُ : أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ ، وَتُقِيمَ ٱلصَّلاةَ ، وَتُؤَدِّيَ ٱلزَّكَاةَ ٱلْمَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ » ؛ قَالَ : مَا ٱلإِحْسَانُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَعْبُدَ ٱللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » ؛ قَالَ : مَتَّى تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ؟ قَالَ : « مَا ٱلْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ ٱلسَّائِلِ ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا ـ عَلامَاتِهَا ـ إِذَا وَلَدَتِ ٱلأَمَةُ رَبَّتَهَا ـ وَفِي رِوَايَةٍ : رَبَّهَا ـ وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ ٱلإِبِلِ ٱلْبُهْمُ فِي ٱلْبُنْيَانِ ، في خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا ٱللهُ »[1] ؛ ثُمَّ تَلَا ٱلنَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [٣١ سورة لقمان/ الآية : ٣٤] ٱلآيَةَ[2] ، ثُمَّ أَدْبَرَ ـ أَيْ : ٱلسَّائِلُ ـ فَقَالَ ـ أَيْ : ٱلرَّسُولُ ـ : « رُدُّوهُ » ،

---

(١) في خَمْسٍ ، أَيْ : إِنَّ عِلْمَ وَقْتِ ٱلسَّاعَةِ دَاخِلٌ في جُمْلَةِ خَمْسٍ ، أَيْ : إِنَّ هُنَاكَ أُمُوراً خَمْسَةً مِنَ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا ٱللهُ ، وَمِنْ هَذِهِ ٱلأُمُورِ ٱلْخَمْسَةِ عِلْم وَقْتِ ٱلسَّاعَةِ .

(٢) قَالَ ٱلإِمَامُ ٱلْقُرْطُبِيُّ : ٱلْمَقْصُودُ ٱلإِخْبَارُ عَنْ تَبَدُّلِ ٱلْحَالِ بِأَنْ يَسْتَوْلِيَ أَهْلُ ٱلْبَادِيَةِ عَلَىٰ ٱلأَمْرِ وَيَتَمَلَّكُوا ٱلْبِلادَ بِٱلقَهْرِ ، فَتَكْثُرَ أَمْوَالُهُمْ وَتَنْصَرِفَ هِمَمُهُمْ إِلَىٰ تَشْيِيدِ ٱلْبُنْيَانِ وَٱلتَّفَاخُرِ بِهِ ، وَمِنْهُ ٱلْحَدِيثُ ٱلآخَرُ : « لا تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ أَسْعَدَ ٱلنَّاسِ بِٱلدُّنْيَا لُكَعُ بْنُ لُكَعٍ ! » [الترمذي ، رقم : ٢٢٠٩] « ٱللُّكَعُ : ٱللَّئِيمُ » ، وَمِنْهُ : « إِذَا وُسِّدَ ٱلأَمْرُ ـ أَيْ : أُسْنِدَ ـ إِلَىٰ غَيْرِ أَهْلِهِ فَٱنْتَظِرُوا ٱلسَّاعَةَ » .
قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لإِفْضَائِهِ إِلَىٰ ٱخْتِلالِ ٱلأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَوَهْنِ الدِّيْنِ وَضَعْفِ ٱلإِسْلامِ وَغَلَبَةِ ٱلْجَهْلِ وَرَفْعِ ٱلْعِلْمِ وَعَجْزِ أَهْلِ ٱلْحَقِّ عَنِ ٱلْقِيَامِ بِهِ وَنُصْرَتِهِ .

فَلَمْ يَرَوْا شَيْئاً ؛ فَقَالَ : « هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ ٱلنَّاسَ دِينَهُمْ » . . .

وَنَحْنُ لا نَرَىٰ دَاعِياً لِتَفْسِيرِ هَذَا ٱلْحَدِيثِ[١] ، ٱللَّهُمَّ إِلَّا مَا تَعَلَّقَ مِنْهُ بِمَوْضُوعِنَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « أَنْ تَلِدَ ٱلأَمَةُ رَبَّتَهَا » ، وَفِي رِوَايَةٍ : « رَبَّها » ؛ وَقَدْ ذَهَبَ عُلَمَاؤُنَا فِي مَعْنَىٰ ذَلِكَ مَذَاهِبَ شَتَّىٰ ، أَحَدُهَا مَا أَوْرَدَهُ ٱلتِّيْجَانِيُّ آنِفاً ، وَمِنْ هَذِهِ ٱلتَّفَاسِيرِ : أَنْ يَكْثُرَ ٱلعُقُوقُ فِي ٱلأَوْلادِ ، فَيُعَامِلَ ٱلْوَلَدُ أُمَّهُ مُعَامَلَةَ ٱلسَّيِّدِ أَمَتَهُ ، مِنَ ٱلإِهَانَةِ ، بِٱلسَّبِّ وَٱلضَّرْبِ وَٱلاسْتِخْدَامِ .

رَاجِعْ « فتح الباري شَرْحِ ٱلْبُخَارِي » باب الإيمان [رقم : ٥٠] .

* * *

١٤٦٨ ـ وَقالَ ٱلْمُبَرِّدُ في « ٱلْكامِلِ » [٢/ ٦٥٠] : أَنْشَدَني ٱلرِّياشِيُّ [من مجزوء الرمل] :

إِنَّ أَوْلادَ ٱلسَّراري كَثُرُوا يا رَبِّ فينا
رَبِّ أَدْخِلْني بِلاداً لا أَرىٰ فيها هَجينا

* * *

١٤٦٩ ـ وَقالَ ٱلسُّلَيْكُ بْنُ ٱلسُّلَكَةِ[٢] [« الكامل » ٢/ ٦٤٣] ـ وَٱلسُّلَكَةُ أُمُّهُ ، وَكانَتْ سَوْداءَ حَبَشِيَّةً [من الوافر] :

---

(١) نَظْمُ ٱلآيَةِ هَكَذَا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [٣١ سورة لقمان/ الآية : ٣٤] [ وَهَذِهِ ٱلأُمُورُ ٱلْخَمْسُ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةُ فِي قَوْلِهِ ﷺ : « مَفَاتِيحُ ٱلْغَيْبِ خَمْسٌ » البخاري ، رقم : ٤٧٧٨ ] .

(٢) شاعِرٌ جاهِلِيٌّ لِصٌّ فَتَّاكٌ ، وَكَانَ أَحَدُ ٱلْعَدَّائِينَ ٱلَّذِينَ لا تَلْحَقُهُمُ ٱلْخَيْلُ ، وَهُم : ٱلشَّنْفَرىٰ ، وَتَأَبَّطَ شَرّاً ، وَعَمْرُو بْنُ بَرَاقٍ ، وَنُفَيْلُ بْنُ براقة .

أَشــابَ ٱلــرَّأْسَ أَنِّــي كُــلَّ يَــوْمٍ أَرىٰ لـي خـالَـةً وَسْـطَ ٱلـرِّحـالِ[1]
يَشُــقُّ عَلــيَّ أَنْ يَلْقَيْــنَ ضَيْمــاً وَيَعْجِــزُ عَــنْ تَخَلُّصِهِــنَّ مــالــي

* * *

١٤٧٠ ـ وَقالَ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ ٱلْحُرِّ [« الكامل » ٢/٦٤٦] ، وَكانَ شاعِراً مُتَقَدِّماً ، وَكانَ لأُمِّ وَلَدٍ ، وَهُوَ مِنْ وَلَدِ مَرْوانَ بْنِ ٱلْحَكَمِ [من الطويل] :

فَـإِنْ تَـكُ أُمِّـي مِـنْ نِسـاءٍ أَفـاءَهـا جِيادُ ٱلْقَنا وَٱلْمُرْهَفاتِ ٱلصَّفائِحِ[2]
فَتَبّـاً لِفَضْـلِ ٱلْحُـرِّ إِنْ لَـمْ أَنَـلْ بِـهِ كَـرائِـمَ أَوْلادِ ٱلنِّسـاءِ ٱلصَّـرائِـحِ

قالَ ٱلْمُبَرِّدُ [« الكامل » ٢/٦٤٦] : وَإِنَّما أَخَذَ هَذا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ [من الكامل] :

وَأَنـا ٱمْـرُؤٌ مِـنْ خَيْـرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شَطْرِي وَأَحْمِي سائِرِي بِٱلْمُنْصُلِ[3]

* * *

١٤٧١ ـ وَقالَ بِلالُ بْنُ جَريرٍ ، وَبَلَغَهُ أَنَّ مُوسىٰ بْنَ جَريرٍ كانَ إِذا ذَكَرَهُ نَسَبَهُ إِلىٰ أُمِّهِ ، لأَنَّهُ ٱبْنُ أُمِّ وَلَدٍ ، فَيَقولُ : قالَ ٱبْنُ أُمِّ حَكيمٍ ؛ فَقالَ بِلالُ [من الرجز] :

يــا رُبَّ خــالٍ لــي أَغَــرَّ أَبْلَجــا مِــنْ آلِ كِسْــرىٰ يَغْتَــدي مُتَــوَّجــا
لَيْــسَ كَخــالٍ لَــكَ يُــدْعــىٰ عَشْنَجــا

وَٱلْعَشْنَجُ : ٱلْمُتَقَبِّضُ ٱلْوَجْهِ ، ٱلسَّيِّءُ ٱلْمَنْظَرِ ، وَهُوَ مُخَفَّفٌ مِنْ عَشَنَّجٍ ،

---

(١) ٱلرِّحالُ : ٱلْبيوتُ .
(٢) أَفاءَها مِنَ ٱلْفَيْءِ ، وَهُوَ : ٱلْغَنيمَةُ ، تَقُولُ : أَفَأْتُ عَلىٰ قَوْمِي فَيْئاً : إِذا أَخَذْتَ لَهُمْ بِسَلَبِ قَوْمٍ آخَرينَ فَجِئْتَهُمْ بِهِ ؛ وَجِيادُ فاعِلُ أَفاءَ ؛ وَٱلصَّفائِحُ : ٱلسُّيُوفُ ٱلْعِراضُ .
(٣) شَطْرِي مُبْتَدَأٌ ، وَٱلْخَبَرُ هُوَ « مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ » وَٱلْمُنْصُلُ بِضَمِّ ٱلْمِيمِ مَعَ ضَمِّ ٱلصَّادِ وَفَتْحِها : ٱسْمٌ لِلسَّيْفِ ، قالَ ٱبْنُ سِيدَهْ : لا نَعْرِفُ في ٱلْكَلامِ ٱسْماً عَلىٰ مُفْعُلٍ وَمُفْعَلٍ إِلَّا هَذا ، وَقَوْلَهُمْ : مُنْخُل وَمُنْخَلُ .

بِفَتْحِ ٱلشِّينِ وَٱلنُّونِ ٱلْمُشَدَّدَةِ . قالَ ٱلْمُبَرِّدُ [ « الكامل » ٢/٦٤٧] : وَكانَ سَبَبُ أُمِّ بِلالٍ عِنْدَ جَريرٍ أَنَّ جَريراً في أَوَّلِ دُخُولِهِ ٱلْعِراقَ دَخَلَ عَلىٰ ٱلْحَكَمِ بْنِ أَيُّوبَ ٱبْنِ أَبي عَقيلٍ ٱلثَّقَفِيِّ ، وَهُوَ ٱبْنُ عَمِّ ٱلْحَجَّاجِ وَعامِلُهُ عَلىٰ ٱلْبَصْرَةِ . وَفي ذَلِكَ يَقُولُ جَريرٌ [من الرجز] :

أَقْبَلْنَ مِنْ ثَهْلانَ أَوْ وادي خِيَمْ ... عَلىٰ قِلاصٍ مِثْلِ خِيطانِ ٱلسَّلَمْ[١]

إِذا قَطَعْنَ عَلَماً بَدا عَلَمْ ... حَتّىٰ أَنَخْناها إِلىٰ بابِ ٱلْحَكَمْ[٢]

خَليفَةِ ٱلْحَجّاجِ غَيْرِ ٱلْمُتَّهَمْ ... في ضِئْضِئِ ٱلْمَجْدِ وبُحْبُوحِ ٱلْكَرَمْ[٣]

فَكَتَبَ ٱلْحَكَمُ بَعْدَ أَنْ فاطَنَهُ[٤] إِلىٰ ٱلْحَجّاجِ ، وَذَلِكَ في أَوَّلِ سَبَبِهِ ، أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ أَعْرابِيٌّ باقِعَةٌ[٥] لَمْ أَرَ مِثْلَهُ . فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحَجّاجُ أَنْ يَحْمِلَهُ مَعَهُ ، فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قالَ لَهُ : بَلَغَني أَنَّكَ ذو بَديهَةٍ ، فَقُلْ في هَذِهِ ٱلْجارِيَةِ ؛ لِجارِيَةٍ قائِمَةٍ عَلىٰ رَأْسِهِ ، فَقالَ جَريرُ : مالي أَنْ أَقُولَ فيها حَتّىٰ أَتَأَمَّلَها ، وَمالي أَنْ أَتَأَمَّلَ جارِيَةَ ٱلأَميرِ ! فَقالَ : بَلىٰ ، فَتَأَمَّلْها وَٱسْأَلْها ؛ فَقالَ لَها : ما ٱسْمُكِ يا جارِيَةُ ؟ فَأَمْسَكَتْ ، فَقالَ لَها : ٱلْحَجّاجُ : خَبِّريهِ يا لَخْناءُ[٦] ؛ فَقالَتْ :

---

(١) أَقْبَلْنَ ، يُريدُ جَماعَةَ ٱلرُّكْبانِ ٱلَّذينَ مَعَهُ ؛ وَثَهْلانُ وَخِيَمُ : جَبلانِ بِنَجْدٍ ؛ وَٱلْقِلاصُ جَمْعُ قَلُوصٍ ، وَهِيَ : ٱلنّاقَةُ ٱلْفَتِيَّةُ ؛ وَٱلْخِيطانُ جَمْعُ خُوطٍ ـ بِٱلضَّمِّ ـ جَمْعُ خُوطَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْغُصْنُ ٱلنّاعِمُ ؛ وَٱلسَّلَمُ : شَجَرٌ واحِدَتُهُ سَلَمَةٌ ، يَصِفُ ضُمُورَ ٱلنّاقَةِ .

(٢) ٱلْعَلَمُ : ٱلْجَبَلُ ؛ وَقَوْلُهُ : أَنَخْناها إِلىٰ بابِ ٱلْحَكَمْ ، يُرْوىٰ : حَتّىٰ تَناهَيْنَ بِنا إِلىٰ ٱلْحَكَمْ .

(٣) ٱلضِّئْضِئُ : ٱلأَصْلُ ؛ وَبُحْبُوحُ ٱلْكَرَمِ : وَسَطُهُ .

(٤) فاطَنَهُ : راجَعَهُ في ٱلْحَديثِ ، قالَ ٱلرّاعِي [من الطويل] :

إِذا فاطَنَتْنا في ٱلْحَديثِ تَهَزْهَزَتْ ... إِلَيْها قُلُوبٌ دُونَهُنَّ ٱلْجَوانِحُ

تَهَزْهَزَ إِلَيْهِ قَلْبي : ٱرْتاحَ وَهَشَّ .

(٥) ٱلْباقِعَةُ في ٱلأَصْلِ : ٱلطّائِرُ ٱلْحَذِرُ ٱلْحاذِقُ ٱلْبَصيرُ بِٱلأُمُورِ لا يَفُوتُهُ شَيْءٌ .

(٦) من اللَّخَنِ ، وَهُوَ : نَتَنُ ٱلرّيحِ ، وَأَكْثَرُ ما يُقالُ لِلأَمَةِ ٱلسَّوْداءِ ، وَيُقالُ : هِيَ ٱلَّتي لَمْ تُخْتَتَنْ .

أُمامَةُ ؛ فقالَ جَريرُ [من الكامل] :

وَدِّعْ أُمامَةَ حانَ مِنْكَ رَحيلُ    إِنَّ ٱلْوَدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قليلُ
مِثْلَ ٱلْكَثيبِ تَمايَلَتْ أَعْطافُهُ    فَٱلرِّيحُ تَجْبُرُ مَتْنَهُ وَتَهيلُ
هٰذي ٱلْقُلُوبُ صَوادِياً تَيَّمْتِها    وَأَرىٰ ٱلشِّفاءَ وَما إِلَيْهِ سَبيلُ

فَقالَ لَهُ ٱلْحَجّاجُ : قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لَكَ ٱلسَّبيلَ إِلَيْها ، خُذْها هِيَ لَكَ ؛ فَضَرَبَ بِيَدِهِ إِلىٰ يَدِها ، فَتَمَنَّعَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ [من الكامل] :

إِنْ كانَ طِبُّكُمُ ٱلدَّلالُ فَإِنَّهُ    حَسَنٌ دَلالُكِ يا أُمامَ جَميلُ[١]

فَٱسْتَضْحَكَ ٱلْحَجّاجُ، وَأَمَرَ بِتَجْهيزِها مَعَهُ إِلىٰ ٱلْيَمامَةِ. قالَ ٱلْمُبَرِّدُ [«الكامل» ٦٤٨/٢]: وَخُبِّرْتُ أَنَّها كانَتْ مِنْ أَهْلِ ٱلرَّيِّ ، وَكانَ إِخْوَتُها أَحْراراً ، فَٱتَّبَعُوهُ ، فَأَعْطَوْهُ بِها حَتّىٰ بَلَغُوا عِشْرينَ أَلْفاً ، فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَفي ذٰلِكَ يَقُولُ [من الطويل] :

إِذا عَرَضُوا عِشْرينَ أَلْفاً تَعَرَّضَتْ    لأُمِّ حَكيمٍ حاجَةٌ هِيَ ماهِيا
لَقَدْ زِدْتِ أَهْلَ ٱلرَّيِّ عِنْدي مَوَدَّةً    وَحَبَّبْتِ أَضْعافاً إِلَيَّ ٱلْمَواليا

فَأَوْلَدَها حَكيماً وَبِلالاً وَحَزْرَةَ بَني جَريرٍ ، وَهٰؤُلاءِ مَنْ أَذْكُرُ مِنْ وَلَدِها . وَيُقالُ : إِنَّ ٱلْحَمّانِيَّ ـ شاعر راجِزٌ ـ قاوَلَ بِلالَ ذاتَ يَوْمٍ فِيما كانَ بَيْنَهُما مِنْ شَرٍّ ، فَقالَ : يا ٱبْنَ أُمِّ حَكيمٍ ! فَقالَ لَهُ بِلالُ : ما تَذْكُرُ مِنِ ٱبْنَةِ دُهْقانٍ[٢] وَأَخيذَةِ رِماحٍ[٣] وَعَطِيَّةِ مَلِكٍ ! لَيْسَتْ كَأُمِّكَ ٱلَّتي بِٱلمَرُّوتِ[٤] تَغْدُو عَلىٰ إِثْرِ

---

(١) لَكَ أَنْ تَرْفَعَ « ٱلطِّبَّ » وَتَنْصِبَ « ٱلدَّلالَ » وَلَكَ أَنْ تَعْكِسَ ؛ وَٱلطِّبُّ : ٱلْمَذْهَبُ ؛ وَٱلدَّلالُ : ٱلدَّالَّةُ .

(٢) ٱلدِّهْقانُ : ٱلتّاجِرُ ، [ بَلْ هُوَ رَئِيسُ ٱلْفَلاّحينَ ، وَمَا يُقَالُ عَنه : ٱلإِقْطاعِيُّ ، أَوْ ٱلإِقْطَاعِيُّونَ ] .

(٣) أَخيذَةُ : أَسيرَةُ .

(٤) ٱلْمَرُّوتُ : ٱسْمُ وادٍ لِبَني حَمّانَ بِٱلْعالِيَةِ .

ضَأْنِها ، كَأَنَّما عَقِباها حافِرا حِمارٍ ! فَقَالَ لَهُ ٱلْحِمَّانِيُّ : أَنا أَعْلَمُ بِأُمِّكَ ، إِنَّما عَتَبَ عَلَيْها ٱلْحَجَّاجُ في أَمْرٍ ٱللهُ أَعْلَمُ بِهِ ، فَحَلَفَ أَنْ يَدْفَعَها إِلىٰ أَلأَمِ ٱلْعَرَبِ ، فَلَمَّا رَأَىٰ أَبَاكَ لَمْ يَشْكُكْ فِيهِ .

* * *

١٤٧٢ ـ وَمِنْ كَلِمَةٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ رَحِمَهُمُ ٱللهُ ، وَكَانَ قَدْ خَرَجَ عَلَىٰ أَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ سَنَة ١٤٥هـ ، وَكَانَ يُلَقَّبُ بِٱلمَهْدِيّ وَبِٱلنَّفْسِ ٱلزَّكِيَّةِ ، فَكَتَبَ إِلَىٰ أَبِي جَعْفَرٍ مَا هَذَا بَعْضُهُ : وَٱعْلَمْ أَنِّي لَسْتُ مِنْ أَولادِ ٱلطُّلَقَاءِ(١) ، وَلا أَوْلادِ ٱللُّعَنَاءِ(٢) ، وَلا أَعْرَقَتْ فِيَّ ٱلإماءُ(٣) ، وَلا حَضَنَتْنِي أُمَّهَاتُ ٱلأَوْلادِ ؛ وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورُ بِرِسَالَةٍ مُسْتَحْسَنَةٍ جِداً تَرَاهَا في آخِرِ « ٱلْكامِل » [٢١٤٩٠ ـ ١٤٩٤ ، و٦٥٠] يَقُولُ فِيهَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِغَرَضِنَا : وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّهُ لَمْ تُعرِقْ فِيكَ ٱلإِمَاءُ فَقَدْ فَخَرْتَ عَلَىٰ بَنِي هَاشِمٍ طُرًّا ، أَوَّلُهُمْ إِبْرَاهِيمُ(٤) ٱبْنُ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ ، زَينُ ٱلْعَابِدِينَ ، ٱلَّذِي لَمْ يُولَدْ فِيكُمْ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ مَوْلُودٌ مِثْلُهُ .

* * *

---

(١) ٱلطُّلَقَاءُ ، جَمْعُ طَلِيقٍ ، وَهُوَ : ٱلأَسِيرُ يُخْلَىٰ عَنْهُ وَيُطْلَقُ فَلا يُسْتَرَقُّ ، يُعَرِّضُ بِبَنِي ٱلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمُطَّلِبِ ، وَكَانَ قَدْ أُسِرَ يَوْمَ بَدْرٍ . [ وَكَانَ يُقَالُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ : صَرِيحُ قُرَيْشٍ ، لأَنَّ أُمَّهُ وَجَدَّاتِهِ لَمْ يَكُنْ فِيهِنَّ أُمُّ وَلَدٍ ] .

(٢) يُعَرِّضُ بِمُعَاوِيَةَ وَأَخِيهِ يَزِيدَ وَأَبِيهِ أَبِي سُفْيَانَ ، لِقَوْلِ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ وَقَدْ رَأَىٰ أَبَا سُفْيَانَ رَاكِباً جَمَلًا يَقُودُهُ مُعَاوِيَةُ وَيَسُوقُهُ يَزِيدُ أَخُوهُ : « لَعَنَ ٱللهُ ٱلْجَمَلَ وَرَاكِبَهُ وَقَائِدَهُ وَسَائِقَهُ » .

(٣) يُرِيدُ : لَمْ تَمَسَّنِي عُرُوقُ ٱلإِمَاءِ وَلَمْ تُخالِطْنِي ، يُقَالُ : أَعْرَقَ فِيهِ ٱللِّئَامُ ، وَعَرَّقُوا : إِذَا خَالَطَهُ مِنْ لُؤْمِهِمْ شَيْءٌ وَتَخَلَّقَ بِأَخْلاقِهِمْ ، يُرِيدُ بِذَلِكَ آخِرَ مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ : مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ ٱلَّذِي مَزَّقَتْ مُلْكَهُ شِيعَةُ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ وَبَدَّدُوا شَمْلَهُ ، وَأُمُّهُ أَمَةٌ كَانَتْ لإِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلأَشْتَرِ ٱلنَّخَعِيِّ .

(٤) إِذْ أَنَّهُ ٱبْنُ مَارِيَةَ ٱلْقِبْطِيَّةِ ٱلَّتِي أَهْدَاهَا إِلَيْهِ ٱلْمُقَوْقِسُ .

١٤٧٣ ـ وَرَوَىٰ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : جَاءَ عُمَرُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ ، فَرَأَىٰ ٱمْرَأَةً عَلَيْهَا جِلْبَابٌ ـ خِمَارٌ تُغَطِّي بِهِ ٱلْمَرْأَةُ رَأْسَهَا وَصَدْرَهَا ـ فَرَجَعَ ، ثُمَّ جَاءَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ ثَانِيَةً ، ثُمَّ رَجَعَ ، حَتَّىٰ فَعَلَ ذَٰلِكَ مِرَاراً ، فَلَمَّا ٱنْصَرَفَتْ ، قَالَ لِأَهْلِهِ : مَنْ هَذِهِ ٱلَّتِي عَنَّتْنَا مُنْذُ ٱلْيَوْمِ ؟ قَالُوا : هِيَ أَمَةُ فُلانٍ ؛ فَلَمَّا رَاحَ عُمَرُ ، قَالَ لِلنَّاسِ : لا تَتَشَبَّهُ ٱلأَمَةُ بِسَيِّدَتِهَا ، لا تُلْبِسُوهُنَّ ٱلجَلابِيبَ ، فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآية : ٥٩] . قَالَ ٱبْنُ حَبِيبٍ : وَلَمْ أَرَ بِٱلْمَدِينَةِ أَمَةً تَخْرُجُ ، وَإِنْ كَانَتْ رَابِيَةً ، إِلَّا مَكْشُوفَةَ ٱلرَّأْسِ ، لا تُلْقِي جِلْبَاباً عَلَىٰ رَأْسِهَا ؛ قَالَ : وَلا بَأْسَ أَنْ تُصَلِّيَ ٱلأَمَةُ كَذَلِكَ مَكْشُوفَةَ ٱلرَّأْسِ وَٱلمعْصَمِ ، وَلا بَأْسَ أَنْ تُبْدِيَ ذَٰلِكَ فِي غَيْرِ ٱلصَّلاةِ ، وَٱلسَّرَارِي فِي هَذَا وَغَيْرُ ٱلسَّرَارِي بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَفَرَّقَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا بَيْنَ ٱلإِمَاءِ ٱلْحِسَانِ ٱلْمَصُونَاتِ ٱلْمَقْصُورَاتِ ٱلْحَامِلاتِ مِنَ ٱلْجَمَالِ أَكْثَرَ مِمَّا تَحْمِلُهُ ٱلْحَرَائِرُ ، وَبَيْنَ ٱلإِمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلاتِ ، فَمَالَ إِلَىٰ وُجُوبِ ٱلتَّسَتُّرِ عَلَىٰ مَنْ كَانَتْ مِنْهُنَّ بِٱلصِّفَةِ ٱلأُولَىٰ ، وَسُقُوطِهِ عَمَّنْ كَانَتْ بِضِدِّ ذَٰلِكَ ، وَحُكِيَ عَنِ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ ، أَنَّهُ كَانَ يُوجِبُ ٱلْخِمَارَ عَلَىٰ ٱلسُّرِّيَّةِ ، يَعْنِي ٱلأَمَةَ ٱلَّتِي ٱتَّخَذَهَا ٱلرَّجُلُ لِنَفْسِهِ ، سَوَاءٌ كَانَتْ جَمِيلَةً أَوْ شَوْهَاءَ ، وَأَمَّا أُمَّهَاتُ ٱلأَوْلادِ ، فَإِنَّ حُكْمَهُنَّ حُكْمُ ٱلْحَرَائِرِ فِي لِبَاسِهِنَّ وَصَلاتِهِنَّ .

* * *

## طُرَفٌ مِنِ ٱسْتِنْكَارِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْهُجْنَةِ :

١٤٧٤ ـ ذَهَبَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى سَوَّارٍ ٱلْقَاضِي[١] ، فَقَالَ : إِنَّ أَبِي مَاتَ ،

(١) هُوَ سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ، كَانَ قَاضِياً بِٱلْبَصْرَةِ لِأَبِي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ .

وَتركَنِي وَأخاً لِي ؛ وَخطَّ خطَّيْنِ نَاحِيَةً ، ثُمَّ قَالَ : وَهَجِيناً لَنَا ؛ وَخطَّ خطًّا آخَرَ ناحِيَةً ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ يُقْسَمُ ٱلْمَالُ بَيْنَنَا ؟ فَقَالَ : ٱلْمَالُ بَيْنَكُمْ أَثْلاثاً إِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ غَيْرُكُمْ ؛ فَقَالَ لَهُ : لا أَحْسَبُكَ فَهِمْتَ ! إِنَّهُ تَرَكَنِي وَأَخِي وَهَجِيناً لَنَا ؛ فَقَالَ سَوَّارُ : ٱلْمَالُ بَيْنَكُمْ سَواءٌ ؛ فَقَالَ ٱلأَعْرَابِيُّ : أَيَأْخُذُ ٱلْهَجِينُ كَمَا آخُذُ وَيَأْخُذُ أَخِي ؟ قَالَ : أَجَلْ ! فَغَضِبَ ٱلأَعْرَابِيُّ ، وَقَالَ : تَعَلَّمْ ! وَٱللهِ إِنَّكَ قَلِيلُ ٱلْخَالاتِ بِٱلدَّهْنَاءِ[1] .

* * *

١٤٧٥ ـ وَحَكَىٰ ٱلْجَاحِظُ قَالَ : قُلْتُ لِعُبَيْدٍ ٱلْكِلابِيِّ ، وَكَانَ فَصِيحاً فَقِيراً : أَيَسُرُّكَ أَن تكُونَ هَجِيناً وَلَكَ أَلْفُ جَرِيبٍ[2] ؟ قَالَ : لا أُحِبُّ ٱللُّؤْمَ بِشَيْءٍ ؛ قُلْتُ : فَإِنَّ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱبْنُ أَمَةٍ ! قَالَ : أَخْزَىٰ ٱللهُ مَنْ أَطَاعَهُ !

* * *

١٤٧٦ ـ وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ عُلَّفَةَ ٱلشَّاعِرُ مِنَ ٱلْغَيْرَةِ وَٱلأَنَفَةِ عَلَىٰ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، فَخَطَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ ٱبْنَتَهُ عَلَىٰ أَحَدِ بَنِيهِ ، وَكَانَتْ لِعَقِيلٍ إِلَيْهِ حَاجَاتٌ ، فَقَالَ عَقِيلُ : أَمَّا إِذْ كُنْتَ فَاعِلًا فَجَنِّبْنِي هُجَنَاءَكَ يُرِيدُ أَبْنَاءَ ٱلإِمَاءِ ، وَهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ ، وَمَسْلَمَةُ ، وَٱلْمُنْذِرُ ، وَعَنْبَسَةُ ، وَمُحَمَّدُ ، وَسَعِيدُ ٱلْخَيْرِ ، وَٱلْحَجَّاجُ . [ راجع رقم : ٧٥٥ ] .

* * *

(١) قَالُوا : إِنَّه لَيْسَ بِٱلدَّهْنَاءِ أَمَةٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ بِهَا ٱلْحَرَائِرُ .

(٢) ٱلْجَرِيبُ : ٱلْمَزْرَعَةُ ، [ أَوْ ، هُوَ : مِكْيَالٌ مِقْدَارُهُ : أَرْبَعَةُ أَقْفِزَةٍ ، وَٱلْجَرِيبُ مِنَ ٱلأَرْضِ : مَبْذَرُ ٱلْجَرِيبِ ، أَوْ مِقْدَارُ ٱلأَرْضِ ٱلَّتِي تَسْتَهْلِكُ جَرِيباً فِي بَذْرِهَا ] .

١٤٧٧ ـ وَخَطَبَ إِلَيْهِ ٱبْنَتَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ هِشَامِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ ، وَهُوَ خَالُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ، وَوَالِي ٱلْمَدِينَةِ ، وَكَانَ أَبْيَضَ ، شَدِيدَ ٱلْبَيَاضِ ؛ فَرَدَّهُ عَقِيلٌ وَقَالَ [من الوافر] :

رَدَدْتُ صَحِيْفَةَ ٱلْقُرَشِيِّ لَمَّا ... أَبَتْ أَعْرَاقُهُ إِلَّا ٱحْمِرَارَا

[ راجع رقم : ٧٥٦ ] .

* * *

١٤٧٨ ـ وَقَالَ ٱلْمُخْتَارُ ٱبْنُ أَبِي عُبَيْدٍ ٱلثَّقَفِيُّ[١] لِإِبْرَاهِيمَ[٢] بْنِ ٱلأَشْتَرِ يَوْمَ خَازِرٍ ، وَهُوَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي قُتِلَ فِيهِ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ زِيَادٍ : إِنَّ عَامَّةَ جُنْدِكَ هٰؤُلَاءِ ٱلْحَمْرَاءُ ، وَإِنَّ ٱلْحَرْبَ إِنْ ضَرَّسَتْهُمْ هَرَبُوا ، فَٱحْمِلِ ٱلْعَرَبَ عَلَىٰ مُتُونِ ٱلْخَيْلِ وَأَرْجِلِ ٱلْحَمْرَاءَ أَمَامَهُمْ ( انظر « الكامل » ج٤ ص١٩٥ وَمَا بَعْدَهَا ) .

* * *

## ٱلْمَوْلَىٰ فِي ٱللُّغَةِ :

١٤٧٩ ـ ٱلْمَوَالِي صُنُوفٌ وَشُكُولٌ ، فَمِنْهُمُ ٱلْهَجِينُ ، وَهُوَ : ٱلْعَرَبِيُّ ٱبْنُ ٱلأَمَةِ[٣] ، مِنَ ٱلْهُجْنَةِ ، وَهِيَ : ٱلْعَيْبُ ، وَقَالَ ٱلإِمَامُ ثَعْلَبُ : ٱلْهَجِينُ : ٱلَّذِي

---

(١) هَذَا ٱلْمُخْتَارُ هُوَ ٱلَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ وَزِيرُ مُحَمَّدِ ٱبْنِ ٱلْحَنَفِيَّةِ ، وَأَنَّهُ أَمَرَهُ بِقِتَالِ عَدُوِّهِ وَٱلطَّلَبِ بِدَمِ ٱلْحُسَيْنِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ ، فَتَبِعَهُ ٱلشِّيْعَةُ وَخَلْقٌ كَثِيرٌ .

(٢) وَكَانَ قَدْ وَجَّهَهُ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ لِقِتَالِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ زِيَادٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّامِ ، وَكَانَ مَرْوَانُ بْنُ ٱلْحَكَمِ لَمَّا ٱسْتَوْثَقَتْ لَهُ طَاعَةُ ٱلشَّامِ بَعَثَهُ إِلَىٰ ٱلْعِرَاقِ ، وَجَعَلَ لَهُ مَا غَلَبَ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَبَ ٱلْكُوفَةَ إِنْ هُوَ ظَفِرَ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَٱلْتَقَىٰ ٱلْجَيْشَانِ عِنْدَ نَهْرٍ بَيْنَ إِرْبِلَ وَٱلْمَوْصِلِ ، يُقَالُ لَهُ : خَازِرٌ .

(٣) ٱلأَمَةُ ، أَيْ : وَلَوْ أَعْجَمِيَّةٌ .

أَبُوهُ خَيْرٌ مِنْ أُمِّهِ ، قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ : إِنَّمَا قِيلَ لِوَلَدِ ٱلْعَرَبِيِّ مِنْ غَيْرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ هَجِينٌ ، لأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَىٰ أَلْوَانِ ٱلْعَرَبِ ٱلأُدْمَةُ ـ ٱلسُّمْرَةُ ـ وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تُسَمِّي ٱلْعَجَمَ : ٱلْحَمْرَاءَ وَرِقَابَ ٱلْمَزَاوِدِ ـ جَمْع مَزَادَةِ : وِعَاءٌ يُتَزَوَّدُ فِيهِ ٱلْمَاءُ كَٱلْقِرْبَةِ وَنَحْوِهَا ـ لِغَلَبَةِ ٱلْبَيَاضِ عَلَىٰ أَلْوَانِهِمْ ، وَيَقُولُونَ لِمَنْ عَلا لَونَهُ ٱلْبَيَاضُ : أَحْمَرَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ : « يَا حُمَيْرَاءُ ! » لِغَلَبَةِ ٱلْبَيَاضِ عَلَىٰ لَوْنِهَا ، وَقَالَ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « بُعِثْتُ إِلَىٰ ٱلأَحْمَرِ وَٱلأَسْوَدِ » [ راجع « مسند أحمد » رقم : ١٣٨٥٢ ، و١٩٢٣٦ ، و٢٠٧٩٢ ، و٢٠٨٠٧ ] ؛ فَأَسْوَدُهُمْ ٱلْعَرَبُ ، وَأَحْمَرُهُمْ ٱلْعَجَمُ ؛ وَقَالَتِ ٱلْعَرَبُ لأَوْلادِهَا مِنَ ٱلْعَجَمِيَّاتِ ٱللَّاتِي يَغْلِبُ عَلَىٰ أَلْوَانِهِنَّ ٱلْبَيَاضُ : هُجْنٌ وَهُجَنَاءُ ، لِغَلَبَةِ ٱلْبَيَاضِ عَلَىٰ أَلْوَانِهِمْ وَشَبَهِهِمْ أُمَّهَاتِهِمْ .

* * *

١٤٨٠ ـ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ [ « الكامل » صفحة : ٦٥١ ] : وَإِذَا كَانَتِ ٱلأُمُّ كَرِيمَةً ، وَٱلأَبُ خَسِيساً قِيلَ لَهُ : ٱلْمُذَرَّعُ ، قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ [من الطويل] :

إِذَا بَاهِلِيٌّ تَحْتَهُ حَنْظَلِيَّةٌ ... لَهُ وَلَدٌ مِنْهَا فَذَاكَ ٱلْمُذَرَّعُ[(١)]

وقَالَ ٱبْنُ قَيْسٍ ٱلْعَدَوِيُّ [من البسيط] :

إِنَّ ٱلْمُذَرَّعَ لا تُغْنِي خُؤُولَتُهُ ... كَٱلْبَغْلِ يَعْجِزُ عَنْ شَرْطِ ٱلْمَحَاضِيرِ[(٢)]

وَإِنَّمَا سُمِّيَ مُذَرَّعاً لِلرَّقْمَتَيْنِ[(٣)] ٱللَّتَيْنِ فِي ذِرَاعِ ٱلْبَغْلِ ، وَإِنَّمَا صَارَتَا فِيهِ مِنْ

---

(١) ٱلْبَاهِلِيُّ نِسْبَةٌ إِلَىٰ بَاهِلَةَ : ٱمْرَأَةٌ مِنْ هَمْدَانَ سُمِّيَتْ قَبِيلَةُ ٱللُّؤْمِ بِٱسْمِهَا ، وَحَنْظَلِيَّةٌ نِسْبَةٌ إِلَىٰ حَنْظَلَةَ بْنِ مَالِكٍ . . . وَهِيَ أَكْرَمُ قَبِيلَةٍ ، يُقَالُ لَهَا : حَنْظَلَةُ ٱلأَكْرَمُونَ .

(٢) ٱلْمَحَاضِيرُ ، جَمْعُ مِحْضِيرٍ ، وَهُوَ : ٱلْفَرَسُ ٱلسَّرِيعُ .

(٣) ٱلرَّقْمَتَانِ ، وَاحِدَتُهُمَا رَقْمَةٌ ، وَهُمَا : أَثَرَانِ بِبَاطِنِ ٱلذِّرَاعَيْنِ ، لا يُنْبِتَانِ ٱلشَّعْرَ .

نَاحِيَةِ ٱلْحِمَارِ[١] ، قَالَ بَعْضُهُمْ يَهْجُو قَوْماً [من البسيط] :

قَوْمٌ تَوَارَثَ بَيْتَ ٱللُّؤْمِ أَوَّلُهُمْ     كَمَا تَوَارَثَ رَقْمَ ٱلأَذْرُعِ ٱلْحُمُرُ

ٱلْحُمُرُ جَمْعُ حِمارٍ .

* * *

١٤٨١ ـ وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : مَنْ أَبُوكَ يَا بَغْلُ ؟ فَقَالَ : خَالِي ٱلْفَرَسُ .

* * *

١٤٨٢ ـ قَالُوا : فَإِذَا تَرَدَّدَ فِي ٱلْهَجِينِ أَعْرَاقُ ٱلْعَجَمِ فَهُوَ ٱلْمُعَلْهَجُ .

* * *

١٤٨٣ ـ وَأَمَّا ٱلْفَلَنْقَسُ ، فَهُوَ ٱلَّذِي أُمُّه أَمَةٌ وَخَالُهُ عَبْدٌ .

* * *

١٤٨٤ ـ وَٱلْمُكَرْكَسُ : ٱلَّذِي أُمُّ أُمِّهِ وَأُمُّ أَبِيهِ وَأُمُّ أُمِّ أُمِّهِ وَأُمُّ أُمِّ أَبِيهِ إِمَاءٌ ؛ كَأَنَّهُ ٱلْمُرَدَّدُ فِي ٱلْهُجَنَاءِ .

* * *

١٤٨٥ ـ وَإِذَا أَحْدَقَتْ بِهِ ٱلإِمَاءُ فِي كُلِّ وَجْهٍ ، فَهُوَ : ٱلْمَحْيُوسُ ، مِنَ ٱلْحَيْسِ ، وَهُوَ ٱلْخَلْطُ ، وَإِذَا وَصَفُوا ٱلإِنْسَانَ بِغَايَةِ ٱللُّؤْمِ قَالُوا : قِنٌّ ، وَهُوَ ٱلَّذِي مُلِكَ هُوَ وَأَبَوَاهُ ، وَعَبْدُ ٱلْعَصَا لِكُلِّ ذَلِيلٍ .

* * *

١٤٨٦ ـ وَمِنَ ٱلْمَوَالِي مَوْلَىٰ ٱلسَّائِبَةِ . وَهَذَا كَانَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ .

---

(١) يُرِيدُ أَنَّهُ نَزَعَ بِهِمَا إِلَىٰ أَبِيهِ ٱلْحِمَارِ .

وَذَلِكَ أَنَّ ٱلرَّجُلَ كَانَ إِذَا نَذَرَ لِقُدُومٍ مِنْ سَفَرٍ أَوْ بُرْءٍ مِنْ مَرَضٍ ، أَوْغَيْرِ ذَلِكَ ، قَالَ : نَاقَتِي سَائِبَةٌ ؛ فَلا تُمْنَعُ مِنْ مَاءٍ وَلا مَرْعَىٰ ، وَلا تُحْلَبُ وَلا تُرْكَبُ ؛ وَكَانَ إِذَا أَعْتَقَ عَبْداً فَقَالَ : هُوَ سَائِبَةٌ ؛ فَلا عَقْلَ ـ دِيَةَ ـ بَيْنَهُمَا وَلا مِيرَاثَ ، وَيَصِيرُ طَلِيقاً خَلِيعاً .

* * *

**ٱلْمُوَالاةُ قَرَابَةٌ :**

١٤٨٧ ـ قَال سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « ٱلْوَلَاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ ٱلنَّسَبِ » [« كنز العمال » ، رقم : ٢٩٦٢٤] .

قَالَ ٱبْنُ ٱلأَثِيرِ : قَدِ ٱخْتُلِفَ فِي ضَمِّ ٱللُّحْمَةِ وَفَتْحِهَا ، فَقِيلَ : هي فِي ٱلنَّسَبِ بِٱلضَّمِّ وَفي الثَّوْبِ بِٱلضَّمِّ وَٱلْفَتْحِ ، وَقِيلَ : ٱلثَّوْبُ بِٱلْفَتْحِ وَحْدَهُ ، وَقِيلَ : ٱلنَّسَبُ وَٱلثَّوْبَ بِٱلفَتْحِ ، وَأَمَّا بِٱلضَّمِّ فَهُوَ مَا يُصَادُ بِهِ الصَّيْدُ ، قَالَ : وَمَعْنَىٰ ٱلْحَدِيثِ : ٱلْمُخَالَطَةُ في ٱلْوَلاءِ ، وَأَنَّهَا تَجْرِي مَجْرَىٰ ٱلنَّسَبِ فِي ٱلْمِيرَاثِ ، كَمَا تُخَالِطُ ٱللُّحْمَةُ سَدَىٰ ٱلثَّوْبِ حَتَّىٰ يَصِيرَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْمُدَاخَلَةِ ٱلشَّدِيدَةِ .

* * *

**حَثُّهُمْ عَلَىٰ ٱخْتِيَارِ ذَوَاتِ ٱلدِّينِ وَٱلْحَسَبِ وَٱلنَّسَبِ وَٱلتَّرْغِيبِ عَنْ لِئَامِ ذَوَاتِ ٱلْمَالِ وَمَنْ يَجِبُ تَجَنُّبُهُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ :**

١٤٨٨ ـ مِنْ أَبْرَعِ مَا قِيلَ فِي بَابِ ٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلتَّزَوُّجِ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلسُّوءِ ٱلَّتِي لا دِينَ لَهَا وَلا حَسَبَ ، قَوْلُهُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ ٱلدِّمَنِ » ، قِيلَ : وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ ٱللهِ ؟ قَالَ : « ٱلْمَرْأَةُ ٱلْحَسْنَاءُ فِي ٱلْمَنْبَتِ ٱلسُّوءِ » [« كنز

العمال » رقم : ٤٤٥٨٧] .

ٱلدِّمَنُ جَمْعُ دِمْنَةٍ ، كَسِدْرَةٍ وَسِدَرٍ ، وَهِيَ : ٱلْمَوْضِعُ تَتَلَبَّدُ فِيهِ أَبْعَارُ ٱلإِبِلِ وَأَبْوَالُهَا ، أَيْ : مَرْبِضُهَا ، فَرُبَّمَا نَبَتَ فِيهِ ٱلنَّبَاتُ ٱلْحَسَنُ ٱلنَّضِيرُ ، وَأَصْلُهُ مِنْ دِمْنَةٍ ؛ شَبَّهَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلْمَرْأَةَ ٱلْحَسْنَاءَ ٱلْخَبِيثَةَ ٱلأَصْلِ بِمَا يَنْبُتُ فِي ٱلدِّمَنِ مِنَ ٱلْكَلإِ يُرَىٰ لَهُ غَضَارَةٌ وَهُوَ وَبِيءُ ٱلْمَرْعَىٰ ، مُنْتِنُ الأَصْلِ . قَالَ زُفَرُ بْنُ ٱلْحَارِثِ [من الطويل] :

وَقَدْ يَنْبُتُ ٱلْمَرْعَىٰ عَلَىٰ دِمَنِ ٱلثَّرَىٰ وَتَبْقَىٰ حَزَازَاتُ ٱلنُّفُوسِ كَمَا هِيَا[١]

وَٱلْمَنْبِتُ بِكَسْرِ ٱلْبَاءِ كَمَا نَطَقَ بِهِ ٱلْعَرَبُ ، وَإِنْ كَانَ ٱلْقِيَاسُ فَتْحُ ٱلْبَاءِ ، لأَنَّهُ مِنْ نَبَتَ يَنْبُتُ ، وَمِثْلُهُ أَحْرُفٌ مَعْدُودَةٌ جَاءَتْ بِٱلْكَسْرِ ، مِنْهَا : ٱلْمَسْجِدُ وَٱلْمَطْلِعُ وَٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ وَٱلْمَسْكِنُ وَٱلْمَنْسِكُ .

* * *

١٤٨٩ ـ وَقَالَ مَرْوَانُ بْنُ زِنْبَاعٍ ٱلْعَبْسِيُّ : يَا بَنِي عَبْسٍ ! ٱحْفَظُوا عَنِّي ثَلاثاً : ٱعْلَمُوا أَنَّه لم يَنْقُلْ أَحَدٌ إِلَيْكُمْ حَدِيثاً إِلَّا نَقَلَ عَنْكُمْ مِثْلَهُ ؟ وَإِيَّاكُمْ وَٱلتَّزْوِيجَ فِي بُيُوتَاتِ ٱلسَّوْءِ ، فَإِنَّ لَهُ يَوْماً ناجِثاً[٢] ، ٱسْتَكْثِرُوا مِنَ ٱلصَّدِيقِ مَا قَدِرْتُمْ ، ٱسْتَقِلُّوا مِنَ ٱلْعَدُوِّ ، فَإِنَّ ٱسْتِكْثَارَهُ مُمْكِنٌ . [« الأمالي » للقالي ٢/ ١٨٧ و١٨٨] .

* * *

١٤٩٠ ـ وَمِنْ بَارِعِ مَا جَاءَ فِي هَذَا قَوْلُهُ ﷺ : « وَإِنَّ مِنَ ٱلنِّسَاءِ غُلًّا قَمِلًا ،

---

(١) ٱلْحَزَازَاتُ ، جَمْعُ حَزَازَةٍ : وَجَعُ ٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْظٍ وَنَحْوِهِ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ : وَٱلْبَيْتُ ضُرِبَ مَثَلًا لِلرَّجُلِ يُظْهِرُ مَوَدَّةً وَقَلْبُهُ نَغِلٌ بِٱلْعَدَاوَةِ .

(٢) ٱلنَّاجِثُ : ٱلَّذِي يَحْفِرُ ٱلْبِئْرَ لِيَسْتَخْرِجَ ٱلتُّرَابَ ، وَنَجِيثُ ٱلْبِئْرِ وَٱلْحُفْرَةِ : مَا خَرَجَ مِنْ تُرَابِهِمَا ، وَيُقَالُ : هَذَا أَمْرٌ لَهُ نَجِيثٌ ، أَيْ : عَاقِبَةُ سُوْءٍ .

يَقْذِفُهُ ٱللهُ في عُنُقِ مَن يَشَاءُ ، ثُمَّ لا يُخْرِجُهُ إلَّا هُوَ . . . » . [« لسان العرب » مادة : غلل ] .

ٱلْغُلُّ : ٱلْقَيْدُ يُوضَعُ في ٱلْعُنُقِ أَو ٱلْيَدِ ؛ وَقَمِلٌ كَكَتِفٌ مِنْ قَمِلَ رَأْسُهُ كَتَعِبَ : كَثُرَ قَمْلُ رَأْسِهِ ؛ وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانُوا إِذَا أَسَرُوا أَسِيراً جَعَلُوا في عُنُقِهِ غُلَّا - قَيْداً - مِنْ جِلْدٍ ، وَعَلَيْهِ شَعَرٌ ، فَرُبَّمَا قَمِلَ في عُنُقِهِ إِذَا قَبَّ وَيَبِسَ ، فَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِ مِحْنَتَانِ : ٱلْغُلُّ وَٱلْقَمْلُ ، ضَرَبَهُ مَثَلًا لِلْمَرْأَةِ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْخُلُقِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْمَهْرِ ، لا يَجِدُ زَوْجُهَا مِنْهَا مَخْلَصاً ، نَعُوذُ بِٱللهِ مِنَ ٱلْوُقُوعِ عَلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَنَسْأَلُ ٱللهَ لِمَنْ ٱبْتُلِيَ بِهَا أَنْ يُلْهِمَهُ ٱلصَّبْرَ عَلَيْهَا كَمَا نُلْهَمُ ٱلصَّبْرَ عَلَىٰ ٱلْمَصَائِبِ ٱلْمُبْهِظَةِ .

* * *

١٤٩١ ـ وقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : لا يَفْتِنَنَّكُمْ جَمَالُ ٱلنِّساءِ عَنْ صَرَاحَةِ ٱلنَّسَبِ ، فَإِنَّ ٱلْمَنَاكِحَ ٱلْكَرِيمَةَ مَدْرَجَةُ ٱلشَّرَفِ . [« آداب الملوك » صفحة : ١١١ ، « ربيع الأبرار » ٣/ ٦٧١ ؛ « المعمرون والوصايا » صفحة : ١٥ ، « ألف باء » للبلوي ١/ ٤٠٣ ؛ « بهجة المجالس » ٢/ ٣٥ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ٩٥] .

* * *

١٤٩٢ ـ وَقَالَ عُثْمَانُ ٱبْنُ أَبِي ٱلْمَعَاصِي [العَاصِي] لأَوْلادِهِ : يَا بَنِيَّ ! إِنَّ ٱلْمَنَاكِحَ مُغْتَرَسٌ ، فَلْيَنْظُرِ ٱلْمَرْءُ حَيْثُ يَضَع غَرْسَهُ ، فَإِنَّ عِرْقَ ٱلسُّوْءِ قَلَّمَا يُنْجِبُ ، وَإِنِّي قَدْ أَنْجَبْتُكُمْ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ .

[« البيان والتبيين » ٢/ ٦٧ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ١٠٤] .

* * *

١٤٩٣ ـ وَقَالَ بَعْضُ شُعَرَاءِ بَنِي أَسَدٍ [وَهُوَ بُكَيْرٌ الأَسَدِيُّ ، من الطويل] :

وَأَوَّلُ خُبْثِ ٱلْمَاءِ خُبْثُ تُرَابِهِ وَأَوَّلُ خُبْثِ ٱلْقَوْمِ خُبْثُ ٱلْمَنَاكِحِ

[« عيون الأخبار » ٤/ ٤ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ٩٦] .

* * *

١٤٩٤ ـ وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ : ما رَفَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ بَعْدَ ٱلإِيمانِ بِٱللهِ بِمِثْلِ مَنْكِحِ صِدْقٍ ، وَلَا وَضَعَ نَفْسَهُ بَعْدَ ٱلْكُفْرِ بِٱللهِ بِمِثْلِ مَنْكحِ سُوْءٍ ، ثُمَّ قالَ : لَعَنَ ٱللهُ فُلانَةَ ، أَلْفَتْ بَنِي فُلانٍ بِيضاً طِوَالًا فقَلَبَتْهُمْ سُوداً قِصاراً .

* * *

١٤٩٥ ـ وَقالَ أَبُو عَمْرِو ٱبْنُ ٱلْعلاءِ : قالَ رَجُلٌ : لا أَتَزَوَّجُ ٱمْرَأَةً حَتَّىٰ أَنْظُرَ إِلىٰ وَلَدِي مِنْها ؛ قيلَ لَهُ : كَيْفَ ذاكَ ؟ قالَ : أَنْظر إِلىٰ أَبيها وَأُمِّها ، فَإِنَّها تَجِيءُ بِأَحَدِهِما . [« عيون الأخبار » ٤/ ٤] .

* * *

١٤٩٦ ـ [ قالَ ٱبْنُ ٱلدُّمَيْنَةَ ، من الطويل] :

إِذا كُنْتَ مُرْتاداً لِنَفْسِكَ أَيِّماً مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْظُرْ مَنْ أَبُوها وَخالُها
فَإِنَّهُما مِنْها كَما هِيَ مِنْهُما كَما ٱلنَّعْلُ إِنْ قِيسَتْ بِنَعْلٍ مِثالُها
[ وَلا تَطْلُبِ ٱلْبَيْتَ ٱلدَّنِيَّ فِعالُهُ وَلا تَدَعْ ذا عَقْلٍ لِوَزْهاء مالُها ]
وَإِنَّ ٱلَّذي تَرْجُو مِنَ ٱلْمَالِ عِنْدَها سَيَأْتِيَ عَلَيْهِ شُؤْمُها وَخَبالُها

الأَيِّمُ يُرِيدُ بِها ٱلزَّوْجَةَ أَيَّةَ كانَتْ ، بِكْراً كانَتْ أَوْثَيِّباً ؛ وَقَوْلُهُ : كَما ٱلنَّعْلُ . . . الخ . هُوَ كقَوْلِهِمْ : حَذْوَكَ ٱلنَّعْلَ بِٱلنَّعْلِ : وَٱلْحَذْوُ : ٱلتَّقْدِيرُ ، وَأَنْتَ إِذا قَدَّرْتَ وَقِسْتَ وَقَطَعْتَ نَعْلًا عَلىٰ مِثالِ نَعْلٍ فَهِيَ مِثْلُها : وَقَدْ رُوِيَتْ

هَذِهِ ٱلأَبْياتُ عَلىٰ وُجُوهٍ أُخْرىٰ [ « تحفة العروس » ، رقم : ٩٨] .

* * *

١٤٩٧ ـ وَقالَ ٱلأَعْشىٰ لِسَلامَةَ ذي فائِشٍ ٱلْحِمْيَرِيِّ ، مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ يَمْدَحُهُ هُوَ وَقَوْمَهُ [من المتقارب] :

وَقَوْمُكَ إِنْ يَضْمَنُوا جارَةً يَكُونُوا بِمَوْضِعِ أَنْضادِها
فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّها لِلْغِنىٰ وَلَنْ يُسْلِمُوها لأَزْهادِها

الأَنْضادُ، جَمْعُ نَضَدٍ ، وَهُمُ : ٱلأَعْمامُ وَٱلأَخْوالُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ في ٱلشَّرَفِ ، يُريدُ : أَنَّهُمْ يَكُونونَ بِمَوْضِعِ ذَوِي شَرَفِها وَحَسَبِها ؛ وَٱلسِّرُّ : ٱلنِّكاحُ ؛ وَأَزْهادُها : قِلَّةُ مالِها ، يُقالُ : أَزْهَدَ ٱلرَّجُلُ إِزْهاداً : إِذا كانَ مُزْهِداً ، أَيْ : يُزْهَدُ في مالِهِ لِقِلَّتِهِ ؛ قالَ أَبُو ٱلْعَبّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ في « الْكامِلِ » [صفحة : ٨٨٧] :

في هَذا ٱلْبَيْتِ قَوْلانِ : أَحَدهُما : أَنَّهُمْ لا يَطْلُبُونَ ٱجْتِرارها ـ جَرَّها ـ إِلَيْهِمْ عَلىٰ رَغْمِ أَوْليائِها ، مِنْ أَجْلِ مالِها ، تَعَصُّباً لِلْجوارِ ، وَلا يُسْلِمُونَها إِذا ٱنْقَطَعَ رَجاؤُهُمْ مِنَ ٱلثَّوابِ وَٱلْمُكافَأَةِ ؛ وَٱلآخَرُ : أَنَّهُمْ لا يَرْغَبُونَ في ذَواتِ ٱلأَمْوالِ ، وَإِنَّما يَرْغَبُونَ في ذَوَاتِ ٱلأَحْسابِ ، ٱخْتِياراً لِلأَوْلادِ ، وَصِيانَةً لِلأَصْهارِ أَنْ يَطْمَعَ فِيهِمْ مَنْ لا حَسَبَ لَهُ .

وَفي « ٱللِّسانِ » جاءَ ٱلْبَيْتُ ٱلثّاني هَكَذا [من المتقارب] :

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّها لِلْغِنىٰ وَلَنْ يَتْرُكُوها لأَزْهادِها

قالَ : يَقُولُ : لا يَتْرِكُونَها لِقِلَّةِ مالِها ، وَهُوَ ٱلإِزْهادُ ، وَقالَ أَبُو مَنْصُورٍ ٱلأَزْهَرِيُّ : ٱلْمَعْنىٰ أَنَّهُمْ لا يُسْلِمُونَها إِلىٰ مَنْ يُريدُ هَتْكَ حُرْمَتِها لِقِلَّةِ مالِها .

* * *

١٤٩٨ ـ وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ، قالَ : قالَ رَسُولُ ٱللهِ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ : « تُنْكَحُ ٱلْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمالِها وَلِحَسَبِها وَجَمالِها وَلِدِينها ، فَٱظْفَرْ بِذاتِ ٱلدِّينِ تَرِبَتْ يَداكَ » [ البخاري ، رقم : ٥٠٩٠ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٦٦] .

وَقَبْلَ أَنْ نَمْضِيَ في شَرْحِ هَذا ٱلْحَديثِ ٱلشَّريفِ نُورِدُ عَلَيْكَ حَديثَيْنِ آخَرَيْنِ في مَعْناهُ ، أَمَّا أَوَّلُهُما فَهُوَ : « لَاتَزَوَّجُوا ٱلنِّساءَ لِحُسْنِهِنَّ ، فَلَعَلَّ حُسْنَهُنَّ أَنْ يُرْدِيَهُنَّ ، وَلَاتَزَوَّجُوهُنَّ لأَمْوالِهِنَّ فَلَعَلَّ أَمْوالَهُنَّ أَنْ تُطْغِيَهُنَّ ، وَلَكِنْ تَزَوَّجُوهُنَّ لِدِينِهِنَّ ، ولأَمَةٌ سَوْداءُ ذاتُ دِينٍ أَفْضَلُ » [ ابن ماجه ، رقم : ١٨٥٩] .

وَأَمَّا ٱلآخَرُ ، فَقَوْلُهُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « ما أَفادَ رَجُلٌ بَعْدَ ٱلإِسْلامِ خَيْراً مِنِ ٱمْرَأَةٍ ذاتِ دِينٍ تَسُرُّهُ إِذا نظَرَ إِلَيْها ، وَتُطِيعُهُ إِذا أَمَرَها ، وَتَحْفَظُهُ في نَفْسِها وَمالِهِ إِذا غابَ » [ « كنز العمال » ، رقم : ٤٤٤٧٦] .

أَمَّا قَوْلُهُ ﷺ في ٱلْحَديثِ ٱلأَوَّلِ : « تَرِبَتْ يَداكَ » فَإِنَّهُ يُقالُ لِلرَّجُلِ إِذا قَلَّ مالُهُ : قَدْ تَرِبَ ، أَيْ : ٱفْتَقَرَ حَتّىٰ لَصِقَ بِٱلتُّرابِ ، وَأَتْرَبَ : إِذا ٱسْتَغْنىٰ وَكَثُرَ مالُه ؛ وَهَذِهِ ٱلْكَلِمَةُ ـ تَرِبَتْ يَدَاكَ ـ جاءَتْ عَلىٰ أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ ـ لا يُريدونَ بِها ٱلدُّعاءَ عَلَىٰ ٱلْمُخاطَبِ وَلا وُقوعَ ٱلأَمْرِ بِهِ ، وَهَذا كَما يَقُولونَ : قاتَلَهُ ٱللهُ ، وَكَثيراً تَرِدُ لِلْعَرَبِ أَلْفاظٌ ظاهِرُها ٱلذَّمُّ ، وَإِنَّما يُريدونَ بِها ٱلْمَدْحَ ، كَقَوْلِهِمْ : لا أَبَ لَكَ ، وَلا أُمَّ لَكَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَفي حَديثِ أَنَسٍ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ سَبّاباً ولا فَحّاشاً ، كانَ يَقُولُ لأَحَدِنا عِنْدَ ٱلْمُعاتَبَةِ : تَرِبَ جَبِينُهُ ، يُرِيدُ بِذَلِكَ ٱلدُّعاءَ لَهُ بِكَثْرَةِ ٱلسُّجُودِ . . . هَذا وَلْيُلْحَظْ أَنَّ ٱلْمُرادَ بِذاتِ ٱلدِّينِ : ٱلَّتي صَقَلَها ٱلدِّينُ وَهَذَّبَها وَكَساها قُنْيانَ ٱلْحَياءِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْخُلُقِ ٱلطَّاهِرِ ٱلْكَريمِ .

وَأَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِذا كانَ سَيِّدُنا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ قَدْ نَصَحَ لَنا بِأَنْ نُؤْثِرَ ذاتَ ٱلدِّينِ

عَلىٰ مَنْ لا دِينَ لَها وَإِنْ كانَتْ جَميلَةً أَوْ ذاتَ مالٍ ؛ فَلَيْسَ مَعْنىٰ ذٰلِكَ أَنْ نُسْقِطَ ٱلْمَالَ وَٱلْجَمَالَ مِنَ ٱلدِّينِ ، فَحَبّذا ذاتُ ٱلدِّينِ إِذا كانَتْ عَلىٰ ذٰلِكَ ذاتُ مالٍ وَجَمالٍ ، أَمَّا ٱلمالُ وَٱلْجَمالُ . . . لا يَصْحَبُهُما دِينٌ وَخُلُقٌ كَريمٌ فَإِنَّهُما يُصْبِحَانِ مَصْدَرَ بلاءٍ وَمِحْنَةٍ ، وَلا سِيَّما ٱلْجَمالُ ٱلْفائِقُ وَٱلْمَالُ ٱلْكَثيرُ ، وَقَدْ رَوَوْا في ذٰلِكَ : أَنَّ رَجُلًا شاوَرَ حَكِيماً في ٱلتَّزَوُّجِ ، فَقَالَ لَهُ : ٱفْعَلْ ، وَإِيَّاكَ وَٱلْجَمالَ ٱلْفائِقَ ، فَإِنَّهُ مَرْعًى أَنيقٌ ؛ فَقَالَ ٱلرَّجُلُ : ما نَهَيْتَنِي إِلَّا عَمَّا أَطْلُبُ ؛ فَقَالَ ٱلْحَكيمُ : أَما سَمِعْتَ قَوْلَ ٱلْقائِلِ [من البسيط] :

وَلَنْ تُصادِفَ مَرْعًى مُمْرِعاً أَبَداً ... إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثارَ مَأْكُولِ[1]

* * *

١٤٩٩ ـ وَقالوا : ٱلْجَمالُ لِلرِّجالِ مَطْمَعٌ .

* * *

١٥٠٠ ـ وَأَنْشَدُوا [من البسيط] :

لا تَطْلُبِ ٱلْحُسْنَ إِنَّ ٱلْحُسْنَ آفَتُهُ ... أَنْ لا يَزالَ طَوالَ ٱلدَّهْرِ مَطْلُوبا
وَمَا تُصادِفُ يَوْماً لُؤْلُؤاً حَسَناً ... بَيْنَ ٱللَّآلِىءِ إِلَّا كانَ مَثْقُوبا

* * *

(١) جاءَ في « مُحاضَراتِ ٱلأُدَباءِ » ما يَأْتي : كانَ عِنْدَ ٱلأَحْنَفِ ٱمْرَأَةٌ ، فَطَلَّقَها وَتَزَوَّجَها ٱبْنُ عَمٍّ لَها ، وَكَتَبَ إِلىٰ ٱلأَحْنَفِ [من البسيط] :

إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتَ أَمْراً فَٱمْضِيَنَّ لَهُ ... إِنَّ ٱلْغَزالَ ٱلَّذي ضَيَّعْتَ مَشْغُولُ

فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلأَحْنَفُ [من البسيط] :

إِنْ كُنْتَ مُشْتَغِلًا فَٱللهُ يُصْلِحُهُ ... فَقَدْ لَهَوْنا بِأَمْرٍ مِنْهُ مَوْصُولِ
وَلَنْ تُصادِفَ مَرْعًى مُونِقاً أَبَداً ... إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثارَ مَأْكُولِ

وَإِذَنْ يَكُونُ ما جاءَ في « عُيُونِ ٱلأَخْبارِ » بَدَلَ « مَأْكُولِ » : مُنْتَجَعٌ لَيْسَ بِذاكَ .

١٥٠١ ـ وَقيلَ لِحَكيمٍ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً دَميمَةً : هَلَّا تَزَوَّجْتَ بِحَسْناءَ ؟ فَقالَ : ٱخْتَرْتُ مِنَ ٱلشَّرِّ أَقَلَّهُ .

❋ ❋ ❋

١٥٠٢ ـ قُلْنا : حَبَّذا ٱلْمالُ وَٱلْجمالُ إِذا صَحِبَهُما الدِّينُ وَٱلْحَسَبُ ، فَفي ٱلْحَديثِ : « أَعْظَمُ ٱلنِّساءِ بَرَكَةً أَحْسَنُهُنَّ وُجوهاً وَأَرْخَصُهُنَّ مُهوراً » [ قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » : رواه أبو عمر النوقاتي في كتاب « معاشرة الأهلين » ] .

❋ ❋ ❋

١٥٠٣ ـ وَفيهِ : « إِنَّما ٱلنِّساءُ لُعَبٌ، فَمَنِ ٱتَّخَذَ لُعْبَةً فَلْيَسْتَحْسِنْها » [ راجع « كنز العمال » ، رقم : ٤٤٥٩٢] .

❋ ❋ ❋

١٥٠٤ ـ وَقالَ ٱلإِمامُ ٱلْغَزالِيُّ في « ٱلإِحْياءِ » : وَلَيْسَ أَمْرُهُ ﷺ بِمُراعاةِ ٱلدِّينِ نَهْياً عَنْ مُراعاةِ ٱلْجمالِ ، ولا أَمْراً بِٱلإِضْرابِ عَنْه ، وَإِنَّما هُوَ نَهْيٌ عَنْ مُراعاتِهِ مُجَرَّداً عَنِ ٱلدِّينِ ، فَإِنَّ ٱلْجمالَ في غالِبِ ٱلأَمْرِ يُرَغِّبُ ٱلْجاهِلَ في ٱلنِّكاحِ دُونَ ٱلالْتِفاتِ إِلىٰ ٱلدِّينِ وَلا ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ ، فَوَقَعَ ٱلنَّهْيُ عَنْ هَذا ، وَأَمَرَ أَلَّا نُغْفِلَ ٱلنَّظَرَ فِيهِ ، قالَ : وَأَمْرُ ٱلنَّبِيِّ ﷺ مَنْ يُريدُ ٱلتَّزَوُّجَ بِٱلنَّظَرِ إِلىٰ ٱلْمَخْطُوبَةِ يَدُلُّ عَلىٰ مُراعاةِ ٱلْجمالِ ، إِذِ ٱلنَّظَرُ لا يُفِيدُ مَعْرِفَةَ ٱلدِّينِ ، وَإِنَّما يُعْرَفُ بِهِ ٱلْجمالُ وَٱلْقُبْحُ ؛ قالَ ٱلْقاضِي عِياضٌ : وَفي قَوْلِهِ ﷺ تُنْكَحُ ٱلْمَرْأَةُ لِمالِها دَليلٌ عَلىٰ أَنَّ لِلرَّجُلِ ٱلاسْتِمْتاعَ بِمالِ ٱلزَّوْجَةِ ، وَإِلَّا كانَتْ كَٱلْفَقِيرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذا ٱلْكَلامِ فائِدَةٌ ، قالَ : فَإِنْ كانَ ٱسْتِمْتاعُهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْها ، فَذَلِكَ ما لا إِشْكالَ في جَوازِهِ ، وَإِنِ ٱمْتَنَعَتْ فَلَهُ بِقَدْرِ ما بَذَلَ مِنَ ٱلصَّداقِ .

قالَ : وَمِنْ هَذا ٱخْتَلَفُوا فِي إِجْبارِها عَلىٰ ٱلتَّجْهِيزِ بِصَداقِها ، فَأَلْزَمَها مالِكُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُجِزْ لَها قَضاءُ دَيْنٍ وَلا نَفَقَةٌ فِي غَيْرِ ٱلْجِهازِ ، إِلَّا ٱلشَّيْءَ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱلْكَثِيرِ ، وَقالَ غَيْرُهُ : لا تُجْبَرُ عَلىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ مالُها تَفْعَلُ فِيهِ ما شاءَتْ .

بَقِيَ أَنْ نُفَسِّرَ لَكَ ٱلْحَسَبَ ٱلَّذِي جاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ ، فَٱلْحَسَبُ فِي ٱلأَصْلِ ٱلشَّرَفُ بِٱلآباءِ وَمَا يَعُدُّهُ ٱلإِنْسانُ مِنْ مَفاخِرِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ فِي ٱلْحَدِيثِ : ٱلْفَعالُ ٱلْحَسَنُ لِلرَّجُلِ وَلآبائِهِ ؛ وَبِلُغَةِ ٱلدِّينِ : ٱلتَّقْوىٰ ، وَهِيَ جِماعُ كُلِّ خَيْرٍ .

* * *

١٥٠٥ ـ وَحَضَرَتْ رَجُلًا مِنْ رَبِيعَةَ ٱلْوَفاةُ ، فَقالَ لِابْنِهِ : يا بُنَيَّ ! إِذا حَزَبَكَ أَمْرٌ فَٱحْكُكْ رُكْبَتَيْكَ بِرُكْبَةِ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ ، ثُمَّ ٱسْتَشِرْهُ(١) .

قالَ ٱلابْنُ : فَماتَ أَبِي ، فَأَرَدْتُ ٱلتَّزَوُّجَ ، فَجِئْتُ شَيْخاً مِنْ قَوْمِهِ ، فَجَلَسْتُ فِي نادِيهِ ، فَلَمَّا قامَ ٱلنَّاسُ مِنْ عِنْدِهِ قالَ : أَلَكَ حاجَةٌ يا ٱبْنَ أَخِي ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يا عَمِّ ! إِنِّي أُرِيدُ ٱلتَّزَوُّجَ ؛ قالَ : يا ٱبْنَ أَخِي ! أَقَصِيرَةُ ٱلنَّسَبِ أَمْ طَوِيلَتُهُ ؟ فَلَمْ أَفْهَمْ عَنْهُ . . . فَقالَ : يا ٱبْنَ أَخِي ! إِنِّي أَعْرِفُ فِي ٱلْعَيْنِ إِذا عَرَفَتْ ، وَأَعْرِفُ فِي ٱلْعَيْنِ إِذا نَكِرَتْ ، وَأَعْرِفُ فِي ٱلْعَيْنِ إِذا لَمْ تَعْرِفْ وَلَمْ تُنْكِرْ(٢) ، أَمّا إِذا عَرَفَتْ فَإِنَّها تُحاوِصُ(٣) ، وَأَمَّا إِذا نَكِرَتْ فَإِنَّها تَجْحَظُ ، وَأَمَّا

---

(١) قالَ أَبو جَهْلٍ : حَتّىٰ إِذْ تَحاكَّتِ الرُّكَبُ قالُوا : مِنّا نَبِيٌّ ! وَٱللهِ لا أَفْعَلُ ؛ أَيْ : تَماسَّتْ وَٱصْطَكَّتْ ؛ يُرِيدُ : تَساوِيهِمْ فِي ٱلشَّرَفِ وَٱلْمَنْزِلَةِ ، أَوْ يُرِيدُ تَجاثِيهِمْ عَلىٰ ٱلرُّكَبِ لِلتَّفاخُرِ ، فَذاكَ مِنْ ذاكَ .

(٢) يقال : نَكِرَ ٱلشَّيْءَ وَأَنْكَرَهُ ، قالَ [من البسيط] :

وَأَنْكَرَتْنِي وَمَا كانَ ٱلَّذِي نَكِرَتْ مِنَ ٱلْحَوادِثِ إِلَّا ٱلشَّيْبَ وَٱلصَّلَعا

وَمِنْ ثَمَّ ٱسْتَعْمَلْنا مُضارِعَ أَنْكَرَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلْنا نَكِرَ فِي ٱلْماضِي .

(٣) يُقالُ : هُوَ يُحاوِصُ فُلاناً ، أَيْ : يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِمُؤَخَّرِ عَيْنَيْهِ .

إِذَا لَمْ تَعْرِفْ وَلم تُنْكِرْ فَإِنَّها تَسْجُو سُجُوًّا ، وَقَدْ رَأَيْتُ عَيْنَكَ سَاجِيَةً ، فَٱلْقَصِيرَةُ ٱلنَّسَبِ ، ٱلَّتِي إِذَا ذَكَرَتْ أَبَاهَا ٱكْتَفَتْ بِهِ ـ لِمَكَانِهِ مِنَ ٱلصِّيتِ وَٱلسِّيَادَةِ وَٱلْمَجْدِ ـ وَٱلطَّوِيلَةُ ٱلنَّسَبِ : ٱلَّتِي لا تُعْرَفُ حَتَّىٰ تُطِيلَ فِي نِسْبَتِهَا ـ لِمَكَانِهَا مِنَ ٱلْخُمُولِ وَٱلدَّنَاءَةِ ـ فَإِيَّاكَ يَا ٱبْنَ أَخِي أَنْ تَتَزَوَّجَ إِلَىٰ قَوْمٍ أَهْلِ دَنَاءَةٍ قَدْ أَصَابُوا مِنْ دُنْيَاهُمْ شَيْئاً ، فَتُشْرِكُهُمْ فِي دَنَاءَتِهِمْ وَيَسْتَأْثِرُوا عَلَيْكَ بِدُنْيَاهُمْ . . .

[« الأخبار الموفقيات » للزبير بن بكار، صفحة: ٥٢١ و٥٢٢؛ « تحفة العروس »، رقم: ١٠٥].

* * *

١٥٠٦ ـ وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ : مَنْ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً فَلْيَتَزَوَّجْهَا عَزِيزَةً فِي قَوْمِهَا ، ذَلِيلَةً فِي نَفْسِهَا ، أَدَّبَهَا ٱلْغِنَىٰ وَأَذَلَّهَا ٱلْفَقْرُ ، حَصَاناً مِنْ جَارِهَا ، عَفِيفَةً رَزَاناً بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَنْ عَدَا زَوْجَهَا ، مَاجِنَةً عَلَىٰ زَوْجِهَا .

* * *

١٥٠٧ ـ وَرُوِيَ عَنْ هَذَا خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ أَنَّهُ قَالَ لِدَلَّالٍ ـ وَهُوَ أَحَدُ ٱلْمُخَنَّثِينَ ٱلَّذِينَ يَخْطُبُونَ ٱلنِّسَاءَ عَلَىٰ ٱلرِّجَالِ ـ : ٱطْلُبْ لِي بِكْراً كَثَيِّبٍ أَوْ ثَيِّباً كَبِكْرٍ ، لا ضَرْعاً صَغِيرةً وَلا عَجُوزاً كَبِيرَةً ، قَدْ عَاشَتْ فِي نَعْمَةٍ وَأَدْرَكَتْهَا حَاجَةٌ ، فَخُلُقُ ٱلنِّعْمَةِ مَعَهَا وَذُلُّ ٱلْحَاجَةِ فِيهَا ، حَسْبِي مِنْ جَمَالِهَا أَنْ تَكُونَ فَخْمَةً مِنْ بَعِيدٍ ، مَلِيحَةً مِنْ قَرِيبٍ ، وَحَسْبِي مِنْ حَسَبِهَا أَنْ تَكُونَ وَاسِطَةً فِي قَوْمِهَا ، مِنْ خِيَارِهِمْ وَأَمْثَلِهِمْ .

* * *

١٥٠٨ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِآخَرَ : ٱبْغِنِي ٱمْرَأَةً لا تُؤَهِّلُ دَاراً ـ أَيْ : لا تَجْعَلُ دَارَهَا آهِلَةً بِدُخُولِ ٱلنَّاسِ عَلَيْهَا ـ وَلا تُؤْنِسُ جَاراً ـ أَيْ : لا تُؤْنِسُ ٱلْجِيرَانَ

بِدُخُولِها عَلَيْهِمْ - وَلا تَنفِثُ ناراً - أَيْ : لا تُنِمُّ - تَشِي - وَتُغْرِي بَيْنَ ٱلنَّاسِ .

* * *

١٥٠٩ - وَقَالَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ : ثَلاثٌ مِنَ ٱلْفَوَاقِرِ - ٱلدَّوَاهِي - : جَارُ مُقَامَةٍ ، إِنْ رَأَىٰ حَسَنَةً سَتَرَهَا ، وَإِنْ رَأَىٰ سَيِّئَةً أَذاعَهَا ؛ وَٱمْرَأَةٌ إِنْ دَخَلْتَ عَلَيْهَا لَسَنَتْكَ - أَخَذَتْكَ بِلِسَانِهَا وَذَكَرَتْكَ بِٱلسُّوءِ - وَإِنْ غِبْتَ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا ؛ وَسُلْطَانٌ إِنْ أَحْسَنْتَ لَمْ يَحْمَدْكَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ قَتَلَكَ .

* * *

١٥١٠ - وَقَالَ ٱلزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ : أَحَبُّ كَنَائِنِي إِلَيَّ[١] ٱلذَّلِيلَةُ في نَفْسِهَا ، ٱلْعَزِيزَةُ فِي رَهْطِهَا ، ٱلْبَرْزَةُ[٢] ٱلْحَيِيَّةُ ، ٱلَّتِي في بَطْنِهَا غُلامٌ وَيَتْبَعُهَا غُلامٌ ؛ وَأَبْغَضُ كَنَائِنِي إِلَيَّ ٱلطُّلَعَةُ ٱلْخُبَأَةُ[٣] ٱلَّتِي تَمْشِي ٱلدِّفِقَّىٰ ، وَتَجْلِسُ ٱلْهَبَنْقَعَةَ[٤] ، ٱلذَّلِيلَةُ في رَهْطِهَا ، ٱلْعَزِيزَةُ فِي نَفْسِهَا ، ٱلَّتِي في بَطْنِهَا جَارِيَةٌ وَتَتْبَعُهَا جارِيَةٌ[٥] .

* * *

## تَفْضِيلُهُمْ الْغَرِيبَةَ عَلَىٰ الْقَرِيبَةِ :

١٥١١ - فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « ٱغْتَرِبُوا لا تُضْوُوا » . وَفِيهِ أَيْضاً :

---

(١) ٱلْكَنَائِنُ ، جَمْعُ كَنَّةٍ ، بِفَتْحِ ٱلْكَافِ ، وَهِيَ : ٱمْرَأَةُ ٱلابْنِ أَوِ ٱلأَخِ .

(٢) ٱلْبَرْزَةُ ، يُرِيدُ ٱلَّتِي تَبْرُزُ لِلرِّجَالِ ثِقَةً بِرأْيِهَا وَعَفَافِهَا .

(٣) أَيْ : تُكْثِرُ ٱلتَّطَلُّعَ ثُمَّ تَخْتَبِىءُ .

(٤) ٱلدِّفِقَّىٰ : مَشْيٌ وَاسِعٌ ؛ وَٱلْهَبَنْقَعَةُ : أَنْ تَتَرَبَّعَ وَتَمُدَّ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهَا فِي تَرَبُّعِهَا .

(٥) هُوَ في هَذَا يَضْرِبُ عَلَىٰ نَغْمَةٍ جَاهِلِيَّةٍ ، إِذْ كَانُوا إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَكَانُوا مِنْ ثَمَّ يَئِدُونَ بَنَاتِهِمْ .

« لا تَنْكِحُوا ٱلْقَرَابَةَ ٱلْقَرِيبَةَ ، فَإِنَّ ٱلْوَلَدَ يُخْلَقُ ضَاوِياً » [قال العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » : قال ابن الصلاح : لم أجدْ له أصلًا معتمداً . قلت : إنّما يُعْرَفُ مِن قول عمر أنه قال لآل السائب : قد أضْويتم ، فانكحوا في ٱلنَزائِع . رواه إبراهيم الحربي في « غريب الحديث » . ثم قال : ويقال : « أغْرِبوا لا تَضْووا » .] .

ٱغْتَرِبُوا لا تَضْوُوا ، أَيْ : فِي ٱلْبِعَادِ ٱلأَنْسَابِ ، لا فِي ٱلأَقَارِبِ ، لِأَنَّ وَلَدَ ٱلرَّجُلِ مِنْ قَرَابَتِهِ يَجِيءُ ضَاوِياً ، أَيْ : نَحِيفاً .

* * *

١٥١٢ ـ وَرَوَوْا : أَنَّ عُمَرَ نَظَرَ إِلَىٰ قَوْمٍ مِنْ قُرَيْشٍ صِغَارِ ٱلأَجْسَامِ ، فَقَالَ : إِنَّكُمْ قَدْ أَضْوَيْتُمْ ، فَأَنْكِحُوا فِي ٱلْغَرَائِبِ .

فِي ٱلْغَرَائِبِ ، تُرْوَىٰ : فِي ٱلنَّزَائِعِ ، أَيْ : فِي ٱلنِّسَاءِ ٱلْغَرَائِبِ مِنْ عَشِيرَتِكُمْ ، لِأَنَّهَا تُنْزَعُ مِنْ عَشِيرَتِهَا .

* * *

١٥١٣ ـ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ [من الطويل] :

فَتَىً لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قَرِيبَةٌ ... فَيَضْوَىٰ وَقَدْ يَضْوَىٰ رَدِيدُ ٱلْقَرَائِبِ

رَدِيدُ : مَرْدُودُ .

[« إيضاح شواهد الإيضاح » ١/٢٠٨ ؛ « غريب الحديث » ٣/٧٣٧ ؛ « جمهرة الأمثال » ١/٦٠ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ١٢٣] .

* * *

١٥١٤ ـ وَقَالَ آخَرُ [من الرجز] :

أُنْذِرُ مَنْ كَانَ بَعِيدَ ٱلْهَمِّ ... تَزْوِيجَ أَوْلَادِ بَنَاتِ ٱلْعَمِّ

فَلَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ ضَوًى وَسُقْمِ

* * *

١٥١٥ ـ وَقَالَ ٱلأَصْمَعِيُّ : بَنَاتُ ٱلْعَمِّ أَصْبَرُ ، وَٱلْغَرَائِبُ أَنْجَبُ ، وَمَا ضَرَبَ رُؤُوسَ ٱلأَبْطَالِ كَٱبْنِ ٱلأَعْجَمِيَّةِ .

أَنْجَبُ : أَكْثَرُ إِنْجَاباً ، كَمَا قَالُوا : مَا أَوْلاهُ لِلْمَعْرُوفِ .

* * *

**رَغْبَةُ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلزَّوَاجِ :**

**زَوْجٌ مِنْ عُودٍ خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ :**

١٥١٦ ـ كَانَ ذُو ٱلإِصْبَعِ ٱلْعَدْوَانِيُّ ـ وَٱسْمُهُ حُرْثَانُ بْنُ مُحَرِّثٍ ، وَإِنَّمَا لُقِّبَ ذُو ٱلإِصْبَعِ لأَنَّ حَيَّةً لَسَعَتْ إِصْبَعَهُ ، فَقَطَعَهَا ، وَكَانَ أَحَدُ حُكَّامِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ شَاعِراً ـ كَانَ غَيُوراً ، وَكَانَتْ لَهُ بَنَاتٌ أَرْبَعٌ ، وَكَانَ لا يُزَوِّجُهُنَّ غَيْرَةً ، فَٱسْتَمَعَ عَلَيْهِنَّ يَوْماً وَقَدْ خَلَوْنَ يَتَحَدَّثْنَ ، فَقَالَتْ قَائِلَةٌ مِنْهُنَّ : لِتَقُلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُنَّ مَا فِي نَفْسِهَا ، وَلْنَصْدُقْ جَمِيعاً ، فَقَالَتْ كُبْرَاهُنَّ [من الطويل] :

أَلَا لَيْتَ زَوْجِي مِنْ أُناسٍ ذَوِي غِنًى ... حَدِيثُ ٱلشَّبابِ طَيِّبُ ٱلنَّشْرِ وَٱلذِّكْرِ
لَصُوقٌ بِأَكْبَادِ ٱلنِّسَاءِ كَأَنَّهُ ... خَلِيقَةُ جانٍ ، لا يَنَامُ عَلَىٰ وِتْرِ

فَقُلْنَ لَها : أَنْتِ تُرِيدِينَ فَتًى لَيْسَ مِنْ أَهْلِكِ ؛ وَقَالَتِ ٱلثَّانِيَةُ [من الطويل] :

أَلا لَيْتَهُ يُكْسَىٰ ٱلْجَمَالَ بَدِيئَةً ... لَهُ جَفْنَةٌ تَشْقَىٰ بِها ٱلنِّيبُ وٱلْجُزْرُ
لَهُ حَكَماتُ ٱلدَّهرِ مِنْ غَيْرِ كَبْرَةٍ ... تَشِينُ فَلا فَانٍ وَلا ضَرَعٌ غُمْرُ

فَقُلْتَ لَها : أَنْتَ تُرِيدِينَ سَيِّداً شَرِيفاً ؛ فَقَالَتِ ٱلثَّالِثَةُ [من الطويل] :

أَلَا هَلْ أَراهَا مَرَّةً وَضَجِيعُها ... أَشَمُّ كَنَصْلِ ٱلسَّيْفِ عَيْنُ ٱلْمُهَنَّدِ

إذا ما ٱنْتمىٰ مِنْ سِرِّ أَهْلي وَمَحْتِدِ عَليـــمٌ بِـــأَدْواءِ ٱلنِّســـاءِ وَأَصْلُـــهُ

فَقُلْنَ لَها : أَنْتِ تُريدينَ ٱبْنَ عَمٍّ لَكِ قَدْ عَرَفْتِهِ ؛ وَقُلْنَ لِلصُّغْرىٰ : ما تَقُولِينَ ؟ فَقالَتْ : لا أَقُولُ شَيْئاً ؛ فَقُلْنَ : لا نَدَعُكِ ، إِنَّكِ ٱطَّلَعْتِ عَلىٰ أَسْرارِنا وَتَكْتُمينَ سِرَّكِ ! فَقالَتْ : زَوْجٌ مِنْ عُودٍ خَيْرٌ مِنْ قُعُودٍ . . . فَخُطِبْنَ ، فَزَوَّجَهُنَّ جُمَعَ ، ثُمَّ أَمْهَلَهُنَّ حَوْلًا ، ثُمَّ زارَ ٱلْكُبْرىٰ ، فَقالَ لَها : كَيْفَ رَأَيْتِ زَوْجَكِ ؟ قالَتْ : خَيْرَ زَوْجٍ ، يُكْرِمُ أَهْلَهُ ، وَيَنْسىٰ فَضْلَهُ ؛ قالَ : فَمَا مالُكُمْ ؟ قالَتْ : ٱلإِبِلُ ؛ قالَ : وَما هِيَ ؟ قالَتْ : نَأْكُلُ لُحْمانَها مُزَعاً ، وَنَشْرَبُ أَلْبانَها جُرَعاً ، وَتَحْمِلُنا وَضَعَفَتَنا مَعاً ؛ فَقَالَ : زَوْجٌ كَرِيمٌ ، وَمَالٌ عَمِيمٌ ؛ ثُمَّ زَارَ ٱلثَّانِيَةَ ، فَقَالَ لَها : كَيْفَ رَأَيْتِ زَوْجَكِ ؟ قالَتْ : يُكْرِمُ ٱلْحَليلَةَ ، وَيُقَرِّبُ ٱلْوَسِيلَةَ ؛ قالَ : فَمَا مالُكُمْ ؟ قالَتْ : ٱلْبَقَرُ ؛ قالَ : وَمَا هِيَ ؟ قالَتْ : تَأْلَفُ ٱلْفِناءَ ، وَتَمْلأُ ٱلإِناءَ ، وَتُوَدِّكُ ٱلسِّقاءَ ، وَنِساءٌ مَعَ نِساءٍ ؛ قالَ لَها : رَضِيتِ وَحَظِيتِ ؛ ثُمَّ زَارَ ٱلثَّالِثَةَ ، فَقالَ لَها : كَيْفَ رَأَيْتِ زَوْجَكِ ؟ فَقالَتْ : لا سَمْحٌ بَذِرٌ ، وَلا بَخيلٌ حَكِرٌ ؛ قالَ : فَمَا مالُكُمْ ؟ قالَتْ : ٱلْمِعْزىٰ ؛ قالَ : وَما هِيَ ؟ قالَتْ : لا بَأْسَ بِها ، نُوَلِّدُها فُطُماً ، وَنَسْلُخُها أَدَماً ، لَمْ نَبْغِ بِها نَعَماً ؛ فَقالَ لَها : جِذْوَةٌ مُغْنِيَةٌ ؛ ثُمَّ زارَ الرَّابِعَةَ ، فَقَالَ لَها : كَيْفَ رَأَيْتِ زَوْجَكِ ؟ فَقالَتْ : شَرُّ زَوْجٍ ، يُكْرِمُ نَفْسَهُ ، ويُهِينُ عِرْسَهُ ؛ قالَ لَها : فَما مالُكُمْ ؟ قالَتْ : شَرُّ مالٍ ، ٱلضَّأْنُ ؛ قالَ لَها : وَما هُنَّ ؟ قالَتْ : جُوفٌ لا يَشْبَعْنَ ، وَهِيمٌ لا يَنْقَعْنَ ، وَصُمٌّ لا يَسْمعْنَ ، وَأَمْرَ مُغْوِيَتِهِنَّ يَتْبَعْنَ ! فَقالَ : أَشْبَهَ ٱمْرُؤٌ بَعْضَ بَزِّهِ . . . فَأَرْسَلَها مَثَلًا . [« مجمع الأمثال » ، رقم : ١٧٢٩] .

قَوْلُ ٱلْكُبْرىٰ : « ذَوِي غِنًى » ، يُرْوىٰ : « ذَوِ عِدًى » ، وَمَعْناهُ : أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَعْداءٌ لأَنَّ مَنْ لا عَدُوَّ لَهُ هُوَ ٱلْفَسْلُ ٱلرَّذْلُ ٱلَّذِي لا خَيْرَ عِنْدَه ، أَمَّا ٱلْكَرِيمُ

ٱلْفاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهُوَ ٱلْمُحَسَّدُ ٱلْمُعادىٰ . وَ« ٱلنَّشْرُ » : ما ٱنْتَشَرَ مِنَ ٱلرَّائِحَةِ ٱلطَّيِّبَةِ ، وَقَوْلُها : « لَصوقٌ بِأَكْبادِ ٱلنِّساءِ » كَنَّتْ بِذَلِكَ عَنْ شِدَّةِ مَحَبَّتِهِنَّ لَه وَمَيْلِهِنَّ إِلَيْهِ ، وَمِنَ ٱلْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ أَرادَتْ في ٱلْمُضاجَعَةِ ؛ وَقَوْلَها : « كَأَنَّهُ خَليقَةُ جانٍ » أَيْ : كَأَنَّهُ حَيَّةٌ لِلُصوقِهِ ، وَٱلْجانُّ : جِنْسٌ مِنَ ٱلْحَيَّاتِ ؛ فَخَفَّفَ لِضَرُورَةِ ٱلشِّعْرِ؛ وَ« ٱلْوَتْرُ » بفتح الواو وكسرها: ٱلثَّأْرُ؛ وَقَوْلُ ٱلثَّانِيَةِ : « بَديئَةً » فَٱلْبَدِيئَةُ أَوَّلُ ما يَفْجَؤُكَ مِنْهُ، كَٱلْبَداءَةِ وَٱلْبَدَاهَةِ، وَرَواها ٱلْمُرْتَضىٰ: [من الطويل]

... يُكْســىٰ ٱلْجَمَــالُ نَــدِيُّــهُ ..................

وَقَالَ : ٱلنَّدِيُّ : ٱلْمَجْلِسُ ؛ و« ٱلنِّيبُ » جَمْعُ نابٍ ، وَهِيَ ٱلْمُسِنَّةُ مِنَ ٱلنُّوقِ ، و« ٱلْجُزْرُ » جَمْعُ جَزورٍ : ٱلنَّاقَةُ ٱلَّتي تُنْحَرُ ، وَإِنَّما عَطَفَتْ أَحَدَهُما عَلىٰ الآخَرِ لأَنَّ مِنَ ٱلإِبِلِ ما يَكُونُ لِلنَّحْرِ لا غَيْرَ؛ وَقَوْلُها: « لَهُ حَكَماتُ الدَّهْرِ مِنْ غَيْرِ كَبْرَةٍ » ، تَقُولُ : لَهُ تَجْرِبَةٌ وَحُنْكَةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كَبيراً كَبْرَةً تُشِينُهُ ، يُقالُ : عَلَتْهُ كَبْرَةٌ ، مِثْلُ تَمْرَةٍ ، إِذا كَبِرَ وَأَسَنَّ ، و« ٱلْفاني » : ٱلشَّيْخُ ٱلْهَرِمُ، وَ« ٱلضَّرَعُ »: ٱلضَّعيفُ، و« ٱلْغُمْرُ » بِضَمِّ ٱلْغَيْنِ وَفَتْحِها: ٱلَّذي لَمْ يُجَرِّبِ ٱلأُمُورَ ؛ وَقَوْلُ ٱلثَّالِثَةِ : « أَشَمُّ » فالشَّمَمُ : ٱرْتِفاعُ أَرْنَبَةِ ٱلأَنْفِ وَوُرُودُها ، يُقالُ : رَجُلٌ أَشَمُّ ، وَٱمْرَأَةٌ شَمّاءُ ، وَقَوْمٌ شُمٌّ ؛ قالَ حَسّانُ [من الكامل] :

بِيضُ ٱلْوُجُوهِ كَريمَةٌ أَحْسابُهُمْ ... شُمُّ ٱلأُنُوفِ مِنَ ٱلطِّرازِ ٱلأَوَّلِ

ٱلشَّمَمُ : ٱلارْتِفاعُ في كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ حَسَّانُ أَرادَ بـ« شُمِّ الأُنُوفِ » ما ذَكَرْنا مِنْ وُرُودِ ٱلأَرْنَبَةِ لأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ دَليلُ ٱلعِتْقِ وَٱلنَّجابَةِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُريدَ بِذَلِكَ ٱلْكِنايَةَ عَنْ نَزاهَتِهِمْ وَتَباعُدِهِمْ عَنْ دَنايا ٱلأُمُورِ وَسَفْسافِها ، وَخَصَّ ٱلأُنُوفَ بِذَلِكَ لأَنَّ ٱلْحَمِيَّةَ وَٱلْغَضَبَ وَٱلأَنَفَ يَكُونُ فيها ، وَهَذا أَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ مُرادَهُ ؛ لأَنَّهُ قالَ : بيضُ ٱلْوُجُوهِ وَلَمْ يُرِدِ ٱللَّوْنَ في

ٱلْحَقيقَةِ ، وَإِنَّما كَنَّىٰ بِذٰلِكَ عَنْ نَقاءِ أَعْراضِهِمْ وَجَميلِ أَخْلاقِهِمْ وَأَفْعالِهِمْ ، وَما يَقُولُ ٱلْقائِلُ : جاءَني فُلانٌ بِوَجْهٍ أَبْيَضَ ، وَقَدْ بَيَّضَ فُلانٌ وَجْهي إِلَّا وَيَعْني ما ذَكَرْنا ؛ وَقَوْلُ ٱلْمَرْأَةِ : « أَشَمُّ كَنَصْلِ ٱلسَّيْفِ » يَحْتَمِلُ ٱلْوَجْهَيْنِ أَيضاً ، وَقَوْلُ حَسّانٍ : « مِنَ ٱلطِّرازِ ٱلأَوَّلِ » أَيْ : إِنَّ أَفْعالَهُمْ هِيَ أَفْعالُ آبائِهِمْ وسَلَفِهِم ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثوا أَخْلاقاً مَذْمُومَةً لا تُشْبِهُ نِجارَهُمْ وَأُصُولَهُمْ ؛ وَقَوْلُها : « عَيْنُ ٱلْمُهَنَّدِ » أَيْ : هُوَ ٱلْمُهَنَّدُ بِعَيْنِه ، كَما يُقالُ : هَذا بِعَيْنِهِ ، وَعَيْنُ ٱلشَّيْءِ : نَفْسُهُ ؛ وَتُروىٰ : « غَيْرُ ٱلْمُهَنَّدِ » أَيْ : لَيْسَ هُوَ ٱلسَّيْفُ ٱلْمَنْسُوبُ إِلىٰ ٱلْهِنْدِ في ٱلْحَقيقَةِ ، وَإِنَّما هُوَ يُشْبِهُهُ في مَضائِهِ ؛ وَقَوْلُها : « مِنْ سِرِّ أَهْلِي » أَيْ : مِنْ أَكْرَمِهِمْ وَأَخْلَصِهِمْ ، يُقالُ : فُلانٌ مِنْ سِرِّ قَوْمِه ، أَيْ : في صَميمِهِمْ وَشَرَفِهِمْ ؛ وَٱلْمَحْتِدُ : ٱلأَصْلُ ؛ وَقَوْلُ ٱلْكُبْرىٰ : « نَأْكُلُ لُحْمانَها مُزَعاً » فَٱللُّحْمانُ جَمْعُ لَحْمٍ ، كَلُحومٍ وَأَلْحُمٍ ، وَ« مُزَعاً » جَمْعُ مُزْعَةٍ ، وَهِيَ ٱلْقِطْعَةُ ، وَٱلتَّمْزيعُ : ٱلتَّقْطيعُ وَٱلتَّشْقيقُ ، وَيُقالُ : إِنَّهُ لَيَكادُ يَتَمَزَّعُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ؛ وَ« ٱلْجُرَعُ » جَمْعُ جُرْعَةٍ ، وَهِيَ : ٱلْماءُ ٱلْقَليلُ يَبْقىٰ في ٱلإِناءِ ؛ وَقَوْلُهُ : « وَمالٌ عَميمٌ » أَيْ : كَثيرٌ ؛ وَقَوْلُ ٱلثّانِيَةِ : « يُكْرِمُ ٱلْحَليلَةَ ، وَيُقَرِّبُ ٱلْوَسيلَةَ » فَٱلْحَليلَةُ : ٱمْرَأَةُ ٱلرَّجُلِ ، وَٱلْوَسيلَةُ : كُلُّ ما يُتَقَرَّبُ بِهِ مِنْ عَمَلِ ٱلْخَيْرِ ، وَقَوْلُها : « وَتُوَدِّكُ ٱلسِّقاءَ » أَيْ : تَجْعَلُ فِيهِ ٱلْوَدَكُ ؛ وَهُوَ دَسَمُ ٱللَّحْمِ وَدُهْنُهُ ٱلَّذي يُسْتَخْرَجُ مِنْهُ ؛ وَقَوْلُ ٱلثّالِثَةِ : « لا سَمْحُ بَذِرٌ » فَٱلْبَذِرُ : ٱلَّذي يُبَذِّرُ مالَهُ ، يَبْسُطُ يَدَهُ فِيهِ كُلَّ ٱلْبَسْطِ ، وَهُوَ وَصْفٌ مُبالَغٌ فِيهِ ، مِثْلُ : حَكِرٌ ، وَهُوَ ٱلَّذي لا يَزالُ يَحْبِسُ سِلْعَتَهُ حَتّىٰ يَبيعَ بِٱلْكَثيرِ مِنْ شِدَّةِ حَكْرِهِ ، وَقَوْلُها : « نُوَلِّدُها فُطَماً » ، فَنُوَلِّدُها بِتَشْديدِ ٱللّامِ ، تُريدُ مَعْنىٰ ٱلْكَثْرَةِ ، مِثْلُ قَوْلِهِمْ : نَتَّجَ فُلانٌ إِبِلَهُ ، بِتَشْديدِ ٱلتّاءِ ، وَ« فُطُماً » بِضَمَّتَيْنِ ، جَمْعُ فَطيمٍ ، بِمَعْنىٰ مَفْطُومٍ ، وَهَذا مِنْ قَبيلِ مَجازِ ٱلأَوَّلِ تُريدُ ٱلانْتِفاعَ بِها ، وَ« ٱلأَدَمُ » مِنَ ٱلأَديمِ ، وَهُوَ : ٱلْجِلْدُ ؛ وَقَوْلُهُ : « جَذْوَةٌ مُغْنِيَةٌ » ، يُريدُ : قِلَّتَها ، وَٱلْجَذْوَةُ في ٱلأَصْلِ :

ٱلْقِطْعَةُ مِنَ ٱلْخَشَبِ فِيها نارٌ ؛ وَقَوْلُ ٱلرَّابِعَةِ : « يُهِينُ عِرْسَهُ » فَٱلْعِرْسُ : ٱلزَّوْجَةُ ، وَقَوْلُها : « جُوفٌ لا يَشْبَعْنَ » فَٱلْجُوفُ جَمْعُ جَوْفاءِ ، وَهِيَ : ٱلْعَظِيمَةُ ٱلجَوْفِ ، وَقَوْلُها : « هِيمٌ لا يَنْقَعْنَ » فَٱلْهِيمُ : ٱلْعِطاشُ ، وَ« لا يَنْقَعْنَ » : لا يَرْوَيْنَ ؛ وَقَوْلُها : « صُمٌّ لا يَسْمَعْنَ » مِنْ طَرِيفِ كَلامِ ٱلْعَرَبِ ، وَذَلِكَ أَنَّه يُقالُ لِكُلِّ صَحِيحِ ٱلْبَصَرِ وَلا يُعْمِلُ بَصَرَهُ : أَعْمىٰ ، يُرادُ أَنَّهُ قَدْ حَلَّ مَحَلَّ مَنْ لا يُبْصِرُ ٱلْبَتَّةَ إِذا لَمْ يُعْمِلْ بَصَرَهُ ، وَكَذَلِكَ يُقالُ لِلسَّمِيعِ ٱلَّذي لا يَقْبَلُ : أَصَمُّ ؛ وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ : أَبْلَدُ ما يُرْعىٰ ٱلضَّأْنُ ، فَقَوْلُها : « وَأَمْرَ مُغْوِيَتِهِنَّ يَتْبَعْنَ » مَعْناهُ : إِنَّ ٱلْقَطِيعَ مِنَ ٱلضَّأْنِ يَمُرُّ عَلىٰ قَنْطَرةٍ فَتَنْزِلُ وَاحِدَةٌ فَتَقَعُ في ٱلْماءِ ، فَيَقَعْنَ كُلُّهُنَّ إِتْباعاً لَها ، فَمِنْ ثَمَّ تُوصَفُ ٱلضَّأْنُ بِٱلْبَلادَةِ ، أَيْ : قِلَّةِ ٱلذَّكاءِ ؛ وَقَوْلُهُ : « أَشْبَهَ ٱمْرُؤٌ بَعْضَ بَزِّهِ » فَهَذا مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْمُتَشَابِهِينَ أَخْلاقاً ، وَٱلْبَزُّ : مَتاعُ ٱلْبَيْتِ مِنَ ٱلثِّيابِ خاصَّةً ، كَنّىٰ بِهِ عَنِ ٱلضَّأْنِ وَهِي مَتاعٌ .

* * *

## حَدِيثُ بِنْتِ مَلِكِ الْيَمَنِ وَالنِّسْوَةِ اللَّاتِي أَشَرْنَ عَلَيْهَا بِالزَّوَاجِ وَوَصْفُهُنَّ لَهَا مَحَاسِنَ الزَّوْجِ :

١٥١٧ ـ جاءَ في « أَمَالِي ٱلْقَالِي » مَا يَلِي : حَدَّثَنَا فُلانٌ . . . عَنِ ٱبْنِ ٱلْكَلْبِي ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : كَانَ قَيْلٌ مِنْ أَقْيَالِ حِمْيَرَ مُنِعَ ٱلْوَلَدَ دَهْراً ، ثُمَّ وُلِدَتْ لَهُ بِنْتٌ ، فَبَنَىٰ لَهَا قَصْراً مُنِيفاً بَعِيداً مِنَ ٱلنَّاسِ ، وَوَكَلَ بِهَا نِسَاءً مِنْ بَنَاتِ ٱلأَقْيَالِ يَخْدُمْنَهَا وَيُؤَدِّبْنَهَا ، حَتَّىٰ بَلَغَتْ مَبْلَغَ ٱلنِّسَاءِ ، فَنَشَأَتْ أَحْسَنَ مَنْشَأٍ وَأَتَمَّهُ في عَقْلِهَا وَكَمَالِهَا ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُوهَا مَلَّكَهَا أَهْلُ مِخْلافِهَا[1] ، فَٱصْطَنَعَتِ ٱلنِّسْوَةَ ٱللَّوَاتِي رَبَّيْنَهَا وَأَحْسَنَتْ إِلَيْهِنَّ ، وَكَانَتْ تُشَاوِرُهُنَّ وَلا تَقْطَعُ أَمْراً دُونَهُنَّ . فَقُلْنَ

(١) ٱلْمِخْلافُ : ٱلْكُورَةُ ، وَٱلرُّسْتَاقُ .

لَهَا يَوْماً : يَا بِنْتَ ٱلْكِرامِ ! لَوْ تَزَوَّجْتِ لَتَمَّ لَكِ ٱلْمُلْكُ ؛ فَقَالَتْ : وَمَا ٱلزَّوْجُ ؟ فَقَالَتْ إِحْدَاهُنَّ : ٱلزَّوْجُ عِزٌّ في ٱلشَّدَائِدِ ، وَفي ٱلْخُطُوبِ مُسَاعِدُ ؛ إِنْ غَضِبْتِ عَطَفَ ، وَإِنْ مَرِضْتِ لَطَفَ ؛ قَالَتْ : نِعْمَ ٱلشَّيْءُ هَذَا ! فَقَالَتِ ٱلثَّانِيَةُ : ٱلزَّوْجُ شِعَارِي حِينَ أَصْرَدُ[١] ، وَمُتَّكَئِي حِينَ أَرْقُدُ ، وَأُنْسِي حِينَ أَفْرُدُ ؛ فَقَالَتِ : إِنَّ هَذَا لَمِنْ كَمَالِ طِيبِ ٱلْعَيْشِ . فَقَالَتِ ٱلثَّالِثَةُ : ٱلزَّوْجُ لِمَا عَنَانِي كَافٍ ، وَلِمَا شَفَّنِي شَافٍ ، يَكْفِينِي فَقْدَ ٱلأُلاَّفِ ؛ رِيقُهُ كَٱلشَّهْدِ ، وَعِنَاقُهُ كَٱلْخُلْدِ ؛ لا يُمَلُّ قِرَانُهُ ، وَلا يُخَافُ حِرَانُهُ ؛ فَقَالَتْ : أَمْهِلْنَنِي أَنْظُرْ فِيمَا قُلْتُنَّ ؛ فَٱحْتَجَبَتْ عَنْهُنَّ سَبْعاً ، ثُمَّ دَعَتْهُنَّ ، فَقَالَتْ : قَدْ نَظَرْتُ فِيمَا قُلْتُنَّ ، فَوَجَدْتُنِي أُمَلِّكُهُ رِقِّي ، وَأَبُثُّهُ بَاطِلِي وَحَقِّي ، فَإِنْ كَانَ مَحْمُودَ ٱلْخَلائِقِ ، مَأْمُونَ ٱلْبَوَائِقِ ؛ فَقَدْ أَدْرَكْتُ بُغْيَتِي ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَقَدْ طَالَتْ شِقْوَتِي ، عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ كُفْئًا كَرِيماً ، يَسُودُ عَشِيرَتَهُ ، وَيَرُبُّ فَصِيلَتَهُ[٢] ؛ لا أَتَقَنَّعُ بِهِ عَاراً في حَيَاتِي ، وَلا أَرْفَعُ بِهِ شَنَاراً لِقَوْمِي بَعْدَ وَفَاتِي ، فَعَلَيْكُنَّهُ فَٱبْغِينَهُ ، وَتَفَرَّقْنَ في ٱلأَحْيَاءِ ، فَأَيَّتُكُنَّ أَتَتْنِي بِمَا أُحِبُّ فَلَهَا أَجْزَلُ ٱلْحِبَاءِ[٣] ، وَعَلَيَّ لَهَا ٱلْوَفَاءُ ؛ فَخَرَجْنَ فِيمَا وَجَّهَتْهُنَّ لَهُ ، وَكُنَّ بَنَاتِ مَقَاوِلٍ ذَوَاتِ عَقْلٍ وَرَأْيٍ ، فَجَاءَتْهَا إِحْدَاهُنَّ وَهِيَ عَمَرَّطَةُ بِنْتُ زَرْعَةَ بْنِ ذِي خَنْفَرٍ ، فَقَالَتْ : قَدْ أَصَبْتُ ٱلْبُغْيَةَ ؛ فَقَالَتْ : صِفِيهِ وَلا تُسَمِّيهِ ؛ فَقَالَتْ : غَيْثٌ في ٱلْمَحْلِ[٤] ، ثِمَالٌ فِي ٱلأَزْلِ[٥] ، مُفِيدٌ

(١) أَصْرَدُ : أَبْرَدُ .
(٢) يَرُبُّ : يَجْمَعُ وَيُصْلِحُ .
(٣) ٱلْحِبَاءُ : ٱلْعَطَاءُ .
(٤) ٱلْمَحْلُ : ٱلْجَدْبُ ، ضِدُّ ٱلْخِصْبِ .
(٥) ٱلأَزْلُ : ٱلشِّدَّةُ وَٱلضِّيقُ ؛ وَٱلثِّمَالُ : ٱلغِيَاثُ وَٱلْمُطْعِمُ فِي ٱلشِّدَّةِ ، قَالَ أَبُو طالِبٍ يَمْدَحُ سَيِّدَنَا رَسُولَ ٱللهِ [من الطويل] : =

مُبيدٌ[١] ، يُصْلِحُ ٱلنَّائِرَ[٢] ، وَيُنْعِشُ ٱلعَاثِرَ[٣] ، وَيَغْمُرُ ٱلنَّدِيَّ ، وَيَقْتَادُ ٱلأَبِيَّ ، عِرْضُهُ وَافِرٌ ، وَحَسَبُهُ باهِرٌ ، غَضُّ ٱلشَّبَابِ ، طَاهِرُ ٱلأَثْوَابِ ؛ قَالَتْ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَتْ : سَبْرَةُ بْنُ عَوَّالِ بْنِ شَدَّادِ بْنِ ٱلْهَمَّالِ . ثُمَّ خَلَتْ بِٱلثَّانِيَةِ ، فَقَالَتْ : أَصَبْتِ مِنْ بُغْيَتِكِ شَيْئاً ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ؛ قَالَتْ : صِفِيهِ وَلا تُسَمِّيهِ ؛ قَالَتْ : مُصامِصُ ٱلنَّسَبِ[٤] ، كَرِيمُ ٱلْحَسَبِ ، كَامِلُ ٱلأَدَبِ ، غَزِيرُ ٱلْعَطَايَا ، مَأْلُوفُ ٱلسَّجَايَا ، مُقْتَبَلُ ٱلشَّبَابِ[٥] ، خِصْبُ ٱلْجَنَابِ ، أَمْرُهُ مَاضٍ ، وَعَشِيرُهُ رَاضٍ ؛ قَالَتْ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَتْ : يَعْلَىٰ بْنُ هَزَّالِ بْنِ ذِي جَدَنٍ . ثُمَّ خَلَتْ بِٱلثَّالِثَةِ ، فَقَالَتْ : مَا عِنْدَكِ ؟ قَالَتْ : وَجَدْتُهُ كَثِيرَ ٱلْفَوَائِدِ ، عَظِيمَ ٱلْمَرَافِدِ ، يُعْطِي قَبْلَ ٱلسُّؤَالِ ، وَيُنِيلُ قَبْلَ أَنْ يُسْتَنَالَ ، فِي ٱلْعَشِيرَةِ مُعَظَّمٌ ، وَفِي ٱلنَّدِيِّ مُكَرَّمٌ ، جَمَّ ٱلْفَوَاضِلِ ، كَثِيرَ ٱلنَّوَافِلِ ، بَذَّالُ أَمْوَالٍ ، مُحَقِّقُ آمَالٍ ، كَرِيمُ أَعْمَامٍ وَأَخْوَالٍ ؛ قَالَتْ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَتْ : رَوَاحَةُ بْنُ خُمَيْرِ بْنِ مُضحى بْنِ ذِي هُلَاهِلَةٍ ؛ فَٱخْتَارَتْ يَعْلَىٰ بْنَ هَزَّالٍ فَتَزَوَّجَتْهُ ، فَٱحْتَجَبَتْ عَنْ نِسَائِهَا شَهْراً ، ثُمَّ بَرَزَتْ لَهُنَّ ، فَأَجْزَلَتْ لَهُنَّ ٱلْحِبَاءَ ، وَأَعْظَمَتْ لَهُنَّ ٱلْعَطَاءَ .

* * *

---

= وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَىٰ ٱلْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ ٱلْيَتَامَىٰ عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

(١) تُرِيدُ أَنَّهُ يَسْتَفِيدُ ٱلْمَالَ وَيَتَكَسَّبُهُ ثُمَّ يُبِيدُهُ ، أَيْ : يَجُودُ بِهِ عَلَىٰ مُعْتَفِيهِ ، أَيْ : إِنَّهُ كَسُوبٌ لِلْمَالِ مِعْطَاءٌ لَهُ .

(٢) تُرِيدُ أَنَّهُ يُصْلِحُ مَا بَيْنَ ٱلْمُتَشَاحِنِينَ ٱلَّذِينَ بَيْنَهُمْ نَائِرَةٌ ، أَيْ : عَدَاوَةٌ وَبَغْضَاءُ .

(٣) ٱلْعَاثِرُ : مَنْ عَثَرَ بِهِ ٱلدَّهْرُ وَنَكَبَهُ ، فَهُوَ يُنْعِشُهُ بِٱلْعَطَاءِ .

(٤) ٱلْمُصَامِصُ : ٱلْخَالِصُ ، وَإِنَّهُ لَمُصَامِصٌ فِي قَوْمِهِ : إِذَا كَانَ زَاكِيَ ٱلْحَسَبِ .

(٥) مُقْتَبَلُ ٱلشَّبَابِ : مُسْتَقْبَلُهُ لَمْ يُرَ عَلَيْهِ أَثَرُ كِبَرٍ .

حَنِينُ ٱلنِّسَاءِ إِلَىٰ ٱلرِّجَالِ :

١٥١٨ ـ وَكَانَ لِهَمَّامِ بْنِ مُرَّةَ[١] ، ثَلاثُ بَنَاتٍ ، فَعَنَّسَهُنَّ ، فَقَالَتْ ٱلْكُبْرَىٰ : أَنَا أَكْفِيكَمُوهُ ٱلْيَوْمَ ؛ فَقَالَتْ [من الوافر] :

أَهَمَّامُ بْنَ مُرَّةَ حَنَّ قَلْبِي إِلَىٰ قَنْفَاءَ مُشْرِفَةِ ٱلْقَذَالِ

فَقَالَ هَمَّامُ : قَنْفَاءَ مُشْرِفَةِ ٱلْقَذَالِ ! تَصِفُ فَرَساً ؛ فَقَالَتِ ٱلْوُسْطَىٰ : مَا صَنَعْتِ شَيْئا ؛ وَقَالَتْ [من الوافر] :

أَهَمَّامُ بْنَ مُرَّةَ حَنَّ قَلْبِي إِلَى ٱللَّائِي يَكُنّ مَعَ ٱلرِّجَالِ

فَقَالَ هَمَّامُ : يَكُونُ مَعَ ٱلرِّجَالِ ٱلذَّهَبُ وَٱلْفِضَّةُ ؛ فَقَالَتِ ٱلصُّغْرَىٰ : مَا صنَعْتُمَا شَيْئاً ؛ وَقَالَتْ [من الوافر] :

أَهمَّامُ بْنَ مُرَّةَ حَنَّ قَلْبِي إِلَى عَرْدٍ أَسُدُّ بِهِ مَبَالِي

فَقَالَ هَمَّامُ : قَاتَلَكُنَّ ٱللهُ ! وَٱللهِ ، لا أَمْسَيْتُ أَوْ أُزَوِّجُكُنَّ ؛ فَزَوَّجَهُنَّ[٢] . . .

ٱلْقَنْفَاءُ ، تُرِيدُ ٱلذَّكَرَ ، وَٱلْقَنْفَاءُ فِي ٱلأَصْلِ : ٱلأُذُنُ ٱلْغَلِيظَةُ ٱلْمُسْتَرْخِيَةُ فِي ٱلإِنْسَانِ وَٱلشَّاةِ ، وَيُقَالُ : أَقْنَفَ ٱلرَّجُلُ : إِذَا أَجْمَعَ أَمْرَهُ ؛ وَمُشْرِفَةٌ : مُرْتَفِعَةٌ ؛ وَٱلْقَذَالُ : جِمَاعُ مُؤَخَّرِ ٱلرَّأْسِ مِنَ ٱلإِنْسَانِ وَٱلْفَرَسِ ، وَرَوَىٰ ٱلْمُبَرِّدُ [« الكامل » صفحة : ٨٩١] هَذَا ٱلْعَجُزَ :

إِلَىٰ صَلْعَاءَ مُشْرِفَةِ ٱلْقَذَالِ

---

(١) هُوَ هَمَّامُ بْنُ مُرَّةَ بْنِ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ ، شَاعِرٌ قَدِيمٌ جَاهِلِيٌّ .

(٢) « الأمالي » للقالي ٢/ ١٠٥ ؛ « محاضرات الراغب » ٢/ ٢٠٦ ؛ « المختار من شعر بشار » ٢٤٦ ؛ « شعار النساء » صفحة ١٩٢ و١٩٣ ؛ « القاموس المحيط » مادة : قنف .

ٱستعَارَتِ ٱلْقَذَالَ لِمَا تُرِيدُ كَمَا ٱسْتَعَارَتْ لَهُ ٱلصَّلَعَ ، وَهُوَ ذِهَابُ ٱلشَّعَرِ ، وَفي « ٱلْكَامِلِ » [صفحة : ٨٩١] لَمَّا أَنْشَدَتْ هَذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ هَمَّامُ : يَا فُجَّارُ ! أَرَدْتِ بَيْضَةً حَصِينَةً ؛ مَا يُلْبَسُ فَوْقَ ٱلرَّأْسِ .

وَٱللَّائِي مَعَ ٱلرَّجُلِ : مَتَاعُهُ ، أَيْرُهُ وَخِصْيَتَاهُ ؛ وَٱلْعَرْدُ : ذَكَرُ ٱلإِنْسَانِ ، وَقِيلَ : هُوَ ٱلذَّكَرُ ٱلصُّلْبُ ٱلشَّدِيدُ ، وَجَمْعُهُ أَعْرَادُ .

* * *

**ٱلنِّسَاءُ شَقَائِقُ ٱلرِّجَالِ :**

١٥١٩ ـ وَكَانَ لِرَجُلٍ مِنَ ٱلْعَرَبِ ثَلاثُ بَنَاتٍ قَدْ عَضَلَهُنَّ وَمَنَعَهُنَّ ٱلأَكِفَّاءَ ، فَقَالَتْ إِحْدَاهُنَّ : إِنْ أَقَامَ أَبُونَا عَلَىٰ هَذَا ٱلرَّأْيِ فَارَقَنَا وَقَدْ ذَهَبَ حَظُّ ٱلرِّجَالِ مِنَّا ، فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْرِضَ لَهُ مَا فِي نُفُوسِنَا ـ وَكَانَ يَدْخُلُ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ يَوْماً ـ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَىٰ ٱلْكُبْرَىٰ تَحَادَثَا سَاعَةً ، فَحِينَ أَرَادَ ٱلانْصِرَافَ أَنْشَدَتْ [من الطويل] :

أَيُعْذَلُ لَاهِينَا وَيُلْحَىٰ عَلَىٰ ٱلصِّبَا وَمَا نَحْنُ وَٱلْفِتْيَانُ إِلَّا شَقَائِقُ(١)

يَؤُبْنَ حَبِيبَاتٍ مِرَاراً كَثِيرَةً وَتَنْبَاقُ أَحْيَاناً بِهِنَّ ٱلْبَوَائِقُ(٢)

---

(١) يُعْذَلُ : يُلامُ ، ويُلْحَىٰ : يُلَامُ .
وَقَوْلُهَا : وَمَا نَحْنُ وَٱلْفِتْيَانُ إِلَّا شَقَائِقُ ، هُوَ كَالْمَثَلِ « إِنَّ ٱلنِّسَاءَ شَقَائِقُ ٱلأَقْوَام » وَفِي ٱلْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ قَالَ : « إِذَا رَأَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمَاءَ فَلْتَغْتَسِلْ » ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! وَهَلْ لِلْمَرْأَةِ مَاءٌ ؟ قَالَ : « فَأَنَّىٰ يُشْبِهُهُنَّ ٱلْوَلَدُ ؟ إِنَّمَا هُنَّ شَقَائِقُ » ، [« مسند أحمد » ، رقم : ٢٦٥٧٧] يَعْنِي : إِنَّ ٱلرَّجُلَ وَٱلْمَرْأَةَ كَعَصاً ٱرْفَضَّتْ شِقَّتَيْنِ .

(٢) ٱلْبَوَائِقُ : ٱلدَّوَاهِي ، وَيُقَالُ : ٱنْبَاقَتْ عَلَيْهِمْ بَائِقَةُ شَرٍّ ، أَيْ : ٱنْفَتَقَتْ ، كَمَا يَخْرُجُ ٱلصَّوْتُ مِنَ ٱلْبُوقِ .

فَلَمَّا سَمِعَ ٱلشِّعْرَ سَاءَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَىٰ ٱلْوُسْطَىٰ ، فَتَحَادَثَا ، فَلَمَّا أَرَادَ ٱلانْصِرَافَ أَنْشَدَتْ [من الطويل] :

أَلَا أَيُّهَا ٱلْفِتْيَانِ إِنَّ فَتَاتَكُمْ     دَهَاهَا سَمَاعُ ٱلْعَاشِقِينَ فَحَنَّتِ
فَدُونَكُمُ ٱبْغُوهَا فَتًى غَيْرَ زُمَّلٍ     وَإِلَّا صَبَتْ تِلْكَ ٱلْفَتَاةُ وَجُنَّتِ[1]

فَلَمَّا سَمِعَ شِعْرَهَا سَاءَهُ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَىٰ ٱلصُّغْرَىٰ فِي يَوْمِهَا ، فَتَحَادَثَا ، فَلَمَّا أَرَادَ ٱلانْصِرَافَ أَنْشَدَتْ [من الطويل] :

أَمَا كَانَ فِي ثِنْتَيْنِ مَا يَزَعُ ٱلْفَتَىٰ     وَيَعْقِلُ هَذَا ٱلشَّيْخُ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ
فَمَا هُوَ إِلَّا ٱلْحِلُّ أَوْ طَلَبُ ٱلصِّبَا     وَلا بُدَّ مِنْهُ فَأْتَمِرْ كَيْفَ تَفْعَلُ

فَلَمَّا رَأَىٰ تَوَاطُؤَهُنَّ عَلَىٰ ذَلِكَ زَوَّجَهُنَّ . [« الأمالي » للقالي ، صفحة ١٠٥ و١٠٦ ، وراجع رقم : ٣ السابق] .

* * *

## عَجُوزٌ رَاغِبَةٌ فِي ٱلزَّوَاجِ :

١٥٢٠ ـ مَرِضَت عَجُوزٌ ، فَأَتَاهَا ٱبْنُهَا بِطَبِيبٍ ، فَرَآهَا ٱلطَّبِيبُ مُتَزَيِّنَةً بِأَثْوَابٍ مَصْبُوغَةٍ ، فَعَرَفَ مَا بِهَا ، فَقَالَ ٱلطَّبِيبُ : مَا أَحْوَجَها إِلَىٰ زَوْجٍ ! فَقَالَ ٱلابْنُ : وَمَا حَاجَةُ ٱلْعَجَائِزِ لِلأَزْوَاجِ ؟! فَقَالَتْ : وَيْحَكَ ! ٱلطَّبِيبُ أَعْلَمُ مِنْكَ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ .

* * *

١٥٢١ ـ وَقَالَ حَكِيمٌ لِامْرَأَةٍ تَعَرَّضَتْ لَهُ [من الوافر] :

---

(١) ٱلزُّمَّلُ : ٱلْفَسْلُ ٱلرَّذْلُ ٱلضَّعِيفُ ٱلْجَبَانُ .

وَضَـاحِكَـةٍ إِلَـيَّ مِـنَ ٱلنِّقَـابِ ... تُـلاحِظُنِـي بِطَـرْفٍ مُسْتَـرَابِ
فَمَـا زَالَـتْ تُجَمِّشُنِـي طَـوِيـلاً ... وَتَـأْخُـذُ فِـي أَحَـادِيـثَ ٱلتَّصَـابِي[1]
فَقُلْـتُ لَهَـا حَلَلْـتِ بِشَـرٍّ وَادٍ ... كَـرِيـهِ ٱلْمُجْتَنَـىٰ قَحْـطِ ٱلْجَنَـابِ

وَبَعْدَ ذَلِكَ بَيْتٌ دَاعِرٌ ، وَمَعْنَاهُ إِنَّ ٱلْعَجُوزَ لا يَنْقَعُ غُلَّتَهَا عَجُوزٌ مِثْلُهَا ، وَلَكِنَّ ٱلشَّابَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْفِيهَا .

* * *

**ٱحْتِيَالُ ٱلْمَرْأَةِ فِي ٱلتَّزْوِيجِ مِنْ رَجُلٍ :**

١٥٢٢ ـ كَانَ لِرَجُلٍ ٱبْنَةٌ ، وَلَهَا ٱبْنُ عَمٍّ مَشْغُوفٌ بِهَا ، وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَتَزَوَّجَ بِهَا ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَرْغَبَهُ فِي ٱلصَّدَاقِ ، فَقَالَتِ ٱلْفَتَاةُ لأُمِّهَا : مَا أَحْسَبُ أَبِي يُرَبِّي ٱبْنَ أَخِيهِ صَغِيراً وَيَقْطَعُهُ كَبِيراً ! فَقَالَتِ ٱلأُمُّ : كَانَ ذَلِكَ قَدَراً مَقْدُوراً ؛ فَقَالَتِ ٱلْفَتَاةُ : أَنَا حُبْلَىٰ مِنِ ٱبْنِ عَمِّي ؛ فَقَالَتْ أُمُّهَا : مَا تَقُولِينَ وَيْحَكِ ؟ فَقَالَتْ : أَتَكْذِبُ ٱلْحُرَّةُ عَلَىٰ نَفْسِهَا ! فَأَخْبَرَتْ أَبَاهَا ، فَزَوَّجَهَا مِنِ ٱبْنِ عَمِّهَا ، فَلَمَّا وَقَعَ ٱلعَقْدُ قَالَتِ ٱلْفَتَاةُ : بَرِئْتُ مِنَ ٱلإِسْلامِ إِنْ رَأَىٰ وَجْهِي إِلَىٰ سَنَةٍ ، لِيُعْلَمَ أَنِّي مُتَقَوِّلَةٌ فِيمَا ٱدَّعَيْتُ . . .

* * *

**أُمُّ خَارِجَةَ وَسُرْعَةُ إِجَابَتِهَا إِلَىٰ ٱلنِّكَاحِ :**

١٥٢٣ ـ كَانَتْ أُمُّ خَارِجَةَ ٱلْبَجَلِيَّةُ ٱمْرَأَةً مِنَ ٱلْعَرَبِ ، وَكَانَتْ قَدْ عُرِفَتْ بِأَنَّهَا تُجِيبُ كُلَّ مَنْ خَطَبَهَا إِلَىٰ طَلِبَتِهِ ، حَتَّىٰ ضَرَبُوا بِهَا ٱلْمَثَلَ ، فَقَالُوا : أَسْرَعُ مِنْ

---

(١) ٱلتَّجْمِيشُ : ٱلْمُغَازَلَةُ .

نِكَاحِ أُمِّ خَارِجَةَ ، فَكَانَ ٱلْخَاطِبُ يَقُومُ عَلَىٰ خِبَائِهَا ، فَيَقُولُ : « خِطْبٌ » فَتَقُولُ : « نِكْحٌ » فَكَانَتْ قَدْ وَلَدَتْ فِي ٱلْعَرَبِ فِي نَيِّفٍ وَعِشْرِينَ حَيًّا مِنْ آبَاءٍ مُتَفَرِّقِينَ ، وَنَظَرَ بَنُوهَا يَوْماً إِلَىٰ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ قَدْ وَرَدَ بِلادَهُمْ ، فَأَحَسُّوا بِأَنَّهُ أَرَادَ أُمَّهُمْ ، فَبَادَرُوا إِلَيْهِ لِيَمْنَعُوهُ تَزَوُّجَهَا ، وَسَبَقَهُمْ ، لأَنَّهُ كَانَ رَاكِباً ، فَقَالَ لَهَا : إِنَّ فِيكِ لَبَقِيَّةً ؛ فَقَالَتْ : إِنْ شِئْتَ ؛ فَجَاءُوا وَقَدْ بَنَىٰ عَلَيْهَا ، ثُمَّ نَقَلَهَا بَعْدُ إِلَىٰ بَلَدِهِ ، فَتَزْعُمُ ٱلرُّوَاةُ أَنَّهَا جَاءَتْ بِٱلْعَنْبَرِ مَعَهَا صَغِيراً ـ وَٱلْعَنْبَرُ هَذَا هُوَ ٱبْنُهَا مِنْ رَجُلٍ ٱسْمُهُ عَمْرُو بْنُ بَهْرَاءَ ، مِنْ قُضَاعَةَ ـ وَأَوْلَدَهَا عَمْرُو بْنُ تَمِيمٍ أُسَيِّداً وَٱلْهُجَيْمَ وَٱلْقُلَيْبَ ، فَخَرَجُوا ذَاتَ يَوْمٍ يَسْتَقُونَ ، فَقَلَّ عَلَيْهِمُ ٱلْمَاءُ ، فَأَنْزَلُوا مَائِحاً مِنْ تَمِيمٍ ، فَجَعَلَ ٱلْمَائِحُ يَمْلأُ ٱلدَّلْوَ إِذَا كَانَتْ لِلْهُجَيْمِ وَأُسَيِّدٍ وَٱلْقُلَيْبِ ، فَإِذَا وَرَدَتْ دَلْوُ ٱلْعَنْبَرِ تَرَكَهَا تَضْطَرِبُ ؛ فَقَالَ ٱلْعَنْبَرُ [من الرجز] :

قَدْ رَابَنِي مِنْ دَلْوِيَ ٱضْطِرَابُهَا  وَٱلنَّأْيُ عَنْ بَهْرَاءَ وَٱغْتِرَابُهَا

إِلَّا تَجِيءْ مَلْآىٰ يَجِيءْ قُرَابُهَا

ٱلنَّأْيُ عَنْ بُهَرَاءَ ، يُرِيدُ : وَٱلْبُعْدُ عَنْ قَوْمِهِ بَنِي بَهْرَاءَ بْنِ عَمْرٍو ؛ وَقَوْلُهُ : قُرَابُهَا ، وَهُوَ : مَا قَارَبَ قَدْرَ ٱلشَّيْءِ ، مِثْلُ ٱلْقُرَابَةِ ، يُرِيدُ : يَجِيءْ مَا يَقْرُبُ أَنْ يَمْلأَهَا [راجع « لسان العرب » ، مادة : قرب] .

* * *

١٥٢٤ ـ وَكَانَ مِنْ عَادَةِ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ مِنْهُمْ كَانَتْ إِذَا عَسُرَ عَلَيْهَا خَاطِبُ ٱلنِّكَاحِ ـ ٱلزَّوَاجِ ـ نَشَرَتْ جَانِباً مِنْ شَعْرِهَا ، وَكَحَلَتْ إِحْدَىٰ عَيْنَيْهَا مُخَالِفَةً لِلشَّعْرِ ٱلْمَنْشُورِ ، وَحَجَلَتْ عَلَىٰ إِحْدَىٰ رِجْلَيْهَا[1] ، وَيَكُونُ ذَلِكَ

---

(١) ٱلْحَجَلُ : أَنْ يَرْفَعَ ٱلإِنْسَانُ رِجْلاً وَيَقْفِزُ عَلَىٰ ٱلأُخْرَىٰ .

لَيْلًا ، وَتقولُ : يَا لَكَاحُ ! ٱبْغِي ٱلنِّكَاحَ ، قَبْلَ ٱلصَّبَاحِ ؛ فَيَسْهُلُ أَمْرُهَا وَتَتَزَوَّجُ عَنْ قُرْبٍ ، قَالَ رَجُلٌ لِصَدِيقِهِ وَقَدْ رَأَىٰ أُمَّهُ تَفْعَلُ ذٰلِكَ [من الرجز] :

أَمَـا تَـرَىٰ أُمَّـكَ تَبْغِـي بَعْـلَا ... قَـدْ نَشَـرَتْ مِـنْ شَعْـرِهَـا ٱلأَقَـلَّا
وَلَـمْ تُـوَفِّ مُقْلَتَيْهَـا كُحْـلَا ... تَـرْفَـعُ رِجْـلًا وَتَحُـطُّ رِجْـلَا
هَـذَا وَقَـدْ شَـابَ بَنُـوهَـا أَصْـلَا ... وَأَصْبَـحَ ٱلأَصْغَـرُ مِنْهُـمْ كَهْـلَا
خُـذِ ٱلقَطِيـعَ ثُـمَّ سُمْهَـا ذُلَّا ... ضَـرْبـاً بِـهِ تَتْـرُكُ هَـذَا ٱلْفِعْـلَا[1]

* * *

١٥٢٥ ـ وَقالَ آخَرُ [من الرجز] :

تَصَنَّعِـي مـا شِئْـتِ أَنْ تَصَنَّعِـي ... وَكَحِّلِـي عَيْنَيْـكِ أَو لَا فَـدَعِـي
ثُمَّ ٱحْجِلي في ٱلْبَيْتِ أَوْ في ٱلْمَجْمَعِ ... مـا لَـكِ فـي بَعْـلٍ أَرىٰ مِـنْ مَطْمَعِ

* * *

١٥٢٦ ـ وَقالَ آخَرُ [من الرجز] :

قَـدْ كَحَلَـتْ عَيْنـاً وَأَعْفَـتْ عَيْنـا ... وَحَجَلَـتْ وَنَشَـرَتْ قُـرَيْنـا[2]
تَظُـنُّ زَينـاً مـا تَـراهُ شَيْنـاً

* * *

## ٱلغَيْرَةُ وَٱلتَّدَيُّثُ :

### ٱلْغَيْرَةُ في ٱللُّغَةِ :

١٥٢٧ ـ ٱلْغَيْرَةُ ـ بِفَتْحِ ٱلغَيْنِ ـ ٱلْمَصْدَرُ مِنْ قَوْلِكَ : غارَ ٱلرَّجُلُ علىٰ

---

(١) ٱلْقَطِيعُ : ٱلسَّوْطُ يُقْطَعُ مِن جِلْدِ سَيْرٌ وَيُعْمَلُ مِنْهُ .
(٢) قُرَيْناً ، تَصْغِيرُ قَرْنٍ ، يُريدُ شَعْرَ رَأْسِها ، وَصَغَّرَهُ لِقِلَّتِه .

أَهْلِهِ ، يُقالُ : غارَ ٱلرَّجُلُ عَلىٰ ٱمْرَأَتِهِ ، وَٱلْمَرْأَةُ عَلىٰ بَعْلِها ، تَغارُ غَيْرَةً وَغَيْراً وَغاراً وَغِياراً ، وَرَجُلٌ غَيْرانٌ ، وَٱلْجَمْعُ غَيارىٰ وَغُيارىٰ ، وَرَجُلٌ غَيُورٌ ، وَٱمْرَأَةٌ غَيُورٌ ـ بِلا هاءٍ ، لأَنَّ فَعُولًا يَشْتَرِكُ فِيهِ ٱلذَّكَرُ وَٱلأُنْثىٰ ـ وَٱلْجَمْعُ في ٱلاثْنَيْنِ غُيُرٌ ، قالَ ٱلإِمامُ ٱلْجَوْهَرِيُّ : ٱمْرَأَةٌ غَيُورٌ ونِسْوةٌ غُيُرٌ ، وَٱمْرَأَةٌ غَيْرىٰ وَنُسْوَةٌ غَيارىٰ . وَيُقالُ : أَغارَ ٱلرَّجُلُ أَهْلَهُ تَزَوَّجَ عَلَيْها فَغارَتْ ، وَيُقالُ : فُلانٌ لا يَتَغَيَّرُ عَلىٰ أَهْلِهِ ، أَيْ : لا يَغارُ ، وَٱلْعَرَبُ تَقولُ : أَغْيَرُ مِنَ ٱلْحُمَّىٰ ، لأَنَّ ٱلْحُمَّىٰ تلازِمُ ٱلْمَحْمُومَ مَلازَمَةَ ٱلْغَيُورِ لِبَعْلِها .

وَٱلْغَيْرَةُ : ٱلْحَمِيَّةُ وَٱلأَنَفَةُ ، وَقالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنْ تَغَيُّرِ ٱلْقَلْبِ وَهَيَجانِ ٱلْغَضَبِ بِسَبَبِ ٱلْمُشارَكَةِ فِيما بِهِ ٱلاخْتِصاصُ ، وَأَشَدُّ ما يَكُونُ ذَلِكَ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ .

وَٱلْغَيْرَةُ جِبِلَّةٌ جَبَلَ ٱللهُ عَلَيْها بَنِي آدَمَ وَجَميعَ ٱلْحَيَوانِ ، وَلِذَلِكَ تَرىٰ ٱلعَيْرَ ـ حِمارَ ٱلْوَحْشِ ـ يُقاتِلُ عَنِ ٱلْعانَةِ ـ ٱلأَتانِ ـ كُلَّ فَحْلٍ يَعْرِضُ لَها ، غَيْرَ أَنَّ طِباعَ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فِيها ، فَمِنْ مُفْرِطٍ آخِذٍ بِٱلظِّنَّةِ ، ومِنْ مُتَغاضٍ مُخِلٍّ بِٱلدِّينِ وَٱلْمُرُوءَةِ ، وَكِلا ٱلطَّرفَيْنِ ذَميمٌ ، وَخَيْرُ ٱلأُمورِ أَوْساطُها . [ « تحفة العروس » للتجاني ، رقم : ١٠١٣] .

* * *

## مَدْحُ ٱلْغَيْرَةِ :

١٥٢٨ ـ في ٱلْحَديثِ ٱلشَّريفِ : « لا خَيْرَ في مَنْ لا يَغارُ » .

* * *

١٥٢٩ ـ وَفيهِ : « ٱلْغَيْرَةُ مِنَ ٱلإِيمانِ » [ « كنز العمال » ، رقم : ٨٠٦٨] .

* * *

١٥٣٠ ـ وقالَ سَعْدُ بْنُ عُبادَةَ : لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ ٱمْرَأَتِي لَضَرَبْتُه بِٱلسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ[1] ، فَقالَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟! لأَنَّا أَغْيَرُ مِنْهُ ، وَٱللهُ أَغْيَرُ مِنِّي » [ البخاري ، رقم : ٦٨٤٦ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٩٩] .

غير مُصْفَحٍ ، يُريدُ : إِنَّهُ يَضْرِبُهُ بِحَدِّهِ لا بِعَرْضِهِ ، وَٱلَّذي يَضْرِبُ بِٱلْحَدِّ إِنَّما يَقْصِدُ إِلىٰ ٱلْقَتْلِ ، أَمَّا ٱلَّذي يَضْرِبُ بِٱلْعَرْضِ فَإِنَّهُ يَقْصِدُ ٱلتَّأْديبَ .

* * *

١٥٣١ ـ أَمَّا غَيْرَةُ ٱللهِ فَقَدْ جاءَ مَغْزاها في حَديثٍ آخَرُ : « إِنَّ ٱللهَ يَغارُ ، وَغَيْرَةُ ٱللهِ أَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُؤْمِنُ ما حَرَّمَ ٱللهُ » [ البخاري ، رقم : ٥٢٢٣ ؛ الترمذي ، رقم : ١١٦٨ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٦٤٠٣ و٢٦٤٢٩ و٢٦٤٣١] .

* * *

١٥٣٢ ـ هَذا ، وَحَديثُ سَعْدٍ مُقْتَضَبٌ ، وَٱلْحَديثُ كَما وَرَدَ في أَكْثَرِ ٱلرِّواياتِ هَكَذا : لَمّا نَزَلَتْ هَذِهِ ٱلآيَةُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ . . . ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٤] الآيَةَ ؛ قالَ سَعْدٌ : أَهَكَذا أُنْزِلَتْ ! فَلَوْ وَجَدْتُ لُكاعَ مُتَفَخِّذَها رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أُحرِّكَهُ أَوْ أُهَيِّجَهُ حَتّىٰ آتي بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ ! فَوَٱللهِ لا آتي بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ حَتّىٰ يَقْضِيَ حاجَتَهُ ! فَقالَ رَسُولُ ﷺ : « يا مَعْشَرَ ٱلأَنْصارِ ! أَلا تَسْمَعُونَ ما يَقُولُ سَيِّدُكُمْ !» قالوا : يا رَسُولَ ٱلله ! لا تَلُمْهُ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ غَيُورٌ ، وَٱللهِ ما تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً قَطُّ إِلا عَذْراءَ ، وَلا طَلَّقَ ٱمْرَأَةً فَٱجْتَرَأَ رَجُلٌ مِنّا أَنْ يَتَزَوَّجَها مِنْ شِدَّةِ غَيْرَتِهِ ؛ فَقالَ رَسُولُ ٱللهِ : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ . . » الخ ، فَقالَ سَعْدٌ:

---

(١) غَيْرَ مُصْفَحٍ ، أَيْ : غَيْرَ مائِلٍ عَرْضاً .

وَٱللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ يا رَسُولَ ٱللهِ أَنَّها لَحَقٌّ وَأَنَّها مِنْ عِنْدِ ٱللهِ، وَلَكِنِّي عَجِبْتُ.

* * *

١٥٣٣ ـ وَقَبْلَ أَنْ نَمْضِيَ في إِيرادِ سائِرِ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ في ٱلْغَيْرَةِ نَذْكُرُ هُنا لِمُناسَبَةِ حَديثِ سَعْدٍ حُكْمَ ٱللهِ فِيمَنْ يَرىٰ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ رَجُلًا في فِراشِها ، قالَ ٱللهُ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [٢٤ سورة النور/ الآيات : ٦ ـ ٩] .

أَقُولُ : وَهَذِهِ ٱلْمَسْأَلَةُ يُقالُ لَها : ٱللِّعانُ[١] ، قالَ صاحِبُ « ٱللِّسانِ » : وَٱلْمُلاعَنَةُ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ إِذا قَذَفَ ٱلرَّجُلُ ٱمْرَأَتَهُ ، أَوْ رَماها بِرَجُلٍ أَنَّهُ زَنىٰ بِها ، فَٱلإِمامُ يُلاعِنُ بَيْنَهُما ، وَيَبْدَأُ بِٱلرَّجُلِ وَيَقِفُهُ حَتَّىٰ يَقُولَ : أَشْهَدُ بِٱللهِ إِنَّها زَنَتْ بِفلانٍ ، وَإِنَّهُ لَصادِقٌ فِيما رَمَاها بِهِ ؛ فَإِذا قالَ ذَلِكَ أَرْبَعَ مَرّاتٍ ، قالَ في ٱلْخامِسَةِ : وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ إِنْ كانَ مِنَ ٱلْكاذِبينَ فيما رَمَاها بِهِ ؛ ثُمَّ تُقامُ ٱلْمَرْأَةُ ، فَتَقُولُ أَيْضاً أَرْبَعَ مَرّاتٍ : أَشْهَدُ بِٱللهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكاذِبينَ فيما رَمانِي بِهِ مِنَ ٱلزِّنا ؛ ثُمَّ تَقُولُ في ٱلْخامِسَةِ : وَعَلَيَّ غَضَبُ ٱللهِ إِنْ كانَ مِنَ ٱلصَّادِقينَ ، فَإِذا فَرَغَتْ مِنْ ذَلِكَ بانَتْ مِنْهُ ـ ٱنْفَصَلَتْ ـ وَلَمْ تَحِلَّ لَهُ أَبَداً ، وَإِنْ كانَتْ حامِلًا فَجاءَتْ بِوَلَدٍ فَهُوَ وَلَدُها ، وَلا يُلْحَقُ بِٱلزَّوْجِ ، لأَنَّ ٱلسُّنَّةَ نَفَتْهُ عَنْهُ ، أَقُولُ : ثُمَّ إِنَّها تَرِثُهُ وَيَرِثُ مِنْها ما فَرَضَ ٱللهُ لَهُ ؛ قالَ صاحِبُ « ٱللِّسانِ » : سُمِّيَ ذَلِكَ كلُّهُ لِعاناً لِقَوْلِ ٱلزَّوْجِ : عَلَيْهِ لَعْنَةُ ٱللهِ إِنْ كانَ مِنَ ٱلْكاذِبينَ . وَقَوْلِ ٱلْمَرْأَةِ : عَلَيْها غَضَبُ ٱللهِ إِنْ كانَ مِنَ ٱلصَّادِقينَ .

---

(١) وَقَدْ عَقَدَ لَها ٱلْفُقَهاءُ باباً في كُتُبِ ٱلْفِقْهِ ٱلإِسْلامِيِّ .

وَجاءَ في صَحيحِ ٱلْبُخارِيِّ [ رقم : ٤٧٤٥ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٩٢ ؛ النسائي ، رقم : ٣٤٠٢ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٢٤٥ و٢٢٤٨ و٢٢٥١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٦٦ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٢٢٩٧ و٢٢٣٢٠ و٢٢٣٣٠ و٢٢٣٣٦ ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ١٢٠١ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢٢٩] ما يَلي : أَنَّ عُوَيْمِراً أَتىٰ عاصِمَ بْنَ عَدِيٍّ ، وَكانَ سَيِّدَ بَني عَجْلان ؛ فَقالَ : كَيْفَ تَقُولونَ في رَجلٍ وَجَدَ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ رَجُلًا ، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُوهُ ؟ أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ ؟ سَلْ لي رَسُولَ ٱللهِ ﷺ عَنْ ذٰلِكَ ؛ فَأَتىٰ عاصِمٌ ٱلنَّبِيَّ ﷺ وَسَأَلَهُ ، فَكَرِهَ رَسُولُ ٱللهِ ٱلْمَسائِلَ وَعابَها[1] حَتّىٰ كَبُرَ عَلىٰ عاصِمٍ ما سَمِعَ مِنْ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ، فَلَمّا رَجَعَ عاصِمٌ إِلىٰ أَهْلِهِ جاءَهُ عُوَيْمِرٌ ، فَقالَ : يا عاصِمُ ! ماذا قالَ لَكَ رَسُولُ ﷺ ؟ فَقالَ عاصِمٌ لِعُوَيْمِرٍ : لَمْ تَأْتِني بِخَيْرٍ ، قَدْ كَرِهَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ ٱلْمَسْأَلَةَ ٱلَّتي سَأَلْتُهُ عَنْها ؛ فَقالَ عُوَيْمِرُ : وَٱللهِ لا أَنتِهي حَتّىٰ أَسْأَلَهُ عَنْها ؛ فَأَقْبَلَ عُوَيْمِرُ حَتّىٰ جاءَ رَسُولَ ٱللهِ وَسْطَ ٱلنّاسِ ، فَقالَ : يا رَسولَ ٱللهِ ! أَرَأَيْتَ رَجُلًا وَجَدَ مَعَ ٱمْرَأَتِهِ رَجُلًا ، أَيَقْتُلُهُ فَتَقْتُلُوهُ ، أَمْ كَيْفَ يَصْنَعُ ؟ فَقالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « قَدْ أَنْزَلَ ٱللهُ فيكَ وَفي حاجَتِكَ ، فَٱذْهَب فَأْتِ بِها » ، فَأَمَرَها رَسُولُ ٱللهِ بِٱلْمُلاعَنَةِ ، فَتَلاعَنا ، ثُمَّ قالَ : يا رَسُولَ ٱللهِ ! إِنْ حَبَسْتُها فَقَدْ ظَلَمْتُها ؛ فَطَلَّقَها . فَكانَتْ سُنَّةً لِمَنْ كان بَعْدَهُما في ٱلْمُتَلاعِنَيْنِ ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ٱنْظُروا ، فَإِنْ جاءَتْ بِهِ أَسْحَمَ أَدْعَجَ ٱلْعَيْنَيْنِ ، عَظِيمَ ٱلأَلْيَتَيْنِ ، خَدَلَّجَ[2] ٱلسّاقَيْنِ ، فَلا أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إِلّا قَدْ صَدَقَ عَلَيْها ، وَإِنْ

---

(١) كانَ رَسُولُ ٱللهِ يَكْرَهُ مِنَ ٱلْمَسائِلِ ما كانَ فيهِ هَتْكُ سِتْرٍ أَوْ إِشاعَةُ فاحِشَةٍ ، وَكانَ يُحِبُّ ٱلتَّيْسيرَ عَلىٰ أُمَّتِهِ ، هٰذا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخرىٰ كانَتِ ٱلْمَسائِلُ فيما لَمْ يَنْزِلْ فيهِ حُكْمٌ زَمَنَ نُزُولِ ٱلْوَحْيِ غَيْرَ مَرْغوبٍ فيها ، لِئَلّا يَنْزِلَ ٱلْوَحْيُ بِٱلتَّحْريمِ فيما لَمْ يَكنْ قَبْلَ ذٰلِكَ مُحَرَّماً .

(٢) خَدَلَّجُ : مُمْتَلِئُ ٱلسّاقَيْنِ .

جاءَتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وَحرَةٌ[1] فلا أَحْسَبُ عُوَيْمِراً إِلَّا قَدْ كَذَبَ عَلَيْها » ، فَجاءَتْ بِهِ عَلَىٰ ٱلنَّعْتِ ٱلَّذي نَعَتَ بِهِ رَسُولُ ٱللهِ مِنْ تَصْديقِ عُوَيْمِرٍ ، فَكانَ بَعْدَهُ يُنْسَبُ إِلىٰ أُمِّهِ .

أُحَيْمِرُ : أَحْمَرُ ؛ وَأَسْحَمُ : أَسْوَدُ .

* * *

١٥٣٤ ـ وَفي ٱلْحَديثِ : « ٱلْغَيْرَةُ غَيْرَتانِ ، فَغَيْرَةٌ يُحِبُّها ٱللهُ ، وَغَيْرَةٌ يَكْرَهُها » قُلْنا : يا رَسولَ ٱللهِ ! ما ٱلْغَيْرَةُ ٱلَّتي يُحِبُّها ٱللهُ ؟ قالَ : « يَغارُ أَنْ تُؤْتىٰ مَعاصِيهِ وَتُنْتَهَكَ مَحارِمُهُ » وَمِنْ هَذِهِ ٱلْمَعاصي طَبْعاً أَنْ تُقْدِمَ ٱلزَّوْجَةُ عَلىٰ ما يُغيرُ ٱلزَّوْجَ ، فَإِذا غارَ كانَتْ غَيْرَتُهُ مِمَّا يُحِبُّهُ ٱللهُ ، قُلْنا : فَما ٱلْغَيْرَةُ ٱلَّتي يَكْرَهُها ٱللهُ ؟ قالَ : « أَنْ يَغارَ أَحَدُكُمْ في غَيْرِ كُنْهِهِ » [ « أخبار النساء » ، صفحة : ٨٢ ؛ « تحفة العروس » للتجاني ، رقم ١٠٠٤] .

وَمَعْنىٰ ذَلِكَ ظُهُورُ أَثَرِ ٱلْغَيْرَةِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يُوجِبُ ذَلِكَ ، ٱللَّهُمَّ إِلَّا سُوءُ ٱلظَّنِّ بِٱلْمَرْأَةِ ، وَهَذا هُوَ مَعْنىٰ قَوْلِ بَعْضِ ٱلْعُلَماءِ : ٱلْغَيْرَةُ غَيْرَتانِ : غَيْرَةٌ يُصْلِحُ بِها ٱلرَّجُلُ أَهْلَهُ ، وَغَيْرَةٌ تُدْخِلُهُ ٱلنَّارَ .

١٥٣٥ ـ وَقالَ ٱلْغَزالِيُّ [ « الإحياء » ٢/ الصفحات : ٤٥ و٤٦] : وَمِنْ ذَلِكَ ـ أَيْ مِنْ آدابِ ٱلْمُعاشَرَةِ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ ـ ٱلاعْتِدالُ في ٱلْغَيْرَةِ ، وَهُوَ أَلَا يَتَغافَلَ عَنْ مَبادي الأُمورِ ٱلَّتي تُخْشىٰ غَوائِلُها ، ولا يُبالِغُ في إِساءَةِ ٱلظَّنِّ وَٱلتَّعَنُّتِ وَٱلتَّجَسُّسِ عَلىٰ ٱلْبَواطِنِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ ، فَقَدْ نَهىٰ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ عَنْ تَتَبُّعِ عَوْراتِ ٱلنِّساءِ ، وَقالَ : « إِنَّ ٱللهَ يُبْغِضُ ٱلْغَيْرَةَ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ » ، لأَنَّ ذَلِكَ مِنْ سُوءِ ٱلظَّنِّ ٱلَّذي

---

(١) ٱلوحَرَةُ : ٱلوزَغَةُ .

نُهينا عَنْهُ ، فَإِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْم .

وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ مِن سَفْرَةٍ ، قالَ قَبْلَ دُخُولِ ٱلْمَدينَةِ : « لا تَطْرُقُوا ٱلنِّساءَ لَيْلًا » [« المستدرك على الصحيحين » ٤/ ٣٢٦ ؛ « مجمع الزوائد » ٤/ ٣٣٠] ، فَخالَفَهُ رَجُلانِ ، فَسَبَقا ، فَرَأىٰ كُلٌّ واحِدٍ في مَنْزِلِهِ ما يَكْرَهُ .

قالَ : وَأَمَّا ٱلْغَيْرَةُ في مَحَلِّها فَلا بُدَّ مِنها كَما أَسْلَفْنا ، وَكانَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ يَقُولُ : أَتَدَعُونَ نِساءَكُم يُزاحِمْنَ ٱلْعُلُوجَ في ٱلأَسْواقِ ! قَبَّحَ ٱللهُ مَنْ لا يَغارُ ؛ إِلىٰ أَنْ قالَ : وَٱلطَّرِيقُ هُوَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْها ٱلرِّجالُ ، وَأَلَّا تَخْرُجَ هِيَ إِلىٰ ٱلأَسْواقِ ، وَقَدْ قالَ رَسُولُ ٱللهِ لابْنَتِه فاطِمَةَ : « أَيُّ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلْمَرْأَةِ ؟» قالَتْ : أَلَّا تَرىٰ رَجُلًا ، وَلا يراها رَجُلٌ ؛ فَضَمَّها إِلَيْهِ ، وقالَ : ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ ﴾ [٣ سورة آل عمران/ الآية : ٣٤] ، فَٱسْتَحْسَنَ قَوْلَها ؛ وَكانَ أَصْحابُ رَسولِ ٱللهِ يَسُدُّونَ ٱلْكُوىٰ وَٱلثُّقُوبَ في ٱلْحِيطانِ لِئَلَّا تَطَّلِعَ ٱلنِّساءُ إِلىٰ ٱلرِّجالِ .

وَرَأىٰ مُعاذٌ ٱمْرَأَتَهُ قَدْ دَفَعَتْ إِلىٰ غُلامِهِ تُفَّاحَةً قَدْ أَكَلَتْ مِنْها ، فَضَرَبها ، وَكانَ رَسُولُ ٱللهِ قَدْ أَذِنَ لِلنِّساءِ في حُضُورِ ٱلْمَسْجِدِ ، وَٱلصَّوابُ الآنَ ٱلْمَنْعُ ؛ إِلَّا ٱلْعَجائِزَ ، بَلِ ٱسْتُصْوِبَ ذٰلِكَ في زَمَنِ ٱلصَّحابَةِ ، حَتّىٰ قالَتْ عائِشَةُ : لَوْ عَلِمَ ٱلنَّبِيُّ ما أَحْدَثَتِ ٱلنِّساءُ بَعْدَهُ لَمَنَعَهُنَّ مِنَ ٱلْخُرُوجِ . وَكَذٰلِكَ كانَ رَسُولُ ٱللهِ قَدْ أَذِنَ لَهُنَّ في ٱلأَعْيادِ خاصَّةً أَنْ يَخْرُجْنَ ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ رِضا أَزْواجِهِنَّ ، وَٱلْخُرُوجُ ٱلآنَ مُباحٌ لِلْمَرْأَةِ ٱلْعَفيفَةِ بِرِضا زَوْجِها ، وَلَكِنَّ ٱلْقُعُودَ أَسْلَمُ ، وَيَنْبَغي أَلا تَخْرُجَ إِلَّا لِمُهِمٍّ ، فَإِنَّ ٱلْخُرُوجَ لِلنَّظَّارَةِ وَٱلأُمُورِ ٱلَّتي لَيْسَتْ مُهِمَّةً تَقْدَحُ في ٱلْمُروءَةِ ، وَرُبَّما تُفْضِي إِلىٰ ٱلْفَسادِ ! فَإِذا خَرَجَتْ فَيَنْبَغِي أَنْ تغُضَّ بَصَرَها عَنِ ٱلرِّجالِ .

* * *

١٥٣٦ ـ وَكَانَتِ ٱمْرَأَةٌ بِنَيسابُورَ قَدْ حَمَلَتْ زَوْجَها إِلىٰ ٱلْقاضِي ، تَدَّعي عَلَيْهِ خَمْسَ مِئَةِ دِينارٍ ، فَأَنْكَرَ ٱلرَّجُلُ ! فَٱسْتَدْعىٰ ٱلْقاضي مِنْها إِحْضارَ ٱلشُّهُودِ فَأَحْضَرَتْهُمْ ، فَقالُوا : حَتّىٰ تَكْشِفَ عَنْ وَجْهِها ثُمَّ نَشْهَدُ . فَهَمَّتْ أَنْ تُسْفِرَ عَنْ وَجْهِها ، فَصاحَ ٱلرَّجُلُ وَأَدْرَكَتْهُ ٱلْغَيْرَةُ وَقالَ : أَنْتُمْ تُريدُونَ أَنْ تَنْظُرُوا إِلىٰ وَجْهِ زَوْجَتي ! أَيُّها ٱلْقاضي ! أَشْهَدُ أَنَّ لَها حَقّاً عَلَيَّ وَاجِباً سِتَّ مِئَةِ دِينارٍ ؛ فَتَعَجَّبَ ٱلْقاضِي وَٱلْحاضِرُونَ مِنْ حَمِيَّتِهِ وَغَيْرَتِهِ ، فَقَالَتْ ٱلْمَرْأَةُ : أَيُّها ٱلْقاضِي ! أَشْهَدُكَ أَنِّي بَرِيئَةٌ مِنْ حَقِّي وَأَنِّي قَدْ أَحْلَلْتُهُ مِنْ ذَلِكَ ! فَتَعَجَّبُوا غايَةَ ٱلْعَجَبِ ، ثُمَّ قالَ ٱلْقاضي : ٱكْتُبُوهُ وَضَعُوهُ في بابِ ٱلْفُتُوَّةِ .

الفُتُوَّة ، يُريدونَ بِها مَجْمُوعَ صِفاتٍ حَميدَةٍ مِنَ ٱلْكَرَمِ ـ ضِدُّ ٱللُّؤْمِ ـ وَٱلسَّخاءِ وَٱلنَّجْدَةِ وَٱلْحَمِيَّةِ وَٱلأَنفَةِ وَٱلْغَيْرَةِ وَتَحَمُّلِ ٱلْمَشاقِّ في سَبيلِ ٱلْغَيْرِ .

* * *

١٥٣٧ ـ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ مَرْوانَ إِذا كانَ لَهُ خَصِيٌّ وَضِيءٌ أَمَرَ أَنْ يُحْجَبَ عَنْ نِسائِهِ ، وَقالَ : هُوَ رَجُلٌ وَإِنْ قُطِعَ مِنْهُ ما قُطِعَ ، وَرُبَّما ٱجْتَزَأَتِ ٱمْرَأَةٌ بِمِثْلِها ، وَلِلْعَيْنِ حَظُّها .

* * *

١٥٣٨ ـ وَكانَ لِهِشامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلَكِ خَصِيٌّ يُقالُ لَهُ : خالِدُ ؛ وَكانَ وَضيئاً ، تَأْخُذُهُ ٱلْعَيْنُ ، مَديدَ ٱلْقامَةِ ، فَخْماً أَبْيَضَ ؛ فَأَمَرَ هِشامُ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بِٱلْغُدُوِّ عَلَيْهِ ، فَغَدا ، فَقيلَ : ٱسْتُؤْذِنَ لأَخي أَميرِ ٱلْمُؤْمِنينَ عَلَيْهِ ؛ فَٱسْتَخَفَّ ـ أَيِ ٱلْخَصِيُّ ـ وَقالَ كَلِمَةً سَمِعَها مَسْلَمَةُ ، فَحَقَدَها عَلَيْهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ مَسْلَمَةُ إِلىٰ هِشامَ لَمْ يَزَلْ يُذاكِرُهُ شَيْئاً ، وَيُشيرُ عَلَيْهِ حَتّىٰ حُطَّ عَنْ فُرُشِهِ وَجَلَسا عَلىٰ ٱلْبِساطِ ، وَمَسْلَمَةُ في ذَلِكَ يَرْمُقُ ٱلْخَصِيَّ مَتىٰ يَمُرُّ بِهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَرَّ

بِعمامَةِ وَشْيٍ ، فَقَالَ مَسْلَمَةُ : يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنينَ ! أَيُّ فِتْيانِنا هَذا ؟ قالَ : غَفَرَ ٱللهُ لَكَ يا أَبا سَعْدٍ ! هَذا خالِدٌ ٱلْخَصِيُّ ؛ فَقالَ : يا أَميرَ ٱلْمُؤْمِنينَ ! لَضَمَّةٌ مِنْ هَذا خَيْرٌ مِنْ مُجامَعَةِ رَجُلٍ ؛ فَقَلِقَ هِشامُ ، وَجَعَلَ يَتَضَوَّرُ حَتّىٰ قامَ مَسْلَمَةُ ، ثُمَّ أَمَرَ بِٱلْخَصِيِّ ، فَأُخْرِجَ مِنَ ٱلرُّصافَةِ ، فَٱتَّصَلَ بِبَعْضِ بَنِيهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ هِشامٌ : إِنِّي نَحَّيْتُهُ لِما بَلَغَكَ ؛ فَجَفاهُ ، فَلَحِقَ ٱلْخَصِيُّ بِٱلثَّغْرِ .

* * *

١٥٣٩ ـ وَقالوا : كُلُّ حُبٍّ بِلا غَيْرَةٍ فَهُوَ حُبٌّ كاذِبٌ .

* * *

١٥٤٠ ـ وَقالَ قَيْسُ بْنُ زُهَيْرٍ ـ شاعِرٌ فارِسٌ جاهِلِيٌّ ـ لَمَّا تَزَوَّجَ في غَيْرِ قَوْمِهِ ، لامْرَأَتِهِ : أَنا غَيُورٌ هَجُورٌ [ فَخُورٌ ] أَنِفٌ ، وَلَكِنِّي لا آنَفُ حَتّىٰ أُضامَ ، وَلا أَفْخُرُ حَتّىٰ أُفاخَرَ ، وَلا أَغارُ حَتّىٰ أَرىٰ . [ « العقد الفريد » صفحة : ١٦٨٥ ؛ « أخبار النساء » ، صفحة : ٨٥] .

قَوْلُهُ : حَتّىٰ أَرىٰ ، إِنَّما عَنىٰ رُؤْيَةَ ٱلأَمارَةِ وَشَواهِدِ ٱلْحالِ ، لا رُؤْيَةَ ٱلْمُوافَقَةِ وَدُخُولِ ٱلْمِرْوَدِ في ٱلْمُكْحُلَةِ[١] .

* * *

١٥٤١ ـ وَقالَ عَلِيُّ ٱبْنُ أَبي طالِبٍ : غَيْرَةُ ٱلْمَرْأَةِ كُفْرٌ ، وَغَيْرَةُ ٱلرَّجُلِ إِيمانٌ .

وَإِنَّما عَدَّ غَيْرَةَ ٱلْمَرْأَةِ كُفْراً لأَنَّها تُحَرِّمُ عَلىٰ ٱلرَّجُلِ ما أَحَلَّ ٱللهُ مِنْ زَواجِ

---

(١) المِرْوَدُ : ٱلْمِيلُ ، ما يُجْعَلُ بِهِ ٱلْكُحْلُ فِي ٱلْعَيْنِ ؛ وَٱلْمُكْحُلَةُ : ٱلَّتي فيها ٱلْكُحْلَ ، وَهُوَ أَحَدُ ما جاءَ عَلىٰ ٱلضَّمِّ في ٱلأَدَواتِ .

مُتَعَدِّداتٍ ، وَأَمَّا غَيْرَةُ ٱلرَّجُلِ فَتَحْرِيمٌ لِمَا حَرَّمَهُ ٱللهُ ، وَهُوَ ٱلزِّنا .

* * *

١٥٤٢ ـ وَقالَ سَهْلُ بْنُ هارونَ : ثلاثَةٌ مِنَ ٱلْمَجانِينِ وَإِنْ كانُوا عُقَلاءَ : ٱلْغَيْرانُ وَٱلْغَضْبانُ وَٱلسَّكْرانُ ، وَكانَ ٱلْخَليعُ ٱلشَّاعِرُ حاضِراً ، فَقالَ : وَٱلْمُنْعِظُ ؛ وَضَحِكَ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ إِذ ذاكَ [من الوافر] :

وَمَا شَرُّ ٱلثَّلاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو      بِصاحِبِكِ ٱلَّذي لا تَصْبَحِينا

[« بهجة المجالس » ١/ ٥٤٤ « أخبار النساء » صفحة: ٤٨ ؛ « تحفة العروس » ، رقم: ١٠١٧] .

* * *

١٥٤٣ ـ وَقالُوا [من الكامل] :

إِنَّ ٱلْكَرِيمَةَ رُبَّما أَزْرىٰ بِها      لِينُ ٱلْحِجابِ وَضَعْفُ مَنْ لا يَحْزُمُ

وَكَذاكَ حَوْضُكَ إِنْ أَضَعْتَ فَإِنَّهُ      يُوطَأُ وَيَشْرَبُ ماؤُهُ وَيَهَدَّمُ

* * *

## مَدْحُ تَرْكِ ٱلإِفْرَاطِ فِي ٱلْغَيْرَةِ :

١٥٤٤ ـ قالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ : مِنَ ٱلسُّؤْدَدِ ٱلصَّلَعُ ، وَٱنْدِحاقُ ٱلْبَطْنِ ، وَتَرْكُ ٱلإِفْرَاطِ في ٱلْغَيْرَةِ . [« أخبار النساء » صفحة : ٨٥ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ١٠٠٨] .

ٱنْدِحاقُ ٱلْبَطْنِ : سَعَتُها ، وَٱنْظُرْ قَوْلَهُمْ في ٱلصَّلَعِ . [ « الأرقام » : ١١٣٦ ـ ١١٥١ ] .

* * *

١٥٤٥ ـ وَكَانَ ٱلْمَأْمُونُ يَقُولُ : ٱلْغَيْرَةُ بَهِمِيَّةٌ . يُرِيدُ ٱلإِفْرَاطَ فِيهَا .

* * *

١٥٤٦ ـ وَقَالَ أَيْضاً : هِي ضَرْبٌ مِنَ ٱلْبُخْلِ .

* * *

١٥٤٧ ـ وَقَالَ مِسْكِينٌ ٱلدَّارِمِيُّ ، وَقِيلَ : ٱلْقَائِلُ أَبُو يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيُّ [من السريع] :

مَا أَحْسَنَ ٱلْغَيْرَةَ فِي حِينِهَا ... وَأَقْبَحَ ٱلْغَيْرَةَ فِي كُلِّ حِينْ
مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَّهِماً عِرْسَهُ ... مُتَّبِعاً فِيهَا لِقَوْلِ ٱلظَّنُونْ[1]
يُوشِكُ أَنْ يُغْرِيَهَا بِٱلَّذِي ... مِنْكَ إِلَىٰ عِرْضٍ صَحِيحٍ وَدِينْ
لا تَطْلَعَنْ مِنْكَ عَلَىٰ رِيبَةٍ ... فَيَتْبَعَ ٱلْمَقْرُونُ حَبْلَ ٱلْقَرِينْ[2]

قَالَ بَعْضُهُمْ : مَا أَرَاهُ إِلَّا وَكَانَ يَقُولُ بِٱلإِبَاحَةِ ، وَإِلَّا فَلِمَ يُجَوِّزُ مَا يَأْنَفُ مِنْهُ ٱلأَحْرَارُ ؟

* * *

١٥٤٨ ـ وَكَانَ مِسْكِينٌ كَثِيرَ ٱللَّهَجِ بِٱلْقَوْلِ فِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ [من المتقارب] :

أَلَا أَيُّهَا ٱلْغَائِرُ ٱلْمُسْتَشِيطُ ... عَلَامَ تَغَارُ إِذَا لَمْ تُغَرْ

(١) عِرْسُهُ : زَوْجَتُهُ ؛ وَٱلظَّنُونُ : ٱلسَّيِّءُ ٱلظَّنِّ وَمَنْ لا يُوثَقُ بِخَبَرِهِ ، وَيُرْوَىٰ هَذَا ٱلْعَجْزُ : ( مُتَّبِعاً فِيهَا لِوَهْمِ ٱلظَّنُونْ ) ، وَهُوَ وَاضِحٌ .

(٢) مَا أَجْمَلَ هَذَا ٱلْبَيْتِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ ، يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ تَحْصِينَ ٱمْرَأَتِكَ فَحَصِّنْ نَفْسَكَ وَإِلَّا كُنْتَ قُدْوَةً سَيِّئَةً لَهَا .

فَمَــا خَيْــرُ عِــرْسٍ إِذَا خِفْتَهَــا ... وَمَــا خَيْــرُ بَيْــتٍ إِذَا لَــمْ يُــزَرْ
تَغَــارُ عَلَــىٰ ٱلنَّــاسِ أَنْ يَنْظُــرُوا ... وَهَــلْ يَفْتِــنُ ٱلصَّــالِحَاتِ ٱلنَّظَــرْ
فَــإِنِّــي سَــأُخْلِــي لَهَــا بَيْتَهَــا ... فَتَحْفَــظُ لِــي نَفْسَهَــا أَوْ تَــذَرْ
إِذَا ٱللهُ لَــمْ يُعطِــهِ وُدَّهَــا ... فَلَــنْ يُعْطِــي ٱلــوُدَّ سَــوْطٌ خُمَــرْ
وَمَــنْ ذَا يُــرَاعِــي لَــهُ عِــرْسَــهُ ... إِذَا ضَمَّــهُ وَٱلْمِطِــيَّ ٱلسَّفَــرْ

[« شرح نهج البلاغة » ١٦/١٢٧ و١٢٨ ؛ « أخبار النساء » صفحة : ٨٩ ؛ « ديوان مسكين الدارمي » صفحة : ٤٠ و٤١ ، رقم : ٣٦ ؛ « تحفة العروس » رقم : ١٠١١] .

* * *

**مُغَالاةُ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْغَيْرَةِ :**

١٥٤٩ ـ قَالَ بَعْضُهُمْ : لأَنْ يَرَىٰ ٱمْرَأَتِي أَلْفُ رَجُلٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرَىٰ ٱمْرَأَتِي رَجُلًا وَاحِداً .

* * *

١٥٥٠ ـ وَحَجَّ بَعْضُهُمْ بِٱمْرَأَتِهِ ، فَنَظَرَ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلتَّرْوِيَةِ ، فَهَالَهُ كَثْرَتُهُمْ ، فَقَالَ : إِنَّ رَجُلًا يُدْخِلُ ٱمْرَأَتَهُ وَسْطَ هَؤُلاءِ لَمَجْنُونٌ ؛ وَضَرَبَ وَجْهَ رَاحِلَتِهِ وَعَادَ وَلَمْ يَحُجَّ .

* * *

١٥٥١ ـ وَحَدَّثَ أَبُو عُبَيْدَةَ ، قَالَ : تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ٱمْرَأَةً مِنْ قَوْمِهِ ، فَخَرَجَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، ثُمَّ قَدِمَ وَقَدْ وَلَدَتِ ٱمْرَأَتُهُ وَكَانَ خَلَّفَهَا حَامِلًا ، فَنَظَرَ إِلَىٰ ٱبْنِهِ فَإِذَا هُوَ أَحْمَرُ غَضْبٌ[1] ، أَزَبُّ

(١) أَحْمَرُ غَضْبٌ : شَدِيدُ ٱلْحُمْرَةِ .

ٱلْحَاجِبَيْنِ[١] ، فَدَعَاهَا وَٱنْتَضَّ ٱلسَّيْفَ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الرجز] :

لا تَمْشُطِي رَأْسِي وَلا تَفْلِينِي وَحَاذِرِي ذَا ٱلرِّيقِ فِي يَمِينِي[٢]
وَٱقْتَرِبِي دُونَكِ أَخْبِرِينِي مَا شَأْنُهُ أَحْمَرَ كَٱلْهَجِينِ
خَالَفَ أَلْوَانَ بَنِيَّ ٱلْجُونِ ؟

فَقَالَتْ تُجِيبُهُ [من الرجز] :

إِنَّ لَهُ مِنْ قِبَلِي أَجْدَادَا بِيضَ ٱلْوُجُوهِ كُرَمَا أَنْجَادَا
مَا ضَرَّهُمْ إِنْ حَضَرُوا أَمْجَادَا أَوْ كَافَحُوا يَوْمَ ٱلْوَغَىٰ ٱلأَنْدَادَا
أَلَّا يَكُونَ لَونُهُمْ سَوَادَا

* * *

**وَمِنَ ٱلْغَيْرَةِ ٱلسَّخِيفَةِ مُحَاوَلَةُ ٱلرَّجُلِ أَلاَّ تَتَزَوَّجَ ٱمْرَأَتُهُ بَعْدَهُ :**

١٥٥٢ ـ وَقَدْ تَنْتَهِي ٱلْغَيْرَةُ بِٱلرَّجُلِ إِلَىٰ أَنْ يُوصِي ٱلْمَرْأَةَ عِنْدَ وَفَاتِهِ أَلَّا تَنْكِحَ أَحَداً بَعْدَهُ ، أَوْ لا تَنْكِحَ فُلاناً بِعَيْنِهِ ، وَيُحَلِّفُهَا عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَرُبَّمَا يُحَلِّفُ فُلاناً عَلَىٰ أَلَّا يَنْكِحَهَا ، وَهَذَا عَمْرَكَ ٱللهَ غَايَةٌ فِي ٱلْحُمْقِ وَٱلسُّخْفِ ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا إِغْرَاءً لَهَا بِنِكَاحِهِ وَمُنَبِّهَةً لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَىٰ ٱلْفِكْرَةِ فِي أَمْرِ صَاحِبِهِ .

كَانَ ٱلْهَادِي بْنُ ٱلْمَهْدِيِ ٱلْعَبَّاسِيُّ وَأَخُو هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ قَدِ ٱشْتَرَىٰ أَمَتَهُ أَمَةَ ٱلْعَزِيزِ ، وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّىٰ غَادِرٌ ، بِمِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَيُقَالُ : إِنَّ ٱلرَّبِيعَ أَهْدَاهَا إِلَيْهِ ؛ وَلَمْ يَكُنْ فِي زَمَانِهَا أَجْمَلُ مِنْهَا وَلا أَحْسَنُ غِنَاءً ، وَلَا أَجْمَعُ لِكُلِّ فَنٍّ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا ، وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ يَهْوَاهَا وَيَكْتُمُ ذَلِكَ ، وَكَانَ ٱلْهَادِي يُنَوِّمُهَا

---

(١) أَزَبُّ ٱلْحَاجِبَيْنِ : كَثِيرُ ٱلشَّعَرِ فِيهِمَا .
(٢) ذُو ٱلرِّيقِ : ٱلسَّيْفُ ، يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ مَائِهِ وَبَرِيقِهِ .

في حِجْرِهِ ، وَلا يُوقِظُهَا حَتَّىٰ تَنْتَبِهَ مِنْ نَوْمِهَا ، لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ إِيَّاهَا ، وَبَيْنَمَا ٱلْهَادِي ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسٌ مَعَهَا إِذِ ٱسْتُؤْذِنَ عَلَيْهِ لأَخِيهِ هَارُونَ ، فَأَسْرَعَتْ إِلَىٰ بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْقَرِيبَةِ ، وَأَسْرَعَتْ في مَشْيِهَا ، وَدَخَلَ ٱلرَّشِيدُ عَلَىٰ أَخِيهِ ٱلْهَادِي ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ ٱلْهَادِي : يَا هَارُونُ ! قَدْ حَدَّثَتْنِي نَفْسِي بِشَيْءٍ ، وَهُوَ يَجُولُ في فِكْرِي ، وَقَدْ تَنَغَّصَ لَهُ عَيْشِي ؛ قَالَ لَهُ : وَمَا هُوَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ لا نَغَّصَ ٱللهُ لَكَ عَيْشاً ؛ فَقَالَ ٱلْهَادِي : يَا هَارُونُ ! إِنَّهُ وَقَعَ في خَلَدِي أَنَّنِي أَمُوتُ قَرِيباً وَأَنْتَ تَتَزَوَّجُ ٱمْرَأَتِي أَمَةَ ٱلْعَزِيزِ مِنْ بَعْدِي ! فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ : بَلِ ٱللهُ يَجْعَلُنِي فِدَاءَكَ وَيُقَدِّمُنِي قَبْلَكَ ، يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، لا يَخْطُرُ لَكَ هَذَا عَلَىٰ بَالٍ ، فَبِئْسَ ٱلظَّنُّ هَذَا ، وَلا أَسْمَعَنِي ٱللهُ فِيكَ سُوءاً وَلا أَفْجَعَنِي فِيكَ ؛ فَقَالَ ٱلْهَادِي : دَعْنِي مِنْ هَذَا ، فَهُوَ مَا أَخْبَرْتُكَ ؛ فَقَالَ لَهُ ٱلرَّشِيدُ : وَمَا ٱلَّذِي يُزِيلُ هَذَا مِنْ قَلْبِكَ ؟ فَقَالَ لَهُ : ٱلأَيْمَانُ وَٱلْعُهُودُ وَٱلْمَوَاثِيقُ ؛ فَأَعْطَاهُ مَا أَرَادَ مِنَ ٱلطَّلاقِ وَٱلْحجِّ مَاشِياً وَالعِتْقِ وَٱلصَّدَقَةِ وَكُلِّ يَمِينٍ مُؤَكَّدَةٍ ، فَكَأَنَّ ٱلْهَادِي قَدْ سَكَنَ مَا بِهِ لِذَلِكَ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثِ ٱلْهَادِي إِلَّا أَيَّاماً قَلائِلَ حَتَّىٰ مَاتَ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا ٱلرَّشِيدُ مِنْ سَاعَتِهِ يُعَرِّضُ لَهَا بِٱلْخُطْبَةِ ، فَأَذْكَرَتْهُ مَا كَانَ قَدْ حَلَفَ بِهِ ، فَقَالَ لَهَا : مَا أَهْوَنَ ذَلِكَ ! أَحُجُّ ، وَأُطَلِّقُ ، وَأَتَصَدَّقُ ، وَأَعْتِقُ ؛ فَطَلَّقَ زُبَيْدَةَ طَلْقَةً ٱنْعزَلَ بِهَا عَنْهَا ، وَأَعْتَقَ حُسَيْناً وَمَسْرُوراً ٱلْخَادِمَيْنِ ، وَتَصَدَّقَ بِمِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ، وَحَجَّ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ مَاشِياً ، وَكَانَتْ تُفْرَشُ لَهُ ٱللُّبُودُ مِيلًا بَعْدَ مِيلٍ ، فَيُقَالُ : إِنَّهُ خَرَجَ فِي أَوَّلِ ٱلْحَوْلِ فَوَصَلَ فِي آخِرِهِ ، وَتَزَوَّجَ أَمَةَ ٱلْعَزِيزِ لَمَّا قَضَىٰ حَجَّتَهُ ، فَأَقَامَتْ عِنْدَه يَسِيراً ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهِيَ نَائِمَةٌ وَرَأْسُهَا فِي حِجْرِهِ إِذِ ٱنْتَبَهَتْ فَزِعَةً مَرْعُوبَةً مَذْعُورَةً ، فَٱسْتَخْبَرَهَا عَنْ شَأْنِهَا ! فَقَالَتْ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ! رَأَيْتُ ٱلْهَادِي أَخَاكَ وَقَدْ دَخَلَ ، فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْ ٱلْبَابِ وَتَأَوَّهَ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [من مجزوء الكامل] :

أَخْلَفْــتِ وَعْــدِي بَعــدَ مَــا    جَــاوَرْتُ سُكَّــانَ ٱلْمَقَــابِــرْ
وَحَلَفْــتِ لِــي وَحَنْثْــتِ فِــي    أَيْمَــانِــكِ ٱلْكَــذِبِ ٱلْفَــوَاجِــرْ
وَنَكَحْـــتِ غَـــادِرَةً أَخِــــي    صَــدَقَ ٱلَّــذِي سَمَّــاكِ غَــادِرْ
لا يَهْنِــكِ ٱلإِلْــفُ ٱلْجَــدِ    يــدُ وَلا تَخَطَّتْــكِ ٱلــدَّوَائِــرْ

فَأَقَامَتْ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ عاماً ، وَقِيلَ : شَهْراً ، وَقِيلَ : جُمْعَةً ؛ وَمَاتَتْ .

[« المحاسن والأضداد » صفحة : ٣٩٥ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ١٠١٩ و١٠٢٠ ؛ « القيان » ، رقم : ٢٤] .

* * *

١٥٥٣ ـ وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا ـ وَهِيَ أُخْتُ ٱلسَّيِّدَةِ سُكَيْنَةَ ـ عِنْدَ ٱلْحَسَنِ بْنِ ٱلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ ، وَكَانَ مُحِبًّا لَهَا ، فَلَمَّا ٱحْتُضِرَ ، قَالَ لَهَا : إِنَّكِ ٱمْرَأَةٌ مَرْغُوبٌ فِيكِ ، وَكَأَنِّي بِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَدْ جَاءَ خَلْفَ جَنَازَتِي عَلَىٰ فَرَسٍ مُرَجِّلا شَعَره ، لابِساً جُبَّتَهُ ، يَسِيرُ فِي جَانِبِ ٱلنَّاسِ ، مُتَعَرِّضاً لَكِ ، فَٱنْكِحِي مَنْ شِئْتِ غَيْرَهُ ، فَإِنِّي لا أَدَعُ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَرَائِي هَمًّا غَيْرَكِ ؛ وَحَلَّفَهَا بِٱلأَيْمانِ ٱلْمُغَلَّظَةِ ، مِنْ ٱلْعِتْقِ وَٱلصَّدَقَةِ عَلَىٰ ذَلِكَ ، فَلَمَّا مَاتَ ٱلْحَسَنُ جَرَىٰ ٱلأَمْرُ عَلَىٰ مَا وَصَفَه قَبْلَ وَفَاتِه ، وَكَانَ يُقَالُ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ : « ٱلْمُطْرَفُ » لِحُسْنِهِ وَجَمَالِهِ ، فَرَآهَا حَاسِرَةً وَهِيَ تَضْرِبُ وَجْهَهَا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا : أَلَّا تَضْرِبِي وَجْهَكِ ، فَإِنَّ بِنَا إِلَيْهِ حَاجَةً ، فَٱرْفُقِي بِهِ ؛ فَٱسْتَرْخَتْ يَدَاهَا ، وَعُرِفَ ذَلِكَ مِنْهَا ، ثُمَّ عَوَّضَهَا مَكَانَ كُلِّ مَمْلُوكٍ حَلَفَتْ بِهِ مَمْلُوكَيْنِ ، وَمَكَانَ كُلِّ شَيْءٍ شَيْئَيْنِ ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا ، فَوَلَدَتْ لَهُ ٱلدِّيبَاجَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ ، وَهُوَ ٱلَّذِي قَتَلَهُ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورُ ، وَكَانَتْ وَفَاتُهَا هِي وَأُخْتُهَا سُكَيْنَةُ فِي عَامٍ وَاحِدٍ .

[« أخبار النساء » صفحة : ١٤٩ ؛ « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، تراجم النساء ، صفحة : ٢٨١ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ١٠١٨] .

* * *

## غَدْرُ الْمَرْأَةِ[1] :

١٥٥٤ ـ يَقُصُّونَ في بَعْضِ الأَساطِيرِ القَدِيمَةِ أَنَّ حَكِيماً من حُكماءِ اليونانِ كان يُحِبُّ زَوْجَتَهُ حُبّاً مَلَكَ عَلَيْهِ عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ ، وأحاطَ به إِحاطةَ الشُّعاعِ بالمِصْباحِ المُتَّقِدِ ، وكانَ يمازِجُ هناءَتَهُ الحاضِرَةَ شقاءُ مستَقبلٍ يسوقُهُ إلى نَفْسِهِ الخوفُ مِنْ أَنْ تَدُورَ الأَيَّامُ دَوْرَتَها ، فيَموتُ ويُفْلِتُ من يَدِهِ ذلك القَلْبُ الَّذِي كانَ مُغْتَبِطاً باعتلاقِهِ إلىٰ صائِدٍ آخَرَ يَعْتَلِقُهُ من بَعْدِهِ ، وَكانَ كُلَّما أَبَثَّ زوجَتَهُ سِرَّهُ ، وَشَكا إِلَيْها ما يُساوِرُ قَلْبَهُ مِنْ ذَلِكَ الهَمِّ ، حَنَتْ عَلَيْهِ ، وعَلَّلَتْهُ بِمَعْسولِ الأَمانِي ، وَأَقْسَمَتْ لَهُ بِكُلِّ مُحْرِجَةٍ من الأَيْمانِ أَنَّها لا تَسْتَرِدُّ هِبَةَ قَلْبِها مِنْهُ حَيّاً وَمَيْتاً ، فكانَ يَسْكُنُ إِلَىٰ ذَلِكَ الوَعْدِ سُكونَ الجُرْحِ الذَّرِبِ تحت الماءِ البارِدِ ، ثم لا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ إِلىٰ هواجِسِهِ وَوَساوِسِهِ ، حَتَّىٰ مَرَّ في بَعْضِ رَوْحاتِهِ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ في إِحْدَىٰ الليالي المُقْمِرَةِ بِمَقْبُرَةِ المَدينَةِ ، فَبَدَا له أَنْ يَدْخُلَها لِيُرَوِّحَ عن نَفْسِهِ هُمومَ المَوْتِ بِوَقْفَةٍ بين قُبورِ المَوْتى ، وَكَثِيراً ما يَتَداوىٰ شارِبُ الخَمْرِ بالخَمْرِ ، ويَلَذُّ للجَبانِ وهو يَرْتَعِدُ فَرَقاً الإِصْغاءُ إِلىٰ حَدِيثِ المَرَدَةِ وَالجانِّ ، فَرَأَىٰ في بَعْضِ مذاهِبِهِ بَيْنَ تلك القُبُورِ امرأَةً مُتَسَلِّيَةً جالِسةً أَمامَ قَبْرٍ جَديدٍ لم يَجِفَّ ترابُهُ ، وَبِيَدِها مِرْوَحَةٌ من الحريرِ الأَبْيَضِ مُطَرَّزَةٌ بأَسْلاكِ الذَّهَبِ ، تُحَرِّكُها يَمْنَةً ويَسْرَةً لِتُجَفِّفَ بها بَلَلَ ذَلِكَ التُّرابِ ، فَعَجِبَ لِشَأْنِها ، وتَقَدَّمَ

---

(١) هَذِهِ مقالَةٌ لمصطفى لطفي المَنْفَلُوطي ، تناسب المقام ، لذلك أَضَفْتُها هنا . راجع « النَّظَراتِ » ٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٦ . بسام .

نَحْوَها ، فَٱرْتاعَتْ لِمَرْآهُ ، ثُمَّ أَنِسَتْ بِهِ حِينَما عَرَفَتْهُ ، فسَأَلَها ما شَأْنُها ، وما مَقامُها هُنا ؟ ومِنْ هذا الدَّفِينِ ، وما هَذا الَّذِي تَفْعَلُ ؟ فَأَبَتْ أَنْ تُجيبهُ عَمّا سَأَلَ حَتَّىٰ تَفْرُغَ مِنْ شَأْنِها ، فجَلَسَ إِلَيْها ، وتَناوَلَ المِرْوَحَةَ مِنْها ، وَظَلَّ يُساعِدُها في عَمَلِها حتى جَفَّ التُّرابُ ، فحَدَّثَتْهُ أَنَّ هَذا الدَّفِينَ زَوْجُها ، وَأَنَّهُ ماتَ مُنْذُ ثلاثَةِ أَيَّامٍ ، وَأَنَّها جالِسَةٌ مُنْذُ الصَّباحِ مَجْلِسَها هذا لِتُجَفِّفَ تُرابَ قَبْرِهِ وَفاءً بِيَمِينٍ كانَتْ قَدْ أَقْسَمَتْها لَهُ في مَرَضِ مَوْتِهِ أَلَّا تَتَزَوَّجَ من غَيْرِهِ حتى يَجِفَّ تُرابُ قَبْرِهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ اللَّيلَةَ هي لَيْلَةُ بِنائِها بِزَوْجِها الثّاني ، فَأَبَىٰ لها وَفاؤُهَا لِهذا الدَّفِينِ الَّذِي كانَ يُحِبُّها ويُحْسِنُ إِلَيْها أَنْ تَحْنَثَ بِيَمينٍ أَقْسَمَتْها لَهُ ، أَوْ تَخِيسَ بما عاهَدَتْهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قالَتْ لَهُ : هَلْ لَكَ يا سَيِّدِي أن تَقْبَلَ هذه المِرْوَحَةَ هَدِيَّةً مِنِّي إِلَيْكَ ، وجزاءً لَكَ على حُسْنِ صَنيعِكَ مَعِي ؟ .

فَتَقَبَّلَها مِنْها شاكِراً بَعْدَ أَنْ هَنَّأَها بزَواجِها الجَدِيدِ !! ثُمَّ انْصَرَفَ وَلَيْسَ وراءَ ما بِهِ من الهَمِّ غَايَةٌ ، ومشَىٰ في طَرِيقِهِ مِشْيَةَ الرَّائِحِ النَّشْوانِ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ويَقولُ : إِنَّهُ أَحَبَّها وَأَحْسَنَ إِلَيْها ، فلَمَّا ماتَ جَلَسَتْ فَوْقَ قَبْرِهِ لا لِتَبْكِيَهُ ، ولا لِتَذْكُرَ عَهْدَهُ ، بَلْ لِتَتَحَلَّلَ مِنْ يَمِينِ الوَفاءِ الَّتِي أَقْسَمَتْها لَهُ ، فَكَأَنَّها وَهِيَ جالِسَةٌ أَمامَ زَوْجِها الأَوَّل تُعِدُّ عُدَدَ الزَّواجِ من زَوْجِها الثَّاني ، وكأَنَّما اتَّخَذَتْ من صفائِحِ قَبْرِهِ مِرْآةً تَصْقُلُ أَمامَها جَبِينَها ، وَتُصَفِّفُ طُرَّتَها ، وَتَلْبَسُ حِلْيَتَها ، للزِّفافِ إِلىٰ غَيْرِهِ .

وَمَا زالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمِثْلِ هذا الحدِيثِ حَتَّىٰ رَأَىٰ نَفْسَهُ في مَنْزِلِهِ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُ ، وَرَأَىٰ زَوْجَهُ ماثِلَةً أَمامَهُ مُرْتاعَةً لِمَنْظَرِهِ المُؤْلِمِ المحْزِنِ ، فقالَ لَها : إِنَّ امْرَأَةً خائِنَةً غادِرَةً أَهْدَتْ إِلَيَّ هذه المَرْوَحَةَ فقَبِلْتُها منها لأهْدِيَهَا إِلَيْك ، لأَنَّها أَداةٌ من أَدواتِ الغَدْرِ وَالخِيانَةِ ، وَأَنْتِ أَوْلَى بها مِنّي ؛ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُصُّ عليها قِصَّةَ

المَرْأَةِ حَتَّىٰ أَتَىٰ عَلَيْها ، فَغَضِبَتْ وَانْتَزَعَتِ المَرْوَحَة من يَدِهِ وَمَزَّقَتْها إِرْباً إِرْباً ، وَأَنْشَأَتْ تَسُبُّ تِلْكَ المَرْأَةَ وَتَشْتُمُها ، وَتَنْعَىٰ عَلَيْها غَدْرَها وَخِيانَتَها وسَفَالَتَها ودَناءَتَها ، ثُمَّ قالَتْ : أَلَا يَزالُ هَذا الوَسْوَاسُ عالِقاً بِصَدْرِك ما دُمْتَ حَيّاً ؟ وهل تَحْسَبُ أَنَّ امْرَأَةً في العالَمِ تَرْضَىٰ لِنَفْسِها بما رَضِيَتْ به لِنَفْسِها تلك المرأةُ الغادِرَةُ ؟ .

فقالَ لها : إِنَّكَ أَقْسَمْتِ لي أَلا تَتَزَوَّجِي من بَعْدِي ، فهل تَفِينَ بِعَهْدِكِ ؟ .

قالَتْ : نَعَمْ ، ورَمانِي اللهُ بِكُلِّ ما يُرْمَىٰ بِهِ الغادِرُ إِنْ أنا فَعَلْتُ ؛ فَاطْمَأَنَّ لِقَسَمِها ، وعادَ إلى هُدوئِهِ وسكونِهِ .

مَضَىٰ على ذَلِكَ عامٌ ، ثُمَّ مَرِضَ الرَّجُلُ مَرَضاً شَدِيداً ، فعالَجَ نَفْسَهُ ، فلم يُجْدِ العلاجُ حَتّى أَشْرَفَ على المَوْتِ ، فَدَعا زَوْجَتَهُ وذكَّرَها بما عاهَدَتْهُ عَلَيْهِ فَادَّكَرتْ ، فَما غَرَبَتْ شَمْسُ ذلك اليوم حَتّىٰ غَرَبَتْ شَمْسُهُ ، فأَمَرَتْ أَنْ يُسَجَّىٰ بِردائِهِ وَيُتْرَكَ وحْدَهُ في قاعَتِهِ حتى يُحْتَفَلَ بِدَفْنِهِ في اليَوْمِ الثاني ، ثم خَلَتْ بِنَفْسِها في غُرْفَتِها تَبْكِيهِ وَتَنْدُبُهُ ما شاءَ اللهُ أَنْ تَفْعَلَ ، وَإِنَّها لكذٰلِكَ إِذْ دَخَلَتْ عليها الخادِمُ وأَخْبَرَتْها أَنَّ فتًى من تلاميذِ مَوْلاها حَضَرَ السَّاعَةَ من بَلْدَتِهِ لِيَعُودَهُ حِينَما سَمِعَ بخَبَرِ مَرَضِهِ ، فلما سَمِعَ حدِيثَ مَوْتِهِ ذُعِرَ ذُعْراً شَدِيداً وخَرَّ في مكانِهِ صَعِقاً ، وأنه لا يزالُ صَرِيعاً عند بابِ المَنْزِلِ لا تَدْرِي ما تَصْنَعُ في أَمْرِهِ ، فأَمَرَتْها أنْ تَذْهَبَ به إلى غُرْفَةِ الأَضْيافِ ، وَأَنْ تَتَوَلّىٰ شَأْنَهُ حتى يَسْتَفِيقَ ، ثم عادَتْ إلى بُكائِها ونَحيبِها ، فلما مَرَّ الهَزِيعُ الثاني مِنَ اللَّيْلِ دَخَلَتْ عَلَيْها الخادِمُ مَرَّةً أُخْرَىٰ مَذْعورةً مُرْتاعةً وهي تقولُ : رَحْمَتَكِ وَإِحسانَكِ يا سَيِّدَتِي ! فَإِنَّ ضَيْفَنا يعالجُ من آلامِهِ وَأَوْجاعِهِ عَذاباً أليماً ، وقَدْ حِرْتُ في أَمْرِهِ ، وما أَحْسَبُهُ إِنْ نَحْنُ أَغْفَلْنا أَمْرَهُ إِلّا هالِكاً ؛ فَأَهَمَّها الأَمْرُ ، وقامَتْ تتحامَلُ على نَفْسِها حَتَّىٰ

وَصَلَتْ إلى غُرْفَةِ الضَّيْفِ ، فَرَأَتْهُ مُسَجًّى على سَرِيرِهِ ، والمِصْباحُ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ ونَظَرَتْ في وَجْهِهِ ، فرَأَتْ أَبْدَعَ سَطْرٍ خَطَّتْهُ يدُ القُدْرَةِ الإِلٰهِيَّةِ في لَوْحِ الوُجودِ ، فَخُيِّلَ إِلَيْها أَنَّ المِصْباحَ الذي أَمامَها قَبَسٌ من ذلك النُّورِ المُتَلأْلِىءِ في ذَلِكَ الوَجْهِ المُنِيرِ ، وَأَنَّ أَنِينَهُ المُنْبَعِثَ مِنْ صَدْرِهِ نَغْمَةٌ موسِيقِيَّةٌ مُحْزِنَةٌ تَرِنُّ في جَوْفِ اللَّيْلِ البَهيمِ ، فَأَنْساها الحُزْنُ عَلىٰ المَرِيضِ المُشْرِفِ الحزنَ على الفقيدِ الهالِكِ ، وعَناها أَمْرُهُ ، فَلَمْ تَتْرُكْ وسيلةً من وَسائِلِ العِلاجِ إلا توسَّلَتْ بها إِلَيْهِ حَتَّىٰ اسْتَفاقَ ، ونَظَر إلى طَبِيبَتِهِ الراكِعَةِ بجانِبِ سريرِهِ نَظْرَةَ الشُّكْرِ وَالثَّناءِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُصُّ عَلَيْها تارِيخَ حياتِهِ ، فَعَرَفَتْ مَسْقِطَ رَأْسِهِ ، وسِيرَةَ حياتِهِ ، وَصِلَتَهُ بزَوْجِها ، وَأَنَّهُ فَتًى غَرِيبٌ في قَوْمِهِ ، لا أَبَ لَهُ ولا أُمَّ ، ولا زَوْجَةَ وَلا وَلَدَ ، وَهُنا أَطْرَقَتْ بِرَأْسِها ساعةً طويلةً عالَجَتْ فيها من هواجِسِ النَّفْسِ ونوازِعِها ما عالَجَتْ ، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَها وَأَمْسَكَتْ بِيَدِهِ ، وقالَتْ لَهُ : إِنَّكَ قد ثَكِلْتَ أُسْتاذَكَ ، وَأنا ثَكِلْتُ زَوْجِي ، فأَصْبَحَ هَمُّنا واحِداً ، فهل لَكَ أَنْ تكونَ عَوْناً لي وَأَنْ أكونَ عَوْناً لك على هَذَا الدَّهْرِ الّذي لم يَتْرُكْ لنا مساعِداً ولا مُعيناً .

فألَمَّ بخبيئَةِ نَفْسِها ، فَابْتَسَمَ لها ابْتِسامَةَ الحُزْنِ والمَضَضِ ، وقال لَها : مَنْ لي يا سَيِّدَتي أَنْ أَظْفَرَ بِهَذِهِ الأُمْنِيَةِ العُظْمَىٰ ، وهذا المَرَضُ الّذي يُساوِرُني ولا يكادُ يَهْدَأُ عَنِّي قد نَغَّصَ عليَّ عَيْشِي ، وَأَفْسَدَ عَلَيَّ شَأْنَ حَياتي ، وقَدْ أَنْذَرَني الطبيبُ باقْتِرابِ ساعَةِ أَجَلِي إنْ لَم تُدرِكْني رَحْمَةُ اللهِ ، فَاطْلُبي سعادَتَكِ عِنْدَ غَيْرِي ، فَأَنْتِ مِنْ بَناتِ الحياةِ ، وأنا من أَبْناءِ المَوْتِ .

فقالَتْ لَهُ : إِنَّك سَتَعِيشُ ، وسَأُعالِجُكَ ولو كان دَواؤُكَ بين سَحْرِي وَنَحْرِي .

قالَ : لا تُصَدِّقي ما لا يكونُ يا سَيِّدَتي ، فأَنَا عالِمٌ بِدَوائي ، وعالِمٌ بأَنِّي

لا أَجِدُ السَّبيلَ إِلَيه .

قالَتْ : وما دَواؤكَ ؟ .

قال : حَدَّثني طَبيبي أنَّ شِفائي في أَكْلِ دماغِ مَيْتٍ لِيَوْمِهِ ، وما دامَ ذَلِكَ يُعْجِزُني فلا دواءَ لي ولا شفاءَ .

فارْتَعَدَتْ وشَحَبَ لَوْنُها ، وأطرقَتْ إطراقةً طويلةً لا يَعْلَمُ إلا اللهُ ماذا كانَتْ تُحَدِّثُها نَفْسُها فِيها ، ثم رَفعَتْ رَأْسَها ، وقالَتْ : كُنْ مَطْمَئِناً ، فَدواؤُكَ لا يُعْجِزُني . ثُمَّ أَمَرَتْه أَنْ يَعُودَ إلى رَاحَتِهِ وسكونِهِ ، وخَرَجَتْ مِن الغُرْفَةِ مُتَسلِّلَةً حَتّى وصَلَتْ إلى غُرْفَةِ سِلاحِ زَوْجِها ، فَأَخَذَتْ مِنْها فَأْساً قاطِعةً ، ثم مَشَتْ تَخْتَلِسُ خُطواتِها اخْتِلاساً حتى وَصَلَتْ إلى غُرْفَةِ المَيْتِ ، ففَتَحَتِ البابَ ، فدارَ على عَقِبِهِ وَصَرَّ صَريراً مُزْعِجاً ، فجَمَدَتْ في مكانِها رُعْباً وخَوْفاً ، ثُمَّ دارَتْ بِعَيْنَيْها حولَها ، فلَمْ تَرَ شَيْئاً ، فتَقَدَّمَتْ لِشَأْنِها حتى دَنَتْ من السَّريرِ ، ورَفَعَتِ الفأسَ لِتَضْرِبَ بها رأسَ زَوْجِها الَّذِي عاهَدَتْهُ ألا تَتَزَوَّجَ من بَعْدِهِ ، ولم تَكَدْ تَهْوي بها حَتَّى رَأَتِ المَيْتَ فاتِحاً عَيْنَيْهِ يَنْظُر إِلَيْها ، فسَقَطَتِ الفأسُ من يَدِها ، وسَمِعَتْ حَرَكَةً وَراءَها ، فالْتَفَتَتْ ، فَرَأَتِ الضَّيْفَ والخادِمَ واقِفَينِ يَتَضاحكانِ ، ففَهِمَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

وهنا تَقَدَّمَ نَحْوَها زَوْجُها ، وَقالَ لَها : أَلَيْسَتْ المِرْوَحَةُ في يَدِ تلك المَرْأَةِ أَجْمَلَ مِنْ هَذِهِ الفَأْسِ في يَدِكِ ! أَلَيْسَتِ الَّتي تُجَفِّفُ تُرابَ قَبْرِ زَوْجِها بَعْدَ دَفْنِهِ أَفْضَلَ مِنَ الَّتِي تكْسِرُ دماغَهُ قَبْل نَعْيِهِ ! فصارَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَراً غَرِيباً ، ثُمَّ شهِقَتْ شَهْقَةً كانَتْ فيها نَفْسُها .

* * *

١٥٥٥ ـ وَماتَ زَوْجُ ٱمْرَأَةٍ، فَرَاسَلَهَا فِي ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ رَجُلٌ يَخْطُبُهَا، فَقَالَتْ:

هَلَّا سَبَقْتَ ! فَإِنِّي قَدْ قَاوَلْتُ غَيْرَكَ ! فَقَالَ : إِذَا مَاتَ ٱلثَّانِي فَلا تُفَوِّتِينِي !

* * *

١٥٥٦ ـ وَأَسْخَفُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَشْتَرِطَ ٱلزَّوْجَةُ عَلَىٰ زَوْجِهَا أَلَّا يَتَزَوَّجَ بَعْدَ مَوْتِهَا : مَاتَتِ ٱمْرَأَةٌ لِرَجُلٍ ، وَكَانَ عَاهَدَها أَلَّا يَتَزَوَّجَ بَعْدَهَا ، فَخَطَبَ ٱمْرَأَةً فِي جَنَازَتِهَا ، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ [من الطويل] :

خَطَبْتُ كَمَا لَوْ كُنْتُ قَدْ مُتُّ قَبْلَهَا لَكَانَتْ بِلا شَكٍّ لأَوَّلِ خَاطِبِ
إِذَا غَابَ بَعْلٌ جَاءَ بَعْلٌ مَكَانَهُ وَلا بُدَّ مِنْ آتٍ وَآخَرَ ذَاهِبِ

* * *

**وَمِنَ ٱلنِّسَاءِ مَنْ لا تَتَزَوَّجُ بَعْدَ زَوْجِهَا :**

١٥٥٧ ـ فَمِنْهُنَّ نَائِلَةُ بِنْتُ ٱلْفَرَافِصَةِ زَوْجُ عُثْمَانُ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمَا . ٱنْظُرْ خَبَرَهَا فِي ٱلشَّبَابِ وَٱلشَّيْبِ . [ رقم : ٩٦٤ ] .

* * *

١٥٥٨ ـ وَتَزَوَّجَ رَجُلٌ بِٱبْنَةِ عَمٍّ لَهُ يُقَالُ لَهَا : رَبابُ ، وَتَعَاهَدَا عَلَىٰ أَلَّا يَتَزَوَّجَ أَحَدُهُمَا بَعْدَ مَوْتِ ٱلآخَرِ ، فَمَاتَ ٱلرَّجُلُ ، وَأُكْرِهَتِ ٱلْمَرْأَةُ عَلَىٰ ٱلتَّزْوِيجِ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ ٱلزَّفَافِ رَأَتْ فِي مَنَامِهَا أَنَّ ٱبْنَ عَمِّهَا آخِذٌ بِعِضَادَتَيْ ٱلْبَابِ ، وَأَنْشَدَ [من البسيط] :

حَيَّيْتُ سُكَّانَ هَذَا ٱلْبَيْتِ كُلَّهُمْ إِلَّا ٱلرَّبَابَ فَإِنِّي لا أُحَيِّيهَا
أَمْسَتْ عَرُوساً وَأَمْسَىٰ مَنْزِلِي خَرِباً وَلَمْ تُرَاعِ حُقُوقاً كُنْتُ أُرْعِيهَا[1]

---

(١) قَوْلُهُ : « كُنْتُ أُرْعِيهَا » إِمَّا قُلْتَ : « أَرْعِيهَا » مِنَ ٱلإِرْعَاءِ ، وَهُوَ ٱلإِبْقَاءُ ، أَيْ : كُنْتُ أُبْقِي عَلَيْهَا وَأُشْفِقُ ، وَفي ٱلْحَدِيثِ : « نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ ، أَحْنَاهُ عَلَىٰ طِفْلٍ فِي =

فَٱنْتَبَهَتْ مَذْعُورَةً وَحَلَفَتْ أَلَّا يَجْمَعَ رَأْسَهَا وَرَأْسَ رَجُلٍ وِسَادَةٌ .

* * *

١٥٥٩ ـ وَكَانَ شِيْرَوَيْه لَمَّا قَتَلَ أَبَاهُ كِسْرَىٰ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ شِيرِينَ ٱمْرَأَةَ أَبِيهِ ، فَقَالَتْ لَهُ : عَلَىٰ ثَلاثِ شَرَائِطَ : أَنْ تُحْضِرَ ٱلْحُكَمَاءَ فَأُخَطِّئَهُمْ فِي مُعَاوَنَتِهِمْ إِيَّاكَ عَلَىٰ قَتْلِ أَبِيكَ ، حَتَّىٰ لا يَجْرُءُوا عَلَىٰ مِثْلِهِ فِيكَ ، وَأَنْ تَسْتَحْضِرَ لِي نِسَاءَ ٱلْعُظَمَاءِ لأَشْتَفِيَ بِٱلْبُكَاءِ عَلَيْهِ ، وَأَنْ تَأْذَنَ لِي فِي حُضُورِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي مَاتَ فِيهِ مَرَّةً ؛ فَقَالَ : كُلُّ ذَٰلِكَ لَكِ ؛ فَلَمَّا خَطَّأَتْهُمْ وَبَكَتْ عَلَيْهِ وَحَضَرَتِ ٱلْمَكَانَ ٱلَّذِي مَاتَ فِيهِ ، أَخْرَجَتْ فَصًّا مَسْمُوماً ، فَمَصَّتْهُ ، فَمَاتَتْ مَكَانَهَا ، وَكَانَتْ قَدْ عَمَدَتْ إِلَىٰ سُمٍّ فَوَضَعَتْهُ فِي بَعْضِ ٱلْخَزَائِنِ ، وَكَتَبَتْ عَلَيْهِ : إِنَّ مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُ وَزْنَ دَانِقٍ أَعَانَهُ عَلَىٰ ٱلْجِمَاعِ ؛ فَلَمَّا ظَفِرَ بِهِ [ شِيْرَوَيْه ] تَنَاوَلَ مِنْهُ ، فَمَاتَ فِي مَكَانِهِ .

* * *

**غَيْرَةُ ٱلنِّسَاءِ :**

١٥٦٠ ـ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « أَيُّمَا ٱمْرَأَةٍ غَارَتْ فَصَبَرَتْ دَخَلَتِ ٱلْجَنَّةَ » .

* * *

---

= صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَىٰ زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ » [البخاري ، رقم : ٣٤٣٤ ؛ مسلم ، رقم : ٢٥٢٧] هُوَ مِنَ ٱلْمُرَاعَاةِ : ٱلْحِفْظِ وَٱلرِّفْقِ وَتَخْفِيفِ ٱلْكُلَفِ وَٱلأَثْقَالِ عَنْهُ ، وَذَاتُ يَدِهِ كِنَايَةٌ عَمَّا يُمْلَكُ مِنْ مَالٍ وَغَيْرِهِ . . . وَإِنَّمَا قُلْتَ : « كُنْتُ أُرْعِيهَا » أَيْ أُرْعِيهَا إِيَّاهَا ، يُقَالُ : أَرْعَاهُ ٱلشَّيْءَ وَٱسْتَرْعَاهُ أَيْ : ٱسْتَحْفَظَهُ ، فَرَعَاهُ .

١٥٦١ ـ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : غَيْرَةُ ٱلنِّسَاءِ أَشَدُّ مِنْ غَيْرَةِ ٱلرِّجَالِ ، فَقَالَ آخَرُ : هَذَا وَهْمٌ ، فَلَيْسَ مَا يَنَالُ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا رَأَتِ ٱمْرَأَةً عَلَىٰ فِرَاشِ زَوْجِهَا مِنْ جِنْسِ مَا يَنَالُ ٱلرَّجُلَ إِذَا رَأَىٰ رَجُلاً عَلَىٰ فِرَاشِ ٱمْرَأَتِهِ .

١٥٦٢ ـ وَقَالُوا : إِنَّ غَيْرَةَ ٱلْمَرْأَةِ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ لا تَبْلُغُ وَإِنْ أَفْرَطَتْ مَبْلَغَ غَيْرَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَىٰ ٱلْمَرْأَةِ ، أَوْ تَقُولُ : لا يَنْبَغِي أَنْ تَبْلُغَ غَيْرَةُ ٱلْمَرْأَةِ غَيْرَةَ ٱلرَّجُلِ ، وَمِنْ هُنَا أَحَلَّ ٱللهُ لِلرَّجُلِ وَطْءَ أَرْبَعٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ ؛ وَوَطْءَ مَا شَاءَ مِنَ ٱلسَّرَارِي ، لأَنَّ فِي صَبْرِ ٱلْمَرْأَةِ مُحْتَمَلًا ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ غَيْرِ زَوْجِهَا ، لأَنَّ صَبْرَهُ لا يَحْتَمِلُهُ ، هَذَا إِلَىٰ حِكَمٍ أُخْرَىٰ لا تَكَادُ تَخْفَىٰ . . . وَلَكِنَّهُمْ عَلَىٰ هَذَا كُلِّهِ قَالُوا : ٱلْغَيْرَةُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَسْمُوحٌ لَهُنَّ فِيهَا ، وَلا تُنْكَرُ مِنْ أَخْلاقِهِنَّ ، وَلا يُعَاقَبْنَ عَلَيْهَا[1] ، لأَنَّهُنَّ فُطِرْنَ عَلَيْهَا ، وَلا يَمْلِكْنَ أَنْفُسَهُنَّ عِنْدَهَا ، كَمَا جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ : « لا تَدْرِي ٱلْغَيْرَىٰ أَعْلَىٰ ٱلْوَادِي مِنْ أَسْفَلِهِ » [« كنز العمال » ، رقم : ١٣٥٠٧ و١٣٥٠٨] .

* * *

١٥٦٣ ـ خَرَجَ رَجُلٌ مَعَ قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ إِلَىٰ خُرَاسَانَ ، وَخَلَّفَ ٱمْرَأَةً يُقَالُ لَهَا هِنْدٌ مِنْ أَجْمَلِ نِسَاءِ زَمَانِهَا ، وَلَبِثَ هُنَاكَ سِنِينَ ، فَٱشْتَرَىٰ جَارِيَةً ٱسْمُهَا جُمانَةُ ، وَكَانَ لَهُ فَرَسٌ يُسَمِّيهِ ٱلْوَرْدَ ، فَوَقَعَتِ ٱلْجَارِيَةُ مِنْهُ مَوْقِعاً ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الطويل] :

أَلَا لَا أُبَالِي ٱلْيَوْمَ مَا فَعَلَتْ هِنْدُ ... إِذَا بَقِيَتْ عِنْدِي ٱلْجُمَانَةُ وَٱلْوَرْدُ
شَدِيدُ مَنَاطِ ٱلْمَنْكِبَيْنِ إِذَا جَرَىٰ ... وَبَيْضَاءُ صِنْهَاجِيَّةٌ زَانَهَا ٱلْعِقْدُ

---

(١) فَقَدْ ذَهَبَ ٱلإِمَامُ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْمَدِينَةِ إِلَىٰ إِسْقَاطِ ٱلْحَدِّ عَنِ ٱلْمَرْأَةِ إِذَا قَذَفَتْ زَوْجَهَا عَلَىٰ جِهَةِ ٱلْغَيْرَةِ .

فَهَـــذَا لأَيَّـــامِ ٱلْحُـــرُوبِ وَهَـــذِهِ  لِحَاجَةِ نَفْسِي حِينَ يَنْصَرِفُ ٱلْجُنْدُ

فَنُمِيَ ٱلشِّعْرُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ [من الطويل] :

أَلَا أَقْـرِهِ مِنِّـي ٱلسَّـلامَ وَقُـلْ لَـهُ  غَنِينَـا بِفِتْيَـانٍ غَطَـارِفَـةٍ مُـرْدِ[(١)]

مُحَمَّـدُ أَمِيـرُ ٱلْمُـؤْمِنِيـنَ أَقَـرَّهُـمْ  شَبَاباً وَأَغْزَاكُمْ حَوَاقِلَةَ ٱلْجُنْدِ[(٢)]

إِذا شِئْـتُ غَنَّـانـي غُـلامٌ مُـرَجِّـلُ  وَنَـازَعَنـي مِـنْ مـاءِ مُعْتَصَـرٍ وَرْدِ[(٣)]

وَإِنْ شـاءَ مِنْهُـمْ نـاشِـىءٌ مَـدَّ كَفَّـهُ  عَلـىٰ كَتَـدٍ مَلْسـاءَ أَوْ كَفَـلٍ نَهْـدِ[(٤)]

فَمَـا كُنْتُـمْ تَقْضـونَ مِـنْ حاجِ أَهْلِكُـمْ  شُهُوداً ، قَضَيْناها عَلىٰ ٱلنَّأْىٰ وَٱلْبُعْدِ[(٥)]

فَعَجِّــلْ عَلَيْنــا بِــٱلسَّــراحِ فَــإِنَّــهُ  مُنـانـا ولا نَـدْعـو لِقَـوْلِـكَ بـٱلـرَّدِّ[(٦)]

فَـلا قَفَـلَ ٱلْجُنْـدُ ٱلَّـذِي أَنْـتَ فِيهُـمُ  وَزَادَكَ رَبُّ ٱلنَّـاسِ بُعْـداً إِلـىٰ بُعْـدِ

فَلَمَّا وَرَدَ كِتابُها لَمْ يَزِدْ عَلىٰ أَنْ رَكِبَ فَرَسَهُ وَأَرْدَفَ ٱلْجَارِيَةَ ، وَلَحِقَ بِها ، فَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ بَدَأَ بِهِ بَعْدَ ٱلسَّلامِ أَنْ قالَ : بِٱللهِ ! هَلْ كُنْتِ فاعِلَةً ؟ قالَتْ : ٱللهُ أَجَلُّ في قَلْبي وَأَعْظَمُ ، وَأَنْتَ في عَيْنِي أَذَلُّ وَأَحْقَرُ مِنْ أَنْ أَعْصِيَ ٱللهَ فيكَ ! فَكَيْفَ ذُقْتَ طَعْمَ ٱلْغَيْرَةِ ؟ فَوَهَبَ لَها ٱلْجارِيَةَ وَٱنْصَرَفَ إِلىٰ بَعْثِهِ .

* * *

(١) غَطَارِفَةٌ ، جَمْعُ غِطْرِيفٍ ، وَهُوَ ٱلْفَتَىٰ ٱلْجَمِيلُ ، أَوِ ٱلشَّابُ ٱلسَّرِيُّ ٱلسَّخِيُّ .

(٢) ٱلْحَوَاقِلَةُ ، جَمْعُ حوقَلٍ ، وَهُوَ : ٱلرَّجُلُ ٱلْمُسِنُّ .

(٣) « مُرَجِّلُ » : مُسَرِّحُ ٱلشَّعَرِ ، و« وَرْدٌ » : أَحْمَرُ ، و« مُنازَعَةُ ٱلْكَأْسِ » : مُعاطاتُها ، قالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [٥٢ سورة الطور/ الآية : ٢٣] ، أَي : يَتَعاطَوْنَ ، وَٱلأَصْلُ فِيهِ يَتَجاذَبُونَ ، تُرِيدُ : تَعاطىٰ مَعِي مِنْ بِنْتِ ٱلْحَانِ .

(٤) ٱلْكَتِدُ ، كَكَتِفٍ وَسَبَبٍ : مُجْتَمَعُ ٱلْكَتِفَيْنِ مِنَ ٱلإِنْسانِ وَٱلْفَرَسِ ، وَتُرْوىٰ * عَلىٰ عُكَنٍ مَلْساءَ * وَٱلْعُكَنُ : ثَنايا ٱلْبَطْنِ ، وَ« ٱلْكَفَلُ ٱلنَّهْدُ » : ٱلعَجُزُ ٱلْمُشْرِفُ ٱلْمُرْتَفِعُ ٱلْجَسِيمُ ٱلْكَثِيرُ ٱللَّحْمِ .

(٥) تَقُولُ : إِنَّ ٱلَّذي كُنْتُمْ تَقْضُونَهُ مِنْ حاجاتِ أَهْلِكُمْ ، وَأَنْتُمْ حاضِرُونَ قَضَيْناهُ وَأَنْتُمْ غائِبُونَ .

(٦) ٱلسَّراحُ : ٱلطَّلاقُ .

١٥٦٤ ـ وكانَ رَجُلٌ بِٱلْكُوفَةِ مُتَزَوِّجاً بِٱبْنَةِ عَمِّهِ ، وَلَهُ ضَيْعَةٌ بِٱلْبَصْرَةِ ، يَخْرُجُ إِلَيْها في كُلِّ سَنَةٍ ، فَتَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً بِٱلْبَصْرَةِ ، فَسَقَطَ خَبَرُها إِلىٰ ٱبْنَةِ عَمِّهِ ، فَكَتَبَتْ يَوْماً كِتاباً عَنْ أُمِّ ٱلْبَصْرِيَّةِ تُعَزِّيهِ في ٱبْنَتِها وَتَسْتَعْجِلُهُ لِقِسْمَةِ ميراثِها ، وَدَفَعَتْهُ إِلىٰ رَجُلٍ غَريبٍ ، وَأَمَرَتْهُ بِأَنْ يُوصِلَهُ إِلَيْهِ خُفْيَةً ، فَلَمَّا قَرَأَهُ تَجَهَّزَ ، وَقالَ : إِنَّ أَمْرَ ضَيْعَتي قد تشَعَّثَ بِٱلْبَصْرَةِ ؛ وَلا بُدَّ مِنْ أَنْ أُلِمَّ بِها ؛ فَقالَتِ ٱلْمَرْأَةُ : كَمْ تَقُولُ ٱلْبَصْرَةُ ! أَحْسِبُكَ ذا ٱمْرَأَةٍ بِٱلْبَصْرَةِ تَشْتاقُ إِلَيْها ! ٱحْلِفْ لي بِطَلاقِ كُلِّ زَوْجَةٍ لَكَ بِٱلْبَصْرَةِ ، فَقالَ ٱلرَّجُلُ في نَفْسِهِ : وَمَا يَضُرُّني ذَلِكَ وَقَدْ ماتَتِ ٱمْرَأَتي بِها ! فَحَلَفَ لَها ، فَقالَتْ : ٱسْتَقَرَّ ٱلأَمْرُ ، فَلا بَأْسَ بِٱلضَّيْعَةِ ؛ وَأَخْبَرَتْهُ بِٱلْخَبَرِ .

* * *

وَمِنَ ٱلنِّساءِ مَنْ يُنْكِرُ ٱلْغَيْرَةَ :

١٥٦٥ ـ وَمِنَ ٱلنِّساءِ ٱلْعاقِلاتُ ٱلطَّيِّباتُ ٱللَّائي يُدْرِكْنَ ٱلْفُرْقانَ بَيْنَ غَيْرَةِ ٱلنِّساءِ وَغَيْرَةِ ٱلرِّجالِ ، وَأَنَّهُ يَجْمُلُ بِٱلْمَرْأَةِ أَنْ تَضْرِبَ صَفْحاً عَنِ ٱلْغَيْرَةِ وَتَعْذِرَ ٱلرِّجالَ إِذا هُمْ أَقْدَموا عَلىٰ أَنْ يُغيروهُنَّ .

كانَتْ صَفِيَّةُ [ حَفْصَةُ ] بِنْتُ سِيرينَ ، أُخْتُ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرينَ ، تَقُولُ : أَما تَسْتَحي ٱلْحُرَّةُ أَنْ تَغارَ ! . . . وَأَرادَتْ يَوْماً أَنْ تَدْخُلَ إِلىٰ بَيْتِها ، فَإِذا زَوْجُها مَعَ جارِيَةٍ لَهُ عَلىٰ فِراشِها ، فَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِما ٱلْبابَ ، وَٱنْصَرَفَتْ ! فَضَحِكَ وَقالَ : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّكِ عَرَفْتِ ، وَٱلْجارِيَةُ لَكِ . [« تحفة العروس » ، رقم : ١٠٣١] .

* * *

**قَدْ تكونُ إغارَةُ ٱلْعاقِرِ سَبَباً في حَمْلِها :**

١٥٦٦ ـ قالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مُصْعَبٍ : شَكا إِلَيَّ هارونُ ٱلرَّشيدُ وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدٍ أَنَّ أُمَّ جَعْفَرَ لا تَحْمِلُ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : أَغِرْها ؛ وَحَدَّثْتُهُ حَديثَ إِبْراهيمَ ٱلنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ مَعَ سارَّةَ ، وَأَنَّها كانَتْ لا تَحْمِلُ ، فَٱتَّخَذَ هاجَرَ ، فَحَمَلَتْ بِإِسْماعيلَ ، فَغارَتْ سارَّةُ ، فَحَمَلَتْ بِإِسْحاقَ ؛ قالَ : فَٱتَّخَذَ هارونُ ٱلرَّشيدُ مَراجِلَ ؛ فَحَمَلَتْ بِٱلْمَأْمُونِ ، وَحَمَلَتْ زُبَيْدَةُ بِٱلأَمِينِ . وَكانَ ٱلرَّشيدُ يُبَجِّلُ أُمَّ جَعْفَرٍ وَيُعَظِّمُها ، وَكانَ يَقُولُ : رُبَّما أَرَدْتُ غِشْيانَها فَأَهابُها ، فَيَأْخُذُ فِيَّ ٱلزَّمَعُ[1] حَتَّىٰ يَمْنَعُني مِنْها ؛ وَلَوْلا رَغْبَتُهُ في ٱلْوَلَدِ لَمْ يُغِرْها بِٱلتَّسَرِّي عَلَيْها ، قالَ : وَكانَتْ تَقُولُ لِي : إِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَني في مَنْزِلَةِ إِمائِكَ ٱللاتي تُريدُ ٱلتَّلَذُّذَ وَٱلتَّمَتُّعَ بِهِنَّ .

[« تحفة العروس » ، رقم : ١٠٣٢] .

* * *

**أَبْياتٌ مُخْتارَةٌ في غَيْرَةِ ٱلْمَرْأَةِ :**

١٥٦٧ ـ قالَ عُمَرُ ٱبْنُ أَبي رَبيعَةَ ، أَوْ بَعْضُ ٱلْحِجازِيِّينَ ، وَهِيَ مِمَّا ٱخْتارَهُ أَبُو تَمّامٍ في « حَماسَتِهِ » [من الخفيف] :

خَبَّـروهـا بِـأَنَّنـي قَـدْ تَـزَوَّجْـ ـتُ فَظَلَّـتْ تُكـاتِـمُ ٱلْغَيْـظَ سِـرّا
ثُـمَّ قـالَـتْ لأُخْتِهـا وَلأُخْـرىٰ جَـزَعـاً[2] : لَيْتَـهُ تَـزَوَّجَ عَشْـرا
وَأَشـارَتْ إِلـىٰ نِسـاءٍ لَـدَيْهـا لا تَـرىٰ دُونَهُـنَّ لِلسِّـرِّ سِتْـرا[3]

---

(١) ٱلزَّمَعَ : ٱلدَّهَشُ . وَٱلزَّمَعُ : رَعْدَةٌ تَعْتَري ٱلإِنْسانَ إِذا هَمَّ بِأَمْرٍ .
(٢) جَزَعاً : مَفْعُولٌ لأَجْلِهِ .
(٣) سِتْراً ، يَجُوزُ فَتْحُ ٱلسِّينِ وَكَسْرُها فِيها ، فَٱلسَّتْرُ : ٱلْمَصْدَرُ ، وَٱلسِّتْرُ أَحَدُ ٱلسُّتورِ .

مــا لِقَلْبــي كَــأَنَّــهُ لَيْــسَ مِنِّــي وعِظــامــي كَــأَنَّ فيهِــنَّ فَتْــرا(١)
مِــنْ حَــديــثٍ نَمــا إِلَــيَّ فَظيــعٍ خِلْتُ في ٱلْقَلْبِ مِنْ تَلَظِّيهِ جَمْرا

[« ديوان الحماسة » صفحة : ٦٢٠ ، رقم : ٨٤٧ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ١٠٣٣] .

[ راجع رقم : ١٥٩٩ ] .

* * *

## جَوازُ ذَبِّ ٱلرَّجُلِ عَنِ ٱبْنَتِهِ في ٱلْغَيْرَةِ :

١٥٦٨ ـ جاءَ في « صَحيحُ ٱلْبُخارِيِّ » [رقم : ٥٢٣٠ ؛ مسلم ، رقم : ٢٤٤٩] : قالَ ٱلْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ وَهُوَ عَلىٰ ٱلْمِنْبَرِ : « إِنَّ بَنِي هِشامَ بْنِ ٱلْمُغيرَةِ ٱسْتَأْذَنُوا في أَنْ يُنْكِحوا ٱبْنَتَهُمْ(٢) عَلِيَّ ٱبْنَ أَبي طَالِبٍ ، فَلا آذَنُ ، ثُمَّ لا آذَنُ ، ثُمَّ لا آذَنُ ، إِلَّا أَنْ يُريدَ ٱبْنُ أَبي طالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ٱبْنَتي وَيَنْكِحَ ٱبْنَتَهُمْ ، فَإِنَّما هِيَ بَضْعَةٌ مِنِّي ، يَرِيبُني ما رابَها ، وَيُؤْذِينِي مَا آذاهَا » . .

وكانَ هَذا مِنْهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلاةُ وَٱلسَّلامُ إِشْفاقاً عَلىٰ فاطِمَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْها أَنْ تَنالَ مِنْها ٱلغَيْرَةُ ، وَتُفْتَتَنَّ في دِينها مِنْ جِهَةٍ ، وَلأَنَّ بِنْتَ أَبي جَهْلٍ هِيَ بِنْتُ عَدُوِّ ٱلْمُصْطَفىٰ ، وَإِنْ كانَتْ قَدْ أَسْلَمَتْ ؛ وَيُرْوىٰ أَنَّ عَلِيّاً لَمّا رَأَىٰ مِنَ ٱلْمُصْطَفىٰ إِنْكاراً لِهَذا ٱلزَّواجِ قالَ : لا آتي شَيْئاً تَكْرَهُهُ ؛ وَكُلُّ هَذا وَإِنْ وَرَدَ في ٱلْحَديثِ : « جَدَعَ ٱلْحَلالُ أَنْفَ ٱلْغَيْرَةِ » [« مجمع الأمثال » ، رقم : ٨٥٤] وَمَعْناهُ حَثُّ ٱلزَّوْجَةِ عَلىٰ تَرْكِ ٱلْغَيْرَةِ إِذا تَزَوَّجَ زَوْجُها عَلَيْها .

* * *

(١) فَتَرَ ٱلإِنسانُ : لانَتْ مَفاصِلُهُ .
(٢) هِيَ بِنْتَ أَبي جَهْلٍ ، وَأَخَذَها عِكْرِمَةُ ٱبْنُ أَبي جَهْلٍ بْنِ هِشامٍ .

ٱلْمَيْلُ إِلىٰ ٱلْمَمْنُوعِ وَٱلرَّغْبَةُ عَمَّنْ يُشْرِكُكَ فيهِ غَيْرُكَ :

١٥٦٩ ـ قالَ يَزيدُ ٱبْنُ ٱلطَّثْرِيَّةِ [من الطويل] :

أَعافُ ٱلَّذي لا هَوْلَ دونَ لِقائِهِ وَأَهْوىٰ مِنَ ٱلشُّرْبِ ٱلْحَرِيزَ ٱلْمُمَنَّعا

* * *

١٥٧٠ ـ وَقالَ أَبو تَمّامٍ [من الكامل] :

غالي ٱلْهَوَىٰ مِمّا يُرَقِّصُ هامَتي وَرَوِيَّتي ٱلنُّطَفُ ٱلَّتي لَمْ تُنْهَلِ[١]

* * *

١٥٧١ ـ وَقالَ دِعْبِلٌ [من الكامل] :

قَصَرَ الغَوايَةَ عَنْ هَوىٰ قَمَرٍ وَجَدَ ٱلسَّبيلَ إِلَيْهِ مُشْتَرَكا

* * *

١٥٧٢ ـ وَقالَ آخَرُ [من الطويل] :

تَبِعْتُكَ لَمّا كُنْتَ عِنْدِي مُمَنَّعاً وَأَمْسَكْتُ لَمَّا صِرْتَ نَهْباً مُقَسَّماً
وَلَا يَلْبَثُ ٱلْحَوْضُ ٱلْجَديدُ بِناؤُهُ إِذا كَثُرَ ٱلْوُرّادُ أَنْ يَتَهَدَّما

* * *

١٥٧٣ ـ وَكَانَ لأَبي نُواسٍ صَدِيقَةٌ ٱتَّصَلَتْ بِصَدِيقٍ لَهُ[٢] ، فَأَنْشَأَ قَصيدَةً

---

(١) رَوِيَّتي : مُؤَنَّثُ رَوِيٍّ ، وَهُوَ ٱلْماءُ ٱلتّامُّ ٱلرِّيِّ ، وَٱلنُّطَفُ ، جَمْعُ نُطْفَةٍ ، وَهُوَ : ٱلْماءُ ٱلصّافي قَلَّ أَوْ كَثُرَ ؛ وَلَمْ تُنْهَلْ : لَمْ يُشْرَبْ مِنْها أَوَّلًا ، يَقُولُ : إِنَّهُ لا يَرْوِيني إِلَّا ٱلْماءُ ٱلَّذي لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ أَحَدٌ قَبْلي ، وَذَلِكَ تَمْثيلٌ يُريدُ أَنَّهُ لا يُرْضيهِ مِنَ ٱلصَّبابَةِ إِلَّا ما لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، أَيْ : ٱلْهَوىٰ ٱلْغَالي ٱلَّذي لا يُطْرِبُني سِواهُ .

(٢) قالَ مُحَمَّدُ بْنُ شَبيبٍ : قُلْتُ لأَبي نُواسٍ : ماذا أَرَدْتَ بِقَوْلِكَ : لا أَذُودُ ٱلطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ . . . =

يَمْدَحُ بِها ٱلْعَبَّاسَ بْنَ عُبَيْدِ ٱللهِ ٱبْنِ أَبي جَعْفَرٍ ٱلْمَنْصُورِ ، وَجَعَلَ مَطْلَعَها مُعْرِضاً لِهَذِهِ ٱلْقِصَّةِ ، وَقالَ [من المديد] :

| | |
|---|---|
| أَيُّهـــا ٱلْمُنْتَـــابُ عَـــنْ عُفُـــرِهْ | لَسْـتَ مِـنْ لَيْلِـي وَلا سَمَـرِهْ[١] |
| لا أَذُودُ ٱلطَّيْـــرَ عَـــنْ شَجَـــرٍ | قَـدْ بَلَـوْتُ ٱلْمُـرَّ مِـنْ ثَمَـرِهْ[٢] |
| قَـدْ لَبِسْـتُ ٱلـدَّهْـرَ لِبْسَ فَتَـىٰ | أَخَـذَ ٱلآدابَ عَـــنْ غِيَـــرِهْ[٣] |
| فَـــاتَّصِـــلْ إِنْ كُنْـتَ مُتَّصِـلاً | بِقُـوىٰ مَـنْ أَنْـتَ مِـنْ وَطَـرِهْ[٤] |
| خِفْـتُ مَـأْثُـورَ ٱلْحَـدِيـثِ غَـداً | وَغَـــدٌ أَدْنـــىٰ لِمُنْتَظِـــرِهْ[٥] |
| خــابَ مَـــنْ أَسْـرىٰ إِلـىٰ بَلَـدٍ | غَيْــرِ معْلــومٍ مَـدىٰ سَفَـــرِهْ |
| وَسَّـــدَتْــــهُ ثِنْـيَ ســاعِـدِهِ | سِنَـــةٌ حَلَّـــتْ إِلَــىٰ شُفُـــرِهْ[٦] |

* * *

= ٱلْبَيْتَ ؟ فَقَالَ : أُخْبِرُكَ ، كانَتْ لي صِدِيقَةٌ تُحِبُّني ، فَقيلَ لِي : إِنَّها تَخْتَلِفُ إِلىٰ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الرِّيَبِ ؛ فَلَمْ أُصَدِّقْ ، حَتّىٰ تَتَبَّعْتُها ، فَرَأَيْتُها تَدْخُلُ إِلىٰ مَنْزِلِ ذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ، ثُمَّ زارَني بَعْدَ ذَلِكَ ٱلرَّجُلُ ، وكانَ صَديقاً ، فَصَرَفْتُ وَجْهِي عَنْهُ ، وَقُلْت : أَيُّها ٱلْمُنْتابُ . . . ٱلْبَيْتَيْنِ ، ثُمَّ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْعَلَهُما مَطْلِعَ مِدْحَةٍ لِلْعَبَّاسِ . . .

(١) ٱلْمُنْتابُ ، مِنْ قَوْلِكَ : ٱنْتابَ ٱلرَّجُلُ : قَصَدَكَ وَأَتاكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ؛ وَٱلْعُفُرُ بِضَمَّتَيْنِ هُنا وَبِضَمٍّ فَسُكُونٍ : طُولُ ٱلْعَهْدِ ، يُقالُ : ما أَلْقاكَ إِلَّا عَنْ عُفْرٍ ، تُريدُ : بَعْدَ حِينٍ أَوْ بَعْدَ شَهْرٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَوْلُهُ : لَسْتُ مِنْ لَيْلِي ولا سَمَرِهِ : بَراءَةٌ مِنْهُ ، وَٱلسَّمَرُ : حَديثُ ٱللَّيْلِ خاصَّةً ، وَمَجْلِسُ ٱلسُّمّارِ ، كَٱلسّامِرِ .

(٢) شَبَّهَ صَديقَهُ بِٱلطَّيْرِ ، وَصاحِبَتَهُ بِٱلشَّجَرِ ، وَخِيانَتَها لَهُ بِمُرِّ ثَمَرِهِ .

(٣) يَقُولُ : صاحَبْتُ ٱلدَّهْرَ حَتّىٰ تَعَلَّمْتُ مِنْ حَوادِثِهِ ، فَلَسْتُ أُخْدَعُ .

(٤) ٱلوَطَرُ : ٱلْحَاجَةُ ؛ وَٱلْقُوىٰ : ٱلأَسْبابُ ـ ٱلْحِبالُ ـ يَقولُ : ٱتَّصِلْ بِمَنْ يُحِبُّ ٱلاتِّصالَ بِكَ دُوني .

(٥) يَقولُ : خِفْتُ ٱلشُّهْرَةَ وَٱلسُّمْعَةَ ٱلسَّيِّئَةَ .

(٦) يَبْدُو أَنْ يَكُونَ هَذا تَمْثيلاً لِحالِهِ مَعَها إِذا ٱتَّصَلَ بِها دُونَ أَنْ يَتَبَصَّرَ في ٱلْعَواقِبِ فَخانَتْهُ ؛ وَأَسْرىٰ : سافَرَ ؛ وَٱلْمَدىٰ : ٱلْغايَةُ وَٱلنِّهايَةُ ؛ وَٱلشُّفْرُ : مَنْبَتُ ٱلشَّعْرِ مِنَ ٱلْجَفْنِ ؛ وَسِنَةٌ حَلَّتْ إِلىٰ شُفْرِهْ ، يُريدُ : ثِقْلَةُ ٱلنَّوْمِ ، وَأَنَّ هَذا ٱلنَّوْمَ ٱلثَّقيلَ يَجْعَلُهُ يَتخِذُ ساعِدَهُ وِسادَةً لَهُ .

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلىٰ ٱلإِنْسانِ ما مُنِعَ :

١٥٧٤ ـ وَلِمُناسَبَةِ ما أَوْرَدْنا في هَذا ٱلْمَعْنىٰ نَسْتَوْفي ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَإِنْ كانَ ما نُورِدُهُ ٱلآنَ لَيْسَ مِنْ نَصِّ ٱلْبابِ ، وَإِنَّما هُوَ مِنْ قَبيلٍ آخَرَ أَعَمَّ وَأَشْمَلَ ، مِنْ قَبيلِ أَنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلىٰ ٱلإِنْسانِ ما مُنِعَ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ ٱلأَحْوَصِ [من البسيط] :

وَزادَهُ كَلَفاً بِٱلْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ وَحَبُّ شَيْءٍ إِلىٰ ٱلإِنْسانِ ما مُنِعا[1]

* * *

١٥٧٥ ـ وَقَوْلُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ [من الطويل] :

إِذا أُلِفَ ٱلشَّيْءُ ٱسْتَهانَ بِهِ ٱلْفَتىٰ فَلَمْ يَرَهُ بُؤْسَىٰ تُعَدُّ وَلا نُعْمىٰ

كَإِنْفاقِهِ مِنْ عُمْرِهِ وَمَساغِهِ مِنَ ٱلرِّيقِ عَذْباً لا يُحِسُّ لَهُ طَعْماً

* * *

١٥٧٦ ـ وَقالوا : كُلُّ مَقْدورٍ عَلَيْهِ مَمْلولٌ مَحْقُورٌ .

* * *

١٥٧٧ ـ وَٱلْعَجَمُ تَقُولُ : كُلُّ عِزٍّ تَحْتَ ٱلْقُدْرَةِ فَهُوَ ذَليلٌ .

* * *

---

(١) جاءَ هَذا ٱلْبَيْتُ في « لِسانِ ٱلْعَرَبِ » :

وَزادَهُ كَلَفاً بِٱلْحُبِّ أَنْ مَنَعَتْ وَحَبَّ شَيْئاً إِلىٰ ٱلإِنْسانِ ما مُنِعا

وَأَصْلُ حَبَّ حَبُبَ بِضَمِّ ٱلْباءِ ، ثُمَّ أُسْكِنَتْ وَأُدْغِمَتْ في ٱلثَّانِيَةِ ، وَ« ما » مِنْ قَوْلِهِ : ما مُنِعا ؛ في مَوْضِعِ رَفْعٍ بِحَبَّ ؛ أَمَّا ٱلرِّوايَةُ ٱلأُولىٰ ، فَقَدْ أَوْرَدَها ٱلنَّحْوِيُّونَ عَلىٰ أَنْ حَبَّ ، أَفْعَلُ تَفْضيلٍ حُذِفَتْ هَمْزَتُهُ ، مِثْلُ : خَيْرٌ وَشَرٌّ ، إِلَّا أَنَّ ٱلْحَذْفَ فِيهِمَا هُوَ ٱلْكَثيرُ ، وَٱلْحَذْفُ في أَحَبَّ قَليلٌ .

### ٱلْغَيْرَةُ علىٰ ٱلْمَحْبوبِ :

١٥٧٨ ـ قالَ بَعْضُهُمْ [من المتقارب] :

أَغَـارُ عَلَيْـكِ مِـنَ ٱلنَّـاظِـريـنَ  فَلَـوْ أَسْتَطيـعُ طَمَسْـتُ ٱلْعُيـونـا

* * *

١٥٧٩ ـ وَقالَ آخَرُ [من مجزوء الوافر] :

أَغـارُ عَلَيْـكِ مِـنْ قُبَلِـي  وَإِنْ أَعْطَيْتَنِـي أَمَلِـي

وَأُشْفِـقُ أَنْ أَرىٰ خَـدَّيْـكِ نُصْـبَ مَـواقِـعِ ٱلْمُقَـلِ

* * *

١٥٨٠ ـ وَقالَ [من الطويل] :

أَغـارُ عَلـىٰ نَفْسـي لَهـا وَتَغـارُ لـي  عَلـىٰ نَفْسِهـا إِنَّ ٱلْهَـوىٰ لَعَجِيـبُ

عَلـىٰ أَنَّنـا لَـمْ نَـدْنُ يَـوْمـاً لِـرِيبَـةٍ  وَلا مِثْلُنـا فيمَـنْ يُـرِيـبُ يُـرِيـبُ

* * *

١٥٨١ ـ وَقالَ ٱلْخُبْزَ أَرُزِّي [من الكامل] :

إِنِّـي لأَحْسُـدُ نـاظِـرَيَّ عَلَيْكـا  حَتّـىٰ أَغُـضَّ إِذا نَظَـرْتُ إِلَيْكـا

* * *

١٥٨٢ ـ وَكانَ لِلشّاعِرِ دِيكِ ٱلْجِنِّ ، وَٱسْمُهُ عَبْدُ ٱلسَّلامِ بْنُ رَغْبانَ ، شاعِرٌ فَحْلٌ مِنْ شُعَراءِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْعَبّاسِيَّةِ ، كانَ لَهُ جارِيَةٌ يَهْواها ، وَغُلامٌ وَصيفٌ كانَ يَهْواهُ ، فَٱتَّهَمَ ٱلْجارِيَةَ بِٱلوَصيفِ ، وَقَتَلَهُما ، ثُمَّ نَدِمَ عَلىٰ ذٰلِكَ ، فَأَكْثَرَ في ٱلتَّغَزُّلِ فِيها ، وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ [من الكامل] :

يـا طَلْعَـةً طَلَـعَ ٱلْحِمـامُ عَلَيْهـا ... وَجَنـىٰ لَهـا ثَمَـرَ ٱلـرَّدىٰ بِيَـدَيْها
رَوَّيْـتُ مِـنْ دَمِهـا ٱلثَّـرىٰ وَلَطـالَمـا ... رَوَّىٰ ٱلْهَـوىٰ شَفَتَـيَّ مِـنْ شَفَتَيْهـا
مَكَّنْتُ سَيْفِي مِنْ مَجالِ وِشاحِها ... وَمَـدامِعـي تَجْـرِي عَلـىٰ خَـدَّيْها
فَـوَحَقِّ نَعْلَيْهـا وَمـا وَطِـىءَ ٱلْحَصـا ... شَـيْءٌ أَعَـزُّ عَلَـيَّ مِـنْ نَعْلَيْهـا
مـا كـانَ قَتْلِيهـا لأَنِّـي لَـمْ أَكُـنْ ... أَبْكِـي إذا سَقَـطَ ٱلْغُبـارُ عَلَيْهـا
لَكِـنْ بَخِلْـتُ عَلـىٰ سِـوايَ بِحُبِّهـا ... وَأَنِفْـتُ مِـنْ نَظَـرِ ٱلْغُـلامِ إِلَيْهـا

* * *

١٥٨٣ ـ وَلَهُ في ٱلْغُلامِ أَبْياتٌ ، مِنْها هَذا ٱلْبَيْتُ [من الكامل] :

لَـوْ كـانَ يَـدْري ٱلْمَيْـتُ مـاذا بَعْـدَهُ ... بِـٱلْحَـيِّ مِنْـهُ بَكَـىٰ لَـهُ فـي قَبْـرِهِ

* * *

١٥٨٤ ـ وَمِنْ قَوْلِ ٱلْبَهَاءِ زُهَيْرٍ في غَيْرَتِهِ عَلىٰ مَنْ يَهْواهُ [من الكامل] :

وَأُنَـزِّهُ ٱسْمَـكَ أَنْ تَمُـرَّ حُـروفُـهُ ... مِـنْ غَيْـرَتِـي بِمَسـامِـعِ ٱلْجُـلَّاسِ
فَأَقُولُ : بَعْضُ ٱلنَّاسِ ، عَنْكِ كِنايَةً ... خَوْفَ ٱلْوُشاةِ ، وَأَنْتِ كُلُّ ٱلنَّاسِ
وَأَغـارُ إِنْ هَـبَّ ٱلنَّسيـمُ لأَنَّـهُ ... مُغْـرًى بِهَـزِّ قَـوَامِـكِ ٱلْمَيَّـاسِ
وَيَـرُوعُنـي سـاقِـي ٱلْمُـدامِ إِذا بَـدَا ... فَـأَظُـنُّ خَـدَّكِ مُشْـرِقـاً فـي ٱلْكـاسِ

* * *

**يَصُونُ مَحْبُوبَهُ عَنْ ذِكْرِهِ عِنْدَ ٱلرِّجالِ :**

١٥٨٥ ـ قالَ [من الوافر] :

وَلَسْـتُ بِـواصِـفٍ أَبَـداً خَليـلًا ... أُعَـرِّضُـهُ لأَهْـواءِ ٱلـرِّجـالِ

وَمَا بَالِي أُشَوِّقُ عَيْنَ غَيْرِي  إِلَيْهِ وَدُونَهُ سَجْفَا ٱلْحِجَالِ[١]
كَأَنِّي أَشْتَهِي ٱلشُّرَكَاءَ فِيهِ  وَآمَنُ فِيهِ تَغْيِيرَ ٱللَّيَالِي

* * *

١٥٨٦ ـ وَلَمَّا أَنْشَدَ نُصَيْبٌ ٱلشَّاعِرُ بِحَضْرَةِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ [من الطويل]

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ  أُوَكِّلْ بِدَعْدٍ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

فَكُلٌّ عَابَهُ ، فَقَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ : فَلَوْ كَانَ إِلَيْكُمْ ، كَيْفَ كُنْتُمْ قَائِلِينَ ؟

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُم : كُنْتُ أَقُولُ [من الطويل] :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ  فَوَاحَزَنَا مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

فَقَالَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ : مَا قُلْتَ وَٱللهِ أَسْوَأُ مِمَّا قَالَهُ ؛ فَقِيلَ لَهُ : فَكَيْفَ كُنْتَ قَائِلًا فِي ذَلِكَ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ : كُنْتُ أَقُولُ [من الطويل] :

أَهِيمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيتُ فَإِنْ أَمُتْ  فَلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لِذِي خُلَّةٍ بَعْدِي

فَقَالُوا : أَنْتَ وَٱللهِ أَشْعَرُ ٱلثَّلاثَةِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

* * *

١٥٨٧ ـ وَلَمَّا قَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْجَعْفَرِيُّ مِنْ وَلَدِ جَعْفَرِ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ [من الطويل] :

وَلَمَّا بَدَا لِي أَنَّهَا لا تُحِبُّنِي  وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُنْجَلِ
تَمَنَّيْتُ أَنْ تُبْلَىٰ بِغَيْرِي لَعَلَّهَا  تَذُوقُ مَرَارَاتِ ٱلْهَوَىٰ فَتَرِقَّ لِي

عُيِّرَ بِهَذَا حَتَّىٰ إِنَّهُ كَانَ يُسَمَّىٰ ٱلْمُتَدَيِّثَ فِي شِعْرِهِ ، قَالَ : وَكُنْتُ مَحْبُوساً

---

(١) ٱلسَّجْفَانِ : ٱلسِّتْرَانِ ؛ وَٱلْحِجَالُ ، جَمْعُ حَجَلَةٍ ، وَهِيَ : شَيْءٌ يُشْبِهُ ٱلْقُبَّةَ ، لَهُ سِتْرَانِ .

فِي بَعْضِ ٱلأَحَايِينِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ بَابِ ٱلسِّجْنِ ، فَقَالَ : أَيْنَ ٱلْمُتَدَيِّثُ فِي شِعْرِهِ ؟ فَقُلْتُ : لَئِنْ كَانَ مِنِّي ذَلِكَ ٱلْقَوْلُ ، إِنِّي أَقُولُ [من الخفيف] :

رُبَّمَا سَرَّنِي صُدُودُكِ عَنِّي فَإِذَا مَا خَلَوْتُ كُنْتِ ٱلتَّمَنِّي

* * *

**ٱلتَّدَيُّثُ :**

١٥٨٨ ـ ٱلتَّدَيُّثُ في ٱللُّغَةِ :

دَيَّثَ ٱلأَمْرَ : ذَلَّلَهُ ، وَدَيَّثَ ٱلطَّرِيقَ : ذَلَّلَهُ وَوَطَّأَهُ ؛ وَدَيَّثَ الرَّجُلَ : ذَلَّلَهُ وَلَيَّنَهُ ؛ وَٱلدَّيُّوثُ : ٱلقَوَّادُ عَلَىٰ أَهْلِهِ ؛ وَٱلَّذِي لا يَغَارُ عَلَىٰ أَهْلِهِ : دَيُّوثٌ ؛ وَفِي « ٱلْمُحْكَمِ » : ٱلدَّيُّوثُ : ٱلَّذِي يَدْخُلُ ٱلرِّجَالُ عَلَىٰ حُرْمَتِهِ بِحَيْثُ يَرَاهُمْ ، كَأَنَّهُ لَيَّنَ نَفْسَهُ ؛ وَقَالَ ٱلإِمَامُ ثَعْلَبُ : ٱلدَّيُّوثُ ، هُوَ : ٱلَّذِي تُؤْتَىٰ أَهْلُهُ وَهُوَ يَعْلَمُ ، مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ ( قَوْلِ ثَعْلَبٍ : تُؤْتَىٰ أَهْلُهُ ) أَنَّثَ ٱلأَهْلَ ، فَقَالَ : تُؤْتَىٰ عَلَىٰ مَعْنَىٰ ٱلْمَرْأَةِ .

وَقَالَ ٱلثَّعَالِبِيُّ في « فِقهِ ٱللُّغَةِ » : إِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يُغْضِي عَلَىٰ مَا يَسْمَعُ مِنْ هَنَاتِ أَهْلِهِ فَهُوَ دَيُّوثٌ ، فَإِذَا كَانَ يُغْضِي عَلَىٰ مَا يَرَىٰ مِنْهَا فَهُوَ قُنْذُعٌ ، فَإِذَا زَادَتْ جَفْلَتُهُ وَعُدِمَتْ غَيْرَتُهُ فَهُوَ طَسِيعٌ طَزِيعٌ ، فَإِذَا كَانَ يَتَغَافَلُ عَنْ فُجُورِ ٱمْرَأَتِهِ فَهُوَ مَغْلُوبٌ ، فَإِذَا تَغَافَلَ عَنْ فُجُورِ أُخْتِهِ فَهُوَ مَرْمُوثٌ .

* * *

**ذَمُّ ٱلتَّدَيُّثِ :**

١٥٨٩ ـ في ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « تَحْرُمُ ٱلْجَنَّةُ عَلَىٰ ٱلدَّيُّوثِ » أَيْ : ٱلَّذِي لا يَغَارُ عَلَىٰ أَهْلِهِ . وَٱنْظُرْ مَا قِيلَ في مَدْحِ ٱلْغَيْرَةِ . [ الأرقام : ١٥٢٨ ـ ١٥٤٣ ] .

* * *

عُذْرُ ٱلرَّاغِبِينَ عَنِ ٱلزَّوَاجِ :

١٥٩٠ ـ قِيلَ لِمَالِكِ بْنِ دِينَارٍ : لَوْ تَزَوَّجْتَ ! فَقَالَ : إِنِّي طَلَّقْتُ ٱلدُّنْيَا ثَلاثاً ، فَلا رَجْعَةَ لِي فِيهَا !

* * *

١٥٩١ ـ وَقَالُوا : مَا فَكَّرَ فَيْلَسُوفٌ إِلَّا وَرَأَىٰ ٱلْعُزُوبَةَ أَجْمَعَ لِهَمِّهِ ، وَأَجْوَدَ لِخَاطِرِهِ .

* * *

١٥٩٢ ـ وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ ٱلتَّزَوُّجِ ، فَقَالَ : بَقْلُ شَهْرٍ ، وَشَوْكُ دَهْرٍ .

* * *

١٥٩٣ ـ وَقَالَ آخَرُ : مُكَابَدَةُ ٱلْعِفَّةِ عَنْهُنَّ أَيْسَرُ مِنَ ٱلاحْتِيَالِ لِمَصْلَحَتِهِنَّ وَمَصْلَحَةِ عِيَالِهِنَّ .

* * *

١٥٩٤ ـ وَقَالَ رَجُلٌ آخَرُ : كُنَّا فِي إِمْلاكِ فُلانٍ ، فَقَالَ : لا تَقُلْ فِي إِمْلاكِهِ ، وَلَكِنْ فِي إِهْلاكِهِ(١) . . . ثُمَّ أَنْشَدَ [من الطويل] :

يَقُولُونَ : تَزْوِيجٌ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ ۝ هُوَ ٱلرِّقُّ إِلَّا أَنَّ مَن شَاءَ يَكْذِبُ

* * *

١٥٩٥ ـ وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ ٱلنَّاسِ زَمانٌ يُغْبَطُ ٱلرَّجُلُ فِيهِ لِخِفَّةِ

---

(١) إِمْلاكٌ ، بِكَسْرِ ٱلْهَمْزَةِ ، مَصْدَرُ أَمْلَكَهُ إِيَّاها : زَوَّجَهُ وَعَقَدَ نِكَاحَهُ ، مِنْ مَلَكَ ٱلرَّجُلُ فُلَانَةً ، يَمْلِكُهَا مُلْكاً ، « مُثَلَّثُ ٱلْمِيمِ » : تَزَوَّجَهَا ، وَيُقَالُ : شَهِدْنَا إِمْلاكَهُ : زَوَاجَهُ .

ٱلْحَاذِ ، كما يُغْبَطُ ٱليَومَ أَبُو ٱلْعَشَرَةِ » [« مجمع الزوائد » ٧/ ٢٨٢] .

أَصْلُ ٱلْحَاذِ : طَرِيقَةُ ٱلْمَتْنِ ـ ٱلظَّهْرِ ـ مِنَ ٱلإِنْسَانِ ، وَفُلانٌ خَفِيفُ ٱلْحَاذِ ، أَيْ : خَفِيفُ ٱلظَّهْرِ ، أَوْ خَفِيفُ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْمَالِ وَٱلْوَلَدِ ، وَفِي هَذَا ٱلْحَدِيثِ ضَرَبَهُ مَثَلًا لِقِلَّةِ ٱلْمَالِ وَٱلْعِيَالِ .

* * *

**ٱلتَّزَوُّجُ بِأَكْثَرِ مِنْ وَاحِدَةٍ :**

١٥٩٦ ـ قَالَ بَعْضُهُمْ : إِيَّاكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ عَلَىٰ ٱمْرَأَتِكَ أَوْ تَتَسَرَّىٰ عَلَيْهَا ، إِلَّا إِنْ وَطَّنْتَ نَفْسَكَ عَلَىٰ نَكَدِ ٱلدَّهْرِ .

* * *

١٥٩٧ ـ وَقَالَ إِسْمَاعِيلُ صَبْرِي بَاشَا [من الكامل] :

يَـا مَـنْ تَـزَوَّجَ بِـٱثْنَتَيْـنِ أَلَا ٱتَّئِـدْ    أَوْقَعْتَ نَفْسَكَ ظَالِماً فِي ٱلْهَاوِيَهْ
مَـاٱلْعَـدْلُ بَيْـنَ ٱلضَّـرَّتَيْـنِ بِمُمْكِـنٍ    لَـوْ كُنْـتَ تَعْـدِلُ مَـا أَخَـذْتَ ٱلثَّـانِيَـهْ

* * *

١٥٩٨ ـ وَقِيلَ لأَعْرَابِيٍّ : منْ لَمْ يَتَزَوَّجِ ٱمْرَأَتَيْنِ لَمْ يَذُقْ حَلاوَةَ ٱلْعَيْشِ ! فَتَزَوَّجَ ٱمْرَأَتَيْنِ ، ثُمَّ نَدِمَ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الوافر] :

تَـزَوَّجْـتُ ٱثْنَتَيْـنِ لِفَـرْطِ جَهْلِـي    بِمَـا يَشْقَـىٰ بِـهِ زَوْجُ ٱثْنَتَيْـنِ
فَقُلْـتُ : أَصِيـرُ بَيْنَهُمَـا خَـرُوفـاً    أُنَعَّـمُ بَيْـنَ أَكْـرَمِ نَعْجَتَيْـنِ
فَصِـرْتُ كَنَعْجَـةٍ تُضْحِـي وَتُمْسِـي    تُـدَاوَلُ بَيْـنَ أَخْبَـثِ ذِئْبَتَيْـنِ
رِضَـا هٰـذِي يُهَيِّـجُ سُخْـطَ هٰـذِي    فَمَـا أَعْـرَىٰ مِـنْ إِحْـدَىٰ ٱلسُّخْطَتَيْـنِ
وَأَلْقَـىٰ فِـي ٱلْمَعِيشَـةِ كُـلَّ ضُـرٍّ    كَـذَاكَ ٱلضُّـرُّ بَيْـنَ ٱلضَّـرَّتَيْـنِ

لِهٰـذِي ليلَـةٌ وَلِتِلْـكَ أُخْـرَىٰ ... عِتَـابٌ دَائِـمٌ فِـي ٱللَّيْلَتَيْـنِ
فَـإِنْ أَحْبَبْـتَ أَنْ تَبْقَـىٰ كَـرِيمـاً ... مِـنَ ٱلْخَيْـرَاتِ مَمْلُـوءَ ٱلْيَـدَيْـنِ
وَتُـدْرِكَ مُلْـكَ ذِي يَـزَنٍ وَعَمْـرٍو ... وَذِي جَـدَنٍ وَمُلْـكَ ٱلْحـارِثَيْـنِ
وَمُلْـكَ ٱلْمُنْـذِرَيْـنِ وَذِي نُـوَاسٍ ... وَتُبَّـعِ ٱلْقَـدِيـمِ وَذِي رُعَيْـنِ
فَعِشْ عَـزَبـاً ، فَـإِنْ لَـمْ تَسْتَطِعْـهُ ... فَضَـرْبـاً فِـي عِـرَاضِ ٱلْجَحْفَلَيْـنِ

قوله : « فَضربَا فِي عِرَاضِ ٱلْجَحْفَلَيْنِ » قَالَ ٱلْبَكْرِيُّ شَارِحُ « ٱلأمَالِي » : عِراضُ : مَصْدَرُ عَارَضَ ٱلْجَحْفَلُ مُعَارَضَةً وَعِرَاضاً : إِذَا ٱلْتَقَيا ، يَقُولُ : تَعَرَّضْ لِلمَوْتِ وَٱلشَّهَادَةِ كَيْ تَسْتَرِيحَ ؛ وَقَدْ رَوَاهُ قَوْمٌ في عُرَاضِ ٱلْجَحْفَلَيْنِ ، بِضَمِّ ٱلْعَيْنِ ، وَٱلْجَحْفَلانِ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلشُّفْرَتَيْنِ ، مَأْخُوذٌ مِنْ جَحْفَلَةِ ٱلدَّابَّةِ ، يُرِيدُ : فَٱرْجِعْ إِلَىٰ مَا عَزَبْتَ عَنْهُ وَأَقْبِلْ عَلَيْهِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَكْرُوهِهِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : يُقَالُ : تَجَحْفَلَ إِذَا ٱجْتَمَعَ ، وَجَحْفَلْتُهُ إِذَا جَمَعْتَهُ ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلْخَضْخَضَةِ ، وَهِيَ : ٱلتَّدْلِيكُ وَٱلاسْتِمْنَاءُ ، وَهِيَ ٱلاعْتِمَارُ[١] ، يَعْنِي جَمْعُ ٱلْيَدَيْنِ وَضَمُّهَا لِذَلِكَ .

* * *

١٥٩٩ ـ وَقَالَ عُمَرُ ٱبْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَقِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحِجَازِيِّينَ ، وَهِيَ في « حَمَاسَةِ أَبِي تَمَّام » [من الخفيف] :

خَبَّـرُوهَـا بِـأَنَّنِـي قَـدْ تَـزَوَّجْـ ... ـتُ فَظَلَّـتْ تُكَـاتِـمُ ٱلْغَيْـظَ سِـرَّا
ثُـمَّ قَـالَـتْ لأُخْتِهَـا وَلأُخْـرَىٰ ... جَـزَعَـاً لَيْتَـهُ تَـزَوَّجَ عَشْـرَا
وَأَشَـارَتْ إِلَـىٰ نِسَـاءٍ لَـدَيْهَـا ... لا تَـرَى دُونَهُـنَّ لِلسِّـرِّ سِتْـرَا

(١) ٱلاعْتِمَارُ ، مَصْدَرٌ مِنْ عُمَيْرَةَ ٱلَّتِي تُجْلَدُ ، وَهِيَ كِنَايَةٌ عَنِ ٱلْكَفِّ ، هَذَا : وَالإلْطَافُ لِلنِّسَاءِ مِثْلُ ٱلاعْتِمَارُ لِلرِّجَالِ ، وَتَرَىٰ عَبْقَرِيَّاتَهُمْ في ٱلاعْتِمَارِ في مَوْضِعٍ آخَرَ .

مَـا لِقَلْبِـي كَـأَنَّـهُ لَيْـسَ مِنِّـي ... وَعِظَـامِـي إِخَـالُ فِيهِـنَّ فَتْـرَا
مِـنْ حَـدِيـثٍ نَمَـىٰ إِلَـيَّ فَظِيـعٍ ... خِلْتُ فِي ٱلْقَلْبِ مِنْ تَلَظِّيهِ جَمْرَا

[« ديوان الحماسة » صفحة : ٦٢٠ ؛ « تحفة العروس » ، رقم : ٨٤٧] .

وَقَدْ تَقَدَّمَتْ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتُ فِي ٱلْغَيْرَةِ . [ رقم : ١٥٦٧ ] .

* * *

١٦٠٠ ـ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ : لا تَتَزَوَّجْ بِأَرْبَعَةٍ ، فَكُلٌّ تَأْخُذُكَ لِجِمَاعِهَا وَأَنْتَ كَالٌّ ؛ وَلا بِثَلاثٍ ، فَإِنَّهُنَّ كَٱلأَثَافِيِّ ، تَصِيرُ بَيْنَهَا كَٱلْقِدْرِ ، فَيَكْوِيْنَكَ كَيًّا ؛ وَلا بِٱثْنَتَيْنِ ، فَإِنَّهُمَا يَكُونَانِ كَجَمْرَتَيْنِ ؛ وَلا وَاحِدَةٍ ، فَإِنَّكَ تَمْرَضُ إِذَا مَرِضَتْ ، وَتَحِيضُ إِذا حَاضَتْ ، وَتَلِدُ إِذَا وَلَدَتْ ؛ فَقَالَ لَهُ : قَدْ نَهَيْتَ عَنْ كُلِّ مَا أَمَرَ ٱللهُ ! فَمَا ٱلَّذِي أَصْنَعُ ؟ قَالَ : كُوزَانِ ، وَطِمرَانِ ، وَعِبَادَةُ ٱلرَّحْمَنِ .

* * *

١٦٠١ ـ وَمِنْ طَرِيفِ مَا يُرْوَىٰ فِي هَذَا ٱلْبَابِ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ يَوْماً وَعِنْدَهُ أَصْحَابُهُ : أَمَا إِنَّهُ لا يَجْتَمِعُ لِرَجُلٍ لَذَّةٌ حَتَّىٰ تَجْتَمِعَ أَرْبَعُ حَرَائِرَ فِي مَنْزِلِهِ يَتَزَوَّجُهُنَّ ؛ فَسَمِعَ ذَلِكَ شَاعِرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ : ٱلضَّحَّاكُ ، فَعَمَدَ إِلَىٰ كُلِّ مَا يَمْلِكُ فَبَاعَهُ ، وَتَزَوَّجَ أَرْبَعَ نِسْوَةٍ ، فَلَمْ تُوَافِقْهُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ ، فَأَقْبَلَ إِلَىٰ ٱلْحَجَّاجِ ، فَقَالَ : سَمِعْتُكَ ـ أَصْلَحَكَ ٱللهُ ـ تَقُولُ : لا تَجْتَمِعُ لِرَجُلٍ لَذَّةٌ حَتَّىٰ يَتَزَوَّجَ أَرْبَعَ حَرَائِرَ ، فَعَمَدْتُ إِلَىٰ قَلِيلِي وَكَثِيرِي فَبِعْتُهُ وَتَزَوَّجْتُ أَرْبَعاً ، فَلَمْ تُوَافِقْنِي وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ : أَمَّا وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ فَلا تَعْرِفُ ٱللهَ وَلا تُصَلِّي وَلا تَصُومُ ، وَٱلثَّانِيَةُ حَمْقَاءُ لا تَتَمَالَكُ ، وَٱلثَّالِثَةُ مُذَكَّرَةٌ[1] مُتَبَرِّجَةٌ ، وَٱلرَّابِعَةُ وَرْهَاءُ خَرْقَاءُ

---

(١) مَذَكَّرَةٌ : مُتَشَبِّهَةٌ بِٱلذُّكُورِ .

لَا تَعْرِفُ ضَرَّهَا مِنْ نَفْعِهَا ؛ وَقَدْ قُلْتُ فِيهِنَّ شِعْراً ؛ قَالَ : هَاتِ مَا قُلْتَ للهِ أَبُوكَ ! فَقَالَ [من الطويل] :

تَزَوَّجْتُ أَبْغِي قُرَّةَ ٱلْعَيْنِ أَرْبَعاً ... فَيَالَيْتَنِي وَٱللهِ لَمْ أَتَزَوَّجِ
وَيَا لَيْتَنِي أَعْمَىٰ أَصَمَّ وَلَمْ أَكُنْ ... تَزَوَّجْتُ بَلْ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مُخْدَجِ[١]
فَوَاحِدَةٌ لا تَعْرِفُ ٱللهَ رَبَّهَا ... وَلَمْ تَدْرِ مَا ٱلتَّقْوَىٰ وَلا مَا ٱلتَّحَرُّجُ
وَثَانِيَةٌ حَمْقَاءُ تَزْنِي مَخَانَةً ... تُوَاثِبُ مَنْ مَرَّتْ بِهِ لا تُعَرِّجُ
وَثَالِثَةٌ مَا إِن تُوَارَىٰ بِثَوْبِهَا ... مُذَكَّرَةٌ مَشْهُورَةٌ بِٱلتَّبَرُّجِ
وَرَابِعَةٌ وَرْهَاءُ فِي كُلِّ أَمْرِهَا ... مُفَرَّكَةٌ هَوْجَاءُ مِنْ نَسْلِ أَهْوَجِ[٢]
فَهُنَّ طَلاقٌ كُلُّهُنَّ بَوَائِنٌ ... ثَلاثاً بَتَاتاً وَإِلَّا أُلْجَلَجُ

فَضَحِكَ ٱلْحَجَّاجُ ، وَقَالَ : وَيْلَكَ ! كَمْ مَهَرْتَهُنَّ ؛ قَالَ : أَرْبَعَةَ آلافٍ أَيُّهَا ٱلأَمِيرُ ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِٱثْنَيْ عَشَرَ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

وَهَذِهِ أَبْيَاتُ ٱلأَعْرَابِيِّ عَلَىٰ مَا فِيهَا مِنْ إِقْوَاءٍ قَبِيحٍ بِٱلرَّفْعِ وَٱلنَّصْبِ وَٱلْجَرِّ ، وَلَكِنَّها تُسْتَطْرَفُ مِنْ هَذَا ٱلأَعْرَابِيِّ .

* * *

**عَبْقَرِيَّةُ ٱلإِسْلامِ فِي تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ :**

١٦٠٢ ـ فِي ٱلْحَقِّ إِنَّ لِي أَنْ أَقُولَ ، وَأَعْنِي مَا أَقُولُ : إِنَّ ٱلإِسْلامَ بَرَاءٌ مِنْ تُهْمَةِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ! نَعَمْ ، وَأَقُولُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّ ٱلإِسْلَامَ هُوَ ٱلدِّينُ ٱلْفَذُّ ٱلَّذِي حَارَبَ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ[٣] ، وَنَعَىٰ عَلَىٰ ٱلْعَرَبِ وَعَلَىٰ غَيْرِ ٱلْعَرَبِ هَذِهِ

---

(١) ٱلْمُخْدَجُ : نَاقِصُ ٱلْخَلْقِ .
(٢) ٱلْمُفَرَّكَةُ : ٱلْمَرْأَةُ ٱلَّتِي يُبْغِضُهَا ٱلرِّجَالُ .
(٣) [ إِنَّ مَوْقِفَ مُؤَلِّفِ ٱلْكِتَابِ ، وَكَذَلِكَ مَوَاقِفَ ٱلْكُتَّابِ ٱلَّتِي سَيَسُوقُهَا فِيمَا بَعدُ ، تُخَالِفُ صَرِيحَ=

ٱلْعَادَةَ ٱلْمُنْكَرَةَ ، إِنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ كَانَ شَائِعاً بَيْنَ ٱلأَثِينِيِّينَ وَٱلْفُرْسِ وَٱلْعِبْرَانِيِّينَ وَعَرَبِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَجَمِيعُ هَؤُلاءِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دُسْتُورٌ يُحَدِّدُ عَدَدَ ٱلزَّوْجَاتِ ٱللَّائِي يُمْكِنُ ٱلرَّجُلُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِهِنَّ ، بَلْ إِنَّ هَذِهِ ٱلْعَادَةَ كَانَتْ شَائِعَةً فِي ٱلْعَالَمِ ٱلْمَسِيحِيِّ ، عَلَى ٱلرَّغْمِ مِنْ نَهْيِ جُسْتِنْيَان عَنْهَا . وَلَمْ يَكُ شُيوعُهَا مَقْصُوراً عَلَىٰ ٱلأَرِسْتُقْرَاطِيَّةِ(١) .

---

= ٱلأَحْكَام ٱلشَّرْعِيَّةِ ، بَلْ هُوَ مُخَالَفَةٌ لِصَرِيحِ ٱلْقُرْآنِ ، وَمَعْرُوفٌ حُكْمُ مُنْكِرِ صَرِيحِ ٱلْقُرْآنِ .

لَكِنْ يَبْدُو لِي ، أَنَّ هَذِهِ ٱلْهَفْوَةَ ٱنْجَرَّ إِلَيْهَا بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ ، حِرْصاً مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُظْهِرُوا ٱلإِسْلامَ وَأَحْكَامَهُ بِمَظْهَرٍ ظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ ٱلأَصْلَحُ وَٱلأَنْسَبُ ، وَٱلأَصْلُ أَنْ يَنْطَلِقَ ٱلْبَاحِثُ عَنْ حُكْمِ ٱلإِسْلامِ فِي أَمْرٍ مَا مِنْ مَادَّةِ ٱلإِسْلامِ دُونَ ٱلنَّظَرِ لِآرَاءِ غَيْرِهِ ، وَدُونَ ٱلتَّمَحُّكِ فِي إِيجَادِ تَعْلِيلاتٍ وَأَحْكَامَ لَيْسَ لَهَا عَلاقَةٌ فِي هَذَا ٱلْحُكْمِ أَوْ هَذَا ٱلأَمْرِ .

وَلَعَلَّ حُسْنَ نِيَّةِ ٱلْكَاتِبِ تَشْفَعُ لَهُ ، لَكِنَّ ٱلْخَشْيَةَ مِنْ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ ٱلشَّفَاعَةُ مَرْدُودَةً .

فَتَعَدُّدُ ٱلزَّوْجَاتِ ثَابِتٌ بِنَصِّ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ وَفِعْلِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَٱلصَّحَابَةِ ٱلْكِرَامِ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَبَاقِي ٱلْمُسْلِمِين .

وَهُوَ نِظَامٌ إِسْلامِيٌّ يَحُلُّ ٱلْكَثِيرَ مِنَ ٱلْمُشْكِلاتِ ، وَلا بَأْسَ بِهِ ، بَلْ يَكْفِي أَنْ نُلاحِظَ أَنَّ ٱلزَّوْجَةَ ٱلأُوْلَىٰ فقط هِيَ ٱلَّتِي تَقِفُ ضِدَّهُ ، فَأَمَّا ٱلزَّوْجَاتُ ٱلثَّلاثُ : ٱلثَّانِيَةُ وَٱلثَّالِثَةُ وَٱلرَّابِعَةُ ، فَهُنَّ مَعَهُ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُنَّ يَقْبَلْنَ أَنْ يَكُنَّ ٱلثَّانِيَةَ وَٱلثَّالِثَةَ وَٱلرَّابِعَةَ .

لَكِنَّ ٱلنَّاسَ يَظُنُّونَ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ ضِدُّ ٱلتَّعَدُّدِ ، وَذَلِكَ لِقُوَّةِ صُرَاخِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلأُوْلَىٰ وَكَثْرَةِ ضَجِيجِهَا ؛ وَلَكِنَّ مَعَ ذَلِكَ عِنْدَمَا تَفْقُدُ زَوْجَهَا بِوَفَاةٍ مَثَلًا ، تَرْضَىٰ بِهُدُوءٍ وَبِدُونِ ضَجِيجٍ أَنْ تَكُونَ ٱلثَّانِيَةَ أَوِ ٱلثَّالِثَةَ أَوِ ٱلرَّابِعَةَ . فَتَعَدُّدُ ٱلزَّوْجَاتِ حَلٌّ شَرِيفٌ وَمُبَاحٌ لِمُشْكِلَةٍ ٱجْتِمَاعِيَّةٍ .

وَلِمَاذَا يَخْجَلُ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذَا ٱلْحُكْمِ ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ ٱلَّذِينَ يُحَرِّمُونَهُ يُمَارِسُونَهُ فِي ٱلْوَاقِعِ خَارِجَ مُؤَسَّسَةِ ٱلزَّوَاجِ ؟! حَيْثُ تَضِيعُ ٱلْحُقُوقُ ، أَعْنِي حُقُوقَ ٱلنِّسَاءِ ، مِنْ خِلالِ مُحَارَبَةِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ . ] .

[ هَذَا ، وإِنِّي أُحِيلُ ٱلْقَارِىءَ إِلَىٰ كِتَابِ « قَوْلِي فِي ٱلْمَرْأَةِ » لِشَيْخِ ٱلإِسْلامِ مُصْطَفَىٰ صَبْرِي رَحِمَهُ ٱللهُ تَعَالَىٰ ، حَيْثُ يَجِدُ نِقَاشاً حَوْلَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ؛ وَهُوَ مِنْ مَطْبُوعَاتِ ٱلْجَفَّانِ وَٱلْجَابِي لِلطِّبَاعَةِ وَٱلنَّشْرِ ، لِيمَاسُول ، قُبْرُص ] .

(١) [ عن ] سَيِّد أَمِير عَلِي ٱلْهِنْدِي قَاضِي ٱلْهِنْدِ سَابِقاً ، وَعُضْو مَجْلِسِ مَلِكِ ٱلإِنْكلِيزِ ٱلْخَاصِّ وَمَجْلِسِ وَزَارَةِ ٱلْهِنْدِ وَمَجْلِسِ ٱلأَمْبَرَاطُورِيَّةِ ٱلْهِنْدِيَّةِ رَحْمَةُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ مِنَّا بِتَصَرُّفٍ فِي =

أَقُولُ : إِنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ كَانَ شَائِعاً بَيْنَ جَمِيعِ ٱلشُّعُوبِ ٱلْقُدَامَىٰ ، وَمِنْ بَيْنِهَا عَرَبُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَدٌّ يَقِفُ دُونَهُ ٱلرَّجُلُ ، فَقَدْ كَانَ ٱلرَّجُلُ مِنَ ٱلْعَرَبِ يَجْمَعُ بَيْنَ عَشْرِ نِسَاءٍ ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ ، غَيْلانُ بْنُ سَلَمَةَ ، كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَشْرٌ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَمْسِكْ عَلَيْكَ أَرْبَعاً » [الترمذي ، رقم : ١١٢٨ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٥٣ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٤٥٩٥ ، ٤٦١٧ ، ٥٠٠٧ ، ٥٥٣٣ ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ١٢٤٣] .

وَهَكَذَا لَمَّا جَاءَ ٱلإِسْلامُ ضَرَبَ حَوْلَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ نِطَاقاً مُحْكَماً ، وَقَيَّدَهُ بِقُيُودٍ ثِقَالٍ ، إِذْ فَرَضَ فِيهِ ٱلْعَدْلَ ٱلشَّامِلَ ، وَٱجْتِنَابَ ٱلانْسِيَاقِ مَعَ ٱلنَّفْسِ فِي مَيْلِهَا وَهَوَاهَا ، وَٱتِّقَاءَ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَسْتَثِيرَ ٱلْحِقْدَ وَٱلأَمْنَ بَيْنَ زَوْجَاتِهِ ، وَكَمْ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْوَىٰ عَلَىٰ ذَلِكَ ! وَأَيُّ ٱمْرِىءٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبَدِّلَ فِطَامَ غَرِيزَتِهِ وَجِبِلَّتِهِ وَيَمْحُو فَضْلَ عَاطِفَتِهِ ! وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ : إِنَّ ٱلإِسْلامَ ٱشْتَرَطَ شُرُوطاً شَدِيدَةً فِي إِبَاحَةِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ، هِيَ لَدَىٰ ٱلنَّصَفَةِ وَٱلْمَعْدَلَةِ وَٱلنَّظَرِ إِلَىٰ رُوحِ ٱلتَّشْرِيعِ تُعَدُّ بِمَثَابَةِ ٱلتَّحْرِيمِ(١) . . .

يَقُولُ ٱللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣] وَلَيْسَ ٱلْعَدْلُ ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلْمُسَاوَاةُ فِي ٱلْمَسْكَنِ وَٱلنَّفَقَةِ فَحَسْبُ كَمَا قَدْ يُظَنُّ ، وَإِنَّمَا هُوَ يَقْتَضِي ٱلْمُسَاوَاةَ

---

= ٱلْعِبَارَةِ مَعَ ٱلْمُحَافَظَةِ ٱلتَّامَّةِ عَلَىٰ ٱلْمَعْنَىٰ ، وَٱنْظُرْ أَيْضاً كِتَابَ « ٱلْمُقَارَنَاتُ وَٱلْمُقَابَلاتُ » .

(١) قَالَ سَيِّدُ أَمِير عَلِي : لَقَدْ عُمِلَ بِذَلِكَ ٱلرَّأْيِ مُنْذُ ٱلْقَرْنِ ٱلثَّامِنِ لِلْمَسِيحِ بِوَاسِطَةِ عُلَمَاءِ ٱلْمُعْتَزِلَةِ ٱلَّذِينَ قَرَّرُوا أَنَّهُ مَا دَامَتِ ٱلْمُسَاوَاةُ ٱلتَّامَّةُ فِي ٱلْحُبِّ وَٱلشُّعُورِ مُسْتَحِيلَةَ ٱلتَّحْقِيقِ ، فَإِنَّ آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ ٱلْكَرِيمِ ظَاهِرَةُ ٱلْمَعْنَىٰ وَٱلْمَبْنَىٰ فِي أَنَّهَا تَنْهَىٰ عَنْ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ؛ قَالَ : وَهَذَا ٱلرَّأْيُ آخِذٌ ٱلآنَ فِي ٱلانْتِشَارِ ، حَتَّىٰ بَيْنَ أَتْبَاعِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلأُخْرَىٰ ، فَفِي ٱلْهِنْدِ لا يَكَادُ يُوجَدُ ٱثْنَانِ فِي المِئَةِ مُتَزَوِّجَانِ بِأَكْثَرَ مِنِ ٱمْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَذَلِكَ ٱلْحَالُ فِي فَارِسَ ، بَيْنَمَا يَنْدُرُ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجَاتِ فِي تُرْكِيَّةَ .

ٱلتَّامَّةَ فِي ٱلْحُبِّ وَٱلْمَيْلِ وَٱلاحْتِرَامِ[(١)] ، وَهَذَا لَعَمْرِي خَارِجٌ عَنْ نِطَاقِ ٱلاسْتِطَاعَةِ وَطَوْقِ ٱلْبَشَرِ ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ١٢٩] وَإِنَّمَا نَظَرَ ٱلإِسْلامُ فِي تِلْكَ ٱلإِبَاحَةِ إِلَىٰ أُمُورٍ : أَحَدُهَا شُيُوعُهَا وَكَثْرَةُ ٱنْتِشَارِهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنَ ٱلإِسْلامِ لَوْناً مِنَ ٱلْمُرُونَةِ ٱلتَّشْرِيعِيَّةِ وَضَرْباً مِنَ ٱلتَّسَامُحِ ٱلَّذِي لا بُدَّ مِنْ مِثْلِهِ فِي هَذَا ٱلْمَوْقِفِ . ثَانِيهَا أَنَّ هُنَاكَ أُنَاساً لا تُمَكِّنُهُمْ طَبَائِعُهُمْ وَلا تَكْوِينُ جُسُومِهِمْ مِنَ ٱلاكْتِفَاءِ بِوَاحِدَةٍ ، فَأُولَئِكَ رُوعِيَ أَمْرُهُمْ حَتَّىٰ لا يَفْزَعُوا إِلَىٰ مَا هُوَ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ مِنْ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ . . . ثَالِثُهَا ٱلاحْتِفَاظُ بِكَيَانِ ٱلأُمَّةِ ، لأَنَّ ٱلرِّجَالَ مَدْفُوعُونَ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوَاطِنِ إِلَىٰ خَوْضِ ٱلْقِتَالِ ، وَٱقْتِحَامِ ٱلأَخْطَارِ ، مِمَّا عَسَاهُ يُنْضِبُ عَدَدَهُمْ ، وَيَذْهَبُ بِجَمْرَتِهِمْ ، فَإِنْ لَمْ يُبَحْ لِرِجَالٍ أَنْ يَتَجَاوَزُوا ٱلْوَاحِدَةَ لَمْ يَتَمَكَّنْ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مِنْ أَنْ يَكُنَّ أُمَّهَاتٌ يَنْسِلْنَ ، فَتَضْؤُلُ ٱلأُمَّةُ وَيَقِلُّ رِجَالُهَا ، وَرُبَّمَا أَسْرَعَ إِلَيْهَا ٱلْفَنَاءُ . وَهَا هُوَ ذَا ٱلْيَوْمُ يَقُومُ فَرِيقٌ مِنْ عُقَلاءِ ٱلْفِرَنْجِ وَمُشْتَرِعِيهِمْ فَيَحُثُّونَ عَلَىٰ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ٱسْتِكْثَاراً لِلنَّسْلِ ، حَتَّىٰ يَسُدُّوا بِذَلِكَ مَا أَصَابَهُمْ وَيُصِيبُهُمْ مِنَ ٱلْفَرَاغِ ٱلْعَظِيمِ ٱلَّذِي جَلَبَهُ فُقْدَانُ ٱلْمَلايِينِ مِنْ رِجَالِهِمْ فِي هَذِهِ ٱلْحُرُوبِ .

وَقَالَ غُوسْتَافُ لُوبُون Gustave le bon فِي كِتَابِهِ « حضارة العرب »[(٢)] :

لَيْسَ مِنَ ٱلْهَيِّنِ ٱلْيَسِيرِ أَنْ تُدْرِكَ أُسْلُوباً مِنَ ٱلْحَيَاةِ لأُمَّةٍ مِنَ ٱلأُمَمِ حَتَّىٰ

---

(١) أَيْنَ هَذَا ٱلْكَلامُ ، مِنْ كَلامِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ حِينَ كَانَ يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ فَيَعْدِلُ : « ٱللَّهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلُكُ وَلَا أَمْلِكُ » رواه الترمذي ، رقم : ١١٤ ؛ النسائي ، رقم : ٣٩٤٣ ؛ أبو داود ، رقم : ٢١٣٤ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٧١ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٤٥٨٧ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢٠٧ ، ٱلَّذِي يُفِيدُ أَنَّ ٱلْعَدْلَ وَٱلْمُسَاوَاةَ لا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ فِي ٱلْحُبِّ وَٱلْمَيْلِ وَٱلاحْتِرَامِ ، وَبِالتَّالِي لَيْسَتْ هِيَ مِنْ مُقْتَضَىٰ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . بسام .

(٢) ٱلْمَرْأَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ ومجلة ٱلْبَيَانِ .

تَفْتَرِضَ كَوْنَكَ فِي هَذِهِ ٱلأُمَّةِ يُحِيطُ بِكَ مَا يُحِيطُ بِهَا ، وَتَحْتَكِمَ بِذاتِ نَفْسِكَ مَا يَحْتَكِمُ بِذَوَاتِ نُفُوسِهَا ، فَأَمَّا أَنْ تَحْكُمَ ـ وَأَنْتَ مُتَأَثِّرٌ بِطَبَائِعِ قَوْمِكَ وَعَادَاتِهِمْ ، وَمَا يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ جَوٍّ وَبِيئَةٍ ـ عَلَىٰ نِظَامِ قَوْمٍ لا يُشَاكِلُونَكَ فِي شَيْءٍ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ ، فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ ٱلسَّدَادِ وَٱلنَّصفَةِ وَٱلْمَعْدَلَةِ في شَيْءٍ .

ذَلِكَ مَا يُرَادُ بِٱلنَّاقِدِ أَنْ يَأْخُذَ بِهِ وَيَنْهَجُهُ إِذَا شَاءَ أَنْ يَتَوَلَّىٰ بِنَقْدِه نِظَاماً كَنِظَامِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ قَبْلَ أَنْ تَصِلَ ٱلأُمَمُ غَيْرُ ٱلْمُسْلِمَةِ إِلَىٰ أَعْمَاقِهِ . وَكَثِيراً مَا تُذِيعُ ٱلزِّرَايَةُ بِهِ ، وَٱلسَّخطُ عَلَيْهِ ؛ بَلْ لا تَجِدُ نِظَاماً أَجْمَعَ ٱلنَّاسُ فِي أُورُبَّةَ عَلَىٰ ٱلنَّيْلِ مِنْهُ ، وَتَوْكِيلِ ٱلظُّنُونِ وَٱلأَوْهَامِ بِهِ ، كَإِجْمَاعِهِمْ بِذَلِكَ عَلَىٰ هَذَا ٱلنِّظَامِ ، فَٱلْمُؤَرِّخُونَ ٱلأُورُبِيُّونَ ـ وَفِيهِمْ مَنْ عُرِفَ بِٱلدِّقَّةِ وَٱلنَّفَاذِ في ٱسْتِقْصَاءِ ٱلْحَقَائِقِ وَتَمْحِيصِ ٱلْحَوَادِثِ ـ يَرَوْنَ ذَلِكَ نِظَامَ دِعَامَةِ ٱلإِسْلامِ ، وَمَدْعَاةَ ٱنْتِشَارِ ٱلْقُرْآنِ ، وَٱلْهَاوِيَةَ ٱلْبَعِيدَةَ ٱلْقَرَارِ ، فِي سَبِيلِ نُهُوضِ ٱلْمُسْلِمِينَ .

يَقُولُونَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُتْبِعُونَ مَا يَقُولُونَ بِنَوَافِرِ ٱلْكَلِمِ عَنْ حِجَابِ ٱلْمُسْلِمَاتِ ٱلْبَائِسَاتِ فِي كُسُورِ دُورِهِنَّ ، يَقُومُ بِحِرَاسَتِهِنَّ ، وَيَتَوَلَّىٰ رِتَاجَ أَبْوَابِهِنَّ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْحَرَسِ وَٱلْخِصْيَانِ غِلاظٌ شِدَادٌ ، وَقَدْ يُقْتَلْنَ عَلَىٰ غَيْرِ ذَنْبٍ وَجَرِيرَةٍ ، بِغَيْرِ هَوَادَةٍ وَلا مَرْحَمَةٍ ، إِذَا صُرِفَ عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ إِلَىٰ مَنْ سِوَاهُنَّ .

إِنَّ تَصْوِيرَ ٱلْمَرْأَةِ ٱلْمُسْلِمَةِ بِهَذِهِ ٱلأَلْوَانِ ٱلْقَاتِمَةِ بَرِيءٌ مِنَ ٱلْحَقِّ . وَسَيَعْلَمُ ٱلْقَارِىءُ ـ إِذَا شَاءَ أَنْ يَطْرَحَ عَنْهَا ظُنُونَهُ وَأَوْهَامَهُ قَبْلَ تِلاوَةِ ذَلِكَ ٱلْبَحْثِ ـ أَنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ عَلَىٰ مِثَالِ مَا شَرَّعَهُ ٱلإِسْلامُ مِنْ أَفْضَلِ ٱلأَنْظِمَةِ ، وَأَنْهَضِهَا بِأَدَبِ ٱلأُمَّةِ ٱلَّتِي تَذْهَبُ إِلَيْهِ ، وَتَعْتَصِمُ بِهِ ، وَأَوْثَقِهَا لِلأُسْرَةِ عِقْداً ، وَأَشَدِّهَا لِأَصِرَتِهَا أَزْراً . وَسَبِيلُهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْمُسْلِمَةُ أَسْعَدَ حَالًا ، وَأَوْجَهَ شَأْناً ، وَأَحَقَّ بِٱحْتِرَامِ ٱلرَّجُلِ مِنْ أُخْتِهَا ٱلْغَرْبِيَّةِ .

وَقَبْلَ سِيَاقِ ٱلدَّلِيلِ عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْحَقِيقَةِ ٱلنَّاطِقَةِ ٱلنَّاصِعَةِ أَذْكُرُ لِلْقَارِىءِ أَنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ لَمْ يَكُنْ مِنْ مُحْدَثَاتِ ٱلإِسْلامِ . بَلْ كَانَ ذَائِعاً فِي أُمَمِ ٱلشَّرْقِ مِنْ فُرْسٍ وَعَرَبٍ وَيَهُودٍ وَمَنْ سِوَاهُمْ ، فَإِذا كَانتِ ٱلشُّعُوبُ ٱلَّتِي رَضِيَتِ ٱلإِسْلاَمَ دِيناً قَدْ أَخذَتْ بِهِ ، فَلَمْ يَكُ ذَلِكَ بِرِبْحٍ جَدِيدٍ نَالَتْهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلدِّيْنِ ٱلْجَدِيدِ . وَإِنَّمَا هُوَ أَثَرٌ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلْبِيئَةِ ، وَضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ ٱلْجِنْسِ ، وَنَتِيجَةٌ مِنْ نَتَائِجِ ٱحْتِكَامِ ٱلأَحْوَالِ وَٱلأَوْسَاطِ عِنْدَ الشَّرْقِيِّنَ . وَتَأْثِيرُ ٱلْبِيْئَةِ وَٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْوَاضِحِ وَٱلْبَيَانِ بِحَيْثُ لا نَجْهَدُ فِي إِفَاضَةِ ٱلْقَوْلِ فِيهِ ، فَإِنَّ ٱلنِّظَامَ ٱلْعُضْوِيَّ لِلْمَرْأَةِ ، وَمَا يُصِيبُهَا مِنَ ٱلْحَمْلِ وَٱلْوِلادَةِ ، وَمَا يَنَالُهَا فِي سَبِيلِ ذَلِكَ مِنْ أَوْجَاعٍ وَآلامٍ ، كُلُّ أُولَئِكَ يَضْطَرُّهَا إِلَىٰ ٱعْتِزَالِ فِرَاشِ ٱلزَّوْجِ أَمَداً غَيْرَ مَحْدُودٍ . وَلَمَّا كَانَ سَبِيلُ ذَلِكَ ٱلاعْتِزَالِ أَنْ يَعِيشَ ٱلرَّجُلُ عَلَىٰ قَدَرِهِ عِيشَةَ ٱلأَعْزَبِ ـ وَهِيَ عِيشَةٌ لا يَسِيغُهَا ٱلشَّرْقِيُّونَ لِمَا يُحِيطُ بِهِمْ مِنْ تَأْثِيرِ ٱلأَقَالِيمِ وَغَلَبَةِ ٱلأَمْزِجَةِ ـ أَصْبَحَ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجاتِ أَمْراً لا مَحِيدَ عَنْهُ .

أَمَّا فِي ٱلْغَرْبِ ، فَإِنَّ حُكْمَ ٱلْوَسَطِ ، وَتَأْثِيرَ ٱلأَمْزِجَةِ ، وَغَلَبَةَ ٱلْحَالَةِ ، مِمَّا يَفْعَلُ فِعْلَهُ بِٱلرَّجُلِ . وَرَغْمَ ذَلِكَ نَجِدُ ٱلْبَقَاءَ عَلَىٰ ٱلْوَاحِدَةِ نَصّاً مِنْ نُصُوصِ ٱلْقَانُونِ ، لَا أَمْراً وَاقِعاً وَلا حُكْماً نَافِذاً . وَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يَعْتَرِضَ مَا أَقُولُ أَوْ يُنْكِرَ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ دُونَ ذَلِكَ ٱلسِّيَاجِ ـ سِيَاجِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلْوَاحِدَةِ ـ أَمْرٌ لا يَسْتَمْسِكُ بِهِ ٱلأَقَلُّونَ . وَلَسْتُ أَدْرِي عَلَىٰ أَيِّ قَاعِدَةٍ يَبْنِي ٱلأُورُبِيُّونَ حُكْمَهُمْ بِٱنْحِطَاطِ ذَلِكَ ٱلنِّظَامِ ـ نِظَامِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ـ عَنْ نِظَامِ ٱلتَّفَرُّدِ ٱلْمَشُوبِ بَيْنَ ٱلأُورُبِيِّينَ بِٱلْكَذِبِ وَٱلنِّفَاقِ ؟! . عَلَىٰ حِينِ أَرَىٰ هُنَالِكَ أَسْبَاباً تَحْمِلُنِي عَلَىٰ إِيْثَارِ نِظَامِ ٱلتَّعَدُّدِ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَلَيْسَ عَجِيباً بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ نَرَىٰ ٱلشَّرْقِيِّينَ ٱلَّذِينَ يَنْتَجِعُونَ إِلَيْنَا ، وَيَتَنَقَّلُونَ بَيْنَ مَدَائِنِنَا ، يَحَارُونَ مِنْ قَسْوَتِنَا فِي ٱلْحُكْمِ عَلَىٰ نِظَامِ

تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ فِيهِمْ .

وَإِنَّ يَسِيراً عَلَىٰ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسَّبَبَ فِي إِقْرَارِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ لِذَلِكَ ٱلنِّظَامِ ، بَعْدَ مَا أَسْلَفْنَا مِنَ ٱلدَّوَاعِي ٱلنَّفْسِيَّةِ لِلْقَوْمِ . وَإِنَّ رَغْبَةَ ٱلشَّرْقِيِّينَ فِي خُلُودِ ٱلذِّكْرِ بِٱلأَبْنَاءِ ، وَغَرَامَهُمْ بِتَكْوِينِ ٱلأُسَرِ وَٱلْحَيَاةِ ٱلسَّعِيدَةِ بَيْنَهَا ، وَمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْعَدْلِ وَٱلإِنْصَافِ ـ كُلُّ ذَلِكَ لا يُجِيزُ لَهُمْ إِغْفَالَ ٱلزَّوْجَةِ ٱلَّتِي لا يَتَحَوَّلُ حُبُّهَا عَنْ صَمِيمِ قُلُوبِهِمْ عَلَىٰ مِثَالِ مَا نَرَاهُ فِي أُورُبَّةَ .

ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ أَسْبَاباً ـ سَأَعُودُ إِلَىٰ بَيَانِهَا ـ تَدْعُو إِلَىٰ إِقْرَارِ ٱلشَّرَائِعِ لِلْعَادَاتِ ٱلَّتِي أَصْبَحَتْ مِنْ خُلُقِ ٱلأُمَّةِ وَتَقَالِيدِهَا . وَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ ٱلَّذِي نَدَّ عَنْ حُدُودِ ٱلشَّرِيعَةِ عِنْدَ ٱلأُورُوبِيِّينَ ، سَيَنْتَهِي ٱلأَمْرُ إِلَىٰ قَوَانِيناً بِإِقْرَارِهِ وَٱلاعْتِرَافِ بِهِ .

وَهُنَالِكَ ـ فَوْقَ مَا أَسْلَفْتُ ـ أَسْبَابٌ تُؤَيِّدُ ذَلِكَ ٱلنِّظَامَ وَتَدْعُو إِلَيْهِ ، وَهِيَ عَلَىٰ ٱخْتِصَاصِهَا بِطَبَقَاتٍ مُعَيَّنَةٍ ، لا يَخْلُو ٱلْوَفَاءُ بِهَا مِنَ ٱلْفَائِدَةِ ، لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ ٱلْبُلْدَانِ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَىٰ ٱلأَخْذِ بِهِ . عَلَىٰ أَنَّ بَيْنَ أَشَدِّ ٱلنَّاسِ ٱسْتِمْسَاكاً بِعُرْوَةِ ٱلدِّينِ مِنَ ٱلأُورُوبِيِّينَ مَنْ هُمْ مَسُوقُونَ بِغَلَبَةِ ٱلضَّرُورَةِ إِلَىٰ ٱلاعْتِرَافِ بِٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَخَاصَّةً إِذَا أَمْعَنُوا فِي أَحْوَالِ ٱلشُّعُوبِ ٱلآخِذَةِ بِهِ .

وَمِنْ قَبِيلِ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ٱلْمُسْيُو لابلاي صَاحِبُ كِتَابِ « ٱلْعُمَّالُ فِي ٱلشَّرْقِ » فَقَدِ ٱنْتَهَىٰ بِهِ ٱلْقَوْلُ إِلَىٰ ٱلضَّرُورَةِ ٱلَّتِي تَدْعُو كَبِيرَ ٱلأُسْرَةِ مِنَ ٱلْقَرَوِيِّينَ إِلَىٰ ٱلاسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلزَّوْجَاتِ ، وَكَيْفَ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ أَنْفُسَهُنَّ ٱللَّوَاتِي يَطْلُبْنَ إِلَىٰ أَزْوَاجِهِنَّ ٱبْتِغَاءَ سِوَاهُنَّ غَيْرَ هَائِبَاتٍ وَلا آسِفَاتٍ عَلَىٰ مَا فَعَلْنَ . وَذَلِكَ بَعْضُ قَوْلِهِ : يَحْرِصُ ٱلشَّرْقِيُّونَ عَلَىٰ أَنْ يُزَوِّجُوا بِكْرَ ٱلأُسْرَةِ فِي بَوَاكِرِ أَيَّامِهِ . لِذَلِكَ تَرَىٰ ٱمْرَأَتَهُ بَعْدَ تَتَابُعِ ٱلْوَضْعِ بَعْدَ ٱلْوَضْعِ ، تُسْرِعُ إِلَيْهَا ٱلْكُهُولَةُ ، بَيْنَا يَكُونُ زَوْجُهَا

نَضِراً فَتِياً . فَلا بِدَعَ أَنْ يعوزَهُ ٱلزَّوَاجُ بِغَيْرِهَا ، وَهُوَ إِذَا هَمَّ بِذَلِكَ فَإِنَّمَا يَصْدُرُ في أَكْثَرِ ٱلْمَوَاطِنِ عَنْ رَأْيِ زَوْجَتِهِ .

وَقَدْ يَعْجَبُ ٱلْبَاحِثُ مِنْ أَنْ تُغْرِي ٱلْمَرْأَةُ زَوْجَهَا بِٱلانْصِرَافِ إِلَىٰ سِوَاهَا ، عَلَىٰ أَنَّهُ لا عَجَبَ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّ رَبَّاتِ ٱلْمَنَازِلِ في ٱلْجَمَاعَاتِ ٱلزِّرَاعِيَّةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ، عِمَادُ ٱلْبُيُوتِ ، وَقِوَامُ أَمْرِهَا ، فَإِذَا شُغِلَتِ ٱلْمَرْأَةُ بِتَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا وَٱلانْصِرَافِ إِلَىٰ شُؤُونِهِمْ ، فَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَشُدُّ أَزْرَهَا في مُهِمَّةِ بَيْتِهَا إِلَّا ٱلْجَوَارِي أَوْ بَعْضُ بَنَاتِ عَشِيرَتِهَا . وَقَدْ لا تُوجَدُ ٱلْمُؤَازَرَةُ مِنْ بَنَاتِ ٱلْعَشِيرَةِ ، كَمَا قَدْ تَضِيقُ ٱلْيَدُ دُونَ شِرَاءِ ٱلْجَوَارِي ، فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَئِذٍ إِلَّا أَنْ تُشِيرَ عَلَيْهِ بِٱلزَّوَاجِ ، حَتَّىٰ تُؤَدِّي حَقَّ ٱلأُمُومَةِ .

وَقَدْ ذَكَرَ ٱلْمُؤَلِّفُ أَلَّا أَثَرَ لِلْغَيْرَةِ ، وَلا لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ زَوْجَاتِ ٱلزَّوْجِ ٱلْوَاحِدِ ، وَلا شَكَّ أَنَّنَا بِمَا وَقَرَ فِي نُفُوسِنَا مِنَ ٱلأَوْهَامِ ٱلْبَاطِلَةِ ، نَقُولُ بِٱسْتِحَالَةِ ذَلِكَ .

وَٱلْحَقُّ أَنَّا لَمْ نَقُلْ بِٱلاسْتِحَالَةِ إِلَّا لأَنَّنَا نَرْجِعُ فِي حُكْمِنَا إِلَىٰ حِسِّنَا وَعَوَاطِفِنَا ، فَأَمَّا عَوَاطِفُ غَيْرِنَا فَلَسْنَا بِآبِهِينَ بِهَا ؛ وَلا مُقِيمِينَ لَهَا وَزْناً .

وَقَدْ آثَرْنَا أَنْ نُورِدَ هُنَا كَلِمَةَ سَيِّد أَمِير عَلِي ٱلَّتِي يَذُودُ فِيهَا عَنْ تَعَدُّدِ ٱلزَّوَاجِ في ٱلإِسْلامِ ، وَهِي كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ مُوفِيَةٌ عَلَىٰ ٱلْغَايَةِ مِنَ ٱلصِّدْقِ وَٱلسَّدَادِ وَإِنَارَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَنَصَاعَةِ ٱلْبَيَانِ ـ نَقَلْنَاهَا عَنْ كِتَابِ « رُوحِ ٱلإِسْلامِ » لِهَذَا ٱلْقَاضِي ٱلْعَادِلِ ـ وَقَدْ كُنَّا نَنْشُرُ هَذَا ٱلْكِتَابَ تِبَاعاً فِي « ٱلْبَيَانِ »[1] .

فِي أَدْوَارٍ مُعَيَّنَةٍ مِنَ ٱلتَّطَوُّرِ ٱلاجْتِمَاعِيِّ لا يَكُونُ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجَاتِ أَوِ ٱرْتِبَاطُ

---

(١) تَرْجَمَةُ ٱلْمَأْسُوفِ عَلَيْهِ مُحَمَّد ٱلسِّبَاعِي .

ٱلرَّجُلِ بِعِدَّةِ نِساءٍ إِلَّا أَمْراً لا بُدَّ مِنْهُ وَحالًا لا مَفَرَّ مِنْها ، وَلَقَدْ كانَتِ ٱلْحُروبُ ٱلَّتي نَشَبَتْ بَيْنَ ٱلْقَبائِلِ وَما كانَ مِنْها مِنْ إِقْلالِ عَدَدِ ٱلرِّجالِ وَكَثْرَةِ عَدَدِ ٱلنِّساءِ ، وَٱلسُّلْطانُ ٱلْمُطْلَقُ ٱلَّذي كانَ يَنْعَمُ بِهِ زُعَماءُ ٱلْقَبائِلِ وَسادَةُ ٱلْعَشائِرِ وَٱلأَفْخاذِ وَٱلْبُطونِ ؛ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ ٱلسَّبَبَ في إِيجادِ عادَةِ تَعَدُّدِ ٱلأَزْواجِ ٱلَّتي أَصْبَحْنا نَعُدُّها بِحَقٍّ في هَذا ٱلْعَصْرِ ٱلْمُتَحَضِّرِ نَقيصَةً وَأَذاةً وَشَرّاً مِنْ شُرورِ ٱلْمُجْتَمَعِ .

وَقَدْ كانَ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجاتِ في ٱلأُمَمِ ٱلشَّرْقِيَّةِ ٱلْقَديمَةِ جَمْعاءَ ، شَريعَةً مُقَرَّرَةً وَسُنَّةً مُتَّبَعَةً ، وَقَدْ كانَ ٱعْتِيادُ ٱلْمُلُوكِ إِيَّاها وَٱلأَكاسِرَةُ وَأَهْلُ بَيْتِ ٱلْمُلْكِ ـ وَكانُوا إِذْ ذاكَ يَنْزِلُونَ مِنْ أُمَمِهِمْ مَنازِلَ ٱلأَرْبابِ وَيَحْمِلونَ عَلَمَ ٱلأُلُوهِيَّةِ ـ باعِثاً لِلنّاسِ عَلىٰ ٱتِّباعِها ، وَٱلْجَرْيِ عَلىٰ سُنَنِ مُلُوكِهِمْ مِنْ ناحِيَتِها . فَقَدْ ذاعَ تَعَدُّدُ ٱلأَزْواجِ ( مِنْ كِلْتا ناحِيَتَيْهِ ، أَيْ : إِكْثارُ ٱلرَّجُلِ مِنَ ٱلنِّساءِ وَٱرْتِباطُ ٱلنِّساءِ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلرِّجالِ ) بَيْنَ أَهْلِ ٱلْهِنْدِ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ مِنَ ٱلتَّاريخِ ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ بَيْنَ ٱلآشورِيِّينَ وَٱلْميدِيِّينَ وَٱلْبابِلِيِّينَ ، أَيُّ حَدٍّ لِعَدَدِ ٱلنِّساءِ وَٱلزَّوْجاتِ ٱلَّتي يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ٱلإِعْراسُ بِهِنَّ . وَلا يَزالُ ٱلرَّجُلُ في ٱلْبَراهِمَةِ إِلىٰ يَوْمِنا هَذا يَسْتَطيعُ أَنْ يَتَزَوَّجَ مِنَ ٱلنِّساءِ ٱلْعَدَدَ ٱلَّذي يُحِبُّ وَيَخْتارُ . وَلَقَدْ كانَ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجاتِ واقِعاً بَيْنَ بَني إِسْرائيلَ قَبْلَ عَهْدِ مُوسىٰ وَفي أَيّامِهِ ، إِذْ أَقَرَّ تِلْكَ ٱلسُّنَّةَ وَلَمْ يَضَعْ لِعَدَدِ ٱلزَّوْجاتِ حَدّاً وَلا قَيْداً ، وَلَكِنْ وُضِعَ ذَلِكَ ٱلْقَيْدُ بَعْدَ ذَلِكَ في ٱلتَّلْمُودِ ، وَنَصَّ عَلىٰ جَوازِ ٱلزَّواجِ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلنِّساءِ عَلىٰ قُدْرَةِ مُكْنَةِ ٱلرَّجُلِ مِنْ إِطْعامِهِنَّ وَٱلإِنْفاقِ عَلَيْهِنَّ ، وَلَإِنْ كانَ زُعَماءُ ٱلْيَهُودِيَّةِ قَدْ قالوا بِتَحْريمِ ٱلزَّواجِ بِأَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ ، فَقَدْ خالَفَهُمْ قَوْمٌ في ذَلِكَ وَلَمْ يَعْتَرِفُوا بِحَدٍّ وَلا شَرْطٍ .

أَمَّا ٱلْفُرْسُ ، فَإِنَّ دينَهُمْ أَباحَ ٱلإِكْثارَ مِنِ ٱتِّخاذِ ٱلزَّوْجاتِ ، وَقَدِ ٱنْحَطَّ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجاتِ بَيْنَ ٱلْفينيقِيَّةِ ـ ٱلسُّورِيَّةِ ـ ٱلَّتي هَزَمَها بَنُو إِسْرائيلَ وَأَبادُوها ، إِلىٰ دَرْكِ

لَيسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَيْوانِيَّةِ أَيُّ فارِقٍ أَوْ خِلافٍ ؛ وَكَذٰلِكَ فَشَتْ سُنَّةُ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجاتِ في أَهْلِ طَراقِيَة وَلِيدِيَةَ وَكَثيرٍ مِنَ ٱلشُّعوبِ ٱلْقَديمَةِ ٱلَّتي كانَتْ تَسْكُنُ أَقاليمَ عِدَّةً مِنْ بلادِ ٱلْغَرْبِ وَٱلأَقاليمَ ٱلْواقِعَةَ في غَرْبِيِّ آسيَةَ ، وَزادَتْ عَنِ ٱلْحَدِّ وَتَمادَتْ حَتّىٰ تَجاوَزَتِ ٱلْوَصْفَ .

وَلَقَدْ كانَتِ ٱلزَّوْجَةُ في أَهْلِ أَثينَة ٱلْقَديمَةِ ـ وَهِيَ وَلا خَفاءَ أَكْبَرُ ٱلأُمَمِ ٱلأَثَرِيَّةِ ٱلْقَديمَةِ حَضارَةً ـ مَتاعاً يُباعُ وَيُشْتَرىٰ ، وَسِلْعَةً في ٱلسُّوقِ تَنْتَقِلُ مِنْ حَوْزَةِ رَجُلٍ إِلىٰ رَجُلٍ ، وَكانَتْ تُعَدُّ شَرّاً لا غِنىٰ عَنْهُ في ٱلْبَيْتِ ، وَلِلابْتِذالِ في ٱلْخِدْمَةِ وَإِخْراجِ ٱلذَّراري وَٱلأَطْفالِ ، وَكانَ لِلأَثيني أَنْ يَتَزَوَّجَ بِمَنْ شاءَ مِنَ ٱلنِّساءِ ، حَتّىٰ لَقَدْ جَعَلَ ٱلْخَطيبَ ديمُوسْتينُس ـ وَهُوَ هُوَ في بَراعَةِ ٱلْخَطابَةِ ـ يَفْخَرُ بِأَنَّ في أُمَّتِهِ ثلاثُ طَبقاتٍ مِنَ ٱلنِّساءِ ، طَبَقَتانِ مِنْهُما أَزْواجٌ شَرْعِيَّةٌ ، وَأُخْرَياتُ غَيْر شَرْعِيَّةٍ .

وَلِإِنْ كانَ ٱلرِّجالُ في أَسبارْطَة ٱلْقَديمَةِ لا يُباحُ لَهُمُ ٱلزَّواجُ بِأَكْثَر مِنْ زَوْجَةٍ واحِدَةٍ ، فَقَدْ كانَ لِنِسائِهِمْ أَنْ يَتَزَوَّجْنَ بِأَكْثَرَ مِنْ رَجُلٍ واحِدٍ .

وَلَعَلَّ ٱلظُّروفَ ٱلْخاصَّةَ ٱلَّتي وُضِعَتْ فيها أَنْظِمَةُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلرُّومانِيَّةِ هِيَ ٱلَّتي حالَتْ دُونَ إِباحَةِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجاتِ في إِبّانِ نَشْأَةِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ ، وَمَهْما كانَ نَصيبُ قِصَّةِ ٱخْتِطافِ نِساءِ ٱلسَّابِينَ وَسَبْيِهِنَّ في أَوائِلِ ٱلْعَهْدِ بِدَوْلَةِ ٱلرُّومانِ مِنَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْحَقِّ ، فَإِنَّ ثُبُوتَ تِلْكَ ٱلْقِصَّةِ في سِجِلِّ ٱلتَّاريخ باعِثٌ عَلىٰ ٱلظَّنِّ بِأَنَّها كانَتِ ٱلْعامِلَ في وَضْعِ ٱلأَنْظِمَةِ ٱلأُولىٰ عِنْدَهُمْ في ٱلزَّواجِ وَٱلأُسْرَةِ ، عَلىٰ حِينِ أَنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجاتِ في ٱلْوِلاياتِ ٱلْمُجاوِرَةِ لِرُومَة وَفي وِلايَةِ ٱتْرُوسْكان خاصَّةً كانَ عادَةً شائِعَةً وَسُنَّةً مَأْلوفَةً ، وَجاءَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْحُروبُ ٱلْكَثيرَةُ وَٱلْغَزواتُ ٱلطَّويلَةُ وَٱلْفُتُوحُ ٱلْمُسْتَمِرَّةُ وَما كانَ مِنْها مِنْ حُدُوثِ ٱلاخْتِلاطِ بِالأُمَمِ ٱلأُخْرىٰ

ٱلَّتي كانَتْ تَسْكُنُ إيطالِيَة . ثُمَّ ٱلتَّرَفُ ٱلنَّاشِىءُ مِنَ ٱلنَّجاحِ ، وَٱلرَّفاهِيَةُ ٱلَّتي تَعْقِبُ ٱلانْتِصاراتِ ، فَكانَتْ كُلُّها سَبَباً في جَعْلِ مَشْرُوعِيَّةِ ٱلزَّواجِ عِنْدَ ٱلرُّومانِ أَمْراً لا أَهَمِيَّةَ لَهُ وَلا ضَرُورَةَ ، فَلَمْ يَكْتَفُوا بِإِباحَةِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجاتِ وَجَعْلِهِ شِرْعَةً وَنِظاماً مُقَرَّراً ، بَلِ ٱسْتَحالَ ٱلزَّواجُ كَذٰلِكَ ضَرْباً مِنَ ٱلتَّسَرِّي لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ . وَلَمْ يَلْبَثِ ٱلتَّسَرِّي بَعْدَ أَنْ أَقَرَّتْهُ شَرائِعُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلرُّومانِيَّةِ أَنْ أَضْحىٰ في قُوَّةِ ٱلشَّريعَةِ ٱلْمُباحَةِ وَٱلسُّنَّةِ ٱلْمُقَرَّرَةِ ، وَلِذٰلِكَ كانَتْ حُرِّيَةُ ٱلنِّساءِ وَضَعْفُ ٱلرَّابِطَةِ ٱلَّتي تُمْسِكُهُنّ بِٱلرِّجالِ وَتَبادُلُ ٱلزَّوْجاتِ بَيْنَ ٱلرِّجالِ أَوِ ٱلتَّنازُلُ عَنْهُنَّ ؛ لَمْ تَكُنْ جَميعاً إِلَّا تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجاتِ بِعَيْنِهِ ، وَإِنَّما تَحْتَ ٱسْمٍ آخَرَ ، وَفي شَكْلٍ مُخْتَلِفٍ .

وَبَدَأَتْ يَوْمَئِذٍ تَعاليمُ ٱلْمَسيحِيَّةِ ٱلأُولىٰ تُلْقىٰ عَلىٰ سَواحِلِ غالِيلِيَة ، وَتَشَعُّ عَلىٰ ٱلْعالَمْ ٱلرُّومانِيِّ بِأَسْرِهِ ، عَلىٰ أَنَّ نَبِيِّ ٱلنَّاصِرَةِ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقْدُرَ مَسْأَلَةَ ٱلزَّواجِ حَقَّ قَدْرِها عامَّةً . وَكَذٰلِكَ شاعَتْ سُنَّةُ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجاتِ وَفَشَتْ وسادَتْ ، حَتَّىٰ جاءَتْ قَوانينُ جُوسْتَنْيان Justinian فَأَبْطَلَتْها وَحَرَّمَتْها ، وَلٰكِنَّ أَمْرَ تَحْريمِها في تِلْكَ ٱلْقَوانينِ ٱلْمَدَنِيَّةِ لَمْ يُحْدِثْ أَيَّ تَغييرٍ في أَخْلاقِ ٱلشَّعْبِ وَمَبادِىءِ ٱلآدابِ عِنْدَهُمْ . فَظَلَّ تَعَدُّدُ ٱلزَّوْجاتِ باقِياً مَعْمولًا بِهِ مُتَّبَعاً ، حَتّىٰ جاءَتْ مَدَنِيَّةُ ٱلْمُجْتَمَعِ ٱلْمُتَحَضِّرِ فَقَطَعَتْ بِتَحْريمِهِ ، وَحَكَمَتْ عَلَيْهِ بِٱلْمَوْتِ .

وَكَانَتِ ٱلزَّوْجَاتُ ، عَدَا ٱلزَّوْجَةَ ٱلأُولَىٰ ٱلَّتي بَنَىٰ ٱلرَّجُلُ بِهَا قَبْلَ ٱلأُخْرَيَاتِ ، فِي شَرِّ حَالٍ وَأَسْوَأ عِيشَةٍ ، سَلِيبَةَ ٱلْحُقُوقِ ، لا تَنْعَمُ بِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ ٱلرِّعَايَةِ ٱلَّتي تَرْعَىٰ ٱلْقَوَانِينَ بِهَا حَقَّ ٱلزَّوْجَةِ ٱلأُولَىٰ ، عَبِيداً أَرِقَّاءَ ، مُسْتَهْدَفَاتٍ لِتَقَلُّبِ ٱلزَّوْجِ ، رَهَائِنَ أَوْهَامِهِ ، غَرَضاً لِمَنازِعِهِ وَأَهْوَاءِ نَفْسِهِ ، وَكَانَ أَطْفَالُهُنَّ يُوسَمُونَ بِمَيْسَمِ ٱلزِّنَا ، وَيُدْعَوْنَ مُزَنِّمِينَ ، وَيُحْرَمُونَ حَقَّهُمْ فِي

إِرْثِ أَبِيهِمْ ، وَيُعَامَلُونَ كَأَنَّهُمْ طَرَائِدُ ٱلْمُجْتَمَعِ ، مُشَرَّدِينَ مَنْبُوذِينَ مِنْ صُفُوفِهِ .

وَلَمْ يَكُنِ ٱلتَّمَتُّعُ بِعَدَدٍ مِنَ ٱلزَّوْجَاتِ ، شَرْعِيَّاتٍ وَغَيْرِ شَرْعِيَّاتٍ ، مَقْصُوراً عَلَىٰ طَبَقَةِ ٱلنُّبَلاءِ وَٱلأَشْرَافِ ، بَلْ لَقَدْ كَانَ كَثِيرُونَ مِنْ رِجَالِ ٱلدِّينِ يَتَنَاسَوْنَ ٱلْعَهْدَ ٱلَّذِي عَاهَدُوهُ وَٱلْقَسَمَ ٱلَّذِي ٱتَّخَذُوهُ مِنَ ٱلْبَقَاءِ عَلَىٰ ٱلْعُزُوبَةِ وَٱلتَّحَرُّجِ مِنَ ٱلزَّوَاجِ ، فَيَرْتَبِطُونَ بِزِيجَةٍ أَوْ زِيجَتَيْنِ شَرْعِيَّتَيْنِ أَوْ غَيْرِ شَرْعِيَّتَيْنِ ، وَٱلتَّارِيخُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ لَمْ يَكُنْ فِي نَظَرِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ مُحَرَّماً غَيْرَ جَائِزٍ كَمَا هُوَ ٱلْيَوْمُ ، بَلْ إِنَّ ٱلْقِدِّيسَ أُوْغَسْتِين Augustine نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَىٰ فِيهِ شَيْئاً مِنَ ٱلإِثْمِ أَوِ ٱلْمَعَابَةِ أَوْ مُخَالَفَةِ نَوَامِيسِ ٱلآدَابِ ، وَٱعْتَرَفَ بِأَنَّهُ لا يُعَدُّ جَرِيمَةً ، إِذْ كَانَ سُنَّةً مُقَرَّرَةً فِي [ كُلِّ ] بَلَدٍ مِنَ ٱلْبُلْدَانِ ، وَقَرَّرَ ٱلْمُصْلِحُونَ ٱلدِّينِيُّونَ مِنَ ٱلْجِرْمَانِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلسَّادِسِ عَشَرَ صِحَّةَ ٱلزَّوَاجِ بِٱمْرَأَةٍ ثَانِيَةٍ أَوْ ثَالِثَةٍ بِجَانِبِ ٱلزَّوْجَةِ ٱلأُولَىٰ لِأَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا ٱلْعُقْمُ وَقِلَّةُ ٱلنَّسْلِ .

وَنَحْنُ نَرَىٰ كَثِيرِينَ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلدِّينِيِّينَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنْ لَيْسَ فِي تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ أَيُّ مُخَالَفَةٍ لِقَوَاعِدِ ٱلآدَابِ ، وَأَنَّ عِيسَىٰ لَمْ يُحَرِّمِ ٱلتَّعَدُّدَ تَحْرِيماً قَاطِعاً ، وَلَمْ يَقُلْ بِمَنْعِهِ مَنْعاً بَاتّاً ، وَمَعَ ذَلِكَ تَرَاهُمْ يَقُولُون : إِنَّ فِكْرَةَ ٱلْفَرْدِيَّةِ فِي ٱلزَّوَاجِ لَمْ تَعُمَّ فِي ٱلْغَرْبِ وَلَمْ تَنْتَشِرْ إِلَّا بِفَضْلِ ٱلتَّعَالِيمِ ٱلَّتِي بَثَّهَا ٱلْجِرْمَانُ أَوْ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ ٱلرُّومَانِيَّةِ ٱلشَّرْقِيَّةِ فِي تَضَاعِيفِ ٱلْمَسِيحِيَّةِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ ٱلْفِكْرَةَ ٱلأَخِيرَةَ تُخَالِفُ ٱلْوَاقِعَ وَٱلتَّارِيخَ ، وَلا أَثَرَ لَهَا مِنَ ٱلصِّحَّةِ . إِذْ لَمْ يَقُلْ بِٱسْتِمْسَاكِ ٱلْجِرْمَانِ بِسُنَّةِ ٱلاقْتِصَارِ عَلَىٰ زَوْجٍ وَاحِدَةٍ غَيْرُ وَاحِدٍ أَوِ ٱثْنَيْنِ لا تَصِحُّ شَهَادَتُهُمَا ، ثُمَّ لا يَنْبَغِي أَنْ نَنْسَىٰ ٱلْغَرَضَ ٱلَّذِيْ مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ ٱلْمُؤَرِّخُ تَاسِيتَاس كِتَابَهُ « فِي آدَابِ ٱلْجِرْمَانِ » ، فَقَدْ كَانَ كِتَابُهُ ذَاكَ نَقْداً حَارّاً شَدِيداً عَلَىٰ ٱلإِبَاحِيَّةِ ٱلَّتِي كَانَتْ مُتَفَشِّيَةً فِي بَنِي وَطَنِهِ ، وَكَانَ غَرَضُهُ إِدْخَالَ مَبَادِىءَ أَطْهَرَ مِنَ

ٱلْمَبَادِىءِ ٱلَّتِي كَانَتْ سَائِدَةً يَوْمَذَاكَ فِي رُومَة . وَإِذَا نَحْنُ فَرَضْنَا أَنَّ تَاسِيتَاس كَانَ عَلَىٰ ٱلْحَقِّ ، فَبِمَاذَا نُؤَوِّلُ عَادَةَ تَعَدُّدِ ٱلأَزْوَاجِ ٱلَّتِي ظَلَّ عَلَيْهَا طَبَقَاتُ ٱلنُّبَلاءِ مِنَ ٱلْجِرْمانِ حَتَّىٰ ٱلْقَرنِ ٱلتَّاسِعِ عَشَر . وَمَهْمَا كَانَتْ عَادَةُ ٱلرُّومَانِ فِي ٱلْعُهُودِ ٱلأُولَىٰ مِنْ تَارِيخِهِمْ ، فَلا نِزَاعَ فِي أَنَّ تَعَدُّدَ ٱلأَزْوَاجِ فِي أُخْرَيَاتِ أَيَّام ٱلْجُمْهُورِيَّةِ ٱلرُّومَانِيَّةِ وَأَبَّانَ عَهْدِ ٱلأَمْبَرَاطُورِيَّةِ كَانَ وَلا رَيْبَ مُقَرَّراً كَسُنَّةٍ مَشْرُوعَةٍ ، أَوْ لَمْ يَكُنْ عَلَىٰ ٱلأَقَلِّ مُعْتَبَراً إِثْماً مُحَرَّماً وَأَمْراً غَيْرَ مَشْرُوعٍ ، فَإِنَّ ٱلأَمْبَرَاطُورَ فَالَنْتِيان ٱلثَّانِي Valentinian أَصْدَرَ قَانُوناً أَبَاحَ بِهِ لِرَعَايَا مَمْلَكَتِهِ ٱلزَّوَاجَ بِعِدَّةِ نِسَاءٍ إِذَا شَاؤُوا ، وَلَيْسَ فِي ٱلتَّارِيخِ ٱلدِّينِي لِتِلْكَ ٱلأَزْمِنَةِ دَلِيلٌ مَّا عَلَىٰ أَنَّ أَسَاقِفَةَ ذَلِكَ ٱلْعَصْرِ وَرُؤُوسَ ٱلْكَنِيسَةِ أَقَامُوا أَيَّ ٱعْتِرَاضٍ عَلَىٰ إِصْدَارِ ذَلكَ ٱلْقَانُون . بَلْ لَقَدْ تَابَعَ ٱلْقَيَاصِرَةُ ٱلَّذِينَ جَاؤُوا بَعْدَ ذَلِكَ ٱلأَمْبَرَاطُورِ سُنَّةَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ، وَمَشَىٰ قَوْمُهُمْ فِي آثَارِهِمْ . وَبَقِيَتْ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ عَلَىٰ حَالِهَا حَتَّىٰ عَهْدِ جُوسْتَنْيَان Justinian ، إِذْ كَانَ أَكْبَرُ نُصَحَاءِ ذَلِكَ ٱلأَمْبَرَاطُور وَوُزَرَائِه رَجُلًا مُلْحِداً وَثَنِياً . وَلَكِنَّ تَحْرِيمَ ذَلِكَ ٱلمَلِكِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَزْجُرَ مَيْلَ ذَلِكَ ٱلْعَصْرِ وَيَقْمَعَ رَغْبَتَهُ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ قَانُونُ تَحْرِيمِ تِلْكَ ٱلسُّنَّةِ ٱلْقَدِيمَةِ إِلَّا دَلِيلًا عَلَىٰ تَقَدُّم ٱلْفِكْرِ ٱلإِنْسَانِيِّ فِي تِلْكَ ٱلْعُصُورِ وَأَثَراً مِنْ تَطَوُّرِ ٱلآدَابِ لَيْسَ غَيْر ، وَلَمْ يَتَعَدَّ تَأْثِيرُهَا فِئَةً مِنَ ٱلْمُفَكِّرِينَ ، وَرَاحَتْ فِي ٱلْجَمَاهِيرِ ضَعِيفَةَ ٱلأَثَرِ لا سُلْطَانَ لَهَا وَلا نُفُوذَ .

وَفِي ٱلأَقَالِيمِ ٱلْغَرْبِيَّةِ مِنْ أُورُبَة لَمْ يَكُنْ مِنْ عُلُوِّ كَفَّةِ ٱلْبَرَابِرَةِ وَٱخْتِلاطِ مَبَادِىءِ ٱلسُّكَانِ بِمَبَادِىءِ ٱلْفَاتِحِينَ إِلَّا أَنْ حَطَّتْ مِنْ عَلاقَةِ ٱلرَّجُلِ بِٱلْمَرْأَةِ ، وَحَاوَلَتْ جُمْلَةٌ مِنْ قَوَانِينِ أُولَئِكَ ٱلْبَرَابِرَةِ أَنْ تَضَعَ نُصُوصاً خَاصَّةً بِتَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ، وَلَكِنَّ ٱلتَّعَالِيمَ وَٱلنُّصُوصَ لَمْ تُغْنِ شَيْئاً وَلَمْ تُفِدْ فَتِيلًا . إِذْ كَانَتِ

ٱلشُّعُوبُ وَٱلْجَمَاهِيرُ تَرَىٰ مُلُوكَهُمْ مُكْثِرِينَ مِنَ ٱلزَّوْجَاتِ ، فَلَا تَجِدُ عَنِ ٱحْتِذَائِهِمْ حِوَلًا ، وَلا تَرَىٰ بُدًّا مِنَ ٱلاقْتِدَاءِ بِهِمْ ، حَتَّىٰ أَنَّ رِجَالَ ٱلدِّيْنِ عَلَىٰ رَغْمِ وَصَايَا ٱلاسْتِمْسَاكِ بِٱلْعُزُوبَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تُلَقَّنُ فِي ٱلْكَنِيسَةِ ، جَعَلُوا يَتَسَرَّوْنَ بِٱمْرَأَةٍ أَوْ بِأَكْثَرَ مِنَ ٱمْرَأَةٍ . وَذَلِكَ بِإِذْنٍ مِنْ رَئِيسِ أُسْقُفِيَّتِهِمْ .

وَٱلْخَطَأُ ٱلأَكْبَرُ ٱلَّذِي وَقَعَ فِيهِ كُتَّابُ ٱلْمَسِيحِيَّةِ قَوْلُهُمْ : إِنَّ مُحَمَّداً ٱتَّخَذَ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ دِينِهِ ، وَأَقَرَّهُ ، وَأَبَاحَهُ ، وَأَجَازَهُ .

وَٱلْفِكْرَةُ ٱلْقَدِيمَةُ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي أَذْهَانِهِمْ مِنْ أَنَّ نَبِيَّ ٱلإِسْلامِ هُوَ ٱلَّذِي كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ وَجَعَلَهُ شَرِيعَةً مِنَ ٱلشَّرَائِعِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَهِيَ فِكْرَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ مِقْدَارِ جَهْلِ ٱلَّذِينَ حَمَّلُوهَا أَدْمِغَتَهُمْ ، قَدْ هُدِمَتِ ٱلْيَوْمَ وَدُحِضَتْ وَظَهَرَ لَهُمْ فَسَادُهَا ، وَلَكِنَّ ٱلْخَطَأَ ٱلَّذِي لا تَزَالُ جَمَاهِيرُ ٱلْعَامَّةِ عِنْدَهُمْ تَسْتَمْسِكُ بِهِ وَتُصِرُّ عَلَيْهِ ، وَلا يَزَالُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُتَعَلِّمِينَ وَرِجَالِ ٱلْمَسِيحِيَّةِ يَقُولُونَ بِهِ ؛ هُوَ مَا قَدَّمْنَا ، مِنْ أَنَّ مُحَمَّداً ٱتَّخَذَ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ شَرِيعَةً ، وَأَقَرَّهُ سُنَّةً وَقَانُوناً ، وَتِلْكُمْ فِكْرَةٌ لَيْسَ فِي ٱلدُّنْيَا أَفْسَدُ مِنْهَا وَأَبْعَدُ عَنِ ٱلْحَقِّ ، وَأَضْعَفُ أَسَاساً ؛ فَإِنَّ مُحَمَّداً وَجَدَ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ مَعْمُولًا بِهِ بَيْنَ أُمَّتِهِ وَجِيرَانِ أُمَّتِهِ وَٱلْبِلادِ ٱلْوَاقِعَةِ حَوْلَ جَزِيرَتِهِ ، حَيْثُ ٱتَّخَذَتْ ثَمَّةَ مَظْهَراً مُخِيفاً ، وَكَانَتْ فِي حَالٍ مِنَ ٱلتَّفَشِّي سَيِّئَةٍ نَكْرَاءَ ، وَنَحْنُ لا نُنْكِرُ أَنَّ قَوَانِينَ ٱلأَمْبَرَاطُورِيَّةِ ٱلْمَسِيحِيَّةِ حَاوَلَتْ أَنْ تُصْلِحَ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ ٱلنَّقِيصَةِ ، وَتَكْسِرَ مِنْ حِدَّتِهَا ، وَلَكِنَّهَا عَجَزَتْ وَعَادَتْ مُخَيَّبَةً طَائِشَةَ ٱلسِّهَامِ ، فَظَلَّتْ تِلْكَ ٱلْعَادَةُ نَامِيَةً مُتَأَصِّلَةً لا رَادَّ لَهَا وَلا زَاجِرَ يَزْجُرُهَا . وَظَلَّتِ ٱلزَّوْجَاتُ ٱلْمِسْكِينَاتُ ٱللَّاتِي تَزَوَّجَ مِنْهُنَّ ٱلرَّجُلُ بَعْدَ زَوْجَتِهِ ٱلأُولَىٰ يُعَانِينَ أَلْوَاناً مِنَ ٱلآلامِ وَضُرُوباً مِنَ ٱلشَّقَاءِ . وَكَانَ فَسَادُ أَمْرِ ٱلأَخْلاقِ فِي بِلادِ فَارِسَ عَلَىٰ عَهْدِ ظُهُورِ ٱلنَّبِيِّ وَتَحَطُّمِ مَبَادِىءِ ٱلأَدَبِ مِنَ

ٱلشَّنَاعَةِ وَٱلسُّوءِ بِحَالٍ مُرَوِّعَةٍ . فَلَمْ يَكُنْ ثَمَّتَ لِلزَّوَاجِ قَانُونٌ أَوْ شِرْعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَإِنْ كَانَ ثَمَّتَ قَانُونٌ ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَعْتَرِفُ بِهِ أَوْ يَرْتَضِيهِ .

وَلَمَّا كَانَ كِتَابُ ٱلزَانْدَافِسْتَا[١] Zend Avesta لَمْ يَضَعْ حَدّاً مَحْدُوداً لِعَدَدِ ٱلنِّسَاءِ ٱللاتِي يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ٱلابْتِنَاءُ بِهِنَّ ، لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْفُرْسِ إِلَّا أَنْ جَعَلُوا يَنْعَمُونَ بِعَدَدٍ عَدِيدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَعَدَدٍ مِثْلِهِ مِنَ ٱلسَّرَارِي . وَكَانَتْ هُنَاكَ عَادَةٌ أُخْرَىٰ غَيْرَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ عِنْدَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْيَهُودِ وَهِيَ عَادَةُ زَوَاجِ ٱلْمُتْعَةِ ، فَكَانَ لِهَذَا ٱلتَّحَلُّلِ ٱلشَّنِيعِ فِي ٱلْمَبَادِىءِ ٱلاجْتِمَاعِيَّةِ أَثَرٌ مُخِيفٌ سَيِّءٌ مُنْكَرٌ فِي حَيَاةِ ٱلْمُجْتَمَعِ بِجَزِيرَةِ ٱلْعَرَبِ .

عَلَىٰ أَنَّ ٱلإِصْلاحَاتِ ٱلَّتِي ٱسْتَنَّهَا ٱلنَّبِيُّ أَحْدَثَتْ تَحْسِيناً مُتَّسِعَ ٱلْمَدَىٰ بَيِّناً مَحْسُوساً مِنْ وِجْهَةِ مَرْكَزِ ٱلْمَرْأَةِ .

عَلَىٰ حِينٍ ، كَانَتْ حَالَةُ ٱلنِّسَاءِ عِنْدَ ٱلْيَهُودِ وَٱلْعَرَبِ غَيْرِ ٱلْمُسْتَعْرِبَةِ نِهَايَةً فِي ٱلانْحِطَاطِ وَٱلْمَهَانَةِ وَٱلسُّوءِ ، فَقَدْ كَانَتِ ٱلْفَتَاةُ ٱلْيَهُودِيَّةُ فِي بَيْتِ أَبِيهَا فِي مَكَانِ ٱلْخَادِمِ لا أَكْثَرَ وَلا أَقَلَّ ، وَكَانَ لأَبِيهَا أَنْ يَبِيعَها فِي ٱلسُّوقِ إِنْ كَانَتْ قَاصِرَةً ، وَلأَبْنَائِهِ ٱلذُّكْرَانِ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِي أَمْرِها كَمَا تَشَاء أَهْوَاؤُهُم ، وَكَانَتِ ٱلْفَتَاةُ لا تَرِثُ أَبَوَيْهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ وَحِيدَةً لا ذُكُورَ مَعَهَا ، وَكَانَ أَهْلُ ٱلْوَثَنِيَّةِ ٱلْقَدِيمَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ مِنْ جَرَّاءِ تَأْثِيرِ ٱخْتِلاطِهِمْ بِٱلْبُلْدَانِ ٱلْمُحِيطَةِ بِهِمْ يَعُدُّونَ ٱلْمَرْأَةَ سِلْعَةً وَمِلْكاً مِنْ سِلَعِ ٱلرَّجُلِ وَأَمْلاكِهِ ، وَكَانَتِ ٱلأَرَامِلُ تَنْتَقِلُ بَعْدَ مَوْتِ بُعُولَتِهِنَّ إِلَىٰ حَوْزَةِ أَبْنَائِهِمْ بِحَقِّ ٱلإِرْثِ .

وَكَانَ ذَلِكَ مَنْشَأَ زِيجَاتٍ كَبِيرَةٍ بَيْنَ أَبْنَاءِ ٱلزَّوْجِ وَأَرَامِلِ آبَائِهِمْ ، وَهِيَ ٱلَّتِي جَاءَ ٱلإِسْلامُ فَمَنَعَهَا ، وَسُمِّيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ « زَوَاجَ ٱلْمَقْتِ » ؛ وَتَمَادَتْ بِعَرَبِ

---

(١) هو الكتاب المقدس لأتباع زرادشت Zoroaster = Zarathustro .

ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ ٱلْكَرَاهِيَّةُ لِلنِّسَاءِ حَتَّىٰ جعَلُوا يَئِدُونَ ٱلْبَنَاتَ وَيَدُسُّونَ ٱلْوَلائِد ٱلإِنَاثَ في ٱلثَّرَىٰ أَحْيَاءَ ، وَهَذِهِ ٱلْعَادَةُ ٱلشَّنْعَاءُ ٱلَّتِي كانَتْ سَائِدَةً بَيْنَ أَهْلِ قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ كِنْدَةَ حَارَبَهَا ٱلإِسْلامُ وَشَدَّدَ مُحَمَّدٌ ٱلتَّنْكِيرَ عَلَيْهَا ، وَٱسْتَنَّ لَهَا ٱلْعُقُوبَةَ ٱلصَّارِمَةَ وَٱلْمُثْلاتِ ٱلشَّدِيدَةَ ، وَكَذَلِكَ قُلْ عَنْ عَادَةِ تَقْرِيبِ ٱلأَطْفَالِ قَرَابِينَ لآلِهَتِهِمْ .

وَكَانَ مَكَانُ ٱلْمَرْأَةِ فِي دَوْلَةِ ٱلْفُرْسِ ، وَكَذَلِكَ في دَوْلَةِ بِيزَانْطَة حَقِيراً مَهِيناً في نِظَامِ ٱلْمُجْتَمَعِ ، وَٱنْبَرَىٰ قَوْمٌ مِنَ ٱلْمُتَهَوِّسِينَ ٱلدِّينِيِّينَ خَلَعَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسِيحِيَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ أَلْقَابَ ٱلْقِدِّيسِينَ وَٱلأَوْلِيَاءِ ٱلصَّالِحِينَ ، فَجَعَلُوا يَحُطُّونَ مِنْ قَدْرِ ٱلْمَرْأَةِ ، وَيُنْكِرُونَ فَضِيلَتَهَا ، وَيَحْكُمُونَ بِشَيْطَانِيَّتِهَا ، نَاسِينَ أَنَّ ٱلنَّقَائِصَ ٱلَّتِي رَأَوْهَا فِي ٱلْمَرْأَةِ لَيْسَتْ إِلَّا صُورَةَ أَذْهَانِهِمُ ٱلنَّاقِصَةِ ٱلصَّفْرَاءِ ٱلْمَرِيضَةِ مَعْكُوسَةً أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ .

فِي ذَلِكَ ٱلْعَهْدِ ، وَبِنَاءُ ٱلْمُجْتَمَعِ يَكَادُ يَخِرُّ إِلَىٰ ٱلأَرْضِ ، وَيَنْتَقِضُ حَجَراً حَجَراً ، وَٱلرَّابِطَةُ ٱلَّتِي كَانَتْ تَرْبِطُ ذَلِكَ ٱلْبِنَاءَ هَاوِيَةٌ مُتَحَلِّلَةٌ ، ظَهَرَ مُحَمَّدٌ بِتَعَالِيمِهِ ٱلْجَدِيدَةِ وَسُنَنِهِ ٱلصَّالِحَةِ ، فَوَضَعَ ذَلِكَ ٱلنَّبِيُّ ٱلْكَرِيمُ ٱلْمَبْدَأَ ٱلأَوَّلَ فِي رَأْسِ تَعَالِيمِهِ ٱلْوُصَاةَ بِٱلنِّسَاء وَٱحْتِرَامِهِنَّ ، وَتَغَلْغَلَ أَثَرُ ذَلِكَ ٱلْمَبْدَأِ في صَحَابَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَأَنْصَارِهِ ، فَأَسْمُوا ٱبْنَةَ ٱلنَّبِيِّ تَقْدِيراً لِمَكَانَتِهَا وَإِجْلالاً لِطُهْرِهَا وَقَدَاسَتِهَا : « سَيِّدَةَ شَبَابِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ » ، وَفَاطِمَةَ ٱلزَّهْرَاءَ ؛ ثُمَّ قَفَتْ عَلَىٰ آثَارِ ٱبْنَةِ ٱلنَّبِيِّ طَائِفَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ ٱلنِّسَاءِ أَعْلَيْنَ مِنْ شَأْنِ جِنْسِهِنَّ لِفَضِيلَتِهِنَّ وَمَزَايَاهُنَّ ، وَمِنْ بَيْنِ ٱلشَّرَائِعِ ٱلَّتِي دَعَا إِلَيْهَا ٱلنَّبِيُّ وَسَنَّهَا مَنْعُهُ عَادَةَ ٱلزِّيجَةِ ٱلْوَقْتِيَّةِ ، زَوَاجِ ٱلْمُتْعَةِ ، وَلَئِنْ كَانَ قَدْ أَبَاحَهَا ٱضْطِرَاراً فِي مَبْدَأِ ٱلأَمْرِ ، لَقَدْ عَادَ فَحَرَّمَهَا تَحْرِيماً في ٱلْعَامِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ ، بَلْ لَقَدْ وَضَعَ مُحَمَّدٌ لِلنِّسَاءِ حُقُوقاً لَمْ تَكُنْ لَهُنَّ مِنْ

قَبْلُ ، وَأَسَّسَ لَهُنَّ ٱمْتِيَازَاتٍ سَيُدْرِكُ ٱلْعَالَمُ قِيمَتَهَا عَلَى مَمَرِّ ٱلزَّمَنِ ، بَلْ لَقَدْ رَفَعَهُنَّ مِنْ وَهْدَتِهِنَّ ، فَسَوَّىٰ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ٱلرِّجَالِ فِي ٱلْوَظَائِفِ وَٱلْحُقُوقِ ، وَكَسَرَ مِنْ شَوْكَةِ تَعَدُّدِ ٱلأَزْوَاجِ ، فَوَضَعَ حَدّاً لِعَدَدِ ٱلزَّوْجَاتِ ٱلَّتِي يَجُوزُ لِلرَّجُلِ ٱلابْتِنَاءُ بِهِنَّ مَعاً ، وَلا نَنسىٰ أَنَّ ٱلآيَةَ ٱلَّتِي جَاءَتْ في ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ لِتَحْدِيدِ عَدَدِ ٱلزَّوْجَاتِ وَإِبَاحَةِ ٱلزَّوَاجِ بِأَرْبَعِ نِسْوَةٍ ، إِنَّما عُقِّبَتْ بِآيَةٍ أُخْرَىٰ ، وَهِي : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣] فَإِنَّ هَذَا ٱلشَّرْطَ مِنَ ٱلأَهَمِّيَّةِ بِمَكانٍ عَظِيمٍ[1] ، وَلَمْ يُغْفِلْ قِيمَتَهُ عُلَمَاءُ ٱلإِسْلامِ وَسَادَاتُ ٱلدِّينِ ، فَفِي ٱلْقَرْنِ ٱلثَّالِثِ مِنَ ٱلْهِجْرَةِ جَعَلَ عُلَمَاءُ ٱلإِسْلامِ في عَهْدِ ٱلْمَأْمُونِ يُعَلِّمونَ ٱلنَّاسَ أَنَّ مَبَادِىءَ ٱلْقُرْآنِ إِنَّما تَبُثُّ فِكْرَةَ ٱلاقْتِصَارِ عَلَىٰ زَوْجٍ وَاحِدَةٍ وَتُوحِي إِلَىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلاسْتِمْسَاكَ بِتِلْكَ ٱلْفِكْرَةِ ، وَأَنَّهَا في صَفِّ فَرْدِيَّةِ ٱلزَّوَاجِ ، وَعَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنَ ٱلاضْطِهَادَاتِ ٱلَّتِي حَمَلَ بِهَا ذَلِكُمُ ٱلْخَلِيفَةُ ٱلْمَمْرُورُ « ٱلْمُتَوَكِّل » عَلَىٰ أُولَئِكَ ٱلْعُلَمَاءُ وَمَنَعَ بِهَا ٱنْتِشَارَ تِلْكِ ٱلتَّعَالِيمِ ٱلَّتِي بَثُّوها في ٱلنَّاسِ وَٱلْمَبَادِىءِ ٱلَّتِي نَادُوا ٱلْجَمَاهِيرَ إِلَيْهَا ، فَإِنَّ ٱلاعْتِقَادَ بِصِحَّةِ تِلْكَ ٱلْمَبادِىءِ لا يَزَالُ يَنْشُرُ نَفْسَهُ في كُلِّ مَكانٍ ، وَيُكْرِهُ ٱلْجَمِيعَ عَلَىٰ ٱلاقْتِنَاعِ بِهِ ، وَيُوحِي إِلَىٰ ٱلْجَمَاعَاتِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ٱلْمُسْتَنِيرَةِ ٱلْمُهَذَّبَةِ أَنَّ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ يُنَاقِضُ تَعَالِيمَ ٱلإِسْلامِ كَمَا هُوَ مُنَاقِضُ لِتَقَدُّمِ ٱلْمُجْتَمَعِ ٱلْمُتَحَضِّرِ وَٱلآدَابِ ٱلْخُلُقِيةِ ٱلْحَقَّةِ وَٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلحَدِيثَةِ .

وَيَنْبَغِي أَلَّا يَنْسَىٰ ٱلنَّاسُ أَنَّ وُجُودَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ يَتَوَقَّفُ عَلَىٰ ظُرُوفٍ خَاصَّةٍ وَأَحْوَالٍ مُعَيَّنَةٍ وَأَزْمِنَةٍ مَعْلُومَةٍ تَجْعَلُ ٱلْعَمَلَ بِهِ لِزَاماً وَأَمْراً لا بُدَّ مِنْهُ لِحِمَايَةِ ٱلْعُنْصُرِ ٱلنِّسَائِيِّ مِنْ شَرِّ ٱلْجُوعِ وَٱلْفَاقَةِ ، وَإِذَا صَحَّتِ ٱلتَّقَارِيرُ وَصَدَقَتِ ٱلإِحْصَائِيَّاتُ ٱلَّتِي بَيْنَ أَيْدِينا ، فَإِنَّ أَغْلَبَ ٱلْفَسَادِ ٱلْخُلُقِيِّ وَٱلإِبَاحِيَّةِ وَتَهَدُّمِ

---

(١) [ وَهَذِهِ ٱلآيَةُ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ ٱلأَصْلَ هُوَ ٱلتَّعَدُّدُ ، وَأَنَّ ٱلاسْتِثْنَاءَ هُوَ ٱلاكْتِفَاءُ بِوَاحِدَةٍ . بسام ] .

ٱلْمَبَادِىءِ ٱلأَدَبِيَّةِ ٱلْمُتَفَشِّيَةِ فِي أَكْبرِ حَوَاضِرِ ٱلْمَدَنِيَّةِ فِي بِلادِ ٱلْفِرَنْجَةِ لا مَنْشَأَ لَهُ إِلَّا ٱلْفَاقَةُ ٱلشَّدِيدَةُ وَقَدْ أَبَانَ ٱلأَبُ هُوك وَٱلسَّيِّدَةُ دو غُوْرْدُون فِي تَوَالِيفِهِمَا أَنَّ مُجَرَّدَ ٱلْحَاجَةِ فِي أَكْثَرِ ٱلأَحَايِين يَدْفَعُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَشْرِقِ إِلَىٰ ٱتِّبَاعِ فِكْرَةِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ . . .

* * *

١٦٠٣ ـ وَبَعْدُ ؛ فَإِنَّهُ عَلَىٰ تَقَدُّمِ ٱلْفِكْرِ وَٱرْتِقَائِهِ وَتَقَلُّبَاتِ هَٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُسْتَمِرَّةِ ، وَتَطَوُّرَاتِ أَحْوَالِهِ ٱلْمُتَعَاقِبَةِ : تَنْمَحِي ضَرُورَةُ ٱلْحَاجَةِ إِلَىٰ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ، وَتبْطُلُ هَٰذِهِ ٱلْعَادَةُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهَا ، أَوْ تُبْطِلُهَا ٱلْقَوَانِينُ وَٱلشَّرَائِعُ[1] . وَمِنْ ثَمَّ نَرَىٰ أَنَّهُ فِي ٱلْبِلادِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ٱلَّتِي قَدْ أَخَذَتْ تَنْمَحِي فِيهَا تِلْكَ ٱلأَسْبَابُ ٱلَّتِي كانَتْ قَدِ ٱسْتَلْزَمَتْ تَعَدُّدَ ٱلزَّوْجَاتِ فِي بَادِىءِ ٱلأَمْرِ ، قَدْ أَصْبَحَتْ هَٰذِهِ ٱلعَادَةُ تُعَدُّ شَرّاً وَنُكْراً ، وَنِظَاماً مُنَافِياً لِتَعالِيمِ ٱلرَّسُولِ ! بَيْنَمَا فِي ٱلْبِلادِ ٱلَّتِي أَحْوَالُ ٱلْمُجْتَمَعِ فِيهَا خلافُ ذَٰلِكَ ، وَٱلَّتِي يَنْعَدِمُ فِيهَا مِنْ وَسَائِلِ مُعَاوَنَةِ ٱلْمَرْأَةِ نَفْسِهَا بِنَفْسِهَا مَا هُوَ مُتَوَفِّرٌ فِي ٱلْبِلادِ ٱلأَعْظَمِ رُقِيّاً وَٱلأَرْقَىٰ تَمَدُّنَاً ، نَرَىٰ أَنَّ مَذْهَبَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ هُوَ مِمَّا لا بُدَّ مِنْهُ وَلا مَنَاصَ عَنْهُ .

وَلَمَّا كَانَتْ حُرِّيَّةُ ٱلتَّفْسِيرِ تَتْرُكُ مَجالًا وَاسِعاً لِاخْتِلافِ أَرْبَابِ ٱلْفَتَاوَىٰ ، فَسَيَكُونُ مِنَ ٱلصَّعْبِ جِدّاً إِبْطَالُ ٱلْمَذْهَبِ ٱلتَّعَدُّدِيِّ إِبْطالًا تَامّاً . وَنَحْنُ لا نُنْكِرُ مَا لِهَذَا ٱلاعْتِرَاضِ مِنْ قُوَّةِ ٱلْحُجَّةِ وَصَرَامَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِٱلْتِفَاتِ مَن كَانَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَبْغِي خَلاصَ ٱلتَّعَالِيمِ ٱلإِسْلامِيَّة مِمَّا لَحِقَهَا مِنَ ٱلانْتِقَاصِ وَٱلْعَيْبِ ، وَيُرِيدُ ٱلتَّمَشِّي مَعَ رُوحِ ٱلْعَصْرِ وَٱلْمَدَنِيَّةِ ٱلْحَدِيثَةِ ، عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَفُوتُنَا أَنَّ مُرُونَةَ ٱلْقَوَانِينِ وَٱلشَّرَائِعِ هِيَ أَنْصَعُ دَلِيلٍ عَلَىٰ نَفْعِهَا وَفَائِدَتِهَا ، وَهَٰذِهِ ٱلْمُرُونَةُ

(١) [ هَٰذَا كَلامٌ غَرِيبٌ مُنْكَرٌ ، فَإِنَّ مَا أَبَاحَهُ ٱلدِّينُ لا تُبْطِلُهُ ٱلْقَوَانِينُ . بسام ] .

هِي أَعْظَمُ مَزَايَا ٱلشَّرِيعَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ، فَهَذِهِ ٱلشَّرِيعَةُ مُلائِمَةٌ عَلَىٰ ٱلسَّوَاءِ لِمَطَالِبِ أَرْقَى ٱلشُّعُوبِ وَأَشَدِّهَا تَهَذُّباً وَلِاحْتِيَاجَاتِ أَوْضَعِهَا وَأَحَطِّهَا مَدَنِيَّةً ، وَٱلشَّرِيعَةُ ٱلإِسْلامِيَّةُ لا تَتَجَاهَلُ مَطَالِبَ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْمُتَطَوِّرَةِ ٱلْمُتَدَرِّجَةِ كَمَا أَنَّهَا لا تَتَجَاهَلُ أَيْضاً أَنَّ فِي ٱلدُّنْيَا شُعوباً قَدْ يُصْبِحُ بَيْنَهُمْ مَذْهَبُ تَوْحِيدِ ٱلْمَرْأَةِ آفَةً وَشَرّاً . بَيْدَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِلْغَاءِ « تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ » لَيْسَ مِنَ ٱلصُّعُوبَةِ كَمَا يُتَوَهَّمُ ، وَلا خَفَاءَ فِي أَنَّ شَرَّ مَا نُكِبَتْ بِهِ ٱلشُّعُوبُ ٱلإِسْلامِيَّةُ مِنَ الآفَاتِ وَٱلْمَصَائِبِ إِنَّمَا أَتَاهُمْ مِنْ نَاحِيَةِ ٱلْمَذْهَبِ ٱلتَّقْلِيدِيِّ ( ٱلْوُقُوفُ عِنْدَ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلأَرْبَعَةِ ) ٱلَّذِي حَرَّمَ ٱلاسْتِقْلالَ بِٱلرَّأْيِ ٱلْفَرْدِيِّ ( ٱلاجْتِهَادِ ) ، وَلَيْسَ بِبَعِيدٍ ذَلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي يُرْجَعُ فِيهِ إِلَىٰ نَصِّ ٱلْقُرْآنِ ذاتِهِ لِلْفَصْلِ فِيمَا إِذَا كَانَ ٱلْوَاجِبُ عَلَىٰ ٱلْمُسْلِمِ أَنْ يَأْخُذَ بِصَرِيحِ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ وَحَقِيقِ مَعَانِيهَا أَوْ بِتَأْوِيلاتِ ٱلأَئِمَّةِ ٱلَّذِينَ تَوَسَّلُوا بِٱسْمِ ٱلنَّبِيِّ إِلَىٰ إِرْضَاءِ أَهْوَائِهِمُ ٱلذَّاتِيَّةِ ، أَوْ إِلَىٰ تَأْيِيدِ أَوَامِرِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلسَّلاطِينَ ٱلَّذِينَ كَانَ أُولَئِكَ ٱلأَئِمَّة بَعْضُ خُدَّامِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ[1] . وَلَقَدْ كَابَدَتْ أُورُبَّة عَيْنَ هَذِهِ ٱلصُّعُوبَاتِ وَٱلْمَشَاقِّ ، وَٱقْتَحَمَتْ عَيْنَ هَاتِيكِ ٱلْعَقَبَاتِ وَٱلْحَوَائِلِ ، فَكَانَ أَوْلَىٰ بِهَا مِنْ قَذْفِ ٱلإِسْلام بِهَذِهِ ٱلْمَطَاعِنِ وَٱلْمَسَالِبِ أَنْ تَرْقُبَ بِعَيْنِ ٱلْعَطْفِ وَٱلرِّفْقِ ، وَتَلْحَظَ بِنَاظِرِ ٱلتَّمَهُّلِ وَٱلتَّأَنِّي ، مَا تَبْذُلُه ٱلشُّعُوبُ ٱلإِسْلامِيَّة ٱلنَّاهِضَةُ ٱلْمُتَحَفِّزَةُ مِنَ ٱلْمَجْهُودَاتِ ٱلْجَسِيمَةِ فِي سَبِيلِ ٱلتَّخَلُّصِ مِنْ رِقِّ ٱلْمَذْهَبِ ٱلتَّقْلِيدِيِّ ؛ وَمَتَىٰ تَمَّ لِلإِسْلامِ هَذَا ، فَهَبَّ وَٱنْتَعَشَ ، وَنَفَضَ عَنْهُ غُبَارَ ٱلأَفْكَارِ ٱلْعَتِيقَةِ ، وَصَدَعَ

---

(١) [ هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ ، يُكَذِّبُهُ ٱلْوَاقِعُ وَٱلتَّارِيخُ ، فَلَمْ يَكُنْ الإِمَامُ أَحْمَدُ ٱبْنُ حَنْبَلٍ ، وَهُوَ أَحَدُ أَئِمَّةِ ٱلْفُقَهَاءِ ، خَادِماً وَلا صَنِيعةً لأَحَدٍ ، بَلْ أُوذِيَ وَعُذِّبَ ، لِثَبَاتِهِ عَلَىٰ مَوْقِفِهِ وَالجَهْرِ بِحُكْمِ ٱلشَّرِيعَةِ ، وَكَذَلِكَ بَاقِي ٱلأَئِمَةِ ؛ وَمَا ذُكِرَ لَيْسَ سِوَىٰ بَهْرَجٍ وَزِيفٌ يُكَذِّبُهُ عَمَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ مُنْذُ بِدَايَةِ ٱلإِسْلامِ إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ . بسام ] .

قُيُودَ ٱلْعَقَائِدِ ٱلْقَدِيمَةِ ، أَصْبَحَ مِنَ ٱلسَّهْلِ عَلَىٰ مُشَرِّعِي[1] كُلِّ أُمَّةٍ إِسْلامِيَّةٍ أَنْ تُلْغِي بِأَمْرِ حُكُومَتِهَا مَذْهَبَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ فِي بِلادِهَا . وَلَكِنَّ هَذَا ٱلْحَدَّ مِنَ ٱلْكَمَالِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْتُجَ إِلَّا عَنْ رُقِيٍّ عَامٍّ في ٱكْتِنَاهِ حَقَائِقِ ٱلْحَيَاةِ وَأُمَّهَاتِ ٱلْمَسَائِلِ وَتَفَهُّمِ أَسْرَارِ مَعَانِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُقَدَّسِ . وَلا أَرَانِي مُبَالِغاً إِذَا قُلْتُ : إِنَّ مَذْهَبَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ آخِذٌ فِي ٱلاضْمِحْلالِ أَوْ سَيَضْمَحِلُّ سَرِيعاً تَحْتَ أَشِعَّةِ ضِيَاءِ ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي أَصْبَحَتْ تُؤَوَّلُ بِهِ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ .

وَكَذَلِكَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ مُلائَمَةَ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ لِكُلِّ دَوْرٍ مِنْ أَدْوَارِ ٱلتَّمَدْيُنِ وَكُلِّ طَوْرٍ مِنْ أَطْوَارِ ٱلرُّقِيِّ تَشْهَدُ بِمَا أُوتِي صَاحِبُهَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ ٱلسَّدَادِ وَٱلْحِكْمَةِ . فَنَحْنُ نَرَىٰ أَنَّهُ فِي ٱلشُّعُوبِ ٱلإِسْلامِيَّةِ غَيْرِ ٱلْبَالِغَةِ دَرَجَةً مَذْكُورَةً مِنَ ٱلتَّمَدْيُنِ أَنَّ ٱلْقُيُودَ وَٱلْحُدُودَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا ٱلرَّسُولُ عَلَىٰ مَذْهَبِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ قَدْ حَالَتْ دُونَ مَصِيرِ هَذَا ٱلْمَذْهَبِ آفَةً وَشَرّاً عَلَىٰ تِلْكَ ٱلشُّعُوبِ ، فَإِنَّ ٱلْمَذْهَبَ ٱلْمَذْكُورَ هُوَ بِلا شَكٍّ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ مِنْ تِلْكَ ٱلْعَوَائِدِ وَٱلتَّقَالِيدِ وَٱلأَسَالِيبِ ٱلإِبَاحِيَّةِ ٱلدَّالَّةِ عَلَىٰ ٱلتَّجَرُّدِ ٱلتَّام مِنْ كُلِّ مَسْؤُولِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ ، وَٱلتَّمَلُّصِ ٱلْكَامِلِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ أَخْلاقِيٍّ ، وَقَدْ شُوهِدَ أَنَّهُ بِتَقَدُّمِ ٱلْعُلُومِ وَٱلْمَعَارِفِ يَزْدَادُ ٱلشُّعُورُ بِسُوءِ مَوْقِعِ ٱلآفَاتِ ٱلنَّاجِمَةِ عَنْ مَذْهَبِ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ ، وَتَزْدَادُ تِلْكَ ٱلآفَاتُ وُضُوحاً وَتَقْتَرِبُ ٱلأَذْهَانُ مِنْ إِدْرَاكِ مَعْنَىٰ ٱلتَّحْرِيمِ لِذَلِكَ ٱلْمَذْهَبِ ، وَيَدْنُو عَلَىٰ مُتَنَاوَلِ ٱلأَفْهَامِ مَاهِيَّةُ ٱلْغَرَضِ مِنْ إِلْغَائِهِ . وَنَحْنُ لا يَسَعُنَا قَطُّ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّ مُسْلِمِي ٱلْهِنْدِ قَدِ ٱسْتَفَادُوا كَثِيراً مِنَ ٱلاخْتِلاطِ بِٱلْبَرَاهِمَةِ ٱلَّذِينَ قَدْ حُلِّلَ بَيْنَهُمْ مَذْهَبُ ٱلسِّفَاحِ ،

(١) [ لِيُلاحَظْ أَنَّ أَغْلَبَ ٱلرِّجَالِ ٱلَّذِينَ يَدْخلُوْنَ ٱلسُّلْطَةَ ٱلتَّشْرِيعِيَّةِ ، يَكُونُوا مُعَدِّدِي ٱلزَّوْجَاتِ ، أَوْ أَنَّهُمْ يُعَدِّدُونَهُنَّ بَعْدَ أَنْ يُصْبِحُوا مِنَ ٱلسُّلْطَةِ ٱلتَّشْرِيعِيَّةِ ! تَجِدُ صِدْقَ قَوْلِي بِٱلنَّظَرِ إِلَىٰ أَعْضَاءِ مَجَالِسِ ٱلشُّعُوبِ ٱلْعَرَبِيَّةِ عَلَىٰ سَبِيلِ ٱلْمِثَالِ . بسام] .

فَإِنَّ هَؤُلاءِ ٱلطَّوَائِفَ مِنَ ٱلْهُنُودِ قَدْ تَرَاخَتْ عِنْدَهُمْ بِسَبَبِ تِلْكَ ٱلْمَبَادِىءِ ٱلأَخْلَاقِيَّةِ ، وَتَلَوَّثَتْ بَيْنَهُمْ نَقَاوَةُ ٱلْعَقِيدَةِ في وُجُوبِ طَهَارَةِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ ٱلْبَشَرِيَّةِ وَرِفْعَةِ الشَّرَفِ ٱلإِنْسَانِيِّ ، وَقَدْ أَصْبَحَ ٱلْفُسْقُ وَٱلْفُجُورُ مَأْلُوفاً لَدَيْهِمْ ، كَإِلْفَتِهِ لَدَىٰ جِيرَانِهِمْ مِنَ ٱلْوَثَنِيِّينَ ، عَلَىٰ أَنَّ لَدَيْنَا مِنَ ٱلشَّوَاهِدِ مَا يَحْمِلُنَا عَلَىٰ ٱلظَّنِّ بِأَنَّ نُورَ ٱللهِ جَلَّ شَأْنُهُ ٱلَّذِي أَضَاءَ بِلَادَ ٱلْعَرَبِ فِي ٱلْقَرْنِ ٱلسَّابِعِ سَوْفَ يَنْزِلُ عَلَىٰ قُلُوبِ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ٱلضَّالَّةِ فَيُخْرِجُهُمْ مِنْ دَيَاجِيرِ مَا يَغْشَاهُمُ ٱلْيَوْمَ مِنْ تِلْكَ ٱلْجَهَالَةِ وَٱلْعَمَايَةِ . وَلا مِرَاءَ في أَنَّ كَرَاهَةَ تَعَدُّدِ ٱلزَّوْجَاتِ قَدْ أَصْبَحَتِ ٱلْيَوْمَ عَقِيدَةً رَاسِخَةً ٱجْتِمَاعِيَّةً إِنْ لَمْ تَكُنْ أَخْلاقِيَّةً . وَفِي ٱلْبِلادِ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلظُّرُوفِ ٱلْقَهْرِيَّةِ مَعَ مَا بِهَا مِنْ تِلْكَ ٱلْكَرَاهِيَّةِ لِلْمَذْهَبِ ٱلتَّعَدُّدِيِّ ٱلآنِفِ ٱلذِّكْرِ مَا يَتَّجِهُ إِلَىٰ ٱقْتِلاعِ هَذَا ٱلْمَذْهَبِ مِنْ أُمَمِ ٱلْهِنْدِ ٱلإِسْلامِيَّةِ ، فَقَدْ أَصْبَحَ مِنَ ٱلشَّائِعِ بَيْنَ جَمِيعِ هَذِهِ ٱلأُمَمِ أَنْ يُدَوَّنَ فِي عَقْدِ ٱلزَّوَاجِ فَقْرَةٌ تَنُصُّ عَلَىٰ أَنَّ ٱلزَّوْجَ يَتَعَهَّدُ بِٱلتَّنَازُلِ عَنْ كُلِّ حَقِّهِ ٱلْمَفْرُوضِ فِي ٱلتَّزَوُّجِ مِنْ أَيِّ ٱمْرَأَةٍ أُخْرَىٰ طُولَ ٱسْتِمْرَارِ ٱلزِّيْجَةِ ٱلأُولَىٰ .

وَنَحْنُ نَرَىٰ أَنَّ ـ ٩٥ فِي المِئَةِ ـ مِنْ مُسْلِمِي ٱلْهِنْدِ ٱلآنَ كُلَّهُمْ عَلَىٰ مَذْهَبِ تَوْحِيدِ ٱلزَّوْجَة ، إِمَّا عنْ عَقِيدَةٍ أَوْ ضَرُورَةٍ . أَمَّا بَيْنَ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلْمُهَذَّبَةِ ٱلْعَلِيمَةِ بِتَارِيخِ أَسْلافِهَا ٱلْقَادِرَةِ عَلَىٰ ٱلْمُقَارَنَةِ بَيْنَ هَذَا ٱلتَّارِيخِ وَتَارِيخِ غَيْرِهَا مِنَ ٱلأُمَمِ فَإِنَّ ٱلْمَذْهَبَ ٱلتَّعَدُّدِيَّ مَكْرُوهٌ غَيْرُ مُسْتَصْوَبٍ .

وَكَذَلِكَ فِي بِلادِ ٱلْفُرْسِ ، نَرَىٰ أَنَّ نِسْبَةً قَلِيلَةً جِدّاً مِنَ ٱلسُّكَانِ ـ ٢ في ٱلْمِئَةِ ـ هُمُ ٱلَّذِينَ يَتَمَتَّعُونَ بِلَذَّةِ ٱلمَذْهَبِ ٱلْمَشْكُوكِ فِي صِحَّتِهِ ، وَٱلَّذِي يَرْجُوهُ ٱلْعُقَلاءُ مِنْ صَمِيمِ أَفْئِدَتِهِمْ ، أَنَّهُ لَنْ يَمْضِيَ إِلَّا قَلِيلٌ مِنَ ٱلْوَقْتِ حَتَّىٰ نُبْصِرَ أَئِمَّةَ ٱلدِّينِ قَدِ ٱجْتَمَعُوا ، فَقَرَّرُوا نِهَائِياً قَرَاراً سَارِيَ ٱلْمَفْعُولِ ، نَافِذَ ٱلْحُكْمِ ، أَنَّ

ٱلْمَذْهَبَ ٱلتَّعَدُّدِيَّ ، كَٱلرِّقِّ ، مَكْرُوهٌ في نَظَرِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلإِسْلامِيَّةِ .

وَٱلآنَ نَنْتَقِلُ إِلَىٰ مَسْأَلَةِ زِيجَاتِ ٱلنَّبِيِّ ٱلَّتِي قَدْ جَعَلَهَا ذَوُو ٱلْجَهْلِ بِٱلْحَقَائِقِ ٱلْمُقَرَّرَةِ أَوْ ذَوُو ٱلإِنْكَارِ لَهَا ، مَيْلًا مَعَ ٱلْهَوَىٰ ، وَقِلَّةَ نَزَاهَةٍ ، حُجَّةً لِتَوْجِيهِ ٱلْمَطَاعِنِ ضِدَّ مُحَمَّدٍ ، فَقَدِ ٱحْتَجَّ ٱلْمُعْتَرِضُونَ مِنَ ٱلنَّصَارَىٰ بِأَنَّ مُحَمَّداً بِكَثْرَةِ زِيجَاتِهِ قَدْ خَصَّ نَفْسَهُ بِمَا لَمْ تُبِحْهُ ٱلشَّرِيعَةُ مِنَ ٱلْمَلاذِّ ، فَأَظْهَرَ بِذَلِكَ مِنْ وَهْنِ ٱلْعَزِيمَةِ وَقِلَّةِ ٱلْحَزْمِ مَا يُنَافِي وَاجِبَاتِ ٱلرُّسُلِ وَسِيَرَ ٱلأَنْبِيَاءِ . وَلَكِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ ٱلأَمْرَ بِبَصِيرَةِ ٱلْوَاسِعِ ٱلاطِّلاعِ عَلَىٰ ٱلْحَقَائِقِ ٱلتَّارِيخِيَّةِ وَإِنْصَافِ ٱلْحُكْمِ ٱلْعَادِلِ حَكَمَ قَطْعاً بِأَنَّ مُحَمَّداً لَمَّا تَحَمَّلَ عِبْءَ مُعَاوَنَةِ ٱلسَّيِّدَةِ ٱلْمُسِنَّةِ « ٱلسَّيِّدَةِ خَدِيجَةَ » بِتَزَوُّجِهِ إِيَّاهَا حَسْبَ ٱلنَّوَامِيسِ ٱلْقَدِيمَةِ ٱلْمُتَّبَعَةِ ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ فَقِيراً مُعْوِزاً كَانَ إِنَّمَا يُكَلِّفُ نَفْسَهُ تَضْحِيَةً ذَاتِيَّةً لا يُسْتَهَانُ بِهَا ، وَلا مِرَاءَ فِي أَنَّ مَنْ حَلَّلَ نَوَايَا مُحَمَّدٍ وَمَرَامِيهِ في ذَلِكَ ٱلصَّدَدِ تَحْلِيلًا تَامّاً مِنَ ٱلْوِجْهَةِ ٱلإِنْسَانِيَّةِ ٱلْمَحْضَةِ ٱلْمُجَرَّدَةِ مِنَ ٱلأَغْرَاضِ ٱلشَّخْصِيَّةِ تبين ٱلْكَذِبَ ٱلصُّرَاحَ وَسُوءَ ٱلنِّيَّةِ فِيمَا يُوَجَّهُ إِلَىٰ « بَطَلِ ٱلْعَرَبِ » مِنَ ٱلتُّهَمِ فِي ذَلِكَ ٱلشَّأْنِ .

نَقُولُ : إِنَّ مُحَمَّداً في ٱلْخَامِسَةِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، فِي زَهْرَةِ شَبَابِهِ ، تَزَوَّجَ خَدِيجَةَ ، وَكَانَتْ تَتَقَدَّمُ عَنْهُ فِي ٱلسِّنِّ بِمَرَاحِلَ ، وَقَدْ لَبِثَ مَعَهَا خَمْساً وَعِشْرِينَ عَاماً ، كَانَ سُلُوكُهُ مَعَهَا خِلالَهَا مَضْرِبَ ٱلْمَثَلِ فِي ٱلصِّدْقِ وَٱلإِخْلاصِ وَالأَمَانَةِ ، وَفِي ٱلرَّخَاءِ وَٱلصَّفَاءِ وَٱلسَّعَادَةِ ، وَمَا بَرِحَتْ خَدِيجَةُ أَثْنَاءَ مَا ٱنْهَالَ عَلَيْهِ مِنْ مَطَاعِنِ ٱلْوَثَنِيِّينَ وَإِسَاءَاتِهِمْ ، وَمِنْ مَظَالِمِهِمْ وَٱضْطِهَادَاتِهِمْ عَوْنَهُ ٱلْوَحِيدَ وَعَضُدَهُ وَسَاعِدَهُ ، لَمْ تُزَايِلْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَلَمْ تَأْلُ مُوَاسَاةً لَهُ وَمُؤَازَرَةً .

وَلَمَّا تُوُفِّيَتْ خَدِيجَةُ ، كَانَ مُحَمَّدٌ في ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْخَمْسِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَلا يُنْكِرُ أَعْدَاؤُهُ ، بَلْ عَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْهُمْ يُسَلِّمُونَ ، أَنَّ مُحَمَّداً لَبِثَ طُولَ هَذِهِ

ٱلْمُدَّةِ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ سَوْءَةٍ ، طَاهِرَ ٱلذَّيْلِ مِنْ كُلِّ مُدَنِّسَةٍ ، نَقِيَّ ٱلْجَيْبِ مِنْ كُلِّ لَوْثَةٍ ، نَاصِعَ ٱلصَّحِيفَةِ ، مَأْمُونَ ٱلْغَيْبِ ، وفي حَيَاةِ خَدِيجَةَ لَمْ يَتَزَوَّجْ مُحَمَّدٌ ٱمْرَأَةً قَطُّ غَيْرَهَا ؛ بِٱلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ عَادَاتِ ٱلْبِلادِ وَتَقَالِيدَهَا يَوْمَذَاكَ كَانَتْ تُخَوِّلُهُ هَذَا ٱلْحَقَّ لَوْ أَرَادَ .

وَبَعْدَ وَفَاةِ خَدِيجَةَ بِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ ، يَوْمَ عَادَ مُحَمَّدٌ مِنَ ٱلطَّائِفِ مُضْطَهَداً ، لَا عَوْنَ لَهُ وَلَا نَصِيرَ ، تَزَوَّجَ سَوْدَةَ بِنْتَ زُمْعَةٍ ، أَرْمَلَةَ رَجُلٍ مِنَ ٱلأَعْرَابِ[1] ، كَانَ قَدِ ٱعْتَنَقَ ٱلإِسْلامَ دِيناً ، ثُمَّ ٱضْطَرَّ إِلَىٰ ٱلْفِرَارِ إِلَىٰ ٱلْحَبَشَةِ هَرَباً مِنْ أَذَىٰ ٱلْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ مَاتَ هَذَا ٱلشَّرِيدُ فِي بِلادِ ٱلْغُرْبَةِ ، وَخَلَّفَ سَوْدَةَ أَرْمَلَةً لا عَائِلَ لَهَا وَلا نَاصِرَ ، فَلَمْ يَجِدْ مُحَمَّدٌ حَسْبَ عَادَاتِ ٱلْبِلادِ وَتَقَالِيدِهَا سَبِيلاً إِلَىٰ حِمَايَةِ ٱلْمَرْأَة أَوْ صِيَانَتِهَا أَوْ إِنْقَاذِهَا غَيْرَ ٱلتَّزَوُّجِ بِهَا ، وَلا مِرَاءَ فِي أَنَّ مَبَادِىءَ ٱلْمُرُوءَةِ وَٱلشَّرَفِ وَٱلإِنْسَانِيَّةِ ، وَبَوَاعِثَ ٱلرَّحْمَة وَٱلْعَطْفِ وَٱلرَّأْفَةِ ، كَانَتْ تَقْضِي عَلَىٰ ٱلرَّسُولِ بِذَلِكَ ، وَكَيْفَ لَا ، وَإِنَّمَا فِي سَبِيلِ مُحَمَّدٍ ، وَمِنْ أَجْلِه ، وَتَذَرُّعاً إِلَىٰ نَصْرِ دِينِهِ وَتَأْيِيدِهِ بَذَلَ زَوْجُهَا رُوحَهُ ، وَقَدْ لازَمَتْهُ زَوْجَتُهُ سَوْدَةُ في مَنْفَاهُ وَٱغْتِرَابِهِ وَأَيَّامِ مِحْنَتِهِ وَمُصَابِهِ ، ثُمَّ عَادَتْ إِلَىٰ مَكَّةَ مَضِيمَةً ، مَنْكُوبَةً ، مَهِيضَةَ ٱلْجَنَاحِ ، دَامِيَةَ ٱلْجِرَاحِ ، وَحِيدَةً ، مُسْتَوْحِشَةً ، فَرِيدَةً ؛ فَرَأَىٰ مُحَمَّدُ عَلَىٰ ٱلرَّغْمِ مِنْ فَرْطِ فَاقَتِهِ إِذْ ذَاكَ ، وَشِدَّةِ عَوَزِهِ وَٱحْتِيَاجِهِ ، حَتَّىٰ إِلَىٰ ٱلْقُوتِ ٱلضَّرُورِيِّ ، أَنَّهُ لا سَبِيلَ لإِنْقَاذِ ٱلْمِسْكِينَةِ إِلَّا ٱلتَّزَوُّجُ بِهَا .

* * *

### آيَةُ حُبِّ ٱلْمَرْأَةِ لِزَوْجِهَا وَبُغْضِهَا لَهُ ، وَبَعْضُ أَوْصَافِ ٱلْفَوَارِكِ :

١٦٠٤ ـ قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ فِي « ٱلْكَامِلِ » [صفحة : ٩٣٩] : وَيُقَالُ : إِنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا

---

(١) هُوَ ٱلسَّكْرَانُ بنُ عَمْرٍو .

كَانَتْ مُبْغِضَةً لِزَوْجِهَا فَآيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ عِنْدَ قُرْبِهِ مِنْهَا مُرْتَدَّةَ ٱلنَّظَرِ عَنْهُ ، كَأَنَّمَا تَنْظُرُ إِلَىٰ إِنْسَانٍ مِنْ وَرَائِهِ ، وَإِذَا كَانَتْ مُحِبَّةً لَهُ لا تُقْلِعُ عَنِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَإِذَا نَهَضَ نَظَرَتْ مِنْ وَرَائِهِ إِلَىٰ شَخْصِهِ حَتَّىٰ يَزُولَ عَنْهَا ، فَقَالَ رَجُلٌ : أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ حَالِي عِنْدَ ٱمْرَأَتِي ، فَٱلْتَفَتُّ وَقَدْ نَهَضْتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا ، فَإِذَا هِيَ تُكَلِّحُ فِي قَفَايَ . . .

تُكَلِّحُ ، مِنَ ٱلتَّكْلِيحِ ، وَهُوَ : تَكَشُّرٌ فِي عُبُوسٍ ، كَٱلْكُلُوحِ .

١٦٠٥ ـ وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ فِي هَذَا ٱلْمَعْنَىٰ ، وَٱلنَّوَارُ زَوْجُهُ تُخَاصِمُهُ عِنْدَ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ[1] [من الطويل] :

فَدُونَكَهَا يَا ٱبْنَ ٱلزُّبَيْرِ فَإِنَّهَا ... مُوَلَّعَةٌ يُوهِي ٱلْحِجَارَةَ قِيلُهَا

وَمَا خَاصَمَ ٱلأَقْوَامَ مِنْ ذِي خُصُومَةٍ ... كَوَرْهَاءَ مَشْنُوءٍ إِلَيْهَا حَلِيلُهَا

تَرَاهَا إِذَا ٱلْتَجَّ ٱلْخُصُومُ كَأَنَّهَا ... تَرَىٰ رُفْقَةً مِنْ خَلْفِهَا تَسْتَحِيلُهَا

---

(١) وَقَدْ كَانَتِ ٱلنَّوَارُ هَذِهِ قَدْ وَكَّلَتِ ٱلْفَرَزْدَقَ أَنْ يُنْكِحَهَا رَجُلًا خَطَبَهَا ، فَقَالَ : لا أَفْعَلُ أَوْ تُشْهِدِينَ أَنَّكِ قَدْ رَضِيتِ بِمَنْ زَوَّجْتُكِ ؛ فَفَعَلَتْ ، فَلَمَّا أَتَىٰ ٱلْخَاطِبُ وَٱلشُّهُودُ ، قَامَ ٱلْفَرَزْدَقُ ، فَحَمِدَ ٱللهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيهِ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ ٱلنَّوَارَ قَدْ وَلَّتْنِي أَمْرَهَا ، وَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهَا نَفْسِي عَلَىٰ مِئَةِ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ سُودِ ٱلْحَدَقِ ؛ فَأَبَتْ ، وَأَرَادَتِ ٱلشُّخُوصَ إِلَىٰ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ بِمَكَّةَ ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ ٱلْحِجَازِ وَٱلْعِرَاقِ ، يُدْعَىٰ لَهُ بِٱلْخِلافَةِ ، فَلَمْ تَجِدْ مَنْ يَحْمِلُهَا ، فَأَتَتْ فِتْيَةً يُقَالُ لَهُمْ بَنُو ٱلنُّسَيْرِ ؛ فَسَأَلَتْهُمْ بِرَحِمٍ تَجْمَعُهُمْ ، فَحَمَلُوهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ٱلْفَرَزْدَقَ ، فَتَبِعَهَا ، وَقَالَ أَبْيَاتاً ، مِنْهَا ٱلأَبْيَاتُ ٱلثَّلاثَةُ ٱلَّتِي أَوْرَدْنَاه ، وَهِيَ فِي بَنِي ٱلنُّسَيْرِ ٱلَّذِينَ حَمَلُوهَا ، فَلَمَّا قَدِمَتْ مَكَّةَ نَزَلَتْ عَلَىٰ زَوْجِ ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، وَٱسْتَشْفَعَتْ بِهَا إِلَىٰ زَوْجِهَا ٱبْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، وَٱسْتَشْفَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ بِحَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، وَبَعْدَ لأْيٍ زَوَّجَهُ عَبْدُ ٱللهِ إِيَّاهَا ، فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ : خَرَجْنَا مُتَبَاغِضَيْنِ وَرَجَعْنَا مُتَحَابَّيْنِ ؛ ثُمَّ خَرَجَ بِهَا مِنْ مَكَّةَ ، وَكَانَتْ لا تَزَالُ تُشَارُّهُ وَتُخَالِفُهُ ، لأَنَّهَا كَانَتْ صَالِحَةً ، حَسَنَةَ ٱلدِّينِ ، وَكَانَتْ تَكْرَهُ كَثِيراً مِنْ أَمْرِهِ ، فَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا غَيْرَهَا ، وَأَخِيراً طَلَّقَهَا ، وَتَرَىٰ خَبَرَ طَلاقِهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ هَذَا ٱلْكِتَابِ ٱنْظُرْ حَدِيثَ تَزْوِيجِهَا مِنَ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي « ٱلأَغَانِي » ج٩ ، طَبْعَةُ دَارِ ٱلْكُتُبِ .

=

مُولَّعَةٌ ، أَيْ : مُولَعَةٌ بِٱلنَّظَرِ مَرَّةً هَا هُنَا وَمَرَّةً هَا هُنَا ؛ وَٱلْوَرْهَاءُ : ٱلْحَمْقَاءُ ؛ وَمَشْنُوءٌ : مَكْرُوهٌ بَغِيضٌ ؛ وَحَلِيلُهَا : زَوْجُها ؛ وَٱلرِّفْقَةُ : ٱلْقَوْمُ ٱلْمُجْتَمِعُونَ فِي مَجْلِسٍ أَوْ مَسِيرٍ ، فَإِذَا مَا تَفَرَّقُوا زَالَ عَنْهُم ذَلِكَ ٱلاسْمِ ؛ وَتَسْتَحِيلُهَا ، أَيْ : تَتَبَيَّنُ حَالَاتِهَا ؛ قَالَ حَمِيْدُ بْنُ ثَوْرٍ [من المتقارب] :

مُـــرَوَّعَـــةٌ تَسْتَحِيـــلُ ٱلشُّخُـــوصَ مِـــنَ ٱلْخَـــوْفِ تَسْمَـــعُ مَـــا لَا تَـــرَىٰ

* * *

١٦٠٦ ـ وَتَزَوَّجَ رَجُلٌ ٱمْرَأَةً ، فَٱجْتَمَعَ مَعَهَا فِي بَيْتٍ ، فَفَرَكَتْهُ ـ أَبْغَضَتْهُ ـ فَرَمَتْ بِبَصَرِهَا إِلَىٰ ٱلْكُوَّةِ ، فَرَأَتِ ٱلصُّبْحَ ، فقالت [من الوافر] :

وَأَنْقَـــذَنِـــي بَيَـــاضُ ٱلصُّبْـــحِ مِنْـــهُ لَقَـــدْ أُنْقِـــذْتُ مِـــنْ شَـــرٍّ طَـــوِيـــلِ

* * *

١٦٠٧ ـ وَقَال ٱلْجَمَّازُ لِامْرَأَتِهِ فِي يَوْمِ غَيْمٍ : مَا يَطِيبُ فِي هَذَا ٱلْيَوْمِ ؟ قَالَتْ : ٱلطَّلاقُ ! . . .

* * *

١٦٠٨ ـ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُفَرَّكاً ـ أَيْ : تُبْغِضُهُ ٱلنِّسَاءُ ـ وَكَانَ قَدْ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً تُسَمَّىٰ أُمَّ جُنْدَبٍ ، تَزَوَّجَهَا حِينَ هَرَبَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِ بْنِ مَاءِ ٱلسَّمَاءِ ، فَأَتَىٰ جَبَلَيْ طَيِّءٍ ، بَيْنَمَا هُوَ مَعَهَا ذَاتَ لَيْلَةٍ إِذْ قَالَتْ لَهُ : قُمْ يَا خَيْرَ ٱلْفِتْيَانِ ، فَقَدْ أَصْبَحْتَ ؛ فَلَمْ يَقُمْ ، فَكَرَّرَتْ عَلَيهِ ، فَقَامَ ، فَوَجَدَ ٱلْفَجْرَ لَمْ يَطْلُعْ ، فَرجَعَ ، فَقَالَ لَهَا : مَا حَمَلَكِ عَلَىٰ مَا صَنَعْتِ ؟ فَأَمْسَكَتْ ، وَأَلَحَّ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ : حَمَلَنِي أَنَّكَ ثَقِيلُ ٱلصَّدْرِ ، خَفِيفُ ٱلْعَجِيزَةِ ، سَرِيعُ ٱلإِرَاقَةِ ، بَطِيءُ ٱلإِفَاقَةِ ؛ فَعَرَفَ تَصْدِيقَ قَوْلِهَا وَسَكَتَ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَىٰ عَلْقَمَةَ بْنَ عَبَدَةَ ٱلْفَحْلَ وَهُوَ فِي

خَيْمَتِهِ وَخَلْفَهُ أُمُّ جُنْدَبٍ ، فَتَذَاكَرُوا ٱلشِّعْرَ ، فَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ : أَنَا أَشْعَرُ مِنْكَ ؛ وَقَالَ عَلْقَمَةُ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَتَحَاكَمَا إِلَىٰ أُمِّ جُنْدَبٍ . فَفَضَّلَتْ أُمُّ جُنْدُبٍ عَلْقَمَةَ عَلَىٰ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ ، وَمَطْلَعُ قَصِيدَةِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ [من الطويل] :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَىٰ أُمِّ جُنْدَبٍ ... أُقَضِّ لُبَانَاتِ ٱلْفُؤَادِ ٱلْمُعَذَّبِ

وَمَطْلَعُ قَصِيدَةِ عَلْقَمَةَ [من الطويل] :

ذَهَبْتَ مِنَ ٱلهِجْرَانِ فِي غَيْرِ مَذْهَبِ ... وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا ٱلتَّجَنُّبِ

فَقَالَ لَهَا زَوْجُهَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ : بِأَيِّ شَيْءٍ غَلَّبْتِهِ ؟ قَالَتْ : لأَنَّكَ قُلْتَ [من الطويل] :

فَلِلسَّوْطِ أُلْهُوبٌ وَلِلسَّاقِ دِرَّةٌ ... وَلِلَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ[١]

فَجَهَدْتَ فَرَسَكَ بِسَوْطِكَ ، وَمَرَيْتَهُ بِسَاقِكَ وَزَجْرِكَ[٢] ، وَأَتْعَبْتَهُ بِجُهْدِكَ .

وَقَالَ عَلْقَمَةُ [من الطويل] :

فَوَلِّي عَلَىٰ آثَارِهِنَّ بِحَاصِبٍ ... وَغَبْيَةِ شُؤْبُوبٍ مِنَ ٱلشَّدِّ مُلْهَبِ[٣]

فَأَدْرَكَهُنَّ ثَانِياً مِنْ عَنَانِهِ ... يَمُرُّ كَمَرِّ ٱلرَّائِحِ ٱلْمُتَحَلِّبِ[٤]

فَلَمْ يَضْرِبْ فَرَسَهُ بِسَوْطٍ ، وَلَمْ يَمْرِهِ بِسَاقٍ ، وَلَمْ يُتْعِبْهُ بِزَجْرٍ . فَغَضِبَ

---

(١) مِنْعَبُ : أَحْمَقُ ، مُصَوِّتُ ؛ وَٱلْمِنْعَبُ أَيْضاً : ٱلَّذِي يَمُدُّ عُنُقَهُ فِي ٱلْعَدْوِ ، ٱلْجَرْيِ .

(٢) مَرَىٰ ٱلْفَرَسَ : ٱسْتَخْرَجَ جَرْيَهُ .

(٣) عَلَىٰ آثَارِهِنَّ ، يَعْنِي : ٱلْبَقَرَ ؛ وَبِحَاصِبٍ ، يَعْنِي : بِعَدْوٍ ، جَرْيٍ شَدِيدٍ ، كَٱلْحَاصِبِ مِنَ ٱلْمَطَرِ ، وَهُوَ ٱلْعَظِيمُ ٱلْقَطْرِ ؛ وَٱلْغَبْيَةُ : ٱلْمَطْرَةُ ٱلَّتِي تَجِيءُ شَدِيدَةً ؛ وَٱلشُّؤْبُوبُ : أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ وَحِدَّتُهُ ؛ وَمُلْهَبُ : مُثِيرٌ لِلَّهَبِ مِنْ شِدَّةِ جَرْيِهِ ؛ وَٱللَّهَبُ : ٱلْغُبَارُ ٱلسَّاطِعُ كَٱلدُّخَانِ ٱلْمُرْتَفِعِ مِنَ ٱلنَّارِ .

(٤) ٱلرَّائِحُ : ٱلسَّحَابُ ٱلَّذِي يَأْتِي بِٱلْعَشِيِّ ، وَٱلسَّحَابُ أَغْزَرُ مَا يَكُونُ بِٱلْعَشِيِّ ؛ وَٱلْمُتَحَلِّبُ : ٱلْمُتَسَاقِطُ ٱلْمُتَتَابِعُ .

ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مِنْ قَوْلِهَا وَطَلَّقَهَا ، وَخَلَفَ عَلَيْهَا عَلْقَمَةُ .

* * *

١٦٠٩ ـ وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ يَقُولُ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ : « خَيْرُ نِسَائِكُمْ ٱلَّتِي إِذَا خَلَعَتْ ثَوْبَهَا خَلَعَتْ مَعَهُ ٱلْحَيَاءَ ، وَإِذَا لَبِسَتْهُ لَبِسَتْ مَعَهُ ٱلْحَيَاءَ » يَعْنِي مَعَ زَوْجِهَا .

* * *

١٦١٠ ـ وَيَقُولُ ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] .

١٦١١ ـ يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] .

* * *

**أَنْجَبُ ٱلأَوْلادِ وَلَدُ ٱلْفَارِكِ :**

١٦١٢ ـ وَقَالَ ٱلْمُبَرِّدُ فِي « ٱلْكَامِلِ » : [صفحة : ١٧٥] وَيُقَالُ : أَنْجَبُ ٱلأَوْلَادِ وَلَدُ ٱلْفَارِكِ ـ ٱلْفَارِكُ : ٱلَّتِي تُبْغِضُ زَوْجَهَا ـ وَذَلِكَ لأَنَّهَا تُبْغِضُ زَوْجَهَا فَيَسْبِقُهَا بِمَائِهِ ، فَيَخْرُجُ ٱلشَّبَهُ إِلَيْهِ ، فَيَخْرُجُ ٱلْوَلَدُ مُذَكَّراً ؛ قَالَ : وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَقُولُ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَطْلُبَ وَلَدَ ٱلْمَرْأَةِ فَأَغْضِبْهَا ثُمَّ قَعْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّكَ تَسْبِقُهَا بِٱلْمَاءِ ، وَكَذَلِكَ وَلَدُ ٱلْفَزِعَةِ ـ ٱلْخَائِفَةُ ـ كَمَا قَالَ أَبُو كَبِيرٍ ٱلْهُذَلِيُّ[1]

---

(١) هُوَ عَامِرُ بْنُ حُلَيْسٍ ، أَحَدُ بَنِي سَعْدِ بْنِ هُذَيْلٍ ، وَهُوَ مُخَضْرَمٌ ، أَسْلَمَ ، وَأَتَىٰ إِلَىٰ سَيِّدِنَا =

ـ وَنُورِدُ جَمِيعَ أَبْيَاتِهِ ٱلَّتِي ٱخْتَارَهَا أَبُو تَمَّامٍ فِي « حَمَاسَتِهِ » ، وَهِيَ أَبْيَاتٌ قَالَهَا ٱلشَّاعِرُ يَصِفُ رَبِيبَهُ « تَأَبَّطَ شَرًّا[١] » بِٱلنَّجَابَةِ ، وَأَنَّهُ تَلاقَىٰ فِي بُرْدَيْهِ جَمِيعُ صِفَاتِ ٱلرِّجَالِ ٱلْمَحْمُودَةِ ؛ قَالَ [من الطويل] :

وَلَقَدْ سَرَيْتُ عَلَىٰ ٱلظَّلامِ بِمِغْشَمٍ جَلْدٍ مِنَ ٱلْفِتْيَانِ غَيْرِ مُثَقَّلِ[١]

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ ٱلنِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ[٢]

---

= رَسُولِ ٱللهِ بَعْدَ إِسْلامِهِ ، وَقَالَ لَهُ : أَحِلَّ لِي ٱلزِّنَا ؛ فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ : « أَتُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْكَ مِثْلَ ذَلِكَ ؟ » قَالَ : لا ، قَالَ : « فَٱرْضَ لِأَخِيكَ مَا تَرْضَىٰ لِنَفْسِكَ » ، قَالَ : فَٱدْعُ ٱللهَ أَنْ يُذْهِبَهُ عَنِّي ؛ وَكَانَ سَبَبُ قَوْلِ أَبِي كَبِيرٍ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتِ أَنَّهُ تَزَوَّجَ أُمَّ تَأَبَّطَ شَرّاً ، وَكَانَ تَأَبَّطَ شَرّاً صَغِيراً . فَلَمَّا رَأَىٰ أَبَا كَبِيرٍ يُكْثِرُ ٱلدُّخُولَ عَلَىٰ أُمِّهِ تَنَكَّرَ لَهُ ، وَعَرَفَ ذَلِكَ أَبُو كَبِيرٍ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ أَبُو كَبِيرٍ لِأُمِّهِ : وَيْحَكِ ! قَدْ وَٱللهِ رَابَنِي أَمْرُ هَذَا ٱلْغُلامِ وَلا آمَنُهُ ، فَلا أَقْرَبُكِ ؛ قَالَتْ : فَٱحْتَلْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ تَقْتُلَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ : هَلْ لَكَ أَنْ تَغْزُوَ ؟ فَقَالَ : ذَاكَ مِنْ أَمْرِي ؛ فَخَرَجَا لَيْلاً ، حَتَّىٰ أَدْرَكَهُمَا مَسَاءُ ٱلْيَوْمِ ٱلثَّانِي أَبْصَرَا نَاراً يَعْرِفُ أَبُو كَبِيرٍ أَنَّهَا نَارُ أَعْدَاءٍ لِتَأَبَّطَ شَرّاً ، فَوَجَّهَهُ إِلَيْهَا ، فَرَأَىٰ عَلَيْهَا رَجُلَيْنِ مِنْ أَلَصِّ ٱلْعَرَبِ ، فَوَثَبَا إِلَيْهِ يُرِيدَانِ قَتْلَهُ ، فَلَمَّا كَانَ أَحَدُهُمَا أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ آخَرَ عَطَفَ عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ ، وَرَجَعَ إِلَىٰ ٱلآخَرِ فَرَمَاهُ أَيْضاً فَقَتَلَهُ ، ثُمَّ جَاءَ إِلَىٰ نَارِهِمَا ، فَأَخَذَ ٱلْخُبْزَ ، وَجَاءَ إِلَىٰ أَبِي كَبِيرٍ ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ أَخْبَرَهُ ٱلْخَبَرَ ، فَخَافَ أَبُو كَبِيرٍ مِنْهُ ، فَلَمَّا رَجَعَا ، قَالَ : إِنَّ أُمَّ هَذَا ٱلْغُلامِ لا أَقْرَبُهَا أَبَداً ؛ وَقَالَ هَذِهِ ٱلأَبْيَاتَ ؛ أَمَّا تَأَبَّطَ شَرّاً ، فَهُوَ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُعَرَّفَ ، إِذْ هُوَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْجَاهِلِيُّ ، أَحَدُ لُصُوصِ ٱلْعَرَبِ ، وَأَحَدُ غُرْبَانِهَا ـ سُودَانِهَا ـ وَأَحَدُ رَآبِيلِهَا ـ جَمْعُ رِئْبَالٍ ، وَهُوَ : ٱلَّذِي وَلَدَتْهُ أُمُّهُ وَحْدَهُ ـ وَقَدِ ٱخْتَارَ لَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي « حَمَاسَتِهِ » عِدَّةَ مَقْطُوعَاتٍ بَدِيعَةٍ .

(١) عَلَىٰ ٱلظَّلامِ ، أَيْ : فِي ٱلظَّلامِ ، أَوْ تَقُولُ : وَأَنَا رَاكِبُ ٱلظَّلامَ ؛ وَٱلْمِغْشَمُ : ٱلَّذِي يَعْتَسِفُ ٱلطَّرِيقَ عَلَىٰ خَفَائِهَا ، أَوِ ٱلَّذِي يَرْتَكِبُ ٱلأُمُورَ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ ؛ وَٱلْجَلْدُ : ٱلصُّلْبُ ٱلْقَوِيُّ ؛ وَغَيْرُ مُثَقَّلٍ ، أَيْ : إِنَّهُ مَقْبُولٌ ، حَبِيبٌ إِلَىٰ ٱلْقُلُوبِ ، فَهُوَ لَيْسَ بِثَقِيلٍ عَلَىٰ ٱلنُّفُوسِ .

(٢) ٱلضَّمِيرُ فِي « حَمَلْنَ » لِلنِّسَاءِ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَهُنَّ ذِكْرٌ ؛ وَٱلْحُبُكُ ، جَمْعُ حِبَاكٍ : مَا يُشَدُّ بِهِ ٱلنِّطَاقُ ، وَ« ٱلنِّطَاقُ » يُرْوَىٰ « ٱلثِّيَابُ » ، وَٱلنِّطَاقُ : بِهِ شِقَّةٌ تَلْبَسُهَا ٱلْمَرْأَةُ ، تُرْسِلُ أَعْلاهَا لِلرُّكْبَةِ بَعْدَ شَدِّ وَسَطِهَا بِٱلْحِبَاكِ ، وَتَدَعُ ٱلأَسْفَلَ يَنْجَرُّ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ ؛ وَٱلْمُهَبَّلُ : ٱلْمَدْعُو عَلَيْهِ بِٱلْهَبَلِ ، وَهُوَ ٱلثُّكْلُ ، يَقُولُ : إِنَّهُ مِنَ ٱلْفِتْيَانِ ٱلَّذِينَ حَمَلَتْ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُنَّ غَيْرُ مُسْتَعِدَّاتٍ لِلْفِرَاشِ ، فَنَشَأَ مَحْمُوداً مَرْضِيّاً لَمْ يُدْعَ عَلَيْهِ بِٱلثُّكْلِ وَٱلْفَقْدِ .

حَمِلـتْ بِـهِ فـي لَيْلَـةٍ مَـزْءُودَةٍ كَـرْهـاً وَعَقْـدُ نِطَاقِهَـا لَـمْ يُحْلَـلِ[١]

فَـأَتَـتْ بِـهِ حُـوشَ ٱلْفُـؤَادِ مُبَطَّنـاً سُهُـداً إِذَا مَـا نَـامَ لَيْـلُ ٱلْهَـوْجَـلِ[٢]

وَمُبَـرَّأً مِـنْ كُـلِّ غُبَّـرِ حَيْضَـةٍ وَفَسَـادِ مُـرْضِعَـةٍ وَداءِ مُغْيِـلِ[٣]

فَـإِذَا نَبَـذْتَ لَـهُ ٱلْحَصَـاةَ رَأَيْتَـهُ يَنْـزُو لِـوَقْعَتِهَـا طُمُـورَ الأَخْيَـلِ[٤]

---

(١) ٱلزُّؤْدُ : ٱلْفَزَعُ ، وَنَسَبَهُ إِلَىٰ ٱللَّيْلَةِ لِوُقُوعِهِ فِيهَا ؛ يَقُولُ : إِنَّهَا أُكْرِهَتْ عَلَىٰ ٱلْجِمَاعِ إِذْ لَمْ يُحَلَّ نطَاقُهَا ، فَجَاءَ ٱلْوَلَدُ نَجِيباً .

(٢) حُوشُ ٱلْفُؤَادِ : ذَكِيُّ ٱلْفُؤَادِ مُتَوَقِّدُهُ ؛ ٱلْمُبَطَّنُ : ٱلْخَمِيصُ ٱلْبَطْنِ ؛ وَٱلسُّهُدُ : ٱلَّذِي لا يَنَامُ مِنَ ٱلسُّهَادِ ؛ وَٱلْهَوْجَلُ : ٱلثَّقِيلُ ٱلْكَسْلانُ ، وَجَعَلَ ٱلْفِعْلَ لِلَيْلِ لأَنَّهُ يَقَعُ فِيهِ ، يَقُولُ : إِنَّ الأُمَّ أَتَتْ بِهَذَا ٱلْوَلَدِ ذَكِياً ، حَدِيدَ ٱلْقَلْبِ ، نَشِيطاً ، قَلِيلَ ٱلنَّوْمِ ، إِذَا نَامَ ٱلْكَسْلانُ ٱلْوَخْمُ .

(٣) غُبَّرُ ٱلْحَيْضِ : بَقَايَاهُ ؛ وَٱلْمُغِيلُ ، مِنَ ٱلْغَيْلِ ، وَهُوَ : أَنْ تُرْضِعَ ٱلْمَرْأَةُ وَلَدَهَا وَهِيَ تُؤْتَىٰ ، أَوْ تُرْضِعَهُ وَهِيَ حُبْلَىٰ ، وَذَلِكَ يَضْوَىٰ مِنْهُ ٱلْوَلَدُ ؛ وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ سِرًّا ، فَإِنَّ ٱلْغَيْلَ يُدْرِكُ ٱلْفَارِسَ فَيُدَعْثِرُهُ مِنْ فَرَسِهِ » [أبو داود ، رقم : ٣٨٨١ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠١٢ ؛ « مسند أحمد » رقم : ٢٧٠١٥ ، ٢٨٠٣٨ ، ٢٧٠٤٣ ] : قَالَ فِي « ٱللِّسَانِ » : ٱلْغَيْلُ : لَبَنُ ٱلْمَرْأَةِ إِذَا حَمَلَتْ وَهِيَ تُرْضِعُ ، وَسُمِّيَ هَذَا ٱلْفِعْلُ قَتْلَا لأَنَّهُ يُفْضِي إِلَىٰ ٱلْقَتْلِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُضْعِفُهُ وَيُرْخِي قِوَاهُ وَيُفْسِدُ مِزَاجَهُ ، وَإِذَا كَبُرَ وَٱحْتَاجَ إِلَىٰ نَفْسِهِ فِي ٱلْحَرْبِ وَمُنَازَلَةِ ٱلأَقْرَانِ عَجَزَ عَنْهُمْ وَضَعُفَ ، فَرُبَّمَا قُتِلَ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ خَفِياً لا يُدْرَكُ جَعَلَهُ سِرّاً ، وَٱلاسْمُ : ٱلْغِيلَةُ ، وَفِي ٱلْحَدِيثِ : « لَهَمَمْتُ أَنْ أَنْهَىٰ عَنِ ٱلْغِيلَةِ » [مسلم ، رقم : ١٤٤٢ ؛ الترمذي ، رقم : ٢٠٧٦ ، ٢٠٧٧ ؛ النسائي ، رقم : ٣٣٢٦ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٨٨٢ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠١١ ؛ « مسند أحمد » ، رقم : ٢٦٤٩٤ و٢٦٩٠١ ؛ « موطأ مالك » ، رقم : ١٢٩٢ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢١٧] ٱلْغِيلَةُ : أَنْ يُجَامِعَ ٱلرَّجُلُ ٱمْرَأَتَهُ وَهِي تُرْضِعُ ؛ يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ : إِنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ وَهِيَ طَاهِرٌ لَيْسَ بِهَا بَقِيَّةُ حَيْضٍ ، وَوَضَعَتْهُ وَلا دَاءَ بِهِ ٱسْتَصْحَبَهُ مِنْ بَطْنِهَا فَلا تَقْبَلُ عِلاجاً ، لأَنَّ دَاءَ ٱلْبَطْنِ لا يُفَارِقُ ، وَلَمْ تُرْضِعْهُ أُمُّهُ غِيلَةً ، وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ تَذْهَبُ إِلَىٰ أَنَّ ٱلْمَرْأَةَ إِذَا حَمَلَتْ فِي قُبُلِ ٱلطُّهْرِ ، أَوَّلَ ٱلشَّهْرِ ، عِنْدَ طُلُوعِ ٱلْفَجْرِ ، ثُمَّ أَذْكَرَتْ ؛ جَاءَتْ مِمَّا لا يُطَاقُ . قَالَ قَائِلُهُمْ [من الخفيف] :

لَقِحَـتْ فـي ٱلْهِـلالِ عَـنْ قُبُـلِ ٱلطُّهْـ ـرِ وَقَـدْ لاحَ لِلصَّبَـاحِ بَشِيـرُ

(٤) يَنْزُو : يَثِبُ ؛ وَطُمُورُ : وُثُوبُ ؛ ٱلأَخْيَلُ : طَائِرٌ ؛ يَقُولُ : إِنَّكَ إِذَا رَمَيْتَهُ بِحَصَاةٍ وَهُوَ نَائِمٌ وَجَدْتَهُ يَنْتَبِهُ ٱنْتِبَاهَ مَنْ سَمِعَ بِوَقْعَتِهَا بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ ، فَيَثِبُ وُثُوبَ ٱلطَّائِرِ ٱلْفَزِعِ ٱلْجَبَانِ .

وَإِذَا يَهُبُّ مِنَ ٱلْمَنَامِ رَأَيْتَهُ كَرُثُوبِ كَعْبِ ٱلسَّاقِ لَيْسَ بِزُمَّلِ (١)
مَا إِنْ يَمَسُّ ٱلأَرْضَ إِلَّا مَنْكِبٌ مِنْهُ وَحَرْفُ ٱلسَّاقِ طَيَّ ٱلْمِحْمَلِ (٢)
وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ ٱلْفِجَاجَ رَأَيْتَهُ يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِيَّ ٱلأَجْدَلِ (٣)
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ أَسِرَّةِ وَجْهِهِ بَرَقَتْ كَبَرْقِ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَهَلِّلِ (٤)
صَعْبُ ٱلْكَرِيهَةِ لا يُرَامُ جَنَابُهُ مَاضِي ٱلْعَزِيمَةِ كَٱلْحُسَامِ ٱلْمِقْصَلِ (٥)
يَحْمِي ٱلصِّحَابَ إِذَا تَكُونُ عَظِيمَةٌ وَإِذَا هُمُو نَزَلُوا فَمَأْوَىٰ ٱلْعُيَّلِ (٦)

* * *

## بَعْضُ أَوْصَافِهِمْ لِلنِّسَاءِ :

١٦١٣ ـ قَالَ بَعْضُ ٱلأَعْرَابِ : ٱلنِّسَاءُ أَرْبَعٌ : رَبِيعٌ مُرْبِعٌ ، وَجَمِيعٌ تَجْمَعُ ، وَشَيْطَانٌ سَمَعْمَعُ ، وَغُلٌّ لا يُخْلَعُ ؛ أَمَّا ٱلرَّبِيعُ : فَٱلَّتِي إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ ، وَإِذَا أَقْسَمْتَ عَلَيْهَا بَرَّتْكَ ؛ وَأَمَّا ٱلْجَمِيعُ : فَٱلْمَرْأَةُ تَتَزَوَّجُهَا وَلَهَا نَشَبٌ ـ مَالٌ وَعَقَارٌ ـ فَتَجْمَعُ نَشَبَكَ إِلَىٰ نَشَبِهَا ؛ وَأَمَّا ٱلشَّيْطَانُ ٱلسَّمَعْمَعُ : فَٱلْكَالِحَةُ فِي وَجْهِكَ إِذَا دَخَلْتَ ، وَٱلْمُوَلْوِلَةُ فِي إِثْرِكَ إِذَا خَرَجْتَ ؛ وَأَمَّا ٱلْغُلُّ ٱلَّذِي لا يُخْلَعُ ،

---

(١) ٱلرُّثُوبُ : ٱلْقِيَامُ وَٱلانْتِصَابُ ؛ وَٱلزُّمَّلُ : ٱلضَّعِيفُ ؛ يَقُولُ : إِذَا ٱسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ ٱنْتَصَبَ ٱنْتِصَابَ كَعْبِ ٱلسَّاقِ ، وَكَعْبُ ٱلسَّاقِ مُنْتَصِبٌ أَبداً فِي مَوْضِعِهِ .

(٢) ٱلْمِحْمَلُ : حَمَّالَةُ ٱلسَّيْفِ ؛ يَقُولُ : إِذَا نَامَ لا يَنْبَسِطُ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ وَلا يَتَمَكَّنُ مِنْهَا بِأَعْضَائِهِ كُلِّهَا حَتَّىٰ لا يَكَادُ يَتَشَمَّرُ عِنْدَ ٱلانْتِبَاهِ بِسُرْعَةٍ .

(٣) ٱلْفِجَاجُ ، جَمْعُ فَجٍّ : ٱلطَّرِيقُ ٱلْوَاسِعُ فِي جَبَلٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛ وَٱلْمَخَارِمُ ، جَمْعُ مَخْرِمٍ ، وَهُوَ : مُنْقَطَعُ أَنْفِ ٱلْجَبَلِ ؛ وَٱلأَجْدَلُ : ٱلصَّقْرُ ؛ يَقُولُ : إِنَّهُ هُمَامٌ إِذَا نِيطَتْ بِهِ ٱلصِّعَابُ ذَلَّلَهَا ، وَيَهْوِي مَخَارِمَهَا ، يُرِيدُ : يَهْوِي فِي مَخَارِمِهَا .

(٤) يَصِفُهُ بِحُسْنِ ٱلْبِشْرِ وَطَلاقَةِ ٱلْوَجْهِ ؛ يَقُولُ : إِذَا نَظَرْتَ إِلَىٰ وَجْهِهِ رَأَيْتَ أَسَارِيرَ وَجْهِهِ تُشْرِقُ إِشْرَاقَ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُتَلأْلِئِ بِٱلْبَرْقِ .

(٥) ٱلْكَرِيهَةُ ، مِنْ أَسْمَاءِ ٱلْحَرْبِ ؛ وَٱلْمِقْصَلُ : ٱلْقَطَّاعُ .

(٦) ٱلْعُيَّلُ ، جَمْعُ عَائِلٍ ، وَهُوَ : ٱلْفَقِيرُ ؛ هَا هُنَا يَصِفُهُ بِأَنَّهُ شُجَاعٌ كَرِيمٌ .

فَبِنْتُ عَمِّكَ ٱلدَّمِيمَةُ ٱلسَّوْدَاءُ ، ٱلْقَصِيرَةُ ٱلْوَرْهَاءُ ، ٱلَّتِي نَثَرَتْ لَكَ ذَا بَطْنِهَا - أَيْ : نَسَلتْ أَوْلاداً كُثْراً - إِنْ طَلَّقْتَهَا ضَاعَ وُلْدُكَ ، وَإِنْ أَمْسَكْتَهَا فَعَلَى جَدْعِ أَنْفِكَ . . .

وَٱلسَّمَعْمَعُ : ٱلشَّيْطَانُ ٱلْخَبِيثُ ؛ وَٱلْوَرْهَاءُ : ٱلْحَمْقَاءُ ٱلْخَرْقَاءُ .

* * *

## ٱلنِّسَاءُ ثَلاثَةُ أَضْرَابٍ ، وَٱلرِّجَالُ كَذَلِكَ :

١٦١٤ - قَالَ أَعْرَابِيٌّ : كَانَ يُقَالُ : ٱلنِّسَاءُ ثَلاثٌ : هَيِّنَةٌ لَيِّنَةٌ عَفِيفَةٌ مُسْلِمَةٌ ، تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَىٰ ٱلْعَيْشِ ، وَلا تُعِينُ ٱلْعَيْشَ عَلَىٰ أَهْلِهَا ؛ وَأُخْرَىٰ وِعَاءٌ لِلْوَلَدِ ؛ وَأُخْرَىٰ غُلٌّ قَمِلٌ يَضَعُهُ ٱللهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ ؛ [أخرجه ابن أبي شيبة والبيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ « الدر المنثور » ٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] وَٱلرِّجَالُ ثَلاثَةٌ : فَهَيِّنٌ لَيِّنٌ عَفِيفٌ مُسْلِمٌ ، يُصدِرُ ٱلأُمُورَ مَصَادِرَهَا ، وَيُورِدُهَا مَوَارِدَهَا ؛ وَآخَرُ يَنْتَهِي إِلَىٰ رَأْيِ ذِي ٱللُّبِّ وَٱلْمَقْدِرَةِ ، فَيَأْخُذُ بِقَوْلِهِ وَيَنْتَهِي إِلَىٰ أَمْرِهِ ؛ وَآخَرُ حَائِرٌ بَائِرٌ ، لا يَأْتَمِرُ لِرُشْدٍ ، وَلا يُطِيعُ ٱلْمُرْشِدَ . [« مجمع الأمثال » ، رقم : ٢١٥ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه] .

* * *

## ٱلطَّلاقُ :

### ذَمُّهُمُ ٱلطَّلاقَ[1] :

١٦١٥ - فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « مَا مِنْ حَلالٍ أَبْغَضُ إِلَىٰ ٱللهِ مِنَ ٱلطَّلاقِ » [أبو داود ، رقم : ٢١٧٨ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٨] .

* * *

(١) إِنَّ نِظَامَ ٱلطَّلاقِ فِي ٱلإِسْلامِ لا يُدَانِيهِ نِظَامٌ غَيْرُهُ ، فَلا هُوَ بِٱلْمُغْلَقِ ٱلْمَحْظُورِ حَتَّىٰ يَكُونَ أَحَدُ ٱلزَّوْجَيْنِ شَجاً فِي حَلْقِ صَاحِبِهِ ، وَلا هُوَ بِٱلسَّهْلِ ٱلْهَيِّنِ فَيَتَّخِذَ مَنْ لا ذِمَامَ لَهُمْ مَرْتَعاً خَصْباً يَتَنَقَّلُونَ فِيهِ كَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ قَاعِدَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلزَّوْجِيَّةِ فِي ٱلإِسْلامِ : ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٩] ، فَإِنْ مُحِيَتْ آيَةُ ٱلْمَعْرُوفِ فَدَبَّتِ ٱلنُّفْرَةُ وَسَاءَتِ ٱلْعِشْرَةُ ، سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ ٱلزَّوْجِ أَوِ ٱلزَّوْجَةِ أَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعاً ، فَمَا خَيْرُ تِلْكَ ٱلْحَيَاةِ ؟ وَمَا مَزِيَّةُ ٱلْبَقَاءِ عَلَيْهَا ! لِذَلِكَ أُبِيحَ ٱلطَّلاقُ .

١٦١٦ ـ وَفِيهِ : « لَا تُطَلِّقُوا ٱلنِّسَاءَ إِلَّا مِنْ رِيبَةٍ ، فَإِنَّ ٱللهَ لا يُحِبُّ ٱلذَّوَّاقِينَ وَٱلذَّوَّاقَاتِ » [« مجمع الزوائد » ، رقم : ٧٧٦١] .

لا يُحِبُّ ٱلذَّوَّاقِينَ ، يَعْنِي : ٱلسَّرِيعي ٱلنِّكَاحِ ٱلسَّرِيعِي ٱلطَّلاقِ .

* * *

١٦١٧ ـ وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ لِرَجُلٍ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ : لِمَ طَلَّقْتَهَا ؟ قَالَ : لا أُحِبُّها ؛ فَقَالَ : أَكُلُّ ٱلْبُيُوتِ بُنِيَتْ عَلَىٰ ٱلْحُبِّ ؟ أَيْنَ ٱلرِّعَايَةُ وَٱلذِّمَمُ ؟

* * *

**مَنْ يُطَلِّقُونَ تبرُّماً أَوْ لِقِلَّةِ ٱلْمُوَافَقَةِ أَوْ لِسَبَبٍ ما :**

١٦١٨ ـ طَلَّقَ أَعْرَابِيٌّ ٱمْرَأَتَهُ وَقَالَ [من مجزوء الكامل] :

رَحَلَتْ أُمَيمَةُ بِٱلطَّلاقِ ... وَعُتِقْتُ مِنْ رِقِّ ٱلْوَثَاقِ
بَانَتْ فَلَمْ يَأْلَمْ لَهَا ... قَلْبِي وَلَمْ تَبْكِ ٱلْمَآقِي
لَوْ لَمْ أُرِحْ بِطَلاقِهَا ... لأَرَحْتُ نَفْسِي بِٱلإِبَاقِ
وَدَوَاءُ مَا لا تَشْتَهِيـ ... ـهِ ٱلنَّفْسُ تَعْجِيلُ ٱلْفِرَاقِ
وَٱلْعَيْشُ لَيْسَ يَطِيبُ بَـ ... ـيْنَ ٱثْنَيْنِ فِي غَيْرِ ٱتِّفَاقِ

عُتِقَ ٱلْعَبْدُ : خَرَجَ مِنَ ٱلرِّقِّ ؛ وَيُرِيدُ بِٱلْوَثَاقِ : عِقْدَةَ ٱلزَّوَاجِ ؛ وَيُرِيدُ بِٱلْمَآقِي : ٱلْعُيُونَ ؛ وَٱلإِبَاقِ : ٱلْهَرَبَ .

* * *

١٦١٩ ـ وَشَكَا ٱلْفَرَزْدَقُ ٱمْرَأَتَهُ ، فَقَالَ لَهُ شَيْخٌ مِنْ بَنِي مُضَرَ كَانَ أَسَنَّ مِنْهُ : أَفَلَا تَكْسَعُهَا ـ تَطْرُدُهَا ـ بِٱلْمُحْرِجَاتِ ! ـ يَعْنِي : ٱلطَّلاقَ ـ فَقَالَ : قَاتَلَكَ ٱللهُ ! مَا أَعْلَمَكَ مِنْ شَيْخٍ !

* * *

١٦٢٠ ـ وَقَالَ بَعْضُ ٱلظُّرَفَاءِ لِرَجُلٍ شَكَا إِلَيْهِ سُوءَ خُلُقِ ٱمْرَأَتِهِ : بَخِّرْهَا بِمُثَلَّثَةٍ .

بِمُثَلَّثَةٍ ، أَيْ : بِيَمِينٍ مُثَلَّثَةٍ ، بِٱلطَّلاقِ ٱلثَّلاثِ .

* * *

١٦٢١ ـ وَطَلَّقَ رَجُلٌ ٱمْرَأَةً عَدَدَ ٱلنُّجُومِ ؛ فَقَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ : يَكْفِيهِ منْ ذَلِكَ هَقْعَةُ ٱلْجَوْزَاءِ .

ٱلْهَقْعَةُ : ثَلاثَةُ كَوَاكِبَ نَيِّرَةٍ فَوْقَ مِنْكَبِيْ ٱلْجَوْزَاءِ قَرِيبٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، كَالأَثَافِيّ(١) ، إِذَا طَلَعَتْ مَعَ ٱلْفَجْرِ ٱشْتَدَّ حَرُّ ٱلصَّيْفِ .

* * *

١٦٢٢ ـ وَكَانَ بِٱلْمَدِينَةِ زَمَنَ ٱلْمَنصُورِ وَٱلْمَهْدِيِّ قَاضٍ يُقَالُ لَهُ : عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ ٱبْنُ ٱلْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ضَطَبٍ ٱلْمَخْزُومِيُّ ، فَخَاصَمَتْ إِلَيْهِ ٱمْرَأَةٌ زَوْجَهَا ، وَكَانَتْ قَالَت : أَجَعْتَنِي وَأَسَأْتَ إِلَيَّ ، وَٱللهِ مَا تَسْتَطِيعُ فيرانُ بَيْتِكَ أَنْ يَمْشِينَ مِنَ ٱلْجَهْدِ ، وَمَا يُقِمْنَ إِلَّا عَلَىٰ ٱلْوَطَنِ ! فَقَالَ ٱلرَّجُلُ : أَنْتِ طَالِقٌ إِنْ كُنَّ مَا يُقِمْنَ إِلَّا عَلَىٰ ٱلوَطَن ؛ فَخَبَّرَتِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلْقَاضِي بِمَا قَالَتْ وَقَالَ زَوْجُها ، فَقَالَ ٱلْقَاضِي يَطْلُبُ لَهُ ٱلْمَعَاذِيرَ : وَرَبِّكِ إِنَّ ٱلإِبِلَ لَتكُونُ بِٱلْمَكَانِ ٱلْجَدِيبِ ٱلْخَسِيسِ ٱلْمَرْعىٰ ، فَتُقِيمُ بِهِ لِحُبِّ ٱلْوَطَنِ ؛ فَقَالَ ٱلزَّوْجُ حِينَ رَآهُ يَحْتَالُ لِئَلَّا يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا : كَأَنَّمَا أَشْكَلَتْ عَلَيْكَ ، هِيَ طَالِقٌ عِشْرِينَ ؛ فَقَالَ ٱلْقَاضِي : قَدْ خَفَّفْتَ ٱلأَمْرَ عَلَيْنَا .

* * *

(١) ٱلأَثَافِي : ٱلْقِطْعَةُ في ٱلْجَبَلِ تُجْعَلُ ٱلْقِدْرُ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ حَجَرَيْنِ أَمَامَهَا ، وَمِنْ ذَلِكَ ٱلْمَثَلُ : رَمَاهُ ٱللهُ بِثَالِثَةِ ٱلأَثَافِي ، أَيْ : بِدَاهِيَةٍ ، وَثَالِثَةُ ٱلأَثَافِي ، هِيَ : ٱلْقِطْعَةُ فِي ٱلْجَبَلِ .

١٦٢٣ ـ وَطَلَّقَ رَجُلٌ ٱمْرَأَتَهُ ، فَقَالَتْ : أَبَعْدَ صُحْبَةِ خَمسِينَ سَنَةٍ ؟ فَقَالَ : مَالَكِ عِنْدَنَا ذَنْبٌ غَيْرُهُ .

* * *

١٦٢٤ ـ وَمِنْ طُرَفِ ٱلأَصْمَعِيِّ مَا حَدَّثَهُ ، قَالَ : قُلْتُ لِلرَّشِيدِ يَوْماً : بَلَغَنِي يَا أَمِيرَ ٱلمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ ٱلعَرَبِ طَلَّقَ خَمْسَ نِسْوَةٍ ، قَالَ ٱلرَّشِيدُ : إِنَّمَا يَجُوزُ مَلْكُ رَجُلٍ عَلَىٰ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ ، فَكَيْفَ طَلَّقَ خَمْساً ؟! قُلْتُ : كَانَ لِرَجُلٍ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِنَّ يَوْماً ، فَوَجَدَهُنَّ مُتَلاحِيَاتٍ مُتَنَازِعَاتٍ ـ وَكَانَ ٱلرَّجُلُ شِنْظِيرَةً[1] ـ فَقَالَ : إِلَىٰ مَتَىٰ ٱلتَّنَازُعُ ؟ مَا إِخَالُ هَذَا ٱلأَمْرَ إِلَّا مِنْ قِبَلِكِ ـ يَقُولُ ذَلِكَ لِامْرَأَةٍ مِنْهُنَّ ـ ٱذْهَبِي ، فَأَنْتِ طَالِقٌ ! فَقَالَتْ لَهُ صَاحِبَتُهَا : عَجَّلْتَ عَلَيْهَا بِٱلطَّلاقِ ، وَلَوْ أَدَّبْتَهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ لَكُنْتَ حَقِيقاً ؛ فَقَالَ لَهَا : وَأَنْتِ أَيْضاً طَالِقٌ ! فَقَالَتْ لَهُ ٱلثَّالِثَةُ : قَبَّحَكَ ٱللهُ ! فَوَاللهِ لَقَدْ كَانَتَا إِلَيْكَ مُحْسِنَتَيْنِ ، وَعَلَيْكَ مُفْضِلَتَيْنِ ! فَقَالَ : وَأَنْتِ أَيَّتُهَا ٱلْمُعَدِّدَةُ أَيَادِيهِمَا طَالِقٌ أَيْضاً ؛ فَقَالَتْ لَهُ ٱلرَّابِعَةُ ، وَكَانَتْ هِلَالِيَّةً وَفِيهَا أَنَاةٌ شَدِيدَةٌ : ضَاقَ صَدْرُكَ عَنْ أَنْ تُؤَدِّبَ نِسَاءَكَ إِلَّا بِٱلطَّلاقِ ! فَقَالَ لَهَا : وَأَنْتِ طَالِقٌ أَيْضاً ! وَكَانَ ذَلِكَ بِمَسْمَعِ جَارَةٍ لَهُ ، فَأَشْرَفَتْ عَلَيْهِ وَقَدْ سمِعَتْ كَلامَهُ : فَقَالَتْ : وَٱللهِ مَا شَهِدَتِ ٱلْعَرَبُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ قَوْمِكَ بِٱلضَّعْفِ إِلَّا لِمَا بَلَوْهُ مِنْكُمْ ووَجَدُوهُ مِنْكُمْ ، أَبَيْتَ إِلَّا طَلَاقَ نِسَائِكَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ! قَالَ : وَأَنْتِ أَيْضاً أَيَّتُهَا ٱلْمُؤَنِّبَةُ ٱلْمُتَكَلِّفَةُ طَالِقٌ ، إِنْ أَجَازَ زَوْجُكِ ! فَأَجَابَهُ مِنْ دَاخِلِ بَيْتِهِ : قَدْ أَجَزْتُ ! قَدْ أَجَزْتُ !

* * *

(١) شِنْظِيرَةٌ : سَيِّءُ ٱلْخُلُقِ .

١٦٢٥ ـ وَطَلَّقَ رَجُلٌ ٱمْرَأَتَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا صَنَعْتَ ! قَالَ : طَلَّقْتُها وَٱلأَرْضَ مِنْ وَرَائِهَا .

يُرِيدُ : لا أَقْرَبُ نَاحِيَةً هِيَ بِهَا .

* * *

١٦٢٦ ـ وَكَانَ عِنْدَ بَعْضِهِمُ ٱمْرَأَةٌ ، فَأَسَاءَتْ إِلَيْهِ يَوْماً ، فَقَالَ لَهَا : أَمْرُكِ بِيَدِكِ ؛ فَقَالَتْ : لَقَدْ كَانَ فِي يَدِكَ عِشْرِينَ سَنَةً فَأَحْسَنْتَ حِفْظَهُ وَلَمْ تُضَيِّعْهُ ، أَفَأُضَيِّعُهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ إِذْ صَارَ فِي يَدِي ! قَدْ صَرَفْتُهُ إِلَيْكَ وَرَدَدْتُ عَلَيْكَ حَقَّكَ ؛ فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ! مِنْهَا وَأَمْسَكَهَا .

* * *

١٦٢٧ ـ وَدَخَلَ ٱلْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ يَوْماً عَلَىٰ زَوْجتِهِ فَارِعَةَ ٱلثَّقَفِيَّةِ ، فَوَجَدَهَا تَتَخَلَّلُ حِينَ ٱنْفَتَلَتْ مِنْ صَلاةِ ٱلْغَدَاةِ ، فَقَالَ لَهَا : إِنْ كُنتِ تَتَخَلَّلِينَ مِنْ طَعَامِ ٱلْبَارِحَةِ فَإِنَّكِ لَقَذِرَةٌ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ طَعَامِ ٱلْيَوْمِ إِنَّكِ لَنَهِمَةٌ ، كُنْتِ فَبِنْتِ ؛ قَالَتْ : وَٱللهِ ، مَا فَرِحْنَا إِذْ كُنَّا ، وَلَا أَسِفْنَا إِذْ بِنَّا ؛ وَمَاهُوَ بِشَيْءٍ مِمَّا ظَنَنْتَ وَلَكِنِّي ٱسْتَكْتُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَخَلَّلَ بِٱلسِّوَاكِ ؛ فَنَدِمَ ٱلْمُغِيرَةُ عَلَىٰ مَا بَدَرَ مِنْهُ ، فَخَرَجَ أَسِفاً ، فَلَقِيَ يُوسُفَ ٱبْنَ أَبِي عَقِيلٍ ـ وَالِدَ ٱلْحَجَّاجِ ـ فَقَالَ لَهُ : هَلْ لَكَ إِلَىٰ شَيْءٍ أَدْعُوكَ إِلَيْهِ ؟ قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : إِنِّي نَزَلْتُ ٱلسَّاعَةَ عَن سَيِّدَةِ نِسَاءِ ثَقِيفَ ، فَتَزَوَّجْهَا ، فَإِنَّهَا تُنْجِبُ لَكَ ؛ فَتَزَوَّجَهَا ، فَوَلَدَتْ لَهُ ٱلْحَجَّاجَ .

* * *

**ٱلْمُتَبَرِّمُ بِٱمْرَأَتِهِ ، ٱلْمُتَمَنِّي طَلَاقَهَا :**

١٦٢٨ ـ حَدَّثَ ٱلأَصْمَعِيُّ ، قَالَ : كُنْتُ مُؤَاخِياً لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ حِمَىٰ

ضَرِيَّةَ ، وَكَانَ جَوَاداً رَثَّ ٱلْحَالِ ، فَمَرَرْتُ بِهِ يَوْماً فِي بَعْضِ تَرَدُّدِي عَلَىٰ ٱلأَحْيَاءِ ، فَإِذَا هُوَ كَئِيبٌ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَأْنِهِ ، فَقَالَ [من الطويل] :

تَمُرُّ بِعُودَيْ نَعْشِهَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ... دِمَشْقُ خُذِيهَا وَٱعْلَمِي أَنَّ لَيْلَةً

بَعِيدَةِ مَهْوَىٰ ٱلْقُرْطِ طَيِّبَةِ ٱلنَّشْرِ [1] ... شَرِبْتُ دَماً إِنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ

إِذَا هِيَ لَمْ تُقْتَلْ تَعِشْ آخِرَ ٱلدَّهْرِ ... أَمَالَكِ عُمْرٌ إِنَّمَا أَنْتِ حَيَّةٌ

لِهَنَّكِ فِي ٱلدُّنْيَا لَبَاقِيَةُ ٱلْعُمْرِ [2] ... ثَمَانِينَ حَوْلًا لا أَرَى مِنْكِ رَاحَةً

تَكُنْ مِنْ نِسَاءِ ٱلْحَيِّ لِي بَيْضَةَ ٱلْعُقْرِ [3] ... فَإِنْ أَنْقَلِبْ مِنْ عُمْرٍ صَعْبَةَ سَالِماً

وَٱلْبَيْتَانِ ٱلأَخِيرَانِ لِعُرْوَةَ ٱلرَّحَّالِ [4] ؛ فَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ أَعِظُهُ وَأُصَبِّرُهُ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الطويل] :

لأَرْسَلْتُهَا مِمَّا أُلاقِي مِنَ ٱلْهَمِّ ... فَلَوْ أَنَّ نَفْسِي فِي يَدَيَّ مُطِيعَتِي

---

(١) « شَرِبْتُ دَماً » ذَهَبُوا فِي مَعْنَاهَا مَذَاهِبَ ، أَحَدُهَا أَنَّ ٱلدَّمَ حَرَامٌ فِي ٱلإِسْلامِ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : أَتَيْتُ حَرَاماً ؛ وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْعَرَبَ كَانَ ٱلرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا أَرْمَلَ ـ ٱفْتَقَرَ ـ وَلَمْ يَجِدْ زَاداً فَصَدَ بَعِيرَهُ ، فَأَرْسَلَ مِنْ دَمِهِ بِقَدْرِ ٱلْحَاجَةِ ، ثُمَّ أَدْنَاهُ مِنَ ٱلنَّارِ ، فَأَكَلَهُ ؛ وَٱلثَّالِثُ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ : شَرِبْتُ دَماً : عَجَزْتُ عَنْ إِدْرَاكِ ٱلثَّأْرِ وَأَخَذْتُ ٱلدِّيَةَ إِبِلًا فَشَرِبْتُ أَلْبَانَهَا ، فَكَأَنَّهُ قَدْ شَرِبَ دَماً ، كَمَا قَالَ ٱلآخَرُ [من الطويل] :

دَمٌ غَيْرَ أَنَّ ٱللَّوْنَ لَيْسَ بِأَحْمَرَا ... وَإِنَّ ٱلَّذِي أَصْبَحْتُمْ تَشْرَبُونَهُ

(٢) لِهَنَّك : لأَنَّكِ .

(٣) بَيْضَةُ ٱلْعُقْرِ ، مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْمَرَّةِ ٱلأَخِيرَةِ ، يُقَالُ : كَانَتْ بَيْضَةَ ٱلْعُقْرِ ، أَيْ : لا أَعُودُ إِلَيْهَا . ٱنْظُرِ « ٱللِّسَانَ » مَادَّةَ : عقر .

(٤) سُمِّيَ رَحَّالًا لأَنَّهُ كَانَ وَفَّاداً عَلَىٰ ٱلْمُلُوكِ ، وَذَا قَدْرٍ عِنْدَهُمْ ، وَهُوَ ٱلَّذِي أَجَازَ لَطِيمَةَ ٱلنُّعْمَانِ ٱلَّتِي كَانَ يَبْعَثُ بِهَا فِي كُلِّ عَامٍ إِلَىٰ عُكَاظَ ، فَقَتَلَهُ ٱلْبَرَّاضُ بْنُ قَيْسٍ ٱلْكِنَانِيُّ ، وَٱسْتَاقَ ٱلْعِيرَ ، فَقِيلَ : « أَفْتَكُ مِنَ ٱلْبَرَّاضِ » وَبِسَبَبِهِ هَاجَتْ حَرْبُ ٱلْفِجَارِ بَيْنَ حَيَّيْ خِنْدِفَ وَقَيْسٍ ؛ وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ [من الخفيف] :

وَٱلْفَيَافِي كَٱلْحَيَّةِ ٱلنَّضْنَاضِ ... وَٱلْفَتَىٰ مَنْ تَعَرَّقَتْهُ ٱللَّيَالِي

فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ ٱلْبَرَّاضِ ... كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ ٱللَّيَالِي

وَلَـوْ كَـانَ قَتْلِيهَـا حَـلالاً قَتَلْتُهَـا ... وَكَانَ وُرُودُ ٱلْمَوْتِ خَيْراً مِنَ ٱلْغَمِّ
تَعَـرَّضْـتُ لِـلأَفْعَـىٰ أُحَـاوِلُ وَطْأَهَـا ... لَعَلِّـيَ أَنْجُـو مِـنْ صُعَيْبَـةَ بِـٱلسُّـمِّ
فَيَـا رَبِّ ٱكْفِنِيهَـا وَإِلَّا فَنَجِّنِـي ... وَإِنْ كَانَ يَوْمِي قَبْلَهَا فَٱقْضِيَنْ حَتْمِي

* * *

## مَنْ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ فَتَبِعَتْهَا نَفْسُهُ :

### ٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّوَارُ :

١٦٢٩ ـ حَدَّثَ أَبُو شَفْقَلٍ رَاوِيَةُ ٱلْفَرَزْدَقِ(١) ، قَالَ : قَالَ لِي ٱلْفَرَزْدَقُ يَوْماً : ٱمْضِ بِنَا إِلَىٰ حَلْقَةِ ٱلْحَسَنِ ـ ٱلْحَسَنِ ٱلْبَصْرِيِّ ـ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُطَلِّقَ ٱلنَّوَارَ ؛ فَقُلْتُ : إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ أَنْ تَتْبَعَهَا نَفْسُكَ ، وَيَشْهَدَ عَلَيْكَ ٱلْحَسَنُ وَأَصحَابُهُ ؛ فَقَالَ : ٱمْضِ بِنَا ؛ فَجِئْنَا حَتَّىٰ وَقَفْنَا عَلَىٰ ٱلْحَسَنِ ، فَقَالَ : كيف أَصْبَحْتَ يَا أَبَا سَعِيدٍ ؟ فَقَالَ : بِخَيْرٍ ، كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا أَبَا فِرَاسٍ ؟ قَالَ : تَعَلَّمُنْ(٢) أَنَّ ٱلنَّوَارَ مِنِّي طَالِقٌ ثَلاثًا ؛ فَقَالَ ٱلْحَسَنُ وَأَصْحَابُهُ : قَدْ سَمِعْنَا ؛ قَالَ : فَٱنْطَلَقْنَا ؛ قَالَ : فَقَال لِي ٱلْفَرَزْدَقُ : يَا هَذَا ! إِنَّ فِي قَلْبِي مِنَ ٱلنَّوَارِ شَيْئاً ؛ فَقُلْتُ : قَدْ حَذَّرْتُكَ ؛ فَقَالَ [من الوافر] :

نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ ٱلْكُسَعِـيِّ لَمَّـا ... غَـدَتْ مِنِّـي مُطَلَّقَـةً نَـوَارُ(٣)
وَكُنْـتُ كَفَـاقِـىءٍ عَيْنَيْـهِ عَمْـداً ... فَـأَصْبَـحَ لا يُضِـيءُ لَـهُ ٱلنَّهَـارُ
وَمَـا فَـارَقْتُهَـا شِبَعـاً وَلَكِـنْ ... رَأَيْـتُ ٱلـزُّهْـدَ يَـأْخُـذُ مَـا يُعَـارُ(٤)

---

(١) وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْفَرَزْدَقُ [من الطويل] :
أَبُـو شَفْقَـلٍ شَيْـخٌ عَـنِ ٱلْحَـقِّ جَـائِـرٌ ... بِبَـابِ ٱلْهُـدَىٰ وَٱلـرُّشْـدِ غَيْـرُ بَصِيـرِ
(٢) تَعَلَّمُنْ : فِعْلُ أَمْرٍ مُسْنَدٍ إِلَىٰ وَاوِ ٱلْجَمَاعَةِ ٱلْمَحْذُوفَةِ مُؤَكَّداً بِٱلنُّونِ ٱلْخَفِيفَةِ .
(٣) ٱلْكُسَعِيُّ ، هُوَ : رَجُلٌ مِنْ كُسَعٍ كَزُفَرٍ ؛ حَيٌّ مِنَ ٱلْيَمِنِ رُمَاةٌ ، وَحَدِيثُهُ مَشْهُورٌ .
(٤) وَمَا فَارَقْتُهَا شِبَعاً ، كَنَّىٰ بِذَلِكَ عَنِ ٱلْبَطَرِ ، وَقَوْلُهُ : رَأَيْتُ ٱلزُّهْدَ ، فَٱلزُّهْدُ ضِدُّ ٱلرَّغْبَةِ فِي =

وَكَـانَـتْ جَنَّتِـي فَخَـرَجْـتُ مِنْهَـا كَـآدَمَ حِيـنَ أَخْـرَجَـهُ ٱلضِّـرَارُ
وَلَـوْ أَنِّـي مَلَكْـتُ يَـدِي وَنَفْسِـي لَكَـانَ عَلَـيَّ لِلقَـدَرِ ٱلْخِيَـارُ

* * *

**قَيْسُ وَلُبْنَىٰ :**

١٦٣٠ ـ أمَّا قَيسُ بْنُ ذَرِيحٍ وَلُبْنَىٰ بِنْتُ ٱلْحُبَابِ ٱلْكَعْبِيَّةُ فَحَدِيثُهُمَا يَطُولُ(١) ، وَلَيْسَ مِمّا يُعْنِينَا هُنَا ، وَلَكِنَّ ٱلَّذِي يُعْنِينَا هُوَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ قَيْسٍ بَعْدَ أَنْ طَلَّقَهَا ، قَالُوا : لَمَّا أَلَحَّ ذَرِيحُ عَلَىٰ ٱبْنِهِ قَيْسٍ فِي طَلاقِ لُبْنَىٰ ، فَأَبَىٰ ذَلِكَ قَيْسٌ ، طَرَحَ ذَرِيحٌ نَفْسَهُ فِي ٱلرَّمْضَاءِ ، وَقَالَ : لَا وَٱللهِ لا أَرِيمُ هَذَا ٱلْمَوْضِعَ حَتَّىٰ أَمُوتَ أَوْ يُخَلِّيهَا ؛ فَجَاءَهُ قَوْمُهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، فَعَظَّمُوا عَلَيْهِ ٱلأَمْرَ ، وَذَكَّرُوهُ بِٱللهِ ، وَقَالُوا : أَتَفْعَلُ هَذَا بِأَبِيكَ وَأُمِّكَ ؟ إِنْ مَاتَ شَيْخُكَ عَلَىٰ هَذِهِ ٱلْحَالِ كُنْتَ مُعِيناً عَلَيْهِ وَشَرِيكاً فِي قَتْلِهِ ! فَفَارَقَ لُبْنَىٰ عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِهِ ، وَقِلَّةِ صَبْرِهِ ، وَبُكاءٍ مِنْهُ ؛ حَتَّىٰ بَكَىٰ لَهُمَا مَنْ حَضَرَهُمَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الوافر] :

أَقُـولُ لِخُلَّتِـي فِـي غَيْـرِ جُـرْمٍ أَلَا بِينِـي ، بِنَفْسِـي أَنْـتِ ، بِينِـي
فَـوَٱللهِ ٱلْعَظِيـمِ لَنَـزْعُ نَفْسِـي وَقَطْـعُ ٱلـرِّجْـلِ مِنِّـي وَٱلْيَمِيـنِ
أَحَـبُّ إِلَـيَّ يَـا لُبْنَـىٰ فِـرَاقـاً فَبَكِّـي لِلْفِـرَاقِ وَأَسْعِـدِينِـي
ظَلَمْتُـكِ بِـٱلطَّـلاقِ بِغَيْـرِ جُـرْمٍ فَقَـدْ أَذْهَبْـتُ آخِـرَتِـي وَدِينِـي

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِذَلِكَ لُبْنَىٰ بَكَتْ بُكاءً شَدِيداً ، وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ [من الوافر] :

رَحَلْـتُ إِلَيْـهِ مِـنْ بَلَـدِي وَأَهْلِـي فَجَـازَانِـي جَـزَاءَ ٱلْخَـائِنِينَـا

= ٱلشَّيْءِ وَٱلْحِرْصِ عَلَيْهِ .

(١) أَنْظُرْ حَدِيثَ قَيْسٍ وَلُبْنَىٰ في « الأَغَانِي » ج٩ طَبْعَة دَارِ ٱلْكُتُبِ ، فَهُنَاكَ مَا يَنْقَعُ غِلَّتَكَ .

فَمَـــنْ رَآنِـــي فَـــلا يَغْتَـــرُّ بَعْـــدِي ... بِحُلْـــوِ ٱلْقَـــوْلِ أَوْ يَبْلُـــوَ ٱلـــدَّفِينَـــا

فَلَمَّا ٱنْقَضَتْ عِدَّتُهَا وَأَرَادَتِ ٱلشُّخُوصَ إِلَىٰ أَهْلِهَا أُتِيَتْ بِرَاحِلَةٍ لِتُحْمَلَ عَلَيْهَا ، فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَيْسٌ دَاخَلَهُ مِنْهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَٱشْتَدَّ لَهْفُهُ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْراً ، ثُمَّ ٱرْتَحَلَتْ لُبْنَىٰ ، فَجَعَلَ قَيْسُ يُقَبِّلُ مَوْضِعَ رِجْلَيْهَا مِنَ ٱلأَرْضِ وَحَوْلَ خِبَائِهَا . فَلَمَّا رَأَىٰ ذَلِكَ قَوْمُهُ أَقْبَلُوا عَلَىٰ أَبِيهِ بِٱلْعَذْلِ وَٱللَّوْمِ ، فَقَالَ ذَرِيحُ لَمَّا رَأَىٰ حَالَهُ تِلْكَ : قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ؛ فَقَالَ لَهُ قَيْسٌ : قَدْ كُنْتُ أُخْبِرُكَ أَنِّي مَجْنُونٌ بِهَا فَلَمْ تَرْضَ إِلَّا بِقَتْلِي ، فَٱللهُ حَسْبُكَ وَحَسْبُ أُمِّي !

وَأَقْبَلَ قَوْمُهُ يَعْذُلُونَهُ فِي تَقْبِيلِهِ ٱلتُّرَابَ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ [من الوافر] :

فَمَـــا حُبِّـــي لِطِيـــبِ تُـــرَابِ أَرْضٍ ... وَلَكِـــنْ حُـــبُّ مَـــنْ وَطِـــىءَ ٱلتُّـــرَابَـــا

فَهَـــذَا فِعْـــلُ شَيْخَيْنَـــا جَمِيعـــاً ... أَرَادَا لِـــي ٱلْبَلِيَّـــةَ وَٱلْعَـــذَابَـــا

* * *

١٦٣١ ـ وَمِنْ جَيِّدِ شِعْرِ قَيْسٍ فِي لُبْنَىٰ قَصِيدَتُهُ ٱلْعَيْنِيَّةُ ، وَٱلْمُخْتَارُ مِنْهَا قَوْلُهُ [من الطويل] :

أَتَبْكِـي عَلَـىٰ لُبْنَـىٰ وَأَنْـتَ تَـرَكْتَهَـا ... وَكُنْـتَ كَـآتٍ حَتْفَـهُ وَهُـوَ طَـائِـعُ

فَيَا قَلْبُ صَبْراً وَٱعْتِرَافاً لِمَا تَرَىٰ ... وَيَا حُبَّهَا قَعْ بِٱلَّذِي أَنْتَ وَاقِعُ[١]

وَيَا قَلْبُ خَبِّرْنِي إِذَا شَطَّتِ ٱلنَّوَىٰ ... بِلُبْنَىٰ وَبَانَتْ عَنْكَ مَا أَنْتَ صَانِعُ ؟

أَتَصْبِـرُ لِلْبَيْـنِ ٱلْمُشِـتِّ مَـعَ ٱلْجَـوَىٰ ... أَمْ أَنْتَ ٱمْرُؤٌ نَاسِي ٱلْحَيَاءِ فَجَازِعُ ؟

كَـأَنَّـكَ بِـدْعٌ لَـمْ تَـرَ ٱلنَّـاسَ قَبْلَهَـا ... وَلَمْ يَطَّلِعْكَ ٱلدَّهْرُ فِيمَنْ يُطَالِعُ[٢]

---

(١) يُقَالُ : ٱعْتَرَفَ لِلأَمْرِ ، أَيْ : صَبَرَ .

(٢) ٱلبِدْعُ : ٱلْغَمْرُ مِنَ ٱلرِّجَالِ ، وَهُوَ ٱلَّذِي لَمْ يُجَرِّبِ ٱلأُمُورَ .

أَلَا يَا غُرابَ ٱلْبَيْنِ قدْ طِرْتَ بِٱلَّذِي ... أُحَاذِرُ مِنْ لُبْنَىٰ فَهَلْ أَنْتَ وَاقِعُ ؟
فَلَيْسَ مُحِبٌّ دَائِماً لِحَبِيبِهِ ... وَلا ثِقَةٌ إِلَّا لَهُ ٱلدَّهْرَ فَاجِعُ
كَأَنَّ بِلادَ ٱللهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا ... وَإِنْ كَانَ فِيهَا ٱلنَّاسُ ، قَفْرٌ بَلاقِعُ
فَمَا أَنْتَ إِذْ بَانَتْ لُبَيْنَىٰ بِهَاجِعٍ ... إِذَا مَا ٱطْمَأَنَّتْ بِٱلنِّيَامِ ٱلْمَضَاجِعُ
أُقَضِّي نَهَارِي بِٱلْحَدِيثِ وَبِٱلْمُنَىٰ ... وَيَجْمَعُنِي وَٱلْهَمَّ بِٱللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارُ ٱلنَّاسِ حَتَّىٰ إِذَا دَجَا ... لِيَ ٱللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْمَضَاجِعُ
لَقَدْ رَسَخَتْ فِي ٱلْقَلْبِ مِنْكِ مَوَدَّةٌ ... كَمَا رَسَخَتْ فِي ٱلرَّاحَتَيْنِ ٱلأَصَابِعُ

إِلَىٰ أَنْ قَالَ :

وَلَيْسَ لأَمْرٍ حَاوَلَ ٱللهُ جَمْعَهُ ... مُشِتٌّ وَلا مَا فَرَّقَ ٱللهُ جَامِعُ
فَلا تَبْكِيَنَّ فِي إِثْرِ لُبْنَىٰ نَدَامَةً ... وَقَدْ نَزَعَتْهَا مِنْ يَدَيْكَ ٱلنَّوَازِعُ

* * *

١٦٣٢ ـ وَقَدِ ٱخْتُلِفَ في آخِرِ أَمْرِ قَيْسٍ وَلُبْنَىٰ ، فَذَكَرَ أَكْثَرُ ٱلرُّوَاةِ أَنَّهُمَا مَاتَا عَلَىٰ ٱفْتِرَاقِهِمَا ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مَاتَ قَبْلَهَا ، وَبَلَغَهَا ذَلِكَ ، فَمَاتَتْ أَسَفاً عَلَيْه ، وَفِيهِمْ مَنْ قَالَ : بَلْ مَاتَتْ قَبْلَهُ ، وَمَاتَ بَعْدَهَا أَسَفاً عَلَيْهَا ، وَذَكَرَ آخَرُونَ أَنَّ ٱبْنَ أَبِي عَتِيقٍ صَارَ إِلَىٰ ٱلْحَسَنِ وَٱلْحُسَيْنِ ٱبْنَيْ عَلِيِّ ٱبْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدِ ٱللهِ بْنِ جَعْفَرٍ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُمْ وَجَمَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ لِي حَاجَةً إِلَىٰ رَجُلٍ أَخْشَىٰ أَنْ يَرُدَّنِي فِيهَا ، وَإِنِّي أَسْتَعِينُ بِجَاهِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ فِيهَا عَلَيْه ؛ قَالُوا : ذَلِكَ لَكَ مُبْتَذَلٌ مِنَّا ؛ فَٱجْتَمَعُوا لِيَوْمٍ وَعَدَهُمْ فِيه ، فَمَضَىٰ بِهِمْ إِلَىٰ زَوْجِ لُبْنَىٰ ، فَلَمَّا رَآهُمْ أَعْظَمَ مَصِيرَهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَكْبَرَهُ ، فَقَالُوا : لَقَدْ جِئْنَاكَ بِأَجْمَعِنَا في حَاجَةٍ لِٱبْنِ أَبِي عَتِيقٍ ؛ قَالَ : هِيَ مَقْضِيَّةٌ كَائِنَةً مَا كَانَتْ ؛ قَالَ ٱبْنُ أَبِي عَتِيقٍ : قَدْ قَضَيْتَهَا كَائِنَةً مَا كَانَتْ مِنْ مِلْكٍ أَوْ مَالٍ أَو أَهْلٍ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛

قَالَ : تَهَبُ لَهُمْ وَلِي لُبْنَىٰ زَوْجَتَكَ وَتُطَلِّقُهَا ؛ قَالَ : فَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنَّهَا طَالِقٌ ثَلاثاً ؛ فَٱسْتَحْيَا ٱلْقَوْمُ وَٱعْتَذَرُوا ، وَقَالُوا : وَٱللهِ مَا عَرَفْنَا حَاجَتَهُ ، وَلَوْ عَلِمْنَا أَنَّهَا هَذِهِ مَا سَأَلْنَاكَ إِيَّاهَا ؛ قَالُوا : فَعَوَّضَهُ ٱلْحَسَنُ مِنْ ذَلِكَ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَحَمَلَهَا ٱبْنُ أَبِي عَتِيقٍ إِلَيهِ ، فَلَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ حَتَّىٰ ٱنْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، فَسَأَلَ ٱلْقَوْمُ أَبَاهَا ، فَزَوَّجَهَا قَيْساً ، فَلَمْ تَزَلْ مَعَهُ حَتَّىٰ مَاتَا ، قَالُوا :

فَقَالَ قَيْسُ يَمْدَحُ ٱبْنَ أَبِي عَتِيقٍ [من الوافر] :

جَزَىٰ ٱلرَّحْمَنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَىٰ ٱلإِحْسَانِ خَيْراً مِنْ صَدِيقِ
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيعاً فَمَا أَلْفَيْتُ كَٱبْنِ أَبِي عَتِيقِ
سَعَىٰ فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعٍ وَرَأْيٍ حِدْتُ فِيهِ عَنِ ٱلطَّرِيقِ
وَأَطْفَأَ لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِي أَغَصَّتْنِي حَرَارَتُهَا بِرِيقِي

فَقَالَ لَهُ ٱبْنُ أَبِي عَتِيقٍ : يَا حَبِيبِي ! أَمْسِكْ عَنْ هَذَا ٱلْمَدِيحِ ، فَمَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا ظَنَّنِي قَوَّاداً .

* * *

١٦٣٣ ـ وَطَلَّقَ أَعْرَابِيٌّ ٱمْرَأَتَهُ ، ثُمَّ نَدِمَ ، فَقَالَ [من الطويل] :

نَدِمْتُ وَمَا تُغْنِي ٱلنَّدَامَةُ بَعْدَمَا خَرَجْنَ ثَلاثٌ مَا لَهُنَّ رُجُوعُ
ثَلاثٌ يُحَرِّمْنَ ٱلْحَلالَ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ وَيَصْدَعْنَ شَعْبَ ٱلدَّارِ وَهُوَ جَمِيعُ

* * *

### وَمَنْ طُلِّقَتْ فَتَأَلَّبَتْ :

١٦٣٤ ـ جَاءَ فِي « أَمَالِي ٱلْقَالِي » [٢/٨٦] : كَانَتْ أُمُّ ٱلضَّحَّاكِ ٱلْمُحَارِبِيَّةُ تَحْتَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي ٱلضِّبَابِ ، وَكَانَتْ تُحِبُّهُ حُبّاً شَدِيداً ، فَطَلَّقَهَا ، فَقَالَتْ [من الطويل] :

هَلِ ٱلْقَلْبُ إِنْ لَاقَىٰ ٱلضِّبَابِيَّ خَالِياً لَدَىٰ ٱلرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ ٱلصَّفَا مُتَحَرِّجُ
وَأَعْجَلَنَا قُرْبُ ٱلْمَحَلِّ وَبَيْنَنَا حَدِيثٌ كَتَشْنَاجِ ٱلْمَرِيضَيْنِ مُزْعِجُ(١)
حَدِيثٌ لَوَ أَنَّ ٱللَّحْمَ يَصْلَىٰ بِحَرِّهِ طَرِيًّا أَتَىٰ أَصْحَابَهُ وَهُوَ مُنْضَجُ

* * *

١٦٣٥ ـ وَلَهَا أَيْضاً [من الطويل] :

سَأَلْتُ ٱلْمُحِبِّينَ ٱلَّذِينَ تحَمَّلُوا تَبَارِيحَ هَذَا ٱلْحُبِّ مِنْ سَالِفِ ٱلدَّهْرِ
فَقُلْتُ لَهُم : ما يُذْهِبُ ٱلْحُبَّ بَعْدَمَا تَبَوَّأَ مَا بَيْنَ ٱلْجَوَانحِ وَٱلصَّدْرِ ؟
فَقَالُوا : شِفَاءُ ٱلْحُبِّ حُبٌّ يُزِيلُهُ مِنْ آخَرٍ أَوْ نَأْيٌ طَوِيلٌ عَلَىٰ هَجْرِ
أَوِ ٱلْيَأْسُ حَتَّىٰ تَذْهَلَ ٱلنَّفْسُ بَعْدَمَا رَجَتْ طَمَعاً وَٱلْيَأْسُ عَوْنٌ عَلَىٰ ٱلصَّبْرِ

[« الأمالي » للقالي ٢/ ٨٦]

* * *

١٦٣٦ ـ وَلَهَا حِينَ سَلَتْ عَنْهُ [من الطويل] :

تَعَزَّيْتُ عَنْ حُبِّ ٱلضِّبَابِيِّ حِقْبَةً وَكُلُّ عَمَايَا جَاهِلٍ سَتَثُوبُ
يَقُولُ خَلِيلُ ٱلنَّفْسِ : أَنْتِ مُرِيبَةٌ كِلانَا لَعَمْرِي قَد صدَقْتَ مُرِيبُ
وَأَرْيَبُنَا مَنْ لا يُؤَدِّي أَمَانَةً وَلا يَحْفَظُ ٱلأَسْرَارَ حِينَ يَغِيبُ(٢)
أَلَهْفاً بِمَا ضَيَّعْتَ وُدِّي ومَا هَفَا فُؤادِي بِمَنْ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُثِيبُ

[« الأمالي » للقالي ٢/ ٨٧]

* * *

(١) كَتَشْنَاجِ ، يُرْوَىٰ أَيْضاً : كَتَشْنِيجِ ، وَكِلاهُمَا : ٱلأَنِينُ .
(٢) أَجْمَعَ ٱلرُّوَاةُ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا ٱلْبَيْتَ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ لِجَمِيلِ بُثَيْنَةَ .

**قُرْبُ تَطْلِيقِ ٱلْمَرْأَةِ مِنْ تَزَوُّجِهَا :**

١٦٣٧ ـ زَوَّجَ بَعْضُهُمْ ٱبْنَتَهُ مِنْ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ ، فَلَمَا مَضَتْ إِلَيْهِ طَلَّقَهَا عَلَىٰ ٱلْمَنَصَّةِ[1] . فَجَاءَ أَبُوهَا إِلَىٰ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ ، فَقَالَ : إِنَّ عَمْرَو بْنَ عُثْمَانَ طَلَّقَ ٱبْنَتِي فِي ٱلْمِنَصَّةِ ! وَأَخْشَىٰ أَنْ يَظُنَّ ٱلنَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ لِعَاهَةٍ ! وَأَنْتَ عَمُّهُ ، فَعَاتِبْهُ ؛ فَقَالَ : أَوَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ ؟ ٱئْتُونِي بِٱلْمُصْعَبِ ـ هُوَ ٱلْمُصْعَبُ أَخُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ ـ فَزَوَّجَهَا مِنْهُ ، وَأَقْسَمَ لَيَدْخُلَنَّ بِهَا مِنْ لَيْلَتِهِ ، فَمَا رُؤِيَتِ ٱمْرَأَةٌ نُصِبَتْ عَلَىٰ رَجُلَيْنِ فِي لَيْلَةٍ سِوَاهَا . . .

* * *

١٦٣٨ ـ وَتَزَوَّجَ ٱلْوَلِيدُ فِي خِلافَتِهِ نَيِّفاً وَسَبْعِينَ ٱمْرَأَةً ، فَلَمَّا دَخَلَ بِٱلآخِرَةِ وَأَرَادَ أَنْ يَقُومَ أَخَذَتْ بِثَوْبِهِ ، وَقَالَتْ : مَا تَرَىٰ ؟ أَقِمْ لَك كَفِيلًا أَلَّا تَأْمُرَ بِتَسْرِيحِي ! فَضَحِكَ وَٱسْتَمْلَحَهَا وَأَمْسَكَهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ طَلَّقَهَا بَعْدَ ذَلِكَ .

* * *

**مُرَاجَعَةُ ٱلْمَرْأَةِ بَعْدَ طَلاقِهَا :**

١٦٣٩ ـ قَالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ** ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٣٢] .

ٱنْظُرْ : حَضُّهُمْ عَلَىٰ ٱلزَّوَاجِ . [ الأرقام : ١٣٣٣ ـ ١٣٥٦ ] .

* * *

(١) ٱلْمِنَصَّةُ : ٱلْكُرْسِيُّ تُرْفَعُ عَلَيْهِ ٱلْعَرُوسُ فِي جَلائِهَا .

١٦٤٠ ـ وَطَلَّقَ ٱلْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ ٱمْرَأَتَيْنِ : قُرَشِيَّةً وَجُعْفِيَّةً[1] . فَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ وَاحِدَةٍ عِشْرِينَ أَلْفاً ، وَقَالَ لِلرَّسُولِ : ٱحْفَظْ مَا تَقُولُ كُلُّ وَاحِدَةٍ ؛ فَقَالَتِ ٱلْقُرَشِيَّةُ : جَزاهُ ٱللهُ خَيْراً ؛ وَقَالَتِ ٱلْجُعْفِيَّةُ : مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ ؛ فَرَاجَعَ ٱلْجُعْفِيَّةَ .

* * *

١٦٤١ ـ وَتَزَوَّجَ عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ ٱبْنُ أَبِي بَكْرٍ عَاتِكَةَ بِنْتَ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَدْ أَلِفَهَا حَتَّىٰ ٱشْتَغَلَ بِهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : طَلِّقْهَا ؛ فَطَلَّقَهَا ، وَقَالَ :

فَلَمْ أَرَ مِثْلِي طَلَّقَ ٱلْيَوْمَ مِثْلَهَا ... وَلا مِثْلَهَا فِي غَيْرِ شَيْءٍ تُطَلَّقُ

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُوهُ مِنْهُ ذَلِكَ قَالَ لَهُ : رَاجِعْهَا يَا بُنَيَّ ، فَإِنِّي أَرَاكَ مُحِبًّا لَهَا .

* * *

## تَفْوِيضُ ٱلطَّلاقِ إِلَيْهَا :

١٦٤٢ ـ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا ، لَمَّا أَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٣٣ سورة الأحزاب/ الآيتان : ٢٨ و٢٩] دَخَلَ ٱلنَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ : « إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْراً ، فَلا عَلَيْكِ أَلَّا تَعْجَلِي بِشَيْءٍ حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ » ، وَخَشِيَ ٱلنَّبِيُّ حَدَاثَةَ سِنِّي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : « إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُخَيِّرَكُنَّ » ، ثُمَّ تَلا ٱلآيَةَ عَلَيْنَا ، فَقُلْتُ : فِيمَ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ ! بَلْ أَخْتَارُ ٱللهَ

---

(١) جُعْفِيَّةٌ ، نِسْبَةٌ إِلَىٰ ٱلْجُعْفِ ، حَيٌّ مِنَ ٱلْيَمَنِ ؛ وَجُعْفِيٌّ : أَبُو قَبِيلَةٍ فِي ٱلْيَمَنِ .

وَرَسُولَهُ وَٱلدَّارَ ٱلآخِرَةَ ؛ فَسُرَّ ﷺ بِذَلِك ، وَكَذَٰلِكَ فَعَلَ معَ سَائِرِ نِسَائِه .

[البخاري ، رقم : ٤٧٨٦ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٧٥] .

وَأَقُولُ : وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ ٱلآيَةِ ٱلْكَرِيمَةِ ، أَوْ هَذَا ٱلتَّخْيِيرِ ؛ أَنَّ أُمَّهاتِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَرَدْنَ يَوْماً شَيْئَاً مِنَ ٱلدُّنْيَا ، مِنْ ثِيَابٍ وَزِيَادَةِ نَفَقَةٍ ، وَتَغَايَرْنَ(١) ، فَغَمَّ ذَلِكَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ ، لأَنَّ مَتَاعَ ٱلدُّنْيَا لَيْسَ مِمَّا يَعْنِيه ، وَلَيْس مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْنَىٰ بِهِ أَزْوَاجُهُ رِضْوَانُ ٱللهِ عَلَيْهِنَّ . فَنَزَلَتْ هَذه ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيمَةُ فَآثَرْنَ الآخِرَةَ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا ، وَزَالَتْ غَيْرَتُهُنَّ ، قَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي حِكْمَةِ ٱلتَّخْيِيرِ فِي ٱلطَّلاقِ : إِذَا قَال لَهَا : ٱخْتَارِي ، فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا : ٱخْتَرْتُكَ ؛ لَمْ يَقَعْ شَيْءٌ بِإِجْمَاعِ فُقَهَاءِ ٱلأَمْصَارِ ، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللهُ عَنْهَا : خَيَّرَنَا رَسُولُ ٱللهِ ﷺ فَٱخْتَرْنَاهُ ، فَلَمْ يَعُدَّ ذَلِكَ طَلاقاً ، [راجع « فتح الباري » ، الحديث رقم : ٥٢٦٢ و٥٢٦٣] أَمَّا إِنْ قَالَتْ : ٱخْتَرْتُ نَفْسِي ، فَقَدِ ٱخْتَلَفُوا : هَلْ يَقَعُ طَلْقَةً وَاحِدَةً رَجْعِيَّةً أَوْ بَائِناً أَوْ يَقَعُ ثَلاثاً ؟ ( رَاجِعْ كُتُبَ ٱلْفِقْهِ ) هَذَا : وَأَمَّا ٱلْمُتْعَةُ ٱلَّتِي جَاءَتْ فِي ٱلآيَةِ وَفِي آيَاتٍ أُخْرَىٰ فَهِيَ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ ، أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ لا يَسَعُهُ تَرْكُهُ ، وَالآخَرُ غَيْرُ وَاجِبٍ يُسْتَحَبُّ لَهُ فِعْلُهُ ؛ فَٱلْوَاجِبُ لِلْمُطَلَّقَةِ ، ٱلَّتِي لَمْ يَكُنْ زَوْجُهَا حِينَ تَزَوَّجَهَا سَمَّىٰ لَهَا صَدَاقاً وَلَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا حَتَّىٰ طَلَّقَهَا ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُمَتِّعَهَا بِما عَزَّ وَهَانَ مِنْ مَتَاعٍ يَنْفَعُهَا بِهِ ، مِنْ ثَوْبٍ يُلْبِسُهَا إِيَّاهُ أَوْ خَادِمٍ يَخْدُمُهَا أَوْ دَرَاهِمَ أَوْ طَعَامٍ ، وَهُوَ غَيْرُ مُؤَقَّتٍ ، لأَنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَحْصِرْ بِوَقْتٍ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِتَمْتِيعِهَا فَقَطْ ، وَقَدْ قَالَ : ﴿ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٣٦] وَأَمَّا ٱلْمُتْعَةُ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ ، وَهِيَ مُسْتَحَبَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلإِحْسَانِ

(١) تَغَايَرْنَ : شَاعَتْ فِيهِنَّ ٱلْغَيْرَةُ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ نَعْمَةِ غَيْرِهِنَّ وَتَوْسِعَةِ أَزْوَاجِهِنَّ فِي ٱلاعْتِيَادِ عَلَيْهِنَّ .

وَٱلْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ ، فَأَنْ يَتَزَوَّجَ ٱلرَّجُلُ ٱمْرَأَةً وَيُسَمِّي لَهَا صَدَاقاً ثُمَّ يُطَلِّقُهَا ، قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا أَوْ بَعْدَهُ ، فَيُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُمَتِّعَهَا بِمُتْعَةٍ سِوَىٰ نِصْفِ ٱلْمَهْرِ ٱلَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ لَهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا ، أَوْ ٱلْمَهْرَ ٱلْوَاجِبَ عَلَيْهِ كُلَّهُ إِنْ كَانَ دَخَلَ بِهَا فَيُمَتِّعُهَا بِمُتْعَةٍ يَنْفَعُهَا بِهِ ، وَهِيَ غَيْرُ وَاجِبَةٍ عَلَيْهِ ، لَكِنَّهُ ٱسْتِحْبَابٌ . أَمَّا تَسْرِيحُ ٱلْمَرْأَةِ ، فَهُوَ : تَطْلِيقُهَا .

* * *

## طَلاقُ ٱلسُّنَّةِ :

١٦٤٣ ـ قَالَ جَلَّ وَعَلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [٦٥ سورة الطلاق/ الآية : ١] .

هَذَا هُوَ أَحْسَنُ ٱلطَّلاقِ وَأَدْخَلُهُ فِي ٱلسُّنَّةِ وَأَبْعَدُهُ مِنَ ٱلنَّدَمِ : أَنْ يُطَلِّقَ ٱلنِّسَاءُ فِي طُهْرٍ لَمْ يُجَامَعْنَ فِيهِ ، ثُمَّ يَدَعُهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ حَتَّىٰ تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ ، وَيُرْوَىٰ أَنَّ ٱبْنَ عُمَرَ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ، فَأَتَىٰ عُمَرُ ٱلنَّبِيَّ ﷺ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يُرَاجِعَهَا ، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّىٰ تَطْهُرَ ، ثُمَّ تَحِيضَ ، ثُمَّ تَطْهُرَ ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ ، فَتِلْكَ ٱلْعِدَّةُ ٱلَّتِي أَمَرَ ٱللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا ٱلنِّسَاءُ [ راجع رقم : ١٦٥١ ] .

* * *

## ٱلطَّلاقُ ٱلثَّلاثُ :

١٦٤٤ ـ قَالَ ٱبْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ ٱلطَّلاقُ فِي عَهْدِ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلافَةِ عُمَرَ طَلاقُ ٱلثَّلاثِ وَاحِدَةً ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدِ ٱسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ

[مسلم ، رقم : ١٤٧٢] . أَيْ : إِنَّ عُمَرَ رضِيَ ٱللهُ عنْهُ لَمَّا رَأَىٰ ٱلنَّاسَ أَكْثَرُوا مِنَ ٱلطَّلاقِ بِلَفْظِ ٱلثَّلاثِ جَعَلَهُ بَائِناً بَيْنُونَةً كُبْرَىٰ ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْهُ ٱجْتِهَاداً ، وَعَلَيْهِ ٱلْعَمَلُ إِلَىٰ ٱلآنَ إِلا عِنْدَ ٱلشِّيْعَةِ . ٱنْظُرْ « إِعْلامُ ٱلْمُوَقِّعِينَ » وشُروحَ ٱلْبُخَارِيِّ [ بَلْ شُرُوحَ مُسْلِمٍ ] .

* * *

مَنْعُ ٱلزَّوْجِ مِنْهَا بَعْدَ ٱلثَّلاثِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ :

١٦٤٥ ـ قَالَ عَزَّ وَتَقَدَّسَ : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٣٠] .

وَرُوِيَ أَنَّ رِفَاعَةَ ٱلْقُرَظِيَّ تَزَوَّجَ ٱمْرَأَةً ثُمَّ طَلَّقَهَا وَبَتَّ طَلاقَهَا ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ ٱلرَّحْمَنِ بْنُ ٱلزُّبَيْرِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَمَسَّهَا ، فَأَتَتِ ٱلنَّبِيَّ ﷺ ، فَذَكَرَتْ لَهُ أَنَّهُ لا يَأْتِيهَا وَأَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا مِثْلُ هُدْبَةِ ٱلثَّوْبِ ، فَتَبَسَّمَ ٱلنَّبِيُّ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ : « لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَىٰ رِفَاعَةَ ! لا ، حَتَّىٰ تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ » ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ جَالِساً عِنْدَ ٱلرَّسُولِ وخَالِدُ بنُ سَعِيدِ بْنِ ٱلْعَاصِ جَالِساً عَلَىٰ بَابِ ٱلْحُجْرَةِ لمْ يُؤْذَنْ لَهُ ، فَطَفِقَ خَالِدُ يَتَأَذَّىٰ وَيَقُولُ : أَلَا تُزْجَرُ هَذِهِ عَمَّا تَجْهَرُ بِهِ . وَفِي رِوَايَةٍ : عَمَّا تَهْجُرُ بِهِ . [البخاري ، رقم : ٣٦٣٩ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٣٣] . مِنَ ٱلْهُجْرِ ، وَهُوَ ٱلْفُحْشُ فِي ٱلْقَوْلِ .

* * *

١٦٤٦ ـ وَسُئِلَ ٱلْمُصْطَفَىٰ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ عَنِ ٱلْمُحَلِّلِ ، فَقَالَ : « لَا ، إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ ، لا مُسْتَهْزِأً بِكِتَابِ ٱللهِ ، لَعَنَ ٱللهُ ٱلْمُحَلِّلَ وَٱلْمُحَلَّلَ لَهُ » .

[الترمذي ، رقم : ١١١٩ ؛ ابن ماجه ، رقم : ١٩٣٥] .

قَالَ ٱلْقَاضِي عِيَاضٌ : ٱلْمُحَلِّلُ ٱلَّذِي يَتَزَوَّجُ مُطَلَّقَةَ غَيْرِهِ ثَلاثاً بِقَصْدِ أَنْ يُطَلِّقَهَا بَعْدَ ٱلْوَطءِ لِيُحِلَّ لِلْمُطَلِّقِ نِكَاحَهَا ، فَكَأَنَّهُ يُحِلُّهَا عَلَىٰ ٱلزَّوْجِ ٱلأَوَّلِ بِٱلنِّكَاحِ وَٱلْوَطْءِ ، وَٱلْمُحَلَّلُ لَهُ : ٱلأَوَّلُ .

وَإِنَّمَا لَعَنَهُمَا لِمَا فِيهِ مِنْ هَتْكِ ٱلْمَوَدَّةِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَٱلدَّلَالَةِ عَلَىٰ خِسَّةِ ٱلنَّفْسِ ، أَمَّا بِٱلنِّسْبَةِ لِلمُحَلَّلِ لَهُ فَظَاهِرٌ ، وَأَمَّا بِٱلنِّسْبَةِ لِلْمُحَلِّلِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَطَؤُهَا لِتَحِلَّ لِلأَوَّلِ ، فَكَأَنَّهُ تَيْسٌ مُسْتَعَارٌ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ ٱلأَخْبَارِ .

* * *

**ذَمُّهُمْ ٱلرَّاغِبَةَ فِي ٱلطَّلاقِ وَٱلْمُخْتَلِعَةَ :**

١٦٤٧ ـ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ ٱلشَّرِيفِ : « أَيُّمَا ٱمْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا ٱلطَّلاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ ٱلْجَنَّةِ » . [الترمذي ، رقم : ١١٨٦ و١١٨٧ ؛ أبو داود ، رقم : ٢٢٢٦ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٥٥ ؛ « مسند أحمد » رقم : ٢١٨٧٤ و٢١٩٣٤ ؛ الدارمي ، رقم : ٢٢٧٠] .

مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ ، بِزِيَادَةِ « ما » لِلتَّأْكِيدِ ؛ وَٱلْبَأْسُ : ٱلشِّدَّةُ ، أَيْ : فِي غَيْرِ حَالَةِ شِدَّةٍ تُلْجِئُهَا إِلَىٰ ٱلْمُفَارَقَةِ ، كَأَنْ تَخَافَ أَنْ لا تُقِيمَ حُدُودَ ٱللهِ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهَا مِنْ حُسْنِ ٱلصُّحْبَةِ وَجَمِيلِ ٱلْعِشْرَةِ ، لِكَرَاهَتِهَا إِيَّاهُ ، أَوْ بِأَنْ يُضَارَّهَا لِتَخْتَلِعَ مِنْهُ .

* * *

١٦٤٨ ـ وَعَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ ٱمْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ ٱلنَّبِيَّ ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! ثابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلا دِينٍ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ ٱلْكُفْرَ فِي ٱلإِسْلامِ ! فَقَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ ؟ » قَالَتْ : نَعَمْ ؛ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « ٱقْبَلِ ٱلْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً » . [البخاري ، رقم : ٥٢٧٣ ؛ النسائي ، رقم : ٣٤٦٢ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠٥٦] .

قَوْلُهَا : وَلَكِنِّي أَكْرَهُ ٱلْكُفْرَ فِي ٱلإِسْلَامِ ، فَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مُرَادَهَا بِٱلْكُفْرِ كُفْرَانِ ٱلْعَشِيرِ ، إِذْ هُوَ ـ كُفْرَانُ ٱلْعَشِيرِ ـ تَقْصِيرُ ٱلْمَرْأَةِ فِي حَقِّ ٱلزَّوْجِ ، وَعِبَارَةُ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : أَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِي فِي ٱلإِسْلَامِ مَا يُنَافِي حُكْمَهُ ، مِنْ نُشُوزٍ وَفَرْكٍ ـ بُغْضٍ ـ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلشَّابَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْمُبْغِضَةِ لِزَوْجِهَا ، وَقِيلَ : إِنَّ ٱلْمَعْنَىٰ : إِنَّهَا تَخَافُ أَنْ تَحْمِلَهَا شِدَّةُ كَرَاهَتِهَا لَهُ عَلَىٰ إِظْهَارِ ٱلْكُفْرِ لِيَنْفَسِخَ نِكَاحُهَا مِنْهُ ، وَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ ؛ وَقَوْلُهُ صَلَوَاتُ ٱللهِ عَلَيْهِ : « أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ ؟ » فَحَدِيقَتُهُ : بُسْتَانُهُ ، وَقَدْ كَانَ أَصْدَقَهَا حَدِيقَةَ نَخْلٍ ، وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ خُلْعٍ وَقَعَ فِي ٱلإِسْلَامِ .

* * *

## ٱلْعِدَّةُ :

١٦٤٩ ـ وَكَانَتِ ٱلْمَرْأَةُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ إِذَا مَاتَ زَوْجُهَا تَعْمِدُ إِلَىٰ أَخْشَنِ ثِيَابِهَا فَتَلْبَسُهُ وَتَقْعُدُ فِي ٱلْبَيْتِ سَنَةً ، فَإِذَا كَانَ رَأْسُ ٱلْحَوْلِ خَرَجَتْ وَرَمَتْ بِبَعْرَةٍ عَلَىٰ حِمَارٍ ، وَقَالَتْ : قَدْ حَلَلْتُ ٱلآنَ ؛ ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٤٠] .

يَقُولُ سُبْحَانَهُ : إِنَّهُ يَجِبُ عَلَىٰ ٱلَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ أَنْ يُوصُوا قَبْلَ أَنْ يَحْتَضِرُوا لِزَوْجَاتِهِمْ بِأَنْ يُمَتَّعْنَ بَعْدَهُمْ حَوْلًا بِٱلسُّكْنَىٰ وَٱلنَّفَقَةِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي صَدْرِ ٱلإِسْلَامِ ، ثُمَّ نُسِخَتِ ٱلْمُدَّةُ بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ .

* * *

١٦٥٠ ـ وَقَالَتْ أُمُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ أُمُّ سَلَمَةَ : جَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللهِ ﷺ ،

فقَالَتْ : إِنَّ ٱبْنَتِي تُوُفِّي عَنْهَا زَوْجُهَا ، وَقَدِ ٱشْتَكَتْ عَيْنُهَا ، أَفتكْحُلُهَا ؟ فقَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « لا » ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ : « لا »[١] ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ ٱللهِ : « إِنَّمَا هِي أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِٱلْبَعَرَةِ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلْحَوْلِ » ، قَالَ رَاوِي ٱلْحَدِيثِ : فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ ـ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ ـ : وَمَا تَرْمِي بِٱلْبَعَرَةِ عَلَىٰ رَأْسِ ٱلْحَوْلِ[٢] ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ : كَانَتْ ٱلْمَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا دَخَلَتْ حِفْشاً[٣] وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا وَلَمْ تَمَسَّ طِيباً ، حَتَّىٰ تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ ، ثُمَّ تُؤْتَىٰ بِدَابَّةٍ ، حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ ، فَتَفْتَضُّ بِهِ[٤] ، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ ، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَىٰ بَعْرَةً فَتَرْمِي بِهَا ، ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِن طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ [البخاري ، رقم : ٥٣٣٧ ؛ مسلم ، رقم : ١٤٨٨ و١٤٨٩] .

* * *

١٦٥١ ـ وَأَمَّا عِدَّةُ ٱلْمُطَلَّقَةِ فَثَلاثَةُ قُرُوءٍ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٢٨] [٥] وَٱلْقَرْءُ : ٱلطُّهْرُ عِنْدَ

---

(١) جَاءَ فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ فِي « ٱلْمُوَطَّأ » [ رقم : ١٢٧٠ ] وَغَيْرِهِ : « ٱجْعَلِيهِ بِٱللَّيْلِ وَٱمْسَحِيهِ بِٱلنَّهَارِ » .

(٢) أَيْ : بَيِّنْ لِي ٱلْمُرَادَ بِهَذَا ٱلْكَلامِ ٱلَّذِي خُوطِبَتْ بِهِ ٱلْمَرْأَةُ .

(٣) « ٱلْحِفْشُ » فِي ٱلأَصْلِ : ٱلْخُصُّ ، ٱسْتُعِيرَ إِلَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلذَّلِيلِ ٱلشَّعِثِ ٱلْبِنَاءِ .

(٤) قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : سَأَلْتُ ٱلْحِجَازِيِّينَ عَنِ ٱلافْتِضَاضِ ، فَذَكَرُوا أَنَّ ٱلْمُعْتَدَّةَ كَانَتْ لا تَمَسُّ مَاءً ، وَلا تُقَلِّمُ ظِفْراً ، وَلا تُزِيلُ شَعْراً ، ثُمَّ تَخْرُجُ بَعْدَ ٱلْحَوْلِ بِأَقْبَحِ مَنْظَرٍ ، ثُمَّ تَفْتَضُّ ، أَيْ : تَكْسِرُ مَا هِيَ فِيهِ مِنَ ٱلْعِدَّةِ بِطَائِرٍ تَمْسَحُ بِهِ فَرْجَهَا وَتَنْبُذُهُ ، فَلا يَكَادُ يَعِيشُ بَعْدَ مَا تَفْتَضُّ بِهِ .

(٥) قَالَ ٱلأَصْمَعِيَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ﴿ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآية : ٢٢٨] : جَاءَ هَذَا عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاسٍ ، وَٱلْقِيَاسُ : ثَلاثَةُ أَقْرُءٍ ، وَلا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : ثَلاثَةُ فُلُوسٍ ، وَإِنَّمَا يُقَالُ : ثَلاثَةُ أَفْلُسٍ ، فَإِذَا كَثُرَتْ فَهِيَ ٱلْفُلُوسُ . وَلا يُقَالُ : ثَلاثَةُ رِجَالٍ ، إِنَّمَا هِي ثَلاثَةُ رَجْلَةٍ ، وَلا يُقَالُ : ثَلاثَةُ كِلابٍ ، إِنَّمَا هِي ثَلاثَةُ أَكْلُبٍ ، وَٱلنَّحْوِيُّونَ قَالُوا فِي مِثْلِ هَذَا : إِنَّ ٱلتَّقْدِيرَ ثَلاثَةُ أَقْرَاءٍ ، مِنْ قُرُوءٍ ، وَخَمْسَةٌ مِنَ ٱلْفُلُوسِ ، وَهَلُمَّ جَرًّا .

ٱلشَّافِعِي رَضِيَ ٱللهُ عَنْهُ ، وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ : ٱلْحَيْضُ ؛ قَالَ ٱلشَّافِعِيُّ : ٱلْقَرْءُ : ٱسْمٌ لِلْوَقْتِ ، فَلَمَّا كَانَ ٱلْحَيْضُ يَجِيءُ لِوَقْتٍ وَٱلطُّهْرُ يَجِيءُ لِوَقْتٍ جَازَ أَنْ يَكُونُ ٱلأَقْرَاءُ حَيْضاً وَأَطْهَاراً ؛ قَالَ : وَدَلَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ ٱللهِ أَنَّ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٢٨] ٱلأَطْهَارَ ، وَذَلِكَ أَنَّ ٱبْنَ عُمَرَ لَمَّا طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ ، فَٱسْتَفْتَىٰ عُمَرُ ٱلنَّبِيَّ فِيمَا فَعَلَ ، فَقَالَ : « مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا ، فَإِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْهَا » ، إِلَى آخِرِ ٱلْحَدِيثِ [البخاري ، رقم : ٥٢٥٢ ؛ مسلم ، رقم : ١٠١٥] وَقَدْ سَلَفَ [راجع رقم: ١٦٤٣] ، وَصَحَّ عَنْ عَائِشَةَ وَٱبْنِ عُمَرَ أَنَّهُمَا قَالَا : ٱلأَقْرَاءُ : ٱلأَطْهَارُ ، وَحَقَّقَ هَذَا ٱللَّفْظَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلأَعْشَىٰ [من الطويل] :

مُـوَرِّثَـةً مَـالًا وَفِـي ٱلْحَـيِّ رِفْعَـةً ... لِمَـا ضَاعَ فِيهَـا مِـنْ قُـرُوءِ نِسَـائِكَـا

فَٱلْقُرُوءُ هُنَا : ٱلأَطْهَارُ لا ٱلْحَيْضُ ، لأَنَّ ٱلنِّسَاءَ إِنَّمَا يُؤْتَيْنَ فِي أَطْهَارِهِنَّ لا فِي حَيْضِهِنَّ ، فَإِنَّمَا ضَاعَ بِغَيْبَتِهِ عَنْهُنَّ أَطْهَارُهُنَّ .

هَذَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [٦٥ سورة الطلاق/ الآية : ٤] فِي ٱلْمُطَلَّقَةِ وَٱلْمُتَوَفَّىٰ عَنْهَا جَمِيعاً .

* * *

## ٱلظِّهَارُ وَٱلإِيلَاءُ :

١٦٥٢ ـ ٱلظِّهَارُ : أَنْ يَقُولَ ٱلرَّجُلُ لِامْرَأَتِهِ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي[1] ؛

(١) قَالَ ٱبْنُ ٱلأَثِيرِ : قِيلَ : أَرَادُوا أَنْتِ عَلَيَّ كَبَطْنِ أُمِّي ، أَيْ : كَجِمَاعِهَا ، فَكَنَّوْا بِٱلظَّهْرِ عَنِ ٱلْبَطْنِ لِلْمُجَاوَرَةِ ، وَقِيلَ : إِنَّ إِتْيَانَ ٱلْمَرْأَةِ وَظَهْرُهَا إِلَىٰ ٱلسَّمَاءِ كَانَ حَرَاماً عِنْدَهُمْ ، وَكَانَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَقُولُونَ : إِذَا أُتِيَتِ ٱلْمَرْأَةُ وَوَجْهُهَا إِلَىٰ ٱلأَرْضِ جَاءَ ٱلْوَلَدُ أَحْوَلَ ، فَلِقَصْدِ ٱلرَّجُلِ ٱلْمُطَلِّقِ مِنْهُمْ إِلَىٰ ٱلتَّغْلِيظِ فِي تَحْرِيمِ ٱمْرَأَتِهِ عَلَيْهِ شَبَّهَهَا بِٱلظَّهْرِ ، ثُمَّ لَمْ يَقْنَعْ بِذَلِكَ حَتَّىٰ جَعَلَهَا =

وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تُطَلِّقَ نِسَاءَهَا بِهَذِهِ ٱلْكَلِمَةِ ، وَكَانَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ طَلاقاً ، فَلَمَّا جَاءَ ٱلإِسْلامُ نُهُوا عَنْهُ وَأُوْجِبَتِ ٱلْكَفَّارَةُ عَلَىٰ مَنْ ظَاهَرَ مِنِ ٱمْرَأَتِهِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ ظَاهَرَ فِي ٱلإِسْلامِ أَوْسُ بْنُ ٱلصَّامِتِ أَخُو عَبَادَةُ بْنُ ٱلصَّامِتِ ، وَكَانَ تَحْتَهُ ٱبْنَةُ عَمٍّ لَهُ تُسَمَّىٰ : خَوْلَةَ ، رَآهَا وَهِيَ تُصَلِّي ، وَكَانَتْ حَسَنَةَ ٱلْجِسْمِ ، فَلَمَّا سَلَّمَتْ رَاوَدَهَا ، فَأَبَتْ ، فَغَضِبَ ، وَكَانَ بِهِ خِفَّةٌ ، فَظَاهَرَ مِنْهَا ، أَيْ : قَالَ لَهَا : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ؛ فَأَتَتْ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ ، فَقَالَتْ : إِنَّ أَوْساً تَزَوَّجَنِي وَأَنَا شَابَّةٌ مَرْغُوبٌ فِيَّ ، فَلَمَّا خَلا سِنِّي وَنَثَرْتُ بَطْنِي ـ أَيْ : كَثُرَ وَلَدِي ـ جَعَلَنِي عَلَيْهِ كَأُمِّهِ ، وَإِنَّ لِي صِبْيَةً صِغَاراً ، إِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا ، وَإِنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيَّ جَاعُوا ؛ فَقَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ : « مَا أُمِرْنَا فِي أَمْرِكِ بِشَيْءٍ » ؛ وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهَا : « حُرِّمْتِ عَلَيْهِ » ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ ٱللهِ ! مَا ذَكَرَ طَلاقاً ، وَإِنَّمَا هُوَ أَبُو وَلَدِي وَأَحَبُّ ٱلنَّاسِ إِلَيَّ ؛ فَقَالَ : « حُرِّمْتِ عَلَيْهِ » ، فَقَالَتْ : أَشْكُو إِلَىٰ ٱللهِ فَاقَتِي وَوَجْدِي ؛ فَأَنْزَلَ ٱللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ﴾ [٥٨ سورة المجادلة/ الآيات : ١ ـ ٤] فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ ٱلآيَةُ ٱلْكَرِيمَةُ ، قَالَ

---

= لِظَهْرِ أُمِّهِ ، وَقَالَ فِي « ٱللِّسَانِ » : ٱلظِّهَارُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلظَّهْرِ ، وَإِنَّمَا خَصُّوا ٱلظَّهْرَ دُونَ ٱلْبَطْنِ وَٱلْفَخِذِ وَٱلْفَرْجِ ـ وَهَذِهِ أَوْلَىٰ بِٱلتَّحْرِيمِ ـ لأَنَّ ٱلظَّهْرَ مَوْضِعُ ٱلرُّكُوبِ ، وَٱلْمَرْأَةُ مَرْكُوبَةٌ إِذَا غُشِيَتْ ، فَكَأَنَّهُ إِذَا قَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي ، أَرَادَ : رُكُوبُكِ لِلنِّكَاحِ حَرَامٌ عَلَيَّ كَرُكُوبِ أُمِّي لِلنِّكَاحِ ، لأَنَّ ٱلنَّاكِحَ رَاكِبٌ ، وَهَذَا مِنْ لَطِيفِ ٱلاسْتِعَارَاتِ لِلْكِنَايَةِ .

سَيِّدُنَا رَسُولُ ٱللهِ لِلْمَرْأَةِ : « ٱدْعِي زَوْجَكِ » ، فَدَعَتْهُ ، فَقَالَ : « هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تَعْتِقُهَا ؟ » فَقَالَ : لا أَمْلِكُ رَقَبَةً غَيْرَ هَذِهِ ! وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَىٰ عُنُقِهِ ، فَقَالَ : « هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ؟ » فَقَالَ : إِذَا لَمْ آكُلْ فِي ٱلْيَوْمِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ غُشِيَ عَلَيَّ ! فَقَالَ : « أَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً » ، فَقَالَ : وَٱلَّذِي بَعَثَكَ بِٱلْحَقِّ ، لَقَدْ بِتْنَا لَيْلَتَنَا أَوْحَاشاً ـ جِيَاعاً ـ مَا لَنَا طَعَامٌ ؛ فَدَفَعَ إِلَيْهِ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعاً ، فَقَالَ : مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا أَحْوَجَ إِلَيْهِ مِنِّي[1] ! فَقَالَ : « كُلْهُ أَنْتَ وَعِيَالُكَ » . [راجع أبو داود ، رقم : ١٢١٤ ؛ « مسند أحمد » رقم : ٢٦٧٧٤] .

* * *

١٦٥٣ ـ أَمَّا ٱلإِيلاءُ ، فَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/ الآيتان : ٢٢٦ و٢٢٧] وَٱلإِيلاءُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ أَنْ يَقُولَ : وَٱللهِ ، لا أَقْرَبُكِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَصَاعِداً ، أَوْ لا أَقْرَبُكِ عَلَىٰ ٱلإِطْلاقِ ، وَلا يَكُونُ فِيمَا دُونَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ـ إِلَّا مَا يُحْكَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلنَّخَعِيِّ ، وَحُكْمُ ذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا فَاءَ ـ رَجَعَ ـ إِلَيْهَا في ٱلْمُدَّةِ بِٱلْوَطْءِ إِنْ أَمْكَنَهُ أَوْ بِٱلْقَوْلِ إِنْ عَجَزَ ، صَحَّ ٱلْفَيْءُ ، وَحَنَثَ ٱلْقَادِرُ ، وَلَزِمَتْهُ كَفَّارَةُ ٱلْيَمِينِ ، وَلا كَفَّارَةَ عَلَىٰ ٱلْعَاجِزِ ، وَإِنْ مَضَتِ ٱلأَرْبَعَةُ بَانَتْ بِتَطْلِيقَةٍ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَعِنْدَ ٱلشَّافِعِي لا يَصِحُّ ٱلإِيلاءُ إِلَّا فِي أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يُوقَفُ ٱلْمُولِي ، فَإِمَّا أَنْ يَفِيءَ وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ ، وَإِنْ أَبَىٰ طَلَّقَ عَلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ (ٱنْظُرْ كُتُبَ ٱلْفِقْهِ) .

* * *

---

(١) مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا ، أَيْ : لابَتَيْ ٱلْمَدِينَةِ ، وَهُمَا حَرَّتَانِ تَكْتَنِفَانِ بِهَا ، واللاّبَةُ حِجَارَةٌ سُودٌ .

## عَبْقَرِيَّةُ ٱلإِسْلامِ فِي ٱلطَّلاقِ :

١٦٥٤ ـ مِمّا لا رَيْبَ فِيهِ، وَلا يَجْمُلُ بِنَظَّارٍ أَرِيبٍ مُنْصِفٍ أَنْ يُسَاوِرَهُ ٱلشَّكُّ فِي صِدْقِهِ وَسَدَادِهِ ، أَنَّ نِظَامَ ٱلإِسْلامِ في ٱلطَّلاقِ هُوَ خَيْرُ نِظَامٍ ، فَلا هُوَ بِٱلْمُغْلَقِ ٱلْمَحْظُورِ حَتَّىٰ يَكُونَ أَحَدُ ٱلزَّوْجَيْنِ شَجاً في حَلْقِ صَاحِبِهِ وَغُلًّا فِي عُنُقِهِ ، وَلا هُوَ بِٱلسَّهْلِ ٱلْهَيِّنِ ، فَيَتَّخِذُهُ مَنْ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي ٱلذِّمَامِ وَٱلرِّعَايَةِ مَرْتَعاً خَصِيباً يَنْتَقِلُونَ فِيهِ كَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ ، ذَلِكَ أَنَّ دُسْتُورَ ٱلإِسْلامِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلزَّوْجِيَّةِ هُوَ ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٢٩] فَإِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَعْرُوفٍ ، وَنَشَبَ ٱلشِّقَاقُ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ ، وَسَاءَتِ ٱلْعِشْرَةُ ، وَدَبَّتْ عَقَارِبُ ٱلنُّفْرَةِ ، وَٱتَّسَعَ ٱلْخَرْقُ عَلَىٰ ٱلرَّاقِعِ ، فَمَا خَيْرُ تِلْكَ ٱلْحَيَاةِ ، وَمَا فَضْلُ ٱلْبَقَاءِ عَلَيْهَا !؟ وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلزَّوَاجَ دَاعِيَةَ ٱلْوُدِّ وَٱلرَّحْمَةِ وَٱلسَّعَادَةِ ، لا ٱلتَّعْسِ وَٱلْبُؤْسِ وَٱلشَّقَاءِ ، وَمِنْ هُنَا أُبِيحَ ٱلطَّلاقُ .

وَلَقَدْ يَكُونُ ٱلطَّلاقُ مِنْ حَقِّ ٱلْمَرْأَةِ إِذَا ٱشْتَرَطَتْهُ فِي عَقْدِ زَوْجِهَا ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ تَفْعَلْ فَهُوَ حَقُّ ٱلرَّجُلِ وَحْدَهُ ، وَإِنَّما كَانَ ذَلِكَ لأَنَّ ٱلرَّجُلَ فِي ٱلأَعَمِّ ٱلأَغْلَبِ يَمْلِكُ مِنَ ٱلأَنَاةِ وَٱلْحِلْمِ وَكَظْمِ ٱلْغَيْظِ مَا لا تَمْلِكُ ٱلْمَرْأَةُ . . . عَلَىٰ أَنَّ ٱلإِسْلامَ ضَيَّقَ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ مَذَاهِبَهُ في هَذَا ٱلْحَقِّ بِهَذِهِ ٱلْوَسَائِلِ :

(١) حَضُّهُ ٱلرَّجُلَ عَلَىٰ مُحَاسَنَةِ ٱلزَّوْجَةِ ، وَٱلصَّبْرِ عَلَىٰ نَزَوَاتِهَا ، وَحَسْبُكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ١٩] وَقَدْ أَوْرَدْنَا عَلَيْكَ فِي [ ٱلْبَابِ ٱلثَّالِثِ ] بَابِ ٱلْحَضِّ عَلَىٰ ٱلْوَصَاةِ بِٱلنِّسَاءِ مَا فِيهِ غَنَاءٌ .

(٢) نَعْيُهُ ٱلطَّلاقَ عَلَىٰ ٱلْمُطَلِّقِينَ ، وَقَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ سَيِّدِنَا رَسُولِ ٱللهِ ﷺ « إِنَّ أَبْغَضَ ٱلْحَلالِ إِلَىٰ ٱللهِ ٱلطَّلاقُ »[1] [أبو داود ، رقم : ٢١٧٨ ؛ ابن ماجه ، رقم : ٢٠١٨] .

(٣) تَحْكِيمُهُ في ٱلْخُصُومَةِ بَيْنَ ٱلزَّوْجَيْنِ إِذَا بَدَأَ ٱلشِّقَاقُ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱللهُ جَلَّ وَعَلا : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٥] .

(٤) جَعَلَ ٱللهُ لِلْمَرْأَةِ بَعْدَ ٱلطَّلاقِ عِدَّةً تَعْتَدُّهَا فِي بَيْتِهِ ، وَهِيَ وَفَاءُ ٱلْحَمْلِ لِلْحَامِلِ حَتَّىٰ تَضَعَ ، وَثَلاثَةُ أَشْهُرٍ لِمَنْ سِوَاهَا ، وَبَيْنَ أَثْنَاءِ تِلْكَ ٱلْمُدَّةِ يُرَاجِعُ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ وَتَفِيءُ ٱلْمَرْأَةُ إِلَىٰ عَقْلِهَا ، فَإِنْ نَزَعَا إِلَىٰ عَهْدِهِمَا ٱلْقَدِيمِ في هَذَا ٱلْعَهْدِ ٱلْقَصِيرِ رَاجَعَ ٱلرَّجُلُ زَوْجَتَهُ . وَكَانَ ذَلِكَ خَيْراً وَأَبْقَىٰ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱللهُ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ

---

(١) قَالَ فِي « رَحْمَةِ ٱلأُمَّةِ » : إِنَّ ٱلطَّلاقَ مَعَ ٱسْتِقَامَةِ حَالِ ٱلزَّوْجَيْنِ مَكْرُوهٌ بِالاتِّفَاقِ ؛ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ بِتَحْرِيمِهِ ، وَقَالَ ٱلْغَزَالِيُّ في « ٱلإِحْيَاءِ » : وَلْيُعْلَمْ أَنَّ ٱلطَّلاقَ مُبَاحٌ ، وَلَكِنَّهُ أَبْغَضُ ٱلْمُبَاحَاتِ إِلَىٰ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مُبَاحاً إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِيذَاءٌ بِٱلْبَاطِلِ ، وَمَهْمَا طَلَّقَهَا فَقَدْ آذَاهَا ، وَلا يُبَاحُ إِيذَاءُ ٱلْغَيْرِ [ إِلَّا ] بِجِنَايَةٍ مِنْ جَانِبِهَا أَوْ بِضَرُورَةٍ مِنْ جَانِبِهِ ، قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [٤ سورة النساء/ الآية : ٣٤] أَيْ : لا تَطْلُبُوا حِيلَةً لِلْفِرَاقِ .

وَقَالَ صَاحِبُ « فَتْحِ ٱلْقَدِيرِ » : وَأَمَّا سَبَبُهُ ، فَٱلْحَاجَةُ إِلَىٰ ٱلْخَلاصِ عِنْدَ تَبَايُنِ ٱلأَخْلاقِ وَعُرُوضِ ٱلْبَغْضَاءِ ٱلْمُوجِبَةِ عَدَمَ إِقَامَةِ حُدُودِ ٱللهِ . . . إِلَىٰ أَنْ قَالَ : غَيْرَ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ لا تَقْتَصِرُ عَلَىٰ ٱلْكِبَرِ وَٱلرِّيبَةِ ، فَمِنَ ٱلْحَاجَةِ ٱلْمُبِيحَةِ أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ عَدَمُ ٱشْتِهَائِهَا ، بِحَيْثُ يَعْجَزُ أَوْ يَتَضَرَّرُ بِإِكْرَاهِهِ نَفْسِهِ عَلَىٰ جِمَاعِهَا ، وَأَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنْ حَاجَةٌ فَمَحْضُ كُفْرَانِ نِعْمَةٍ وَسُوءِ أَدَبٍ ، فَيُكْرَهُ .

ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [٦٥ سورة الطلاق/الآية : ١] أَمَّا ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي لَعَلَ ٱللهَ يُحْدِثُهُ ، فَمُعَاوَدَةُ ٱلرَّأْيِ ، وَمُرَاجَعَةُ ٱلنَّفْسِ بَعْدَ رِيَاضَتِهَا ، وَرَدُّ جِمَاحِهَا ، وَإِسْلاسِ قِيَادِهَا بَعْدَ ذَلِكَ ٱلْهَجْرِ ٱلْقَصِيرِ ٱلأَمَدِ . . . فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتِ ٱلْعِدَّةَ فَلَهُ أَنْ يُعِيدَهَا إِلَىٰ فَيْئِهِ أَوْ أَن يَبتَّ فِي فِرَاقِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَىٰ ٱلتَّوْفِيقِ سَبِيلٌ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۢ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍۢ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ [٦٥ سورة الطلاق/الآية : ٢] وَلِلرَّجُلِ أَنْ يُعَاوِدَ زَوْجَتَهُ بَعْدَ أَنْ يُطَلِّقَهَا مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ عَادَ إِلَىٰ ٱلثَّالِثَةِ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ ، تَأْدِيباً لَهُ وَإِذْلالًا لِنَفْسِهِ ، وَقَدْ أَمَرَ ٱللهُ ٱلرِّجَالَ بِمُجَامَلَةِ زَوْجَاتِهِمْ وَٱلرِّفْقِ بِهِنَّ وَبَذْلِ كُلِّ مَا يَسْتَطِيعُونَ بَذْلَهُ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِنَّ ، فِي أَيَّامِ عِدَّتِهِنَّ ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ : ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [٦٥ سورة الطلاق/ الآيتان : ٦ و٧] .

ثُمَّ لَقَدْ فَرَضَ ٱللهُ عَلَىٰ ٱلرَّجُلِ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهَا بَقِيَّةَ مَا سَمَّاهُ مِنْ مَهْرِهَا حِينَ طَلاقِهَا ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَرِدَّ شَيْئاً مِمَّا ٱجْتَلَبَ لَهَا كَائِناً مَا كَانَ ذَلِكَ ٱلْمُجْتَلَبُ ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ٱللهُ جَلَّتْ آيَاتُهُ : ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا

وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [٤ سورة النساء/ الآيتان : ٢٠ و٢١] [١] .

أفبَعْدَ هَذَا يُنْعىٰ عَلَىٰ ٱلإسْلامِ نِظَامُهُ فِي ٱلطَّلاقِ [٢] ؟

* * *

---

(١) مُلَخَّصٌ مِنْ كِتَابِ « ٱلْمَرْأَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ » .

(٢) أَمَّا ٱلأُورُبِيُّونَ ، فَقَدْ قَالَ ٱلْمَرْحُومُ مُحَمَّدُ حَافِظ صَبْرِي في كِتَابِهِ ٱلْقَيِّمِ : « ٱلْمُقَارَنَاتُ وَٱلْمُقَابَلاتُ » : إِنَّ لَهَا أَحْكاماً مُخْتَلِفَةً فِي جَوَازِ ٱلطَّلاقِ وَعَدَمِهِ ، تَتَغَيَّرُ تَبعاً لِلظُّرُوفِ وَٱلأَحْوَالِ ، فَمِنْ هَذِهِ ٱلأُمَمِ مَنْ لا يُجِيزُهُ إِلَّا بِعِلَّةِ ٱلزِّنَا وَٱلْعُقْمِ وَٱلْمَرَضِ ٱلْمُزْمِنِ ٱلْمَانِعِ مِنَ ٱلتَّمَتُّعِ بِٱلْمَرْأَةِ ، وَمِنْهَا مَنْ تُجِيزُهُ لِعَدَمِ ٱسْتِقَامَةِ حَالِ ٱلزَّوْجَيْنِ ، وَمِنْهَا مَنْ تُجِيزُهُ بِٱلتَّرَاضِي وَلَوْ لِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَمِنْهَا مَنْ تَقْبَلُ ٱلْفِرْقَةَ مَعَ بَقَاءِ ٱلزَّوْجِيَّةِ وَتَحْرِيمِ ٱلزَّوَاجِ عَلَىٰ ٱلْفَرِيقَيْنِ مَا دَامَ أَحَدُهُمَا عَلَىٰ قَيْدِ ٱلْحَيَاةِ . « ٱنْظُرِ ٱلتَّفْصِيلَ في هَذَا ٱلْكِتَابِ » .

# الفهرس

الموضوع الصفحة

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة